الجـــزء الاول

من البحر الزاخر فى تاريخ العالم واخبار الاوائل والاواخر

تأليف

الهمام البارع والعالم النافع المرحوم محمود فهمى المهندس
المتوفى بجزيرة سيلان فى شهر ذى الحجة سنة ١٣١١ هجرية على صاحبها
أفضل الصلاة والسلام

(الطبعة الاولى)
بالمطبعـــة الاميريه ببولاق مصر المحميه
ســــنة ١٣١٢
هجريه



(المغفور له محمود فهمى مؤلف هذا الكتاب)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذى قص أحسن القصص المبين على رسوله النبى الهادى الامين الذى لا أول لوجوده ولا آخر لجوده القادر الذى لا تدرك العقول كنه ذاته المقدس فى ذاته وصفاته المنزه عن التغيير والتبديل الذى لا يخجوسواه من التحويل المتصرف فى خلقه بالرفع والخفض والمنفرد بالبسط والقبض والنقض والابرام والاعطاء والاحرام والاماتة والاحياء والايجاد والافناء رفع المسالك للسالك وأقام الدول والممالك يؤتى الملك من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الثواب والعقاب واليه المرجع والمآب مبيد القرون السالفة والامم الخالفة ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين وأصلى وأسلم على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين المبعوث الى كافة الخلق أجمعين صلى الله عليه وعلى آله الهادين الراشدين وصحابته ومن حذا حذوهم من التابعين صلاة وسلاما متلازمين الى يوم الدين ﴿ وبعد ﴾ فيقول المفتقر الى رحمة ربه المنان محمود فهمى المهندس القاطن بجزيرة سيلان انى لم أزل مولعا بحب مطالعة التاريخ الحديث والقديم ومكبا على مطالعة ومعرفة الحوادث والوقائع التى حصلت فى العصر القديم الخالى والعصر المتوسط والعصر الكريم الحالى وما حصل فى ممالك العالم من النهوض والقيام ثم الاضمحلال والخفاء تحت شوامخ الآكام ومعرفة الديانات المختلفة والعقائد العديدة فجمعت هذا الكتاب الذى جاء كالدرة الفريدة جامعا على وجه الاختصار وصغته من اللغات الاجنبية فى قوالب لغة أهل الابرار وهو يشمل جميع تواريخ ممالك الكرة الارضية كبيرة كانت أو صغيرة السعة النسبية ذاكرا فى كل مملكة من الممالك مواقعها الجغرافية وحدودها ومساحتها الارضية ومبدأ منشئها وعقائدها الديانية وما حصل فيها من الوقائع الحربية والارتباكات والقلاقل الثورية وكيف بذلت كل مملكة أو أمة نفسها فى عتق رقابهم حتى انتصبوا أو هلكوا فى مدة أحقابهم فجاء كتابا جامعا فى بابه نافعا لطلابه وسميته ﴿ البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الاوائل والاواخر ﴾ وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يتم المقصود ويرحمنا من فضله حسبما وعدنا بوعده الموعود انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير وأشرع الآن فى المقصود فأقول مستعينا بربنا المعبود

﴿ مقدمة الكتاب ﴾

ينقسم التاريخ الى قسمين أصليين الاول منهما تاريخ أثرى وهو ما جاءت به الكتب المقدسة السماوية كالتوراة والانجيل والفرقان والثانى تاريخ بشرى وهو ما ألفه الناس فى حكاياتهم ومنشأ الامم والممالك وقيامها وتقدمها واضمحلالها وسقوطها وحكوماتها واجتماعها وتفرقها ودمارها وخرابها اذ من المعلوم أن كل شئ موجود تحت الاشعة الشمسية والاجرام الفلكية السماوية عرضة لتغييرات لانهائية وأن نهاية كل أمة أو مملكة وعاقبتها هى مثل نهاية الجنس الانسانى وعاقبته لان كل أمة لها سعادة فى حالة شبابها مادامت قواها متلبسة بها ومتى طعنت فى السن قليلا و بلغت مبلغ الكهولة قل عنها عظمها وسعادتها وما كانت عليه من الفوز والتوفيق الداخلى ومتى وصلت الى سن العجز والشيخوخة اضمحلت قواها وعجزت نواياها وحصل فيها شيآن أصليان وهما اما انقراضها بالكلية أو اذعانها لامة أقوى منها فى الجسمية والسلطة والسيادة الانسانية ففى المدة الاولى تكون هيئة الاعمال التاريخية والوقائع الحربية هى المقصد الاصلى من التسجيلات والتدوينات التاريخية وفى المدة الثانية تحصر المملكة فى تشريع القوانين والاختراعات والادراكات العقلية فى الفنون والآداب وفى المدة الثالثة تقع المشاحنات والمخاصمات المختصة بالهيئة الاجتماعية والالفة البشرية المحتاجة اليها الطوائف الانسانية وبذا يقع الارتباك والاختلال بشأن حضارة الامة الواحدة والنظر فى انتظام هيئتها وتشييد وانتصاب حكومتها وفى هذه الحالة يعرف الانسان أن أساس سعادة المملكة والامة وعظمها وتقدمها محصور فى صداقة حب الوطن وصداقة بنيته له و بساطته فى المعيشة الدنيوية وأن أساس الدمار والخراب هو التمتع بحب النفس ووقوع النزاع والشقاق وحب الترفه فى المعيشة والاعتكاف على الشهوات وملازمة اللذات

ولما كان أصل منشا الممالك والامم وانتصابها فى حالة الوجود هو قبل اختراع فن الكتابة والقراءة واستعمال هذين الفنين وانه لابد وأن يكون النوع الانسانى أجرى حروبات ومبارزات ومناضلات ورتب نظامات داخلية فى وطنه ومحل مسكنه من غير أن يدونها فى سجلات محفوظة داخل وطنه فتكون نتيجة معرفة التاريخ الاكثر قدما فى الاعصر الخالية مأخوذة من أعمال ليست مرتبطة كل الارتباط مع بعضها بدرجة كمال يعول عليها وأن أخبار الامة الواحدة القديمة مأخوذة امامن أشعار أو من مغان وطنية واما مما ينقله أهل الامة من رواياتهم الشفاهية ويضيفون اليها روايات خرافية وأقوال حشوية وتصورات غير عقلية واما أن توجد هذه الاعمال منقوشة على أضرحة وأحجار منحوتة أوترا كيب قبور وشواهد ترب أو على آثار مبان قديمة أو تكون منقوشة على نقود أو عدد أو آلات حربية أو غير ذلك

وعلى هذا فيجب مراعاة التسجيلات التاريخية القديمة جدا المطرزة بتخيلات وهمية ومزينة بزخارف عظيمة بأنها أعمال وهمية وتخيلات خرافية مهما كان علو مقدارها فى السجعات الشعرية التى ظهر وجودها فى أيام عصر الشجاعة والحماسة اليونانية والفصاحة والبلاغة العربية وانها لاشئ فى جانب التاريخ الوصفى لاعمال بنى الانسان وانه لاتعويل على التاريخ الا اذا كان المؤلفون له اما معاصرين

للوقائع التى حصلت به والحوادث التى جرت فيه واما أن لا يكونوا بعيدين عنها بعدا زائدا حتى يمكننا التعويل على نتائج أبحاثهم وأعمال تجاريبهم التى دونوها ومن تقدم الحضارة والمدنية عرفت الحوادث والوقائع التاريخية الخالية عن الخرافات بواسطة وجود التسجيلات السنوية المدونة بواسطة الكتابة وصار التعويل عليها سهلا وبها عرفت الاختلافات الحاصلة فى العالم مع الدقة والضبط الكافى ويطلق على ترتيب وتنظيم الحوادث التاريخية والوقائع الحربية حسب تواريخ حصولها من غير اتصالها بشئ باطنى اسم (تاريخ) وأما معرفة الممالك والاراضى والامم اللازم معرفتها لسهولة فهم مطالعة التاريخ فانه يمكن تيسر الحصول على معرفتها بطريق دراسة علم الجغرافيا وأما البلدان والمدائن والمحلات الصغيرة فانه يمكن تيسر الحصول على معرفة محلاتها بطريق دراسة علم الطبوغرافيه وأما تواريخ مدة الوجود والحصول فانه محصور فى علم تاريخ المدد والقرون ومع هذا فان حساب الاعصر والقرون مختلف باختلاف الامم وذلك أن تاريخ الامم المسيحية جار من ابتداء مولد المسيح عيسى عليه السلام وتاريخ اليهود من ابتداء خلق الدنيا وتاريخ الوثنيين من ابتداء موت جوتما بودها والتاريخ الاسلامى من ابتداء هجرة محمد صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة وكان وقوع هذه الحادثة وهى الهجرة فى سنة ٦٢٢ من التاريخ المسيحى وأما طريقة حساب الجريق أو اليونانيين فانها مختلفة باختلاف الاجناس والحكومات

ثم ان تاريخ العالم ينقسم الى ثلاثة أقسام أصلية هى (أولا) ـ الاعصر الخالية والدهور القديمة البالية وتنحصر فى هذه المدة هيآت الحكومة الجمهورية المطلقة وتسلط العبادة الوثنية (ثانيا) ـ الاعصر المتوسطة وتنحصر فيها أحوال السيادة الالتزاميه وشدة تسلط الثلاث طوائف الملوك والوجوه والعوام وقسمة الملة الواحدة الى مدافعين أو محافظين ومعلمين وممهدين داخلا فى ذلك الوجهاء والاشراف والقسس والرهبان والتبعة من أهل المدائن والقرى والفلاحين والسلطة البابا وية النافذة والبدع الدينية وقد تدمرت هذه السلطة البابا وية وكسرت شوكتها النافذة بواسطة الاصلاح الانجيلى الذى حصل فى سنة ١٥١٧ من بعد كشف أمريقه فى سنة ١٤٩٢ ومن انتشار العلوم والفنون حصلت الزيادة فى توسعة حدود سلسلة الادراكات العقلية فى الاعصر المتوسطة (ثالثا) ـ الاعصر الاخيرة وهى التى حصل فيها ارتفاع الطوائف المدنية وشوكة الملوك والسلاطين مع قاعدة أسست وأحكمت على وجود جيوش وعساكر ثابتة الى أن قامت الحروب على قدم بخصوص الغاء هذه الشوكة المطلقة المستبدة وبذلك تأسس وجود الحرية الشخصية وعرفت حقوق الوراثة البشرية وأقيمت منازعات ومجادلات قانونية على هيئة الحكومة الحاضرة حتى وصلت الى درجة عالية اشتهرت فيها الثورة الفرنساوية التى وقعت سنة ١٧٨٩ من التاريخ المسيحى وبذلك انحصرت جميع الاعمال الموجودة فى هذا العصر الاخير فى أربعة أشياء وهى تساوى طوائف أجناس سكان المملكة الواحدة فى المدنية والحقوق التبعية واشتراك الامة فى الاعمال العمومية لها ومعلومات الصفات الوطنية وحصرها فى قانون أو نظام تجرى الحكومة العمل بمقتضاه واقامة طرق الموازنة العدلية بين طوائف الامة الواحدة وصارت هذه الاربعة الاشياء هى الاساس الاصلى فى المملكة الواحدة ويقال ان الاعصر الخالية هى من ابتداء خلق الدنيا الى حد منتصف القرن الخامس من التاريخ المسيحى والعصور أو القرون المتوسطة هى من ابتداء منتصف القرن الخامس

تقريبا الى نحو مبادى القرن السادس عشر من التاريخ المسيحى وأما القرون الاخيرة أى العصور الحديثة فهى من ابتداء مبادى القرن السادس عشر الى الايام الحاضرة وماهوآت

من مقارنة الاختلاف الواقع بين سكان الارض تيسر الحصول على امتياز ثلاثة أجناس أوفروع بشرية تختلف عن بعضها فى الصفات العقلية والشوكة والقريحة الحضرية والصورة الجسمية وفى هيئة الرأس والوجه ولون الجلد ولنذكر هذه الثلاثة الاجناس الاصلية ثم نعقبها بجنسين آخرين ثانويين تابعين لها فى الصفات الانسانية

(أولا) ـ الجنس القوقاسى المشهور بالحرية والسيادة والى هذا الجنس تنسب الامم التى لغاتها باللهجة اللسان الهندى الجرمانى وهم سكان أوروبا (ماعدا الامة اللابية والفنيون) وسكان آسيا الغربية والهنود وسكان أفريقه الشمالية والامم الذين هاجروا من أوروبا الى أمريقه فهؤلاء على حسب قريحتهم الحضرية أو المدنية يشكلون المقصد الاصلى من التاريخ ويمتازون عن غيرهم بتماثل الاعضاء وهيئة الجسم وجمال الوجه الا أنه يوجد فيهم اختلاف كبير فى لون وبياض أجسامهم بالنسبة لسكان أوروبا الشمالية وهذا الاختلاف هو وجود اللون الاسمر ولون الجلد الاسود وسواد الشعر الحالك عند سكان الجنوب والهنود

(ثانيا) ـ الجنس الاسود الافريقى المنقول بطريق تجارة الرقيق الى أمريقه والى نواحى جهات الهند الغربى وفيه اسوداد كثير أو قليل فى الجسم وتجعد فى شعوره المصوفة وعلو فى القفا والناصية

(ثالثا) ـ الجنس المغولى أو المنغولى فى آسيا الشرقية وفى الاقاليم الشمالية القطبية للعالم القديم والجديد وهم المغوليون والهوانيون والهنود القاصية والصينيون واليابانيون والقلمون والفنيون والاسكيموكسيون وغيرهم ولهؤلاء شعور ناعمة سودا وأنوف فطس ضيقة وعيون واسعة الانفصال وناصية مسطوحة وجلود يختلف لونها من الاصفر الى الاسوداد الخفيف ويوجد غير هذه الاجناس الثلاثة المختصة بالتقسيمات القديمة للأرض جنسان آخران ثانويان متوسطان فى الهيئة وهما

(أولا) ـ الجنس الملقى (أوستراليا) ولهم شعور ناعمة سود خفيفة التجعيد وحواجب عيون سود ولون أجسامهم كثير الغبوشة أو قليلها أشبه بكونهم منقولين من الجنس القوقاسى الى الجنس الحبشى أو جنس السودانيين والى هذا الاختلاف ينسب سكان هولنده الجديدة وسكان جزائر البحر المحيط الجنوبى

(ثانيا) ـ الجنس الامريقانى ولون جلود أجسام هذا الجنس نحاسى أسمر ولهم شعور مسبولة خشنة ولم تزل هذه الصفة موجودة لحد الآن فى سكان أمريقه الاصليين وكذا فى المكسيكيين والبيروويين ويرى على هيئتهم أن أصلهم محوّل من الجنس القوقاسى الى الجنس المغولى

ومن أجل أن الامم المختلفة الموجودة على سطح الارض منقسمة الى خمسة أجناس ثلاثة منها أصليان واثنان ثانويان صار الفحص مع الاجتهاد الزائد عن طريقة معرفة عدد اللغات والالسنة المختلفة الموجودة على سطح هذه الارض وظهر من بعد الفحص التام أن عدد اللغات والالسن نحو من ألفى لغة أولسان وكذا علمت طريقة أصل انفصال جموع هذه الاجناس من بعضها واستكشفت حالة

المشابهة المتسلطنة فيها وكيف كانت هذه الاجناس من أصل واحد وكذا علمت حالة أصل الاتحاد والاتصال الموجودة الآن بين الاجناس المذكورة

فينسب الى الجنس القوقاسى مجموع ثلاث لغات هى (أولا) ــ اللسان الهندى الجرمانى وينحصر فى هذا اللسان الهنود والفرس ولغات أوروبا ماعدا اللغة الهنكارية والباشكيشية والفلمنكية والاسطونيانية (ثانيا) ــ مجموع اللغات الساميطيقية أى المنسوبة الى سام بن نوح عليه السلام وتلهج بها الامم الساميطيقية والحبشية وسكان فينيقية القديمة وسكان قرطاجة (ثالثا) ــ لغات شمال أفريقة وتنحصر فيها لغة قدماء المصريين والقبط وغالب لغات قدماء سكان أفريقة الشمالية ومجموع اللغات الاصلية المنتشرة فى آسيا الشرقية الشمالية وفى أوروبا والمنسوبة للقوقاسيين وقبائل المغول هى مجموع اللسان الفَنَيقى التتارى والطورانى ويتكلم بهذه اللغات القبائل الفلمنكية التى لاحصر لعددها ويدخل فى عدادهذه القبائل قبائل الماغيار فى نواحى هنكاريا وسكان اسطونيا وليفونيا وكذا التتار ويدخل فى عدد قبائلها الاتراك العثمانية وسكان قرقيسيا والباشكيريين وكثير من الامم المغولية كالطوبغوزيين وسكان قشتقا وغيرهم من الاجناس

ويوجد فى آسيا الجنوبية الشرقية مجموع اللغات الصينية الهندية المنسوبة للأمم المغولية المتسلطن وجودها فى نواحى الصين وأقصى الهند والتبت وجهات أخرى وأما فى يابونيا وجزائر الارخبيل الشرقى فانه يوجد فيها مجموع اللغات اليابونية وأما اللغات الجارى التكلم بها فى جزائر البحر المحيط الجنوبى فمن المعلوم أنها منسوبة الى مجموع اللغات الملقبة البوليزيانيه

وأما لغات الجنس النحاسى اللون التى صار تقدير عددها الى نحو خمسمائة لسان فهى وان وجد فيها اختلافات كثيرة غير أنه يوجد فيها مشابهة فى أصلها وبهذا يمكن وضعها فى قالب مجموع لسان مشترك عام تحت اسم اللغة أو اللسان الامريقى

وعلى هذا المنوال صار معرفة لغات الاجناس المختلفة الافريقية التى ما أمكن حصرها بما أجرته خواص أوروبا من الاجتهادات الكبيرة وتسجلت الا أنه بالنسبة لعدم معلومية داخل هذه الاراضى التى لايمكن جوبها وكان من اللازم علينا التعويل على ماظهر من نتائج هذه الاستكشافات كثيرا أو قليلا حتى بها نعرف مقدار مايوجد فيها من اللغات القديمة الى أن تيسر لنا الحصول على معرفة ماظهر من دقة الملاحظات والفحوصات التى حصلت فى هذا الزمن الحديث العهد وعلمنا علما تاما من الاستكشافات التى أجراها متأخرو سياح الاوروباويين فى شأن اللغة الوطنية الجارى التكلم بها فى هذه القطعة الارضية التى لم يزل اختلاف اللغات فيها مثل اختلاف تبلبل الالسن فى لغة قدماء البابليونانيين ولقد تيسر الحصول على كشف عدة لغات جار التكلم بها الآن عند أجناس السودانيين القاطنين فى القسم الشرقى من هذه القارة ويطلق على هذه اللغات اسم اللغات الزنجبارية أو الزنزبارية وهى متسلطنة فى جميع أنحاء قطعة أفريقة الجنوبية ونظرا لظرافة النطق بها والاختلاف فى لهجتها أمكن عدها فى سياق متعادل مع اللغات المدنية الحضرية الاوروباوية وأحسن هذه اللغات وأرقها فى المكالمات هو اللسان السواحلى وهذا اللسان منتشر فى طول سواحل البحر من ابتداء ثغر عدن الى جزيرة مداغشقر ثم انه فى الوقت الذى وطن الناس فيه أنفسهم فى الجهات المختلفة

الارض شرعوا يعانى عمل الوسائل المختلفة الخاصة بمعيشتهم الدنيوية مع توطنهم فى محال جهات دوامية فاما الذين سكنوا البوادى والصحارى الموجود فيها جهات المرعى والكلا فانهم اختاروا لنفسهم فى تلك البوادى العيشة الرعوية وأخذوا فى الانتقال والظعن من جهة الى أخرى وصاروا ...ئل وعشائر يجوبون الارض مع خيامهم وأنعامهم وما حوته أيديهم ويستبدلون محل راحتهم بمحل ...حسب الفصول السنوية ووجود محلات المرعى والكلا وأطلق على هؤلاء الامم اسم (القبائل ...حالة النزالة) وانحصرت حالة أشغالهم الدوامية ومعيشتهم الدنيوية فى قنية الانعام والماشية وأما ...ذين قطنوا السواحل البحرية تبعا لموافقتها لهم فانهم انتشروا فيها وكثر عددهم وتيسر لهم الحصول ...الوقت على معرفة الفوائد التى يعود منها النفع على ما هم فيه من التوطن والعمارية وجدوا فى ...ستعمال طرق الملاحة والتجارة ونالوا بذلك الفوز والنجاح والثروة والفلاح وبذلك شرعوا فى تشييد بنيات جميلة ومساكن لانفسهم ظريفة وعمروا المدائن وقطنوها وأما الذين سكنوا السواحل العقيمة فانهم عكفوا فى عيشتهم الغالبة المكتدرة على صيد الاسماك وكذلك وجه سكان السهول والسواد التفاتهم الى الزراعة والوسائل السلمية وأما المتوحشون أهل الفظاعة والخشونة القاطنون فى الجبال فانهم عكفوا أنفسهم على صيد الحيوانات الوحشية ورأوا أن سعادتهم محصورة فى الحروب والمنازعات وشن الغارات نظر الماهم عليه من العتق والاطلاق وشدة البأس وبهذه الحالة صارت حرفة التجارة احدى القواعد المهمة القوية فى ارتقاء الجنس الانسانى الى أقصى درجات المعالى وانتشرت العلاقات التجارية والارتباطات الودية بين الامم المختلفة الجنس وكذا اتخذ سكان السهول المثمرة الذين قطنوها مع موافقة ما فى نواحيها من الانهار والغدران وسائل سهلة فى مد ونشر تجارة عامة داخل البلاد والاقاليم وصدروا للجهات الاخر وافر محصولاتهم ونالوا بدلا منها نتائج الصنائع والحرف والاعمال التجارية الاجنبية

وتولد من الاجتماعات العديدة للتجارة البرية فى آسيا وأفريقه بالنظر لتصدرها للجهات بواسطة قوافل تجارية أهلية وشحن هذه التجارات والبضائع فى أكياس وطرود ونقلها من جهات بعيدة الى جهات أبعد منها وجود الاسباب الموجبة لتشييد المدائن والمراكز التجارية وكذا تولد من مشاق هذه الاسفار وصعوبتها وما هو حاصل فيها من الاخطار بالنسبة لارسالها الى جهات بعيدة مقطعة فى سكك سيرها بصحارى رملية مسكونة فى الغالب بطوائف لصوص همجية الزام كثير من الناس على الاتحاد واتفاق بعضهم مع بعض فيما هم عليه من المشروع العمومى

وكانت الحيوانات الجارى حمل التجارات عليها فى هذه الاسفار الشاقة هى الجمال على الاخص المسماة بسفن الصحارى وصار استخدام سكان البوادى والصحارى المعبورة بهذه القوافل التجارية فى المحافظة عليها وفى ارشادها على سكك العبور ودروب السير ولما كان من الضرورى راحة هذه القوافل التجارية فى أثناء مرورها وقطعها مسافات الطرق فى نواحى بعض جهات مأمونة مثل معابد وهياكل مشهورة جهاتها مرعية بأنها مقدسة ومحترمة مع ما حولها من الجهات والبلاد المأمونة مراعاة لهذه المعابد الديانية فكان يوجد فى يد كل قافلة فى الزمن القديم أوامر مقدسة ديانية مرعية العمل تحت حماية ورعاية الهيئة الديانية وبما أنه يوجد فى سواحل سكان الشواطئ البحرية خيران وأجوان وخلجان داخلة فى الارض وكذا دخلات على هيئة مراسى ومينات فكان هؤلاء يصدرون تجاراتهم

بطريق المياه بحيث يكون سير التجارات قريبا من السواحل على العموم فى الاعصر القديمة وكانوا يبيعون بضائعهم بطريق المبادلة واستمروا على ذلك مددا طويلة يتعاملون فيها بالمبادلات حتى ظهر تقدير قيمة المعادن النفيسة وحصل الاتفاق على ضرب نقود تتعامل بها الامم فى أخذها واعطائها فى التصديرات التجارية والمدخولات والمنقولات البضاعية وكذلك لما كان سكان السواد الاعظم من الارض المشحونة بالاهل والعمارية محتاجين لمساعدة أنفسهم فى أشغالهم اليومية أخذوا فى تأليف الحيوانات الوحشية وتربيتها واستعمالها فى الاشغال الداخلية اليومية وجدّوا فى حفظ عقاراتهم ومساكنهم وغيطان مزارعهم ومواشيهم وأغنامهم وجعلوا لذلك قوانين ونظامات وشرائع مختلفة حسب عوائدهم وطبائعهم وبهذا العمل صارت غراسة الاراضى وفلاحتها هى الباب الاعظم لمعيشة الجنس الانسانى وحياته الدنيوية وكذا وجه سكان المدائن التفاتهم الى التجارة واخترعوا الاختراعات المفيدة للحياة الدنيا وغرسوا بساتين الفنون ورياض العلوم وبهما اكتسب عقل بنى الانسان جميع خواص الاحساسات والافكار والاعمال التدبيرية التى يعود منها النفع على ترفه حياته ودوام لذاته

ومع سريان الوقت ودوران الفلك وتوالى العصور انقسم السكان الموجودون على سطح الارض الى طوائف وملل وقبائل وعشائر متمدّنة وغير متمدّنة حسب استعدادهم وطرق سير أحوالهم وبما هم مستحوذين عليه من القوى العقلية والادراكات الفهمية والعزلة الموقعية فأما الطوائف والامم غير المتمدنة فهم شعائر وشعوب همجية مجموعون تحت ارشاد حاكم واحد قابض فى يديه زمام حياة كل شخص من هذه العشائر أو قبائل رحالة نزالة تحت قيادة وسلطة رئيس واحد يجرى فيهم اجراآته بطريق الابوية وله عليهم حقوق الولاء والقضاء وله عند رعيته هو والمعبود حق الرعاية والاحترام إلا انه لا يوجد محل فى التاريخ لهؤلاء الاجناس الرحالة النزالة مع حكوماتهم الابوية الرئيسية ولا محل للعشائر الهمجية القاطنين فى الصحارى الرملية من أفريقيه وكذا سكان الجهات الجبلية من آسيا ولا محل لسكان الاورمانات والغابات القديمة فى أمريقه بل يشمل التاريخ فى نفسه الاجناس المتمدنة وهؤلاء انقسموا حسب عوائدهم وطبائعهم وقوانينهم وشرائعهم الى ايالات وممالك كبيرة كانت أو صغيرة وامتزج كل قسم من هذه الاقسام ببعضه حتى صار أمة واحدة ممتازة فى نفسها

ثم انقسمت الممالك أيضا الى حكومات ملوكية وجمهورية تبعا لطرائقهم المختلفة فى الاحكام والنظام فأما الحكومة الملوكية فهى ما كانت السلطة أو الشوكة فى يدى شخص واحد يطلق عليه بالنسبة لسعة امتداد أرضه امبراطور أو ملك أو أمير أو سيد وأما الحكومة الجمهورية فهى نظام تنحصر به السلطة والسيادة فى رجال ممتازين من الامة والشوكة المنفذة مقلد زمامها بأيدى حكومة منتخبة ومن ثم يوجد اختلاف كثير فى تلك الهيآت وذلك انه اذا كانت الحكومة بتمامها مدبرة بقليل من الاشخاص الممتازين بعلو درجة المولد أو الثروة فيقال لهذه الحكومة حكومة الاعيان واذا كان الرؤس الكافلة للحكومة منتخبين بواسطة عموم الامة أو بواسطة مجالس عمومية أو بواسطة طوائف ونفس الامة حائزة السلطة القانونية النيابية فيقال لمثل هذه الحكومة جمهورية وان حصل عند طوائف الامة نفوذ وسطوة زائدة انقلبت الجمهورية الى حكومة مجلسية

وتعد كل هيئة من تلك الهيآت قانونية عندما تكون المنافع العمومية وما ترغبه الامة فى استتباب راحتها من العدل والانصاف جاريا حسب قواعد أساسية متينة البنيان وتكون الشوكة الحاكمة

معترفة

معترفة بسلطة القانون وعلو درجته مع معرفة عوائد الامة وطبائعها أيضا ولقد أخذت هذه الشوكة في علو النفوذ شيأ فشيأ حتى محقت العدل والحق وحل محلهما الظلم والاجحاف بالحقوق المرعية وتأسست قوانين وشرائع غير موافقة لعوائد الامة الواحدة وطبائعها تقرر فيها منافع خصوصية لآخرين وصارت قوانين شرعية على كل واحد من التبعة وأهل المدن

ويقال لهيئة الحكومة الملوكية مطلقة التصرف حالما يعين الحاكم المتولى أمر الامة عماله ويضرب الضرائب والعوائد وينظم الحكومة ويسن القوانين والشرائع من دون أن يستشير في هذه الامور الامة ويقال لها محدودة عند ما يصير اجراء ما تقدم ذكره من الاعمال بمساعدة نواب من الامة فالسلطة المحدودة هي التي يكون فيها الملك غير مسؤل ويكون تحت يده وزراء مكلفون بالاعمال ومسؤلون عنها لديه ولدى الامة وهذه يحتمل أن تكون على نوعين وهي ما اذا كان جميع نواب الامة حاضرين كما في السلطة القانونية أو كان الحاضر بعض نواب من طوائف فقط فاذا غيرت أغراض وشهوات الحاكم القانون انقلبت الحكومة المطلقة الى حكومة استبدادية تصرفا وكذا اذا كانت سلطة الامة مرعية النفوذ والاعتبار في الشوكة وعلو درجتها في الحكومة انقلبت الحكومة الى هيئة جمهورية

وأما ما يتعلق بالديانات المختلفة والمذاهب والاعتقادات المختلفة فسنشرحه عند ذكرنا كل مملكة أو أمة من الامم في أبوابها المشتملة على تاريخ وجودها ومنشئها

وقد قسمت هذا الكتاب الى سبعة أجزاء تشمل أربعين كتابا وكل كتاب يشمل أبوابا متعددة أو بابا واحدا حسب اتساع تاريخ المملكة الواحدة وما حصل فيها من الحوادث والوقائع الحربية والقيام والسقوط بوجه الاقتصاد فجاءت مرتبة على هذا النسق

الجزء الاول

من البحر الزاخر

الكتاب الاول

فى التاريخ المقدس

أو الاثرى

الباب الاول

زمن النبوة

الخلقة ـ آدم وحواء ـ موت هابيل ـ شيث ـ نوح ـ الطوفان ـ ذرية نوح ـ صرح بابل تبلبل الالسن ـ هجرة ابراهيم عليه السلام ـ دخوله فى فلسطين ـ نصرته على كدرلعومر ـ العهد أو الميثاق ـ مولد اسمعيل ـ خراب مدائن السهل ـ مولد اسحق ـ اخراج اسمعيل ـ اقامة دين ابراهيم ـ زواج اسحق ـ مولد عيصو ويعقوب ـ صفاتهما ـ بيع العيص حق البكورية ـ نوال يعقوب البركة ـ هرب يعقوب ـ اقامة يعقوب عند لابان ـ زوجاته وأولاده ـ عوده الى فلسطين ـ ارتباكه مع أولاده ـ يوسف واخوته ـ بيع يوسف ـ رقه فى مصر ـ صيرورته نائب الملك ـ مدة القحط ـ نزول يعقوب وأهل بيته فى مصر ـ موت يعقوب

يبدأ التاريخ المقدس بان الله سبحانه وتعالى وهو القادر على كل شئ خلق الدنيا والانسان بقدرته ولم يذكر فى التوراة تاريخا لهذه الحوادث حتى ما أمكن للعلم اثبات تاريخها بوجه الحقيقة وان الحوادث المختلفة التاريخية التى جرت فى شأن التواريخ القديمة لحالة وجود الانسان هى اختيارية صرفا وليس لها حكم ثابت وأن التوراة لم تذكر لنا تاريخا نعول عليه لمثل هذه الحادثة بل عرفنا من التوراة ومن الكتب المقدسة بأن الله هو القادر على كل شئ خلق الدنيا والانسان لقصد معلوم وهو عبادته سبحانه وتعالى وان جنس بنى الانسان متناسل عن زوج أصلى وان أول رجل وأول امرأة خلقهما الله سبحانه وتعالى آدم وحواء

قيل ان المعتمد الصحيح المعول عليه ان مبدأ خلق الجنس البشرى ومحل وجوده كان فى قارة آسيا والاكثر احتمالا أنه كان فى قطعة الاقليم التاسع الواقع بين الجبال التى يأخذ منها كل من نهرى آموو السند منبعهما الكائنة فى الناحية الشرقية من الاقليم والجبال التى يأخذ منها كل من نهرى الدجلة والفرات منبعهما الكائنة فى الجهة الغربية من الاقليم وفى هذه الارض البهيجة الخصبة كان الانسان قائما فى طاعته العظمى لله سبحانه وتعالى ثم كانت عاقبته أن سول له الشيطان فأخرج الله سبحانه وتعالى آدم

وحواء

وحواء من الجنة وعاقبهما أى وحكم عليهما بالاوجاع والآلام ومشاق الاشغال فى مدة حياتهما ثم اعتادا على الاشغال وتمتعا فى حياتهما الدنيوية بها

ولكن الصحيح الحق الذى نثق به ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الارض فنهم الاحمر والاسود والابيض وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب فشكله وصوره وركبه ثم نفخ فيه الروح وعلمه جميع الاسماء وأسكنه الجنة وخلق من نفس آدم حواء ليسكن اليها وقال الله له يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأتاهما الشيطان فوسوس لهما وقال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فأخرجه هو وحواء والشيطان من الجنة وأسكن الله سبحانه وتعالى آدم وحواء أرض الهند يتكبدان فيها آلام الشغل عقابا لهما فى حال حياتهما ثم غفر لهما بمنه وكرمه

وكان لآدم وحواء ولدان قين أو قابيل وهابيل وكان الاول منهما زراعا والآخر صاحب ماشية فظهر من ذلك أن هاتين الطريقتين المتخذتين فى الحياة الدنيا موجودتان من القدم مع وجود الانسان ثم حسد قابيل أخاه هابيل على ما هو فيه من العيشة الدنيوية الطاهرة فقتله فكان قابيل أول قاتل وهابيل أول مقتول فى الدنيا على وجه الارض ولما سمع قابيل من خالقه حكم عقابه وعذابه صار مطرودا بأهله على وجه الارض ورحل فى جوبه الى الارض الموجودة فى شرق عدن وبنى فيها مدينة وسماها أنوخ أو حنوك باسم أول مولود له ثم صار لقابيل بنون وبنات واليه تنسب التوراة الفنون الصناعية والآلات الموسيقية وهذه أول واقعة حصلت على وجه الارض واختلف العلماء فى سبب قتل قابيل هابيل اختلافا كثيرا لا لزوم لذكره هنا وهذه الاختلافات مذكورة فى كتب التواريخ العربية المطولة وما قصه الله سبحانه وتعالى فى القرآن الشريف حكاية عنهما قوله تعالى واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لاقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك انى أخاف الله رب العالمين انى أريد أن تبوء باثمى واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ففيه القدر والكفاية والله الموفق للصواب

ثم ولد لآدم وحواء ابن ثالث بعد موت هابيل فسماه آدم باسم شيث وكان نبيا واليه ينسب العبرانيون سلسلتهم وعمود نسبهم وصار لشيث بنون وبنات وعائلات عديدة وعاش حتى بلغ من العمر تسعمائة واثنتى عشرة سنة وبواسطة هذه العائلات حفظت الاحاديث المروية والعقائد الدينية المروية عن أسلافهم الى زمن الطوفان

وقيل كانت ولادة شيث بعد مضى مائة وعشرين سنة لآدم وبعد قتل قابيل هابيل بخمس سنين وكان شيث وصى آدم وصارت اليه الرياسة بعده وأمره أبوه آدم أن يخفى علمه عن قابيل وولده لانه قتل هابيل حسدا منه له حين خصه آدم بالعلم ومات آدم فى زمن شيث بعد أن عاش من العمر تسعمائة وثلاثين سنة ولما مرض شيث أوصى الى ابنه أنوش ومات بعد مضى مائة سنة وخمس وثلاثين سنة من عمر آدم وقام أنوش بعد موت أبيه بتدبير الملك وسياسة قومه وكان جميع عمر أنوش سبعمائة سنة

وخمس سنين وكان مولده بعد أن مضى من عمر أبيه شيث ستمائة سنة وخمس سنين ثم ولد لانوش قينان ومعه بنون وبنات بعد مضى تسعمائة سنة من عمر أنوش وصارت اليه الوصية وولد لقينان مهلائيل وبنون معه وصارت اليه الوصية وولد لمهلائيل يرد أو يارد وبنون وبنات معه وصارت اليه الوصية وولد ليارد أخنوخ وهو ادريس واليه كانت الوصية وولد لاخنوخ متوشلخ وبنون وبنات معه واليه كانت الوصية وولد لمتوشلخ لمك أو لامك وبنون وبنات معه وكانت اليه الوصية وولد للامك نوح النبي عليه السلام

وكان نوح النسل الثامن من ذرية شيث وتمسكت عائلته بعبادة الحق سبحانه وتعالى وأخذ العالم فى زيادة العكوف على الموبقات والمعاصى والفجور وشرب الخمور وأنواع الكبائر والعيوب وصارت حالة الدنيا وعالمها مفزعة مهولة فغضب الله سبحانه وتعالى غضبا شديدا وزعم أهل التوراة أنه ندم وتأسف على ما فعله من خلقه الانسان (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) حيث رأى ما عليه الانسان من فعل الكبائر وارتكاب الفواحش الخبيثة وأراد تطهير الارض من الانسان ونجاسته ودمار وهلاك كل ما فيه روح من المخلوقات الموجودة على وجه الارض ما عدا البعض من كل جنس لبقاء تناسل أجناسهم المختلفة ثانية وكان نوح رجلا عدلا كاملا فى قومه منقادا لطاعة الله فاستثنى من الدمار العام هو وعائلته وأمره الله تعالى بتجهيز فلك أو بيت عوام من خشب الساج على هيئة أنزلت اليه من عند الله وأعلمه بقصده وانه سيرسل طوفانا عاما على وجه الارض ولما تم عمل الفلك أمر الله نوحا أن يدخل فيه مع عائلته وأن يأخذ معه سبعة أزواج من الحيوانات الطاهرة والنجسة من كل ذى روح وجسد فأطاع أمر الله وأخذ الذكور والاناث وعائلته وما أمره الله به وأدخلهم معه جميعا فى الفلك وأطبقها عليهم ثم بعد ذلك ابتدأ الطوفان فانفجرت العيون الغزيرة من الارض وفتحت السماء أبوابها بماء منهمر واستمر سقوط المطر على وجه الارض أربعين يوما وليلة وازدادت المياه وعمت وارتفعت السفينة على وجه الارض وغطت المياه رؤس التلال والجبال الموجودة تحت السماء وجرت السفينة على وجه الماء وازدادت المياه حتى ارتفعت فوق رؤس الجبال الشامخة بمقدار خمس عشرة ذراعا فهلك جميع ما على وجه الارض من كل ذى روح كان يدب على سطح الارض وكذا الطيور والانعام والحيوانات والحشرات والزحافات والهوام ومات كل ما كان يدب على وجه الارض وكل ما كان يخرج من أنفه نفس حياة من الذى كان موجودا على الارض الجافة ونجا نوح والذين معه فى الفلك وعمت المياه وجه الارض ومكثت مائة وخمسين يوما

ومن بعد مضى خمس شهور هبطت المياه واستوت السفينة على جبال عرارة المسماة بجبال الجودى بنواحى أذربيجان ثم أخذت المياه فى النقص على الاستمرار الى الشهر العاشر وفى أوائل هذا الشهر ظهرت رؤس الجبال وقتها ثم بعد مضى أربعين يوما فتح نوح طيقان السفينة التى كان صنعها فيها وبعث غرابا يكشف جفاف الارض فذهب الغراب ولم يرجع اليه حتى غاضت المياه من على وجه الارض فأرسل من عنده حمامة أو يمامة لينظر هل الارض جفت من المياه أم لا فطارت الحمامة ولما لم تجد محلا فى الارض تقف برجليها عليه عادت الى نوح فى السفينة لان المياه كانت موجودة على جميع سطح الارض فأخرج يده وجذب الحمامة الى داخل السفينة ومكث سبعة أيام أخر وأرسل

الحمامة ثانية من السفينة فعادت اليه وفى فيها ورقة زيتون فعلم نوح أن المياه انكشفت عن وجه الارض فمكث سبعة أيام أخر وأرسل الحمامة فطارت ولم تعد اليه مرة أخرى

ثم لما جفت الارض ترك نوح والذين معه السفينة فكان أول عمل عمله نوح أن ابتنى لله محرابا وقرب اليه قربانا وأخذ الله عليه وعلى ذريته العهد والميثاق ثم ان نوحا وامرأته وأولاده الثلاثة ساما وحاما ويافثا شرعوا فى زراعة الارض وفلاحتها وهكذا عاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة ومات بعد أن بلغ من العمر تسعمائة وخمسين سنة

والذى قاله المفسرون أن نوحا بعث وهو ابن أربعين سنة ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا ومائتين وأربعين سنة

ومن أولاد نوح الثلاثة تناسلت أجناس الامم الذين عمروا الارض وسكنوها بعد الطوفان والظاهر أن الاقليم الذى سكنه أولاد نوح بعد تركهم السفينة هو الجبل الجامع لبخارى الصغرى مع اقليم التبت الغربى الآخذ منه الانهار الكبيرة لاسيما منابعها وهى نهر السند ونهر سيحون ونهر جيحون ثم من بعد مضى بضع من القرون رحل البعض من ذرية نوح بعد أن أخذوا فى الزيادة والكثرة مع السرعة الى الجهات الغربية من مساكنهم الاصلية واتخذوا لهم مساكن فى السهول الشاسعة التى يرويها كل من نهرى الدجلة والفرات فى الارض المسماة أرض شنعار وفى هذه الارض ساقهم غرورهم وكبرياؤهم لنظر ما هم عليه من كثرة العدد والقوة الى أن اعتقدوا بان صارت لهم قوة وقدرة لا يعجزها شئ حتى الله سبحانه وتعالى فشرعوا فى بناء مدينة وبرج قصدوا بارتفاعه عنان السماء حتى يمكنهم نجاة أنفسهم من كل حادثة طوفانية يحتمل حصول وقوعها على وجه الارض والى ذلك الوقت كانت لهجة جميع الناس فى الالسن واحدة فعاقبهم الله بقبيح أفعالهم فبلبل ألسنتهم الى لغات شتى ولما كانوا لا يفهمون كلام بعضهم التزموا عدم الاستمرار فى أشغالهم وتشتتوا شغر بغر وحلت كل عائلة أو عدة عائلات معهم لسانهم الجديد ومن ابتداء ذلك الوقت صار ذلك اللسان هو لسانهم الخاص بهم ومن هنا تكون اللغات والعلوم المتجددة للناس فى تبويبها وترتيبها مأخوذة من أصل تلك اللغات وأطلق على البرج الذى لم يتم شغله اسم صرح أو برج بابل أو صرح البلبلة وهذا بسبب أن حصول تبلبل الالسن كان فى هذه الجهة وبواسطة هذا الشتات والتفرقة انتشرت ذرارى نوح على سطح البسيطة وأما مدة أعمار من كان بين آدم ونوح وأسماؤهم فهو على حسب ما هو آت

عاش آدم تسعمائة وستين سنة وعاش شيث تسعمائة واثنتى عشرة سنة وعاش أنوش تسعمائة وخمسا وستين سنة وعاش قينان سبعمائة وعشرين سنة وعاش مهلائيل تسعمائة وخمسة وستين سنة وعاش يرد تسعمائة واثنتين وستين سنة وعاش أخنوخ ثلاثمائة وخمسا وستين سنة وعاش متوشلخ تسعمائة وتسعا وستين سنة وعاش لامك سبعمائة وسبعا وسبعين سنة

وقد اختلف العلماء فى ديانة القوم الذين كان فيهم نوح عليه السلام وأجمع البعض منهم على أنهم ما كانوا على ديانة آبائهم بل على غاية من ركوب الفواحش والكفر وشرب الخمور والاشتغال بالملاهى عن طاعة الله والاصح ما نطق به القرآن المجيد من أنهم كانوا أهل أوثان قال تعالى وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا فلما تمادوا على كفرهم وعصيانهم بعث الله فيهم نوحا يحذرهم بأسه ونقمته ويدعوهم الى التوبة والرجوع الى الحق والعمل بما أمر الله فلبث فيهم ألف

سنة الا خمسين عاما فكانوا يبطشون به ويخنقونه حتى يغشى عليه حتى اذا تمادوا فى معصيتهم وعظمت منهم الخطيئة وتطاول عليه وعليهم الحال واشتد عليه البلاء وانتظر الولد بعد الولد فلا يأتى قرن الا كان أخبث من الذى قبله ولما طال عليه الأمد ورأى الاولاد شرا من الآباء قال رب قد ترى ما يفعل بى عبادك فان يكن لك فيهم مراد فاهدهم وان يك غير ذلك فصبرنى الى أن تحكم فيهم فأوحى الله اليه انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلما يئس من ايمانهم دعا عليهم كما قص الله عنهم فى القرآن فى قوله تعالى وقال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا فأوحى الله اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون فأقبل نوح على عمل الفلك فكان قومه يسخرون منه فيقول لهم ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون ولما تم عمل الفلك أمره الله سبحانه وتعالى أن يدخل فيه من كل زوجين اثنين وأهله الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل فلما اطمأن نوح فى الفلك وأدخل فيه كل ما أمر به وحمل معه من حمل جاء الماء كما قال تعالى ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر وكان بين أن أرسل الله الماء وبين أن حمل الماء الفلك أربعون يوما وليلة وكثر واشتد وطمى وغطى نوح عليه وعلى من معه طبقات السفينة وجعلت الفلك تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل منه لانه كان كافرا يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء فقال له نوح لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين وعلا الماء على رؤس الجبال فكان ارتفاعه على أعلى جبل فى الارض خمسة عشر ذراعا فهلك ما على وجه الارض من حيوان ونبات ولم يبق الا نوح ومن معه ومازالت السفينة تجرى بهم حتى انتهت الى جبل الجودى ولما استقرت قيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء أى نشفته الارض وأقام نوح فى الفلك الى أن غاض الماء فلما خرج منها اتخذ بناحية من نواحى قردى من عمل جزيرة العراق موضعا وابتنى فيه قرية سماها قرية الثمانين وقيل ان نوحا لم يولد له ولد الا من بعد الطوفان وكان أولاده ثلاثة سام وحام ويافث فجميع الخلق بعد الطوفان من نوح عليه السلام لقوله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين ولما حضرت نوحا الوفاة أوصى الى ولده سام وكان أكبر ولده وفى نوح وقومه قال بعضهم

عاش نوح يدعوهمو ألف عام * غير خمسين لم يجيبوا الدعاه
أهلك الظالمين ربى بماء * أمر الارض أن تفيضه والسماء

ولما انتشرت ذرية نوح على سطح البسيطة كانت ذرارى سام الفرس الذين كان جدهم عيلام والاشوريون الذين تناسلوا من آشور والعبرانيون والعرب الذين تفرعوا من أرفخشذ والليديون وهم ذرية لود والاشوريون الذين تناسلوا من ارم وأما ذرارى حام فهم الحبشة الذين تفرعوا من كوش والمصريون الذين تفرعوا من مصرايم والليبانيون الذين تفرعوا من فوط والفينيقيون الذين تفرعوا من كنعان وأما ذرية يافث فنهم جامر ومنه تناسل الجرمانيون والسكنديناويون وأهل الغلبة (فرانسا) فى أوروبا والارمن فى آسيا وماجوج ومنه تفرع الجنس الطورينانى الكبير وهو مقسوم الى الاغر وفنيش والفروع الدراويديانية ومادى ومنه تفرع نسل الميديين وتوبال ومنه تفرع سكان الوديان القوقاسية وموشوح وهو جد سكان آسيا الصغرى وتراث وهو جد التراثيون

ويافان وهو جدّ يونان الجريق وهذا الاحصاء الذى عمل على حسب قول موسى عليه السلام مختص بالجنس ذى اللون الابيض فقط وأما الاجناس الأخر ذوات اللون الاصفر والاحمر والاسود فان موسى عليه السلام لم يذكر عنها شيأ لسبب معلوم عنده وكان قصد موسى بذلك هو بالبداهة ذكر نسب العبرانيين وأما ذكر الامم الاخر فهو عرضى البتة

وذكر فى الكامل لابن الاثير عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين أنهم سام وحام ويافث فكان سام بن نوح أبا العرب وفارس والروم وحام أبا السودان ويافث أبا الترك ويأجوج ومأجوج فولد لسام أرفخشذ بعد أن مضى من عمر سام مائة سنة وسنتان وأشوذ ولاوذ وارم وبنون وبنات أخر وكان جميع عمر سام ستمائة سنة فمن ولد لاوذ فارس وجرجان وطسم وعمليق ومن نسل عمليق كانت الجبابرة بالشام وهم الكنعانيون وبعض الفراعنة بمصر وولد لارم بن سام عوص وعابر وحويل وولد لعوص عابر وعاد وعبيل وولد لعابر بن ارم ثمود وجديس وولد لارفخشذ بن سام ابنه قينان بعد أن مضى من عمر أرفخشذ خمس وثلاثون سنة وكان جميع عمر أرفخشذ أربعمائة وثمانيا وثلاثين سنة ثم ولد لقينان شالخ بعد أن مضى من عمره تسع وثلاثون سنة وولد لشالخ عابر بعد أن مضى من عمره ثلاثون سنة وكان عمره كله أربعمائة وثلاثا وثلاثين سنة وولد لعابر فالغ وأخوه قحطان وكانت ولادة فالغ بعد الطوفان بمائة وأربعين سنة وكان عمره أربعمائة وأربعا وسبعين سنة وولد لقحطان يعرب ويقظان وولد لفالغ بن عابر أرغو بعد مضى ثلاثين سنة من عمر فالغ وكان جميع عمره مائتين وتسعا وثلاثين سنة وولد لارغو ساروغ بعد أن مضى من عمره اثنتان وثلاثون سنة وكان عمره مائتين وتسعا وثلاثين سنة وولد لساروغ ناخور بعد ثلاثين سنة من عمره وكان عمره مائتين وثلاثين سنة وولد لناخور تارح وهو آزر بعد ما مضى من عمره سبع وعشرون سنة وكان عمره كله مائتين وثمانيا وأربعين سنة وولد لتارح ابراهيم عليه السلام

وأما يافث فمن ولده جامر وموعج ومورك وبوانه وفوبا وماشج وتيرش فمن ولد جامر ملوك فارس ومن ولد تيرش الترك والخزر ومن ولد ماشج الاشبان ومن ولد موعج يأجوج ومأجوج ومن ولد يافث الروم

وأما حام فولد له كوش ومصرايم وفوط وكنعان فمن ولد كوش نمروذ ومن ولد مصرايم القبط والبربر وكان بين الطوفان وابراهيم عليه السلام ألف سنة ومائتان وثلاث وستون سنة وذلك بعد خلق آدم بثلاثة آلاف سنة وثلاثمائة وسبع وثلاثين سنة وولد لقحطان بن عابر يعرب وولد ليعرب يشجب وولد ليشجب سبأ وولد لسبا حمير وكهلان وعمرو والاشعر وأنمار ومر وولد عمرو بن سبا عديا وولد عدى لخما وجذاما

وكان ابراهيم عليه السلام هو العاشر من ذرية نوح من سلسلة سام لانه ابراهيم بن تارح بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام وهو الجد الاكبر للعبرانيين وكان أبوه تارح يسكن أور الكلدانيين مع عائلته وقرابته واتفق البعض من المؤرخين على أن مدينة أور القديمة هى مدينة أورفه الموجودة فى هضبة ميزوبوتاميه (ارم) الجامعة هضبة أرمينية بوادى الفرات ثم سماها جريق اليونان باسم إدسّا فى العصور الاخيرة وبينما كان ابراهيم

قاطنافيها اذناداه الله سبحانه وتعالى وأمره أن يترك وطنه ويتوجه الى أرض يريها له وعلى هذا الطلب تركت عائلة تارح مدينة أور وانتقلت الى حران أوحاران أوشاران وهذا الاسم الاخير هو الاسم الحقيقي لها كما هومذكور في الانجيل أي العهد الجديد وهذه الجهة موجودة في الناحية الشرقية من نهر الفرات وفيها هلك تارح بعد أن أقاموا فيها بضع سنين ولما رأى ابنه ناحور من جودة الارض وخصوبتها ومافيها من المراعي والكلا اتخذها مقراله وموطنا دواميا

وفي غضون ذلك بمجرد مادفن ابراهيم أباه اطاعة لما أمره الله به وناداه مرة ثانية ترك أخاه ناحورا واستمر في سفره مع سارة زوجته وابن أخيه لوط وتوجه على ثقة تامة بما وعده الله به من اقامته في مستقبله في أرض يريها له وهي الارض التي قال له أرض سنريك اياها فلما عبر الفرات وفصل نفسه من أرض مسقط رأسه سماه الكنعانيون الرجل العابر أو العبري أي الرجل الذي عبر نهر الفرات مهاجرا من ميزوبوتاميا وقطع في سفره صحرة سوريا وتراءى له أن يلبث قليلا في دمشق فصارت مدينة من ذلك الوقت وتقابل في هذه الجهة مع خادمه الامين العازر وجعله أمين بيته ثم سار من دمشق متوجها الى الجهة الجنوبية حتى عبر الاردن ودخل الارض الموعودة فكان المقر الاول الذي اتخذه في وادي شكيم وفي هذا المكان تجلى له الله سبحانه وتعالى مرة أخرى وجدد له عهده وقال له ان هذه الارض تكون وطنا لذريتك ومايخرج من صلبك فأقام ابراهيم لله تعالى أول محراب أومذبح في أرض فلسطين

وكانت الارض مسكونة في هذا الوقت بالكنعانيين وهم من نسل كنعان الابن الرابع لحام بن نوح عليه السلام فاتخذ ابراهيم محل مسكنه في الكورة الجبلية حتى يحفظ نفسه فيها من الكنعانيين وكانوا مستحوذين على السهول الخصبة الموجودة أسفل منه فأعطوه قطعة كلا صغيرة ترعى فيها أنعامه ومواشيه ثم مازال يظعن وينتقل نحو الجهة الجنوبية حتى أحوجته ضرورة المعاش أن دخل مصر ولما خشي ابراهيم من ملك مصر بما يطمع في جمال سارة ويقتله بقصد الاستحواذ عليها جعلها ابراهيم في صفة أخته وأنها امرأة لازوج لها فأخذها ملك مصر وأدخلها في حريمه وأفاض على ابراهيم بالاموال والثروة والاكرام فانذر الله سبحانه وتعالى الملك بما فعله من الذنب والخطا وأرسل عليه آفات أزعجته وأهل بيته فأعاد سارة الى زوجها في الوقت وأخرجهم من مصر بما ناله من الاموال فارتحل ابراهيم راجعا من وسط أرض فلسطين الى مسكنه الاول في بيت إيل وأقاما لعبادة لله سبحانه وتعالى وفي هذا المكان كان انفصالهما من بعضهما فبقي ابراهيم قاطنا في الجبال ونزل لوط السهل الخصب المجاور لسدوم ثم ارتحل ابراهيم الى الجهة الجنوبية الى بلوطات ممراء بالقرب من حبرون ومن هذا الوقت صار هذا المحل موطنه المعتاد

وبعد ذلك بقليل أغار كدرلعومر ملك عيلام وكان رئيس مملكة كبيرة في آسيا الغربية وغزا فلسطين الجنوبية وفتح مدائن سدوم الخمسة وهي عمورة وادمه وصبويم وبالغ أي صوعر ونفس سدوم وكان أهل هذه المدائن تعصبوا عليه وقاموا ضده وفي هذا الحرب تغلب المنصورون على لوط ومواشيه وحملوه أسيرا معهم فلما سمع ابراهيم بهذه الواقعة جمع قوة من قومه قدرها ثلاثمائة وثمانية عشر نفسا وقوة من العموريين المتحالفين معه وتبع في سيره قوى كدرلعومر فانتصر عليهم قريبا من دمشق وهزمهم شر هزيمة وخلص لوطا وأعاد جميع الاسلاب والغنائم التي كانوا أخذوها من الخمس مدائن

ومن بعد مضي زمن قليل من هذه الحادثة أراد الله سبحانه وتعالى أن يأخذ ميثاقا عظيما على ابراهيم

فتجلى

فتجلى باسم ياهو لعبده وجدد وعده بأن يجعل ابراهيم أبا أمة عظيمة فقال ابراهيم الهى وسيدى ومولاى ماترغب أن تعطينى اياه فانا ليس لى ولد وليس لى أحد من بيتى يرثنى من بعدى فأجابه الله سبق فى علمى أن سيكون ذلك الوعد قريبا وانظر الآن الى السماء وأحص لى مافيها من الكواكب والنجوم ان كان لك طاقة على عددها واحصائها فهكذا ستكون بذريتك وذريتك فآمن ابراهيم بوعد ربه وعده لنفسه من البر والاصلاح

وبما أن هذا الوعد العظيم لابد من ايفائه دخل فيه (أولا) رق العبرانيين فى أرض عزيبة لمدة أربعمائة سنة (وثانيا) يكون خلاصهم مستحوذين على أموال جمة مع أحكام تتوقع على ظالميهم (وثالثا) عودهم الى الارض الموعودة فى الجيل الرابع من ذريتهم عندما تتسلطن الجرائم والخطايا فى هذه الارض الموعودة وكذا من بعد مضى قليل من الزمن جدد الله الميثاق مع ابراهيم وأمره بالاختتان وجعل ذلك سنة فى عقبه

وذكر فى الكامل لابن الاثير أن ابراهيم ولد بالسوس من أرض الاهواز وقيل ببابل وكان مولده فى عهد نمروذ بن كوش فلما أراد الله أن يبعث ابراهيم الى عباده أتى المنجمون من الكلدانيين الى نمروذ وقالوا له انا نجد غلاما يولد فى قريتك يقال له ابراهيم يفارق دينكم ويكسر أصنامكم فى شهر كذا من سنة كذا فحبس نمروذ الحبالى عنده الا أم ابراهيم فانه لم يأخذ خبرا بحبلها وذبح كل غلام ولد فى هذه السنة ولما وجدت أم ابراهيم الطلق انطلقت الى كهف بالقرب منها وولدت ابراهيم فيه وأخبرت أباه تارح وهو آزر فكتم ذلك حتى نسى نمروذ ذكر ذلك ولما شب ابراهيم فى المغارة أخرجه أبوه آزر منها فلما نظر الى الدواب والخلق ولم يكن رأى شيأ منها قبل سأل أباه عما يراه فكان أبوه يقول له هذا كذا فقال ابراهيم مالهؤلاء الخلق بد من أن يكون لهم رب وكان خروجه وقت المساء فلما غربت الشمس رأى كوكبا فقال هذا ربى فلم يلبث أن غاب فقال لا أحب الآفلين ولما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما غاب قال لئن لم يهدنى ربى لاكونن من القوم الضالين ولما رأى الشمس وعظم نورها قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون وكان أبوه آزر يصنع الاصنام التى يعبدونها ويعطيها الابراهيم ليبيعها فكان ابراهيم يقول من يشترى مالا ينفعه ولا يضره ولما بدا لابراهيم أن يدعو قومه الى ترك ماهم عليه ويأمرهم بعبادة الله تعالى دعا أباه الى التوحيد فلم يجبه ودعا قومه فقالوا له من تعبد أنت قال رب العالمين قالوا نمروذا قال بل أعبد الذى خلقنى فظهر أمره وبلغ نمروذا أن ابراهيم أراد أن يرى قومه ضعف الاصنام وصار يتوقع فرصة ليفعل باصنامهم فعلة يقيم بها عليهم حجة ضعف أصنامهم فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم يعنى مطعون ليهربوا منه اذا سمعوا به حتى يبلغ من أصنامهم مايريد ولما خرجوا الى عيد لهم تركوه وسار هو الى أصنامهم وهو يقول تالله لاكيدن أصنامكم فسمعه بعض من ضعفاء القوم وكبارهم ولما دخل فى معبد الاصنام وجد بين أيديهم طعاما كان القوم وضعوه بين أيديهم ليأكلوا حتى يرجع القوم من عيدهم فلما نظر ابراهيم الى مابين أيديهم من الطعام قال لهم ألا تأكلون فلم يجبه أحد قال مالكم لاتنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين وكسر الاصنام بفأس كانت فى يده وأبقى صنما من الاصنام فربط الفاس فى يده وتركها فلما رجع القوم من عيدهم ورأوا ماحل باصنامهم راعهم ذلك وأعظموا ذلك الامر وقالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين فقال الذين سمعوا ابراهيم يذكر الاصنام قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم أى

يسبها ويعيبها ولم نسمع ذلك من غيره وبلغ ذلك نمروذ واشراف قومه فقالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون فلما أتى به واجتمع قومه عند نمروذ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون هو غضب من أن تعبدوا هذه الصغار وهو أكبر منها فكسرها فقالوا والله لقد علمت ما هؤلاء ينطقون فيخبرون عمن صنع بها وما تبطش بالايدى فنصدقك فى قولك هذا ثم نكسوا على رؤسهم فى الحجة عليهم لابراهيم فأجابهم ابراهيم عند قولهم ما هؤلاء ينطقون أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيأ ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ثم قال نمروذ لابراهيم أرأيت الهك الذى تعبده وتدعو الى عبادته ما هو قال ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال ابراهيم وكيف ذلك قال أقتل هذا وأعفو عن هذا فقال ابراهيم ان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت نمروذ ولم يرجع اليه شيأ ثم ان نمروذ وأصحابه أجمعوا على قتل ابراهيم فقالوا حرقوه وانصروا آلهتكم فأمرهم نمروذ بجمع الحطب وأضرموا فيه النار ولما رفعوه فى منجنيق ليرموه فيها رفع رأسه الى السماء وقال اللهم أنت الواحد فى السماء وأنت الواحد فى الارض حسبى الله ونعم الوكيل وقذفوه فى النار فناداها الله تعالى يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم فخرج منها حيا يمشى من دون أن يضره شئ منها فناداه نمروذ يا ابراهيم ان الهك الذى بلغت قدرته أن حال بينك وبين ما أرى لكبير وكف عن ابراهيم ومنعه الله منه وآمن مع ابراهيم رجال من قومه وآمن له لوط بن هاران وهو ابن أخى ابراهيم وكان لهما أخ ثالث يقال له ناخور بن تارح وهو بتويل وبتويل أبو لابان وأبو ربقا امرأة اسحق بن ابراهيم أم يعقوب ولابان أبو ليا وراحيل زوجتى يعقوب وكذا آمنت له سارة وهى ابنة عمه وابنة هاران الاكبر عم ابراهيم وأمره الله سبحانه وتعالى بالهجرة من ديار قومه وكان منه ما ذكر سابقا واقامته فى أرض كنعان

ومن بعد مضى عشر سنوات من اقامته فى أرض كنعان أخذت سارة فى قطع اليأس من أن تكون أم ولد يرث ابراهيم فأشارت عليه أن يأخذ خادمتها هاجر وهى امرأة مصرية أهداها الى سارة ملك مصر لتكون زوجة له فدخل ابراهيم بها فولدت له اسمعيل وقبل ولادة اسمعيل وهى حامل به شمخ أنف هاجر على سيدتها وصارت فى غاية من الوقاحة عليها حتى ان سارة عاقبتها على فعلها الوقيح فهربت هاجر الى برية قادش وكانت هذه البرية موجودة فى الجهة الجنوبية الشرقية من مسكن ابراهيم فظهر لها فى البرية ملك من ملائكة السماء من عند الله سبحانه وتعالى وأمرها أن تعود الى سيدتها وشد قلبها وعضدها بأنها ستكون أما لامة كبيرة وأوصاها بأن تسمى ابنها بعد وضعه اسمعيل ومعناه (سمع الله) وأخذ يذكر لها سجايا المولود وصفاته فى الدنيا بالالفاظ والاوصاف الموصوف بها عرب البوادى والصحارى الآن التى صار جدهم الاكبر هو هذا الطفل بقوله لها انه سيكون رجلا همجيا وحشيا يده فوق يد كل انسان كما أن يد كل انسان تكون قائمة عليه وضده وانه يستوطن فى مواجهة جميع اخوانه ومعناه أن أرض ذرية اسمعيل تكون فى شرق الارض المقيمة فيها العشائر والقبائل المتناسلة من الوارث الحقيقى لابراهيم فرجعت هاجر الى سيدتها ووضعت اسمعيل فى الوقت المحدود وكان عمر ابراهيم لما ولد اسمعيل ستا وثمانين سنة فنظر ابراهيم الى الولد بكونه هو الوارث له الذى وعده الله اياه وشغف بحبه وألقى عليه حب الوالد لولده

ومن بعد مضى ثلاث عشرة سنة من مولد اسمعيل وكان ابراهيم بلغ من العمر تسعا وتسعين سنة

تجلى الله له باسم الشد أى ومعناه القادر على كل شئ وجدد عهده معه ووعده بأنه سيكون أبا لامم عديدة ومخلوقات كثيرة وقال الله له انمر به والهه ورب واله ذريته من بعده ومن علامات تجديد هذا العهد اقامة شعار الختان وأن يقام هذا الشعار من الآن فصاعدا على جميع الذكور من ملة ابراهيم وان الذين لا يختتنون لم يكن لهم حظ فى الميثاق واذا أراد الاغراب الاختتان يسلم لهم ذلك ومن الوجوب على رئيس كل عائلة أو قبيلة أن يجرى هذا الشعار على خدمه كما يجريه على أولاده وأن يجريه على الاطفال فى اليوم السابع من ولادتهم وعلى العبيد مباشرة بعد شرائهم وأن تلقب سارة بالسيدة علوا فى درجة مقدارها لكونها صارت جدة ملة كبيرة وقد أخبر الله ابراهيم بأن زوجه سارة ستحمل فى وقت معين من السنة التالية بولد له يكون هو الوارث الحقيقى له وأوصاه بأن يسمى الطفل اسحق وأخبره أيضا بأن مواعيد الميثاق ستكون فى اسحق وذريته من بعده أبد الآبدين فلبى ابراهيم فى دعائه لاسمعيل حتى ان الله أكد له بانه سيمطر على اسمعيل الخير والبركة الوقتية ويجعله أبا لملة كبيرة وان البركة الالهية ومواعيد الميثاق محصورة فى اسحق وذريته وفى الوقت ختن ابراهيم نفسه وأجرى هذا الشعار على اسمعيل وكان بلغ من العمر فى هذا الوقت ثلاث عشرة سنة وكذا على جميع الذكور من آل بيته

وروى أن ابراهيم والذين اتبعوه لما أجمعوا على فراق قومهم خرج مهاجرا حتى قدم مصر فكان بينه وبين ملك مصر ما أسلفناذكره وأعطى ملك مصر هاجر خادمة لسارة وكانت هاجر ذات هيئة وجمال فوهبتها سارة لابراهيم وقالت خذها لعل الله يرزقك ولدا منها وكانت سارة قد منعت الولد حتى أسنت فوقع ابراهيم على هاجر فولدت اسمعيل ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم اذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما يعنى ولادة هاجر ثم خرج من مصر الى الشام فنزل السبع من أرض فلسطين ونزل لوط بالمؤتفكة وهى من السبع مسيرة يوم وليلة ولما ولد اسمعيل حزنت سارة حزنا شديدا فوهبها الله اسحق فاختصمتا وغضبت سارة على هاجر فأخرجتها ثم أعادتها ثم غارت منها وقالت لا تساكننى فى بلد فأوحى الله الى ابراهيم أن يأتى مكة وليس بها يومئذ نبت فجاء ابراهيم باسمعيل وأمه هاجر فوضعهما بمكة بموضع زمزم فلما مضى نادته هاجر يا ابراهيم من أمرك أن تتركنا بارض ليس فيها زرع ولا ضرع ولا ماء ولا زاد ولا أنيس قال ربى أمرنى قالت اذا انه لن يضيعنا فلما ولى قال ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن يعنى من الحزن ثم قال رب انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم الى آخر الآية فلما ظمئ اسمعيل جعل يفحص فى الارض برجله فانطلقت هاجر حتى صعدت جبل الصفا لتنظر هل ترى شيأ فلم تر شيأ فانحدرت الى الوادى فسعت حتى أتت جبل المروة فلم تر شيأ وفعلت ذلك سبع مرات ثم أتت اسمعيل وهو يفحص الارض برجليه وقد نبعت عين زمزم ولزمت الطير الوادى حين رأت الماء وكانت قبائل مستوطنة بواد بالقرب من مكة فانتقلت جرهم الى مكة من أجل الماء وأقاموا مع هاجر واسمعيل وشب وترعرع اسمعيل بينهم وتزوج اسمعيل من جرهم ثم أمر الله سبحانه وتعالى ابراهيم أن يأتى مكة لبناء البيت فبناه مع اسمعيل وشيداه ثم أمره الله سبحانه وتعالى بذبح ابنه ليمتحنه فى دينه كما سنذكره

ومن بعد مضى مدة من هذه الحوادث كان ابراهيم جالسا فى مساء يوم من الايام على باب خيمته فرأى

على بعد ثلاثة أشخاص آتين فقام اليهم ورحب بهم على عادته الشرقية وحثهم على أن يقيموا عنده هذه الليلة وكان قد وسع الله عليه الرزق فقبلوا اضيافته فخرج الى أهله فجاء بعجل سمين قد حنذه أى أنضجه فقربه اليهم فأمسكوا أيديهم عنه وكان أحدهم جبريل وملكان معه فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط وكان لوط وقومه بسدوم وكان القوم عاكفين على الخبائث والكبائر وفعل القبائح وكان لوط ينهاهم ويعظهم فلم يفد فيهم فائدة وكانت سارة فى داخل الخيمة عند قول الملائكة انا أرسلنا الى قوم لوط فضحكت لما عرفت من أمر الله ولما تعلم من قوم لوط فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب فقالت وصكت وجهها أألد وأنا عجوز الى قوله تعالى حميد مجيد فسمعها الملائكة فعنفها جبريل وقال لها أتعجبين من أمر الله وجددوا لابراهيم وعد الله سبحانه وتعالى وأن سارة لابد أن تحمل منه بولد فى ظرف سنة وقالوا لابراهيم تيقن أن وعد الله حق وانه لا يخلف الميعاد فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى سار معهم فى طريقهم الى سدوم مسافة من الطريق وعلى حسب ما خصه الله من الكرم وانه سيكون أبا لامة مختارة ذهب يجادل جبريل فى قوم لوط وفيما يريده الله سبحانه وتعالى من هلاك ودمار سدوم وعمورة ومدائن السهل عقابا لهم على سوء أفعالهم وركوبهم الخبائث والمنكرات فقال ابراهيم لجبريل أرأيت ان كان فيهم خمسون من المسلمين قالوا وان كان فيهم خمسون من المسلمين لم يعذبهم الله قال وأربعون قالوا وأربعون حتى بلغ وان كان فيهم عشرة قالوا وان كان فيهم عشرة قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين ثم استمرت الملائكة فى سيرهم الى نحو سدوم وأخذ ابراهيم فى الابتهال والدعاء مستشفعا الى الله تعالى فى المدائن وأهلها فأوحى الله اليه ان كان فيهم عشرة فانى لا أعذبهم وكان هذا القدر لم يوجد ولما وصلت الملائكة سدوم أنذروا لوطا وأهله وجاء قوم لوط يهرعون اليه فقال يا قوم اتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد ونهاهم ورغبهم وقال هؤلاء بناتى هن أطهر لكم مما تريدون قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد أولم ننهك عن العالمين فلما لم يقبلوا منه قال لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد فلما قال ذلك وجل عليه الرسل وقالوا ان ركنك لشديد وقالوا للوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك فاسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون ودمر الملائكة مدائن سدوم وأهلها وكلابها وامرأة لوط وكانوا خمس مدائن هى (سدوم وصبعة وعمرة ودوما وصعوة) ونجى الله لوطا وأهله وسكن لوط مدينة صعوة حيث صفح الله عنها وأهلها بدعاء لوط لهم وأخرب الاربع المدائن الاخر وكانت المدينة العظمى هى سدوم ولما خشى لوط على نفسه من الاقامة فى صعوة هاجر الى أرض الجبل وسكن فى كهف شرقى البحر الميت وخلف لوط فى هذا المكان ابنيه مواب وبن عمى اللذين تناسل منهما الموآبيون وبنو عمون وهم الذين وجدهم موسى ويوشع قاطنين فى الاراضى الكائنة فى شرق نهر الاردن والبحر الميت

ومن بعد خراب مدائن السهل بقليل رحل ابراهيم الى الجهة الجنوبية واستقر فى اقليم جرار الموجود بين مصر وفلسطين وعقد محالفة مع ملك تلك البلاد وكان اسمه أبى مالك بجانب بئر تسمى بئر السبع ومعناه بئر الحلف أو القسم وحالما كان قاطنا فى بئر السبع وضعت امرأته سارة الوارث الموعود به

ابراهيم من مدة طويلة فختنه ابراهيم وسماه اسحق كما أوصاه الله بذلك وكان عمر ابراهيم لما ولد اسحق مائة سنة

ولما انفطم اسحق احتفل ابراهيم في يوم فطامه بوليمة عظيمة صنعها وفي أثناء الوليمة رأت سارة اسمعيل يسخر بابنها ويشينه فقام في وجهها الغضب من شدة ما نالها من الزعل والحنق فطلبت من زوجها طردها جر واسمعيل حتى لا يرى اسحق بعد أحدا ينازعه في مكانه في بيت أبيه وكان ابراهيم مائلا بكليته لحب اسمعيل فتردد في أمره فأوحى الله اليه أن يطيع ما قالته سارة ووعده أنه يبارك في اسمعيل ويجعله أبا لامة عظيمة وآمره أن يأتي به وبأمه مكة فكان ما أسلفنا ذكره

والظاهر أن ابراهيم أقام سنين عديدة في نواحي بئر السبع وفي مدة مكثه فيها وطدا قامة شعائر دينه وأمره الله سبحانه وتعالى أن يأخذ ابنه اسحق ويقربه قربانا الى الله تعالى فولو أنه حصل لابراهيم كدر قليل الا أنه امتثل أمر ربه وأخذ اسحق وتوجه به الى أرض المُرّيا والصحيح أنه الجبل الذي بنى عليه معبد أورشليم فيما بعد وبنى ابراهيم في هذا المحل مذبحا واستعد لتقريب اسحق قربانا فأعفاه الله من ذلك وأعلمه بانه كان يريد امتحانه في دينه وصداقته له ورضى الله سبحانه وتعالى عن ابراهيم بما أراه من دلائل طاعته وفداه بذبح عظيم أي أن ابراهيم قبض على قرني خروف كان في شجر العوسج وقربه قربانا بدل ابنه وجدد الله لابراهيم وعده مكافأة على ما حصل من طاعته له واختلف العلماء في مسئلة الذبيح فمن قائل انه كان اسمعيل ومن قائل انه كان اسحق لا لزوم لذكرها هنا

ومن بعد حصول هذه الحادثة بقليل عاد ابراهيم الى مسكنه القديم في ممرا بالقرب من حبرون وفي هذا المحل توفيت سارة بعد أن بلغت من العمر مائة وسبعا وعشرين سنة فاشترى ابراهيم لها غار المكفيلة من بني حَث ودفنها فيه وجعل هذا الكهف مدفنا لعائلته وروى أن ابراهيم بعد دفن سارة عاد الى أرض بئر السبع وكان في هذا الوقت طاعنا في السن وحان أوانه ومن ثم عزم على أن يخطب لابنه اسحق زوجة ولكي تكون ذريه اسحق من نسل طاهر جمع عزمه على أن يزوج ابنه عروسا من أقاربه فمن ثم أرسل اليعازر أمين بيته الى نواحي ميزوبوتامية وواثقه بقسم أكيد أن يختار لاسحق زوجة بمعرفته من عائلته ولما وصل اليعازر الى حيران أو حاران وتقابل مع عائلة بتويل بن ناحور أخي ابراهيم وقع اختياره بالالهام الالهي على رِبْقَا مباشرة وكانت هذه الشابة أجمل بنت في البيت وأصغر من فيه فلما سمعت بما جاء اليعازر من أجله رغبت وسلمت في كونها تترك عائلتها وتصير زوجة لاسحق ابن عمها وصحبت اليعازر ورجع بها عائدا الى أرض كنعان وقابلها اسحق وأبوه ابراهيم مع غاية الاحتفال والابتهاج وكان عمر اسحق يوم زواجه أربعين سنة

ومن بعد مضي مدة من اجتماعهما قدرها عشرون سنة ولدت له عيص ويعقوب توأمين ومعنى عيص أدوم أي الاحمر بسبب احرار جلده ويعقوب أي المتعقب ومن بعد زواج اسحق تزوج ابراهيم بامرأة أخرى مع أن عمره كان بلغ مائة وأربعين سنة وكان اسمها قطورة فولدت لابراهيم ستة أولاد وهم نغشان وزمران ومدين ومدان ونشق وسرح فكان جميع أولاد ابراهيم مع اسمعيل واسحق ثمانية وكان اسمعيل بكره ومدين هو أبو المديانيين وهم سكان الاراضي الموجودة بين البحر الميت وخليج عيلام (العقبة) من البحر الاحمر الى الساحل النابتياني وأهدى ابراهيم لهؤلاء الابناء الستة

هدايا جليلة وأخرجهم من أرض فلسطين حتى لا يكون لهم تداخل فيما يرثه اسحق ووصى ابراهيم بجميع أمواله الغزيرة الى اسحق ومات وكان موته على المشهور فى بئر السبع بعد أن بلغ أحسن العمر وأجوده وكان عمره مائة وخمسا وسبعين سنة وكان موته بعد ولادة العيص ويعقوب بخمس عشرة سنة ودفنه ولداه اسمعيل واسحق فى غار المكفيلة

واستمر اسحق بعد موت ابراهيم مقيما بجهة بئر لحى رُوئى من الطرف الجنوبى لارض فلسطين وفيها شب ولداه وترعرعا حتى بلغا مبلغ الرجال فكان العيص همجيا وحشيا طائش العقل صاحب صيد محبا لابيه اسحق وكان خشن البدن كثير الشعر جالبا القلاقل والارتباكات على والديه ولما بلغ عمره أربعين سنة تزوج امرأتين من بنى حث على غير رغبة من أبيه وبهذا أدخل الارتباطات الوثنية فى العائلة المختارة المصطفوية وأما يعقوب فكان على سكينة ووقار رجلا سلما هادئا فى حركاته وسكناته مدبرا فى أموره مستحضرا الأن ينال بالدهاء ما يرغب أن يستحوذ عليه العيص بالبطش والقوة الجبرية وكان ناعم الجلد محبا لامه مواظبا على الطريقة والسلوك الهادى فى رعى الاغنام والمواشى مكتوفا فى الخيمة عند عدم وجود أشغال له

ثم ان العيص جاء يوما من الايام تعبان جهدان جوعان من الصيد فرأى يعقوب يحضر لنفسه أكلة لذيذة من عدس أحمر فطلب عيص من يعقوب قليلا من هذا الاحمر فطلب يعقوب منه أن يبيعه حق بكوريته بهذه الاكلة ولما كان الصياد يرغب فقط فى سد رمق جوعته فى الوقت رضى أن يبيع حق بكوريته ليعقوب بمع الطيش وعدم التبصر وتراءى له أن حق بكوريته ثمن بخس فى مثل هذه الاكلة فلهذا لقبه بعض الناس بالرجل الشهوانى الدنيوى الذى باع حق بكوريته بلقمة من طعام العدس ومثله بالذين يفقدون نعيمهم الدائمى بلذة وقتية وشهوة دنيوية والظاهر أن عدله فى هذا الحكم أخذه من ملاحظته بيع حق البكورية بثمن بخس مثل هذا وكان العيص بالنظر لحقوق البكورية رأس العائلة وامامها ومالكها ولا يمكن أحدا ابطال هذه الخصائص وهذه الامتيازات الا اذا أبطلتها أوامر الهية تنزل من عند الله المعطى الوهاب فضلا عن أن يكون هذا الخير والبركة فى بذرته وعقبه الموجود على وجه الارض وأن يكون رأس العائلة المختارة وتنتقل اليه بركة ابراهيم ومواعيده التى وعده الله بها ولما استخف بحقوق بكوريته وازدرى بها أخرج نفسه من العائلة الطاهرة وصار رجلا شهوانيا دنيويا وتولد مما أجراه يعقوب من الحيلة والدهاء منفعة عادت عليه وحصل معها تغييرات كبيرة كما سنذكره فى سرد تاريخه

وأخيرا فانه لما اقترب عمر اسحق من مائة سنة وأنذره طول حياته وكف بصره بان انقضاء أجله قد حان ولا بد له من أن ينقل دعوة ابراهيم وبركته وهى الحكم والنبوة وهى هبة لا تلغى أوصى بها الى العيص وما اعترف العيص لابيه وقال له انه باع حق بكوريته وما كان ليعقوب جراءة أيضا على أن ينال بحيلته التى أجراها فائدة لنفسه وكان أبوهما غير عالم بما أجراه يعقوب من شراء حق البكورية وان له البركة والسعادة فأخبر اسحق ابنه العيص بما يريده من أمره وقال له لما كبر وعمى يابنى أطعمنى لحم صيد واقترب منى لأدعو لك ببركة ابراهيم وأنقل الوصاية اليك وكان أبوه كثير المحبة له فخرج العيص الى الصيد لجلب اللحوم اللازمة لابيه وكان كثير المحبة لها وفى مدة غيابه قصت ربقا على يعقوب قصد زوجها وقالت له يابنى اذبح شاة واشوها والبس جلدها وقربها الى أبيك وقل له أنا ابنك عيص ففعل

ذلك يعقوب فلما جاء قال يا أبتاه كل قال من أنت قال أنا ابنك عيص فمسه اسحق فقال المس مس عيص والريح ريح يعقوب فقالت أمه انه عيص فكل فأكل ودعا له أن يجعل الله في ذريته النبوة والملك وقام يعقوب ولما جاء العيص الى البيت كشف خبر الفعلة التي فعلها أخوه التي يستحق عليها المؤاخذة فتوجه الى أبيه وقال له قد جئتك يا أبي بالصيد الذي طلبت فقال يا بني قد سبقك أخوك خلف عيص ليقتلن يعقوب فقال يا بني قد بقيت لك دعوة فدعا له أن تكون ذريته عدد التراب وأن لا يملكهم غيرهم وأن يكون عيص على طاعة أخيه ولا يتعرض له بسوء بما أن الدعوة سبقت له ولا يمكن رجوعها لغيره

وعزم عيص على قتل أخيه يعقوب من هذا الوقت الا أنه لما كان لا يرغب أن يفجع فيه أباه أخر بطشه به حتى يموت اسحق ولما استيقظت ربقا لذلك حرضت زوجها على أن يرسل يعقوب الى أهلها حفظا على سلامته وكان اسحق على رغبة زائدة في هذا الامر اذ يتيسر الحصول ليعقوب على زوجة من الدم الطاهر فأخذ وارث العهد عصاه في يده وخرج مسافرا الى ميزوبوتاميه سالكا في رحيله الطريق التي دخل منها ابراهيم أرض كنعان ولما وصل الموطن القديم الذي كان ابراهيم قاطنا فيه وهو بيت إيل قضى ليلته فيه وأخذ حجرا وضعه تحت رأسه كوسادة له ومن المحتمل أن هذا الحجر كان أحد الحجارة التي ابتنى بها ابراهيم المذبح فرأى في منامه رؤيا أن الله سبحانه وتعالى زاره ورأى سلما منيرا مرصعا واصلا من الارض الى أبواب السماء صاعدة عليه الملائكة ونازلة يفعلون ما يؤمرون كأنهم مأمورين روحانيين في الارض ذوي شدة وبأس ولهم صور جميلة وهيآت ظريفة عجيبة مجرين المحافظة على عياله وأن الله تجلى له في المنام وجدد معه الميثاق الذي واثقه مع ابراهيم وأعطاه موعدا خاصا به من المحافظة على حياته فاستيقظ يعقوب من منامه وأقام في هذه البقعة مذبحا وسماه بيت إيل ومعناه بيت الله اعترافا بوجود الله سبحانه وتعالى وتفكر في نفسه مع غاية الخشوع والخضوع أن جميع ما سيعطيه الله له هو بخصوص خدمة خالقه وهذه الحادثة العظيمة التي تولد منها توجه يعقوب الى الحالة الدينية حصلت عند ما بلغ عمره سبعا وسبعين سنة

ثم استمر يعقوب راحلا في سيره حتى وصل الى موطن خاله لابان أخي أمه في نواحي فدان ارم فقابلوه مع الرحب والسعة وشغف في الوقت بحب راحيل الجميلة بنت خاله وكانت أصغر بنت في بيت خاله فأخذ يخدم خاله في رعي الاغنام بالاجرة وطلب من خاله زواجه براحيل وأن تكون خدمته له من أجلها مدة سبع سنوات فقبل لابان هذا الشرط وكان أكثرها ثمن يعقوب وانتهز الفرصة وجعل حالة الزواج على حسب عادة البلاد فزوجها بنته الكبيرة ليا وكانت مصابة بمرض في عينيها فشق ذلك على يعقوب وغضب وأخذه الحنق من فعل خاله هذه الخيانة لكنه كظم غيظه وأخفى أمره والتزم الانقياد لطاعة خاله واتفق أن يخدم لابان سبع سنين أخرى من أجل محبوبته راحيل وفي هذه السبع سنين ولد ليعقوب أحد عشر ولدا وبنت واحدة فكان أولاد ليا روبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويساكر وزبولون وولدت راحيل ولدا اسماه يوسف وولدت ليا بنتا سماها دينة وكان ليعقوب غير هؤلاء أربعة أولاد أخر من سريتين له وهن بلهة جارية راحيل ولدت له دان ونفتالي وكذا زلفة جارية ليا ولدت له جاد وأشير

ومن بعد ولادة يوسف وكان هو أصغر هؤلاء الابناء اشتاق يعقوب الى العود والرجوع الى بلده فأخبره

لابان بأن يخدمه مدة ما بأجرة تقدر له من قطيع الاغنام فقال له يعقوب ان نصيبي من الاغنام ينبغي أن يكون فيه اشارات مخصوصة فشرع لابان في بطلان هذا الرأي بطرائق غير محمودة ومن ثم احتال له يعقوب وكان ماهرا في تربية الاغنام وموالـيدها وقنيتها فجعل لنفسه القسم الاكبر من نتاج الاغنام وصار يعقوب بهذه الحالة في ثروة عظيمة من المواشي والخادمات والخدم والجمال والحمير

و بعد أن أقام يعقوب عشرين سنة مع لابان أمره الله سبحانه وتعالى أن يرجع الى أرض كنعان نخشى أن لابان ربما يمنعه فرحل على خفية من لابان ولما عبر نهر الفرات مر من وسط الصحراء من طريق عين بلميرا وهي مدينة تدمر ثم رحل عابرا القسم الشرقي من سهل دمشق وهضبة جبل باشان ودخل في اقليم جلعاد الكائن شرقي نهر الاردن وهو الحد الفاصل بين فلسطين وصحراء سوريا فلحقه في هذا المكان لابان مع قوة كبيرة من قومه وكانت راحيل حملت معها آلهة بيت أبيها وأخفتها بتدبيرها وأنذر الله سبحانه وتعالى لابان أنه لايضر يعقوب ولا يؤذيه ولما ضل سعيه وخاب أمله وفتش على أصنامه فلم يجدها عمل معاهدة مع يعقوب وكوم كوما من الحجارة شاهدة عليه بهذه المعاهدة ثم فتح يعقوب عينيه فرأى جماما من الملائكة جنود الله أرسلت للمحافظة عليه ومعسكرين بالقرب من محل اقامته ولما رأى نفسه قريبا من جبل سعير وكان أخوه عيص فيه رئيسا وصاحب قوة وشوكة أوجس يعقوب في نفسه خيفة من أن عيص ربما يحث على الاخذ بثأر ضياع حق البكورية و يبطش به و يقتله و يقبض على أهله ومواشيه فأرسل له يعقوب رسولا أمينا بالسلم والصداقة فجاء عيص لمقابلته في رأس أربعمائة محارب فارتاع يعقوب من ذلك واستعد لملاقاة الخطر المهدد له وقسم أهله ومواشيه الى قسمين وقصده بذلك نجاة الثاني ان وقعت الغارة على الاول ثم توجه بالدعاء والابتهال الى الله تعالى وبعد ذلك أرسل هدايا الى أخيه وقضى ليله وقام قبل طلوع النهار من صباح اليوم التالي وأرسل أزواجه وأولاده الى يبوق وبقي هو خلفهم يجهز نفسه بفكره على حدته لما يلاقيه في النهار وبينما هو مقيم في مكانه مشغول بأفكاره اذ ظهر له انسان وتصارع معه حتى لاح الفجر ولما رأى الرجل من يعقوب القوة وأنه غير متيسر له الغلبة عليه قبض على حق فخذه وخلعه وقت مصارعته اياه وقال له دعني أتوجه لان الفجر انفلق فقال له يعقوب لا أدعك تذهب مالم تدع لي بالخير والبركة فقال له ما اسمك قال يعقوب قال لا تسم نفسك بعد اليوم باسم يعقوب بل اسرائيل لانك حزت الامارة والقوة عند الله وعند الناس فسأله يعقوب أرجوك أن تخبرني عن اسمك فقال له ماهي الاسباب التي دعتك أن تسألني عن اسمي ودعا له بالبركة في هذا المكان وسمى يعقوب هذا المكان باسم (فنئيل) ومعناه رأيت الله مواجهة وصارت حياتي محفوظة

ولم يشف يعقوب من العرج الذي أصابه في فخذه من قبض الملك عليه وصارت بنو اسرائيل لايأكلون أعصاب الافخاذ في غالب السنين تذكارا لهذه الحادثة

ولما نزل يعقوب وادي يبوق تقابل مع أخيه عيص فرحب به مع الاشتياق الزائد والمحبة القلبية وصفح العسكري الخشن عما كان في قلبه من مدة طويلة عن أخيه نظير ما فعله معه من الدهاء بخصوص النعمة الالهية التي لايعادل قيمتها شيء واكتفى بالفوز والنجاح الدنيوي وكان ذلك من قسمته ونصيبه

ومن بعد أن اجتمعا مع بعضهما وتصالحا رجع عيص الى جبل سعير واستمر يعقوب في سيره حتى وصل نهر الاردن فعبره من ناحية سكوت ولما دخل أرض كنعان توجه الى وادي شكيم وكان فيه مدينة

كبيرة من الحوريين واشترى منهم قطعة أرض كانت هي الملك الاول للعائلة المختارة في الارض الموعودة وبنى فيها مذبحا سماه مذبح إيل أي الاه اسرائيل

ومن هذا الوقت ابتدأ يعقوب في مقاساة الاهوال والشدائد في مدة حياته وذلك لحصول شيء لا يليق ذكره بينه وبين شكيم بن حمور أمير الشكيميين وللسبب المذكور انتهز أولاد يعقوب فرصة طرد غفراء الشكيميين حتى سقطوا عليهم غيلة وذبحوا جميع ذكورهم وسلبوا مدينتهم وساقوا نساءهم وأطفالهم ومواشيهم وأنعامهم وأغنامهم فغضب يعقوب غضبا شديدا من هذا الفعل الفظيع وخشي من الكنعانيين ربما يأخذون بثأر ذبح اخوانهم ويبطشون به فارتحل بأهله وأمتعته الى بيت إيل ومنه سار الى الجهة الجنوبية نحو حبرا وكان أبوه اسحق في هذا المكان على قيد الحياة وماتت زوجته الودودة راحيل في نواحي بيت لحم وقت ولادتها بنيامين ودفنها يعقوب هناك وقبرها موجود لحد الآن ثم سار يعقوب الى حبرا واتصل به وعاش اسحق بعد ذلك عدة سنين ومات وعمره مائة وثمانون سنة فدفنه ابناه عيص ويعقوب في غار المكفيلة وكان موته بعد بيع اخوة يوسف أخاهم يوسف بثلاث عشرة سنة تقريبا

وكان يوسف الابن البكري لراحيل محبوب أبيه وله أظهر يعقوب محبته واقباله عليه ولما رأى اخوة يوسف ذلك حسدوه وعظم عندهم ذلك وزاد على يوسف هذا الحسد كونه كان رقيبا عليهم من طرف أبيهم ينقل اليه ما يفعلونه ومع كونه كان غلاما عمره اثنتا عشرة سنة كان يرى منامات عظيمة من جملتها أنه رأى في منامه كان أحد عشر كوكبا والشمس والقمر تسجد له فقصها على أبيه فقال له أبوه يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للانسان عدو مبين ثم عبر له رؤياه فقال وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث وقيل ان يوسف قص هذه الرؤيا على اخوته أو أن امرأة يعقوب سمعت ما قال يوسف ليعقوب من الرؤيا وما قاله يعقوب من التعبير فلما جاء أولاد يعقوب من الرعي أخبرتهم بالرؤيا فازدادوا حسدا وكراهة له وقالوا لها ما أراد بالشمس غير أبينا وما أراد بالقمر غيرك وما أراد بالكواكب غيرنا ثم تآمروا بينهم أن يفرقوا بينه وبين أبيه وقالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة ان أبانا لفي ضلال مبين اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين قال قائل منهم وهو روبيل وكان أفضلهم وأعقلهم لا تقتلوا يوسف فان قتل أخيكم عظيم وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة وأخذ عليهم عهدا بذلك واجتمعوا سوية ودخلوا على أبيهم فلما رآهم قال ما حاجتكم قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون أي حافظون أرسله معنا غدا الى الصحراء يرتع ويلعب وانا له لحافظون فقال لهم يعقوب انه ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون فقال له بنوه لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون فلما سمع ذلك يعقوب اطمأن اليهم وقال يوسف يا أبت أرسلني معهم قال أو تحب ذلك قال نعم فأذن له فلبس ثيابه وخرج معهم وهم له مكرهون فلما برزوا في البرية أظهروا له العداوة وصاروا يضربونه حتى كادوا يقتلونه وهو يصيح فقال لهم روبيل أوليس قد أعطيتموني عهدا وموثقا أن لا تقتلوه فانطلقوا به الى الجب فأوثقوه كتافا ونزعوا قميصه وألقوه فيه ثم عادوا الى أبيهم عشاء يبكون قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب فقال لهم

أبوهم بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل وأقام يوسف فى الجب ثلاثة أيام ثم جاءت سيارة فأرسلوا واردهم وهو الذى يتقدم الى الماء فأدلى دلوه فى البئر فتعلق به يوسف فأخرجه من الجب وقال يابشرى هذا غلام وأسروه بضاعة ثم جاء روبيل بطعام ليوسف فلم يره فى الجب فنظر فرآه عند مالك فى المنزل فأخبر اخوته بذلك فأتوا مالكا وكان رئيس السيارة وقالوا هذا عبد أبق منا وخافهم يوسف فلم يذكر حاله وشروه من اخوته بثمن بخس وذهبوا به الى مصر فكساه مالك وعرضه للبيع فاشتراه فوطيفار أو فيطفرمو وهو من ضباط جند ملك مصر المنوه عنه فى الكتب المقدسة بلقب فرعون فلما اشترى هذا الضابط يوسف أتى به الى منزله وقال لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكانت امرأته حسناء ناعمة فى ملك ودنيا فلما خلا من عمر يوسف ثلاث وثلاثون سنة آتاه الله العلم والحكمة قبل النبوة وراودته المرأة عن نفسه وغلقت الابواب عليه وعليها ودعته الى نفسها فقال معاذ الله انه ربى يعنى ان زوجك أحسن مثواى انه لا يفلح الظالمون يعنى ان خيانته ظلم فلم تزل به حتى همت به وهم بها فاذا هو بصورة يعقوب قد عض على اصبعه يقول يا يوسف أتواقعها فلما رأى برهان ربه قام هاربا يريد الباب فادركته قبل خروجه من الباب فجذبته من قميصه من قبل ظهره فقدته وألفيا سيدها لدى الباب وابن عمها معه فقالت ما جزاء من أراد بأهلك سوأ الا أن يسجن أو عذاب أليم قال يوسف بل هى راودتنى عن نفسى فهربت منها فادركتنى فقدت قميصى قال ابن عمها بيان ذلك فى القميص فان كان قد من قبل فصدقت وان كان قد من دبر فكذبت فلما رأى قميصه قد من دبر قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم وقال زوجها ليوسف أعرض عن هذا أى لا تذكره لاحد وقال لزوجته استغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين وتحدث النساء بأمر يوسف وأمر سيدته وبلغ ذلك سيدته فأرسلت اليهن وأعتدت لهن متكأ يتكئن عليه أى وسائد تحضرن وقدمت لهن أترجا وأعطت كل واحدة منهن سكينا لقطع الاترج وكانت أجلست يوسف فى مجلس غير المجلس الذى هن فيه وقالت له اخرج عليهن فخرج فلما رأينه أكبرنه وأعظمنه وقطعن أيديهن بالسكاكين ولا يشعرن وقلن حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين فاختار يوسف السجن على معصية الله تعالى فقال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه والا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ثم بدا للضابط من بعد ما رأى الآيات من القميص وغيره أن يضعه فى السجن سبع سنين ولما حبس يوسف كان فى السجن فتيان من خدم فرعون اتهموا بثورة كانت حصلت فى سراية فرعون أحدهما كبير شرابه والآخر كبير طعامه ولما دخل يوسف السجن حبب الله عليه قلوب جميع من كان فى السجن والسجانين وحكام السجن وقال انى أعبر الاحلام فقال أحد الفتيين للآخر هلم فلنجربه فقال كبير الطعام انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه وقال الآخر انى أرانى أعصر خمرا فقال لهما يوسف أما أحدكما وهو الذى رأى أنه يعصر الخمر فيسقى ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه فلما عبر لهما قالا ما رأينا شيأ قال قضى الامر الذى فيه تستفتيان ثم قال له رئيس الشراب وهو الذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك الملك وأخبره أنى محبوس ظلما فنسى ذلك وتحققت تعبير رؤياهما وصار الصفح والعفو عن كبير السقاة وأعيد الى وظيفته وقتل كبير الطباخين واستمر كبير السقاة على نسيانه حتى مضى على ذلك سنتان ولما رأى

الملك رؤياها ثم أزعجته وهى أنه رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ورأى سبع سنبلات خضر وأخر يابسات جمع السحرة والكهنة وغيرهم من أرباب المعارف وقص عليهم رؤياه فقالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أى حين أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون فأرسلوه الى يوسف فقص عليه الرؤيا فقال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تأكلون ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون فان البقرات السمان سنين خصبة والبقرات العجاف سنين قحطة وكذا السنبلات الخضر واليابسات فعاد الى الملك فأخبره فعلم أن قول يوسف حق فقال ائتونى به فلما أتاه الرسول ودعاه الى الملك قال له ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن فلما رجع الرسول من عند يوسف سأل الملك أولئك النسوة فقلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ولكن امرأة العزيز أخبرتنا أنها راودته عن نفسه فقالت امرأة العزيز أنا راودته عن نفسه ذلك أى امتناعى وردت الرسل ليعلم سيدى أنى لم أخنه بالغيب فى زوجته فلما ظهر للملك براءة يوسف وأمانته قال ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما جاءه الرسول خرج معه واغتسل ولبس ثيابه وقصد الملك فلما وصل اليه وكلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين فقال له يوسف ان رؤيا الملك من الانباآت الغيبية وانها من عند الله تنذره بحصول ما سيقع من سنى الخصب وسنى القحط وانى أحث الملك على أن يستعد لسنى القحط بعمل أشوان لمحصولات الغلال فى مدة سنى الخصب فى نقط وفى محلات معينة من مملكته لملاقاة سنى القحط

وكانت مملكة مصر فى ذلك الوقت مقسومة الى مملكتين وهما مصر العليا المعروفة بالصعيد كانت محكومة بملوك من الوطنيين المصريين ومصر السفلى وكانت محكومة من قرون مضت بفاتحى الكنعانيين المعروفين بالرعاة أو الهكصوص وكان هؤلاء استحسنوا العوائد المصرية ولغتهم وكان الملك الذى أرسل ليوسف أحد العائلة الهكصوصية واسمه أبوفيس أو أبيبى وحصل له من تعبير يوسف رؤياه خوف شديد وارتباك فقال ليوسف ماذا يكون الامر فى ذلك فقال له يوسف اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم فولاه عمل مصر وسلمه ختمه وقضيبه وجعل الامر والنهى بيده وأصدر الملك أوامره بانقياد الاهالى وطاعتهم له وشرع فى بناء الاشوان والمخازن فى كل جهة من جهات المملكة ولقبه المصريون باسم ظَفْنات فَعْنيح أى مغذى مصر وتزوج بزوجة اسمها إِسْنان بنت فُوطيفارع كبير قسس هليوبوليس المسماة بالمطرية أو عين شمس وولدت له ولدين مَنَشّا وإفرايم فلما ولى يوسف خزائن أرضه ومضت السنون السبع الخصبات وكان جمع فى مدتها الطعام فى سنبله ودخلت السنون المجدبة وقحط الناس كان عنده فى أشوانه من الغلال والذخائر ما يقوم باحتياج أهل مصر وما يبيع منه للبلاد المجاورة لمصر التى ربما يصيبها القحط فكان يبيع لاهل مصر بالاثمان الباهظة بشروط قوية صعبة ويطلب منهم أن يسلموا الرواتب المضروبة على الارض اللازمة لوقاية حياتهم وضرب عليهم خمس محصول الزراعة أجرة الفلاحة والارض زيادة عن الخراج الملوكى المرتب عليهم من قبل وما كان هذا القانون جاريا على القسس لانهم كانوا مستحوذين على طلباتهم واحتياجاتهم من الاشوان العمومية

وانتشر هذا القحط حتى وصل قسم فلسطين وكان يعقوب مقيما فيه فبعث بنيه الى مصر وأمسك

بنيامين أخا يوسف لامه فلما دخلوا على يوسف عرفهم وهم له منكرون وكان انكارهم له لبعد عهده عنهم وتغيره ملابسه الملوكية فلما نظر اليهم قال ماشأنكم قالوا نحن من أرض فلسطين جئنا نمتار الطعام وأخذ يسألهم عن أبيهم وأخيهم الاصغر بنيامين ثم قال لهم ائتونى به أنظر اليه فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون قالوا سنراود عنه أباه وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم أى ثمن الطعام فى رحالهم لعلهم يرجعون وكان يوسف حين رأى ما بالناس من الجهد قد آسى بينهم فكان لا يحمل للرجل الا بعيرا واحدا فلما رجعوا الى أبيهم بأحمالهم قالوا يا أبانا ان عزيز مصر قد أكرمنا كرامة لو أن بعض أولاد يعقوب ما زاد على كرامته وقال أونى بأخيكم فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل فلما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير قال يعقوب ذلك كيل يسير فقال يعقوب لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به الا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل ثم أوصاهم أبوهم وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه وعرفه وأنزلهم منزلا وقدم لهم الطعام وأجلس بجانبه بنيامين أخاه ولما أكلوا قضوا الليل فى منزله ولما حمل يوسف ابل اخوته من الميرة جعل الاناء الذى يكيل به الطعام فى رحل أخيه فلما ارتحلوا أذن مؤذن أيتها العير انكم لسارقون قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الارض وما كنا سارقين لانا رددنا ثمن الطعام الى يوسف فلما قالوا ذلك قال فما جزاؤه ان كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه تأخذونه لكم فبدأ بأوعيتهم ففتشها قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه فقالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل يعنون يوسف ولما استخرجت السرقة من رحل الغلام قال اخوته يا بنى راحيل لا يزال لنا منكم بلاء فقال بنيامين بل بنو راحيل ما يزال لهم منكم بلاء وضع هذا الصواع فى رحلى الذى وضع الدراهم فى رحالكم فأخذ يوسف أخاه بحكم اخوته وقالوا يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه فقال معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده فلما أيسوا من خلاصه خلصوا نجيا لا يختلط بهم غيرهم فقال كبيرهم وهو شمعون أو روبيل ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله أن نأتيه بأخينا الا أن يحاط بنا ومن قبل هذه المرة ما فرطتم فى يوسف فلن أبرح الارض حتى يأذن لى أبى بالخروج وقيل بالحرب فارجعوا الى أبيكم فقصوا عليه خبركم فلما رجعوا الى أبيهم وأخبروه بخبر بنيامين وتخلف روبيل قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا يوسف وبنيامين وروبيل ثم أعرض عنهم وقال واحزناه على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم أى ملئ من الحزن والغيظ فقال له بنوه تالله لا تزال تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين فأجابهم يعقوب انما أشكو بثى وحزنى الى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ثم ان يعقوب أمر بنيه الذين قدموا عليه من مصر بالرجوع اليها وتجسس الاخبار عن يوسف وأخيه فرجعوا الى مصر فدخلوا على يوسف وقالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة أى قليلة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا برد أخينا فلما سمع كلامهم غلبته نفسه وسكبت عبراته وعرفهم بنفسه بعد قوله لهم هل علمتم ما فعلتم بيوسف اذ أنتم جاهلون قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا بأن جمع بيننا فاعتذروا وقالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين قال لا تثريب عليكم أى لا أذكر لكم

ذنبكم

ذنبكم يغفر الله لكم ثم سألهم عن أبيهم فقالوا المانه بنيامين عمى من الحزن فقال اذهبوا بقيصى هذا فالقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتونى باهلكم أجمعين فقال روبيل أنا أذهب به لانى ذهبت اليه بالقميص ملطخا بالدم وأخبرته أن يوسف أكله الذئب فانا أخبره انه حى فافرحه كما أحزنته وكان هو البشير ولما فصلت العير عن مصر قال يعقوب انى لاجد ريح يوسف لولا أن تفندون فقال له من حضره من أولاده تالله انك من ذكر يوسف لفى ضلالك القديم فلما أن جاء البشير بقميص يوسف ألقاه على وجه يعقوب فعاد بصيرا وقال ألم أقل لكم انى أعلم من الله مالا تعلمون وقال يعقوب للبشير كيف تركت يوسف قال تركته ملك مصر قال ما أصنع بالملك على أى دين تركته قال على دين الاسلام فقال الآن تمت النعمة فقال له من حضر من أولاده يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا قال سوف أستغفر لكم ربى ثم ارتحل يعقوب وولده فلما دنا من مصر خرج يوسف يتلقاه ومعه أهل مصر ولما دخلوا مصر رفع أبويه يعنى أباه وخالته على العرش أى الكرسى وخرله يعقوب وخالته واخوته سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وعند نزول العائلة المختارة فى مصر تم وعد من المواعيد التى وعدها الله سبحانه وتعالى ابراهيم ومنحهم ملك مصر الاراضى الكائنة فى اقليم غسان أو حسان من مديرية الشرقية فى أرض مصر فاقاموا فيها

ومن بعد مضى سبع عشرة سنة توفى يعقوب فى مصر بعد أن بلغ من العمر مائة وسبعا وأربعين سنة واستغفر لاولاده ودعا لهم بالبركة والخير وهو على فراش موته وأخبرهم بان أولاديهوذا يرثون المواعيد الالهية التى أعطيت لابراهيم وأن يكونوا رأس العائلة المختارة وأن روبيل وشمعون ولاوى أولاد يعقوب الكبار فصلوا أنفسهم من الوراثة بسبب ما حصل منهم من الجرائم والذنوب وبعد أن مات يعقوب صبرت جثته مثل عادة المصريين وحمل فى محفل عظيم مع يوسف واخوته وقوة عظيمة من خفر العساكر المصرية الى فلسطين ودفن فى قبر ابراهيم فى حبرون ثم بعد ذلك عاش يوسف خمسين سنة متمتعا بالسرور وعلو الرفعة والاجلال محافظا على عائلته حتى مات بعد أن بلغ من العمر مائة سنة وعشر سنين بعد أن عقد محالفة مع اخوته وهو على فراش موته بحمل جثته الى أرض كنعان عند خروج الاسرائليين من مصر

قيل ان اسم شعيب يثرون أو يثرو وان الله تعالى أرسله الى أهل مدين وهم أصحاب الأيكة ومعناها الشجر الكثيف الملتف وكانوا أهل كفر بالله وبخس للناس فى المكاييل والموازين وافساد أموالهم وكان الله وسع عليهم فى الرزق وبسط لهم فى العيش فقال لهم شعيب يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان انى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط فلما طال تماديهم فى غيهم وضلالهم ولم يزدهم تذكير شعيب وتحذيره اياهم عذاب الله الا تماديا ولما أراد هلاكهم سلط عليهم يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم وذلك أن الله بعث عليهم وقدة وحرا شديدا فاخذ بأنفسهم فخرجوا من البيوت هاربين الى البرية فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس فوجدوا لها بردا ولذة فنادى بعضهم بعضا حتى اجتمعوا تحتها فأرسل الله عليهم نارا فأهلكتهم فهذا عذاب يوم الظلة

(الباب الثانى)

خروج الاسرائيليين من مصر واضلالهم فى وادى التيه

شبوب الامة الاسرائيلية فى مصر ـ أحوالها فى وادى غسان ـ طرد الهكصوص من مصر ـ قيام العائلة التاسعة عشرة ـ الظلم والجور الشديد الذى حصل للعبرانيين ـ مولد موسى عليه السلام ـ تربيته وتهذيبه كامير مصرى ـ هجرته من مصر ـ حياته أو معيشته فى جبل سينا ـ التهاب العوسجة ـ دعوة موسى لان يكون قائد قومه ـ توجهه الى سراية فرعون ـ عدم قبول طلبه ـ آيات مصر وآفاتها ـ ترتيب ونظام عيد الفصح ـ الخروج ـ عبور البحر الاحمر ـ السير أو التوجه الى سينا ـ تشريع الشريعة ـ ترتيب الامة ـ الشروع فى السير ـ رجوع الجواسيس ـ عصيان الاسرائيليين ـ هزيمتهم بواسطة الكنعانيين ـ ضلالهم وجولانهم فى الصحراء ـ موت هارون ـ التقدم الى الارض الموعودة ـ التغلب على الاراضى الموجودة فى شرق الاردن ـ هزيمة المواَبيين ـ موت موسى عليه السلام

لم يبتدئ التاريخ الحقيقى للاسرائيليين بأنهم كانوا أمة الامن بعد رحيلهم من مصر وأما ابراهيم وذريته فكانوا رحالة نزالة على الارض الموعودة لايملكون فيها شيأ

ومكث الاسرائيليون فى الارض الخصبة من وادى غسان مدة مقدارها اثنان وخمس عشرة سنة وفى هذه الجهة حصل لهم النجاح والفوز حتى بلغوا الى درجة عظيمة وذلك أن العائلة التى كانت مركبة من سبعين شخصا ودخلت مصر مع يعقوب عليه السلام نمت وشبت وصارت أمة كثيرة العدد بلغ احصاؤها نحوا من ثلاثة ملايين نسمة وجعلوا أنفسهم أمة قائمة بنفسها على حدة من المصريين مع لغتهم وعوائدهم وعباداتهم الدينية وحكومة نبوية بينهم ومن المحقق أنهم لم يعبدوا الله حق عبادته بل كانوا على بقايا من عبادة الله ابراهيم واسحق ويعقوب الا أنهم لم يقبلوا الدخول فى الشعائر الوثنية التى كانت جارية فى عبادة المصريين وكانوا محكومين بامراء من أنفسهم مسؤلين مباشرة لدى الحكومة المصرية فى جمع الضرائب والعوائد المقررة على المستعمرة العبرانية

وفى أثناء هذه المدة نجح الملوك القبلية الموجودون فى الصعيد وطردوا عائلة الرعاة ومدوا حكمهم على مصر السفلى حتى صارت مملكة مصر واحدة وكانت هذه العائلة الوطنية على غاية من المجد والافتخار لم تحكم مصر عائلة مثلها قبلها وكان ملوكها يكرمون المستعمرة العبرانية ويحترمون وجوهها وأجلاءها

ثم تغير هذا الموضوع وانقلب الحال عندما حكمت العائلة التاسعة عشرة من العائلات المصرية واستلمت زمام الشوكة والسلطنة وذلك أن هؤلاء الملوك رأوا أنه يتولد من العبرانيين الضرر الاكبر والخطر الاعظم بسبب ماهم عليه من كثرة العدد والتبوّء فأبلوهم بالظلم القاسى والجور الشديد وقصدهم بذلك نقص شوكتهم وهلاك أنفسهم وكان الملك الذى شرع فى هذا الامر اسمه رعمسيس وكان رجلا حربيا مستبدا فى حكمه ذا شدة وعنف فحمل الاسرائيليين أثقل الاحمال من الاشغال الصعبة وألزمهم أن يكونوا فى أشغالهم تحت ملاحظين ومراقبين ذوى بأس شديد وكلفهم بالاشغال فى بناء المدائن والهياكل ولما رأى الملك أن ما أجراه من الاعمال على الاسرائيليين بغير فائدة من تحملهم المشاق

والمتاعب وأنهم لا يزالون مستمرين فى النمو وكثرة العدد غضب غضبا شديدا وأمر بقتل الذكور من أطفال العبرانيين وقت ولادتهم واحياء الاناث ليكن زوجات للمصريين وبذا عشم الملك فى انقراض كامل هذه الملة

وكان عمران وهو رجل من سبط لاوى متزوجا بوحانذ امرأة من عين السبط فخلف منها طفلين سمى أحدهما هارون وبنتا سماها مريم وبعد ولادتهما بقليل انتشر الامر القاسى من الملك وهو فرعون فولدت يوحانذ ابنا آخر أخفته مدة ثلاثة أشهر من مأمورى الملك وقيل أجمع فرعون وكبار قومه على أن يبعث رجالا يقتلون كل مولود فى بنى اسرائيل وأمر القبط أن يخرجوا مما اليكهم من الاشغال ويجعلوا بنى اسرائيل بدلهم فى الاشغال فذلك قول الله عز وجل ان فرعون علا فى الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم فجعل لا يولد لبنى اسرائيل مولود الا ذبح ولما ضاقت أم موسى ذرعا وخافت عليه بعد أن أرضعته ثلاثة شهور ألهمها الله فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم وهو نهر النيل ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين فوضعته فى تابوت وطلته بالقار وألقته فى اليم وقالت لاخته مريم قصى أثره فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون فأقبل الموج بالتابوت حتى أدخله بين أشجار وحلفاء عند مساكن فرعون فخرجت بنت فرعون مع جواريها يغتسلن فى النيل فوجدن التابوت فأخذنه وأدخلنه على امرأة فرعون فلما فتحته ونظرت الى الطفل الموجود فيه وقعت عليها رحمته وأحبته وأخبرت به فرعون فقال لها انى أخاف أن يكون هذا من بنى اسرائيل وأن يكون هذا الذى على يديه هلاكنا كما أخبرنى بذلك المنجمون فذلك قوله عز وجل فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وأرادوا له المرضعات فلم يأخذ من أحد من النساء فذلك قوله تعالى وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت أخته مريم وكانت حاضرة فى الوقت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون وانطلقت الى أمها وأخبرتها الخبر فجاءت اليه فلما أعطته ثديها رضع منها وسموه موسى لانه وجد بين الماء والشجر فذلك قوله تعالى فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن وأمرتها امرأة فرعون أن تلتفت الى تربيته أشبه بكونه ابن فرعون ولما شب موسى وترعرع أخذته أمه الى امرأة فرعون فأمرت بتهذيبه وتعليمه كواحد من العائلة الملوكية وبهذا صار عالما ماهرا فى علوم الحكمة المصرية والعلوم العسكرية وكان يركب مركب فرعون ويلبس ما يلبس ويدعى موسى بن فرعون وروى أن موسى عندما بلغ مبلغ الرجال تقلد وظيفة عالية فى الجند المصرى فى غزوة كانت حصلت بين المصريين والحبشيين ومع ما كان فيه موسى من الكرم والسعادة فى سراية فرعون كان عبرانيا فى الحقيقة وامتنع به بنو اسرائيل ولم يبق قبطى يظلم اسرائيليا خوفا منه لانه كان لا يرغب الذل والاهانة لاهل قومه ولا يريد بهم الجور والاعتساف وعدم الانصاف ومر يوما فى المدينة وهى مدينة عين شمس فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته أى اسرائيلى وهذا من عدوه أى من القبط فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فغضب موسى ووكز القبطى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين ثم قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له انه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين فأصبح فى المدينة خائفا يترقب أى أن يؤخذ فاذا الذى استنصره بالامس يستصرخه قال له موسى انك لغوى مبين ثم أقبل لينصره فلما نظر الى موسى وقد أقبل نحوه ليبطش بالرجل الذى يقاتل الاسرائيلى

خاف أن يقتله من أجل أنه أغلظ له فى الكلام قال أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالامس ان تريد الا أن تكون جبارا فى الارض وما تريد أن تكون من المصلحين وبلغ الخبر مسامع فرعون فطلبه وأراد قتله فجاء رجل فاخبره وقال له ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج انى لك من الناصحين فخرج من المدينة خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين فهام على وجهه فى الطريق وقال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل فسار بمملك حتى انتهى به الى أرض مدين فما بلغ مدين حتى سقط خف قدمه وكان يتغذى من نبات الارض فلما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان أى تحبسان غنمهما وهما ابنتا شعيب فلما رآهما موسى سألهما ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى موسى لهما ثم قصد شجرة هناك يستظل بها فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير فلما رجع البنتان سريعا الى أبيهما سألهما فأخبرتاه الخبر فأعاد احداهما الى موسى تستدعيه فاتته وقالت له ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فقام معها فمشت بين يديه فضربت الريح ثوبها فظهرت عجيزتها فقال لها امشى خلفى ودلينى على الطريق فلما أتى شعيبا وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين قالت احداهما وهى التى أحضرته يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين وقصت عليه ما وقع بينه وبينها فى الطريق فقال له أبوها انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى نفسك ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن عندك فقال له موسى ذلك بينى وبينك أيما الاجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل فأقام عنده يومه فلما أمسى أحضر شعيب العشاء فأكل معه موسى وازدادت رغبة شعيب فى موسى وزوجه ابنته صفورا وأمرها أن تأتيه بعصا فأخذها موسى ليرعى بها وكانت من عوسج لها شعبتان وفى رأسها محجن ولبث موسى عند شعيب عشر سنين فتم بها العمر موسى أربعون سنة وفى أثناء هذه المدة طغى فرعون وحمل العبرانيين أثقل الاحمال زيادة عما كان جاريا فى مدة سلفه فشكى العبرانيون بث أحزانهم وما هو حاصل من آلامهم وظلمهم الى الله الههم لاجل مساعدتهم على خلاصهم مما هم فيه فسمع الله سبحانه وتعالى دعاءهم

وبعد أن أقام موسى المدة المذكورة عند شعيب سار باهله فى زمن شتاء وبرد فلما كانت الليلة التى أراد الله عز وجل لموسى كرامته وابتدأه فيها بنبوته وكلامه أخطأ فيها الطريق حتى لا يدرى أين يتوجه وكانت امرأته حاملا فاخذها الطلق فاخرج زنده ليقدح لاهله نارا ليصطلوا ويبيتوا حتى يصبح ويعرف وجه طريقه فأصلد زنده وقدح حتى أعيا فرفعت له نار فلما رآها قال لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر فان لم أجد آتيكم منها بشهاب قبس لعلكم تصطلون فحين قصدها رآها نورا ممتدا من السماء الى شجرة عظيمة من العوسج فتحير موسى وخاف حين رأى نارا عظيمة بغير دخان وهى تلتهب فى شجرة خضراء لا تزداد النار الا عظما ولا تزداد الشجرة الا خضرة فلما دنا منها نودى منها فلما سمع النداء استأنس فعاد فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن بورك من فى النار ومن حولها يا موسى انى أنا الله رب العالمين فلما سمع النداء ورأى تلك الهيبة علم أنه ربه تعالى فخفق قلبه وكل لسانه وضعفت قوته فشد الله قلبه فلما رجع اليه عقله نودى اخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى ثم قال له تسكينا لقلبه وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى أى أحمل عليها المزود والسقاء قال له ألقها يا موسى فألقاها موسى فاذا هى حية

تسعى عظيمة الجثة خفيفة الحركة فلما رآها موسى ولى مدبرا ولم يعقب فنودى ياموسى لاتخف انى لايخاف لدى المرسلون أقبل ولاتخف سنعيدها سيرتها الاولى (عصا) فلما أقبل قال خذها ولاتخف وأدخل يدك فى فيها فاذا أدخل موسى يده بين لحييها فعادت عصا كما كانت ثم قال له أدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء (برص) فأدخلها وأخرجها بيضاء من غير سوء مثل الثلج لها نور ثم ردها فعادت كما كانت فقيل له هذان برهانان من ربك الى فرعون وملئه انهم كانوا قوما فاسقين قال رب انى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردأ يصدقنى أى يبين لهم عنى ما أكلمهم به فانه يفهم عنى مالا يفهمون قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون وأخبره الله سبحانه وتعالى بما يشاء من خلاص الاسرائيليين مما هم فيه من رق العبودية عند المصريين وسوقهم الى الارض التى كان وعدها لابراهيم بانها تكون أرضا لذريته وأن يكون موسى هو القائد الاكبر والسفير الالهى المسخر فى هذه الحركة العظيمة وقال الله له ان هارون هو المتكلم عنه عند ملك المصريين وعند العبرانيين وعرف موسى جميع مايريده القادر جل جلاله وأمره أن يقصه على شيوخ بنى اسرائيل وأمره أيضا بالعود الى مصر وليجمع شيوخ العبرانيين ويقص عليهم ماجاء به لهم فاذا تحقق من طاعتهم يذهب الى فرعون ويطلب منه الاذن فى خروج بنى اسرائيل من مصر وقال الله له ان لم يسمع فرعون بذلك فانى أريه قدرتى وقوتى على مصر

ثم ان موسى رحل فى الحال عائدا الى مصر وفى طريق سفره قابل أخاه هارون وكان الله أوحى اليه بالخروج من مصر لمقابلة أخيه فقال موسى ياهارون ان الله قد أرسلنا الى فرعون فرجع الأخوان الى مصر وطلبا شيوخ بنى اسرائيل ووضعوا أمامهم بلاغ الحق جل جلاله واتفق القوم على الخضوع والتسليم لما أمر الله به ووعدوا أن يؤدوا مع الذمة والصداقة جميع وصايا الرب الههم

ولما أحكم موسى وهارون ارتباط قومهما عزما على التوجه الى فرعون ليطلبا منه الاذن والرخصة باسم الرب سبحانه وتعالى اله اسرائيل لقومهما ليعملوا عيدا لهم فى البرية فلما دخلا عليه قال له موسى انى رسول من رب العالمين فعرفه فرعون فقال له ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين قال فعلتها اذا وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما يعنى نبوة وجعلنى من المرسلين فقال له فرعون ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين قد فتح فاه فوضع الفك الاسفل فى الارض والاعلى على القصر وتوجه نحو فرعون ليأخذه فخافه فرعون ووثب فزعا وناشده فرعون بربه تعالى أن يرد الثعبان فأخذه موسى فعاد عصا ثم أدخل يده فى جيبه وأخرجها بيضاء كالثلج لها نور يتلألأ ثم ردها فعادت كما كانت عليه وأوحى الله الى موسى وهارون أن قولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ولما غضب فرعون من موسى أراد قتله فقال مؤمن من آل فرعون لفرعون وملئه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات وقال الملأ من قوم فرعون أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم ففعل وجمع السحرة فوعدهم فرعون وتعددوا يوم عيد كان لفرعون فصفهم فرعون وجمع الناس وجاء موسى ومعه أخوه هارون وبيده عصاه حتى أتى الجمع وفرعون فى مجلسه مع أشراف قومه فقال موسى للسحرة حين جاءهم ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب فقالوا

له لنأتينك بسحر مثله وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون وقال له السحرة يا موسى اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين قال بل ألقوا فألقوا حبالهم وعصيهم فاذا هى فى رأى العين حيات أمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا فأوجس موسى فى نفسه خيفة فاوحى الله اليه أن ألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا فألقى عصاه من يده فصارت ثعبانا عظيما واستعرضت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم وجعلت تلقفها وتبتلعها حتى لم تبق منها شيأ ثم أخذ موسى عصاه فاذا هى فى يده كما كانت فخر رئيس السحرة ساجدا وقال ما هذا سحر وتبعه السحرة أجمعون وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون قال فرعون آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصلبنكم فى جذوع النخل فقطعهم وقتلهم وهم يقولون ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين

ولما رأى فرعون قومه قد داخلهم الرعب من موسى خاف أن يؤمنوا به ويتركوا عبادته فاحتال لنفسه وقال لوزيره هامان يا هامان ابن لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى وانى لاظنه كاذبا فأمر هامان بعمل الآجر وشرع فى البنيان وارتفع ارتفاعا لم يبلغه بنيان فشق ذلك على موسى واستعظمه فأوحى الله اليه أن دعه وما يريد فانى مستدرجه ومبطل ما عمله فى ساعة واحدة فلما تم بناؤه أرسل الله سبحانه وتعالى جبريل فخربه وأهلك كل من عمل فيه من صانع ومستعمل فلما رأى فرعون ذلك من صنع الله أمر أصحابه بالشدة على بنى اسرائيل وعلى موسى وصار لا يقبل كل أمر يجىء فيه موسى اليه وكلفوا بنى اسرائيل من العمل ما لا يطيقونه وصار الرجال والنساء فى شدة وكانوا يعودون من أشغالهم باسوء الحالات فشكوا ذلك الى موسى فقال لهم استعينوا بالله واصبروا ان العاقبة للمتقين وان الله يستخلفكم فى الارض فينظر كيف تعملون

وجدد موسى وهارون الطلب عند ملك المصريين فرعون فلم يقبل منهما شيأ وأهانهما وضاعف فرعون الاثقال على بنى اسرائيل فلاموا موسى وعنفوه بسبب ما حصل لهم من الذل والاهانة وكثرة المصاعب والآلام التى تراكمت عليهم فاشتكى موسى الى الله أن سعيه لم يجلب على بنى اسرائيل الا الهموم والغموم فعضده الله سبحانه وتعالى وشد عزمه بما أوحاه اليه من حيث ان فرعون لم يقبل طلبكما مع عناده وضاعف الاشغال مع العناد أيضا على العبرانيين فانى سأهشم كبر عناده وألزمه الرضا رغم أنفه بسفر الاسرائليين وخروجهم من مصر وكان بالضرورة وقوع هذا الاختلاف بين فرعون وبين الحق جل جلاله ليس لاجل معاقبة الملك من أجل تعذيبه العبرانيين فقط بل كان أيضا دليلا كافيا للعبرانيين على أن الله قادر على وفاء وعده لهم وانه أقوى شوكة وأعظم عزة من جميع آلهة مصر الكاذبين وكذا بما أن العبرانيين هم فى مجاورة من مدة طويلة لديانة المصريين فكان مشروع الحق سبحانه وتعالى ضروريا حتى تحقق بنو اسرائيل من أن لا حقيقة ولا شوكة لاصنام بلاد النيل

وكرر موسى وهارون طلباتهما من الملك وأبى فرعون وقومه الا الثبات على ما هم فيه من العناد فعاقبهم الله من عدم قبول الملك بان أرسل على أرض مصر عدة آيات هائلة وآفات مزعجة وكان الملك وقومه يطلبون موسى وهارون عند حصول كل آية ليطلبا من ربهما كشف البلية عنهم وهذه الآيات هى

الاولى ـ صيرورة مياه النيل وهو النهر المقدس عند المصريين ورئيس منبع مياههم المحتاجين لهاحمراء مثل الدم عفنة مضرة مكروهة عند المصريين حتى التزموا أن يحفروا آبارا بطول شاطئ النهر لاخذهم منها مياه الشرب واستمر ذلك سبعة أيام حتى كشفها عنهم موسى بطلب من فرعون وقومه على أنهم يؤمنون له ويرسلون معه بنى اسرائيل

الثانية ـ الضفادع وكان لايحصى عددها أقلقت أهل مصر وكدرت عيشتهم وانتشرت على الارض وحصل منها الضرر المهول للمصريين

الثالثة ـ ضروب القمل وهذه غطت الارض وتسبب منها مضار مؤلمة للناس والحيوانات وكانت من ضمن النجاسات الدنيوية والدينية

الرابعة ـ سحائب الذباب والجعارين وكانت أكبر من الجعارين الموجودة من الاصل فى مصر غطت الارض ودخلت أسرابا فى البيوت وأكلت الزروع والاشجار وكان الجعران أحد المعبودات المصرية فكانت هذه الجعارين عليهم أشد بلية وأشد ضررا ولو أنها كانت الهة لهم

الخامسة ـ داء الاسكربوط وهذا تسلط على الحيوانات وأهلك ما وجد من الحيوانات فى مصر

السادسة ـ علة الجرب والجذام وظهر هذا على أبدان أهل مصر وحيواناتهم وقال بعض الحكماء الظاهر أن هذه الآية كانت هى البرص الاسود وهو داء مهول مخيف من أنواع داء الفيلة وباق ظهوره لحد الآن فى مصر وكان هذا أيضا من ضمن النجاسات الدينية المصرية

السابعة ـ عواصف ولواقح مشحونة بالبرد مصحوبة بالرعد والبرق كنست الارض وأهلكت الزرع والناس والحيوانات

الثامنة ـ أسراب الجراد وهذه انتشرت على الاراضى وأكلت كل ماتركه البرد

التاسعة ـ انتشار ظلام خارق للعادة غشى أرض مصر واستمر فى غاية من القتامة والكثافة ثلاثة أيام حتى صار لاطاقة للناس أن يشاهد بعضهم بعضا أو يؤدوا شيأ من أشغالهم ولم يحصل شئ من هذه الآفات والمصائب فى أرض غسان المقيم فيها العبرانيون لانها كانت مستثناة من وقوع هذه الآيات فيها لكى يرى بنو اسرائيل مع الخوف وفاء المواعيد الالهية بعذاب المصريين وكثيرا ما كان فرعون يرتعد ويخضع ويرسل لموسى وهرون ويتضرع اليهما أن يطلبا من الله كشف هذه الآيات عنه وعن قومه الا انه بمجرد كشف المصيبة الواحدة عنهم يرجع الى كبره وعناده ويمتنع من أن يأذن للعبرانيين فى الخروج من مصر

ولما يئس موسى من فرعون وقومه دعا موسى عليهم وأمن هرون فقال ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم فاستجاب الله لهما وأوحى الله الى موسى انى منزل على أرض مصر آية الدمار والخراب وأمر موسى أن يسن عيد الفصح وأن يكون هذا العيد دلالة على ابتداء التاريخ المخصوص بالملة العبرانية كما أنه يكون أول سنتهم وأمره بعمل احتفالات لهذا العيد لا يجوز وقوع أدنى ضرر فيها ولا أذى وأن تجرى هذه الاحتفالات سنويا بالعيد الفصح وتذكارا دواميا على خلاص الملة العبرانية من رق العبودية المصرية وقد أخبر الله موسى وهرون بما يريده من هلاك وموت كل مولود بكرى من أهل مصر وأن يأمر العبرانيين أن يضعوا على منازلهم علامات وهو أنهم يرشوا أو يطلوا

حلوق أبواب بيوتهم بدم الحيوانات التى تذبح لعشاء عيد الفصح لان جميع البيوت المعلمة بهذه العلامة لاتقربها ملائكة الهلاك وأن يأمر العبرانيين بالاستعداد للرحيل بوجه السرعة وأن يكون رحيلهم بمجرد الامر بالرحيل وكانت جميع هذه الاجرا آت حاصلة فى النور فى أرض غسان اذ كان لايوجد بها ظلام

وعند غروب الشمس من اليوم الثالث من أيام الظلام فى مصر ابتدأ العبرانيون فى تحضير عشاء عيد الفصح ولما تم العشاء انتظروا أمر الله مترددين فيه مع الوجل الشديد وفى منتصف الليل أمات الله كل مولود بكرى فى كل بيت من بيوت مصر من ابتداء سراى الملك الى آخر عشة حقيرة وكل بكرى من جميع حيوانات مصر فكان لايوجد بيت الا وفيه ميت فالتزم فرعون قهرا عنه بما حصل له من هذه الرزية العظيمة أن يرسل فى الحال فى طلب موسى وهرون ولما حضرا عنده حثهما بعجلة على أن يأخذا قومهما ويخرجا من أرض مصر من دون حصول أدنى عائق وأمر موسى العبرانيين أن يستعيروا من المصريين حليا من الجواهر والفضة والذهب ولبثوا على طلبهم فأسرع المصريون فى اجابة طلبهم وأعطوهم مايلزم لهم اذ كانوا على تلهف زائد فى خروج العبرانيين من البلاد لانهم كانوا على وجل شديد من أن يحصل منهم أدنى تأخير فيعود عليهم بالضرر والاذى

ولما أمر موسى العبرانيين بالشروع فى رحيلهم أخذوا معهم جثة يوسف المصبرة وكان عددهم ٦٠٠٠٠٠ ستمائة ألف رجل غير النسوان والاطفال وبلغ هذا العدد مع الجم الغفير المختلط الذى تبعهم وكانوا من دون ريب ذرية من أهل آسيا نزلوا مصر فى ظعنهم واقامتهم وكانوا على غاية من السرور فى كونهم انتهزوا فرصة نجاتهم الى أن صار مقدار عدد العشيرة العبرانية نحوا من ثلاثة ملايين وكان رحيلهم جميعا تحت قيادة موسى إلا أن انتخاب طريقهم فى أثناء سيرهم كان باذن الله سبحانه وتعالى وذلك أنه سخر لهم فيها سحابة بيضاء كانت تسرى أمامهم بالنهار وعمودا وسحابة من نور يدلهم على الطريق بالليل

ومن الضرورى أن رحلة عالم جسيم مثل هذا تكون بحركة بطيئة فاستمروا فى سيرهم نحوا من ثلاثة أيام حتى وصلوا رأس البحر الاحمر أو خليج السويس وكان ممتدا كثيرا الى الجهة الشمالية زيادة عما هو عليه الآن وفى غضون ذلك رجعت لفرعون قوته وشجاعته وندم على تفريطه فى أمره للاسرائيليين بالرحيل والسفر من أرض مصر وعزم على اتباعهم وقهرهم على الرجوع ثانيا الى أرض مصر فرحل فى رأس جيش كثيف وجد فى سيره حتى أدركهم وهم معسكرون بالقرب من البحر الاحمر وكان موقع الاسرائيليين على حسب الذوق العسكرى على غاية من الخطر لان البحر كان أمامهم وعلى يمينهم سلسلة جبل عتاقة الصعبة وعلى يسارهم وخلفهم ملك مصر مرتبا جنده وقاطعا عليهم طريق نجاتهم وانهم من دون مساعدة الهية صاروا مستعدين لهلاك أنفسهم فقال أصحاب موسى انا لمدركون ياموسى أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا أما الاول فكانوا يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا وأما الآن فيدركنا فرعون فيقتلنا قال موسى كلا ان معى ربى سيهدين فأمر الله موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وفتح الله طريقا لبنى اسرائيل يعبرون منها البحر الى ساحل بلاد العرب ولما رأى جيش المصريين حركة عبورهم تبعهم فى الحال فعادت مياه البحر باذن الله فى الوقت وأهلكت جيش المصريين وقال فرعون حين أدركه الغرق آمنت أنه

لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل فقال له آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين وأما التوراة فانه لم يذكر فيها أكان الملك غرق مع عسكره أم لا ولا نحقق منها ما يستدل به على الحقيقة وعلم لنا من التاريخ المصرى القديم أن الذى غرق هو قسم الجيش الذى ساق خلف العبرانيين وأن الملك لم يغرق وأن منفقطه وهو الذى كان خرج مع فرعون عاش سنين عديدة بعد هذه الواقعة ومات من مرض حصل له لكن الحق ما قاله الله تعالى فى القرآن العظيم فأغرقناه ومن معه جميعا

وعلمنا من الحوادث التاريخية أن سنة ١٤٩١ قبل ميلاد المسيح كانت هى تاريخ الخروج وبمجرد وصول العبرانيين الى الساحل المقابل للبحر الاحمر تحولوا الى داخل بحيث (جزيرة سينا) نحو جبل سينا فلو أراد القادر سبحانه وتعالى سوقهم من مصر الى الارض الموعودة على الفور لساقهم اليها من الطريق المستقيم الواقع فى طول ساحل البحر المتوسط المارة بالعريش وغزة وبهذا يكونون عرضة لخطر مهلك يقع عليهم من جيش المصريين المتعوّد على استعمال هذه الطريق فى محاربانه فى آسيا حتى لو خلصوا من هذا الخطر لوقعوا فى حروب مستديمة مع قبائل الكنعانيين القاطنين على ساحل البحر الابيض المتوسط فلاجل وقايتهم وحمايتهم من هذه الاخطار والمهالك اختار لهم طريق البحر الاحمر وقد يوجد دليل أقوى من ذلك على اختيار الله سبحانه وتعالى لهم هذه الطريق وذلك أن الاسرائيليين ما كان فيهم قابلية للدخول على الارض الموروثة لهم لانهم كانوا محتاجين لطرائق تعليم وتهذيب ونظام حتى يكونوا ملة حقيقية أصلية قبل دخولهم الارض الموعودة فانهم كانوا على غاية من الجهالة بالشرائع الدينية والنظامات المدنية الداخلية والخارجية المنحصرة فيها شوكة الملة الواحدة وسلطتها ويعرفون بواسطتها حقوق سلامة أنفسهم وملتهم وانه يلزمهم أن يخرجوا ما هو مكنون فى قلوبهم وما كانوا عليه من مجاورتهم المصريين وتطبعهم به وأخذهم وطبائعهم ويجعلوا أنفسهم أمة قائمة بنفسها ممتازة عن باقى الامم الذين يلزم أن يكونوا فى مجاورتهم ومحيطين بهم وأن يكونوا متمسكين بهذه الاعمال حتى يكون لهم طاقة بها يتيسر الحصول لهم على حفظ خصائص ملتهم فى المستقبل الى الابد وأن لا توجد طريق يمكن اختيارها لهم الا هذه الطريق التى سلكوها ولا توجد لهم جهة لتحصين أنفسهم واقامة ملتهم فيها بالنسبة للسلامة والنظام أحسن من برية سينا فلهذا اختارها الله لهم وتوجهوا اليها

وأعد الله سبحانه وتعالى لهم ما يلزم من الاحتياجات الوقتية وأعذب لهم المياه المرة التى كانت موجودة فى الوادى الذى سلكوه وأنبع لهم المياه من الصخور وذلك انه أمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا لكل سبط عين وظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى كان طعاما لهم فكان الطعام فى الابتداء على صورة السلوى أى السمان ثم على هيئة المن وكان هذا المن ينزل مع الندى فى وقت الصباح فى محل معسكرهم وكان لا يرخص لهم فى جمعه الا ما يلزم لقوت يوم واحد فقط ماعدا اليوم السادس فانهم كانوا يجمعون فيه طعام ما يلزم ليومين مراعين فى ذلك عدم الشغل فى اليوم المقدس واستمر نزول هذا الطعام من السماء كل يوم مدة أربعين سنة أو جميع المدة التى أقامها الاسرائيليون فى برية سينا

ولما وصلوا فى رحيلهم رفيديم والصحيح أنه وادى فيران الموجود الآن هجم العماليق على الاسرائيليين ليصدوهم عن تقدمهم فى داخل البحيث (جزيرة) وكان جيش العبرانيين تحت قيادة يوشع بن نون

الذى فتح فيما بعد فلسطين فكان منصورا
ثم رحل بنواسرائيل من وادى رفيديم الى جبل سيناوعسكروا فى السهل على غدران ومجارى سيول فى ضواحى الجبل المقدس
ثم ان الله سبحانه وتعالى أمر موسى أن يصوم ثلاثين يوما و يتطهر ويطهر ثيابه ويأتى الى الجبل جبل طور سينا ليكلمه ويعطيه أوامره ففعل موسى ما أمره الله وسار الى الجبل واستخلف أخاه هارون على بنى اسرائيل ثم أوحى الله اليه أن يصوم عشرة أيام أخر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ففى تلك الليالى العشر افتتن بنواسرائيل وذلك أن السامرى صاغ لهم عجلا من حلى جمعها منهم فى ثلاثة أيام وجعل له جوفا فكان الهواء يدخل فيه فيخور فلما رآه قال لهم هذا الهكم واله موسى نسيه موسى وتركه ههنا وذهب يطلبه فعكفوا عليه يعبدونه فقال لهم هارون يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى فأطاعه بعضهم وعصاه بعضهم فأقام بمن معه ولم يقاتلهم ولما ناجى الله تعالى موسى قال له ما أعجلك عن قومك ياموسى قال هم أولاء على أثرى قال فانا قد فتنا قومك من بعدك ياموسى وأضلهم السامرى فقال موسى يارب هذا السامرى قد أمرهم أن يتخذوا العجل فمن نفخ فيه الروح قال أنا قال فأنت اذا أضللتهم ثم ان موسى لما كلمه الله تعالى أحب أن ينظر اليه قال رب أرنى أنظر اليك قال لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى فتجلى الله للجبل فجعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين وأعطاه الالواح فيها الحلال والحرام والمواعظ وهى العشر وصايا المذكورة فى التوراة وعاد موسى فلما وصل الى قومه ورأى عبادتهم للعجل ألقى الالواح وأخذ برأس أخيه ولحيته يجره اليه قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى فترك هارون وأقبل على السامرى وقال ما خطبك ياسامرى قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى قال فاذهب فان لك فى الحياة أن تقول لا مساس ثم أخذ العجل وبرده بالمبارد وأحرقه وطلب بنواسرائيل التوبة فأبى الله أن يقبل توبتهم وقال لهم موسى انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم وأمر موسى سبط لاوى الذين لم يعبدوا العجل فقتلوا منهم جما غفيرا وقام موسى وهارون يدعوان الله فعفا عنهم وأمرهم بالكف عن القتال وتاب عليهم ثم ان موسى اختار من قومه سبعين رجلا من أخيارهم وقال لهم انطلقوا معى الى الله فتوبوا مما صنعتم وصوموا وتطهروا وخرج بهم الى الجبل لميقات الذى وقته الله له فقالوا اطلب أن نسمع كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله ودخل فيه موسى وقال للقوم ادنوا فدنوا حتى دخلوا فى الغمام فوقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى ويأمره وينهاه وأنزل عليه الاوامر التى تدونت فيما بعد فى شريعة موسى واشتملت على الاحكام الدينية والمدنية الخاصة بالملة العبرانية ولما فرغ انكشف عن موسى الغمام فأقبل اليهم فقالوا لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وماتوا جميعا فتضرع موسى حتى رد الله اليهم أرواحهم ولما رجع موسى مع أخيار قومه ومعه التوراة أبوا أن يقبلوها ويعملوا بما فيها للاثقال والشدة التى جاء بها فأمر الله جبريل فقلع جبلا من فلسطين على قدر عسكرهم ورفعه فوق رؤسهم مقدار قامة الرجل مثل الظلة وبعث نارا من قبل وجوههم وأتاهم البحر من خلفهم فقال لهم موسى خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا فان قبلتموه وفعلتم ما أمرتم به

والا رضخنكم بهذا الجبل وأغرقتكم فى هذا البحر وأحرقتكم بهذه النار فلما رأوا ذلك قبلوها وسجدوا على شق وجوههم وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجود وقالوا سمعنا وأطعنا

ثم ان رجلا من بنى اسرائيل قتل ابن عم له ولم يكن له وارث غيره ليرث ماله وحمله وألقاه فى موضع آخر ثم أصبح يطلب دمه عند موسى من بعض بنى اسرائيل فجحدوا فسأل موسى ربه فأمرهم أن يذبحوا بقرة فقالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين فقالوا له ماهى قال انها بقرة لا فارض ولا بكر أى لا كبيرة ولا صغيرة عوان بين ذلك أى نصف بين السنين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ان البقر تشابه علينا قال انه يقول انها بقرة لاذلول تثير الارض ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها أى لا بياض فيها قالوا الآن جئت بالحق وطلبوها فلم يجدوا الا بقرة رجل بار بأمه فاشتروها فغالى بها حتى أخذ مل جلدها ذهبا فذبحوها وضربوا القتيل بلسانها وقيل بغيره فحيى وقام وقال قتلنى فلان ثم مات

ولبث الاسرائيليون فى سينا احد عشر شهرا وعشرين يوما وفى أثناء هذه المدة عملوا الاحتفال الثانى لعيد الفصح وترتبت فيها الاشغال الجليلة والنظامات المفيدة لحياة الامة وذلك أنهم كانوا أمة أوباشا عوام لانظام لهم ولا شرائع عندهم ولا ديانة بل كانوا يجهلون الههم ولا يعرفون طريقة دينية يعبدونه بها فصار هؤلاء الاوباش مدة اقامتهم فى سينا على غاية من الاتحاد بعضهم حتى صاروا أمة واحدة لهم قانون من الشرائع تداول بين قرون وسلاسل بنى الانسان واستمر العمل جاريا عليه الى انقراض الامة العبرانية وكذا أقيمت فى خلال هذه المدة المظلة أو الخيمة المقدسة على صورة أنزلت من عند الله ورتبت فيها جميع تفاصيل الشعائر الدينية مع الاحكام ورتبت الاحبار وتم نظام الترتيبات فى توارث الوظائف المقدسة

وكانت القاعدة الاساسية لجميع طرق السياسة والديانة محصورة فى السلطة العالية المجدة لله سبحانه وتعالى على الملة العبرانية وكان الله فى كل معنى سيدهم ومالكهم وأما الاحكام الخاصة بكل من السياسة والنظام فكان الحال مفوضا فيها الى الله تعالى وأما الاحكام الاخر التى شرعت وسنت من قبل الله لادارة الاعمال على حسب شريعته فليست من خصائص أحكام القسس من ذرية هارون ولا من سبط لاوى فانه صار ترتيبها فى وظائف مختلفة تختص بالديانة العمومية ورتب لكل سبط حكامه الادارية وان حصل اختلاف رجعوا الى المحكمة العالية المركزية المحفوظ لها حقوق أعمالها فى كافة الاسباط وأن اتفاق مجلس الملة فوق الجميع وهذا المجلس مؤسس بخصوص الديانة والعبادة والاحتفالات التى تجرى سنويا بشأن المواسم وهى عيد الفصح أو عيد الفطيرة تذكارا للخروج من مصر وعيد العنصرة أو عيد الخمسين تذكار الاظهار اقامة الشريعة وعيد المظلة أو الخيمة المقدسة تذكارا للاقامة فى البرية وكانت الخيمة المقدسة معدة لتقريب القربان موضوعا فيها التابوت وصورة العهد الذى عمل بين الله سبحانه وتعالى والامة وهى أيضا مركز الاعمال السياسية والديانية

ولما تم ترتيب جميع هذه النظامات وانتظمت الامة العبرانية شرع موسى بأمر من الله سبحانه وتعالى فى مقدار واحصاء نفوس الذكور من الامة من سن عشرين سنة فصاعدا القابلين لحمل السلاح وكان ابتداء هذا التعداد فى أول يوم من الشهر الثانى من تاريخ الخروج وهو أيار ـ مايو ـ سنة ١٤٩٠ من

قبل ميلاد عيسى فبلغ مقدار نفوس المحاربين ٦٠٣٥٥٠ نفس وقسم موسى هذا الجيش الى أربعة معسكرات وضع كل معسكر منهم فى جهة من الجهات الاربع من الخيمة المقدسة وبهذا صارت الخيمة فى وسط معسكر الاسرائيليين

ولما رتب موسى الامة والجيش بهذه المثابة فك الاسرائيليون معسكرهم فى اليوم العشرين من سنتهم الثانية أى فى ٢٠ مايو سنة ١٤٩٠ قبل الميلاد وشرعوا فى سيرهم يدلهم عمود من نور وكان هذا العمود دليلهم من عهد ليلة الخروج حتى أوصلهم الى حدود الارض الموعودة وبهذا الدليل الالهى توجه بنو اسرائيل الى برية فاران

وبعد أن استراح الاسرائيليون عدة استراحات فى سيرهم وصلوا الى قادش برنيع بالقرب من حدود فلسطين وأرسل موسى من هذا المحل اثنى عشر نقيبا من كل سبط واحدا الى فلسطين ليكشفوا له أرض فلسطين ويأتوه بأخبار أهل البلاد وأوصافهم وطرق مدافعاتهم وصلابة مدائنهم وقوتها وعدد نفوسهم وعلى حسب الشروط التى عهدت الى هؤلاء الجواسيس غابوا أربعين يوما وفى هذه المدة كشفوا الاراضى من ابتداء البحر الميت الى منحدرات جبل حرمون ولما عادوا الى قادش برنيع أخبروا موسى وقواد الاسرائيليين بأن الارض كثيرة الخصوبة الا أن فتحها بالاسرائيليين غير ممكن لأن أهلها ناس جبارون هائلو الخلقة ساكنون فى مدائن مستحكمة قوية فحصل من هذا القول المكدر تأثير كبير فى القوم وهالهم ذلك وامتنعوا عن السير الى أرض فلسطين فقال لهم موسى ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين قالوا ياموسى ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون قال رجلان وهما يوشع بن نون وكالب وكانا من ضمن الجواسيس الاثنى عشر وكانا من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون قالوا ياموسى انا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون فغضب موسى فدعا عليهم فقال رب انى لا أملك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين

وفى صباح اليوم الثانى انفجرت فيهم ثورة وأعلنوا عزمهم على انتخاب رئيس لهم منهم يوصلهم بالثانى الى مصر فسقط موسى وهارون على وجوههما على الارض أمام القوم وكان مافعلاه لاثمرة فيه وصار يوشع وكالب يكرران لهم القول بالنجاح والظفر ويحثانهم على عدم عصيانهم الههم فازداد القوم عتوا وأخذوا الاحجار وأرادوا أن يرضخوا بها موسى وهارون ويوشع وكالب وصاروا على هياج وثورة من قتلهم فظهر مجد الله سبحانه وتعالى من الخيمة المقدسة بعد أن تمكنت القسوة فى القوم وقال الله تعالى لموسى فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الارض وأنه يحرمهم من وراثة الارض المقدسة ويختار أمة من ذرية موسى فتوسل موسى عند الله فى الشفاعة لقومه ولم يزل يتضرع حتى نال الشفاعة لهم الا أنه عند الصفح عنهم قال الله لموسى انه سيجزى هذه الامة العاصية بعصيانها وانه لا يمكن احدا من رجالها ممن عمره عشرون سنة فصاعدا ماعدا يوشع وكالب أن يدخل الارض الموعودة وأن يموتوا جميعا فى البرية ومن بعد أربعين سنة تدخل أولادهم فى الارض الموعود وراثتها لهم

ومن هذا اللوم والتعنيف اشتاق الاسرائيليون لسوقهم الى أرض كنعان وأخذهم الحنق

والانقباض الا أنه قضى الامر الالهى الذى لا غالب له وأصر القوم على عزمهم واجتهدوا فى أن يغتصبوا طريق سيرهم من معبر جبل كان محفوظا بكل من جيوش الكنعانيين والعمالقة فانذرهم موسى بعدم التوجه ووعظهم ودخلت الحمية فى رؤسهم فلم يلتفتوا لقوله فتقاعد عنهم ولم يصحبهم فصد الكنعانيون والعمالقة الاسرائيليين ووقعت بينهم واقعة دموية انهزم فيها الاسرائيليون مع تلفيات جسيمة وارتدوا على أدبارهم الى البرية

ولبث بنو اسرائيل مدة ثمان وثلاثين سنة رحالين نزالين هائمين على وجوههم ضالين فى الصحراء الواقعة فى شمال بحيث جزيرة سينا المسماة باسم وادى التيه أو تيه بنى اسرائيل وكان ضلالهم فى البرية الممتدة من قادش برنيع فى الجهة الشمالية الى رأس خليج عيلان أو خليج العقبة فى الجهة الجنوبية بحيث لا يحصل لهم أدنى تشويش ولا تكدير من أى القبائل المجاورة لهم وفى خلال هذه المدة مات رجال القوم من عشرين سنة فصاعدا وصارت الذرية التى تسلسلت منهم على غاية من التربية والتعود على الاتعاب والمشاق والحروب وصاروا أرباب شجاعة وتمسكوا فى أنفسهم بحرية النفس وصاروا نسلا أعلى وأعظم من النسل الذى أراد العود والرجوع الى رق العبودية المصرية مع أنه كان تجرع أنواع الغصص والآلام من هذه العبودية

وفى مبادى السنة الاربعين من سنى الخروج مات هارون أخو موسى ورئيس أحبار الملة وكان موته فى ناحية مصيرة فى جبل حور بعد أن بلغ من العمر مائة وثلاثا وعشرين سنة ودفن هنالك وكان جبل حور هو الحد الفاصل بين أرض الادوميين ذرية عيص فطلب موسى من الادوميين طريقا سالكا من وسط أراضيهم لعبور العشائر الاسرائيلية على شرط أن لا يقربوا من أملاك الاهالى وأن يدفع قيمة المياه اللازمة لاحتياجات قومه فلم يقبل الادوميون هذا الطلب وأمر الله سبحانه وتعالى موسى والعبرانيين بعدم الغارة على أقاربهم فشرعوا فى الرحيل الى الجهة الجنوبية حتى وصلوا الى رأس خليج عيلان أى خليج العقبة ولفوا حول سلسلة الجبال ورحلوا بالثانى الى الجهة الشمالية شرق أرض أدوم فأخذ كنعانى عراد فى سد الطرق على بنى اسرائيل فهزمهم الاسرائيليون وسمح الادوميون بالعبور من وسط أرضهم من دون أن يقع لهم منهم أدنى ضرر وأمرهم الله سبحانه وتعالى بعدم الغارة على المواَبيين وبنى عميون الذين هم من ذرية لوط

ووصل العبرانيون فى رحيلهم الى نهر أرنون وهو نهر صغير يصب فى البحر الميت من جهة الشرقية وهو الحد الجنوبى لمملكة جديدة كان سحون وهو رجل فارس مخاطر من بنى عميون تغلب عليها من بنى عميون والمواَبيين ويبوق هو الحد الشمالى لهذه المملكة وأقام سحون عاصمة مملكته فى حشبون فأرسل موسى رسولا الى سحون يطلب منه طريقا خالصا من وسط أرضه لعبور بنى اسرائيل ووعده أن يحفظ قومه حال مرورهم فى الطريق العمومى ويدفع له قيمة كل ما يحتاجونه فلم يقبل سحون منه هذا الطلب وسار مع العظمة والكبرياء فى رأس جيشه ليغير على الاسرائيليين فهزمه الاسرائيليون شر هزيمة وتغلبوا على عاصمته بالقوة والاقتدار واستحوذ العبرانيون على مملكته ثم ان عوجا الجبار ملك باشن وكانت أرضه ممتدة من جبل يبوق الى جبل حرمون وكان هو أيضا من شجعان بنى عميون نجح فى تغلبه على هذه المملكة خرج الى ميدان الحرب ليأخذ بثار سحون فهزمه الاسرائيليون وقتلوه وتغلبوا على مملكته وبهذه النصرات صار الاسرائيليون أساتذة جميع البلاد الموجودة فى الجهة

الشرقية من نهر الاردن من ابتداء جبل حرمون الى البحر الميت
وعسكر جيش الاسرائيليين فى السهل الخصب تجاه مدينة أريحاء فتكدر عيش بالاق ملك موأب من وجود ملة ذات شوكة معسكرة على حدود أرضه فعقد معاهدة ضدهم مع المديانيين ولما رأى بالاق من نفسه أن لا طاقة له على الهجوم على القادمين فى نواحى أرضه اجتهد فى كونه يحث بلعاما وهو رجل مشهور مجاب الدعوة فى بلاد بنى عميون بالدعاء على الاسرائيليين ولعنهم ووقوع الفناء بهم فقلب القادر سبحانه وتعالى لسان بلعام بالدعاء لبنى سرائيل وحصول البركة فيهم وأن ينبئ بالاق بما يحصل له من الغلبة فى المستقبل ولما خاب بالاق فى مشروعه هذا أخذ يفسد على الاسرائيليين دينهم ويحرضهم على أن يشتركوا مع قومه فى عبادة بعل وفيما هم عليه من الفجور والفساد فاستمروا فى فعلهم هذا حتى ان موسى التزم باعادة الاجراءات والاوامر الشاقة الواجب بها منع هذا الفعل الشنيع وقتل جميع العبرانيين الذين ارتكبوا هذه الموبقات ووقع فى المعسكر طاعون هلك فيه نحو من ٢٤٠٠٠ نفس
وشرع موسى فى الغارة الثانية على المديانيين فهزم جيوشهم وأخذ أرضهم وغنم منهم غنائم جمة
وشرع موسى بعد ذلك كله فى عمل احصاء جديد فوجد أن عدد الرجال المحاربين فى العشيرة العبرانية نحو من ٦٠١٧٣٠ نفس
وبما أن الاراضى التى فتحت شرق نهر الاردن خصبة جدا وصالحة لاجتناء الثمرات المقصودة منها وحصل لكل من سبط روبين وسبط جاد ونصف سبط مَنَشَّا الرغبة فيها سألوا الرخصة من موسى فى أن يعطيهم هذه الاراضى نظير ما يرثونه حيث انهم أكثر أنعاما ومواشى فعنفهم موسى على هذا الطلب وقال لهم لم تتسببون فى بذر بذور الامة وانفصالها من بعضها ومن حصول مكالمات سلم لهم فى هذه الاراضى على شرط أن يوطنوا فى هذا الوطن الجديد عائلاتهم ومواشيهم وأن تعبر محاربو رجالهم نهر الاردن مع الاسباط الاخر ليساعدوهم على فتح الارض الموعودة فأعطى سبط روبين القسم الجنوبى من الارض الكائنة شرق الاردن من ابتداء نهر آرْنُون الى حد جبل جِلعاد وأعطى سبط جاد الاراضى الكائنة فى شمال هذا القسم الداخل فيها جبل جلعاد الى نهاية الجهة الجنوبية من بحر شِينَّروث أو بحر غليلى وأعطى نصف سبط منشا الاراضى الكائنة فى شمال جاد الى حد جبل حُرْمون وتعاهد السبطان ونصف مع اخوانهم وعقدوا معاهدة ذمية بينهم على كونهم يؤدّن معهم خدمات عظيمة بشأن فتح الاراضى الواقعة فى الجهة الغربية من نهر الاردن
ومن ابتداء هذا الوقت تم عمل موسى حيث جلب بنى اسرائيل الى حدود الارض الموعودة فى محل يمكنهم الدخول فيها منه بسهولة وأنذره الله تعالى باقتراب أجله فجمع موسى قومه على مسمع منهم وأسمعهم الشريعة التى أنزلت عليه ودعا لهم بالبركة والخير وأنبأهم بمجد مستقبلهم واستخلف عليهم يوشع بن نون من بعده ونصح القوم على أن يكونوا على وثوق تام مع الله سبحانه وتعالى فان ذلك من أهم الامور فى سعادة الامة العبرانية فقابله القوم على ذلك بما هو أهله من الثناء والاجلال ثم توجه بأمر الله تعالى الى جبل دبتو وعلى هذا الجبل أراه الله تعالى جميع الارض التى ستكون وطنا للعبرانيين
ومات عبد الله موسى فى أرض مُوآب حسبما وعده الله بذلك ودفن فى وادى أرض موأب تجاه بيت فعود ولم يعرف أحد من الناس قبره الى يومنا هذا وعاش موسى مائة وعشرين سنة لم يكل بصره ولم تنقض قوته ولبث بنو اسرائيل ينعون موت قائدهم الاكبر مدة ثلاثين يوما

الباب

الباب الثالث

فتح كنعان والقضاة

استخلاف يوشع بعد موسى — عبور نهر الاردن — احتلال الارض الموعودة فى زمن الفتح — وصف فلسطين — التغلب على مدينة أريحا وعماى وشكيم — هزيمة الخمس ملوك الكنعانيين — تقسيم أرض كنعان بين الاسباط — موت يوشع — المضار التى وقعت عقب موته — مدة الحكم الفوضوى القضاة — وصف وظيفة القضاه — مشروعات — هزيمة باراق سيسرا — نصرة جدعون — عالى الحبر الاعظم — خبائث أولاده — مولد شمسون — مشروعاته وموته — مولد صاموئيل — دعوته لوظيفة النبوة — هزيمة بنى اسرائيل بواسطة الفلسطينيين — التغلب على التابوت — موت عالى — صيرورة صموئيل قاضى بنى اسرائيل — سلطنته — طلب بنى اسرائيل ملكا لانفسهم — انذارات صموئيل — انتخاب طالوت ملكا على بنى اسرائيل

وكان ختام الثلاثين يوما نعيا على موت موسى عليه السلام هو بوجه الدقة تمام الاربعين سنة من ابتداء خروج وسفر بنى اسرائيل من مصر ثم ان الاسرائيليين فكوا خيام معسكرهم من سهول موآب وساروا الى ناحية الاردن تحت قيادة يوشع بن نون وكان الاحبار فى رأس القول حاملين لتابوت العهد وكان نهر الاردن فى أعلى زيادة مياهه وغير ممكن لجيش بنى اسرائيل خوضه ولما نزل الاحبار فى النهر حاملين للتابوت المقدس انقسمت المياه بقدرة الهية كما انقسمت فى البحر الاحمر وانفتحت لهم طريق واسعة فعبر الجيش منها الى الجهة الغربية من النهر ودخل الجيش فلسطين فى ابريل سنة ١٤٥١ قبل الميلاد وعسكر بنو اسرائيل فى تلك الليلة فى الجلجال على سهول مدينة أريحاء وهنا انقطع نزول المن عليهم ومن هذا الوقت صارت معيشة القوم من محصولات الاراضى التى جاؤا لفتحها ووراثتها

ومن الموافق الآن أن نذكر نبذة فيما يختص بوصف الامة التى توجهت اليهم جيوش العبرانيين وذلك أنه فى زمن النبوة كانت الارض الموعودة مسكونة بعدة قبائل من أصول الكنعانيين وهم ذرية كنعان الابن الرابع لحام بن نوح وان لفظة كنعانى معناها فى الحقيقة الخفض أو السفل وكانت تستعمل أحيانا بمعنى خاص بقبيلة ساكنة فى قطعة تما من أرض فلسطين لكنهم أطلقوا معناها العام على جميع سكان الارض المقدسة ويدخل فى هؤلاء السكان سبعة أمم مختلفة هى

أولا — الكنعانيون وهم سكان الاراضى المنخفضة القاطنون على السهول الكائنة على الاردن الاسفل وهذه السهول أخصب الاراضى وأجلها

ثانيا — هؤلاء يظهر أنهم من بعد الكنعانيين فى عظم العشيرة ومحلهم فى القسم الجنوبى من الارض الموعودة

ثالثا — الحيثيون أولاد حيث وهم قبيلة صغيرة فى حبرون ومنهم اشترى ابراهيم عليه السلام غار المكفيلة

رابعا — الاموريون وهم عشيرة أصلية احتلت فى الابتداء التخوم العالية الغربية من البحر الميت وفى هذا المحل أطلق على هذه العشيرة اسم غنجيدى ثم انتقلوا الى الجهة الغربية من ناحية حبرون

وفى زمن الفتح عبروا الاردن وسكنوا القسم الخصب المحدود من جهة الشمال بنهر يبوق ومن جهة الجنوب بنهر أرنون ومن جهة الغرب بنهر الاردن ومن جهة الشرق بالبرية

خامسا ـ الحويون وكانوا قاطنين فى زمن رجوع يعقوب الى الارض الموعودة فى نواحى شكيم وفى زمن الفتح استوطنوا الحدود الشمالية لفلسطين الجنوبية

سادسا ـ اليبوسيون وهم قبيلة صغيرة كانوا متوطنين فى نواحى يبوأى أورشليم واستمروا قاطنين مع أولاد يهوذا وبنيامين مدة طويلة من الزمن

سابعا ـ الجرجاشيون وهم الذين مساكنهم اندثرت وانقرضوا بالكلية حتى صارت مواطنهم غير معروفة أبدا

وفى أثناء لبث الاسرائيليين بمصر حصل عدة تغييرات خطيرة فى طبائع وعوائد سكان أهل فلسطين وفى محلات مساكنهم وتبوئهم أيضا وذلك أن الامة الساحلية فى فينيقية الواقعة مباشرة فى شمال فلسطين شبت ونمت بسرعة زائدة مع الهدو والسكون وصارت أمة ذات خبرة وبصارة وثروة فى عالم الدنيا القديم وما كانت فينيقيه بلغت ذروة أوج فلاحها ونجاحها وشوكتها فى زمن فتح الاسرائيليين فلسطين وما كانت وصلت لهذه الدرجة لحد سنة ١٠٥٠ قبل الميلاد وفى زمن دخول بنى اسرائيل فلسطين أحكم الفينيقيون أراضيهم الواقعة فى طول الساحل الشمالى من البحر الابيض المتوسط بقوة قوية اذ كانت أراضيهم داخلة فى حدود الارض الموروثة للاسباط وحفظوها بطرق تحفظية جيدة من الذين جاؤا اليها وكان ساحل البحر الابيض المتوسط من الارض الموعودة الاصلية الموجود فى الجهة الجنوبية من فلسطين مسكونا بالفلسطينيين وهم قوم ذوو شوكة ومهارة فى الحرب مختلفون فى الاحكام والقوانين وبعض الناس نسبهم فقال انهم من ذرية حام والبعض الآخر قال انهم من ذرية سام والاصح أنهم من ذرية حام وقال الذين نسبوهم الى ذرية حام انهم جاؤا فلسطين من مصر وقال الذين نسبوهم الى ذرية سام انهم جاؤا فلسطين من جزيرة كريد والمعول عليه أنهم دخلوا كنعان قبل أيام ابراهيم عليه السلام وفى مدة اقامته فى أرض كنعان كانوا قبيلة رعاة فى ضواحى جرار وفى زمن النبوة وزمن اقامة بنى اسرائيل فى مصر ترك الفلسطينيون عادة معيشتهم الرعوية الرحالة النزالة وأقاموا أنفسهم مقام أمة ذات شوكة قوية واستوطنوا السهل الخصب المحدود بساحل البحر وسموه باسم فلسطية فكانت المحصولات العظيمة المستخرجة من هذا السهل الخصب هى سر ثروتهم وفلاحهم وفى مدة الفاقة والقحط كانت ترجع اليهم جميع الامم المجاورة لهم فى طلب الغذاء والطعام ويأخذون منهم ما كان يلزم لهم وكانت الاراضى الواطية التى استوطنوها صالحة لتقدمهم فى الشوكة العسكرية والحركات الحربية اذ بواسطة هذه الاراضى وسهولتها كان لهم قدرة كافية على تحريك عساكرهم بسهولة وحركة سريعة وكانت هذه الاراضى أيضا صالحة لحركات وسير عربات الحرب أى الطوبجية القديمة وكانوا بها على قوة تحفظية عظيمة على الدوام ومن المعتمد أيضا انهم كانوا مستحوذين على عمارة بحرية لان مؤرخى التاريخ البشرى يذكرونهم فى تواريخهم دائما فى الوقائع البحرية والغزوات الساحلية وكانت مدينتا غزة وعسقلان هما الميناتان البحريتان لهذه الامة وشيد الفلسطينيون فى السهول مدائن عديدة جيدة الاستحكام وكذا شيدوا حسب ما هتف بخواطرهم محطات ومراكز

تجارية ومعاقل حربية

وبهذه المثابة كانت حالة الامتين الشامختين القاطنتين فى فلسطين فى زمن الفتح بالاسرائيليين فكان الفينيقيون فى الجهة الشمالية والفلسطينيون فى الجهة الجنوبية ومن الموافق أن نذكر هنا أن الارض الموعودة ممتدة من صحراء العرب الى البحر الابيض المتوسط ومن صحراء سينا الى مدخل حماة وأن القسم الشمالى منها أو فينيقية لم تستوطنه الاسرائيليون مطلقا وكان سهل فلسطين ميدانا للنزاع والشقاق والحروب المستمرة وما كان استحواذ الاسرائيليين عليه بحالة تحفظية سلمية بل كانت الارض التى استحوذوا عليها ممتدة من ذين فقط فى الجهة الشمالية الى أرض السبع فى الجهة الجنوبية — وأما بالنظر الى الارض نفسها فكانت مقسومة الى عدة أراض مشهورة غير متناسبة السعة بالنسبة لاهميتها فى التاريخ فأما أرض فلسطين فكانت أقل الاراضى فى السعة ونهاية طولها من الشمال الى الجنوب ١٨٠ ميلا وعرضها نحو من خمسة وأربعين ميلا فتكون مساحة أرضها نحو من ثمانية آلاف ميل وهى واقعة بين ٤٠َ ٣٠° و ٤٢َ ٣٣° من العرض الشمالى وبين ٤٥َ ٣٣° و ٤٨ً ٣٥° من الطول الشرقى ومحدودة من جهة الشمال بسوريا ومن جهة الشرق بنهر الاردن والارض المعروفة بارض حوران ومن جهة الجنوب بصحراء التيه ومن جهة الغرب بالبحر الابيض المتوسط وهى واقعة فى آسيا الغربية وفى شمال مصر وفى جهة الشرق وجهة الشمال من صحارى بلاد العرب — وهى فى الحقيقة عبارة عن أراضى جبلية لا يوجد بها سلاسل جبال أصلية بل تمتاز عن الاراضى الاخر بعلو جبالها وعظمها ويوجد فى كل جهة من الاراضى العالية تموجات كثيرة أو قليلة فالكور الجبلية تشغل وسط الارض وهى محدودة على كل من جهتيها الشرقية والغربية باراض منحطة ممتدة من ذيل الارض العالية الى حدود فلسطين ففى الجهة الغربية تنبسط هذه الاراضى المنخفضة ويحدث عنها سهلان عظيمان هما سهل فلسطين وسهل شارونه يمتدان من ذيل الجبال الى ساحل البحر وأما من الجهة الشرقية فان الجبال محدودة بالمهابط والانخفاضات الوعرة لوادى نهر الاردن وهذه متصلة أيضا بالمهابط العميقة للبحر الميت وأرض الغور وان هذه المهابط المشكل عنها حواجز قوية وخيران وأخاديد عميقة تجرى فيها تيارات مائية منحدرة من هذه الجبال تستعمل وصلة أيضا بين موازنة الارض العالية والارض المنحطة وهذه الثلاث هيا ت وهى الجبال والسهول ومجارى المياه هى الهيئة الاصلية الطبيعية الموصوفة بها الارض المقدسة

وينقطع السهل على مسافة أقل من نصف المسافة الى البحر انقطاعا فجائيا بفرع سلسلة جبلية يخرج من الجبال الوسطية ويسير الى الجهة الشمالية الغربية للبحر وينتهى بالرأس الكبير المسمى برأس جبل الكرمل ويطلق على هذا الفرع اسم جبل الكرمل ثم يبتدئ السهل فى الجهة الشمالية من جبل الكرمل مرة ثانية ويفصل الجبال عن بعضها ويسير عابرا من فلسطين حتى يصل وادى الاردن وهذا هو سهل إسدرلون أو عسدرلون أو سهل يزرعيل أو الميدان الاكبر لما حصل من الوقائع فى فلسطين ثم تتقابل الجبال فى شمال هذا السهل مرة أخرى أولا فى التلال الواطية لوادى غليلى ثم تأخذ فى العلو حتى تصل الى كل من جبال حرمون ولبنان ثم تتجه الى البحر وتنتهى بالرأس الابيض أو رأس نخوره وفى شمال هذا الرأس توجد فينيقيه القديمة

ويوجد للوادى الجبلى هيئة علو منتظمة فى طول سيره والمقدار المتوسط لهذا العلو يختلف من ١٥٠٠ قدم الى ١٨٠٠ قدم فوق موازنة سطح البحر الابيض المتوسط وعلى حسب هيئة هذا العلو يشكل هضبة صعبة جدا لايمكن أحدا من الناس وصفها حتى ان الاراضى السهلة الموجودة بين التلال وكثرة وجود التلال الجبلية الموجودة خلف بعضها وبين بعضها تظهر للناظر من ساحل البحر أو من السهل الساحلى الغربى كأنها سور تام ومع هذا فان المنظر الذى لا تتغير حالته ممزق على مسافات بارتفاعات عظيمة تشكل هيا آت عالية على امتداد البصر وان منابع مياه هذه الاراضى واقعة بين هذه النقط المرتفعة وان مجارى تيارات المياه الكثيرة العدد تجرى فى الجهة الشرقية الى وادى الاردن وفى الجهة الغربية الى البحر الابيض المتوسط وأن الوديان الشرقية هى مهابط وعرة جدا وعلى الخصوص الوديان الموجودة فى الجهة الجنوبية وفى النواحى المتوسطة من الاراضى غير أن الوديان الموجودة على السفوح الغربية آخذة فى الانحدار على التدريج وذلك ناشئ من أن موازنة السهل الساحلى أعلى من موازنة وادى الاردن وقلة الهبوط والانحطاط بسبب طول بعد المسافة الواقعة بين الجبال والبحر زيادة عما بين الجبال والاردن وكما يوجد فى الجهة الشرقية كذلك يوجد فى الجهة الغربية فان الوديان فى كل من الجهتين تشكل طرق المواصلات بين الجبال والسهول وأن جميع المسالك والمعابر من ابتداء التخوم الى داخل الارض واقعة فى طول هذه الوديان وهذه المعابر والمسالك الجبلية على ماهى عليه الآن جاعلة لفلسطين هيئة خاصة بها فانه فى الازمان القديمة كانت لها أهمية عظيمة فى كونها كانت صعبة المرور والعبور وكان يتشكل منها موانع وعوائق لقوة جيش ما سائر بحملته وعرباته فان المعابر الغربية ولو كانت أسهل من معابر الحدود الشرقية الا انها لم تزل صعبة ولا يسهل لعدو اجراء الاشغال اللازمة التى يتيسر له الحصول منها على الدخول فى أرض الاسرائيليين ولما أحكم الاسرائيليون منعة جبالهم وحصونها صاروا فى أحسن راحة وأجودها لا يكدرهم ارتباك أمة أخرى ولا يزعجهم هجوم أحد وقتما كانت مدائن السهل الكائنة أسفل منهم جاريا التغلب عليها أو استردادها بالقوى المختار بة من مصر وآسيا ولما كان سهل اسدرلون أو عصدرلون ميدانا عظيما لحروبات ووقائع جارية فى فلسطين كانت الجبال خالية بالكلية من هذه الحروب

ويشكل نهر الاردن الحد الشرقى للارض الموعودة وهو أحد الانهار المشهورة فى عالم الدنيا ويأخذ منبعه من سفوح ومهابط جبل حرمون ويجرى فى مهبط كبير يعرف بوادى الاردن ويمر من بحيرة حوليج ومن بركة طبرية أو بحر غليلى ويصب فى البحر الميت وعلو منبعه عن سطح البحر الابيض المتوسط نصف قدم وفيه منحط عن سطح هذا البحر بقدر ١٣١٧ قدما فيكون الانحدار الكلى للنهر ٣٠١٧ قدما وطوله ٢٠٠ ميل واذا كانت مسافة القياس على خط مستقيم كان طوله ٦٠ ميلا وهو نهر غير قابل للملاحة وكان يجرى عبوره فى الازمان القديمة بواسطة مخاضات كائنة فيه ولم تنشأ عليه قناطر للعبور الا فى زمن الفتوحات الرومانية وما كان يوجد على شاطئيه مدائن ولا قرى وأما مدينة أريحاء والمدائن الاخر فكانت على مسافة بعيدة من شاطئيه الى جهة الداخل فى الاراضى

وكان أول شغل واقع على أكتاف بنى اسرائيل بعد دخولهم أرض فلسطين هو فتح مدينة أريحاء الحصينة والتغلب عليها وكانت هذه المدينة واقعة مباشرة تجاه محل عبورهم من النهر ومطلة على وادى الاردن وبما أن الاسرائيليين ما كان لهم دراية ولا خبرة بطرق وضع الحصار على المدينة تجلى الله

بسبحانه

سبحانه وتعالى لمساعدتهم وسقطت أسوار المدينة بآية من عند الله ودخل بنو اسرائيل هاجمين فوق أطلال استحكامات المدينة ووضعوا فى أهلها السيف وخربوا المدينة ولم ينج من المذبحة العمومية الا عائلة واحدة فقط وهى عائلة راحاب لانها كانت قابلت الجواسيس الذين كان أرسلهم يوشع الى المدينة قبل التغلب عليها أعظم مقابلة ودية وأغدقت عليهم بالاكرام والكتمان فوعدوها بالامان هى وأهل بيتها وتزوجت باحد الجواسيس وصارت جدة داود ولما تقدم يوشع فى وادى الاردن سار الى جهة شماله وتغلب على مدينة عاى الحصينة القريبة من بيت أون أو بيت إيل وكان تغلبه عليها بالخداع والحيلة ثم سار من هذه المدينة على عجل الى شكيم وتغلب عليها بغير طعن ولا ضرب وغرس نفسه فى قلب أرض فلسطين

ثم انكشف عن الكنعانيين ما كان بهم من الهول والروع والاستغراب الذى رماهم به سرعة نجاح حركات بنى اسرائيل وعقدوا اتحادا عاما ضد هؤلاء الذين جاؤا لفتح بلادهم فهزم يوشع القوى المتحدة لملوك الكنعانيين ومزقهم كل ممزق فى واقعة عظيمة حصلت فى نواحى بيت أون وروى ان هذا اليوم استطالت مدته بآية من عند الله حتى انتهز الاسرائيليون فرصة تمام نصرتهم وأسر يوشع الخمس ملوك حكام الامم الكنعانية وحبسهم ثم صلبهم وأعقب هذه النصرة تغلب بنى اسرائيل على مدائن مقيدة وليتنه ولخيش وعجلون وحبرون ودبير وقتلوا سكان هذه المدائن وبواسطة هذه الظفرات العظيمة صار بنو اسرائيل أساتذة فلسطين الجنوبية

ثم عقد الكنعانيون اتحادا ثانيا ضد الاسرائيليين اجتمع فيه جميع قبائل فلسطين الشمالية وكان قائدهم يابين ملك حاصور فمزق يوشع تلك القوى وشتت شملها على شواطئ بحيرة ميدوم وهى الآن بركة حوليج وأسر يوشع يابين وقتله ووقعت جملة مدائن من فلسطين الشمالية فى أيدى الاسرائيليين فقتلوا أهلها ونهبوا ما فيها ثم هجموا على عنكيم من فلسطين الجنوبية ودمروها وفى ظرف ست سنوات أو سبعة تغلب بنو اسرائيل بواسطة هذه الفتوحات على الارض الموعودة وصاروا أساتذتها وذلك من ابتدا ذيل جبل حرمون الى تخوم أدوم الا أنه ما زال فى أيدى الكنعانيين مدائن حصينة ومعاقل رصينة فى وسط هذه الارض التى تغلب عليها العبرانيون وضبط الفلسطينيون ساحل البحر الابيض وما حصل فى فينيقيه ارتباك ولا تكدير لحد هذا الوقت

ولما كبر يوشع وصار طاعنا فى السن عزم على توقيف غاراته وتغلباته وأن يجعل ما بقى من سنى عمره فى تشييد قومه وتوطيدهم فى الاراضى التى تغلبوا عليها فأمر بتقسيم الارض الموعودة بالقرعة بين التسعة أسباط ونصف لان السبطين ونصفا أخذوا نصيبهم فى شرقى نهر الاردن من موسى عليه السلام وأنه لم يكن للاويين أرض تخصصت لهم وأن خروجهم من عدد الاسباط هو لسبب اختصاصهم بخدمة الله سبحانه وتعالى فكان خروجهم من الاسباط سببا فى تقسيم سبط يوسف الى سبطين هما سبط افرايم وسبط منشا وبهذه الطريقة تقسمت الارض بين الاسباط ودخل فيها كثير من الجهات والمحلات المسكونة بالكنعانيين والفلسطينيين وترك يوشع لكل سبط الاعمال اللازمة لخضوع الجهات الداخلة فى حدود قسمه الى الطاعة والانقياد

فأخذ سبط يهوذا الارض الجنوبية التى حدها الجنوبى يحف أرض الادوميين والصحراء وحدها الشمالى خط مرسوم من فم نهر الاردن متجه نحو الغرب الى البحر ويمر هذا الخط بالجهة الجنوبية

لاورشليم (بيت المقدس) فصارت أورشليم داخلة فى أرض بنيامين والحد الشرقى نهر الاردن والحد الغربى البحر الابيض المتوسط ودخل فى هذا القسم جزء شاسع من سهل فلسطين وأخذ أولاد يوسف القطعة الكائنة فى وسط الارض من نهر الاردن الى البحر الابيض المتوسط فأخذ افرايم من هذه الناحية الجزء الجنوبى وكان حده الجنوبى مرسوما من الاردن فى طول الجهة الشمالية لسهل أريحاء الى حد بيت إيل ودخل فيه حزام متجها جنوبيا الى بيت حورون ومن هذه النقطة سار الخط ثانيا الى أن وصل الى البحر بالقرب من يافا ومر الحد الشمالى مغربا من الاردن تجاه مصب فم نهر يبوك ومارا بالمكفيلة الى فم نهر قانه ويشتمل على وادى شكيم المقدس والسهل الساحلى لشارونة وأخذ نصف سبط منشا الكورة الواقعة فى شمال افرايم لحد سلسلة جبل الكرمل وسهل يزرعيل من الاردن الى البحر وأخذ بنيامين الكورة الجبلية الكائنة فى شمال يهوذا وفى جنوب افرايم من الاردن الى غربى أورشليم وأخذ دان الكورة الكائنة بين افرايم من جهة الشمال ويهوذا من جهة الجنوب وبنيامين من جهة الشرق والبحر الابيض المتوسط من جهة الغرب وهذه الكورة كانت مسكونة وحدها بالفلسطينيين فمن أجل هذا السبب وكذا من كون أراضيهم كانت قليلة جدا عليهم رحل قسم من سبط دان الى الجهة الشمالية وتغلب على مدينة لشم فى نواحى منابع الاردن وسموها مدينة دان واستحوذوا على أراض شاسعة مجاورة لها وصارت هى الحد الاكبر الشمالى للارض الموعودة وبما أن أرض بئر السبع كانت هى الحد الجنوبى لها صارت جملة الارض من دان الى بئر السبع هى القطعة المستعملة فى العادة لوصف جميع امتداد الارض الموعودة من الشمال الى الجنوب وأخذ سبط شمعون أرضا موروثة خارج أرض يهوذا وسكن هذا السبط القسم الجنوبى الغربى من ساحل البحر المحدود بالصحراء من بئر السبع الى غزة ويمتد ساحله البحرى الى شمال عسقلان وأخذ يساكر وادى يزرعيل الكبير الجيد الخصوبة ويسمونه أحيانا وادى عصدرلون وأخذ زبولون السلسلة الجبلية المحدودة لسهل عصدرلون من الجهة الشمالية وشكلت فى الازمان الاخيرة القسم العلوى من غليلى الواطية وأخذ أيضا حزام ضيق على ساحل البحر فى شمال جبل الكرمل داخلا فى حده الشرقى بحر غليلى وأخذ أشير السهل الموجود فى طول ساحل البحر الابيض المتوسط فى شمال جبل الكرمل الى نحو الجهة الشمالية داخلا فيه قسم كبير من فينيقيه ولم يحصل من بنى اسرائيل عزم ولا اجتهاد أبدا فى التغلب على القسم الفينيقى ضمن الارض الموروثة لهم فكان الحد الشمالى لأشير فى الحقيقة الحد الفينيقى من جنوب مدينة صور وكانت أرض اشير ممتدة نحو الشرق قاطعة أرض فلسطين على نصف مسافة منها وأخذ نفتالى الارض الكائنة فى شمال زبولون الى جبل حرمون بين الاردن وملك أشير

وأما السبطان ونصف الموجودة أراضيهم فى الجهة الشرقية من نهر الاردن فانهم تنازلوا عما يخصهم من هذه الغنائم وعادوا مع الشكر والثناء الى أرضهم خلف الاردن

ولما أحس يوشع باقتراب أجله جمع عموم نواب الامة العبرانية وكبارها فى مدينة شكيم ومن بعد أن أسمعهم ما أسبغ الله سبحانه وتعالى عليهم من النعم التى أفاضها عليهم حثهم وحرضهم على أن يكونوا متمسكين على الدوام بطاعة الله ومحافظين على عبادته وعلى شريعة موسى عليه السلام وأن يستمروا فى اجراء الحروب على الكنعانيين حتى يطردوهم من كل الارض الموعودة لانه تولد من ارتكاب

الكنعانيين

الكنعانيين الجرائم واعتكافهم على الفواحش والآثام أن القادر سبحانه وتعالى دمرهم بذنوبهم وجعل لهذا الامر بنى اسرائيل على الخصوص فذكرهم يوشع بهذا الذكر وأنبأهم أيضا بما سيحصل من المصائب لقومه لو تركوا دينهم أو نسوا ما يلزم اجراؤه ضد الكنعانيين أو خالطوهم فعهد القوم الى يوشع بالثبات والطاعة والتمسك بعبادة ربهم وجددوا ميثاقهم وعهدهم معه سبحانه وتعالى وبعد هذا قام يوشع من محل الجمعية وعمل أثرا من الاحجار وجعله شاهدا على ما نذره القوم من عهد مستقبلهم ومات يوشع بعد ذلك بقليل بعد أن بلغ من العمر مائة وسبعا وعشرين سنة وحكم فى بنى اسرائيل خمسا وعشرين سنة ونعت الامة موته وحزنوا عليه حزنا شديدا

ومن سوء حظ بنى اسرائيل أن يوشع لم يجعل خليفة من بعده عليهم وترك القوم بغير رئيس ففى المدة التى كان فيها الشيوخ المعاصرون ليوشع على قيد الحياة تمسك القوم وقارالهم بالقوانين الشرعية المنزلة عليهم وعبدوا الله حق عبادته ولما انقرض هؤلاء الشيوخ ابتدأ الانفصال والاشقاق يزحف بين الاسباط ويبعدهم عن بعضهم ولم يحصل منهم أدنى سعى ولا التفات فيما يختص بفتح المدائن الباقية فى أيدى الكنعانيين وابتدأ الاسباط الموجودون فى الجهات الشمالية أن يظهروا المحالفة الجنسية وعقدوا معاهدات بشروط قوية على قدر ما أمكنهم مع الكنعانيين القاطنين بينهم وكذا ضعفت مساعى الاسرائيليين عن فتح أراضى الفلسطينيين واستمرت المدائن الساحلية باقية فى حوزة الملة الفلسطينية الحربية وصار هذا الاستحواذ عند الاسرائيليين والفلسطينيين حكما قانونيا ونشأ من تداخل الاسرائيليين مع الكنعانيين نتائج تولد منها الفساد والضرر على العبرانيين وكان المركز الاكبر الديانى للعبرانيين فى مدينة شيلوه ومنصوبا فيها الخيمة المقدسة وبها التابوت وأخذ بنو اسرائيل فى ترك تقريب القربان لله سبحانه وتعالى وتركوا عبادته وفشت فى القوم العبادة الوثنية الكنعانية ودخل بين الاسباط البغضاء والعداوة وأدى ذلك الى حروب وقعت بينهم حتى صار سبط بنيامين على شرف الدمار والهلاك مما حصل له من الاسباط الاخر وصارت حالة بنى اسرائيل موصوفة بهذه الالفاظ .

* لا يوجد الآن ملك فى بنى اسرائيل * وكل يفعل ما يراه صوابا ويختاره لنفسه * وبهذا صار لا يوجد حكومة سياسية ولا ادارة داخلية تنفذ أحكامها على هؤلاء الاسباط ومع كون الله سبحانه وتعالى هو المالك لهم حسب القاعدة الاساسية لطريقة شرع بنى اسرائيل الا أن الديانة الوثنية أخذت حدها فى الانتشار وعلا مجدها فى الاقطار حتى ان العهود التى عهدها العبرانيون لمالكهم صارت نسيا منسيا وتركت فى زوايا الاهمال بالكلية وتولد من ذلك الشقاق والضعف بين العبرانيين فلما رأى الكنعانيون والفلسطينيون هذا اهتموا مع العجلة فى أن يأخذوا بثارهم وينتقموا من الاسرائيليين نظير ما جلبوه عليهم من الدمار والخراب ويلزموهم بالطاعة والانقياد لهم وسلط الله سبحانه وتعالى على بنى اسرائيل شوكة أعدائهم فظلموهم وعذبوهم وبهذا قضى عليهم العدل الالهى لانهم صاروا خاطئين ولما وقع العذاب الاكبر والجور الاحمر على بنى اسرائيل استيقظوا وأحسوا بما هم عليه من الجرائم والآثام تابوا من ذنوبهم وتضرعوا بالبكاء والنحيب الى ربهم وطلبوا منه مساعدتهم فسمع دعاءهم وجعل خلاصهم على يد أشخاص ذوى قوة منهم فتكوا بظالميهم وأقاموهم فى حالة استقلالية ثانيا وبمجرد كشف العذاب والاهوال عن بنى اسرائيل رجعوا الى غيهم وطغيانهم وعكفوا على العبادة الوثنية التى نجوا منها بواسطة تضرعات وخضوع جديد الى الله تعالى

وكان يطلق على الاشخاص الذين خلصوا بني اسرائيل من أعدائهم بأمر الله تعالى اسم القضاة وبعد ما يخلصون الامة من أعدائها يقيمون بنيانها بصير ون حكاما عليها ويجرون طرائق أحكامهم بواسطة الهام أو وحي من عند الله سبحانه وتعالى حسبما يشاء ويختار فقادوا الجيوش الى المحاربات والوقائع وأدوا واجبات الاعمال العمومية مع الامن واستتباب الراحة وما كان موقع القاضي أو مركزه كموقع ملك من الملوك ولا شوكته كشوكته بل كان منصبه سامي القدر قليلا عن عموم الامة ولا كانت وظيفته وراثية بل كان يجري تعين القاضي الواحد بوحي أو الهام من الله سبحانه وتعالى اما لنفسه أو لآخرين وكانت اجراآت أحكامه متعلقة برضا الامة وما كانت سلطته عامة على سائر بني اسرائيل واذا حصل تعيين القاضي مرة أقام في وظيفته مدة حياته وكان لا يختار ولا ينتخب خليفته مباشرة من بعد موته بل كانت تمضي مدة طويلة أو قصيرة حتى يتعين من عند الله وتكون الامة في هذه المدة بغير حاكم أو تكون رعية خاضعة لواحد من المتغلبين عليها والذين تولوا حكم بني اسرائيل خمسة عشر قاضيا استمر فيهم حكم القضاء عدة قرون غير أن أحوالهم التاريخية وأحكامهم السياسية غير محققة ولا معلومة والحوادث التاريخية والوقائع الداخلية التي حصلت في تلك الاحقاب لا يمكن الحصول عليها ولا الاعتماد على ما هو مذكور في شأنها

وفي زمن حياة النسل الذي جاء عقب الفتح مد ملك من ملوك ميزوبوتاميه الغربية اسمه (كوشان اشعتايم) مملكته من ابتداء نهر الفرات الى حدود أرض كنعان وأخضع بني اسرائيل حتى صاروا رعية له ودفعوا له الخراج عن يد وهم صاغرون وامتد حكمه عليهم مدة ثمان سنوات وكلفهم في هذه المدة ما لا يطيقون من الاعمال وأذاقهم وبال الجور وعسف فيهم وعنبهم حتى أرسل الله فيهم عُتْنِئيل ابن أخي كالب الذي كان في عصر موسى ويوشع فهزم عتنئل المتغلبين وأخرجهم من ديار قومه وأعاد استقلالية أهل بلاده ومكثوا على ذلك أربعين سنة لا يشوبهم فيها كدر ولا يمسهم فيها تنغيص

وفي آخر هذه المدة عقد (عجلون) ملك مواب معاهدة مع بني عمون والعمالقة وعبر الاردن وهزم بني اسرائيل وأقام سلطنة نفسه بالقرب من مركز مدينة أريحاء القديمة واستعبد الاسرائيليين مدة ثمان وعشرين سنة وفي آخر هذه المدة نجح (أهوذ) من سبط بنيامين في قتله عجلون وقت ما كان يقدم له الخراج المطلوب من سبطه ومن بعد أن قتله هرب ونجا بنفسه وجمع بني اسرائيل وهزم الموابيين وطردهم خلف نهر الاردن بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة نحو من ١٠٠٠٠ نفس ومن هذا النصرة حصل لاحزاب فلسطين فترة في الحروب مقدارها أربع وعشرون سنة غير أن هذه الفترة ما كانت عامة في جميع بلاد بني اسرائيل

وان (شَمْجَر بن عناة) وهو ثالث قضاة بني اسرائيل سار في رأس شرذمة من الشغالة متسلحين بآلات من آلات الزراعة وهزم قوة من الفلسطينيين وقتل منهم بيده نحو من ٦٠٠ نفس بمهاميز يقال لها مهاميز البقر

ومن بعد موت أهوذ عكف بنو اسرائيل على المعاصي فسلط الله عليهم (يابين) الكنعاني ملك حاصور وهو من نسل الملك الذي هزمه يوشع وكان مثل جده رأس اتحاد كبير في فلسطين الشمالية وكان في جيشه ٩٠٠ عربة حربية من الحديد والمناجل تحت قيادة واحد من شجعانه اسمه (سيسرا) فتغلب على شمال فلسطين وأخضع هذه الجهة وأدخلها في رق العبودية واستمر بنو اسرائيل في الرق

والعبودية نحوا من عشرين سنة

ولما تحجرت (دبوره) من ظلم قومها وكانت امرأة ملهمة تدبر أمور بني اسرائيل في هذا الوقت بالعدل والانصاف وكان محلها تحت أيكة نخل بين الرامة وبيت إيل في جبل افرايم دعت (باراق) بن أبي نوعم من نواحي قادش في نفتالي ليكون رأسا في خلاص الامة من رق العبودية وبشرته بنصر الله له على الاعداء فأجاب باراق دعوتها بعد أن عقد معها وثوقا أن تصحبه في حربه وأخبرته أنه لا ينال فخرا ولا شرفا في هذه الواقعة لان الله سبحانه وتعالى سيهلك سيسرا على يد امرأة تقتله فجمع باراق القوى من نفتالي وزبولون ويساكر مع رجال قليلين من افرايم ومنشا وبنيامين وكان جميع ما جمعه نحوا من ١٠٠٠٠ نفس واتخذ موقعه في جبل طابور وسار في الحال سيسرا الملاقاته في جيش يابين فهجم باراق على شواطئ نهر قيشون وساعده الله بآية من عنده وذلك أن النهر فاض وأهلك قسما من جيش الكنعانيين وشتت شملهم بخسارات جسيمة وهرب سيسرا ماشيا على أقدامه والتجأ الى خيمة (حابر) القيني من فلسطين الشمالية فقتلته (ياعيل) امرأة حابر وهو نائم عندها ووفت دبوره بما أنبأت به ثم تغلب باراق على مدينة الحاروشيين بلد سيسرا ثم على حاصور عاصمة يابين وقتل الملك ولما أتته الامداد والنجدة من الاسباط الاخر استمر في الحرب حتى خلص جميع البلاد وحررها وتولد من هذه النصرات استتباب راحة مدة أربعين سنة لم يحصل فيها حروب ولا وقائع

ثم ان العذاب التالي لما ذكر الذي أنزله الله على بني اسرائيل كان عقابا عظيما وعذابا أليما وذلك أنهم لما عكفوا على عبادة الاوثان وتركوا عبادة الله سلط الله عليهم (المديانيين) وهؤلاء تعاهدوا مع العمالقة وقبائل عرب البوادي القاطنين في الجهة الشرقية فازعجوا فلسطين وكروا عليها الغارات وأنواع الهجومات ونهبوا البلاد وسبوا النسوان والاولاد وأنزلوا على العبرانيين عذابا ما له من راد وحملوا جميع الاشياء التي قدروا على حملها ودمروا ما لا طاقة لهم على حمله فالتزم الاسرائيليون أن يخفوا أنفسهم مع مواشيهم وغلالهم في كهوف تحت الارض ويستوطنوا في مدائن مستحكمة واستمرت عليهم هذه الاحوال القاسية والشدائد الصعبة مدة سبع سنوات وفي آخر هذه المدة خضع القوم وتابوا الى الله وتضرعوا اليه بالبكاء وابتهلوا اليه بالدعاء وسألوه خلاصهم مما هم فيه من المصائب والاهوال فسمع الله سبحانه وتعالى دعاءهم وأرسل فيهم (جدعون) بن يواش من سبط منشا ليكون رأس حركة خلاصهم ووعده بالنصر وحصول الظفر فهدم جدعون محراب بعل وجمع قوة مقدارها ٣٢٠٠٠ نفس من بني اسرائيل وكان المديانيون ومحالفوهم تحت قيادة الوجوه من رؤسائهم المشهورين بتدبير الامور فساروا في الحال الى ميدان الحرب لتمزيق هذه الثورة وأخذ (جدعون) موقعه في مرتفعات جبل جلبوعة وأمسك قبائل الاعراب وادي يزرعيل الاسفل ولما كان جدعون واثقا بالنصر من عند الله أذن لجميع رجاله بأن كل من رغب الرجوع فليرجع فرجع ٢٢٠٠٠ نفس وبقي معه ١٠٠٠٠ نفس لاجل مقابلة العدو ولما أراد القادر سبحانه وتعالى أن يري بني اسرائيل أن خلاصهم كان بيده لم يأذن لهذا القدر في مقابلة العدو وأمر (جدعون) أن ينتخب ٣٠٠ محارب من العشرة آلاف من المجربين في الحروب ويجعل الباقي من قوته مددا لهم ويقسم جدعون الثلاثمائة محارب الذين انتخبهم الى ثلاثة كراديس أو ثلاث فرق ويهجم على عسكر المديانيين ليلا وكانت رجال جدعون حاملة أبواقا ومشاعل من نار مخبوءة في قدور من فخار ولما أعطى جدعون رجاله اشارة الهجوم نفخ كل

رجل منهم فى بوقه وكسر قدره وأخرج شعلته وصاح بقوله سيف الله (وجدعون) فقامت الاعداء من نومها مرعوبة ووقع فيهم الفزع والارتباك وأوقعوا السيوف فى بعضهم وتركوا معسكرهم وهربوا نحو الاردن فتبعهم الباقى من جيش جدعون وأخذوهم بالسيوف وبددوا شملهم عن آخرهم ولم ينج أحد من نهر الاردن الا قليلا منهم وهذه النصرة كسرت شوكة المديانيين بتمامها وحررت الاسرائيليين وخلصتهم من المديانيين فعزم كبار بنى اسرائيل على أن يجعلوا جدعون ملكا عليهم الا انه رفض قبول لبس التاج وحكمهم عدة سنين يدبر أمورهم كقاض وما كان حكمه خيرا على جميع بنى اسرائيل لان عبادة الاصنام فشت عيانا فيهم بواسطته وهو الذى قوى شعائرها ومن بعد موته جعل أحد أولاده المسمى (أبيمالخ) نفسه ملك شكيم والبلاد المجاورة لها وبعد أن ملك ثلاث سنوات قتلته امرأة بينما كان يحاصر مدينة لم يقبل أهلها اطاعة حكمه

ثم دبرهم من بعده (طولع) أو (فولع) ثلاثا وعشرين سنة وخلفه (ياسير) الجلعادى دبر أمرهم اثنتين وعشرين سنة وكانت مدة سلطنتهما خالية الوقائع والحوادث ومع هذا فالمعلوم لنا أن عبادة الاصنام والاوثان فشت فى بنى اسرائيل فى هذه المدة حتى ان الله سبحانه وتعالى سلط عليهم أعداءهم ثانيا وذلك أن بنى عمون أخضعوا الاسباط الموجودين فى شرق الاردن لطاعتهم واستعبدوهم ثمانى عشرة سنة وفى هذه المدة عبروا الاردن عدة مرار وخربوا أرض يهوذا وبنيامين وافرايم فانتخب القوم الموجودون فى شرقى الاردن قائدا لهم اسمه (يفتح) رئيس طائفة ليست على شريعة قاطنة فى جبل (جلعاد) فهزم بنى عمون شر هزيمة فى واقعة كبيرة حصلت بينه وبينهم وخلص منهم البلاد وأنقذ من ظلمهم العباد وفى مبادى حربه نذر أنه اذا نصره الله على الاعداء يقرب له أول مخلوق يقابله على باب داره عند عوده من حربه الى بيته فلما عاد الى بيته كان أول من قابله بنته فافتكر (يفتح) نذره وأنه لابد من أن يوفيه بكونه يقرب بنته قربانا لله سبحانه وتعالى فلم تعارضه بنته فى مشروعه وسألته تأجيل نفسها المدة شهرين فقط فسمح لها بذلك وفى آخر هذه المدة وفى يفتح بنذره وقرب بنته فكان هذا القربان مخالفا بالكلية لشريعة موسى ومنه يظهر أن الاسرائيليين الذين كانوا فى الجهة الشرقية من نهر الاردن كانوا على عوائد وطبائع مخالفة لشريعة موسى عليه السلام ودبر (يفتح) أمور بنى اسرائيل كقاض لهم ست سنوات بعد نصرته على الاعداء ومات ودفن فى جبل (جلعاد) ثم دبر بنى اسرائيل من بعده (أبصان) من نسل (زبولون) فتعالى هذا القاضى الى درجة كبيرة بواسطة تداخله مع الامم المجاورة له بكونه زوج أولاده برجال ونساء منهم وحكم بنى اسرائيل سبع سنين ثم خلفه فى القضاء (علوان) وكان من نسل (زبلون) أيضا وكانت مدة حكمه عشر سنوات خالية من الوقائع والحوادث ثم خلفه فى القضاء (عبدون بن هليل الفرعطونى) فدبر أمر بنى اسرائيل ثمان سنوات كانت خالية الوقائع والحوادث وقال بعض المؤرخين انه هو (قدن) الذى عده (شمويل) من ضمن القضاة ومن المحتمل أن نوال القضاة وفوزهم بكسر شوكة الكنعانيين لانا ما عدنا نسمع لهم خبرا ولا جلية أثر ثم لما عكف بنو اسرائيل على المعاصى وارتكبوا الجرائم والفواحش سلط الله عليهم عدوا جديدا أشد قسوة وأكثر ظلما وهى الامة الفلسطينية الحربية وهم سكان ساحل البحر الابيض المتوسط من فلسطين الجنوبية فمدوا شوكتهم على فلسطين الجنوبية وأخضعوا بلاد (شمعون ويهوذا وبنيامين ودان) الى طاعتهم وكان هذا الاستعباد فى غاية من الشدة والقسوة واستمر بنو اسرائيل فيه نحوا من أربعين سنة

وكان

وكان فى هذا الوقت قاضى بنى اسرائيل (عالى) من بيت (عِطْمار) وهو الابن الاصغر (لهارون) ولم نعرف متى انتقلت رياسة القسوسية من بيت (عِلْطار) الى بيت (عطمار) أو ماهو السبب فى التغيير والظاهر أن هذا كان منحة الهيئة عقابا للبيت (عالى) بسبب وقوع هذا البيت فى ارتكاب الجرائم والآثام وأما نفس (عالى) فكان رجلا صديقا وقدوة فى الورع والزهد وكان مقره فى (شيلوه) مع الخيمة المقدسة وكان حكمه مقررا بواسطة جميع الاسرائيليين وكان أولاده على غاية من الفجور وارتكاب الفواحش وكانت أفعالهم غير محمودة عند الاحبار الآن (عالى) بالنسبة لضعفه ووهنه رخص لاولاده فى بقائهم فى وظائفهم المقدسة فأرسل الله تعالى له نبيا أنذره بأن الله سيعاقبه على ضعفه ووهنه ويقتل أولاده وتخسر عائلته الوظيفة المقدسة التى لا يعرفون مقدار قيمتها ومع هذا فان (عالى) لم ينصح أولاده ولم يرشدهم لما فيه الخير وطريق الصواب بل جعلهم مستمرين على ماهم فيه من الخطايا وفعل المنكرات

وفى مدة (عالى) رفع الله سبحانه وتعالى منار حماية بنى اسرائيل وجعلها فى نفس (شمسون وشمويل) وذلك أن (شمسون) كان من نسل سبط دان القاطن فى الناحية الغربية من يهوذا وكان مولده بنبا من ملك من عند الله لوالديه وأوصاهما بان يربيا الطفل منذورا لله ويحفظاه من الاطعمة النجسة والاشربة المسكرة ويحذرا من وضع الموسى على رأسه لاجل حلق شعره وأنه عندما يبلغ هذا الطفل مبلغ الرجال يفعل أفعالا عظيمة يعود منها النفع على قومه ضد الفلسطينيين وبلغ (شمسون) مبالغ الرجال فى الوقت الذى اشتد فيه جور الفلسطينيين وظلمهم على بنى اسرائيل وكان بين بعضهم حروب مستمرة وكان شجعان المحاربين من سبط (دان) معسكرين فى معسكر حصين بالقرب من قريات (يريم) وأخذ (شمسون) فى الحركة وأعطاه الله قوة فى الجسم وطاقة على الاتعاب والمصاعب وعدم الخوف من وقوعه فى الاهوال والمخاوف ولما كان واثقا ومعتمدا على ما أعطاه الله تعالى من القوة والحيل عزم على فتح باب للمنازعة مع الفلسطينيين ولهذا طلب أن يتزوج بامرأة من (تِمْنَة) وعند توجهه لرؤيتها قتل فى طريقه أسدا بأن قبض عليه من فمه ومزق شدقيه من رأسه ورمى رمة الاسد فى ناحية من الطريق ولم يقل لاحد على ما فعله وعند عوده بعد قليل من هذا الطريق رأى سربا من النحل اتخذ خليته فى الرمة فأكل العسل الذى وجده فيها ولم يقل لاحد عليه وفى وليمة زواجه جعل ذلك لغزا لثلاثين شخصا دعاهم فى الوليمة وقال لهم على هذا اللغز وشرط ان حلوه فى ظرف أسبوع فلهم ثلاثون قميصا وثلاثون حلة من الثياب ولما قرب انقضاء المدة توعد هؤلاء الشبان زوجة (شمسون) وأهلها بالحرق ان كانت لا تسأل زوجها عن جواب هذا اللغز وتخبرهم به وبما أن (شمسون) كان مطيعا لما تطلبه منه زوجته مالت بكليتها اليه وطلبت منه جواب اللغز فأخبرها مع ميله لها بالجواب وهى قالته لاقاربها وفى اليوم الموعود حل الشبان اللغز ولما ظهر (لشمسون) الخديعة قال الذى حرث على عجلتى فلك حذورتى وجعل خديعة الفلسطينيين ومكرهم فى أسنانهم وترك لهم المدينة وتوجه ناحية عسقلان وقتل ثلاثين رجلا من أهلها وأرسل ثيابهم الى أولاد بلدهم الذين حلوا اللغز ورجع عائدا الى بيته فتزوجت امرأته رجلا من أخص أصدقائه ولما عاد اليها وسمع بخبرها لم يقبل أن ينظر اليها وأخذ ثارا من القوم بكونه حرق أجران المحصولات الموجودة عند الفلسطينيين فانتقموا منه بكونهم

أحرقوا امرأته وأباها فانتقم منهم أيضا بكونه هجم عليهم وقتل منهم مقتلة كبيرة جدا ثم هرب منهم الى أرض يهوذا ومن هذا الوقت استمرت الحروب بين (شمسون) والفلسطينيين فأظهر (شمسون) ما عنده من الشجاعة وما أعطاه الله من القوة والعزم وقتل منهم في واقعة ألف نفس من رجالهم وما كان معه سلاح بل كان في يده فك حمار وفي مدة بقائه على عهد نذره كان يخلص من كل شرك يقع فيه لكنه سلم أخيرا نفسه لاشياء أضعفت قوته الالهية وتولد منها دماره وذلك أنه تزوج بامرأة اسمها دليلة كانت قاطنة في وادي (سورق) فجعل الفلسطينيون لها جعلا على أن تغدر به فتوسلت اليه بكليتها وتدللت عليه بمحبتها ليخبرها عن سر قوته فأخبرها بأنها موجودة في شعره فاذا قطع شعره زالت منه قوته وبينما كان نائما بين يديها اذ سقط عليه بعض أعدائه وقطعوا شعره وأسروه وغلوا عينيه وجدعوا أنفه وأوثقوه في الاغلال وساقوه الى غزة وألزموه الشغل في مهنة حقيرة وهي أن يطحن في طاحون الحبس وعاقبوه بأليم العذاب لكن الله تعالى لم يدعه فانه بمجرد ما طال شعره عادت اليه قوته وبعد ذلك اجتمع أمراء الفلسطينيين وقوادهم في محفل كبير في هيكل داجون في غزة وكان ذلك يوم عيد لهم وأخرجوا (شمسون) من الحبس وألزموه أن يضحكهم بما يفعله من قوته في لعبه وأمروه أن يقف بين عمودين حاملي سقف الهيكل وكان الهيكل غاصا بازدحام الناس وكان فيه نحو من . . . ٣ نفس فتضرع (شمسون) الى الله سبحانه وتعالى في أن يقويه ليهلك نفسه مع أعدائه وقبض هذا الشجاع الاعمى على العمودين بذراعيه وضغط عليهما وجذبهما مرة واحدة فسقط الهيكل على ما فيه وقتل (شمسون) وسائر الحاضرين في الهيكل ومات مع موته هذا عالم كثير أزيد ممن كان يقتلهم في حياته وأخذ قومه جثته ودفنوه مع آبائه وكان (شمسون) معلوما أنه الثالث عشر من قضاة بني اسرائيل الا أن حكمه لم يظهر أنه امتد على غير سبطه

وكان (شمويل) وهو الخامس عشر من القضاة وآخرهم مثل (شمسون) طفلا منذورا لله سبحانه وتعالى وكان أبوه القانه من ذرية مورة وأحد رؤساء سبط لاوي قاطنا في (رمتايم) صوفيم وله زوجتان في أعظم ما يكون من الطبائع والصفات الجيدة في ذلك الوقت فأما احداهن فننه فكانت أم أولاد وأما الاخرى حنة وهي زوجته المحظية فكانت عاقرا ثم ان (القانه) توجه بعائلته الى (شيلوه) حسب العادة الجارية عندهم لاقامة شعائر دينهم ففي أثناء جلوسهم جميعا على أكل الوليمة القربانية مال (ألقانه) بكليته على حنة وأظهر لها علامات المحبة فغارت منها فننه وعابتها وذمتها بسبب كونها عاقرا وقالت لها ألفاظا موجعة حتى ان حنة تركت الاكل وقامت تجري ودموعها على خدودها ومما حصل لها من الغضب والزعل ذهبت وقعدت على باب الخيمة المقدسة وصارت تدعو في قلبها أن يرزقها الله ولدا تجعله نذرا له سبحانه وتعالى فنظر اليها عالي الحبر الاعظم ورأى شفتيها تلعب فظن أنها سكرانة من الاكل فأوجعها بالكلام المؤلم فأطلعته على أمرها وأكدت له حقيقة خبرها وانها امرأة حزينة القلب مكسورة الفؤاد وأنها تشكو بثها وحزنها الى الله فلاطفها عالي في الكلام مع الشفقة والرأفة ودعا لها بالبركة وابتهل بالدعاء الى الله أن يهب دعاءها فعادت الى منزلها مغمورة بالسعادة وولدت شمويل في الوقت الموعود فأخذت في تربيته حتى بلغ العمر الكافي لانفصاله منها وأخذته الى شيلوه وقدمته مع الوقار والاجلال الى خدمة الله سبحانه وتعالى وتركته عند الحاخام الاكبر ثم ولدت لزوجها ثلاثة أولاد وبنتين وشب شمويل وترعرع في خدمة الخيمة المقدسة ونال كرم الله وكرم خلقه ومن دلائل

كرم الله عليه أن أنعم الله عليه في حال شبوبيته بان قال له في الليل انه سيهلك بيت عالي ويأخذ الحاخامية منه عقابا على ما يفعله أولاده من الخطايا والجرائم وعجزه عن تنفيذ حكمه عليهم ومن هذا الوقت صار شموئيل نبيا وما نقص شيء مما أنبأ به وازدادت شهرته ونفوذ كلمته على الامة كلما كان يتقدم في السن ومن جملة وصايا الله لشموئيل انه يقوي بني اسرائيل ويشجعهم في اعتقادهم ان الله يساعدهم على عتقهم من الفلسطينيين ومن ثم حملوا السلاح لكن حصلت لهم الهزيمة في جبال بنيامين القريبة من شمال أورشليم فجلب حفني وفنحاص ولدي عالي التابوت من شيلوه الى معسكر بني اسرائيل معتقدين انه بواسطة انتهاك حرمة التابوت ينالون النصر من عند الله فعاقبهم الله على انتهاك هذه الحرمة بان أذن للفلسطينيين بهزيمة الاسرائيليين فسقطوا عليهم وفتكوا بهم وقتلوا منهم نحوا من ٣٠٠٠٠ نفس وقتل حفني وفنحاص وتغلب الفلسطينيون على التابوت ووصلت أخبار هذه المصيبة الى عالي وهو جالس على مقعد أمام باب الخيمة المقدسة فلما سمع بفقد التابوت وقتل أولاده سقط من فوق مقعده فانكسرت رقبته وخرجت روحه من جثته

وحمل الفلسطينيون التابوت الى بلادهم مع النصر والظفر فأرسل الله سبحانه وتعالى عليهم آية عذاب شديد فأرسلوه الى بيت شمس فحصل للناس من أهالي بيت شمس غيرة وفتحوا التابوت ونظروا ما فيه فأرسل الله عليهم طاعونا بشأن انتهاكهم هذه الحرمة فأهلك منهم ٥٠٠٧٠ نفس ولما خاف الموجودون على قيد الحياة من أهل بيت شمس من مثل هذه المصائب أرسلوا التابوت الى قريات يعاريم فأخذه أهل قريات يعاريم الى مدينتهم وبقي في بيت أبي ناداب من سبط لاوي الى أن حمله داود الى أورشليم وخلف شموئيل عالي في وظيفة القضاء وكان حكمه عاما على بني اسرائيل وفي ظرف عشرين سنة من بعد فقد التابوت اضمحل بنو اسرائيل وخمدت قواهم مما وقع عليهم من أثقال الفلسطينيين وفي آخر هذه المدة دعا شموئيل الامة وبذل جهده في خلاصهم وعتقهم من الفلسطينيين ولاجل استعدادهم لهذه الحركة عقد جمعية عظيمة في مذبح وأمر بني اسرائيل بالصوم والطهارة والتوبة مما هم فيه من المعاصي وجدد عهدهم وميثاقهم مع الله سبحانه وتعالى فلما بلغ الفلسطينيين خبر عقد هذه الجمعية أرسلوا جيشا عظيما لاجل اخمادها وحطمها فشجع شموئيل الامة على الاغارة على هذه القوة والهجوم عليها وساعد الله بني اسرائيل بان أرسل على جيش الفلسطينيين زعازع شديدة من السماء هلك فيها قسم عظيم من جيش الاعداء فهرب الفلسطينيون وأعقبهم الاسرائيليون بالذبح والقتل فتولد من هذه النصرات كسر شوكة الفلسطينيين على بني اسرائيل وأقيمت حكومة شموئيل مع الثبات ونشر العدل في ادارة البلاد بين الامة العبرانية وعين ولديه يوئيل وأبياب لمساعدته وتمتع بنو اسرائيل تحت حكم شموئيل باعظم مدة سلمية لم يروها قبل الآن

ومع ذلك كانوا على غير رضا عنها واعتقدوا في أنفسهم ان احتياجهم لحكومة مركزية وهي هذه الحكومة الجارية منبع لما حصل لهم من المصائب والبلايا الماضية وخافوا أن يصيروا فيما بعد عرضة لمثل هذه المصائب والبلايا ونسوا أن السبب الاصلي فيما حصل لهم من الاوجاع والاكدار هو كفرانهم بعبادة الحق سبحانه وتعالى فلجوا في طلبهم ملكا عليهم وقالوا ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا قالوا وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فما وعظهم به شموئيل وذكرهم اياه أن الله هو ملكهم وانه هو الحافظ لهم وانهم ان أصروا على انتخاب

ملك وقعوا فى أشد العذاب بمباعه وا الله وعدم قبول أوامره فما زالوا يتضرعون و يبتهلون الى الله حتى سمع دعاءهم ومنحهم سؤالهم وأمر الله سبحانه وتعالى شمويل أن يتم طلب القوم ففعل حسب الاوامر الالهية والتعليمات الربانية دهن شمويل طالوت بن فيش من سبط بنيامين ليكون ملكا على بنى اسرائيل وكان ذلك فى سنة ١٠٩٥ قبل الميلاد

الباب الرابع

فى المملكة الواحدة

وصف طالوت ــ عدم رضا الاسباط ــ خلاص جلعاد ــ اقرار الامة العبرانية على طالوت ــ اغتصاب طالوت حكم الحاخامات ــ مشاحنته مع شمويل ــ الحروب مع الفلسطينيين والامم الاخر ــ تدمير العمالقة وانقراضهم ــ قتل شمويل اجاج ــ دهن داود ليكون ملكا ــ ميل طالوت لداود ــ موت جالوت ــ بحث طالوت على قتل داود ــ هرب داود ــ مخاطرته وجرأته ــ ذبح طالوت الحاخامات ــ واقعة جبل جلبوعة ــ موت طالوت و يوناثان ــ صيرورة داود ملك يهوذا ــ حرب داخلى ــ صيرورة داود ملكا على كافة بنى اسرائيل ــ فتح أورشليم ــ فتوحات داود ــ امتداد مملكته ــ أحكامه الداخلية ــ خطيئته ــ عصيان أولاده ــ موت داود ــ جلوس سليمان ــ مجد سرايته وزخرفتها ــ تجارة العبرانيين ــ الصفات الشخصية للملك ــ طريقته ــ المعبد ــ اضمحلال شوكة سليمان ــ خطيئته ــ موته ــ ربعام خليفته ــ ثورة الاسباط الشمالية وتعصبهم

ومن المحتمل ان طالوت الملك الجديد كان عمره نحو أربعين سنة وقت جلوسه على أريكة سلطنة بنى اسرائيل وكان موصوفا بشرف النفس وعلو الهمة وحسن السجايا والطباع وكان أطول انسان فى بنى اسرائيل وكان ذا هيبة ووقار حتى ان شمويل عندما قدمه للامة أهلوا ورحبوا به وصرخوا بصوت واحد مع الابتهاج والسرور وعلو الصوت قائلين حفظ الله الملك حيا الله الملك وكان مستحوذا على شجاعة أبناء جنسه و بسالتهم ومهارتهم

ويولد من كون انتخاب الملك من الاسباط الدنية أن قالوا لشمويل بعد أن قال لهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا ما كنت قط أكذب منذ الساعة ونحن من سبط المملكة ولم يؤت طالوت سعة من المال فنتبعه فقال لهم شمويل ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ولما رأى شمويل ما هو حاصل عند الاسباط من الكراهة والبغضاء عزم أن يؤخر الجلوس العام لطالوت على الكرسى حتى تنقشع هذه الاختلافات وفى هذا الوقت أغار ناحاش ملك العمونيين على أراضى جلعاد وهى الاراضى الموجودة فى شرق نهر الاردن فأسرع طالوت وجمع قوة من بنى اسرائيل وهزم العمونيين وبدد شملهم وخلص جلعاد افتولد مما ناله من الشجاعة والمهارة التى حازها فى الحرب تسكين المخالفات التى كانت حاصلة ضده وتقررت حكومته وسلطنته مع الحمية والحماس على كافة الامة العبرانية واستمر (شمويل) فى تنفيذ سلطته الكبيرة على أعمال القوم واعتبر الملك مجرد قائد حربى فقط من دون أن

يكون له شوكة يتداخل بها فى النظامات والشرائع القديمة وكان ذلك مغاير الماعليه حالة ملوك الامم المجاورة للامة العبرانيـة فرضى (طالوت) مدة من الزمن بهذا الانقياد واستمر خاضعا لاوامر (النبى) وأحكامه الا أنه بسبب عنفوانه وشدة قوته لم يمكث مدة طويلة على هـذه الحالة فابتدأ فى أن يبطل ماهو واقع عليه من الحجر والصد الذى وضعه عليه شمويل و بذل جهده فى أن يكون ملكا بالفعل والاسم وذلك أنه من بعد تقليده مع الاحتفال الزائد فى نواحى الجلجال بعد رجوعه من حرب العمونيين صرف عساكر بنى اسرائيل الى بلادهم وأبقى معه قوة مقدارها ٣٠٠٠ نفس فى ميدان المحاربة فجعل منهم ٢٠٠٠ نفس تحت خاصة أوامره وجعل الالف الباقى تحت امرة ابنه (يوناثان) وكان شابا حسن الخلق والصفات فهجم يوناثان بهم على مدينة (جبعة) الحصينة من مدائن الفلسطينيين الواقعة فى أرض بنيامين وخلص هـذا السبط من الارتباكات والاضجار الدائمية التى كانت واقعة عليه من الفلسطينيين وشرع الفلسطينيون فى الحال فى ترتيب جيش كثيف وأبرزوه فى ميدان المحاربات فطلب طالوت قوى بنى اسرائيل واجتماعهم فى الجلجال ويلحق به شمويل فى هذا المحل لاجل تقديم القربان الى الله سبحانه وتعالى افتتاحا فى انتشاب الحرب فاجتمع القوم فى الوقت المعين الا أن شمويل لم يحضر فانتظره طالوت سبعة أيام ولما قلق القوم وعيل صبرهم عزم طالوت على أن ينتهز الفرصة فى مدة غياب شمويل و يقضى ما كان مصمما عليه من مدة طويلة وهو أن يخلع حكم شمويل و يأخذ لنفسه سلطة الحاخامية فقرب القربان بنفسه وأعلن لنفسه سلطة القسوسية والملك وبعد ذلك بقليل وصل شمويل وعرف فى هذا الوقت من دلائل الاعمال التى أجراها طالوت أن مقصده الاصلى هو وضع العبرانيين تحت سلطته على قواعد وقوانين الامم المجاورة وأن تكون له الشوكة السامية والسيادة العالية على الاحكام الروحانية والاحكام المدنية الداخلية للامة العبرانية فوبخ شمويل طالوت وعنفه على مافعله وقال له باسم الله ان الاعتبار والوقار الالهى زال عنه من هذا اليوم وانه عند موته لابد من انتقال السمو الملوكى الى عائلة أخرى غير عائلته

وفى هـذا الوقت زادت أثقال الاستعباد والرق الحاصل من الفلسطينيين على الاسباط الموجودين فى الجهات الجنوبيـة ومنعوا صناع المعادن والحديد من الشغل فى تجاراتهم فمن ثم قل وجود الدروع الحربية حتى ان طالوت لم يجد الا ٦٠٠ درع درع بها ستمائة نفس من هـذه الجمعية الكبيرة التى وردت عليه فى الجلجال من بنى اسرائيل ومع هـذا فانه سار بهم الى الجهة الشمالية من نواحى (مخماس) لملاقاة العدو وعند ماوصل اليها هجم (يوناثان) ابنه بما كان معه من العساكر على معسكر الفلسطينيين وأوقع فيهم الفشل والارتباك فأداروا سلاحهم فى بعضهم وفروا هاربين وتبعهم طالوت فى الحال ولحقه كل اسرائيلى أمكنه أن يجد لنفسه سلاحا وسار مع السرعة فى رأس ١٠٠٠٠ مقاتل وسار معقبا للعدو الى (بيت أون) وأوقع فى عساكر العدو التلفيات المهولة وبهذا انسحب الفلسطينيون الى بلادهم واستمر واعدة سنين لا يحصل منهم أدنى سعى ضد بنى اسرائيل وفى هذا الوقت صد (طالوت) غارات العمونيين والموآبيين والادومونيين وسوريى صُوبَة وكانت غاراتهم وهجماتهم متوالية الاجراء على ممالكه وفى نفس هذه المدة تغلب الاسباط الموجودون فى الجهة الشرقية من نهر الاردن على قبيلة العرب الرحالة من أرض هجر ومدوا أرضهم الى نحو دمشق ولما تيقن طالوت ان حفظ مملكته متعلق بمهارة مدافعته الاعداء عنها بذل جهده فى ترتيب جيش ثابت ومع أنه كان

قليل العدد الا انه كان من متدربى الرجال المتعودين على الحروب والمتاعب وجعله فى أعظم درجة من درجات الكمال وعهد قيادته الى ابن عمه (أبى نير بن نير)

ولما شاخ (شمويل) وقرب انتهاء أجله جاء عند طالوت فى يوم من الايام وأمره أن يشعل حربا مفنية على العماليق المتأصلة عداوتهم من قديم الزمان للعبرانيين فسار طالوت فى الحال اليهم وهزمهم وكان مأمورا من طرف شمويل أن يخرب ويدمر كل ما تغلب عليه فلم يفعل طالوت ما أمره به شمويل وجلب معه غنائم عديدة وصفح عن أجاج ملك العمالقة وساقه معه أسيرا حتى يتيسر له الحصول على فداء نفسه من الاسر والقتل

ولما تقابل شمويل مع طالوت فى الجلجال عند عوده من الحرب لامه على ذلك وفى هذا الوقت ذبح شمويل الملك أجاج بيده

ثم ان شمويل انفصل من طالوت وانسد الخرق الذى كان مفتوحا بينهما من أجل الاختلافات الواقعة من كل منهما وأمر شمويل بالتوجه الى بيت لحم وأن يدهن داود ليكون ملكا على بنى اسرائيل فأطاع شمويل الامر ومازال مسافرا حتى دخل بيت (إيشى) وكان رئيس المدينة ودهن داود مع الاحتفال العظيم بالزيت المقدس وكان داود أصغر أولاد إيشى وهو هدية من الله سبحانه وتعالى وملك جديد من نسل نحشون الذى كان رئيسا أو أميرا على سبط يهوذا فى البرية ويعد من ضمن أجداد داود رحاب وروت الجميلة وكان داود بلغ سن الرجولية وظهرت عليه دلائل الشجاعة بكونه حفظ المرار العديدة مواشى أبيه وأنعامه من اللصوص والحيوانات الكاسرة الموجودة فى جهة الاقليم القاطن به أبوه ومال طالوت الى داود بكل محبة وولع به وأغدق عليه بالانعام والاكرام وجعله حامل سلاحه

وفى هذا الوقت انتشبت حرب مع الفلسطينيين والتقى الجيشان جيش الفلسطينيين وجيش الاسرائيليين فى جنوب فلسطين وجلب الفلسطينيون معهم رجلا شجاعا اسمه جالوت من أهل مدينة (جت) فلم يتجاسر أحد من الاسرائيليين على ملاقاته حتى ان داود همّ لمبارزته وكان مصطحبا مع جيش طالوت فاجتهد طالوت فى ابعاد داود عن عزمه هذا الا انه لما وجد عليه دلائل الظفر والنجاح فى ازالة هذا الخطر الشديد رضى بخروج داود لملاقاة الجبار جالوت وكان داود متسلحا بمقلاعه الذى كان يستعمله لغنمه فاستعمله أيضا فى هلاك هذا الجبار وقتله وقطع رأسه بسيفه فوقع الرعب والارتباك فى جيش الفلسطينيين عند قتل شجاعهم فهرب الجيش بتمامه وتبعهم قوى (طالوت) يقتلون ويأسرون الى أبواب مدينة (جتّ وعكّرون) ففرح طالوت وتهلل وجهه من شجاعة داود وزوجه بابنته (ميكال) ووقع حب داود فى قلب يوناثان وبعد ذلك بقليل حصل لطالوت الحسد والغيرة من داود زوج ابنته على ما سمعه من الثناء والشكر فى حقه من عموم الامة من أجل نواله الظفر والنصر على جالوت ومن هذا الوقت شرع طالوت فى التدبير على دماره وفقد حياته

ولما علم داود بذلك انجبر على الهرب من سراى طالوت والتجأ عند ملك (جت) ظاهرا عليه الخوف والرعب لينجو من بطش الفلسطينيين ثم بعد قليل صار عند الملك قائد شرذمة من ناس لا شريعة لهم ولا نظام وقطن مدة من الزمن فى (موآب) ثم وطن نفسه فى الاقليم الصعب الوصول اليه الموجود فى برية

يهوذا

يهوذا الواقع فى أرض يهوذا وفى هذا الوقت مات شمويل فى (الرامة) بعد أن تقدم جدا فى السن ونعته الامة الاسرائيلية وحزنت عليه حزنا شديدا

ومن بعد موت شمويل قبض طالوت على زمام حريته واتبع غى شهواته النفسية وأوقع بجميع معضدى الشريعة الموسوية وعسف فيهم وقتل الحاخام الاكبر (أبيملخ) وخمسة وثمانين حبرا معه وجميع أهالى مدينة (نوب) التى كان يسكنها الحاخام الاكبر وهرب أحد أولاد (أبيملخ) المسمى (أبى عثار) وكان ولى عهد الحاخامية الكبرى ونجا من دمار أهل جنسه وسار الى داود مع السلامة

ثم ان طالوت وجه جيشه على داود وطارده فى فلسطين الجنوبية فلوا استحوذ داود مرتين على حياة الملك وهو فى داخل شوكته وجيشه الا أنه لم يقتله كرما منه وفضلا وذلك أنه كان يدخل عليه خفية وهو نائم ويضع سهمين عند رأسه ورجليه ثم يتركه فلما يستيقظ طالوت من منامه ويرى السهام يحصل عنده أشد الغضب واضطر أخيرا داود للالتجاء عند أخيش ملك جت فأعطاه مدينة صقلغ فأقام فيها داود بضع سنين وهو يشن الغارات وأنواع الهجوم على العمالقة الذين هم العدو المشترك لبنى اسرائيل والفلسطينيين ثم انتشبت الحرب بين الفلسطينيين وبنى اسرائيل مرة أخرى فأمر الملك أخيش داود أن يلتحق بجيش الفلسطينيين ويسير نحو طالوت فالتزم طاعة الامر الا أنه من سعادته ارتاب قواد الفلسطينيين منه وأقنعوا الملك فى كونه يأمره بالعود الى صقلغ وتقابل جيش الفلسطينيين مع جيش بنى اسرائيل فى نواحى جبل جلبوعه فانهزم بنو اسرائيل وقتل يوناثان وجرح طالوت جرحا مهلكا فقتل نفسه بنفسه خشية من أسر أعدائه له وكان ذلك فى سنة ١٠٥٥ قبل الميلاد بعد أن استمرت سلطنته على بنى اسرائيل أربعين سنة

وبمجرد أخذ داود بخبر موت طالوت ويوناثان عاد الى بلاده وأقام نفسه فى حبرون واعترف له سبطه بالملك وهو سبط يهوذا الا أن الاسباط الاخر اتجهوا بطاعتهم نحو ايشبوشت وهو الابن الاصغر من أولاد طالوت وأمر أبى نير بتتويجه فى محنايم فأعقب ذلك حرب دموية داخلية استمر سبع سنوات وكانت نتيجة هذا الحرب أن مال أبى نير الى داود وأما ايشبوشت فانه ذبحه اثنان من خائنى خدمه ومن ثم أقر عموم الاسرائيليين لداود بسلطنته وصار ملكا مع الاحتفال فى حبرون

وكان عمر داود ثمانيا وثلاثين سنة عند ابتداء سلطنته على كافة المملكة الاسرائيلية فكان أول مشروع شرعه هو فتح أورشليم والتغلب عليها من اليبوسيين وجعل داود هذه المدينة عاصمة مملكته ومركز الديانة الاسرائيلية وجلب اليها التابوت واستوطنها ورتب فيها جيشا ثابتا وأنشأ فى عاصمته الجديدة هذه سرايه المفتخرة لنفسه ولحريمه وأدخل فيها الابهة الملوكية التى كانت غير معروفة عند بنى اسرائيل لحد هذا الوقت وعكف نفسه مع الصداقة التامة على عبادة الله سبحانه وتعالى وجعله الله نبيا وملكا وأنزل عليه الزبور وعلمه صنعة الدروع وألان له الحديد وأمر الجبال والطير يسبحن معه ولم يعط الله أحدا مثل صوته فى الالحان وكان كثير الاجتهاد فى العبادة

وكان داود أعظم ملك وأقوى شوكة ملك الامة العبرانية وكان سعيدا مظفرا بالنصرات فى حروبه فكسر شوكة الفلسطينيين ودمر مملكتهم وتغلب عليها الى حد جنوب غزة وأخضع موآب ولم يترك

من سكانها من الدمار والخراب سوى الثلث فقط وألزمهم بدفع الخراج وكذا تغلب على العمونيين والممالك السورية المختلفة الكائنة بين الاردن ونهر الفرات وصار نهر الفرات حد المملكة داود وخضعت له أيضا أدوم وامتدت أراضي العبرانيين الى البحر الاحمر والى الحدود المصرية وعقد داود معاهدة مع حيرام الملك الفينيقي في مدينة صور فكانت هذه المعاهدة من أجل الاشياء لانها اعادت على المملكة بالمنافع الجمة وأرسل حيرام خشب الصنوبر وأحور لبنان والانفار الشغالين والصناع الماهرين لشغل السراى المزخرفة التي ابتناها داود في أورشليم

واشتهر داود في مملكته بين الامم المجاورين له بالمهارة والحكمة وجودة العقل وجلب الى مملكته ما يعود منه النفع عليها ونظم جيش الاسرائيليين في كافة احتياجاته وجعل أحكام الادارة الداخلية والاحكام المدنية تحت نظارته ومباشرته ورتب المصالح والوظائف لادارة الاشغال العمومية ونظر في القوانين الديانية وشعائر العبادة الاسرائيلية وجعلها على قواعد أساسية سارت على موجبها بعد ولما كان داود نادر الوجود في ضرب آلات الموسيقى والاقوال الشعرية أسس الاحتفالات المفتخرة والشعائر الظريفة لعبادة العبرانيين وقرأ عليهم المزامير العجيبة الجارى الترنم بها لحد الآن وكان جل قصده ورغبته أن يشيد معبدا فاخرا في أورشليم لله فأمره الله سبحانه وتعالى أن لا يفعل ذلك بما أن يده ملطخة بالدماء

ثم بعد ذلك قضى الله رغبته وأمره سبحانه وتعالى أن ابنه وخليفته يكون سالما من الدماء وأنه هو الذي يبني المعبد فمن ثم بذل داود جهده في مشترى الارض اللازم بناء المعبد فيها وجمع الادوات اللازمة لبنائه ثم ان داود وان كان في درجة عالية من عبادة الحق سبحانه وتعالى الا أنه امتحن بحب الجميلة بتشبع زوجة أوريا الحثي أحد أمرائه وصمم على الاستحواذ عليها وكانت هذه محنة من الله سبحانه وتعالى وكان أوريا في ثغر من الثغور فبعث داود الى صاحب الثغر أن يقدم أوريا في الحرب فقدمه فقتل فلما قتل تزوج داود امرأته فولدت له ولدا مات ثم ولدت له ولدا ثانيا كان خليفة داود وهو سليمان عليهما السلام

وبينما كان داود في المحراب مشغولا بعبادته وقد أغلق على نفسه الباب اذ دخل عليه ملكان أرسلهما الله اليه من غير الباب فراعه ذلك فقالا لا تخف نحن خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب أي قهرني وأخذ نعجتي فقال داود للآخر ما تقول قال صدق انى أردت أن أكمل نعاجي مائة فأخذت نعجته فقال داود اذا لا ندعك وذلك فقال الملك ما أنت بقادر عليه قال داود فان لم ترد عليه ماله ضربنا منك هذا وهذا وأومأ الى أنفه وجبهته قال يا داود أنت أحق بذلك حيث لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا الا امرأة واحدة فلم تزل به حتى قتل وتزوجت امرأته ثم غابا فعرف داود ما ابتلى به وما وقع فيه فخر راكعا كما قال تعالى فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب فغفرنا له ذلك ومن بعد ذلك تكدرت أبهة سلطنة داود بثورتين كان سببهما كثرة تعدد الزوجات التي أدخلهن داود سراياته وفي مملكته وذلك أن أولاده المولودين له من أمهات مختلفة أضروا بسني آخر عمره بغيرتهم من بعضهم وما وقعوا فيه من الجرائم والخطايا ومنهم اثنان ابشالوم وأدونيا قاما في وجه أبيهما بالسلاح وتعصبا عليه وبسبب هذه العصابة ذهب داود من أورشليم والتجأ الى الاراضي الشرقية من نهر الاردن ودعا ابنه

لنفسه

لنقصها الناس فكثرت أتباعه من أهل الزيغ من بني اسرائيل ولما تاب الله على داود انتهت الحالة بهزيمة ابشالوم وموته وكان استلم زمام الابهة الملوكية بواسطة خاله يواب قائد جيش داود وتاب أدونيا من جريمته في حال حياته وبسبب عصيانه جعل داود الخلافة في سليمان وأشرك معه أدونيا مدة حياته ومن بعد أن حكم داود أربعين سنة منها ثلاث وثلاثون سنة أقامها في أورشليم مات في سنة ١٠١٥ قبل الميلاد بعد أن بلغ من العمر ثمانيا وسبعين سنة تاركا لقومه الذكر الجميل والثناء الجليل في تاريخهم

وابتدأت سلطنة سليمان مع الوقار والاحترام وجلس على أريكة بني اسرائيل وآتاه الله مع الملك النبوة وسأل الله أن يؤتيه ملكا لا ينبغي لاحد من بعده وكان أبوه يستشير في حياته ويرجع الى قوله فمن ذلك ما قصه الله في كتابه العزيز في قوله وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين وذلك أن غنما دخلت كرما فأكلت عناقيده وأفسدته فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم فقال سليمان أرى غير ذلك أن يسلم الكرم الى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان وتدفع الغنم الى صاحب الكرم فيصيب منها الى أن يعود كرمه الى حاله ثم يأخذ كرمه ويدفع الغنم الى صاحبها فأمضى داود قوله وقال تعالى ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وانتشر الامن واستتباب الراحة في جميع أنحاء مملكته الشاسعة وكانت أحكامه وأوامره مطاعة يعمل بموجبها في كل جهة وعقد محالفة مع مصر لكونه تزوج بابنة رجل من الفراعنة من العائلة الحادية والعشرين وعقد محالفات تجارية ذوات فوائد جمة مع حيرام ملك صور صديق داود ورضي سليمان في هذه المعاهدة أن يكون له حصة في أرباح التجارة الفينيقية وأخذت ثروة الملك وغناه في الزيادة حتى صارت لا تحصر بواسطة ما ورد من المعادن النفيسة ومواد الزخرفة الى فلسطين

وشيد عمارة بحرية في البحر الاحمر وجعل بحريتها من الصوريين واشتغل الاسرائيليون بالتجارات وبيع البضائع وشرائها مع البلاد الكائنة في طول سواحل هذا البحر وبهذا صار لسليمان طاقة على أن يتمتع حياته بزيادة زخرفة سراياته فبنى لنفسه سراية أكبر زخرفة وأعظم سعة وزينة من السراية التي بناها داود حتى صار لا يعادلها سراية أخرى في تاريخ ملوك الشرق ووضع فيها كرسي سلطنته مرصعا بأنواع الاحجار النفيسة ونشر العدل في رعيته ونال منهم الاحترام والوقار ووردت عليه سفراء الدول المجاورة له ونوابهم فأغدق عليهم بالاجلال والاكرام وكانت صفاته الشخصية منحصرة في هذه الابهة العالية وأما شرفه وجودة أخلاقه وتصرفه في أمور الاحكام فكان نادر الوجود في أيامه وكان مستحوذا على جميع علوم عصره وأعطاه الله الحكم والعلم فعدل في قومه وامتاز الخبيث من الطيب وأخذت كتاباته وتدويناته بمجامع العقول وصارت متداولة من سنين عديدة وأحقاب مديدة

وكان أجل عمل مشهور عمله في مدة سلطنته هو بناؤه معبد او بيتا لله على جبل موريا في أورشليم وتولد من معاهدته مع حيرام ملك صور طرق سهولة لاجراء هذا العمل الخطير وجلب له البحرية من الفينيقيين أخشاب السدر والصنوبر والجوز من لبنان الى يافا ومنها نقلوه الى أورشليم لاجل تشغيل الاخشاب اللازمة لعمارة البيت ورسم معماريو الفينيقيين وبناؤوهم صورة المعبد ودكوا أساساته دكا محكما وأقاموا عليها بنيان بيت المقدس ونفس المعبد فكان هذا المعبد أبدع بناء وأعظم عمارة في عصره وتوجهت اليه سائر الصناع وأرباب الفنون ومن لهم خبرة ودراية بفن جر الاثقال وبذلوا جهدهم في تشييده وكان

البدء في بنائه في السنة الرابعة من سلطنة سليمان أي سنة ١٠١٢ قبل الميلاد واستمر العمل جاريا فيه نحوا من سبع سنوات ونصف وكمل بناؤه في الشهر الثامن من السنة الحادية عشرة من سلطنة سليمان أي سنة ١٠٠٥ قبل الميلاد ووضع فيه التابوت وخصص البيت المقدس لله سبحانه وتعالى ورتب العبادة فيه باحتفالات جليلة فقبل الله ذلك بحضور جميع الامة العبرانية بكونه أنزل نارا من السماء أكلت ما قربه سليمان من القربانات لله تعالى وسطع النور الالهي في البيت المقدس حتى ان الاحبار والناس ستروا وجوههم من شدة ضياء النور الالهي وكذا وسع سليمان في أورشليم وأتقنها وأحكمها بأسوار مستحكمة وبنى أيضا عدة مبان عمومية نافعة في الاشغال العامة للامة في محال ومراكز مختلفة من مملكته وشيد في وسط الصحراء العظيمة السورية في منتصف الطريق بين دمشق والفرات مدينة تدمر المفتخرة التي اشتهرت فيما بعد باسم پالميرا

وجاءت اليه (بلقيس) ملكة سبأ وأسلمت به وسبب مجيئها على ما قص في القرآن الشريف أن سليمان طلب الهدهد فلم يره فقال لاعذبنه عذابا شديدا أو لاذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ولما عاد الهدهد الى سليمان قال له أين كنت فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين اني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم أي سرير أو تخت مرصع بالجواهر وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله فقال له اذهب بكتابي هذا فألقه اليهم فأخذه الهدهد وطار حتى وصل الى سبأ وألقى كتاب سليمان في حجر بلقيس فأخذته وقرأته وأحضرت رؤساء قومها وقوادها وقالت لهم اني ألقي الي كتاب كريم انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم أن لا تعلوا علي وأتوني مسلمين ثم قالت لهم يا أيها الملأ ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والامر اليك فانظري ماذا تأمرين قالت اني مرسلة اليهم بهدية فان قبلها فهو ملك فنحن أعز منه وأقوى وان لم يقبلها فهو نبي من عند الله فلما جاءت الهدية الى سليمان قال للرسل أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ولما رجع الرسل اليها سارت اليه وأخذت معها قوادها وأمراء قومها وقدمت عليه فلما قاربته قال سليمان لاصحابه أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك يعني الوقت الذي تتوجه فيه الى بيتك للغداء قال سليمان أريد أسرع من هذا فقال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك وقال له انظر الى السماء وأدم النظر فلا ترد طرفك حتى أحضره اليك فلما أتى به قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر اذ أتاني به قبل أن يرتد الي طرفي أم أكفر اذ جعل تحت يدي من هو أقدر مني على احضاره فلما جاءت بلقيس قيل لها أهكذا عرشك قالت كأنه هو ولقد تركته في حصون وعنده جنود تحفظه فكيف جاء الى هنا فقال سليمان للجن ابنوا لي صرحا تدخل علي فيه بلقيس فبنوا له صرحا من قوارير خضر وجعلوا له طوابق من قوارير خضر فبقي مثل الماء وجعلوا تحت الطوابق مثل دواب البحر وقعد سليمان فيه على كرسي ثم أمر بها فادخلت بلقيس عليه فلما أرادت أن تدخله ورأت صور السمك ودواب البحر حسبته لجة ماء وكشفت عن ساقيها لتدخل فلما رآها سليمان صرف نظره عنها وقال انه صرح ممرد من قوارير قالت رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين وأحبها سليمان حبا شديدا وردها الى ملكها باليمن

وفي

وفى هذه المدة كانت مملكة بنى اسرائيل فى أعلى درجة من المجد والسعادة الا أنها مع ما كانت عليه من عظيم الشوكة حل الدمار والخراب فى مملكة العبرانيين بما حصل فيها من نجاح ثورة (رزون) ملك دمشق بما انه كان عزم على تجديد اقامة استقلالية (أروم) الا انه من بعد نجاحه انهزم فى أعماله وهرب الى مصر وصار كل من سبطى افرايم ومنشا على شرف العصيان ولما انكشفت الاخبار والاغراض عن ذلك التزم (يربعام) قائد الثورة بالهرب والالتجاء الى مصر ولما مات سليمان عليه السلام حصل فى المملكة ارتباكات واضطرابات حتى أشرفت على الفناء والدمار ومات فى سنة ٩٧٥ قبل الميلاد بعد أن تسلطن أربعين سنة على بنى اسرائيل

وخلف سليمان ابنه (رحبعام) وما كان له ولد غيره وكان عمره أربعين سنة عندما جلس على أريكة السلطنة وفى مبادى سلطنته طلب الاسباط الشماليون وكانوا على شرف ثورة من الملك الجديد تغيير بعض أشياء كانت فى عهد والده فلم يقبل رحبعام هذا الطلب ووعدهم بأنه سيزيد فى أثقال أحمالهم زيادة عما كانوا عليه قبل فتولد من ذلك أن خلع الاسباط الشماليون بيعة طاعتهم لبيت داود وحملوا السلاح وأسسوا مملكة جديدة وجعلوا عاصمتها فى شكيم وجعلوا (يربعام) قائدهم ملكا عليهم فشرع الملك رحبعام فى اخماد هذه الثورة بالقوة والحرب فمنع هذا الحرب الداخلى بأمر من الله سبحانه وتعالى وأمرهم بعدم الغارة على بعضهم وبهذا تم انفصال الاسباط من بعضهم واستبدلت مملكة داود وسليمان ذات الشوكة القوية والابهة والمجد والسلطة الداودية بمملكتين فى فلسطين ليس فى واحدة منهما ما كانت عليه حالة المملكة الاولى من الرونق والمجد وأطلق على المملكة الشمالية اسم اسرائيل وعلى المملكة الجنوبية اسم يهوذا وبما أن مدة المملكة الشمالية أقل بكثير من مدة مملكة يهوذا رأينا أن الاجود سرد تاريخ المملكة الشمالية قبل تاريخ المملكة الجنوبية أى مملكة يهوذا

الباب الخامس

﴿ تاريخ المملكة الشمالية ﴾

وصف مملكة اسرائيل ـ سلطنة يربعام ـ تمام الانفصال ـ سلطنة بعشة ـ الحرب مع دمشق ـ صيرو رمحرى ملكا ـ بناء مدينة سامرا ـ أحاب وايزابل ـ سلطنتا أحازيه ويهورام أو يهورام ـ موت ايزابل ـ سلطنة ياهو ـ خضوع مملكة اسرائيل لأشور ـ يربعام الثانى ـ الملك الأكبر لاسرائيل ـ الملك شالوم ـ غارات الاشوريين ـ فتح مملكة اسرائيل وجعلها خراجية لمملكة الاشوريين ـ فتح ماوراء نهر الاردن من الاراضى بواسطة الاشوريين ـ سلمنصار الرابع وغزوة اسرائيل ـ التغلب على مدينة سمارية ـ نقل الاسرائيليين الى أشور ـ نهاية مملكة اسرائيل ـ استيطان المملكة واستعمارها بواسطة ملك الاشوريين

أقام الاسباط الشماليون مملكة اسرائيل تحت حكم (يربعام) وكانت واصلة من الحد الشمالى لاراضى بنيامين الى حدود دمشق داخلا فيها جميع أراضى ماوراء نهر الاردن بما فيها أراضى موآب

وما كانت هذه المملكة على غاية من السعة فقط بل كانت أيضا زاهية عامرة كثيرة الخصوبة عن مملكة يهوذا وكانت هذه المنافع والفوائد معادلة للانحطاط والخمول الذى وقع فى عاصمة الاسرائيليين فى مدينة (أورشليم) وانقلب الملك يربعام والامة على رضا منهم الى التمسك بالعبادة الوثنية والاعتكاف عليها وتركوا عبادة الحق سبحانه وتعالى وذكر فى التاريخ العبرى أن الله سبحانه وتعالى أرسل منهم رسلا وأنبياء عديدة ينذرونهم وعد الله وشدة عقابه واجتهدوا فى وعظهم وتذكيرهم ما أسبغ الله تعالى عليهم من نعمته وأرادوا أن يزيلوا عنهم هذه الشوائب وما هم عليه من عبادة الاوثان ورجوعهم الى عبادة الله فلم يزدادوا الا تمسكا بهذه العبادات الباطلة وتمكنت منهم العبادة الوثنية وصاروا كأنهم كانوا أمة أصلية من أممها وما أمكن الانبياء والرسل أن يردوا الامة لعبادة الله سبحانه وتعالى وفشت فيهم الافعال الخبيثة الشيطانية وازدادت مع تقدم الايام والزمن فكانت تأثيراتها ونتائجها على الاصلاح السياسى مضرة كبيرة ووخامة جسيمة وتولد منها أن المملكة صارت صيدا سهلا للغاغين من الاشوريين من بعد مضى قرنين

وكان يربعام أول ملك من ملوك اسرائيل توظف بأمر الله سبحانه وتعالى فانقرض تحت حكمه الثوران والعصيان وتأسست سلطنة المملكة واجتهد فى حصول الانفصال النهائى بين المملكتين ولاجل المساعدة على ذلك أقام معبدين للامة أحدهما فى دان والآخر فى بيت ايل وشحنهما بتماثيل من الاصنام والاوثان ورتب طائفة جديدة من القسس والاحبار لمضارة أحبار اللاويين ومعاكستهم فغضب اللاويون من هذا الفعل القبيح وكدر عليهم وعلى المنتمين اليهم عيشتهم فى جميع الجهات المختلفة من المملكة الشمالية حتى التزموا بالرحيل منها الى مملكة يهوذا واستمرت سلطنة يربعام عشرين سنة مضت فى حروب مستمرة مع مملكة يهوذا ومات يربعام سنة ٩٥٤ قبل الميلاد وخلفه ابنه ناداب وبه انقرضت عائلته فحكم سنتين وقتله بعشة قائد جيشه وقتل أيضا جميع بيت يربعام وجعل نفسه ملكا على بنى اسرائيل فى سنة ٩٥٣ قبل الميلاد ونقل بعشة عاصمة المملكة الى طرسة وعكف على عبادة الاوثان وأما الذين بقوا متمسكين على عبادة الله فى بنى اسرائيل فانهم تركوها ورحلوا الى مملكة يهوذا فى نحو السنة الثالثة عشرة من سلطنته وكان الذى جذبهم الى مملكة يهوذا رفق الملك أسا ورحمته فأوقد بعشة حربا على يهوذا لاجل منع هذه المهاجرة وارتداد الذين هاجروا الى مملكته واجتهد فى محاصرة الحد الجنوبى لمملكة يهوذا ثم التزم العود الى الجهة الشمالية بواسطة ما وقع من غارة السوريين على مملكته وكان السوريون تحت قيادة بنحداد ملك دمشق وكان الملك أسا حالفه واشترى منه هذه المحالفة لاجل ابتعاد بعشة عن مملكته ومن بعد موت بعشة خلفه ابنه عيلة فى سنة ٩٣٠ قبل الميلاد فذبحه زمرى وهو فى حالة سكر سنة ٩٢٩ قبل الميلاد وجعل زمرى نفسه ملكا الا أن الجيش لم يقرر ملوكيته على المملكة وأقام الجيش عمرى قائده ملكا فأعقب ذلك حربا داخليا استمر سبعة أيام ولما انهزم زمرى دخل فى سرايته وأغلقها عليه وعلى عائلته وحرقها على رأس نفسه وهلك فى لهيب نارها وابتدأت سلطنة عمرى فى سنة ٩٢٩ قبل الميلاد وكان له خصم اسمه تبنى معضد فى دعواه بنصف الامة فانتصر فى حركته وتسلطن الى حد سنة ٩١٨ قبل الميلاد وبنى مدينة سامرا الحصينة وجعلها مقر عاصمة مملكته وأنشب حربا على الدمشقيين لكنه انجبر أخيرا على

عقد صلح مهين

ثم خلفه ابنه اخاب وهذا قوى نفسه بزواجه بايزابل بنت أثبعل ملك صور ورئيس قسس اسطارطه فتولد من ذلك الارتباط ادخال الفينيقيين الوثنيين فى مملكة اسرائيل وفى نحو تمام القرن أرسل الله سبحانه وتعالى الياس نبيا الى بنى اسرائيل لينذر الملك والامة عقاب الله لهم من أجل اعتكافهم على المعاصى وارتكابهم الجرائم فلما لم يسمعوا ما وعظهم به أرسل الله عليهم ثلاث سنين قحطا وكشفه الله عنهم بعد أن تابوا ورجعوا عما كانوا عليه من المعاصى والجرائم الى انقيادهم لطاعة الله سبحانه وتعالى وعبادته وقرب الياس القربان لله على جبل الكرمل وذبح قسيس بعل وأنشب اخاب فى السنى الاخيرة من سلطنته حربا مظفرا مع الدمشقيين فكان هذا الحرب سببا فى عود استقلالية مملكة اسرائيل وأعقب ذلك صلحا استمر ثلاث سنوات وفى نحو سنة ٨٩٧ قبل الميلاد جدد اخاب الحرب مع سوريا واجتهد فى الاتصال مع يهوشفاط ملك يهوذا بشأن ضبط القلعة الثغرية المسماة (راموث جلعاد) ومات اخاب فى هذه الواقعة التى حصلت وتشتت الجيش المتحد

وخلف اخاب ابنه أخزيا وفى مدة سلطنته القصيرة التى كانت أقل من نصف سنة عصت مواب ثم خلف اخزيا أخاه يحورام أو يهورام فاستمر يحورام فى المعاهدة مع يهوذا وكان أحسن من اخاب وأخزيا لانه أبطل عبادة بعل ولو أنه عكف على العبادة الوثنية اختراع يربعام وأنشب حربا على مواب بما كانت عصت على أخيه وانضم بواسطة هذه الغزوة الى يهوشفاط وملك أدوم عبد ملك يهوذا وأرسل الله سبحانه وتعالى المياه اللازمة لاستعمال الجيش بآية من عنده كما حصل انهزام المواآبين هزيمة فاصلة بقدرة الله وأعقب يهورام هذه النصرة بخراب أرض مواب بالنار والسيف وأشهر نصرته بما أجراه من الشدائد والفظائع فمن ثم غضب ملك يهوذا وعاد الى بلاده ومن المحتمل أنه عاد فى السنى الاخيرة من سلطنته عن عبادة بعل وجدد الحرب مع سوريا على راموث جلعاد فانجرح فى حربه مع السوريين وتوجه الى اسرائيل لمداواة نفسه وعاده فيها صديقه أخزيا ملك يهوذا وفى مدة غيابه عن الجيش أقام العسكر (ياهو) ملكا وسار الى اسرائيل وقتل (ياهو يهورام وأخزيا) وأمر برمى العاهرة ارملة أخاب من فوق أسوار المدينة وأهلك جميع بيت اخاب

وابتدأت سلطنة ياهو فى سنة ٨٨٤ قبل الميلاد وكان أول عمل عمله أن أبطل عبادة بعل بيد قوية الا أنه أبقى العبادة الوثنية التى اخترعها يربعام ثم ان (حزايل) الدمشقى اغتصب منه أقاليمه الموجودة فيما وراء نهر الاردن وآل أمره الى أن دفع الخراج الى سلطنة الاشوريين وكانت زهت وشبت على الأفق الشمالى وصارت ذات شوكة قوية فى آسيا ثم خلفه ابنه (يهواحاز) فى سنة ٨٥٦ قبل الميلاد وضعفت تحت حكم هذا الملك شوكة المملكة نوعا بواسطة ما حصل من غلبة الاشوريين حتى ان ملك الاشوريين ألزم يهواحاز بأن يعين نهاية ثابتة لقوة جيشه الثابت ثم خلفه ابنه (يهواش) فى سنة ٨٣٩ قبل الميلاد وكان ملكا جبارا شجاعا هزم فى حروبه بنحداد ملك دمشق ثلاث دفعات متوالية ابن حزايل واستحوذ على قطع الاراضى التى كانت فقدتها اسرائيل وهزم (أمصيا) ملك يهوذا ودخل أورشليم أشبه بكونه فاتحا لها ثم خلفه ابنه (يربعام الثانى) فى سنة ٨٢٥

قبل الميلاد وفي مدة سلطنته وصل الاسرائيليون الى أقصى درجة من درجات السمو والافتخار والشوكة وانه لم يسترد جميع الاراضي التي فقدتها اسرائيل الكائنة في شرق نهر الاردن فقط وفتحه موآب وعميون بل وهجم على دمشق نفسها وكانت اضمحلت شوكتها ونفوذها بسبب ما حصل فيها من الغلبة والنجاح للاشوريين وأضاف (يربعام الثاني) قسما عظيما من أراضي سورية الى مملكة اسرائيل

ثم خلف (يربعام الثاني) اما مباشرة واما من بعد مدة ابنه (زكريا) في نحو سنة ٧٧٢ قبل الميلاد وذبح (شالوم زكريا) من بعد مضي ستة أشهر وبموته انقرض بيت (ياهو)

وتسلطن (شالوم) أقل من شهر وذبح في نوبته واستخلف بدله قاتله (منحيم) فشرع منحيم في الغارة على الاراضي الاشورية الكائنة في الجهة الشرقية من نهر الفرات وتغلب على (تفصح) وتولد من هذه الغارة أن انتقم منه ملك الاشوريين وهزمه وجعل مملكته خراجية للاشوريين وفي سنة ٧٦٢ قبل الميلاد خلف منحيم ابنه (فقحيا) فذبحه (فقح) أحد قواده وجلس على كرسي ذبيحته في سنة ٧٦٠ قبل الميلاد وتسلطن ثلاثين سنة مشحونة بالمصائب والاهوال وعمل محالفة مع (رصين) ملك دمشق مؤملا في ذلك حفظ مملكته من غوائل الاشوريين وغاراتهم والتغلب على يهوذا وغارت القوى المتحالفة على مملكة يهوذا وأبلتها بالمصائب والدمار ثم ان تغلا تغلاسر الثاني ملك الاشوريين سار لمساعدة يهوذا وأرغم فقح بعقد الصلح وأغار الاشوريون غارة ثانية على اسرائيل وخربوا الاراضي الكائنة فيما وراء نهر الاردن وساقوا أهلها أسرى الى أشور وكان ذلك مبادي انقراض مملكة اسرائيل ثم ان هوشع ذبح فقح واستخلف بدله اما مباشرة أو من بعد مدة في سنة ٧٣٠ قبل الميلاد وكان هوشع آخر ملوك مملكة اسرائيل التي صارت في هذا الوقت على عجلة من شرف دمارها وانقراضها وكان أعظم ملوك اسرائيل والظاهر أنه كان من رغبته صيانة نفسه ومملكته عن الفساد الحاصل من التمسك بالعبادة الوثنية الا أن الوقت فات وقضى الله ما كان وما يكون وابتدأ انحطاط مملكته بأن صارت خراجية للاشوريين لكنه رفض في الحال الانقياد لطاعتهم واجتهد في عود استقلال بلاده ولهذا الغرض عقد محالفة مع مصر فغار شلمنسار الرابع على اسرائيل وتغلب على البلاد ووضع الحصار على مدينة سمارية فقاومته سنتين ثم حصل التغلب عليها في السنة الاولى من حكم سرغون وبسقوطها زالت مملكة اسرائيل بعد مدة مدارها ٢٥٥ سنة فعلى حسب عوائد العصر خلت كافة الاراضي التي حصل التغلب عليها من السكان ورحلت سكانها الى الجهات البعيدة من مملكة الاشوريين

واستمرت الاراضي الاسرائيلية متروكة خالية عن السكان الى حد سلطنة أصرحدون ملك أشور في القرن السابع قبل الميلاد ثم ان هذا الملك أمر باستعمار هذه الاراضي الخصبة لاجل الانتفاع بها وكثرة الفوائد منها وجلب اليها القبائل والعائلات من بابل وارخاي والسوس وعلماي والفرس ومن الامم الاخرى المجاورة لها وحل هؤلاء السكان المستجدون أصنامهم وعباداتهم الوثنية الى أرض الله المقدسة فغضب الله سبحانه وتعالى غيرة على أرضه وسلط على سكانها الاسد الكاسرة والحيوانات

المفترسة

المفترسة التي نمت وكثرت مدة خرابها نصف قرن فاشتكى السكان الى حكامهم ووصفوا لهم ما حل ببلادهم وعرضوا الملكهم أحوال المصائب والآفات الحالة ببلادهم وقالوا ان هذه أرض الله فأرسل ملك أشور لهم رجلا من أسرى الاحبار فأقام نفسه في بيت ايل وعلمهم طرائق الخوف والخشوع الى الله تعالى وهو وان كانت تعليماته ممزوجة بقليل من الخطا وعدم الصواب الا أنها كانت خالية بالكلية من عقائد وشعائر الديانة الوثنية التي كانت جارية على اجرا آت يربعام ثم ان السكان المستجدين رأوا في أنفسهم أن لهم الحرية التامة من أجل خدمة وعبادة آلهتهم القديمة فأجروها وأقاموا شعائر دياناتهم القديمة فصاروا مختلفي الديانات بين الحق والباطل وكانوا يخافون الله ويعبدون آلهتهم وصارت ذرية هؤلاء العشائر معروفة في التاريخ العبري باسم الشماريين وكانوا ألد الاعداء للجنس العبراني

الباب السادس

تاريخ مملكة يهوذا

فضائل المملكة الجنوبية على خصيمتها الشمالية ـ سلطنة كل من رحبعام وابيا ـ سلطنة أسا الطيبة ـ هزيمة المصريين ـ انضمام اللاويين الى يهوذا ـ مخالفة مع دمشق ـ حروب مع اسرائيل ـ سلطنة يهوشفاط ـ معاهدة مع اسرائيل ـ عثالية ـ اعلان يواش ملك ـ سلطنته صيرورة امصيا ملكا ـ التغلب على أدوم ـ خطيئة أوحيا ـ سلطنة احاز ـ صيرورة مملكة يهوذا خراجية للمملكة الاشوريين ـ صيرورة حزقيا ملكا ـ تبدد جيش سنحاريب ـ سلطنة منشا الذميمة ـ أسره وتوبته ـ سلطنة أمون ـ صيرورة مملكة يهوذا خراجية لبابل ـ الثورات ـ تغلب بختنصر على أورشليم ـ الاسر البابلي

كانت مملكة يهوذا ممتدة كثيرا الى الجهة الجنوبية وأقل خصوبة في الارض المقدسة ومع أن سبط بنيامين كان مختصا بشمال أرض المملكة الا أنه تنازل ليهوذا عن قرعته وصار خطه الشمالي حدا للمملكة ومع أن مملكة يهوذا كانت صغيرة وقليلة المنافع الا أنها كانت في الحقيقة أقوى وأجل من المملكة الثانية وكانت معتدلة الموقع سهلة المحافظة والمدافعة واقعة على مسافة من الطريق المسلوك بكل من الجيوش المتحاربة من آسيا ومصر الذين يتبعون في سيرهم الاراضي السهلة الواقعة في طول ساحل البحر ويحيدون عن سلاسل الجبال الصعبة المتوطن فيها يهوذا وكان سكانها أهل غيرة وحمية في عقائدهم الدينية حتى صاروا هم الامة الحقيقية لله سبحانه وتعالى وصار لهم حق مواريث العهود التي كانت عهدت لآبائهم من قبل وكان لهم شهرة عظيمة في اين سيرهم وعودأ نفسهم من الهزيمة الى التغلب وكانت المملكة فوق كل ذلك متمتعة برعاية الحق سبحانه وتعالى في المحافظة والمدافعة ومن فضائلها أنها كانت خالية من الخطايا والجرائم التي كانت عاكفة عليها المملكة الشمالية وحفظت لملوكها هيئة الوراثة المتتالية من دون أن يحصل فيها خدش حتى صيرتها شوكتها التي كانت لاتتزعزع عرضة لغارات ملوك الاشوريين والمصريين حتى وجهت اليها المملكة البابلونية جميع قواها وحطمتها ودمرتها بعد أن استمرت مشيدة البنيان مدة قرن واحد من بعد انقراض ودمار المملكة الثانية

وقد ذكرنا أن رحبعام بن سليمان خلف أباه على تخت مملكة يهوذا فتسلطن رحبعام المذكور ثمانية عشرة سنة وكانت مدة سلطنته احدى الرزايا والمصائب على مملكة يهوذا وذلك أنه فى مدة سلطنته أى فى سنة ٩٧٠ قبل الميلاد غار شيشق أو شيشاق الاول ملك مصر على يهوذا وتغلب على مدائنها الحصينة واحتل مدينة أورشليم ونهب المعبد والسراى الملوكية وقفل راجعا بعد أن جعل يهوذا خراجية لمملكته وفى مدة هذه السلطنة أيضا دخل الجم الغفير من الاهالى فى الديانة الوثنية واستمرت الحروب بين المملكة الشمالية ومملكة يهوذا الا انها كانت على درجة غير منتظمة

وخلف أفيا بن رحبعام أباه فى سنة ٩٥٨ قبل الميلاد فأوقد نار الحرب على اسرائيل بشدة عنيفة وهزم يربعام فى نواحى زماريم من جبل افرايم وكانت نتيجة هذه النصرة وقوع بيت ايل ويشنة وافرايم فى يدى أفيا ولما رأى يربعام أن لا طاقة له على استمرار الحرب ومداومته مال الى عمل معاهدة صلحية لمدة عشر سنوات

ثم خلف أسا أباه أفيا سنة ٩٥٥ قبل الميلاد وما كان أسا مثل أبيه بل كان ملكا متواضعا خاشعا لله سبحانه وتعالى فأبطل الديانة الوثنية بيد قوية ووضع بدل ذخائر المعبد التى استباها شيشاق تحائف أخرى ثمينة من الفضة والذهب وانتهز الفرصة فى مدة السلم مع مملكة اسرائيل وقوى حصانة مدائنه وزاد فى قوة جيشه وفى نحو سنة ٩٤١ قبل الميلاد غزا طيراح الحبشى مملكة يهوذا بجيش قوى تحت قيادته والصحيح انه أوسركون الثانى ملك مصر فهزمه أسا شر هزيمة وشتت شمله فى نواحى مريشة وساق خلفه لحد جرار وقفل راجعا الى أورشليم منقلا بالغنائم التى اغتنمها من أعدائه ومن المدائن المجاورة الى جرار وحرض النبى عزاريا الملك أسا وحثه على أن يجمع مجمعا من الامة فى أورشليم فى السنة الخامسة عشرة من سلطنته أى فى سنة ٩٤٥ قبل الميلاد واتفق الامة فى هذا المجمع اتفاقا جليلا على أن تكون على حق من التمسك بعبادة الحق سبحانه وتعالى وأن تكون على صداقة ووفاق عام لله وكان يوجد كثير من الناس المتمسكين بعبادة الله والخاضعين له سبحانه وتعالى فى المملكة الشمالية منتظرين عقد هذه الجمعية والعود فيها الى عبادة الله فهاجر كثير من عباد الله من مملكة اسرائيل الى مملكة يهوذا تمسكا بدينهم فارتاع لذلك بعشة ملك اسرائيل حتى انه حصن الرامة الموجودة على الطريق السلطانى الموصل بين اسرائيل ويهوذا لاجل صد ومنع مثل هذه الهجرة وأنشب حربا على أسا فخاف أسا وانزعج من وقوع الخطر ومن أن يكتسب فى حياته اثما فى مثل ذلك فاشترى محالفته مع بنحدد الاول ملك دمشق وجعل لهذه المعاهدة خزائن الهيكل وكنوزه فأغار فى الحال ملك سوريا على مملكة اسرائيل وترك الجيش الشمالى حدود يهوذا وتوجه لملاقاة هذا الكرب ومضى الباقى من سلطنة أسا فى حرب مستمرة ومات فى سنة ٩١٦ قبل الميلاد وخلفه ابنه يهوشفاط فقضى القسم الاعظم من سلطنته فى ازالة الديانة الوثنية وحطمها التى أبطلها أبوه أسا وفى تحصين مدائن مملكته وكذا تحصين ما تغلب عليه أبوه من المدائن الموجودة فى جبل افرايم

وكانت سلطنة يهوشفاط فى مملكة يهوذا خمسا وعشرين سنة أخضع فيها الموآبيين والفلسطينيين الى دفع الخراج وعقد معاهدة مع آخاب ملك اسرائيل بكونه زوج ابنه الاكبر يهورام عزليا بنت آخاب وعزابيل فتولد من هذا الزواج ارتباك وقلقلة مزعجة فى مملكة يهوذا وساعد آخاب فى حروبه مع

السوريانيين

السوريانيين وكان موجودا معه فى راموث جلعاد التى مات فيها اخاب وتولد من هذه الواقعة المشؤمة تقوية الاعداء القديمة لمملكة يهوذا وهم الموآبيون والادمونيون والعمونيون وغزوا المملكة فى قوة كبيرة فهزمهم الله سبحانه وتعالى بآيات من عنده اجابة لدعاء يهوشفاط وأوقع هذا الخلاص الرعب والخوف فى قلوب جميع الامم المجاورة للمملكة يهوذا وعقدوا معاهدات سلمية لمدة السنين الباقية من سلطنة يهوشفاط وعقد يهوشفاط معاهدة مع أحزيا بن اخاب لاجل تجديد المشروعات البحرية التى كانت جارية فى مدة سلطنة سليمان بن داود فى البحر الأحمر فغرقت العمارة البحرية ليهوشفاط فى نواحى عزيون غبرة عقابا له على مافعل من معاهدته مع احزيا فترك الملك هذا العزم ومات فى سنة ٨٨٩ قبل الميلاد واستخلف بدله ابنه يهورام وكان اشترك مع أبيه فى الحكم ثلاث سنوات وكانت مدة سلطنة يهورام قليلة مشحونة بالمصائب والارتباكات وتولد من زواجه بعزليا بنت اخاب تلف وفساد الحالة التى كان عليها يهورام حتى أقام عبادة أشطوريث فى مملكة يهوذا بجميع ما كانت عليه من شعائرها القبيحة وقتل جميع اخوته حتى لم يجد له فيما بعد منازعا فى كرسى سلطنته فعاقبه الله سبحانه وتعالى على آثام أفعاله الخاطئة بأن أرسل على مملكته رزايا وبلايا شديدة وذلك أن أروم عصت وكسرت شوكة الملك وخلعت طاعته وصارت مملكة مستقلة تحت حكم وشوكة ملوك من أصلها ومع أن يهوذا أوقدت نار الحرب عليها بعد ذلك الا أنها لم تعد خراجية لها مرة أخرى وأغار الفلسطينيون والعرب الذين كانوا يدفعون الجزية الى يهوشفاط على المملكة وتغلبوا على أورشليم ونهبوها وحاوا جميع نساء الملك ماعدا عزليا وكذا جميع أولاده ماخلا أحزيا ابنه الاصغر

ثم جلس احزيا على الكرسى فى سنة ٨٨٥ قبل الميلاد وعقد معاهدة مع خاله يهورام ملك اسرائيل وأخو أمه عزليا وكان حاضرا معه فى الواقعة التى حصلت بالقرب من راموث جلعاد وجرح فيها يهورام ثم قتله ياهو على الفور فى الثورة التى تولد منها لهذا الرجل الحربى لبس التاج الاسرائيلى فى سنة ٨٨٤ قبل الميلاد ثم خلفته أمه عزليا وقتلت جميع البيت الملوكى لمملكة يهوذا ماعدا يواش لانه كان طفلا فى المهد وكان أصغر أولاد احزيا وجعلت نفسها ملكة يهوذا ثم ان عمة يواش أخفته فى الهيكل وكانت زوجة يهوياداع الحبر الاعظم وتسلطنت عزليا ست سنوات كان يواش مختفيا فيها فى الهيكل

وفى السنة السابعة من سلطنتها قام يهوياداع فى رأس ثورة معضدة بالجيش والامة وأعلن بسلطنة يواش وقتل عزليا فى سنة ٨٧٨ قبل الميلاد وصار يهوياداع نائب المملكة والوصى على الملك وفى مدة الثلاث وعشرين سنة الاولى من سلطنته وهى المدة التى كان فيها يهوياداع على قيد الحياة ورئيس مجلس الملك كان حكم يواش على غاية عظيمة من جودة السير وأخذت المملكة فى الفوز والنجاح ومحا أثر الديانة الوثنية وعاقب أهلها بأشد العقاب وسار بنفسه الى المعبد وأبطل الاجراآت التى كانت جارية من اللاويين فى اسراف وتبذير النقود المقدسة ومن بعد موت يهوياداع غرق يواش فى الديانة الوثنية فهجم حزاييل ملك دمشق على مملكته وأرغمه على مشترى الصلح بشرط أن يسلم له جميع ذخائر السراى الملوكية والمعبد بما فيهما من الاوانى المقدسة ثم من بعد مضى قليل من الزمن قتله اثنان من خدمه فى سنة ٩٣٩ قبل الميلاد وخلفه ابنه أمصيا وابتدأت سلطنته فى السنة التى ذبح فيها أبوه

فعزم على استرداد أدوم التى كانت عصت فى مدة يهورام وهزم جيش الادمونيين وتغلب على بطرة وقتل فيها من الادمونيين ١٠٠٠٠ نفس الا أن نصرته هذه كانت وقتية ثم تعالى وافتخر بنصرته هذه وأنشب حربا على يهواش ملك اسرائيل فهزمه يهواش شر هزيمة وأخذه أسيرا فى بيت شمس وساقه الى أورشليم مع الطنطنة والفخفخة ونهب يهواش الهيكل والسراى الملوكية وهدم السور الشمالى من المدينة ولما أخذ الرهائن اللازمة لاستتباب حصول السلم فى المستقبل من نحو يهوذا قفل عائدا الى مدينة سمارية وكانت السنون الاخيرة من سلطنة أمصيا مشحونة بالجور والظلم والفساد حتى ان قومه بغضوه وكرهوه وتمنوا زوال ملكه وكانت نتيجة ذلك أن قتله الجيش ثم خلف أيصيا ابنه عزارية فى سنة ٨٠٩ قبل الميلاد وكان ملكا مهيبا شجاعا فابتدأت سلطنته باسترداد مدينة علاث القديمة الواقعة فى رأس الجناح الشرقى للبحر الاحمر (أى خليج العقبة) وبنى هذه المدينة واستمرت سلطنة عزارية اثنتين وستين سنة كانت على غاية من الفلاح والنجاح وتغلب على معظم فلسطين وجبى الخراج من عمون وتعالى بنصره وافتخر بظفره واعتدى بكبره وفظاظته على تغلبه على وظيفة الاحبار فابتلاه الله سبحانه وتعالى بالبرص وقت عقده البخور فى البيت المقدس فالتزم على فصل نفسه من الملك وفى مدة الست سنوات أو السبعة التى كانت باقية من سلطنته سلم زمام المملكة لابنه يوثام فتولى يوثام الملك من بعده وابتدأت سلطنة يوثام بعد موت أبيه فى سنة ٧٥٧ قبل الميلاد وكان ملكا ورعا زاهدا ناجحا موفقا فى المملكة الا أنه تزايد فى مدة سلطنته فساد وتعفن أمة مملكة يهوذا وعقائدها الدينية وحصن أورشليم وأرغم العمونيين على دفع الجزية وفى السنين الاخيرة من سلطنته ابتدأ فقح ملك اسرائيل ورصين ملك دمشق فى حرب كانت هائلة وبلية على المملكة واستمرت الى السلطنة التالية ثم ان آحاز خلف أباه يوثام فى سنة ٧٤٢ قبل الميلاد فأعاد عبادة بعل مرة ثانية وأفسد فى الامة فسادا كبيرا واشتد الحرب الذى كان ابتدأ فى سلطنة أبيه مع اسرائيل وسوريا وصار فى حالة هائلة فالتزم آحاز رغم أنفه أن يتوسل فى المساعدة بملك الاشوريين وهو تغلاتغلاسر الثانى وكان ذا شوكة قوية وجعل نظير مساعدته له أن يكون خراجيا تحت حكمه فأغار ملك الاشوريين على سوريا وتغلب على دمشق وانقرضت مملكة سوريا وعاقب اسرائيل أشد العقاب وألزمهم عقد الصلح

ثم خلف آحاز ابنه حزقيا فى سنة ٧٢٦ قبل الميلاد وابتدأ حزقيا فى سلطنته بخلاص عبادته لله سبحانه وتعالى وكسر جميع الاصنام والاوثان وكان ملكا فاضلا لا حاذقا فأفعل مافيه الصواب عند الله وهزم الفلسطينيين حتى انه تجاسر على خلع طاعة الاشوريين فبهذا هجم سنحاريب ملك الاشوريين عليه وأرغمه بعود مملكته خراجية له كما كانت ولم تمض بعد ذلك مدة حتى عاد الى العصيان وعقد محالفة مع مصر

وفى سنة ٦٩٩ قبل الميلاد دخل سنحاريب مرة أخرى يهوذا عازما على هشم وحطم هذه المملكة الصغيرة قبل أن يتوجه لغزو مصر لاجل توقيع العقاب الشديد على عبده ملك مصر نظير مساعدته عصيان خادمه عليه فسار سنحاريب فى طول الساحل الى النهاية الجنوبية لسهل فلسطين وكانت مدائن الاراضى الواطية كثيرة أمامه ولما أخذ أخيرا الجيش وضع الحصار على لبنة وفى أثناء اشتغاله بالحصار أو من بعد غلاق الحصار أرسل رسولا الى حزقيا يطلب منه الطاعة التامة والخضوع الكامل

فاعلن

فاعلن حزقيا بكفره وأن الله أشد منه قوة فى خلاصه من بطشه ودوّر حزقيا وجهه لله تعالى وتوسل اليه بالدعاء فاستجاب الحق سبحانه وتعالى دعاءه وعاقب السفيه الكافر سنجاريب بآية من عنده فقتل بواسطتها من جيشه ١٨٥٠٠٠ نفس فى ليلة واحدة فارتاع سنجاريب من هذه الحادثة وضعف عزمه من هذه المصيبة وقفل راجعا الى بلاده

وأنزل الله سبحانه وتعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن الشريف قصة هذه الحادثة فى قوله تعالى (وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الارض مرتين ولتعلن علوا كبيرا فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا) فهذه المرة الاولى من دخول سنجاريب وأما دخوله فى المرة الاخرى فهو قوله تعالى (ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها فاذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا)

ثم استخلف بعد حزقيا ابنه منشا فى سنة ٦٩٧ قبل الميلاد فتسلطن خمسا وخمسين سنة وكان أخبث ملك من ملوك يهوذا لم يعهد قبله مثله جلس على كرسى مملكة يهوذا وذلك أنه أعاد كل هيئة من هيئات العبادة الوثنية التى لم يعهد مثلها قبل أبدا فى مملكة يهوذا واسرائيل وتولد من فعل هذه الشعائر الرجسة واقامتها قفل الهيكل وتركت الامة شريعة موسى وفضلا عن اقامة هذه الديانة وشعائرها ارتدت الامة عن عبادة الله فى نفس أورشليم وقام الانبياء يعظون الامة ويبعدونها عن هذا الارتداد ويخوفونها عقاب الله وكثرت الاحداث فيهم وعامل الملك الانبياء بأفظع المعاملات وأشدها والصحيح أن يحيى أول نبى ذبحه منشا من أجل ذلك

وفى سنة ٦٧٧ قبل الميلاد ارتاب ملك الاشوريين فى صداقة منشا وبلغه أنه سيقوم فى ثورة ضده فخلعه وساقه الى بابل أسيرا فضجر منشا من سوء ما حصل له من عذاب الاسر فتاب الى الله وتوسل اليه بالدعاء فقبل الله توبته واستجاب دعاءه وأعاده ملك الاشوريين الى تخته ومقر ملكه وتسلطن بعد ذلك مدة بذل فيها جهده فى محق الديانة الوثنية وأعاد ديانة آبائه وحصن مدينة أورشليم واستحكمها

وفى هذا الوقت أمر ملك الاشوريين باستعمار أراضى مملكة اسرائيل

ثم خلف منشا على تخت مملكة يهوذا ابنه آمون فى سنة ٦٤٢ قبل الميلاد فاجتهد فى عود عبادة الاوثان الا أنه قبل أن يشرع فى اجراء مقاصده قتل فى سنة ٦٤٠ قبل الميلاد واستخلف بدله ابنه يوشيا وكان طفلا عمره ثمان سنوات وكان أول الاعمال التى أجراها هذا الملك الشاب أن دمر العبادة الوثنية وأعاد هيكل العبادة الربانية وتسلطن احدى وثلاثين سنة وكان أحسن ملوك اليهود وفى مدة سلطنته سقطت مملكة الاشوريين وفى سنة ٦٠٨ قبل الميلاد لما أعلن نخوفرعون مصر حربا على بابل غزا فلسطين وتغلب على المدائن الفلسطينية وسار فى طول الساحل حتى وصل جبل الكرمل ومن هنالك عبر سهل عصدرلون أو عيزرعيل الكبير وكان متجها فى سيره الى جهة الفرات فجمع يوشيا قواه وأسرع فى الهجوم عليه وفاء بكونه تحت سلطة بابل وانه خراجى لها فأنذره نخو بالكف عن هذا الهجوم لانه عازم على عدم التعرض له بأى حالة كانت بل غزوه قاصر على بابل فأصر ملك اليهود على ما عزم عليه فقتل فى واقعة مجدة وكان حصول هذه الواقعة فى البقعة التى حصلت فيها الواقعة الكبرى لدبوره

وباراق وخلفه ابنه الثاني يهوآحاز وكانت أمه هي السبب في أن جعلته ملكا وتسلطن يهوآحاز ثلاثة شهور وخلعه بخنوسلم تاجه الى يهوياقيم وهو الابن الاكبر ليوشيا في سنة ٦٠٩ قبل الميلاد وتسلطن يهوياقيم أربع سنوات خراجيا لمصر ولما هزم بختنصر ملك بابل بخنو ملك مصر هزيمة فاصلة في قرسميش وامتدت ممالك البابليين الى حدود مصر انجبرت مملكة يهوذا على الخضوع وأرسل يهوياقيم بطاعته الى بابل سنة ٦٠٥ قبل الميلاد وسنة ٦٠٤ قبل الميلاد وحمل بختنصر كثيرا من شبان العبرانيين وكان من ضمن هؤلاء النبي دانيال الى بابل وتهذبوا في علوا الكلدانيين وفي سنة ٦٠٢ قبل الميلاد خلع يهوياقيم طاعته لملك بابل وأقام راية العصيان وأخبر النبي أرميا بما يحصل في سلطنة يوشيا في نحو سنة ٦٢٩ قبل الميلاد وكانت نبوته في سلطنة ابنه والظاهر أن عصيان يهوياقيم كان مشروعا في وقت مناسب وكان موعودا بالمساعدة من مصر وفينيقية وكانتا على ثورة ضد بابل تحت قيادة قواد من صور وفي سنة ٥٩٨ قبل الميلاد أي في السنة السابعة من سلطنة بختنصر سار بختنصر ملك بابل لاجل اخضاع أقاليمه العاصية ودخولهم تحت طاعته ولما دخل في فينيقيه وضع الحصار على مدينة صور الا أنه لما رأى نفسه أن لا طاقة له على التغلب على هذه المدينة بسرعة ترك قطعة من جيشه في الاستمرار على محاصرتها وتحرك بما بقي من الجيش على أورشليم فخضعت له بمجرد قربه منها فقتل يهوياقيم وفعل في جثته الافعال الغير الموافقة للعوائد الشرقية مع شدة الغضب والاحتقار واستوفى بذلك ما أنبأ به النبي أرميا فيما يختص بشأن هذا الملك

وأجلس بختنصر يهوياقين بن يهوياقيم على كرسي مملكة يهوذا وكان شابا صغيرا فاستمر في الملك نحوا من ثلاثة شهور ثم ارتاب بختنصر منه فعزله وأرسله أسيرا الى بابل واستبدله بعمه صدقيا أخي يهوياقيم وابن يوشيا واستمر صدقيا في صداقة طاعته لبابل ثمان سنوات ثم عقد محالفة مع عوفريم ملك مصر واتفق على مساعدته بجيش قوي فخلع طاعته وأقام راية عصيانه في سنة ٥٨٩ قبل الميلاد وكان حصار مدينة صور والهجوم عليها آخذا في درجة التقدم فسار بختنصر على أورشليم بنفسه في جيش جرار وهزم ملك المصريين ثم حالفه بعد أن هزمه وأخذ أورشليم بالهجوم عليها عنوة وهرب صدقيا مع ما بقي من جيشه الا أن بختنصر تغلب عليهم في سهل أريحا وقطع العساكر قطعا قطعا وأسر الملك وسمل عينيه وأرسله أسيرا الى بابل ودمر بختنصر أورشليم والمعبد وأحرقهما بالنار وقتل جميع أهلها ما عدا قليلا منهم أرسلهم الى كلدة وكانت هذه الواقعة هي مبدأ الاسر البابلي الكبير ووقوع العقاب على الامة الاسرائيلية نظير ما اكتسبوه من الاثم والعدوان وكان ذلك في سنة ٥٨٦ قبل الميلاد ومع هذا فان بختنصر لم يترك مملكة يهوذا في حكومة فوضوية بل وضع فيها نائبا من بابل أقام نفسه في مذبح وبذل جهده في تحريض اليهود على غراسة الارض وزراعتها وأن يقيموا على حالة سلمية وبعد ذلك بقليل قتل هذا الحاكم في ثورة ساعدهم عليها النبي أرميا ثم هرب الثائرون الى مصر وأخذوا معهم النبي أرميا وآل أمرهم الى ما آلت اليه عاقبة مصر وأرسل بختنصر الباقين في مملكة يهوذا أسرى الى بابل وفي نفس هذا الوقت صارت مملكة يهوذا خرابا بلقعا لا أنيس بها ولا ساكن فيها وتم خرابها ودمارها وما تقدم معنى قوله تعالى (ثم بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا)

الباب السابع

من ابتداء الاسر البابلى الى الوقت الحالى

وجود اليهود فى بابل ـ سقوط مملكة بابل ـ كيرش أو كيخسرو ـ انعطافه وميله الى اليهود ـ منحه فى الترخيص لهم فى العود الى فلسطين ـ العود ـ اعادة بناء الهيكل ـ منع دارا الاول لليهود فى بناء أورشليم ـ عزره ـ تقلبات اسكندر الاكبر ـ صيرورة مملكة يهودا اقليما مصريا ـ السبعينية ـ انتقال طاعة يهودا الى سوريا ـ ثورة مقابوس ـ مشروعات يوراس مقابوس ـ الحرب مع سوريا ـ مملكة الاسمونيين ـ وجود الرومانيين فى الشرق ـ تداخلهم فى أعمال يهوذا ـ نهب قراصوص الهيكل ـ انقراض مملكة الاسمونيين ـ هيرود الاكبر ـ مولد عيسى المسيح ـ صيرورة يهوذا اقليما رومانيا ـ حرب الاستقلال ـ تغلب طيطوس على أورشليم ـ تغلب العرب على فلسطين ـ حروب الصليب ـ تابع تاريخ فلسطين

أمر بختنصر اليهود الذين نقلهم من أرضهم و بلادهم أن يستوطنوا كلدة وفيها جبر الله قلوبهم فى حالة أسرهم بمواعيد وعدهم الله اياها على لسان أنبيائهم وذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يرد هلاكهم مثل الامم الاخرى بل أراد عودهم الى أرضهم بعد استيفائهم العقاب والعذاب الذى ابتلاهم به وقضاه عليهم

وفى مدة أسر اليهود انقلبت مملكة بابل بواسطة ما حصل من تغلبات كيرش أو كيخسرو وألحق ممالك بابل بمملكة الميديين والفرس الكبيرة فألهم الله كيرش بوسائط عود اليهود الى بلادهم وأوطانهم وذلك انه فى سنة ٥٣٨ تغلب كيرش على بابل ووجد فيها جنس اليهود الجار عليه المظلوم ووجد فى ديانتهم مشابهة كبيرة لديانته فمال بكليته الى طالع سعادتهم وانتفع بكثير من معارفهم وعرف أن كثيرا منهم يرغبون العود الى بلادهم فسمح لهم بذلك وبناء على هذه الرخصة رجعت مستعمرة من العبرانيين تعداد نفوسها ٤٢٣٦٠ نفس خلاف خدمهم من بابل الى أورشليم فى سنة ٥٣٥ قبل الميلاد تحت امرة زربابل من ذرية سلسلة الملوك القديمة فاستوطن معظمهم فى الابتداء محل المدينة المقدسة والضواحى القريبة منها واستمر القسم الاعظم من أمة اليهود مستوطنا فى كلدة

وكان أول سعى حصل من اليهود الذين عادوا تحت إمرة زربابل هو اعادة بناء الهيكل وعدد الخدمة القديمة فيه وابتدؤا بالشغل فى السنة التى عادوا فيها الا أن السماريين عاقوهم عن أشغالهم وعطلوهم وكان السماريون كما ذكرنا جنسا مختلطا مستوطنا فى الاراضى القديمة لافرايم ومنشا وهم من نسل القبائل والعشائر التى كانت استوطنت تلك الاراضى بأمر إصرحدون ملك الاشوريين فتعرض هؤلاء القوم لليهود عند حضورهم بكونهم يتحدون مع بعضهم فى بناء المعبد وكانوا يرغبون فى الاستحصال على تصديق عام من كل من الجنسين وادعوا أنهم من ذرية الاسباط القديمة فى اسرائيل فجحد اليهود دعوى السماريين ولم يقبلوا دعواهم فى كونهم من ذرية الاسرائيليين وكذا لم يقبلوا أن يكون لهم أدنى نصيب أو حصة فى الشغل الجارى بمعرفتهم وبناء على هذا صار السماريون ألد الاعداء لليهود ورأوا بأى حالة كانت حجزهم وصدهم عن بناء الهيكل والمدينة ونجحوا فى تأخير الشغل وعطله مدة من

الزمن وكان ذلك فى سنة ٥٢٢ قبل الميلاد ثم عادوا له ثانية بأمر من دارا هستاسب ملك الفرس فى سنة ٥١٩ قبل الميلاد وفى سنة ٥١٥ تم بناء المعبد وزخرفته

ثم ان ما أسداه دارا الاول ملك الفرس لليهود من المعروف والاحسان جعل لهم طاقة فى توطيد أنفسهم مع المكنة والثبات فى موطنهم القديم رغما عما هى عليه الامم المجاورة لهم من الحسد والغيرة والعداوة

ثم ان خليفة دارا وهوا كزرسيس أى أزدشير مع أنه كان مائلا بكرمه ومعروفه لليهود الا انه وصل الى أن أشرف على الامر بهلاكهم بواسطة ما قبله من وزيره الاول هامان من مكيدة أجراها الوزير المذكور فى حق اليهود فكشف مردخ هذه المكيدة وكان مردخ يهوديا وعم استير زوجة أزدشير الحظية عنده وبذل هذان الاثنان جهدهما فى ازالة هذه المكيدة حتى ان الملك أمر اليهود بالمحافظة على أنفسهم ورخص لهم فى المدافعة والحماية من أعدائهم ثم آلت نتيجة هذه المكيدة بقتل هامان ونجاح حماية اليهود فى سائر أقاليم المملكة وانتهز اليهود الفرصة واستحصلوا على رخصة من الملك فى تدمير وفناء ألد أعدائهم وكان حصول هذه الواقعة فى سنة ٤٧٣ قبل الميلاد ولها الحد الآن احتفال فى عيد يعمل سنويا باسم عيد بوريم

وفى سنة ٤٥٨ قبل الميلاد وصلت مستعمرة ثانية من اليهود الى أورشليم من بابل تحت قيادة حبر اسمه عذرة وكان مشمولا بالكرم الملوكى فجاء فى وقت أبطل فيه عقد الزواج بين قومه والامم المجاورين لها وكانوا فى حالة مشتركة بينهم يريدون بها اطفاء الجنس اليهودى فاشتغل عذرة بعمل نظامات كان اجراؤها ضروريا فى الكنيسة ونظامات تختص بحالة المملكة وفى مدة امرته حصل تهذيب وتنقيح كتب العهد القديم (التوراة) الى أعلى درجة من درجات التنقيح

وفى سنة ٤٥٤ قبل الميلاد وصل الى أورشليم نعيمة اليهودى نديم أرتكزيركس أى أردشير ديرازدشت وكان نعيمة المذكور صاحب شراب الملك ومعه رخصة من الملك باعادة الاسوار المستحكمة للمدينة ومع ما كان فيه من أمر الملك اجتهدت الامم المجاورة فى توقيف الشغل وتعطيله فصد نعيمة ما هو حاصل من الامم بهمة عالية منه وأمر قومه بالاستمرار فى أشغالهم وهم موجودون تحت السلاح على شرط أن يكونوا مستعدين لصد أى هجوم يقع عليهم فى أى وقت ولما صار اعادة الاستحكامات كما كانت انقسم الناس بين المدينة المقدسة والاقاليم الريفية ومن هذا الوقت صارت يهوذا محكومة فى العادة بحاخام أكبر وفى الاوقات التى يكون فيها رفع الخراج جاريا على وجه الانتظام كان لا تداخل لملوك الفرس فى الاشغال الداخلية لليهود وكانوا فى حريتهم يجرون أشغالهم الداخلية على موجب عوائدهم الملية

وكانت نتيجة الاسر وشدة تأثيره علاجا شافيا لليهود فى بغضهم وكراهتهم الديانة الوثنية وسترى فى سرد جميع تاريخهم أنهم مع ما حصل عندهم من الخطا وعدم الصواب وارتكاب المعاصى كانوا لا يتركون عبادة الله سبحانه وتعالى واجتهد ملوك سوريا وبذلوا جهدهم فى القرن الثانى قبل ميلاد المسيح باقامة العبادة الوثنية بين اليهود بالقوة والاقتدار فقاومهم اليهود مقاومة شديدة عنيفة كانت هيئتها احدى الوقائع المشهورة فى تاريخ اليهود وظهر فى هذا الوقت الشهامة الكبرى والشوكة العظمى من اليهود فى تقدمهم ونجاحهم فى دينهم

ومن

ومن بعد هذا جاء اليهود الذين كانوا فى بابل الى فلسطين على التدريج الا أنه بقى منهم قسم عظيم فى تلك الاراضى والبلاد وصار بين هؤلاء واخوانهم فى يهوذا معاملات ودية وصداقات قلبية تامة واستمرت هذه العلاقات والارتباطات جارية بينهم مدداً طويلة

ولبثت يهوذا تحت سلطنة ملوك فارس حتى سقطت مملكة فارس أمام جيوش اسكندر الاكبر المقدونى وفتوحاته وروى انه لما كان اسكندر مشتغلاً بحصار مدينة صور أرسل رسولاً الى أورشليم يطلب من الحبر الاعظم والحاخام الاكبر يدُّوع تسليمها اليه فلم يقبل الحاخام هذا الطلب وقال للرسول ان اليهود تحت بيعة صادقة وطاعة تامة لدارا ملك الفرس ومن بعد سقوط صور والتغلب على غزة شرع اسكندر فى التقدم على أورشليم ليبطش بالمدينة وأهلها فأمر الله سبحانه وتعالى الحاخام الاكبر يدُّوع فى رؤية منامية رآها فى منامه بأن يزين المدينة بأكاليل الازهار ويلبس ملابسه المفتخرة ويخرج لملاقاة الفاتح فى رأس احتفال جليل مركب من الاحبار والامة وأما اسكندر فانه تقدم فى سيره مع جيشه وقواده حتى وقف على كثيب مرتفع يشرف منه على المدينة والهيكل وبمجرد ما رأى الحاخام الاكبر قادماً عليه فى موكبه خر ساجداً برأسه الى الارض فاستغرب أصدقاؤه وقواده من هذا الفعل وعارضه بارمينو وقال له كيف تسجد لرجل مع أن عالم الدنيا تسجد لك فأجابه قائلاً بانه لم يسجد للحبر الاعظم بل سجد تعظيماً للاسم الاعظم المنقوش على صدر درعه وانه عرف فيه خواص كانت ظهرت له فى رؤيا رآها فى مقدونيا تقوّيه على الشروع فى فتح فارس

والمعوّل عليه ان اسكندر لم يعف عن أورشليم فقط بل أفاض على اليهود امتيازات جليلة وحث كثيراً منهم على الاقامة والسكنى فى مدينته الجديدة التى شيدها بمصر فكوّنوا فيها قسماً عظيماً من السكان

ومن بعد موت اسكندر صارت فلسطين غنيمة تارة لمصر وتارة لسوريا وفى التقسيم الاخير الذى حصل فى مملكة اسكندر الذى وقع عقب واقعة افسوس صارت فلسطين وفينيقية وسوريا الجنوبية من قسم مصر وكان ذلك فى سنة ٣٠١ قبل الميلاد

وفى مدة حكم الثلاث بطالسة الاول كان مرخصاً ليهوذا أن تجرى أشغالها بنفسها حسب عوائدها مادامت على حالة منتظمة من دفع الخراج وكان من النادر تداخل الملوك المصرية مع اليهود فى موادهم الديانية أو أحكامهم الداخلية وكان الحاخام الاكبر رأس الامة وكبير ديانة الملة وكانت مدة جميع سلطنة الثلاثة بطالسة الاول محصورة فى سلم يهوذا ونجاحها

ثم ان بطليموس الرابع الملقب فيلوباطور وهو أضعف وأخبث ملك سخط على اليهود وغضب عليهم من أجل كونه اجتهد فى نجاسة طهارة قداس القداسة فى هيكل أورشليم حيث دخل فيه وانتهك حرمة الديانة وسعى سعيه فى ذلك سنة ٢١٧ قبل الميلاد ولما خاب سعيه وضاع أمله أبلى اليهود القاطنين فى الاسكندرية بمصر باهوال قبيحة وأفعال ذميمة مع أن هؤلاء لم يحصل منهم أدنى أذى فى حقه فغضبت يهوذا وارتاعت من الافعال الفظيعة الجارية من الملك وطلبوا حماية انطاقيوس الاكبر صاحب سوريا ونقلوا اليه بيعة طاعتهم مع اختيارهم ورغبتهم لهذا الملك الكبير

وفى سلطنة بطليموس الثانى الملقب فيلاداف حصلت حادثة من أجل الحوادث وأعظمها فى تاريخ

اليهود فى تاريخ الدنيا أيضا وكانت هذه الحادثة الكبيرة هى ترجمة الكتب المقدسة العبرانية من اللسان العبرى الى اللسان الاغريقى اليونانى وأطلق على هذه الترجمة اسم الترجمة السبعينية بسبب أن المشتركين فى الترجمة كانوا سبعين أو اثنين وسبعين شخصا وروى أن الحامل على هذه الترجمة هو رغبة الملك فى قراءة الكتب المقدسة ومطالعتها بلسان قومه وكان ذلك الا أنه من المحتمل أيضا أن ظهور مثل هذه الكتب المقدسة ونشرها فى لسان تكون به سهلة المطالعة والقراءة فى جميع عموم الدنيا المتمدنة كان له تأثير زائد على اليهود على العصور وانه بهذه الحادثة العظيمة صارت الكتب المقدسة العبرية معلومة ومعروفة عند الدنيا القديمة وكانت واسطة لنشر الديانة المسيحية والديانة الاسلامية وصارت لهما طريقة ممهدة سهلة

ثم تولد من واقعة بانياس التى حصلت فى سنة ١٩٨ قبل الميلاد اقامة شوكة سوريا على يهوذا فحصل عند اليهود الحزن الشديد والكدر المديد بشأن ما حصل من تغيير ملوكهم واستمر انطافيوس فى مبادى أمره على ما كان عليه المصريون من السياسة والادارة التى كانت جارية بمعرفتهم فى يهوذا ولم يتداخل فى أعمالهم ولم يتطرق لاشغالهم لكنه فى نحو غلاق سلطنته احتاج الى نقود كانت ضرورية له فعزم على سلب ونهب خزائن الهيكل وذخائره فامتنع عن ذلك اما بواسطة الهام الهى واما بواسطة ذكاء الحاخام الاكبر ومهارته وكان انطاقيوس الرابع الملقب أبيفانيس غشوما ظالما على اليهود فباع الحاخامية العظمى بثمن غالى القيمة وتسبب فى ايقاع المشاحنة والمخاصمة بين الطالبين لها وادعى بذلك أنهم عاصون عليه وسار الى يهوذا وتغلب على أورشليم بالقوة والاقتدار وأمر بنهب المدينة وذبح أهلها وهتك حرمة الهيكل بأشنع ما يكون من أفعاله وجرده مما كان فيه من خزائنه وذخائره وكانت تبلغ قيمتها نحوا من ١٨٠٠ وزنة وبما ان كل وزنة عبارة عن ٢٠٠ جنيه ذهبا كان مقدار المبلغ ٣٦٠،٠٠٠ جنيه واجتهد بكل طاقته ووسع شوكته فى أن يرغم اليهود الهلانيين ويجبرهم بكل عزمه وسطوته على الدخول فى الديانة اليونانية وكان هذا الاعتساف والجور من أشد المظالم المعروفة فى تاريخ العالم

وتولد من هذه المظالم اشتعال نار خلاص الامة على يد شخص منهم اسمه القسيس متاتياس وهو المؤسس للعائلة الاسمونية وذلك أنه أقام راية العصيان الا أنه لما كان طاعنا فى السن وليس كفؤ القيادة هذا المشروع سلم أمر توجيه الثورة الى قيادة ابنه البطل الهمام يوداس الملقب مقابوس فنجحت الحركة تحت امرته مع غاية السرعة وذلك أن يوداس هزم فرق الجيش السوريانى مرارا عديدة واسترد أورشليم ما عدا قلعتها الموجودة على جبل زيون وكانت فى قبضة قوة سوريانية وطهر الهيكل وأعاد له خدمانه وهزم خمسة جيوش سوريانية عدد كل واحد منها أكبر من عدد قوته بست مرات أو عشرة وشيد لمثل هذه النصرات بناء مستديما مفتخرا له ولابناء جنسه وفى سنة ١٦٤ قبل الميلاد حاصره انطاقيوس الخامس فى أورشليم بقوة تنوف عن ١٢٠،٠٠٠ نفس فعقد معاهدة صلحية مع سوريا الا أن هذه المعاهدة كانت على غش ودخل انطاقيوس أورشليم ونقض عهده فى الحال وهدم أسوار المدينة ثم قفل عائدا الى سوريا وكان توجهه اليها ووجوده فيها اضرورريا وفى سنة ١٦٢ قبل الميلاد رفع يوداس مرة أخرى راية العصيان وهزم العساكر السوريانية فى كفر سلامة وانتصر فى السنة التالية نصرة عظيمة فى نواحى عداسة بالقرب من بيت حورون على جيش كثيف من السوريين ثم أرسل رسلا الى رومة بقصد عقد محالفة مع جمهوريتها وكانت هذه المأمورية على غاية من الفلاح الا أنه قبل عود الرسل اليه انقفل

مجد

مجد ميدانه ونخر عساكره وشجعانه ومات ميتة حربية فى نواحى عَلِيسا فى ميدان حربه وذلك أنه مع ٨٠٠ نفس من رجاله التقى بقوة من السوريين مقدارها ٢٢,٠٠٠ نفس مشاة وفرسانا وبواسطة شرذمته القليلة كسر الجناح الايمن من السوريين وطرده من ميدان المحاربة الا أن الجناح الايسر السوريانى أحاط به وقت نصره وذبحوه وشتتوا أتباعه فى سنة ١٦٠ قبل الميلاد وفقدت أورشليم محبها العزيز وحامى حوزتها وحماها وهرب أتباع يوداس مع يوناثان أخيه الى قلعة طالوة فى برية يهوذا واستمروا فيها حزبا حربيا مدة أربعين سنة

ثم تولد من انتشاب الحرب الداخلى فى سوريا بين اسكندر بلاس وديمتريوس أن صارت محالفة اليهود مادة مهمة بين الحزبين المتحاربين وآلت النتيجة أن صار يوناثان مقابوس ملك يهوذا وحاخامها الاكبر وعاد الى أورشليم فى سنة ١٥٣ قبل الميلاد فقتله طريفون فى سنة ١٤٣ قبل الميلاد واستخلف بدله أخوه سيمون وزال عن يهوذا تحت حكمه بعض آلام من آلام الحرب التى كانت ابتليت بها وتمتعت البلاد باستقلاليتها نوعا وفى سنة ١٣٥ قبل الميلاد قتله زوج ابنته وهو بطليموس وقتل أيضا اثنين من أولاد يوناثان وهرب الابن الآخر يوحنا هركانوس ونجا بنفسه ثم خلفه أبوه فأغار عليه انطاقيوس سيديطيس وحاصر أورشليم حصارا استمر سنتين فانجبر هرقانوس على الاقرار والاعتراف بطاعة ملك سوريا وهدم ملك السوريين أسوار أورشليم وضرب عليها خراجا سنويا

ومن بعد موت انطاقيوس سيديطيس فى حرب الفرس انقطع تأدية هذا الخراج ولما آلت سوريا الى مملكة صغيرة بواسطة تقلبات الفرس انتهز هركانوس الفرصة فى أن يجعل يهوذا معادلة لها فى الشوكة فأخضع سماريه وهدم معبد السماريين الذى كان على جبل جرزيم وتغلب على أدوميا ثم خلف هركانوس ابنه الاكبر ارسطو بولوس الاول فى سنة ١٠٦ قبل الميلاد وتلقب ارسطو بولوس بلقب ملك يهوذا وأسس مملكة الاسمونيين فاستمرت مدة سبعين سنة ثم مات بعد أن تسلطن سنة واحدة واستخلف بدله أخوه اسكندر بانيوس فى سنة ١٠٥ قبل الميلاد

وامتدت سلطنة اسكندر بانيوس الى سنة ٧٨ قبل الميلاد وكان صدوقى المذهب وارتبكت سلطنته بواسطة عصيان الامة وثورانها تحت مضادة مذهب المجوس ومع انه انهزم فى الابتداء الا أنه حطم هذه الثورة وبطش بأعدائه وانتقم منهم بنفسه ومات فى سنة ٧٨ قبل الميلاد ونصح زوجته اسكندرة فى تدميرها هذه القلاقل والاضطرابات باطاعتها وتحالفها مع المجوس فسارت على هذه النصيحة وتسلطنت ثمان سنوات فى أمن وسلم وبعد موتها فى سنة ٦٩ قبل الميلاد انتشبت حرب داخلية بين ولديها هركانوس وارسطو بولوس واستمر هذا الحرب مدة سبع سنوات وكان غلاقه بدخول الرومانيين فى فلسطين تحت قيادة بومبى الاكبر وتغلب بومبى المذكور على أورشليم وأجلس هركانوس على التخت وحمل ارسطو بولوس أسيرا الى رومة فى سنة ٦٣ قبل الميلاد ومن بعد مضى ست سنوات هرب ارسطو بولوس من رومة وأعاد الحرب فهزمه الرومانيون وأسروه وأجلسوا هركانوس فى وظيفة الحاخامية وجعلوا يهوذا تحت حكم مجلس سموه باسم ستهدريم

ولم يقرب بومبى من ذخائر الهيكل ولم يأخذ منها شيأ بل حفظ الهيكل وقت تغلبه على المدينة المقدسة لكنه أساء اليهود اساءة قبيحة بكونه دخل فى قداس القداسة وانتهك حرمته بوجوده فيه وتعاضد اليهود بحزب القيصر فى الحرب الكبير بين أعدائهم وفى سنة ٥٤ قبل الميلاد وصل قراصوص

الى أورشليم وكانت سوريا وقعت من نصيبه عند تقسيم الممالك الرومانية بواسطة الحكام الاولية فجرد الهيكل من خزائنه وذخائره وكانت تبلغ قيمتها ١٠٠٠٠ وزنة أو ١٢٠٠٠٠٠٠ دولر أو ٢٠٠٠٠٠٠ جنيه لاجل صرفها فى مصاريف غاراته على الفرس فرأى اليهود أن مصيبة پومبى ومصيبة قراصوص مصائب الهية أرسلت عليهم عقابا لهم على مافعلوه من انتهاك الحرمة الدينية ثم أفرج القيصر عن ارسطو بولوس عند انتشاب الحرب الداخلى الا أنه عند عوده الى يهوذا قتله أحزاب پومبى وانتهت أحوال الاضطراب التى كانت موجودة فى المملكة فى سنة ٤٨ قبل الميلاد بتوظيف هركانوس فى يهوذا ولقب بلقب شيخ أو رئيس وكان الحاكم فى الحقيقة هو انطيپاطر من وجوه أدوم وأشرافها وقضى عشرين سنة فى تدبير الاعمال السامية لليهود وعند عود القيصر من مساعدته حرب المصريين جعله تبعة رومانى ونائب الحكومة الملكية على جميع يهوذا

وفى سنة ٤٠ قبل الميلاد لممات يوليوس قيصر صاحب القوة والشوكة محب انطيپاطر ضبط انْطِيجْنُوس ابن ارسطو بولوس تخت يهوذا وتغلب على أورشليم بمساعدة جيش الفرس وتسلطن ملكا ثلاث سنوات وفى غضون ذلك تساعد هيرود حاكم غليلى ابن انطيپاطر بصديقه ومحب وطنه مارك انطونى واستحصل على أمر من مجلس أعيان رومة فى تقليده بملك يهوذا وأسرع فى العود الى فلسطين وأخضع البلاد المفتوحة والمدائن المستحفظة بمساعدة الجيوش الرومانية وتغلب على أورشليم عنوة بعد أن حاصرها ستة شهور وأوقع الرومانيون على اليهود أشد العذاب وقت فتحهم المدينة حتى ان هيرود انجبر على التضرع لقائد الرومانيين فى أن لا يتركه ملكا على عاصمة انقرض سكانها وخلت من العمران وحصل القبض على انطيجنوس وأرسل الى رومة وقتل فيها باغراء هيرود وبموته انقرضت مملكة الاسمونيين والله يورث ملكه من يشاء

وصار هيرود سيد يهوذا فى سنة ٣٧ قبل الميلاد وجعل حكومته خراجية لرومة وحاز هبة ادراك الملك وشجاعة العسكرية الا أنه كان غشوما جبارا فابتدأ سلطنته بذبح مشاهير اليهود ووجوههم المعارضين له فى أعماله وكان يوجد عضوان أى شخصان على قيد الحياة فى وقت جلوسه على الكرسى من نسل وذرية العائلة الاسمونية وهما ارسطو بولوس ومريامْن حفيدا هركانوس الثانى فلاجل ميل اليهود وانعطافهم اليه تزوج هيرود بالجميلة البرنسيسة مريامْن وجعل أخاها خاخاما أكبر مع أن عمره كان ست عشرة سنة فانجذبت قلوب اليهود الى الارتباط مع هذا البرنس الشاب بما أنه كان آخر واحد من جنسهم فى الملوكية ثم من بعد مضى مدة قليلة أصدر هيرود أوامره بقتل ارسطو بولوس وكان فى ريبة منه وهى ان البقاء عليه ربما يتسبب منه وقائع مضرة بأمر الملك ثم أخذ هيرود الغيرة والحسد من زوجته الجميلة فأمر بقتلها أيضا وكذا أوقع هذه المصيبة بأمها وكانت اسكندرة هذه هى تمام اخماد واطفاء العائلة الاسمونية واقرانها ومن بعد مضى قليل أمر بقتل ثلاثة من أولاده اتهمهم فى ريبة على خلعه وفى آخر سنى سلطنته انغمس فى الدماء وصار رجلا سفاكا للدماء

واشتهر سلطنته بكونه بنى معبد اليهود على أعظم مثال وأجمل منوال من الزخرفة والاتقان ولم يتم هذا المعبد الا من بعد موته بمدة طويلة وزين أورشليم وأتحفها بالسرايات والمبانى المفتخرة وبذل جهده فى زيادة تقويتها واستحكامها وجعلها حصينة جدا لا يمكن التغلب عليها وصار لا يخشى ولا يهاب صولة

الرومانيين

الرومانيين أسياده من عمله هذه الاعمال وبنى مدينة قيصرية المفتخرة على ساحل البحر الابيض المتوسط وشيد عدة مبان مفتخرة عمومية فى محلات مختلفة من مملكته وما كان فيه رائحة من روائح اليهود ولو أنه كان يدعى أنه هو الواحد فى عقيدة دينه ودخل فى العوائد الرومانية والاعتقادات الدينية وبدل جميع العقائد الدينية فى سائر أنحاء ممالكه ومات من علة شديدة أصابته فى جسمه فى وسط تقلب قومه فى الاكدار والآلام الحاصلة منه وكان موته فى سنة ٤ قبل الميلاد وانقسمت ممالكه بين أولاده الثلاث وذلك أن أركلوس أخذ يهوذا وسمارية وأخذ غليلى انطيباس وأخذ فيليب الجهة الشرقية من نهر الاردن المسماة طراكونيطيس

وفى السنة الاخيرة من سلطنته ولد (عيسى المسيح عليه السلام) وكانت ولادته فى بيت لحم وهى مدينة من مدن يهوذا ومسقط رأس مولد داود عليه السلام أيضا ومن الخطا البين أن وضعت الحوادث التاريخية هذه الحادثة المشهورة فى سنة ٤ قبل الميلاد

وما كانت اليهود راضية بأجمعها مطلقا على حكم هيرودس ماعدا حزبا قليلا منهم لان هؤلاء الملوك كانوا فى كراهة شديدة وحقد ضغين على اليهود بسبب أن أصلهم من ذرية الادومونيين وكانوا كالآلات للاغراب الذين يستولون على البلاد وكانوا يقدحون على الدوام فى أمة اليهود ويظهرون لهم ماهم عليه من الضعف والحقارة والاهانة وما كان اليهود يلتفتون لمثل هذه التحريضات مع الرغبة والشوق لانهم كانوا منتظرين انه فى مثل هذا الوقت يأتى اليهم المسيح وكانوا يعتقدون فيه أنه ملك الهى دنيوى يرسل لخلاصهم مما هم فيه ومن أعماله وارشاداته تعود الشوكة القديمة والابهة الجليلة لاسرائيل ولما بلغ هيرود ولادة عيسى عليه السلام فى بيت لحم أمر بقتل جميع أطفال هذه المدينة من عمر سنتين فما دون ذلك لانه رأى أنه يبحث على خلاص نفسه من أمر يرقبه من العدو الالد لاهل بيته وفى الحقيقة ماكانت العائلة الهيرودية المبغوضة عند الامة اليهودية على سلامة الا بواسطة حماية أساتذتهم الرومانيين وذبحوا كل يهودى متمتع بكرم هذه الدولة وجودها

ومع هذا فلم يفد هذا الذبح والقتل فائدة وأخذت المملكة الهيرودية مع السرعة فى الضعف وضياع الشوكة وأخذت تعديات الرومانيين وسلبهم البلاد فى الزيادة وكان أركلوس جبارا غشوما ظالما فى حكم ممالكه حتى ان الرومانيين خلعوه فى سنة ٨ بعد الميلاد وألحقوا يهوذا وسمارية باقليم سوريا وكان رومانيا الا انه ترخص لكل من هاتين المملكتين اجراء حكومة ادارية داخلية تحت حاكم أو نائب من الرومانيين

وفى غضون هذه المدة ترعرع عيسى عليه السلام وشب وبلغ مبالغ الرجال وابتدأ فى مشروع الاشغال العظيمة التى أرسل من أجلها وكان بعثه وصعوده الى السماء أى رفعه فى مدة الحكومة الادارية تحت ولاية بونطيوس بلاطى النائب الرومانى الخامس فى يهوذا

واستمرت يهوذا المحكومة بهذه الحالة الى حد سنة ٣٨ بعد الميلاد وفى أثناء ذلك تسلطن هيرود انطيباس ملكا فى غليلى وكان فيليب حاكم بلاده طراكونيطيس ولما خلا هذان الاقليمان من ملوكهما بعد موتهم أنعم بهما الامبراطور كاليجولا على نديمه هيرود أغريبا الاول حفيد هيرود ومريامن وفى سنة ٤١ بعد الميلاد أعطى أيضا الاغريبا يهوذا وسمارية فاستمر مدة ثلاث سنوات حاكما على

جميع مملكة جده وما كانت أشغال كالجولا الاموانع وقتية فى الاجراآت الرومانية لانه كان يقصدبها ابتلاع مملكة اليهود ويدخلها فى المملكة الرومانية وفى سنة ٤٤ بعد الميلاد شرع أعزيبا فى الظلم القاسى والجور الفظيع فى حق المسيحيين وتولد بهذه الافعال الاسباب المحتاج اليها الرومانيون فأخذوا منه يهوذا وجعلوها تحت ادارة حكومة نيابية

ثم صارت الحكام الرومانية على غاية من الشـدة والقساوة وازدادوا فى جورهـم وتعديهم حتى بلغوا النهاية وصار لا طاقة لليهود على تحمل أحكامهم والصبر عليها وشرع غيسيوس فلوروس وهو السادس من العائلة الجديدة فى سلب ونهب اقليمه من دون رحـمة ولا شفقة فقطع اليهود اليأس من أنفسهم وفى سـنة ٦٦ بعـد الميلاد حمل أمة اليهود باجمعها السـلاح لاجل طرد الرومانيين من بلادهـم وعود استقلاليتهم وصار فلوروس هو المسؤل عن اشتعال هـذه الثورة الا أن القانون الرومانى لا يجوز ادخال الجبار وعلى الخصوص حاكم الاقليم فى مسؤلية أى ثورة كانت ونسبوا لليهود العصيان فى السابق واللاحق وصار لم يكن عند غيسيوس فلوروس سوى أن أسرع للقتال وأظهر فيه الطباع الوحشية والاجراآت الفظيعة الدنيوية التى ما حصلت قبل من أحد غيره وكانت يهوذا خضعت للحكام الاجانب قبـل مجىء الرومانيين الا أن سياسة هؤلاء الحكام كانت مغايرة لسياسة رومة والصحيح أنها ما كانت مخالفة لها بكثير حيث كان القصد هو التغلب على البلاد والمساواة بين الامم ومع ما كانت عليـه نتائج الاحوال فاليهود ما سمعوا بدمار أنفسهم الامن بعـد حصول حرب يحصل لهـم فيـه اما النصر واما الفناء والدمار

وحيث كان انعقاد حرب الاسـتقلال والثوران على شروط دينية صار الشروع فيـه فى سـنة ٦٦ بعـد الميلاد ودبر الرومانيون الحرب مع الشـدة والعنف وأخضعوا اقليمى غليلى وسمارية وعاقبوا هذين الاقليمين بالسيف والنار وتغلبوا على يهوذا وكان غلاق هذه الحروب التغلب على أورشليم وخرابها بواسطة طيطوس فى سنة ٧٠ بعد الميلاد وفى هـذا الوقت تدبر الرومانيون بفكرهم وما عندهم من الاجراآت الشديدة فيما يجب اجراؤه فى ملة اليهود فرأوا أن خراب وهـدم المدينة المقدسة ومنع اليهود من تعصبهم وارتباطهم فى نقطة حصينة مثل هـذه فى المسـتقبل عقاب لهـم فى مقاومتهـم المملكة الرومانية ودخل طيطوس فى أورشليم وهى مدينـة ذات سرايات وأماكن مفتخرة وتركها كوما من الرماد الاسود وحرق الهيـكل الجميل وكل بناء موجود ما عـدا بعض أبراج فى أسوار الاستحكامات أبقاها لتكون مراصد لمحافظين من الرومانيين وتذكارا باقيا يستدل منه على قدرة الرومانيين وسوى جميع الابنية بالارض ولم يفعل بختنصر فى تخريبه المدينة المقـدسة زيادة عما فعله طيطوس الرومانى وكان الحصار على أورشليم خمسـة شهور وصارت من بعـده احـدى المزعجات التاريخية وكان قطع يأس المحاربين الموجودين فيها وتخريب المدينة وفقـد الانفس وهول المصائب والشدائد التى حلت بالمحصورين أبوابا مكدرة محزنة فى تاريخ الوقائع الحربيـة السـنوية وقد ذكر أنه هلك فى أثناء هـذا الحصار من الانفس نحو من ١١٠٠٠٠٠ نفس وان كان من المحتمـل أن هـذا العدد كثير الا أنه لا يخلو من أن يكون بعيدا عن الخطأ بكثير وأما الذين بقوا على قيد الحياة من بعـد الحصار فانهم صاروا أرقاء وصار توزيعهم على المتغلبين وارتحل الكـثير منهم الى داخـل جرمانيا وايطاليا وأخـذوا لهم مستعمرات فى داخل تلك الاراضى والبلاد

ومن

ومن بعد غلاق الحرب صار الحاق يهوذا باقليم سوريا ومن بعد مضى قليل صارت سوريا وفلسطين محكومتين بحاكم واحد من طرف الحكومة الرومانية جعل مقره فى أنطاكية واستمرت هذه الحالة العمومية للاعمال مدة وجود المملكة الرومانية وفى هذا الوقت أخذت الديانة المسيحية فى التقدم بسرعة فى كل من ناحيتى سوريا وفلسطين وتوطد لها قدم راسخ فى هذين الاقليمين قبل تشييدها بمدة طويلة فى سائر أنحاء المملكة الرومانية بواسطة قسطنطين

ثم ان اليهود لم يشفوا ولم يفيقوا من الضربة التى أصابتهم من خراب أورشليم وبها انقرضت الحياة السياسية للامة اليهودية حتى صارت لا تعد مرة أخرى مملكة من ممالك العالم أو أمة من الامم وانتشروا على وجه الارض أغرابا راحلين فى عموم الاراضى وكفر أولاد ابراهيم عن خطايا آبائهم الذين نبذوا المسيح ومملكته وراءهم ظهريا

وكانت خرابات أورشليم وأطلالها مسكونة بمحافظين من الرومانيين فى مدة سلطنة وسباسيان والذين خلفوه مباشرة من بعده ثم ان الامبراطور هادريان عزم على أن يعيد المدينة ويشغلها بقوة من المحافظين الاقوياء لاجل أن تحرم أورشليم من أن تكون مأوى للجنس الاسرائيلى النافر المعدوم الوثاق والعهد فتولد من هذا الفعل حصول ثورة مهولة فى فلسطين من اليهود تحت رياسة بعرة قوشير وادعى أنه هو المسيح واشتعلت نار الحرب مع الشدة والغضب مدة ثلاث سنوات وأخيرا آلت نتيجة الحرب بنصر الرومانيين وتغلبهم وقتل بعرة قوشير وقتل من اليهود فى هذا الحرب ما ينيف عن نصف مليون من النفوس ثم ان هادريان أمر بمحق خرائب أورشليم وآثارها وأن يبنى على محل العاصمة القديمة مدينة جديدة سماها عاصمة إليا فى سنة ١٣٦ بعد الميلاد وصرح للمسيحيين والوثنيين دون غيرهم بالاقامة فيها وأخرجوا اليهود منها قاطبة ثم منح لهم فى القرن الرابع بأن يدخلوها مرة واحدة فى السنة الواحدة فصاروا يدخلونها كل سنة مرة يندبون وينوحون على التغلب عليها وخرابها ومع أنه صار معاملة اليهود بالقسوة وشدة المعاملات الا انه ترخص لهم بالتوطن فى جهات أخرى من فلسطين وكان رئيسهم يعرف باسم بطريق طبرية اسم محل اقامته وكانت طاعة جميع اليهود الموجودين فى الممالك الرومانية موجهة اليه وتحت قيادته

ولما صار يوليان امبراطور عادت الديانة الوثنية كأنها هى ديانة المملكة ولاجل تكذيب ما جاء به المسيح دعا يوليان اليهود لبناء هيكلهم ومعبدهم فى أورشليم فجاؤا الى المدينة المقدسة أفواجا من جميع أطراف وأكناف المملكة رجالا ونساء وأطفالا واشتغلوا بتنظيف الخرائب والاطلال ثم انقطع شغلهم على حين غفلة بنار شبت من أساسات المعبد بحالة مجهولة واشتعلت مدة النهار جميعه وطردت الشغالين وحرقت عددهم وآلاتهم فالتزموا أن يتركوا العمل وكذا حصل موت يوليان بعد ذلك بقليل ووقف هذا العزم الذى أصله على غير دين ومنتهك للحرمة الديانية

ولما ابتدأ الفرس فى تهديد وازعاج الممالك الشرقية للمملكة الرومانية قواهم يهود فلسطين فى السر وأهلوا مع الشوق والابتهاج بتقدم خسرو الثانى ومجيئه الى بلادهم فغزا خسرو فلسطين فى سنة ٦١٠ بعد الميلاد وقام اليهود بأجمعهم وانضموا الى الفرس وساعدوهم على فتح أورشليم وكانت أورشليم فى هذا الوقت مدينة مسيحية وبمجرد تمكنهم من المدينة وتغلبهم عليها ذبحوا سكانها المسيحيين وأفنوهم عن آخرهم الا أن الامبراطور هرقل المنصور عاقبهم أشد العقاب بعد ذلك بقليل وأوقع بهم ولم يرد ملك

الفرس على أعقابه الى بلاده فقط بل استرد منه اقليمى سوريا ومصر وأعاد قانون هادريان القاضى بعدم قرب اليهود من أورشليم على مسافة ثلاثة أميال

وبينما كانت هذه المبارزات والحروبات جارية بين كل من ملك الرومانيين وملك الفرس اذ نبتت شوكة جديدة وقوة مزعجة شديدة على حين غفلة فى صحراء بلاد العرب وذلك أن (محمدا صلى الله عليه وسلم) ابن عبد الله بن عبد المطلب من أهل مكة مدينة من مدائن بلاد العرب أعلن بأنه نبى ورسول من عند الله سبحانه وتعالى ونشر دينه الحق القاضى بقتال الكفار وقتلهم ان لم يدخلوا فيه أو يضعوا الجزية عن يد وهم صاغرون وكان اليهود فى ابتداء الامر من جملة الذين كذبوه واجتهدوا فى صده ولما لم يفد شئ من انذاره اياهم وجه جيوشه عليهم وتغلب على مدائن اليهود الموجودة فى بلاد العرب وكانوا فيها كثيرى العدد والشوكة ثم عزم صلى الله عليه وسلم على أن يضيف فلسطين الى ما فتحه من المدائن والجهات العربية فمات قبل أن يتم هذا العمل وابتدأ خليفته أبو بكر رضى الله عنه فى غزو سوريا سنة ٦٣٢ بعد الميلاد وتغلبت جيوشه على الاراضى الكائنة فى شرق نهر الاردن وهزم قواده الجيش الرومانى الذى أرسل لمساعدة سوريا وتغلبوا على دمشق فى سنة ٦٣٤ بعد الميلاد وخضعت سوريا بأكملها لابى بكر ثم بعدها غزا فلسطين وانهزم الجيش الذى كان تجمع لمساعدتها وحمايتها فى وقعة حصلت فى نواحى نهر اليرموك فى شهر نوفمبر سنة ٦٣٦ بعد الميلاد ثم صارت محاصرة أورشليم وسلمت للخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى سنة ٦٣٦ بعد الميلاد وجعلت المدينة الثانية المقدسة للمسلمين وبنى عمر فيها جامعا مفتخرا محل الهيكل ومن ثم انتقلت فلسطين تحت سلطنة المسلمين وشوكتهم

وكان حكام المسلمين من أعظم المصائب والرزايا على فلسطين وفى سنة ٦٤٩ بعد الميلاد صارت دمشق عاصمة المملكة الاسلامية ومن هذا الوقت أخذت فلسطين فى الاضمحلال والهبوط بعد أن كانت من ابتداء تغلب الرومانيين عليها الى أن غزاها المسلمون من أجل التبعة الرومانية وأفلحها وذلك أن حكامها من المسلمين حملوا أهلها ما لا طاقة لهم به من الاحمال وأثقلوهم بالمصاعب والآلام حتى آل أمر مدائنها الى الهرم والدمار واضمحلت أشغال الاهل والسكان وأما أورشليم فانها صارت مدينة لا معنى لها فى ذاتها وكذا صارت قيصرية آكام تراب وعمد مكسرة تتطاير فوقها الرمال

وصارت هيئة الاراضى والمدائن من مزعجات الازمان ولما انتقلت دار خلافة الاسلام من دمشق الى بغداد صارت فلسطين ايالة لا معنى لها فى ذاتها واقليما سوريا وازدادت خرابا على خرابها

وفى منتصف القرن العاشر تغلب الخلفاء الفاطميون على فلسطين وكانوا احتلوا الاريكة المصرية من عهد جديد فاستمرت فلسطين خاضعة لهم الى حد المدة الاخيرة من القرن الحادى عشر ثم انتقلت تحت حوزة السلطنة التركية وكانوا تغلبوا على آسيا الصغرى واغتصبوا سوريا وفلسطين من نواب الخلفاء الفاطميين حكام مصر فى ذلك العصر

وعامل الترك نصارى فلسطين المسيحيين بأسوء المعاملات الشديدة حتى ان دول أوروبا الغربية قاموا بأسلحتهم لحمايتها والمدافعة عنها وغزا الاوروباويون فلسطين وانتشب فيها عدة حروب مهولة مزعجة تعرف بالحروب الصليبية وسندرج تاريخ هذه الحروب فى محل آخر من هذا الكتاب وكانت نتيجة الحرب الاول الصليبى التغلب على أورشليم وتأسيس واقامة مملكة لاتينية فى فلسطين سنة ١٠٩٩

بعد

بعد الميلاد وتتوج غودفري بو يلادن ملك أورشليم وكانت مملكته محصورة فى المدينة المقدسة ويافا ونحو من عشرين قصبة وقرية فى الاراضى المجاورة لاورشليم

ولم تلبث مدة المملكة اللاتينية زمنا طويلا وذلك أن النصرات والتغلبات التى نالها يوسف صلاح الدين فى القرن الحادى عشر لما صيرته سلطان مصر وسوريا وبلاد العرب بذل جهده وسعيه فى طرد المسيحيين من فلسطين ولما تراءى له غزو الارض المقدسة دخل فلسطين فى رأس جيش مقداره ٨٠٠٠٠ نفس متدربين فى الحروب وهزم غودفرى لوسجنان ملك أورشليم فى نواحى جبل حطين فى يوم ٣ يوليه سنة ١١٧٨ بعد الميلاد وأوقع فى جيشه خسارة قدرها ٣٠٠٠٠ نفس وأسره ومن بعد مضى ثلاثة شهور تغلب يوسف صلاح الدين على أورشليم وأشهر نصرته وظفره برأفة وحلم عامل بهما المسيحيين سكان أورشليم وأعقب هذا النصر بطرده جميع اللاتينيين من كامل مدائن فلسطين ماعدا بضع مدن قليلة فى طول ساحل البحر

وفى سنة ١٢٢٨ استحصل الامبراطور فريدريق الثانى على عودة أورشليم للمسيحيين بعقد معاهدة مع السلطان يوسف صلاح الدين وكذا أعاد لهم أيضا بيت لحم ونصارى وصور وصيدا وفى سنة ١٢٤٣ غلب التتار المغول على سوريا وفلسطين وأخذوا أورشليم عنوة وذبحوا سكانها المسيحيين وهتكوا حرمة القبر الشريف

ومن بعد ضياع أورشليم صارت عكا الموجودة على ساحل البحر الابيض المتوسط العاصمة المسيحية فى أرض فلسطين وتحلت بمبان وعمارات قوية جليلة ومجارى مياه ومينة صناعية وسورى استحكامات خلف بعضهما وكان لسكانها نواب من طرف كل أمة أروباوية حتى قال بعض المؤرخين ان المدينة موجود فيها عدة ملوك من دون حكومة ثم تسلطن فيها فساد وحكومة فوضوية لايوازيهما شئ فى التاريخ فتولد مما حصل من الفظائع والقبائح التى ظهرت من سكانها على سكان جهة من المسلمين القاطنين فى القرى المجاورة لعكا غضب شديد من السلطان خليل الاشرف سلطان مصر فى ذلك العصر فسار الى عكا مع جيش جرار يبلغ مقداره ٢٠٠٠٠٠ نفس وتغلب عليها بالهجوم عنوة فى يوم ١٨ مايو سنة ١٢٩١ بعد الميلاد بعد أن حاصرها وشدد عليها واستمر فى حصاره لها ثلاثة وثلاثين يوما ومن ثم انتقل آخر ملك للمسيحيين فى فلسطين الى أيدى المسلمين

وفى سنة ١٤٠٠ بعد الميلاد تغلب تيمور التتارى أو تيمورتن أو تيمورلنك على سوريا وحرق دمشق الا انه لم يظهر من سيره فى وسط الاراضى أنه تعرض بسوء الى أورشليم بل كانت باقية فى حوزة ملوكها المسلمين

وفى سنة ١٥١٧ بعد الميلاد خضعت فلسطين لجيوش السلطان سليم الاول العثمانى ومن ذلك الوقت صارت قسما من المملكة العثمانية التركية

وفى سنة ١٨٣١ بعد الميلاد أرسل محمد على باشا صاحب مصر ابنه ابراهيم باشا الى سوريا بجيش مقداره ٣٨٠٠٠ نفس بحيلة تأديب عبد الله باشا عكا نظيرا حتقاره له واهانته اياه ولكن مراده فى الحقيقة ونفس الامر هو التغلب على تلك الايالة وجعلها تحت ادارة الحكم المصرى فتغلب ابراهيم باشا على سوريا مع السرعة والعجلة وقاسمتها فلسطين فى عاقبة أمرها ثم ان حاكم مصر سولت له نفسه أن يمد حكمه وغلبته على جميع الممالك التركية العثمانية فى آسيا الصغرى فدخلت الدول الاوروباوية فى هذه

المسئلة فى شهر مايو سنة ١٨٣٣ وأرغموا محمد على باشا على قبول معاهدة أدخلواله فيها الحكم على جميع سوريا وايالة أدنه فى آسيا الصغرى وجزيرة كريد فى البحر الابيض المتوسط فاستمر هذا الفصل تحت المجادلة والمناقضة الى سنة ١٨٣٩ بعد الميلاد حتى جدد السلطان محمود الثانى العثمانى الحرب وأمر بتسفير اسطوله البحرى بقصد ضرب الاسكندرية وغزا سوريا بجيش مقداره ٨٠٠٠٠ مقاتل فهزم ابراهيم باشا الجيش التركى العثمانى فى واقعة حصلت فى نواحى نذيب هزيمة فاصلة فى يوم ٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩ بعد الميلاد وسلم الاسطول البحرى نفسه بطريق الخيانة الى المصريين من دون أن يقع حرب وصارت المملكة العثمانية على شفا جرف من الخراب والدمار بواسطة القوى المصرية لولا أن تداركها الدول الاوروباوية وتداخلوا ثانيا فى أمرها وأرغموا محمد على باشا بعقد معاهدة صلحية ضيعت منه سوريا وفلسطين وجزيرة كريد وأثبتت له مصر فقط ومن هذا العهد استمرت فلسطين قسما من أقسام المملكة التركية العثمانية لحد يومنا هذا وهو ٢٠ يونيه سنة ١٨٩١ بعد الميلاد وهو يوم اتمام تهذيب التاريخ المقدس وتنقيحه على يد مؤلفه الفقير محمود فهمى المهندس القاطن فى جزيرة سيلان

الكتاب الثانى

تاريخ مصر

﴿ من ابتداء الازمان القديمة الى الاوقات الحاضرة ﴾

الباب الاول

﴿ من ابتداء تأسيس الحكومة الى العائلة الثانية والعشرين ﴾

وصف مصر ـ وادى النيل ـ الدلطة ـ مصبات النيل ـ سكان مصر القديمة ـ عوائد قدماء المصريين ـ ديانة قدماء المصريين ـ آلهة المصريين ـ اعتقاد المصريين فى الحالة المستقبلة ـ تصبير الاموات ـ طوائف المصريين ـ الملوك ـ القسس ـ طريقة الكتابة ـ شرائع المصريين وقوانينهم ـ تأسيس المملكة بواسطة مينس ـ عصر العائلات الملوكية ـ العائلة الرابعة ـ دلائل سموّها وعظمتها ـ الاهرام ـ تقدم المدنية والحضارة فى عصر هذه العائلة ـ الفتوحات ـ نموّ سيادة طيوه ـ غارة الرعاة أو الهيكصوص ـ تغلبهم على مصر السفلى والوسطى ـ العائلة الثانية عشرة الطيوية ـ سموّها ورفعتها ـ تغلب الهيكصوص على مصر العليا ـ تدمير المبانى والآثار ـ اخراج الهيكصوص وطردهم من مصر ـ العائلة الثامنة عشرة الملوكية ـ رفعة مصر تحت سلطنة العائلة التاسعة عشرة ـ رعمسيس الثالث ـ عجز السلطنة وهرمها ـ الملوك القسس

قارة افريقية واقعة بأكملها فى المنطقة الحارة وهى أحد الاقسام العظيمة من الدنيا الاشد حرا وحرارة ولما كان القسم الاعظم من سطح هذه القارة غير صالح لسكنى بنى الانسان كانت غير موافقة لنموّ الامم العظيمة وترعرعها وحياتها ثم ان مصر وقرطاجنه هما المملكتان الافريقيتان اللتان بلغتا

حد الكمال والاهمية فى تاريخ العالم وكل من هاتين المملكتين واقع فى الجهة الشمالية من القارة وفى داخل حدود المنطقة الشمالية المعتدلة

ومصر هى القسم الاسفل من النيل وتمتد من ساحل البحر الابيض المتوسط الى الشلال الاول من شلالات النيل وطول هذا الامتداد محصور بين ٥٠٠ ميل و ٦٠٠ ميل انكليزى وشاغلة الطرف الشرقى من القارة وهى وان كانت قليلة السعة الا أنها كانت مشتملة على مدائن عديدة جدا وعالم من الانفس لا يحصى عددا وروى أنه كان يوجد فى عصر سلطنة أمَزِيس أحد فراعنة مصر نحو من عشرين ألف مدينة معمورة بأهلها غاصة بسكانها

ومصر محدودة من الجهة الشرقية بالبحر الاحمر وبرزخ السويس (الآن قنال السويس) ومن جهة الشمال بالبحر الابيض المتوسط ومن جهة الجنوب بالاقاليم السودانية الحبشية ومن جهة الغرب بصحراء ليبيا أو برقة ومساحة الارض الشاسعة المحصورة فى داخل هذه الحدود نحو من ٣٩٤،٢٤٠ ميلا مسطحا وتعداد سكانها الآن على حسب تعداد سنة ١٨٨٢ بعد الميلاد نحو من ٦٨٠٠٠٠٠ نفس ومناخها حار جاف وفيه الاربعة الفصول الصيف والشتاء والخريف والربيع ويندر سقوط الامطار على سطح أرض مصر وفى مدة فصل الشتاء تكثر فيها البرودة وكذا يكثر سقوط المطر بجهة سواحل البحر الابيض المتوسط ومن وسط أرضها يجرى نهر النيل وهو نهرها الوحيد من الجنوب الى الشمال فى مسافة طولها نحو من مائتى فرسخ فرنساوى وهذه الارض مقفولة من كل من جهتيها بواسطة جبال سائرة بالتوازى للنيل لا تترك مجراه الا فى النادر ويوجد بين ذيول هذه الجبال ونهر النيل حزام من الارض لا يزيد عرضه عن أربعة وعشرين فرسخا فرنساويا أو ثلاثة وثلاثين ميلا وربع ميل وأحيانا أقل من ذلك ويزداد هذا الحزام سعة فى الجهة الغربية فى بعض جهات حتى يصل الى خمسة وعشرين أو ثلاثين فرسخا فرنساويا وأما العرض الاكبر لمصر من مدينة الاسكندرية الى مدينة دمياط على ساحل البحر الابيض فهو نحو من خمسين فرسخا

وكانت مصر فى الزمن القديم مقسومة الى ثلاثة أقسام أصلية هى مصر العليا أو طيوة وهو القسم الاكثر وقوعا فى الجهة الجنوبية ومصر الوسطى أو هِبْطَانُوميد ومعناه ذات السبعة أخطاط ومصر السفلى ويدخل فى هذا القسم ما يقال له الدلطة وجميع الاراضى الى البحر الاحمر وطول ساحل البحر الابيض الى جبل كاسيوس وكانت مصر جميعها تحت سلطنة الفرعون سيزوستريس منقسمة الى ست وثلاثين كورة عشرة منها فى طيوه وعشرة فى الدلطة وستة عشر فيما بينهما

وكل من مدينة اصوان ومدينة جزيرة الفيلة يفصلان مصر من الاقاليم النوبية السودانية وكانت هاتان المدينتان فى عصر الامبراطور أغسطوس حد المملكة الرومانية

وكانت مدينة طيوة التى صار اسمها علما على اقليم مصر العليا أجل مدن العالم وأفخرها فى الزمن القديم وهى مشهورة بأبوابها المائة التى ذكرها عمير فى أشعاره وكان سكانها مناسبين لسعتها وقيل انه كان يخرج من كل باب من أبوابها مائتا عربة من عربات الحرب وعشرة آلاف فارس دفعة واحدة وقد ذكر الجريقيون والرومانيون مجد هذه المدينة وعظمها ولو أنهم لم يروا الا أطلالها وآثارها التى بقيت من تلك العصور القديمة الدالة على ما كانت عليه هذه المدينة من المجد والعظمة ولقد استكشف فى نواحى طيوه وهى صعيد مصر الآن هياكل ومبان وسرايات لم تزل باقية على ما كانت عليه من

أصلها من العمد والتماثيل والزخرفة والنقوش والالوان التي لم يفقد من لمعانها وصفاء لونها شيء وكانت مدينة طيوه عاصمة القسم الطيوى

وأما مدينة منف أو منفيس فكانت عاصمة القسم الهبطانوميدى أو مصر الوسطى وكان تشتمل هذه المدينة على معابد وهيا كل كثيرة العدد ومن ضمن هذه المعابد معبد أبيس وهو الاله الاكبر معبود المصريين وكانوا يعملون له شعائر واحتفالات خاصة به

وكان فخر مصر ومجدها محصورا فى بناء هيا كلها ومعابدها ومدائنها وقصورها والمسلات والاهرام والبرابى التى صبرت على حر الزمان وبرده ولم تتأثر من الحوادث الجوية ولا الآفات السماوية وأثبتت للمصريين فخر المكنة والطاقة ورفاهية الاحوال ولذة المعيشة فى تلك العصور القديمة فأما المسلة فهى شكل رباعى مسحوب الطرف مركوزة عمودية على سطح الارض ومنتهية من أعلاها بسن مدبب فكان المصريون يضعون هذه المسلات فى الميادين المربعة الموجودة فى داخل المدن لاجل الزينة ويسترون سطوحها الاربعة باشارات أو كتابة القلم الهيروغليفى ومعناه القلم المقدس وقد أقام سيزوستريس فى مدينة عين شمس مسلتين من حجر الصوان الصلب أمر بقطعهما وجلبهما من محاجر مدينة أصوان من حدود مصر كان ارتفاع كل واحدة منهما مائة وعشرين ذراعا أى ثلاثين قامة أو مائة وثمانين قدما ولما تغلب الامبراطور أغسطوس على مصر وجعلها ايالة من المملكة الرومانية أمر بنقل هاتين المسلتين الى رومة فانكسرت احداهما قطعا وصار لاجراءته على أن يخاطر بعزمه على نقل مسلة ثالثة كانت أعظم وأكبر من الاولين عملت فى عصر سلطنة رعمسيس الملك وقيل ان عدد الشغالة الذين كانوا يشتغلون بقطع هذه المسلة الثالثة ونصبها نحو من عشرين ألف نفس وكان يوجد فى مدائن كل قسم من الاقاليم المصرية كثير من هذه المسلات وكانت جميعها مقطوعة من المحاجر الصعيدية بجهة اصوان وقنا وأسيوط ولم تزل آثار محاجر القطع موجودة لحد الآن

وأما الهرم فهو جسم ذو قاعدة مربعة الشكل بسعة كبيرة ينتهى من أعلاه بسن مدبب والموجود فى مصر ثلاثة أهرام أشهر من الاهرام الباقية أحدها وهو الاكبر معدود من ضمن عجائب الدنيا السبعة وهو مركوز على مسافة بعيدة من منف وهذا الهرم مبنى مثل باقى الاهرام على صخرة حجرية مربعة الشكل ومشطف على سطوحه البرانية تشطيفات على هيئة درج السلم تعين على الصعود الى رأس الهرم على التدريج وهو مبنى من أحجار ضخمة محكمة الوضع والبناء بصنعة عجيبة مستورة بكتابة القلم المقدس وقال قدماء المؤرخين ان طول كل جهة من جهات الهرم الاكبر ثمانمائة قدم ومثلها فى الارتفاع وان رأس الهرم أو قمته التى تظهر للرائى من بعد أنها نقطة هى سطح ظريف مركب من عشرة أحجار أو اثنى عشر حجرا وطول كل جهة من جهات هذا السطح ستة عشر قدما أو ثمانية عشر قدما

وطول ضلع مربع القاعدة ١١٠ قامة ووجهه مثلث متساوى الاضلاع فاذا تكون مساحة القاعدة ١٢١٠٠ قامة مربعة وبما ان ارتفاع الهرم ٧٧ $\frac{٣}{٤}$ قامة فاذا تكون مساحة جسم الهرم ٣١٣٥٩٠ قامة مكعبة وكان عدد الشغالين فيه نحوا من مائة ألف نفر يتغيرون بمثلهم كل ثلاثة شهور وامتدت مدة تجهيز الاحجار وقطعها عشر سنوات من بلاد العرب أو من جهات النوبة ثم أرسلت الى مصر ثم امتدت مدة بناء هذا الهرم المهول الغريب عشرين سنة وعمل فى داخله قاعات ومجالس ووجد مكتوبا على الهرم بحروف الهجاء المصرية القديمة مبلغ النقود التى صرفت على

ما

ما أكله الشغالة من أصناف الثوم والكرات والبصل والفجل وغيره من مثل هذه الاصناف مبلغ ألف وستمائة وزنة من الفضة وهذا عبارة عن ٢٠٠٠٠ استرلينه أو ٤٥٠٠٠٠ فرنك وكان أصل بناء هذه الاهرام قبورا للملوك المصريين

وكذا يوجد فى مصر البرابى وهى مبان شيدت وأقيمت مثل الاهرام وبناؤها يدهش العقول ويحير الافكار زيادة عن بناء الاهرام وقد بنيت هذه البرابى فى الطرف الجنوبى من بحيرة موريس باقليم الفيوم وكذا بالقرب من مدينة التمساح وما كانت بربة العرابة مركبة من سراية واحدة فقط بل مركبة من اثنتى عشرة سراية محكمة التنظيم جيدة الترتيب بدهاليز وطرق توصل لبعضها ومركبة من طبقتين فالطبقة العلوية تشتمل على ألف وخمسمائة قاعدة مسقفة جميعها بسقف واحد وتلك القاعات منظومة فى دائر اثنى عشر مجلسا ومثل ذلك الطبقة التى هى أسفل منها وهذه الطبقة السفلى كانت معدودة لدفن الملوك والمحافظة على التماسيح المقدسة معبودات الامة المصرية

وكانت بركة موريس (هى بركة باقليم الفيوم) من أجل العمارات وأغرب الاشغال التى اشتغلتها ملوك مصر فى العصور القديمة وقال قدماء المؤرخين ان شغلها أجود بكثير من شغل الاهرام والبرابى بالنظر الى كثرة أوقلة اجتناء الثمرات من زيادة النيل وفيضانه ولما كان الضرر الاكبر والموت الاحمر حاصلا من زيادة علو مياه النيل أومن نقصها وبواسطة ذلك كان يؤل أمر البلاد والارض الى الغرق أو الشرق وكلاهما مضر بأرض مصر وأهلها شرع الملك موريس فرعون مصر فى عمل طريقة لاجل عدم حصول ضر راحدى هاتين الحالتين وأن يصلح حالة الفيضان بطريقة يعود منها النفع على البلاد وراحة العباد فأمر بحفر بحيرة أو بركة أطلق عليها اسمه وبذل فى تشغيلها جهده وكل ما فى طاقته وشوكته فى اقليم الفيوم وكان دائر هذه البحيرة ثلاثة آلاف وستمائة استادية أومائة وثمانين فرسخا فرنساويا وعمقها ثلاثمائة قدم وأقام فى وسط هذه البركة هرمين من البناء ركب على رأس كل منهما تمثالا ضخما من الحجر جالسا على كرسى رأسه مرتفعة فى الهواء بمقدار ثلاثمائة قدم ومثلها تحت الماء ووصل هذه البحيرة مع النيل بواسطة ترعة كبيرة أوخليج ينوف طوله عن أربعة فراسخ فرنساوية وعرضه خمسون قدما وعمل فى رأس الخليج من جهة النيل وفى نهايته من جهة البحيرة برابخ وخوخات تفتح وتغلق حسب الحاجة وبلغت مصاريف هذه البرابخ نحوا من خمسين وزنة أى خمسين ألف فرنك وكان يجتنى الملك من ثمرات هذه البحيرة أثمان الاسماك التى كانت تخرج منها وتباع وترسل أثمانها الى الخزينة الملوكية كما هو جار لحد يومنا هذا الا أن المنفعة التى كانت خاصة بها فى الزمن القديم هى من أجل النيل وجريانه وذلك انه عندما كان يحصل الارتفاع فى مياه النيل وتظهر عاقبة ضررها كان يجرى فتح الخوخات والبرابخ وتجرى المياه الى أن تصب فى البركة وبهذه الطريقة صارت مياه النيل لاتعم أرض مصر الاعلى حسب الحاجة واللزوم ولا تمكث فوقها الامدة رسيان الطمى المجلوب معها المعد لاصلاح الزراعة وبعكس ذلك ان كانت مياه النيل منحطة جدا ويخشى القحط على مصر فكانت ترسل المياه اللازمة لاتمام رى الاراضى من البركة بواسطة ترع وخلجان مدبرة لذلك وبما أجراه موريس حصل الاصلاح فى عدم انتظام حالة النيل وقت علو مياهه وكانت أرض مصر يتم ريها عندما تبلغ مياه النيل فى العلو اثنى عشر ذراعا وان بلغت ثمانية أذرع جهد الناس وتيقنوا القحط وحصل الشك فى كون مياه البحيرة يحصل منها ارتفاع مياه النيل وقت جريانها فى الترع والخلجان أم لا

والنيل هو الآية الكبرى والعجيبة العظمى لحياة أرض مصر وأهلها لأنه يندر سقوط الامطار فيها فبواسطة هذا النيل تسقى أرض مصر لكونه يجلب لها ولاهاما هو مرتب عليه سنويا من الجزية والخراج بواسطة زيادته المنتظمة (أى عن مياه أمطار الاقاليم الاخر) المشحونة بالرواسب والمواد الطينية المصلحة لارض الزراعة وبذلك صارت أرض مصر مقطعة بترع وخلجان وأبحر عديدة تختلف فى الطول والعرض بنسبة اختلاف المواقع واحتياجات الاراضى وهذا النهر هو الجالب لخصوبة الاراضى وجامع للمدائن بعضها ببعض وللبحر الابيض المتوسط بالبحر الاحمر وطريق التجارة فى الداخل والخارج وحافظ للمملكة من عدوها ولولاه ما كانت مصر ولا أهلها فهو المغذى لها والحافظ لحالتها ويأتى للمصريين عند الحاجة ويمضى عند الاستغناء عنه كما قال بعضهم

كأن النيل ذو فهم ولب * لما يبدو لعين الناس منه

فيأتى حين حاجتهم اليه * ويمضى حين يستغنون عنه

وقد أكثر الاوائل والاواخر المدح فيه ولما كان هو أصلا لحياة مصر وأهلها أتقنوا أشغاله وأحكموا جسوره وأقاموا مقاييسه وعرفوا أوقات زيادته وفيضانه وحفروا الترع والخلجان وأنشؤا القناطر والبرابخ لاجل التحفظ على مياه النيل مدة الرى ومدة التحريق حتى يتيسر الحصول على اجتناء ثمرات المحصولات وعود الثروة على البلاد والعباد وعند حضور النيل الى أرض مصر تسلم اليه فى الحال أرض الزراعة فتفيض مياهه عليها وتظهر المدائن والقرى الموجودة على مرتفعات من الارض للرائى كأنها فى بحر لجى محيطة بها مياه الفيضان من كل جهة كأنها جزائر صغيرة فيها وتستمر المياه فوق الاراضى مع الاعتناء من السكان فى التحفظ عليها حتى تتم أوقات الرى ثم يجرى صرفها من على الاراضى والشروع فى بذر حبوب الزراعة وقد أحكم المصريون سنتهم القبطية ورتبوا شهورها على قواعد ومواعيد زيادة النيل وزراعة الحبوب فى أوان زراعتها ومواعيدها الجارية لحد الآن ونهر النيل قابل للملاحة فى طول مجراه بالمراكب الشراعية أو البخارية الصغيرة

وقد جعل القدماء منابع النيل فى جبال القمر فى الدرجة العاشرة من العرض الجنوبى الا أن متأخرى السياحين كشفوا هذه المنابع كشفا حقيقيا وأثبتوا وجودها فى الدرجة الثانية عشرة من العرض الشمالى وأن النيل يخرج من ذيل جبل فى مملكة جويام من أرض السودان من منبعين أصليين أو عينين مسافة ما بينهما ٣٠ خطوة وسعة كل عين مثل سعة عين البئر المعتادة وأما زيادته فهى حاصلة من جداول وغدران تصب فيه ومن بعد جريانه فى الاقاليم السودانية والحبشية يجرى من وسط أرض مصر ثم يفرغ مياهه فى البحر الابيض المتوسط ويوجد فيه سبع شلالات أى مهابط مياه يسمع صوت خرير المياه النازلة منها على مسافة ثلاثة فراسخ ويوجد به أيضا موانع طبيعية فى الجهات العالية من مجراه

وأما زيادته وعلو مياهه فانها ناشئة من مياه الامطار التى تسقط سنويا فى الجهات السودانية والحبشية ثم تعلو مياهه فى الجهات السودانية ابتداء ثم فى مصر أخيرا وتبتدئ الزيادة فى مصر فى أواخر شهر يونيه وتستمر فى الزيادة الى آخر شهر سبتمبر ثم يأخذ فى النقص شيأ فشيأ مدة شهرى أكتوبر ونوامبر ثم يعود الى مجراه الاصلى

وأما الدلطة المسماة الآن بالروضة أو مصر السفلى فهى احدى الاقاليم الاكثر خصوبة وأكثر غنية

من أقاليم الدنيا وكانت فى قديم الزمان مرصعة بالمدائن الزاهرة المفتخر تمثل مدينة بلوزة وتنيس وبسطة وصا الحجر ومدينة صان وغير ذلك

والمعروف أن أهل مصر القديمة وسكانها كانوا بالاقل خمسة ملايين أو أزيد من ذلك وأن أصل عمار هذه الأرض من جهة آسيا والذين عمروها هم فرع من نسل مصرايم وكانت طبائعهم وعوائدهم على العموم فى غاية من الرقة واللين والخضوع والتمسك بالدين وكانوا نظيفى المأكل والملابس ومن ثم كانوا فى صحة وعافية

وكانت ديانة قدماء المصريين محصورة فى عقائد ومذاهب شتى ومهما كانوا عليه من كثرة المذاهب الديانية فانهم كانوا أهل تعصب فى الديانة وبهذا التعصب صاروا متمسكين بدين قوى فكانوا متمسكين بوحدانية الله سبحانه وتعالى وانه غير مكيف ولا مشاهد وكانت هذه العقيدة أساس ديانتهم وعقيدتهم الأتم كانوا متمسكين أيضا بأن الاله يحل فى هيئات وصور مكيف فى كل منها صفاته وخواصه وله فى كل صورة مجموعة فيها هذه الصفات والخواص اسم دال عليه وهذه الاسماء مجموعة عند القسس وأرباب المعارف فى اسم واحد هو الله وأما الاهالى والعوام فكان لهم عدة عقائد خاصة بهم على حدتها وكان القسس يخفون ديانتهم عن عوام الامة لاعتقادهم أنهم فى غاية من الجهل وعدم الطاقة على ادراكها وفهمها وكان القسس يتضررون ويتألمون من كثرة تعدد الآلهة زاعمين أنه ربما يأتى وقت يراعى فيه أنها كانت ديانة الامة وعلى الخصوص عند الاغراب

وكانت الامة المصرية تعترف بثمانية آلهة من الطبقة الاولى واثنى عشر من الطبقة الثانية وسبعة من الطبقة الثالثة وأن الشمس والقمر معبودان ويتصورون أن بعضا من روح الاله حال فى الحيوانات فمن ثم تأسست عقيدة عبادة الحيوانات فظهر أن هذه العقيدة كانت غريبة عند الجريقيين والرومانيين وكذا كانوا يعتقدون أن الاله يحل فى هيئة حيوان أو وهو الغالب المعهود عند المصريين أنهم كانوا يعتقدون كون الاله يحل فى اتصال عجيب وهو رأس حيوان متصل ببدن انسان فعلى هذا كان كل من الثور والبقرة والخروف والقطة والقرد والتمساح والكركى والجعران والخنفساء جميعها معبودات مصرية وكانوا يضعون كل واحد من هذه الحيوانات المقدسة فى هيكل الاله الذين يقدسونه مع غاية الاعتناء والالتفات الى خدمته مدة حياته وبمجرد موته يصبرون جسمه ويحنطونه ولا يلزمنا أن نتصور أن كل حيوان من كل جنس كان مقدسا عند المصريين بل كانوا يفرزون البعض من الحيوانات ويجعلونها على حدتها والمصاريف التى تصرف عليها كانت من طرف المملكة وخدمة تلك الحيوانات من أرباب المناصب العالية أو من أرباب الطوائف العالية ومن اعتقاد كبار الامة المصرية أن آلهتهم حالة فى هذه الحيوانات وأما عوام الامة فكانوا يرون أنها هى الآلهة نفسها وما كانت نفس هذه الحيوانات مقدسة جميعها فى جميع أقسام المملكة لان فرس البحر كان معبودا فى جهة من جهات الاقاليم وكان سكان طيوه يعبدون التمساح بخلاف الاقاليم الأخر فانهم كانوا يصطادونه ويقتلونه ويقولون انه حيوان مضر مؤذ

وكان الاله الاكبر عند مصر هو أمن رَا ومعنى أمن الشمس ومشتركا مع هذا الاله موت أى الام الالهة وكذا شون وهو ابن أمن ويعتقدون أن أمن هو أب لجميع الآلهة وأن أمن را هو الخالق لاعضاء نفسه وهما الام والابن وهذان صارا الهين اشتركا معه فى الالوهية وقال بعض أرباب

الاستكشافات انه مع ما كان عليه المصريون من عقيدة التثليث وهى الاب والام والابن فالآلهة المعبودة عند المصريين الاكثر سموّا ورفعة ومشابهة بالكلية فى الهيئة الخارجية للنوع البشرى ثلاثة وهى أُوزوريس وإِزيس وهُورُوس فكان هؤلاء الثلاثة مصدرا للعبادة العمومية فى جميع أنحاء اقليم الديار المصرية وكانوا على ما قيل من نسل الاله سيط الذى هيئته الشخصية هى الارض ومن الالاهة أى المعبودة نوط ومعناها قبة السماء وقالوا فى بعض روايات أخرى ان أوزيريس حل فى هيئة شخصية بشرية وتسلطن فى مصر ويعتقدون أن أوزيريس المذكور كان ذبح فى مجادلة مع سيط ثم أحيا نفسه أخيرا بنفسه أى بقدرته وقوته وبمعاضدته بابنه هوروس ظفر بسيط وغلبه وانه من ابتداء هذا الوقت صار أوزيريس حاكم الدنيا القابلة وهو المجازى على الطيب والمعاقب على القبيح والخبيث

وكان المصريون يعتقدون فى الدنيا الآخرة بان الاجر والعقاب فيها نتائج أعمال الشخص فى الحياة الدنيا وان أرواح الاشرار تعاقب بعودها ورجوعها من السماء الى الارض ومن بعد أن تتشكل بكل صورة تعاقب بها تلزم بان تسكن فى حيوانات دنيئة الرتبة مدة من الزمن ثم تتلاشى بالكلية وان الموت هو المفنى كل شئ متمتع بالحياة فى هذه الدنيا فالملك والعبد تحت قانون واحد وقبل دفن الانسان مع ابائه يعرض سجل حياته على محكمة مركبة من اثنين وأربعين قاضيا فان وجد واحياته طيبة تستحق الدفن عبروا بجثته من فوق البحيرة المقدسة فى جمعية أو محفل من المشيعين لجنازته ويدفنونه مع آبائه وان وجدوا حياته قبيحة رجعوا به وسلموا جثته الى أصدقائه المحزونين عليه فيدفنونه مثل العادة الجارية فى حق دفن الاشرار فى الجهة المقابلة للبركة التى هى مدفن الطيبين وعندما يصير دفن الجسم تسرى الروح فى مسارات طويلة وأعمال غريبة تشتغل فيها بالدعاء والاعتراف بما كانت عليه قبل ثم يسوقها هذا السريان الطويل الى محكمة جليلة مركبة من الآلهة جالس فيها أوزيريس مع اثنين وأربعين من الآلهة الاخرى وتوضع الروح فى كفة ميزان قابض عليه هوروس وأنوبيس ويزنون معها الحق أو الباطل ثم تراجع نتيجة الميزان بمعرفة الاله طوط

وبعد هذا يجرى الحكم فى فصل ما تؤل اليه عاقبة الروح من غير بحث ولا مناقضة فان وجدت مجترحة بما جنته من الذنوب والآثام قضى عليها بالعقاب والعذاب والتلاشى وان وجدت فى حالة الكمال وكانت فى حياتها على الحق صار مرورها على عدة فحوصات لاجل تكفير الخطايا والآثام التى تسببت من طبيعة حياتها فى الدنيا ويساعدها فى هذه الفحوصات أوزيريس وبواسطته وقدرته تقوم الروح الى البعث والنشور العام فى الآخرة

ومن حالة الاعتقاد فى الحالة المستقبلة تولد فعل تصبير الاموات وتحنيطها فكان يجرى التحفظ على المومياء مع الاعتناء التام من أى شئ يضر بها معتقدين أن الروح عند عودها للجسم بعد فناء كل شئ يمكنها أن تجد مسكنها الاول صالحا لقبولها

وكان قدماء المصريين منقسمين الى طوائف ومراتب يمتاز بعضها عن بعض بالحرف والصنائع والمعروف عند متأخرى المؤرخين ثلاث طوائف هى طائفة القسس وطائفة الحربية وطائفة المزارعين ومن ضمن طائفة المزارعين المشتغلون فى البساتين والجناين والملاحون وأرباب الصنائع من كل جنس ورعاة المواشى والاغنام وكان الملك يلقب فرعون أى الشمس رأس المذاهب الديانية

والسياسة الداخلية وكان نائب الاله أو وكيلا عن شخصه مقدسا ومن وظيفته الصدارة لتقريب القربان وسكب ما يسكب على الآلهة من الزيوت العطرية والروائح الذكية وكان مقيدا في أعماله حتى في أفكاره تحت قواعد وقوانين الكتب المقدسة المتضمنة للاجراآت والاعمال الدقيقة التي بواسطة جريه على موجبها يكون على الدوام في سمو الموقع ورفاهية الحياة وعند موته يوضع جسمه بعد تصبيره على ملاو مشهد من الامة المطلقة الحرية لأجل أن تقيم عليه دلائل ما كان يجريه من الخير أو الشر فان ثبت عليه بواسطة الامة أشراره وخبائثه حرم جسمه من الدفن

وكانت مرتبة طائفة القسس هي الدرجة الثانية بعد الملك وكانوا تحت قوانين شديدة تقودهم الى دماثة الاخلاق وعفة النفس وكانوا في السيادة والتعليم أصلا لجميع المعارف والعلوم المصرية وكانوا منوطين بالتهديات الدنيوية والعقائد الدينية للملوك وكانوا مطلقي الشوكة على الاهالي وفي رفعة زائدة من تدريسهم ومطالعتهم العلوم الطبيعية حتى صار لهم بها طاقة على تأسيس الخرافات المزعجة لجميع الخلق وكانوا يدبرون هيئات مهولة بمناظر عجيبة يسحرون بها عقول الامة لاجل اضلال أهلها وكانوا يدعون أن لهم السلطة التامة على قبول بني الانسان في آخر حياته أو عدم قبوله وكان قدماء المصريين طبيعيي الدنيا من قديم الزمان وتولد من طريقتهم تصبير الاموات وتحنيطها أن صار لهم دراية تامة بمعرفة العلل والامراض المختلفة النوع التي تقع على الجنس البشري وكانت معارفهم ركيكة الا أنهم كانوا فائقين على أمم عصرهم وكان وادي النيل يحضر لهم طلباتهم من غير حد ولا صد وكانت طائفة الحربية معدودة بعد طائفة القسس وكانوا مستحوذين على جملة امتيازات منها استثناؤهم من الضرائب والعوائد المضروبة على الاهل والسكان وحينما لا يكون لهم أشغال في العسكرية يرخص لهم في البقاء في بلادهم لاجل زراعة أراضيهم

وكانت طريقة الكتابة الجارية عند المصريين محصورة في عدة علامات أو اشارات مخصوصة سماها الجريقي باسم الهيروغليف ومعناه النقش المقدس ولم يتيسر للجريقيين ولا الرومانيين الحصول على حل هذه الاشارات مطلقا حتى اجتهد المتأخرون من علماء جرمانيا وفرانسا وانكلتره وخصوا الفحص الكلي حتى تيسر لهم الحصول على وجود مفتاح لحل هذه الاشارات وصارت سهلة المطالعة وفتحوا مدرسة في دار العجائب بمصر القاهرة لاجل تعليم هذه اللغة المصرية القديمة

وأما شرائع المصريين فكانت مشهورة ومن هيئتها ومطالعتها يستدل دلالة قطعية على علو درجة تمدن هذه الامة القديمة وتمتعها تحت شرائعها وقوانينها وقال بعض علماء الافرنج ان مصر كانت منبع كل حكومة طيبة وذلك أن نكث العهد وحنث الايمان كان من أعظم الكبائر مبغوضا عند الآلهة وعند الناس وكان يعاقب على فعله بالموت واذا رأى انسان آخر يدافع عن نفسه قاتله لخلاص حياته ولم يساعده الرائي له على قاتله كان ذلك أيضا من أكبر الجرائم فلو كان الشاهد غير قادر على معاضدة المغلوب لزمه أن يقيم الدعوى على القاتل في المحاكم العدلية الادارية واذا قذف شخص في حق آخر بالكذب والبهتان صار عقابه كعقاب الواشي النمام وكان كل واحد من الامة مكلفا بأن يضع تحت يد الحكومة المحلية وثيقة كافية تامة الشروط تشتمل على طرائق تكسبه ومعاشه وكل من أخبر بأخبار كاذبة أو سار في طرائق غير شرعية حكم عليه بالقتل والقاتل عمدا يقاص بالقتل ولا تقتل المرأة الحامل الامن بعد أن تضع حملها ويقتل القاضي الذي يحكم على بريء بالموت والعسكري الذي يفر من وظيفته

أو لا يسمع أوامر حكامه كان يعاقب بأشد العقاب لا بالموت الا انه مع ما يحصل منه فيما بعد من حسن السير لا يتيسر له الحصول على عود ما كان فيه من الشرف قبل وكانوا يقطعون أيدى الذين يغشون النقود أو ينقصون الموازين أو المكاييل أو يكذبون فى أحوال البيع والشراء وكل رجل هتك حرمة امرأة حرة يعاقب بتشويه صورته وأما الزنا فكان يعاقب عليه الرجل بضربه ألف نبوت وجدع أنف المرأة وكانت تضبط أملاك الشخص على دينه لا الشخص نفسه ويبرأ الدين عن المدين اذا حلف أنه لم يكن طرفه شئ للدائن اذا لم يوجد صك أو كتابة وكان لا يسمح بزيادة أرباح المبلغ عن أصل رأسه

واستدل من قدماء مؤرخى مصر أن أول من حكم مصر الآلهة ثم أنصاف الآلهة أى الشجعان مدة تنيف عن عشرين ألف سنة ثم ان الآلهة وأنصاف الآلهة والناس خلف بعضهم بعضا ملوكا وحكاما فى مصر ولم يترك لنا منهم القسيس مانيطون الاثلاثين عائلة وكان مانيطون المذكور قسيسا كبيرا ورئيس دار الكتب والسجلات المقدسة فى مصر كتب تاريخا على مصر زعم أنه استخرجه من كتاب قدماء المؤرخين المصريين وكان تأليفه هذا التاريخ فى عصر بطليموس فيلادلفوس وبوصاية منه ثم ان تاريخ مصر المعروف يمتد متقهقرا الى ما بعد التاريخ المسيحى بمدة بعيدة جدا واختلف متأخرو المؤرخين فى مدة قدم هذا التاريخ فقال علماء الفرنساوية وعلى رأسهم ماريت بك الذى كان ناظر دار العجائب بمصر وأثبتوا على أن تشييد الحكومة الملوكية فى مصر كان فى سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد وقال آخرون مثل بوسن ان هذه الحادثة كانت فى سنة ٣٩٠٦ قبل الميلاد وأما علماء الانكليز فيقولون ان تشييد الحكومة الملوكية فى مصر كان فى سنة ٢٧٠٠ قبل الميلاد وهذا الرأى الاخير هو الذى اعتمدنا عليه فى هذا الكتاب وجعلناه أساسا للحوادث المصرية ووقائعها التاريخية

وكانت مصر فى العصور القديمة منقسمة الى عدة كور أو حكومات صغيرة مفصولة عن بعضها فابتلع القوى منها الضعيف على التدريج حتى آلت نتيجة هذا أخيرا الى تشييد ما يعرف فى التاريخ بالمملكة السلطانية وذلك انه قام مينس أى مصرايم بن حام فى سنة ٢٧٠٠ قبل الميلاد وشيد المملكة الاولى فى طنيس من أعمال صعيد مصر وأسس العائلة الاولى على حسب ماذكره القسيس مانيطون وتغلب على مصر السفلى وأصلح شأنها وبنى مدينة منف أو منفيس وكان عدة هذه العائلة ستة ملوك

وتنحصر مدة التاريخ القديم لمصر فى ٢١٥٨ سنة وتنقسم الى ثلاث مدد أو عصور أصلية فأما العصر الاول فانه يبتدئ من تشييد السلطنة المصرية بواسطة مينس أو مصرايم بن حام بن نوح فى سنة ١٨١٦ من تاريخ الخليقة أى من سنة ٢٧٠٠ قبل الميلاد وينتهى بانقراض هذه السلطنة بواسطة قمبيز اى كى لهراسب ملك فارس فى سنة ٣٤٧٩ من تاريخ الخليقة ومدة هذا العصر ١٦٦٣ سنة والعصر الثانى يشتمل على تاريخ مصر تحت سلطنة الفرس والجريق ويمتد الى موت اسكندر الاكبر الذى كان فى سنة ٣٦٨١ من تاريخ الخليقة وهذا العصر عبارة عن مدة قدرها ٢٠٢ سنة والعصر الثالث هو تشييد سلطنة جديدة فى مصر بواسطة بطليموس لاغوس الى حد موت كليوبطره آخر ملكة من الملوك المصرية فى سنة ٣٩٧٤ من تاريخ الخليقة ومدة هذا العصر ٢٩٣ سنة واتفق المؤرخون عموما على أن مينس كان أول الملوك المصرية وهو الذى شيد المملكة فى سنة ١٨١٦ من تاريخ الخليقة الموافقة لسنة ٢٧٠٠ قبل ميلاد المسيح وأنه هو مصرايم بن حام بن نوح

وذلك

وذلك أن عائلة نوح بعد أن أجهدوا أنفسهم وسعوا سعيا خارقا للعادة فى بناء صرح بابل ولم يتيسر الحصول لهم على طائل ولا نجاح وتبلبلت ألسنتهم تشتتوا على وجه الارض فذهب حام الى افريقية ولا ريب أنه صار الاها معبودا باسم أمون المشترى وكان له أربعة أولاد كوش ومصرايم وفوط وكنعان فأما كوش فانه استوطن الحبشة واستوطن مصرايم مصر وسميت باسمه وسكن فوط قسم افريقية الواقع فى الناحية الغربية من مصر واستوطن كنعان أرض كنعان المسماة باسمه فى نواحى فلسطين وكان مصرايم أول ملك فى مصر أسس عبادة الآلهة وقرب لها القربانات وكان هو المؤسس للعائلة الملوكية الاولى حسبما ذكره مانيطون وفتح مصر السفلى كما ذكرنا سابقا

وكانت العائلة الثالثة متسلطنة فى منف وكان ملوكها التسعة معاصرين لملوك العائلة الاولى فى مدينة الطينة بعد موت مينس أو مصرايم وكان أول هؤلاء الملوك نِخِروفيس فعلى ماقيل انه تغلب على نواحى ليبيا وكان آخر ملوك هذه العائلة سِيفُوريس وقيل وهو الصحيح انه أخضع قبائل بحيث جزيرة طورسينا

وكانت سلطنة العائلة الثانية والرابعة والخامسة فى وقت واحد فالعائلة الثانية فى مدينة الطينة فى مصر الوسطى والرابعة فى منف فى مصر السفلى والخامسة فى جزيرة الفيلة فوق الشلال الاول من صعيد مصر ومن هذه العائلات كانت العائلة المنفية أقوى شوكة وكان من عدم الامكان اتحاد ملوك العائلة الثانية مع ملوك العائلة الخامسة بسبب ما كان بينهما من الدماء وكان ملوك هذه العائلات متقلدين زمام سلطنتهم برخصة من ملوك منف

وكان تشييد العائلة الرابعة فى منف فى نحو سنة ٢٤٤٠ قبل الميلاد وملوك هذه العائلة ثمانية تركوا براهين سموهم ودلائل عظمهم وقدرتهم فى أبنية عديدة مصنوعة من الحجر مشحونة بها مصر الوسطى بين جبال ليبيا والنيل وأعظم هذه المبانى وأجلها الاهرام وكان المؤسس لهذه العائلة سوريس وهو الذى بنى الهرم البحرى فى قرية أبوصير على صخور وجد اسمه مكتوبا عليها وكان الملك الثانى صوفيس الاول أوخوفو وهو الذى لقبه هيرودوط بلقب خيونس وبنى هذا الملك الهرم الاكبر وساعده فى بنائه صوفيس الثانى أو نِخُوفُو وكان تسلطن بالاشتراك معه فى الحكومة وأحياد ولته مدة ثلاث سنوات وأوقع هذان الملكان الجور والظلم القاسى على الامة وهتكا حرمة الآلهة وأرغما الامة على أشغال شاقة تختص باشغالهما العمومية وقفلا الهياكل وعطلا عبادة الآلهة وقال هيرودوط ان المدة التى لبث فيها بناء الهرم الاكبر ثلاثون سنة وكان عدد الشغالين فيه ١٠٠٠٠٠ نفس يجرى تغييرهم بمثلهم كل ثلاثة شهور مرة وكان عزم الملك أن يجعله قبراله وكذا ينسب بعض المؤرخين أبا الهول الكبير الموجود فى الجيزة الى عمل هذه السلطنة ومن المحتمل أن منخريس الملك الرابع كان ابن صوفيس الاول وهذا الملك هو الذى بنى الهرم الثالث بسبب وجود تابوته فيه وكان الملك الخامس راطوزيس والسادس بِخوريس والسابع خِيَرخِيَريس والثامن طَمْفَثِيس وامتد حكم هذه العائلة ٢٢١ سنة

وفى مدة وجود العائلة الرابعة بلغت مصر الدرجة القصوى فى الحضارة والمدنية والتقدم فى الصنائع والاعمال وذلك أن قطع وحمل ونقل ورفع ووضع وتحكيم كتل الاحجار الضخمة فى محلها التى نجبها

الاهرام تثبت الدرجة العالية لدراية الامة المصرية بالعلوم الميكانيكية وعلوم جر الاثقال ومن وضع كل هرم موجهة سطوحه على حسب جهات الاربع نقط الاصلية لبيت الابرة يستدل على انه كان لهم دراية تامة بالعلوم الرياضية ويظهر من النقوش والكتابة الموجودة على الآثار أن الكتابة كانت أخذت عندهم حد الكمال وأنها كانت مستعملة عندهم من عصور قديمة وكذا كان قلم الغاب وحبر المداد مستعملين فى الكتابة المقدسة أى الهيروغليفية وكانوا يستعملون فى النقش على القبور الفرشة ذات اليد المصنوعة من الكتان أو من الحلفاء وأما رسم صور الانسان والحيوانات فكانت تعادل ماهى عليه الآن بل كانت أتقن من رسومات العصور الاخيرة وكان توجيه البضائع والتجارة بطرق كما هى عليه الآن كما صار وجود ذلك تحت سلطنة الملوك الرعمسيسية ومع كل هذا فالظاهر أن المصريين فى مدة بنائهم الاهرام ما كانوا خرجوا من حالة الهمجية والبربرية لانهم كانوا أمة أجهدوا أنفسهم فى تقدمات كبيرة وأشغال فى الصنائع مفيدة كان عليها مدار حياتهم ومعيشتهم الدنيوية وكانت المملكة مقسومة الى كور أو أقسام كل واحد منها محكوم بحاكم خاص به وكان كل من طائفتى القسس والحربية ممتازتين ومنوطتين باجراآت وأعمال مثل الجارية فى هذه الازمنة الاخيرة وان سوريس أول ملوك هذه العائلة تغلب على بحيث جزيرة طورسينا وأسكنها من المصريين بقصد تشغيلهم فى استخراج معدنى النحاس والفيروز الموجودين فى تلك الناحية

ووجد المعلم بالمير الانكليزى وكان مشتغلا بمسح بحيث جزيرة طورسينا فى سنة ١٨٦٨ وسنة ١٨٦٩ بعد الميلاد وفى وادى المغارة وفى مرابط الخادم نقوش كتابات على حجارة كثيرة من العائلة الثالثة الى العائلة الثامنة عشرة والعائلة العشرين ظهر له منها أن معادن هذه الجهة كانت من عهد طويل منبع محصول لمصر على الدوام

وتسلطنت العائلة السادسة فى منف بعد العائلة الرابعة فى نحو سنة ٢٢٢٠ قبل الميلاد واستمرت العائلة الثانية متسلطنة فى الطينة أو فى العرابة والعائلة الخامسة فى جزيرة الفيلة وفى هذا العهد قام عائلتان جديدتان وهما العائلة التاسعة والعائلة الحادية عشرة فى مدينة هيرا كليو بوليس أى فى اهناس المدينة من اقليم بنى سويف وفى طيوه وصارت مصر منقسمة الى خمسة ممالك وفقدت منف رفعتها وسيادتها وأخذت طيوه على التدريج فى زيادة الشوكة وعلو الدرجة فتولد من الضعف والتجزئة أن صارت البلاد صيد اللقبائل والعشائر الرحالة النزالة من نواحى سوريا وبلاد العرب فأغاروا على مصر من طريق برزخ السويس فى نحو سنة ٢٠٨٠ قبل الميلاد ويحتمل أن يكون أقل من ذلك وكان هؤلاء القبائل هم قبائل الهيكصوص أو ملوك الرعاة فنجحوا فى تغلبهم على مصر من ابتداء البحر الابيض المتوسط الى درجة عرض ٣٠ ٢٩ من الجهة الشمالية وحلوا فى تغلبهم كل طريقة مهولة وحركة فظيعة وذلك أنهم حرقوا المدائن وهدموا المعابد والهيا كل ودمروا الاراضى وقتلوا الذكور واسترقوا النساء والاطفال ومن ثم أقاموا شوكتهم ونشروا سلطتهم على جميع مصر السفلى وعلى قسم من مصر الوسطى وأسسوا عائلتين فكان هذا هو السبب فى تعاضدهما وكانت احداهما وهى الاولى أى العائلة الخامسة عشرة الهيكصوصية متسلطنة فى منف والاخرى وهى العائلة السادسة عشرة متسلطنة فى صا يص أو صا الحجر من أعمال الدلطه واستمر الباقى من أرض مصر تحت يد العائلات الوطنية فكانت العائلة التاسعة متسلطنة فى اهناس المدينة ومعها الفيوم ووادى النيل

من

من الجهة الجنوبية لدهرمو بوليس أو الاشمونين واستمرت العائلة الخامسة قابضة على زمام الصعيد الاعلى ومتسلطنة فى جزيرة الفيلة ثم نبغت مملكة جديدة من مدينة سخا من أعمال الدلطة فى وسط التقلبات الشديدة التى كانت حاصلة من الهيكصوص تحت قيادة العائلة الرابعة عشرة واستمرت مستقلة فى جميع مدة سلطنة ملوك الرعاة

وأخذت طيوة فى زيادة الشوكة والنجاح بسرعة تحت الحكم الشديد الذى كان جاريا من العائلة الثامنة عشرة وكان ملوك هذه العائلة ستة وملكة واحدة كانت آخر سلسلتها واستمرت سلطنتها المتحدة مدة ١٦٠ سنة وفى مدة حكم ملوكها صارت عائلتا اهناس المدينة وجزيرة الفيلة تابعتين لملوك طيوه ولو أنهما كانتا مستمرتين فى الاحكام وامتدت شوكتهم أيضا على عين شمس (المطرية) من تحت مدينة منف وتغلبوا على بحيث جزيرة طورسيناء وحاربوا العرب والحبش وبنى أمونهى وهو مَريس أومُوريس الثالث بربة فى الفيوم وكان هذا البناء المزخرف المتين يشمل ثلاثة آلاف قاعة منها ١٥٠٠ قاعة فوق الارض معدّة لدفن جثث الملوك ورمم التماسيح المقدسة وذكرهير ودوط أن السقف كان من أوله الى آخره مصنوعا من حجر مثل الحوائط والاسوار وكانت جميع الحوائط منقوشة بالتصاوير والاشارات وكان كل مجلس محيط بعمد مبنية من الحجر الابيض مجموعة مع بعضها بغاية الدقة والاحكام وحفر هذا الملك أيضا البركة المسماة باسمه فى الفيوم كما ذكرناها آنفا وشيد صيصُورْتاصن الاول عدة هياكل وأقام عدة مسلات وكان فن العمارات والصنائع يانعا مزهرا وحفروا الخلجان والترع لاجل رى الاراضى وأخذ صعيد مصر فى زيادة الشوكة والنجاح تبعا للظلم والجور والعسف الحاصل من ملوك الهيكصوص فى مصر السفلى

ثم ان العائلة الثالثة عشرة الطيوية ضيعت جميع ما كانت العائلة الثانية عشرة استحوذت عليه وذلك أن ملوك الرعاة أغاروا عليهم وطردوهم من مملكتهم وأرغموهم على الهرب والالتجاء فى نواحى الحبش ومن ثم تبوّأ الهيكصوص صعيد مصر ودمروا مبانى وآثار العائلة الثانية عشرة وامتدت شوكتهم على جميع مصر فى نحو سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد واستمرت سلطنتهم الى سنة ١٥٢٥ قبل الميلاد حتى رغب ملوك طيوة فى العود الى بلادهم وعادت لهم سلطنتهم وصاروا ملوكا خراجية للملوك الهيكصوص والظاهر أن ملوك العائلات الوطنية الاخرى كانوا فى مثل هذه الحالة وأن المدة التى كان موجودا فيها العائلتان السابعة والثامنة المنفية والعائلة العاشرة الاهناسية والعائلة السابعة عشرة الرعاة كانت على غاية من القتامة والظلام فى تاريخ المصريين ودمر الهيكصوص آثار أسلافهم من هذه العائلات ولم يتركوا شيأ يختص بهم فمن ثم لم نجد شيأ من التسجيلات الخاصة بذكر تواريخهم لانه فى ظرف الثلاثمائة سنة التى لبثها ملوك الهيكصوص فى مصر صارت أسماء ملوكهم معدومة بالكلية ومن المعتمد والمحقق أن يوسف وعائلة يعقوب عليهم السلام جاؤا مصر فى عصر سلطنة أحد ملوك العائلة السابعة عشرة الهيكصوصية كما ذكرنا ذلك فى التاريخ المقدس

ثم ابتدأت سلطنة العائلة الثامنة عشرة فى طيوة فى نحو سنة ١٥٢٥ قبل الميلاد وكان مؤسس هذه العائلة أَمَزِيس أوأَمِصْ أوعَهْمَص وعادت الى طيوة شوكتها مرة ثانية وطرد أمزيس ملوك الرعاة من

مصر وساق خلفهم حتى عبر وابرزخ السويس الى داخل آسيا ومن ثم خلصت المملكة من ظالميها الاغراب وصارت مصر مملكة ملوكية واحدة عاصمتها مدينة طيوة ودخلت مصر فى أحسن دور يانع من تاريخها واستمرت على هذه الحالة مدة سلطنة هذه العائلة والعائلة التاسعة عشرة والعائلة العشرين وفى غضون هذه المدة بلغت الصنائع المصرية الى أقصى درجات الكمال وكذا وصلت طيوة الى أقصى درجات الفخر والابهة وكان تشييدها كلها وسراياتها الملوكية المفتخرة ومسلاتها الشاهقة منسوبة لهذه المدة وأشعل ملوك هذه العائلة نيران حروب عدوانية اعتدائية وحملت الجيوش المظفرة المصرية على بلاد الحبش والعرب وسوريا حتى وصلوا الى ماوراء الفرات وكان أول ملوك العائلة الثامنة عشرة أموزيس فتسلطن ستا وعشرين سنة وروى أنه هو الذى أوقع الجور والظلم فى الابتداء على بنى اسرائيل واسترقهم واستعبدهم وحملهم مالاطاقة لهم به من الاشتغال بضرب الطوب اللازم لعمارة المبانى وصناعة المؤن واستخدمهم فى الغيطان والمزارع وكانت جميع الاشغال المضروبة عليهم جارية بغاية العنف والشدة

ومن بعد موت أموزيس خلفه ابنه البكرى أمونوفيس وقيل انه فى مدة سلطنته كان خروج بنى اسرائيل من مصر وغرق وقت عبوره خلفهم فى البحر الاحمر وكان يلقب أمونوفيس الاول وتسلطن احدى وعشرين سنة وتزوج برنسيسة من مدينة طيوة حبشية الدم كانت تلقب بالمرأة الشريفة العفيفة النفس وكان طوطمو يس الاول الملك الثالث ونال هذا الملك نصرات عظيمة على الحبش وأدخل كنعانى فلسطين تحت طاعته وحكمه والغالب أنهم كانوا سكان السهل الكبير الواقع بجانب شاطئ البحر الابيض المتوسط ومد فتوحاته الى أن عبر الفرات ودخل ميزو بوتامية (العراق) وتسلطن احدى وعشرين سنة ومن بعد موته صارت ابنته أمن سيط أو أميسيس وصية على أولاده الصغار ونائبة عنهم فى الحكم فحكمت سبع عشرة سنة وينسب لمدة سلطنتها المسلتان الكبيرتان اللتان لم تزل احداهما مركوزة لحد الآن فى وسط خرابات الكرنك وأطلاله وكانت سلطنتها زاهرة ناجحة وانتهت بموتها وخلفها أخوها طوطمو يس الثالث وكان عمره بضع سنين وأما طوطمو يس الثانى فانه مات وهو صغير وتسلطن طوطمو يس الثالث مدة تنيف عن أربعين سنة وأنشب حروبا على بلاد الحبش والعرب وسوريا وفى ميزو بوتامية الغربية (العراق) وشيد سرايات ظريفة وهيا كل عجيبة فى طيوه والكرنك والمطرية أى عين شمس وقفط وفى محلات أخر وأشرك معه ابنه أمونوفيس الثانى فى الحكم وكان هو الملك السادس مدة قليلة قبل موته ثم جلس على كرسى السلطنة من بعد وفاة أبيه

وكانت سلطنة أمونوفيس قصيرة خالية من الوقائع والحوادث وخلفه أخوه طوطمو يس الرابع وقال بعض المؤرخين انه هو الذى أمر بتشييد أبو الهول الكبير الموجود بالقرب من الاهرام ثم جلس بعده أمونوفيس الثالث ابنه وخليفته على التخت فى نحو سنة ١٤٠٠ قبل الميلاد وكان أعظم ملوك هذه العائلة وذلك انه ساق حروبات مظفرة على الليبيانيين والحبشيين وكان منهمكا فى تشييد العمارات واقامة الابنية والتماثيل وقيل ان التمثالين الكبيرين المعروف أحدهما باسم فوكال ممنون منسوبان لسلطنته وأمر أيضا بحفر برك وخزانات فى جميع أنحاء المملكة لاجل خزن المياه الكافية لرى الاراضى الزراعية واستمرت سلطنته نحوا من ست وثلاثين سنة وكانت مدة سلطنته مشحونة بارتباكات

وقلاقل داخلية حصلت من سعيه الخائب فى تغيير ديانة الامة ثم خلفه ابنه هوروس الوارث له شرعا الا أن مدته كانت فى شقاق ظاهر بين زعماء قاموا عليه والغالب أنهم كانوا اخوانه واخوته واستمر هذا الشقاق والخلاف جاريا نحوا من ثلاثين سنة حتى زادت الارتباكات واشتد هولها وأخيرا انتصر هوروس وتسلطن سبع سنين أخر ثم هلك وخلفه رى يسطوط وكانت قرابته له غير حقيقية وبه انقرضت العائلة فى نحو سنة ١٣٢٤ قبل الميلاد

وفى نفس هذه السنة أسس رعمسيس الاول العائلة التاسعة عشرة الطيوبية وكان من نسل وذرية الملكين الاولين من العائلة الثامنة عشرة الطيوبية أيضا فحكم أقل من سنتين وخلفه ابنه سيطى الملقب عند الجريق باسم سيزوستريس وما كان ملكا مهيبا شجاعا وأقوى الملوك المصرية شوكة فقط بل كان أيضا أعظم الفاتحين فى الدنيا القديمة وعلى حسب ما ذكره مؤرخو قدماء المصريين أن أباه ألهم بوحى أن يهذب ابنه ويربيه تربية الرجل الفاتح وأن يتبع فى طريق تربيته الشرف والسيادة والهمة العالية الملوكية وذكروا أن أباه أمونوفيس بعد ولادة ابنه سيزوستريس أمر بجمع جميع الاطفال الذين ولدوا فى يوم واحد مع ابنه وأن يرسلوا الى سرايته ومقر حكومته وأمر الملك بتربية هؤلاء الاطفال وتهذيبهم والاغداق عليهم والاعتناء بهم كأنهم جميعا من صلبه من غير امتياز أحدهم عن الآخر مع ابنه وهو كواحد منهم وقال الملك فى نفسه انه لا يمكنه أن يحصل لابنه على وزراء صادقين له فى خدمته ولا على ضباط فى جيشه أشد غيرة وأكثر حماسا من هؤلاء الذين يتربون ويتهذبون معه من الصغر ورتب لهم المربين ووظف لهم المعلمين حتى ترعرعوا جميعا وشبوا ووصلوا مبالغ الرجال وعودوهم على المشاق والمتاعب واقتناص الصيد وركوب الخيل والفروسية وكل ما يلزم من الادارات الداخلية والاجراآت الحربية

ولما تقدم سيزوستريس فى تهذيبه وتعليمه أرسله أبوه فى غزوة فى بلاد العرب لاجل نواله وتحصيله على معرفة طرائق قيادة الجيوش وسوقها والصبر على تحمل المشاق الحربية وآلام الجوع وشدة الظما والتعود على مثل هذه الاحوال فتغلب سيزوستريس على أمة لم يتغلب عليها أحد قبله وكان معه فى هذه الغزوة الشبان الذين تهذبوا معه وكانوا ملازمين له فى جميع حركاته ولما تعود فى هذه الغزوة على التعب والكد أرسله أبوه ثانية الى جهة الغرب لاجل تجربته فأغار على ليبيا وأخضع القسم الاكبر من تلك الاراضى الشاسعة ومات أبوه فى أثناء هذه الغزوة وتركه على حالة من الصلاح والوفاق لعمل أى مشروع من المشروعات كبيرا كان أو صغيرا فلما جلس سيزوستريس على تخت المملكة ورأى ما هو عليه من الشوكة والقوة عزم على فتح الدنيا والتغلب عليها الا أنه قبل أن يترك مملكته ظن أنه ربما يحصل فيها حاصل وقت غيبته فوطد داخلية بلاده وجلب لنفسه محبة رعيته وأغدق عليهم بكرمه وعدله وأفاض عليهم آلاءه ونعمه فامتزجت محبته بقلوبهم وأبدانهم وصار له عند ضباطه وعساكره محبة زائدة قلبية امتزجت بدمائهم وكان معهم كأنه واحد منهم مقاسم لكل واحد منهم فى آخر قطرة دم تقطر منه فى خدمته واستمر على هذه الحالة مفكرا فى نفسه أنه لا يمكنه أن يتم أى مشروع يشرع فيه الا اذا كان ضباطه وجيوشه ملاصقين له وقريبين منه ومرتبطين كل الارتباط معه بمحبة قلبية خالية من الغش والنفاق ممزوجة بالغيرة والحماس خالية عن الشقاق وعدم الوفاق وقسم المملكة الى ست وثلاثين كورة وعهدها الى أشخاص وأمراء من الذين يعتمد عليهم فى شدته ومحنته ويتحقق صداقتهم

وخلوص طويتهم ونيتهم

وفى غضون ذلك جهز قواه العسكرية وقادهم بأشجع الضباط وأشهرها سمعة وشهرة وكان معظمهم من الذين تربوا معه وكان عنده من هؤلاء الضباط ألف وسبعمائة ضابط كانوا على دراية تامة فى أداء ادارة حركة عساكر مع النظام الحبى القلبى والغيرة والحماس فى خدمة مليكهم وركب جيشه وشكله ونظمه فكان مقدار المشاة ٦٠٠٠٠٠ مقاتل والفرسان الخيالة ٢٤٠٠٠ فارس غير ٢٧٠٠٠ عربة من عربات الحرب وابتدأ سيزوستريس فى غزواته بالغارة على بلاد الحبش الواقعة فى الجهة الجنوبية من مصر وجعلها مملكة خراجية له وألزم الامة الحبشية أن ترسل له سنويا مقدارا محددا من الآبنوس والعاج والذهب

وكان سيزوستريس شرع فى عمل اسطول مؤلف من ٤٠٠ شراع ولما تم أمره بالسير والتقدم فى البحر الاحمر وتغلب على المدائن والجزائر الواقعة فى طول سواحل هذا البحر وسار الملك بنفسه فى رأس جيشه البرى الى آسيا فأخضع آسيا الغربية بسرعة عجيبة وسار الى الجهات الهندية حتى وصل الى جهات لم يصلها قبله هرقول ولا بخوس ولا اسكندر الاكبر من بعده وذلك أن سيزوستريس أخضع البلاد والاراضى الموجودة فى شرق نهر الكنج وسار حتى وصل البحر المحيط ثم ارتد على أعقابه بجيشه وتغلب على السيطين وهم من ذرية يأجوج حتى وصل الى نهر طامبس وكذا تغلب على أرمينية وقيدوسية وترك فى مملكة كولخوسية القديمة الكائنة فى الجهة الشرقية من البحر الاسود مستعمرة مصرية استمرت على عوائدها وطبائعها المصرية مدة طويلة من العصور وشاهدهير ودوط من بحر الى بحر ومن أرض الى أرض آثار مظفراته وانتصاراته وقرأ فى ممالك عديدة كتابة منقوشة بالحفر على عمد من البناء صورته (سيزوستريس ملك الملوك وسيد السادات) فتح هذه البلاد وأخضع العباد ودمر أهل الشقاق والعناد وأشفق على النساء والاولاد بقوة جيشه ومكنة سلطانه ووجد مثل هذه العمد فى نواحى تراسة من الممالك الشرقية لاوروبا (مقدونيا) وامتدت مملكته من نهر الكنج الى نهر الدانوب أو الطونة وفى غزواته هذه قاومه بعض الامم مقاومة شديدة خشية من ضياع حريتهم والبعض خضعوا له من غير ضرب ولا كفاح وجميع هذه الاحوال أمر سيزوستريس بكتابتها بالقلم الهيروغليفى أى المقدس على أعمدة وأبنية شيدها فى الممالك التى تغلب عليها تذكارا بنصراته وعلما ظاهرا على جليل اجرآته وما حواه المصريون من المكنة والسلطان والله المعز لمن يشاء والمذل لمن يشاء وهو القادر على كل شئ

ثم بعد ذلك عاد سيزوستريس الى مصر مثقلا بالغنائم التى ظفر بها من الامم التى تغلب عليها جارا خلفه عددا لا يحصى من الاسرى لابسا حلل المجد والفخر متوجا بتاج الظفر والنصر مشكورا فى أعماله بالالسنة والاقلام محبوبا عند الخاص والعام وكافأ ضباطه وعساكره بما يستحقونه من المكافآت الجزيلة والانعامات والمواهب الجليلة التى أفاضها عليهم كل بحسب درجته ورفعته وما استحق عليه فى وظيفته من أجل خدمته ثم عزم على أن يتم ما بقى من حياته فى الاعمال الواجبة عليه العائد منها النفع على رعاياه والتمتع بالحياة الطيبة بعد التعب والنصب واستتب فى مملكته العدل والراحة وكان ملوك الامم الذين تغلب على بلادهم يأتون لزيارته سنويا ويقدمون له ما يجب عليهم من الخضوع والطاعة فمن ثم رخص له السلم العام بأن يشيد أشغالا ويقيم أعمالا تعود منها الثروة والغنية على مصر

خاصة لانها أصل مسقط رأسه ومركز حواسه وتكون هذه الثروة زيادة على مافعله من تخليد ذكر اسمه فى الدنيا فشرع فى عدة أشغال صرف عليها الجم الغفير من مبالغ النقود تقدمت فيها الحرف والصنائع واكتسب أربابها ماأزال فقرهم وأسعد مجدهم وذلك أنه أنشأ هياكل ومعابد للآلهة فى كل مدينة ومثل التماثيل وأقام المسلات وأسبغ على رعاياه ماجعل اسمه مستحق الذكر عندهم أبد الآبدين وكان أعظم عمل صار تشغيله فى مدة سلطنته هو أنه بنى فى كل جهة من جهات مصر وعلى شواطئ نهر النيل عددا كثيرا من الارصفة العالية شيد عليها مدائن جديدة مرتفعة بكثير عن أرض المزارع حتى تقى الناس والحيوانات من زيادة ماء النيل وعلو الفيضان وأمر بحفر خلجان كبيرة من ابتداء مدينة منف الى حد ساحل البحر الابيض فى كل من جهتى شواطئ فروع النيل لاجل سهولة طرق سير التجارة وارسال البضائع والمحصولات ولاجل سهولة المواصلة بين المدن وبعضها وعاد على مصر من هذه الخلجان والترع خلاف منافع التجارة والمواصلة ورى الاراضى أن صارت موانع صناعية وموانع حربية لتوقيف وتعطيل فرسان الاعداء الذين يغيرون على مصر وحصن جميع الساحل الشرقى من ابتداء بلوزه (الفرما) لحد عين شمس (المطرية) باستحكامات وموانع صناعية لاجل حفظ مصر من غارات الامم المجاورة لها من العرب والسوريين وبنى المجلس الاكبر من مدينة الكرنك وبنى لنفسه أعظم مدفن بين المدافن الملوكية ولما كبر سنه وكف بصره مات بعد أن تسلطن ثلاثا وثلاثين سنة وترك مملكته على غاية من الغنية والثروة وكان قبل موته أشرك معه فى السلطنة ابنه رعمسيس الثانى الملقب بالاكبر ومن بعد موت أبيه صار ملكا فى نحو سنة ١٣١١ قبل الميلاد

وتسلطن رعمسيس الثانى ستاوثلاثين سنة وفى مدة سلطنته عصت الامم والممالك التى كان أبوه تغلب عليها فسار بالجيوش والعساكر وأخضع ليبيا وبلاد العرب وأخضع الحبشة وساق جيوشه الجرارة المنصورة الى آسيا وسار حتى وصل الى نهر الكنج وقمع البلاد والامم التى عصت على سلطنته ولم يضف أراضى زيادة على الاراضى التى كان أبوه تغلب عليها وعاد الى مصر مظفرا بتاج النصر ولم تزل آثاره موجودة على صخور فى نواحى عدلان بالقرب من صور وفى نواحى نهر الكلب بالقرب من بيروت من أعمال سوريا وحفر خليجا من النيل من فوق مدينة بسطة حتى أوصله الى البحر الاحمر وأوقف فى مصب هذا الخليج من جهة البحر الاحمر الاسطول الذى كان أبوه أنشأه ومقداره ٤٠٠ شراع وبنى الآثار الرعمسيسية فى طيوه وفى مدة سلطنته وصلت الحرف والصنائع الى أقصى الدرجات ومن بعد موته خلفه ابنه أمنفطس أومنفطه وعلى حسب الروايات التاريخية أن منفطه هذا كان فرعون خروج بنى اسرائيل ومدة سلطنته غير محققة ثم خلفه ابنه صيطوس الثانى أوصيطى وبه انقرضت العائلة فى نحو سنة ١٢١٩ قبل الميلاد

ثم قامت العائلة العشرون الطيوبية أيضا بواسطة رعمسيس الثالث وكان منهمكا فى العمارات وفاتحا وشجاعا عظيما شيد سراية فى مدينة آبو فى طيوة يستدل من كل عمود منها ومن كل باب ومن كل قاعة ومجلس على استعداد وذكاء هذا الملك وكسر غارة من الليبيانيين كانوا معاضدين فيها بالطوخاريين وهم قوم من الجزائر أومن السواحل الشمالية للبحر الابيض وأشعل واقعة بحرية مع أسطول هؤلاء القوم وساق حربا مظفرا فى اسيا وسار بجيشه حتى وصل ميزوبوتاميه (العراق) الغربية وكان له أربعة أولاد كل منهم اسمه رعمسيس توارثوا الملك بعده على التعاقب ثم جلس على التخت من بعدهم رعمسيس

الثامن فغير الحالة العمومية التى كانت ثابتة فى التاريخ المصرى فى المدة السابقة باشعاله نيران حروب مظفرة ثم جلس على الكرسى من بعده ستة ملوك أو سبعة كل منهم اسمه رعمسيس لبثوا فى السلطنة مدة قليلة من الزمن كانت خالية الحروب والوقائع ومن المحتمل أن انقراض هذه العائلة كان فى نحو سنة ١٠٨٥ قبل ميلاد المسيح

وكانت بلغت درجة ارتقاء المصريين فى الشوكة فى عصر سلطنة العائلة التاسعة عشرة الى أقصى درجات الكمال الا انه تحت حكم العائلة العشرين ضعفت الشوكة الحربية والمتانة أو الرصانة الداخلية وأخذ هبوط المملكة وسرعة اضمحلالها فى الزيادة وخرجت من تحت طاعة الحكومة المصرية فتوحاتها الآسياوية واحدة بعد أخرى وكذا الاراضى والبلاد الموجودة فى جنوب حدودها الطبيعية وفقدت مصر الاتحاد والارتباط الذى مكث مددا من العصور بينها وبين آسيا وكان هذا الاتحاد لازما لشوكتها وقوة منيعة لدولتها وصولتها ودخل فى لسانها بعض ألفاظ من لسان الامم المتولدة من ذرية سام بن نوح ودخل فى الهياكل والمعابد آلهة أخرى أجنبية وكان لا يمكن الوصول اليها ولا القرب منها فى المدة السابقة وفى مدة وجود هذا الاضمحلال العام ظهر سبب آخر تولد منه الضعف الشديد وذلك أن كبار قسس أمن فى طيوة كانت لهم هذه المرتبة أو الوظيفة وراثية من والد الى ولده فاجتهدوا وسعوا و بذلوا جهدهم فى أن يستولوا لانفسهم على ما استولى عليه فى الازمان المتأخرة ولاة السراى فى مدة الملوك المروانية ملوك فرانسا واستحوذ قسس أمن فى طيوه على جميع الوظائف العالية ديانية كانت أو سياسية أو عسكرية على التدريج وضيقوا على الحكومة الملوكية وطمعوا فى خلع الملك الموظف عليهم بحسب شرعهم المقدس ومن ثم عاد على مصر قصاص وعقاب ما طمح فيه فانمحوا العائلة الثامنة عشرة والعائلة التاسعة عشرة وصار يتساقط طل وندى الاضمحلال والهبوط الداخلى على صلاح الامة وفوزها مدة وجود العائلة العشرين وقامت شوكة القسس وسلطة سيادتهم وصار لهم الكلمة النافذة على كل طائفة من طوائف المملكة من القاصى الى الدانى وكانت هذه حالة منحوسة وعاقبة مشؤمة على تشتت الافكار وتسلطن البلبال وهبوط التقدم وعود الامة بالشدة والعنف الى الهيئات القديمة الديانية وانطفاء رونق العمارات وتجرع الامة غصص الآفات وزالت بهجة المملكة واندثر تشييد العمائر وتركت دراسة الطبيعيات وصارت المملكة فى حالة رق وعبودية مثل الازمان القديمة وكان قصد حزب القسس فى ذلك استمرار جميع الاشياء فى حد محدود ثابت لا يحصل فيه تغيير ولا يقع فيه تبديل ومن هنا ما صار تحديد حدود التقدم الى درجة أو نقطة معلومة آل أمر المملكة الى العجز والشيخوخة وضعف حالها وصارت الملوك الاخيرة من العائلة العشرين ألعوبة فى أيدى القسس

وفى سنة ١٠٨٥ قبل الميلاد وقت انقراض هذه العائلة قامت سلطنة العائلة الحادية والعشرين التنيسية فى مدينة صان من أعمال الدلتا ولقب ملوكها أنفسهم برؤساء أو كبار قسس أمن وتزيوا بزى القسس واستقر سلطانهم فى صعيد مصر ومصر الوسطى والسفلى الا أنهم ما أقاموا سلطانهم من غير حرب ولا ضرب وكانت سلطنة هذه العائلة الحادية والعشرين محصورة فى سبع ملوك وكانت مدة سلطنتهم لا معنى لها فى الباطن والظاهر وفيها عصت الحبشة واستقلت بنفسها من مصر وضاع من مصر جميع فتوحاتها فى آسيا وقامت السلطنة العالية لبنى اسرائيل تحت ملوكية داود وشكل داود

سلطنته من البلاد التى كانت خاضعة لحكم مصر وزوج أحد ملوك تنيس والمحتمل أنه منفطة أو اوصوخور بنته لسليمان بن داود عليهما السلام فكان هذا دليلا قطعيا على أن هذه العائلة كانت تركت كل ما كانت ترجوه من عود شوكتها القديمة فى آسيا وفى نفس هذا الوقت أخذت أشور ألد الأعداء لمصر فى الشوكة والتقدم بسرعة حتى صارت مملكة قوية خلف نهر الفرات

الباب الثانى

﴿من ابتداء العائلة الثانية والعشرين الى انقراض حكومة الفرس بمصر﴾

العائلة الثانية والعشرون ـ احياء السلطنة ـ وجود عاصمة المملكة فى مدينة بسطة ـ العائلة الثالثة والعشرون ـ نقل هذه العائلة عاصمة المملكة الى صايص (أى صا الحجر) ـ مصر وأشوريا عند الحرب ـ واقعة رافية ـ غلبة سرغون على الدلتا ـ نكث مصر طاعة الاشوريين وخضوعها ثانية ـ تضعضع شوكة الامة واضمحلالها ـ عود استقلالية مصر بواسطة بصاميطيقوس الاول ـ اختلال طائفة الحربية ـ اشعال نخو الحرب على بابل وهزيمته بواسطة بختنصر ـ تقدم التجارة المصرية ـ تغلب بابل على مصر ـ عود استقلالية المملكة ثانيا بواسطة أموزيس ـ فتوحاته ـ تغلب قمبيز أوكى لهراسب على مصر ـ جوره وتعديه ـ صيرورة مصر اقليما فارسيا ـ عصيان مصر على فارس ـ عقاب أوخوص ملك فارس مصر بسبب عصيانها ومقاصة زعماء الثورة

كان بصوصينيس الثانى أى بشام الثانى هو آخر ملوك العائلة الحادية والعشرين فى سنة ٩٩٣ قبل الميلاد ثم جاء من بعد هذه العائلة العائلة الثانية والعشرون وكان شيشاق الاول أو شيشوق زوج بنت بشام هو المؤسس لهذه العائلة وقال بعض المؤرخين ان هذا الملك كان حفيد بشام الثانى واختاره ليكون وارثا له ومع انه كان فى وظيفة القس الاكبر لا من غيراً نه ما كان فى هذا الملك رائحة القسوسية فأقام عاصمة مملكته فى مدينة بسطة من أعمال الدلتا وهرب اليه يربعام فأمنه على نفسه وكان يربعام المذكور هرب من سليمان ملك اسرائيل بسبب ما ظهر عليه من الخيانة والدسائس التى كانت حاصلة منه وسعيه فى تجزئة العبرانيين الى عدة ملوك وحكومات وقطن يربعام مصر ولم يعد الى أورشليم الا من بعد موت سليمان وعند عوده جعل نفسه قائدا لثورة من العصاة وأخذ من رحبعام بن سليمان عشرة أسباط وجعل نفسه ملكا عليهم

وفى السنة الخامسة من سلطنة شيشاق سار شيشاق بجيشه على أورشليم بسبب اكتساب اليهود الخطايا وارتكابهم الموبقات عند الههم وكان جيشه مركبا من ١٢٠٠ عربة حربية و ٦٠٠٠٠ فارس وجلب معهم من العالم ما لا يحصى عددا وكان جميعهم من الليبيانيين والطروغلوريطيين والحبشيين وتغلب على جميع المدائن الحصينة من مملكة يهوذا وسار حتى قرب من مدينة أورشليم فخضع ملك اسرائيل وأمراؤه ووجوه قومه لله سبحانه وتعالى وتضرعوا اليه بالدعاء فى حفظهم وسلامتهم من شيشاق فوعدهم الله على لسان نبى من أنبيائهم بسبب توبتهم ورجوعهم عما هم فيه من الآثام أنه لا يمحقهم ولا يبيدهم حسبما يستحقون الا انه يلزم أن يجعلهم عبيدا لشيشاق حتى يعرفوا الفرق بين طاعتهم له

وطاعتهم لواحد من عبيده وعاد شيشاق من أورشليم بعد أن نهب خزائن بيت المقدس وخزائن بيت الملك وحمل كل شيء معه حتى انه أخذ ٣٠٠ طارقة حربية مصنوعة من الذهب كان صنعها سليمان عليه السلام فى مدة حياته

وبلغت السلطنة المصرية فى مدة سلطنة شيشاق الى حياة جديدة وعادت لها صفتها الحربية وهيئتها العسكرية وجعلها شيشاق مملكة قوية الشوكة سامية السيادة ولما أقام ربعام مملكة اسرائيل الجديدة دخل شيشاق معه فى معاهدة ومن بعد أن جعل يهوذا خراجية له مات فى سنة ٩٧٢ قبل الميلاد ثم خلفه ابنه أوصورخون الاول وكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة خالية من الوقائع والحوادث ثم خلفه ابنه بيهور فى سنة ٩٥٧ قبل الميلاد ومابقى من ملوك هذه العائلة كانوا ملوكا لامعنى لهم فى ذاتهم وانقرضت سلطنة هذه العائلة الثانية والعشرين فى سنة ٨٤٧ قبل الميلاد وخلفها العائلة الثالثة والعشرون وكان ملوكها أربعة وكانت مدة سلطنتهم خالية الوقائع والحوادث ومقرّ هذه العائلة كان مدينة تنيس من أعمال الدلتا

وانقضت مدة العائلة الثالثة والعشرين فى مصر فى منازعات وثوران وتجزأت المملكة بين عدة عائلات مختلفة وازدادت الارتباكات والقلاقل ولم يحصل الفصل فى حالة هذه الاعمال الخطرة حتى جلست العائلة الرابعة والعشرون الصاوية وكان مقرها فى صا الحجر فى سنة ٧٥٨ قبل الميلاد وكانت هذه العائلة عبارة عن ملك واحد لقبه كل من مانيطون وهيرودوط باسم بخوريس فنقل العاصمة من مدينة تنيس الى صا الحجر وفى مدة السلطنة المتقدمة دخل ذراح ملك الحبش فى يهوذا وأشعل حربا على أسا ملك يهوذا وكان جيشه مركبا من مليون نفس وثلاثمائة عربة حربية فسار أسا لملاقاته ونظم جيشه صفوفا للحرب على بركة الله معبوده فقال الله له لا احتياج للمساعدة ولا خوف من كثرة العدد اذ لا قوة ولا حول لهذا العدد فدعا أسا وقال اللهم المساعدة يا الله يا الهنا أنت الهنا واله آبائنا عليك توكلنا وبك نستعين على هلاك هذا العدو المبين فانصرنا يا خير الناصرين يا الله أنت الهنا لا تدعنا المخلوق يغضك ولا العدو يكرهك وصار أسا يدعو ويتضرع الى الله بخشوع من قلب حزين ولسان مهين فأنزل الله سبحانه وتعالى فى قلوب الحبشيين الروع والخوف وأوقع فيهم الهول والفزع وفروا هاربين ومن خلفهم بنو اسرائيل معقبين وهزمهم الله شر هزيمة بما ارتكبوا من هذه الجريمة وفى سنة ٧٣٠ قبل الميلاد دخل صباخو ملك الحبش مصر فى رأس جيش كثيف ودمر سلطنة بوخوريس وقتله وتغلب على مصر وأسس العائلة الخامسة والعشرين السودانية وصباخو الاول هذا هو المعروف فى التوراة باسم صوأوصوع ودخل فى معاهدة مع هوشيا ملك اسرائيل وكان هوشيا عصى على أشوريا فتولد من هذه المعاهدة عداوة ملوك آسيا فهزمه سرغون فى واقعة رافية فى سنة ٧١٨ قبل الميلاد وقامت سيادة الاشوريين فى الدلتا وتقهقر الحبشيون فى داخل حدود صعيد مصر ثم جلس صباخو الثانى على التخت فى نحو سنة ٧٠٤ قبل الميلاد والظاهر أن الاشوريين كانوا قسموا الدلتا الى أقسام صغيرة ووظفوا فى كل قسم منها ملكا وجعلوها خراجية لهم وما كان القصد من أعمالهم هذه الا وقوع الضعف والعجز فى الشوكة المصرية على الدوام بتجزئة جهاتها بما بذلوا فيه جهدهم

وامتدت سلطنة صباخو الثانى الى سنة ٦٩٠ قبل الميلاد حتى خلفه أكبر ملوك الحبش فى مصر وهو

طهراق

طهراق ويسميه أهل التوراة طراقة وأما الجريق فيسمونه طرخون وفى سنة ٦٦٩ قبل الميلاد أغار اصرحدون ملك الاشوريين على المملكة المصرية وتغلب عليها حتى وصل الشلال الاول وقسم مصر الى عشرين مملكة صغيرة خراجية لمملكة أشوريا وفى السنة التى جاءت بعدها انتهز طراقة الفرصة وقت ما حصل لاصرحدون المرض القاتل وتغلب على جميع وادى النيل مرة ثانية وساعده قسس الآلهة فى كل ناحية من نواحى المملكة لانه كان السبب فى عود ديانة الامة على ما كانت عليه وأخرج ملوك الدلتا من مدائنهم وشيد سلطنته فى هذا الاقليم وفى غضون ذلك دخل أشور بانيبال وكان خلف أباه على ملك أشوريا فى مصر فى راس جيش جرار كثيف لاجل استرداد شوكته فقاومه طراقة مقاومة شديدة مدة سنتين وأخيرا انهزم هزيمة فاصلة وانجبر على القهقرة خلف الشلالات وترك كامل مصر فى حوزة الاشوريين مرة ثانية فقسموا المملكة الى ممالك صغيرة خراجية لهم واستمرت المملكة فى مصائب وأهوال من ابتداء الوقت الذى جلست فيه العائلة الثانية والعشرون وأدخلوا الاغراب معهم فى خدمتهم بالاجرة فى الجيوش المصرية وصار لاهمة للعساكر فى حركاتهم واختل نظامهم وتكاسلوا عما استخدمهم فيه ملوكهم وخلت من الجند حاسة التيقظ لحب الوطن ومن ثم صار العساكر والجند غير صالحين لمقاومة الاشوريين وانضاف الى هذا ضعف شوكة الامة ضعفا زائدا لما تسلطنت عليها شوكة الاغراب من سنين مضت وبهذه الاسباب صار من السهل للاشوريين توطيد سلطنتهم واستمرار سيادتهم فى مصر

ومن ضمن العمال الذين أقامهم الاشوريون على الممالك الصغيرة المصرية رجل اسمه نخو ثم خلفه ابنه بعد موته وكان ابنه هذا مشتركا معه فى الاحكام حال توظفه بواسطة أشور بانيبال وكان ابنه هذا هو بصاميطيقوس الاول فمكث عدة سنين وهو أحد العمال الصغيرة فى مصر وأخيرا انتهز الفرصة عند تضعضع المملكة الاشورية ونكث بيعة طاعته لهذه المملكة فى نحو سنة ٦٣٢ قبل الميلاد ومن بعد أن أخذ نار مقاومات معاندية ومضادية من العمال الاخر جعل نفسه ملكا على جميع المملكة المصرية وجلس على الكرسى وكان أول ملوك العائلة السادسة والعشرين الصاوية وكان مقرها فى صا الحجر ومن هذا الوقت انتقلت مصر تحت سلطنة الملوك الوطنية المصرية مرة ثانية بعد أن مضى عليها قرن تحت نأف المملكة الاشورية

وقيل ان عساكر بصاميطيقوس كانت مركبة من اليونانيين وغيرهم بالاجرة وبهم استحوذ على مملكة مصر فأغدق على هؤلاء العساكر بانعاماته وأقبل عليهم بكلياته وكان يجلس كبراءهم عن يمينه فتولد من ذلك بغضه عند الطائفة الحربية المصرية حتى ان كثيرا منهم ترك الديار وتوجه الى بلاد الحبش وقيل ان عدد الحربيين الذين تركوا الديار ٢٠٠٠٠٠ نفس فهددهم بصاميطيقوس وتوعدهم ان لم يرجعوا لوطنهم وديارهم فاستحسنوا لانفسهم الاقامة فى الجهات الحبشية وكان بصاميطيقوس ملكا ماهرا فاضلا أحيا العلوم والفنون فى مدته وشيد أشغالا عديدة فى المملكة وشرع فى فتح فلسطين وسوريا والتغلب عليهما الا أنه تعطل فى سيره بواسطة مقاومة مدينة أشدود الفلسطينية له فقاومته هذه المدينة أشد المقاومة فحاصرها وشدد عليها وكابدت مشاق حصاره واستمر بصاميطيقوس محاصرا لها تسعا وعشرين سنة حتى فتحها وأبلى سوريا وفلسطين بحروب شديدة استمرت عليها حتى انهما ما رأت مثلهما من عهد تغلب الاشوريين عليها وكانت مدينة اشدود احدى المدائن الحصينة الفلسطينية

القديمة جدا وكان المصريون لما تغلب عليها فى العهد القديم حصنوها تحصينا زائدا حتى صارت معقلا رصينا لهم فى تلك الجهة وما قدر الاشوريون على الدخول فى مصر قبل ذلك حتى تغلبوا على هذه المدينة بكل مشقة وصارت تحت حوزة الاشوريين حتى أعادها بصاميطيقوس منهم

وفى أثناء هذه المدة ترك السيطيون سواحل بالوس ميوطيس وأغاروا على ميديا وهزموا ملك تلك المملكة وهو كيكاؤس الملك وأخذوا منه جميع آسيا العليا واستمرت فى حوزتهم ثمانيا وعشرين سنة ثم تجولوا فى غلبتهم الى داخل سوريا حتى وصلوا الى الحدود المصرية وسار بصاميطيقوس لمقابلتهم فارتاعوا ووقع الرعب فى قلوبهم وما اجترؤا على التقدم الى مصر وبهذه الوسيلة خلص مملكته من هؤلاء الاعداء المتبربرين

وقال هيرودوط انه لحد سلطنته كان المصريون يتوهمون فى أنفسهم أنهم أقدم أمة على وجه الارض فرغب بصاميطيقوس أن يثبت لنفسه هذا البرهان فأمر بأخذ طفلين من المواليد الجديدة من أولاد العائلات الفقيرة فى المملكة وأن يوضعا فى خص يقفل عليهما على الدوام وعهد تربيتهما الى راع من رعاة الاغنام وأن تكون تربيتهما على لبن المعز وأمر بعدم دخول أحد فى هذا الخص حتى هو نفسه لا يتكلم بأدنى كلمة مع هذين الطفلين وقيل انه عهد رضاعهما الى مرضعتين قطع لسانهما فصارا لا يتكلمان ومن بعد مضى سنتين دخل الراعى يوما من الايام حسب عادته لاجل أن يعطى الغذاء اللازم للطفلين فى الخص فصرخ الطفلان بصوت عال ومدا أيديهما نحو أبيهما المرضع لهما وقالا بيكوس بيكوس فاستغرب الراعى من كونه سمع لغة جديدة ولسانا ما سمعه قط ولما سمعه منهما مرارا أرسل مخبرا بهذه الحالة الى الملك فأمر الملك بجلب الطفلين عنده حتى يرى صحة ما أخبر به ولما ابتدأ الطفلان بالتلفظ بلفظتى بيكوس تحقق أن الامة فى قديم الزمان كانت تستعمل هذه اللفظة ومعناها خبز أو عيش ومن ابتداء هذا الوقت رخص فى الاحترام والاكرام للاشياء القديمة جدا وكان المصريون يرغبون من قديم الزمان فى تقديسها واحترامها وكان المصريون على رغبة وحمية من قديم الزمان فى استحواذهم على هذا الفخر الذى تركوه رغم أنفهم من مدة طويلة وكان بصاميطيقوس محبا للتجارة أيضا وبذل جل سعيه فى ربط علاقات ومعاملات بين المصريين والامم الغريبة الاجنبية ونشر اللسان الجريقى فى مملكته وحث على تعلمه وكانت عساكره وحكامه غالبها من الجريق ومن بعد موته خلفه ابنه نيخوفى نحو سنة ٦١٠ قبل الميلاد

وفى نفس هذا الوقت سقطت مملكة الاشوريين وقامت مملكة بابل وكانت قويت شوكتها وعظمت سلطنتها تحت رياسة بختنصر وظهر أن وقوع الاختلاف بين سلطنة بابل ومصر لابد من حصوله وما أسرع وقوعه وذلك أن نيخو استمر فى الحرب الذى كان أبوه شرع فيه من أجل التغلب على فلسطين فهزم يوشيا ملك يهوذا فى نواحى مجدو وجعل نفسه ملك سوريا الى حدود نهر الفرات وجعل مملكة يهوذا خراجية له ولما تقدم الى قرشميش على شطوط الفرات تقابل مع الجيش البابلى تحت قيادة (بختنصر) فهزمه بختنصر شر هزيمة والتزم العود الى مصر فى سنة ٦٠٤ قبل الميلاد

وقال هيرودوط ان البابليين والميديين لما دمروا مملكة نينوى وهبطت مملكة الاشوريين وتقوت

مملكة .

مملكة بابل على ما جاورها من الامم فارتاع نخو من هذا الخطر وتقدم الى نهر الفرات فى رأس جيش جرار بقصد صد تقدمات هذه المملكة وكان يوشيا ملك يهوذا رقيق القلب مشهورا بالصلاح فلما رأى أن نخو لابد له من أن يمر فى طريقه من وسط مملكة يهوذا صمم على مقاومة مروره وعدم سيره ولهذا جمع جميع قوى مملكته وعسكر فى وادى مجدو وهى مدينة على نهر الاردن من أعمال سبط منشا فأرسل له نخو رسولا سلميا ينصحه ويخبره أنه لم يكن قاصدا بعثره وعه هذا ضررا له بل له عدو آخر يريد مقابلته وأن شروعه فى هذا الحرب بأمر من عند الله تعالى وهو معه وبهذا نصح نخو يوشيا فى أن لا يدخل نفسه فى هذا الحرب خشية من أن يحل بما يعود عليه بالضرر وعدم الفائدة ومع ذلك لم يتحرك يوشيا من مكانه وأحس بان سير مثل هذا الجيش الجرار من أرض يهوذا ربما يخربها ويدمرها وخشى أيضا من أن هذا المنصور ربما بعد هزيمة البابليين يسقط عليه ويأخذ منه مملكته فسار يوشيا ودخل مع نخو فى حرب شديدة فانهزمت عساكر يوشيا وجرح هو جرحا بليغا مات منه بعد أن أوصلوه الى أورشليم

ولما تهلل وجه نخو بهذه النصرة استمر فى سيره وتقدم الى الفرات وأوقع هزيمة على البابليين وتغلب على قرشميش وهى مدينة واسعة فى تلك المملكة ووطد نخو هذه المدينة لنفسه بأن وضع فيها قوة من المحافظين وعاد الى مملكته بعد أن غاب عنها ثلاثة شهور ولما علم يهوآحاز بسفره الى مملكته أعلن لنفسه بانه ملك أورشليم من غير أن يستشير مع نخو فى مثل هذا الامر فأرسل له نخو رسولا يأمره بمقابلته فى قرية ربلاح من أعمال سوريا وبمجرد ما وصل هذا الملك الشقى الى هذه الجهة خلعه نخو من ملوكيته وأرسله أسيرا الى مصر وأقام فيها حتى هلك ومن هذه الجهة سار نخو حتى وصل أورشليم وأجلس يهوياقيم ابنا آخر ليوشيا على التخت فى قاعة أخيه وضرب عليه خراجا يدفعه له سنويا ومقداره مائة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب ولما تم لنخو ذلك عاد مظفرا الى مصر

ولما رأى ملك بابل أنه من وقت غلبة نخو على قرشميش خرجت من تحت يده طاعة سوريا وفلسطين وأن شيخوخته وضعفه بالنسبة لكبر سنه لا يجوز له السير بنفسه ضد هؤلاء العصاة أشرك ابنه بختنصر معه فى المملكة وأرسله فى رأس جيش قوى الى تلك الاراضى والبلاد فغلب هذا الامير الشاب على جيش نخو بالقرب من نهر الفرات واسترد قرشميش وأخضع الأقاليم العاصية الى طاعته كما أنبأ بذلك النبى أرمياء عليه السلام وبهذا جرد المصريين من كل ما كانوا يملكونه من ابتداء حدود مصر من فلسطين الى نهر الفرات وذلك هو سوريا وفلسطين

وفى مدة سلطنة نخو تقدمت التجارة المصرية تقدما زائدا وكثرت الاغراب فى مصر ونبغ فى المملكة طائفة جديدة سموها طائفة المترجمين وبواسطة هذه الطائفة صارت المعاملة بين المصريين والامم الغريبة سهلة جدا وشرع نخو فى أن يعيد فتح الخليج القديم من نهر النيل الى البحر الاحمر الذى كان حفره رمسيس الثانى كما تقدم الكلام عليه سابقا وكانت المسافة بينهما ١٠٠٠ استادية وبما أن كل استادية ٢٢٥ قدم (أو ١٢٥ خطوة جغرافية) فيكون طول الخليج ١١٨ ميلا وثلث ميل انكليزى وبعد أن هلك فى حفر هذا الخليج ١٢٠ ألف نفس من الشغالة اجبر نخو على تركه بعد أن أخبره الوحى الذى استشاره نخو بقوله له ان هذا الخليج الجديد يكون فتحه طريقا للمتبربرين الذين يغيرون على مصر وكانت كل أمة عند المصريين فى الزمن القديم متبربرة أو همجية ثم شرع

فى مشروع آخر وذلك أنه أمر بانشاء مركب وجعل ملاحيها من الذين لهم دراية تامة بعلم الملاحة من الفينيقيين وأمرهم بكشف ساحل قارة افريقية من طريق البحر فسافروا من رأس البحر الاحمر وعادوا من ناحية عمود هرقول (بوغاز جبل طارق) فى البحر الابيض المتوسط ولبثوا فى سياحتهم ثلاث سنوات وجاؤا معهم بفوائد تجارية وكانت هذه السفرة من الاسفار الخارقة للعادة فى عصر ما كان فيه بوصلة الابرة أو بيت الابرة معلوما وكان قبل واسكودوجه البورتكيزى الذى كشف رأس غشم الخير فى سنة ١٤٩٧ بعد الميلاد بنحو أحد وعشرين قرنا وكان واسكودوجه تابعا فى سيره الطريق التى جاء منها الفينيقيون الى البحر الابيض حال سفره الى النواحى الهندية

ومات نخو بعد أن تسلطن ست عشرة سنة وخلفه ابنه بصاميس أو بصامطيق الثانى فى سنة ٥٨٨ قبل الميلاد وكانت مدة سلطنته ست سنوات لم يترك لنا التاريخ تذكارا يختص باحوال هذا الملك سوى أنه أجرى غزوة واحدة على الحبش وخلفه ابنه عوفريس ويسميه هيرودوط عفريس أو الفرعون حفرة فامتدت سلطنته تسع عشرة سنة وقال آخرون خمسا وعشرين سنة وكان فى مدة الخمس سنوات الاولى من سلطنته سعيدا موفقا فى كل مشروع شرع فيه ووجه جيوشه على جزيرة قبرص وتغلب عليها وحاصر مدينة صيدا براو بحرا وتغلب عليها وجعل نفسه ملكا على كل من فينيقية وفلسطين

ومن بعد جلوس (حفرة) على التخت بقليل أرسل له صدقيا ملك يهوذا سفيرا من طرفه وعقد معه معاهدة وفى السنة التى جاءت بعد نكث صدقيا عهد بيعته لملك بابل وعصى عليه مجاهرة واغتر صدقيا بمعاهدته مع فرعون مصر ولم يلتفت لما وعظه به النبى أشعياء عليه السلام من عدم تداخله مع الامة المصرية بأى حالة كانت وسار بختنصر بجيوشه قاصدا مصر وردّ أمامه (حفرة) على أعقابه حتى دخل بلاده ونال من مصر مظفرات قليلة وكان ذلك فى سنة ٥٨١ ثم أغار بختنصر على المملكة ثانية فى سنة ٥٧٠ قبل الميلاد وأخضعها الطاعته وخلع (حفرة) ووضع على التخت ملكا جديدا اسمه أموزيس خراجيا المملكة بابل فى سنة ٥٦٩ قبل الميلاد وتسلطن أموزيس أربعا وأربعين سنة قابضا زمام مملكته فى الاول تابعا المملكة بابل ثم زادت نفوذه وعلا سودده وسلطانه بواسطة تزوجه نيطوخريس أخت سلفه ولما أخذت مظفرات بختنصر فى الضعف والاضمحلال نكث بيعة طاعته لبابل وجعل نفسه مستقلا وحلى عاصمته صابص أو صا الحجر بابنية عظيمة فاخرة وشوهدت آثار سلطنته فى جميع أقسام المملكة وزرع العلاقات الودية مع قبرص ومع الاقاليم اليونانية الاخرى وقوى تجار الجريق على الاقامة بمصر والتوطن فيها ثم تغلب على قبرص وجعلها خراجية له ولما ارتاع وخشى من تقدم دولة الفرس وكان الفرس تغلبوا على ميديا وبابل عقد محالفة مع قرصوص ملك ليديا ومع بوليقراط صاحب ساموس مؤملا فى ذلك مقاومته تقدم هذه الامة الفاتحة وكان أموزيس يميل بكليته الى الجريق ومنحهم امتيازات عريضة وصرح لكثير منهم حسب رغبتهم بالاقامة فى مدينة نواقراطيس المشهورة بمينتها البحرية وعقد محالفة مع الصيرنيقيين وتزوج بزوجة منهم وفى مدة سلطنة أموزيس دخل فيثاغورس الفيلسوف اليونانى مصر وكان حضوره فى مصر بوصاية من طرف الطاغى بوليقراط صاحب ساموس وكان أموزيس عقد معه صدق المحبة وحسن العشرة وما أجراه أموزيس من المعاهدات والتحفظات لم يفده فائدة يعود منها النفع على الامة

المصرية

المصريه ومات فى سنة ٥٢٥ قبل الميلاد وخلفه ابنه بصامطيق الثالث وجعل مدينة منف عاصمته وفى نفس هذه السنة أغار ملك الفرس قبيز أى كى لهراسب بن كيرش أى كيخسرو على مصر فى رأس جيش قوى جمعه من جميع جهات ممالكه فاجتهد بصامطيق فى ردّه على أعقابه فى واقعة شديدة حصلت بينهما بالقرب من مدينة بلوزه (الفرما) فانهزم بصامطيق والتزم أن يحافظ على نفسه فى منف فهجم كى لهراسب على المدينة وتغلب عليها عنوة وأخذ الملك أسيرا بعد أن تسلطن ستة أشهر فقط ثم أمر قبيز أو كى لهراسب بقتله فى هذه السنة بسبب ريبة حصلت له من كونه سيبذل جهده فى خلاص وعود سلطانه مرة أخرى وبه انقرض الملوك المصريه بعد مدة قدرها ألف سنة

وما تقدم جميعه هو العصر الاول من العصور الثلاثة ومقداره ١٦٦٣ سنة

ولبث كى لهراسب فى مصر أقل من ثلاث سنوات يجرى فيها أعماله القبيحة وأوامره الفظيعة حتى دمرها وصارت الامة المصريه لا تنسى غاراته وقطائع حروباته وصار المصريون من ابتداء هذا الوقت فى كراهة ونفور ودسائس وثورات على الفرس ملوكهم وصارت مصر على الدوام متشوشة البال حاملة للقلاقل والاهوال من بين الاقاليم الفارسية وقطعت امال مساعيها من عودها الى استقلاليتها مرة أخرى

وفى مدة القرن الخامس جميعه تقريبا قبل الميلاد استمرت مصر اقليما من المملكة الفارسية العجمية وتمتعت مصر فى مدة قليلة قدرها خمس سنوات أى من سنة ٤٦٠ الى سنة ٤٥٥ قبل الميلاد بدرجة استقلاليتها نوعا تحت حكم وسلطنة العائلة الثامنة والعشرين الصاويه أى التى مقرها كان فى صا الحجر وكانت هذه العائلة محصورة فى ملك واحد ثم أخذ الفرس هذه الثورة واستمرت حكومة الفرس قائمة الى حد سنة ٤٠٥ قبل الميلاد حتى طرحت العائلة التاسعة والعشرون سلطة الاغراب تحت قيادة نفرطيس وهذا أقام عاصمته فى مدينة منديس (اشمون الرومان جريس) واستمرت هذه العائلة قابضة على زمام التخت الى سنة ٣٨٤ قبل الميلاد

وفى آخر هذه السنة دخلت العائلة الثلاثون فى السلطنة تحت رياسة نقطانب الاول وكانت عاصمته سمنود وهذه العائلة تسمى بالعائلة السمنوديه فتسلطن نقطانب الى سنة ٣٦٦ قبل الميلاد وخلفه طيوس أو طاخوس وفى مدة سلطنته القصيرة التى هى عبارة عن سنتين دخل فى تحريض وحض على ثوران ونفور عام فى جميع الاقاليم الغربية من المملكة الفارسية فأخذ أردشير بابكان هذه الاختلالات لكن ملك مصر عزم فى الحال على فتح سوريا وبعد أن سار رجع عائدا على أعقابه الى بلاده من أجل ثورة قامت فيها ومن هذه الثورة ضاع ملكه ونجح زعيم الثورة فى أن جلس على الكرسى باسم نقطانب الثانى وفى سنة ٣٥١ قبل الميلاد اجتهد أوخوص ملك الفرس وسعى سعيا خائبا فى التغلب على مصر ثم فى سنة ٣٤١ قبل الميلاد جدد أوخوص عزمه وأغار فى رأس جيش مقداره ٣٤٤٠٠٠ نفس منه ١٤٠٠٠ نفس من مستأجرى الحريق المتدربين فى الحروب تحت قيادة قواد مجربين فى الحروب أيضا واستعد نقطانب لملاقاته فى رأس جيش مقداره ١٠٠٠٠٠ نفس منه ٢٠٠٠٠ نفس من مستأجرى الحريق فغلب قواد الحريق الموجودون فى جيش أوخوص ملك مصر وهزموا جيشه وتغلبوا من فتحهم على مصر وهرب نقطانب الى الحبش قاطع الرجاء خائب الامل من عوده الى مملكته وخضعت مصر جميعها الى أوخوص فهدم أسوار مدائنها ونهبها كلها ومعابدها

وأفاض على الجريق الموجودين معه الانعامات الزائدة وعاد الى فارس محملا بأثقال الغنائم التى لا تحصى

الباب الثالث

﴿ المملكة الجريقية ﴾

تغلب اسكندر الاكبر على مصر ـ تأسيس الاسكندرية وجعلها العاصمة ـ الحضارة الجريقية فى مصر ـ موت اسكندر ـ تملك بطليموس لاغوس مصر ـ سلطنة بطليموس الاول ـ وصف مملكته ـ بطليموس فيلادلفوس ـ الادراكات العظيمة لمصر ـ دار الكتب فى الاسكندرية ـ الترجمة السبعينية ـ حوادث هذه السلطنة ـ نجاح التجارة المصرية ـ عيوب الملك ـ بطليموس الثالث ـ فتوحاته ـ علاقاته وارتباطاته مع رومة ـ عنف بطليموس الرابع وشدته ـ اضمحلال السلطنة تحت حكم بطليموس الخامس ـ وجود الرومانيين فى مصر ـ تنازل السلطنة فى الهبوط ـ استعداد الرومانيين فى مصر وحكمهم فيها ـ سلطنة البطالسة الاخر ـ سرعة سقوط مصر ـ صيرورة كليوبطره ملكة ـ وجود القيصر يوليوس فى مصر ـ مارك انطونى ـ تغلب الرومانيين على مصر ـ صيرورتها اقليما من الاقاليم أو المملكة الرومية

استمرت مصر اقليما من أقاليم المملكة الفارسية الى ما بعد واقعة عصوص أو إصوس حتى فتحها اسكندر الاكبر وأضافها الى ممالكه وذلك أنه بمجرد ما ظفر اسكندر الاكبر على دارا ملك الفرس وهزمه وجيوشه فى أول واقعة حصلت بينهما فى نواحى عصوص وكان اسكندر فى هذه الواقعة قائد القوى الجريقية فأرسل عساكره تحت قيادة قائد من طرفه خلف دارا وعساكره وسار هو بنفسه حتى دخل سوريا متوجها بمعه ٤٠٠٠ نفس ووصل الى طرابلس واستحوذ منها على ما يلزم له من المراكب وحرق ما بقى من المراكب الاخرى ونزل هو وعساكره وأقلع فى البحر مباشرة الى نحو جزيرة قبرص ومنها أقلع الى مدينة بلوزة من الاعمال المصرية وهى محل بورت سعيد الآن ودخل عنوة فى هذه المدينة مدعيا انه مرسل من طرف دارا بوظيفة حاكم على مصر بدل سباسيس حاكمها السابق بما أنه هلك فى واقعة عصوص ولما استحوذ على هذه المدينة الجليلة المهمة رفع البرقع عن وجهه ونشر اعلانا عاما للحكومة ذكر فيه أن سبب مجيئه فى مصر هو من أجل طرد الفرس منها فتولد من هذا الاعلان أن الجم الغفير من المصريين الذين كانوا لا يرغبون سوى تحرير أنفسهم من المظالم التى كانوا تحت أثقالها من جهة الفرس هرعوا لمقابلته ومن ثم سار مباشرة على منف عاصمة المملكة فقابله قوة من الفرس لصده ومنع تقدمه فى داخل البلاد فهزم اسكندر هذه القوة حتى ألجأها الداخل المدينة وقفلوا أبوابها عليهم وبعد أن اكتسب اسكندر هذه النصرة تفرقت عساكره خلف الفرس قتلا ونهبا فقط ما بقى من جيش الفرس على عساكر اسكندر غيلة وقطعوهم مع قائدهم

ومع هذا فان ما حصل من الفرس لم يزدهم الا كراهة عند المصريين زيادة عما قبل ولما ظهر اسكندر فيما معه للامة المصرية هرعوا اليه أفواجا لتقديم طاعتهم اليه وخضوعهم لديه وكان وصوله عندهم فى رأس جيش قوى ولما رأى مازوس حاكم منف من طرف الفرس أن لا طاقة له على مقاومة هذا الجيش الكثير وأن دارا فى حالة لا يمكنه بها مساعدته على حفظ المملكة ووقايتها من أعدائه فتح

أبواب المدينة فى الحال وسلم مفاتيحها للفاتح وقدم له ٨٠٠ وزنة من الذهب عبارة عن ١٢٠٠٠٠ استرلينه وكذا كافة أمتعة الملك وأثاثاته الموجودة بمصر وبهذه الحالة تغلب اسكندر على مصر من غير حرب ولا ضرب

ولما دخل اسكندر منف ووطد نفسه وعساكره فى الديار المصرية عزم على زيارة هيكل جوبتير أمون الواقع فى وسط الصحراء الرملية من ليبيا (أى برقة) وعلى مسافة اثنى عشر يوما سفرا من مدينة منف وأصل وجود هذا الهيكل وانشاؤه فى هذه الجهة هو أن حام بن نوح عليه السلام أول من سكن مصر وليبيا من بعد الطوفان ولما ابتدأت العبادة الوثنية فى الدنيا بعده ببضع زمن كان هو أول اله وأكبر معبود فى هاتين المملكتين واستمرت ذريته على عبادته وبنوا له معبدا أو هيكلا فى وسط هذه الصحارى على بقعة جميلة من أرض خصبة ظريفة عرضها فرسخان تشبه جزيرة فى بحر رملى وهذه البقعة اسمها الواحات الآن وكان الجريقيون يسمونها جوبتير والمصريون يسمونها أمون ومن مرور الازمان اتحد الاسمان وصارا اسما واحدا هو جوبتير أمون وكان السبب فى سفر اسكندر هذه السفرة غريبا وذلك أنه قرأ فى خرافات عمير الشاعر الجريقى وفى الخرافات الاخر القديمة أن كثيرا من شجعانهم قدموا أنفسهم أولادا لبعض الآلهة فنجحوا فى أعمالهم وفازوا بمرغوبهم ولما كان اسكندر عنده من الرغبة الزائدة فى أن يكون فارسا أكبر من المتقدمين رغب أن يقدم نفسه ليكون ابنا لاحد الآلهة ومن ثم صمم فى نفسه على أن يكون أباه هو جوبتير أمون وشرع فى أن يغمر القسس بالاموال ويفيض عليهم بالانعام حتى يوافقوه على مرغوبه

ثم سافر اسكندر من منف من طريق النيل حتى وصل الى البحر الابيض المتوسط وسار فى طول ساحله حتى عبر مدينة كانوب (وهى أبوقير الآن) فظهر له أمامه جزيرة الفار أو الفنار فوجدها محلا صالحا وقطعة تامة فى ترتيبها وشكلها موافقة لان يبنى فيها مدينة فصمم على بناء مدينة فيها وخطط مسطحها بنفسه وعلم على المحل اللازم بناء المعبد فيه وكذا محلات الميادين الواجب تشييدها فيها وعهد عمارتها وبناءها الى دينوقراطيس المعمارى المشهور عنده وسمى هذه المدينة باسم الاسكندرية وفيما بعد صارت عاصمة المملكة وجعل لها مينة بحرية حسنة الوضع غريبة الشكل حتى صارت هذه المدينة مركزا لتجارات البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر والنيل الواردة اليها من المشرق والمغرب وفى ظرف مدة قليلة صارت احدى المدن اليانعة الزاهرة الموجودة على سطح الارض

ومن بعد أن قرر اسكندر ما يجب اجراؤه فى شأن مدينته الجديدة ارتحل مسافرا بعساكره لزيارة هيكل جوبتير أمون وكانت مسافة الطريق ١٦٠٠ استاريه أو ثمانين فرسخا فرنساويا وطريق السير اليه مارة من وسط صحار رملية فكان العساكر فى اليومين الاولين من السفر على تشوق عظيم ورغبة كبيرة وذلك قبل دخولهم فى داخل الاراضى القفرة الرملية المهولة ولما دخلوا فيها وجدوا أنفسهم أنهم صاروا فى داخل سهول رملية شاسعة مغطاة برمال عميقة وقع فى قلوبهم الرعب وجزعوا من شدة الخوف ورأوا أن هذه السهول المقفرة كأنها فى وسط بحر خلى من المياه فصاروا ينظرون فى جميع جهاتهم على قدر امتداد بصرهم لعلهم يكشفون محلا مسكونا أو شجرة أو يرون أثر قدم انسان أو حيوان يستدلون منه على سير آدمى أو مشى حيوان فكانوا لا يرون من هذا شيأ والذى أدهش بالهم وأقلق بلبالهم وزاد فى جزعهم وارتياعهم أن المياه التى كانوا جلبوها معهم فى قرب محمولة على جمال انتهى

أمرها وفرغت منهم حتى ما بقى عندهم قطرة ماء فى وسط هذه الصحارى القحلة المعدومة المياه فأسفوا وندموا على حالتهم هذه وسلموا أنفسهم للموت من كثرة ما حاق بهم من العطش والظما وما حل بهم من وجود الرمال المتطايرة عليهم من كثرة الرياح حتى كادت تدفنهم تحتها وازداد الخطر واشتد الكرب والظمأ حتى ما صار لاحد منهم طاقة على التنفس وقعدوا جميعا على الرمل مسلمين أنفسهم للموت فاتحين أفواههم للهواء والسماء وبينما هم فى هذه الحالة الشديدة اذ أظلم الجو وتكاثرت السحب وتكاثفت فى بعضها حتى حجبت عنهم الشمس وهطلت عليهم الامطار وكان ذلك سببا من عند الله سبحانه وتعالى فى نجاة هذا الجيش وخلاصه مما كان فيه من اشرافه على الموت والهلاك فأخذ العساكر من مياه الامطار احتياجاتهم وصار البعض منهم يتلقى الماء فى فمه ليحييه من كربه وغمه وملؤا قربهم ثم استمروا عدة أيام فى قطعهم هذه الصحارى ولما قربوا من المحل الموجود فيه الهيكل رأوا عددا لا يحصى من الغربان طائرة أمام العلم القدامى فيحتمل أن هذه الغربان اما أنها طارت الى الارض حال سير الجيش فيها بحركة بطيئة واما انها سارت فى طيرانها الى قدام لترشد الجيش أشبه بدليل له على الطريق اللازم اتباعه والسير فيه حتى يصلوا الى هيكل الاله وقال بعض المؤرخين ان من عجائب الامور أن هذا الهيكل وان كان فى وسط قفر لا حد له ولا نهاية لكنه محاط بغيضة كثيرة الظل كثيفة الاشجار لا تمر منها الاشعة الشمسية وهذه الغيضة تسقى من عدة منابع أو عيون من مياه عذبة تحفظ لها لون خضرتها على الدوام وروى أنه يوجد بالقرب من هذه الغيضة غيضة أخرى فى وسطها عين ماء تسمى بعين الشمس وان مياه هذه العين تكون فاترة وقت الفجر وباردة وقت الظهر وتأخذ فى السخونة من بعد العصر على التدريج حتى تصل الى درجة الغليان فى منتصف الليل ومن بعد ذلك تقل درجة حرارتها كلما قرب طلوع النهار ولم تزل مستمرة على هذه الحالة

ثم ان الاله المعبود الموجود فى هذا الهيكل ليس له شكل ولا صورة جرية منقوشة مثل صور وأشكال الآلهة الاخرى الجارى نقشها ورسمها فى تصوير الآلهة بل هو مصنوع من الزمرذ والاحجار الكريمة وهيئته من ابتداء رأسه الى سرته على شكل خروف ولما وصل الملك الى داخل الهيكل أمر رئيس القسس بأن يقدم نفسه ابنا الى جوبتير وقال له ان الاله نفسه هو الذى منحه هذا الاسم فقبل اسكندر مقالته مع غاية السرور والابتهاج واعترف بأن جوبتير أبوه ثم انه سأل القسيس هل أبوه جوبتير أفاض عليه ملك الدنيا عموما فأجابه القسيس قائلا مع التملق وزيادة الفخفخة نعم يلزم أن تملك الدنيا بأسرها ثم سأله أسئلة أخرى يطول شرحها فيما يختص بعلو مقداره وما تؤول اليه حالته فأجابه أن سيكون له مقعد بين الآلهة فقرب اسكندر القربان وذبح الذبائح وأهدى للاله هدايا نفيسة جدا وكذا أفاض على القسيس الذى أجابه بمرغوبه هدايا واحسانات عظيمة

ولما تزين اسكندر بلقب ابن جوبتير وحاز لنفسه علو الدرجة فوق بنى الانسان كما قال له القسيس رجع قافلا من سفره منصورا مظفرا ومن ابتداء هذا الوقت صار اسكندر يوقع على مكاتيبه وأوامره بهذا التوقيع وهو اسكندر ابن جوبتير أمون وبمجرد عوده من الهيكل ووصوله الى بالوس مَرْيُوطيس وكانت قريبة من جزيرة الفنار نهض مسرعا لزيارة مدينته الجديدة ورؤيتها وكانت عمارتها أخذت فى التقدم فبذل جهده فى اجراء الطرق الممكنة له فى توطينها واسكانها فدعا اليها الناس من كل فج عميق ومنحهم

بشروط مفيدة لهم وجلب اليها من أورشليم جماغفيرا من اليهود ومنحهم بامتيازات جليلة ولم يتركهم معتوقى الحرية فى دينهم وشريعتهم فقط بل جعلهم على منوال واحد وقدم ثابت من الاحترام مع المقدونيين الذين سكنوها من طرف اسكندر ثم رحل منها الى منف وفيها قضى فصل الشتاء وذكروا رو أن الوقت الذى شيد فيه اسكندر مدينة الاسكندرية ظهر فيها استعمال الورق المعد للكتابة فى مصر

وأصلح اسكندر فى المدة التى لبثها فى منف جميع أحوال الاعمال والادارة الداخلية وتنظيم العساكر فى الديار المصرية وقسم المملكة الى كور وعين فى كل كورة نائبا يجرى اجرا آته حسب الاوامر الصادرة له من نفس اسكندر واطمأن على سلامة عساكره فى هذه المملكة المعمورة وجعل قيادة العسكر لحاكم واحد وأما الحكومة المدنية الداخلية فانه عهدها الى واحد من أمراء المصريين وسلمه زمام الشوكة والحكومة قاصدا بذلك أن مصر يلزم أن تكون محكومة بقوانينها وعوائدها القديمة وكان على رأى أن الوطنى المصرى الذى تعهد اليه الحكومة هو الذى يكون صالحا وأهلا لها زيادة عن كل غريب مهما كانت درجته وعين لاجل سرعة بناء المدينة الجديدة واحدا اسمه كليومنس ناظرا عليها ومن وظيفته أيضا جمع الخراج اللازم دفعه من طرف البلاد العربية فكان كليومنس هذا أخطأ الخاطئين وأقبح المقبوحين فى ادارته وظلمه وأضر باحوال الامة والتعدى عليها

ولما فرغ اسكندر من توطيده الاعمال وتنظيمه الاحوال فى مصر سافر منها فى فصل الربيع متوجها الى الشرق ضد دارا ملك الفرس وسنذكر تاريخه فى تاريخ الجريس ان شاء الله تعالى

وفى المدة القليلة التى لبثها اسكندر فى مصر غير جميع هيئة تاريخها حتى عوائد الامة المصرية ورمى آساسات سعادة المصريين فى الحال ومجدهم فى الاستقبال وجعل الاسكندرية عاصمة الديار المصرية وأسبل عليها منافع وفوائد الحضارة الجريقية والتمدنات الغريبة فانتشرت هذه الحضارة والتمدن بسرعة بين الامة المصرية وبواسطة هذا التغيير دخلت مصر فى دور جديد وأمر أكيد فى المعاملة مع الباقى من عالم الكون وصارت طرق اجرا آتها ووسائلها التجارية مقبولة عند القسم الاعظم من الامم والتزم الجنس المقدونى الجريقى التوطن والاقامة فى داخل الاسكندرية وفيما جاورها من الضواحى واستمر سكان داخل المملكة على ما كانوا عليه من لسانهم ودياناتهم وعوائدهم متمتعين بالاحتلال فى مواطنهم ومساكنهم لا يمسهم فيها نصب ولا يقوم فيما بينهم شغب وصار لهم حواس غريبة وادراكات ليست بعيدة بل قريبة ومالوا كل الميل الى عالم الدنيا الغريبة بسبب اشتراكهم مع الجريق وصاروا تبعة برغبة أنفسهم لا برغم أنفهم لاسكندر والبطالسة من بعده واشتعلت فى قلوبهم نار الغيرة والحمية فى أشغال التجارة ونبتت فيهم مغارس الآداب حتى صيرت الاسكندرية احدى المدائن الكبيرة الباهرة بعلومها وفنونها على وجه الارض

وبمجرد موت اسكندر فى سنة ٣٢٣ قبل الميلاد تخصصت الاقاليم الافريقية لبطليموس لاغوس وقت تقسيم مملكة اسكندر بواسطة مجلس عقد من قواده فاستلم بطليموس لاغوس فى الحال حكومته وكان يتمنى من قبل أن تكون مصر من قسمه ونصيبه فعكف نفسه على سير الادارة فيها ونظم أحوالها وحدد حدودها وكذا حدد فتوحاته الى أقاليم كذا بحيث يتيسر له الحصول على التغلب عليها من غير أن يقع فى مخاطرات جسيمة وبواسطة ما أجراه بطليموس فى مصر من الاشغال والاعمال جعلها حرزا منيعا وحصنا

حصينا وأزال عنها شبهة الطمع والاغراض حتى أبعد عنها مبغضيه ورد كيدهم فى نحرهم من جهة ما كانوا فيه وكان جل مسعاه وما يتمناه هو أن يجعل مصر دولة بحرية وسلطنة قوية وفى هذا الغرض استحصل على ما كان يرجوه وزيادة وحصل له الظفر والنجاح والسعادة ورأى انه لاجل توطيد هذا الامر من الضرورى التغلب على فلسطين وفينيقية لان أهلها فضلا عما يحتاج لهم فى شغل المراكب والاساطيل أمة أشد قوة وأعظم مراسا فى الملاحة من غيرهم ثم من بعد مدة حصل فيها النجاح تارة والخيبة أخرى صار عقد صلح فى سنة ٣٠١ قبل الميلاد عقب واقعة حصلت فى أفسوس فتقرر لبطليموس فى هذا العقد الاستحواذ على فلسطين وفينيقية وأما ما كان جاريا فيه من السعى والاجتهاد فى استحصاله على جزيرة قبرص فانه لم يحصل فيه فصل ومن بعد أن صرف مصاريف جمة من الدماء والاموال تغلب على جزيرة قبرص وجعلها تابعة للملكة المصرية

وكانت المملكة التى أسسها بطليموس سلطنة مطلقة مستبدة وذلك انه لم يغير فيها شيأ من قوانينها القديمة ولا شرائعها التى جرت الاحكام عليها من زمن قديم ولا الطريقة الادارية للملكة وكانت السلطنة جميعها محصورة فى يد المقدونيين وضباط الجريق وكان الجيش الثابت أيضا مركبا جميعه من المقدونيين والجريقيين

وكان نفس بطليموس محبا اصادقا وأخا موافقا غير منافق للعلوم والمعارف فأسس دار الكتب التى كانت مشهورة فى الاسكندرية وحض علماء الدنيا على الحضور عنده والجلوس فى سرايته ونشر العلوم والمعارف وحث على تعلمها والمواظبة على مطالعتها وتدريسها وصارت الاسكندرية تحت ارشاداته العظيمة واجرا آته المفيدة الكريمة العدو الساطع والبرق المضئ اللامع لاثينة فى الآداب والفنون والعلوم وحلى بطليموس عاصمته بعدة مبان جليلة كان أجلها وأعظمها السراى الملوكية ودار العجائب والفنار الشاهق البنيان المصنوع من المرمر الابيض وجعله دليلا لدخول المينة وكذا القبر الذى دفن فيه جثة اسكندر الاكبر المشهور الآن فى مدينة الاسكندرية بالنبى دانيال وهيكل سرابيس والابدروم وامتدت سلطنة بطليموس لاغوس الى القرن الثالث قبل المسيح ومات فى سنة ٢٨٣ قبل الميلاد بعد أن بلغ من العمر أربعا وثمانين سنة وتسلطن أربعين سنة

وصار بطليموس الثانى الملقب فيلادلفوس ملكا وحيدا فى مصر بعد موت أبيه فى سنة ٢٨٣ قبل الميلاد وكان عمره ستا وعشرين سنة وكان على جودة من التهذيب والتربية بواسطة العلماء الذين جمعهم أبوه عنده فى سرايته ومن ثم صار محبا فاضلا للعلوم والآداب وفى مدة سلطنته فى السنة الاولى منها تمت عمارة برج الفنار المشهور فى جزيرة الفنار بالاسكندرية لحد الآن وكان هذا البرج من ضمن عجائب الدنيا السبعة وذلك أنه كان بناء جسيما مربع الشكل من حجر المرمر الابيض وفوق قمته تشعل النار على الدوام ليلا لاجل استدلال المراكب على خط سيرها ودخولها فى داخل المينة وكانت تكاليف عمارته ٨٠٠ وزنة من الذهب أى ٢٠٠٠٠٠ جنيه استرلينه وكانت جزيرة الفنار مفصولة فى الاصل من أرض القارة بمسافة قدرها نحو من ميل انكليزى فصار توصيلها بالبر الاصيل بواسطة جسر وآثار هذا الفنار موجودة لحد الآن فى نفس الجزيرة واستمرت حتى جعلها السلطان قايتباى قلعة عظيمة وأحاطها بالاستحكامات والاسوار وأصلح جسرها ثم تخربت واندثرت واستمرت الى زمن محمد على باشا صاحب مصر فصار ترميم استحكاماتها وأصلح الجسر الموصل لها وركب فى داخلها المدافع

والهوانات ولم يتطر الى الفنار بل أمر بانشاء آخر فى جزيرة رأس التين المجعول الآن دليلا للمراكب فى دخولها الى المينة لحد الآن أى سنة ١٨٩١ بعد الميلاد

وفى نحو هذه المدة صار جلب تمثال سرابيس من مملكة بونطوس على سواحل البحر الاسود الى الاسكندرية وكان بطليموس رأى رؤيا منامية حث فيها على طلبه فأرسل رسولا من طرفه الى ملك سينوب من أعمال بونطوس يطلبه منه وكان هذا التمثال محفوظا عنده فلم يقبل ملك بونطوس تسليم التمثال للرسول واستمر الرسول منتظرا تسليمه التمثال اليه مدة سنتين حتى قحط أهل سينوب وأضر بهم الجوع وجهدوا جهدا شديدا من القحط فرضوا بالتنازل عن هذا التمثال لبطليموس وأخذوا بدله أصنافا من الحبوب والغلال يصرفونها فى مأكلهم أرسلها اليهم بطليموس وعند حضور هذا التمثال الى الاسكندرية وضعه بطليموس فى محل مزخرف كان اسمه راكوطيس ثم أطلقوا عليه اسم سرابيس وشيد له بطليموس فى هذا المحل هيكلا مزخرفا من أفخر الهياكل وأعظمها وأطلق على هذا الهيكل اسم سرابيوم وقالوا ان هذا الهيكل كان أجل هياكل الدنيا على الاطلاق ماعدا كابيتول رومه وشيد فى هذا الهيكل دار كتب صار لها شهرة وسمعة مع توالى العصور وتبادل الازمان بالنسبة لما كانت محتوية عليه من الكتب العديدة ذات المقدار والقيمة

وكان بطليموس لاغوس فى مدة حياته على نباهة وتيقظ تام من أن يحيى نفسه حياة طيبة ويشهر نفسه بالآداب والعلوم كشهرة اسكندر الاكبر فى الفروسية والحروب الا أن وقته فات وكبر سنه وشاخ لكنه لاجل غرس شجرة الآداب والعلوم فى مملكته المحبوبة لديه أمر بتأسيس دار العلوم فى الاسكندرية وجعلها مقر الجمعية من علماء الرجال عكفوا أنفسهم على مطالعة علم الفلسفة وتدريسها ومطالعة وتدريس جميع العلوم الاخر مثل الحالة الجارية الآن فى مدينة باريس ومدينة لوندره ورتب لهم من أجل ذلك دار كتب جليلة جمعها من الآفاق وزاد فيها خلفاؤه من بعده حتى بلغت الكتب مبلغا جسيما نحوا من ٧٠٠٠٠٠ مجلد

وكان بطليموس أمر بتشييد دار المعارف بالقرب من سرايته الملوكية وفيها دار الكتب وكان العالم ديمتريوس فاليروس أول من قصد بطليموس فلبث عنده فى غاية الجلالة والاحترام وقيل انه هو الذى حضه على فعل ذلك وذكر سطرابو أن ديمتريوس المذكور كان رئيس جمعية الاعلام وناظر الكتبخانة وأنه هو الذى عرض الى بطليموس فى انشائها وكان عرضه له أن قال للملك انه من الاجود لذاتكم البهية تشييد دار كتب تشتمل على آداب ومعارف تختص بالادارات السياسية الداخلية والخارجية ومعارف الحكومة والادارة المتقلد سيادتكم زمامها وتشتمل على حكم ونصائح ورقائق تعود منها المنفعة على الملك وتكون هذه الكتب للملك أشبه بمجلس معه تعرض له مالا يعرضه أصدقاؤه وأحباؤه اليه وتكون هى المجاهدة الوحيدة فى ادخال الحق على الملوك وتريهم تحت أسماعهم ستارة ما يجب عليهم اجراؤه من الواجبات الحقة وتبعدهم عن الاعمال الباطلة المذمومة فالتفت الملك الى هذه النصيحة الجليلة وامتلأ قلبه بالسرور منها ومن عذوبة ماعرضه عليه ديمتريوس وشرع فى الحال فى جمع هذه الكتب وشيد لها دارا مخصوصة فى دار العلوم وكان ديمتريوس المذكور من أكبر علماء وقته ومن أكبر رجال السياسة ومن أجل المقربين عند بطليموس وكان بطليموس على ثقة تامة منه حتى كان يستشيره فى كل أموره فاستشاره يوما فى منح الوراثة والجلوس من بعده على التخت وكان بطليموس لاغوس

قبل ذلك بعد أن تسلطن عشرين سنة فى مصر ملكا وذلك من بعد موت اسكندر الاكبر بتسع وثلاثين سنة تقريبا فرغب أن ينقل رياسة ملكه الى بطليموس فيلادلفوس (محب أبيه) أحد أولاده من برنيس وكان عنده أيضا عدة أولاد من زوجات أخر من ضمنهم بطليموس الملقب سيرونوس أى الصاعقة كان ابن زوجة اسمها عوريديس بنت انطيباطير ملك مقدونيا بعد اسكندر وكان الصاعقة هذا بكرى أولاد بطليموس فيلادلفوس وهو المستحق للتاج والملوكية من بعد موت أبيه الا أن برنيس أم فيلادلفوس وكانت هذه جاءت مصر بمجرد صحبة مع عوريديس وقت زواجها ببطليموس لاغوث فلما رأى ماهى عليه من جمال الذات سلبت عقله وأضعفت جسمه فتزوج بها ومال بكليته اليها ورفع مرتبتها وزين حليتها وصار تحت أمرها وطاعتها فولدت له بطليموس فيلادلفوس وأمرته أن ينظر اليه ويغدق بالاحسان عليه زيادة عن أولاد الزوجات الاخر فتأمل فى نفسه ونظر واختار لنفسه ما يكون بعد موته أجل وأشهر ويمنع المشاحنات والحروب التى ربما تقع بعد موته بين أولاده حيث ان حصول ذلك قريب ليس ببعيد لانه كبر فى السن وبلغ من العمر الثمانين وحان أوانه وطار المنون أمام أجفانه وعزم على أن يتنازل عن التخت الى ابنه فيلادلفوس ويتوجه فى حياته حتى لا يكون له منازع بعد

ولما استشار ديمتريوس فاليروس فى تنازله عن تخته لابنه فيلادلفوس نصحه بعدم تنازله وقال له انه لا يمكنه أن يتمتع بحياة طيبة بعد هذا التنازل ووعظه مواعظ جيدة كانت على غير طائل ولما رأى ديمتريوس ما الملك عليه من العزم وأنه صمم على التنازل مطلقا نصحه وأرشده بأن يجرى فى انتخابه من أولاده ما يكون أهلا للخلافة من بعده وأن يكون الابن الاكبر هو المستحق للخلافة حسب الجارى عند جميع الامم بالقوانين الشرعية وبهذا تكون هذه الوظيفة والانتخاب محصورا فى ابن عوريديس زوجته الاولى الا أنه لما كانت برنيس متغلبة على الملك بكليتها آل أمر هذه النصيحة بعد مدة قليلة بالويل والثبور وعظائم الامور على ديمتريوس فاليروس ومات بطليموس لاغوس من بعد مضى سنتين من تنازله عن مملكته لابنه فيلادلفوس وخلف من بعده الثناء الجميل والفضل الجليل والحزم والعدل والرأفة أمثلة قلدوها من جاؤا بعده وعمل لابنه موكبا فى وقت تتويجه فى مدينة الاسكندرية بهر عقول المتفرجين واستغرب من هيئة اجرائه الواردون وكان يوما مشهودا ما رأت الامة المصرية ولا أمة من الامم الاجنبية مثل هذا الموكب واشحنت بوصفه كتب التواريخ ولا لزوم لذكره هنا

وترك بطليموس عند موته فى دار الكتب نحو من ١٠٠٠٠٠ مجلد وكانت هذه الدار جرى ترتيبها على هذا الوجه المشروح وذلك أنه صار القبض على جميع الكتب التى وردت الى مصر وجلبت الى دار الكتب من أربابها ثم نسخت هذه الكتب بواسطة نساخين مستعدين فى دار العلوم لهذا الصدد وسلمت النسخ الجديدة الى أرباب الكتب وحفظ فى دار الكتب النسخ الاصلية القديمة ثم استعار بطليموس أورغيطيس كتبا ونسخا كانت عند سفوكليس وعوطر بيديس وعسخلوس وغيرهم من أهل أثينة ومن بعد أن أمر بنسخ هذه الكتب والنسخ بأجود خط على قدر الامكان أعاد لهم النسخ الجديدة وحفظ فى دار الكتب النسخ القديمة وأعطى لهم فى نظير ذلك ١٥٠٠٠ كرون ولما بلغ مقدار عدد الكتب الموجودة فى دار الكتب بدار العلوم نحو من ٤٠٠٠٠٠ مجلد وصارت هذه

الدار

الدار غير كافية لوضع كتب أخرى جديدة ابتدؤا فى أن يضعوا الكتب الزائدة فى هيكل سرابيوم فى دار كتب أخرى شيدت من أجل ذلك وكانت هذه الدار الاخيرة تكملة للدار الاولى وبهذا أطلق عليها اسم بنتها أى أن الدار الثانية بنت الدار الاولى وبمرور الازمان عليها وتوارد الكتب اليها تواجد فيها نحو من ٣٠٠٠٠٠ مجلد ثم تولد من حرب القيصر مع أهل الاسكندرية مدة كليوبطره وسنذكره بعد أن سقطت نيران المحاربين على دار العلوم ودار كتبها بما أنها كانت مجاورة للسراية الملوكية فحرقت دار العلوم ودار الكتب جميعا بما فيها من الاربعمائة ألف مجلد ولم ينج منها شئ وأما دار كتب سرابيوم فانه لم يصبها شئ واستمرت على ماهى عليه حتى وضعت فيها كليوبطره ٢٠٠٠٠٠ مجلد من دار كتب مدينة برجاموس كان أهداها اليها انطونى وبواسطة هذه الكتب مع ماورد اليها قبل صيرت دار الكتب الجديدة فى الاسكندرية أكثر عددا وجلالة من الاولى ثم وقع النهب والسلب فيها والخطف منها فى أثناء الفتن والمحن والثورات التى حصلت فى مدة غلبة الرومانيين على مصر الا أنها مازالت باقية على رونقها مدة عصور توالت عليها الى القرن السابع بعد الميلاد فذاقت وبال أمرها مع أهل عصرها وحرقها العرب عندما تغلبوا على مدينة الاسكندرية فى سنة ٦٤٢ بعد الميلاد وكان السبب الاصلى فى حرقها أن العالم حنا الملقب بالنحوى اتفق أنه كان موجودا فى الاسكندرية وقت تغلب العرب على المدينة وكان حنا هذا معتبرا موقرا عند عمرو بن العاص قائد الجيوش الاسلامية بمصر فتلطف له حنا فى الكلام وعرض له أن يمنحه دار الكتب بالاسكندرية اذ لا لزوم لها عندهم فأجابه عمرو بأنه لم يكن له طاقة ولا فى يده قدرة على أن يمنحه هذا الطلب المهم الا أنه لابد من كونه يكتب للخليفة ليأمره بما يجب اجراؤه فى شأنها وأنه لايمكنه أن يجرى فيها شيأ مضادا الامره وعلى هذا كتب عمرو بن العاص الى الخليفة عمر بن الخطاب ما الذى يجب فى شأن هذه الكتب فأجابه عمر رضى الله عنه بأنه اذا كان مافى هذه الكتب عين مافى القرآن من الاحكام والعقيدة فلا لزوم لها والقرآن فيه الكفاية لنا وان كان مافيها مخالفا لما فى القرآن فمن اللزوم دمارها وتلاشيها وبناء على هذا الامر أمر عمرو بن العاص بحرقها فى لهب النار من دون أن ينظر فيها أو يجرى البحث والفحص فيما كانت تحتوى عليه هذه الكتب من المنافع وأمر لاجل سرعة حرقها وتلاشيها بأن يجرى توزيعها على الحمامات العمومية الاهلية فمكثوا ستة أشهر يوقدون بها الحمامات بدل الاخشاب وأصناف القمامات

ولما جلس بطليموس فيلادلفوس على كرسى الاريكة المصرية وصار سيدا على جميع الايالات التى كانت تابعة لها وهى على ماقيل فينيقية وسوريا الجنوبية وبلاد العرب وليبيا أى برقة والحبشة وجزيرة قبرص وبمفيليا وصيليصيا وليصيا وكاريه ومجموع جزائر السكلادة وصلت الاسكندرية فى مدة سلطنته الى أقصى درجات الكمال فى الادراكات العقلية والنقلية وزاد زيادة جمة فى دار كتب الاسكندرية ونظم وأصلح دار الكتب الصغيرة التى كانت موجودة فى سرابيوم ودعا علماء الرجال الى سراياته من جميع بقاع العالم وشرع فى عمل أشغال جليلة المقدار على حسب رغبته وتحت محبته وكان أجل هذه الاشغال وأهمها هو ترجمة الكتب المقدسة العبرانية من اللسان العبرى الى اللسان الجريقى وبواسطة ترجمة هذا الكتاب المقدس اكتسب البطالسة درجة علو المقدار فى العالم الانسانى وكان الشروع فى ترجمة هذه الكتب المقدسة فى مدة سلطنة بطليموس فيلادلفوس واستمر هذا الشغل جاريا فى خلال سلطنات عديدة من خلفائه وهذه الترجمة تعرف بالترجمة السبعينية إما بسبب أن مترجميها كانوا

سبعين نفسا أو بسبب كون ترجمتها عهدت لمجلس اليهود الاعلى لاجل تنقيحها وتهذيبها وكان هذا المجلس مركبا من سبعين نفسا وكذا في مدة هذه السلطنة ألف القسيس المصرى مانيطون تاريخه على مصر باللغة الجريقية واشتهر هذا التاريخ في البقاع وتيسر للاجانب منه استحصالهم على فوائد تاريخية تختص بمصر وكان فيلادلفوس مغرما أيضا بحب النقش والتصوير بأنواع البويات والالوان والحفر على الاحجار فلى مدينة الاسكندرية بمبان مفتخرة ظريفة

لكن لم يرث بطليموس الثانى أباه فى الفطانة العسكرية والادارات الحربية والحركات الوقعية والمهارة فى الفروسية ومن ثم كانت حروبه قليلة وليس لها أهمية مثل حروب أبيه وكان أول حرب شرع فيه من حروبه على مقدونيا لاجل حفظ ووقاية الاتحاد الاخوانى ثم أنشب حربا آخر على أخيه غير شقيقه المسمى ماجاس وكان هذا ملك صيرنيقيه ومحلها الآن سواحل طرابلس وتونس الغرب وكان أخوه هذا نكث تبعته لمصر وأغار على تلك المملكة سنة ٢٦٦ قبل الميلاد ومن أجل هذه الغارة عقد ماجاس معاهدة مع انطيوقوس صاحب سوريا وأغار على مصر مرة ثانية فى سنة ٢٦٤ قبل الميلاد فقنع المصريون انطيوقوس من كونه يترك مملكته بكونهم أجروا حركات شديدة على مملكته وصدوا غارة ماجاس وفى سنة ٢٥٩ قبل الميلاد تقرر ماجاس ملكا مستقلا فى صيرنيقية وتزوجت بنته برنيس الابن الاكبر لفيلادلفوس ولما عصت سوريا عليه أشعل حربا مهلكا عليها استمر مدة عشر سنوات فتغلب على قسم عظيم من ساحل آسيا الصغرى ثم عقد صلحا فى سنة ٢٤٩ قبل الميلاد وزوج بطليموس ابنته لانطيوقوس

وبلغت مصر فى عصر سلطنة بطليموس الثانى أرقى درجات الفلاح والنجاح المتجرى وفتح الخليج بين النيل والبحر الاحمر مرة ثانية وكان رمسيس الاكبر فتحه من قبله من مدة ألف ومائتى سنة وعمر مينة أرسينوى فى رأس البحر الاحمر ومحلها الآن مدينة السويس مخصوصة من أجل ملاحات وسفريات البحر الاحمر نظرا لما هو حاصل من الاخطار فى هذا البحر ولما رأى أن هذه المينة الواحدة غير كافية بالنسبة لاخطار الملاحة ومتاعبها أمر بعمارة اثنتين أخريين اسم كل منهما برنيس صار انشاؤهما على ساحل افريقية واحدة منهما على عرض ٢٤° تقريبا والاخرى على عرض ٢٣° تقريبا وعمر طريقا سلطانيا من برنيس الشمالية الى مدينة قفط على ساحل النيل بالقرب من مدينة طيوه لاجل سير القوافل التجارية فيها من برنيس الى قفط ومنها تنزل فى النيل الى الاسكندرية وربط علاقات جمة تجارية بين مصر والحبشة وبلاد العرب والهند وصارت هذه مطروقة بالقوافل عدة قرون متعاقبة الى المدائن المصرية النيلية وكانت الاسكندرية مركزا لتوزيع التجارات بين الامم الاوروباوية وكان أغلى هذه التجارات فى القيمة التجارة الحبشية فعادت منافعها على هذه الايالة التى أينعت بالتجارة بخزائن النقود الجمة ورفعة الشأن المهمة

وبلغ مدخول المملكة المصرية فى عصر هذه السلطنة على ما قيل نحو امن ١٤٨٠٠ وزنة أوخزنة من الذهب عبارة عن ١٧٧٦٠٠٠٠ دولر وذلك خلاف الخراج المضروب من الحبوب والغلال وهو مبلغ يعادل مدخول المملكة الفارسية فى عصر سلطنة دارا الاول وما كان فيلادلفوس أهلا للادارة والسياسة مثل أبيه فانه بمجرد ما جلس على الاريكة المصرية ورأى نفسه وحيدا فى الملك أمر بالقبض على الفيلسوف ديمتريوس فاليروس من أجل النصيحة التى كان قدمها لابيه وأرسله مع

خفر قوى الى قلعة بعيدة وأمر بسجنه فيها حتى يتم رأيه فى أمره فانتهت هذه الحالة بموت هذا الفيلسوف الذى كان يستحق الجود والكرم ولا يؤاخذ بما انصح به الملك من الذنب فى حال الهرم وكذا أمر بقتل اثنين من اخوته وكان فيلادلفوس متزوجا أرسينوى بنت ليسيماقوس ملك ثراثة فولع بعشق أخته أرسينوى وكانت زوجة أخيه غير شقيقه سيرونوس (الصاعقة) فطلق زوجته الاولى ونفاها الى قفط من أعمال صعيد مصر وتزوج بأخته واستمر ملازما على محبته لها مشغوفا بعشقه اياها مع أنها ما ولدت منه ولدا الا أنه لم يعش بعد ذلك مدة طويلة بل مات بمرض حصل له فى سنة ٢٤٧ قبل الميلاد بعد أن تسلطن ثمانيا وثلاثين سنة ملكا وحيدا فى مصر لا ينازعه أحد فى ملكه

ثم ان بطليموس الثالث الملقب اغورطيس أى المحسن خلف أباه وكان ابن الزوجة الاولى لبطليموس الثانى وكان فيه اقدام وشجاعة زيادة عن أبناء جنسه من الملوك وترك السياسة الدفاعية التى كان جاريا عليها أبوه وجده ودخل فى عدة فتوحات أحيا بها المظاهر القديمة والافتخارات التى كانت مصر فيها مستديمة فأضاف كثيرا من الاراضى والبلاد الى ممالكه وبواسطة زواجه برنيس بنت ماجاس ملك صرنيقيه وكانت ولية عهد أبيها من بعده صار ملكا على صرنيقيه فى ظرف سنة أو سنتين من بعد جلوسه على التخت وأشعل حربا على سوريا لينتقم من أخته برنيس وكانت خرجت من عصمة انطيوقوس ثم قتلها كيوديسى وفى سنة ٢٤٥ قبل الميلاد سار اغورطيس الى سوريا وتغلب على أنطاكية وبعدها عبر بجيوشه الفرات وأخضع ميزوپوتاميا (العراق) وبابل والسوسة وميديا وفارس وانقادت له الاقاليم الشرقية الى حدود بلخ أى باقطريانه وبينما كان هو مشتغلا بهذه الحروب أخرب اسطوله البحرى سواحل آسيا الصغرى وثراثه ثم رجع اغورطيس قافلا الى مصر على غاية من العجلة بسبب ما حصل فيها من القلاقل والاضطرابات الشديدة وضاع منه فى الحال جميع فتوحاته الشرقية وذلك ان ملك سوريا استردها ثانية لنفسه ولم يبق مع أوغورطيس الا السواحل البحرية لان الشوكة البحرية لبطليموس كانت قوية جدا وبالاسطول البحرى صار له طاقة على ضبطها والمحافظة عليها وكانت جميع مملكته فى هذه الحالة ممتدة فى طول البحر الابيض المتوسط من ابتداء صيرنقيا الى بوغاز الهلسبون أى الدردانيل وهو جناقلعة الآن داخل فيها قسم من ثراثة وعدة من جزائر البحر الابيض المتوسط وفى نحو غلاق سلطنته صار ملكا على قسم من الساحل الغربى من البحر الاحمر وقطعة من بلاد الحبش واشترك فى الحروب التى كانت جارية فى الجريس معضدا فى مبادى أمره التحالف الاخوانى الى أن دخل فى شروط مع انطجنوس وقت مساعدته كليومنس صاحب اسبرطة على الاتحاد وفى مدة هذا الحرب هزم الاسطول المصرى اسطول انطجنوس بالقرب من أندروس واستمر اغورطيس فى علاقات ودية مع رومة لكنه لم يقبل من جمهورية رومة المساعدة التى عرضتها عليه الجمهورية المذكورة بخصوص حرب سوريا والظاهر انه كان مرتاعا وخائفا من طمع الرومانيين فيه وكان اغورطيس محبا أيضا للعلوم والفنون ومات فى سنة ٢٢٢ قبل الميلاد بعد أن تسلطن سلطنة سامية استمرت خمسا وعشرين سنة وكان آخر أكابر الملوك المقدونية وعظمائهم فى مصر وبلغت هذه المملكة تحت سلطنته ذروة سنام الشوكة والنجاح وأعاد عليها الثروة والفلاح وكان الذين خلفوه من بعده على غاية من الضعف والرزية وعدم الاهلية وسوء التدبير بالكلية

وخلف بطليموس الرابع أباه وبما انه كان متهما فى قتله لقب نفسه بلقب فيلوباطير أى محب أبيه لاجل

ازالة هذه الشبهة عنه ومع ذلك فانه ابتدأ فى سلطنته بقتل أمه وأخيه وعمه وتزوج أخته أرسينوى ثم قتلها من بعد مضى بضع سنين بعد أن ولدت له ولدا وارث تخته وكان ملكا عسيفا فاجرا قليل الادب مرتكب الفساد شهوانى الطباع وكان تدبير المملكة جاريا بواسطة وزيره سوسيبيوس وكان أخبث وأضل من أستاذه فى المكر والاعمال الادارية ومن سيئ الاعمال على هذا المنوال قويت شوكة انطيوقوس الثالث صاحب سوريا وعزم على ارجاع ممالكه واغتصاب فلسطين وفينيقية من تحت يد مصر وأمر بالاستعداد برا وبحرا بقصد انتشاب الحرب بينه وبين المصريين وعهد قيادة اسطوله الى ديوغنطيس أميراله وجعل نفسه قائد جيشه البرى ولما رأى ذلك بطليموس استعد هو أيضا وعهد الرياسة الكبرى لجيشه الى قائد اسمه نقولوس مدرب فى الحروب والوقائع وأظهر دلائل عديدة فى حروب شديدة على استعداده وأهليته لهذه الرياسة وأصدر له أمرا بأن يجرى الاجراآت الواجبة على الملك فى حفظ الاقاليم الجارى فيها الحرب وعهد قيادة اسطوله الى بريفيس وأمره أن يجرى أعماله على العدو حسبما يجب عليه فى حفظ وطنه فعين نقولوس مدينة غزة لجمع جميع الجيوش المصرية ونقطة حربية لارسال الذخائر والمؤنات المصرية ولما وصل نقولوس الى غزة واجتمع عليه عساكره سار منها الى جبل لبانوس أو لبنان وأمسك جميع المضايق والممرات والبوغازات والدروب المحصورة بين هذه السلسلة الجبلية وبين البحر الابيض المتوسط اللازم مرورا نطيوقوس منها وصمم نقولوس مع الثبات والشدة على انتظار انطيوقوس فى هذه المواقع وتوقيف سيره وتقدمه واستمر على ضبط هذه المواقع المستحكمة وأما الاسطولان المصرى والسريانى فكان كلاهما تابعا فى سيره حركة جيشه البرى فى جهات الساحل وبهذا تقابل الاسطولان والقوى البرية عند المواقع التى كانت مضبوطة بواسطة نقولوس وبينما شرع انطيوقوس فى الهجوم على نقولوس من البر اذ اشتعلت نار الحرب بين الاسطولين فى البحر وبهذا كان الحرب جاريا برا وبحرا فى آن واحد فأما فى البحر فان كلا من الاسطولين لم يحصل منه غلبة على الآخر وأما فى البر فان انطيوقوس اكتسب الظفر على نقولوس وألزمه القهقرة الى صيدا بعد أن أتلف من عساكره نحوا من ٤٠٠٠ نفس قتلا وأسرا فتبعه بريفيس بالاسطول الى صيدا وسار خلفهم انطيوقوس الى تلك المدينة عازما على ضربهم فيها ومحاصرتهم ولما رأى انطيوقوس أن التغلب على هذه المدينة غير متيسر له ويتولد منه مصاعب ومتاعب وتلفيات جسيمة لكثرة ما فيها من العساكر والذخائر صرف النظر عن محاصرتها وأرسل اسطوله الى صور وسار هو نحو غليلى ومن بعد أن تغلب على هذه الجهة عنوة بالهجوم على مدائنها عبر نهر الاردن الى جلعاد وتغلب على تلك الاراضى والبلاد وأثخن فى أهلها ولم تأخذه شفقة فى ناسها وسكانها وكانت هذه الاراضى كما ذكرنا سابقا وراثية لسبطى روبين وجاد ونصف سبط منسا الامجاد

ولما رأى انطيوقوس أن الوقت غير صالح للمحاربة والاطالة فيها عاد من طريق نهر الاردن وعهد حكومة سمارية الى هيبولوخوس وكرياس وكانا فرا من خدمة بطليموس والتجآ اليه وأعطاهما ٥٠٠٠ نفس لاجل حفظ واستمرار هذه الاراضى تحت طاعته وسار بما بقى معه من القوى عائدا الى بطليموسية (عكا الآن) فقضى فيها مع عسكره فصل الشتاء وفى فصل الربيع ابتدأ الحرب ثانية فأمر بطليموس بجمع ٧٠٠٠٠ مقاتل من المشاة و ٥٠٠٠ فارس و ٧٣ فيل فى نواحى مدينة بلوزه (الفرما) وجعل نفسه قائد هذه القوى وسار بها من وسط الصحراء الفاصلة لمصر من فلسطين وعسكر فى رافية

بين

بين العريش وغزة وبين هاتين المدينتين تقابل الجيشان وكان جيش انطيوقوس فى العدد قليلا عن جيش بطليموس وكانت قوى انطيوقوس مركبة من ٧٢٠٠٠ نفس من المشاة و ٦٠٠٠ فارس و ١٠٢ فيل وعسكر فى مبادى أمره على مسافة عشرة فراسخ من جيش بطليموس ثم تقدم حتى صار على مسافة خمسة فراسخ منه واتفق انه كلما تقارب الجيشان من بعضهما كثرت المناوشات وازدادت الملاطمات والمنازلات خصوصا بين الذين يتوجهون لجلب المياه أو الذين يذهبون لجمع حطب الحريق وكذا بين الذين يرغبون أن يشهروا نفوسهم فى الكر والفر والضرب فى مثل هذا الحرب
ثم اتفق أن شخصا اسمه طيودوطوس العيطوليانى كان مستخدما سابقا فى الحكومة المصرية جملة من السنين فدخل طيودوطوس فى معسكر المصريين فى ليلة حالكة ومعه شخصان فقط ولم ينظره أحد من المصريين وسار حتى وصل الى خيمة بطليموس قاصدا قتله واراحة العالم منه وانفضاض الحرب بقوة جسارته فمن سعادة الملك انه ما كان موجودا فى الخيمة فى تلك الليلة فقتل حكيمباشى الملك ظانا انه بطليموس وجرح شخصين آخرين ونجا بنفسه هاربا فى ظلام الليل لما رأى من كثرة الانزعاج والغاغة فلهذا عزم الملكان على فصل حربهما وانفضاض وقائعهما وصفا جيوشهما فى ميدان الحرب وركب كل منهما وطاف فى جيوشه يقويها ويوقع الغيرة والحماسة فيها وكانت أرسينوى أخت بطليموس وزوجته غير منشرحة الصدر من قلة العساكر الموجودة أمامها فى ميدان الحرب لكنها ما تركت زوجها طرفة عين حتى فى أثناء اشتعال لهيب نار القتال ونعيق غراب البين وكانت نتيجة هذه الواقعة أن هجم انطيوقوس وكان قائد الجناح الايمن لعسكره على الجناح الايمن لعسكر بطليموس فهزم هذا الجناح وكسره وسار خلفه بحركة هجوم شديدة وغيرة وحماسة عتيدة وكذا هجم بطليموس على الجناح الايسر من عسكر انطيوقوس فبدد شمله وهزمه شرهزيمة وأمر قلب جيشه وكان فيه ارطجنوس القائد بحركة الهجوم على قلب عسكر انطيوقوس فانكسر أيضا قلب جيش انطيوقوس وصار لاطاقة للملك على خلاصه أو ارسال مدد له فرأى واحد من الضباط القديمة وكان مع انطيوقوس علو الغبار والقتام فقال لانطيوقوس ان القلب انكسر فصار ينظر الى عساكره ولما لم يمكنه مداواة ما حصل منه من الغلط وقت اجراء حركته ورأى أن الباقى من جيشه شرعوا فى الهرب والفرار انجبر هو أيضا على أن يصلح خط رجعته ثم تقهقر الى رافيه ومنها الى غزة بعد أن فقد من جيشه ١٠٠٠٠ نفس قتيل و ٤٠٠٠ نفس أسير ولما وجد نفسه انه لا طاقة له على البقاء فى تلك الاراضى أمام بطليموس ترك جميع فتوحاته وتقهقر الى نواحى أنطاكية بما بقى معه من عساكره وتغلب على مينة أنطاكية فى سنة ٢١٧ قبل الميلاد
ومن بعد تقهقر انطيوقوس وهزيمته خضعت جميع سوريا الجنوبية وفلسطين مع المحبة والمعزة لبطليموس وانضموا اليه زيادة عن انطيوقوس بسبب أن هاتين الايالتين كانتا من مدد مديدة تحت الاحكام المصرية وامتلأت خيمة الفاتح بازدحام نواب عموم مدائن تلك البلاد ليقدموا طاعتهم اليه وخضوعهم لديه ويقدموا له أيضا ما معهم من الهدايا الجميلة فقابلهم بالمكارم الجليلة وشرح صدورهم وأزال عنهم سوء فكرهم
ورغب بطليموس فى حصول درجة التقدم فى الاقاليم التى فتحها فزار مدائنها ومن جملتها زار مدينة أورشليم وزار المعبد الموجود فيها وأمر بتقريب القربان الى اله بنى اسرائيل وأهدى للمعبد هدايا

نفيسة جمة ومع كونه دخل فى محال كثيرة من المعبد تفرج فيها لم يدخلها قبله انسان رغب الدخول فى المعبد الاكبر حتى فى معبد قداس القداسة نفسه وكان لا يجوز لاحد الدخول فيه ما عدا الحاخام الاكبر ويكون دخوله فيها كل سنة مرة واحدة فى يوم عيد التكفير الاكبر فتولد من انتشار هذه الحادثة هيجان عظيم فى الامة اليهودية وعرض له الحاخام الاكبر علو مقدار تقديس هذا المكان وأن الاوامر الالهية تحرم دخوله فيه ووقف القسس واللاديون مصادرين له فى جمع كبير منهم ليمنعوه من دخول المعبد الاكبر فصمم على الدخول وتولد من ذلك اضطراب وولولة ونوح فى كافة محال المدينة بسبب ما سيحصل من نجاسة معبدهم وانتهاك الحرمة التى صار هو فى هذا الوقت عرضة لها ورفع يهود المدينة أيديهم الى السماء وتضرعوا الى الله سبحانه وتعالى وابتهلوا اليه فى ازالة هذه المحنة الشديدة وكسر هذه الرأس العنيدة ومع ذلك كانت هذه المقاومات والمنازعات والنوح لم تزد فى رأس بطليموس الا عنادا حتى توجه رغم أنفهم وأراد الدخول فى المعبد وبينما هو داخل فى معبد القداس اذ صرع بأمر من عند الله أزعجته وأفقدت حواسه وخر على الارض صعقا فحملوه أشبه بالميت وأخرجوه من المعبد وأوصلوه الى دار استقباله فترك هذه المدينة وقلبه مشتعل بالنيران من جهة أمة اليهود بسبب ما ناله وما حصل له وتوعدهم بالانتقام وانه لابد من أن يأخذ ثاره منهم وفى السنة التالية أوقع الظلم الشديد والجور الفظيع على اليهود وبالخصوص على اليهود المقيمين فى الاسكندرية وشرع فى أن يلزم هؤلاء ويجبرهم على الدخول فى عبادة آلهة أخرى كاذبة وترك عبادة الههم

ولما عاد بطليموس الى مصر عكف على شرب الخمور وأدمن على الفجور وارتكاب الفواحش من الامور وترك المملكة لوزيره ومحاظيه حتى تولد من ذلك انتشاب ثورة عامة بين المصريين رعاياه استمرت مشتعلة النيران مدة عظيمة من سنى هذه السلطنة وصرف بطليموس مصاريف جمة من الدماء والاموال فى اخماد هذه الثورة ومع ما كان عليه فيلوباطير من قبح الصفات كان محبا للعلوم والفنون وعمر هيكلا باسم عميد الشاعر الجريقى ثم مات بعد أن بلغ من العمر أربعين سنة فى سنة ٢٠٥ قبل الميلاد أضحية لما أفرطه من لذاته فى حياته ومن بعد أن تسلطن سبع عشرة سنة

وقال بعض الرواة ان الرومانيين كانوا يرسلون أحيانا رسلا نوابا عنهم الى بطليموس وكيلوبطره ولا شك أن كيلوبطره هذه هى الملقبة ارسينوى وذلك لاجل تجديد ودادهم وصداقتهم القديمة لمصر ومحبتهم وارتباطهم معها وكانوا يرسلون مع هؤلاء الرسل هدايا للملك والملكة فهدية الملك مقصورة على قميص وجبة من الارجوانى وعلى كرسى مزخرف مصنوع من سن الفيل وأما هدية الملكة فهى قميص مزركش بالذهب ووشاح من الارجوانى ويمكن أن نعبر بلفظ بطليموس لكل ملك حاكم فى مصر ولفظ كليوبطره على كل ملكة حاكمة فى مصر فى دور السلطنة البطليموسية

وكان لبطليموس فيلوباطير من زوجته وأخته أرسينوى ولد اسمه بطليموس أبيفانيس جلس على التخت من بعد موته وكان عمره خمس سنوات وقبل موت الملك فيلوباطير استعفى الداهية سوسيبيوس وزير سلطنته من وظيفته وخلفه فيها طبوليموس وكان شابا حاويا الصفات الجميلة والاخلاق اللطيفة واشتهر فى الجيش بحسن ادارته وعلو مرتبته وتوجهت اليه الاصوات فى المجلس الذى عقد من أجل انتخاب الوزير الاول وتنازل له سوسيبيوس عن ختم الملك وسلمه الختم فى يده وذلك علامة قطعية على دخوله فى الوظيفة فعكف طبولينوس نفسه على تأدية جميع الوظائف الواجبة عليه ودبر أعمال المملكة

واشغالها

وأشغالها فى مدة حياة قيلوباطير ومن بعد مدة قليلة رأى هذا الوزير أن لا طاقة له ولا استعداد على تحمل أعباء هذه الخدمة الكبيرة السامية وكذا رأى فى نفسه انه ليس فيه مهارة ولا نباهة أسلافه من الوزراء الا انه لما كان مباشرا ادارة الماليات المصرية وحائزا فوق رأسه شرف المملكة وعزتها وكان صرف المرتبات وغيرها جاريا بمعرفته صار أرباب الوظائف العالية والسافلة يجلسون معه ويؤدون ما يجب عليهم من احترام خدمته ويرشدونه لما فيه الصواب العائد عليه وعليهم كما أنه كان على غاية من السخاء والكرم للمشتركين معه فيما يرغبه من الاعمال

فمن كثرة ما كانوا يؤدونه اليه من التملقات الخارقة للعادة غلظت آذانه وكبرت نفسه وتشامخ بأنفه على الباقين من أهل المملكة ودخل فى لذاته وسار مع شهواته حتى صار لا منفعة فيه لاحد من رعايا المملكة

ولما تجرع بطليموس فيلوباطير كاس الموت ونزعت روحه كان حاضرا وقت موته أغاسوكليس صهره وأخته زوجة الملك المسماة أغاسوكليه وخدمهما فأخفيا موت الملك مدة ما قدرا مكانها بقصد أنهما يجدان زمنا لحمل جميع النقود والجوهرات والاشياء الاخر النفيسة الموجودة فى السراى واخفائها وصمما تصميما ثابتا فى قلبهما على استمرار دوامهما على الحالة التى كانا متمتعين بها فى مدة حياة الملك بكونهما يغتصبان الوصاية على الملك الصغير وينوبان عنه فى المملكة وظنا أن هذه الحالة ممكنة الحصول والاجراء ان أمكنهما اخراج طبوليموس من وظيفته وطرده من وزارة المملكة ثم قررا فيما بينهما ما يجب اجراؤه فى عزله من وظيفته وأشهرا موت الملك للعموم فاجتمع فى الحال مجلس من المقدونيين كان حاضرا فيه أغاسوكليس وأغاسوكليه أخته ومن بعد أن سكب أغاسوكليس عبرات دموعه على خدوده عرض متوسلا الى المجلس حماية الملك الصغير الموجود على ذراعيه والمحافظة عليه وقال ان الملك أباه حال الغرغرة عهد اليه الوصاية على أغاسوكليه هذه الموجودة فى المجلس وأن يكون على صداقة تامة ووثاقة أكيدة للمقدونيين ثم عرض متوسلا لارباب المجلس فى مساعدته على طبوليموس الوزير لانه بلغه أنه باذل جهده وصارف همته فى اغتصابه التاج والحكومة من هذا الملك الشاب الصغير وان عنده شهودا يشهدون له بذلك يمكنه جلبهم أمام أرباب المجلس يشهدون ويثبتون ما هو عليه من الخيانة والتدليس وأخذ فى حض أرباب المجلس على عزل الوزير ونفيه من البلاد وظن فى نفسه أنه بهذه الحيلة القبيحة الضعيفة يمكنه خلع طبوليموس فى الحال ومن بعده يستحصل بسهولة على وظيفة النيابة الا أن هذه الحيلة كانت من الغلطات ومن أنواع الافتراآت فأقسم الامة فى الحال على هلاك أغاسوكليس وأخته وكل عائلتهما حتى خدمهما ونشأ من هذه الفتنة تذكار ما كانا عليه من الجرائم القديمة فقام أهل الاسكندرية جميعا عليهما وأخذوا الملك الصغير من أيديهما وأجلسوه على أريكة المملكة فى الايدروم ولقب بطليموس الخامس ثم جلبوا أمامه أغاسوكليس وأخته وعونتنى أمه فأمر بقتلهم الثلاثة وأخذ الاهالى أجسامهم وفعلوا فيها كل كريهة وجروهم فى الشوارع والحارات وطافوا بهم العطف والازقات حتى مزقوهم قطعا وكذا جميع أقاربهم وخدمهم آلت عاقبة أمرهم الى هذه المصيبة ولم ينج منهم أحد دخل فى هذه الجريمة وصاروا عبرة لامثالهم ومن بعد ذو حذو منوالهم

وكان بطليموس أبيفانيس بن أرسينوى المقتولة فعهدت محافظة شخصه الى سوسيبيوس بن سوسيبيوس الداهية الذى كان وزيرا مدة السلاطين الثلاث السابقة ولم يذكر لنا التاريخ هل كان أبوه

على قيد الحياة الى هذه المدة أم لا الا أن المعول عليه أنه عاش عمرا طويلا لانه بلغ ماينوف عن الستين سنة فى خدمة المملكة وماوجد داهية فى المكر والخداع وارتكاب الجرائم والبدع وأشد قطعا فى الاعمال الادارية والسياسية أكبر منه ونسب اليه أشد الجرائم والذنوب والاهوال والكروب لكونه كان السبب فى قتل ليصيماخوس بن بطليموس وأرسينوى بنت ليصيماخوس وماجاس بن بطليموس وبرنيس بنت ماجاس وبرنيس أم بطليموس فيلوباطير وكليومنس ملك أسبرطه وكان وصل مصر ملتجئا اليها وأخيرا كان سببا فى قتل أرسينوى بنت برنيس ومن العجب أنه مع ما كان عليه من هذه الاحوال القطيعة فانه استمر متقلدا زمام الحكومة مدة طويلة من الزمن وخرج أخيرا منها فى سلم وسلام محفوفا بالاجلال والاكرام

وفى مدة حياة بطليموس فيلوباطير كان أنطيوقوس ملك سوريا وفيليب ملك مقدونيا على رغبة شديدة فى الغارة على ممالك بطليموس الا أنهما كانا ممنوعين عن ذلك من شدة فيلوباطير وقوته وكانا مساعدين له نفاقا على أعماله وأشغاله ثم لم يمض قليل حتى مات فيلوباطير وترك ابنه طفلا صغيرا لا تجوز الطبائع البشرية ولا الاحوال الدنيوية وقوع الارتباك فى ممالك أبيه فما أسرع كونهما دخلا فى معاهدة جنائية مع بعضهما وحرض كل منهما الآخر على قلب هذا الوارث الشرعى والاستحواذ على ممالكه وتقسيمها بينهما وكان القائم بتدبير المملكة وأعمالها طيبولينوس ومع أنه كان غير لائق كما رأى فى نفسه لتحمل أعباء هذه الادارة الا أنه كان صادقا أمينا وتولد من الهجوم المتحد الحاصل من سوريا ومقدونيا تجريد مصر من جميع ايالاتها البرانية ماعدا قبرص وصيرنقيه ولما أرادوا الهجوم على مصر وأحس طيبولينوس بعدم طاقته على محافظة مصر طلب من الرومانيين المساعدة فأرسلوا اليه فى سنة ٢٠١ قبل الميلاد ليدوس متقلدا زمام الاعمال فى مصر وبواسطة ما بذله ليدوس من الهمة حفظت مصر من التغلب عليها وكان ليدوس على غير رغبة من رجوع الاملاك البرانية التى فقدتها مصر أو كان لا طاقة له على رجوعها وهو الاصح

وبلغ بطليموس الخامس رشده تحت حماية ووقاية أصدقائه الرومانيين من أنطيوقوس وغيره المتلهفين على الغلبة على ممالكه فى سنة ١٩٦ قبل الميلاد عندما وصل سنه الى أربع عشرة سنة ولما رأت الحكومة المصرية والادارة الاسكندرية ماعليه رومة من سرعة التقدم وزيادة الشوكة والغلبة على الممالك الاخر وخشيت وزارة مصر جدا من الخطر والضرر الذى يقع على المملكة من اتحاد فيليب ملك مقدونيا وأنطيوقوس ملك سوريا اللذين اتحدا اتحادا زائدا مع بعضهما فى الغارة على المملكة المصرية وأعمالها والتغلب عليها عرضت تلك الوزارة للرومانيين فى أن تكون المملكة تحت حمايتهم فعلا وقدمت لهم الوزارة الوصاية على الملك والنيابة فى الحكم عنه حتى يبلغ سن الرشد الكافى وقالوا فى عرضهم ان الملك المتوفى أوصاهم عند موته بان يجروا هذا الفعل مع الرومانيين وكان من المنفعة العائدة على الرومانيين عدم وقوع الارتباك فى دولتى فيليب وانطيوقوس وأن لا يمنعاهما من أن يضيفا لممالكهما أقاليم غنية من ضمنها مملكة مصر وقتئذ ورأوا أن لا يصعب عليهم دخولهم فى حرب مع هذين الملكين اذ أنه يوجد بين أحدهما وبينهم اختلافات شديدة وهو فيليب ملك مقدونيا وبواسطة هذه الاسباب ماحصل عند الرومانيين أدنى تردد ولا ريب فى قبولهم الوصاية والنيابة المعروضتين من طرف الوزارة المصرية وعينوا فى الحال من طرفهم ثلاثة نواب أرسلوا واحدا منهم

الى

الى فيليب والآخر الى أنطيوقوس يعلمانهما بما هما عليه من العزم من طرف الرومانيين ويقدمان لهما النصيحة التامة بعدم التعدى ووقوع الارتباك فى ممالك بطليموس الخامس اذ ان هذه الممالك تحت محافظة الرومانيين مع الملك الشاب وان حصل شئ خلاف هذا ربما تؤل النتيجة الى اشتعال حرب بينهم ويبذل الرومانيون جهدهم فى كل ما يجب اجراؤه فى الحماية على هذا الملك

وأما الرسول الثالث واسمه عمليوس فانه توجه الى مصر ولما وصل الى الاسكندرية تقلد زمام الوصاية والنيابة لبطليموس الخامس باسم الرومانيين وسار فى الاعمال أحسن سير حسب التعليمات التى أخذها من مجلس أعيان رومة بخصوص وظيفته ورتب الاشياء والاعمال وجعلها على منوال ثابت يعود منها النفع والفلاح على المملكة وعين أريسطومنس الاخارنيانى لملاحظة تهذيب الملك الشاب وتربيته وجعله وزيرا أول للمملكة وكان أريسطومنس هذا ناشأ قديما فى الحكومة المصرية وتربى فى أعمالها وعرف أشغالها والادارة التى تعود على المملكة بالنجاح والفوز وكان أدى أشغاله بالامنية والصداقة فى الوظائف والادارات التى كان مستخدما فيها سابقا

وفى مدة وزارة أريسطومنس هذا عزم أنطيوقوس على التوجه بنفسه الى سوريا الجنوبية لاجل استرداد ما تغلبت عليه مصر وأخذته منه وذلك أن الرومانيين لما عهدوا لأريسطومنس تدبير وادارة الاعمال المصرية كان أول شغل اشتغله هذا الوزير هو التحفظ على نفسه من غارة الملكين فيليب صاحب مقدونيا وأنطيوقوس صاحب سوريا ولهذا الغرض جمع أجود ما يكون من العساكر على قدر امكانه وأرسل من طرفه شخصا اسمه سكوباس الى نواحى عيطوليا من بلاد الجريق بمبالغ جمة من النقود لجمع ما يقدر على جمعه من العساكر من تلك الجهة وكان عساكر عيطوليا فى هذا الزمن أقوى عسكرا وأحسنهم تدريبا فى الحروب وكان سكوباس هذا فى الاصل متمتعا بأعلى الوظائف وأرقاها فى بلاده ومنظورا فيه أنه أمهر وأشجع واحد فى عصره ولما حان أوان وقت سقوطه من علو درجته وطرده من بلاده أعجب بنفسه وشمخ على أبناء جنسه مؤملا أن تدوم له هذه الرتب الجليلة والدرجات العالية الجميلة غير أنه خاب أمله وضاع عمله وتساقطت عليه العيوب فازدادت عليه الكروب حتى التزم أن يترك عيطوليا ويدخل فى خدمة مليك مصر ولما توجه سكوباس هذا لجمع العساكر نجح نجاحا تاما فى أن جلب معه نحوا من ٦٠٠٠ عسكرى من العساكر العيطوليانية وهى تقوية عظيمة للجيش المصرى

فلما رأت حكومة الاسكندرية ان انطيوقوس مشتغل بالحرب فى آسيا الصغرى مع أطالوث ملك برجاموس ندبت سكوباس وأرسلته الى فلسطين وسوريا الجنوبية لاجل خلاص هاتين الايالتين من يد انطيوقوس واعادتهما الى الحكومة المصرية فأشعل سكوباس الحرب فى هاتين الايالتين مع غاية النصر والظفر ورد كثيرا من المدائن واسترجع يهوذا وطرد المحافظين الذين كانوا فى أورشليم وقلعتها ولما قرب عليه فصل الشتاء ارتد قافلا الى الاسكندرية مثقلا بالغنائم الثمينة التى استحوذ عليها فى تغلبه على تلك البلاد وكان سبب هذا النجاح والظفر هو غياب انطيوقوس وعدم مقاومة أهل البلاد وعساكره المستوطنين الموجودين فيها وبمجرد ما وصل انطيوقوس من غيبته الى هذه البلاد تغيرت جميع الاحوال فى الحال وردها الى نفسه فعاد اليه سكوباس من مصر فى رأس جيش كثيف فهزمه انطيوقوس شر هزيمة فى واقعة حصل فيها سفك دماء كثيرة وكانت الواقعة فيها غزيرة وكانت بالقرب

من منبع نهر الاردن ولما فقد الكثير من عسكر سكوباس التزم الهرب الى صيدا فدخلها وأغلق عليه أبوابها مع العساكر الذين كان تركهم فيها ومقدارهم ١٠٠٠٠ نفس فسار انطيوقوس خلفه وحاصر المدينة وشدد عليها وضيق على حصارها حتى فرغت منها الذخائر والمؤن وانجبر سكوباس على تسليم المدينة بما فيها واكتفى بخلاص نفسه ونجاتها من الهلاك ومع هذا فان حكومة الاسكندرية كانت بذلت ما فى طاقتها وقوتها من أجل خلاصه وخلاص المدينة وأرسلت ثلاثة من القواد ذوى اقدام وشجاعة ومهارة مع أجود عساكر صار انتخابهم من المملكة لاجل رفع الحصار عن المدينة وخلاص المحصورين فيها الا أن انطيوقوس بذل ما فى قوته فى كسر هذه الارسالية وهزيمتها وانجبر سكوباس على تسليم المدينة والنجاة بنفسه وعاد راجعا الى الاسكندرية عارى الرأس حافى القدم مجردا عن السلاح وصح فيه قول القائل

سافرت سفره يا دندون * بانك تكيد الرجاله طقيتك أخذها التيار * ورجعت راسك عريانه

ثم لم يمض قليل من الزمن حتى شاع الخبر بموت بطليموس أبيفانيس فظن انطيوقوس فى الحال واعتقد فى نفسه أنه صار ملك مصر وسيدها ونزل فى اسطوله قاصدا التوجه اليها والتغلب عليها ونزل فى مبادى أمره فى افسوس وفيها أصدر أمره بجمع جميع المراكب الموجودة وضمها الى أسطوله والاسراع فى السير على قدر الامكان نحو مصر الا أنه عند وصوله الى بطره وردت اليه الاخبار الحقيقية بأن ما أشيع من موت بطليموس لا صحة له وأنه موجود على قيد الحياة فمن ثم عدل عن رأيه وغير فكره وخط سيره وتوجه نحو جزيرة قبرص بعزم التغلب عليها وفى أثناء سيره سقطت على مركبه التلاقيح والرياح واشتدت عليها القربونات والنو حتى أغرقت الكثير منها وهلك الجم الغفير من عساكره ورجاله وخابت جميع اجراآته وأعماله وعد نفسه من السعداء وقت عوده ودخوله فى مينة سلوقية بما بقى معه من اسطوله ومنها توجه الى أنطاكية ليقضى فيها فصل الشتاء

وكان أساس اشاعة موت بطليموس ناشئا من ثورة ترتبت تظلما وسوء الاحوال لزعمهم افقد حياة بطليموس وكان أصل هذه الدسيسة وترتيب الثورة سكوباس وذلك أن هذا القائد لما رأى نفسه (مثل عرابى) فى رأس جميع العساكر الاجنبية وكان الجم الكثير من هذه العساكر هم العساكر العيطوليانيين وهؤلاء أيضا كانوا يتصورون فى أنفسهم أنهم أقوى عسكر وأمهر وأنظمه فى المحاربات وأنه بواسطتهم يمكن لرئيسهم سكوباس اغتصاب السلطنة فى حال صغر الملك فلما عزم سكوباس على هذا الامر أخذ يطرق أبواب عقول اخوانه وأصدقائه وصار لا يهدأ فى نومه ولا يلتذ من أكله وشربه حتى يجد له فرصة فى قيام ثورته فصار يحرض اخوانه ويدس الدسائس ويشعل الوساوس ويوقد النيران ويظهر العصيان حتى اكتشف اريسطومنس الوزير الاول على اجراآته وتحقق من غيه وثوراته وأنه على شرف القيام والوقوع فى الارتباك العام فأمر بالقبض على سكوباس ومن معه من الناس وأحالهم على المحاكمة أمام مجلس عقده للفصل فى ثورتهم وتوقيع الاحكام عليهم عند اثبات جناياتهم ولما ظهرت على سكوباس ومن معه الجريمة صار قتله ومن معه فى حالة مهينة ولم تنتطح فى ذلك عنزان ولم يقم فيها رجلان ومن هذه الدسيسة والفتنة الخسيسة ضاع اعتماد الحكومة ووثوقها من العساكر العيطوليانيين وكانوا فى هذا الوقت على درجة عظيمة من الثقة عند الحكومة فطردتهم ومن محل خدمتهم أبعدتهم وأرسلتهم الى بلادهم فقنعوا بالفقر والمهنة بعد أن كانوا فى أرغد عيش ونعمة

حسنة

حسنة ووجد فى مصلحة سكوباس من بعد موته كثير من النقود والكنوز والاحجار الثمينة والفيروز ومن المحقق أنه كان نهبها وسلبها من الاقاليم التى كان حاكمًا فيها وبما أن سكوباس المذكور فى مدة نصرانه فى فلسطين أخضع يهوذا وأورشليم للمملكة المصرية فكان ولاريب أنه جمع هذه الكنوز من تلك الجهات ثم تركها ومات ولم يغن عنه جمعه شيأ فى الحياة وبعد الممات

وفى السنة الاولى التى تقلد فيها بطليموس الخامس أبيفانيس زمام السلطنة حكم بطريق العدل والسعد حتى نال رضا العموم والثناء عليه والخضوع لديه وذلك أنه كان سائرًا فى أحكامه تحت ارشادات اريسطومنس الفحل السياسى وكان له بصفة أب آخر الا أن تملق الحواشى وأرباب الدولة (السم اليومى للملوك) تغلب على الارشادات الزكية والنصائح الفضلية الصادرة من هذا الوزير النبيل وأعرض الملك الشاب عنه حتى صار لا يسمع له كلاما ولا يجل له مقاما ولا يقوم له بأدنى اكرام فكبس الوزير عليه بالنصائح والارشادات التى يعود منها النفع على علو سلطنته وزيادة شوكته فحملته طباعه الخبيثة وماهو عليه من عدم طاعته لكلام هذا الوزير الناصح أن دس له السم القاتل ومات هذا الرجل الجليل وخلا الجو لهذا الملك الرذيل من تصديع نصائح الوزير الامين الصادق وترك نفسه بالكلية لاغراضه الشهوية وعيوبه وفجوره ومفاسده الوقتية وغرق فى لهوه ولذاته ودخل فى جميع أصناف الكبائر والعيوب وصار لا يحسب حساب محسوب ولا دليل له فى الادارة والاعمال الا ما يشتهى ويريد من الاوامر والاقوال وعامل رعيته بالجور الشديد والعذاب والظلم المديد حتى صار للمصر بين عدم الطاقة ونكثوا العلاقة وصار الظلم والجور يتراكم عليهم يومًا فيومًا فابتدؤا فى المؤامرة بينهم خفية سوية وعقدوا جمعيات ضد الملك سرية وعلت درجة الظلم والجور الى أعلى نهاية فدخل بعض كبار الدولة فى هذه الثورة وصمموا على عزل الملك ولما صاروا على شرف العمل خاب منهم الامل وانتخب الملك له وزيرًا أول اسمه بوليقراط لاجل اخراج نفسه من هذه المتاعب والمصاعب التى أوقع نفسه فيها وارتبكت الامة فى نواحيها وكان بوليقراط هذا رجلا مقداما ماهرا شجاعا عاذاكا فى الادارات الحربية والسلمية مجربا فى الحروب ارتقى فى العسكرية الى أعلى رتبة فى الجيش الذى كان تحت قيادة والده وظهرت عليه النجابة والهمة العالية فى واقعة رافية المتقدمة الذكر فكان معظم افتخار النصر فيها له ثم من بعدها توظف حاكما فى جزيرة قبرص ونال طالع السعد فى الاسكندرية عند الكشف على ثورة سكوباس وبمساعدة هذا الوزير البطل أخمد بطليموس الثورة وألزم زعماءها وكانوا من أكابر أعيان المملكة بالتسليم والانقياد بشروط جبرت خاطرهم غير أنه لما تيسر له الحصول على القبض على هؤلاء الزعماء قتلهم أجمعين فتولد من هذا الفعل القبيح ارتباكات جديدة قامت ثانية عليه خلصه منها أيضا بوليقراط

ثم ان بطليموس بعد أن أخمد العصاة فى بلاده عزم على الغارة على سلقوس ملك سوريا ولما شرع فى تجهيز الاستعدادات الحربية لهذا الحرب سأل بعض كبار الدولة واحدا من ضباطه من أى جهة يمكنه أن يجمع نقودا لهذا الحرب فأجابهم أن أحبابه عندهم خزائنه فاستخرج أرباب الدولة من هذا الجواب أنه مادام معتمدا على أكياسهم فانها هى المبالغ الكافية لهذا الحرب ولما رأى أرباب الدولة أنهم على شرف الخراب والدمار من هذا الحرب وأن منعه من هذه الحادثة أجود من طاعتهم له دسوا له السم فى مأكوله ومات هذا الملك المشؤم فى السنة التاسعة والعشرين من عمره بعد أن تسلطن أربعا

وعشرين سنة وكان ذلك فى سنة ١٨١ قبل الميلاد وكان متزوجا كليوبطره بنت انطيوقوس وخلفت منه ولدا اسمه بطليموس فيلوميطور وهو بطليموس السادس وكان عمره ست سنوات أو سبعة عند موت أبيه

وخلف بطليموس السادس أباه بطليموس أبيفانس وتقلدت كليوبطره أرملته وأخت انطيوقوس أبيفانس زمام الوصاية والنيابة فى أحكام السلطنة نيابة عن ابنها الطفل الصغير بطليموس فلوميطور وأطلقت عنان محافظتها وشهامتها فى حفظ مملكتها وساست الادارة والاعمال مع الجودة والاتقان وكانت سدا منيعا وحصنا حصينا من وقوع ارتباكات وقلاقل بين سوريا ومصر بما أنها كانت أم ملك مصر وأخت ملك سوريا فحكمت ثمان سنوات ثم أفلت شمس سلطنتها وماتت فى سنة ١٧٣ قبل الميلاد ومن بعد موتها انتقلت الدولة الى أيدى اثنين من الوزراء كانا غير أهل لها مع ما كانا عليه من الفساد وقبح السيرة وهما الينوس رجل ممتاز بالشرف من بين أهل البلاد وخصى من الخصيان اسمه عولوس تعين لملاحظة تربية الملك وتهذيبه فما كان من هذين الوزيرين الا انهما أوقعا مصر فى حروب مع انطيوقوس صاحب سوريا استمرت مدة من الزمان وذلك أنهما أرسلا وفدا من طرفهما الى أنطيوقوس يطلب منه سوريا الجنوبية وفلسطين فتولد من هذا الطلب وقوع المملكتين فى الحرب وكانت كليوبطره فى حياتها تخشى من حصول مثل هذه القلاقل والارتباكات لكن هذان الوزيران لم ينظرا بعين الاعتبار الى انطيوقوس ولا ارتابا فى طلب ما يعتقدان أنه حق ملكهما اذ من المحقق أن الملوك المصرية البطليموسية كانوا مستحوذين على هذين الاقليمين من عهد بطليموس الاول لاغوس الى أن اغتصبهما انطيوقوس الاكبر من بطليموس أبيفانيس ثم تركهما الى صلقوس ابنه وليس له حق آخر فيهما الا الغلبة عليهما وورثهما انطيوقوس هذا من أخيه صلقوس

وادعى المصريون لاجل تقوية طلبهم أنه فى عصر التقسيم الاخير لمملكة اسكندر بين الاربعة قواد الذين خلفوا اسكندر من بعد موته وصاروا ملوك كل شئ من بعد واقعة عيصوص وقع هذان الاقليمان من حصة بطليموس لاغوس حتى انه هو وخلفاءه الذين وارثوا التاج من بعده كان تحت حوزتهم هذان الاقليمان من ابتداء ذلك الوقت لحد واقعة بانياس وفى هذه الواقعة ظفر انطيوقوس الاكبر وتغلب على هذين الاقليمين واغتصبهما من مصر وان هذا الملك عهد عند زواج ابنته الى ملك مصر عود هذين الاقليمين له نظير مهر وصداق بنته وكانت هذه المادة هى المادة الاساسية التى عقد عليها الزواج ودخلا فى حوزة الحكومة المصرية

وأما انطيوقوس فانه جحد هذين الطلبين بالكلية وادعى خلاف ماتدعيه الحكومة المصرية وقال انه فى القسمة العمومية التى كانت حصلت فى ممالك اسكندر وقعت جميع سوريا بما فيها سورية الجنوبية وفلسطين فى حصة سلقوس نكاطور (الفاتح) وبهذا صار هذان الاقليمان من تبع هذا الملك ومن ضمن أملاكه فى مملكة سوريا وأما من خصوص عقد الزواج الذى من أجله طلب المصريون هذين الاقليمين فانه وهم مطلق وتصور لا أصل له ولما وجد المصريون أنه غير متيسر لهم الحصول على مايرغبونه بأى دليل من هذين الدليلين رأوا أنه من الضرورى تيسر الحصول على رد حقوقهم بواسطة القوة والسلاح

ولما بلغ بطليموس السادس فيلوميطور خمس عشرة سنة من عمره صار اعلان بلوغ رشده وعمل فى

الاسكندرية

الاسكندرية تجهيزات عظيمة واستعدادات كبيرة من أجل تتويجه وجلوسه على الاريكة المصرية حسب العوائد الجارية المحلية فأرسل انطيوقوس أحد كبار دولته واسمه أبولينوس سفيرا من طرفه يحضر تتويج الملك ويهنئه باسم انطيوقوس على جلوسه على التخت وكانت هذه الحالة فى الظاهر وأما فى الباطن فهو من أجل كشف ومعلومية الاشغال الجارية عند المصريين فيما يختص بمسئلتى سوريا الجنوبية وفلسطين وماهى مقاصدهم وتصميمات اجرا آتهم ولما عاد أبولينوس من مصر الى انطيوقوس عرض له أن المصريين شارعون فى استعدادات كبيرة من أجل الحرب اللازم لخلاص الاقليمين المذكورين وقال له انهم فى شغل زائد وهمة كبيرة ولما سمع انطيوقوس من سفيره ما عرضه عليه توجه فى الحال من طريق البحر الى يافا وكشف ثغور مملكته وحدودها وأمر بانشاء المدافعات والتحصنات وعمل التحفظات اللازمة لصد نوع أى هجوم يقع من المصريين على حدود ممالكه ثم تفقد أورشليم وكذا جميع المدائن الموجودة فى سوريا الجنوبية وفلسطين فقابله أهلها بالاحترام ثم عاد قافلا الى أنطاكية

ولما وجد انطيوقوس فى نفسه أن له قدرة كافية على اشغال الحرب من وقت رجوع أبولينوس من مصر عزم على الشروع فى الحرب من غير أن ينتظر وقوعه فى بلاده وممالكه واستصوب أن يجرى حركاته العسكرية فى نفس بلاد عدوه وتصور فى عقله أنه من حيث ان عمر بطليموس ست عشرة سنة وانه محكوم مع رعيته بوزراء ليسوا أهلا للادارة والسياسة يكون له قدرة على التغلب عليه وجعله تحت يده بشروط وعهود حسب رغبته ومن الاتفاق العجيب فى سعد هذا الملك النجيب أن الرومانيين فى هذا الحين وهم حماة المملكة المصرية كانوا مشتغلين بحروب شديدة لا يمكنهم معها مساعدة مصر ومدافعتهم انطيوقوس عنها وبذا وجد انطيوقوس نفسه فى فصل صالح له يمكنه فيه فصل الخلاف الواقع بينه وبين المصريين فى شأن هذين الاقليمين ومن ثم جعل نفسه فى رأس جيشه وسار متوجها نحو الثغور المصرية حتى وصل الى جبل كاسيوس بالقرب من بلوزه فالتقى بجيش بطليموس فوقعت هنالك الواقعة واشتبك القتال واشتعلت نيران الحرب فكان النصر فيها لانطيوقوس وانهزمت الجيوش المصرية وتشتتوا داخل بلادهم وعكف انطيوقوس فى الحدود وشرع فى تحصينها زيادة عما كانت عليه لصد كل غارة تحصل من المصريين بخصوص تغلبهم على اقليمى فلسطين وسوريا الجنوبية وكانت هذه أول غزوة له فى مصر ومن بعد أن انتظر مدة فى الحدود ولم يلق كيدا من المصريين سار بجيشه الى صور ليقضى فيها فصل الشتاء وفى المدائن الاخرى المجاورة لها مع جيشه وقضى انطيوقوس فصل الشتاء فى استعداد تجهيزات حربية جديدة لاجل الغارة على مصر مرة ثانية ورأى نفسه أن له قدرة وطاقة بالنسبة لحالة الوقت على الغارة على مصر برا وبحرا وجمع بطليموس لذلك جيشا عظيما وتأهب لملاقاة انطيوقوس الا انه ما كان فيه قوة على دفع انطيوقوس ولما التقى الجيشان تغلب انطيوقوس مرة أخرى على بلوزه وشتت جيش بطليموس فى واقعة حصلت فى الحدود وسار بجيشه فى قلب المملكة المصرية ومن بعد هزيمة هذا الجيش صار لا يلقى كيدا من المصريين وأظهر فى غارته هذه أنه لم يقصد بحربه ضرر أحد من الناس الا ابن أخته فقط ومنع عساكره من القتل والسلب واستمر سائرا بعساكره من دون أن يتعرض لاحد من أهل المملكة بسوء فجذبت هذه الرأفة والشفقة قلوب المصريين اليه ولما تقدم فى داخل المملكة وفد اليه الاهالى أفواجا

يقدمون له طاعتهم وبهذا تغلب على منف بسرعة وعلى جميع ما بقى من المملكة المصرية الا مدينة الاسكندرية فانها استمرت على مقاومتها له وقبض انطيوقوس على بطليموس السادس وجعله آلة تحت يده لخضوع الامة المصرية له وغضب أهل الاسكندرية لذلك غضبا شديدا وأقاموا أخاه الاصغر بطليموس فيسكون بدلا عنه ملكا على مصر وتداخل الرومانيون فى هذه المسئلة وأرغموا انطيوقوس على تسليم فتوحاته وانسحابه وعسكره من المملكة واتفق الاخوان على أن يتسلطنا سوية مع بعضهما وتزوج بطليموس السادس أخته كليوبطره وما كان له أخت غيرها وجدد الاثنان الحرب مع ملك سوريا فتقدم انطيوقوس على قبرص وتغلب عليها وسار نحو مصر فى سنة ١٦٨ قبل الميلاد ولما صار على شرف التغلب على الاسكندرية أرغمه الرومانيون أيضا بالقهقرة والعود الى بلاده ومن بعد مضى أربع سنوات وقع بين الاخوين شقاق فذهب بطليموس السادس الى رومة وفيها عضد مجلس الاعيان أمره ولما لم يقبل فيسكون ما قرره مجلس الاعيان برومة اشتعل حرب داخلى كان غلاقه تغلب بطليموس السادس على فيسكون فى سنة ١٥٥ قبل الميلاد وقبض عليه ثم بعده أعتق بطليموس أخاه ونجى له حياته وأعاد له ممالكه ومن بعد مضى بضع سنين قوى بطليموس السادس عصيان اسكندر بلاس فى سوريا على انطيوقوس قاصدا بذلك أخذ ثاره من البلاد وساعد اسكندر على جلوسه على تخت سوريا ثم حصل من اسكندر بلاس خيانة فى حق بطليموس فوجه رغبته وميله الى ديمتريوس وساعده على اخراج عدوه من المملكة وسقط من فوق حصانه وقتل فى الواقعة الاخيرة مع اسكندر بالقرب من أنطاكية فى سنة ١٤٦ قبل الميلاد

وخلف بطليموس السابع الملقب عوباطير أباه الا أنه من بعد مضى أيام قتله عمه فيسكون وبمساعدة الرومانيين صار فيسكون ملك مصر وصرنيقية وتلقب بلقب بطليموس الثامن ومعنى فيسكون المحسن أى فاعل الخير ولهذه اللفظة معنى آخر وهو أوفرت أى ذو البطن الضخمة وقيل ان كليوبطرة ملكت مصر بعد أن مات زوجها وهو أخوها أيضا واجتهدت فى أن تجعل التاج على رأس ابنها الذى خلفته منه وكان طفلا صغيرا وكان بعض أكابر الدولة له رغبة فى فيسكون أخى الملك المتوفى وكان فى هذا الوقت ملك صرنيقية فأرسلوا له بالحضور الى الاسكندرية فأخذت كليوبطره الاحتراسات اللازمة فى المدافعة عن نفسها وأرسلت الى قواد جيوش اليهود فى سوريا لمساعدتها ومعاضدتها وكان موجودا فى هذا الوقت سفير من رومة اسمه ثيرموس فى الاسكندرية فتداخل فى هذه المسئلة ومهد هيئتها وحصل الاتفاق بأن بطليموس فيسكون يتزوج كليوبطره ويربى ابنها وأن يكون هو الوارث للتخت وأن فيسكون يقبض الآن على زمام التخت مدة حياته ثم من بعد مضى قليل من هذا الاتفاق تزوج فيسكون الملكة كليوبطره واستحوذ لنفسه على التاج وعند زواجه بها قتل ابنها وهو على ذراعيها وتسلطن فيسكون فى مصر سبع سنوات ولم يقص لنا التاريخ شيأ من أخباره وحوادثه فى هذه المدة الا أنه كان قبيح الطبع فظيع العمل والعيوب مكروها مموتا فى حركاته وسكناته وما وجد ملك قبله كان مثله مثل فى الفجور والدناسة والعنف وسفك الدماء مثله وجميع أوصافه كانت على غاية من الاحتقار والنقص وكان فى أقواله وأفعاله كطفل لا يعقل ما يقول ولا يدرى ما يفعل فمن ثم جلب على نفسه نقصه ورذالته عند رعيته اشمئزازهم منه ولو لم يكن وزيره الاول المسمى هيراكس موجودا لخلعته الامة من السلطنة وكان هيراكس هذا من أهل انطاكية وكان فيها من ضمن رجال الدولة فى حكومة

سلطنة

سلطنة اسكندر بلاس وورد مصر بعد وقوع ثورة كانت حصلت فى سوريا ودخل فى خدمة بطليموس فيسكون وصار قائد جيوشه ووزيره الاول وبما انه كان مجربا فى الحروب وحنكته التجاريب ومدبرا ماهرا فى السياسة أجرى ادارة الحكومة المصرية على ميزان العدل وصار يصرف العساكر وأرباب الخدمات مرتباتهم شهريا عند أوقات صرفها لهم وكان يدارى عيوب وقبائح أستاذه ويحافظ عليه وعلى تخته واجتهد اجتهادا تاما فى استتباب الراحة وحصول الامن فى المملكة

ومن بعد موت هذا الوزير دخل هذا الملك المجنون فى الاعمال والادارة المصرية فى السنين التى جاءت بعد وسيرها على أقبح محور وأرذل طريق وذلك أن الملك فيسكون أمر بقتل معظم الناس الذين سعوا واجتهدوا فى لبسه التاج من بعد موت أخيه ووضعوه على رأسه وذكر بعض المؤرخين أن هيراكس الوزير كان من ضمن هؤلاء المقتولين الا انهم لم يذكروا من قتله وكذا أمر بقتل ونفى كل من كان منتميا الى أخيه بطليموس فيلوميطور والذين كانوا متقلدين وظائف فى مدة سلطنته وأمر عساكره الاغراب بالقتل والسلب فى مدينة الاسكندرية حتى أزعج أهلها وخوفهم وبدد شملهم وهتك عرضهم فانجبر غالب سكان المدينة خشية من عنفه وقبحه على التباعد عنه والارتحال من الاسكندرية الى الممالك الاخرى الاجنبية وخلت المدينة من سكانها وناسها وصارت بلقعا خرابا ولما رأى فيسكون مساكن المدينة خالية من سكانها قائمة على أرجائها نشر من عنده منشورا الى البلاد المجاورة لها بأن كل من جاء وسكن الاسكندرية مهما كانت بلاده ودرجته فانه ينال منحة الفوائد فقبل كثير من الناس هذا الاعلان بما أنهم رأوه صالحا لمنافعهم وتوجهوا الى الاسكندرية وأعطيت لهم المساكن والبيوت التى تركها أهلها وهاجروا منها ومنحهم فيسكون حقوق المدينة وامتيازاتها وتحريرها التى كان متمتعا بها السكان القديمة وبهذه الوسيلة عادت عمارة الاسكندرية كما كانت فى الاصل

وكان من ضمن الذين هاجروا من الاسكندرية عدد عظيم من النحويين والفلاسفة والرياضيين والطبيعيين والذين لهم دراية بالفنون الموسيقية والآلات والمغانى وآخرين من الذين لهم دراية كاملة بالفنون الطريفة ومن هنا ابتدأ احياء العلوم والفنون اللطيفة فى الجريس وآسيا الصغرى وفى جزائر البحور وبالجملة فى جميع المحلات والجهات التى أوى اليها هؤلاء الافاضل وكان تولد من الحروب المستمرة بين خلفاء اسكندر الاكبر اطفاء هذه العلوم ومحو آثار الفنون فى جميع تلك الممالك وكان من الممكن ضياعها بالكلية فى تلك الازمان التى كانت مشحونة بالارتباكات وقلاقل الحروب المستمرة لولم تكن وجدت لها ملجأ ومأوى تحت حماية السلطنة البطليموسية فى مدينة الاسكندرية فان أول هؤلاء الملوك أسس دار المعارف وحشد فيها العلماء من الرجال وشيد دار الكتب الظريفة وجلب اليها رجال علماء الجريس من الفلاسفة ورتب لهم المرتبات وسار الثانى والثالث على قدمه ومنوال الاول حتى صارت الاسكندرية أجل مدينة وأعظمها على وجه الارض وغرست فيها الفنون والعلوم التى كانت متروكة فى زوايا الاهمال والنسيان فى الممالك والمدائن الاخرى غيرها وكان معظم سكان هذه المدينة الكبيرة مارسوا ودرسوا هذه العلوم والفنون فى مدة شبابهم حتى انه عندما تساقط عليهم سقف ظلم هذا الطاغية فيسكون انجبروا على أن يجدوا سلامتهم فى البعد عنه فى الممالك الاجنبية الاخرى وبذلوا جهدهم وطاقتهم فى جلب ما تيسر لهم الحصول عليه مما يقوم بمعيشتهم وعكفوا أنفسهم على الاشتغال بتعليم غيرهم ما يعرفونه من العلوم والفنون وفتحوا مكاتب ومدارس لتعليمهم تلك العلوم وبما أن

احتياج المعيشة ضاغط عليهم من كل جهة أرخصوا أجرة التعليم لزيادة عدد الطلبة عندهم وبهذه الوسائل ابتدأ احياء العلوم والفنون فى جميع الجهات التى توجه اليها هؤلاء الاعلام ومعنى هذا فى الجهة الشرقية من الدنيا وكانت جارية على مثال الطريقة التى أجريت فى نبع هذه العلوم والفنون فى الجهة الغربية من بعد أن تغلب الاتراك على القسطنطينية

وفى نفس هذا الوقت ورد الجم الغفير من الاغراب لاجل عمارة الاسكندرية ثانية وورد اليها سكيبو الافريقى ابن سكيبو وميوس ومعه مطيلوس سفيران من طرف رومة وكان من القواعد عند الرومانيين أن يرسلوا سفراء أو رسلا لمحالفيهم من الامم بقصد تنظيم أحوالهم وملاءمة الاختلافات الواقعة بينهم واتفق فى هذا الوقت أن أرسلت رومة ثلاثة من كبار الدولة الى مصر بسبب ماهو حاصل فيهامن الخلاف والشقاق فأمروهم بالتوجه الى مصر وسوريا وآسيا والجريس لينظروا فى الاحوال التى عليها هذه الممالك ويفحصوا عن الطريقة المرعية عندهم فى المعاهدات ويصلحوا كل ما يجدونه من الخطا فأطلقوا زمام سياستهم ومهارتهم فى هذه الارسالية مع العدل والانصاف وجودة التدبير وأدّوا خدمات جليلة للذين أرسلوهم وأعادوا النظام وأصلحوا الاختلافات الواقعة بين الممالك الذين توجهوا اليها وبين رومة ومن بعد أن عاد السفراء الى رومة من هذه الجهات قدم لهم مجلس الاعيان شكره وثناه على ما استحقوه من جليل خدمتهم المقبولة لدى مملكتهم

وكان أول الجهات التى توجه اليها هؤلاء السفراء حسب التعليمات التى أعطيت لهم من مجلس الاعيان فى رومة هو الاسكندرية فقابلهم الملك فيها مع غاية التبجيل والاحترام وأحسن ضيافتهم وأنزلهم منزلا جميلا وكان يأكل معهم فى مدة لبثهم فى الاسكندرية ومن بعد أن نظروا فى أحوالها وأصلحوا أعمالها ومهدوا الاعمال التى جاؤا من أجلها سافروا من طريق النيل الى مدينة منف لاجل زيارتها وزيارة المحلات الاخر من المملكة المصرية فرأوا بأعينهم طبق ما تناولوه من الروايات الملقية عليهم فى شأن هذه الجهات عدد الانهاية له من المدائن العامرة الغاصة بالاهالى والعمران المحتوية عليها هذه المملكة ورصانة موقعها الطبيعى وخصوبة أرضها ومنافع أخرى متمتع بها أهلها ورأوا أنها لا تحتاج لشئ سوى زيادة قوتها واصلاح شوكتها بواسطة ملك ذى حزم وتدبير وعقل وتبصير وعمارة لا تدمير لان فيسكون المتسلطن عليها والحالة هذه لم يستحق أن يكون ملكا على مثل هذه المملكة لانه ليس عنده فكر فى عمارها أو خرابها فهما عنده على حد سواء ولم يقصد بسلطنته سوى احترامات وتعظيمات التى يقدمها له الاهالى والامة المصرية

ومع ما كان عليه فيسكون من العنف والجور والفظاظة والفجور والانهماك فى اللذات والتوحش والقبائح الاخر كانت العيوب التى فى جسمه معادلة للعيوب الموجودة فى عقله ومخه وبالجملة فما كان فيه شئ ينتفع به من عقل أو ذكاء وكان قصير القامة منتفخ البطن مثل البوّ حتى لا يمكن أى انسان أن يحضنه بذراعيه ومن كبر بطنه وجسامتها لقبوه بلقب أبو فرت واستمر بطليموس فيسكون على ماهو عليه من الجور والتعدى ولم تتغير أحواله بل يزداد فظاظة وقبحا كلما طال فى العمر وقد ذكرنا انه عند زواجه أخته كليوبطره وكانت أرملة أخيه أيضا قتل ابنها على ذراعيها وكان ابنها هذا ابن أخيه فيلوميطور ثم غضب على أمه غضبا شديدا ووقع فى غرام وعشق احدى بناتها من أولاد بطليموس فيلوميطور وكان اسمها أيضا كليوبطره فتزوج بها ومن ثم بعد قليل عابه وذمه أهل الاسكندرية

المستعبدون الذين كان جلبهم لعمارتها ومنحهم محلات ومساكن الذين هربوا من أفعاله القبيحة وأحواله الشنيعة وتركوا بلاده والتجؤا الى ممالك أخرى ولخوفه من هيجان هؤلاء السكان وانزعاجهم وكونهم فى حالة يتوقع له حصول الضرر منها عزم على قطع رقاب جميع الشباب الموجودين فى المدينة ومن كانت قوة المدينة وشوكتها وعزها وشرفها محصورا فيهم وأمر باحاطتهم بعساكره الاجنبية فى يوم من الايام فى محل كانت فيه ملاعب واجتمع فيه جميع الناس فأمر بالقبض عليهم وقتلهم فهرع جميع الامة مع الغضب والحنق لحرق سرايته وهو فى داخلها وأسرع أهل الاسكندرية بالجرى نحو السراية ولما وصلت اليه الاخبار بذلك ترك السراى قبل وصولهم اليها وهرب فى مركب الى قبرص مع زوجته كليوبطره وابنها منفطيس فى سنة ١٣٠ قبل الميلاد وبمجرد وصوله الى قبرص أخبروه بأن أهل الاسكندرية قلدوا كليوبطره زمام الحكومة المصرية وكان طلقها قبل ذلك فجمع فى الحال عسكرا ليقيم حربا على هذه المملكة الجديدة ومساعديها

ولما خشى فى مبادى أمره من أن أهل الاسكندرية يتربعا يجعلون ابنه ملكا وكان فيسكون عهد الى ابنه هذا حكومة صيرنيقية أمر بالحضور اليه وبمجرد وصوله عنده أمر بقتله فى الحال متصورا فى ذهنه منع خطر يقع من مدع عليه يقوم بعده فتولد من هذه الفعلة الوحشية والاحوال البهيمية امتلاء كل انسان بالغضب والحنق عليه وكسروا تماثيله الموجودة فى الاسكندرية قطعا وداسوها فى الارض فاعتقد أن كليوبطره زوجته التى طلقها هى التى حرضت الاهالى على مثل هذا الفعل فلاجل أخذ ثاره منها والانتقام من بدنها أمر بقطع رقبة منفطيس البرنس الشاب الذى كان خلفه منها وكان على غاية من الجمال ومنظورا فيه الذكاء والكمال وأمر بتقطيع جسمه قطعا ووضعه فى صندوق مع رأسه حتى تعرفه أمه اذا رأته وأرسله الى الاسكندرية مع واحد من خفره وأمره أن ينتظر الى يوم عيد ولادتها وكان قريب المدة ثم يقدم الصندوق اليها فى يوم موسم العيد فأطاع الرجل أمره وسلمها الصندوق فى يوم سرورها وفرحها فانقلبت الافراح بالاتراح وأخذوا فى العويل والنواح وكان يوما لا يمكن وصفه من شدة الحزن والاسف والانذهال مما حصل من التلف ونظر الناس الى هذا الطاغية بعين العداوة والبغضاء ومما تولد من ارتكابه هذه الجرائم المهولة الوحشية حمل السلاح أهل الاسكندرية وما كان عندهم أدنى فكر سوى صدهم هذا الجبار الطاغى من أن يجلس على التخت مرة أخرى وجندت الملكة كليوبطره جيشا قويا وعهدت قيادته الى واحد اسمه مارثيار وشرعت فى أخذ الاحتياطات اللازمة للمدافعة عن المملكة

وجند بطليموس فيسكون أيضا جيشا وعهد قيادته الى هغلوكوس ووقعت الواقعة فكان النصر فيها الى هغلوكوس قائد جيش بطليموس وأخذ مارثيار أسيرا وأرسله مغلولا بسلاسل الحديد الى فيسكون واعتقد الناس كلهم أن هذا السفاح لابد من كونه يقتل مارثيار بمجرد وصوله اليه من بعد أن يذيقه أليم العذاب وشدة العقاب الا أن ما حصل من بطليموس كان بخلاف ما ظنت النفوس وذلك أنه عفا عنه وخلى سبيله وأعتقه لانه رأى من التجارب التى حنكته أن جميع المصائب والرزايا التى حصلت له كان منشؤها من أفعاله الفظيعة وأعماله الشنيعة فابتدأ فى اخضاع نفسه حتى يحل محل رمسه وأن يجعل نفسه موقرا مبجلا بواسطة ما يجريه من اللين والرفق فارتاعت كليوبطره عند ما رأت هزيمة جيشها وتشتت حاله وخافت خوفا شديدا فأرسلت فى الحال فى سنة ١٢٧ الى ديمتريوس

ملك سوريا المساعدتها وجعلت له مكافأة على ذلك زواج بنتها وجلوسه على تخت مصر فأجاب ديمتريوس طلبها فى الحال من غير تردد ولا تبصر فى المآل وسافر بجميع عساكره وحاصر مدينة پلوزموشدد عليها فى الحصار

وكان هذا الملك مكروها مبغوضا ممقوتا عند أهل سوريا بالنظر لشماخة أنفه وجبروته وظلمه وانهماكه فى الفجور مثل بطليموس فيسكون المقهور ولما رأى السوريانيون أنه صار على مسافة بعيدة منهم وأنه مشغول بحصار پلوزه عنهم حملوا السلاح وقاموا ضده وكان أول من قام أهل انطاكيا ومن بعدهم أهل افاميه ثم قام على منوالهم مدائن عديدة من سوريا وانضمت هذه المدائن بعضها الى بعض فانجبر ديمتريوس على العود الى سوريا لاجل خضوع رعيته للانقياد اليه ولما قطعت كليو بطره اليأس من مساعدة ديمتريوس اياها نزلت فى مركب حاملة جميع كنوزها وخزائنها وهربت عند بنتها كليو بطره ملكة سوريا وبمجرد ما رأى فيسكون ترك كليو بطره الاسكندرية عاد اليها ودخل فيها وتقلد زمام الحكومة لانه من بعد هزيمة مارثيار وهروب كليو بطره ما وجد لنفسه معارضا ولا مقاوما ومن بعد أن لبث مدة يصلح نفسه ويقوى مملكته شرع فى أن ينتقم من ديمتريوس نظير مساعدته كليو بطره فسلط عليه رجلا كذابا اسمه اسكندرظبناس ابن رجل كان سمسارا فى الاسكندرية وتلقب هذا الشخص بلقب الاسكندر بن اسكندر بلاس وادعى لنفسه تاج الملوكية السوريانية عن أبيه وأعاره فيسكون جيشا تحت قيادته وطلبانه ولما وصل اسكندر هذا سوريا ورأى أهلها أن من العدل والانصاف عوده الى ملك أبيه انضموا اليه أفواجا وكانوا كما ذكرنا على كراهة من ديمتريوس وأخيرا وقع بينه وبين ديمتريوس واقعة فى سوريا الجنوبية بالقرب من دمشق وكانت واقعة فاصلة انهزم فيها ديمتريوس وهرب الى بطليموسية (عكا الآن) وكانت زوجته كليو بطره قاطنة فيها فقفلت فى وجهه أبواب المدينة لانها كانت على كراهة منه بسبب زواجه أخرى من العجم فالتزم ديمتريوس الهرب والالتجاء فى صور فقتل فيها ومن بعد موت ديمتريوس أخذت كليو بطره قسما من المملكة لنفسها وما بقى من المملكة صار تحت يد اسكندر المدعى أنه ابن اسكندر بلاس

وفى سنة ١١٧ قبل الميلاد مات بطليموس فيسكون ملك مصر من بعد أن تسلطن تسعا وعشرين سنة من ابتداء موت أخيه فيلوميطور وكان موته فى الاسكندرية وما رأت الامة المصرية أقبح سلطنة من سلطنته ولا أخبث سيرا من سيره وأراح الله منه البلاد والعباد

وترك فيسكون ثلاثة أولاد بعد موته الاول منهم اسمه أبيون من سرية كانت له وآخران شرعيان من كليو بطره بنت أخته التى تزوجها بعد طلاق أمها وكان أكبرهما اسمه لاثروس والاصغر اسمه اسكندر وكان فيسكون عهد فى حياته بمملكة صيرنيقية باختيار مالى ولده أبيون ومصر الى أرملته كليو بطره وولديها وهى تولى واحدا منهما الملك حسبما تختار الأن الامة ما كانت ترغب ضرر الولد الاكبر فى كونه يفقد حقوق بكوريته فمن ثم ألزموا الملكة بطلبه من قبرص وكانت أمرت أباه بطرده فيها ونفيه من الديار المصرية بحيث تشركه معها على التخت فى حكم المملكة ولما حضر فمن قبل جلوسه وتتويجه فى منف كما هى العادة الجارية فى المملكة ألزمته بطلاق أخته الكبرى وكان مغرما بحبها وعشقها ويأخذ بدلا منها أخته الصغرى سلنى وكان لا يميل اليها ولا يشتهى أن يشم لها رائحة لكنه أجرى هذه الاعمال على غير رغبة وهو مرام منه

وخلف

وخلف بطليموس التاسع الملقب لاثروس أباه فى سنة ١١٧ قبل الميلاد ولما رأت كليوبطره مطلقة لاثروس قهرا عنه زمام أمرها بيدها تزوجت قيزيقوميان وكان اسمه انطيوقوس الملقب قيزيقوميان وهو اسم مدينة قيزيقوم من أعمال ميسيا الصغرى كان تربى فيها وتهذب على أهلها وهذا أخو انطيوقوس غريبوس ملك سوريا وكان بطليموس فيسكون ساعده على التغلب عليها وزوجه ابنته طريفانه وفى أثناء زواج كليوبطره مطلقة لاثروس بانطيوقوس قيزيقوميان كان هو وأخوه غريبوس مجربين الحرب سوية من أجل المملكة فأعطته كليوبطره جيشا فى مهرها يساعده على أخيه خصمه زوج أختها طريفانه ولما صارت قوى الاخوين متعادلة على وجه التقريب التحما فى القتال فكانت المصيبة على قيزيقوميان انطيوقوس فانهزم وتقهقر الى انطاكيا وترك زوجته كليوبطره فيها ولما رأى أن زوجته صارت فى حرز حصين توجه ليجمع جيشا جديدا لاجل تقوية جيشه واعادة القتال مع أخيه فسار غريبوس انطيوقوس وحاصر المدينة وضيق عليها وشدد على أهلها حتى تغلب عليها قهرا وكانت زوجته طريفانه متلهفة جدا على القبض على أختها وقتلها ولو أنهما كانتا شقيقتين لأنها كانت على كراهة وحنق شديد منها بسبب زواجها عدوها وكونها أعطت له جيشا يساعده عليهما وأمرت زوجها غريبوس أن يسلمها اليها كى تفعل فيها ما تشاء فمن ثم هربت كليوبطره فى معبد من معابد أنطاكيا واستمر الحرب بين الاخوين ولم تملك طريفانه من أختها ما كانت تؤمله وتبغيه

وأما كليوبطره أم هاتين البنتين فانه ما كان عندها أدنى فكر ولا تبلبل بال من خصوص أولادها بل كانت مشتغلة على الدوام بما سولت لها نفسها من الطمع والشهوة فى قبضها على زمام السلطنة المصرية وجعلها تحت يدها فى حكومة مطلقة مدة حياتها ولاجل تقوية نفسها على ما ترغبه عهدت مملكة قبرص الى اسكندر ابنها الاصغر حتى تحرمه من الاتحاد مع أخيه لاثروس ولربما يحصل من اجتماعهما سوية ضرر يعود عليها فى المستقبل فكانت باذلة جهدها فى عدم وقوع ما يماثل هذا الخطر وبينما كان الاخوان غريبوس وقيزيقوميان مشتغلين بالحروب الشديدة والمبارزات الطويلة اذ تقوت شوكة يوحنا هرقانوس ملك اليهود وصار لا يخاف من هذين الاخوين ولا يخشاهما وشرع فى التغلب على مدينة سماريه واخضاعها للطاعة وأرسل ولديه ارسطبولوس وانطيغنوس لاجل محاصرة تلك المدينة فطلب السماريون من قيزيقوميان أنطيوقوس بعد أن صار ملك دمشق نجدة لمساعدتهم فسار اليهم فى رأس جيش فترك الاخوان أولاد هرقانوس حصار المدينة وتقابلا مع قيزيقوميان ووقعت بينهم واقعة شديدة انهزم فيها قيزيقوميان ومن بعد هذه النصرة رجع الاخوان الى حصار مدينة سماريه وشددا عليها فى الحصار وضيقا على أهلها حتى انجبر أهلها مرة أخرى على أن يرسلوا الى قيزيقوميان ربط العلاقة والمعاهدة ويأتى لمساعدة المدينة وخلاصها من أيدى الاعداء ولما لم يجدوا عنده العساكر الكافية لرفع حصار المدينة طلبوا المساعدة من لاثروس ملك مصر فأغاثهم بنحو ٦٠٠٠ نفس فى سنة ١٠٧ قبل الميلاد على غير رغبة من كليوبطره أمه فمن ثم غضبت عليه وعزمت على خلعه من أجل تداخله فى هذا الحرب من غير أن يأخذ رضاها ورغبتها ولما وصل العساكر المصرية المساعدون الى ميدان الواقعة فى سوريا ضمهم قيزيقوميان الى عساكره ومع هذا خشى من الهجوم على الجيش المحاصر مدينة سماريه فاكتفى بتخريب البلاد وسلب العباد

ولما كان ارسال هذه العساكر على غير رغبة من كليوبطره ضمت هذه المسئلة مع مسائل أخرى حصلت من لاثروس فى سلطنتها أغضبتها وأخذت من لاثروس زوجته صلنى بعد أن خلف منها ولدين وألزمته الخروج من مصر وكانت الطريقة التى أجرتها فى ذلك هى أنها أمرت بعض الطواشية المقبولين لديها أن يجرحوا أنفسهم جراحا بالغة وجلبتهم فى جمعية من أهل الاسكندرية وأمرتهم أن يقولوا انه حصل لهم هذا الفعل الفظيع الوحشى من ابنها لاثروس وقت ما حصل منهم الاجتهاد فى المدافعة عنها وقت ما أرادوا حفظها من بطشه وغوائله وأشهاوا قلوب الامة الاسكندرانية بهذه الاقوال الكاذبة وأثبتوا لهذه الجمعية أنه كان يريد قتلها فقاموا جميعا على لاثروس وأرادوا قتله وتقطيع جسمه لولا أنه هرب من المينة فى مركب وأقلعت به فى الحال هاربا من مصر ولما خرج لاثروس من مصر أرسلت كليوبطره فى الحال وطلبت ابنها اسكندر الاصغر من قبرص وجعلته ملك مصر بعد أخيه وألزمت أخاه لاثروس بقبوله مملكة قبرص بعد أن تنازل عنها أخوه اسكندر

ثم ان اسكندر فى سوريا حاصر بطلموسية (عكا) فى أشغال تخص نفسه حصارا شديدا وضيق عليها فأرسلوا يطلبون مساعدة بطلموس لاثروس فتوجه اليهم بنفسه وكانوا وعدوه بان يجعلوه ملكا عليهم فلما تغيرت نياتهم تركهم ودخل فى مخابرات مع اسكندر ولما صار على شرف عقد المعاهدة معه حصلت المخابرة بين كليوبطره فى مصر واسكندر بانها استوافيه بقواها ليضمها الى قواه وبطرد لاثروس من فلسطين وصار اسكندر العدو الالد للاثروس فعزم لاثروس على ضرره ونزول البلاء عليه بقدر ما يمكنه وفى السنة التالية ما خاب لاثروس من وضع ما عزم عليه موضع العمل وقسم جيشه قسمين جعل الاول تحت قيادة واحد من قواده لاجل حصار بطلموسية وكان على حنق منها وسار هو فى القسم الآخر بنفسه قاصدا اسكندر ومدّ أهل غزة لاثروس بقوة كبيرة من العساكر ووقعت بينه وبين اسكندر واقعة دموية على شواطئ نهر الاردن قتل فيها نحو من ٣٠٠٠٠ نفس من عساكر اسكندر خلاف المجروحين والمأسورين وفى هذه الواقعة حصل النصر والظفر العظيم للاثروس

وروى أنه حصل من لاثروس بعد نصرته هذه ما تمجه الاسماع وتقشعر منه الابدان من أفعال همجية وأعمال قبيحة بربرية ما جرت قبله ولا بعده ولا سمع فى التواريخ بمثلها وذلك أنه فى مساء اليوم الذى نال فيه النصر على اسكندر توجه بعساكره ليعسكر بهم فى القرى المجاورة لمحل الواقعة فوجدها مشحونة بالنساء والاطفال فأمر باخراجهم وقتلهم جميعا كبيرا وصغيرا وتقطيع أجسامهم قطعا ووضع اللحوم فى قزانات وطناجر وجعلها عشاء لعساكره وكان قصده بذلك نشر الاخبار واذاعة الحوادث فى جميع الجهات بان عساكره يأكلون لحوم الآدميين حتى يقع الرعب فى قلوب الناس ويخشوا منه البأس ومن بعد أن هزم لاثروس اسكندر وعساكره وشتت شملهم وصار لا يوجد أمامه فى الميدان عدو سار فى جميع أرض السهل وخربها ودمر أهلها ونهبها وصار اسكندر وملكها لا يمكنه فعل شئ من غير مساعدة كليوبطره وحصل له الضعف والخذلان مما لا قاه من الويل والخسران وسار لا يرفع له راية أمام عدوه ولا يظهر من مقر سموه

ولما رأت الملكة كليوبطره ملكة مصر أم لاثروس أنه لو صار لاثروس المذكور ملك يهوذا لم يعقه شئ عن الدخول فى مصر وسلب ملكها وخلعها عن تختها فدبرت فى نفسها ورأت أنه من الضرورى توقيف تقدماته وهبوط حركاته وجندت لهذا الغرض جندا كبيرا وعهدت قيادته لاثنين من اليهود

وهما شلسباس وأنانياس وجهزت في البحر اسطولا لنقل عساكرها ونزلت بنفسها في هذا الاسطول مع عساكرها وسارت باسطولها حتى نزلت في فينيقيـة بعد أن حملت معها جميع خزائنها وكنوزها وجواهرها قاصدة بذلك حفظها لو حصل لها حاصل من مصيبة أو خطر واختارت لوضع هذه الخزائن وحفظها جزيرة كوس وأرسلت في هذا الوقت حفيدها اسكندر بن اسكندر المشترك معها في سلطنة مصر ولما جعل ميثر يداطيس نفسه سيد تلك الجزيرة كانت هذه الكنوز موجودة فيها فأخذ البرنس الشاب تحت محافظته ورباه وهذبه تربية الملوك ومن بعد مضى مدة تسلل اسكندر من ميثر يداطيس والتجأ الى حماية صيلا فقابله صيلا بالتبجيل والاحترام وأخذه تحت محافظته وأرسله رومة وأخيرا أجلسه على الاريكة المصرية كما سنذكره بعد

ويؤلد من نزول كليو بطره في فينيقيـة أن رفع لاثروس الحصار عن بطلميوسية وكان لم يزل مستمرا لحين وصولها وتقهقر لاثروس الى سوريا الجنوبية فأمرت شلسباس قسما من جيشها بتعقبه وبواسطة القسم الآخر تحت قيادة أنانياس حاصرت كليو بطره مدينة بطلميوسية ولما مات شلسباس في حربه مع لاثروس وكان قائد الفرقة الاولى توقف كل شئ من بعد موته وأما لاثروس فانه انتهز الفرصة في أثناء هذا الارتباك الذى حصل في جيش أمه وسار بجميع قواه الى مصر مؤملا أنه لا يوجد فيها محام ولا مدافع حال غياب أمه عنها لانها أخذت جميع العساكر الشديدة وتوجهت بها الى فلسطين وكان فكره هذا غير صواب اذ العساكر الذين تركتهم كليو بطره في مصر دافعوا عن المملكة حتى أمدتهم كليو بطره بالعساكر من فينيقيـة وقتما بلغها خبر ما يريده فحرمته وانجبر على القهقرة الى فلسطين وعسكر بعسكره في غزة بعد أن حرم من هاتيك اللذة

وأما كليو بطره فانها شددت في الحصار على بطلميوسية وأنزلت عليها البليه وضيقت عليها ووصلت بطريق الهجوم عنوة اليها حتى تغلبت عليها ودخلتها وبمجرد قرارها فيها زارها اسكندر وجلب لها معه هدايا ثمينة قيمتها لا تنكر ولما رأى بطلميوس لاثروس وهو في غزة أن ماهو حاصل منه من السعي والاجتهاد لا يفيده فائدة في فلسطين مادامت أمه معاضدة لها ترك ما كان عازما عليه وتوجه الى قبرص وتوجهت كليو بطره أيضا الى مصر وخلصت من الاثنين البلاد وأراح الله منهما العباد

ولما وصلت كليو بطره الى الاسكندرية بلغها أن لاثروس دخل في معاهدة في دمشق مع قيزيقوميان أنطيوقوس فرأت أنه ربما بمساعدته له يستعد في نفسه باستعدادات جديدة لاجل أن يردلنفسه التاج المصرى ففعلت كليو بطره على ضده وزوجت بنتها صلنى وكانت أخذتها من لاثروس الى غريبوس أنطيوقوس وأرسلت له في ذلك الوقت عساكر كثيرة ومبالغ نقود وفيرة حتى يتيسر له الحصول بها على استعداد كاف للهجوم على أخيه أنطيوقوس قيزيقوميان بغاية الشدة والعنف فنجحت هذه الاشغال على حسب رغبتها وتجدد الحرب بين الاخوين وكثرت الاشغال والمتاعب على قيزيقوميان في مملكته حتى صار لا يمكنه فيها مساعدة لاثروس فانجبر لاثروس على ما كان عزم عليه وتوجه لحال سبيله مقطوع اليأس خائب الرجاء

وأما بطلميوس اسكندر أخو لاثروس فعندما أجلسته أمه على التخت حصل له ارتجاج واضطراب من عنفها وشدة أعمالها الوحشيـة التى تعدت بها على أخيه لاسيما أخذها زوجته منه وتزويجها بعدوه فلما رأى في نفسه أن كل ما أجراه من الاشغال وان كان على رأيها ورغبتها لا يسلم من بطشها وغوائلها

حتى ولو من غير سبب كما فعلت بأخيه من قلة الادب عزم أن يتخلى عن التخت ويعتزل الى عيشة طيبة رغد لا يخشى فيها طردا ولا نفيا من أم خبيثة وعدوة قبيحة ولما فعل هذه الفعلة تسلطن الغضب عند الامة وصمموا على عوده وقالوا لا يمكن الملكة السلطنة بمفردها وان كانوا يعلمون علم اليقين أنها جعلت لابنها لقب ملك فقط اسما من غير فعل وانها لم تزل من عهد موت فيسكون قابضة على زمام السلطنة ومن تداخل لاثروس فى أعمال ضد رغبتها حرمته من تاجه وزوجته وطردته من البلاد

وفى سنة ٩٧ قبل الميلاد مات انطيوقوس غريبوس قتله أحد خدامه من بعد أن تسلطن سبعا وعشرين سنة وخلف خمسة أولاد جميعهم تسلطنوا من بعده وفى سنة ٩٦ قبل الميلاد مات بطليموس أبيون بن فيسكون بطليموس وما كان له وارث من بعده فترك مملكته للرومانيين على وصاية منه

وفى نحو سنة ٨٩ قبل الميلاد قتل اسكندر الاول أمه وأعلن بالملك لنفسه ولقب بطليموس العاشر وذلك أن الاحوال اضطربت فى مصر زيادة عن سوريا وصارت كليوبطره لا تطيق أحدا غير نفسها فى علو درجة سلطنتها ولا تقبل اسكندر ابنها معها فى الاشتراك فى شرف التخت وعزمت على خلاص نفسها منه حتى تكون هى الملكة الوحيدة فى مصر دون غيرها فى الحال والاستقبال ولما تحقق اسكندر من رغبة أمه أمر فى الحال بقتلها وكانت امرأة خبيثة الطبع فظيعة الاعمال ما خلص من يديها أحد لا أمها ولا أولادها ولا بناتها وفقدت كل شئ فى مطامع أغراضها فى السلطنة حتى أتاها الموت الذى عجل بروحها الى النار وبئس القرار

وبمجرد ما شاع فى الاسكندرية أن السبب فى قتل الملكة هو اسكندر ابنها حصل الانزعاج والهول وكثر الشغب والثوران وقام الاسكندرانيون عليه وطردوه من الاسكندرية وطلبوا أخاه من قبرص وأجلسوه على تخت المملكة وفى هذه المرة قوى لاثروس نفسه وتقلد زمام السلطنة حتى مات ثم اجتهد اسكندر وسعى فى الحصول على مراكب وعساكر وأراد أن يعيد لنفسه التخت كما كان الا انه لم ينجح فى مشروعه ومات حتف أنفه فى غزوة جديدة كان شرع فيها

وفى سنة ٨٨ قبل الميلاد من بعد جلوس بطليموس لاثروس على تخت مصر انفجرت ثورة كبيرة فى صعيد مصر كان منشؤها الغضب على ما حصل ضد اسكندر فهزم العساكر السلطانية العصاة شر هزيمة فى واقعة حصلت بينهم ومن بعد الهزيمة التجأ العصاة داخل مدينة طيوه وحصنوا أنفسهم فيها ودافعوا عن أنفسهم وعن المدينة بكل جهد وأخيرا تغلب العساكر على المدينة بعد أن حاصروها ثلاث سنوات وأخربها بطليموس لاثروس وقتل زعماء الثورة وصارت المدينة أطلالا وخرابا بعد أن كانت أغنى مدائن الديار المصرية وأحسنها بهجة ومنظرا وعمرانا ومن بعد هذه تسلطن بطليموس لاثروس سلطنة سلمية هادئة لا حراك فيها ولا نزاع وامتدت لحد سنة ٨١ قبل الميلاد ثم هلك فى هذه السنة بعد أن تسلطن ستا وثلاثين سنة منها احدى عشرة سنة مع أمه بالاشتراك معها على التخت وثمانى عشرة سنة فى قبرص وسبع سنين بمفرده فى مصر من بعد أمه

وخلفته كليوبطره بنته وكان لا وارث له غيرها وكان اسمها برنيس وهى بنت صلبى الا أنها لقبت بذلك على حسب الطريقة الجارية عند هذه العائلة أن يلقبوا جميع الذكور باسم بطليموس وجميع البنات باسم كليوبطره

وفى أثناء هذا الوقت كان صيلا هو الآمر الناهى أى مطلق التصرف فى رومة فأرسل اسكندر ليستحوذ

على

على تخت مصر من بعد موت عمه لاثر يوس حيث انه هو الذكر الوارث الاقرب جدا للمتوفى وكان هو ابن اسكندر الذى قتل أمه الا أن أهل الاسكندرية كانوا أجلسوا برنيس كليوبطره على تخت المملكة واستمرت منقلدة زمام السلطنة ستة أشهر حتى حضر اسكندر من رومة فلاجل ملاءمة هذا الخلاف وعدم وقوع الاضطراب والارتباك ومراعاة لخاطر صيلا سيدرومة حصل الاتفاق حسب الجارى على ان كليوبطره تتزوج باسكندر ويتسلطنان على مصر سوية ولما كان اسكندر لا يرغب ازوجة له ولا يبغى الاشتراك معها فى السلطنة أمر بقتلها من بعد مضى تسعة عشر يوما من عقد الزواج وتسلطن فى مصر وحده مدة خمس عشرة سنة ولقب بطليموس الحادى عشر وفى هذه المدة حصلت حروب داخلية وثورات وقلاقل ارتج منها جميع المملكة المصرية وأخيرا قام الاسكندريون فى سنة ٨٠ قبل الميلاد على ملكهم حاملين السلاح فى وجهه وطردوه من المملكة واستمرت المملكة بعده فى خراب ودمار وثوران وعصيان ولم يكن فيها حكومة سلطانية مدة خمس عشرة سنة وفى أثنائها توجه اسكندر الى القائد الرومانى بومبى وكان فى البلاد المجاورة له وطلب منه مساعدته وعود تاجه اليه فما قبل بومبى التداخل فى مثل هذه المسائل لانها خارجة عن مأموريته وحكومته ولما قطع اسكندر اليأس من بومبى توجه الى مدينة صور ينتظر لنفسه فيها فرجا من عند الله وأخيرا أتاه الفرج ومات بعد ذلك بقليل وقبل موته كتب وصية عن نفسه ما لها أن الامة الرومانية هى الوارثة له فى أملاكه ومخلفاته من بعد موته

وفى سنة ٦٥ قبل الميلاد جلس بطليموس الثانى عشر الملقب أولطيس أى النايانى لانه كان مغرما بضرب الناى وهو ابن زنا من لاثر يوس وليس ابنا شرعيا له على تخت المملكة وأرخ سلطنته من ابتداء موت برنيس الا أنه ما كان ملك مصر فى الحقيقة لحد سنة ٦٥ قبل الميلاد وفى هذا الوقت انفصلت قبرص من مصر وصارت مملكة مستقلة فى حد نفسها تحت حكم المملكة الرومانية ومحافظتها وبما أن سلف بطليموس هذا وهو اسكندر تنازل بوصية عن ممالكه ومخلفاته من بعده للامة الرومانية وجعلها هى الوارثة له لم يحصل من مجلس الشيوخ برومة حكم قاطع يقضى فى هذا الوقت بالاستحواذ على الممالك التى تركها لهم اسكندر فى وصيته الا أن المجلس رأى أنه لا يتنازل عن حقوق الوراثة هذه وعزم على أخذ شئ من مخلفات اسكندر فأرسل نوابا من طرفه الى مدينة صور التى مات فيها اسكندر لطلب مبلغ من النقود كان تركه اسكندر فيها

وما كانت طلبات الامة الرومانية ورغباتها تحت حصر ولا حد بل ولا كانت غير مأمونة العاقبة بالكلية بالنسبة لادخال واقامة أى مملكة تحت حوزتهم يعتقدون أن لهم الحق فى طلبها ما لم توجد وسائل بها يمكن رفض هذا الطلب ومن عهد بطليموس الاول كانت ملوك مصر فى وداد ومحالفة مع الرومانيين ومن بعد أن يعلن بطليموس محالفته مع رومة تتأكد له سلطنته وتعترف الرومانيون بملوكيته لكن والحالة هذه كان من أكبر المهمات وأصعب الاحوال وأشقها على بطليموس الثانى عشر هذا الحصول بسهولة على الحالة المؤدية لجلوسه على التخت المصرى بواسطة تصديق الرومانيين ومساعدتهم له ومع هذا فانه لم ييأس من أن يحصل له نجاح فى مشروع يجريه وذلك أنه شرع فى اتخاذ الوسائل والاعمال المؤدية الى غاية مرامه ومقصوده الا انه احتاج لزمن طويل وكان عليه من أشق الاعمال وأضيق الاحوال ولربما كان لا ينجح فى هذا المشروع لو لم يكن قيصر قنصلا فى رومة واعتقد بطليموس

الناياتى هـذا صاحب الطمع الاشهى أن كل مايجربه من الوسائل يمكنه له بها تيسر الحصول على أداء أغراضه فمن ثم وقع فى ديون كثيرة زيادة عن طاقته وقال ان الانسان يدرك أغراضه بالنقود و يتيسر له بها الحصول على مالا يمكن الحصول عليه بالحق الشرعى وعلى هـذا بيعت له معاهدة رومة بأثمان باهظة جدا تولد منها اضمحلاله ووقوعه فى الديون التى صرفها فى مشترى هذه المعاهدة كما أنه أعطى مثل قيمة ثمنها الى پومبى القائد لانه كان يعتقد أن پومبى ظهره فى هـذه الجهة وانه هو المعول عليه فى مثل هـذه الحالة المهمة وفى رضا الاهالى وقبول سلطنته عليهم فكان مقدار الثمن الذى دفعه ٦٠٠٠ وزنة من الذهب عبارة عن ٦٠٠٠٠٠ استرلينه بحساب كل وزنة ١٥٠ جنيه استرلينه و بهذا الثمن صدق الامة الرومانية على معاهدته وصار صديقهم وحليفهم

ومع ان مدخول وايراد هـذا الملك سنويا كان ضعف هـذا المقدار المتقدم الا انه ما كان له طاقة على تحصيل نقود أو جمعها من دون أن يضرب ضرائب باهظة على رعيته فضلا عن كون رعيته كانوا على نفور زائد منه وحقد وكراهة له من أجل كونه لم يعلن بأن جزيرة قبرص تابعة من قديم الزمان لمصر واذا صار رفض هذا الطلب لزمه اعلان الحرب على الرومانيين وكان الرومانيون فى هـذا الوقت تغلبوا على سوريا وما جاور مصر من البلاد والممالك وصارت محيطة بأعدائها ولما وجد الامة المصرية ما هم فيـه من المتاعب من كثرة الضرائب التى ضربها بطليموس عليهم أخذهـم الغضب الاكبر والنفور الاعظم وقاموا عليه مع الصرامة والعنف حتى ألزموه الهرب ليبقى سلامة نفسه وأخفى عنهـم طريق وجوده حتى اعتقـد المصريون أن بطليموس مات وهلك فأجلسوا بنته طريفانه و برنيس على التخت فماتت طريفانه من بعد مضى سنة واحدة واستمرت الاخرى فى السلطنة

ولما هرب بطليموس الثانى عشر من رعيته نزل فى مركب وسافر متوجها الى رومة فنزل فى جزيرة رودس وكانت على طريقه الى رومة فأخبروه فيها بأن كاطو وصـل الى هنا قبله بضع أيام وكان كاطو هـذا من أجل أفاضل الرومانيين وعظمائهم فحصل لبطليموس السرور الشديد فى انتهازه فرصة المخابرة معه والمداولة فى أشغاله وأعماله وأرسل له فى الحال يعلمه بوصوله الى الجزيرة وانتظر حضوره لديه وقدومه عليه معتقدا فى نفسه أن كاطو متى أخذ خبرا بقدومه يسرع فى مقابلته و يحضر مباشرة لزيارته الا ان الكبر الرومانى والشماخة المتلبسـة به منعته عن ذلك وأمر الرسول بأن يقول لبطليموس ان كاطو منتظر حضوره لديه ان كان يرى لنفسـه فى ذلك مناسبة وموافقة فمن ثم توجـه بطليموس عنده وما كان كاطو فى الوقت على اعتناء من استقباله بطليموس حال قدومه اليه ودخوله فى قاعته عليه بل سلم عليه سلام انسان معتاد وما حصل عنده أدنى نهضة فى القيام له وأمره بالجلوس وقال له اقعد فارتبك عقل الملك وتشتت ذهنه وفكره من حصول هـذه المقابلة الباردة المزرية بمقامه وأخـذه الاندهال من الكبر والعظمة الموجودين فى رجل مثل هـذا فى أبسط مايكون من العيش والمأكل وزاد استغرابه حال افتتاح الكلام بينهما فقد أخذ كاطو يذمه و يلومه و يعنفه بالقول وقال له كيف تركت أظرف مملكة فى ممالك العالم وأحسنها وجعلت نفسك عرضة لمظالمة الذين لا يقنعون بشئ من كثرة ما هـم عليـه من البخل والشح والشماخة والكبرياء وتحملت أشق الآلام وأكبر المتاعب التى لا حد لها ولا نهاية فقال له بطليموس ولم يرتب من قوله لو أننى بعت من أجلهم جميع ما فى مصر وسلمتهـم أثمانه لم يقتنعوا ولم يستكفوا ولم يكن موفيا لشرههم وطلبهم ثم أشار عليه كاطو ونصحه بأن قال له يلزم أن تعود

فى

فى الحال الى مصر وتربط علاقات محبة نفسك مع رعيتك وتمتزج معهم كل الامتزاج حتى تأمن غائلتهم ويأمنوا غائلتك وانى لابد من أن أصحبك اليها وأدبر أحوالك وأعمالك فيها

وبمجرد ماختم كاطو كلامه استيقظ بطليموس من غفلة منامه وظن أن ذلك كأنه منام وتعقل جميع ماقاله الفاضل الهمام وظهر له الخطأ من الصواب وندم وحزن على تركه مملكته وكان له عقاب وعزم فى الحال على العود اليها الا أن الاصدقاء الذين كانوا معه لما كانت مكاسبهم من جهة بومبى محصورة فى كونهم يتوجهون به الى رومة أشاروا عليه بالعدول عن نصيحة كاطو وأروه مايعود منها عليه من الضرر والاذى حتى أداروا عقله ووجد نفسه فى المدينة المتكبرة الشامخة الانف وحضوه على ربط علاقاته مع نواب مجلس الاعيان حتى يكونوا معه عونا على ماأصابه من حوادث الزمان فصار يدور على الابواب مثل رجل من الطلاب وماكان القيصر يوليوس فى هذا الوقت موجودا فى رومة بل كان مشتغلا بحرب مشتعل فى الغلية وكان بطليموس رمى أساسات آماله ومايبغيه من أعماله على هذا البطل الهمام وبما أن بومبى كان موجودا فى رومة أعطاه محلا فى بيته أنزله فيه وامتنع من أن يأكل معه أو يقدم له طعاما يقربه وكان بطليموس فضلا عن النقود التى أعطاها لبومبى بالاشتراك مع قيصر غرس صداقته ومحبته لبومبى حينما كان فى يهودا مجريا الحرب فيها بكونه قدم له خدمات جليلة أثناء حربه مع ميثريداطيس وأخذ على حسابه ٨٠٠ فارس ولما قدم بطليموس شكواه لمجلس الاعيان فى رومة ماهو حاصل من عصيان رعيته عليه وطلب من المجلس الزامهم بالرجوع والانقياد اليه حسبما وعده المجلس الرومانى من كونه يفعل ويؤدى هذا الطلب بمقتضى نص المعاهدة الممنوحة له من مجلس الاعيان نال من حزب بومبى تمام الرضا والقبول فى اجابة طلبه وتكفل القنصل لنطلوس وكانت وقعت صيليصيا من قرعته وهى مفصولة من مصر بساحل سوريا فقط بأن يعيد بطليموس ثانيا على كرسى مملكته ويخضع له رعيته الا أنه من قبل خلاص مدة قنصلية لنطلوس أخذ المصريون خبرا بأن ملكهم لم يمت كما كانوا يعتقدون بل انه توجه الى رومة فأرسلوا رسلا خطيرة من أجل عظمائهم الى رومة لاجل تبرئة ثورتهم وعصيانهم أمام مجلس الاعيان وكان عدد هؤلاء الرسل مائة نفس وكان رأسهم أحد مشاهير الفلاسفة ويسمى ديون وكان من أعز المحبين للرومانيين فى رومة فلما بلغ بطليموس هذا الخبر عزم على اجراء الوسائل اللازمة لهلاك هؤلاء المرسلين اما بالسم أو بالسيف وبهذا وقع الرعب والخوف فى قلوب الذين لايمكنه التعدى عليهم أو قتلهم حتى خافوا من أن يبرؤا أنفسهم أو يطلبوا محاكمة من أجل الذين قتلوا لكن بما أن هذه القسوة والاعتساف معلومان فى عموم الدنيا ثبت على بطليموس أنه أكبر شخص مثير للثورات ومهيج للهيجات كما أنه عاجز الرأى ضعيف الحكم فمن ثم ارتبكت أموره وتحير فى أعماله وانتظر المدد الطويلة فى رومة يقاسى مشاق الآلام وطول الكلام وعدم الفائدة من مجلس الاعيان حتى سمح له بومبى فى سنة ٥٥ قبل الميلاد وأعطاه مكاتيب من طرفه الى جابنيوس حاكم سوريا وملحقاتها ليساعده على أعماله ويبلغه مأموله ونواله وكان جابنيوس فى هذا الوقت شارعا فى السير لمساعدة ميثريداطيس ملك فرسيا وكان صار طرده بواسطة الملك أخيه من مبدياو كانت وقعت من قسمه ونصيبه وفى أثناء عبور جابنيوس الفرات بجيشه وافاه بطليموس بجوابات بومبى محب الطرفين وولى الاثنين وكان صار تعيين بومبى قنصلا فى هذه السنة وناشد بومبى فى هذه المكاتيب جابنيوس ببذل همته ومافى

طاقته في خصوص ما يعرضه له الملك من أجل اعادته على كرسي مملكته ومع ما في ذلك من الاخطار والمتاعب الممكن وقوعها بجميع ما حصل من همة بومبي في ذلك كان منتظرا فيه مكاسب عظيمة أو عزيمة الى جابنيوس فابتدأ هذا في حياكة الاعمال اللازمة لجلب هذه المكاسب وكذا حصل من أنطوني أحد القواد الهمة التامة في تأييد شكوى بطليموس وحث جابنيوس على فعل ما رغبه بطليموس لان أنطوني أراد أن يشهر نفسه وكان مائلا بكليته لما رغبه بطليموس لان ما أجراه من المدح له والتملق عنده ملأ ضمائر أنطوني وأخذ بمجامع قلبه وعقله زيادة لشهرة نفسه فأمره جابنيوس أن يصحبه الى سوريا وأن يكون قائد عساكر الخيالة وكان أكبر مشروع وأعظم تدبيره وزيادة فكر جابنيوس في أن يكون له حق في أن يأخذ من بطليموس مبلغا جسيما نظير أتعابه وعساكره في مسئلته ولما لم يجد بطليموس بدا من ذلك صار لا صعوبة عنده في الاتفاق معه على أي شرط يشرطه عليه فقدم له بطليموس له ولجيشه ١٠٠٠٠ وزنة من الذهب يعني ١٥٠٠٠٠٠ ليرة استرلينية يدفع من هذا المبلغ الثلثين معجلا لجابنيوس والثلث الباقي يدفعه عند عود سلطنته له فقبل جابنيوس هذه التقدمة من غير ريب ولا تردد

وأما المملكة المصرية فانها كانت مازالت مستمرة تحت حكم الملكة برنيس وكان بمجرد جلوسها على التخت أرسل المصريون تقديم التاج وبرنيس لانطيوقوس اسياطيقوس في سوريا وكانت أمه في فرع صلني في القرابة وكان أقرب ذكر وارث للتخت المصري ولما توجه الرسل الى سوريا وجدوه مات من مدة ووجدوا له أخا على قيد الحياة اسمه سلفوس ويلقب سيبيوساقطيس قدموا له هذه التقدمة فقبلها منهم وكان برنس امرء ذولا منهمكا في الشح والبخل وما كان له فكر في الدنيا الا جمع النقود في خزينته وكان أول عمل أجراه بعد أن قدم مصر هو أمره بوضع جثة اسكندر الاكبر في صندوق من بلور ملموم بالذهب وكان لحد الآن لم يمسه أحد فتولد من هذا الفعل ومن أفعال أخرى هيجان الملكة زوجته مع رعيته فقاموا عليه وخنقوه وعجلوا بروحه الى النار وبئس القرار وكان هذا آخر ملوك الجنس الصلنقي ثم تزوجت من بعده الملكة واحدا آخر اسمه أركلوس

ثم ان جابنيوس بعد أن عبر نهر الفرات عبر فلسطين وسار مباشرة الى مصر وكان لا يخشى من شئ في سفره هذا سوى الطريق اللازم عبوره منها حتى يصل الى مدينة بلوزه لان هذا الطريق واقع في أرض سهلة رملية لا نبات بها ولا مياه لمشروب الناس والحيوانات فأرسل جابنيوس على مقدمته أنطوني بعساكر الخيالة فضبط جميع المعابر ودروب المرور وتغلب على مدينة بلوزه مفتاح مصر مع ما فيها من المحافظين وأمن الطريق اللازم لمرور باقي الجيش منها وجعل انطوني لقائده آمالا أكبر من الظفر والنجاح في هذا الحرب وساق جابنيوس مع أنطوني الجيوش والعساكر وتغلبا على مصر بعد أن دافع عنها عساكرها مدافعة قليلة لم تستمر زمنا طويلا وأخضع الرومانيون البلاد والعباد وألزموا الامة المصرية بقبول بطليموس النايائي ولما استحوذ بطليموس على مملكته وجلس على كرسي سلطنته ترك فيها جابنيوس جملة من العساكر الرومانية لاجل حفظ المملكة والمحافظة على شخص الملك ورجع قافلا الى سوريا بعد أن استلم الثلث الباقي من المبلغ الذي كان تعهد بطليموس بدفعه له وأمر بطليموس في الحال بقتل بنته برنيس لانها لبست تاجه في مدة نفيه وطرده وبعد قتلها خلص نفسه من جميع أغنياء الامة المصرية الذين كانوا في حزب مضاد له بكونه أمر بقتلهم وضبط أملاكهم وعقاراتهم

و بيعها فى نظير المبلغ الذى أعطاه له غابنيوس وكونه دخل تحت الديون الكثيرة لاجل تأييد مملكته وتوطيد سلطنته

ومات بطليموس أوليطس بعد ذلك فى حالة مستتبة الراحة والامن والسلم فى المملكة المصرية بعد أن حكم أربع سنوات تقريبا من بعد عود سلطنته اليه وكان موته فى سنة ٥١ قبل الميلاد وأراح الله منه العباد

وترك ولدين و بنتين وأوصى بالتخت لابنه الاكبر وكان عمره ثلاث عشرة سنة وكان اسمه بطليموس أيضا ولابنته الكبرى وكان اسمها كليوبطره وعمرها سبع عشرة سنة وأوصى فى وصية تركها من بعده أن الاثنين يتزوجان ببعضهما حسب العادة الجارية فى هذا البيت و يتسلطنان على التخت سوية وبما أن الاثنين كانا صغيرى السن جعلهما تحت رعاية و وصاية مجلس الاعيان فى رومة

وفى مبادى سلطنة كليوبطره وأخيها التى كان مبدؤها فى سنة ٥١ قبل الميلاد كان أخوها بطليموس صغيرا تحت كفالة الخصى بوثنوس واشيلاس قائد جيشه ولاريب أن هذين الوزيرين استوليا لانفسهما على جميع ادارة الاعمال العمومية والادارات السياسية ومنعا كليوبطره من أن يكون لها تداخل فى الاشغال وحرماها من اسم الملك الذى تركه لها أبوها أوليطس فى وصيته فلما رأت ما حل بها من الضرر والاذى ذهبت الى سوريا وفلسطين لتجمع عسكرا من تلك البلاد قاصدة بذلك اثبات حقوقها بقوة السلاح

ومن الامر الغريب أنه فى أثناء الحالة الجارى فيها الشقاق والنزاع بين الاخ والاخت أن بومبى بعد أن انهزم فى واقعة فارساليا هرب مستخفيا الى مصر فى مركب حتى يجد لنفسه فيها ملجأ أمينا ومأوى حصينا يقيه مما حل به من المصائب والاهوال وكان فى السابق هو المدافع والمحامى عن أوليطس أبى الملك المتسلطن فى مصر فى الحال فكان هذا الملك وهو بطليموس مديونا لسيادة بومبى وشوكته فى عود التخت الى أبيه ومنه وصل اليه وكان فى آمال بومبى أن يجد الولد حامدا شاكرا لفضله معترفا بمنه وعدله وان يكون فى سلطنة ودولة يتساعد بها على قضاء أغراضه فعند وصوله الى الساحل المصرى كان بطليموس موجودا مع جيشه على الساحل فيما بين مدينة بلوزه وجبل كاسيوس من جهة العريش الآن وكانت كليوبطره فى رأس جيشها على مسافة قليلة منه فتداول الوزيران بوثنوس واشيلاس مع طيودوطوس محافظ جسم الملك الشاب ومع بعض آخرين وكان بومبى منتظرا فى هذا الوقت نتيجة أقوال هذا المجلس واختار لنفسه أن يكون عرضة لضربة ثلاثة أشخاص قباح حاكمين الملك أحسن له من أن يؤتمن على سلامتها القيصر سبطميوس وهو صهره وأكبر الرومانيين فى عصره فاختلف المجلس فى الرأى فقال البعض باستقباله وقال الآخر بعدم استقباله ويذهب من هذه المملكة و يفتش له على مأوى فى غيرها وأما طيودوطوس فكان رأيه مخالفا لهذين الرأيين وذلك انه قال انه يجب علينا خلاص أنفسنا من هذا الرجل بالكلية لاننا لو قابلناه وقبلناه لم ينس القيصر مساعدتنا لعدوه ولربما يبطش بنا واننا لو طردناه بغير مساعدة ومعاضدة وعادت الاعمال اليه فلابد من كونه ينتقم منا نظير عدم قبولنا اياه ومن هذين الوجهين لم يكن لنا خلاص من ضيق الاقفاص ولا الاطمئنان على أنفسنا الا اذا قتلناه ومن ثم يتيسر لنا الحصول على صداقة القيصر وحرمان بومبى من وصوله بالاذى الينا وقال انه على حسب المثل المشهور أموات الرجال لا يحصل منها ضرب الرجال

ولما وقعت هذه المشورة عند المجلس موقع القبول وكانت أعظم سلامة لانفسهم تكفل اشيلاس وسبطميوس وهما قائدان رومانيان فى خدمة ملك مصر وبعض ضباط آخرين بقتل بومبى وتوجهوا فى زورق صغير لاجل استقباله وجلبه الى الساحل معتلين بان المراكب الكبيرة لايمكن قربها من البر من دون أن يحصل لها خطر واصطفت العساكر على ساحل البحر وفى رأسهم بطلميوس يظهرون اجراء الاحتفالات اللازمة عليهم الى بومبى ولما توجه الزورق بجانب المركب مد الخائن سبطميوس يده الى بومبى باسم الملك استاذه وأمره بالحضور الى ملك صديقه كان يظن فيه بومبى أنه حارسه وابنه فخضن بومبى زوجته كورنيليا وكانت فى هذا الوقت تسكب عبرات دموعها على خدودها من أجل فقده ومن بعد أن كرر بومبى سجعات سوفوكليس وهى كل رجل دخل فى خدمة طاغ صار رقاله توجه الى الزورق وعندما صار الزورق بما فيه على مقربة من الساحل ضربوا بومبى بالخناجر أمام عينى الملك وقطعوا رأسه ورموا جسمه على البر وتركوه ملقى على الساحل حتى دفنه رجل اختيار من الرومانيين كان له معلومية به ولا يخفى فى هذه الحالة ما حصل لزوجته كورنيليا من ذبح زوجها أمام عينها وكذا ما حصل بالبحريين الذين كانوا فى المركب مع بومبى وفى مركبين آخرين كانتا تابعتين لها من البكاء والنوح والسعى فى أخذ الثار وازالة العار الا أن التلاقيح والرياح هبت على المراكب فخشوا التلف وساروا من حيث جاؤا

وأما القيصر فانه بذل جهده وسعيه وكده وأسرع فى الحضور الى مصر متأملا من أن بومبى تقهقر اليها وقصدها فى هربه والاعتماد عليها وأمل فى نفسه أنه يجده فيها على قيد الحياة وبهذا عزم لاجل أن يمكنه الوصول اليها بسرعة على أن يأخذ معه قليلا من عساكره مقدار ٨٠٠ فارس و ٣٢٠٠ من المشاة وترك الباقى من جيشه فى بلاد الجريس وآسيا الصغرى تحت أوامر وقيادة قواده ونوابه وأمرهم بأن يجروا ما يعود منه النفع على نصرته ويقيموا حكومته وسلطنته فى أنحاء هذه الممالك وأما من جهة نفسه فانه اعتمد على شهرته وصيته ونجاح جيشه فى فارساليا وطرد جميع الجهات لنفسه ولم يحصل عنده أدنى شبهة ولا تردد فى سيره ونزوله فى الاسكندرية مع القليل من العساكر الذين جلبهم معه فكان فى هذه المسئلة التى أجراها مع الخفة والطيش على وشك الهلاك بما حصل له من التلبك والارتباك وبمجرد نزول القيصر فى الاسكندرية بلغه موت بومبى ووجد المدينة فى ارتباك وهيجان وقلقلة كبيرة واعتقد طيودوطوس محافظ جسم الملك الشاب انه فعل فعلا جميلا جاء على حسب رغبة القيصر وقدم رأس الرجل الشهير والبطل الخطير بومبى الملتجئ اليهم فلما رآها القيصر ناح وولول وبكى وأن واشتكى وأدار وجهه حتى لا يرى هيئة أوقعت فيه الرعب والاندهال وأمر بدفنها مع الوقار والاجلال وأن يجرى فى دفنها الرسوم الواجبة لمثله ولاجل اشهار معزته لبومبى واحترامه لذكراسمه فى الحال والاستقبال استقبل مع الاحتفال التام والاحسان العام والكرم والشفقة كل من كان منتميا الى بومبى وكانوا موجودين فى مصر وكتب الى محبيه فى رومة ان كانوا حامدين لنصره وشاكرين لفضله فليحافظوا على حياة من كان حمل السلاح معه وأن يوفوهم بأجل الاحسانات ويمتعوهم بأجل الخدمات ويهنوهم بالحياة ودوام المسرات

ولما رأى القيصر كثرة ما بالمدينة من الفتن والشغب وكثرة الموتى وأن ذلك أخذ فى الزيادة يوما فيوما لان المدينة كانت خالية من القانون والحكومة بسبب عدم وجود حاكم فيها ورأى انه من المعلوم أن

العدد القليل من العساكر الذين جلبهم معه غير كاف لارهاب أمة على غاية كبير من الوقاحة فى الثورات والهيجان أرسل أوامره للفرق الموجودة فى آسيا الصغرى بالحضور اليه على وجه العجلة حسب الامكان وأما هو فما كان فى طاقته ولا قدرته ترك مصر فى هذه الحالة لان الرياح الدورية مستمرة على الدوام ضاربة سواحل هذه المملكة وحاصل منها تلاقيح ورياح شديدة وتوءمنع جميع المراكب من خروجها من الاسكندرية وسفرها الى الجهات الرومية وكانت هذه الرياح شمالية فاشتغل لاجل عدم ضياع وقته بطلب دفع النقود المستحقة له من أوليطس وشرع فى استقصاء الشقاق والنزاع الواقع بين بطليموس وأخته كليوبطره وكان أوليطس لما اشترى معاهدته من الرومانيين بمبلغ ٦٠٠٠ وزنة دفع منه قسما كبيرا وأعطى بالباقى صكا عليه فمن ثم طلب القيصر باقى المبلغ الذى ما كان جرى دفعه لحد الآن لاجل صرفه فى لوازم واحتياجات عساكره وألح فى طلبه مع العنف والشدة فاستعمل الوزير الاول بوثنوس أنواع الخدائع المكربة ليزيد فى حدة القيصر زيادة عما هو عليه وأخذ بوثنوس فى سلب الهياكل وتجريدها من ذهبها وفضتها التى وجدها فيها ودس عند الملك وأرباب الدولة الاغنياء أن يأكلون فى أوانى الفخار وقصع الخشب وأشاع بان القيصر استحوذ على جميع الاوانى الذهبية والفضية وقصده بذلك ثوران الاهالى عليه

الا أن زيادة ثوران الاهالى على القيصر وحملهم السلاح فى وجهه كان من جهة أخرى وذلك أن العظمة والشماخة التى ظهرت منه فى كونه جعل نفسه حكما قاضيا بين بطليموس وكليوبطره وأمر بعما كتهما وحضورهما بين يديه ليحكم فيما هم فيه من الشقاق والنزاع وقال ان كلا منهما يلزم أن يلقى السلاح ويحضر أمامه لاجل المدافعة عن نفسه ويقبل ما يتوقع عليه من الحكم الذى يصدره فى حقه فهذا هو السبب الذى هيج المصريين عليه وحملوا السلاح وقصدوه لان هذا الامر أوقع عند المصريين أنهم فى موقع الذل والانكسار ووجدوه خسة ونقصا وفضيحة فى شرف السلطنة الملوكية خصوصا وان المملكة المصرية فى حالة استقلالية ليس فوق ملكها ملك وليس لمحكمة الحكم على ملكها بشئ فأجابهم القيصر فى أثناء هذه الزعزعة والاضطراب أن ما يجريه من العمل والفصل بين الاخ والاخت هو نص ما هو مدون فى وصية اوليطس أبيهما لانه جعل أولاده تحت رعاية ووصاية مجلس الاعيان والامة الرومانية ومن حيث ان جميع سلطة المجلس وشوكة الامة منحصرة فى شخصه فى هذه الحالة بصفة كونه قنصلا فللوصى الحق فى فصل المشاحنة بينهما وان جميع ما يمكننى أجراؤه لابد من تنفيذه حسب الوصية ويلزمنى توطيد السلم بين الاخ والاخت ولما اقتنع المصريون من هذا الايضاح استتب فيهم الهدو والراحة وجعلوا المسئلة وفصلها على يد القيصر وصار انتخاب المدافعين لاجل المدافعة فى المحاكمة كل عن موكله

ولما كانت كليوبطره عارفة جيدا بركاكة القيصر وضعفه رأت أن حضورها أمامه أنفع صلاحا وأرجح ميزانا لتوطيد أشغالها زيادة عن محام توكله فى مسئلتها بدلا عنها عند قاضيها فأرسلت تقول له ان جميع هؤلاء الذين توكلهم فى قضيتها عن نفسها لابد من كونهم يغشونها ويخونونها وانها تطلب منه الاذن والرخصة فى قدومها اليه وحضورها بين يديه وذكر بلوطارش أحد المؤرخين ان القيصر هو الذى جبرها على الحضور أمامه لتدافع بنفسها عن أمرها

ولما توجهت الملكة الى القيصر لم تأخذ معها أحدا من أحبابها وأصدقائها سوى ابولودوروس

الصقلى ونزلت فى زورق صغير وسارت به حتى وصلت الى تحت أسوار قلعة الاسكندرية ولما رأت فى نفسها أنه لا يوجد طريقة تدخل بها القلعة من غير أن تكون معروفة عند الناس دبرت أمر دخولها بحيلة صنعتها وذلك أنها ربطت نفسها فى داخل حزمة من القماش ثم لفها وأدرجها أپولودوروس فى كساء وربط عليها وحملها على عاتقه ودخل بها من باب القلعة الى محل جلوس القيصر يوليوس فتكدر القيصر من هذه الحيلة الا أنه بمجرد وقوع بصره عليها بهره جمالها وأحرق كبده دلالها وشغف بحبها فى الحال ونالت ما كانت تبغيه من النوال

وفى اليوم الثانى أرسل القيصر الى بطليموس وشدد عليه فى أخذها والاتحاد معها ورأى بطليموس بعين اليقين أن قاضيه صار خصمه وهو الحائف عليه فلما علم بهذه الحالة وتحقق أن أخته كانت فى السراى وفى المحل المعد لجلوس القيصر ترك السراى فى حالة شديدة من الحنق والجنون وصار يجرى فى الشوارع الكبيرة من المدينة وقلع تاجه عن رأسه ومزقه قطعا وصار يجره على الارض ويبكى وينوح ودموع عينيه منهملة على وجهه ويزعق بصوت تقشعر منه الابدان ويقول انغشيت انغشيت وأخذ يقص ما جرى له من الاحوال على الجم الغفير من العالم الذين اجتمعوا حوله ودار وابه وفى أثناء هذا كانت المدينة فى شغب وهياج فجعل نفسه فى رأس الامة وساقهم فى ثورة مهولة ليوقع بالقيصر نظير ما حصل منه من هذا الفعل الذى أجراه معه فقبض العساكر الرومانية الذين كانوا مع القيصر على نفس بطليموس وأخذوه وأما الذين لا يعرفون ما جرى من الفعل فانهم تشتتوا فى الحارات والازقة فى هذه المدينة الواسعة ولولا أن القيصر كان فى محل لا يمكنهم الوصول اليه لكان الاهالى سقطوا عليه وقطعوا جسمه ويديه ورجليه من شدة ما كانوا فيه من الحنق الشديد والخطر المبيد وكان القيصر حاضر العقل حتى أراهم نفسه من جهة عالية من السراى لا يخاف على نفسه منهم شيأ ومن هذا الوقت عرف أن الاهالى فى كدر عظيم وغيظ من أجله أليم من الافعال التى أجراها ولم يضعها فى حقيقة مجراها فمن ثم طلب فى اليوم الثانى بطليموس وكليوبطره فى مجلس عقده من الاهالى ومن بعد أن أمر بقراءة الوصية التى تركها الملك المتوفى على أرباب المجلس حكم بصفة أنه وصى مطلق بان بطليموس وكليوبطره يلزم أن يتسلطنا سوية فى مصر حسب نص الوصية وأن بطليموس الاصغر وأخته ارسينوى الصغرى يلزم أن يتسلطنا أيضا فى قبرص وأضاف هذه المادة الاخيرة من عنده لاجل تسكين الاهالى واخماد ما هم فيه من الغيظ والحنق الشديد لما أن الرومانيين كانوا استحوذوا من قبل على تلك الجزيرة لكنه خشى من تهور الاسكندرانيين وغضبهم وخلاص نفسه من هذا الكرب الذى وقع فيه

وفى سنة ٤٧ قبل الميلاد رضى كل واحد من الامة بهذا الحكم وقبله مع انشراح الصدر ماعدا بثونوس الوزير لانه كان السبب الاصلى فى اتساع الخرق بين كليوبطره وأخيها وتسبب فى طرد تلك الملكة من تحت أبيها ورأى أن ملاءمة الاحوال بهذه الحالة يعود عليه بالتلف والخسران فلاجل صده تنفيذ حكم القيصر يوليوس دس بين الاهالى دسائس جديدة وأشعل فى صدورهم نيران الحمية والغضب وقال لهم ان القيصر من خوفه من وجود القوة أصدر حكمه هذا وانه لم يلبث مدة طويلة حتى يلغيه والغرض الاصلى له هو وضع كليوبطره وحدها على التخت وكان ذلك هو الامر الذى يخافه المصريون اذ ما كان لهم طاقة على تحمل امرأة تحكمهم وحدها ويكون لها السلطنة والشوكة دون غيرها فلما رأى بثونوس أن الاهالى رجعوا الى قوله وصار وامعه على أمر جامع أمر اشيلاس بالتقدم فى رأس الجيش .

الجيش من مدينة بلوزه لاجل طرد القيصر والذين معه من الاسكندرية ولما قرب الجيش من الاسكندرية وقع الهياج والارتباك زيادة عما كان قبل وبما أنه كان يوجد مع اشيلاس القائد نحو من ٢٠٠٠٠ مقاتل ازدرى هذا القائد بالعدد ولقلة ما عنده من العساكر واعتقد فى نفسه أنه لابد له من أن يتغلب على القيصر وما معه من القوة بمجرد التحامه معه لكن القيصر رتب عساكره بطريقة جيدة فى الشوارع ومخارج وفتحات حارات وأزقة الثمن الذى كان مستحوذا عليه من المدينة حتى صار لايصعب عليه باى طريقة كانت تعضيد ومساعدة عساكره وقت حصول أى هجوم يقع من المصريين عليهم فى أى جهة من جهات ثمنه ولما وجد اشيلاس وجيشه أن لاطاقة لهم على التغلب على القيصر وعساكره بدل القائد حركته وسار نحو المينة قاصدا فى ذلك التغلب على الاسطول وقطع طريق وصول القيصر الى البحر وحرمانه من وصول أى مدد أو تقوية أو ذخائر تأتى اليه من هذه الجهة الا أن ما أجراه القيصر من أعماله خيب سعيهم وأضعف كدهم وذلك انه أمر بحرق الاسطول المصرى واستحوذ لنفسه على برج الفنار واستحفظه وحفظ طريق مواصلته مع البحر ومن بعد هذا صار لايخشى أدنى تأثير من أعمال المصريين وفى أثناء حريق الاسطول ارتمى بعض المراكب التى شبت النار فيها على رصيف المينة فأمسكت النار الموجودة فيها بالبيوت والمساكن المجاورة للرصيف ومن هذه الجهة امتدت النيران الى جميع خط بروشيون الموجود فيه دار الكتب المشهورة فامسكت النار فيها وأحرقت هذه الدار بما فيها من الكتب النفيسة كما ذكرنا ذلك فى سلطنة بطليموس فيلادلفوس وكانت هذه الكتب أشغال ملوك جمة وعددها نحو من ٤٠٠٠٠٠ مجلد

ولما رأى القيصر نفسه فى خطر شديد أرسل الى كافة الممالك المجاورة له فى مساعدته وكتب لآخرين من ضمنهم ذوميطيوس غالفنوس وكان القيصر تركه قائد العساكر فى آسيا الصغرى وبين له ما هو فيه من الشدة والخطر وانه على شرف الهلاك ان لم يسعفه بالامداد والعساكر ففرز هذا القائد فرقتين من العسكر أمر بتسفير احداهما من طريق البحر والاخرى من البر فأما الفرقة التى سافرت من البحر فانها وصلت الى القيصر فى الوقت المحدود وأما التى سافرت من البر فانها لم تصل اليه أبدا وكان أعظم معين فى هذه المسئلة وأكبر مساعد للقيصر فى هذا الحرب متيريداطيس البرجامنيانى وكان أرسله القيصر الى سوريا وصيليصيا ليأتيه بالعساكر الذين يجدونه من شدة هذا الخطر كما سنذكره بعد وفى أثناء انتظار القيصر المساعدات التى أرسل من أجلها وكذا لاجل عدم تداخله فى محاربة جيش أكبر منه عددا وقوة حتى يأتى له الامداد والاسعاف أمر بتحصين ثمن المدينة الموجود تحت يده تحصينا تاما وأحاطه بأسوار وحماه بأبراج واستحكامات أخرى فكان من داخل هذه الاسوار السراى الملوكية والملعب أى التياترو الموجود بالقرب منها فقلب القيصر كل ذلك وعمله قلعة رصينة استعملها فى حربه مع المصريين وكذا حصن الطريق الموصل للمينة وكان فى هذه المدة بطليموس تحت قبضة يده ومعه الوزير بتونوس مربيه ووزيره الاول فكان هذا الوزير فى مخابرات مع القائد اشيلاس يخبره بكل ما يحصل من القيصر فكتب له يوما من الايام بالذى حصل فيه ويشجعه ويقويه على دفع الهجوم بقوة وعنف فضبط القيصر أحد جواباته وظهرت خيانته له وخباثته فأمر القيصر بقتله ومن بعد قتله ظهر خصى آخر أصله من طواشية السراى اسمه غانيميديس (غانم) حصل بينه وبين القيصر أعمال ومبارزات كبيرة وأفسد عليه المياه الموجودة فى داخل المدينة حتى صار لايجد لنفسه ولا لعساكره

مياهاللشرب بعد فراغ مياه الصهاريج فانجبر القيصر على حفر ابار للشرب منها ولو أن مياهها ليست عذبة مثل مياه النيل ثم ورد الخبر للقيصر بأن الفرقة التى أرسلها تاغانوس من طريق البحر وصلت الى ساحل ليبيا أى برقة فأخذ أسطوله وتوجه لجلبها فهجم عليه غانم الطواشى بالاسطول المصرى الا أنه لم يحصل له فى ذلك ثمرة وكان سعيه وكده على غير طائل وجلب القيصر فرقته الى داخل المينة واستمرت المبارزات والاعمال الحربية جارية مدة حتى ان أهل الاسكندرية كلوا وتعبوا وأخيرا لما رأوا أن لا نجاح لهم فى ذلك وأن القيصر أخذت قواه فى الزيادة يوما فيوما وجهوا أفكارهم الى السلم وحصول الأمن أو الى أى حالة كانت تحصل بينهم وبين القيصر فى شأن استتباب راحتهم وأرسلوا من طرفهم نوابا عنهم الى القيصر يطلبون منه ملكهم وأوعدوه بأنه متى كان بينهم وفى رأسهم ربما تنتهى هذه الاختلافات وتنفصل هذه المبارزات ولما كان القيصر على دراية تامة من غشهم ومكرهم فما كان على خسارة لو منحهم طلبهم وتبصر فى رده اليهم وقال فى نفسه من نكث فانما ينكث على نفسه وأحضر الملك ومنحه حريته التامة ونصحه فى كونه ينتهز هذه الفرصة ويحض رعيته على السلم واستتباب الراحة ويحثهم على عدم اجراء ما يتولد منه الخراب والدمار على المملكة المصرية وأظهر القيصر لبطليموس حبه وصداقته لابيه المتوفى وما أداه له من الخدمة الجليلة فى استرداد التخت اليه بعد أن كان فقده وكان بطليموس هذا تعلم شيأ من المكر والخداع وصار يبكى ويسيل عبرات دموعه على خدوده أمام القيصر كهانة منه ومكرا حتى يبلغ مأمنه ويتقلد زمام سلطنته ولما انفلت بطليموس من بين يدى القيصر واجتمع برعيته فما أسرع كونه صار فى رأس جيشه وجدد المبارزات والمحاربات زيادة عن الاول واجتهد المصريون بواسطة اسطولهم فى قطع الذخائر الواردة للقيصر بالكلية حتى تولد من ذلك حرب جديد فى البحر فى جهة مدينة كانوب (أبوقير) وعند حصول هذه الواقعة كان ميثريداطيس البرجامنيانى على شرف الوصول بالجيش الذى جلبه لمساعدة القيصر وبمجرد وصول ميثريداطيس وانطيباطير بالجيش من جهة سوريا الى مدينة بلوزه (الفرما) تغلب الاثنان على هذه المدينة بالهجوم عنوة وكان فخر النصر فيها منسوبا الى انطيباطير لانه كان أول مخاطر بعساكره فى الهجوم عليها من الشروم التى فتحت فى أسوارها ومن التغلب على هذه المدينة تقدم الجيش فى سيره حتى وصل الدلتا ففصل بطليموس من جيشه قسما من العسكر ليصدوا جيش ميثريداطيس من عبور النيل ومن هذا انتشبت محاربة شديدة جعل ميثريداطيس نفسه فيها قائد قسم من جيشه والقسم الآخر جعله تحت قيادة انطيباطير فانكسر فى أثناء الواقعة الجناح الموجود فيه ميثريداطيس وانجبرت عساكره على الفرار وكان انطيباطير هزم المصريين من جهته وسار لمساعدة وخلاص ميثريداطيس وابتدأ الاثنان فى الحرب سوية ثانيا فهزما عدوهما وسار ميثريداطيس وانطيباطير خلف العدو يقتلون ويأسرون وحصل لهم بذلك النصر والظفر وتغلبوا على معسكر المصريين وجبروا ما بقى من عساكر عدوهم على الفرار وعبورهم النيل

ثم من بعد هذا تقدم بطليموس بكافة جيشه قاصدا فى ذلك قهر عدوه وسار قيصر أيضا لمساعدة قواده وبمجرد التحاقه وانضمامه معهم كانت هى الواقعة الفاصلة التى حصل فيها النصر الكبير والظفر الخطير للقيصر وعساكره واجتهد بطليموس فى نجاة نفسه وأراد الهرب ونزل فى قارب فى النيل فغرق فيه ولم يظهر له خبر ولا لجثته أثر وبهذا خضعت الاسكندرية وجميع المملكة المصرية للقيصر فاتح

ديارها

ديارها والقامع اسكاتها ثم عاد القيصر الى الاسكندرية ولما لم يجد له فيها مقاوما ولا مضادا لاوامره ألبس تاج المملكة المصرية لكليو بطره وجعل أخاها بطليموس الاصغر مشتركا معها

وكان عمر بطليموس الاصغر فى هذا الوقت احدى عشرة سنة وفى مدة صغره كانت جميع السلطة والشوكة فى يد أخته كليوبطره ولما بلغ عمره خمس عشرة سنة وهو بلوغ رشده حسب شرائع المملكة المصرية صار حاكما بنفسه وصار له نصيب فى الملك فسممته أخته وقتلته وتقلدت زمام المملكة على حدتها وكان ذلك فى سنة ٤٣ قبل الميلاد وفى هذه المدة قتل القيصر يوليوس بواسطة ثورة قامت عليه كان رأسها بروطوس وكاسيوس فتشكل لاجل الاخذ بثاره من الذين كانوا سببا فى قتله تحالف ثلاثى بين مارك انطونى وليدوس والقيصر أوكطافيانوس وأعلنت كليوبطره نفسها من غير تبصر ولا تردد بدخولها فى هذا التحالف الثلاثى فى سنة ٤٢ قبل الميلاد وأعطت اليانوس نائب القنصل دولابالله أربع فرق عسكرية كانوا من بقايا جيوش بومبى وقراصوص وجندت قسما من العساكر الذين كان تركهم القيصر عندها للمحافظة على مصر وكان عندها أيضا أسطول مستعد للسفر الا انه من كثرة وجود التلاقيح والنوما كان للاسطول قدرة على السفر وجعلت كليوبطره كاسيوس القائد على الاربع فرق تابعا عنها فى المساعدة وعزمت على عدم التوجه بنفسها لكنها من بعد مضى مدة قليلة سافرت بأسطول كثير العدد من المراكب لاجل انضمامها مع أنطونى وأوكطافيانوس فخرج عليها النوّ فى البحر وأغرق الكثير من مراكبها وحصل لها مرض شديد أوجب عودها الى مملكتها

وفى سنة ٤١ قبل الميلاد بعد أن هزم انطونى بروطوس وكاسيوس فى واقعة فيليبى انتقل الى آسيا لاجل اقامة سلطة التحالف الثلاثى فيها فلما وصل اليها وردت عليه ملوك الشرق وأمراؤه وسفراؤه فى زحام كبير يقدمون له احتراماتهم فبلغه فى أثناء ذلك أن حكام فينيقية التابعة للمملكة المصرية أرسلوا كاسيوس مساعدة ضد القنصل دولابالله فطالب انطونى محاكمة كليوبطره ملكة مصر أمامه فى مجلس مركب من أهل المملكة لتجاوب عما أجراه حكامها فى شأن هذه المساعدة وأرسل اليها أحد نوابه ليلزمها بالحضور فى صيلصيا فكان هذا الشغل مشؤما على أنطونى واستمر فى المصائب والبلايا التى حلت به من عشقه كليوبطره وغرامه بها حتى هلك ومات من بعد أن أصابته الآفات وفارقه العقل ولذة الحياة

وذلك أن كليوبطره وطدت نعاويذها وأحرازها فى دلال جمالها ونجحت فى أشغالها وأعمالها كما كانت ألقت ملاحة قوامها وبهجة جمالها على القيصر يوليوس حتى سلبت عقله وأذابت لبه ونالت ما كانت تبغيه بسحر عيونها وحمرة خدودها وجمال وجهها فكانت فى هذه الحالة أيضا على آمال كبيرة من أنها تأسر انطونى كما أسرت القيصر يوليوس قبله وزيادة لان القيصر يوليوس كان عرفها وهى شابة صغيرة ما حنكتها التجارب الدنيوية وأما فى الحالة هذه المتوجهة فيها للحضور أمام أنطونى فانها فى عمر النساء مع ازدهاء جمالها ورقة خصرها وبياض وجهها وما هى مشتملة عليه من قوى الحذاقة والمهارة ومن كثرة تداخلها فى الاشغال والاحكام والتدبير فى حكم الامراء والعوام وكان عمر كليوبطره فى هذا الوقت خمسا وعشرين سنة فجهزت نفسها بهدايا فاخرة ومبالغ من النقود وافرة وملابس جليلة وزخارف جميلة ومع ذلك فان جمالها ورقة عذوبة كلامها وما هى عليه من الدلال والكمال كان هو مبلغ آمالها زيادة عن ذهبها وملبوسها وشرعت فى سفرها وفى حال سفرها تناولت

عدة مكاتيب من أنطونى وكان فى هذا الوقت فى طرسوس وبعض أصدقائه يحضها ويحثها على السفر وسرعة وصولها اليه فضحكت على تشوقهم وتلهفهم ولم تأخذلها أهمية فى سرعة طلبهم ولما عبرت بحر بمفيليا ودخلت فى نهر سيدنوس سارت مصعدة فى هذا النهر حتى نزلت فى طرسوس وما شوهد مطلقا فى الايام السابقة تطقيم زورق مثل طقم زورقها لما كان عليه من الابهة والفخر والفخامة والاجلال فكان مؤخر هذا الزورق من الذهب الخالص وشراعاته من الارجوانى ومجاديفه مرصعة بالفضة ومشرع فى مؤخر الزورق مظلة مزركشة ومخيشة بالذهب جالسة تحتها الملكة يضئ لونها مثل كوكب الزهرة محاطة بأجمل العذارى من سراريها وغالبهن من بنات الحريق وكانت آلات الطرب مثل النايات والمزامير والاعواد والقوانين تضرب بين يديها بدل الطبول وكانت أهوية هذه الآلات الموسيقية فى الضرب موافقة لجر المجاديف فى البحر وكان أرباب المجاديف يرتاحون قليلا لسماعها وبخار حرق البخور وعود الند فى مباخر من الذهب فوق سطح القارب بورر وائح هذه العطريات منتشرة على مسافة عظيمة من شاطئ النهر وعلى كل من شاطئ هذا النهر عالم لا يحصى وزحام لا يستقصى جذبهم اليها هذا المنظر العجيب والكوكب الزهرى الغريب ولما أخذ أهل طرسوس خبرا بحضورها هرعوا لملاقاتها من كل فج لجيج واتفق وقت حضورها أن كان مجلس أنطونى أخذ فى التجمع فخرج أرباب المجالس والمحكمة من عند أنطونى وتوجهوا للفرجة على كليو بطره وتركوا أنطونى وحده مع خدمه فقط وانتشرت الاشاعة فى كل جهة أن المعبودة الزهرا موصلت الى هنا لاجل زيارة بخوس الاله شاكرة له على ما فعله من الطيبات فى آسيا

وعند نزول كليو بطره من زورقها على البر أرسل لها انطونى مسرعا تهنئة بسلامتها ودعاها الضيافته فى العشاء معه فأجابت نوابه بقولها انها فى غاية السرور والحظ الموفور وقت انشراح صدرها بحضورها بين يديه والتمتع بمشاهدة عينيه لكنها منتظرة حضوره فى الخيمة التى أعدتها ونصبتها بساحل النهر فلم يجد انطونى مانعا يمنعه من ذهابه اليها فتوجه عندها ولولا خوفه لقبل رجليها بعد أن لثم يديها ولما وجد عندها من الاستعدادات والابهة التى كل وصف أنطونى عن شرحها وانبهر على الخصوص من جمالها ورقة خصرها وعذوبة لفظها وتقاطيع وجهها حتى شغف بغرامها وكاد يختل عقله من قوامها وهيئة نظامها وضوء وجهها الذى يجعل الليلة الشديدة الظلام نهارا ساطعا خاليا من السحاب والغمام

وفى اليوم الثانى دعاها انطونى الى وليمة عظيمة أعدها لها وبذل جهده وطاقته فى استعدادها الا أنه مهما كان من اجتهاداته فاقت عنها فى تحضيراته واستمر أنطونى مع كليو بطره فى ضيافات وكرامات وأكل وشرب ولذات وصار لا يسأل عما يكون حتى أحاطت عساكر الاعداء بالممالك الموجود هو فيها وأرادوا التغلب عليها فتوجه اليهم وهزمهم ورجع سريعا الى كليو بطره وقدم لها كل ما ترجوه وتبغيه وأمر بقتل أختها ارسينوى عن رغبتها حتى لا يكون لها منازع بعدها واستمرا فى لذاتهما وشرب مدامتهما وبهذا صار أنطونى عبدا لكليو بطره وصار على وجهه غبرة ترهقها قترة ولما رأى أنطونى ما هى عليه كليو بطره من الترفه بالنعم الجليلة والمصاريف والاحوال الجميلة سألها بجدة وحرارة وقال لها ما الذى تريدين أن تضيفيه على ما أنت فيه من هذا المجد والسعد والسودد فأجابته كليو بطره بجواب بارد فى امكانى صرف ما ينوف عن مليون من الجنيهات فى عشوة واحدة لنفسى فقال هذا تفاخر وعجب فقط والا فلا يمكن الحصول على ذلك أبدا فانعقد الاثنان رهانا على ذلك ولما جلسوا على المائدة فى اليوم

الثانى

الثانى وأكلوا كانت الاطعمة على غاية من الافتخار الا أن أنطونى ماوجد فيها شيأ خارقا للعادة
بحسب أنطونى مصروف المائدة وسأل الملكة عن أثمان أوانيها وقال لها مع الاستهزاء والسخرية كأنه
هو المنصور عليها ان ذلك أقل بكثير من مليون فقالت له الملكة انتظر هذا هو المبدأ وانى سأجتهد
هل يمكننى أن أصرف على نفسى فقط مليونا من الجنيهات أولا وأمرت بعد مائدة ثانية لم يكن عليها شئ
حسب العادة الجارية سوى كأس ملآن بالخل فاستغرب انطونى من مثل هذا الاستعداد ولم يتصور فى
ذهنه ما الذى سيحصل وذلك أنه كان فى حلق كليوبطره لؤلؤتان من أحسن وأظرف وأفخر اللآلئ
وكان قيمة كل واحد منهما ٥٠٠٫٠٠٠ استرلينه ففكت واحدة من الاثنتين ووضعتها فى الخل
وانتظرت حتى تحللت وأخذتها بيدها وبلعتها وأرادت أن تفعل بالاخرى كما فعلت بالاولى فمنعوها
وثبت لها الرهان وغلبت أنطونى

ومع ما كانت عليه كليوبطره من الانهماك فى اللذات وكثرة المصاريف كان لها ذوق وملكة عظيمة
فى الآداب والعلوم حتى انها شيدت فى المحل الذى كان فيه دار الكتب القديمة التى حرقت دار كتب
أخرى جديدة وكان الفضل فى زيادة كتب هذه الدار لانطونى فانه أهدى لكليوبطره جميع الكتب
التى كانت موجودة فى دار الكتب بمدينة برجاموس وكان عددها ينوف عن ٢٠٠٫٠٠٠ مجلد
وما كان جمعها الكتب من أجل الزينة والزخرفة بل كانت تستعملها فى مطالعتها لانه كان يوجد بعض
من الامم المتبربرة كانت مجبورة على المحادثة معهم بلغاتهم بغير ترجمان فكانت على دراية تامة من اللسان
الحبشى والطوغلوديطى والعبرى والعربى والاشورى والفارسى وغير ذلك وكان لها دراية بمعرفة لغات
أخرى ما كان للملوك الذين تسلطنوا قبلها فى مصر دراية بها حتى كان البعض منهم لا يعرف اللسان
المصرى وكانوا نسوا لغاتهم الاصلية المقدونية

وكانت كليوبطره تدعى أنها هى الزوجة الشرعية لانطونى ولما رأته تزوج أوكطافيا عليها أخذها
الاضطراب والروع ونظرت اليها بعين العداوة فسكن انطونى روعها والتزم أن يقدم لها هدايا فاخرة
فاهداها ممالك فينيقية وسوريا السفلى وجزيرة قبرص وقسما عظيما من صيليصيا وأضاف الى هذه
الجهات قسما من يهوذا وبلاد العرب فتولد من هذه الهدية الكبيرة نقص كبير فى المملكة الرومانية
وحصل الغضب من جهة الرومانيين على أنطونى بشأن المكارم العالية التى أجراها مع مثل هذه
الملكة الاجنبية

وتولد من شغف أنطونى بحب كليوبطره خفض شرفه وتنازلت درجة مقامه وكان كلما توجه
الى حرب أو زيارة فى رومة أولاية عجل أسرع فى الرجوع الى الاسكندرية لاجل التمتع والتلذذ
بمؤانسة كليوبطره ومشاهدتها ولم يبال بالاشغال الواجبة عليه تمت أو لم تتم وسنذكر فيما سيأتى
ما وقع بين انطونى وكليوبطره عند ذكرنا تاريخ رومة فى الجزء الثانى من هذا الكتاب وما بقى علينا الا
أن نقول انه فى سنة ٣٠ قبل الميلاد لما تغلب الرومانيون على عاصمة كليوبطره قتلت نفسها بنفسها
وصارت مصر اقليما رومانيا وبها انقرضت العائلة البطليموسية من بعد مدة مقدارها ٢٩٣ سنة
والله يؤتى ملكه من يشاء وهو القوى العزيز

الباب الرابع

﴿ من ابتداء التغلب الرومانى الى الوقت الحالى ﴾

مصر ايالة رومانية ـ الابهة الآدابية فى الاسكندرية ـ الديانة المسيحية فى مصر ـ ضعف واضمحلال مصر العليا ـ صيرورة نوبيا مملكة مصر ـ خراب مصر ودمارها ـ انقراض العنصر الجريقى ـ قيام القبط وتحزبهم ـ الجور والتعدى على مسيحى المصريين ـ تشييد الديانة المسيحية تحت سلطنة قسطنطين ـ الاختلافات الاريانية ـ مجلس نفيا ـ الظلم الذى وقع على الاريانيين ـ تدميرهيا كل الاوثان وخرابها ـ حوى الديانة الوثنية على الديانة المسيحية ـ كيريل ـ حباطيه ـ تدمير مصر العليا ـ تغلب الفرس على مصر ـ تشييد الكنيسة القبطية ـ قيام المسلمين ـ فتح عمرو بن العاص مصر ـ أخذ الاسكندرية ـ صيرورة مصر ايالة عربية ـ نشر الديانة الاسلامية ـ قيام الخلفاء الفاطميين ـ تغلبهم على مصر ـ تجزئة المذاهب الاسلامية ـ الحاكم بأمر الله الفاطمى ـ انقراض سلسلة الفاطميين من مصر ـ يوسف صلاح الدين ـ تغلب يوسف صلاح الدين على فلسطين وسوريا ـ المماليك ـ تغلب المماليك على مصر ـ تغلب الاتراك العثمانية على مصر ـ صيرورتها ايالة تركية عثمانية ـ تغلب نابليون بونابارتو على مصر ـ محمد على باشا ـ حيلته فى ذبح المماليك وانقراضهم ـ مساعيه فى استقلالية مصر ـ الثورة الجريقية ـ عصيان مصر على الدولة العثمانية ـ مظفرات ابراهيم باشا ـ تغلبه على سوريا ـ تداخل الدول الاوروباوية ـ حصر مصر فى حدودها الاصلية ـ عباس باشا ـ مبادى الاشغال فى السكة الحديدية ـ سعيد باشا ـ مبادى الشروع فى فتح خليج السويس ـ اسماعيل باشا ـ سرعة التقدم فى مصر تحت حكمه ـ المظالم والديون ـ خلعه وخروجه من الديار المصرية ـ محمد توفيق باشا ـ جلوسه على الاريكة المصرية ـ مبادى الثورة الوطنية ـ تداخل انكلتره وفرانسا ـ خروج فرنسا عن التداخل وبقاء انكلتره على حدتها ـ وصول النائب العثمانى ـ ورود الدونمات الانكليزية والفرنساوية بمصر ـ اعلان الحرب من الاميرال الانكليزى ـ تقرير وجوب الحرب بمجلس عقد تحت رياسة الخديوى والنائب العثمانى ـ ضرب الاسكندرية ـ عدم مقاومة العساكر المصرية وتقهقرهم تحت قيادة أحمد عرابى الى كفر الدوار ـ هزيمة أحمد عرابى فى التل الكبير ـ ضبطه مع المنتمين اليه وحبسهم ومحاكمتهم ـ نفيهم الى سيلان بعد الحكم عليهم بالاعدام ـ وصول المنفيين الى سيلان وتوطنهم فيها والحالة التى استقروا فيها ـ الثورة السودانية ـ محمد أحمد الملقب بالمهدى ـ تدمير الجيش المصرى فى السودان ـ تنازل مصر عن السودان ـ تغلب محمد أحمد على الخرطوم وموت غوردون وكسر العساكر الانكليزية ـ هزيمة العساكر الانكليزية فى سواكن وجهاتها ـ هزم العساكر المصرية عثمان دجنه بجهة سواكن ـ هزم العساكر المصرية عساكر المهدى تحت قيادة ابن النجومى بجهة وادى حلفة ـ وفاة الخديوى توفيق باشا وجلوس سمو البرنس عباس باشا على الاريكة الخديوية

استمرت مصر ايالة رومانية زيادة عما ينيف عن ثلاثة قرون وكانت تحت حكم الامبراطورات القديمة أرفع جميع الايالات الرومانية وكانت على حالة جيدة النظام من المعاملات ولو أنها كانت محكومة

بأحكام شديدة الا أنها كانت معتبرة فى حد ذاتها أنها احدى الممالك الرفيعة الدرجة فى المملكة الشاسعة الرومانية وكانت مصر منبعاً أصلياً تجر منها رومة ما يلزم لها من الحبوب والغلال ومحكومة بعمال من طرف الحكومة الرومانية وكان الملوك الرومانيون يزورونها فى كثير من الاوقات

وفى أثناء هذه المدة كانت الاسكندرية هى المقر الاصلى والمركز الرئيسى لعلوم الدنيا القديمة وآدابها وصنائعها وفنونها وصيرتها كتبخانتها العجيبة ودار معارفها الغريبة وتجمع الحرف والصنائع النادرة الوجود فى غيرها أرقى محل وأجل مقر وأكبر مأوى للعلماء وأرباب الآداب يهرعون اليه أفواجا من كل فج عميق لاكتسابهم المزايا النافعة والتألفات المدنية اليانعة

ولما انتشرت الديانة المسيحية مع السرعة فى عالم الدنيا كانت مدينة الاسكندرية هى مركزها الاصلى ومن هذا الوقت شرع المصنفون من المسيحيين فى أن يكون لهم امعان تام وتنبه عام وتصنيفات عظيمة تعادل أعظم تصنيفات أكبر الفلاسفة الوثنيين

وفى أثناء هذه المدة أخذ سكان مصر العليا فى الضعف وسرعة الانحطاط حتى انه فى سلطنة الامبراطور قومودوس التى كانت من سنة ١٨١ الى سنة ١٩٤ بعد الميلاد صرف سكان مصر العليا ما كانوا يملكونه من الثروة والغنية وتدمرت حمائل تجارتهم وقوافلهم من قفط الى البحر الاحمر وصار لا يأتى لهيا كلها ومعابدها أدنى محصول من أوقاف البلاد المجاورة لها الا دون الطفيف وبما أن بلاد النوبة عبارة عن صحار شاسعة صار القليل من العساكر فى أسوان فيه الكفاية لخفر مصر العليا من غارة الحبشيين والنوبيين وصار لا لزوم لارسال مذنبين أو مجرمين فى جهات واحات سيوه بل صار من الكفاية نفيهم فى الضواحى المجاورة لمدينة طيوه وحصل الضجر والكدر لمصر السفلى من عدم وجود النظامات واختلال الحالات التى أعقبت سلطنة اسكندر صفروش من سنة ٢٢٢ الى سنة ٢٢٥ بعد الميلاد لانه حصل فى أثناء هذه المدة ثورات وهيجان امتد زمنا طويلا حصل منه تغيير واستبدال فى الشوكة الامبراطورية الرومانية فأما القحط الذى كان نادر الوجود فى مصر فانه صار يزورها فى الغالب وصار من أجل أصدقائها وأعز أحبابها وأخذ الفقر مدة فى الزيادة حتى بلغ أقصى النهاية

وفى السنة الاخيرة من سلطنة جالينوس نكثت زنوبيا ملكة بالميرا (تدمر) صداقتها للمملكة الرومانية وكانت حليفة من قبل لرومة وهزمت الجيوش التى أرسلها جالينوس لمحاربتها والغارة عليها ثم سارت قاصدة مصر لتأخذها وتضيفها الى ممالكها وكانت ممالكها محصورة فى سوريا وآسيا الصغرى وأعلنت نفسها أنها من نسل كليوبطره الملكة الاخيرة لمصر وانضم اليها قوة عظيمة من المصريين ومع هذا كان كدها وسعيها على غير طائل ثم جددت هذا السعى من بعد موت قلوديوس فى سنة ٢٧٠ بعد الميلاد وفى هذه المرة نجحت فى سعيها وملكت زنوبيا جميع المملكة المصرية وصارت مصر ايالة سورية مدة ما من الزمن واعترف أورليان فى الابتداء بان زنوبيا رفيقته فى المملكة ومن ثم كانت النقود الجارى ضربها فى الاسكندرية يبصم عليها من جهة رأس أورليان وعلى الاخرى رأس ملكة بالميرا ومن بعد مضى قليل من الزمان سار أورليان مغيرا على زنوبيا وهزمها وأسرها وأضاف مملكتها الى أراضى المملكة الرومانية فبهذا عادت مصر مرة أخرى ايالة رومانية

ثم حصل فى مدة المملكة الرومانية عدة ثورات كانت على غير طائل واستمر أكبر هذه الثورات لمدة تسع سنوات الى أن صار اخماد هذه الثورة المهولة بغاية الشدة والصعوبة بواسطة الامبراطور دوقليطيان

نفسه وذلك أنه تغلب فى حروبه على المدائن العديدة من مصر وخربها ودمرها وتغلب على مدينة الاسكندرية عنوة من بعد أن حاصرها ثمانية أشهر وأحرق قسما عظيما من هذه المدينة وقتل الكثير من أهاليها بالسيف فى سنة ٢٩٧ بعد الميلاد وقاست مصر من هذه الثورات أشد المصايب والكروب وعلى الخصوص من الثورة الاخيرة فانه بها تم الخراب وعم الدمار وتعطلت التجارات والمعاملات فى عموم وادى النيل وطمت ترع الرى والخلجان المعدة لرى الاراضى وصارت حالة الزراعة فيها من أقبح الاحوال وعدم حصول المنافع واندثرت التجارة وخربت معامل الاشغال الصناعية من كل صنف وأخيرا لما خلت مصر من هذه الثورة الكبرى وكانت المملكة فى اختلاف وشقاق بين أضافها أغسطوس وجعلها أحد أقسام مملكته وصار خلفاؤه من بعده يعتبرونها كأنها احدى الجواهر الثمينة فى تيجانهم وتولد من هذه الارتباكات الداخلية تغييرا آخر وذلك أن عمود الالفة المدنية ارتج وأخذ عدد الجريق فى النقص والقلة الا أنه مازال ثقيلا فى الوزن وما كان حصل من سقوط دولة البطالسة وغلبة الرومانيين تغيير كبير فى المملكة وابتدأ ظهور الايام الساطعة لمصر حالما كانت مملكة جريقية فى الزهو والضياء فى الاسكندرية وانتهت بثورات ضد كل من جالينوس وأورليان ودوقليطبان وذلك أن وطنى المصريين من قبط وعرب قاموا فى ثورة على وجه الاعلان فقط بسبب ماحل بهم من الغرق فى داخل الحضارة الجريقية وقامت الطوائف العالية من القبط وبطشوا بهذه العائلة ذات الاولاد الجالبة عليهم الارتباكات فى وقت وانقضوا عليهم ألوفا ألوفا وألجؤهم الى المعابد والهياكل ومن ذلك انقرض العنصر الجريقى من مصر

ولقد انتشرت الديانة المسيحية بسرعة فى مصر كما ذكرنا وسمح للمسيحيين من عهد سلطنة جالينوس فى بناء كنائس وعقد جمعيات عمومية وفى هذه المدة ظهر كثير من الاذكياء والاجلاء من بين هذه الجمعيات وفى سنة ٣٠٤ بعد الميلاد شرع الامبراطور دوقليطبان فى تدمير الدين المسيحى من كافة المملكة بكونه أوقع ظلما وجورا واضطهادا وما كان هذا الجور فى مكان أشد مما هو عليه فى مصر وهلك فيه الجم الغفير من المسيحيين ومع هذا فانه لم يمنع زيادة تقدم ونمو هذا الدين الجديد بل أضاف ألوفا من الناس للدخول فيه ثم انتهت هذه الفظائع فى سلطنة قسطنطين الاكبر بكونه جعل الديانة المسيحية هى ديانة مملكته وكان المسيحيون فى اتحاد بينهم حال وقوع الجور عليهم ومن بعد تشييد دينهم بالظفر والغلبة ظهر فيما بينهم التجزئة والانقسام وساقهم الى مشاحنات ومخاصمات آلت الى سفك الدماء وقتل الانفس ومن بعد أن صارت القسطنطينية عاصمة المملكة فى سنة ٣٣٠ بعد الميلاد صار تاريخ مصر فى ظرف ثلاثة قرون تسجيل مشاحنات ومخاصمات فيما بين أرباب الاديان وكان يتولد من هذه المشاحنات فى الغالب ثوران وهيجان تسفك فيه دماء كثيرة تجرى كالانهار فى شوارع وحارات الاسكندرية بين المسيحيين وبعضهم أو بين المسيحيين والوثنيين وبمجرد انفصال المشاحنات مع الوثنيين انقسم المسيحيون فى مصر والاسكندرية الى حزبين فى مسئلة هل الابن من مادة واحدة مع الاب أو من مادة مشابهة لها فقط

وكان أول هذه المشاحنات هو مجادلة الاريانيين ومخالفاتهم وكان ذلك قبل بناء القسطنطينية وذلك أن أريوس قسيس كنيسة الاسكندرية ذكر فى مجلس تدريسه أن الاب والابن ليسا من مادة واحدة الا أن مادة الابن انفصلت من الاب وهى أدون عنها وأقل منها وأن روح القدس خلق بقدرة الابن

لابقدرة الاب فرفض اسكندر أسقف الاسكندرية هذه العقيدة وقرر عقيدة التثليث المقدس فوقع بين الاثنين مشاحنات أدت الى تنافر شديد وخصام عتيد وانقسم عموم أهالى الاسكندرية الى حزبين فبلغ قسطنطين خبر هذه المسئلة فلام الحزبين و وبخ الرئيسين على ماحصل منهما من التنافر العدوانى وفصل الحكم فى عقائد الدين المسيحى بعقد مجلس مركب من أساقفة الكنيسة والبابات وكان اجتماع هذا المجلس فى نيقيا من أعمال بثنيا فى سنة ٣٢٥ بعد الميلاد وقرر هذا المجلس رفض عقائد أريوس وتقرير العقيدة النيقيانية المشتملة على بيان وتوضيح دين الكنيسة وأثبت المجلس ارتداد اريوس ومن تابعه وصار نفيهم جميعا بأمر الامبراطور ثم ان قسطنطين الثانى خالف ما كان جاريا عليه أبوه وعزل اثنيوس الارثدوكسى أسقف الاسكندرية وحل محله واحد أريانى أى على مذهب أريوس فجاء عقب هذا الجور الفظيع والظلم الشنيع على المسيحيين الارثدوكسيين ولما صار يوليان المرتد أمبراطورا كان اجتهاده فى احياء العبادة القديمة لرومة فتسبب فى حصول ثورة على حزب عوام الوثنيين من الاسكندرية وقتل فى هذه الثورة المطران الاريانى وأعيد اثنيوس ثانية أسقفا فنفاه يوليان ثم عاد ثم نفاه الامبراطور فالنس وعين أسقفا أريانيا بدله فى قسوسيته فجدد المظالم والجور العنيف على الارثدوكسيين

وأخذت الديانة الوثنية نهاية قوتها وشوكتها فى مصر مدة سلطنة يوليان المرتد الا أنها كانت قصيرة مع قصر سلطنته وفى سنة ٣٧٩ بعد الميلاد بذل الامبراطور ثيودوسيوس الاول جهده فى قلع هذه الديانة بالكلية وأصدر أمرا بأنه يلزم أن جميع جموع رعيته تتمسك بالدين المسيحى على موجب ما تقرر بدستور العقائد النيقانية وأمر بقفل جميع المعابد الوثنية قاطبة وكانت الاسكندرية فى هذا الوقت مشحونة بالجم الغفير من الوثنيين من جلتهم أعظم العلماء وأجل الناس فى الآداب والعلوم والطلبة فى مدارس الفلسفة فسخط هؤلاء وحنقوا أشد الحنق على الامر الصادر من الامبراطور ومن بعد هذا لم تمض مدة كبيرة حتى أصدر ثيودوسيوس أمرا بكسر الاوثان الموجودة فى المعابد والهيا كل الوثنية فتساعد المسيحيون بالعساكر الامبراطورية وهدموا المعابد الوثنية ورموا الاوثان وكسروها وأتلفوا الابنية وأفسدوها وأما المعبد الاكبر الاكثر افتخارا وزينة وأبهة الموجود فيه الاله سرابيس من مدة قرون مضت وكان أشهر مزار فى الديانة الوثنية فانه صار هدمه وسلب ما فى دار كتبه من الكتب وكان لا يمكن حصر قيمة ما كان فيها من الكتب التى كان بلغ عدد نسخها نحوا من ٧٠٠٠٠٠ مجلد بواسطة المسيحيين فهرع الوثنيون الى السلاح للمدافعة عن دينهم وحاربوا محاربات شديدة دموية فى شوارع الاسكندرية وأخيرا نجح العساكر الامبراطورية تحت قيادة محافظ الاسكندرية فى اخماد المقاومات والمدافعات الحاصلة بين المسيحيين والوثنيين وطردوا الوثنيين من المدينة

وصار للديانة المسيحية السودد والسلطنة فى مصر وفى هذا الوقت كان ثيودوسيوس ثالوثيا خالف فى اجرا آته طرق أسلافه وعزل جميع القسس الاريانية واستبدلهم بقسس ثالوثية وأوقع الظلم والجور على الاريانيين وكان ذلك مقبولا بالخصوص عند المسيحيين من المصريين لان غالبهم كان ثالوثيا وساعدوا الامبراطور مساعدة اختيارية خضوعية وفى مدة هذه السلطنة كانت مصر معتبرة أنها أسلم موقعا وأخضع إيالة فى الايالات الامبراطورية

ومما يجب المذاكرة فيه هنا هو حيث ان الديانة المسيحية غالبة على الديانة الوثنية فكيف كان للديانة

الوثنية تأثير على الديانة المسيحية وعلى الخصوص فى المملكة المصرية قيل رداعلى ذلك انه من المعلوم والمعقول أن المصريين بمجرد تمسكهم بالديانة المسيحية صرفوا النظر فى الحال عن جميع شعائرهم الوثنية الا أنهم مازالوا على عوائد أخرى وهى تصبير أجسام الموتى واجتهد سنت أنطونى فى منع الذين دخلوا فى الديانة المسيحية عن اجراء هذه العادة وليس ذلك بالنسبة لكون صناديق التحنيط مستورة بنقوشات وكتابات وثنية فقط بل أثبت لهم مع الجسارة أن أى كتابة صغيرة كانت أو كبيرة وأى كيفية يعامل بها جسم الميت خلاف دفنه فى الارض حرام فى التوراة واثم كبير وأثبت سنت أغسطينى من جهة أخرى فى عبارة يفهم منها جيدا ان أزلية الروح خارج الجسم تشابه قليلا لما يعرفه الجهال وان أزلية الروح عند المصريين معروفة عندهم بكونها سترجع الى جسمها فبهذا اجرى تصبير الاجسام حسب هذا الاعتقاد وقال ان المسيحيين ليس هم الذين يعتقدون حقيقة البعث والنشور فقط بعد الموت بل كان المصريون كذلك وان صور وهيآت مريم العذراء الواقفة على القمر الجديد أشبه بكونها صاعدة الى السماء يظهر أن المسيحيين استعاروها من المعبودة ازيس المشابهة هيئتها الى الشعرى اليمانية تشرق مكتسبة نورها من الشمس بكيفية واحدة حتى ان القناديل الجارى حرقها الآن أمام المحاريب الرومانية الكاثوليكية هى أيضا كانت مستعملة من الازمان القديمة فى تنوير المحاريب المعظمة عند قدماء المصريين فى هياكلهم المظلمة وكان يحرق فى هذه المحاريب مقادير وافرة من الشموع فى العيد السنوى الذى يجرون شعاره كل عام وأما العادة الجارية التى كانت مستعملة فى تفريق الكعك المسكر وأنواع الحلاوى فى اليوم الخامس والعشرين من شهر طوبة أو فى اليوم العشرين من شهر يناير فانها تبدلت حتى صارت أربعة عشر يوما من القديم ولم نزل نرى عيدا يفانى أى عيد الاثنتى عشرة ليلة لحد الآن وأما قسمة الامة الى قسس وعوام فكانت هذه القسمة غير معروفة عند اليونانيين والرومانيين وقد صار ادخالها فى الديانة المسيحية فى القرن الرابع بواسطة المصريين وحالما كان الباقى من الامة المسيحية يلبسون الملابس المصنوعة من الصوف والكتان كان ذلك هو الملبوس المعتاد عند المصريين فاختار القسس عموما هذا الملبوس لانه أطهر لما هم فيه من الوظائف والخدمة وقال فى الكتاب المنزل ان الكتان لبس الاولياء والزهاد وفى نفس هذا الوقت قلد المسيحيون القسس المصرية فى حلق مقدم الرأس وكان من قبل أن يدعى أسقف رومة بألفى سنة أنه قابض بيده على مفاتيح الجنة والنار ادعى من قبله قسيس مصرى وقال بعوت عال انه توظف بوظيفة محافظ على بابى السماء فى مدينة طيوه وبهذا يسهل علينا أن نبرهن أيضا بدلائل أخرى على أن أصل الديانة المسيحية مستخرج من الديانة المصرية وهى أصل منشئها ومنبعها وقد نبه عبر الشاعر الجريق على أن طينة النيل مشحونة بالسموم القاتلة كما انه مشحون بالعلاجات الشافية وما ذكرناه هنا مختص بكيفية انتشار الديانة المسيحية فى المملكة المصرية لكن ماذا يكون لو اتحدت الديانتان وصارتا دينا واحدا نوعا أو صار التوافق بين الحزبين ومن هذا شك أولوا العقل والذكاء فى أن هذه الاعمال هل كانت مساعدة لعيسى المسيح عليه السلام فيما يجب اجراؤه من أمر تعليم المواد الدينية أو أنها كانت خافية عليه

وفى مدة سلطنة ثيودوسيوس الثانى كان كيريل مطران الاسكندرية وكان متكبرا متغطرفا متعصبا فى الدين عنيف الاعمال قبيح السلوك والاحوال ولما توظف فى هذه الوظيفة جعل نفسه فى رأس أغبياء المسيحيين وطرد جميع اليهود من الاسكندرية بعد حرب عنيف دموى وقع بينهم فى شوارع

الاسكندرية

الاسكندرية رغماعما كانت عليه الحكومة المحلية فى المحافظة عليهم وكان ذلك فى سنة ٤١٤ بعد الميلاد ومن بعد هذه الفعلة هجم المسيحيون على الوثنيين مرة ثانية وأضروا باحوالهم ومنافعهم وكان من ضمن الذين هم أكثر شهرة وأذكى عقلا من معلمى الوثنيين حباطيا الجميلة الشكل العالمة بالعلم وهى بنت طيون الرياضى الاصولى فكانت تعلم علم الفلسفة فى مدرسة بلاطونيق التى كان أسسها وشيدها أمونيوس ومن أدبها واحترامها وغزارة علمها وندرة فصاحتها وعذوبة كلامها والقائها انجذب الى درسها الكثير من طلبة العلم وبما أنها وثنية صارت عرضة للفضائح والقبائح الحاصلة من جهل وغباوة المسيحيين أتباع كيريل فقبضوا عليها يوما من الايام فى شارع الاسكندرية وجروها من عربتها وأسرعوا بها الى الكنيسة المسماة بهيكل القيصر وسلبوها ثم قتلوها

ولما صار للمسيحيين سودد فى مصر ابتدؤا بالخلاف فيما بينهم من أجل تحقيق بعض موادد ينية وكبر الخلاف حتى أشرف على سفك الدماء فعقد من أجل ذلك أخيرا مجلس فى كالثدون فى سنة ٤٥١ بعد الميلاد ورفض هذا المجلس العقائد المتمسك بها غالب المسيحيين المصريين وقال انها جميعها مبتدعة الا أنه لم يفصل الحكم القاطع فى اخماد هذه الاختلافات وتولد من ذلك زيادة الشغب والارتباك حتى انتشبت مبارزات ومناضلات بين أهل الاسكندرية وبين العساكر الامبراطورية المكلفين بتنفيذ الاوامر الصادرة وتقوية العمل والنظام على حسبها وأخيرا التزمت المملكة بطرد المصريين من القسطنطينية حتى انهم صاروا فى حالة يعتبرون فيها أن المملكة عبارة عن ظالم وجائر

وفى أثناء هذه المدة ضعفت مصر العليا وازدادت خرابا على خرابها وتغلب الكثير من النوبيين وقبائل العرب المجاورة لها على مصر العليا وطردوا الديانة المسيحية منها وأهملت أعمال الرى وصار لا يزرع من الاراضى الا نصفها على قدر الامكان وأخذ الحزام الخصب الموجود فى طول نهر النيل فى الضيق سنويا واضمحل حال المبانى وآلت الى الخراب وصارت الصحارى تجور وتكبس على وادى النيل من غير توقف ولا اهمال منها ونسفت الرمال على الهياكل والمبانى وردمتها ودفنت التماثيل والصور التى تكسرت أو رميت وسدت المسالك والمنافذ الموصلة الى القبور الملوكية والمدافن الفرعونية ومع ذلك فان هذا الخراب والدمار ما كان بغير فائدة حصلت فيه وذلك أنه تولد من سفى الرمال وردمها المبانى القديمة حفظها من الذين تغلبوا بعد على هذا الاقليم وسلمتها من حصول ضرر أو أذى يحصل لها حتى بقيت الى هذا العصر الحالى ولما صار كشفها على التدريج بواسطة علماء الاستكشافات العصرية كانت شاهد صدق وقت كشفها على تاريخ أرضها ونجابة وعلو منزلة أهلها

وفى السنة العاشرة من سلطنة الامبراطور انسطاسيوس أى سنة ٥٠١ بعد الميلاد هزم الفرس الجيوش الرومانية وكانوا تغلبوا على سوريا وجهاتها ومروا من مدينة باوزه (الفرما) ودخلوا مصر وخربوا جميع بلاد الدلتا حتى وصلوا الى أبواب الاسكندرية ثم انجبروا على القهقرة بعد عدة وقائع غير فاصلة الا أن ما فعلوه من الخراب والدمار فى بلاد الدلتا قاست منه المصريون مصائب الاهوال وتولد من هذه المصائب ثورات عديدة مهولة فى الاسكندرية

وفى مدة سلطنة يوسطانيان حصل تغيير واستبدال فى حكومة المملكة وذلك أن يوسطانيان وظف مطران ارثدوكسى أى بطريرك فى الاسكندرية وقلده زمام الاحكام السياسية والروحانية وجعله عاملا على الحكومة المصرية فقاوم الاسكندرانيون هذا الاستبدال وبذلوا جهدهم فى عدم تنفيذه وهجموا

على البطريرك فى كنيسته فأغار عليهم بعساكره وأوقع فيهم وأتلف منهم الجم الغفير وأرغمهم على الطاعة والانقياد اليه وفى سنة ٦١٦ بعد الميلاد فى مدة سلطنة الامبراطور هرقل دخل الفرس أيضا فى مصر تحت قيادة ملكهم خسرو الثانى وفى هذه المرة تغلبوا على البلاد وأخضعوا العباد ونالوا المراد وبعدت الامة المصرية جميعها من المملكة الجريقية الشرقية حتى انهم لم يجتهدوا فى مقاومة الفرس بل انقادت الامة المصرية لهم مع السرعة

وما تداخلت الفرس فى المشاحنات الدينية التى كانت جارية بين المصريين ومع هذا فان تغلبهم على البلاد أضعف شوكة الارثدوكس أو الكنيسة الجريقية ومن هذا العهد صارت الكنيسة القبطية لها السودد والسلطة فى البلاد المصرية وانتهى النزاع بين الامم المختلفة الديانة فى مصر واستمر حكم الفرس فى مصر عشر سنوات وفى أثناء هذه المدة كان المصريون محكومين فى الاعمال المدنية بحاكم من الفرس وفى المواد الدينية بطران من الكنيسة القبطية حسبما يختارونه بانفسهم وكانت هذه المدة من أعظم المدد التى استتب فيها الهدو والسكون فى الديار المصرية من عدة قرون مضت وفى آخر هذه المدة أيضا هجم هرقل على الفرس وطردهم من سوريا وأغار على بلادهم وممالكهم واسترد مصر وعادت شوكة الكنيسة الارثدوكسية الجريقية كما كانت واستمرت الكنيسة القبطية ثابتة الحالة منقادا لطاعتها الامة المصرية وعلى نظام وسياق بعيد من الكنيسة الارثدوكسية

﴿ الدين الاسلامى ﴾

وفى هذا الوقت ظهرت شوكة جديدة فى الصحراء وهى صحراء بلاد العرب وتلك الشوكة هى شوكة العرب أو الدين الاسلامى وذلك انه فى مدة القلاقل والاختلافات الدينية التى سبق ذكرها فى هذا الباب ولد محمد صلى الله عليه وسلم صاحب الشريعة الاسلامية وكان مولده فى مدينة مكة من بلاد العرب فى سنة ٥٧٠ بعد الميلاد ثم هاجر الى المدينة فى ١٦ يوليه سنة ٦٢٢ بعد الميلاد وابتدأ هذا الدين فى التغلب على بلاد العرب تحت قيادة صاحبه محمد صلى الله عليه وسلم وتعين على خلفائه من بعده رضى الله عنهم فى مد مملكته وانتشار دينه على معظم القسم الشرقى من الدنيا ومن بعد وفاته صلى الله عليه وسلم بويع بالخلافة من بعده لابى بكر وهو عبد الله بن أبى قحافة فاستحوذ على بلاد العرب ونشر الدين الاسلامى فيها بعد أن كانت ارتدت بمجرد وفاة محمد صلى الله عليه وسلم ثم أرسل جيوشه مغيرة على سوريا فتغلبوا عليها ومن بعده وصلت الخلافة لسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فاستمر على الفتوحات والغزوات حتى تغلب على فارس وجهات سوريا وهزم الجيش العربى جيوش هرقل امبراطور الروم وفى مدة لا تتجاوز ثمان عشرة سنة تغلب الجيوش العربية على العراق وفارس وسوريا أى الشام وفلسطين

ولما رأى هرقل ما حل به من المصائب والاهوال من تغلب الجيوش العربية على سوريا وجهاتها من بلاده عنوة أوجس فى نفسه خيفة على باقيها وعلى الخصوص مصر فعقد هرقل بينه وبين الخليفة عمر معاهدة وحضه على عدم تغلب جيوشه على مصر ويدفع له فى ذلك خراجا سنويا مقررا بينهما فاستمر هرقل على دفع الخراج مدة ثمان سنوات ولما قلت ممالكه من تغلب الجيوش الاسلامية عليها صار لا طاقة له على دفع الخراج الذى قرره لعمر بن الخطاب ولما لم يصل الخراج من عند كسرى وانقطع أمره فى عدم دفعه اعتبر الخليفة فى نفسه أن هذه المعاهدة باطلة لا عمل لها عنده

وكان

وكان عمرو بن العاص قائد جيش بسوريا لا يفتر عن حض الخليفة على فتح مصر والتغلب عليها لانه كان ذهب اليها فى تجارة قبل دخوله فى الاسلام ورأى الحالة التى مصر عليها من العظمة والجد فى أرضها وسكانها فأمره الخليفة عمر بن الخطاب بعد جهد زائد بالتوجه اليها والتغلب عليها وفى سنة ٦٤٠ بعد الميلاد دخل الجيش العربى تحت قيادة عمرو بن العاص قائد الخليفة مصر من جهة فلسطين وتغلب على مدينة بلوزه (الفرما) فقاتل الروم فيها قتالا شديدا ثم تغلب عمرو بن العاص على المدينة بعد حصار استمر ثلاثين يوما ثم تقدم بالجيش حتى أتى بلبيس فتغلب أيضا عليها بعد أن حاصرها شهرا وكان الحاكم فى مصر من قبل الروم فى هذا الوقت المقوقس يوحنا بن قرقت اليونانى ثم سار عمرو ومازال سائرا حتى أشرف على مدينة منف فحاصرها وضيق على أهلها ثم تغلب عليها بعد حصار استمر ثمانية شهور وفى هذا الحصار خربت مدينة منف بالكلية وكانت هذه المدينة على الشاطئ الغربى من نهر النيل فابتنى عمرو مدينة جديدة فى موقع انتخبه واختاره على الشاطئ الشرقى من النهر وكان معسكرا بجيشه فى هذا الموقع قبل حصار مدينة منف وكان فسطاطه أى خيمته منصوبة فيه فسمى المدينة الجديدة التى أمر بانشائها مدينة الفسطاط وكانت فى تجاه مدينة منف وعلى مسافة ميل أو ميلين من الشاطئ وهى الآن تلال وخرابات معدودة من ضواحى القاهرة

ولما رأى المقوقس ما حصل من عمرو بن العاص وجيشه من التغلب على البلاد طلب مقابلة هذا القائد العربى مقابلة رسمية واتفقا على الصلح فيما بينهما على أمان يعطيه عمرو بن العاص للمقوقس والامة القبطية بشرط أن يدفعوا الخراج الذى يتقرر عليهم سنويا بدون تأخير فرضى عمرو بذلك وحرر معاهدة قوية مع المقوقس والامة المصرية ما لها ان عمرا أعطى أهل مصر الامان على أنفسهم ودمهم وأموالهم وكيلهم وصاعهم ومدهم لا يزيد شئ فى ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم أهل النوبة وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح ومن دخل منهم فى دينار فعت عنه الجزية ومن دخل فى صلحهم من الروم وأهل النوبة فله مالهم وعليه ما عليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه وكانت الامة المصرية ألد الاعداء الى المملكة الجريقية بسبب ما حل بهم من المظالم والجور الذى أوقعوه عليهم بشأن ما كانوا عليه من اختلاف العقائد الدينية فصاروا يرحبون بالعرب فى كل جهة من الجهات المصرية لانهم رأوهم فى أعينهم أنهم هم السبب الاصلى فى خلاص الكنيسة القبطية وانقاذ الامة المصرية من غوائل المملكة الجريقية والكنيسة الارثدوكسية وتأكد صدق المقوقس والامة القبطية لعمرو بن العاص واتفقوا على دفع جزية سنوية له وأقسموا بيعتهم وطاعتهم له وللخليفة ولما تم الصلح على ذلك كتب المقوقس الى هرقل ملك الروم يعلمه بالامر الذى حصل بينه وبين العرب فكتب اليه يوبخه ويقبح رأيه وقال له فى كتاب أرسله اليه ان من أتاك من العرب اثناعشر ألفا وفى مصر من القبط ما لا يحصى عددا فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية الى العرب فعندك من الروم فى الاسكندرية وغيرها ما يزيد عن مائة ألف معهم العدة والقوة وأنت تعرف وقد رأيت الآن ما العرب عليه من حالة ضعفهم وقلة عددهم وعددهم أفعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم فى الحالة التى صار فيها القبط أذلاء للعرب فقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموتوا أو تظفروا عليهم ولا يكون لكم رأى عندى غير ذلك

فلما أتى المقوقس كتاب ملك الروم وقرأه أقبل الى عمرو بن العاص وقال له ان الملك قد كره ما فعلت

وكتب الى أبى والروم الموجودين هنالك يرضى بصلح وأمرنا بحرب ملك ومقاتلتك حتى يظفر وا بك أو تظفر بهم لكنى أنا لا أخرج مما دخلت فيه معك وعاهدتك عليه وأمرى على نفسى ومن أطاعنى وقد تم الصلح بينك وبين القبط ولم يحصل منهم نقص ولا نقض وانى لم أزل مع القبط على ما تعاهدنا عليه من الصلح وأما من جهة الروم فانا والقبط بريئون منهم فأجابه الى ماطلب بشرط أن يضمنوا له بقاء الجسرين المنصوبين على النيل أمام منف وكان عمرو مر بالجيش عليهما حتى حاصر منف وتغلب عليها كما سبق ويقيموا للجيش الضيافات والاسواق فى طريقه الى الاسكندرية ففعلوا ذلك وصارت القبط أعوانا للعرب فى ذلك

ولما تم لعمرو بن العاص جميع ذلك كتب كتابا الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخبره بما تم عليه الرأى بينه وبين المقوقس صاحب مصر من قبل الروم

ثم بعد هذا عبر عمرو بن العاص النيل الى الشاطئ الغربى وأخذ يتقدم الى الجهة البحرية شيأ فشيأ وقابله فى سيره بعض فئات من مهاجرى منف من الروم فى كوم شريك وفى جهات مريوط فهزمهم عمرو وتغلب بجيشه على كوم شريك وعلى مريوط وكان الروم على منعة قليلة فيهما ثم سار حتى وصل مدينة الاسكندرية وكان الروم بالاسكندرية لما بلغهم سير عمرو بن العاص بجيشه اليهم أخذوا فى الاستعداد للدفاع وكانت الاسكندرية عاصمة القطر المصرى الى هذا العهد ومشحونة بالسكان والعمران من الروم فحاصرها عمرو من طريق البر فقط وأما طريق البحر فكان مفتوحا بينها وبين القسطنطينية يأتيهم منها كل ما تحتاجه من المؤن والذخائر فقاوم الروم فيها مقاومة شديدة ودافعوا عنها أشد المدافعة واستمر عمرو محاصرا مدينة الاسكندرية نحوا من أربعة عشر شهرا وأوقع الرومانيون فى الجيش العربى خسارة وتلفيات يبلغ مقدارها نحوا من ٢٣٠٠٠ نفس وأخيرا تغلب العرب على المدينة فى سنة ٦٤١ بعد الميلاد وعندها ركب الحريق المراكب فى عدد عظيم منهم وهربوا عابرين البحر الابيض المتوسط وفى مدة الاربع سنوات التى جاءت بعد اجتهد العساكر الامبراطورية عدة مرات فى استرداد الاسكندرية ثانيا الا أن عمرو بن العاص صدهم وردهم على أعقابهم وبذلك تم التغلب على الجهات المصرية وكان دخول عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية يوم الجمعة غرة محرم سنة ٢٠ هجرية أو ٢٢ ديسمبر سنة ٦٤٠ ميلادية وأقام فيها احتفالا عظيما لما أوتيه من الفتح المبين وكتب بهذا الفتح الى عمر بن الخطاب الخليفة

ومن بعد أن تقلد عمرو زمام الاحكام فى يده أخذ فى استجلاب قلوب الامة المصرية وسكان البلاد النيلية اليه ويحكم فى الناس بالعدل والقسط ويجيب طلباتهم فى كل ما يلتمسونه منه حتى أجمعوا الميل عليه والاذعان اليه

وقد شوه مؤرخو الافرنج أعمال هذا القائد المشهور وأعمال الخليفة عمر بانتساب حرق دار الكتب المشهورة التى كانت موجودة فى الاسكندرية فقالوا ان الخليفة عمر بن الخطاب لما كتب له عمرو ابن العاص يستأذنه فيما يجب اجراؤه بشأن دار الكتب أجابه بقوله انى أهنئك بالفوز العظيم الذى أوتيته وأنك أول من ولى مصر من المسلمين أما الكتب الموجودة فى دار الكتب بالاسكندرية فلا يخلو أن تكون كتبها مصدقة لما فى القرآن الشريف فلا حاجة لنا بها أو مناقضة له فهى رجس وضلال وابادتها وحرقها ليس من المحال

فلم يسع عمرو بن العاص الا كونه وزع كتبها النفيسة المنسوخة بخط اليد على ٤٠٠٠ حمام موجودة فى الاسكندرية لاجل تسخين مياهها وكانت هذه الكتب كثيرة العدد حتى كان مدة حريقها ودمارها نحوا من ستة شهور

يقول مؤلف هذا الكتاب محمود فهمى المهندس ان كل ما قيل فى شأن الخليفة عمر بن الخطاب من أنه أمر عمرو بن العاص بحرق كتب دار الكتب بالاسكندرية فعمر رضى الله عنه منزه عنه ومكذوب عليه ولا صحة لما قيل فى ذلك والدليل القاطع على هذا أنه كان يوجد فى مدينة الاسكندرية قبل التغلب الاسلامى عليها ثلاث كتبخانات الاولى شيدها بطليموس لاغوس أول ملوك البطالسة فى دار المعارف التى أنشأها بجوار سراينه فى خط بروشيون فى مدينة الاسكندرية القديمة وجمع فيها كتبا نفيسة وزاد فيها من بعده ابنه بطليموس الثانى الملقب فيلادلفوس من الكتب حتى بلغ عدد الكتب فيها نحوا من ٤٠٠٠٠٠ مجلد ولما أقام فيلادلفوس هيكلا للاله سرابيس الذى جلبه من مدينة سينوب بونطوس ووضع هذا الاله فيه وأطلق على الهيكل اسم سرابيوم شيد فيه أيضا كتبخانة كانت هى الثانية من بعد الاولى ولما لم يجد فى الاولى سعة لتخزين الكتب فيها نقل ما زاد عنها من الكتب الى الثانية فى سرابيوم وسماها تكملتها أو بنتها أو كتبخانة سرابيوم واجتمع فى هذه الكتبخانة كتب جمة حتى وصلت فى مدة كليوبطره الملكة نحوا من ٧٠٠٠٠٠ مجلد فأما الكتبخانة الاولى الموجودة فى دار المعارف بخط بروشيون فانها أحرقت وأبيدت فى مدة الحروب التى حصلت بين القيصر يوليوس وبين الاسكندرانيين بشأن الخلاف والشقاق الذى كان حاصلا بين كليوبطره وأخيها بطليموس فهذه انتهى نحبها وخلص الخليفة عمر من أمرها ومن بعد حرق هذه الكتبخانة شيدت كليوبطره من بعد أن تقلدت زمام السلطنة المصرية كتبخانة أخرى وشحنتها بالكتب التى أرسلها أنطونى هدية لها من مدينة برجاموس كما ذكره ولما أصدر الامبراطور ثيودوسيوس أمره فى الاسكندرية بمحق وابادة الديانة الوثنية وهدم هياكلها وكسر أصنامها سنة ٣٧٩ بعد الميلاد انقض عوام المسيحيين على هيكل سرابيس وهدموه وكسروا الاله سرابيس ونهبوا جميع الكتب التى كانت موجودة فى الكتبخانة ولم يبقوا منها شيأ وهدموا حيطانها وساووها بالارض وهذه أيضا انقضى أمرها وخلص الخليفة عمر من شرها وأما كتبخانة كليوبطره وهى الكتبخانة الثالثة فان كتبها نهبت فى عصر الثورات والفتن الدينية فى مدة المملكة الرومانية ودليلنا على ذلك ان أوروسيوس الرومانى لما زار مدينة الاسكندرية فى سنة ٤١٣ بعد الميلاد دخل فى هذه الكتبخانة ظنا منه انه يجد فيها شيأ من الكتب فقال انه ما وجد فيها الا رفوفا فارغة معششا عليها العنكبوت وكان ذلك قبل مولد محمد صلى الله عليه وسلم بمائة وسبع وخمسين سنة وقبل دخول عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية بمائتين وست وثلاثين سنة فذلك دليل قاطع على كذب المؤرخين فيما ادعوه على الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى أمره بحرق دار الكتب بالاسكندرية وهو المعول عليه وان الاسكندرية كانت مجردة عن الكتب بالكلية فى أثناء دخول الجيش الاسلامى بها والله أعلم بالصواب

وفى مدة القرنين اللذين أعقبا التغلب الاسلامى على مصر صارت المملكة المصرية اقليما أو ايالة عربية محكومة بعمال من طرف الخلفاء واستوطنها كثير من العرب ودخل الجم الغفير من المصريين فى الدين الاسلامى وضعف الدين القبطى واضمحل أمره وحل محله الاسلام ومن ثم انتقلت مصر على التدريج

من الديانة المسيحية وصارت مملكة اسلامية وكانت هذه المدة مشحونة بارتباكات وقلاقل مهولة شديدة وظهرت عدة تعصبات عمومية الا انه صار اخمادها واطفاؤها وفى سنة ٨٦٨ بعد الميلاد خلع أحمد بن طولون بيعته للخليفة المعتمد بن المتوكل وكان أحمد بن طولون هذا عاملا على مصر من قبله وجعل مصر مملكة مستقلة استمرت سبعا وثلاثين سنة ثم خضعت ثانية للخلفاء ببغداد وأعقب هذا الخضوع حكومة فوضوية امتدت فى مصر زمنا طويلا

وفى غضون مدة الحكومة الفوضوية فى مصر كانت جهات القيروان وسواحل بلاد الغرب تحت حكومة دولة مستقلة عن الخلافة العباسية يطلق عليها اسم الدولة الفاطمية وكانوا من قبيلة كتامة بالغرب من مدينة فاس وكانوا يزعمون أنهم من سلالة اسمعيل الامام السادس العلوى أو من سلالة فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم وكانوا قد نشروا سلطتهم فى الجهات الغربية من افريقية وخلعوا طاعة الخلفاء العباسيين فى بغداد وخلفاء بنى أمية فى الاندلس وأخذ عبيد الله الفاطمى يسعى فى تغلبه على مصر فبعد أن تولى كرسى الخلافة بخمس سنين بعث الى مصر أربعين ألف مقاتل فلما علم بذلك الخليفة المقتدر بالله جهز جيشا كافيا لصده ومنعه وحصل بين الفريقين حروب عديدة انتصر فيها جيش الخليفة على جيش الغرب

وفى سنة ٩٧٠ بعد الميلاد لما جلس معد أبو تميم الملقب بالمعز لدين الله بن القائم بأمر الله على دست الخلافة المغربية وكانت قاعدتها مدينة المهدية وسلطنتها منتشرة على امارات الغرب ومالطه وسردينيا وصقلية وأكثر جزائر البحر الابيض المتوسط شرع يتطلع الى التغلب على القطر المصرى وعند نهاية حكم كافور الاخشيدى جند جيشا وأرسله تحت قيادة جوهر المكنى بأبى الحسن من بعد أن انتخب الوقت الموافق له فى تغلبه على مصر لان المملكة فى هذا الوقت كانت فى ارتباكات وقلاقل بين الامراء الذين يزعمون التغلب عليها وكانت الاهالى فى حالة يرثى اليها مما هو حاصل عندهم من القحط الشديد المتسلطن فى البلاد وكان القائد جوهر حمل معه أشوانا كثيرة من الغلال والحبوب على الجمال لهذا القصد ولما احتل الديار أخذ فى تفريق هذه الغلال وتوزيعها على الاهالى وجميع الامة المشرفة على الموت من الجوع والقحط فمن ثم نال منهم الطاعة وحسن الانقياد وقدموا بيعتهم وطاعتهم فى الاحكام الدينية والدنيوية لخليفة افريقية ووصل جوهر مدينة الفسطاط وعسكر بعساكره فى الموضع الكائن عليه مدينة القاهرة الآن وخطب فى جامع عمرو بن العاص باسم المعز لدين الله وأزال الشعائر السود العباسية وألبس الخطباء الملابس البيض وأصبحت البلاد المصرية خاضعة للدولة الفاطمية وأمر جوهر أن يزاد عقب خطبة الجمعة اللهم صل على محمد المصطفى وعلى على المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا اللهم وصل على الائمة الطاهرين آباء المؤمنين وأمر فى الاذان بحى على خير العمل ومن المعلوم أن خلفاء هذه الدولة جميعهم كانوا شيعة علوية

وشرع جوهر القائد فى بناء القاهرة فى الموقع الذى عسكر فيه ووضع حوله عليه وابتنى فيها قصرين جعلهما لاقامة المعز عند قدومه الى مصر وتم بناء القاهرة فى نحو ثلاث سنوات (آخر سنة ٣٦١ من الهجرة) ووفد المعز لدين الله الفاطمى الى مصر ودخل القصر الذى بناه له القائد جوهر بالقاهرة وعند دخوله خر ساجدا لله ثم صلى ركعتين وصلى معه كل من دخل معه واستقر فى قصره بأولاده وحشمه

ومن

ومن ثم صارت مصر مملكة مستقلة مرة أخرى ودار خلافة للدولة الفاطمية وصارت مدينة القاهرة عاصمة ممالك هذه الدولة وقويت شوكتها وامتدت سلطتها ورفض خليفة مصر دعوى خليفة بغداد وقال ان خليفة بغداد رجل كذاب لم يكن من نسل محمد صاحب الشريعة بل هو نفسه من ذرية محمد صلى الله عليه وسلم وانه هو الخليفة الشرعي على الامة الاسلامية وخطب الناس بدعواه مع الجد والكد في سائر أنحاء الدنيا الشرقية ومن هذا الوقت تولدا التقسيم والتجزئة في المملكة الاسلامية وفي الحال تحولت الجيوش الفاطمية في فلسطين وسوريا وتغلبوا عليها وصارت فلسطين مرة أخرى ميدانا أكبر للمحاربات والوقائع بين الجيوش المصرية والجيوش الشرقية وحكمت العائلة الفاطمية مصر نحوا من قرنين

وكان أشهر هؤلاء الخلفاء الحاكم بأمر الله ابن العزيز فتسلطن من سنة ٩٩٦ الى سنة ١٠٢١ بعد الميلاد وكانت مدة سلطنته خمسا وعشرين سنة ثارت في أوائلها عصبة ادعى زعيمها أنه من سلالة الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان وانتشب من أجل ذلك حروب وحصلت كروب كان النصر فيها متبادلا بين الاثنين وأخيرا صار القبض على زعيم العصاة ووضع في السجن وهرب أتباعه ومازال هذا مسجونا حتى مات

وكان الحاكم تارة مجنونا مثل كاليجولا الامبراطور الروماني وتارة وحشيا عنيف الاعمال قبيح السلوك والخصال وأنشأ في القاهرة دار كتب حمل اليها نفائس الكتب من جميع الجهات وأجلس فيها الفقهاء والعلماء وكان الناس يأتون اليها أفواجا فيكتبون ويطالعون ماشاؤا وكان في مبادى سلطنته غيورا على الدين الاسلامي وافتتح سلطنته بجور شديد وظلم عتيد على الامة المسيحية والملة اليهودية الموجودتين في مصر وأرغم المسيحيين على أن يحملوا في رقابهم صلبانا ثقيلة من الخشب حال سيرهم ومشيهم في الشوارع وأرغم اليهود أيضا بأن يعلق كل منهم على صدره رأس عجل تذكارا لما كانوا عليه من العبادة الوثنية في صحراء سينا ثم أبدل رأس العجل باجراس ثقيلة من الخشب ومنعهم من ركوب الخيل وأن يكون ركوبهم البغال أو الحمير بسروج الخشب وأن لا يستخدموا مسلما ولا يشتروا عبدا ولا أمة وهدم الكنائس وأخذ جميع مافيها وما لها من الاوقاف وكتب بذلك الى عماله وهدم كنيسة القيامة في أورشليم وألوفا من الكنائس في سوريا ومصر

وفي سنة ١٠٢٠ ادعى الحاكم بأمر الله ان الاله حل فيه وأمر رعيته بعبادته والسجود له باسم الاله المحيي المميت وفي غضون ذلك ظهر رجل متمذهب يقال له ضرار وتبعه جماعة عرفوا بالضرارية ثم لما هلك ضرار هذا خلفه أحد تلامذته حمزة بن أحمد وكان يلقب بالهادي وآل أمر الحاكم بأمر الله أن صار تحت سلطة حمزة ونفوذه واعتنق عقائده ودينه وتبعه في ذلك نحو من ١٦٠٠٠ نفس ومن هؤلاء شرائع كثيرة منها تعظيم يوم الجمعة والاحتفال بالاعياد واستبدال الحج في مكة بزيارة مقام طالب في اليمن وأباحوا الزواج بين الاخ وأخته والاب وبناته والام وأبنائها وحلوا أمورا تخالف ما في القران الشريف وافتتن الحاكم بهذه الديانة الجديدة وتنسى دين أبيه وجده وكان يصعد كل صباح الى الجبل المقطم بدعوى أنه يناجي الله سبحانه وتعالى كما كان يفعل موسى ثم من بعد مدة قليلة رجع عن تعديه على النصارى ورخص لهم ببناء كنائسهم وبناء كنيسة القيامة مرة أخرى على مصاريف من عنده وكان في أحكامه المدنية جبارا ظالما ونهى عن أكل الملوخية والجرجير وذبح الابقار السليمة من العاهات

ومنع الناس من الخروج بعد المغرب فى الطرقات وأمر بكسر أوانى الخمور واشتد خوف الناس وفوبت الشناعات وكثرت الارتباكات وأصدر أمراً بسب السلف وأن لا تخرج النساء فى الطرق فصار لا ترى امرأة فى طريق البتة واذا رؤيت عوقبت بأشد العقاب وأمر بغلق الحمامات دونهن فرأى ذات يوم من الايام امرأة واقفة على قارعة الشارع المار به متزرة بمئزر أبيض فلما قرب اليها ودنا منها رآها صورة امرأة مصنوعة من ورق المقوى حاملة فى يدها عريضة مكتوب فيها كتابة تختص بشأن سب أخته وما هى عليه من الفجور والعهر فغضب الحاكم غضباً شديداً وحنق على أهل مصر وأمر عساكره وحشمه بالايقاع فى أهل القاهرة فأمر بحرق المدينة وقتل أهلها وذبح منهم جماً غفيراً وأمر بالبحث سراً عما عليه أخته من الفجور فلما علمت أخت الحاكم وقائد جيشه أن الحاكم أمر بقتلهما عمداً على اغتياله من قبل أن يغتالهما وفى سنة ١٠٢١ بعد الميلاد قتلاه على الجبل المقطم

ومن بعد موت الحاكم هرب حمزة الى سوريا وقرر فى حصون جبل لبنان مذهب الدروز ولا يزالون هؤلاء يزعمون أن الحاكم هو مسيحهم وانقرضت هذه السلالة الفاطمية من مصر بخلافة العاضد بن يوسف ومات هذا فى سنة ١١٧١ بعد الميلاد وكان هو والذين جاؤا من بعده على غاية من ضعف الشوكة خلفاء بالاسم فقط وكانت السلطنة الحقيقية والاعمال الادارية فى أيدى الوزراء وكبار الامراء فكان يسجن الخليفة فى الجامع أو فى سرايته حسبما تميل اليه طبيعته ويحكم الوزير المملكة باسمه فتولد من هذا مشاحنات عديدة وارتباكات وقلاقل شديدة أضرت بالخلافة وكانت سبباً فى ضعف المملكة وفى مدة سلطنة الخليفة العاضد دعت اختلافات الاحوال وتباين الاعمال الحاصلة فى السلطنة أن توسلت الخلافة بالاستغاثة بمساعدة ملك اللاطينيين فى أورشليم وسلطان دمشق على التوالى وكان كل من هذين الملكين خصماً وعدواً للخليفة مصر فأجاب كل منهما ما طلب منه من المساعدة مؤملا فى عقله قلب هذه الخلافة واضافة مصر الى ممالكه فقاد ملك اللاطينيين جيشه بنفسه وكانت عساكر نور الدين سلطان دمشق تحت قيادة شيركوه بن شادى وهو كردى الاصل وكان شيركوه هذا وأخوه نجم الدين أيوب فى خدمة نور الدين فى سوريا مدة طويلة فاستصحب معه ابن أخيه وهو يوسف بن نجم الدين وفى أثناء ذلك قصد ملك اللاطينيين بعساكره مصر فخرج عليهم المصريون فغلبهم ملك اللاطينيين واحتل حصن بلبيس ثم عاد ملك اللاطينيين الى أورشليم على أعقابه من بعد ما تراءى له عدم النجاح وضاقت فى وجهه البطاح

وسار مع شيركوه السلطان نور الدين نفسه مشيعاً جيوشه حتى وصل حدود مصر وقصده من ذلك ايهام الصليبيين الذين فى طريقه أنه آت لمحاربتهم فانحصروا فى مدنهم وحصونهم ومر جيشه مع الامان والوثوق بالاطمئنان وتولد مما أجراه شيركوه من النصر والظفر فى ثلاث وقائع حصلت بينه وبين ضرغام الوزير وكان متقلداً زمام الحكومة المصرية وقتل ضرغام هذا فى تلك الوقائع أن صار شيركوه سيد البلاد المصرية ومن ثم قلد الخليفة العاضد هذا الرجل المعاضد وظيفة الوزارة العظمى فى مصر وعاش بعد هذه فى مصر شهرين فقط وهو وان كان قبل هذه الوظيفة الرفيعة التى منحها له الخليفة العاضد الا أنه ما زال كان يعد نفسه على الدوام انه تحت رعاية نور الدين سلطان دمشق وانه نائبه فى مصر ولما مات أحب العاضد أن يبين ممنونيته وحبه له فولى مكانه ابن أخيه يوسف بن أيوب الملقب بصلاح الدين ولقبه الخليفة بالملك الناصر وكان شاباً وفضل الخليفة الوزراء الصغير السن ظناً منه أنهم لا يقدرون

على اكتساب ثقة الجند بهم فلا يخاف ولا يخشى من استبدادهم وأمّل العاضد فى نفسه أنه بواسطة صغر سن صلاح الدين ربما يتيسر له الحصول على رد شوكته وسلطته التى فقدت منه ومن بعد مدة رأى أن لا قدرة له على ذلك فاستيقظ صلاح الدين من نومته وقام من غفلته وجعل نفسه فى الحال سيدا على الخليفة ومن والاه من الرجال ونظر صلاح الدين فى الاعمال المصرية وساسها حق السياسة وصار له نفوذ عظيم فى مصر ولم يكن للخليفة العاضد الا الاسم ولم يكن لديه الا السلطة الدينية فقط فلاح لنور الدين أن الاسلام فى غنى عن هذه فأرسل الى صلاح الدين يطلب منه قلب الخلافة الفاطمية واقامة الخطبة العباسية باسم المستضىء بأمر الله الخليفة الثالث والثلاثين من بنى العباس فى بغداد فتردد صلاح الدين فى ذلك وخشى من أن مما يتولد من ذلك ثورة من الامة تكون عاقبتها مشؤمة عليه وأرسل صلاح الدين يعتذر عن عدم امكانه انفاذ هذا الامر فورا خشية انتشاب حرب فى مصر مع حزب العلويين الذين هم أكثر عددا فدعا صلاح الدين اليه أمراءه واستشارهم فى هذا الامر الذى أرسله اليه نور الدين فقال بعضهم انه أمر الوقوع فيه على خطر وتنفيذه وقاحة ووافق البعض الآخر على نفاذه الا انه لم يتجاسر أحد على مباشرة الامر بنفسه فبهت صلاح الدين برهة من الزمان فقام فى أثناء ذلك أمير فارسى يدعى أمير عالم وحض على وجوب تنفيذ أمر نور الدين وأخذ على كتفه مباشرة العمل بنفسه وفى يوم الجمعة توجه أمير عالم المذكور الى أكبر المساجد بالقاهرة وخطب فى الناس خطبة الجمعة وصلى باسم الخليفة المستضىء العباسى فلم يعارضه أحد من الفاطميين ولم يحصل من ذلك ثوران ولا انتطح كبشان ولما علم صلاح الدين بذلك أمر باعادتها فى الجمعة القادمة فى جميع جوامع القاهرة فقبل الجميع ودخلت مصر فى ضمن الخلافة العباسية الدينية فى بغداد من بعد أن كانت خرجت من قبضتها من مدة قرنين وأما الخليفة العاضد فانه أصيب بمرض شديد أفقده الحياة ومات من دون أن يكون له معلومية بما حصل وما كان أحد من ذريته تجرأ على التفوه أمامه بهذه الحادثة

وبوفاته خلص صلاح الدين من قلاقل كثيرة كان يخشى منها لو بقى العاضد على قيد الحياة فقبض فى الحال صلاح الدين على خزائن المتوفى وكنوزه وحبس أولاده وعائلته فى السراى وباع مماليكه وعبيده وبموته انقرضت الخلافة الفاطمية من مصر وثبت فيها صلاح الدين بمساعدة سلطان دمشق نور الدين محمود وغير صلاح الدين الحرير الاخضر الذى كان على المنابر المصرية بالحرير الاسود زى الخلفاء العباسية وانتهى الشقاق الذى كان موجودا من مدة مائتى سنة فى الجوامع الاسلامية

وفى مدة حياة السلطان محمود نور الدين ملك دمشق كان صلاح الدين معترفا بسيادته وحكمه ولما رأى نور الدين نفسه متسلطنا على سورية كلها وعلى قسم من جزيرة العرب وعلى آسيا الصغرى وجزيرة العراق وضع يده أيضا على مصر وأما صلاح الدين فكان فى نيته استقلال مصر ومن ثم شرع فى تاليف الاحزاب واستعداد القوى حتى يمكنه الاستقلال بمصر ومقاومة نور الدين اذا عارضه فى ذلك فلما علم بذلك نور الدين جند الجنود وحشد العساكر والبنود وشرع فى السير الى مصر لاخراج صلاح الدين منها وبينما هو على ذلك اذ فاجأته المنية من مرض كان حصل له فى الحلقوم ومات بعد أن بلغ من العمر ستين سنة

وبمجرد موت هذا الملك الخطير أعلن صلاح الدين لنفسه بملوكية سوريا ومصر وصدق على هذا الاغتصاب خليفة بغداد رأس الديانة الاسلامية حامدا شاكرا لموت خصمه خليفة مصر وذلك انه من

بعد موت نور الدين انتقلت مملكته الى ابنه الملك الصالح اسمعيل وكان عمره احدى عشرة سنة فأقيم له وصي نائب وحاول عمال المملكة في استقلال كل واحد منهم بنفسه ومنهم من أراد خلع الملك وحاول رمسه وبينما هم في هذه القلاقل اذ ورد لهؤلاء الامراء كتاب صلاح الدين يذكرهم الخضوع التام لخليفة نور الدين وقال لهم في مكتوبه لو علم نور الدين أن فيكم من هو أكثر أهلية وأمانة مني في ولاية مصر لكان نور الدين عهد بها اليه وهي أحسن ولاياته وانه لو كان يعلم بوقت منيته لولاني وصيا على ابنه واعلموا اني سأذهب الى دمشق وأقدم عبوديتي الى هذا السلطان معترفا بالفضل العظيم الذي جلبه أبوه واني سأعامل كلا منكم بحسب ما في نياتكم فانكم قوم منبع كل ارتباك وفتن وقلاقل في البلاد ثم توجه صلاح الدين عقب ذلك الى سوريا واغتصبها جميعها من أولاد نور الدين حتى خزائنهم وأمتعتهم بعد حروب شديدة ووقائع عنيدة

وأصبحت حياة المملكة المسيحية محصورة بين عدوين متقابلين وهما الترك والعرب ولما جمع صلاح الدين هذه الامم تحت جامعة واحدة مد بصره الحاذ الطويل المكين الى نواحي فلسطين وظهر له من أجل حجة الحرب وعلته فسخ المعاهدة التي كانت عملت بين المسلمين والمسيحيين وكان عقدها أحد البارونات اللاطينية وأسرع صلاح الدين في جمع جيوشه وقواه وسار حتى عبر نهر الاردن وهزم المسيحيين في واقعة حطين سنة ١١٨٧ بعد الميلاد وكانت واقعة مشهورة وذلك أن صلاح الدين بعد أن عبر نهر الاردن حط رحاله عند بحيرة طبرية على سفح الجبل مؤملا أن المسيحيين اذا بلغهم نزوله يقدمون اليه وكانوا معسكرين في مرج صفورية بأرض عكا ولما لم يتحركوا من معسكرهم سار بتجريدة من عسكره ونازل طبرية وتغلب عليها بعد ساعة من القتال وبقيت قلعة طبرية مسلمة لم يتغلب عليها ولما بلغ المسيحيين ما حل بطبرية ساروا نحوها ولما علم صلاح الدين بمسيرهم ترك على قلعة طبرية من يحاصرها وعاد لملاقاة المسيحيين فالتقى بهم على سطح جبل طبرية ومن بعد حرب شديدة تشتت شمل جيوش المسيحيين الافرقة تحصنت في تل يقال له تل حطين فضايقهم صلاح الدين بعساكره واشتد بهم العطش حتى ألجأهم الى القتال فأسرت مقدمتهم وقتل الباقون وكان فيمن أسر ملكهم جفري لوسنيان وأخوه البرنس أرباط ومشهورو قواده وأعقب هذه الظفرة التغلب على مدينة طبرية وعكا ويافا وقيسرية وحيفا وصفورية والناصرة ثم سار الى تبنين وهي قلعة منيعة فحاصرها أسبوعا ونصب عليها المنجنيقات حتى فتحها عنوة وسار الى صيدا وتسلمها وكذا تغلب على جميع المدائن المجاورة لاورشليم من كل جهة وناحية فلما تم له ذلك أجمع على التغلب على أورشليم وهي بيت المقدس فشمر عن ساعد الجد وجمع عساكره وكانوا متفرقين في نواح عديدة وسار بهم حتى أتى أورشليم فنزل في الجانب الغربي منها وحاصرها حصارا شديدا ودافع أهلها عنها مدافعة عنيفة ولما رأى المسيحيون ما حل بهم من شدة الحصار والزحف والضرب عليهم بالمنجنيقات طلبوا المخابرة مع صلاح الدين فتمت بتسليم المدينة اليه

وتولد من نصرة المسلمين هذه قيام ممالك أوروبا وشروعها في الحرب الصليبي الثالث ونال صلاح الدين حماية القسم الاعظم من فتوحاته مدة الحرب الطويل الذي انتشب وأخيرا رضي بعقد معاهدة بينه وبين قائد الصليبيين من بعد مداولات ومخابرات ونشرت الاعلانات بان البلاد الاسلامية والمسيحية واحدة وعادت الصلات والمعاملات الى مجاريها وكذا عادت التجارات وجعل الزائرون يفدون

الى

الى أورشليم من كل فج وتوجه صلاح الدين الى أورشليم لتفقد أحوالها ومنها توجه الى دمشق وكان فيها أولاده وكان يحب مدينة دمشق كثيرا ويؤثر الاقامة فيها دون غيرها وكان أكثر نجاحا فى سلطانه وفى مدة سلطنته امتدت شوكته على بلاد العرب وعلى قسم عظيم من آسيا الغربية فمن ثم عند موته كانت مملكته ممتدة من طرابلس افريقية الى نهر الدجلة ومن المحيط الهندى الى جبال أرمينية

ومات صلاح الدين فى فلسطين سنة ١١٩٣ بعد الميلاد وانقسمت ممالكه بين أولاده الثلاث وكان سنه عند وفاته سبعا وخمسين سنة وحكم أربعا وعشرين سنة فى مصر وتسع عشرة سنة فى سوريا وترك صلاح الدين من الاولاد سبعة عشر ذكرا وبنتا واحدة واقتسم أولاده واخوته وأولادهم مملكته فيما بينهم الا أن حصصهم ما كانت متساوية فى القسمة وذلك أن ثلاثة من أولاده أخذوا أكبرها واقتنع الباقى بمقاطعات صغيرة فخص أول أولاد صلاح الدين وكان يسمى بنور الدين ولقب بالملك الافضل بمملكة دمشق والشطوط البحرية وأورشليم والبصرة وبانياس وسورية الغربية وخص أبو الفتح ويلقب بالملك الظاهر غياث الدين بحلب وجميع سوريا الشرقية ومن ضمنها حران وتل باشر وعزاز وخص الثالث وهو الملك العزيز بمصر ومن هؤلاء تشكلت ثلاث دول مختلفة وانفصلت مصر من سوريا مرة أخرى وفى مدة القرن التالى ارتاعت مصر وانزعج أهلها من جيوش الممالك الاوروباوية التى اشتركت مع بعضها فى الحروب الصليبية فصد خلفاء صلاح الدين الذين جلسوا على الاريكة المصرية هؤلاء الجموع وغلبوهم وظفروا بهم وكان آخر هذه الهجومات صار اجراؤه بواسطة لويز التاسع ملك فرنسا فى سنة ١٢٤٨ بعد الميلاد وذلك أن لويز التاسع ملك فرنسا جرد جيشا من الصليبيين وسار فى رأس قوة عظيمة مقدارها ٥٠٠٠٠ مقاتل ووصل بهذه القوة الى دمياط وكان فيها جموع الصليبيين وعند وصول لويز التاسع المذكور لدمياط بعث الى الملك الصالح أيوب بن الملك الكامل كتابا يقول له فيه أما بعد فانه لا يخفى عليك أنى أمين الامة المسيحية كما أنك أمين الامة المحمدية وكذا لا يخفى عليك ان عندنا أهل الاندلس يحملون الينا الاموال والهدايا ونسوقهم سوق الحيوانات ونقتل الرجال ونجعل النساء أرامل ونسبى البنات والاطفال وانى أبذل لك نصحى فى أنك لو أقسمت لى بكل الايمان لكنت واصلا اليك ومقاتلك فى أعز البقاع عليك فاما أن تكون البلاد لى فهى أعظم هدية حصلت عندى واما أن تكون البلاد لك والغلبة على فيدك ممدودة الى عنقى وقد عرفتك وحذرتك من عساكر حضرت فى طاعتى تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون اليك بأسياف القضاء

ولما قرئ هذا الكتاب على السلطان الملك الصالح اشتد به المرض وكان به مرض من قبل وبكى واسترجع فكتب القاضى بهاء الدين رد الكتاب وهو بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وأصحابه أجمعين أما بعد فانه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فنحن أرباب السيوف وما قتل منا فرد الا جددناه ولا بغى علينا باغ الا دمرناه ولو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريبنا ديار الاواخر منكم والاوائل لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ولا بد أن تزل بك القدم فى يوم أوله لنا وآخره عليك فهنالك تسيئ الظنون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون فاذا قرأت كتابى هذا فتكون فيه على

أول سورة النحل أتى أمر الله فلا تستعجلوه وتكون على آخر سورة ص ولتعلمن نبأه بعد حين ونرجع الى قول الله تعالى وهو أصدق القائلين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وقول الحكماء ان الباغي له مصرع وبغيك يصرعك والى البلاء يقلبك

وفي هذه الملاحم والوقائع التي حصلت بين الفريقين انهزم لويز التاسع ملك فرنسا شرهزيمة وقتل من جيشه ٣٠٠٠٠ نفس وأخذه المصريون أسيرا

ولما جلس الملك الصالح هذا على الاريكة المصرية جلب عددا من الاسرى من جنكيزخان وربهم ونظمهم وجعلهم محافظين على جسمه ونفسه وأطلق عليهم اسم المماليك وصار يضيف اليهم من يوم الى يوم أسرى أخر من نفس التتار حتى أصبحت مصر محيطة ببحر الخزر فكان هؤلاء المماليك زهرة الجيوش المصرية ونفذت شوكتهم وتأبدت سلطتهم فخلعوا خليفة الملك الصالح وأجلسوا أيبك الجاشنكير قائدهم سلطانا في محله وكان في ظرف المائة والثلاثين سنة التي جاءت عقب ذلك في مصر قلاقل وارتباكات وصار المماليك في ظرف هذه المدة يولون سلطانا ويقتلون آخر أو يخلعونه حسبما يرغبون ويشتهون وفي غلاق القرن الرابع عشر قام الجراكسة وكان عددهم محصورا فيه قوة المماليك فهزموا المماليك وخلعوا آخر سلطان تولى منهم وهو حاجي بن شعبان وأجلسوا قائدهم وهو الملقب بالملك الظاهر برقوق وأطلق على هذه الدولة اسم دولة الجراكسة

وفي سنة ١٤٨٥ بعد الميلاد وجه الاتراك العثمانية جيوشهم على مصر بعد أن وطدوا أنفسهم في أوروبا وجعلوا القسطنطينية عاصمة مملكتهم فاستمر الحرب خمس سنوات كانت نتيجته هزيمة الاتراك العثمانية بواسطة الجراكسة ثم جدد سليم الاول الحرب في سنة ١٥١٦ بعد الميلاد فلما بلغ طومان باي آخر سلاطين الجراكسة بمصر ما عزم عليه سليم زاد في حصون دمياط وغيرها من الحدود السورية وجمع كل ما أمكنه جمعه من الرجال وسار لملاقاة سليم العثماني حتى وصل الصالحية وعسكر بجموعه فيها وأما سليم فانه سار من الشام على سواحل البحر الابيض المتوسط حتى وصل غزة وتغلب عليها وكذا العريش ولما علم بعقر الجيوش المصرية في الصالحية وما هم عليه من عزم النية عرج عن موقعهم بالكلية وترك طريق الصالحية وسار حتى وصل الى الخانقاه أو الخانكاه وهي قرية على مقربة من القاهرة ببضع ساعات فلما بلغ طومان باي تقدم الاتراك العثمانية الى هذا الموقع عاد بجيوشه لاجل الهجوم عليهم من الخلف فانتشب القتال وتطارد الجيشان وهزم العثمانيون طومان باي وجيشه شرهزيمة وكان حصول هذه الواقعة في ٢٢ ينايرسنة ١٥١٧ بعد الميلاد وقتل من المصريين نحو من ٢٣٠٠٠ نفس وهرب طومان باي وانكسرت شوكة المماليك الجراكسة بالكلية ومن بعد مضي سبعة أيام احتل سليم مدينة القاهرة من دون أدنى مقاومة وترك فيها المحافظين وسار سليم لاجل فتح الباقي من المملكة والتغلب عليه فجمع طومان باي عددا كبيرا من العربان وأرضاهم بالاموال ومن بعد مضي قليل انقض طومان باي بمن معه من المماليك والعربان وفتكوا بمحافظي الاتراك العثمانيين فأرسل سليم أجود عساكره وأشجع فرسانه للتغلب على القاهرة ثانية فزاد طومان باي في تحصينها واستحكاماتها وحصن القلعة تحصينا جيدا وقفل الشوارع بمتاريس وحمل السلاح كل من يستطيع حمله لاجل المحافظة على الوطن واحتل المماليك المساكن وكرنكوا البيوت ومن بعد مضي ثلاثة أيام تغلب سليم على المدينة ثانيا الا أنه لما رأى من شدة المماليك وما هم عليه من الحصانة والرصانة

خدعهم

خدعهم ووعدهم العفو التام الذى تعود منه المنفعة عليهم وعلى الرعية ان خضعوا وسلموا وصفوا النية فسلم له منهم نحو من ٨٠٠ نفس فقتلهم جميعا على الفور وأمر بالذبح فى أهل المدينة ممن تبع المماليك فهلك على ماقيل فى هذه المذبحة نحو من ٥٠٠٠٠ نفس أى خمسون ألف نفس وصار القبض على السلطان طومان باى المملوك بعد هذه المذبحة بقليل وأمر السلطان سليم بشنقه فعلقوه تحت رواق باب زويلة بالقاهرة بكلاليب من حديد وفى شنقه قال بعضهم

شنقوه قهرا فوق باب زويلة * ولقد أذاقوه الوبال الأكبرا

يارب فاغفر له عظائم جرمه * واجعل جنان الخلد فيه له قرى

وبشنق طومان باى انقرضت دولة المماليك الجراكسة من البلاد وأراح الله منهم الارض والعباد بعد ان تسلطنوا فى مصر نحوا من ١٣٩ سنة ومن هذا العهد أى من سنة ٩٢٣ هجرية الموافقة لسنة ١٥١٧ بعد الميلاد صارت مصر تحت حوزة المملكة العثمانية وصارت ايالة تركية عثمانية

واستمرت جثة طومان باى مصلوبة ثمانية أيام فأمر السلطان سليم بدفنها الا أنه مع ما كانت عليه دولة المماليك من الحكومة الفوضوية المطلقة التى كانت مستمرة الاجرا فى المملكة المصرية ما كانت جميعها عارية عن التقدم وعدم الصلاح فى مصر بل كان البعض من سلاطين الجراكسة على عقل وحزم وتدبير وحكمة كاملة فى الاحكام السياسية والمواد الدينية ولحد الآن يوجد فى القاهرة دلائل مثل المساجد والقباب والابنية الفاخرة والمارستانات تشهد لسلاطين ملوك الجراكسة بعلو الهمة والاعتناء بالصنائع والعلوم الدينية التى كانت منزرعة فى هذا الوقت وكانت حركات تحصيل العلوم والآداب زاهرة يانعة فى عاصمة المملكة أيضا

ومابرح سليم من مصر حتى جعلها ايالة عثمانية خاضعة لدولته وقرر تقسيم الادارة والحكومة على هذا الوجه وذلك أنه جعل عليها حاكما يلقب بالباشا يرجع اليه فى حل الامور وعقدها وكان خيربك الجركسى من ضمن الذين ساعدوا سليما فى سوريا وفى التغلب على مصر وكان انحاز اليه لانه كان من كبار رجال قنصوه الغورى فولاه حاكما على مصر ولقبه بلقب باشا وجعل فى مصر ثلاث ادارات كل ادارة تراقب حركة الاخرى فالادارة الاولى ادارة الباشا وهى ابلاغ الاوامر السلطانية لارباب الحكومة وللامة مع مراقبة تنفيذها واجراء العمل على موجبها والادارة الثانية الوجاقات وهى أنه ترك فى مصر ٥٠٠٠ سباهى و ٥٠٠ ينكيجرى وجعل هذه القوة ستة وجاقات أى فرق تحت قيادة خير الدين باشا وأمره أن يقيم فى القلعة ولا يبرح منها الا لشغل كان ووظائف هذه الوجاقات حفظ النظام العام فى القطر المصرى والمدافعة عنه وجباية الخراج وكان ترتيب هذه الوجاقات حسبما هو آت

(أولا) وجاق المتفرقة وهو مؤلف من نخبة الحرس السلطانى (ثانيا) وجاق الجاويشية وهو مؤلف فى الاصل من صف ضباط جيش السلطان سليم وعهد اليه جباية الخراج (ثالثا) وجاق الهجانة (رابعا) وجاق التفكجية وهم ناقلوا البنادق (خامسا) وجاق الينكيجرية وهم المستحفظون (سادسا) وجاق العزب

وكل من هذه الوجاقات مركب من أفراد يقال لهم وجاقلية وعلى كل وجاق ضابط يلقب بالاغا معه الكيخيا والباش اختيار والدفتردار والخازندار والروزنامجى ويتألف مجلس شورى الباشا من ضباط

من هؤلاء الوجاقات ولا يقضي الباشا أمراً الا من بعد تصديقهم ولهم أن يوقفوه عن الاعمال ويخابروا ديوان القسطنطينية في ذلك ولهم أن يطلبوا عزله حالما يشتبهون في مقاصده السيئة وأما الادارة الثالثة فهم المماليك وهم بقايا الدولتين السالفتين ووظيفتهم بقاء الموازنة بين الباشا والوجاقات لانهم أعداء لكل من الحزبين ومن مقاصدهم الانتصار للحزب الاضعف ليمنعوا القوى منهما من الاستبداد

وقسم سليم مصر الى أربع وعشرين سنجقية أو كشوفية وجعل على كل سنجق أو مديرية كاشفا من المماليك الذين انتموا اليه في حروبه وجميع هؤلاء السناجق أو الكشاف تحت قيادة ورياسة الباشا أو الاغا العثماني المعين من طرف سلطان القسطنطينية وجعل الاحكام الشرعية ومعظم أحكام السياسة الادارية والقضائية في أيدي مشايخ من العرب فاستحوذ هؤلاء على السلطة والسيادة العالية على طوائف الامة المصرية وكانوا مثلهم من أصل النسل العربي وكان هؤلاء المشايخ بالطبع مرتبطين بواسطة ماهم عليه من الديانة الروحانية ومائلين بكليتهم الى نواحي القسطنطينية زيادة عن ميلهم الى الكشاف

وسار سليم من القاهرة الى الاسكندرية ورتب محافظيها ثم عاد الى القاهرة جاريا في ترتيب الاعمال والادارات ناظرا في المصالح والمهمات ومن بعد أن أقام نحوا من عشرين يوما رجع قافلا الى القسطنطينية وحمل معه أحمالا كثيرة من الذهب والفضة خلاف الاسلاب الاخرى التي سلبها وتقدمات وهدايا جمة قدمت له وأخذ معه الخليفة العباسي وهو اذذاك محمد المتوكل على الله وكان هو الخليفة الثامن عشر من الخلافة العباسية الثانية بمصر فاسكنه القسطنطينية ورتب له رواتب شهرية وانحصرت الخلافة الاسلامية في سلاطين آل عثمان وكان أول الخلفاء فيهم سليم هذا

وما التفت سليم الى القبط الذين هم أصل سكان البلاد المصرية الا أن الكشاف والسناجق انتخبوا من هذه الطائفة ومن طائفة اليهود أيضا نوابا عندهم في الكشوفيات الحاكمين فيها يجمعون لهم العوائد والفرض المفروضة على الامة المصرية ومن ثم صارت القرى محكومة بحكام من نفس القبط وفي ظرف القرنين اللذين أعقبا التغلب العثماني كانت مصر محكومة بباشوات وسناجق من طرف الدولة العثمانية التركية فأخذت هذه المملكة في الاضمحلال في الانفس والاموال وسار هؤلاء الباشوات والسناجق في طرائق السلب والنهب والطمع وانقاد الامة المصرية الى ماتجريه الدولة العثمانية في حقهم من الجور والظلم وماتفعله الكشاف من السلب والحطم وانتهاك الحرمات وارتكاب الجرائم والموبقات وانكسرت قوة شوكة قدماء المصريين وضاعت شوكة العرب القديمة بشوكة ظالمة قبيحة

وفي القرن الثامن عشر عصى السناجق والكشاف على الدولة العثمانية وكانت عادت اليهم شوكتهم وقاموا في عدة ثورات ضد الدولة التركية ونكثوا طاعتهم وأعلنوا استقلاليتهم تحت قيادة قائدهم على بك في سنة ١٧٦٨ فتمكن على بك المذكور من المملكة واستلم مشيخة القاهرة ثم ثارت عليه أحزابه وكانوا عدة فخشي على بك على نفسه وهرب من القاهرة الى سوريا فالتجأ الى حاكم أورشليم أي بيت المقدس وكانت بينهما صداقة قديمة ولما علم أعداؤه من الكشاف بفره شكوه للسلطان مصطفى فأرسل فرمانا الى حاكم بيت المقدس بالقبض على على بك وارساله محافظا عليه الى الباب العالي ولما علم على بك بذلك هرب الى عكا واكتسب فيها صداقة الشيخ ضاهر بن عمر أمير تلك المدينة فأكرم وفادته عليه وسعى

فى تبرئتـه أمام الباب العالى وبمساعدة نصرائه تمكن من نوال العفو عنـه من السلطان وأعيد الى القاهرة فى منصبه الاول وفى سنة ١٧٧٢ بعد الميلاد انغش على بك ومات مقتولا مسموما وعادت حكومة السلطنة التركية فى مصر اسمـا لا جسمـا ولا رسما وأعقب ذلك اختلالات وارتباكات وحروب داخليـة امتدت زيادة عن عشرين سنة بين هؤلاء الاحزاب المختلفة وبعضها وآل الامر أخيرا الى أن تقلد زمام الاحكام مملوك اسمه ابراهيم بك وآخر اسمه مراد بك واقتسمـا الاحكام فيمـا بينهمـا فتعـين ابراهيم بك للحج وتعـين مراد بك لمشيخة البلاد ورقيا كثيرا من ممـاليكهم الى رتبة البكويه وقلداهم وظائف مصالح البـلاد وظلم العباد ومضى على ابراهيم بك ومراد بك ثلاث سـنوات وهـما فى حالة ظلم واستبداد ومع بعضهما على سكينة ووفاق يقتسمـان ايراد البلاد فيمـا بينهما سويه لا يقدمان منها للدولة العثمـانية حسابا ولا يردان جوابا فوشى بهـما والى مصر المعين اسمـا من طرف الدولة الى السـلطان عبد الحميد وبمـا هما فيه من الاستقلال بمـالية البلاد والتمس أن يرسل جيشا الى مصر لايقافهما عند حدهما فسار الجيش فى اسطول تحت قيادة قبودان باشا ولمـا وصل الجيش الى الاسكندريه خاف البكوات خوفا شـديدا وائتمروا فيمـا بينهم على الدفاع وجمع مراد بك عساكره ومماليكه وسار لمقابلة قبطان باشا فهزمه وجيوشـه وبدد شمله ومازال قبطان باشا سائرا بعساكره ينهبون ويخربون فى البلاد حتى دخـل القاهرة ونزل فى بيت ابراهيم بك وهو القصر العيـنى الآن فعرض جميع أمتعـة البكوات المنهزمين للبيع مع حريمهم وأولادهـم ومماليكهم وبعد ذلك عكف قبطان باشا على اصلاح الادارة فاصلحها حسبمـا يوافق ارادة السـلطان عبد الحميد ثم عاد الى القسطنطينية بعد أن أقام اسماعيل بك على مشيخة البلاد وهذا عهـد امارة الحج الى صـديقه حسـن بك الجداوى واتفقا معا على اقتسام ايراد البلاد وعادت الامة المصريه والايالة التركية العثمـانية فى كرب وهـم وحزن وغم ومصاعب وأتعاب ولم تر خلاصها من هذه الامم الظالمة من باب الى حد سنة ١٧٩٨ بعد الميلاد

وفى مبادى هـذه السنة رأى نابليون بونابارتو أن فرانسا لابد من أن يكون لها السلطة على مصر فرتب غزوة مركبة من ٤٠,٠٠٠ مقاتل عليهم أربعون قائدا اختارهم بنفسـه وفئة من رجال العلم بين مهندسين وجغرافيين وغير ذلك ينوف عددهم عن المائة نفس وسار من مينة طولون فى اسطول بلغ عدد مراكبه نحو من خمسمائة مركب عليها نحو خمسين ألف نفس وفى ٩ يونيه سنة ١٧٨٩ وصلوا الى مالطة ومنها ساروا قاصدين الاسكندريه فأوجست انكلتره خيفة من هـذه الحملة فأنفذت نلسون أحد كبار أمراء الاباتها فى اسطول ليتبع خطوات الاسطول الفرنساوى فى البحر الابيض المتوسط ولمـا بلغ بونابارتو ذلك أمر بتوجيـه اسـطوله غربى الاسكندريه بيضع مراحـل وأن يكون على حالة دفاعية على الدوام

وفى هذا الوقت كان ابراهيم بك ومراد بك متقلدين زمام الاحكام فى مصر فى حالة استبداد وجور عاسف كما كانت عادتهما من قبل ولمـا وصل الاسطول الفرنساوى الى ثغر الاسكندريه أرسل أحد قواده لطلب القنصل فتوجـه الى بونابارتو فى الحال فسأله عن حال المدينة فأخـبره بمـا كان من ورود الاسـطول الانكليزى وأن الاهالى فى يقظة واستعداد وكتب بذلك السيد محمد كريم قيم الاسكندريه الى مراد بك يعلمه الخـبر وكان هو وابراهيم بك فى القاهرة وقال له ان العمـارة التى ظهرت أمامنا فى البحر لا يعرف لها أول من آخر فلما قرأ مراد بك الجواب أخـذه الغضـب والحدة وقصد ابراهيم بك وأعلمه الخبر فأرسلا الى

سائر وجوه البلاد وكبار الدولة وعقدوا مجلسا جامعا فقرروا فيه

أولا — أن يسير مراد بك فى فرقة من الفرسان على الشاطئ الغربى من فرع رشيد من النيل نحو الاسكندرية لتوقيف العساكر الفرنساوية عن التقدم وثانيا ان ابراهيم بك يعسكر بمن بقى معه من الجند على الشاطئ الشرقى عند بولاق لحماية القاهرة وثالثا أن يرسل بكير باشا الوالى من طرف السلطان يستمد الباب العالى

وأما بونابارتو فانه أنزل عساكره وسار وتغلب على الاسكندرية من بعد مدافعة خفيفة من أهلها ثم سار بعساكره متوجها الى ناحية القاهرة من الجهة الغربية للنيل ولاقى فى طريقه مراد بك بعساكر المماليك فهزمهم العساكر الفرنساوية وارتدوا على أعقابهم خائبين وفى يوم ٢١ يوليه سنة ١٧٩٨ هجم طوائف المماليك هجوما باسلا على العساكر الفرنساوية فى الواقعة المشهورة التى حصلت فى نواحى الاهرام فهزمهم الفرنساوية شر هزيمة وأبادوا خيولهم المطنطنة ومن بعد مضى ستة أيام دخل الفرنساوية مدينة القاهرة وفى ظرف سنة تغلب الفرنساوية على كافة أنحاء المملكة المصرية

وفى فصل صيف سنة ١٧٩٩ صار طلب نابليون الى فرانسا بالنسبة لاهمية حالة الاعمال هنالك فترك القائد كليبر خليفة عنه فى ضبط وحفظ المملكة التى تغلب عليها وكان كليبر على غاية من الثبات والاقدام فى هذه المأمورية الا أن أحد الشوام ذبحه فى بيته الذى كان موجودا بالازبكية فخلفه القائد مينو فهجم عليه الجيوش الانكليزية والتركية تحت قيادة القائد أبركرومبي فى نواحى مدينة كانوب (أبوقير) وألزموه بعد بضع أيام قليلة من هزيمته بتسليم الاسكندرية الى الانكليز فرضى بذلك وبالانجلاء عن مصر وعاد بجيشه الى فرانسا فى سنة ١٨٠١ بعد الميلاد ومن ثم أعيدت مصر الى الدولة العثمانية بمساعدة الامة الانكليزية وما أسرع وقوع اختلافات شديدة وحروب داخلية عنيدة بين بقايا المماليك مع بعضهم وبينهم وبين الدولة العثمانية كانت نتيجتها أخيرا تعيين محمد على باشا فى سنة ١٨٠٦ بعد الميلاد واليا من طرف السلطان العثمانى على مصر وهو مقدونى المولد وخدم فى الجيوش التركية وأظهر فى خدمته هذه بسالته وشهرة اسمه حتى آل أمره الى أن صار قائدا أحد الاحزاب المتحاربة فى مصر

﴿ محمد على باشا ﴾

نال محمد على باشا المصاعب والمتاعب والعذاب الاليم من المماليك حتى استحوذ على فرمان من السلطان محمود العثمانى بولايته على الديار المصرية وكان قبل هذا الفرمان متقلقل الحركات على خطر من المصائب والآفات المتسلطنة فى مصر من المماليك وحروبهم العدوانية فيما بينهم ولما رسخ قدمه وقويت شوكته سعى بعض الناس فى المصالحة بينه وبين المماليك وكان رجلا ذا قريحة واقدام تام وقدم نفسه لاشغال عود النظام فى مملكته وما كان يرتاب ولا يتردد فى أى طريقة من الطرق يستعملها فى تمام مرغوبه ومقصده فعكف فى مساعيه الابتدائية على خلاص البلاد وخلاص نفسه من جور وفظاعة المماليك وعزم على ابادتهم ودمارهم وتم ذلك فى سنة ١٨١١ بعد الميلاد بحيلة وخديعة أجراها عليهم وذلك أن السلطان كلف محمد على بقهر الوهابى الذى كان استفحل أمره فى بلاد العرب وأمره باخضاع الوهابيين وتخليص بلاد العرب من أيديهم فانتهز محمد على فرصة ما كان يبغيه من دمار

المماليك

المماليك حتى من بعدها يلتفت الى أشغاله وينظم أحواله فأجاب محمد على باشا طائعا مختارا لاوامر السلطان محمود وصار يجمع القوى اللازمة لتلك الغزوة وخشى أنه لو سارت هذه الغزوة قبل اتمام مقصوده ربما لاتسكون البلاد فى أمن من المماليك وبعد أن رتب الحملة صورة وجعلها تحت قيادة ابنه طوسون بك أمر بخروج الحملة وقوادها وعسكر بهم فى الحصوة المسماة بالعباسية الآن ودعا جميع الاعيان والامراء والمماليك لوداع ابنه طوسون باشا والاحتفال بخروجه ورجالها الى الغزوة اللازم اجراؤها حسب الفرمان السلطانى وفى أول مارث سنة ١٨١١ اجتمع الناس ووردا المماليك الى القلعة أفواجا وصار محمد على باشا يستقبل المماليك ويرحب بهم فى سرايته ويأمر لهم بالقهوة ولما تكامل الجمع وجاءت الساعة الموعودة أمر محمد على باشا بمسير الموكب فسار وكل فى مكانه منه وكان المماليك فى الخلف حولهم الفرسان والمشاة حتى اذا قربوا من باب العزب من أبواب قلعة القاهرة وساروا فى طريق ضيق منحدر بين أسوار عالية أمر محمد على باشا بغلق الابواب وأشار الى الارنؤد فهجموا على المماليك بغتة فارتاعوا وحاولوا الفرار فلم يجدوا لهم ملجأ وسقط المشاة على المماليك من خلفهم ضربا برصاص البنادق فأرادوا الرجوع الى الخلف فلم يتمكنوا من كثرة الخيول وضيق الطريق وقتلوا جميعا عن آخرهم ولم ينج منهم أحد وبواسطة هذه المذبحة الشنيعة انقرضت طائفة المماليك وحصلت الراحة فى البلاد وخلص من ظلمهم وفسادهم العباد

ومن بعد هذه صار محمد على باشا خالصا حرا فى كونه يجرى مشروعه من دون انقطاع فوطد شوكته فى مصر مع الثبات التام وأرسل جيوشه تحت قيادة أولاده وتغلبوا على بلاد الوهابية من أعمال بلاد العرب وأخضعوا تلك البلاد حتى صيروها تحت سلطة أبيهم محمد على باشا

ولو أن تاريخى هذا على غاية من الايجاز الا أنه لاضرر فى أن أسرد هنا تاريخ الوهابى لانى رأيته لا يستفاد منه شئ فى الكتب العربية فجمعته من اللغات الاجنبية جامعا وفيا بالمراد واسع الامتداد مندرجا فيه كافة ما حصل من الوهابيين وما جرى بينهم وبين العثمانيين

﴿ المذهب الوهابى ﴾

من أعظم الثورات المشهورة وأكبر الفتن المذعورة التى شاهدتها بلاد العرب من عهد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الثورة التى حصلت من الوهابيين وذلك أنهم أثبتوا فى حماستهم العسكرية وشجاعتهم البدوية شجاعة العرب القديمة وتعصبهم فى الدين وسيرهم فى أقوم طريق مبين وكان مؤسس هذه الثورة وصار اسمه لقبا عليها وعلى نفس ما شرعه من العقيدة الدينية هو شخص اسمه عبد الوهاب من نسل قبيلة بنى تميم فى نواحى نجد ومن عائلة اسمها الوهابية وأطلق على ما كان متمسكا به من العقيدة اسم المذهب الوهابى أو الدين الوهابى وكان أبوه شيخ هذه العائلة وكبيرها وكان مولد عبد الوهاب المذكور فى سنة ١٦٩١ بعد الميلاد فى قرية تسمى العينية من اقليم العارض فجاور فى أثناء شبابه بمكة والمدينة ونزل البصرة وبغداد وجاور فى مدارس المدن المشهورة فى الشرق ولما رأى فى أثناء سياحاته العديدة أن الدين الحقيقى للاسلام دخله الفساد الكلى وتسلطنت عليه الخزعبلات والمنكرات فى القول والفعل وأن معظم الترك والعجم صاروا من الروافض وأهل البدع عزم وصمم فى نفسه على اصلاح ما أفسده العجم المفسدون والترك المجرمون وكانت أعماله بغاية التؤدة والرزانة وتدبيره وذكاؤه وما هو عليه من العلم والحكمة كان حافظا له احترام أهل بلاده فأدخل فى مذهبه منهم جملة بكونه نشر

عقيدة هذا الدين فى مؤلفات ومصنفات اشتهرت بين أيدى أهل بلاده بالفضل الكامل والقبول الشامل

وكانت ديانة هذا المذهب وسياسته على حد من الايجاز أشبه باصلاح اسلامى مثل الاصلاح الانجيلى عند المسيحيين وأضاف الى هذا المذهب العقائد البدوية ذكر فيها أن قائد الامة أو العشيرة الواحدة تكون له السلطة الدينية والبلدية فى عشيرته أو أمته وكان الوهابيون فى عقيدتهم ومذهبهم على طريق أهل السنة والجماعة والاساس الاصلى لديهم هو توحيد الله سبحانه وتعالى لا يشركون به شيأ ويعتقدون أن النبى صلى الله عليه وسلم انسان بشر أدى ما يجب عليه من ابلاغ الرسالة الالهية ورفضوا جميع تفاسير القرآن الخرافية المكذوبة وقرروا أحاديث أهل السنة والجماعة وبما أنهم يراعون أن عموم الناس مستوون عند الله رأوا أن الاستمداد والاستغاثة بشفاعة الذين توفوا من الاولياء والصلحاء والانبياء اثم وخطيئة ورأوا أن احترام وتعظيم رممهم البالية وعظامهم الخالية زيادة عن احترام أى بشر من الامور المبتدعة والبدع المخترعة ومن أجل هذا رأوا أن المشاهد والقباب والابنية المصنوعة على مقابرهم هى رجس من عمل الشيطان وأمور مبتدعة من بنى الانسان فحرموا زيارتها والتوجه اليها والاستغاثة عندها وان الحلف أو القسم بمحمد صلى الله عليه وسلم جريمة كبرى ويلعنون الاتراك لعنا مؤبدا ولا يجعلون لمحمد صلى الله عليه وسلم لقب سيد فى صلاتهم عليه ولا يخضعون اليه ولا يحترمونه مثل العبادة الوثنية ويقولون ان العمل بهذا هو عمل عباد الاوثان

وأما فى الآداب فهم على نقاء وصفاء وصلابة فانهم يحرمون المواثع الطيارة وجميع المواد المخدرة ويحرمون كافة أنواع الفجور والفسق والعدول عن العدل والانصاف ومنع الصدقات والعمل بالحيل والخداع والاغتصاب ولعب الشطرنج والنرد والعيوب الاخر المتسلطنة فى المدائن المقدسة وأما فى شهامة التعصب الحقيقى للدين فانهم يغيرون على كل مادة صغيرة مخلة بالدين الحق ويجعلونها مادة كبيرة فى الشرع ومن بعد الحرب الذى وجهوه ضد الاولياء والقبور وجهوا أيضا وغر صدورهم بالخصوص الى الملابس الحريرية والترفه فى المعيشة وحرموا بالكلية لبس الحرير وشرب الدخان وحلق الرأس ماعدا ضفة الشعر التى تركها لهم قدماء المسلمين ومن الاعمال التى لا يجوز فعلها عندهم الصلاة على النبى على السبحة والبكاء والنحيب على الميت وكانوا على اعتقاد الوضوء والحج الى مكة ولثم الحجر الاسود ورمى الجمار

ولنسرد الآن على وجه الايجاز تاريخ هذا المذهب وما حصل من أجله من الوقائع فى صحارى بلاد العرب وذلك أنه فى نحو سنة ١٧٤٦ بعد الميلاد عندما صار الزام عبد الوهاب بأمر من حاكم الحسا أن يترك قريته ومسقط رأسه وكان فيها من نحو ثمان سنوات بصفة شيخ وبث فيها عقائد مذهبه وأدخل فيه كثيرا من الرؤساء المجاورين لقريته فعندما نجا من سيف الذبح توجه الى الدرعية واستحوذ على صداقة مأمنه ومنزله من محمد بن سعود شيخ بنى مقرن وهم فرع من ولد على المنسوب الى قبيلة عنزة فاستمر فى مأمنه هذا يبث عقائده ويلح على التمسك بها حتى استحوذ على قوة كافية لتوسيع نطاق ما هو مصمم على فعله من الاصلاح وأن يكون له طاقة فى استعمال قوة يخضع بها الطاغين المضلين عن السبيل الحق للدين فقدم له بعض القبائل والعشائر المنتشرة فى الصحارى الوسطى لبلاد العرب خضوعهم الاختيارى وطاعتهم وانقيادهم لما يأمرهم به والبعض من القبائل الاخر اتحدوا ضده

وتجمعوا على صده ورفضوا الاعتراف بحكمه دنيويا كان أو روحانيا ولاجل زيادة وقوع النشاط فى المصلحين المستجدين عرفهم عبد الوهاب بحكمته وفصاحته وعذوبة لسانه أن المقصود من حمل السلاح هو مجاهدة الملحدين وهلاك الكافرين وارعاب المفسدين الذين يفسدون فى الدين والارض ولا يصلحون فأولئك هم الذين تجب المجاهدة فى سبيل الله فيهم وردعهم حتى يسيروا على الطريق المستقيم ولا يبخسوا بدين الله العزيز الحكيم وأضاف لهم ما يجوز لهم على حسب الشرع يعقمن سلب ونهب هؤلاء وتقسيم الغنائم التى يتيسر الحصول على اغتنامها من هؤلاء بين المحاربين على موجب ما نص فى القرآن الشريف والشرع المنيف وأشعل فى صدورهم نار الحمية العربية والتعصب فى الدين وحفظ قواعده على طريق متين

ومن المحتمل أن المؤسس الاكبر لهذا المذهب لم يتقلد أدنى وظيفة أخرى سوى أنه كان رسولهم المهدى أو حاكمهم الديانى وكان مقره الثابت فى الدرعية بأرض نجد حتى مات فى سنة ١٧٨٧ ميلادية من بعد أن تقدم فى العمر حتى بلغ خمسا وتسعين سنة واستحوذ على الدرجة العالية من القناعة وأسر القلوب بفصاحة كلامه وعذوبة منطقه وكان له قوام عجيب فى السياسة والحروب وما يحصل من الوقائع والكروب واستمر الى أن بلغ السيادة القصوى بسيفه فى بلاد العرب وكان فيه طوع ولين مثل محمد صلى الله عليه وسلم وتزوج بعشرين من النساء أولدهن ثمانية عشر طفلا

وكان المحامى الحربى للعقائد الجديدة والمؤسس السياسى للحكومة الوهابية والدولة الدرعية النجدية هو محمد بن سعود وكان متزوجا بابنة عبد الوهاب ولما ابتدأ فى أعماله اقب بلقب الامير واستصحب معه ابنه الاكبر عبد العزيز وكانت قوته فى الابتداء صغيرة حتى انه فى مناوشته الاولى مع عدوه كان معه سبعة من الهجن وبينما كان حضرة هذا الرسول المحترم مكلفا بادخال الناس فى دينه فى الدرعية تغلب محمد ابن سعود وابنه على نجد وأغلب العشائر الكبيرة من العرب الذين يأتون كل سنة الى هذه الاراضى فى طلب المرعى وكان أقدم أعدائهما وأشدّ كراهة لهما هو عرار شيخ الحسا فأرسل عليهما أول جيش فى سنة ١٧٥٧ بعد الميلاد فهزم محمد بن سعود هذا الجيش وبدد شمله فسار عرار بنفسه فى رأس ٤٠٠٠ مقاتل وأربع مدافع برية وحاصر الدرعية فصار صده وطرده والتزم على القهقرة مع الفشل وعدم الانتظام ولممات ابن سعود فى سنة ١٧٦٥ بعد الميلاد صار ابنه عبد العزيز قائدا بمفرده على الجيش الوهابى وبواسطة شجاعته ومساعيه وأعماله التى لا يكل ولا يتعب منها امتدت مظفرات الوهابيين ونصراتهم الى أقصى أقاليم بلاد العرب وكان مكرامى شيخ نجران عدوا ألد لهم من قبل فصار تابعا خاضعا لهم وكذا انقاد الشريف أبو عريش الى الطاعة والخضوع وبواسطة ما أجراه الوهابيون من مثل هذه الاعمال انتشرت العقائد الجديدة من سواحل البحرين الى تخوم مخا وعدن وبما أن مواشى وأنعام القاطنين فى تلك النواحى سلبها الوهابيون دخل الكثير منهم فى الدين الوهابى لاجل خلاص أملاكهم ومواشيهم وأثبتوا للوهابيين صداقتهم لهم ودخولهم فى دينهم بكونهم أغاروا على جيرانهم وسلبوا أموالهم وأملاكهم

ومن بعد مدة استمرت فى محاربات شديدة ووقائع عتيدة دخل جميع بلاد العرب فى العقائد الوهابية أى العقائد الاصلاحية للديانة الاسلامية وصارت نجد أيضا فى حالة سياسة مدنية جديدة وبدل أن كانت جهاتها منقسمة الى عدة عشائر وشعوب صغيرة منفصلة عن بعضها ومستمرة فى حروب وكروب

بين بعضها صارت مقر دولة قوية وسلطنة سياسية مثل سلطنة الخلفاء القدماء ولرئيس هذه الدولة السلطة في الاعمال الدينية والدنيوية ومع ما كان عليه الوهابيون من الحروب والمبارزات في بلاد العرب لم يعتدوا على حقوق الحكومتين المجاورتين لهم وهما حكومة بغداد والحجاز وكانت قوافل الحجاج تمر من وسط أراضيهم من غير أن يحصل لاى قافلة ضرر أو انزعاج وكانوا في أحوال أخوية وودية مع الشريف سرور شريف مكة وفي سنة ١٧٨١ بعد الميلاد استحصلوا على رخصة منه في أداء حجهم وطوافهم بالكعبة فتولد من زيادة قوتهم ونفوذ شوكتهم اشتعال نار غيرة الحسد في قلب الشريف غالب وفي ظرف بضع سنين من تقلده الحكومة وتوظفه شريف مكة بعد الشريف سرور أعلن حربا على الوهابية وكانت طرائق هذا الحرب مثل طرائق حرب البدو متقطعا بهدنات صغيرة قصيرة المدة ولما انتظمت مخابرات الشريف غالب مع الدولة التركية العثمانية لم يهمل أدنى طريقة يمكنه اجراؤها في تمكين الدولة العثمانية من دخول عساكرها في بلاد العرب لاجل الوقوع بالوهابيين الا وأجراها وأثبت أنهم من الملحدين الكافرين وأن معاملتهم مع قوافل الحجاج التركية من أقبح الاعمال الفاسدة المضرة بالدين ومثل هذه الاقوال عرض للدولة العثمانية ولاة بغداد من الباشوات الحكام بما أنهم كانوا يشاهدون في كل سنة غارة وهجوما على الاراضي المجاورة لبغداد من هؤلاء الثائرين وكونهم ضربوا سنويا ضرائب وعوائد يجمعونها من قوافل الاعجام الذين يتوجهون للحج نظير مرورهم من أرضهم وخفارتهم في الصحاري

ولما ترائى أنه لا توجد جهة في الحد الشرقي أعظم قبولا لتوجيه الحرب في داخل أرض العدو أحسن من نواحي بغداد جهز سليمان باشا والى بغداد في سنة ١٧٩٧ تجريدة مؤلفة من ٤٠٠٠ الى ٥٠٠٠ عسكري من العساكر التركية للحملة على الدرعية والهجوم عليها وزاد عليهم ضعفهم من البدو المحالفين للدولة العثمانية وجعل الجميع تحت قيادة وكيله وسار الوكيل بهذه القوة فبدل أن يتقدم مباشرة الى الدرعية حاصر هو قلعة الحسا وكانت قلعة حصينة رصينة فقاومت هذه القلعة أعمال الهجوم التي وقعت عليها زيادة عن شهر حتى وردلها قوة امدادية عظيمة تحت قيادة سعود بن عبد العزيز فألجأ الاتراك لرفع الحصار والقهقرة وفي أثناء قهقرة هذه الحملة سبق أمامهم هذا القائد واجتهد في توقيفهم وصدهم حتى يهلكوا وذلك أنه جلب حمولا من الملح على ظهور الجمال ورماها في جميع الآبار التي كانت موجودة في طريق سيرهم فمن ثم انجبر عساكر بغداد على الوقوف وعدم السير واستمر الجيشان على مرأى من بعضهما مدة ثلاثة أيام من دون أن تحصل أدنى مخاطرة في عمل هجوم وأخيرا عقدت بينهما هدنة لمدة ست سنوات وتوجه كل من الجيشين بسلام الى بلاده

وكانت هذه الغزوة من أتعس الغزوات على الترك وأشأمها لان الوهابيين عرفوا جيدا الطرق التي بها يكيدونهم وينكئونهم ثم انفسخ عقد الهدنة وفي سنة ١٨٠١ هجم سعود في رأس ٢٠٠٠٠ محارب على كربلا وهي مدينة قبر أو جامع الحسين بن علي بن أبي طالب وكان ولم يزل هذا القبر على غاية من الشهرة والفخامة والاجلال مطروقا من أزمان طويلة بزوار المسلمين من الفرس والترك والعرب فدخل سعود المدينة من بعد مقاومة خفيفة من أهلها وكان سور ومدافعة المدينة مركبا من أفلاق نخيل مرصوصة خلف حائط من طين وذبح من أهلها نحوا من ٥٠٠٠ نفس وبينما كان سعود في وسط هذه المجزرة المهولة اذ سمع صراخ رجل متعصب من رأس برج اقتل اخنق جميع هؤلاء الكافرين

الذين يجعلون مع الله الها آخر ومن شدة ما كان عليه سعود من الحنق والغضب أمر بأن لا يبقى منهم أحد الا الضعفاء من الشيوخ والنساء والاطفال ثم وجه الوهابيون بعد ذلك حنقهم وتهورهم نحو القبر وكان مشحونا بالاموال والذخائر ونفائس الجواهر الواردة اليه من الترك والعجم وهدموا القبة وكانت جميعها منقوشة من الداخل بالذهب وفي أثناء الهدم سمع السلابون صوت ان الله يغفر للذين يدمرون مثل هذا ويرحمهم ولا يغفر للذين يشيدونه ويعذبهم ووجد الوهابيون خزائن وكنوزا بمبالغ جسيمة كانت جمعت رويدا رويدا من زوار هذا القبر الواردين اليه من الاعجام والاتراك احتراما وتعظيما للامام الحسين وكان معلقا على القبر لؤلؤة كبيرة مرصوص بالقرب منها عشرون سيفا محلاة جميعها بالاحجار الكريمة وأوان وقناديل ذهبية وفضية وياقوت وفيروز والماس ومواد من الذهب والفضة كل ذلك استحوذ عليه سعود وجرد البيت من أمتعته وأثاثاته الثمينة ووجد فيه نحو من ٤٠٠٠ شال كشميري و ٢٠٠٠ سيف وكثير من البنادق والاسلحة كل هذا صار تكويمه كوما واحدا وصار يوزعه على العساكر وقت خروجهم من المحل وفي ظرف خمسة أيام جعلوا هذا المحل أثرا من كوم رماد وبينما كان الوهابيون مشتغلين بنواحي شاطئ نهر الفرات اذ دخل الشريف غالب في نجد وتغلب على شعرة قرية صغيرة من أعمال قاسم وكان في حروبه هذه تارة غالبا وتارة مغلوبا فتذمر عبد العزيز في أحواله وشرع في الغارة على الحجاز بأكبر قوة وأعظم شدة ما ظهرت عليه أبدا قبل وكان سعود حمل بجيوش أبيه في وسط القبائل الجبلية الموجودة في تخوم اليمن وكان في ضمن هذه العشائر أبو نقطة شيخ عسير فترك له سعود كفالة الذين اعتنقوا الدين الجديد وأذعن القبائل الموجودة في الناحية الشرقية من مكة الى سعود وعهد زمام حكومة هذه الجهات الى عثمان المضايفي وكان عديل الشريف غالب الا أنه ألد الاعداء له من سنين عديدة مضت وفي سنة ١٨٠٢ حاصر الطائف وأخذها وجعل عاقبتها مثل ما آلت اليه كربلا بعد أن قاومته مقاومة شديدة فتولد من هذا الخلاف كونه أصدر أمرا لعساكره بأن لا يبقوا كبيرا ولا صغيرا الا قتلوه فقتلوا تحت السيف نحو من ٨٠٠ نفس صبرا لكنهم لم يتعدوا على النساء وراعوا حرمتهن وأحرق الكثير من المنازل بعد أن نهب جميع ما في داخل الدور والاماكن وهدم جميع القبور الطاهرة وكان من ضمن هذه القبور قبر العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم أشهر وأفخر محل مزار في أنحاء بلاد العرب في جماله ونظامه وطهارته وهدم سراى الشريف غالب وبستانه المفتخر وجعلهما خرابا بلقعا الا أن كنوزه وذخائره كانت حملت من قبل الى مكة وتقوى الوهابيون بهذه النصرة العظيمة وكانت أول حادثة في توقيف وتعطيل قوافل الحج

وفي السنة التي جاءت بعد تغلب الوهابيين على جميع أرض الحجاز ومن بعد عدة وقائع مع الشريف غالب عسكر سعود وعثمان المضايفي معسكرهما بالقرب من مكة على مسافة ساعة ونصف منها وهجما على الضواحي الشرقية لمكة وتغلبا عليها وكانوا يغيرون من هذه الجهة على نفس مكة فأما حاكم مكة فانه ما حصل له خوف ولا زعزعة ودافع عن نفسه بشجاعة وبسالة وحفر لغما بالقرب من سراياته صد الوهابيين عنها موقتا ثم حول الوهابيون مجرى المياه العذبة الداخلة في مكة الى جهة أخرى عنها وكانت واصلة اليها من عرفات فقطعوا عن مكة المياه فاضطر الاهالي من بعد حصار المدينة شهرين أو ثلاثة للمؤن والذخائر والمياه وسعرت الكلاب والقطط من الجوع وكانت مخازن المأكولات تحت يد الشريف

وعساكره فقط ولما فرغت هذه المأكولات تقهقر الى جدة مع جميع عائلته وأتباعه ومتاعه وقبل خروجه من سراينه أضرم النار فيها لاجل حرق ما فيها من الادوات والامتعة التى ما أمكنه حملها معه وبهذه الحالة خلصت مكة من شره وعاقبة أمره وفى اليوم الثانى خرج وجوه أهل مكة وعمدها لملاقاة الوهابى والخضوع اليه وتسليمه مكة لما يعلمون جيدا فيه من حسن النظام واعتمدوا على عدله فى عدم ضررهم وخراب أملاكهم وصدرت الاوامر فى الحال من رئيس هؤلاء المنصورين للاهالى والسكان بفتح جميع دكاكينهم وكل شئ يطلبه العساكر يباع لهم ويدفع ثمنه فى الحال نقدا ولا ريب أن هذه الحركة هى رأس الادارة والسياسة الا أن الفاتح الوهابى المتصنع فى أموره نسب ذلك الى كرامة وقال للعلماء فى مجلس حافل انه رأى محمدا صلى الله عليه وسلم فى المنام وقال له ان أخذت قمحة أو شعيرة من مكة المشرفة جبرا عن أهلها فانه يلزم أن يموت بعد ثلاثة أيام لكنه غضب جيدا من هذه المبتدعات التى هى أشغال عباد الاوثان وغير محترمة فى الشرائع الوهابية وأمر فى الوقت بهدم ما ينوف عن ثمانين قبة فاخرة البناء كانت على قبور ذرارى الرسول صلى الله عليه وسلم وعليها مدار رونق مكة وبهجتها وسواها جميعها بالارض حتى القبة التى على قبر خديجة رضى الله عنها وأبطل جميع القهاوى والخمارات وجميع محال المشروبات والمسكرات وكسر أوانيها وأراق مائعاتها وأمر بجمع جميع الشيش والجوز وعيدان الدخان وأحرقها بحضوره وحرم شرب الدخان والكنيالك وجازى شاربيهما بأشد العقاب فانجبر الاهالى رغم أنفهم على الانقياد لهذا الامر من دون حصول أدنى مجادلة وألزمهم ترك الترفه والتلذذ بالمعيشة وعدم لبس الملابس المزخرفة ودقق فى أمر ابطال الدعاء للسلطان فى الحرم المكى بعد خطبة الجمعة وقلد زمام حكومة مكة الى عبد المعين أخى الشريف غالب وأرسل بهذا الفتح الجديد بالثناء الى القسطنطينية فى مكتوب كتبه وهذا نصه

من سعود الى سليم انى دخلت مكة فى يوم ٤ محرم سنة ١٢١٨ وأبقيت على حياة الاهل والسكان وهدمت القبور والقباب المشبهة بعبادة الاوثان وأبطلت الضرائب والعوائد الزائدة عن اثنين ونصف فى المائة وقررت القاضى المعين من طرفكم لفصل الاحكام فى هذه الناحية بالموافقة والمطابقة لاوامر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وشريعته وأرغب منك أنك فى السنة القابلة تصدر أوامر الى باشوات الشام (دمشق) ومصر (القاهرة) بان لا يرسل مع المحامل طبولا ولا زمورا الى مكة والمدينة لان الدين لا نفع له بهذه الاشياء المحرمة والسلام بيننا وسلام الله عليك تحريرا فى يوم ١٠ محرم سنة ١٢١٨ موافق ٣ مايه سنة ١٨٠٣

ثم سار سعود بجيوشه من مكة قاصدا جدة فانتهز الشريف غالب فرصة مسافة الطريق واستعد لمقابلته وركب على سور استحكامات جدة مدافع جلبها من مدافع المراكب الموجودة فى المينة وحاصر سعود المدينة أحد عشر يوما وقطع المياه عنها فهلك خلق عظيم من أهل جدة مما أصابهم من الظما ودافع أهلها عن المدينة بأجود المدافعة وأعظم الشجاعة والممانعة ولما يئس الوهابى من تغلبه على جدة انجبر على القهقرة الا انه ظهر فيما بعد أنه اختلس نحو من ٣٠,٠٠٠ ريال أو ٦٤٩٦ جنيه و ١٥ شلن حتى رفع الحصار وسار وبينما كان سعود متجها فى سيره نحو الصحارى الشمالية من بلاد العرب اذ دخل الشريف غالب مكة وأعاد لنفسه حكومتها ولما تراءى له أنه لا يمكنه المدافعة عن هذه الجهة لاجل تام من الزمن وعد سعودا بشروط يجريها معه وبالنسبة لسلطته وعلو منزلته استحوذ من سعود

على شروط ومحالفات جيدة لم ينلها أحد غير من الرؤساء الذين اعتنقوا دينه ودخلوا فيه وكان لذلك منفعة كبيرة فى أرض الحجاز وهى أن قبيلة الحرابى القوية الشوكة والسلطان التزمت الطاعة والاذعان لكن ما كان اذعانها من غير حركة شديدة وأعقب اذعانها خضوع ينبع أيضا

وفى سنة ١٨٠٤ أضاف الوهابى المدينة الى فتوحاته وبما أن أهلها كانوا فى علاقة كبيرة مع الترك زيادة عن أهل مكة عاملهم بالرفق واللين وطلب منهم الخراج الا أن بعض الاملاك لم يحصل لها أذى ولا ضرر وكان أول اعتناء والتفات حصل من سعود هو هدم المزارات وسلب ما فيها من الكنوز والذخائر وفى أثناء حصار الوهابى المدينة سلب حاكمها معظم القسم الاعظم من خزائن مسجد النبى صلى الله عليه وسلم خصوصا الاوانى الذهبية وكان حاكمها فى هذا الوقت شخص اسمه حسن الخلجى زاعما خلاصها من هذا الهول الاعظم لكنه فرقها على أصدقائه ومحبيه وما بقى صار صيدا للقائد الوهابى فانه دخل الحجرة الشريفة وكان من ضمن ذخائرها وكنوزها الكوكب الدرى المرصع باللؤلؤ والالماس وكان معلقا فوق القبر الشريف فمر الوهابى من بين الستارة والقبر الشريف وبحث بيديه كل شئ موجود وهتك حرمة الحجرة الشريفة وأخذ الكوكب الدرى وما كان موجودا من الاوانى الثمينة المرصعة بالجواهر الكريمة وأخذ حلقانا وأساور وعقودا ولبابا ومواد أخرى نفيسة كانت أرسلت هدايا من جميع أطراف وأكناف الممالك الاسلامية وكان أغلبها مهدى من طرف الحجاج حال وجودهم بالمدينة لاجل زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم وجمع سعود الوهابى كل هذا تحت يده وباع بعضه لشريف مكة وحمل الباقى معه الى الدرعية وكان أغلبه لؤلؤا وعقيقا وصار تقدير قيمة الغنيمة التى اغتنمها فكان ٣٠٠,٠٠٠ دولر يعنى ١٠ شلنج ٦٤٦٨٧ جنيه وهذه القيمة قليلة جدا فى قيمة جميع الاشياء والجوهرات والزخارف التى جمعت من المؤمنين من مدة عصور مضت فانها ولا بد كانت مبالغ جمة لا يمكن حصرها اللهم الا أن يكون حاكم المدينة وخدمة المسجد وفراشى الحجرة الشريفة سلبوها وصرفوها فى احتياجاتهم ولقد اغتر الوهابى من لمعان بريق الدنيا فى وجهه واجتهد فى هدم القبة الفاخرة الشاهقة البنيان وأصعد الفعلة عليها فرموا كرتها الذهبية والهلال الراكب فوقها الا أنهم لم يتيسر لهم هدم القبة مطلقا بسبب ما كانت عليه من صلابة البناء واحكامه بالرصاص المصبوب فيه والمغطى به وسقط اثنان من فوق سطح القبة من الفعلة فما تأ فترك الوهابى الهدم وقال الناس فى ذلك ان هذه معجزة من النبى صلى الله عليه وسلم حصلت بخصوص بناء مسجده وترك نفس القبر الشريف من دون أن يوقع به أذى ونهى سعود وحرم زيارته والتوسل به والصلاة عليه صلى الله عليه وسلم لان هذه الاعمال من أعمال عباد الاوثان وحرم جميع الشعائر الاشعائر ومناسك الحج فقط وحرض وحض فى المدينة ومكة على أداء الصلوات فى أوقاتها ودقق فى عدم لبس الحرير وشرب الدخان وأنواع المخدرات وشرب المسكرات ورتب شرذمة من العرب بأيديهم المساوق والنبابيت يطوفون فى الشوارع فى الاوقات المعلومة للصلوات ويسوقون الناس الى صلاة الجماعة من محل أشغالهم وأمر بأن جميع الذكور من بالغى الحلم فصاعدا يلزم أن يكونوا فى الجامع وقت صلاة الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء وكان يعاقب من خالف هذا الامر أشد العقاب وجرسوا وهتكوا امرأة محترمة حرة كانت تشرب فى شيشة تنباك فأركبوها حمارا وطافوا بها الشوارع معلقين الشيشة برقبتها ملفوفة وسطها والمنادى خلفها

واتفق موت عبد العزيز فى المسافة أو المدة التى بين التغلب على مكة والمدينة وذلك انه ذبحه واحد

من العجم فى شهر اكتوبر سنة ١٨٠٧ وكان الوهابيون قتلوا واحدا من أقاربه فانتخب الوهابيون سعودا ابنه البكرى خليفة من بعده باتفاق الآراء وكان فى صفاته وأفعاله اللازمة لقائد دينى فائقا عن أبيه وكان تعلم الحرب من صغره وساق الجيوش الى الوقائع بعد ما بلغ من العمر اثنتى عشرة سنة فقط واستمر سنين عديدة كان هو المدبر فيها للحروب وله ينسب فتح الحجاز ومع ذلك فانه من الوقت الذى ابتدأت فيه سلطنته اشتهر بانه لم يحارب بنفسه فى واقعة ولادخل فيها بل كان هو المدبر لجيشه من وضع الى وضع على مسافة تامن خلفه وكان مشهورا بالجمال وكان لطيف الاخلاق والسجايا وله ذقن طويلة خارقة للعادة عن ذقون العرب وشوارب طويلة حتى كان يدعى أبا الشوارب وكان كافة العرب يمدحونه ويثنون عليه بالذكاء وجودة العقل وحب العدل والانصاف والفصل فى المخاصمات والمشاحنات حتى أعداؤه

ولبث سنين عديدة من بعد موت أبيه لايلبس الادرعا تحت قميصه وما كان يتوجه فى الخارج الامع خفر منتخب حوله وقسم ممالكه الى عدة أقسام عهد كل قسم منها الى رئيس من الرؤساء من كبار مشايخ العرب ولقبه بلقب الامير فكان من واجبات هذا الامير تنفيذ واجراء العدل العام فى قسمه ومساعدة جباية الخراج والعوائد ولمّ العساكر وجمعها للجيش وتولد من شدة الاحكام التى أجروها فى سياسة ادارتهم الرغم فى استتباب توطيد الامن والراحة العامة ضد العصيان والثوران وامتنع الاحزاب والعشائر المبغضين لبعضهم من حصول ما يوجب بينهم وقائع ومبارزات تكون سببا فى سفك الدماء ولما استقام الهدو والراحة فى جميع أرض الحجاز وجه الوهابيون غاراتهم وهجوماتهم وحملاتهم على ما جاورهم من الجهة الشرقية والشمالية وبما أن اقليم البصرة كان على غاية من الثروة فى الاموال والانعام كانت شواطئ شط العرب ونهر الفرات الى غاية عناب ميادين للغارات والحملات سنويا حتى انه أغار عبد من عبيد سعود اسمه حرق فى رأس فرقة قوية من العسكر غارات مختلفة فى داخل الصحراء السورية وأوقع الرعب والانزعاج فى عشائر العرب الموجودة فى ضواحى حلب وفى سنة ١٨١٠ حمل القائد نفسه على سهول حوران وكان على غاية من السرعة فى الحركة وما كان يظن فيه حصول حملاته فى تلك الجهة فضلا عن كونها تحتاج لمدة شهر فى سيرها وحمل فى غارته هذه على خمسة وثلاثين قرية فسلبها ونهبها وحرقها بعسكره من قبل أن يحصل من والى دمشق أدنى حركة فى المدافعة عنها فضلا عن كونه لم يسمع بهذه الحركة الامن بعد الخراب والدمار بيومين وأما فى الجهة الجنوبية فان الوهابيين لم يحصل منهم أدنى تأخير فى مد ونشر سلطة جيوشهم على بعض الاقاليم والجهات التى ما كان حصل التغلب عليها وذلك أن أبونقطه شيخ عسير نزل فى غلاق سنة ١٨٠٤ بجيش عرمرم مؤلف من العربان القاطنة فى الجبال وأذاع الخوف والارتياع فى البلاد ونهب كلا من مدينتى لحى والحديدة ثم عاد قافلا الى الجبال وفيها حفظ جميع الحدود اليمانية حتى مات فى سنة ١٨٠٩ ومع كل هذا فان صنعاء عاصمة اليمن ما أغار عليها غارة ولا وقع عليها أدنى نوع هجوم مع أن سعودا كان عهد هجوم هذه المدينة الغنية ذات الثروة الى جود وأبو نقطة ولم يأمر أحدهم بالتغلب عليها ومن المحتمل أنه كان حافظا هذا التغلب لنفسه وشرع فى مشروعه هذا وتيسر له الحصول على اغتنام غنائم وأسلاب جمة من نواحى الجهات الشاسعة لحضرموت وعمان وكر عليها الحملات والغارات الى أن مال ملوك هذه الجهات بكليتهم الى طاعته والانقياد لسلطنته واتفقوا مع القائد الوهابى هذا على أن يدفعوا له خراجا سنويا الا أنهم من بعد

سنة نكثوا طاعتهم له فساق الى تلك الجهات جيوشه واحتلوها مرة أخرى وأخضعوها وكذا دخل فى دين الوهابى جزائر البحرين وقطاع طرق الخليج الفارسى وعسفوا فى سلب ونهب تجارات هذا الخليج فأرسل الانكليز حملة من بومبى منعت هذه الحركة وكانت مهولة على التجارة والتجار

ولو أن الوهابيين كانوا فى عداوة ظاهرة مع الحكومة التركية من ابتداء منع وتوقيف قوافل الحجاج وحرمان الامة من الدعاء فى مساجدهم للسلطان فى الخطبة الا أنه لم يحصل لحد هذا الوقت أدنى حماس ولا نشاط من الباب العالى فى هذه المسئلة الا أن يوسف باشا والى دمشق جهز فى الحقيقة حملة للهجوم فى سنة ١٨٠٩ على اقليم الجوف الا أن هذا مجرد ظهور ورياء فقط لانه لم يحصل الشروع فى هذه الحملة مطلقا ولما رأت الدولة التركية أن الصحارى الواسعة الممتدة بين العواصم السورية والعواصم العربية لا يمكن الحصول منها على نقل المؤن والذخائر الكافية لعساكر مستعدة لحرب منتظم حتى لو عادت السلطة التركية على المدائن المقدسة العربية فان المساعى والاحتياطات اللازمة لهزم الوهابى لابد من اجرائها من جهة مصر لان أهل الحجاز فى عوز شديد واحتياج أكيد لهذه الايالة بالنظر لجلب ما يحتاجون اليه منها فى معيشتهم وبالنسبة لما كان حاصلا من القلاقل والارتباكات فى مصر من بكوات المماليك صار محمد على باشا لا يمكنه أن يقيم حربا على أى عدو أجنبى فأصدر السلطان العثمانى له أمرا بكونه يمكنه اخضاع الحجاز بقفل مينا السويس والقصير على المراكب العربية التى تأتى اليها فرأى محمد على باشا أنه من مقتضى الفرمان الوارد له من ديوان القسطنطينية امتناعه بالكلية عما كان يتحصل عليه من منافع مجارة البحر الاحمر وكانت فى يده ورأى انقطاع هذه المكاسب والمنافع من ايرادها فى صندوق ماليته

وأخيرا حكم الطمع وحب الشهرة على ألم البخل الموجود فى صدر محمد على باشا فرأى من حيث ان الباب العالى يرغب فى خلاص المدائن المقدسة والقبور الشريفة على يده وبهذا يكون له أعظم منقبة وأجل رفعة ومنزلة على جميع الباشوات الموجودة فى المملكة التركية فاستشاط سرورا فى نفسه لهذا الامر ثم ان السلطان أصدر فرمانا آخر يحرضه فيه ويستنفره ووعده بان يمنح ولاية دمشق لاحد أولاده ان أسرع فى حركته وتغلب على المدينة ومكة وخلصهما من يد الوهابى ولما كان محمد على من الضرورى له أن يكون عنده عمارة بحرية أو اسطول تحت طلبه لاجل نقل وارسال عساكره وذخائره أصدر أمره بانشاء ثمانية وعشرين سنبوكا من حمولة ١٠٠ الى ٢٥٠ طونولاته وعين لشغلها ١٠٠٠ نفس من الشغالة تمموها فى ظرف ثلاث سنوات

وفى شهر أغسطس سنة ١٨١١ لما صار الاسطول مستعدا للسفر جعل طوسون بك ابنه الثانى وكان عمره ثمان عشرة سنة وأظهر دلائل شجاعته واقدامه فى ذبح المماليك المتقدم آنفا قائدا لهذه الحملة وكانت مركبة من قسمين خيالة ومشاة فأما الخيالة فهم مؤلفون من ٨٠٠ حصان أو فارس من الترك وعرب مصر والمشاة مؤلفة على الخصوص من عساكر الارنؤد وعددهم ١٥٠٠ نفس الى ٢٠٠٠ نفس تحت قيادة صالح أغا وعمر أغا ثم وصل الاسطول ينبع فى شهر أقطوبر وسلمت من بعد مدافعة استمرت يومين لان المدينة ما كانت محفوظة بالعساكر الوهابية بل بعساكر من عند الشريف غالب وكان أعلن نفسه أنه دخل فى محالفة مع سعود وفى دينه أيضا

واستمرت المخابرة مع الشريف غالب عدة شهور لان هذا الشريف لما بلغه الاستعدادات الجارية

المهولة الحاصلة فى مصر عند محمد على باشا تبصر فى عاقبة أمره و رأى أن يتخابر معه سرا فى أن يوصل له الاخبار الكافية عن حالة العدو وقوته ووعده بان يخلع طاعته له عند ظهور أول جيش تركى نزل فى أرض بلاد الحجاز ومع ذلك فان طوسون استدل فى الحال على أن حالة البلاد ليست كما قال الشريف وظهر له من دلائل الاحوال أن الشريف ليس صادقا فى القول والفعل فيما عرضه من المحبة والصداقة وأنه رجل منافق منتظر لمن تكون الغلبة له و يكون معه وكانت الاهالى على غاية من الخوف والانزعاج من شدة سعود وسطوته اذا ثاروا من دون أن يحصل لهم نجاح يخلصهم مما هم فيه وكان عند طوسون قوام كاف لفصل بعض العربان المجاورين الى ينبع من الوهابيين

ولاجل الخلاص من هذه الحركة التى لا فائدة فيها الجارية بينه و بين الشريف عزم طوسون على الهجوم والحملة على المدينة وحكم بعقله وقريحته أن هذه الطريقة أجود له من كونه يسير على جدة أو مكة اذ ربما أن خديعة الشريف غالب تكون مخصوصة عليه وعلى عساكره من غوائل سعود وابتدأ سيره فى غزونه فى ينايرسنة ١٨١٢ بعد أن ترك مقدارا من المحافظين فى ينبع فتغلب فى طريق سيره على مدينتى بدر والصفراء بعد مناوشة خفيفة وسلك الطريق من عند قرية الجديدة من درب ضيق جدا محصور بين سلاسل جبال وعرة واقفة جدا فسار فى هذا الدرب الذى طوله نحو من ساعة ونصف ولما تكامل دخول عساكره فى هذا الدرب حصل الهجوم والحملة عليهم بغتة بالقوة المتجمعة من قبائل الحرابى والوهابية فكان عساكر هذه القوة ساترة مهاوى الدرب على كل من جهتيه وكان مقدار هذه القوة ٢٠٢٠٠ مقاتل من المشاة ومن ٦٠٠ الى ٨٠٠ من الخيالة وجميعهم تحت قيادة عبد الله وفيصل ولدى سعود فبدل أن يتقهقر طوسون بجيشه الى قرية الجديدة و ربما يمكنهم المدافعة عن أنفسهم فيها هربت العساكر جميعا خيالة ومشاة عند سماعهم أول صوت وقع عليهم من عدوهم فقاطع الوهابيون عليهم من الخلف بسرعة الجرى الخفيف وكبسوهم فى طول الدرب وأوقعوا بهم وصب صوت البنادق ورصاصها على صفوفهم التى حصل فيها الفشل وعدم الانتظام وقتلوا منهم ١٢٠٠ نفس وكان من الممكن ابادة جميع الجيش لولا أن الوهابيين اندفعوا نحو الجبال وضبطوا الحملة والمدافع ومع ما كان من هذه الحالة الخطرة والمصيبة العظمى الكبرى فان طوسون لم يفقد شمرة شجاعته واقدامه و بسالته وكان يزعق على خيالته وفرسانه الفارين ودموعه تجرى على خدوده و يوبخهم و يقول لهم هلا كان يقف واحد منكم بجانبى واجتهد اجتهادا كليا فى جمع عساكره الا أنه كان على غير طائل فاسرع بالرجوع مع اثنين من خيالة طقمه وغرق فى وسط الاعداء بسيفه ليكفهم عن التعقب حتى وصل معسكره وكان موجودا فى بدر و وضع النار فى المعسكر وأحرق صناديق الذخائر الحربية لعدم وجود ظهور لحملها ثم نزل من أقرب مينة كان راسيا فيها بعض مراكب من مراكبه وسافر الى ينبع ومن بعد مضى بضع أيام التحق به ما بقى على قيد الحياة من عساكره

وتولد من حصول هذه الخسارة الجسيمة ضعف العساكر المصرية بالكلية وترك عربان مصر صالح أغا وعمر أغا وقالوا انه لا يمكنهم الحرب مطلقا فى أرض الحجاز فأرسلوا الى القاهرة وحفظ الوهابيون البلاد الى سواحل البحر الاحمر وانضموا مع الشريف غالب نفسه ولما وصلت الاخبار بكسر العساكر المصرية وخسارتهم خسارة جسيمة الى مسامع محمد على باشا لم يهتم بما حصل ولا بالى بما وقع بل لم يصرف أدنى دقيقة من الزمن هباء منثورا وأسرع فى الحال باستعداد وتجهيز غزوة جديدة وصارت الامداد

والذخائر

والذخائر والمؤن ترد يوميا الى ينبع وأرسل محمد على نقودا جمة لاجل توزيعها على مشايخ العربان ومن ثم انفصل كثير منهم من سعود وفى اقطوبر سنة ١٨١٢ تذكر طوسون أنه صار عنده قوة كافية لعمل اجتهاد ثان فى التغلب على المدينة وفتح له ذهب مصر بوغاز الجديدة الصلب وسار طوسون وجيشه حتى وصل الى أسوار المدينة النبوية من دون أن يقابل فى طريقه أقل مقاومة وكانت المدينة والقلعة مشغولتين بمحافظين من الوهابيين وعندهم المؤن والذخائر الكافية لحصار طويل فتعاظم وتفاخر رئيس الوهابية وعساكره بما حصل لهم من النصر فى الاول واعتمدوا على حصانة ورصانة قلعتهم وتركوا أنفسهم فى تكاسل واهمال مجرم فدخل الشجاع أحمد أغا المدعو بونابارتو مسرعا فى حركته الى الضواحى فلاقى فيها مقاومة ضعيفة وضرب العدو وألجأه الى داخل المدينة واستمر طوسون محاصرا المدينة مدة أربعة عشر أو خمسة عشر يوما لانه ما كان فى جيشه سوى مدافع جبلية صغيرة مقذوفاتها غير كافية لهدم سور استحكامات المدينة فأمر بعمل لغم تحت السور وحشاه بالبارود وبينما كان الناس مشغولين بصلاة الظهر اذ حصل اطلاق اللغم وانكسر السور ودخل عساكر الارنؤد المدينة وهرب الوهابيون منها حال الهجوم عليها وقتل منهم ١٠٠٠ نفس فى الشوارع وهرب ١٥٠٠ نفس الى داخل القلعة فسلط المصريون نيران مدافعهم عليها ونهبوا المدينة فى الحال ومن بعد مضى ثلاثة أسابيع لما وجد محافظو القلعة أن مؤنتهم فرغت أذعنوا بالتسليم ووعدهم أحمد أغا بونابارتو بالسلامة والاطمئنان لأمنهم وأن يحضر لهم الجمال اللازمة لشيل عفشهم الذى يرغبون حمله معهم الى نجد ومع ذلك فقد فسخ هذا الوعد مع الفضيحة والخجل وبدل أن يعد لهم ٣٠٠ جمل أعد لهم ٥٠ فقط فالتزم المهاجرون ترك معظم مهماتهم وأدواتهم وبمجرد ما بعدوا عن ضواحى المدينة خرجوا خلفهم وذبحوا منهم الكثير على قدر ما أمكنهم وكانت هذه الفعلة من أفعال التتار الهمج المتوحشين ثم جمع أحمد أغا بونابارتو جميع رؤس القتلى من الوهابيين الذين قتلوا فى المدينة وضواحيها وبنى بها أشبه بنوع برج على قارعة الطريق السلطانى الموصل الى ينبع

ومن ضمن الذين امتازوا بشجاعتهم فى جيش الباشا وأظهروا اقدامهم وبسالتهم فى حصار المدينة والهجوم عليها شاب اسقوطلندى عمره عشرون سنة مولود فى مدينة ايدمبورغ عاصمة اسقوطلندا اسمه توماس كيث كان قندجى فى الاى ٧٢ من الهايلندر (أرض الجبال) مدة الغزوة الانكليزية فى مصر فأخذ فى هذه الغزوة أسيرا واشتراه أحمد بونابارتو من أحد العساكر وفى مدة خدمته لاحمد بونابارتو غير دينه وأسلم وكان يوجد مملوك صقلى عند سيده مقبول ومعتبر عند أحمد بونابارتو فسفه هذا المملوك يوما من الايام على كيث فجرد كيث سيفه من غمده وضربه ضربة كانت هى القاضية وفر كيث هاربا وكان اسمه فى هذا الوقت ابراهيم أغا واستغاث بحماية الست حرم محمد على باشا أم طوسون وكانت تحبه لما كان فيه من الخفة والنشاط فأوصت عليه ابنها طوسون بك وفى مرة ثانية أيضا حصل منه قلة حياء فى حق سيده حتى غضب عليه بالكلية فأمر طوسون بقتله فحاصر العبيد أودة كيث وأرادوا قتله فقفل باب أودته ووقف فرامشاهرا سيفه وأخبرانط من الشباك وهرب الى سيدته الشفيقة عليه فسكن غضب طوسون فى الحال ولما تحقق مما يستحقه ابراهيم أغا من حسن المعاملة وكذا مما حصل من شجاعته جعله رئيس مماليكه وكان كيث هذا أحد الخيالين اللذين كانا واقفين مع طوسون فى درب الجديدة فرقاه الى رتبة ضابط خزندار وهى الدرجة الثانية فى أوردى الباشا وحارب فى المدينة وأظهر شجاعته

وبسالته وكان أول من صعد على الشرم ومن بعد أن امتاز فى عدة وقائع أخر وفاق غيره من أقرانه جعله طوسون حاكم المدينة فى سنة ١٨١٥

وتولد من النصر الذى حصل للمصريين فى الجهة الشمالية للحجاز تقوية محمد على باشا وتشجيعه وأرسل ١٠٠٠ فارس خيال و ٥٠٠ من المشاة للحملة على جدة ومكة تحت قيادة صهره مصطفى بك وكان الشريف غالب بالتغلب على المدينة جدد خضوعه واحترامه للمصريين وأرسل نوابا من طرفه يدعون قائدهم للدخول فى جدة ومكة تحت كفالته وبعلاقته هذه ترك المضايفى وكان قائد القوى الوهابية فى تلك الجهة ولما وجد عثمان المضايفى نفسه أن لا طاقة له على المخاطرة فى الحرب تقهقر الى جهة الطائف وصار التغلب على جدة بفرقة قليلة من العساكر ودخل مصطفى بك بالجيش الاصلى مكة فى يناير سنة ١٨١٣ وتحفظ على أملاك المدينة وعدم سلبها بواسطة العساكر كما فعل سعود مع عساكره وانضاف ١٠٠٠ من العربان والعبيد وفى رأسهم الشريف غالب الى قوة الجيش المصرى وهجموا مباشرة على الطائف وتغلبوا عليها وصار ضبط عثمان المضايفى على الفور بواسطة رجال الشريف غالب وصار تسفيره الى القاهرة ومنها استصحبه اسمعيل باشا ابن محمد على باشا وسافر به الى القسطنطينية وقدمه مع مفاتيح المدائن المقدسة الى سلطانه وكذا اقدم هدايا وتقدمات كثيرة ثمينة الى السلطان وأرباب دولته وصدر الامر فى الحال بقطع رأس هذا النبيل ومن ثم فقد المصلحون أعظم مقدام وأكبر ضرغام وأجل حليف كان لهم فى أرض الحجاز

وتولد من تغلب المصريين على هذا الاقليم فتح طريق خالص لقوافل الحجاج وكانت توقفت مدة سنين مضت الا انه لم يحصل من تغلب المصريين كسر شوكة الوهابيين ولا ضعف فى قواهم لان جميع القبائل والعشائر الموجودة فى شرق الجبال الرابطة للصحراء الكبرى بالتوازى لساحل البحر الاحمر لم تزل معترفة بسيادة سعود وسلطته وأن المصريين ما تقابلوا أبدا مع الوهابيين فى ميدان مكشوف من غير أن يهزموهم ولما رأى محمد على باشا أن سير الشريف غالب هو عمل يوطد به ميثاق حلفائه المستجدين به وخشى غائلته ورأى أن الامور فى مصر صارت فى حالة هادئة من المماليك وارتباكهم وقلاقلهم تبصر فى نفسه فوجد أنه من الضرورى له أن يتوجه بنفسه فى محل الواقعة حتى يتيسر له الحصول على توطيد سلطته على منوال أكيد وقدم ثابت فى أرض الحجاز فعرض بذلك الى الباب العالى ونزل من السويس مع ٢٠٠٠ من المشاة ووجه مثلهم من الفرسان وقطارا من الجمال يبلغ ٨٠٠٠ جمل من البر أما الجمال فلم يعش منهم الا ٥٠٠ ومات الباقى فى الطريق بسبب عدم وجود العلف والمرعى وعند وصول محمد على باشا الى مكة جذب الى نفسه قلوب الاهالى بكونه وزع عليهم هدايا جمة وأمر بترميم المساجد واصلاحها وقابل الشريف غالب فى الابتداء مقابلة ودية صادقة الا انه ارتاب منه بعد ذلك وان كان الاثنان حلفا على القرآن الشريف أن لا يتسبب أحدهما فى ضرر الآخر ولا فى فقد حياته الا أن هذا الحلف لم يستمر مدة من الزمان وكل منهما ارتاب من الآخر واشتغلت فى جسمه حركات الآلات الميكانيكية وشرع محمد على باشا فى القبض على خصمه وحبسه الا انه رأى أنه يصعب عليه هذا المشروع بسبب ما وجد من سلطة الشريف غالب على المجاورة وحصانة القلعة المقيم فيها وكانت مدخرة جيدا بالمؤنات وبها من المحافظين ٨٠٠ نفس فدبر حيلة وخديعة بها يتيسر الحصول على مقصوده وذلك أنه قبض على الشريف غالب وقت ما كان يؤدى زيارة رسمية الى طوسون وكان ضبطه

بفرقة

بفرقة من العساكر كنت له فى محل بالقرب من حوش البيت الذى كان طوسون نازلا فيه ومن بعد أن سجنه بعض أيام فى مكة أرسله من طريق القصير الى القاهرة مع أزواجه وحشمه وطواشيته ثم خصص الباب العالى محل اقامته فى سلانيك فمكث فيها قليلا ومات فى طاعون سنة ١٨١٦ فى فصل الصيف فنشأ مما حصل للشريف غالب هيجان وثوران عند جميع رجاله وأحزابه وتولد من ذلك ثورة فى كافة الاعمال الادارية لبلاد العرب فوظف محمد على باشا الشريف يحيى وهو بعيد القرابة للشريف غالب وكان عدوه الالد حاكما على مكة ورتب له رواتب شهرية

ولم يحصل من قبائل وعشائر العربان القاطنين بالقرب من مكة مقاومة ولا مبارزة أشد من المقاومة التى أجراها عرب ابجوم القاطنين فى تربة وكان التجأ فيها معظم عساكر الشريف غالب وصارت تربة نقطة تجمع كافة الوهابيين الموجودين فى الجهة الجنوبية كما أن الدرعية نقطة تجمعهم فى الجهة الشمالية وكان قائد هؤلاء العربان فى هذا الوقت امرأة أرملة اسمها غالية كان زوجها أشهر رجال هذه الجهة وكانت على غاية من الغنية والثروة ففرقت جميع أموالها على فقراء العشائر الذين يرغبون المحاربة مع الترك واعتقد المصريون أنها امرأة سحارة وأن لها قدرة على كونها تخفى عن أعين المصريين رؤساء الوهابيين ففى مبادى شهر نوامبر سنة ١٨١٣ سافر طوسون من الطائف ومعه ٢٠٠٠ نفس للغارة والحملة على تربة وعند وصوله اليها أمر عساكره مباشرة بالهجوم عليها وكان العرب محافظين على أسوار المدينة بشجاعة قوية وكانوا مستبشرين بوجود الارملة غالية معهم وهى المقدمة عليهم فصدوا طوسون وعساكره بأسهل طريقة وفى اليوم الثانى شرع طوسون وعساكره فى القهقرة والرجوع فساق العرب خلفهم من كل جهة وأوقعوا بهم وصاروا يتخطفونهم أينما ساروا فانجبروا على ترك حلتهم وعفشهم وخيامهم وسلاحهم وذخائرهم وفى أثناء رجعتهم قتل منهم نحو من ٧٠٠ نفس ومات كثير منهم من الجوع والعطش وفى الحقيقة كان يلزم موت العساكر جميعها وابادتهم لولا أن الشهير توماس كيث مع شرذمة من الخيالة استردوا مدفعا وصوبوه على العدو وصاروا يطلقون نار المدفع على العربان حتى حفظوا خط رجعة الفارين ومروا من الدرب قبل أن يسرع العدو فى التقدم ويقطع عليهم خط الرجعة ومن بعدما لاقى طوسون أشد المصاعب وأكبر الاهوال دخل الطائف بمن بقى معه من عساكره وتعطلت جميع الاجراآت الحربية مدة ثمانية عشر شهرا ولما رأى محمد على باشا ان كل غزوة تحصل فى داخل بلاد العرب تجىء بالخيبة وعدم الظفر ماعدا غزوة المدينة شرع فى استعداد وتجهيز قوة بحرية مؤلفة من ١٥٠٠ مقاتل وشحن مراكب كثيرة بالذخائر والمؤن تحت قيادة حسين أغا وزعيم أغلى وخرجت هذه الحملة من جدة قاصدة الغارة على قنفدة وكانت قنفدة تحت حوزة الشيخ طامى من مدة خمس سنوات وكان طامى هذا شيخ عرب عسير من بعد موت أبو نقطة وكان لا يوجد فى المدينة مجارى مياه طبيعية للمشروب واحتياج أهلها وكان بها قليل من المحافظين فتغلب عليها المصريون فى شهر مارث سنة ١٨١٤ بعد مدافعة شديدة ومقاومة عنيدة وقتل نفوس وسفك دماء وكانت استحكاماتها وبسطيونها مصنوعة من الطين والطوب التى فكانت استحكاماتها مرنة وقت ضرب المقذوفات ودخولها فيها ولم يحصل بها التخريب من ضرب مقذوفات المدافع البرية والبحرية ومن ثم حصل الهجوم ومازال ضرب النار جاريا وتقدم عساكر الهجوم ساريا حتى تقارب الحزبان من بعضهما وصار الحرب يدا بيد وصار منظر الواقعة وهيئتها من أهول الاشياء

وأبشعها وما كانت السيوف والسكاكين تشتغل فقط بل أسنان المتحاربين وأظافرهم في حالة غضبهم الشديد وحنقهم العتيد فقتل في هذه المعركة كثير من المحصورين وقطعوا قطعا ولم يفضل على قيد الحياة أحد من الذين دخلوا في الحرب من أهل البلد ولما يئس الوحش زعيم أغا مما هم عليه من العناد في مدافعتهم عن المدينة أعلن بمكافأة مائتي غرش لكل من يأتيه برأس واحد من العربان أو يأتيه بأذنيه وبما ان عساكر الارنؤد على غاية من الطمع انتشروا في كل فج لاجل أن يجنوا حصاد هذه الرزية الدموية وصاروا يجرون ضحاياهم من مكامنهم وأجحارهم ويقطعون رؤسهم وآذانهم والبعض منهم رضي بنجاة نفسه بتشويه وجهه وقطع آذانه ولما تغلب المصريون على هذا المحل صدر لهم أمر من محمد على باشا بالبقاء فيه وجعله نقطة عسكرية وموقع حرب وكان تغلبهم على هذه المدينة قصير المدة وذلك أنه في شهر مايو صار الهجوم عليهم بجيش مؤلف من ٨٠٠٠ أو ١٠٠٠٠ مقاتل من الوهابية تحت قيادة الشيخ طامي نفسه وانتشر الرعب والخوف في قلوب المصريين الارنؤد وقتل الوهابيون كل من وجدوه من المصريين فوقع فيهم الارتباك وهرب زعيم أوغلي القائد ومعظم عساكره الى المراكب التي كانت راسية في مينة قنفدة ودخل الوهابيون المدينة وقتلوا كل من وجدوه فيها بالسيف وساقوا خلف الفارين حتى عاموا خلفهم في مياه البحر وقتلوا منهم مقتلة عظيمة في الماء تحت نيران المراكب

وكانت هذه مصيبة أخرى أعظم الا أن محمد على باشا لم يهتم بها ولم يحصل له منها ولا من غيرها أدنى خور ولا ضعف قوة ولا دمار فجعل رأس معسكره في الطائف وعين زعيم أوغلي حاكم جدة وأما طوسون فانه من بعد هزيمته في تربة ورجوعه منها واستحق سخط أبيه وغضبه عليه عسكر في مكة ولحد هذا الوقت لم تبلغ الاجراآت الحربية المصرية الى شيء تماما يختص بهذه المحاربات والارتباكات المتسلطنة وما وقع من الموت والقتل في الحرب والاسر الحاصل من الوهابيين أوقع الرعب والخوف في قلوب عساكر محمد على باشا وكذا تأخير صرف مرتبات العساكر شهرين أو ثلاثة وقلة وجود المؤن الا دون الطفيف حتى ارتفعت أسعارها وغلت أثمانها وصار لا قدرة للعسكري على مشترى رغيف وبصلة وكان هذا طعامه وغذاءه فقط كل هذا نشر النفور والغضب في وجوه العساكر والخوف والرعب في قلوبهم حتى صار لا يوجد في المصريين أحد الا نفس محمد على باشا هو الذي لم يقطع اليأس ولا الخيبة من النجاح والظفر وبالنسبة لما آتاه الله من الصبر ومساعدته بالنقود من ابتداء استقراره بالطائف اجتهد في فتح علاقات ومعاملات ودية مع العرب فكان ذلك أصل نصره ونجاحه ومن كثرة توزيعه النقود على العرب المجاورين له والبعيدين عنه جذب قلوب معظم العشائر الوهابية فانها اذا لم تكن معه لا تكون عليه وصاروا في حالة الحيادة وأثبت سياسته وادارته مع أهل الحجاز بكونه أبطل عوائد وضرائب كانت باهظة على بعض مواد تجارية وخفف البعض الآخر وبالاخص أصناف البن ومنح هدايا وافرة للمدائن المقدسة وأفاض على الكعبة ما أوجب شكر وثناء أهل الحجاز عليه

وفي أثناء هذه الاشكالات المهولة حصلت مصيبة كبرى عند الوهابيين وهو موت سعود بواسطة حمى تيفوسية أصابته في نواحي الدرعية في ابريل سنة ١٨١٤ وعمره ثمان وستون سنة وبموته فقد الوهابيون قائدا لا يكل ولا يتعب مستحوذا على جميع طرق الحزم والتدبير اللازمة لارتفاع منصبه وشماخة قدره وكان النصر على الدوام بين عينيه وتحت يديه ورجليه وكان دائما في رأس جيشه وبموته

نزلت المصائب والاهوال على قومه وقالوا ان آخر ألفاظه التى تكلم بها وصى ابنه الا كبر وخليفته من بعده يا عبدالله لاتدخل فى حرب مع الترك فى ميدان مكشوف أبدا والتزم أنت وعساكرك فى حربهم المواقع الصعبة حتى لا يتيسر لهم النصر عليك وخذ لنفسك الحذر ولا رادمن القضاء والقدر وهذه ألفاظ سياسية ادارية حقيقية لو صار السير عليها ما أمكن المصريين التغلب على الحجاز وكان يتسلطن فى أبدانهم الهزاز

وكان عبدالله تربى فى الجيش من صغره وقالوا انه لما بلغ عمره خمس سنوات كان يرمح فرسه وكان مشهورا فى الشجاعة زيادة عن أبيه وكان يحارب وينازل فى كل جهة بنفسه وهذه كانت قاعدة أصلية عنده وكانت صفاته العقلية من أول طبقة وفى مدة ما كان سعود محتل التخت الوهابى كان عبدالله محتل الموقع الثانى من ممالكه وما كان يرخص لاى واحد من اخوانه التداخل فى سلطة الاعمال العمومية ومع ما كان عليه من علو الشهرة فى الشجاعة والاقدام فى الحروب ما كان له دراية تامة بكيفية تدبير العشائر والقبائل تحت ادارته مثل أسلافه حتى أخذت قوته العمومية فى الضعف مما حصل من شقاق مشايخ وكبار العربان ولما شرع فى أخذ الوسائل اللازمة لقمع محمد على باشا وصده ظهر فيه استعداد لاستحواذ التدابير والادراكات والذكاء التى كان أبوه مستحوذا عليها

ومن هذا الوقت ابتدأ فلاح محمد على باشا فى الظهور وأضاء البلاح وأخذت عساكر عرضيه فى الزيادة حتى بلغ مقدار العرضى ٢٠٠٠٠ نفس وزيادة وكان جميع هذا العرضى تحت قيادته موزعا فى الجهات بهذه الطريقة ٣٥٠ نفس فى مكة تحت قيادة ابراهيم أغا والشريف يحيى ومن ٣٠٠ الى ٤٠٠ فى المدينة تحت امرة زيدان أفندى و ٣٠٠ محافظون فى ينبع وجدة والباقى بعضه تحت قيادة محمد على باشا نفسه وبعضه مع حسن باشا وأخيه عابدين بك مشكلين القره قولات الامامية للجيش من الجهة الجنوبية للطائف و ٤٠٠ عسكرى من البدو وكانوا تحت امرة الشريف راغب أحد أقارب الشريف غالب وكان أشهر قواد الوهابية فى الحجاز الا أنه انحاز الى محمد على باشا

والآن صار يوجد سبب واحد فقط متوقف عليه اجراء الحركات التعرضية فى الوقت وذلك أنه مات جمال كثير من المصريين فى أثناء هذه الحروب ومات كثير منها فى الطريق الكائن بين جدة ومكة حتى صارت هذه الطريق منتنة من كثرة الروائح الكريهة الخارجة من رمم الجمال فالتزم أهل تلك النواحى بحرقها بعد جمعها لانه تسبب عن روائحها الكريهة طاعون انتشر فى تلك الناحية وصار تقدير ما مات من الجمال التى كانت تابعة للجيش المصرى فكان عددها ٣٠٠٠٠ جمل وزيادة وذلك فى ظرف الثلاث سنوات التى كان الحرب منتشبا فيها وفى شهر نوفمبر جلبت قوافل الحجاج السورية أو الشامية مقدارا قدره ٦٠٠٠ أو ٨٠٠٠ من الجمال الشامية فكانت هذه مقبولة فى الحركات العسكرية زيادة عن الجمال المصرية

وبينما كان محمد على باشا آخذا فى استعداداته وتجهيزاته كان الوهابيون يوجهون غاراتهم فى غالب الاوقات نحو الطائف على القبائل والعشائر الذين دخلوا مع محمد على باشا واعتنقوا أمره ولاجل قطعهم طريق المواصلة بين جدة ومكة هجموا على المعسكر الموجود فى بحره ونهبوا حلته ومهماته وأسروا قافلة صغيرة وذبحوا كل من وجد ومن السكان ومن ثم كسروا أنفة المصريين بهزيمة

أخرى أوقعوها على عساكرهم وذلك أن عابدين بك مع عساكر الارنؤد كانوا محتلين في جهة من اقليم تهامة فخرب عابدين بك البلاد وجعلها قاعا صفصفا على مسافة ٤٠ ميلا من كل جهة حتى يتيسر له بواسطة هذه الصحراء الصناعية منع الغارات الفجائية التي ربما تحصل من العدو ومع ما فعل عابدين بك من هذه الاحترازات الوحشية فان الشيخ بكروج في رأس عربانه وفرقة قوية من عرب الشيخ طامى هجموا بغتة على المعسكر المصرى في نواحى بعروش في الفجر الاخير وسقطوا على العساكر النائمة وذبحوا منهم ٨٠٠ نفس من المشاة و ٨٠ من الفرسان الخيالة وساق بكروج خلف الفارين يومين فما كان ينجو من القتل واحد منهم لولا أن تدارك حسين بك مع عسكر الخيالة حفظ خط رجعتهم وكان بمجرد وقوع أى عسكر من العساكر المصرية في أيدى بكروج مدة سوقه خلفهم كان يعامله بأشنع المعاملات الوحشية بكونه يقطع ذراعيه ورجليه ويلقيه حتى يهلك في الصحراء بهذه الحالة الغبراء وفي أثناء ذلك ورد من القاهرة امداد من عربان برقة مقدارهم ٨٠٠ خيال وعسكر وافى الطائف ورأى محمد على باشا من حالة ما عنده من الذخائر وكثرة المؤن وكثرة ما عنده من العساكر انه لا ريب من قرب نجاحه وظفره وفلاحه في مدة قريبة فعزم على أن يجعل نفسه في رأس عسكره ويتقلد زمام جيشه بنفسه ولا يثق بانسان ويتوكل على الله حق التكلان وأن يوجه غزوته وحملته على تربة لينتقم من أهلها نظير ما أوقعوه من الخسائر والاتلافات في الواقعة التي كان توجه طوسون اليها فيها ثم رتب بطريتين من المدافع عبارة عن اثنى عشر مدفعا بريا من أجود المدافع و ٥٠٠ من عساكر البلطجية لاجل قطع أصول النخيل المخيم على مدينة تربة وجماعة من اللغمجية لاجل عمل الالغام اللازمة لهدم المدينة وشجع العساكر وقوى قلوبهم وقال لهم ما هذه تربة فانها لا تمكث مدة حتى تملكونها وتغنمون ما فيها وحسن لهم ذلك بكونه جلب حملا من اب البطيخ من وادى فاطمة ومر به من وسط صفوف العساكر وقال لهم انى عازم على زراعة هذا في البقعة التي لم تزل لحد الآن مشغولة بالوهابيين وفي غضون ذلك ما كان الوهابيون على وجل من استعدادات محمد على باشا ولا من طنطنته الظاهرة واعتمد بكروج على حصانة موقعه وكتب خطابا الى محمد على باشا ينصحه فيه بالعود الى مصر أو يستعد للمحاربة معه بعساكر موافقة جيدة اذا أراد الحرب

وفي يناير سنة ١٨١٥ ترك محمد على باشا مكة بجميع قواه وجماله وحملته التي أمكنه جمعها وسار نحو قولعطش وكان فيها حسن باشا واحمد بونابارتو وطبوزاوغلى والشريف راغب ورؤساء آخرون واجتمعوا جميعا فيها وأخذوا معهم مؤنات وذخائر لمدة خمسين أوستين يوما وبينما هم مجموعون في هذا الموقع اذ وردت عليهم الاخبار بان العدو ضبط موقع بيصل ومعه موقع حصين على خط رجعتهم وبواسطته يمكن العدو قطع خط المواصلة بين قولعطش والطائف وبيصل هذا القطعة مستوية من الارض محاطة بسور من جبال وتلال طبيعية سالك منها عدة دروب ضيقة جدا وعلى رؤس هذه الجبال والتلال عسكر الوهابيين وحشدوا فيها أحمالهم وذخائرهم وكان مجموع قوتهم ٢٥٠٠٠ مقاتل من المشاة و ٥٠٠٠ جمل وقليل من الخيالة مجردين من المدافع وكان من ضمن القواد المعدودة في هذا الجيش فيصل أخو عبد الله الوهابى والفارسة المقدامة غالية والشيخ طامى مع جميع رؤساء جبال اليمن وبعض من رؤساء القبائل والعشائر القاطنة في أقصى الجهات الشرقية من حضرموت ولما رأى محمد على باشا هذه الحالة أمر عساكر الخيالة بالهجوم على الوهابيين فصدهم الوهابيون

ويرجعوا

بجو مع تغيبت عساكره متفرقين في الجبال لا يخرجون منها وصار يضربون ينصبون موقعه
معون فيها مدافع ويضربون بها عليهم ويضعون الهجوم في عمل وحركة من غير نمن
بقي في تلك الخلية نتيجة الوهابية تركوا محلاتهم في الجبال وهربوا ومكثوا عوبوت محمد علي
نهزمة حيث جيعه فحصل من ذلك الاضطراب والتقهقر باشا ومن رأى محمد علي باشا انه
بتركه تيسر حصول الظفر والنجاح على الوهابيين ما داموا محتلين الجبال ورؤس الاتلال جعلهم في
خروجهم من هذه الجبال الى الميدان المكشوف في الصحراء وارسل لاجل الامداد من نوح
تونطش وفي صباح اليوم الثاني جدد حركة الهجوم ونبه على ضباط القولات الاجنبية بمبرة
تركهم مواقع العدو يضربون أولئك بعض الاتلال ثم يرجعون متقهقرين مع عدم نظام وبهذه الخدعة تم
مقصوده ثم ان العرب لما رأوا عدوهم أخذ في التقهقر والهزيمة بعد ضرب النار وشرع في الهرب
تخيل لهم أن الهزيمة والفشل وقع في العساكر ووجدوا لانفسهم وقتا سعيدا يبطشون فيه بهم فخرجوا
من جبالهم كالجراد المنتشر من دون تبصر ولا ادراك وساروا خلف عدوهم ولما تقدموا مسافة كافية
من ملاجئهم القوية ادار محمد علي باشا سواريه خلفهم ووجه حذاء آت القولات عليهم ومن بعد محاربة
شديدة استمرت نحو خمس ساعات اكتسب محمد علي باشا الظفر المبين والنصر المبين

وحارب محمد علي باشا في هذه الواقعة بنفسه في الوقت الذي أمر خيالته بالتف والدوران خلف العدو
ومنعهم من وصولهم الى مواقعهم المأخذ في الجبال ولاجل محافظته على استمرار النصر في هذه الواقعة
نزل من فوق حصانه وطلب سجادته وفرشها على قطعة مستوية من الارض وجلس عليها بحيث يرى
جميع صفوف وحدات عساكره وطلب شبق الدخان وقال ها أنا قاعد هنا ولا أتحرك اما قاتل أو مقتول
وأمر بمكافأة مقدارها مائة غرش لكل عسكري من عسكره يأتيه برأس واحد من الاعداء ففي ظرف بضع
ساعات كوموا أمامه علامة نصر قبيحة المنظر مشكلة من ٥٠٠٠ رأس وهجم عساكر المشاة المصرية
على مواقع الوهابيين في الجبال ودار من خلفهم الشريف راغب بعساكره وسقط عليهم مثل جزار ماهر
وألزمهم الهرب وأوقع بهم الكرب وأهلك في الضيق الذي اجتمعوا في القهقرة منه وخضع منهم
في هذا المضيق ١٥٠٠ نفس فجزروهم وقطعوهم قطعا وكانت حالة القتل والذبح مدهشة مهولة
حتى ان ميدان الواقعة صار ملآنا بأجسام وجثث بغير رؤس وأمر الباشا أن يأسروا منهم ٣٠٠ نفس
ويبقوهم على قيد الحياة وأمر عساكره بان يعطوهم الامان ولا يكدروا على أحد منهم وعفا عن البعض
القليل من العرب وكان باقيا شرذمة قليلة من الوهابية على مرتفعات الجبال في خفارة الاحمال والذخائر
الموجودة فدافع هؤلاء عن موقعهم أشد المدافعة وحفظوه لانه صار الهجوم عليهم أخيرا بالقوة
والاقتدار وقتلوهم عن آخرهم وهرب الشيخ طامي مع قليل من أتباعه وكذا هرب كل من فيصل وغالية
وتكدر محمد علي باشا كثيرا من هرب طامي من يده لانه كان في اشتياق زائد لارساله الى
القسطنطينية علامة وشهرة على نصره وظفره ولم تنتهي أيضا لا ينبغي ترك الصحاري العربية ولا
عربانها ولا تثق بأحد من الاتراك ولو انتموا اليها مهما اتسعوا واغتنم محمد علي باشا معسكر الوهابية
بما فيه من الذخائر والمؤن والنساء والجمال وأنعم محمد علي باشا على الشريف راغب بخيمة فيصل وما كان
فيها من الفرش والامتعة ووجد فيها مبلغ ٤٣٧ جنيها وكانت خسارة محمد علي باشا في هذه الواقعة من
٤٠٠ الى ٥٠٠ نفس وذلك مما أجراه من المهارة والتدبير في هذه الحركة العسكرية المهولة وفي

الحال سارت الركبان باخبار هذه النصرة الجليلة الى القسطنطينية والقاهرة وزمزم محمد على نصرته ونفر حركته باشنع الاعمال وذلك أنه أمر بصلب الثلثمائة نفس الذين كان أعطاهم الامان فى جهات من مكة فأمر بصلب ١٥ منهم أمام أبواب مكة و ١٢ على قارعة طريق جدة والباقى تحت أسوار مكة وأمر بعدم نزول أجسادهم حتى تنهشها الطيور وتأكلها الصقور

ومن بعد مضى أربعة أيام من الواقعة سار محمد على باشا الى تربة وكان فيصل فيها ولما قرب منها هرب فيصل وتركها ودخلها محمد على باشا بعساكره وكان لا يوجد بها الا العاجزون من الرجال والنساء والاطفال فسلموه المدينة وتوسلوا اليه فى البقاء عليهم ورعايته اليهم ومن ذلك تولد الارتباك والخوف فى المملكة وصار الجيش المصرى لا يلقى الا مقاومات ضعيفة جدا من الوهابيين ولما رأى محمد على باشا أن القوة الكبرى للعدو موجودة فى الجهة الجنوبية عزم على اختراق البلاد وقطع الصحارى وابادة هذه الطائفة على قدر امكانه

وكان كثير من الرؤساء والفارين الذين نجوا من واقعة بيصل اجتمعوا وعسكروا فى نواحى بيشى وهى بلاد خصبة موجودة فى الجهة الشرقية من جبال اليمن وتجمعوا فيها على عدد عظيم منهم وعزموا عزما ثابتا على الاستمرار فى المقاومة الى آخر نفس أو رمق فيهم وحصنوا أنفسهم ومواقعهم بخطوط استحكامات ومتاريس وفتحوا فيها مزاغل وكرانك لاجل ضرب نيران البنادق منها وأقاموا فى أخصاص وعشش صنعوها من القش والبوص وجريد النخيل فوصل اليهم محمد على باشا بعسكره وحاصرهم وشرع فى ضرب النار عليهم مدة يومين بدون طائل الا أنه اتفق أنه من كثرة ضرب النار وفرقعة الدانات شبت النيران فى أحد الاخصاص ومنه سرت الى الاخصاص والعشش الاخر والتهبت جميعها فتولد من كثرة الدخان وسقوط النيران ضرر كبير للمحصورين والتزموا الفرار فساق خلفهم الخيالة المصرية وكان من ضمن الذين هربوا ونجوا بأنفسهم الفارسة المقدامة غالية المشهورة ولما لم تجد لنفسها مأوى تأوى اليه فى الصحراء ولا مسندا تستند عليه سارت مع أتباعها حتى وصلت الدرعية وأقامت بها وتغلب المصريون على قلعة رانية وعلى قلاع أخرى بالقرب منها

ومع هذا كله فانه مازال موجودا فى ميدان الحروب أمام محمد على باشا أشد الاعداء وهو الشيخ طامى وكان هذا الشيخ عزم على الاجتهاد فى وقوع واقعة ثانية وجمع لها جيشا كثيفا وراء الجبال الوعرة من أرض عسير وهى على مسافة ١٢ أو ١٤ يوم فى الجهة الغربية من بيصل فعزم محمد على واجتهد فى سيره الى هذه الجهة لكنه عند شروعه فى السير تضرر عساكره من كثرة ما تحملوه من التعب وكان يموت منهم يوميا نحو من مائة حصان وما بقى من العشرة الآف جمل التى كانت معهم سوى ٣٠٠ جمل فقط عليها مدار الحملة فخض محمد على باشا عساكره وحرضهم ونشط قلوبهم ووعدهم الغنائم العظيمة والمبالغ الجسيمة التى يغتنمونها من بلاد اليمن وشرع فى السير معهم وأما الشيخ طامى فانه جمع ٨٠٠٠ أو ١٠٠٠٠ مقاتل فى قلعة جبلية تسمى بالطور وكانت هذه القلعة على ما روى حصينة حتى لا يمكن التغلب عليها ولا الوصول اليها فلما وصل اليها محمد على بعساكره سلط عليها نيران الطوبجية مدة ثلاثة أيام فازعج الوهابيين الموجودين بها وألزمهم التسليم وكانت هذه الواقعة أشد من الواقعة التى حصلت فى بيصل فاستلم محمد على باشا القلعة وما وجده فيها من المؤن الكثيرة والمأكولات الوفيرة سد جوعة عساكره وهرب طامى الا انه كان آخر من بقى فى الميدان والتجأ الى منزل أحد أصدقائه فغشه هذا

الصديق

الصديق وسلسله فى القيود والاغلال وسلمه للشريف راغب وكان يجول فى الجبال مع عربه يفتش على الفارين وانهزم أيضا فى هذا الوقت بكروج فى نواحى الظهران وصار غريقا فى وسط النيران فأخذ أسيرا وصار ارسال هذين الشريفين الى محمد على فأذاقهما وبال كاس الموت على ما حصل منهما من الخيانة لسلطانهما فاما بكروج فان محمد على قتله شر قتلة ومثل به أقبح مثلة وصاروا يقطعون جسمه قطعة بعد قطعة وهو لا يتكلم بلفظ ولا يتفوه بكلمة حتى خرجت روحه وقطعت رأسه من الباقى من جسمه وأما الشيخ طامى فانه صار ارساله الى القاهرة وطافوا به فى شوارعها راكبا على جمل معلقا فى كتفه شبكة فيها رأس بكروج ثم بعث به من القاهرة الى القسطنطينية وفيها قطعوا رأسه بمجرد وصوله اليها

ومن بعد أن تغلب محمد على باشا على جميع رؤساء الوهابيين الموجودين فى الجهات الجنوبية رغب أن يغرق فى ثروات بلاد اليمن وأموالها وكنوزها فمن ثم فتح مخابرة مع امام صنعاء الا أن العساكر تألموا من شدة ما لاقوا من التعب والكدر ورأوا أن المسئلة تم أمرها وانقضى نحسها وأظهروا رغبتهم فى العود الى مكة فوطد خاطرهم وبدل أن يسير الى الجهة الجنوبية سار الى قنفدة وتسلمها بعد مقاومة خفيفة من أهلها ثم منها سار الى مكة بما بقى معه من جيشه وهو ١٥٠٠ نفس مجردين من النقود والملابس وهؤلاء بقية جيش كان مؤلفا من ٤٠٠٠ مقاتل ثم زار فى شهر ابريل المدينة وكان طوسون حاكما فيها وذلك لاجل تفقد أحوال الجهات الشمالية من الحجاز والاهتداء الى ما يلزم من الاجراآت اللازمة لتوطيدها فى المستقبل الا أن الاحوال التى فى مصر اقتضت عوده اليها وذلك أن قبطان باشى السلطان كان هجم على الاسكندرية وكذا حصلت ثورة من العساكر الالبانية فى القاهرة بعدم رغبتهم فى الدخول فى التعليمات العسكرية والتدريبات الحربية الجارية على حسب النمط العسكرى الاوروباوى ولما وصل محمد على باشا عاصمته فى شهر يوليه سنة ١٨١٥ بعد أن غاب عنها سنتين وجد كل شئ فى حالة من الارتباك والقلقلة

وفى هذه الحالة ترك محمد على باشا الباقى من حرب بلاد العرب فى أيدى طوسون وبينما كان أبوه مجريا الحركات الحربية فى اخضاع القبائل والعشائر الجنوبية كان طوسون مجريا أيضا أعماله الحربية فى الجهات الشمالية ضد عبد الله بن سعود ولما صارت أخبار محمد على باشا معروفة عند قبائل العرب الموجودين فى حدود نجد هرع مشايخها الى المدينة وقدموا أنفسهم خاضعين الى طوسون وانضموا معه على الوهابيين وارتجت شوكة الوهابيين فى هذا الوقت وتبدلت حالها فى كثير من الجهات فمن ثم تعشم طوسون بأنه صار له قدرة على التغلب على اقليم نجد كى يقارن شهرته بشهرة أبيه فجمع حملة صغيرة قدرها ٢٥٠٠ نفس ومن بعد أن سار مدة ١٠ أو ١٢ يوم وصل الى مدينة رأس وهى مدينة كبيرة محصنة بسور واستحكامات وهى من أعمال قاسم فتسلم هذه المدينة مع عدة قرى أخرى الا أنه وجد نفسه فى موقع مهدد غير ثابت وظهر له أن ما أجراه من حركته هذه كان على غير رأى وتدبير لان العساكر الخفيفة الحركة للوهابى أحاطوا به من كل جهة وجعلوا له ولعسكره فرصتين أو ثلاثة يأخذون منها احتياجاتهم اليومية وضبط الوهابى السكة الموصلة للمدينة فمن ثم أسرع الغيور الفارس توماس كيث وهو ابراهيم أغا فى رأس ٢٥٠ خيال وسار لمساعدة سيده فاحاطت به قوة كبيرة من الوهابيين فقتلوهم وقطعوهم قطعا ولم ينج منهم أحد ولا من يعطى خبرا أو يقص أثرا

وفى غضون ذلك لم يهمل عبد الله فيما يجب عليه بل سار بجيشه ودخل فى اقليم قاسم وجعل

مقر معسكره فى شنعانة على مسافة خمس ساعات من موقع خبرة المعسكر فيه طوسون بعسكره وفى أثناء هذه المشكلة المهولة عزم الخاطر بنفسه طوسون على أن يتم حركته وبينهما من غير تردد بوقوع واقعة مهما كانت فلم تقبل الضباط ولا العساكر هذا العزم وقالوا له ان من الحزم والتدبير للناس الذين فى موقع مثلنا التبصر فى الامور فذلك خير من الحرب وزيادة على ذلك فان محمد على باشا كتب الى عبد الله بن سعود قبل تركه أرض الحجاز يحضه على الانقياد والطاعة ويقدم شروط صلح فى عقد يعمله معك (طوسون) على حسب الموافقة بين الطرفين فخابره فى ذلك وتبصر بما فيه الصواب والسلامة

وكذا رأى عبد الله من طرفه أن من الحزم تمام الاعمال الى ما فيه الاصلاح وعدم سفك الدماء ورأى أن هلاك ودمار قوة طوسون القليلة لم يعد منهما عليه فائدة وان محمد على باشار بما يعود عليه بما عنده من الايرادات الكثيرة فى مصر ومن ذا يحصل الضرر الاكبر وعرف أيضا طرائق الغش والرشوة الجارية بمعرفة محمد على باشا حتى انه استحوذ على كثير من أصحابه وأتباعه الذين كانوا معه على جامعة واحدة وصاروا موجودين فى قلب عساكر أعدائه

ومن ثم حصلت المخابرات وعقدت محالفة بين طوسون وعبد الله بن سعود تنازل فيها عبد الله عن كل ما يدعيه بخصوص المدائن المقدسة وجعل نفسه من أذل رعايا السلطان ونال حرية مرور جميع الوهابيين من أى طريق يمرون فيها عند ما يرغبون الحج الى بيت الله الحرام وأعاد طوسون جميع المدائن التى تغلب عليها من أعمال قاسم الى عبد الله وطرد من معسكره جميع مشايخ عرب هذه الجهات الذين كانوا دخلوا تحت رايته وكان اليوم الذى صار التوقيع فيه على المعاهدة يوم عيد ومسرات واحتفالات وزيارات عند الجيشين وكانت مواد المعاهدة التى كتبها رئيس قبائل الصحارى العربية فى خضوعه وطاعته للباب العالى العثمانى هى

الى طوسون أنا واقع على أعتاب أبواب رحمتكم يا استاذى وأطلب من الله ومن سموكم أن تقبلنى فى عداد الرعايا الصادقين الخاضعين للسلطان ومن الآن فصاعدا نكون جميعنا منقادين لاوامره خاضعين لسلطنته داعين لجلالة شخصه كل يوم جمعة على منابر مساجدنا وفوق رؤس شواشى جبالنا وانه لا يحصل من جهتنا عصيان ولا ثوران ولما صارت قراءة هذه المواد على الوهابيين أجابوا جميعا بصوت ملء الخلاء والفضاء وصرخوا انما نحن طائعون خاضعون ثم زعق جميع عساكر الجيشين يعيش سلطاننا الاعظم وجيوشه المنصورة وأهدى طوسون الى عبد الله اشارة الى طاعته برنسا وسيفا وعدة خيول محلاة بسروجها وقال وقت تقديمه السيف له خذ هذا محبة فى صداقتك وهو الحامى لك والمدافع عنك مادمت صادقا فى مواعيدك وقولك وان خالفت أوامر مولانا السلطان كان هذا السيف خرابك ودمارك وبعد هذا زعق الجيش بصوت واحد اللهم انصر سلطاننا الاعظم ووعد عبد الله مرة ثانية بالدعاء والخطبة للسلطان فى جوامع بلاد الوهابية

ولما انتهت هذه الاعمال والتام ارتباك الاحوال واستتب الامن والراحة ترك طوسون بلاد العرب فى مبادى نوفمبر وتوجه الى مصر وقوبل فى القاهرة بأجل الاحترامات بالنسبة لدرجته وشجاعته وضربت المدافع ودقت الطبول والبشائر وازدحمت الطرق والشوارع لملاقاة مخلص المدائن المقدسة وأما أبوه فانه قابله بغاية الصقاعة والبرود ومن ثم كانت مدة أجله قصيرة فعينه قائد فرقة من العساكر كانت معسكرة فى رشيد لاجل حماية السواحل ومات فى السنة التالية فى طاعون سنة ١٨١٦ وترك من

بعد مولدا اسمه عباس تولى الاريكة المصرية كما سيأتى الكلام عليه فيما بعد

ومن المعلوم أن محمد على باشا ما كان مصادقا على ما أجراه ابنه طوسون من عقد مثل هذا الصلح ومن ثم وجدله علة وحجة فى تجديد الحروب ووقوع الكروب فى البلاد العربية والعشائر الوهابية وكتب الى عبد الله بن سعود مكاتيب كانت على غاية من الاشكال والاختلاف فى الاحوال والاعمال وذلك أنه كتب يطلب منه استرجاع جميع الكنوز والذخائر والجوهرات التى كان اغتصبها وسلبها أبوه من قبر النبى صلى الله عليه وسلم وطلب منه أن تكون الدرعية تحت مباشرة حاكم المدينة ورفض تأييد المعاهدة وعدم قبولها والاقرار عليها مالم تتنازل الوهابيون له عن اقليم الحسا فظهر لعبد الله من هذا أن طوسون البرنس الشاب اما ان يكون غشه فى هذه المعاهدة أو ان أباه بالنسبة لطلباته هذه الخارقة للعادة مقصده اذلاله جديد يجرى فيه كل ما يفعله ويريده فمن ثم طلب عقد مجلس من أقاربه ومن رؤساء قواده وحكامه استقر رأيهم فيه بالاجماع على أنه لم يكن عندهم شئ سوى السلاح اذا رغبوا المحافظة على دينهم واستقلال بلادهم وشرعوا فى الاستعدادات الحربية من كل جهة وخزنوا الذخائر والمؤن فى القلاع والقرى والمدن والتزم مشايخ العربان وكبار العسكر على تجديد قسمهم وعهودهم وخطب الائمة خطب الجهاد وحضوا على الحرب ومقاومة الاضداد ولعنوا الترك فيما هم عليه من الغش والخديعة وجمعوا ثلاثين ألفا من العساكر وتعين حكامهم من أهل الحزم والتدبير المتدربين فى الحروب والوقائع وباع الاغنياء أملاكهم وما تحت أيديهم وصرفوها فى المشتروات اللازمة للجيوش وأجروا كل ذلك محبة فى وطنهم مع غاية الحمية والحماس وقالوا ان الله ينصرنا لاننا مقرون له بالوحدانية ويعزنا على الذين يشركون معه آلهة أخرى وكشف عبد الله أقاليم مملكته بنفسه وجاء اليه الامداد والعساكر من البحرين والحسا وانضم اليه بعض قبائل من عمان وأرسل له عرب اليمن ٢٠٠٠ مقاتل مساعدة له على عدوه

وأما محمد على باشا فانه أخذ فى الاستعدادات الحربية ولما خمدت الاحوال فى مصر من المماليك أمر بترتيب حملة قوية لارض الحجاز وعهد قيادتها الى ابنه ابراهيم باشا وكان برنسا على غاية من الشجاعة والاقدام وأظهر علو مجده وسيادته فى حربه مع المماليك واستمر محمد على مشغولا بنقل الذخائر والمؤن والمهمات مدة ستة أشهر كاملات وفى سبتمبر سنة ١٨١٦ ترك القائد ابراهيم مدينة القاهرة مع ٢٠٠٠ من المشاة راكبا النيل على قنا على القصير حتى نزل فى ينبع وأرسل محمد على باشا من خيالة عربان برقة ١٥٠٠ خيال من طريق البر الى ينبع وكان فى حاشية ابراهيم باشا بعض من الضباط الفرنساوية والفارس المشهور الشريف راغب العربى وكان أرسل فى السابق الى القاهرة مغلولا فى الحديد والقيود فاستبقى محمد على باشا حياته مؤملا حصول النفع منه فى أثناء الغزوة فى بلاد العرب وكان من الاوامر التى مع ابراهيم باشا من أبيه اجراء الهجوم على الدرعية من طريق المدينة وقاسم فوصل ابراهيم باشا مدينة النبى عليه الصلاة والسلام من بعد نزوله فى ينبع بعشرة أيام ودخل الحجرة النبوية ونذر على نفسه أمام قبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لا يغمد سيفه ولا يشرب خمرا ولا ما حرم الله من المشروبات حتى يمحق أعداء دينه بالكلية ويصب عليهم كل داهية وبلية ومازال مجدا فى سيره من طريق طوسون حتى عسكر فى ناحية اسمها حناقية وصرف فيها عدة أسابيع فى مناوشات ونهب وسلب وانضم اليه بعض من رؤساء العربان ومشايخ القبائل والبلدان ومن ضمنهم غانم شيخ الحرابى

وجلب معه ٥٠٠ نفس من قبيلته وما أمكنه أن يفعل شيأ فى هذا الوقت زيادة عن التقوية والمحافظة لان عساكره قاستسن شدة ما حصل فيهم من الوباء الذى انتشر فيهم وسقوط العربان عليهم ليلا لان هؤلاء العربان وجدوا لهم غنيمة فى العرضى المصرى فكانوا يسرقون منه كثيرا بالليل ويقتلون ويقطعون أرجل الخيول والجمال

وأما عبد الله بن سعود فكان معسكرا فى نواحى عنزة وأضمر فى نفسه على رأى جسورى يفعله وذلك أنه سار مباشرة الى المدينة فى ٣٠٠٠٠ مقاتل من رجاله ونزل أخوه فيصل على مكة وجدة وينبع لاجل توقيف وتعطيل العساكر والذخائر الواردة من مصر فتولد من هذا المشروع حصول ثورة وقعت بينه وبين مخالفيه من مشايخ العربان وهزيمة الجيش الذى كان قائدا عليه بنفسه ومقداره ١٠٠٠٠ نفس وكانت مدينة رأس هى أول مدينة استعدت لحصول مقاومة شديدة ومدافعة عنيدة وقت تقدم ابراهيم باشا وكانت على غاية من الحصانة والاستحكام وأجهد أهاليها أنفسهم فى ظهور شجاعتهم وبسالتهم وكان النساء فى وقت المدافعة يساعدون شجعانهم المدافعين وصار ضد المحاصرين فى كل جهة من جهات المدينة ومات من المصريين فى هذه الواقعة ٣٠٠٠ نفس وأخذ الوباء فيهم يوميا فى الزيادة فكان المصريون يظهرون كثيرا من رؤس قتلى الوهابيين لاهل القلعة ومحافظيها ليوقعوا فى قلوبهم الخوف والرعب وعلى أمل خضوعهم وتسليمهم المدينة فما كان يزيدهم هذا الا نفورا وشوقا الى الانتقام من المصريين زورا

ولما رأى ابراهيم باشا نفسه أنه فى موقع صعب والتغلب على هذه المدينة تعب ونصب انجبر على رفع الحصار بعد أن قضى فى الحصار عليها ثلاثة شهور وسبعة عشر يوما وكد نفسه وأتعب نهاره وأمسه ثم جاء على غير طائل ومع هذا فكان ما وقع له فى هذه المرة عين ما وقع لابيه لان طالعه كان مثل طالع أبيه وجاء سعده على حين غفلة فصار يتقدم بسرعة من نصرة الى نصرة حتى غسل من دماء الوهابيين العار الذى اكتسبه جيشه تحت أسوار مدينة رأس وذلك أنه تسلم خبرة بعد أن أطلق عليها نيران المدافع بضع ساعات ومثلها عنزة وهرب محافظوها من دون أن ينتظروا شروط التسليم وبهذه الحالة صارت جميع مدائن وقبائل وعشائر نواحى قاسم خاضعة للمصريين وصار عبد الله بن سعود يتقهقر من موقع الى آخر أمام المحاربين له ورأى أن جميع قلاعه القوية وقعت فى أيديهم واستحوذوا على بريدة وشقرة وضرامة بعد أن حاصروا هذه المدائن على التدريج وخربوها وكانت شقرة مدينة تجارية ظريفة معدودة من ضمن القلاع القوية فى المملكة الوهابية وتولد مما حصل من العناد فى مدينة ضرامة فى المدافعة وعدم التسليم انتقام المصريين منهم والبطش بهم وذلك أنهم قتلوا جميع ناسها وسكانها بالسيف وأصدر ابراهيم باشا أمره للعساكر بحرق منازلهم ومساكنهم وفى ظرف ساعتين انتهى شغل هذه الملحمة التى صار اجراؤها من غير تبصر فى الامور وعواقب المقدور

وفى هذه الحالة صار لا يوجد أمام ابراهيم باشا شئ لاتمام مظفراته سوى الدرعية فسار اليها بقوة مقدارها ٦٠٠٠ نفس ووصل اليها فى ٦ ابريل وأحاط بها من جميع جهاتها وأقام حولها متاريس بالنقات والتحصينات وعمل جميع الاستعدادات اللازمة لحصارها وهذه المدينة هى العاصمة الاصلية لنجد ومقر سلطنة الحكومة الوهابية وواقعة على مسافة ٤٠٠ ميل من جهة شرق المدينة المنورة وفى واد خصب يقال له وادى حنيفة كثير الثمار والحبوب يسقى بنهر صغير اسمه الباطن يجف فى

فصل

فصل الصيف ويجرى فى مدة فصل الامطار على امتداد عظيم وموقع هذا الوادى فى حد ذاته الطبيعية من أحصن المواقع لان الجبال محاطة به من كل جهة و يتوصل اليه من خور ين الغربى منهما ضيق جدا بحيث لا يمكن أن يعبر منه الا جمل جمل وقت السير ويمكن حفظه من هجوم الاعداء باقل عدد من المحافظين وأما المدينة فهى مركبة من خمس قرى صغيرة تسمى بالارباع كل منها محاط بسور محفوظ بسطيونات وضواحى المدينة غير مستحفظة بل مستورة بالبساتين والاشجار المثمرة والمساكن والمنازل مبنية بالخصوص من الاحجار والطوب وسوقها عبارة عن دكاكين مصنوعة من الغاب كى يمكن نقلها مع الخفة والسهولة من جهة الى أخرى وبها ثمانية وعشرون مسجدا للصلاة وثلاثون مكتبا ومدرسة للعلم وقراءة القرآن الشريف الا أنه لا يوجد بها حمامات ولا خانات ولا وكائل لنزول المسافرين وكان تعداد أهاليها المضروب المثل بكرمهم وسخائهم نحو من ١٣٠٠٠ نفس

وقضى ابراهيم باشا خمسة شهور فى حصار هذه المدينة الجليلة وكلا الحزبين على غاية من الشجاعة والبراعة والبسالة والاقدام فى المخاطرات الحربية وعمليات الحصار والمدافعة اليومية وبذل عبد الله ابن سعود مجهوده ومافى طاقته بالقول والفعل والعمل فى تشجيع عساكره وفرق فيهم النقود والمكافأة الجليلة وكان النساء يخترقن صفوف ونيران أعدائهن المحاصرين و يبحثن عن المياه اللازمة لشرب المجروحين وفى غضون هذه المدة تقدم ابراهيم باشا فى حصاره نوعا فاتفق أن النار شبت فى مخازن الذخائر الحربية على حين غفلة فانكسرت قلوب عساكر عرضى ابراهيم باشا واعتقدوا خيبة مشروع هذا الحصار وعدم نجاح الغزوة وذلك أن ٢٠٠ برميل من البارود ودانات القنابر فرقعت فى وسط معسكره وصار المعسكر خاليا من المواد الحربية وأمامه وخلفه أعداء الوهابية وموجودا فى صحراء بعيدة عن مصر بمسافة ٥٠٠ فرسخ ومن هنا صار لا يوجد عند المصريين محصول سوى شجاعتهم وسيفهم حتى تأتيهم ذخائر جديدة من المدينة المنورة أومن محافظى المجاورة فأرسل كل من حاكم بغداد وحاكم البصرة قوافل وحملات كبيرة من المؤن والذخائر ووردت الذخائر الحربية وذخائر الطوبجية من القاهرة على التوالى فجدد ابراهيم باشا مشروع الحرب

ولاجل تشجيع عساكره وتقوية قلوبهم أمر بمكافأة خمسين غرشا لكل عسكرى يأتيه برأس أو زوج آذان من عربان الوهابية

وفى أثناء ذلك رأى عبد الله بن سعود أن عاصمته لا يمكن حمايتها مدة مامن الزمن ووقعت الخسارات والتلفيات فيما كان يخرجه من الطلائع خارج القلعة ضد المحاصرين وأسر المحاصرون اثنين من أولاده وقتل واحد منهما ووقعت جميع القلاع الموجودة على الجبال وفى البساتين والموجودة على شواطئ النهر الجاف فى أيدى الهاجمين وسلم ثلاثة من خمسة أخطاط المدينة ومابقى انقطعت عنه المواصلات حتى صاروا لا يتمكنون من مساعدة بعضهم بعضا بالمؤن والذخائر وفى مثل هذا الموقع الخطب المقطوع منه اليأس استمر عبد الله مع ٤٠٠ من عبيده فى غاية المقاومة والمدافعة فى سراينه وعزم على فقد حياته على أطلال مملكته الا أنه انجبر أخيرا بواسطة زمجرة الاهالى وماحصل عندهم من الجزع والخوف على أن يرفع راية المتاركة و يطلب عقد مجلس للمداولة فيه عن عقد هدنة فسمح له ابراهيم باشا بذلك وتوجه عبد الله مع ٢٠٠ من حواشيه وأتباعه الى خيمة ابراهيم باشا وقدم له مواد الخضوع وشروط التسليم فقبل ابراهيم باشا منه ذلك وعرفه أنه لابد من توجهه الى القاهرة

حسب التعليمات والاوامر الصادرة له من أبيه فأوجس عبدالله فى نفسه خيفة لكنه رأى أن هذا أقرب الاشياء لتمهيد الاحوال وانتهاء سفك الدماء وزوال المصائب والاكدار فقبل عبدالله السفر بغير مناقضة الى مصر

ولاجل وثوقه واعتماده بالاطمئنان والراحة التى قدمها له ابراهيم باشا وخلاص عائلته وعاصمته من الخراب والدمار ناوله ابراهيم باشا فى ذلك منديل الامان فترك سرايته تجرى فيها عبرات ودموع أهله وأصدقائه وسار قاطعا الصحراء مع حاشية قليلة من أتباعه وأعوانه حتى وصل القاهرة وقابله محمد على باشا فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨١٨ بعد الميلاد مع الاجلال والاعزاز ورحب به وبعد قليل أرسله الى القسطنطينية مع خفر من التاتار ولما وصل اليها لم يجد من يرحمه فيها فطافوا به فى القسطنطينية ثلاثة أيام فى شوارعها مع اثنين من أتباعه وهما كاتبه وخازنداره ثم قطعوا رؤسهم فى ١٩ ديسمبر سنة ١٨١٨ فى ميدان جامع آيه صوفيه وكافأ الباب العالى محمد على باشا وابنه بأجل المكافآت وأهدى اليه هدايا ثمينة جليلة

ولما وصلت الاخبار الى الدرعية بموت عبدالله بن سعود انفجر الهياج واختل النظام فأمر محمد على باشا بجمع عائلة عبدالله بن سعود وأقاربه وارسالهم على الفور الى مصر فأرسل نحو من ٥٠٠ شخص منهم اخوانه وأعمامه وأولاده الى القاهرة ورتب لهم محمد على باشا رواتب شهرية تقوم بحياتهم الدنيوية والله يؤتى ملكه من يشاء وهو القوى العزيز

وفى أثناء محاربات ابراهيم باشا فى نواحى بلاد العرب نظم محمد على باشا عساكره من الامة المصرية وأدخلهم فى سلك قواعد التعليمات والنظامات الاوروباوية ولما تم له شغل الحرب فى بلاد العرب عزم على التغلب على بلاد النوبة وسنار فجند فرقة من العساكر مقدارها ٥٠٠٠ نفس وبعض العربان وقليل من المدافع وعهد قيادتها الى ابنه اسماعيل باشا فسار اسماعيل بهذه الفرقة على النيل حتى وصل الى سنار عاصمة كردفان متغلبا على كل ما مر عليه ثم وقع الوباء فى رجاله وحاق به رداءة أفعاله فرجع على أعقابه حتى وصل قرية شندى على البر الشرقى للنيل وصار يجمع الاموال والنقود وطلب ملك شندى وتلك البلاد وكان اسمه نمر فطلب منه مالا مثل قاربه فاستعطفه نمر فضربه بشبق دخان كان فى يده على وجهه فاضمرله نمر الانتقام وحرقه ليلا مع حاشيته فى لهيب النار وهرب نمر الى بلاد الحبش ولم يعد ثانيا الى بلاده فأرسل محمد على باشا صهره أحمد بك الدفتردار فتغلب على الاقاليم النوبية والجهات السودانية

ورتب محمد على باشا جيشا قويا وعمارة بحرية محكمة الوضع والنظام على منوال القواعد الاوروباوية وجعل ضباط كل من العساكر البرية والبحرية من الاوروباويين وعلى الخصوص من رجال الفرنساوية وأنشأ المين والارصفة ومعامل السلاح وورش الملبوسات ومواد أخر فى داخل القطر المصرى وفتح المكاتب والمدارس لتعليم العلوم والصنائع فى جميع أنحاء القطر المصرى وجلب المعلمين العسكرية وأرباب السياسة المدنية لتعليم المصريين وحضن محمد على باشا الديار المصرية واعتنقها واعتنى بتربية أولادها كحضانة الام ولدها وصارت البلاد تحت حكمه قوية وتمتعت بدرجة الهدو الداخلية واستتباب الامن والراحة ونجاح عام وفوز تام حتى كأنها ما كانت تعرف الحكومة الفوضوية من قبل ولا الاختلالات والقلاقل الداخلية التى كانت متسلطنة فيها من قرون عديدة مضت

وفى مدة الاختلالات الجريقية والثورات اليونانية من سنة ١٨٢١ الى سنة ١٨٢٧ أرسل محمد على باشا سنة ١٨٢٥ جيشا مصريا واسطولا بحريا لمساعدة السلطان وكان له نصيب كبير فى وقائع هذه الثورة وسنذكر مفصلات تاريخها فى المملكة الجريقية فى أول الجزء الثانى من هذا الكتاب بعون الله الملك الوهاب الا أن الاسطول البحرى أبيد جميعه فى حرب نفرينو فى شهر أقطوبر سنة ١٨٢٧ بعد الميلاد

وكان الغرض الاصلى الحقيقى لمحمد على انتقال مملكته أو ايالته الى مملكة مستقلة وراثية فشرع فى الحال بعد غلاق الحرب الجريقى فى عود أسطوله البحرى زيادة عما كان عليه فى الاصل من العدة والعدد على منوال قوى وطرز بهى وزاد فى قوة جيشه وكانت مملكة السلطان أخذت فى الضعف الشديد مما قاسته من الخسارات والاتلافات التى حصلت فيهما من ابتداء فتوح هذا القرن وصار الوقت مساعدا لمحمد على باشا على أغراضه ومقاصده فأنعم عليه السلطان بباشوية جزيرة كريد مكافأة له على ما أجراه من خدماته الجليلة فى الحروب الجريقية فطلب محمد على أيضا من السلطان باشوية سوريا فرفض السلطان محمود قبول هذا الطلب فمن ثم عزم محمد على باشا على التغلب على سوريا واعتل فى ذلك بمشاحنة حصلت بينه وبين عبد الله باشا والى عكا ودخل فى تلك المملكة وذلك أنه أمر بتسفير جيش مؤلف من ٤٠٠٠٠ مقاتل تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا القائد المقدام المتدرب فى الحروب والوقائع فدخل بعساكره ومدافعه فى فلسطين وتغلب على غزة ويافا بعد مقاومة خفيفة ثم سار الى عكا فوصلها فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٣١ بعد الميلاد وحاصرها برا وبحرا وتسلمها فى ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ بعد مدافعات عتيدة ومحاربات شديدة وأسرعت القوى المصرية فى التغلب على فلسطين وسوريا وهزم ابراهيم باشا الجيوش التى أرسلها السلطان لمقاومته وصده وكانت هزيمة هذه الجيوش على التعاقب وذلك أنه تقابل فى حمص من أعمال سوريا العليا فى ٦ يوليه سنة ١٨٣٢ بالجيوش العثمانية تحت قيادة محمد باشا والى طرابلس فهزمها ابراهيم وبدد شملها وتغلب على حمص وكذا فى بيلان (فى صيليصيا بالقرب من ميدان الواقعة القديمة التى كانت حصلت فى عيصوص) فى ٢٩ من الشهر المذكور وفى قونيه فى آسيا الصغرى التقى مع رشيد باشا بجيوشه العثمانية فهزمه وشتت شمل جيوشه وأسره وكان رشيد باشا هذا هو الصدر الاعظم فى الدولة التركية العثمانية وبهذا صار ابراهيم باشا أستاذ آسيا الصغرى تقريبا واستعد للتقدم نحو القسطنطينية وكان ولا بد من وقوعها فى يده لولا أن تداخلت الدول الاوروباوية وأرغموا محمد على باشا على قبوله الحكم الذى قرره له السلطان بباشوية كريد مضافة الى مصر وأضاف الدول له أيضا باشوية أورشليم وطرابلس وحلب ودمشق وأدنه وعقد الدول بذلك معاهدة فى ١٤ مايه سنة ١٨٣٣ وهى معاهدة كوتاحية وأن يكون محمد على باشا خادما عبدا للباب العالى ووقع الدول على هذه المعاهدة فى ٨ يوليه سنة ١٨٣٣ وكانت هذه نصرة جليلة لمصر واذلال فاضح قبيح للسلطان وصار ذلك تغلبا حقيقيا على جميع الممالك التى تحمل سليم الاول مشاق التعب فى التغلب عليها وأضافها الى الممالك التركية العثمانية

وشرع ابراهيم باشا من هذا الوقت فى اجراء الاحكام ومباشرة الاعمال فى سوريا وفلسطين وجعل مقره فى أنطاكيه وبنى فيها سرايه وقشلاقات عسكرية ووظف اسمعيل بك على حلب وأحمد منكلى باشا على ادنه وطرسوس وجعل القيادة العسكرية لنفسه

ومازال محمد على باشا ثابتا فى أمره عازما فى مقصده على أن يجعل ممالكه سلطنة مستقلة فاشتد الغضب فى وجه السلطان محمود الثانى وكذا رفض محمد على باشا دفع الخراج المرتب سنويا على مصر للباب العالى وتجاسر بقوته وشهامته وطرد الخفر السلطانى من عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم واستبدله بخفر آخر من العساكر المصرية العربية وظهر من فعله هذا أنه خلع طاعته مجاهرة بجلالة السلطان المعتبر أنه خليفة الاسلام والمسلمين وتولد من ذلك أن صارت الحالة فى غاية من الاشكال ومن بعد مخابرات عديدة أرسل السلطان فرمانا لحاكم مصر يأمره باعادة الخفر التركى على قبر النبى صلى الله عليه وسلم وأن يسرع بدفع الخراج السنوى المقرر على مصر و يعترف بعبوديته للسلطان فرفض محمد على باشا مع الشدة والحدة هذه الطلبات وأعلن السلطان بانتشاب الحرب على عبده العاصى فى سنة ١٨٣٩ وقرر المجلس فى الاستانة بتجنيد حملة مؤلفة من ٨٠٠٠٠ مقاتل منهم ٢٥٠٠٠ من عساكر الباشبوزق وأن تكون تحت قيادة حافظ باشا ولما توالت الاخبار الى محمد على باشا باستعداد الباب العالى كتب الى ابنه يحضه على المدافعة فأخذ ابراهيم باشا فى اجراء الاعمال الدفاعية والاستعداد لهزيمة العساكر السلطانية وعبر الجيش التركى نهر الفرات تحت قيادة حافظ باشا وكان على غاية من التطقيم وحسن النظام وتقابل مع القوة المصرية تحت قيادة ابراهيم باشا فى نواحى نزب فى ٢٥ يونيه سنة ١٨٣٩ فترك معظم الايات الجيش العثمانى البيرق السلطانى وتوجهوا مع المصريين ومابقى من القوة التركية فى ميدان المحاربة هزمها ابراهيم باشا وغنم مدافعها ومهماتها وذخائرها وفى ٦ يوليه سنة ١٨٣٩ أمر السلطان بتسفير أسطول من القسطنطينية مؤلف من ست وثلاثين سفينة لاجل الهجوم على مدينة الاسكندرية فوصل الاسطول الى الاسكندرية فى يوم ١٣ من الشهر المذكور وسلم نفسه فى الحال الى المصريين بخيانة قائده

وفى هذه الحالة صارت تركية تحت عفو الحكومة المصرية مرة أخرى وصار لابد من سقوط القسطنطينية لولا أن تداخلت الدول الاوروباوية ثانيا وطردت الاساطيل الانكليزية محافظى المصريين الموجودين فى المين السورية وساعدت الاساطيل الانكليزية الجيوش العثمانية فى تغلبهم ثانيا على سورية وأرغم الدول محمد على باشا على أن يرد الاسطول العثمانى الى الدولة و يسحب عساكره من كريد ومن آسيا الصغرى وحصل التوقيع على معاهدة عقدت فى لوندره فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ باثبات مصر لمحمد على باشا ومن خلفه مباشرة من صلبه وأن يرد جميع ماتغلب عليه فى حروباته مع السلطان وأن يدفع خراجا سنويا مقررا الى السلطان و يرسل لمساعدته حسب الطلب عساكر برية وعمارة بحرية

واستمر محمد على باشا حاكما فى مصر الى سنة ١٨٤٨ وهو يدير أشغالها وينظم أعمالها وأحوالها الخيرية ومن ذلك انشاؤه القناطر الخيرية فى رأس الدلتا على كل من فرعى دمياط و رشيد وقد وضع أساس هذه القناطر بيده فى سنة ١٢٥١ هجرية أو سنة ١٨٣٥ مسيحية وأحاط مدينة الاسكندرية بالاستحكامات والاسوار القوية وحفر الترع والخلجان للرى وحفر فى سنة ١٢٣٥ هجرية أو سنة ١٨٢٠ ميلادية ترعة المحمودية نسبة الى السلطان محمود واصلة من النيل الى الاسكندرية على أصل الترعة الاشرفية القديمة

ولما بلغ عمره ثمانين سنة أدركه اختلال فى العقل وضعف فى المزاج وازدادت فيه ظواهر الخرف فجعل

ابنه

ابنه ابراهيم باشا فى محله الا أنه مات من بعد مضى شهرين فى ٩ نوفبر سنة ١٨٤٨ ميلادية
ثم صار عباس باشا ابن طوسون باشا المشهور فى حرب الوهابية والى مصر بعد عمه ابراهيم باشا وفى حياة جده
محمد على باشا وكان حاكم القاهرة تحت ادارة جده وكان حصل منه جرائم عنيفة وأعمال سخيفة أوجبت
عليه غضب عمه ابراهيم فلما تولى ابراهيم باشا واليا على مصر فى حياة أبيه أرسل عباس باشا منفيا الى
الحجاز وبمجرد ما بلغته الاخبار بموت عمه وتوليته الاريكة المصرية جاء مسرعا من الاراضى الحجازية
واستلم أحكام البلاد وفى مبادى حكمه توفى جده فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٤٩ ميلادية ودفن
بجامعه الذى أنشأه بقلعة مصر القاهرة
وكان عباس باشا مسلما حقا فاجتهد فى ابطال جميع التمدن والحضارة التى شيدها جده وشيد سرايات
وقلاعا فى نواحى العباسية والدار البيضاء ونواحى جبل الطور ليقيم فيها المدد التى يغيبها تاركا حكومته
وبعيدا عن مصر وألغى مدارس التعليم التى كان شيدها جده وأنشأ بدلها المدارس الحربية المفروزة
بنواحى العباسية (لقب عباس) ماعدا مدرسة المهندسخانة ببولاق ومدرسة الطب البشرى التى
بالقصر العينى فانه أقامهما ثانية وكنت أنا تلميذا فى مدرسة المهندسخانة هذه وألغى الجيش الا قليلا
والورش والمعامل بقصد الاقتصاد والوفر وكان العدو الالد للاوروباويين ورفت جميع من كان
مستخدما منهم فى الحكومة واجتهد فى اخراجهم جميعا من المملكة ورفض جميع الرخص والمنح التى
نعطى للاوروباويين ماعدا واحدة فقط وهى كونه سمح لشركة انكليزية فى انشاء سكة حديدية من
الاسكندرية الى القاهرة الى السويس وحصل الشروع فى العمل
﴿لطيفة﴾ كنت أنا فى مبادى الشروع فى السكة الحديدية تلميذا صغيرا فى مدرسة الهندسة التى
كانت فى بولاق تحت نظارة على مبارك باشا وكنت جاريا فى تدريس العلوم الاولية من العلوم الرياضية
فصدر أمر عباس باشا باخذ جماعة منا كمهندسين فى السكة الحديدية هذه وكان ناظر عموم المدارس
وقتها عبده باشا فوصل الى مدرستنا هذه وانتخب منها عشرة من دون أن يعرف أن كانوا على علم من العلوم
الرياضيه أم لا وكنت أنا من ضمن العشرة فتوجه خمسة وكنت أنا منهم الى الاسكندرية وبقى خمسة فى
القاهرة ومن حيث اننا الخمسة صغار السن وما تممنا العلوم الرياضية حتى نكون فى درجة المهندسين
مكثنا شهرين وقاسينا العذاب والبرد والجوع وأخيرا صدر أمر عباس باشا بعودنا ثانيا الى المدرسة
لاتمام علومنا فأنزلنا محافظ الاسكندرية فى مركب من مينة البوصل بالاسكندرية فوصلنا ساحل بولاق
من بعد مضى خمسة وأربعين يوما من نزولنا لان الاوان كان شتاء وبردا وأهوية مريسية بعد أن
ذقنا الويل والعذاب الاكبر
وفى سنة ١٨٥٢ صدر فرمان من السلطان الى عباس باشا بأمره بادخال النظامات فى مصر أو
القانون الاساسى التركى ولم يحصل من هذا القانون فائدة مهمة للامة المصرية زيادة عن الفوائد المهمة
التى كانوا متمتعين بها من قبل الا أنه منع الحكم الاستبدادى للوالى ومع هذا فما كان لهذا القانون
تأثير أبدا الان عباس باشا رفض فى الابتداء قبول هذا القانون الا أنه انجبر أخيرا على الطاعة والانقياد
لخلاصه مما كان واقعا فيه تحت المسؤلية لدى السلطان فيما كان يجريه من أعماله العنيفة القطيعة
لاهله وأقاربه وتسلطه على عمد البلاد والاكابر والاعيان والاغنياء ونفيهم من بلادهم وارسالهم الى
نواحى الاقاليم السودانية والبحر الابيض وجهات سنار وفيزوغلى وبذل انعاماته التى كان يبذلها فى

القسطنطينية وجهز مرضاة لخواطر السلطان وحسب الفرمانات فرقة من العساكر مؤلفة من ١٥٠٠٠ نفس اعانة للجيش التركى فى حرب القرم وأرسل مبالغ جمة من النقود الى الباب العالى ومات فجأة فى سنة ١٢٧٠ هجرية أوفى ١٢ يوليوسنة ١٨٥٤ ميلادية فى سرايته فى مدينة بنها العسل وكان توعد برنسيسة من عائلته بقتلها فمن المعتقد أنه قتله اثنان من المماليك الذين كانوا فى خدمتها ونجا الاثنان بحياتهما ولم يعلم لهما مقر

وتولى زمام الاحكام من بعده محمد سعيد باشا ابن محمد على باشا وكان حازم الرأى أحسن من سلفه وابتدأ فى حكمه بابطال شوكة المديرين ومشايخ البلاد وعدم تسلطهم على العباد ورتب جيشا جديدا أدخل فيه أجود طريقة وهى القرعة العسكرية الا أنه ما كان على رأى ثابت فى بقاء الجيش ولا فى دواوين الادارة بل كان كل يوم فى تغيير وتبديل وانشاء ونقض وابرام والغاء ورتب طريقة عادلة فى ترتيب وتوزيع الضرائب والعوائد ورخص لبائعى المحصولات أن يبيعوا محصولاتهم لمن يشتريها غير الحكومة وشرع فى اصلاحات عديدة مهمة داخلية منها تطهير ترعة المحمودية وكان طم فمها وعلا فيها الطمى والوحل فأمر بنزحها وتطهيرها وعمل على فمها من جهة النيل آلات بخارية ميكانيكية لرفع المياه من النيل فى أيام التحريق ورميها فى الترعة لاجل سهولة سقى المزروعات واعطاء المياه الكافية لاحتياجات مدينة الاسكندرية واستمر فى مد خطوط السكك الحديدية والخطوط البرقية التلغرافية بين القاهرة والاسكندرية والسويس وهو أول من اجتهد وبذل ما فى طاقته فى فتح خليج السويس الموصل للبحر الابيض المتوسط بالبحر الاحمر ومن أجل هذا لقب أحد طرفيه باسمه وهو بورت سعيد نسبة الى محمد سعيد باشا وأنشأ القلعة السعيدية فى السنة الثانية من تقلده زمام الاحكام المصرية تحت القناطر الخيرية فى رأس الدلتا ووضع بيده الحجر الاول من أساسات أسوارها وكان يوما مشهودا وكذا أسس لنفسه قبرا فى داخل هذه القلعة الا انه لم يتم ولم يكن له نصيب فى أن يدفن فيه وكان جلب لهذا القبر قبة من الحديد من بلاد انكلترة الا انه لم يصر تركيبها وبقى حديدها مرميا فى أرض القلعة مدة طويلة من الزمن وفى مدة حكمه قامت عربان جهات مديرية الفيوم فى ثورة فأطفأ بعساكره هذه الثورة بعد أن قتل من العرب ناس كثيرون بالمدافع والبنادق وأخضعهم وجلب كثيرا منهم ومن رؤسائهم فى ليمان القلعة السعيدية ثم توجه الى الاقطار السودانية قاطعا صحارى العطمور المسمى عطمور أبو حمد حتى وصل مدينة الخرطوم وتفقد أحوال الاعمال بهذه الجهات وأزال ما وجده من المظالم ثم عاد قافلا الى الديار المصرية وكان على الدوام مشتغلا بلغو الجيش وانشائه وألغى المدارس والمكاتب حتى المدارس العسكرية ومحلات التربية والتعليم واكتفى بترقية ضباط الجيش من العساكر الذين هم تحت رعايته ولو لم يكن لهم دراية بالقراءة والكتابة والعلوم العسكرية فمن ثم تولدت البغضاء والعداوة بين ضباط الجيش الذين هم من أصل المدارس من أولاد العرب ومن الترك والجراكسة وبين الضباط الذين أصعدهم محمد سعيد باشا من تحت السلاح ومازالت هذه العداوة بينهم الى أن ثارت الثورة الوطنية التى سيأتى الكلام عليها فى سرد تاريخ الخديوى محمد توفيق باشا

وفى آخر أيامه زار الحرم المدنى وتبرك بزيارة قبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وزار بلاد فرانسا وسوريا وفى يوم السبت ٢٦ رجب سنة ١٢٧٩ هجرية أو ١٧ ينايرسنة ١٨٦٣ توفى فى الاسكندرية ودفن فى المدفن المعروف بالنبى دانيال وهو قبر اسكندر الاكبر وليس قبر النبى دانيال

وفى سنة ١٢٧٩ هجرية أو سنة ١٨٦٣ ميلادية خلف اسمعيل باشا عمه محمد سعيد باشا وهو ثانى أبناء ابراهيم باشا بن محمد على وكان تربى أحسن تربية فى مدارس أوربا مع اخوته أحمد باشا الاكبر ومصطفى فاضل باشا الاصغر وكان أحمد باشا مات قتيلا غريقا فى قنطرة كوبرى السكة الحديد بجهة مدينة بنها فى يوم عيد فى مدة حكم محمد سعيد باشا مع جماعة من وجوه الاعيان بمصر وتهذب اسمعيل باشا فى العلوم الرياضية والرسوم الخطوطية وجال فى أوروبا واختبر أحوالها وعوائدها ولما تقلد زمام الاحكام فى الديار المصرية فى ٢٧ رجب سنة ١٢٧٩ أو ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ استمر فى زيادة حركة الاصلاح التى كانت جارية بواسطة عمه وفى مبادى ولايته وفد السلطان عبد العزيز الى الديار المصرية زائرا لها ومتفقدا أحوالها فلاقاه اسمعيل باشا بأجل ترحاب لم يسبق له نظير ولما كان الحرب جاريا فى غاية التقدم فى نواحى أمريقه وتولد من ذلك ندرة وجود الاقطان فى حركات التجارة انتهز الفرصة اسمعيل باشا وأكثر من زراعة هذا الصنف فى داخل القطر المصرى وحض الامة المصرية على زراعته حتى جعل مصر أحد أسواق القطن المشهورة فى الدنيا وكان أخا صادقا ومحبا نافعا الخليج السويس الذى تم شغله فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ميلادية أو سنة ١٢٨٦ هجرية وفتح بحضور الجم الغفير من ملوك وأمراء ونواب جميع ممالك الدنيا ودفع مبالغ جمة من النقود لينقل قانون الوراثة من الاب الى الابن عند الباب العالى

وفى سنة ١٨٦٦ جهز جيشا مؤلفا من ٣٠٠٠٠ نفس الى الباب العالى لاجل اخماد الثورة التى كانت حصلت فى جزيرة كريد وبعد ذلك بقليل زاد فى مقدار الخراج المطلوب منه بطريقة اختيارية من نفسه وفى سنة ١٨٦٧ استحوذ من الباب العالى على فرمان خول له الحق فى عمل نظامات حسب رغبته فى الادارة الداخلية لمصر وكونه يعقد معاهدات مع الدول الاجنبية مرعية الاجراء فى العمل وطلب من الباب العالى أن ينعم عليه بلقب سلطان أرض مصر فأنعم عليه بلقب خديوى ومن ثم طلب اسمعيل باشا من الباب العالى أن يكون لمصر سفراء ونواب فى جميع دواوين الممالك الاجنبية فرأى الباب العالى أن مقصده الاصلى هو الاستقلال من الممالك التركية العثمانية فرفض طلبه هذا ولم يقبله فأوغر اسمعيل باشا فى صدره الغضب وهدد ديوان الاستانة بأخذ عساكره من جزيرة كريد أو يستحوذ على تلك الجزيرة ان لم تمنح طلباته وصار الحرب بين السلطان وبين عبده اسمعيل على شرف الوقوع وشرع اسمعيل باشا فى اجراء الاستعدادات الحربية وحفظ السواحل البحرية المصرية وأنشأ على السواحل من الاسكندرية الى أبو قير الى رشيد الى دمياط الى بورت سعيد الطوابى والقلاع المستجدة ورمم الطوابى والقلاع القديمة وجلب اليها أنواع المدافع الضخمة من عيار ٤٠٠ و ٣٠٠ و ١٢٠ أوقة من المدافع المسماة أرمسترنج مع جميع عياراتها من القلل والقنابل المختلفة الجنس والذاتات وبذل مجهوده فى أشغال هذه القلاع وصرف عليها المصاريف الجمة وكنت أنا فى هذه الواقعة باشمهندس استحكامات وقلاع الساحل من أبى قير الى رشيد الى نواحى البرلس وصار اسمعيل باشا على غاية من استعداد للحرب مع سلطانه فتداخلت الدول الاجنبية فى عدم ثوران حرب أو حصول كرب وألزموا الخديوى بتنازله عن مطامع أغراضه وأن يخضع وينقاد لحكومة أستاذه وسلطانه

وفى سنة ١٨٦٨ مد اسمعيل باشا سلطته على الممالك الموجودة فوق النيل الاعلى وهى دارفور ونواحيها وذلك انه أرسل عساكره تحت قيادة اسمعيل أيوب وكان حاكم عموم السودان فى هذا الوقت

فتغلب على نواحى بحر الغزال وأخضع قبائله السودانيـة وسار منها الى دارفور وتغلب عليها وهزم عساكرها وأسر ملوكها وأمراءها وأرسلهم الى القاهرة فى أسوء حال مع عائلاتهم وأولادهم وأسكنوا القاهرة ورتب لهم الخديوى رواتب شهرية تقوم بحياتهم وفى نفس هذه السنة تخابر فى اقتراض قرض ودعا ملوك أوروبا كى يشرفوا بحضورهم فتح قنال السويس فرأى الباب العالى أن أعماله هذه أعمال ملك مستقل وتولد منها الغضب الاكبر عند السلطان فأصدر له أمرا بتقليل جيشه الى ٣٠٠٠٠ عسكرى وأن يبطل ماهو جار فيه من اعمال المدرعات الزرخ وانشاء القلاع والطوابى واستعداد الاسلحة ومشتراها وكان عقد معاهدتها مع انكلتره وجهات أمريقه وجلب الكثير منها الى الديار المصرية وأن لا يتداخل فى الحال ولا فى الاستقبال فى المواد السياسية الخارجية ولا يقترض مبالغ من الدول الاجنبية وأن يعرض ميزانيـة مصروفاته سـنويا على الباب العالى لاجـل النظر فيها والاقـرار على مافيها فى القسطنطينية فرفض الخديوى اسمعيل هـذا الفرمان وأعلن بانه لابد له من قرض مبالغ فى الحال وفى الاستقبال حسب موافقة الاحوال والاعمال فعزم السلطان على أن يرسل له آخر بلاغ يطلب منه أن يختار له واحدة من اثنتـين اما الحرب واما الانقياد والطاعة فتداخل فى هـذه المسئلة كل من دولتى فرانسا وانكلتره ولما رأى الخديوى معارضة الدول الاوروباوية له فى مساعيه على استقلاليته أعلن فى ٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ بانقياده لمرغوب السلطان وكان منتظرا على الدوام وقت فرصة استقلاليته وفى أثناء المدة اجتهد اسمعيل باشا فى أن يجمع جميع الممالك الواقعـة فى جنوب مصر لحد منابع النيل وخط الاسـتواء تحت سلطته وتنازل له السلطان عن زيلع ونواحيها وبربرة ونواحيها على خراج معلوم يدفعه سنويا عن هذه الجهات الى خزينة الباب العالى وتغلب على نواحى هرر وأرسل تجريدة تحت قيادة محمد راتب باشا الجركسى لاجل التغلب على بلاد الحبش فكانت هـذه الحملة على غـير طائل وهلك فيها كثير من الضـباط والعساكر وأرسل للجهات التى تغلب عليها ما يلزم من الحبوب والبذور لاجل تقدم الزراعة فيها وأنشأ فى داخلها طرق التجارة وضرب على أهاليها كميات وافرة من محصولاتهـم من العاج والصمغ والجلد وشمع العسـل والذهب ومد خطوط التلغرافات فى عموم الاقطار النوبية والسودانية وشرع فى مد سكة حديد من الشلال الاول الى مدينة الخرطوم فلم ينجح فى مشروعه هذا وبواسطة مد سلطته على البحر الاحمر وخليج السويس صار له قدرة على توطيد الثروة والغنية فى تلك الجهات وورود منافعها ومكاسبها الى الاقاليم المصرية

ولقـد باشر اسمعيل باشا بناء مينة مدينة الاسكندرية وأرصفتها حتى تمت ثم سافر لزيارة الاسـتانة وقوبل فيها بأجـل ترحاب من طرف السـلطان وفى هذه السـنة احتفل بزواج أولاده الثلاثة وهم محمد توفيق باشا وحسـين كامل باشا وحسن باشا وكان زواجهم فى شهر واحد ومنحوا رتبة الوزارة معا وتولد من المساعى والاجتهادات التى أجراها اسماعيل باشا فى مصر رضا السـلطان عليـه مرة ثانيـة ومنحه فى ٨ يونيـه سـنة ١٨٧٣ الفرمان السلطانى الذى خول له جميع الحقوق المعطاة لرتبـة الخديوية واستبدال موقع مصر من حالة إيالة الى هيئة مملكة سلطانية مستقلة تقريبا ومنح له فيه حقوق الوراثة لابنه البكرى والاسـتقلال بالاحكام الادارية وعمل النظامات الداخلية وترتيب جميع وسائط المحافظة والمدافعة والنقص أو الزيادة فى عـدد العساكر وعقد معاهدات تجارية مع الدول الاجنبية والتداخـل فى عقـد قروض من الخارج بغـير استئذان حسب اللزوم بشرط أن يكون القرض باسم

الحكومة

الحكومة المصرية ومنحه حق التصرف المطلق فى المواد المالية وعمل تنظيمات فيما يختص بحالة الاعراب ومعاملتهم مع الحكومة المصرية وأنها الا انه غير مرخص بتداخله فى عقد معاهدات دولية وأن لا يكون له نواب أو سفراء فى الخارج وأن النقود والمعاملة التى تضرب فى مصر تكون باسم السلطان وأن تكون هيئة العساكر البرية والبحرية غير مخالفة لهيئة العساكر التركية العثمانية فى البيارق والملبوس وللخديوى أن يرقى فى رتب العسكرية الى غاية رتبة أميرالاى كأسلافه وفى رتب الملكية لغاية رتبة ثانية ولا يرخص للخديوى انشاء مدرعات من الزرخ بغير استئذان وله أن ينشئ سفنا خلافها حسبما يشاء وأن يدفع سنويا من دون حصول أدنى تأخير الخراج المقرر سنويا ومقداره ١٥٠٠٠٠ كيس الى الخزينة السلطانية

وكان لهذا الفرمان تأثير شديد على همة اسماعيل باشا الخديوى فأخذ فى مشروعات الاصلاحات وتنظيم البلاد ومد سكك الحديد والسلوك التلغرافية وبناء الابنية والشوارع والبساتين وكثر فى أيامه توارد الاوروباويين فى مصر وفى سنة ١٨٧٥ اشترت الحكومة الانكليزية أسهم ترعة السويس التى كانت للحكومة المصرية وأمر ببناء دار العجائب القديمة فى بولاق ودار الكتب الخديوية فى درب الجماميز من القاهرة وانشاء محلات التياترات والملاعب فى حديقة الازبكية وبناء السرايات والابنية الكبيرة فى القاهرة والاسكندرية وتداخل فى مشترى الاطيان من الاهالى من الجهات البحرية والقبلية حتى تغلب على نحو مليون ونصف من الفدادين قسمها تفاتيش وأنشأ فيها فوريقات ومعاصر قصب السكر وصرف عليها مبالغ مهولة من النقود وشيد شركة النور والمياه فى القاهرة وفتح المدارس وعمم المعارف وحسن المطبعة الاميرية وأنشأ معمل الورق فى بولاق وبنى الاسماعيلية وزينها بالحدائق وله اجرا آت كثيرة وأعمال جسيمة وقعت منها المملكة فى الديون وعادت عليه بالضرر فى الحال وأسقطته من عيون الملوك والعمال .

وفى مبادى الحروب التى حصلت بين روسيا وتركيا فى سنة ١٨٧٧ ميلادية أرسل الخديوى فرقة قوية من العساكر المصرية تحت قيادة راشد حسنى باشا وكنت أنا رئيس أركان حربها ومدبر حركاتها العسكرية فى الوقائع الصربية فى جهات بوسنه وهرسك وكذا فى انتشاب الحروب الروسية فى نواحى دوبريجه من أعمال بلغاريا وحزت فى هذه الوقائع نيشان الدرجة الثالثة المجيدى ونيشان الدرجة الرابعة المجيدى ومدالية فى الحروب الصربية والحروب الروسية وكان مقدار القوة المذكورة ٢٥٠٠٠ نفس مشاة وفرسانا وطوبجية وأخيرا صارت هذه الفرقة تحت قيادة ولده حسن باشا فى نواحى وارنه ولشدة اسماعيل باشا فى توابعه بحسن النظام والزخرفة والابنية كان لا ينظر الى صرف المصاريف الباهظة اللازمة لتنفيذ مشروعاته فى داخل المملكة المصرية ولا النظر الى صرف مرتبات الضباط والعساكر الجهادية فتراكمت الديون الى حد كبير جدا على الحكومة المصرية حتى أوجب قلق الدول الاوروباوية الداخلة فى هذه الديون واتفقت على تعين مجلس سموه مجلس التصفية لاجل حصر مدخول الحكومة ومعرفة مقدار مصروفاتها ولما رأى هذا المجلس حصول العجز الكبير فى مدخول الايراد ألزم اسماعيل باشا الخديوى بتنازله عن أملاكه الخاصة به وأملاك عائلته وسلمت لارباب الدين وأطلق عليها اسم أملاك الدومين وصادق اسماعيل باشا على تعيين ناظر مالى انكليزى اسمه ريفرس ويلسون وآخر للاشغال اسمه دوبلنير فرنساوى ورتب نظارة تحت رياسة نوبار باشا وفى

أثناء ذلك كانت مرتبات ضباط الجهادية والعسكرية موقوفة الصرف مدة شهور عديدة وتقرر في جلسات النظار توفير ورفت البعض من هؤلاء الضباط والعساكر لقصد الاقتصاد في المصاريف وكان نوبار وويلسون ودوبلنير متقلدين سوية زمام الحكومة المصرية وليس للخديوى اسماعيل كلمة نافذة فمن ثم أدخل كل من نوبار وويلسون ودوبلنير أحباءهم وأقاربهم وأصحابهم من بلادهم في خدمات الحكومة ويرفتون من شاؤا ويخدمون من شاؤا وحجروا على اسماعيل باشا وعلى أولاده عن مباشرة الاحكام والحكومة وافتقر ضباط العسكرية حتى آل أمرهم الى السؤال فعرضوا أخيرا عريضة الى اسماعيل باشا يطلبون منه صرف مرتباتهم المتأخرة لاجل مساعدتهم على معيشتهم هم وأولادهم وعائلاتهم فسلطهم في السر على النظار وكان نوبار رئيس النظار فتواعد الضباط مع بعضهم في يوم معلوم يجتمعون فيه في شارع ديوان المالية وقبضوا على نوبار باشا وسقوه الزيت الحار وألزموه بصرف مرتباتهم وأهانوه مع ريفرس ويلسون ناظر المالية وذهبوا الى ديوان المالية شاهرين سيوفهم وكانوا نحو من ٤٠٠ ضابط وحصل اللغط والهياج ووصلت أخبار هذه الثورة الى مسامع الخديوى اسماعيل فاسرع في الحضور الى ديوان المالية وأخمد هذه الرزية وأمر النظار بصرف مرتبات العساكر فصرفها ويلسون ناظر المالية على الفور وتولد مما حصل لنوبار وويلسون من الاهانة والاحتقار أن استعفا الامن النظارة وكذا استقال مصطفى رياض باشا من الداخلية وخرج سريعا كما هي عادته الى الاقطار البرانية وولى اسماعيل باشا الخديوى ابنه توفيق باشا رئيس مجلس النظار

وفي ٧ ابريل سنة ١٨٧٩ قلب الخديوى اسماعيل هيئة النظار وجعلها نظارة وطنية تحت رياسة شريف باشا وأمر بزيادة القوى العسكرية الى نحو ٦٠٠٠٠ مقاتل وأرسل عمر باشا لطفي الى الجهات البحرية لتحصيل نقود ومبالغ ومحمد سلطان الى النواحي القبلية لتحصيل نقود وأموال أيضا فصعب كل هذا على دولتي انكلتره وفرنسا فاجتهدتا في عزله وخلعه وجبرتاه بواسطة نوابهما في مصر على تنازله عن الاريكة المصرية وهدده النائبان كل التهديد وكذلك صار تهديدا لسلطان من جهتي دولتي انكلتره وفرانسا حتى امتثل السلطان لخلعه وكتب بخلعه تلغرافا له في تنازله عن الاريكة المصرية لابنه محمد توفيق وصدر الامر التلغرافي السلطاني باثبات محمد توفيق باشا الخديوى الحالي على الاريكة المصرية من يوم ٦ رجب سنة ١٢٩٦ هجرية أو ٢٥ يونيه سنة ١٨٧٩ بعد الميلاد

وفي ٣٠ يونيه سنة ١٨٧٩ سافر اسماعيل باشا منفيا أو متباعدا عن الديار المصرية مع ولديه حسين كامل باشا وحسن باشا وعائلته وركب في قطار مخصوص من محطة السكة الحديد بالقاهرة وكان يوم نزوله يوما مهولا لشدة الاسف والحزن على فراقه وكان ابنه توفيق باشا من جملة المودعين له وسار حتى وصل مدينة الاسكندرية ومنها نزل في وابور المحروسة وكان مستعدا لسفره بعد أن خزن فيه كنوزه وخزائنه وما غلا ثمنه وقل حمله وتوجه مصحوبا بعائلته حتى نزل مدينة نابولي من أعمال ايطاليا بعد أن رفض قبول نزوله في احدى ايالات الدولة التركية العثمانية الا انه ندم أخيرا وصار يستعطف جانب السلطان في قبوله ضمن سكان القسطنطينية فلم يمنحه السلطان هذا الطلب فشرع في ذمه والقدح فيه على لسان جريدة من جرائد الاخبار ومن بعد اخماد واطفاء الثورة الوطنية المصرية صدر عفو توفيق باشا عن أخويه حسين وحسن وعادا الى الديار المصرية ليقيما تحت كنفه وفي أثناء الحوادث السودانية صدر أمر من توفيق باشا بارشاد الحكومة الانكليزية بتولية حسن باشا حاكم عموم الاقطار

السودانية

السودانيه فقبل حسن باشا هذا الامر واستعد وسافر حتى وصل الى جهة دنقله ولما وجد النار حمراء والمزار بعيدا رجع على أعقابه من قريب ولما لم يطب له العيش فى الحكومة المصرية أخذ رخصة من أخيه توفيق باشا وتوجه الى الاستانة طالبا صحته لانه كان فى توعك من العياء فقابله السلطان عبد الحميد الحالى بالاجلال والاحترام والترحاب ووظفه ضمن الفرناء السلطانية فبذل حسن باشا جهده وما فى وسعه وطاقته عند السلطان حتى رضى على أبيه ورخص له بدخوله فى القسطنطينية واقامته بها تحت كنف ورعاية السلطنة العثمانية وها هو مقيم بها لحد الآن ومن بعد دخول اسماعيل باشا فى القسطنطينية مات حسن باشا بداء الاستسقاء وأمر السلطان بحمل جثته الى الديار المصرية ودفن مع أهله وأقاربه فى مدينة الاسكندرية

﴿ محمد توفيق باشا خديوى مصر ﴾

تولى محمد توفيق باشا الخديوية المصرية وجلس على أريكتها فى يوم الخميس السابع من شهر رجب سنة ١٢٩٦ هجرية أو ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ ميلادية وكانت أمورها مرتبكة وأحوالها مختلفة بسبب ما طرأ عليها من المصاعب والآفات من عسر المالية وعدم انتظام العسكرية وما حصل من تداخل الاغراب فى أحوال البلاد مدة الوزارة النوبارية واشتداد وطأتهم على أصناف العسكرية حتى أوجب احكام الضغائن ووقوع التباين فى صدور ضباط الجهادية

وفى يوم الخميس المذكور ورد تلغراف من الباب العالى الى القاهرة بتولية محمد توفيق باشا وتقليده زمام الاحكام المصرية وجلوسه على الاريكة الخديوية فكان لورود هذا التلغراف من الباب العالى يوم مشهود فى الاحتفالات والتهنئات وكثرة الوفود وأرسل توفيق باشا تلغرافا فاردا الى الباب العالى على التلغراف المؤذن بارتقائه الى الاريكة الخديوية

ثم مضت مدة من بعد ورود التلغراف ولم يرد الفرمان السلطانى فارتاع توفيق باشا من تأخير ورود الفرمان واختلفت أقوال الناس وظنونهم اختلافات شتى فى أسباب تأخير الباب العالى صدور الفرمان وفى ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ ورد الفرمان بالامر بتولية محمد توفيق باشا الخديوية المصرية

ومآل هذا الفرمان انه على حسب الفرمان السلطانى الصادر الى الخديوية المصرية فى ١٢ محرم سنة ١٢٨٣ المتضمن توجيه الخديوية المصرية الى أكبر أولاد اسمعيل باشا قد صار توجيه الخديوية المصرية الى عهدته وأنه لما كان تزايد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين راحة كافة أهاليها وسكانها ورفاهيتهم من المواد المهمة لدينا ومرغوبنا وأجل مطلوبنا وقد ظهر أن بعض أحكام الفرمان المتقدم المبنى على تسهيل هذه هى المقاصد الخيرية المبين فيها الامتيازات الحائزة لها الخديوية المصرية قديما نشأت عنها الاحوال المشكلة الحاضرة المعلومة فلذلك صار اثبات المواد التى لا يلزم تعديلها من هذه الامتيازات وتأكيدها وصار تبديل المواد المقتضى تبديلها وتعديلها واصلاحها وما تقرر اجراؤه الآن هى المواد الآتية وهى ان كافة واردات الخطة المصرية يكون تحصيلها واستيفاؤها باسمنا الشاهانى وحيث ان أهالى مصر من تبعة دولتنا العلية وان الخديوية المصرية ملزومة بادارة أمور المملكة والمالية والعدلية بشرط أن لا يقع فى حقهم أدنى ظلم ولا تعد فى وقت من الاوقات فخديوى

مصر يكون مأذونا بوضع النظامات الداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة وأن يكون خديوى مصر مأذونا بعقد وتجديد المشارطات مع مأمورى الدول الاجنبية بخصوص الجمارك والتجارة واتساعها ولاجل تسوية المعاملات السائرة التى بين الحكومة والاجانب أو بين الاهالى والاجانب بشرط عدم وقوع خلل بمعاهدات دولتنا العلية السياسية وفى حقوق متبوعية مصر اليها وانما قبل اعلان الخديوية الشروط التى تعقد مع الاجانب يصير تقديمها الى بابنا العالى وأيضا يكون جائزا للتصرفات الكاملة فى أمور المالية لكنه لا يكون مأذونا بعقد استقراض من الآن فصاعدا بأى وجه من الوجوه وانما يكون مأذونا بعقد استقراض بالاتفاق مع المداينين الحاضرين أو نوابهم الذين يتعينون رسميا ويكون هذا الاستقراض منحصرا فى تسوية أحوال المالية الحاضرة ومخصوصا بها وبما أن الامتيازات التى أعطيت لمصر هى جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التى خصت بها الخديوية فلا يجوز ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة أرض من الاراضى المصرية الى الغير بأى سبب من الاسباب ويلزم تأدية مبلغ ٧٥٠٠٠٠ ليره عثمانى وهو القرار المقرر دفعه سنويا فى أوانه وكذلك جميع النقود التى تضرب فى مصر تكون باسمنا الشاهانى ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ١٨٠٠٠ نفس لان هذا القدر كاف لحفظ أمنية مصر الداخلية وقت الصلح وبما أن قوة مصر البرية والبحرية مرتبة من أجل دولتنا العلية فيجوز زيادة العساكر بالصورة التى تستتب فيها حالة دولتنا العلية محاربة وأن تكون رايات العساكر البرية والبحرية والعلامات المميزة لرتب ضباطهم كرايات وعلامات عساكرنا الشاهانية ويباح لخديوى مصر أن يعطى الضباط البرية والبحرية الى غاية رتبة أميرالاى والملكية الى الرتبة الثانية ولا يرخص لخديوى مصر أن ينشئ سفنا مدرعة الا من بعد الاذن من دولتنا العلية برخصة صريحة قطعية * وتاريخ هذا الفرمان فى ١٠ شعبان سنة ١٢٩٦ من هجرة صاحب العز والشرف

وفى ١٧ أغسطس سنة ١٨٧٩ استقالت وزارة شريف باشا لسبب يعلمه الله وشكل الخديوى توفيق باشا وزارة تحت رياسته وأرسل تلغرافا يستقدم مصطفى رياض باشا من جهة أوروبا فلما وصل كلفه الخديوى بتأليف وزارة جديدة فشكلها وصدر أمر الخديوى بتعيين بارنج ودوبلنير مفتشين ماليين واستعفى غوردون باشا من حكومة السودان وتولاها من بعده محمد رؤف باشا

ومن ابتداء ٢٢ ينايرسنة ١٨٨٠ توجه الخديوى نحو الصعيد الاعلى لاجل تفقد أحوال البلاد ووصل الى الشلال الاول وعاد وجال فى الجهات البحرية أيضا ورجع الى العاصمة بعد أن تفقد جميع أحوال القطر وكان له احتفالات زائدة فى كل مديرية وكل بندر وزينات وطبول وزمور على شاطئ النيل من كل جهة

واشتغل المفتشان الماليان والنظار ولجنة تعينت مخصوصة فيما يلزم اجراؤه من أجل الديون وعملوا لذلك قانونا وسموه قانون التصفية وهذا القانون مركب من ٩٩ مادة تختص بالتصفية والدين العمومى وزاد الخديوى فى منح الرتب كبيرة كانت أو صغيرة فكان يلزم لكل رتبة مال لها من المعاش فاشتدت الوطأة على المالية فصدر أمر من داخلية مصر مآله أن الرتب الملكية لا توجب زيادة المرتب وانما هى شرف للمنعم عليه بها فقط

واشتهر الخديوى توفيق باشا بميله الى أبناء البلاد ورفع شأنهم وبث الحرية فيهم واتحاد كلمتهم وتوجه

انتباههم الى مافيه صلاح شؤنهم فكانت تلك الحرية هبة فى غير محلها بالكلية لانها آلت الى الثورة الوطنية التى اشتهرت عند الناس بالثورة العرابية فكانت هذه ثورة مشؤمة وأمور وأحوال كانت فى قلب أحمد عرابى مكتومة لم تظهر حقائقها ولم تبد دقائقها الامن بعد النفى فى سيلان حتى أفشى كل من عرابى وعبد العال وعلى فهمى ما كانوا عليه للعيان وما كانوا مدخريه فى قلوبهم وبطونهم لكل انسان وحسبى الله ونعم الوكيل

فأما الثورة الوطنية المصرية التى اشتهرت على ألسنة الخلق بالثورة العرابية فان أصلها ان مايطلق عليه اسم الامة المصرية مقسومة الى ثلاثة أقسام أو أصناف أولاد ترك وأولاد جراكسة مماليك وأولاد عرب ويوجد صنف رابع وهو القبط وهذه الاصناف الاربعة مشكلة للامة المصرية والقسمة هذه بعينها فى داخل الاقاليم وفى دواوين الحكومة وكل جنس من هؤلاء الاجناس يبغض الآخر ولا يمكن أن تكون بينهم مادة الاتحاد وكل واحد من هذه الاصناف يدافع ويحامى عن أبناء جنسه ويتسبب فى حصول المنافع لهم وبمثل ضباط وقواد العسكرية مقسومون الى أصناف ترك وعرب وجراكسة وكل حزب يبغض الآخر ويكرهه والضباط أولاد العرب على حزبين الذين تهذبوا وتربوا وتعلموا فى المدارس الحربية حزب والذين ترقوا من تحت السلاح من أصناف العسكرية وليس لهم معلومات بالقراءة والكتابة والتدريبات الحربية حزب آخر وكل من هذين الحزبين من أولاد العرب يكرهون بعضهم لان الذين يعلمون ليسوا كالذين لايعلمون وحزب الجراكسة من ضباط العسكرية يكره الحزبين من أولاد العرب كما انهم أصل وأسخم والحزبان من أولاد العرب ومن الجراكسة فضلا عن بغضهم لبعضهم يبغضون حزب الاتراك وليست هذه الكراهة واقعة فى مدة الخديوى توفيق باشا فقط بل من عهد محمد سعيد باشا كما ذكرناسابقا وكانوا يقولون هذا نمروذ وهذا فرعون

وفى سنة ١٢٩٦ هجرية أو سنة ١٨٧٩ كان من ضمن النظار الذين تحت رياسة نظارة رياض باشا عثمان رفقى باشا ناظرا على الحربية والبحرية فشرع فى سن قانون عسكرى قاض بعدم ترقية أحد من العساكر الذين تحت السلاح مادامت الحكومة لها مدارس حربية جار فيها تربية وتهذيب ضباطها وكان أحمد عرابى ورفقاؤه على فهمى وعبد العال حلمى وأحمد عبد الغفار من ضمن الذين ترقوا تحت السلاح مدة حكومة سعيد باشا فاجتمع الاربعة وتآمروا فيما بينهم وحقدوا الحقود وضغنوا الضغائن وعزموا على الايقاع بعثمان رفقى باشا ناظر الجهادية والبحرية بالكراهة والعداوة القلبية

فأما أحمد عرابى فانه كان دخل فى سلك العسكرية فى سنة ١٢٧٢ هجرية ونال رتبة القائممقام فى سنة ١٢٧٧ ثم غضب عليه محمد سعيد باشا وضربه ثلثمائة نبوت وطرده من الجيش ثم عاد الى الجيش فى أوائل ولاية اسمعيل باشا فى سنة ١٢٧٩ وكان متعصبا من غير أصل ولا معرفة ولا دراية فى الدين ولا فى الجنسية ومازال حتى وقعت بينه وبين خسرو باشا الجركسى مخاصمة أدت الى ابعاد أحمد عرابى من خدمة الجيش وكلا الرجلين كان كثير التعصب لابناء جنسه الا أن خسرو باشا كان كثير التعصب لابناء جنسه عموما وأما أحمد عرابى فما كان تعصبه الامن أجل الذين ترقوا معه تحت السلاح فقط وكان أشد كراهة لابناء جنسه الذين ترقوا من المدارس الحربية وصار أحمد عرابى منبوذا مطرودا من الخدمة العسكرية مرفوتا حتى افتقر واشتد به الاحتياج بسبب بغضه للجراكسة ولولا أن تداركته العناية الربانية ولحق بأشغال الدائرة الحلمية وتزوج بابنة مرضعة الهامى باشا وهى أخت حرم

الخديوى توفيق باشا الحالى من الرضاع ثم عفا عنه اسمعيل باشا بواسطة رجاء قاسم باشا رسمى وكان وقتها ناظر الحربية ودخل فى أحد الالايات فى سنة ١٢٩٢ الموجودة بنواحى رشيد فأخذ من هذا الوقت فى تأليف قلوب الضباط أولاد العرب الذين هم تحت السلاح مثله وجمع كلمتهم على ولائه وكان يظهر لهم الاسف الشديد والحزن الذى ما عليه من مزيد فى شأن حرمانهم من الترقيات حال كون غيرهم من الجراكسة والاتراك متمتعين بالقبول وممنوحين بدرجات الترقى وعلو الشان

وبعد أن تولى الخديوى توفيق باشا الاريكة المصرية رقاه الى رتبة أميرالاى بمساعدة حماته أم امرأته بما أنها من ضمن مستخدمى جماعة الحلمية وكذا صار ترقية عبد العال حلمى وأما على فهمى فانه كان ارتقى الى رتبة أميرالاى فى حرب الصرب فى سنة ١٢٩٣ فكان عرابى ميرالاى فى ألاى فى العباسية وعبد العال حلمى ميرالاى السودانيين فى نواحى ميعاد الخبيرى بطره وعلى فهمى ميرالاى الحرس الخديوى فى عابدين وأحمد عبد الغفار من شاكلتهم كان قايمقام فى ألاى الخيالة فى نواحى سراى الخديوى بالجيزة وكل من هؤلاء كان على نفور بين من عثمان رفقى باشا ناظر الحربية لانه شركسى حتى ان البعض منهم مثل على فهمى وأحمد عبد الغفار كانا ينبذان أوامره ولا يعملان بها فشق ذلك على عثمان رفقى باشا وأراد استبدال هؤلاء من ألاياتهم بغيرهم من الجراكسة أبناء جنسه وتوظيف هؤلاء فى محلات أخر غير وظائفهم هذه وحرر بذلك أوامر من ديوان الجهادية ولما بلغ عرابى ورفقاءه هذه الاخبار قامت القيامة فى وجوههم وصاروا رجالا بغير عقول وتضجروا وقلقوا واجتمع عليهم ضباط الجسر بندية وقادوهم لكل بلية وصارت لهم مجالس وحفلات تارة فى منزل عرابى وتارة فى منزل عبد العال أو أحمد عبد الغفار وحثوا ضباط ألاياتهم على التشيع لهم بعد أن أقنعوهم بجودة مقصدهم وقال عرابى لعبد العال وعلى فهمى وأحمد عبد الغفار (وهذا الاخير كان صار رفته من ألاى السوارى وشرع فى حض وتحريض الآخرين) ان كنتم صرتم رجالا ولكم قدرة على خلاص وطنكم فها هو أوان الوقت وان لم يكن فيكم قدرة ولستم برجال فخلوا الجراكسة يفعلون فيكم ما يفعلون انى سمعت هذا اللفظ من عرابى بدار النفى فى سيلان فقالوا له نعم وأنت الرئيس علينا فقال لهم قبلت ذلك وتحالفوا فيما بينهم تحالفا ابتدائيا وكان ذلك فى منزل عرابى ثم اجتمع عليهم الضباط الاخر وتقرر فى العموم أن هؤلاء الثلاثة عرابى وعلى فهمى وعبد العال حيث انهم رؤس الالايات يكتبون عريضة يتظلمون فيها من أعمال واجراآت عثمان رفقى باشا فى حقهم وصدور أوامره برفتهم من ألاياتهم ويقدمونها الرئيس النظار رياض باشا فتوجه الثلاثة اليه وعرضوا عريضتهم عليه فأخذ رياض باشا عريضتهم وجبر خاطرهم ووعدهم بما يكون فيه الصلاح لانفسهم ووعظهم بعدم التهور واجراء السير على حسب ما تقتضيه الطاعة وحسن البراعة وأبطل رياض باشا ما صدر من أوامر عثمان رفقى ناظر الحربية بعد أن تكلم معه أمام الخديوى كلاما ثقيلا أوجب حشو قلب وبدن عثمان رفقى حنقا وغيظا وملأ قلب توفيق باشا غما وكدرا فقال له الخديوى توفيق باشا لابد من محاكمة هؤلاء وترتيب الجزاء اللازم عليهم حسب القانون فقال عثمان رفقى للخديوى أنا أحب من أفندينا أن يصدر لى أمرا بمحاكمتهم بواسطة مجلس عسكرى ومعاقبتهم على ما فعلوه من هذه الوقاحة فقال له توفيق باشا انظر بما يتولد من ذلك ثورة عسكرية يصعب اطفاؤها فقال عثمان رفقى بنفس أفندينا لا يحصل شئ ولا تشويش فى ذلك وأنا المسؤل فى هذه المسئلة وساعده فى ذلك خيرى باشا الجركسى ويوسف شهدى باشا الجركسى واستحصل عثمان رفقى على

أمر

أمر من الخديوى بعمل محاكمة هؤلاء الامراء الالايات وتجريدهم من رتبهم وقتلهم وكان ذلك كله لا معلومية لرياض باشا به ولما استلم عثمان رفقى الامر فى يده سار به فى الحال الى ديوان الحربية وحرر أوامر الى عرابى وعبد العال وعلى فهمى بانه لابد من حضورهم فى موكب زفاف أخت الخديوى وأن يكون حضورهم ابتداء فى ديوان الحربية بقصر النيل ولما وصلت هذه الاوامر أحسوا فى صدورهم بما سيحصل لهم وأوجسوا خيفة وأخذوا فى أداء طرائق التحرز والتحفظ ليلا وبأوامر عوبين قلقين حتى فى صباح ثانى يوم سار عرابى وعبد العال الى ديوان الحربية وأما على فهمى فانه جعل نفسه مريضا وأرسل بدله خورشيد بسمى قائم مقام الالاى فلما دخل الديوان أعاده عثمان رفقى وقال له لست أنت المطلوب بل المطلوب هو أمير الالاى فاذهب وأرسله حسب الطلب فعاد خورشيد بسمى الى الالاى فى عابدين وأخبر على فهمى بالخبر وكان على يقين مما سيحصل له فدعا محمد عبيد البكباشى وقال له احضر الالاى وعند حضور أول اشارة لك أسرع بجلب الالاى الى قصر النيل وأخذ على فهمى وراءه واحدا من البروجية وسار حتى دخل ديوان الجهادية مع عرابى وعبد العال فلما دخل الثلاثة جردوهم من سيوفهم فأوعز على فهمى الى البروجى فخرج البروجى المذكور مسرعا الى الالاى فى عابدين وضرب بنفيره نوبة حمله وهجوم فقام محمد عبيد مسرعا وأخذ أورطة من الالاى وأحاط بها الخديوى توفيق باشا فى سراية عابدين وفى أثناء ذلك بعد تجريد الثلاثة أمراء الالايات من سيوفهم أمام مجلس غاص بذوات الجراكسة فى ديوان الجهادية أودعوهم السجن وأوقفوا عليهم الخفر اللازم من ضباط الجراكسة حاملين الطبنجات والقربينات وأرادوا الشروع فى محاكمتهم وبعد أن أحاط محمد عبيد الخديوى بأورطة أسرع وأخذ أورطة أخرى حاملة السلاح وسار الى قصر النيل وهجم بأورطته على الديوان وعاث بالعسكر وجاس خلال الديار وضرب العسكر الكتاب ومستخدمى الديوان كبيرا وصغيرا وكسروا الزجاج والابواب وأخرجوا الميرالايات الثلاثة من السجن وفى أثناء هذا هرب عثمان رفقى ناظر الجهادية من أحد شبابيك قاعة مجلسه وذهب مسرعا الى سراى عابدين ملتجئا بالخديوى وأخذ محمد عبيد وعساكره الثلاث ميرالايات وتوجهوا جميعا الى قشلاق عابدين المواجه لسراى الخديوى وأرسل عرابى فى الحال الى الايه فى العباسية والاى السودان قيادة عبد العال المقيم بطره ومن بعد قليل اجتمع الالايات الثلاثة حاملة السلاح فى ساحة عابدين وكانت هذه الساحة غاصة فى الوقت بجماهير المتفرجين فقام عرابى خطيبا فيهم وشكرهم وأثنى عليهم على تلك الهمة والغيرة التى حصلت منهم فى خلاص اخوانهم وآبائهم مما كانوا وقعوا فيه ظلما ثم تقدم أحمد عرابى أمام الخديوى توفيق باشا وطلب لهم العفو منه عما حصل منهم من هذه الفعلة وطلب فى الحال خلع عثمان رفقى باشا من نظارة الجهادية فأجاب الخديوى الطلب وأحال عهدة نظارة الجهادية الى محمود سامى وكان فى هذا الوقت ناظر الاوقاف أيضا

وشرع محمود سامى فى الرفق بهم كما هى كانت عادته وأراهم ميل الخديوى لهم وعفوه عنهم وصفاء قلبه لهم الا انه دخل الرعب فى قلوبهم وتمكن الخوف من أبدانهم واعتبروا اجابة طلبهم مكيدة منهم من الحكومة لتسكين جأشهم واطمئنان خاطرهم ثم تحتال عليهم وتغتالهم وما كانوا يعتقدون فيما يعظهم به محمود سامى من الاقوال وتمهيد الاحوال واضطرب حالهم وزاد بلبالهم وشرعوا فى عقد مجالس سرية واحتفالات وجمعيات ليلية تارة فى منزل عرابى وتارة فى منزل على فهمى وتارة فى منزل عبد العال وهلم جرا يتذاكرون فى أمر اجتماع كلمتهم وعلو منزلتهم والوقاية من الاغتيال وطلبوا من

ديوان الحربية عدة أشياء تعز زجاهم فأجابهم الى ماطلبوا من عمل قوانين ولوائح تختص بحالة الضباط الجهادية والعساكر وترقى الرتب والمعاشات وضمائم السفريات والمأموريات ولما تمكن عرابى من استمالة العسكرية وضباطها طفق ينشر ويبث أفكاره بين الاهالى ويورى ورعه وانقياده وحبه الوطن وخدمته له وماهو جار فيه من انتشار الحرية ويطرق أبواب عقول مشايخ العربان وعمد البلاد وأعيانها وعلمائها بارادته العدل والانصاف والمساواة بين الناس وبعضهم وصار يزخرف لهم أعماله ويقوى قلوبهم بعسكره وضباطه استجلابا لمساعدتهم فى مشروعه العائد بالنفع عليهم على مازعم بالكذب وما كان يريد الاماظهر عنه فى سيلان وسأسرده فى الكلام على الاقامة فى دار النفى بجزيرة سيلان وما ارتكبه من جرائم الاثم والعدوان وكتب بماهو مظهره للناس منشورات ثورية ايقاعا بالوزارة الرياضية وفى أثناء هذا عرض محمود سامى التماسا الى رياض باشا رئيس النظار يطلب فيه زيادة مرتبات الضباط والعساكر الجهادية وتعديل النظامات والقوانين العسكرية وفى ١٢ ابريل سنة ١٨٨١ وقع الخديوى توفيق باشا على هذا الالتماس وكان لهذا الامر احتفال زائد فى قصر النيل دعا اليه محمود سامى النظار والمفتشين وكان يوما عظيما خطب فيه رياض باشا ومحمود سامى وأحمد عرابى ثناء طيبا على المكارم الخديوية لما منحته من الانعام لجماعة الجهادية والاغداق عليهم بما به يتمتعون وبجبر خاطرهم وللخديوى يشكرون

وفى ٢٥ يوليه من هذه السنة بينما كان الخديوى مصيفا فى الاسكندرية اذ صدمت احدى عربات واحد من تجار الاسكندرية عسكريا من عساكر الطوبجية فقضى عليه فى الحال فحمله رفقاؤه الى سراى رأس التين وطلبوا من الخديوى النظر فى أمره لان العسكر والضباط الجهادية فشل أمرهم واختل نظامهم فى الوقت من الاعمال الجارية من عرابى ورفقائه وانتمائهم للعسكر وجعلوا اصغار الضباط والعساكر الحالة التى بها نسوا القوانين العسكرية والنظامات الحربية حتى صار كل ضابط وكل عسكرى يفعل مايشاء ويختار لنفسه مايعود عليه من الراحة حتى تجاسر هؤلاء العساكر الطوبجية وتوجهوا بقتيلهم للخديوى توفيق باشا رأسا وتركوا ضباطهم الصغار والكبار فلما رآهم الخديوى فى هذه الحالة المهولة وعدهم وأمن خاطرهم وسكن جأشهم وفى الحال أمر الخديوى بعقد مجلس حربى ومن بعد الفحص أصدر هذا المجلس أمرا قاضيا على النفر العسكرى الذى جبر رفقاءه على التوجه الى رأس التين بالاشغال الشاقة مدة حياته وعلى الانفار الاخر وعددهم ثمانية بثلاث سنوات فى الليمان ثم يرسلون الى السودان ويلحقون بأنفار العسكر الموجودة هناك ولما بلغ عبد العال حلمى أميرالاى السودانية هذا الخبر تهور وأخذه الحنق وأرسل الى ناظر الجهادية محمود سامى يشكو اليه قسوة ذلك الحكم فعرض محمود سامى تلك الشكوى على الخديوى فتكدر الخديوى من ذلك واعتقد قلبا وقالبا أن محمود سامى متحد اتحادا كليا مع هؤلاء الميرالايات واستدعى فى الحال النظار من القاهرة الى الاسكندرية وعقدوا مجلسا تحت رياسة الخديوى قدم فيه محمود سامى استعفاءه وعهد الخديوى نظارة الجهادية الى داود يكن فاستلم الاعمال وهدأت الاحوال وهذه هى مبادى العداوة بين الخديوى توفيق باشا وبين محمود سامى

ولما عاد الخديوى توفيق باشا من الاسكندرية الى القاهرة فى شهر سبتمبر أصدر ناظر الجهادية داود يكن أمرا الى الالاى الكائن بالقلعة بالتوجه الى الاسكندرية وأمرا آخر الى الالاى الموجود فى الاسكندرية

بالحضور

بالحضور الى المحروسة فأوعز عرابى الى هذا الالاى بان المقصود من هذا الامر هو تفريق الكلمة وحرض العساكر وضباطهم على عدم طاعة هذا الامر وفى أثناء هذا كان طلبة عصمت من مستخدمى الدائرة السنية فلما رأى ناظر الدائرة تركه أشغاله ومداومته على الجرى عند عرابى وعبد العال وأحمد عبد الغفار والقاء الدسائس والفتن وتبليغ الاخبار سواء كانت حقا أو مخترعة الى كل من هؤلاء أمراء الالايات أصدر أمره برفته من خدمة الدائرة فتوجه مسرعا الى عرابى وكان مقيما فى ألايه فى العباسية وصار يحضه ويحرضه على القيام بأخذ حقوقهم وتنفيذ طلباتهم وكذا لما استعفى محمود سامى من نظارة الجهادية وتوجه الى منزله بالقاهرة توجه اليه أحمد عرابى سرا فى الليل وتعاهد معه على مساعدته ومعاضدته هذا قول عرابى لى والا فأنا ما كنت أعرف هذا ولما استوثق عرابى من معاضدة محمود سامى له عاد الى منزله وتوجه فى صباح ثانى يوم الى العباسية وأتى اليه طلبة عصمت يبث له ما وقع فيه ويحرضه على الاخذ بثار أخيه فخاطب فى الحال عرابى الالايات فى كونهم يستعدون للحضور فى ميدان عابدين وأرسل كتابة الى الخديوى والى نظارة الجهادية يخبرهم فيها أن الجيش سيحضر الى سراى عابدين بخصوص طلبات عادلة تتعلق باصلاح البلاد وراحة العباد وكتب بذلك أيضا الى قناصل الدول بأنه لا خوف من هذه الحركة على أبناء تبعتهم لانها تختص بالاحوال الداخلية فقط فأرسل الخديوى توفيق باشا رسلا الى عرابى وعبد العال وأحمد عبد الغفار ينصحهم ويحثهم على عدم اجراء مثل هذه الحركة وأن يكفوا عما هو متخيل فى صدورهم ثم قام الخديوى وتوجه بنفسه الى الاى عابدين وهو ألاى حرسه وكان تحت قيادة على فهمى وأخذ ينصحهم فتظاهروا بالنصح ثم توجه فى عربته الى القلعة مصحوبا بناظر الجهادية داود يكن وعرض الالاى الى الخديوى فشرع ينصحهم فأجابه العساكر بصوت واحد نحن مطيعون لاوامر ولى نعمتنا الا أنهم أخبرونا بان المقصود من سفرنا هو غرقنا فى قنطرة كفر الزيات فقال الخديوى لناظر الجهادية يظهر أن العساكر مغرورون فى أقوالهم هذه وتركهم وسار قاصدا نحو العباسية لسرعة توقيف عرابى عما هو متخيله فى صدره فلم يجده وقيل له ان عرابى سار بالعساكر الى عابدين فعاد الخديوى مسرعا الى عابدين

ولما تكامل اجتماع الالايات فى عابدين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ كان الميدان غاصا بجماهير المتفرجين وكان قناصل الدول فى داخل السراى فوصل الخديوى ووقف على بسطة سلم السراى وأمر فى الحال بحضور عرابى فحضر راكبا حصانه شاهرا سيفه وحوله ضباط الخيالة وعساكر من الخيالة ومحفوف بكثير من الضباط فأمره الخديوى بغمد سيفه والترجل من فوق حصانه وابعاد الضباط والعساكر من حوله وكان عبد العال يرمح بحصانه فى الميدان شاهرا سيفه أمام ألايه

ملحوظة — ان عرابى كان على الدوام يطالع فى تاريخ نابليون بونابارت وتخيل له أن يقوم بهذه الاعمال ويقود العساكر لينال ما ناله نابليون من توليته أمبراطورية فرنسا فكان المقصد الاصلى له أن ينال أريكة الخديوية المصرية لتمام مقصوده فى عزل الخديوى ولكن ما خطر بباله كان غير نواله

ولما وقف عرابى أمام الخديوى قال له ألم أك سيدك قال عرابى نعم

فقال الخديوى ألم أرقك الى رتبة أمير الاى قال نعم ولكن بعد مئات من الناس

فقال الخديوى وما هى أسباب حضورك بالعساكر هنا قال لنوال طلبات عادلة

فقال الخديوى وما هى هذه الطلبات فقال عرابى اسقاط الوزارة وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد

الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الاسلام

فقال الخديوى كل هذه الطلبات ليست من خصائص العسكرية فسكت عرابى وأشارت قناصل الدول على الخديوى بالدخول الى داخل السراى

وقال القنصل ماليت قنصل انكلترا بالنيابة عن الخديوى ان اسقاط الوزارة من خصائص الخديوى وطلب تشكيل مجلس النواب من خصائص الامة ولا وجه لزيادة الجيش لان البلاد فى أمن واستتباب راحة على أن مالية البلاد لا تساعد على ذلك وأما التصديق على القانون فسينفذ بعد اطلاع النظار عليه وأما عزل شيخ الاسلام فلا بد من اسناده الى سبب تام من الاسباب الواجب بها عزله فأجاب عرابى قائلا اعلم يا حضرة القنصل أن طلباتى المتعلقة بالاهالى لم أقدم عليها الا لكونهم أنابونى (كذب والله لانه خائف على نفسه) فى تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر لانهم اخوتهم وأولادهم وهم القوة التى ينفذ بها كل ما يعود على الوطن بالمنفعة واعلم اننا لا نتنازل عن هذه الطلبات ولا نبرح من هذا المكان ما لم تنفذ

فقال القنصل اذا تريد تنفيذ ما ترغبه بالقوة التى يخشى منها ضياع بلادكم

فقال عرابى ذلك لا يكون ومن ذا الذى ينازعنا فى اصلاح داخليتنا فاعلم اننا نقاومه أشد المقاومة الى أن نفنى عن آخرنا (نعم ظهر ذلك منه فى ضرب الاسكندرية والتل الكبير وهربه عريان)

فقال له القنصل وأين هذه القوة التى ستقاوم بها فقال عرابى فى وسعى أن أحشد فى زمن يسير مليونا من العساكر طوع ارادتى (كذب والله)

فقال له القنصل وماذا تفعل ان لم تنل ما طلبت فقال عرابى أقول كلمة ثانية فقال له القنصل وما هى فقال عرابى لا أقولها الا عند قنوطى من نوال طلباتى والى هنا انقطعت المخابرات نحو من ثلاث ساعات تداول الخديوى والقناصل فى أثنائها فى داخل السراى بشأن اجابة طلبات عرابى وانفاذها على التدريج لان بعضها يحتاج لمخابرة الباب العالى وأصر عرابى على سقوط الوزارة قبل انصرافه فسقطت واستدعى شريف باشا ومن بعد أن تردد كثيرا فى أمر رياسته قبل أن يشكل وزارة جديدة قال لا أقبل ذلك حتى يتعهد رؤساء الحزب العسكرى لامتثال أوامره والانقياد لطاعته وأن يقدم عمد البلاد ضمانة على ذلك فحصل كل هذا وتشكلت الوزارة وقال رياض باشا للخديوى أنا اليوم وسموكم غدا وتوجه مسرعا كما هى عادته الى بلاد أوروبا وضمن شريف باشا وعهد عهدا قويا الى عرابى وعبد العال وعلى فهمى بالمحافظة عليهم وعلى حياتهم وأن لا يمكن الحكومة من اغتيالهم ماداموا طوع يمينه وتعين فى هذه النظارة محمود سامى ناظرا على الجهادية والبحرية وأمر شريف باشا بان عرابى يتوجه مع ألايه الى رأس الوادى من مديرية الشرقية وعبد العال حلمى ينتقل بالالايه الى دمياط فامتثلا وسارا الى حيث أمرا فأما عرابى فمن بعد أن شحن مهمات ألايه فى أحد قطارات السكة الحديد وسار القطر صف هو الالاى جميعه وشق به من وسط مدينة القاهرة حتى توجه الى المسجد المعروف بمسجد الحسين بن على ودخل فيه مع بيرق الالاى وأوقف الالاى فى شارع المسجد وصار يصلى ويدعو فى المسجد والناس حافون به وحوله ولما تم شغله بهذه الحالة سار ووصل الى محطة السكة الحديد وصار أوباش العالم والحشاشون يرمون أمامه الورد والزهورات ويخطب محرر والجرائد العربية له خطبا يهنؤنه بها على نوال فوزه ومقصوده (لسا الجمل ورا)

﴿ ترجمة المؤلف ﴾

ومن حيث انه من ابتداء هذا المحل يلزمنى أن أذكر حياتى فأقول

أنا محمود فهمى المهندس مؤلف هذا الكتاب أصل مسقط رأسى فى قرية اسمها الشنتور وهى بلدى من قسم ببا بمديرية بنى سويف وهذه القرية على الشاطئ الشرقى من البحر المسمى ببحر يوسف ومن عائلة فقيرة كان أبى يملك بضع من الاطيان فى هذه القرية ولما أقام محمد على باشا المكاتب والمدارس فى أنحاء الديار المصرية شيد أيضا فى مدينة بوش على بضع ساعات من بنى سويف مكتبا للتعليم وتهذيب أولاد المديرية ومصاريفه على طرف الحكومة المصرية مثل غيره من المكاتب وكانت ولادتى فى سنة ١٢٥٥ هجرية وألزمت المديرية أهالى البلاد بجلب أولادهم الى المكتب رغم أنفهم وعينت المديرية على كل بلد ولدا ترسله الى المكتب جبرا عن أهله فكنت أنا ضمن هؤلاء الاولاد الذين دخلوا فى المكتب رغم أهلهم فدخلت فى هذا المكتب وهو مكتب بوش سنة ١٢٥٩ بعد أن بلغت من العمر نحو من خمس سنوات فقرأت فيه القرآن والآجرومية النحوى والكفراوى على الآجرومية ومبادى الهندسة والحساب والجغرافية وفى سنة ١٢٦١ انتقلت من هذا المكتب بعد الامتحان الى مدرسة التجهيزية بالازبكية وكان مقرها فى لوكندة شبت الآن فقرأت فيها الحساب وهندسة لوژندر والجغرافيا والنحو والصرف ومبادى اللغة التركية والفرنساوية وفى مبادى سنة ١٢٦٥ فى مدة حكومة عباس باشا انتقلت من هذه المدرسة الى مدرسة المهندسخانة فى بولاق فقرأت فيها علم الحساب العالى والجبر والهندسة الاصلية العالية والجبر العالى والهندسة الوصفية وعلم حساب المثلثات والتطبيقات والتفاضل والتكامل وقطع الاحجار والاخشاب وعلم الظل والمنظور والعمارات والقناطر والجسور والميكانيكه وموازنة السوائل والكيمياء والطبيعة ودرست الجغرافيه والطبوغرافية وأنواع الرسومات النظرى والعملى وفى مبادى حكم محمد سعيد باشا انتقلت مع اخوانى الى العسكرية ولحقت باورطة الكوبرجية والمهندسين بطره ومن بعد قليل ترقيت فيها الى رتبة الملازم الثانى فدرست فى هذه الاورطة التعليمات العسكرية والاشغال اللازمة لعمل جسور المراكب والكوبريات على الانهر والنهيرات وطرائق عمل الالغام وأنواع الهجوم وأشغال الاستحكامات وفى سنة ١٢٧٢ شيد محمد سعيد باشا مدرسة حربية هندسية فى القلعة التى أنشأها تحت القناطر الخيرية فانتخبت لأكون معلما فيها علم الاستحكامات والفنون العسكرية واستمرت هذه المدرسة فى القلعة السعيدية حتى تولى اسماعيل باشا ونقلها الى العباسية بالقاهرة وأنشأ مدارس أخرى خلافها حربية وصارت هذه المدرسة مدرسة للطوبجية ومازلت معلما فيها الاستحكامات والفنون العسكرية والعمارات الى سنة ١٢٨٨ هجرية وفى أثناء ذلك وصلت فى الترقية الى رتبة الصاغقول أغاسى وفى نفس سنة ١٢٨٨ صار انتخابى لان أكون باشمهندس قسم الساحل على البحر الابيض المتوسط من أبوقير الى رشيد الى البرلس فى عمل قلاع جديدة وترميم قلاع قديمة فانشأت سبع عشرة قلعة على ساحل البحر من أبوقير الى طابية فنار البرلس واستمريت فى هذه الوظيفة الى شهر رجب سنة ١٨٩٣ هجرية وفى أثناء هذه المدة ارتقيت الى رتبة قائمقام وفى رجب سنة ١٨٩٣ تعينت بامر نظارة الجهادية رئيس أركان حرب الفرقة المصرية التى أعدها الخديوى اسمعيل باشا للسفر والحاقها بالجيش العثمانى فى حروب الصرب والجبل الاسود فى نواحى بوسنه وهرسك

ثم انتقلت هـذه الفرقة الى بلغاريا بعد تمام الحروب فى نواحى بوسنه واستمريت مع الفرقة حتى عدنا الى القاهرة فى سنة ١٢٩٥ هجرية وفى هذه الحروب نلت نيشان الدرجة الثالثة المجيدى ونيشان الدرجة الرابعة العثمانى وميداليتين واحدة فى حرب الصرب وأخرى تختص بحرب الروسيا ورتبة أميرالاى ونلت الشهادات العظمى من القواد العثمانية وفى أواخر سنة ١٢٩٥ هجرية عهد الى الخديوى اسماعيل باشا وكالة محافظة مدينة القاهرة ومن بعد قليل ألغيت هـذه المحافظة وهـذه صورة أمره

قد اقتضت ارادتنا تعيينكم وكيلا الى محافظة مصر ولزم اصداره اليكم للمعلومية والمبادرة بالتوجه الى مأموريتكم هـذه ومباشرة ورؤية أشغالها على المحور اللائق بها كما هو مطلوبنا فى ٣ يوليه سنة ٧٨ الموافق ٣ رجب سنة ١٢٩٥ نمرسايره ٢١ الختم

﴿اسماعيل﴾

وانتقلت بامر الخديوى اسماعيل باشا الى ديوان الاشغال العمومية فمكثت فيه قليلا ثم تعينت مفتشا على هندسة الاقاليم الوسطى وهى مديريات الفيوم وبنى سويف والمنيه وأسيوط واستمريت فى أشغال هـذه الوظيفة حتى تعين محمود سامى فى نظارة الجهادية هـذه الدفعة تحت رياسة شريف باشا المتقدمة الذكر

ولنذكر أنه ولو أن محمود سامى صار ناظر الجهادية تحت رياسة شريف باشا الا ان الخديوى توفيق باشا مازال يبغضه من الحادثة الاولى فعرض محمود سامى الى رياسة مجلس النظار بطلبى من وظيفتى وتقليدى بديوان الجهادية باشمهندس عموم الاستحكامات المصرية فقرر مجلس النظار على طلب ناظر الجهادية وانتقلت الى هـذه الوظيفة بزيادة المرتب لى شهريا وكان راتبى الشهرى فى وظيفة التفتيش خمسين جنيها مصريا فبلغ المرتب فى هذه الوظيفة خمسة وستين جنيها ولما دخلت فى ديوان الجهادية أثنيت على ناظر الجهادية وقابلت الخديوى توفيق باشا فتشكرت لسموه على ما فعله من قبوله التماس ناظر الجهادية محمود سامى ولما استقر عرابى فى رأس الوادى شرع يجول فى أنحاء المديرية ويدس دسائسه ويبث مباديه فى نفوس عمد البلاد ومشايخ العربان فلما رأى ناظر الجهادية محمود سامى منه ذلك التمس من شريف باشا والخديوى أن يجعله وكيلا لنظارة الجهادية ولما تقلد زمام هـذه الوظيفة تداخل فى أشغال الحكومة وأشغال الدواوين وصار يجول فيها ويعقد المحافل فى منزله علانية وفى منزل غيره من رفقائه وكان على الدوام يجعل مجلسه فى منزل محمود سامى لاجل أكله وشربه وتوسط بالعفو عن حسن موسى العقاد وكان منفيا فى الجهات السودانية فى نظير جعالة جعلت له فأجابه الخديوى وسعى فى عزل شيخ الاسلام واستبدله بالشيخ الامبابى وكثر وفود الناس اليه وورودهم عليه بعرضحالات والتماسات يتظلمون فيها من المديريات فكان يكتب على كل عريضة ويتداخل فى كل جريمة حتى شق ذلك على شريف باشا وغضب من الافعال الجارية من عرابى وعزم على الاستعفاء

وفى ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨١ صدق الخديوى على غير رغبته على القوانين العسكرية الجديدة جميعها وفى ٤ أكتوبر من تلك السنة اعتمد الخديوى لائحة انتخاب مجلس النوّاب وفى ١٠ أكتوبر وفد الى الاسكندرية وفد عثمانى بامر الجناب السلطانى وهو على نظامى باشا ومعه ثلاثة آخرون وقدموا العاصمة وأنزلهم الخديوى فى قصر النزهة وسار والمقابلته فى سراى الاسماعيلية وبلغوه رضا الجناب السلطانى وأن المقصد من حضورهم تأييد نفوذه وتعزيز موقعه واثبات مركزه فتشكر الخديوى

الحضرة

الحضرة السلطانية ودعا لها بالبقاء والعز والقبول وسار على تطامى لزيارة ألالاى قصر النيل وكان عرابى حث محمود سامى على أن يجعل قيادة هذا الالاى الى عهدة طلبه عصمت بعد رفته من الدائرة السنية فاستلمه مع أنه ما كان حائز الرتبة أميرالاى عسكرى وهذه أول حادثة فى مخالفة القوانين الجديدة التى عملت للترقى بمعرفة جماعة الجهادية من عرابى ورفقائه وفعل محمود سامى هذه الفعلة مراعاة لخاطر عرابى حتى ينزجر ومع هذا فلا وفى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ تم انتخاب أعضاء مجلس النواب وكان مؤلفا من اثنين وثمانين عضوا وأقيم محمد سلطان باشا رئيساله وفى ٢ فبراير سنة ١٨٨٢ استعفى شريف باشا بسبب ماحصل بين وزرائه ومجلس النواب من الخلاف فيما يختص بالنظر فى ميزانية مصروفات الحكومة وذلك أن مجلس النواب أصر على أن يكون له الحق فى النظر فى ميزانية مصروفات الحكومة وامتنع من ذلك شريف باشا ومن معه من النظار ووقع الخلاف بينهما فاستقال شريف فى الوقت وعهد برياسة النظار الى محمود سامى باشا وأمره بتشكيل وزارة جديدة

وكنت أنا فى أثناء ذلك توجهت الى السواحل المصرية لاستلام أعمال الوظيفة التى توظفتها وهى نظارة القلاع والطوابى من ابتداء طوابى العجمى والاسكندرية وأبوقير ورشيد والبرلس ولما وصلت الى دمياط رأيت فيها تلغرافا من محمود سامى بسرعة وصولى المحروسة فنزلت من دمياط وتوجهت القاهرة ووجدت فى منزلى أمر الخديوى بعهدة نظارة ديوان الاشغال الى من غير ما أعرف بسقوط وزارة شريف باشا وهذه صورة الامر حرفيا

أشغال عمومية ناظرى عزتلو محمود فهمى بك

بناء على تغيير هيئة النظار التى كانت تحت رياسة محمد شريف باشا واحالة مقام الرياسة لعهدة سعادتلو محمود سامى باشا وتكليف المشار اليه بانتخاب وتسمية هيئة نظار تحت رياسته قد أعرض لطرفنا عن الهيئة التى استحسن تشكيلها ومن ضمن ذلك تعيينكم لنظارة الاشغال العمومية وحيث ان انتخاب المشار اليه وقع لدينا موقع الاستحسان والقبول لما هو معلوم لدينا فيكم من الاهلية واللياقة لذلك فأصدرنا أمرنا هذا لكم اشعارا بتوجيه نظارة الاشغال العمومية لعهدة لياقتكم ولكى تبادروا بمباشرة الامور والمصالح المتعلقة بهذه المأمورية على وجه المرغوب كما هو مطلوبنا تحريرا فى ١٥ ربيع أول سنة ١٢٩٩ الموافق ٤ فبراير سنة ١٨٨٢ نمرة ٧ سايره

الختم

محمد توفيق

ولما قرأت هذا الامر خلعت ملابس السفر ولبست ملابس أخر وتوجهت لمقابلة الخديوى توفيق باشا وشكرت ذاته البهية على ما أسداه من هذه الفعلة السنية فهنأنى بهذا المنصب الرفيع ومن هذا الوقت تكاثرت الاعداء بالقدح والذم وقالوا فينا عند الخديوى توفيق باشا ما قال مالك فى الخمر حتى أوغروا صدره حقدا وحنقا

ولما قابلت الخديوى توفيق باشا توجهت الى منزل محمود سامى وشكرته على أفعاله وما منحنا به من حسن التفاته فى الاولى والثانية وهى الاكبر وفى أثناء نظارة الاشغال ترقيت بعدها بشهر الى رتبة اللواء الرفيعة وهى رتبة الباشوية مع أحمد عرابى فى يوم واحد

ولما شكل محمود سامى النظارة فكانت بهذه الهيئة

محمود سامى باشا رياسة النظار وناظر الداخلية

أحمد عرابى باشا	ناظر الحربية والبحرية
مصطفى فهمى باشا	ناظر الخارجية والحقانية
على صادق باشا	ناظر المالية
حسن شريعى باشا	ناظر الاوقاف
محمود فهمى باشا	ناظر الاشغال العمومية
عبدالله فكرى باشا	ناظر المعارف

ولما استلم عرابى مسند نظارة الحربية والبحرية سعى فى ترقية كثيرين من رفقائه الضباط وقرر قانون الضمائم والمعاشات بطريقة جعت القلوب على ولائه وجبر الخديوى توفيق باشا على ترقية نحو من أربعمائة لم يراع فى ذلك قانونا ومن الذين رقاهم الى رتبة اللواء عبد العال وعلى فهمى وطلبه عصمت وخرق حرمة القانون العسكرى الذى جبر شريف باشا الخديوى على التصديق عليه ومع كونه فى نظارة الجهادية فانه كان يتداخل فى جميع أشغال الحكومة حتى تلفت ادارة الدواوين وفى مدته فقدت النظامات والقوانين من العسكرية وصار لا طاعة لاحد لمن فوقه من العساكر والضباط ورفت من ديوان الجهادية من شاء وأبقى من شاء واستبد بحركاته وسكناته وكل من كان له مظلمة من الناس فى النواحى القبلية والجهات يفد على عرابى بهداياه ليقضى له أشغاله ويبلغه نواياه وكذا فى القاهرة تواردت على منزله الستات والهوانم ليؤدوا الى حاته الهدايا والمغارم لقضاء أشغالهم وجبر حالهم حتى امتلأ بيته بالهدايا والنقود وكان ولم يزل يدعى الفقر وامتلأ بيته من أهل المنامات وكثر الدجل وضرب الرمل

ولما وجد الضباط من الجراكسة ما قرره عرابى من ترقية رفقائه من الضباط ولم يحصل لاحد منهم ترقية الاقليلا جدا من الذين كانوا منتمين اليه زمجروا وغضبوا فعين منهم جملة فى الالايات التى كانت استعدت للسودان من أجل حركة المهدى فقالوا لا نسافر حتى نترقى مثل الذين ترقوا وفى أثناء هذا بلغ عرابى من أحد الجراكسة الذين رقاهم أن ضباط الجراكسة المتأهبين لسفر السودان مجموعون على الوقوع به وفى عزمهم الكيد له فأمر بالقبض عليهم ظالما أو مظلوما وسجنهم فى أود فى قشلاق عابدين وعقد لهم مجلسا حربيا تحت رياسة صديقه على الروبى وبعض ضباط آخرين وكان الذين صار ضبطهم نحوا من أربعين ضابطا ومن جملتهم عثمان رفقى باشا ناظر الجهادية سابقا وعاملهم بالقسوة الشديدة والغلظة القبيحة العتيدة ووضعهم فى الحديد وأمر بحبس كل واحد منهم على حدته وسلط عليهم هو وعلى فهمى وعبد العال حلمى عساكر الخفر الموجودين محافظين عليهم أن يعذبوهم ليلا ونهارا هذا جميعه ما عدا عثمان رفقى باشا فانه كان مسجونا سجن مكرم محترم وعمال هولاء الضباط فى أشد المضايقة والعذاب فى سجون قشلاق عابدين كان الخديوى يسمع أنينهم وبكاءهم لان القشلاق تجاه سراى عابدين المقيم بها الخديوى ومن ثم لاجل خلاص أنفسهم من هذه المضايقات قالوا فى المجلس الحربى كل ما يختاره على الروبى ويشتهيه على خاطر مرغوب صديقه أحمد عرابى ومن بعد تمام التحقيق الجبرى حرر أرباب المجلس جرنالا طويل الاسئلة والاجوبة ووقعوا الحكم فيه على هؤلاء الضباط بنفيهم من الاقطار المصرية الى جهات الاقطار السودانية وأرسل رئيس المجلس على الروبى جرنال التحقيق الى أحمد عرابى ناظر الجهادية والبحرية بجواب من طرفه فأرسله عرابى الى معية الخديوى توفيق باشا

ليصادق الخديوى على ماوقع من الاحكام على هـذا الجرنال فجمع الخديوى النظار تحت رياسته وقرأ الجرنال جميعه بحضورهم فتقرر بهذا المجلس نفيهم الى جهات القسطنطينية فى ممالك الدولة العثمانية البحرية حيث لايمكن معيشتهم فى الاقطار الحارة السودانيـة وفى هذا المجلس كلف عرابى الخديوى بتجريدهم من الرتب والامتيازات فقال الخديوى ان رتبـة الفريق الحائز عليها عثمان رفقى باشا لايمكن تجريده منها لان ذلك من حقوق الباب العالى فيلزمنى أن أتخابر أولا مع الباب العالى فقال عرابى ولماذا صار تجريد جاهين باشا كنج حال خروجـه من الديار المصرية الى ايطاليا ودخوله حتى حمايتها بغـير أمر الباب العالى فقال توفيق باشا كان ذلك من عين الظلم البين فقال عرابى ولماذا أفندينا يحصـل منه مثل هذا الظلم المعلوم عند أفندينا وانقطع الكلام وكل من النظار قام لحال سبيله

ومن بعـد مضى أسـبوع تحرر من المعية الخديوية الى ديوان الداخليـة على هـذا الجرنال بتوقيع الاحكام وتنفيذها بشأن نفى ضـباط الجراكسة الى جهات القسـطنطينية والبلاد الشامية السورية وأن يكون اجراء ذلك بمعرفة ناظر الداخليـة محمود سامى فلما رأى ذلك عرابى أخـذه الغضب وقال فى مجلس النظار المعتاد ان الداخلية ليس من حقوقها تنفيذ أوامر على جماعة الجهادية بل ديوان الجهادية له الحق فى المخابرة رأسا مع الخديوى بدون توسط الداخليـة ومن حيث ان الجـرنال مرسول من نظارة الجهادية الى المعيـة فكان الواجب على المعيـة أن ترسله مشروحا عليـه الى ديوان الجهادية رأسا من طرفها واحتد فى الغضب وقال أنا لا أقبل هـذا الجرنال من ديوان الداخلية والاحسن عوده الى المعية لترسله من طرفها رأسا الى ديوان الجهادية من بعـد التصديق على ما فيـه من الاحكام وبمعرفة ديوان الجهادية يجرى التنفيـذ لا بمعرفة الداخلية فأخذ ناظر الداخليـة الجرنال فورا وقام من المجلس وسار متوجها الى الخديوى وعاد بعد قليل فكان هـذا مبدأ الحوادث القبيحة والاجراآت الفظيعة والثورة الملقبة بالثورة المشؤمة العرابية وذلك أنه من بعـد خروج ناظر الداخلية من عند الخديوى توفيق باشا أرسـل الخديوى فى الحال الى كل من قنصـلى دولة انكلترا وهو ماليت وقنصل دولة فرنسا وأبلغهما ان رئيس النظار وناظر الداخلية حضر هنا فى الحـل والساعة ودخل عليـه فاتحا صـدره وأزعجه وهدده بالكلام وقال له ان حياة التبعة الاورباوية على خطر يكون معـلوم لكما فانزعج القنصـلان من كلام الخديوى وأسرعا بالحضور الى ديوان الداخليـة وسألا من ناظر الداخليـة ومن عرابى ناظر الحربية عن حالة الاوروباويين فى القطر المصرى وعما اذا كان يحصـل لهم خطر أو ضرر فأكدا لهما ان لاشئ فى الامر من مثل ذلك

ومن ابتداء هذا الوقت شرع القنصل ماليت والمفتش المالى كولفن فى مخابرة دولتهـما وانتهاز الفرصة فى التغلب على البلاد المصرية وكذا خابر قنصـل فرانسا دولتـه وحصلت المشاكل والارتباكات وازدادت المجالس الليليـة والاجتماعات وصار كل انسان يقول ماعنـده من الاقوال وما يتراءى له من الافكار وبينما الناس فى هـذه الهواجس اذ ورد للخـديوى توفيق باشا بلاغ من كل من دولتى انكلترا وفرنسا بأنهـما وطدانه ومعضدانه ومثبتانه على الاريكة الخديوية المصرية ولا خوف عليه ولا على أريكته من شئ وكان قبـل ذلك بمدة حصـل انفضاض مجلس شورى النواب ولما رأى النظار ما هو حاصـل من الارتباكات طلبوا عقـد مجلس نواب الامة فحضر المجلس وكان على غير رضا من الخديوى وحاول محمد سلطان باشا رئيس المجلس ونفس المجلس فى حصول الاصلاح بين رئيس النظار محمود سامى

ومعه أحمد عرابى وبين الخديوى فلم يفوزوا بشئ ثم اجتمع النظار جميعا مع رئيسهم محمود سامى وتوجهوا ليلا الى سراى الاسماعيلية ومعهم محمد سلطان باشا وحصل الصلح (فى الظاهر) وقال الخديوى انى سامحت وعفوت عما حصل وانفض المجلس على الصلح والاطمئنان وازالة الهواجس ومنع المجالس الليلية المتسبب عنها هياج الاوروباويين ومن بعد هذا الصلح بقليل ازدادت الارتباكات والقلاقل وتحير مجلس النواب فى أمره بين رئيس الوزارة والخديوى فشكل المجلس المذكور وفدا منهم وأرسلوه الى الخديوى يرجون اجابة سؤالهم فى الهدو والراحة فأجابهم متأسفا بعدم امكانه فعادوا وأخبروا رئيس المجلس والنواب بما حصل وفى ١٤ مايه سنة ١٨٨٢ تعينت لجنة ثانية من المجلس لتعرض على الخديوى هدو راحته وسقوط رئيس النظار فقط و يتعين بدله مصطفى فهمى باشا فتوجهت هذه اللجنة وعرضت على الخديوى ذلك فقبل منهم هذا بعد التردد الكبير ثم سارت هذه اللجنة الى مصطفى فهمى باشا يسألونه قبول تلك الرياسة فرفض القبول ورجعت المسئلة الى موضوعها الاول بل زادت ارتباكا

وبينما الناس فى هذه الارتباكات اذ ورد تلغراف من لوندره ينبئ بصدور الامر الى الاسطول الانكليزى الرأسى فى بحر المانش أن يتأهب و يستعد للسفر فى ٢٨ مايه الى البحر الابيض المتوسط فأوجس الناس خيفة ومازال النواب والعلماء يسعون فى حصول الراحة حتى استتبت نوعا عن ذى قبل ثم أشيع عن قرب وصول اسطول انكليزى وآخر فرنساوى ، وورد تلغراف من جزيرة كريد مخبرا بخروج الاسطول الفرنساوى منها قاصدا ثغر الاسكندرية والاسطول الانكليزى باقيا فيها ينتظر قدوم الاسطول العثمانى ليأتى الاثنان فى وقت واحد

وفى ١٩ مايه ابتدأ ورود المراكب الانكليزية فى مينا الاسكندرية وفى ٢٥ مايه قدم قنصلا انكلترا وفرنسا بلاغا نيابا من دولتيهما بالاتحاد مع محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب بسقوط الوزارة وخروج عرابى من القطر المصرى و يضمنان له حفظ رتبه ورواتبه وابعاد كل من عبد العال حلمى وعلى فهمى الى بلادهما فى جهات الارياف مع حفظ رتبهما ورواتبهما مع تكفل الدولتين بالزام الخديوى بصدور عفو عام عن جميع الذين لهم دخل فى مسئلة أحمد عرابى فلم تقبل الوزارة هذا البلاغ وقبله الخديوى و بناء عليه استعفت الوزارة فى ٢٦ مايه ومن هذا الوقت أخذ الخديوى ادارة الحكومة تحت يده وأرسل فى صباح ثانى يوم الى يعقوب سامى وكيل نظارة الجهادية وقال له ان الوزارة استعفت والآن صارت الادارة أنا المسؤل عنها وكذا ادارة العساكر الجهادية فلا يلزمك اجراء شئ الا بالاستئذان من طرفنا وفى الحال أصدر له أمرا بذلك وأن يتوجه فى الحال الى ألآلايات العباسية وقصر النيل وعابدين والقلعة و ينشر على العساكر والضباط التنبيهات والاوامر الخديوية حسبما صدر له ونفس هذا اليوم كان يوم جلوس الخديوى على الاريكة المصرية وحصول الاحتفال فى هذا اليوم فاصدر الخديوى أمرا الى يعقوب سامى وكيل الجهادية بأن يأتى الى التشريف مع أمراء الالايات واللوا آت الموجودين فى القاهرة وضواحيها لاجل تشريفة هذا اليوم فحرر وكيل الجهادية اعلانات الى أمراء الالايات واللوا آت ليحضروا فى ساعة معلومة عنده و يتوجهوا التشريفة الخديوى فى سراى الاسماعيلية فأسرع طلبه عصمت الى منزل أحمد عرابى وأخبره الخبر فقال عرابى ربما يعرض عليكم بلاغ الدولتين فتجاوب أنت بعدم قبوله وان ذلك من خصائص الباب العالى ولما استعفى عرابى من

نظارة

نظارة الجهادية كتب اعلانات وأرسلها الى الالايات وسائر الجهات بأنه وان كان استعفى من نظارة الجهادية الا أنه لم يزل رئيس الحزب الوطنى والمرجع اليه فى الحال والاستقبال ولما وصل وكيل الجهادية يعقوب سامى بمن معه من الضباط والامراء لاجل التشريفة ودخل بصحبتهم عند الخديوى وجد مجلسا غاصا بالعلماء والقناصل ونواب الامة جميعا ورجال الحكومة ولما استقر بهم الوقوف قام الخديوى من مجلسه وقال مخاطبا الوكيل الجهادية أنا قبلت بلاغ دولتى انكلترا وفرنسا وقبل أن يتم الخديوى كلامه خرج طلبه عصمت من محله ودق على صدره وقال نحن مطيعون أوامر أفندينا ولكن يستحيل علينا تنفيذ هذا البلاغ ولا حق للدولتين فى طلب ذلك لان هذه المسائل من خصائص الباب العالى فجذبه وكيل الجهادية الى وراء وأخذه وخرج من المجلس وتبعه الضباط الآخرون وفى نفس هذا الوقت ورد تلغراف الى الخديوى من العساكر والضباط الموجودين فى رأس التين بالاسكندرية تحت امضاء سليمان سامى القائمقام بالقول ان العساكر لا يقبلون ناظرا عليهم خلاف أحمد عرابى وان مضت اثنتا عشرة ساعة ولم يعد الى منصبه يكونون جميعا خالين عن المسؤلية عما يحدث ومما لا يستحسن وقوعه وزاد الاشكال والاضطراب واختل النظام وقلق الناس فعقد محمد سلطان باشا فى منزله مجلس النواب وطلب البعض من ضباط الجهادية للمداولة معهم فيما يلزم لحصول الامن والراحة فتوجه أحمد عرابى وعبد العال حلمى وطلبه عصمت بعد أن جعلوا عرابى نائبا عنهم وكان من جملتهم محمد عبيد وبعض ضباط أخر ووكيل الجهادية يعقوب سامى فخطب عرابى فى وسط مجلس الامة وذم الخديوى وندد على أفعاله وحركاته وقال أخيرا انى عزلت توفيق فمن أجابنى فليقم فما قام أحد من النواب الا مانذر فزعق محمد عبيد بصوته كل من لم يجب رئيس الحزب الوطنى قطعت رأسه بسيفى هذا وأشهر سيفه فى وسط المجلس فتولد من هذا ضجة قبيحة وخرج الجميع على غير طائل وارتبكت الامور فى القاهرة والاسكندرية وهاج الناس بعضهم فى بعض فسار قناصل الدول الى الخديوى وتداولوا معه فى ارجاع أحمد عرابى الى منصبه لاجل تأييد الامن والراحة فى أنحاء القطر على الوطنيين والاجانب فقبل ذلك الخديوى وحصل السرور لرجال الحزب الوطنى وأخذ عرابى مسؤلية الامن والراحة على نفسه وصدر له من الخديوى أمر بعوده الى مسنده الاول وأرسل الخديوى بلاغا الى الباب العالى يخبره أن العساكر ليسوا راغبين فى استعفاء الوزارة وأقاموا الحجة على طلب الدولتين فأجيب بان الحضرة السلطانية أمرت بتشكيل لجنة عثمانية تأتى مصر من بعد ثلاثة أيام لاجل النظر فى هذه الامور الحاصلة

ولما عاد عرابى بأمر الخديوى الى مسنده فى نظارة الحربية بعث بلاغا الى قناصل الدول يضمن لهم تأييد الامن واستتباب الراحة لجميع سكان القطر المصرى من وطنيين وأجانب مسلمين وغير مسلمين وطلب فى هذا الوقت ثلاثة أشياء

(أولها) — اعادة بلاغ الدولتين وانسحاب اسطوليهما من مياه الاسكندرية

(ثانيها) — وضع قانون أساسى مبين فيه حدود كل من الخديوى ووزرائه

(ثالثها) — قطع المخابرات والملاقات مباشرة مع الدولتين ومع عموم الدول الا بواسطة الباب العالى

ومن كثرة الحاح ماليت قنصل انكلترا على الحكومة الانكليزية وحثها وتحريضها فى هذا الوقت المناسب خابره المستر غلادستون رئيس الوزارة الانكليزية سرا وقال له لا يمكن التداخل فى هذه المسئلة

الا اذا قامت جماعة الجهادية وظهر قيامهم للدول اذ ايكون هذا الوقت هو وقت الدخول واجراء العمل حسبما ترغبونه ثم صرح غلادستون فى مجلس اللوردات أن دولته لابد لها من تأييد كلمة الخديوى توفيق باشا بالنسبة لما أظهره فى حق الدولة البريطانية من الصداقة والاخلاص

وفى ٧ يونيه وصل الى ثغر الاسكندرية وابور عزالدين الشاهانى حاملا دولتلو درويش باشا المعتمد العثمانى ومعه السيد أحمد أسعد وبعض معاونين وقدرى بك وتوجه وكيل الجهادية يعقوب سامى لمقابلته وكان ذوالفقار باشا وحسن حلمى باشا مستعدين لمقابلته فى الاسكندرية فقال ذوالفقار باشا لوكيل الجهادية لم يكن لك رخصة ولا اذن فى التوجه الى عزالدين ومقابلة النائب العثمانى حسب أمر الحضرة الخديوية فحرر وكيل الجهادية تلغرافا بذلك الى عرابى فى القاهرة فأجابه فى الحال بأنه لابد من توجهه مع محمد كامل باشا وكيل ديوان البحرية ومقابلته رغما عن قول ذى الفقار باشا فحصل ذلك وكانت هذه أول مبادى كراهة الخديوى ليعقوب سامى لما وجد فيه من كل الميل الى عرابى ولما نزل درويش باشا فى الاسكندرية سار على الفور الى محطة السكة الحديد وتوجه مسرعا مع من جاء بهم الى القاهرة فقابله أهل القاهرة وطرح الاوباش والحشاشون أمامه الورد والزهورات وساروا يصرخون أمامه بقولهم اللهم انصر السلطان ومازالوا أمامه فى هياص وزعيق حتى وصل الى سراى الجزيرة وكان الخديوى أعدها لنزوله وقابل الخديوى ثم زاره الخديوى ولما كان لايوجد فى هذا الوقت نظارة توجهنا (النظارة السابقة) مع محمود سامى وعرابى وزرناه وسلمنا عليه وشرع فى المخابرة بين الخديوى ومحمود سامى وعرابى وصار بعد هذا وبين هذا وأما السيد أحمد أسعد فانه لما رأى صعوبة الاحوال ومشقة الاعمال اكتفى بان اشترى ما يلزم له من القاهرة وتوجه الى القسطنطينية وعرض للسلطان بان عرابى حقيقة من أكبر العصاة على الخديوى ومازال درويش فى كدّ وسعى وأخيرا لما رأى أن أموره مع عرابى لاتفيد شيأ قال له جهارا تأمل ياعرابى أنا جئت من عند السلطان صاحب الشوكة والعظمة والاركان لاجل توطيد الخديوى وتنفيذ أحكامه وان سيدك يأمرك بالتوجه الى سدته العلية أنت ومن معك من الذين لم يكن الخديوى له فيهم رغبة بالكلية فأبى عرابى التوجه وعدم القبول واشتدت الاحوال واختلفت الاقوال وكثر الاضطراب والقلق من ساكنى مصر عموما وأخذ منهم مبلغا جسيما وكثرت الاشاعات فعزم النزلاء الاجانب على الجلاء والمهاجرة الى أوروبا خوفا من أمر يأتى أوفرارا من بلاء محسوب وأصبحت الاسكندرية ملجأ للوافدين من نواحى الارياف والصعيد مؤملين أنهم يكونون فيها آمنين من غوائل التعدى لكثرة مافيها من الاجانب أوالحماية تحت الاسطولين الفرنساوى والانكليزى

وكان فى هذا الوقت عمر لطفى باشا محافظ مدينة الاسكندرية واسمعيل كامل باشا الجركسى قائد عساكر الاسكندرية فحصل من بعض الرعاع معاكسة الاجانب وأغلظوا لهم فى معاملاتهم واستبدوا معهم فى أمورهم ولما رأى أولئك الاجانب تغير الاحوال والنظام صاروا يتأهبون سرا للدفاع خوفا من الاهالى ربما يوقعون بهم أمرا ليس فى امكانهم دفعه بغير سلاح

وفى ١١ يونيه حصلت منازعة بين حمار ومالطى تسبب منها الغارة على البيوت وقتل العساكر المستحفظون والاهالى بالاجانب وقتلوا منهم مقتلة عظيمة بلغ القتلى فيها ماينوف عن الالف وصار العساكر يحملون القتلى فى الطرقات ويرمونهم فى البحر وجرى الدم من باب الترسانة الى ديوان المحافظة

وصار

وصار المحافظ يأمر بجلب عربات الرمل وبردم الدماء وانجرح كثير من كبار الاجانب فاصدر محافظ الاسكندرية أمره الى سليمان سامى القائمقام بان يبعث العساكر الجهادية لايقاف الاهالى ومنعهم من ارتكاب تلك الفظائع فأجاب سليمان سامى بعدم استطاعته الا اذا أتاه أمر من عرابى ولما انتشر خبر هذه الحادثة الفظيعة بعد تسكين أهالى الاسكندرية هرع الاهالى من الاجانب فى الخروج من القطر المصرى وقيل انه هاجر من مصر فى تلك المدة ما ينوف عن مائة وخمسين ألفا

وفى صباح ١٢ يونيه اجتمع القناصل وخاطبوا درويش باشا بكلام عنيف وعقدوا مجلسا فى سراى الاسماعيلية كان فيه الخديوى ودرويش باشا وشريف باشا وغيرهم من رجال دول أوروبا تقرر فيه ما يوجب الامن والراحة وأن يمتثل عرابى لاى أمر تما يصدر له من الخديوى وأخذ درويش باشا على نفسه تنفيذ الاوامر الخديوية بالاشتراك مع عرابى ورضى وكلاء الدول بذلك وفى الحال صدر الامر بتسفير الالايين من البيادة وجملة بطريات من الطوبجية وفرق من السوارى الى الاسكندرية للمحافظة عليها وعلى أهلها وتعينت لجنة بأمر الخديوى تحت رياسة عمر لطفى المحافظ وفيها مندوبون من طرف القناصل لاجل معرفة السبب فى أصل المذبحة وآل أمر هذه اللجنة الى الانفكاك ولم يتيسر لها الحصول على شئ لان الامر مبهم جدا عليها ولا يمكنها الوصول الى معرفة ما لديها

وفى ١٣ يونيه قام الخديوى من القاهرة متوجها الى الاسكندرية مصحوبا بدرويش باشا ولما وصل اليها زاره قناصل الدول وأظهر لهم أسفه على ما حصل من هذه الحادثة الشنيعة ووعدهم باخماد الفتن واستتباب الراحة وأرسلت قناصل الدول الى رعاياها بالمهاجرة الى القطر المصرى نجاة لهم وحفظا لسلامتهم وعينت كل دولة سفنا لنقل رعاياها مجانا وورد من ماليت قنصل انكلترا أمر من لوندره بحضوره فى الاسكندرية ومرافقته للخديوى توفيق باشا حيثما توجه وفى ٢١ يونيه شكل الخديوى وزارة جديدة تحت رياسة راغب باشا بقى عرابى فيها ناظرا للجهادية البرية والبحرية ثم وردت الاخبار بعقد مؤتمر فى الاستانة للبحث عن المسئلة المصرية فتمنع الباب العالى من ذلك بما أنه ليس فى مصر ما يوجب الاضطراب اعتمادا على تقرير درويش باشا أما حكومة انكلترا فلم تزل ساعية ومكدة على عقد المؤتمر بدعوى أنه يستحيل اعادة الامن فى مصر بدون قوة فعالة وأجاب الباب العالى باستقرار السلم بعد تشكيل الوزارة ووافقه دول المانيا وأوستريا وايطاليا والروسيا خوفا من مطامع انكلترا فى مصر الا أنه فى ٢٤ يونيه صار عقد المؤتمر فى الاستانة بدون دخول الباب العالى فيه فكان ما تقرر أن الحكومات التى وقع وكلاؤها على ذيل هذا التعهد بالنيابة عنها تتعهد أنها لا تقصد اغتنام أرض تما مطلقا ولا الحصول على امتيازات تما ولا يكون لرعاياها من الامتيازات التجارية شئ ولا يمكن أن يناله غيرهم من رعايا أى دولة فى مصر وذلك فى أى مسئلة يحصل التوافق عليها بأكدها واشتراكها فى المخابرات لتنظيم أمور تلك البلاد وفى هذا الوقت كانت حكومة انكلترا تجهز الجيوش للحرب بدعوى أن ذلك من باب التهديد لعرابى وكانت تحض دول أوروبا على مساعدتها وكانت الدول على حذر من دخول انكلتره فى الديار المصرية الا أنها لا تقدر على معارضتها بالشدة والعنف

وكان الخديوى توفيق باشا ودرويش باشا مقيمين فى سراى رأس التين فى الاسكندرية وعرابى ومعه طلبه عصمت مقيمان فى الترسانة وتحت قيادتهما تسعة آلاف من العساكر وفى أثناء ذلك أقرت نواب الدول على كتابة لائحة مشتركة يقدمونها الى الباب العالى لاجل ارسال جنود عثمانية الى مصر لاجل اخماد

هذه الفتنة فأبى فاتخذت انكلترة ذلك حجة لتداخلها بالقوة الجبرية وشرع الاميرال سيمور فى كونه يتخذ سببا ولو طفيفا لمباشرة العمل وكان سيمور هذا قائد الاسطول الانكليزى فادعى أن العساكر الجهادية جارية فى تحصين وزيادة قوة القلاع فى الثغر وأنهم يجرون نقل أحجار ضخمة ليرموها فى فم مدخل المينة تهديدا للاسطول الانكليزى وكان هذا القول لا أصل له وأن هذه الاعمال منافية لحقوق الاسطول الانكليزى فالحكومة المصرية مكلفة بالكف عن تقوية الاستحكامات حالا والا فهو مجبور على اطلاق مدافعه عليها ومن بعد قليل من الايام أرسل كتابة أخرى بانه لم تزل العساكر جارية فى تقوية الاستحكامات فحيث كان هكذا ولم يحصل الكف عن اجراء التقوية فيلزم ازالة جميع مدافع الثغر عن غناديقها الى الارض أوانى مجبور غدا على انزالها من على غناديقها بمدافع الاسطول فلما ورد هذا البلاغ الى الخديوى توفيق باشا ودرويش باشا أرسل الخديوى طلب نظارة راغب باشا من القاهرة وكافة الذوات المستودعين الذين كان أصلهم من مستخدمى الجهادية ومن الجملة أنا لان الاستحكامات عموما لم تزل فى عهدتى وأنا الباشمهندس عليها وانعقد المجلس فى يوم ٩ يوليه وقرئ فيه اعلان الاميرال سيمور وبعض محادثات طويلة تقرر تحت رياسة الخديوى توفيق باشا ودرويش باشا النائب العثمانى وسلطان باشا رئيس مجلس نواب الامة ورجال الحكومة والنظار بوجوب الحرب ولا يليق نزول المدافع لان ذلك عار على الامة المصرية ولما تقرر وجوب الحرب كان عرابى أنشط من عقال بعير لانه متصور أن عنده رجالا وعساكر طائعين أمره كما ادعى فى واقعة عابدين قال الخديوى نحن لا نشرع فى ضرب الاسطول الا من بعد أن يأتينا منه ثلاث مقذوفات ووافقه على ذلك الكثير وانفض المجلس على ذلك وتوجه عرابى الى الترسانة وكان قبل انعقاد هذا المجلس توجه درويش باشا الى الترسانة وتقابل مع عرابى وقال له أنت ستكون سببا فى خراب البلاد وتغلب الاجنبى عليها والاحسن أن تتوجه معى عند سيدك تكون عنده فى أعظم المراتب ولا يغرك ما حولك من هذه الزخارف ولا المنامات ولا الذين يقولون لك أنا رأيتك راكبا حصانا أسود وعلى رأسك بيرق أخضر فاتبعنى أهدك صراطا مستقيما واخرج من البلاد مادام خديويها متضررا من وجودك فيها ولما رأى درويش باشا أن لا شئ ينفع فيما يبديه له من النصيحة تركه وسار الى رأس التين وخرج ماليت من الاسكندرية بدعوى أنه مريض ونزل فى الاسطول الانكليزى وكذا كوكسن قنصل انكلترا فى الاسكندرية بدعوى أنه مجروح من حادثة ١١ يونيه وتوجه الاسطول الانكليزى أيضا مثل ماليت

وفى نفس هذا اليوم وصل من عند سيمور المستر كارترايت الى الخديوى وأعلمه رسميا عن عزم الاميرال سيمور على مباشرة القتال صباح يوم الثلاثاء ١١ يوليه وألح عليه أن يترك سراى رأس التين ويتوجه الى سراى الرمل ففعل وحرر سيمور رسميا الى درويش باشا يطلب منه أن يحافظ على حياة الخديوى وأن يكون مسؤلا اذا أصيب بسوء

وفى ١٠ يوليه أرسل الاميرال سيمور كتابة رسمية الى كل من درويش باشا وراغب باشا رئيس الوزارة يعلمهما أن خروج رجال الوكالة الانكليزية من القطر المصرى اشارة الى قطع العلائق الودية واعلان الحرب وفى مساء هذا اليوم تقهقر الاسطول الفرنساوى وجميع السفن التى كانت موجودة فى مينة الاسكندرية الى ظهر البحر الابيض المتوسط وخلت المينة من السفن بالكلية

وفى الساعة ٧ من صباح يوم الثلاثاء ٢٢ شعبان سنة ١٢٩٩ هجرية أو ١١ يوليه سنة ١٨٨٢

ميلادية

ميلادية أطلق الاسطول الانكليزى نيران البومباردية على مدينة الاسكندرية وأحاط بها من كل جهة ومن قبل ذلك كان ضباط الاسطول وقواده أخذوا جميع مقاسات أعماق مياه الاسكندرية وجهات أبوقير ورشيد ودمياط وعرفوا جيدا الجهات الخطرة من ساحل البحر التى يمكن المراكب السير فيها والضرب منها على نواحى الساحل وعرفوا جيدا من ابتداء قلاع العجمى الى تجاه رأس التين الى حد سراى الرمل النقط الصالحة لسير المراكب والسفن وشحنوا مراكب الاسطول ودوارعه بالذخائر والمهمات الحربية ولا لزوم لوصف مدرعات الاسطول الانكليزى وما هى عليه الدولة الكبيرة هذه من الاستعداد الحربى فى البر والبحر ولما شرع الاسطول فى ضرب المدينة توجهت أنا مسرعا وكنت وقتها فى الاسكندرية الى قلاع رأس التين وشرعت أيضا قلاع رأس التين وطوابى باب العرب وطوابى أم كبيبة والابراج والطوابى الداخلة فى البحر من مدينة الاسكندرية فى الضرب على الاسطول وان كانت هذه الطوابى على غاية من الخراب والدمار وبها مدافع من العيارات القديمة ولم يحصل فيها أدنى تعمير ولا ترميم من عهد أن أنشأها محمد على باشا الى الآن الا أنها ابتدأت فى الضرب على الاسطول الانكليزى وكان موجودا فى الاسكندرية من الآلايات المشاة أربع آلايات منها اثنان فى رأس التين تحت قيادة مصطفى عبد الرحيم وسليمان سامى وواحد فى القبارى تحت رياسة خليل كامل ورابع فى نواحى باب شرقى تحت قيادة عيد محمد فأما الآلايا المشاة اللذان كانا موجودين فى رأس التين لجآ واصطفا خلف نيران الاستحكامات بجهة رأس التين وأما الآلاى القبارى فانه لبث فى القبارى ولم يخرج مع قائده الى قلاع أم كبيبة وأما الآلاى باب شرقى فانه لبث أيضا فى باب شرقى ولم يحصل منه أدنى حركة وسلط الاسطول نيران مدافعه الكبيرة العيار والصغيرة العيار ومدافع الميتر يوز فكانت نيران الميتر يوز ومقذوفاتها ساقطة على رأس التين مثل المطر وصارت عساكرنا المصرية تهرب من وراء المدافع ورأيت فى ذلك الوقت بعينى ما حصل من غيرة الاهالى بجهة رأس التين وأم كبيبة وطوابى باب العرب وهمتهم فى مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والمقذوفات هم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم والبعض من الاهالى صار يعمر المدافع ويضربها على الاسطول وخربت مدافع الاسطول طوابى رأس التين وما فيها من القشلاقات العسكرية والسرايات الخديوية وشاهدت من حال ضباط عساكر الآلايات البيادة والطوبجية الذين كانوا يجرون سيوفهم على ترتوارات شارع عابدين ويتبخترون فى سيرهم ويظهرون قبل الحرب الشجاعة والبسالة وكذا عساكرهم أن أهالى ونساء وبنات وشبان سكان جهات رأس التين وباب العرب وأم كبيبة أشجع وأحسن منهم قلبا وقالبا وشجاعة وكان معى فى هذا الوقت فى رأس التين لمشاهدة الحركة زبير باشا ومحمد رؤف باشا وآخرون وشاهدوا ذلك أيضا وتأسفوا جدا على ما شاهدوه من جبن عساكر المشاة والطوبجية فى أثناء الحركة البومباردية فى أول يوم واستمرت نيران الاسطول الانكليزى متساقطة على المدينة الى حد الساعة واحدة ونصف افرنكى بعد الظهر فلما رأت أهالى الاسكندرية ما هو جار من استمرار ضرب المقذوفات عليهم خرجوا مهاجرين من مدينتهم على شواطئ ترعة المحمودية مثل الجراد المنتشر وناهيك أن عدد سكان مدينة الاسكندرية نحو من ٢٢٠٠٠٠ نفس فهؤلاء جميعا تركوا مساكنهم ومنازلهم وهرعوا على سواحل ترعة المحمودية شرقا وغربا لا يدرون أين يتوجهون مع أطفالهم ونسائهم شيوخ وشبان وأطفال ملقحين على شواطئ الترعة جائعين لا زاد عندهم ولا قوت وكل رجل

حرشاهدهم بلعن من كان السبب لعنا مؤبدا لانه أصل هذه البلايا والآفات والمصائب والخسارات فلما رأيت هذه الاحوال صرت أفتش على عرابي في أي جهة يكون حتى أقص عليه هذه الحوادث الفظيعة ومازلت أفحص عليه حتى وجدته قاعدا في قلعة كوم الدماس داخل محل من محلاتها وبجانبه طلبه عصمت والشيخ محمد عبده وعمر رحمي واضعين أيديهم على خدودهم باهتين ساكتين مصفري الوجوه لا يبدون حراكا كأنهم جميعا في هيئة الاموات وفي أثناء هذا المرأى بعض ضباط الطوبجية أن لاقدرة لهم على طلق المدافع على الاسطول رفعوا البيارق البيض من طوابيهم فانقطعت نيران الاسطول وكان ذلك في الساعة واحدة أونصف افرنكي أو قريب العصر تقريبا ولما رأيت عرابي ومن معه بهذه الحالة سكت ولم أقل له شيأ وهو كذلك ماسألني عن شيء ما ولما انقطعت نار الاسطول قام وخلفه طلبه عصمت وسار الاثنان ونزلا من القلعة وتوجها لمنزل راغب باشا على الشاطئ الغربي للمحمودية فأنا كذلك تبعتهما على بعد ولما دخلا بيت راغب باشا دخلت أنا كذلك ومكثنا جميعا مع راغب باشا وحضر سلطان باشا وشريعي باشا وزبير باشا في أثناء ذلك بمنزل راغب باشا رئيس الوزارة ولما استقر الجميع قام عرابي ودخل محلا يتوضأ ويصلي فيه فقال الزبير لراغب باشا حسب ما شاهدنا يا سعادة الباشا والله اني رأيت العساكر على غير قوة ومقاومة ولا ينفعون بشيء وأن هذا الحرب مشؤم على البلاد والعباد فقام طلبه في هذا الوقت وتهور على الزبير أمام سلطان باشا وشريعي باشا وراغب باشا كيف أنت تقول ذلك وعساكرنا مثل الاسود وضربوا في الاسطول الانكليزي حتى كسروا مراكبه وأخربوه وقام في وجه طلبه الشراسة. فقال سلطان باشا يا سعادة محمود باشا أحق ما يقوله زبير باشا فقلت نعم هو حقيق بلا محالة وحكيت له ما حصل من الضباط والعساكر من الجبن وعدم الغيرة وما حصل من السكان والاهالي من الحمية والحماس فلما سمع راغب باشا كلام طلبه عصمت الذي لايدري ولا يعرف أي شيء حصل في أثناء ضرب الاسطول نيرانه على المدينة أسرع وركب وتوجه الى سراي الرمل لمقابلة الخديوي وكذا نحن جميعا خرجنا من منزله وكان ذلك قرب غروب الشمس في ليلة الاربعاء أي في أول يوم الواقعة وأخذ عرابي طلبه وسار الاثنان لا أعلم أين توجها وأما راغب باشا فانه لما قابل الخديوي أخبره بخبر أن الحصون قاومت بواسطة ضباطها وعساكرها أشد المقاومة وأخربوا كثيرا من سفن الاسطول الانكليزي ومالبث أن دخل عرابي على الخديوي وأخبره قائلا نحن لاطاقة لنا على المدافعة والمقاومة ولابد لنا من عمل تدابير أخرى نجريها مع قائد الاسطول الانكليزي فانشرح صدر الخديوي توفيق باشا من هذا الخبر الذي ألقاه له عرابي فقال له الخديوي أرسل بعض الالايات الى نواحي العجمي لانه بلغني أن عساكر الانكليز سينزلون هناك فرفض عرابي ذلك فقال محمد سلطان باشا وكان حاضرا في هذا الوقت أفندينا جعل عرابي ناظر جهادية ولم يعهد اليه أفندينا هذه الوظيفة الجليلة الا لما يعهده فيه من درايته بالمواد الحربية والاعمال العسكرية فهو يعرف شغله في حفظ البلاد المتعهد بالمحافظة عليها ووقوع الامن واستتباب الراحة فيها وعقد والذلك مجلسا عند الخديوي تقرر فيه برأي عرابي ارسال طلبه عصمت للمكالمة مع الاميرال سيمور أميرال الاسطول الانكليزي فذهب وعاد وقال ان الاميرال يطلب احتلال ثلاث قلاع من قلاع الاسكندرية والا يستأنف القتال غدا الساعة اثنين بعد الظهر ولما رأيت أنا عدم مقاومة العساكر وضعفهم وعجزهم حصل لي غاية الاسف والحزن وحضر محمود سامي من القاهرة واجتمعنا سوية عند عرابي واتفقنا على أخذ موقع للعساكر خارج الاسكندرية

بجهة كفر الدوار وتوجهت أنا وخليل كامل لكشف الموقع الموافق وفي أثناء ذلك عقد الخديوى مجلسا من النظار في سراى الرمل تقرر فيه أنه لاحق للحكومة المصرية أن ترخص في احتلال عساكر أجنبية في أى نقطة أو جهة من الاراضى المصرية من غير مخابرة الباب العالى ولما كان الوقت المحدد لاستئناف الاسطول اعادة ضرب النار بعد ارسال هذا البلاغ الى أميرال سيمور شرع الاسطول في ضرب الاسكندرية ثانى يوم بعد الظهر وهو يوم الاربعاء وفي ذلك الوقت أرسل عرابى وطلبه نصف أورطة بيادة تحت قيادة واحد صاغقول أغاسى اسمه أبو هشيمة للتحفظ على الخديوى وآخر بكباشى محمد منيب بأورطته الخيالة فتوجهوا وحاصروا سراى الرمل لاغتيال الخديوى وكان ذلك على رأى سليمان باشا أباظه اذ أنه قال لعرابى ان لم تحافظوا على الخديوى وتقتلوه والاهرب الى الاسطول الانكليزى فبناء عليه أرسل عرابى وطلبه هؤلاء العساكر وبعد ذلك بقليل أرسل الى سليمان سامى القائمقام وهو سليمان داود فلما حضر عنده قال عرابى ياسليمان بك انى أمرتك أن تذهب في الحال مع بلوكين من الالاى وتقتل الخديوى وكل من معه في سراى الرمل وتحضر فاجابه سليمان داود بقوله أنا لا يمكننى ذلك فان أردت هذا فتوجه أنت بنفسك واترك عرابى فتوجه الى ألايه وانتشرت عساكر ألاى مصطفى عبد الرحيم وسليمان داود وكانا في رأس التين في نواحى المنشية وشارع شريف باشا وشارع رأس التين وكانت المدينة خلت من سكانها وتجارها فاخذوا يكسرون أبواب الدكاكين والمخازن وينهبون مافيها من الجواهر والبضائع الثمينة وأوقدوا النيران في الاماكن والابنية المفتخرة ودخل أيضا عربان البحيرة والخطافون من البرابرة والعبيد وسلبوا الدكاكين والمخازن وأشعلوها بالنيران وصاروا يزيدون في التهابها وحريقها بزيت البترول الموجود في مخازن التجار وصار هؤلاء العساكر في هيئة سلابين لا مدافعين ولا محافظين بشرط لو خرج عليهم من الاسطول الانكليزى ولو مائة نفر بالسلاح لولوا جميعا هاربين وللنجاة طالبين الا أن الخديوى لم يعلم بذلك ولما رأى لعساكر الطوبجية الموجودين في القلاع أن لا طاقة لهم على المحافظة ومقاومة نار الاسطول رفعوا البيارق البيض وهى بيارق الامان والمسالمة فقطع الاسطول الانكليزى نيرانه ولما رأى عرابى ما حل بالمدينة من الخراب وسوء الحال أرسل الى كل من مصطفى عبد الرحيم وسليمان داود وخليل كامل وعيد محمد أمراء الالايات وأمرهم بالانسحاب بالاياتهم الى نمرة ٣ على شاطئ المحمودية وكان في هذا الوقت في باب شرقى وأمر طلبه عصمت أن يتوجه الى سراى الرمل ويرفع الحصار عن سراى الخديوى فتوجه وأمر الصاغقول أغاسى بأخذ عساكره وتوجهه الى ألايه وقال للخديوى بالكذب نحن ما كان مقصودنا من حضور العساكر هنا الا المحافظة على أفندينا وأما محمد منيب البكباشى السوارى فانه عرض للخديوى بانه يموت تحت رجليه هو وأورطته الخيالة وأن المقصود من حضور هؤلاء محاصرة أفندينا والاغتيال به ثم جاء عمر لطفى المحافظ وأخبر الخديوى بما كان من نهب العساكر وحرقهم الاماكن وسلبهم المدينة

وفي ١٣ يوليه وهو يوم الخميس انسحب جميع العساكر تحت قيادة عرابى وطلبه من الاسكندرية وتوجههم الى كفر الدوار بيادة وطوبجية وعساكر السواحل والمستحفظين ومازالوا سائرين الى أن وقف بهم عرابى في عزبة كنج عثمان من نواحى كفر الدوار وأخبر الخديوى توفيق باشا بأن الاميرال سيمور عازم على انزال عساكر بحرية الى رأس التين وان يدعوا الحضرة الخديوية الى سفينته ليكون آمنا

فقبل الخديوى التوجه الى رأس التين وبمعيته درويش باشا وكان ذلك يوم الجمعة ١٤ يوليه وكنت أنا فى ذلك الوقت موجودا فى الاسكندرية ولا أحد فيها وحاراتها مرممة بالقتلى خراب ينعق فيها البوم والغراب ونظرت الخديوى وحرمه وأتباعه متوجهين الى رأس التين وخلفه عساكر الانكليز محافظين عليه ولم أر أحدا خلاف سعد أبو جبل وكان قائمقام أورطة المستحفظين فقال لى ان لم تذهب من هنا حالا والا صرت قتيل الخديوى فى هذه الليلة فاتبع نصيحتى واخرج من الاسكندرية فخرجت منها مسرعا حتى وصلت الى كفر الدوار وتقابلت مع عرابى وقلت له ان الخديوى توجه الى رأس التين بمعيته تحت خفارة الانكليز فقال لى ان قطر السكة الحديد مستعد له عند محطة الشيخ جابر ليركب فيه ويعود الى القاهرة فقلت له هذا ما رأيت وهذا ما نظرت ومن هذا الوقت ألزمت نفسى بالاعمال والاشغال اللازمة للتحفظ والا فانا ميت وكل يعمل حسبما هو مسخر له فأشرت على عرابى باشغال ما يوافق اجراؤه من عمل المتاريس والتحصنات بجهة كفر الدوار فأرسل عرابى وجلب فلاحى المديريات المجاورة لكفر الدوار وباشرت أشغال التحصنات وخططتها وباشرت أشغالها وركبت مدافعها ونظمت مزاغلها حتى جاءت محكمة التحصين من شاطئ ترعة المحمودية الى شواطئ بحيرة مريوط وكانت على ثلاث خطوط من خطوط المدافعة القوية بحيث لا يمكن التغلب عليها ولا الوصول اليها وسددت ترعة المحمودية ومنعت المياه العذبة عن الاسكندرية ورتبت على السد الطوابى بالمدافع حتى صار لا قدرة لعساكر الانكليز على القرب منها ولا الوصول اليها

ولما استقر الخديوى توفيق باشا فى رأس التين أنزل سيمور العساكر البحرية الانكليزية من الاسطول واحتلوا الاسكندرية وشرعوا فى نظافتها بأمر الخديوى وأرسل الخديوى ذو الفقار باشا وغيره من معاونى معيته يدعون سكان أهل الاسكندرية بعودهم الى منازلهم وكانوا كما ذكرنا البعض منهم على شواطئ المحمودية منتشرين فى البرين الى حد كفر الدوار وأبو حمص والبعض هاجر الى دمنهور وطنطا والقاهرة وتسبب من ذلك مقاتل ومذابح فى نواحى كفر الدوار ودمنهور وطنطا وقتل فيها كثير من الوطنيين والاجانب وأخذ الخديوى فى الاسكندرية يستتب الراحة ويوطن الاهالى ومعه النظار وراغب باشا رئيس الوزارة وكان أصدر أمره لعرابى بأن الحكومة الآن هى حكومة عسكرية لان القطر فى حالة المحاربة والمدافعة مع الدولة الانكليزية وبتقتضى الاستعداد وبذل الجهد فى جمع العساكر والمحافظة على القطر وأهله لان عرابى لم يزل متقلدا زمام نظارة الجهادية البرية والبحرية فخلا الجو لعرابى واعتقد أنه الآن صار فى حالة نابليون بونابارته الذى كان على الدوام يقرأ فى تاريخ ثورته الفرنساوية وتقلده زمام الامبراطورية فأرسل العساكر للمدافعة فى أبو قير تحت قيادة خورشيد طاهر وأرسل العساكر أيضا الى رشيد تحت قيادة ابراهيم فوزى الذى عين محافظ الثغر وجعل دمياط ومحافظتها وملاحقها تحت رياسة عبد العال حلمى ومعه العساكر الكافية وجعل مريوط والنواحى الشرقية والغربية تحت قيادة على الروبى وأرسل اليها العساكر وأما الانكليز فى الاسكندرية فانهم حفظوا منافذ الاسكندرية وأبوابها ووضعوا فيها الالغام وجعلوا للعساكر الوطنية فيها علامات على أذرعتهم يعرفون بها وأرسل الخديوى اضباط الجراكسة الذين كان عرابى نفاهم ورتب الخديوى عساكر من الترك والجريق والمالطية فى الاسكندرية تحت قيادة هؤلاء الضباط وانبثت الجواسيس من كل من جهتى الخديوى وعرابى يراقبون حركات ما هو جار عند الاثنين ويخبرون بها وشرع عرابى فى مخابرة الشيخ

السنوسى بجهات الغرب وحضه على القتال والمجاهدة فى سبيل الله وجلب عربان الصعيد والهوارة وصار موقع كفر الدوار غاصا بالعربان والعالم ورتب يعقوب سامى وكيل الجهادية فى القاهرة مجلسا من ذوات الامة وأمرائها الفصل الاحكام واعطاء الآراء فيما يوافق اجراؤه وكان هذا المجلس تحت رياسته وصار كل شئ يلزم لعرابى يحرر عنه الى وكيل الجهادية يعقوب سامى وهو يعرضه على المجلس ومن بعد النظر فيه بالمجلس يجرى التصديق عليه بالقبول وعدمه وكثرت الزوار عند عرابى فى كفر الدوار وكان معه طلبه عصمت جعله قائدا كفر الدوار فقلت فى نفسى

اذا كان الغراب دليل قوم * فيهديهم الى طرق الخراب

وعكف عرابى وطلبه يمزعون الشاورمات ويأكلون البقلاوات وأنواع الحلويات على مصاريف من طرف ديوان الجهادية وكثر وجود العلماء من كل جهة والبلد والعبط وأرباب الريالات السائلة ويقولون له منصور ورب الكعبة ونصب فى كفر الدوار خيمة سعيد باشا والى مصر سابقا وانتفخ وتجمعص (ياقارئ كتابنا هذا لاتمرض ولاتقول هذا كلام قلة حيا)

وكان مع الخديوى أيضا محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب ومعيته وحواشيه وشرع فى تنظيف المدينة ودفن المقتولين وكنس الشوارع وطفء الحرائق حيث صارت جهات المنشية خرابا وأكاما من أنقاض البيوت والمنازل الجسيمة والمساجد الفخيمة التى أحرقت وسقطت آكاما من التراب واستمر الخديوى توفيق باشا يخاطب الباب العالى وحكومة انكلتره فى جهة الاسكندرية وعرابى يخاطب الباب العالى وفى هذا الوقت طلب الباب العالى درويش باشا فقام متوجها الى الاستانه * وخلى الدار تنعى من بناها * وحرر راغب باشا الى الاميرال سيمور يخبره أن اجراآت عرابى من الآن فصاعدا مخالفة لاوامر الخديوى وان عرابى هو المسؤل عنها وحده *

وكتب الخديوى تلغرافا من عنده الى وكيل الجهادية بالقاهرة يأمره بارسال المهاجرين من أهل الاسكندرية المقيمين فى القاهرة فجهزلهم قطارات السكة الحديد وأنزلهم فيها ليتوجهوا حسب أمر الخديوى فلما وصلوا كفر الدوار أعادهم عرابى ثانيا الى دمنهور والى طنطا الى القاهرة فازدادت المقاتل والمذابح والنهب والسلب وأرسل وكيل الجهادية عساكر فى هذه المدائن لتسكين الاهالى وعدم وقوع المشاغبات وتقول يامين فى مثل هذه الاحوال المهولة

وكتب الخديوى توفيق باشا أيضا بالتلغراف (لان حبل التلغراف كان واصلا من كفر الدوار الى الاسكندرية ومن كفر الدوار اتصل بالخط العمومى الى الاستانة) يأمر عرابى بالتوقف عن جمع العساكر والاستعدادلان الحكومة الانكليزية لاخصومة بينها وبين الحكومة المصرية وانها مستعدة لتسليم المدينة متى رأت فيها قوة منتظمة والبلاد فى أمن وأمره أن يأتى الى سراى رأس التين حالا للمداولة فيما يلزم اجراؤه فلما قرأ عرابى لفظة الامر بحضوره الى سراى رأس التين أوجس خيفة فى نفسه واستشار طلبه عصمت وعمر رحمى وعبد الله نديم محرر الطائف فى ذلك فنصحوه بعدم التوجه وكتب رد هذا الامر عن لسان عرابى بما صورته وهو مذكور فى تاريخ مصر الحديث

ان مقاومة العمارة الانكليزية حصل باقرار سيموركم ودرويش باشا النائب العثمانى ومجلس النظار وذوات الحكومة المصرية فى مجلس عقد تحت رياسة سيموركم وان هذا المجلس هو الذى أعلن الحرب مع الانكليز فان كان الاميرال الآن قد عدل عن المحاربة الى المسالمة بعد وقوع الحرب فذلك يعد طلبا

للصلح ولا يجوز أن يكون انكار الحرب وانى كذلك أميل الى الصلح ولكن مع حفظ شرف البلاد والحكومة فان كان الاميرال يريد تسليم المدينة فيسلمها وتخرج مراكبه من مياه الاسكندرية وانه محافظة على شرف الحكومة الوطنية ينبغى الاستمرار على الاستعدادات العسكرية حتى تبارح المراكب الانكليزية المياه المصرية وان قول الانكليز هذا يعتبر مكيدة لان الاسكندرية ما برحت محتلة بالانكليز ولذلك لا يمكننى الحضور اليها وأطلب أن يكون التئام مجلس النظار فى مركز الجيش للمداولة فى الامر وبعد ذلك أصرف الجيش وأحضر لسموكم

وكتب فى هذا الوقت تلغرافا للجناب السلطانى يقول فيه مولاى أشكو بثى وحزنى الى شوكتكم المعظمة وأعرض لسدتكم أن الخديوى ودرويش باشا التجآ الى الانكليز وسلما لهما البلاد والعباد وانى لم أزل خاضعا لعظمة جلالتكم على حفظ البلاد وراحة العباد فورد اليه الرد يلزم مراعاة الانقياد والطاعة لان مصر مفتاح الحرمين الشريفين وأعمالك هذه يحصل منها ضياع مصر فكن تحت طاعة الخديوى

ثم صدر منشور من الخديوى فى ٢٤ يوليه سنة ١٨٨٢ يقضى بعزل عرابى من رتبه ومن نظارة الجهادية وعفوا عاما عن تداخل معه فى مسئلته الا بعض أشخاص معلومين ونصائح أخرى للامة المصرية بعدم اتباعها عرابى لئلا يتسببوا فى خراب البلاد وطبع من هذا المنشور أوراق عديدة ووزع بواسطة المراكب على سواحل البحر الابيض وبواسطة عساكر أبو قير صار توصيله الى عرابى فى كفر الدوار فكتب عرابى الى يعقوب سامى وكيل ديوان الجهادية ورئيس مجلس الشورى جوابا ذكر فيه ان الخديوى انحاز هو وعائلته الى الانكليز وهو الآن مقيم عندهم فى مراكبهم وصار لا قدرة له على الحضور الى القاهرة فنؤمل التروى فى المجلس فى هذا الامر وهذا المنشور الصادر من الخديوى لانه متحامل على الجهادية الوطنية وأنه هو الذى جلب كل هذه المتاعب والقلاقل والارتباكات الى القطر المصرى وكان كاتبه فى هذا الوقت أحيانا عبد الله نديم فلما وصل تحرير عرابى الى يعقوب سامى وكيل الجهادية ورئيس الحكومة المصرية فى القاهرة فى هذا الوقت لان عرابى أطلقوا عليه (حامى حمى الديار المصرية) وعلى وكيله فى القاهرة (رئيس الحكومة المصرية) جمع وكيل الجهادية مجلسا حافلا فى ديوان الداخلية مركبا من عموم المديرين والحكام والعلماء والروحانيين مسلمين ومسيحيين وأمراء الدواوين والتجار والذوات وكان مركبا من نحو خمسمائة نفس ومن ضمنهم البرنسات الخديوية وقام الخطباء فى هذا المجلس وصرحوا بان الخديوى باع الوطن للانكليز وأخيرا استقر الرأى فى هذا المجلس على أن الخديوى ما دام خالف الشرع الشريف والقانون المنيف فليس له حكم على البلاد ولا سلطة على العباد وأنه مخلوع وتقرر بقاء عرابى فى منصبه على خط الحرب للمدافعة عن الامة وختموا جميعا على هذا القرار وبعثوا بذلك للسلطان فى الاستانة وعينوا لجنة مركبة من ستة أشخاص يتوجهون الى الاسكندرية لاستدعاء النظار الى القاهرة للاستعلام منهم عن حقيقة ما حصل وأرسل الخديوى يخبر الباب العالى بعصيان عرابى

وفى أثناء هذه المدة كانت عساكر الانكليز جاريا ورودها بالاسكندرية وتوزعت مراكب الاسطول فى المياه المصرية بعضها راسيا فى نواحى أبو قير وبعضها فى نواحى ابد كوورشيد وجهات البرلس ودمياط وبورت سعيد كل جهة رست فيها مركب أو اثنتان ومنعت جميع الواردات من الخارج الى مصر وكأنها

محاصرة لها ويوقدون فى الليل النور الكهربائى فى جهات أبوقير ورشيد تجاه المواقع الموجود فيها عساكر المحافظة وتباهت الامة المصرية وتفاخرت سكان المدن والاقاليم فى جميع أنحاء القطر المصرى فى جمع الاعانات اللازمة للعساكر من نقود وغلال وملبوسات ومأكولات ولحوم وخضارات وتبون وخيول وبغال لجر المدافع والخيالة وكذا الستات والهوانم والبرنسات وصارت الاعلانات ترد يوميا الى ديوان الجهادية ومركز كفر الدوار ومراكز جهات اقامة العساكر حتى كانت المهمات الواردة من طرف أرباب الاعانات فى مركز كفر الدوار تلالا وآكاما الا أن الضباط والعساكر لما رأوا المنشورات الجارى تواردها من الاسكندرية من طرف الخديوى بعزل أحمد عرابى من نظارة الجهادية والعفو العام عمن دخل فى هذه الثورة معه الاقليلا تغيرت قلوبهم وازداد جبنهم عما كانوا عليه من الاصل وصاروا تحت قيادة عرابى صورة لا قلبا وكذا أرباب المجلس الموجود تحت رياسة وكيل الجهادية للشورى فى القاهرة

ووصلت اللجنة التى كان عينها المجلس فى القاهرة للتوجه الى الاسكندرية لاستدعاء النظار الى القاهرة فى كفر الدوار وكان من ضمن هذه اللجنة على مبارك باشا وأحمد السيوفى التاجر بالقاهرة ولما قابلت هذه اللجنة عرابى فى كفر الدوار أمر أرباب اللجنة بالعود وعدم التوجه الى الخديوى وقال لا لزوم للتوجه بما أن الخديوى انحاز الى الانكليز فرجعوا الى القاهرة ثانية الا على باشا مبارك قال أنا مرسل فى مأمورية من طرف المجلس ولا بدلى من أدائها ومن كونى أتوجه الى الخديوى مهما كانت الاحوال وأقر عليه أحمد السيوفى وسار الاثنان متوجهين الى الاسكندرية ولما تقابلا مع الخديوى وأعلماه الخبر بما حصل من المجلس ورأى على باشا مبارك الاحوال التى بطرف الخديوى كتب على باشا مكتوبا الى عرابى وأرسله له يذكر فيه ان الاعمال التى هو شارع فيها سبب فى خراب الوطن العزيز ويرجوه أن يصرف ماهو فيه ويحضر بطرف الخديوى أولى من خراب وطننا وهتك أعراضنا فلم يرد عليه عرابى جوابا فى شأن ذلك وأخذ الخديوى فى نشر المنشورات داخل القطر بترك عرابى والعود الى طاعته وصار الامراء والذوات من القاهرة يهربون من نواحى بورت سعيد ويتوجهون الى الاسكندرية طرف الخديوى وقطع الخديوى المخابرات مع عرابى كلية وكذا قطع التلغراف الموصل من القاهرة الى الباب العالى وصار عرابى لا قدرة له على المخاطبة مع الباب العالى وضيق الاسطول الانكليزى على الواردات المصرية ومنع سفائن الفحومات وقل الفحم اللازم لسير وابورات السكة الحديد

ولما تحققت الحكومة الانكليزية من مخابرة عرابى مع الباب العالى ألزمته مرارا بواسطة نائبها دوفرين بالاعلان من طرف السلطان بعصيان عرابى وعدم انقياده للحضرة الشاهانية ومخالفته للقوانين العسكرية العثمانية فصار نشر هذا الاعلان من طرف السلطان فى جريدة الجوائب العربية والتركية ووردت الى أنحاء القطر المصرى فلما رأت ضباط الجهادية والامة المصرية هذا الاعلان نفرت قلوبهم وازدادوا فى عدم الميل مع عرابى الا بعضا من ضباط الجراكسة الذين هم أعداء عرابى فانهم صاروا معه قلبا وقالبا واستعفى راغب باشا من وزارته بالاسكندرية وأرسل الخديوى الى رياض باشا واستقدمه من الديار الاوروباوية وشكل وزارة جديدة تحت رياسة شريف باشا تعين فيها رياض باشا ناظر الداخلية وعلى مبارك باشا ناظر الاشغال العمومية وعمر لطفى ناظر الحربية وكنت أنا فى هذا الوقت مع عرابى فى كفر الدوار وأخذت القوى الانكليزية تتوارد من جهات انكلتره ومالطة وجبل طارق حتى

بلغت نحو من ٥٠٠٠ نفس ووصل القائد وولسلى الى الاسكندرية واستلم قيادة الجيش الانكليزى فى الاسكندرية ومعه محمد سلطان باشا دليلا له ومهدا سبل سيره وحركاته وأرسل محمد سلطان باشا مكاتيبه بطريق السر الى عربان وجه قبلى الموجودين فى كفر الدوار وكذا أرسل على مبارك باشا مكاتيبه الى عربان نواحى الشرقية بشأن ترك الحركات العسكرية العدوانية أمام الجيوش الانكليزية ولهم من الخديوى الانعامات الجليلة والاحسانات الجميلة والرتب الجزيلة وقال لى عرابى الآن يقتضى مناظرة سعادتكم المواقع العسكرية وترتيب العساكر اللازمة للمحافظة فيها فركبت وابورا مخصوصا على السكة الحديد وتوجهت الى رأس الوادى والاسماعيلية لحد السويس وكان عرابى قبل ذلك أرسل لوكيل الجهادية بترتيب آلاى تحت قيادة محمد عبيد وارساله الى جهة رأس الوادى وأمر بوضع أورطة منه فى محطة نفيشة بجوار الاسماعيلية لاجل المحافظة ولما قربت أنا من السويس وجدت محافظها هرب منها وانحاز وكيلها الى المراكب الانكليزية واحتلتها العساكر الانكليزية ونشروا فيها اعلانات بانهم يحاربون من أجل سلطة الخديوى توفيق باشا كل من لم يكن منقادا لاوامره وكذا محافظ بورت سعيد وقنال السويس ترك وظيفته وانحاز الى الاسطول الانكليزى واحتلت عساكر الانكليز بورت سعيد وتقابلت فى الاسماعيلية مع الموسيو دولسبس وأخبرته بحال القنال فقال القنال فى عهدتى وأنه لا يمكن لاى وابور أو سفينة حربية المرور من القنال حسب نص المعاهدات الدولية وان تلاحظ لى أن أحد الوابورات الحربية حضر وأراد المرور من القنال يلزمنى فى هذا الوقت سده بتغريق بعض الشالوبات فيه ومنع المراكب الحربية من المرور فيه ولا يخشى عرابى من جهة القنال مطلقا ثم عدت راجعا الى دمياط عند عبد العال حلمى فوجدته فى سلطنة واستبداد مع أهل دمياط متوليا رياسة المحافظة والجهادية وشغل الملاحات وحكومة البلاد المجاورة الى دمياط يحكم فيها كيف شاء وكذا توجهت الى مواقع أبوقير ورشيد ووجدت فى جميع هذه المواقع التى مررت عليها أن جميع ضباط الجهادية الذين كان لهم وجوه وخدود حمر قبل الحرب وكانوا يهرعون ويمشون ويتبخترون فى شوارع القاهرة ويجرون سيوفهم خلفهم على الارض باهتى الوجوه مرهوقين على غاية من الوجل الشديد والخوف وقطع الامل

ثم تعين راشد حسنى باشا الفريق لنواحى محافظة رأس الوادى وأرسلت اليه الاستعدادات الحربية والالايات الجهادية والطوبجية والسوارى ومن ضمن أمراء الالايات كان على يوسف ومحمد عبيد وعبد القادر عبد الصمد وحسن جاد وتوجهت أنا مرة ثانية وصار ترتيب الحفر اللازم على القنال من الالاى على يوسف ومحمد عبيد فى جميع محطات السكة الحديد المارة على القنال من ابتداء الاسماعيلية الى حد السويس واستمر راشد حسنى باشا فى موقع رأس الوادى مع جميع لوازمه وعربان نواحى الشرقية ومعه أيضا خالد باشا ولما لم يجد الخديوى وولسلى وسلطان باشا والذوات والنظار المصرية بالاسكندرية طريقة للهجوم على البلاد من نواحى كفر الدوار بالنسبة لحصانته ولا من جهة أبوقير ولا من جهة رشيد بسبب عدم امكان دخول مراكب حربية فى النيل ولا من جهة البرلس بسبب وجود كثرة البرك وعدم وجود المياه العذبة ولا من جهة دمياط أيضا تقرر فيما بينهم جميعا ارسال الدونما الانكليزية الموجودة فى الاسكندرية حاملة العساكر الانكليزية وولسلى وسلطان باشا وزهراب باشا وبعض من أركان حرب المصرية ودخولها فى القنال ونزول العساكر الانكليزية فى الاسماعيلية

واصدر

وأصدر وولى أمر الاسفائن الحربية الانكليزية الموجودة فى مينا السويس بحضورها فى وقت حضوره بالاسماعيلية وشرع الخديوى توفيق باشا فى كسر خنادق قلاع باب العرب لاجل دخول مياه البحر الابيض المتوسط فى بحيرة مريوط وزيادة علو مياهها لاجل ادخال قوارب حربية فيها والضرب منها على مواقع كفر الدوار وطلب الخديوى خمسة وعشرين مدفعا من ذوات المقذوفات الطويلة لتركيبها على طوابى عمات فى نواحى سراى الرمل لاجل الضرب بها أيضا على مواقع كفر الدوار والمحمودية وسواحل بحيرات أبوقير وسار الاسطول الانكليزى من الاسكندرية متوجها الى بورت سعيد ولما بلغ عرابى خبر توجه الاسطول الانكليزى الى نواحى بورت سعيد قال لى كيف العمل فقلت له اقعد أنت هنا وأنا أتوجه وأنظر الحركة فركبت وابورا مخصوصا من وابورات السكة الحديد ووصلت رأس الوادى وتقابلت مع راشد حسنى باشا فقال ان على يوسف وخالد باشا توجها سوية نحو السويس لاجل مشاهدة محلات المواقع فسرت خلفهما فى الوابور حتى قابلتهما فى آخر محطة عند السويس ورأيت من عيونهما عدم الرغبة لاى مدافعة أو مقاومة كانت وبلغنى سرا من الضباط أن على يوسف وخالد باشا أصدرا أوامر هما مر العساكر الخفر بأنهم متى رأوا عساكر الانكليز يفروا أمامهم ويفتحوا لهم المسالك والطرقات فلما رأى الاثنان رجعنا بالايل سوية الى نواحى الاسماعيلية ولما قربنا منها سمعنا فى وقت الفجر من ليلة ٤ شوّال سنة ١٢٩٩ هجرية ضرب المدافع على الاسماعيلية من الاسطول الانكليزى وبمساعدة وكيل محافظة الاسماعيلية صار احتلالها بواسطة العساكر الانكليزية ونزلت مع خالد باشا وعلى يوسف فى محطة نفيشة وهى محطة سكة حديد السويس وكان بها أورطة من الاى على يوسف ودخلت الدونما الانكليزية من القنال وسارت السفائن الحربية الانكليزية من السويس فى القنال الى الاسماعيلية وشرعت هذه السفائن فى الضرب بنيران مدافعها على العساكر الموجودة فى نقط المحطات فهربت العساكر المصرية منها طبقا لاوامر خالد باشا وعلى يوسف وساروا منشتتين فى الجبال والصحارى وتشتت ألاى محمد عبيد بدون حرب ولا ضرب وأما الاورطة التى كانت فى محطة نفيشة عند ما ضرب عليها الاسطول بعض قلل من مدافعه جمعها على يوسف ومازال متقهقرا بها حتى وصل محطة المحسمة وهى مدينة رعمسيس القديمة ويقال لها المسخوطة وصارت الجهات الموجودة فى نواحى القنال خالية من المصريين لامدافع فيها ولا مقاوم فحررت بذلك تلغرافا الى عرابى فى كفر الدوار فارسل لى تلغرافا يقول لى اعمل معروف وابذل جهدك فى ردم قنال السويس وها هى الانفار واردة اليكم غدا لاجل ذلك فأخبرته انه بواسطة اخوانك المعتمد أنت عليهم استحوذ الانكليز على جميع جهات القنال وهرب العساكر المصرية منها تحت ملاحظة خالد باشا وعلى يوسف

وفى صباح يوم ٥ شوّال وردت قطارات السكة الحديد بجهة المسخوطة مشحونة بالانفار الفلاحين نحو من ٤٠٠٠ نفر لاجل سد القنال وعمل الاستحكامات اللازمة للمحافظة لأن العساكر المصرية لايمكنهم المحاربة الامن وراء جدر متحصنة تحسبهم فى قوة بينهم وقلوبهم شتى وحضر راشد حسنى باشا باورطتين واحدة من الاى على يوسف وأخرى من الاى عبد القادر عبد الصمد وبطريتين طوبجية كروب وأخريين مدافع جبلى وهرب على يوسف وتوجه الى رأس الوادى وشرعت أنا فى عمل الاستحكامات وسديت ترعة الاسماعيلية من عند المسخوطة سدا محكما وخرجت العساكر الانكليزية من الاسماعيلية واستمر راشد حسنى باشا معهم فى محاربة طول النهار بنيران الطوبجية فقط وانتهى

ضرب النار بين الفريقين الساعة سبعة ونصف افرنكى من ليلة ٦ شوال سنة ١٢٩٩ وفى صباح يوم ٦ من الشهر قبل طلوع الشمس خرجت سوارى الانكليز مركبة من عشر أوزط وخلفها عساكر البيادة وبطريات الطوبجية الانكليزية ودارت السوارى بالموقع وابتدأ ضرب نار المدافع فمن أول مقذوف ورد فى الموقع أسرعت الانفار الشغالة فى الهرب الى بلادها ورموا زوادهم وعيشهم على حرف ترعة الاسماعيلية وكذا هرب العساكر وتركونى وراشد باشا (يا ربى كما خلقتنى) وعدوا الاسماعيلية وتشتتوا ومابقى فى الموقع الا أنا وتوجه راشد حسنى باشا خلف العساكر وفضلت أنا واقفا فى الموقع وحدى مع خدامى ولا أعلم أين أتوجه مع هؤلاء وبينما أنا فى هذه الحالة اذ أحاط بى عساكر السوارى الانكليز وقرب الى واحد من ضباطهم وكلمنى بالانكليزى فكلمته بالفرنساوى فوضع الخفر على وتوجه وعاد ومعه قائد السوارى الانكليزية فكلمنى بالفرنساوى وسألنى عن اسمى فأخبرته باسمى فأخرج ورقة من جيبه ونظر فيها وقال عرابى ومحمود سامى ومحمود فهمى نعم هذا من أحباب عرابى ولما كان غروب يوم الخميس وهو يوم الحرب ورد الينا بجهة المسخوطة محمود سامى ومعه أمر من عرابى فى توجهه الصالحية ليكون قائد فرقة العساكر بها وبعد أن مكث معى لنصف الليل توجه عائدا الى القاهرة مع أمين الشمسى

وحرر قائد السوارى تلغرافا الى وولسلى بضبطى وأسرى فأمر بالمحافظة على حتى يحضر من الاسماعيلية الى نواحى المسخوطة ولما حضر أرسلنى الى الاسماعيلية مع الخفر اللازم ومنها أنزلونى مركبا انكليزية حتى وصلت الاسكندرية ونزلت من المركب وتوجهت محاطا بالخفر الى سراى رأس التين فقابلنى عمر لطفى باشا وعلى مبارك باشا واجتمع الجم الغفير للفرجة على كأنى ما كنت معهم ولا كانوا يعرفوننى من قبل فسألنى على مبارك باشا عن بعض استعلامات وفى الحال صدر أمر الخديوى الى عمر لطفى باشا محافظ الاسكندرية سابقا وناظر الجهادية وقتها بحبسى والمحافظة على فى ديوان محافظة الاسكندرية فوضعونى فى أودة أحكموا بابها وسدوا شبابيكها ووضعوا على بابها اثنى عشر من عساكر الترك والطليان ورتب الخديوى المأكول والمشروب وما يلزم لى من سجاير الدخان أشبه بأسير من دولة أجنبية فى دولة أخرى

وفى يوم وصولى الاسماعيلية وجدت فيها محمد سلطان باشا ومحمد زكى تشريفاتى الخديوى وزهراب باشا وكثيرا من أركان حرب المصرية مع الانكليز وفى أثناء توجهى من الاسماعيلية الى الاسكندرية أحضر لى قبطان المركب جريدة ايجيبت الفرنساوى فرأيت فيها أن الخديوى حرر الى الحكومة الانكليزية بكونه يقتلنى فى حال وصولى الى الاسكندرية فأجابته الحكومة الانكليزية تحذره من ذلك وقالت له انه هو الآن أسير فى يد الحكومة الانكليزية وعند تمام الحرب ينظر والحذر من حصول أدنى ضرر له فيلزم المحافظة على دمه وحياته هذا ما وجدته مندرجا بالجريدة فأمنت واطمأن خاطرى لانى كنت معتقدا حقيقة أنه عند وصولى الاسكندرية لابد من قتلى ولكن الله سلم هذا ما جرى وشاهدته بالتفصيل من أول الحادثة الملقبة بالعرابية الى أن وصلت الاسكندرية وسجنت فيها وفى ١٢ شوال سنة ١٢٩٩ ورد الى التل أورطتان من آلاى السودان من دمياط وجاء عرابى من كفر الدوار الى التل الكبير وقام على فهمى بالاى عابدين ووصل أيضا الى التل وأرسل الى عساكر الصالحية بالتوجه الى القصاصين والهجوم على الانكليز فيها لان العساكر الانكليزية بعد هرب العساكر المصرية

امامهم

أمامهم من المحسمة استمروا في سيرهم حتى وصلوا كوبرى القصاصين وعسكروا فيه فهجم عليهم العساكر المصرية تحت قيادة راشد حسني باشا وعلى فهمي وفي أثناء هذه الواقعة انجرح راشد باشا وعلى فهمي وتوجها الى القاهرة وانهزمت القوة التي كان أرسلها عرابي أمام الانكليز في يوم ٢٨ أغسطس وبعد ذلك أخذ الانكليز في الاستعداد لاجل الهجوم على التل الكبير وكان فيه عرابي وتحت قيادته نحو ٤٠٠٠٠ نفس وفي نفس الليلة التي استعد فيها الانكليز للهجوم على التل الكبير كتب على يوسف الى عرابي وكان في المقدمة يخبره بعدم حركة العدو أو قربه من الموقع وانه لا يخشى من شيء فقعد عرابي طول الليل مع الفقراء في الصيوان الذي كان منصوبا بالجلوس فيه ومعه أولاد الشيخ عبد الجواد يذكرون الى آخر النصف الاخير من الليل وعند قرب الفجر ناموا جميعا وما يشعر عرابي الا ومقذوفات مدافع الانكليز داخلة في صيوانه والعساكر هاربة ومبددة في كل جهة فجاءه على الروبى وقال له انج بنفسك والاقتات فالحق أن يلبس هدومه وركب حصانا وأسرع في الجرى وما زال مدبرا حتى وصل محطة مينا القمح ونزل في وابور الركاب وسار الى القاهرة ولبس في منزله هدومه وتوجه الى ديوان الجهادية وأخبر وكيل الجهادية ومجلس الشورى بهزيمة التل الكبير وفراره وفرار الضباط والعساكر من بعد واقعة استمرت عشرين دقيقة واستولى الانكليز على ما كان في التل الكبير من ذخائر وأسلحة ومؤنات وغير ذلك من اعانات الامة المصرية وقال للمجلس انه يرغب جمع العساكر ويدافع عن القاهرة فمنعه المجلس من عزمه هذا لئلا يحصل لها كما حصل في الاسكندرية ولما بلغ طلبه عصمت الموجود في كفر الدوار قائد اهناك هزيمة التل وفرار عرابي ترك محله وتوجه هو أيضا الى القاهرة هربان لينضم الى عرابي ولما رأت عساكر كفر الدوار هروب قائدهم طلبه تركوا أسلحتهم وذخائرهم في كفر الدوار وتوجهوا مباشرة الى بلادهم وفي هذه الاثناء وصل عساكر الانكليز الخيالة الى العباسية وكان بها محمد رضا باشا مدير العساكر الموجودين فيها فلما رآهم رفع أمامهم البيارق البيض ولما رأى عرابي ما حل به من الهزيمة وصار لا شيء تحت يده من العساكر والقواد وذهبت سلطته هرب في منزل على فهمي مع طلبه عصمت ولما وصل العساكر السواري واحتلوا قشلاقات العباسية خرج اليهم ابراهيم فوزى مأمور ضبطية القاهرة وتقابل مع قائدهم فأمر بحضور عرابي وتسليمه فعاد ابراهيم فوزى مأمور الضبطية وأخذ عرابي ومعه طلبه وتوجهوا الى العباسية وسلم الاثنان سيوفهما الى قائد السواري وسجن الاثنان في العباسية وأخبر بالتلغراف القائد وولسلي والقائد محمد سلطان باشا واحتل العساكر الانكليزية قلعة القاهرة وقصر النيل والعباسية ودخل محمد سلطان باشا القاهرة تخفق على رأسه الاعلام الانكليزية وشرع في حبس الناس ظالما أو مظلوما وتوجه وولسلي الى بنها العسل وحرر تلغرافا الى وكيل الجهادية لمقابلته فيها وأرسل وولسلي العساكر الانكليزية الى كفر الدوار على ظنه أن بها أحدا من العساكر فلم تجد العساكر الانكليزية بها خلاف الاسلحة والمدافع مرمية على الارض وتوجه الجنرال وود بالعساكر الانكليزية الى دمياط فلم يجد فيها الا عبد العال حلمي بمفرده فأخذه وسجنه في عربة وأرسله محفوظا عليه الى القاهرة وأمر الخديوى بحبس جميع الضباط الذين كانوا في كفر الدوار وأبو قير ورشيد في حبوس الاسكندرية وكذا كل من كان له دخل أو يد من أهل الاسكندرية في هذه المسئلة صار حبسه فيها وكذا المشبوهون في الحرائق والسرقات حتى انشحنت سجون الاسكندرية بالمحبوسين ودخل وولسلي القاهرة وأقام في سراى عابدين وهرعت أهالي القاهرة وعلماؤها وذواتها

وعمد البلاد وأمراؤها الى الاسكندرية يهنؤن الخديوى بسلامته ووصل وكيل الجهادية يعقوب سامى الاسكندرية بعد تسليم الاسلحة الموجودة فى كفر الدوار الى الجنرال وود وسجن فى مدرسة الاسكندرية مع على الروبى وكان وصل يهنئ الخديوى فأمر الخديوى بسجنه وكذا صار حبس دانش باشا وشريعى باشا ومحمد كامل باشا وكيل البحرية وأنا نقلت معهم من المحافظة الى المدرسة الاهلية بالاسكندرية وفى هذه الاثناء ورد كثير من الاروام والطليانيين وانسحبوا ضمن الجيش المستجد وكثيرا ما ورد من نواحى ازمير وبر الترك رجال وشبان تشكل منهم الجيش الجديد بعد هرب الجيش القديم الذى كان تحت امرة أحمد عرابى والله المعز المذل سبحانه وتعالى

ثم أصدر الخديوى توفيق باشا أوامره بترتيب حكام المديريات فجاسوا خلال الديار وحبسوا العمد ومشايخ البلاد وأغنياءها واتهموهم بالدخول مع عرابى فكانوا يتخلصون من هذه التهمة بدفع نقود ورشاو وأصدر أمره أيضا بتعيين مجالس فى طنطا والاسكندرية لتحقيق مواد السلب والنهب والحريق والذبح والقتل وأصدرت الداخلية وكانت تحت نظارة رياض باشا منشوراتها الى المديرين والحكام بجهات قبلى وبحرى بارسال كل من وقعت عليه الشبهة فى المسئلة العرابية وفى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ قام الخديوى توفيق باشا من الاسكندرية متوجها الى القاهرة وبصحبته شريف باشا والنظار فتوالت جماهير العالم فى محطات السكة الحديد من الاسكندرية الى القاهرة وزينوا المحطات بأنواع الزينات والبيارق لملاقاته وهنؤه بسلامته وحفظه من أعدائه وقابله الجم الغفير فى محطة القاهرة وهنؤه وركب من المحطة متوجها الى سراى الاسماعيلية وعلى شماله ابن ملكة الانكليز وأمامه ماليت وولسلى القائد

وفى ١٥ ذى القعدة سنة ١٢٩٩ الموافق ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ صدر أمر من الخديوى بعقد مجلس تحت رياسة اسماعيل باشا أيوب لتحقيق دعوى كل من كان له يد فى هذه الحوادث فاجتمع المجلس فى ضبطية القاهرة وشرع فى التحقيق وامتلأت سجون القاهرة والاسكندرية ومراكز الاقاليم بالمحبوسين حتى صار احصاؤهم فوجدوا نحوا من تسعة وعشرين ألف نفس وأهدى محمد سلطان باشا الى وولسلى زوجا من الطبنجات مشغولا بالذهب وقال ان مصر الآن تعد فى فتوح جديد وأنعم الخديوى توفيق باشا على محمد سلطان باشا بعشرة آلاف جنيه من ديوان المالية نظير ما عمله معه من المعروف فى جلوسه على الاريكة الخديوية ثانية ولما رأى الانكليز التهور الحاصل من أرباب مجلس التحقيق على الجارى التحقيق معهم وأنهم يكتبون فى تحقيق القضايا حسبما يرغبون عينوا من طرفهم الاميرالاى شارلس ويلسون والويس قنصل بمين من ضمن أرباب المجلس وتعين مجلس آخر عسكرى تحت رياسة محمد رؤف باشا لاجل فصل الحكم فى الدعاوى التى تقدم لهذا المجلس من سائر الجهات وأن تكون أحكامه قطعية لا تستأنف ومجلس آخر عسكرى فى مدينة الاسكندرية تحت رياسة عثمان نجيب الجركسى للحكم فى الدعاوى التى تقدم له من تلك الجهات وأن يكون حكم هذا المجلس قطعيا لا يستأنف أيضا وصدر أمر الخديوى بالغاء الجيش المصرى القديم وانشاء جيش آخر أدخل فيه الضباط الانكليزية وأهدى اليهم النيشانات العثمانية والمجيدية وميدالية مصرية عليها صورة الاهرام وأبو الهول لانهم هم الذين فتحوا مصر ثم صدر أمره بنقل جميع المحابيس أرباب الجرائم الكبيرة وحبسهم فى أوده الدائرة السنية كل واحد على حدته وأرسل أعوانه وحواشيه ومماليكه الجراكسة

يهددون المحبوسين ويزعجونهم ويسلبون ما عندهم من المصاحف والنقود كما حصل لى ولغيرى وكانوا يدخلون على عرابى وعبد العال فى أود الحبس ويضربونهم وأخيرا الاحاجة لشرح ما حصل من الاهانة والضيق وعدم النور بالليل وعدم شرب الدخان وتفتيش الاكل الداخل ورذالة ضباط الخفر والعساكر المحافظين على السجون فيما أجروه من الاعمال الفظيعة والاجراآت القبيحة وما حصل فى مجلس التحقيق من التهور وخلافه

وصدر أمر الخديوى بتعيين مجلس فى الاسكندرية للنظر فى تعويض الخسائر التى حصلت لاهالى الاسكندرية من الحرق والسلب والنهب وحضر اللورد دوفرين سفير الدولة الانكليزية من الاستانة الى القاهرة لرؤية مجالس التحقيق وعدم التعدى ومنع الظلم الحاصل فى مجالس التحقيق ولما وصل الى القاهرة تقابل مع الخديوى توفيق باشا والنظار وتداول معهم طويلا فيما يلزم اجراؤه وفحص بنفسه عن الاجراآت الجارية بمصر وكتب تقريرا عن حالة مصر السياسية والقضائية وأحوال سكان أهل مصر وأرسله الى الحكومة الانكليزية فى ٦ فبراير سنة ١٨٨٣

وقد أرسل المستر بلونت الانكليزى الحر المستر برودلى والمستر نابيير المدافعين المشهورين لاجل المدافعة عن رؤساء الثورة واظهار حقوقهم بمصاريف على طرفه وذلك بعد الحكم من مجلس التحقيق باعدام رؤساء الثورة فلما وصل برودلى القاهرة وتقابل مع اللورد دوفرين أبطل هذا الحكم

ومن بعد أن أظهر المدافعون ما رأوه مع الذمة من تبرئة عرابى ورفقائه من مذبحة الاسكندرية وحريقها حصل الاتفاق على نفى واستبعاد رؤساء الثورة الى جزيرة سيلان بموافقة الدولة الانكليزية وحاز المستر بلونت والمستر برودلى ونابيير الثناء الجميل والشكر الجزيل فى الممالك الشرقية والغربية وفى سائر ممالك الدنيا بما أظهراه من الحق ولما رأى ذلك مصطفى رياض باشا استعفى حالا من نظارة الداخلية فى نظير أنه لم يتقرر حكم الاعدام على زعماء الثورة

وفى ٢١ محرم سنة ١٣٠٠ هجرية أو ٣ ديسمبر سنة ١٨٨٢ ميلادية انتهت التحقيقات وصدرت الاحكام على رؤساء الثورة بالنفى المؤبد مدة حياتهم بعيدا عن الديار المصرية وملحقاتها وترتب المعاش الكافى الذى يقوم بحياتنا مادمنا فى الدنيا وعلى قيد الحياة وصدر الحكم على البعض من الضباط الجهادية بالنفى ثلاث سنوات والبعض خمس سنوات وأحمد عبد الغفار ثمانى سنوات فى سوريا وحكم على على الروبى وحسن موسى العقاد بعشرين سنة فى مصوع والآن على الروبى موجود فى سواكن لان ايطاليا تغلبت على مصوع

وهذه صورة الحكم التى صدرت من المجلس العسكرى تحت رياسة محمد رؤف باشا وكان توقيع هذا الحكم بمعرفة المستر برودلى والمستر نابيير الانكليزيين

(أولا) — الحكم الصادر على كل من أحمد عرابى وطلبه عصمت وعبد العال حلمى ومحمود سامى وعلى فهمى ومحمود فهمى ويعقوب سامى المقتضى جزاءهم بالقصاص على حسب بند ١٦٥ من القانون الهمايونى العثمانى وقع تبديله بالنفى الى الابد من الاقطار المصرية وملحقاتها

(ثانيا) — ان هذا الحكم يبطل ويقع اجراء الحكم بالقتل اذا عادوا الى الاقطار المصرية أو ملحقاتها

(ثالثا) — يجب على كل من ناظر بحريتنا وداخليتنا تنفيذ هذا الحكم

ومن بعد صدور هذا الامر أصدر الخديوى توفيق باشا أمرا بضبط أملاكنا وعقاراتنا نظير الراتب

الذى تعين لنا سنوياً فى دار منفانا وفى ١٦ صفر سنة ١٣٠٠ هجرية أو ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٨٢ ميلادية قمنا نحن السبعة مع عائلاتنا وأولادنا وما أمكننا حمله من أمتعتنا فى قطار مخصوص مع محافظين من الضباط والعساكر الانكليزية وكذا من الضباط والعساكر المصرية ومعنا المستر برودلى والمستر نابيير الساعة ٩ ليلا من قصر النيل متوجهين مع السلامة الى السويس وفيها نزلنا فى باخرة مخصوصة على طرف الحكومة المصرية كانت أعدت لسفرنا الى سيلان فنزلنا فيها وعاد المستر برودلى مع نابيير الى القاهرة وصحبنا لتوصيلنا موريس بك محافظ سواحل البحر الابيض فى مصالح تهريب بضائع الدخان وعشرون عسكرياً من الحكومة المصرية وواحد قبودان صاغقول أغاسى اسمه على قبودان كريدلى وقمنا من السويس فى يوم ٢٨ ديسمبر ومازلنا فى سرور وانبساط مع موريس بك حتى دخلنا العصر مينة سيلان فى أول يوم من ربيع أول سنة ١٣٠٠ هجرية أو ١٠ يناير سنة ١٨٨٣ ميلادية فحضر فى الوابورات وكيل حكومة سيلان المستر دغلاس لان الحاكم كان فى داخلية البلاد وهنأنا بالسلامة وكذا أرباب الجرائد وهرع الينا مسلمو جزيرة سيلان كبارها وصغارها وكانت الحكومة الانكليزية أصدرت أمرها لحكومة سيلان باستعداد منازل لسكانا وخزن فيها كل ما يلزم للاكل والشرب ضيافة ثلاثة أيام والمساكن مستعدة بفرشها وأمتعتها لمدة ثلاثة شهور ايجارها وما فيها من المصاريف على طرف الحكومة المصرية وبتنا فى الوابور ووزع موريس بك المنازل علينا حسب العائلات فكان عرابى وطلبة وعبد العال فى منزل ومحمود سامى ومحمود فهمى فى منزل ويعقوب سامى فى منزل وعلى فهمى فى منزل وفى صبح ثانى يوم هرع أهل سيلان الى المينا من داخل البلاد مسلمين وسنهاليز وبورتكيز ودانش وانكليز وغير لاجل الفرجة علينا ومعهم الموز والمياه والعيش وأصناف المأكولات وجوز الهند وصار مسلمو سيلان يتبركون بنا وأهلوا كثيرا ورحبوا طويلا بالواردين عليهم ثم صار استعداد عربات الركوب وتوجه كل منا فى المنزل الذى تخصص له ولعائلته وتوجه موريس بك لزيارة الحاكم فى داخل البلاد وحضر الحاكم وتوجهنا جميعا مع موريس بك وتقابلنا معه وسلم علينا وكنا من الشاكرين لافضاله وكان الحاكم فى هذا الوقت السير آرثر لندن فقال أنتم فى ضيافة الحكومة ثلاثة أيام والمساكن القاطنون أنتم بها المدة ثلاثة شهور على طرف الحكومة ومن بعد مضى الثلاثة شهور تكونون مثل أمراء الانكليز القاطنين فى الجزيرة تسكنون فى مساكن على طرفكم وتكونون حرين فى أنفسكم ثم سلمنا عليه وتوجه كل منا لمنزله

ثم شرعنا فى تعلم اللغة الانكليزية وأرسلنا أولادنا المكاتب والمدارس بسيلان باذن من الحكومة لاجل التعليم والتهذيب وقراءة العلوم الجارى تعليمها فى مدارس سيلان واستمر مسلمو سيلان يهرعون الى منازلنا ويسألون عن خاطرنا معتقدين أننا حضرنا فى بلادهم منفيين بصناديق ملآنة بالاموال والنقود وجلس عرابى فى المنزل الذى تخصص به من طرف الحكومة مع طلبه وعبد العال مع ابنه وامرأة ابنه مكتوبة الكتاب ومعها جاريتان معدتان لخدمتها احداهن طباخة والاخرى خادمة فتزوجهما عرابى وخلف منهما فسقط لاجل ذلك من أعين كل من طلبه وعبد العال وحصل بين طلبه عصمت وبين عرابى مبادى الشقاق والخصام بسبب ما يأتى به مسلمو سيلان من الهدايا العرابى ولم يقاسم فيه عبد العال وطلبه ودخل طلبه فى الدسائس والفتن بين عرابى وبين يعقوب سامى وعلى فهمى حتى تنازعوا معه وتخاصموا فيما بينهم وادعى عرابى الشرف وانه من نسل الحسين بن على

ابن أبى طالب كرم الله وجهه عندما رأى أن مسلمى سيلان يعتبرون السادة الاشراف فى بلادهم وشرع عرابى فى التوجه الى المساجد فى يوم الجمعة لصلاة الجمعة صورة لاجل أن المسلمين يبوسون يده و يتبركون به وصار فى حالة مثل فقهاء الارياف فى مصر وأرباب الطرق الدجالين وكل من ورد من مسافرى أوستراليا وأمريقه والبلاد الاخر يتوجهون لزيارته ولما تمت مدة الثلاثة شهور ونحن فى المساكن التى كانت الحكومة أعدتها لنا أخذ كل منا منزلا على حدته وسكن فيه بعائلته وحصل بين عرابى وبين طلبه وعبد العال نزاع وخصام فى قسمة مفروشات المنزل الذى نزلوا فيه أدت الى المشاتمة والسب بين عرابى وطلبه فاخذ طلبه وعبد العال جميع استعدادات المنزل وبقى عرابى على البلاط لولا أن تداركه بعض من مسلمى كلمبو واشتروا له من عندهم بعض كراسى وأسرّة وطربيزات أعدّ بها المنزل سكنه واستولد من جاريتى امرأة ابنه أولادا ومازلن تحته لحد الآن ومعهن ثمانية أولاد صغار خلاف الذين توفوا واستمر المنفيون فى شقاق وخصام بينهم لحد الآن واليوم وهو يوم ٢٥ يوليو سنة ١٨٩١ ميلادية وذلك من عدم اشتغالهم بشئ أبدا وفى سنة ١٨٩٠ انتقل محمود سامى بعائلته بعد أن تزوج بكريمة يعقوب سامى الى مدينة كندى وترك كلمبو لعرابى ومن معه من الخصام والشقاق ومن بعدها ببضع شهور تبعه يعقوب سامى وتوجه وقطن كندى أيضا وهى على مسافة ٧٤ ميلا بطريق السكة الحديد من كلمبو

وفى أول شهر اكتوبر سنة ١٨٨٣ وردت الاخبار لعرابى فى كلمبو من الصابونجى بأن المستر بلونت الحر المدافع عن الشرقيين حاضر من لوندره لاجل زيارتك ورؤية ما أنت عليه من الحالة فى العيشة والرفاهية وانه لم يزل شارعا ومتوجهة أفكاره فى خلاصك من النفى ولا يغفل حتى يجلسك على الاريكة الخديوية ويلزم أن تستعد لمقابلته والاحتفال به وكان قبل ذلك وردت تلغرافات لعرابى من بلونت يقول له أتحب أن تكون وصيا فى الحكومة المصرية على ابن الخديوى توفيق باشا بعد عزل أبيه وتوليته الخديوية المصرية فأجابه عرابى تلغرافيا نعم أحب ذلك ثم ورد بعدها أتحب أن تعيش فى مصر تحت وزارة نوبار باشا فقال لا مانع من ذلك وظن عرابى أن كل ذلك صحيح وأخذ يشرع فى ترتيب الحكومة المصرية وادارتها ومن المستعد للحكم فى هذه الوظيفة وصار له أحوال مثل المجانين وأشاع ذلك عند مسلمى كلمبو وأخبرهم بما يراه من المنامات وأن النبى صلى الله عليه وسلم وعده فى المنام بتوليته الاريكة المصرية ونصره على أعدائه كما كان يدعيها قبل فى مصر فيلد جونم افى جرانيلهم التمل ولما تناول الجواب المحضر من الصابونجى أخذه وأسرع فى الحال وسار الى منزل محمود سامى وأطلعه على الجواب وأرسلوا الى الثلاثة الباقين واجتمع الستة سوية ورتبهم عرابى فى المصالح المصرية والوظائف الخديوية وصار هو فى المنام خديوى مصر بدل الخديوى توفيق باشا وأنا لما نظرت الشقاق الواقع بينهم من الابتداء تجنبتهم جميعا واعتكفت على تعليم أولادى فى المدارس الانكليزية وكذا تعليم نفسى اللغة الانكليزية ولغات التمل والسنها البزوالهندوستانى وتفسير ذلك أنى ما تداخلت معهم فى مشاجراتهم ومخاصماتهم بل الى لحد الآن وأنا فى حيادة عنهم كما سيأتى ذكره ثم أخذوا فى الاستعدادات اللازمة وجعلوا المنزل سكن محمود سامى مستعد النزول المستر بلونت وحرمه والصابونجى وفى يوم ١٨ اكتوبر سنة ١٨٨٣ وصل المستر بلونت الى مينة كلمبو وكان وقت الغروب فبات فى الوابور وليلة ١٩ وخرج الصابونجى ليلا وتوجه الى منزل عرابى راكبا فى عربة ومن بعد أن سلم

عليه جلس وشرع الاثنان يتحدثان فى الثورة ووعده الصابونجى مواعيد عرقوب وأخذ عرابى يشكو للصابونجى ما ناله وما أصابه من طلبه وعلى فهمى و يعقوب سامى وكان انضم اليه محمود سامى بدسائس طلبه فقال له الصابونجى هكذا حالة رؤساء أى ثورة لا يحصل بينهم ان سلموا منها الا الشقاق والنزاع وتوجه الصابونجى من عند عرابى فى الصباح وقام عرابى والآخرون وتوجهوا الى المينة واحتفلوا بنزول المستر بلونت وكلوا محمود سامى فى صرف المصاريف على طرفهم ونزل المستر بلونت وحرمه والصابونجى فى المنزل سكن محمود سامى ولما رأى الصابونجى من محمود سامى الاكرام الزائد فى حقه التحم معه وترك عرابى وأخبر محمود سامى وطلبه وعلى فهمى و يعقوب بما قاله عرابى فى حقهم من القدح والذم وشرعوا جميعا فى تاريخ عرابى وألفوا فى حقه تاريخا قبيحا نشره الصابونجى فى جريدته المسماة بالنحلة وأخذ يقدح فى عرابى وأرسل منه نسخا جمة الى سيلان ومكث المستر بلونت أحدا وعشرين يوما فى كلمبو وفى ١٢ نوفبر سنة ١٨٨٣ سافر من كلمبو متوجها الى الهند وترك فى كلمبو الصابونجى وازداد الخصام والنزاع بين المنفيين و بين عرابى حتى انهم جميعا تجنبوه وصار هو وابنه بمعزل عنهم وفى أثناء ذلك أشاع طلبه وعلى فهمى وعبد العال أن قصد عرابى فى مصر لم يكن لاصلاح البلاد ولا المساواة بل كان قصده الاكبر أن يتولى الخديوية وانه اتفق مع حسن موسى العقاد وأخذ من وكيل اسمعيل باشا فى مصر حوالة على أحد البنوكة بأربعين ألف جنيه وكذا أخذ من عثمان باشا وكيل دائرة زينب هانم بنت محمد على مبلغا خمسة وعشرين ألف جنيه لاجل تولية البرنس حليم أريكة الخديوية بمصر وأخذ من الست فلانة كذا ومن فلان الذى رتبه مديرا كذا ومن الصيرفى كذا ومن ابراهيم السعودى الجيزاوى الذى رتبه مدير بنى سويف كذا وهكذا .... وكان قصده الاستبداد وأن ينشئ حكومة وسلطنة عربية يكون هو سلطانها وكان عنده فى منزله مغاربة يعدونه و يمنونه و يقرؤن له الاحزاب والاوراد لينال بها مرغوبه وهكذا فلما بلغنى هذا كله ورأيت ما عليه عرابى من الجهل وما هو الا جاهل فقير ربى من أصحاب الطرق الدجالين حمدت رب العالمين الذى لم يبلغ هؤلاء نواياهم ونفاهم وطردهم من البلاد وأراح منهم الارض والعباد وقام الصابونجى من سيلان وتلاقى مع المستر بلونت فى الهند وذم وقدح فى عرابى وحصل بين الاثنين مشاحنة أدت الى الخصام الى الآن وكانت تكاليف مدة مكوث المستر بلونت الاحد وعشرين يوما فى كلمبو عبارة عن ٢٠٠٠ روبية فتخصصت علينا نحن السبعة ودفع كل منا ما خصه ولما رأى أهل سيلان الحالة التى عليها المنفيون من الخصام والقدح فى حق بعضهم تركوهم وبعدوا عنهم حتى صار لا يزور أحد منهم واحدا من المنفيين ولما رأى عرابى تباعد أهل سيلان عنه وانقطع نفعهم عنه أراد أن يعمل طريقة يخرج بها من سيلان و يبعد عن الذين عرفوا كذبه فكان كلما زاره أحد من السياحين من أهل أوستراليا المتوجهين لتغيير الهواء فى انكلتره وسأله عن صحته فى سيلان وكيف حال المناخ يقول أنا عيان وسقيم ومناخ سيلان غير موافق لى فيدرجون ذلك فى وقائع الاخبار الانكليزية حتى زاره واحد من أغنياء الانكليز من الذين لهم جفالك والتزامات وأراض مزروعة بالشاى واسمه ليتن وقال له بلغنى أنك عيان وأن هواء كلمبو غير موافق لصحتك فتمارض عرابى أمامه وقال له نعم فقال له ان كان الامر كذلك فيقتضى أن تتوجه الى محلاتى بجهات جبال كندى فان الهواء فيها معتدل وتقيم شهرا أوشهرين حتى تعود اليك صحتك وها أنا سأحرر لوكلائى بمقابلتهم اياك وجميع المصاريف ذهابا وايابا وقعادا على طرفى فلما سمع عرابى ذلك شكره على مروءته وصنع المثل

سيدى بندق ماصدق وتوجه عرابى وعلى فهمى ومحمد بن عرابى الى محل هذا الرجل الانكليزى يأكلون ويرتعون ويلعبون مدة أحد وعشرين يوما وعادوا وكانت المصاريف عموما على طرف صاحب المحل فلما عاد عرابى حلف قسما بالله ان لم تكن المصاريف التى صرفت عليهم ألف جنيه فهى أزيد ولا أقل من ألف جنيه وتوجه ووزن نفسه فكان وزنه مائتين وخمسة وعشرين رطلا ثم لبث فى منزله الذى قال فى حقه أحد مكاتبى الانكليز كيف يكون لعرابى صحة ومنزله عبارة عن زريبة ومربط خنازير فوهن وضعفت قوته من عدم الاكل الطيب مثل أقرانه فكتب جوابا الى لبتن بقصد تغيير الهواء فأذن له وحررالى وكلائه وتوجه عرابى مع ابنه وامرأة ابنه وأولاد ابنه وترك أولاده من الجوار معهن فى المنزل سكنه بكلمبو وسار الى جهة أخرى من أرض لبتن ولبث فيها أحدا وثلاثين يوما أى شهرا كاملا ثم عاد بعد أن كلف الرجل الانكليزى من الصرف الخارق للعادة ما يفوق الحد ومازال على ذلك حتى وصل صديقه السير وليم جريجورى فى سيلان فى سنة ١٨٩١ لاجل رؤية أملاكه فى سيلان وكان هذا حاكم سيلان من مدة مضى سنين وله صداقة مع عرابى ومعرفة بالمنفيين (الاأنا) ونزل جريجورى فى منزل الحاكم المسمى بيت الملكة وكان الحاكم وقتئذ السيرآ ثرغوردون فلما بلغ طلبه وعبد العال خبر حضور جريجورى أسرع الاثنان لمقابلته واجتمعا به فى بيت الملكة وبعد لحظة حضر عندهم عرابى ومحمد ابنه وجلس الجميع بعد السلام يتحدثون وشرع جريجورى يسألهم عن صحتهم فأجابه طلبه نحن جميعا فى غاية العياء والمرض نحن وأولادنا وعائلاتنا وكان ذلك القول من أجل مرغوب عرابى لانه محتاج للبعد عن سيلان وأهلها فصادق عليه عرابى وقال ان مناخ سيلان علينا رطب وطقسها مضر بصحتنا فقال جريجورى (هذا قول طلبه) أتحبون التوجه الى بلادكم فقال عرابى نعم فقال جريجورى وان لم ترض الحكومة أترغبون التوجه الى جزيرة قبرص فقال عرابى ان تعسرت مصر تكون قبرص بعدها فقال جريجورى يكون ذلك وسأبذل جهدى وأسعى فى ذلك وقام وقاموا وتوجه كل منهم الى منزله فأسرع طلبه (ولو أنه لم يعرف ولم يدر القراءة والكتابة الانكليزية فضلا عن عدم درايته باللغة العربية قراءة وكتابة) وترجى أحد معارفه من البورتكيز فى كونه يكتب مكتوبا عن لسانه يتشكر لجريجورى فيما قدمه لهم من الوعد بتوجههم الى بلادهم وأنه هو وحرمه يدعون له ويثنون عليه وأرسل الجواب الى جريجورى فكتب جريجورى جوابا ردا على مكتوب طلبه الى عرابى يقول له استلمت جوابا من طلبه عصمت يذكر فيه أن جميع المنفيين عيانون وهواء سيلان غير موافق لصحتهم فان كان ولابد من ذلك فاجتمع مع اخوانك جميعا وحرروا عريضة من طرفكم الى الحكومة بأنكم عيانون ومناخ سيلان غير موافق لصحتكم وارفقوا معها شهادات طبية تثبت أقوالكم وقدموها لحاكم سيلان وأنا أسعى وأجتهد فى عودكم الى بلادكم أو الى جزيرة قبرص ولزوما أن أسودلكم هذه العريضة ومن بعد الاقرار عليها منكم ومن اخوانكم يجرى اللازم عنها باجتهادى ففرح عرابى وأسرع فى التوجه الى منازل المنفيين وتوجه كندى لمقابلة محمود سامى ويعقوب سامى يبشر الجميع بتوجههم حالا الى مصر حسب وعد جريجورى ماعدا أنا فانه لم يأت منزلى لانى متجنبه ومن صحبه من مدة سنين مضت والحاصل أنه صار كتابة هذه العريضة وأرفقوها بشهادات طبية استحصلوا عليها من حكماء سيلان وأرسلوها بمعرفة جريجورى الى الحاكم وقام جريجورى من سيلان متوجها الى لوندره ليصل اليها قبل وصول العريضة ويسعى عند الماركيز سلسبورى بواسطة محبيه فى عود

المنفيين الى بلادهم ولما أرسل الحاكم هذه العريضة بشرح منه الى لوندره اعتقد عبد العال وطلبه وعرابى ان أمر العود انتهى وصاروا يجهزون أنفسهم للسفر وصاروا فيما بينهم فى ثورة أصلها طلبه وعرابى وعبد العال ولما تناول الماركيز سلسبورى هذه العريضة المقدمة من منفيي سيلان بواسطة حاكمها كتب عليها الى القنصل اقلن بارنج نائب الحكومة الانكليزية فى مصر لينظر فيها ويخابر الحكومة عن مفعولها فتقرر عن رياض باشا أن الحكومة المصرية لا تقبل فى الحال ولا فى الاستقبال هؤلاء المنفيين مادام الخديوى الحالى موجودا على الاريكة المصرية وكذا قال الخديوى انه لا يمكنه قبول المنفيين فى مصر وملحقاتها أبدا وان قبولهم يتسبب منه الضرر وحصول الاختلال فى ادارة الحكومة والارتباك والفساد فحرر بذلك اقلن بارنج الى حكومته وكتب مكتوبا الى جريجورى يقول فيه ان الحكومة المصرية ليست راضية بقبول منفيي سيلان مطلقا وأنا على رأى عدم المنفعة فى وجودهم فى مصر فحرر جريجورى وحرم بلونت وحرم جريجورى الى عرابى بانهم جميعا متأسفون على خيبة مسعاهم وعدم رضا الحكومة المصرية بقبول المنفيين ومع كل هذا فان جريجورى يبذل جهده فى نقلكم الى جزيرة قبرص فحبط سعى طلبه وعرابى وخمدت ثورتهما فى ذلك ولما وصل جواب السير اقلن بارنج الى الماركيز سلسبورى كتب خطابا الى حاكم سيلان يأمره بعقد مجلس طبى من أطباء الحكومة للكشف عن صحة المنفيين وتحرير تقرير طبى عما يرى من حالتهم الراهنة فأصدر الحاكم أمره الى رئيس الاطباء الدوكتور كنزى بعقد مجلس طبى مؤلف منه ومن اثنين من كبار الاطباء واحد ملكى وواحد جهادى وتحرر لنا مكاتيب بذلك وتوجهنا جميعا بعد أن حضر محمود سامى ويعقوب سامى من كندى وشرعوا فى الفحص وبقيت أنا فى آخر الكشف فلما دخلت مجلس الفحص قلت ليس بى أدنى عياء ولا مرض وأنا متمتع بصحتى فى سيلان ومناخها موافقنى ولا أرغب تركها ولا الانتقال منها الى جهة أخرى وعلى الخصوص الديار المصرية وأنا ما قدمت شهادة طبية يستدل منها على انى عيان أو بى شئ وخرجت من المجلس وتوجه كل منا الى منزله وبعد تمام هذا القرار أرسله الحاكم من عنده الى الماركيز سلسبورى وفى آخر سنة ١٨٩٠ وردمن الحكومة الانكليزية لحاكم سيلان كتابة مضمونها علم من تقرير المجلس الطبى أن هواء مناخ سيلان ليس مضرا بصحة المنفيين وأن الحكومة الانكليزية لا تجبر الحكومة المصرية على قبولهم ويتعسر على الحكومة الانكليزية نقلهم لجهة ما واذا أراد أحد منهم تغيير الهواء فى نفس الجزيرة فلا مانع وحرروا لهم اعلانا بذلك ولما ورد هذا الامر للحاكم حرر لكل من المنفيين بذلك وقطع عرابى واخوانه الامل وكان يوما مكدرا على عبد العال وطلبه وباقى المنفيين

ولما رأى حرم طلبه وعبد العال ذلك عزموا على التوجه الى المحروسة وسافر حرم طلبه وحرم عبد العال وابنه وامرأة ابنه فى ١٥ يناير سنة ١٨٩١ الى مصر وتركوا عبد العال بمفرده فى المنزل فاستمر عبد العال يقاسى سكرات الفكر وليس عنده ولا فى يده شئ يشتغل به ويضيع أوقاته فيه وكان من مدة سنين مضت عيان بالحمى التيفوسية فمن شدة أفكاره ووحدته فى المنزل وعدم الاشتغال بشئ مات فجأة فى يوم ١٩ مارث سنة ١٨٩١ ولما بلغنا الخبر توجهنا جميعا وكان علينا يوما شديدا لحزن والاسف وهيأنا اللازم له ودفناه فى مدافن المسلمين وفى ١٥ يوليه سنة ١٨٩١ وصل ابنه السيد حلمى فى كلمبولاجل استلام تركة أبيه ومخلفاته ونزل فى المنزل عند طلبه عصمت وكان

حضور مع حرم طلبه أيضا
ثم توالت الايام حتى وصل فى كلمبو من جهة لوندره شاب انكليزى ابن واحد ارل اسمه مدلاو ر من ضمن مجلس اللوردات فى لوندره و زار عرابى وسأله عن صحته وعن هواء سيلان فأخبره عرابى بانه سقيم وأنه متحمل آلام رطوبة طقس هذه البلاد وأن الحكومة الانكليزية ليس لها رغبة فى نقلنا الى جهة أخرى أجف من هذا الاقليم وانه مات أحد اخوانى من رداءة طقس هذه البلاد فاسف هذا الشاب من كلام عرابى ولما عاد الى لوندره قص على أبيه ما رآه وما سمعه من عرابى فتمكن الغضب من الارل وقام خطيبا فى مجلس اللوردات مرارا عديدة يعرض ما عليه عرابى ورفقاؤه وموت عبد العال حلمى من الحالة الرديئة الموجود فيها المنفيون ويحض مجلس اللوردات على عودهم الى بلادهم فاجابه سلسبورى بان الحكومة المصرية ليست راضية بقبولهم والمجلس الطبى الذى صار عقده للكشف عنهم قرر بان هواء سيلان غير مضر بصحتهم فقال الارل لماذا تقبل الحكومة الانكليزية تقرير ما قاله المجلس الطبى ولم تعتمد الشهادات الطبية الواردة مع عريضة المنفيين مع أن محرريها من أكبر حكماء المستعمرة فان كانت الحكومة المصرية ليست راضية بقبولهم فتعمل الحكومة الانكليزية اجراآتها فى نقلهم الى محل أجف من سيلان والا فما هو الغرض الاصلى من موت هؤلاء المنفيين فطيس فى رطوبة سيلان فاقر سلسبورى على نقل المنفيين وكذا ناظر خارجية انكلتره فرجسون الى محل أجف من سيلان وحرر الماركيز سلسبورى باعادة عقد مجلس طبى ثان مركب من خمسة أطباء فعملوا الخصهم وقرروا تقريرهم وأرسله الحاكم الى لوندره ولما رأيت أنا ما بالجرائد الانكليزية والتلغرافات اليومية اقرار سالسبورى وناظر خارجية لوندره بنقل المنفيين الى جهة غير سيلان نشرت فى الجرائد المحلية بانى لست مريضا ولا أرغب فى الانتقال الى جهة أخرى خلاف سيلان وانى متمتع بصحتى فى مناخ سيلان ولحد يوم ٢٥ يوليه سنة ١٨٩١ انتظر المنفيون ما تؤول اليه حالة نقلهم وهذا ما وقع لغاية هذا اليوم من الشهر

وأشتغل الآن بدرج وتسجيل الاحوال السودانية بما أنها كانت تابعة للحكومة المصرية ولغاية هذا اليوم أنا على حيادة من المنفيين

(الحركات السودانيه والوقائع النوبيه)

الى حد الحملات الحربية الاخيرة التى شرعت فيها الدولة الانكليزية فى الجهات العريضة الشاسعة المعروفة عموما بالنوبة والسودان كان الموقع الحالى لهذه الاراضى غير معروف عند الامة الانكليزية معرفة تامة حتى كان لا يجيب عن سؤال ما هو السودان ولا أين السودان الا القليل جدا منهم وان الامة الانكليزية مما كانوا يظنون السودان الاصحراء غير قابلة للزراعة وفى الحقيقة هى صحارى شاسعة بكثر سقوط الامطار بها ويجعل جهات كثيرة منها على غاية من الخصوبة والعمارية بالسكان كما وأن السودان يشتمل على بواد وصحار شاسعة وقفار رملية محرقة مثل الصحارى النوبية وصحارى برقة وجهات كسلة وصحار أخرى ومن ثم يكون السودان عموما هو الصحارى الكبيرة من الاراضى التى تسقى بمياه بحر النيل ومحدودة بالحبش والبحر الاحمر وصحارى برقة والبادية الكبرى وتشتمل على مجرى النيل جميعه من ابتداء منبعه من بحيرة نيانزا الكبرى الى مدخله فى اسوان وطول ذلك ينوف عن ألف ميل انكليزى الآن بين الاقليم الاسفل للنيل وهو مصر و بين بعض أراض خصبة

محصورة فى بضع درجات من درجات العرض الشمالى الحاصرة للسودان الجنوبى الموجود فى شمال خط الاستواء توجد صحارى وبوادر ملية محرقة شاسعة الاطراف والاكناف يصعب منها الوصول جدا من السودان الشمالى الى السودان الجنوبى وعاصمة هذا السودان مدينة الخرطوم وهى واقعة فى نقطة اجتماع النيل الازرق مع النيل الابيض وكذا يوجد مدن أخرى مشهورة مثل شندى وبربر ومينق مصوع وسواكن ومن المعلوم أنه يوجد فى هذه الاراضى العريضة والبوادى الواسعة التى أضافها محمد على باشا فى الزمن السابق الى المملكة المصرية أمم مختلفة الجنس وقبائل متباينة الهيئة الا أن اللسان العربى هو اللسان المتسلطن فى هذه الجهات عموما ماعدا جهات قليلة من السودان الاعلى وأن قبائل وعشائر هذه الجهات فى عيشة رعوية غالبهم رحالة نزالة وبالنظر لاتساع الصحارى والقفار لا توجد طرق منظومة تصل بين الجهات الخصبة السودانية وبين بعضها وكانت تجارة الرقيق والسن والصمغ وريش النعام والجلود هى تجارة تلك النواحى الا أن تجارة الرقيق كانت هى الاكثر تسلطنا فى هذه الصحارى الشاسعة ولما تولى غوردون باشا زمام حكومة السودان من طرف الخديوى اسمعيل باشا وكان الخديوى هذا دخل فى معاهدة مع الحكومة الانكليزية بقطع دابر هذه التجارة اجتهد وبذل ما فى طاقته فى ازالة الرق والعبودية وتعهد غوردون باستتباب الحرية وقطع تجارة الرقيق من الاقطار السودانية وكان غوردون فى مبادى حكمه ضعيف الشوكة لاقوة له على تدمير هذه التجارة مرة واحدة فاجتهد على التدريج شيأ فشيأ فى علو وزيادة سلطته وشوكته فى منع تجارة الرقيق وعلى الخصوص لما اجتمع بسمويل بيكر فانه أخمد نار مقاومة تجارة الرقيق وساعدته على ذلك الحكومة المصرية فى كونها رتبت محافظين فى أبواب الدروب الموصلة الى نواحيها من الجهات السودانية لاجل ضبط جميع التجارات الواردة بالرقيق من السودان وتوقيع العقوبات الشديدة على تجارها مع الاستيلاء على ما معهم من الرقيق ومازال غوردون مكبا على مساعيه حتى محق هذه التجارة تقريبا من السودان ولما استعفى غوردون من حكومة السودان فى أواخر سنة ١٢٩٦ هجرية أو سنة ١٨٧٩ ميلادية وتعين محمد رؤف باشا فى مكانه انفك شغل غوردون وانحلت عقده واجرا آته حتى فشل السودان وخرج أخيرا عن طاعة الحكومة المصرية وصار لاهله شوكة قوية وسلطنة سنية تحت قيادة محمد أحمد الملقب بالمهدى

وذلك أنه ظهر فى رمضان من سنة ١٢٩٨ هجرية الموافق أول أغسطس سنة ١٨٨١ ميلادية رجل نوبى المنشأ باسل الهمة مقدام فى جسارته وشجاعته حازم الرأى ذكى العقل على غاية من التدبير اسمه محمد أحمد ولقب نفسه بالمهدى أو محيى الدين الاسلامى وهو رجل درويش من أهل البلاد كان أبوه نجارا فى الخرطوم ومع ان محمد أحمد هذا كان نجارا أيضا فى صنعة أبيه الا أنه كان ملتزما صنعة الدروشة واعطاء العهود وصار صاحب طريقة مثل أصحاب الطرق الموجودين فى الاقاليم المصرية فشرع فى اعطاء العهود وتربية المريدين فلما تعب من صنعة النجارة تركها والتزم صنعة الطريقة لانها أسهل له وانتقل وسكن فى قرية بالقرب من الخرطوم أى فى جزيرة أبا وعمل له فيها زاوية واجتمع حوله المريدون وصار له نقباء ودراويش واشتهر اسمه وعلا قدره فى العفة والقناعة والزهد فأغدقت عليه الدنيا بحذافيرها وثروتها وصار كثير الاموال والزوجات وصار بهذه الطريقة الجارى عليها يتداخل شيأ فشيأ وهو سائر على قدم العفة والزهد والتنسك حتى استحوذ على سلطة وسيادة كبيرة بين الاهالى

حتى خضعوا اليه هم وأولادهم ونساؤهم وبناتهم ولما رأى بعض مبغضيه ما هو عليه من الحالة وشى في حقه الى رؤف باشا حاكم عموم السودان وقال له ان لم تمنع هذا الرجل والا عاد منه مضار على الحكومة فأوجس رؤف في نفسه خيفة وعين بعض عساكر ومعاونين للتوجه الى هذا الرجل وجلبه وبحث وافتقاد حياته فلما وصلوا اليه تقدم واحد من معاوني الحكمدارية وقال له ان الحكمدار يطلبك للتوجه اليه فقال ومالي وللحكمدار أنا رجل فقير ولا يعرفني ولا أعرفه فأعاد اليه القول وفي أثناء استعداده للتوجه للحكمدار في عاصمة الخرطوم قال له أحد معاوني الحكمدارية وكان من أقارب موسى العقاد في السر لا تتوجه يا سيدنا لان الحكمدار عازم على الاغتيال بك فعاد وعزم على عدم التوجه فقال واحد من ضباط العسكرية الحكمدار على وجه السرعة في طلبك يا شيخ محمد فقال له لا أتوجه اليه ولا أعرفه فأعاد القول بشماخة فعارضه أحد نقباء الشيخ فأخرج الضابط طبنجة وضرب بها النقيب في الحال فقال الشيخ محمد أحمد يا أولادا قتلوا أعداء الله فقام النقباء والمريدون جميعا على المرسلين بالنبابيت والحراب ومن قوتهم الاقليلا هربوا مسرعين وتوجهوا الى الخرطوم وأعلموا الحكمدار محمد رؤف باشا ثم أرسل له رؤف باشا ثانيا نحوا من ثلاثمائة مقاتل في وابورين من وابورات الحكومة فضربهم وكسرهم وشتت شملهم وادعى المهدوية وكتب مكاتيب الى القبائل والعشائر السودانية يخبرهم بأنه هو المهدي المنتظر وانه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وبشره بهذه البشارة وأجلسه على كرسيه وأوصاه بالدين ووعده النصر المبين

ومن ثم تبعه عالم كثير وانضم اليه ما لا يحصى من رجال القبائل والعشائر السودانية ومن الجلابة بياعي الرقيق فأرسل محمد رؤف حاكم السودان قوة كبيرة لاجل اخماد هذه الزوبعة الرملية التي طارت في وسط الصحاري السودانية فثبت المهدي وأتباعه وأوقعوا بهذه القوة وأذاقوهم الويل وشتتوهم وبعث محمد سعيد باشا مدير كردفان جيشا كبيرا يقتفي أثره لانه كان سار الى نواحي جبل الغور على بحر الغزال من شمال فشوده على البحر الابيض يستنجد بأهله فهزم الجيش الذي أرسله محمد سعيد باشا ثم جرد اليه راشد بك مدير فشوده تجريدة وقاتله وكانت نتيجة هذه الواقعة قتل راشد بك وتشتت عساكره واستحوذ المهدي على كل ما كان معهم من أسلحة وذخائر وانتشر أتباع المهدي المعروفون بالدراويش بين القبائل والعشائر السودانية يحثونهم على الجهاد في سبيل الله وأرسل المهدي مكاتيبه الى القبائل يبشرهم بالنصر على أعداء الله الكافرين وفي سنة ١٨٨٢ هزم العساكر المصرية شر هزيمة تحت قيادة يوسف باشا ورقص الدراويش وطاب لهم الوقت وساقوا في الهجوم وتمتعوا بالنصر ومازالت الفتنة تقوى وتنتشر حتى انه في نفس هذه السنة وكان محمود سامي باشا رئيس الوزارة وعرابي ناظر الجهادية استقدم رؤف باشا من السودان وتعين مكانه عبد القادر حلمي باشا متقلدا زمام أحكام الحكومة السودانية وتجمعت أتباع المهدي جماعات تحت قيادة رؤساء منهم وصاروا يغيرون على جهات سنار وكردفان حتى أزعجوا مديريات السودان الواقعة فوق الخرطوم الجاري فيها كل من النيل الابيض والنيل الازرق ومازالت أتباع المهدي تأخذ في الزيادة مثل الرمل حتى فازوا بالنصر والظفر بهذه الاحوال على العساكر الانكليزية والاسترليانية وبددوا شملهم وطردوهم من أقاليمهم

وفي شوال من سنة ١٢٩٩ أو سنة ١٨٨٢ نزل المهدي الى العبيد عاصمة كردفان وكان في رأس ٦٠٫٠٠٠ نفس من أتباعه وكان محافظو هذه المدينة نحوا من ستة آلاف مقاتل واثني عشر مدفعا

فصد هجومه عنها مرتين وأخيرا حاصرها وضيق عليها حتى ظفر بها وتغلب عليها فى فصل الربيع سنة ١٨٨٣ وجعل مدينة العبيد مقره ومحل ملكه وانضم اليه أهلها ومن جاورهم من القرى والقبائل والعشائر ثم استقدم عبد القادر باشا الى مصر وأقيم مقامه علاء الدين باشا وتولى حسين باشا قيادة جيش سنار ومن بعد هزيمة عرابى وزعماء الثورة الوطنية واهداء الخديوى توفيق روع البلاد اشتغلت الحكومة المصرية تحت رياسة تطارة شريف بالاستعدادات الحربية والعساكر المصرية واعتقدت الحكومة المصرية أن الثورة المهدوية تمثل الثورة العرابية وأن محمد أحمد يغفل عن أمر قام به وينام حتى تدخل مقذوفات محاربيه فى خيمته وماعلمت مصر أن محمدا أحمد سهران لا يغفل عن تجنيد الجنود ورفع البيارق والبنود تحت رجال وأبطال لا يخافون الموت ولا يخشون التهديد والفوت فجمعت الحكومة المصرية قوة عسكرية وعهدت قيادتها الى قائد انكليزى اسمه هيكس وأنعم عليه الخديوى توفيق باشا برتبة باشا فصار هيكس باشا وكانت هذه القوة مؤلفة من ١٢٦٠٠ نفس مقاتل انضم اليها من السودانيين ٤٠٠٠ نفس فبلغت ١٧٠٠٠ وأصدر له الخديوى توفيق باشا أمرا قاطعا بأنه عند وصوله الى الخرطوم يجرى حركاته الحربية ضد العصاة وعلى الخصوص خلاص مدينة العبيد عاصمة كردفان من المهدويين وقطع دابرهم وكذا يجرى حركاته فى نواحى سنار وهو الاقليم الواقع بين النيل الابيض والنيل الازرق ولما وصل هيكس بجيشه الى الخرطوم اجتمع مع علاء الدين باشا الذى تعين حاكم عموم السودان من طرف الخديوى توفيق باشا وقام هيكس فى الخرطوم مدة ليستريح من تعب السفر ومن بعد مدة نزل علاء الدين فى البحر الازرق وتحرك هيكس بجيشه على الشاطئ الغربى للنيل الابيض وسار علاء الدين فى البحر الازرق وأوقف حركة العساكر المصرية من الهرب وكانوا واردين من جهة سنار فلما رأى العساكر الحكام انضموا اليه وشتت علاء الدين المهدويين من اقليم سنار حتى عبروا النيل الابيض الى الجهة الغربية التى كان هيكس باشا متحركا فيها بعساكره ورأى المهدويون ما عند هيكس من العساكر والمراكب البخارية والشراعية على النيل الابيض ومع ان العصاة كانوا آخذين فى القهقرة والهزيمة الا أنهم هجموا على هيكس وعساكره هجمة شديدة حتى أزعجوا جيشه فانجبر على أن يجعل جيشه فى هيئة قلعة مربعة لما رأى الخوف والفشل والارتباك وقع فى عساكره وعلم منهم عدم المقاومة والمدافعة وقال فى تقرير تقدم منه يعنى من هيكس

انه فى يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٨٣ ميلادية من الشهر صار فك الخيام كالعادة وأصدرنا أمرنا بسير الجيش الساعة سبعة صباحا بدرى وما حصل من الصعوبة والخطر كان أصل منشئه من الخيالة والاركان حرب لانهم لم يحصل منهم الاعتناء بكشف جميع الاراضى والجهات اللازم مرور الجيش منها وسيره فيها ولهذا لما سار الكولونيل فاركهار ويوزباشى واحد وأربعة من عساكر الباشبوزق أشبه بكشافين أمام الجيش لم يبعدوا كثيرا حتى عادوا راجعين وأخبروا بقرب تقدم العدو وكان لهذا العدو حركة سريعة جدا حتى انه فى ظرف ربع ساعة ظهر على الجيش مثل جرى السحاب فى جو السماء وفى هذا الوقت كانت الساعة تسعة وكانت قوة هيكس سارت بضع أميال فى مجاورة أجة امتداد مواجهتها ثلاثة أرباع ميل وكان سيرها الى جهة اليمين من الاجة ومن هذه الجهة كشف جيش هيكس حضور الدراويش الحربيين متسلحة بالحرب والمزاريق مئات مئات وقوادهم أمامهم حاملين البيارق والاعلام وهجموا

بغاية

بغاية من الشجاعة والاقدام على جيش هيكس حتى أزعجوه وأوقعوا فيه الفشل فلما رأى هيكس ذلك جعل جيشه على هيئة قلعة مربعة وجلب المدافع بسرعة فى زوايا القلعة وفتح هيكس نارا قوية من مواجهة القلعة الا أنها كانت على غير تأثير لان الدراويش كانوا آخذين فى التقدم مع السرعة والشدة ولكن على مسافة ٥٠٠ يارده من صف مواجهة القلعة ابتدأت عساكر الدراويش فى التساقط وصار القواد يحثون رجالهم مثل ما كانت تعمل فرسان قدماء العرب فصاروا يتساقطون واحدا واحدا واثنين اثنين ثم يقومون ثانيا ثم يختبطون فى الارض على وجوههم ومن بعد نصف ساعة لما تماوج القبائل وتحركوا الى جهة اليمين فى وسط الحشائش العالية وانكشفت مواجهة القلعة من العدو وانكشف دخان ضرب البنادق والمدافع وجدت الارض مرممة بالرمم والقتلى وأغلبهم على مسافة ٤٠٠ يارده من مواجهة القلعة وهذه الواقعة واقعة مرابيه هذا ما ذكره مكاتب الحرب فى تقريره

وحارب العساكر المصرية محاربة قوية مع الشجاعة والثبات ومازال الدراويش أتباع المهدى مصرين على ماهم عليه من القوة والعناد فى جميع هذه الحروب سواء كانوا أمام المصريين أو أمام العساكر الانكليزية أو العساكر الاوستراليانية وكانت محارباتهم مثل محاربات الجن والعفاريت حتى صار قواد الجيوش الانكليزية لايدرون طريقة يكسرون بها هؤلاء الدراويش و يهزمونهم ثم تولد من كثرة سقوط الامطار فى هذا الاوان تعطيل الحركات العسكرية فى هذه الجهة فتقهقر هيكس باشا بجيشه المنصور حتى يأتى فصل الخريف ونصب معسكره فى أم درمان تجاه الخرطوم وفى هذه المدة جمع جيش هيكس رأيه على الخضوع للمهدى ولما أتى فصل الخريف سار هيكس بجيشه الى الدويم وفيها انضم اليه فرق أخرى ثم سار من الدويم قاصدا العبيد عاصمة كردفان ومن ذا الذى اطلع على الغيب ومافى علم الله من أجل حملة كبيرة سائرة تحت قيادة رجل انكليزى حائز البسالة والشجاعة حتى ينبئها بالكائن لها فى الغيب و بما سيحصل لها مما يغم الخواطر و يكدر البال و يوتم الاطفال

وظهر من المصريين الذين كانوا تحت قيادة عرابى أنه ليس لهم رغبة بالكلية فى المحاربة تحت قيادة هيكس (هم ما حاربوا تحت قيادة عرابى) وقال الكولونيل سكندورف ان عمره ما رأى حرب المصريين الا أنه من الخسارة وجود أى انسان حائز الشجاعة فى وسطهم (عقد هيكس مجلسا حربيا لاجل تقرير اقتحام الصحراء الى العبيد فكان على غير رأى جميع الضباط المصرية فغضب هيكس من عدم رضاهم وقال هذا التوبيخ حتى اتفقوا على السير) ومع كل هذا فانه ظهر من المصريين ماسر خاطر ضباطهم وقوادهم لانه حصل الاتفاق بينهم على قطع الصحراء وعبورها مع الاعتماد والوثوق بان البرك والمناقع ملآنة بالمياه العذبة المتخلفة من سقوط الامطار فى هذه الجهات وفيها الكفاية لمطلوب العساكر والحيوانات وبناء عليه فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨٣ سار الجيش وعند سيره قال مكاتب الحرب ونظر الى خلفه وهو متوجه الى عاقبة أمره آه آوه هذه آخر نظرة مقطوع اليأس بعدها من العود ثانية وتنفس الصعداء وقال اننا وقعنا فى شر أعمالنا وفى خسارة مهولة وفقد أنفس لكوننا تركنا طرق مواصلاتنا وسرنا ٢٣٠ ميلا فى داخل أرض لانعرفها وليتنا حرقنا مراكبنا ومابقى عفشنا وحاجتنا وفى هذا الوقت كان العدو لم يزل آخذا فى التقهقر جامعا معه أنعام ومواشى البلاد فتولد من عدم وجود المياه الحزن الشديد والغم الا كيد وأخذت الجمال

فى التساقط والموت وسار القول فى الصحراء الشاسعة واختفت العساكر الخلفية فى القفار التى لا يعرف أولها ولا يوصف آخرها وهبت الرمال من الرياح وضربت فى وجوه العساكر وحمى الوطيس واختفى الجيش الكثير الذى صار لا يرى بعد ذلك مرة أخرى (هزيمة هيكس وموته) ومع كل هذا اكتسبنا برهة من الزمن على المخابرة مع أس حركاتنا العسكرية ونحن سائرون لنحو هلاكنا ودمارنا وذلك أنه لما ترك الجيش وادى النيل تشكل فى هيئة قلاع مربعة ودخلت الجمال فى وسط القلاع وسار الجيش بحركة بطيئة بهذه الهيئة نحو العبيد وفى أثناء سير القوة فى طريقها كانت تجد مصاعب وخسارات مهولة لان المياه المحمولة على الجمال والتى فى زمازم العسكر كانت قليلة جدا ووجدت الآبار مردومة والبرك والمناقع مشحونة برمم القتلى والحيوانات ومن ثم أصاب العساكر التعب والنصب ومع ما رأى الباسل هيكس من الحكم والمواعظ والانذارات التى شاهدها بعينه جهارا اندفع فى سيره نحو معسكر المهدى بارشاد ودلالة واحد من النوبيين كان هذا الرجل مسخر الابادة وانقراض هذا الجيش وما زال سائرا حتى دخل من مضيق مشحون بالاورمانات والآجام والصخور ومن داخل هذا المضيق ميدان قليل الاتساع محاط بالاورمانات أيضا والجبال الوعرة وكان هذا المضيق وما حوالى الميدان مشحونا بعساكر الدراويش وكان مكمنا ومرصدا لهم فلما رأى ذلك هيكس استمر ثلاثة أيام فى حروب وكد وتعب مع المهدويين كانت على غير طائل وأحاط به العدو من كل جهة ومع ما كان عليه هيكس من عدم وجود المياه ووجوده مع عساكره تحت حرارة شمس محرقة ولا طاقة له على التقدم أو التأخر لم يزل مصمما على عدم التسليم وحينما كان عنده ذخائر حربية ما قدر العدو على القرب منه الا أنه لما فرغ الخرطوش الاخير فى اليوم الرابع من وقائعه فرد الأمل جناحه وطار ورفرف الموت باجنحته وحل محله وسار وكأن الموت فى حالة نسور كاسرة مهولة حائمة على قفر كالح صخرى الاحجار لا ماء جار فيه ولا راكد جارية فيه عساكر الحكومة حركاتها العسكرية ولما نادى هيكس بنداء سونكى ديك انقطعت الآمال وخابت الاعمال وتيقن العساكر والضباط والمكاتبون والوكلاء وتوابع الجيش ان ساعة الموت وحلول الاجل قد آن أوانه وحل وقته وجاء زمانه وما كان الغرض من لفظ نداء سونكى ديك الاوداع الاحباب والاصحاب بعضهم بعضا ووداع أوطانهم وحياتهم الدنيوية وصار كل واحد ينظر بعينه الى ورائه على أرض الميدان ووجه الاورباويون أفئدتهم وقلوبهم وعقولهم الى انكلترة فى هذه الساعة المهولة الى نواحى أحبابهم وأصدقائهم الذين ينعونهم فى محلات اجتماعهم فى أثناء تناول طعامهم فى أوقاته المعلومة فى محال الاجتماعات الظريفة وصرفوا النظر عن الريشة والقلم الرصاص واستبدلوهما بالطبنجة والسيف كل يدافع عن نفسه لنجاة حياته وأين هذا

ولما نادى هيكس بنداء حله ووجه العساكر جميعهم سونكياتهم الى نواحى الهجوم وجعل هيكس نفسه فى رأس القول وتقدم على العدو مع الثبات بعساكر المصريين حال العدو فيهم جولة مهولة فألقوا صرعى جميعا على الارض لا حراك فيهم وأصبحوا مثل ندى الصبح على الارض بين العشائر المهدوية ولم ينج منهم أحد وسبحان الله الواحد الاحد الفرد الصمد

ووصلت أخبار هذه الحادثة المهولة متأخرة الى لوندره وأما فى القاهرة فلا يمكن وصف ما حل بالناس من الاحزان والاكدار حال استشعارهم بهذه الحادثة المزعجة التى حصل منها المصيبة العظمى وكانت مظفرات المهدى مثل شعل نار رميت على مرج جاف الحشيش والكلا وانتشر لهب الثورة فى جميع

الجهات وصار استقبال المهدى كأنه هو المخلص والمنقذ وانضم الى ماعنده ألوف وألوف ألوف من الناس وصار واجبا تحت بيرقه

وأما فى الخرطوم فان الكولونيل قوطلجون الذى كان متقلدا زمام أحكامها وقيادتها فانه عمل الاستعدادات اللازمة للمقاومة والمدافعة عنها وأشارت الحكومة الانكليزية على الحكومة المصرية فى كونها تتنازل عن السودان وتتركها ونفسها بعد أن تسحب جيوشها وعساكرها منها وأرسل اللورد غرانفيل الى افلن بارنج يحرضه ويحثه على فعل ذلك مع الحكومة المصرية ولما عرض ذلك الملن بارنج على الوزارة المصرية تحت رياسة شريف باشا لم يقع عنده ترك السودان موقع القبول والاستحسان وأصر الانكليز والخديوى بوفيق على التنازل عن السودان فلما رأى ذلك شريف باشا استقال من وزارته فى ٥ ربيع أول سنة ١٣٠١ هجرية الموافق ٤ يناير سنة ١٨٨٤ ميلاديه وقبل نوبار باشا تشكيل وزارة جديدة قابلا ما أشار به الانكليز والخديوى على شرط بقاء سواكن ومابقى على الحكومة المصرية الا سحب حكامها وعساكرها من الاقطار السودانية ومن ثم صارت المخابرات والمداولات فى عمل الطرق اللازمة لخلاص المحافظين من أيدى المهدويين ومامضى قليل من الزمان حتى أصدر المسترغلادستون أمرا بانه لابد من عمل واجراء الاعمال والوسائط اللازمة لخلاص المحافظين وكانت جميع القبائل والعشائر السودانية قامت فى ثورة واحدة وحاصر المهدويون سنكات وطوكر قبل أن ترسل قوة لمساعدتهما وانقطعت المواصلات بين بربر وسواكن وصارت سواكن نفسها على خطر شديد لولا أن تداركتها محافظة السفن الانكليزية بنيران مدافعها القوية

وقام السودان بالسلاح والسكاكين والمزاريق والحرب الملاح صغيرهم وكبيرهم وصاح الله أكبر حى على الفلاح وتجمعت الجموع السودانية فى جميع البوادى ومن ضمنها السواحل البحرية بجهات سواكن وكانت رياسة المهديين فى هذه الجهات تحت قيادة عثمان دجنة البطل الهمام والشجاع المقدام الذى لايخاف الموت ولايرعبه الصوت وعمد الانكليز والحكومة المصرية على أداء الاستعدادات اللازمة لخلاص طوكر أولا ثم سنكات وعين الخديوى من طرفه حسين واصف باشا حاكما على السودان الشرقى بجهة سواكن وأرسل محمود طاهر باشا بجيش من سواكن لاجل خلاص طوكر فقام محمود طاهر بجيشه المصرى فى المراكب من سواكن حتى وصل ترنكتات على ساحل البحر الاحمر وعلى مسافة عشرين ميلا من طوكر وأنزل جيشه وكان مقداره ٥٠٠٠ نفس وبعض مدافع جبلى فى ترنكتات وبعد أن رتب هذا الجيش سار فى الصحراء قاصدا طوكر ولما بعد عن البحر بمسافة عشرة أميال زحف عليه عثمان دجنة بعساكره وأوقع به وبجيشه الدمار وأحلهم دار البوار وهرب محمود طاهر مسرعا الى المراكب فى ترنكتات وأقلع فى الحال الى سواكن وهلك جميع الجيش الا قليلا منهم ولما وصل الخبر الى القاهرة حزن الخديوى حزنا شديدا وعين مجلسا حربيا تحت رياسة حسين عاصم باشا لمحاكمة محمود طاهر من أجل فراره من أمام العدو وتوجه هذا المجلس الى سواكن وشرع فى تحقيق مادة الهزيمة وهروب محمود طاهر واستمر التحقيق جاريا حتى حصلت هزيمة بيكر باشا كما سنذكره فصرف النظر عن التحقيق وعاد المجلس ومحمود طاهر الى القاهرة

ولما هزم عثمان دجنة محمود طاهر وحملته وبدد شملهم عاد الى طوكر وقتل من كان فيهما من العساكر وكان قنصل الانكليز من المقتولين ضمنهم وكذا قتل جميع القوة التى كانت أرسلت من قبل بشهر

خلاص محافظى سنكات

﴿ تعيين بيكر باشا ﴾ — ولما حصل من المصائب والاهوال أن الخديوى توفيق باشا عهد الى بيكر باشا مع عساكر من البوليس والجندرمة خلاص المدائن المحصورة والتى صار التغلب عليها وأصدر له أمر الخديوى بأن يكون مطلق التصرف فى الحركات العسكرية حسب موافقة الاحوال وأن يتخابر بطريق الحبشة مع القبائل والعشائر المجاورة لسواكن وأنه هو الحاكم المتصرف فى السودان الشرقى فأعد بيكر قوته وجلته وسار بها حتى وصل سواكن وتقابل مع حسين واصف باشا حاكم السودان الشرقى فأمره بيكر باشا ببعض أوامر فقال له أنا الحاكم على هذه الجهة بامر الخديوى فقال بيكر باشا حاشا أنا الحاكم وأخرج له أمر الخديوى بتعيينه حاكما مطلق التصرف فى السودان الشرقى فقال له حسين واصف وأنا من الآن مستعف فقال بيكر وأنا قبلت وتوجه حسين واصف الى القاهرة فورا وسار بيكر الى مصوع ليتحالف مع رؤساء القبائل ليجهز طريقا لانسحاب عساكر الخرطوم من طريق كسلا ثم عاد الى سواكن واستعدت الحكومة الانكليزية للسفر بمراكبها الى جهة سواكن وبينما هم فى هذه الحركة المهولة اذ ورد الصياح والصراخ من نواحى الكولونيل قوطجون يطلب رخصة من الحكومة الانكليزية بتقهقره مع الموجودين معه من العساكر المصرية فى الخرطوم فصدرت الاوامر بذلك حسب مرغوبه الا أنه بأى طريقة وباى حالة يمكن اجراء ذلك لانه يوجد ألوف من الانفس فى هذه المدينة ولا يمكن عمل الوسائط اللازمة فى خلاصهم من طريق النيل فقط ومن مقتضى اجراء أخذ الوسائل اللازمة لسلامة هؤلاء الناس أن تكون طرق تقهقرهم سالمة من الآفات والمصائب التى ربما تعود عليهم فيما بعد لكن هل يمكن الوصول الى ذلك ومن هو الذى فى قدرته وبسالته مساعدة هذه المدينة المحصورة وهل يوجد انسان يمكنه التوجه لخلاص وانقاذ المدينة وأهلها من هذا الكرب العظيم نعم هو ﴿ ارسال الجنرال غوردون ﴾ وفى ٨ يناير سنة ١٨٨٤ قررت الحكومة الانكليزية غوردون باشا أحد رجالها المشهورين ليسير الى السودان لامرين الاول خلاص المحافظين المصريين والثانى أن يعيد النظام فيها بكونه يعيد جميع الجهات السودانية الى أمرائها وسلاطينها القديمة الذين محقت سلطنتهم وشوكتهم منها من مدة احتلال المصريين فيها ويقدم تقريرا مفصلا عن حالتها الحربية والوسائط اللازمة لسلامة من بها من المحافظين والسكان الاوروباويين وعن أحسن طريقة لاخلاء داخليتها واقامة حكومة منتظمة على سواحل البحر الاحمر وابطال تجارة الرقيق التى كانت عادت فى عهد محمد رؤف باشا كل هذا لان غوردون كان له خبرة تامة باحوال السودان وأعماله مدة ما كان متقلدا زمام حكومته فى عهد الخديوى اسمعيل باشا

وفى ١٨ يناير سنة ١٨٨٤ ترك الجنرال غوردون لوندره مع رفيقه فى السفر الكولونيل ستوارت وسافر الى القاهرة مباشرة فوصل القاهرة فى ٢٥ يناير فأخبره السير افلن بارنج بما قررته الحكومة الانكليزية وهو القرار المتقدم وفى اليوم الثانى أصدر الخديوى توفيق باشا أمرا بتولية غوردون على الاقطار السودانية وفوض اليه أمر اخلائها وفى ٢٧ يناير سار غوردون مصحوبا برفيقه الى الخرطوم وبينما كان قاطعا فى سفره صحراء عطمور أبو حمد الى بربر على الجمال والهجن كانت عساكر عثمان دجنة فى جهة سواكن دمرت قوة بيكر باشا ومحقوها فى نواحى ترنكتات كما سنذكره بعد ولما وصل غوردون ورفيقه الى بربر فى يوم ١١ فبراير شرع فى الحال فى اعطاء الرخصة التامة للاهالى فى بيع الرقيق

ونشر منشورات بذلك حتى تحصل الراحة من ذلك فى السودان ولو لم يكن هذا الامر من خصائصه وانه على غير رغبة الحكومة الانكليزية فانشرح صدر السودانيين من هذا المنشور الا أنهم قالوا كان من الواجب على غوردون الحضور الينا قبل ذلك بسنة فتأخر فى حضوره وفات الوقت فلم يشاركهم غوردون فى هذا الرأى بل قال لهم ان السودان أصبحت دولة مستقلة عن مصر وأن المهدى قد أقيم سلطانا على كردفان .

وفى ١٨ فبراير دخل غوردون الخرطوم فتلقاه أهلها وعساكرها مع الابتهاج والسرور ومزيد الترحاب والحبور فقال لهم انى أتيت لانقاذ السودان مما أصيبت به ولم آت بجيش بل جئت متوكلا على معونة الله تعالى ومعاضدته لى فلا أحارب الا بسلاح العدل وكانوا يحبونه من قبل فوقع كلامه من قلوبهم موقع القبول والاستحسان واستتبت الراحة فى الخرطوم ثم اتخذ وسائل عالية وسلطة وشوكة شامخة تولد منها هياج المهدى واحاطته بالخرطوم فى ٢١ مارث سنة ١٨٨٤ حينما كان نائبه الشجاع الباسل عثمان دجنة مشغولا مع الجنرال جراهم فى طمية بنواحى سواكن

﴿ سفر بيكر وتقدمه ﴾ ـ وبينما كان غوردون على حالته المتقدمة استعد بيكر باشا بقوته المصرية لاجل خلاص المصريين المحصورين وفى آخر شهر يناير عندما تمت استعداداته وتجهيزاته سافر بقوته وكانت نحوا من ٤٠٠٠ نفس من طريق البحر الى أن وصل ترنكتات موقع محمود طاهر باشا وهى على بعد عشرين ميلا من طوكر التى هى أول ميس يلطمه ويصيبه فى أثناء هجومه وترنكتات على نحو خمسة وعشرين ميلا من سواكن وفى ١١ فبراير ابتدأ بيكر بقوته فى السير نحو طوكر وكانت هيئة التقدم على صورة بوجه وليست على هيئة قلاع وكانت المدافع فى الامام والخيالة فى الجوانب من كل جهة وبينماهم على هذه الحالة المفشولة اذ هجم المهديون عليهم بغتة (وكانوا فى مراصد ومكامن مختفين) هجوما نهائيا وكانت هذه الحملة المشؤمة سائرة فى الصحراء على غير يقظة من عدوهم وما كان لبيكر وعساكره معلومية بقرب العدو منهم فأسرع بيكر باشا فى تشكيل بيادته على هيئة قلعة واجتهد فى مقاومة المهديين الذين اقتحموا بحرابهم وسكاكينهم وأخشابهم فى أيديهم على المصريين ولما كان لا يوجد وقت لتشكيل مثل هذه القلعة زحف العدو السريع الجرى وهجم على نصف القلعة وبالخصوص على الجناح الذى كان حصل فيه الفشل وعدم النظام وأسرع المصريون فى فتح نوبة اتش الا أنه لم ينتج منها الا زيادة تحريض المهديين والوقوع بالعساكر الذين أطلقوا هذه النيران حتى شتتوهم وصار لا طاقة فى تجمعهم وانخرقت القلعة والتصق العساكر مزدحين بعضهم وزاحمهم شجعان العدو وانكسرت همة المصريين وصاروا لا طاقة لهم على أدنى اجتهاد يدافعون به عن أنفسهم ورموا أسلحتهم وأسرعوا بالجرى فى كل جهة وسميت هذه الواقعة بوقعة التيب

﴿ حصول المذبحة فى التيب ﴾ ـ لا يمكن أى انسان أن يتصور ما حصل فى واقعة التيب من الاعمال الوحشية الفظيعة التى حصلت من المهديين وذلك أنه فى أقل من عشر دقائق من هجوم المهديين على جيش بيكر انتشرت جميع عساكر الجيش المصرى كالجراد فى سهل الصحراء بعد أن رموا أسلحتهم وشرعوا فى الجرى فانغمس الدراويش الشجعان فى دماء الرجال الذين ما حصل منهم مقاومة لهم وصار الدراويش يغتون المصريين فى بطونهم بحرابهم ويذبحونهم بسكاكينهم ذبح الفراخ وكان سبب وقوع هذا الفشل أن الدراويش هجموا أولا على الخيالة وأزعجوهم فانضموا الى البيادة فوقع

الرعب والخوف وانكسر الجيش وحصلت هذه المذبحة المهولة
وكانت عواقب المذبحة من أكبر المصائب فى مصر وفرح بالخلاص محمود طاهر باشا مما كان فيه من السؤال والجواب وصح المثل (مصائب قوم عند قوم فوائد) وبهزيمة بيكر باشا عفا الخديوى توفيق باشا عن محمود طاهر ولم ينج من هذه الواقعة الا قليل وندر وكان توفيق بك محافظ سواكن فى أثناء ذلك محصورا فى سنكات وكان معه ستون مقاتلا وكان له أمل كبير وعشم طويل فى أن يقابل بيكر باشا فهجم من سنكات بجامعه من العساكر وخرج من محل محافظته شاهرا سيفه وقاوم مقاومة شديدة عازما على الالتحاق مع بيكر الا أنه لما وجد نفسه لا طاقة له بعساكر الدراويش سلم نفسه وقوته فأبيدت قوته وتدمرت شوكته وقتل وتولد من هذه الهزيمة سرعة تسليم طوكر وحصل لعثمان دجنة النصر والظفر والغلبة لكنه عجز عن الهجوم على سواكن
ولما لم تنس الوزارة الانكليزية عدم تداخلها فى المسئلة المصرية وتكليفها الخديوى توفيق باشا بالتنازل عن السودان جمعت قوة كافية فى سواكن وعهدت قيادتها الى الجنرال جراهم وأمرته بالحملة والهجوم على موقع عثمان دجنة فى التيب وهو الموقع الذى انهزم فيه بيكر باشا
الواقعة الثانية فى التيب وتولد مما حصل للمصريين من المصائب الكبيرة أولا وثانيا فى نواحى طوكر كون الجنرال جراهم تعقل وتدبر فى أمره وتقدم فى سيره مشكلا عساكره فى هيئة قلعة مربعة كما فعل هيكس وذلك انه سار من معسكر ترنكات المسمى الآن بطابية بيكر فى رأس قوة من المشاة مقدارها ٣٠٠٠ نفس و ٧٥٠ من الخيالة و ٣٠٠ من المهندسين والطوبجية والبحرية ولما بلغ عثمان دجنه وعساكره هذا الخبر الطريف الذى عزم عليه الجنرال جراهم نظموا ترتيباتهم وعقدوا نياتهم وعزموا على تدمير الجنس الانكليزى وحصن المهدويون أنفسهم فى التيب واستعدوا بمدافع الكروب التى تغلبوا عليها من الوقعة الاولى ووقعة بيكر وحصن الدراويش أنفسهم وصاروا مثل النعام حافظين أمامهم وتاركين وراءهم ولما رأى الجنرال جراهم هذه الحالة انتهز الفرصة وهجم واشتبكت الواقعة الثانية فى التيب فى غرة مارث سنة ١٨٨٤ ولما قارب جراهم ميدان الحرب ارتبك الذين كانوا فى جيشه من الذين بقوا على قيد الحياة من واقعة بيكر وتبدد شملهم قبل ذلك بشهر وصاروا فى ميدان الحرب أشباحا بلا أرواح بعد أن اصفرت منهم الوجوه وغارت فى رؤسهم العيون وصاروا لا يتعقلون ولا فى الحرب يجتهدون ويشرعون وذلك لما رأوا ما هو واصل اليهم من مقذوفات المهديين وكانت قليلة وما حصل مجاوبتها من جيش جراهم
وفى الساعة الاحدى عشرة تقريبا قبل الظهر تحركت القلعة الجسيمة الثابتة مثل السور من دون أن يحصل منها ضرب نار وكانت محفورة من جوانبها بعساكرها الخيالة ولما وصلت هذه القلعة على مسافة ميل واحد من موقع الدراويش فى التيب فتح الدراويش عليها نيران طوبجية ثقيلة حادة بواسطة مدافع الكروب فجاوبتها المدافع الانكليزية والاسلحة الميترايوزية بنار حادة أيضا وتقدمت القلعة فى سيرها ولما رأى جراهم شدة نار الدراويش شكل القلعة وبدل حذاءها الذى كان عرضة للنار الشديدة الواردة من عند العدو وانجرح الكولونيل برنباى وكان الدراويش فى محاربتهم مثل الجن واشتبك الجيشان ببعضهما وصارت المحاربة يدا بيد وصارت الواقعة فى حالة مهولة جدا الى الساعة اثنين بعد الظهر ثم انفصل الحرب وحطت أثقاله ومات واحد بكباشى وانجرح بيكر باشا وكانت الخسائر كثيرة

بين

بين الحزبين وتقهقر الدراويش ووصل جراهم الى طوكر بعد التعب والمشاق ولما لم يجد مقاومة أمامه في طوكر عاد قافلا الى سواكن

وبعد هذا لم يزل عثمان دجنه مصرا على الحرب وأعلن أنه لم يكن عنده شيء من أمر انقياده أو التسليم الا الحرب والضرب ووقوع الانكليز في الكرب ولم تمض مدة قليلة حتى وردت الاخبار بوجود استعداد العدو بالسلاح على بضع أميال من سواكن وهددوها تهديدا شديدا ولم يتغير عزم العدو عن ذلك وكذا وردت الاخبار بأن عثمان دجنه حصن نفسه مع قوة عظيمة من عسكره في طمية وهي على مسافة ١٥ ميلا من سواكن في الجهة الغربية منها فسافر لذلك فرقتان من المشاة الانكليزية ومعهما السواري الخيالة والمدافع البريطانية مع غاية الاحتراس والمحافظة وعسكروا في اليوم الاول على مسافة قليلة من حركاتهم ثم تقدمت جميع القوة حتى كشفوا العدو في معسكره ووقف العساكر وحصنوا أنفسهم وفي صباح يوم ١٣ مارث صار الابتداء في الهجوم الا أنه في أثناء الليل أضر الدراويش بالعساكر الانكليزية وأزعجوهم وجعلوا يسقطون عليهم ويقتلون منهم حتى طلع النهار واختفوا في الارمانات والآجام وصار لا يرى أحد منهم وصار ترتيب العساكر الانكليزية في هيئة قلعتين في صورة تور بحله واحدة تحت قيادة الجنرال ردفرس بولر والاخرى تحت قيادة الجنرال دافيس وتقدمت قلعة الجنرال دافيس في الاول في يوم ١٣ مارث فحصل لعساكرها خوف وجزع فانفتح في جوانب القلعة عدة فتحات وفواصل فانقض الدراويش بخفة عجيبة سريعة ودخلوا من هذه الفتحات واقتحموا في الشبان الانكليزية وطفقوا امسحابالسيوف والاعناق واشتبكت واقعة مهولة يدا بيد ولا تسأل عن حال ما حصل من الدراويش الوحشيين واختلط الناس بعضهم عندما انقض العرب على الانكليز فصار العساكر والضباط وكتاب الجرائد وتوابع الحملة كل منهم يحارب لخلاص نفسه وصار في هذا اليوم كل نفس مشغولة بنفسها وصار الانكليز سكارى وما هم بسكارى ولكن حرب الدراويش عليهم شديد فتقهقرت القلعة البريطانية الى الخلف بالتدريج وانضم عساكرها الى بعضهم وتغلب الدراويش على ما معهم من المدافع ومازالت هذه القلعة آخذة في التقهقر حتى صارت في حذاء واحد مع القلعة الثانية وأطلق القلعتان على الدراويش نارا حامية وصار لا طاقة للدراويش على القرب من القلعة الثانية وجمع دافيس عساكر قلعته ثانيا بواسطة القلعتين وعساكر السواري ليسواراكبين خيولهم فقهقروا الدراويش وحرقوا طامية ومن بعد هذه الحركة رجعت قوة جراهم الى سواكن

وقال أحد المكاتبين ان أعظم عساكر الدنيا وأجودها شجاعة واقداما في الحروب ويمكن أن يحسدوا عليها عند عموم سكان الدنيا هم العرب المهدويون الذين خرقوا قلعة الفرقة الثانية الانكليزية في سواكن وتغلبوا على مدافعها فعابه بعض كتاب الانكليز وقال ان هذه النشرة قليلة حياء ومن بعد العود الى سواكن حصلت المخابرة في ترتيب قوة لاجل فتح طريق الى بربر بشأن عود المحافظين المحصورين في الجهات ولو أن هذا المشروع كان موافقا الا أنه لم يحصل اجراؤه وتقدم الجنرال جراهم في الصحراء مرة ثالثة ولما لم يلق كيدا حرق قرية طمنباب وتولد من ذلك زيادة الرعب عند القبائل المسالمة وما كانت جميع اجراآت جراهم تحت طائل وما حصل منها أدنى فائدة تعود على الحكومة المصرية أو الانكليزية وانسحب جراهم من سواكن في ٢٥ مارث سنة ١٨٨٤ ميلادية بعد أن أبقى في سواكن بضع مياآت من العساكر لان الدراويش ولو صار طردهم من تلك الجهات الا أنهم ربما يتغلبون عليها وكان

عثمان دجنة على شدة من الشوق والرغبة فى طرد الانكليز فى داخل البحر ومنع عساكرهم من السير فى البر وأبقى أيضا بعضا من المراكب البخارية حتى باتحادها مع العساكر يصير التحفظ على المدينة ولما انسحب جراهم وعساكره من سواكن شرع عثمان دجنه فى ازعاجها وارعابها واستمر على هذه الحالة

﴿ حصار غوردون فى الخرطوم ﴾ ولو أن المهدى كان حاصلا منه الهمة الزائدة والنشاط التام فى أشغاله فى شهرى فبراير ومارث كذلك كان غوردون حاصلا منه الهمة فى حركاته وما كان فى تأخير عن المهدى ومن ابتداء حضوره فى الخرطوم شرع فى تقوية تحصينها ورصانتها وقلل عدد سكانها حتى أوصلهم الى نحو ٣٠٠٠٠ نفس بما فيهم ٦٠٠٠ عسكرى كان أرسلهم أسفل الدنيا للمحافظة على حلفاية وأراد طرد جميع السكان الا أنه لما رأى من عزم المهدى على قتلهم أودخولهم معه أبقاهم فى المدينة خوفا عليهم

وقال بعض الكتاب لماذا لم يصرح المهدى لاهل الخرطوم فى النجاة بأنفسهم حتى يروق باله من الارتباك فى استحواذه على السودان قال بعضهم ردا على هذا السؤال ان السبب الذى أوجب المهدى فى كونه لا يرخص لغوردون والمصريين معه فى الانجلاء عن الخرطوم مع حفظ السلامة هو أنه من الواجب عليه السعى فى هدايتهم اليه وانه يجب عليه أن يجرى الاجراآت اللازمة فى تسليم أنفسهم اليه أو ابادتهم عن آخرهم وان لم يوف بهذا الشرط فليس بمهدى ومن ثم كانت هذه حالة القواد السودانية اما التسليم واما القتل ومن ثم تولدت الاختلاسات عند الضباط والحكام الموجودين مع غوردون فأما الخيانة الاولى فهى أنه كان سعى فى خلاص محافظى حلفاية فقاومه الدراويش بخيانة اثنين من الباشوات المصرية كانا يجريان أشغالا تحت رياسة الكولونيل ستوارت وذلك أن المصريين ضربوا عيارا واحدا وفروا هاربين مثل الغنم فتولد من ذلك مذبحة مهولة فى جهة حلفاية حصلت فى ١٦ مارث وفى هذه الواقعة انجرح الكولونيل ستوارت وشرع السكان فى أنهم يتركون المدينة وكذا قام الباشبوزق فى ثورة هى الثانية وكانوا على شرف رمى السلاح ولما حقق غوردون ما كان من خيانة الاثنين باشوات ووجدهما مجرمين أمر بضربهما بالرصاص فى الميدان ونجح غوردون فى خلاص محافظى حلفاية فى ١٢ مارث الا انه فى يوم ٢٤ قامت جميع البلاد الموجودة قبلى بربر فى ثورة واحدة وصار محاصرة الخرطوم ومن ابتداء هذا الوقت الى شهر ابريل سنة ١٨٨٤ استمر غوردون فى حرب منعزل بواسطة مراكبه البخارية لانه لا يمكنه أن يخاطر بنفسه فى اجراء حروب على شاطئ النهر وزاد عدد سكان المدينة حتى بلغ ٣٤٠٠٠ نفس وصار المنظور عدم خلاص هؤلاء الانفس لان ما حصل فى السودان صار مثاله كوجة قام فيها طوفان الثورة فى طول نهر النيل وعلى شاطئيه وغرقت المتمة وشندى وبربر وبقيت الخرطوم واقعة كجزيرة فى وسط مياه الثورة المهدوية وغرق أيضا جميع المرتفعات والمنخفضات فى مياه غضب المهدويين الا قطعة واحدة صغيرة

وورد من الخرطوم البلاغات والاعلانات الى الحكومة الانكليزية وفيها سوفت الى غوردون كل ما طلبه وكان أرسلها الى السير افلن بارنج بمصر بكل مشقة يحثه ويحرضه على مساعدته ومعاضدته فى أول فرصة ينتهزها وفى ١٩ ابريل أرسل غوردون تلغرافا ذكر فيه ان الخرطوم بها مؤنة تكفى خمسة أشهر يعنى لحد نصف سبتمبر ومن هذا تولد حصول سكتة استمرت مدة خمسة أشهر وصار غوردون من وقت الى وقت يرسل الاخبار الخاصة بالخرطوم قاطعة الصحراء يستدل منها على أنها باقية مثل مركب فى يد قبودان وبحرية صادقين يقذفون فيها فوق أمواج ظاهرة على أفق الشك ثم تنزل فى عميق اليأس

وفى ٢٠ يوليه أشيع أن الباسل غوردون كتب الى مديردنقله يقول له أنا تحت يرقى ٨٠٠٠ نفس فى الخرطوم الا انى لم أزل أرغب فى التقوية والمساعدة واستمر المدير على صداقته له وأمانته وفى ٢٣ ديسمبر هزم جيشا مقداره ٥٠٠٠ نفس من الدراويش فى نواحى الدبة الا أن هذه الحركة المظفرة لم يحصل منها نتيجة لغوردون لان الخرطوم لم تزل محاطة احاطة مهولة ولم يحصل من انكلترة همة فى ارسال مساعدة للخرطوم وخلاص غوردون وانقضى شهر يوليه والاستعدادات وان كانت جارية فى لوندره الا أن السفر الى الخرطوم لم يحصل فيه فصل ولا حكم ورجح الجنرال استفانسن السير من طريق عطمور أبوحمد لانه لم يجد السفر من طريق النيل موافقا لرأيه وفى مبادى أغسطس قرر البرلمان سفر الحملة اللازمة وصدر بذلك قراره ومن بعد مضى يومين من أمر البرلمان وصلت الاخبار من غوردون بانه هو وستوارت والمستر پور جميعا على قيد الحياة وهم طيبون بخير وعافية وفى ١٠ أغسطس ورد من عند غوردون أخبار طيبة تفيد أنه كان خرج فى تجريدة وانتصر على الدراويش وقتل منهم ١٨٠٠ نفس فكانت هذه أخبارا عظيمة وبينما كانت الاستعدادات والتجهيزات من الالايات الانكليزية والمهمات والمراكب والذخائر الحربية والمؤنات وما يلزم للحملة السودانية جاريا تسفيرها الى مصر استقر الامر والرأى على السفر من طريق النيل لامن طريق العطمور وتعين اللورد وولسلى وكان ذلك مشروعه وماتراءى له من الحركات العسكرية وفى ٢٨ أغسطس اندرج اسمه فى جرائد الحوادث انه هو القائد لحملة الخلاص ووصل القاهرة فى ١٠ سبتمبر وسار منها مباشرة على النيل ولا يمكن أن نأتى بتفاصيل هذه الحملة فى كتابنا هذا الا أنه يلزمنا الاجتهاد فى كوننا نذكر على قدر الامكان الحوادث والوقائع التى حصلت على نهر النيل وفى نواحى الخرطوم بطريقة مفيدة سريعة الفهم لمطالعى كتابنا هذا والله الموفق للصواب

ولنذكر الآن ان غوردون محصور فى الخرطوم من ابتداء سنة ١٨٨٤ ميلادية الى حد فبراير سنة ١٨٨٥ ميلادية وفى مدة هذا الوقت لم يرسل أدنى خبر وان سفر حملة الخلاص كان فى سبتمبر فى عز زيادة مياه النيل وعلو فيضانه وذلك بالنسبة لسهولة السفر خشية من حصول التعريق المضر بالاعمال وبذلت الحكومة الانكليزية والمصرية ما فى وسعها فى اتخاذ الوسائل اللازمة لنجاز الحملة وتشهيلها عند ما حصل الاقرار عليها فى مجلس البرلمان وشرعت انكلترة فى التجهيزات الحربية وأمرت بجلب البحرية من الكرومين وكاده وجهة افريقة من الذين لهم دراية بسفر البحار والانهار وأرسلتهم ورتبت لهم الرواتب الشهرية من خزينتها الانكليزية وجلبت الرواسم والطومبازات والشلوبات والقوارب وأدخلت كل ذلك فى نهر النيل وتساوى فى هذه الاعمال العساكر البرية والبحرية وصاروا يجرون سوية ما يلزم لتشهيل النقل وصار تهيئة الاسلحة والذخائر نظيفة خالية من الرطوبة وصار اتخاذ كل ما يلزم من أحسن الوسائل اللازمة لسفر الحملة واستعدت عساكر المهندسين ومصالح التلغرافات ووكلاء الادارات والمستخدمين والجمالة والهجانة وصارت الالايات الاوروباوية المصرية وبحارة الانهر والبحار المالحة والعساكر الخطرية فى أحسن قالب وأعظم منوال وصار البدء فى تسفير أول سفرة على النيل الاعظم

﴿ السفر الى الخرطوم ﴾ كان أول سفرة مقصورة على السكك الحديدية ونهر النيل من ابتداء القاهرة الى دنقله ولا ريب أن الاوامر كانت أعطيت الى مدير دنقله من قبل فى الاستعداد لسفر العساكر وكان

يلزم لهذه التحضيرات ستة أسابيع كما أنه تكون أشغال الحملة جارية مع الدقة والاعتناء فأما من الاسكندرية الى وادى حلفا كانت السكك الحديدية والاستعدادات النقلية جارية بغاية الهمة وان كان حصل توقيف قليل وعطل فى صعود المراكب من شلالها وان لكنه مع الهمة صار الخلاص منه على سلامة وكذا حصلت مصاعب شديدة فى النقل فى شلال وادى حلفا وبسبب العساكر والانفار المعدين للشغل المراكب الجارية من الشلال وأصعدوها فى النيل ثم صار السفر الى حد سرس فى حالة جيدة وأرسل مدير دنقلة المراكب اللازمة على قدر امكانه الى سرس وصار وصول الفرقة الاولى الى دنقله وطول هذه المسافة من وادى حلفا الى سرس ٣٣ ميلا ومن سرس الى دنقله ٣١٥ ميل ولما وصل اللورد وولسلى دنقلة فى ٥ نوفمبر صار الشروع حقيقة فى السفر الى الخرطوم ولما وصل العساكر كورتى وهى قرية على الشاطئ الغربى لنهر النيل وجد أنه من الضرورى قطع العساكر الانكليزية طريق الصحراء السريع منها الوصول الى الخرطوم فمن ثم فى ١٢ ديسمبر توجهت حملة برياسة أركان حرب الى امبجول تحت قرية كورتى وفى اليوم الثانى وصل اللورد وولسلى

ومن بعد هذا رتب الانكليز موقعا قويا فى نواحى آبار جكدول وعملوا الترتيبات اللازمة فى خصوص اقتحام الصحراء الى المتمة الى الخرطوم واجراؤها كان بناء عن الاخبار المحسوسة الواردة من غوردون وان كان البعض منها سارا الا أنه حصل للورد وولسلى منها حماس شديد وغيرة قوية وهياج فى سرعة سير الحركات ومن ثم تولد الشروع فى اقتحام طريق الصحراء مع غاية الجسارة والجراءة الا انه يلزمنا قبل أن نشرح سير هذه الحملة نذكر الحالة التى كانت فى الخرطوم بالمطابقة مع ذكر سير العساكر الانكليزية

﴿حصار الخرطوم بواسطة المهدى﴾ وضحت لنا المنشورات اليومية التى كان جاريا نشرها فى تيمس لوندره جميع الاعمال التى كانت جارية فى الخرطوم لحد ٢٩ يوليه سنة ١٨٨٤ وعرفنا منها ومن دلائل أخرى أن غوردون كان خالى النقود وصار من عنده من العساكر المصرية على غاية من الجبن والبلادة وصار لا يحكم على شئ سوى شجاعته واقدامه وثباته مع الاوروباوين القليلى العدد وكان عليهم اعتماده ووثاقته وبواسطة أعمالهم وأشغالهم بالاتحاد معه حفظ الخرطوم من الخراب والدمار وكان معاضدا على الخصوص فى أشغاله بواسطة القولونيل ستوارت والمستر بور وهذا له صيت كبير فى السياسة والكتابة وبواسطة هؤلاء جميعا جعل غوردون الخرطوم فى قبضة يده ولما كان موقع الخرطوم فى نقطة اجتماع النيلين الابيض والازرق من أعظم المواقع وأحصنها كان غوردون مستحوذا بواسطة هذا الموقع العظيم على الوابورات الجارية من مصر وبها حفظ النهرين ومن ثم لم يكن هذا الموقع قابلا للهجوم الصادر من أى عدو الا من جهة البر وهى الجهة القبلية وكان غوردون يحفر طول الليل على سطح سرايته مراقبا أى حركة يحصل وقوعها على المدينة من المهدى ويستمر سهران فوق سطح السراى حتى يلوح الفجر ولا يثق بعيون أحد خلافه يراقب حركة العدو وكانت مراسلاته قليلة وبين الرجاء والخوف وكان يجلب مؤن العساكر وأهل المدينة بواسطة الوابورات الا أنه أخذ فى الضيق شيأ فشيأ مع قرب العدو فى الحصار وحصل له غاية الضرر والاستغراب من الانكليز وتأخيرهم الحملة عنه مع انه جار منه توبيخ الحكومة الانكليزية فى كونها تركته وبعدت عن معاضدته

وفى

وفى ٧ أغسطس ورد من غوردون افادة يعلم منها ان غوردون ومن عنده فى حالة طيبة وعندهم فى الخرطوم ذخائر كافية لمدة أربع شهور ثم سمعنا من بعد مضى بضع أيام من ورود هذه الافادة ان الجنرال غوردون نال نصرة عظيمة على المهدويين وقتل منهم نحو من ١٨٠٠ نفس ومن بعد مضى شهر رأينا انه هجم على بربر وعمل استكشافات كثيرة وتغلب على جزيرتين فى النيل وكذا فى ١٧ سبتمبر وردت افادة تاريخها ٢٥ أغسطس يذكر فيها أنا منتظر حضور العساكر الانكليزية لخلاصى وخلاص المحافظين وأرسلوا الى الزبير وأنا أخضع السودان للسلطان وكذا يلزم ارسال ٣٠٠٠٠ عسكرى تركى والا فاذا كان العصاة يذبحون المصريين فانهم المسؤلون عن دمائهم والمجاوبون عن ذبحهم

ومن بعد مضى يومين وردت أخبار من غوردون يتضرر فيها من تأخير الحملة وفى ١٧ سبتمبر كتب افادة يذكر فيها أن سفر الكولونيل ستوارت والمستر پور والقنصل الفرنساوى لاجل الهجوم على بربر كان من أقبح السفرات ومركز حلول النكبات

﴿ ذبح القولونيل ستوارت ورفقائه ﴾ ـ وذلك أن الكولونيل ستوارت بارح مدينة الخرطوم فى وابوره المسمى عباس معه وابوابورين آخرين مقطورين خلفهما قنائر مشحونة بعساكر ولما وصل الى بربر ضربها بنيران المدافع وطرد الدراويش منها ثم أعاد العساكر وسار منحدرا فى النيل بوابوره عباس وفى ١٨ لطم الوابور صخرة فى وادى غمرة ومن ثم صار انزال المؤن والذخائر الموجودة فى الوابور على جزيرة بالقرب من المحل الذى انكسر فيه الوابور وسمر الكولونيل ستوارت المدافع وأغرق ذخائره وهرع الناس اليه يطلبون منه حبوبا وغلالا ويعترفون له بالسلم والطاعة وجاء رجل اسمه الشيخ سليمان ودعا الاوروباويين الى منزل رجل أعمى لاجل حفظهم فيه حتى يجهز لهم الجمال اللازمة لعودهم وطلب من القنصل وپور وستوارت أن يتوجهوا الى المنزل بغير سلاح حتى لا يحصل خوف أو رعب عند الاهالى ولما عزل الشيخ سليمان المكار الاوروباويين من الاهالى أرسل جماعتين من أهل القرية واحدة فى داخل بيت الرجل الاعمى والاخرى تكمن فى البيوت المجاورة لمنزل الاعمى ولما استقر هؤلاء الاوروباويون فى منزل الاعمى هجم عليهم أهل القرية وقتلوهم فورا وهرب المصريون وعاموا فى النهر فاصطادهم أهل البلد بالرصاص ولم ينج منهم الا ثمانية أو تسعة ورموا جثث القتلى فى البحر وفى الحال أشيعت هذه الحادثة المهولة ووصلت أخبارهم الى دنقلة ومنها الى مصر فحصل الاسف الشديد وكانت أكثر تأثيرا فى لوندره وحصل من غوردون شدة الشكوى والتضرر الا أنه لم يزل كان على أمل رفض تسليم نفسه الى محمد أحمد المهدى وضايقه المهدى مضايقة شديدة فى حصاره له وأشرفت الذخائر الحربية على الخلاص وأما البارود فكان جاريا تشغيله بمعرفته لانه ما كان يغفل ولا ينام متحمل المشاق والالام وبذل جهده وما فى طاقته فى اجراء كل شئ يحفظ به وجود نفسه أمام الاعداء وأما الضباط المصرية فكانوا معه على نصف قلب أو قل لا شئ وعلى ما قيل ان جميع الناس بعدوا عنه حتى صار هو ونفسه وكان يخفى على الدوام ما فى ضميره ويرسل البلاغات والمكاتيب بسرعة الحضور فى خلاصه

وبهذه الحالة قربت سنة ١٨٨٤ على الغلاق وصمم اللورد وولسلى أمره على اقتحام الصحراء الى المتمة وفى ٣٠ ديسمبر سافر الجنرال ستوارت من كورتى وفى أول يناير ورد بلاغ من غوردون

تاريخه ١٤ ديسمبر نصه - الخرطوم ومافيها في حالة جيدة - غوردون

﴿ اقتحام الصحراء ﴾ - اذا تأملنا في أي خريطة من الخرائط المختصة بوادى النيل نرى أن نهر النيل من عند امبيجول لاف لفة كبيرة نحو الجهة الشمالية الشرقية الى حد قرية أبوحمد ويمر بقرى كورتي ومروى وهنداب وبورتى وكربيكان ومن عند أبوحمد يتجه الى الجهة الجنوبية على مسافة ١٢٤ ميلا الى بربر وينوف عن ١٠٣ ميلا الى شندى تجاه المتمة ومن غوباط الى مسافة ١٠٠ ميل توجد مدينة الخرطوم الواقعة على نقطة اجتماع النهرين الابيض والازرق وان الطريق اللازم لسير القول الطيار فيها هي قاعدة مثلث غير منتظم الخطوط ضلعاه الآخران النيل ورأسه قرية أبوحمد وطول الطريق من كورتى الى المتمة ١٨٢ ميلا تقريبا هي من امبوكول الى جاكدول ٩٦ ميلا ومنها الى آبار أبي طليح ٦٤ ميلا ومنها الى المتمة ٢٢ ميلا يكون ذلك ١٨٢ ميلا

ثم بارح القول كورتى بعد الظهر وكان الماجور كتشنر في المقدمة مع الدلاء وهؤلاء كانوا محفورين بعساكر بيادة راكبة محيطة بهم بحيث لو رؤى من أحد منهم خيانة قتلوه في الحال وكان السير هربرت ستوارت كشف محل السير كشفا جيدا ورتب القول حتى جعل عرض مواجهته ١٠٠ يارده وطول القول نصف ميل وما انحصر في عقول العساكر والضباط وأهل الحملة من الاتعاب والمشاق والاهوال والاخطار كان جميعه محصورا في المثل الذى قاله الجنرال ولز وهذا المثل الذى قاله هو (لايمكن عمل عجة من دون تكسير البيض) وقال نحن لايمكننا أن نشرع في أي حرب من دون أن نخاطر فيه بأنفسنا

﴿ واقعة آبار أبي طليح ﴾ - وبارح السير هربرت ستوارت كورتى في يوم ٨ ينايرسنة ١٨٨٥ وعسكر في الكشف بعد أن سار سبعة أميال وفي الساعة ١ و ٣٠ دقيقة بعد نصف الليل سافر وقطع في سيره مسافة ٣٠ ميلا وفي يوم السبت ١٠ الشهر وصل هبولك وفي يوم الاحد وصل القول آبار حلفا وفي يوم الاثنين وصل القول جكدول واستمر في سيره الى ابار أبي طليح وهي على مسافة ٦٠ ميلا من آبار حلفا وفي يوم ١٦ شاهد القول الدراويش على بضع أميال من الآبار في قوة عظيمة صار تقديرها بوجه التقريب ١٠٠٠٠ نفس وكان مع الجنرال هربرت ستوارت ١٥٠٠ نفس فقط وترك ٥٠٠ نفس آخرين خفراء على آبار مختلفة في الطريق فلما رأى هذا الجيش الصغير الدراويش وماهم فيه من كثرة العدد والقوة وقف وعسكر في الكشف في ليلة ١٦ وأرسل العدو عليه طول الليل نيران بنادق حادة شديدة

وفي يوم ١٧ اجتهد الجنرال ستوارت وبذل قوته في طرد العدو من أمامه الا أنه لم يتيسر له ذلك فترك الحملة تحت خفر رجال من عسكره وسار بالباقى من قوته في هيئة قلعة مربعة نحو ابار أبي طليح وكانت هذه القوة مركبة من أخلاط كثيرة وخط سيره واقع على ظهر صخرى في وادو في أثناء سير هذه القلعة الى الامام كان الدراويش مسلطين عليهم نيران البنادق واتجه الدراويش وانوا نحو شمال الجيش ففتح عليهم ستوارت نيران طوبجية حادة فانتشروا على أجناب القلعة فغير ستوارت حذاء القلعة حتى صار العدو جميعه في يمينها وأخذ الدراويش في الجرى السريع وخلفهم ألوف منهم وكان خروجهم بغتة ممن أورمانات كانوا مختفين فيها على مسافة ٨٠٠ ياردة من القلعة وساروا مسرعين بخطوة الهجوم السريع ولما قرب الدراويش مقتحمين القلعة فتح الانكليز عليهم نيران ثقيلة من الجنب

الايسر

الايسر للقلعة الا أن هذه النيران لم يحصل منها أدنى تأثير ولما صاروا من القلعة على مسافة قليلة انحرفوا فجأة وهجموا على وراء القلعة وكان مركبا من عساكر السوارى الثقيلة فتولد من هذا الاقتحام البغتى وقوف الجيش الانكليزى وانتشب الحرب يدا بيد واستمرت مواجهة القلعة والجناح الايسر مداومين على ضرب النار على الدراويش ومن بعد مقاومة شديدة وهلاك أنفس بين الطرفين رجع الدراويش واستمرت القلعة فى ضرب النار واقتحم عساكر السوارى راكبين خيولهم حتى وصلوا الآبار وتبعهم القلعة وجاءت اليهم الجملة والمهمات مع الخفر فى سلامة * وقال بعض الذين شاهدوا هذه الواقعة ان الصحرا صارت الدماء تجرى فيها مثل تيارات المياه وتغير اللون الابيض للرمال باللون الاحمر القاتم وقتل من الانكليز فى هذه الواقعة نحو من ٧٤٠ نفس ومن الدراويش أكثر

﴿واقعة غوباط﴾ – ومن بعد ظهر يوم ١٨ سار هذا الجيش القليل الذى ما بقى منه الا ١٥٠٠ مع الشهامة الى المتمة وأخذ خبرا فى حال سيره أن العدو متجمع فيها بقوة عظيمة ومحصن نفسه فى موقع على خمسة أميال من النيل ولما سار الجيش الانكليزى وشاهد العدو شكل ستوارت زريبة وعمل نوع دروة من الجمال والحملة والسروج والشواغر والغبيطات لكن كانت نيران الدراويش حادة جدا وثقيلة فانجرح الجنرال ستوارت جرحا بليغا مات منه بعد قليل وكان كتاب الجرانيل والحوادث مستخفين وراء الجمال فقتل مكاتب الاستندارد ومكاتب مورنن بوسط واثنان من الضباط وقتل ١٢ نفس وانجرح ٤٠ نفس قبل تمام شغل الزريبة وقتل فى هذه الملحمة الكولونيل برنباى ومن الدراويش نحو من ٨٠٠ نفس الا أن خسارة الانكليز كانت مهولة جدا خصوصا فى صنف الخيالة

ثم عزم الانكليز على السير وتشكلت القلعة ومن بعد أن سارت بضع أميال التحم القتال ثانيا الا أنه ما كان مهولا مثل الذى حصل فى أبى طليح وما تجاسر أحد من الدراويش على الدنو من القلعة فى داخل مسافة ٦٠ ياردة منها من حدة النيران وشدتها وفى هذه الاثناء هجم خيالة الدراويش على الزريبة وكان اللورد شارلس برسفورد على قيادة العساكر فاستمر فى قتال وحرب ابث نحو ساعتين وأخيرا تقهقر الدراويش وصار تقوية موقع غوباط بالمتاريس وكانت الذخائر والمؤن كثيرة وورد بعد ذلك العساكر والتقويات وسار الجنرال ارل من طريق النيل صاعدا مع التفافه مصرا على الانتقام وأخذ الثار من الذين قتلوا ستوارت ورفقاءه فأدركته منية حمامه وقتل فى كربكات

وفى ٢٢ يناير سنة ١٨٨٥ وصل الى موقع غوباط خمس وابورات أرسلها غوردون مشحونة بالعساكر والمدافع وأرسل غوردون مع قائد هذه الوابورات مكتوبا من طرفه أن الجميع طيبون بخير وعافية فرغب السير شارلس فى الصعود على النيل مع وابورين لاجل خلاص الخرطوم وسار وضرب فى طريقه بربر بنار المدافع واستمر يومين سائرا فى الوابورين على مياه مسافة طولها ١٠٠ ميل وتأخر وصوله جدا وذلك أنه اصطحب فى يوم ٢٤ يناير بالملجور غاسكونى واثنين يوزباشية وساروا مع عساكرهم ونزل القولونيل ستوارت وارطلى بفرقتين من العساكر من معسكر غوباط فى وابورين آخرين من وابورات غوردون متوجها الى الخرطوم وبالنسبة لحالة أحد الوابورات والعوارض الموجودة فى أشغال الملاحة حصل فى أحد الوابورات بعض كسورات كانت تحتاج لشغل ١٢ ساعة أو ٢٤ ساعة لا أكثر مكث البحرية يشتغلون فيها أربعة أيام مع شارلس ويلسون وكان نازلا على شارلس ويلسون وما معه نيران بنادق ومدافع من عند الدراويش حادة جدا وكانت جميع الطريق من حلفاية الى الخرطوم

ومسافتها ١٣ ميلا وكان وابورا اللورد شارلس برسفورد تحت نيران بنادق ومدافع شديدة وكانا على حالة خطرة فى سيرهما ومن الاتفاقات العجيبة أن أحد وابورى شارلس و يلسون انكسر بعد أن مر من شلال شابلوكا فى ٣٠ يناير فنقل العساكر فى الوابور الآخر وكذا الذخائر وفى ٣١ يناير غرق هذا الوابور أيضا بالقرب من جزيرة صغيرة على مسافة ٤٠ ميلا من موقع غوباط وفى هذا الوقت سار ستوارت وارطلى مع خمسة أنفار فى قارب صغير وأخبر وابهذه الحادثة فى معسكر غوباط فصار تسفير وابور تحت قيادة لورد شارلس برسفورد لاجل خلاص شارلس و يلسون ومن معه ومن قبل أن يصل لورد شارلس برسفورد لخلاص شارلس ويلسون وحزبه استمر مدة عشر ساعات تحت نيران ثقيلة مقذوفة عليه من عند العدو فى الجهة القبلية من الشلال السادس وصدمت الوابور قلة خرقته فالتزم لورد شارلس برسفورد على رمى خطاف الوابور فى وسط مياه النيل لاجل ترميم الخرق وفى أثناء ذلك نزل شارلس و يلسون ومن معه من الجزيرة وسار وافى طول شاطئ النهر مسافة فأخذهم اللورد برسفورد فى وابوره بعد أن قلفط العساكر الخرق وكان ذلك فى ٥ فبراير وفى ليلة ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ تغلب المهدى على الخرطوم بدسيسة من فرج باشا الزينى وكان هذا من محاسيب الخديوى توفيق باشا ومن بعد ذلك شنق المهدى فرج الزينى وقتل غوردون ولما قرب شارلس و يلسون واللورد شارلس برسفورد من الخرطوم ورأوا تغلب المهدى عليها ارتدوا جميعا على أعقابهم خائبين حتى وصلوا معسكر غوباط وأرسلوا بهذه الاخبار المهولة عليهم الى اللورد وولسلى فى كورتى فاستشار حكومته فأمرته حسبما تقرر فى البرلمان بالانسحاب من الاقطار السودانية

وفى أول مايه سنة ١٨٨٥ وصل اللورد وولسلى الى سواكن وشاهد مابها من الحركات وفى يوليه انسحبت العساكر الانكليزية من السودان على عزم أن يتحصنوا فى وادى حلفا وكروسكو وأسوان و يتركوا للمهدى وأتباعه ماوراء ذلك

وقطن المهدى أم درمان مقابلة الخرطوم يجمع الجموع و يجند الجنود لاجل التغلب على الديار المصرية وأرسل مكاتيب من طرفه للخديوى والسلطان عبد الحميد وملكة انكلترة يشعرهم بدولته ومقر سلطنته وضرب النقود ومات بالجدرى فى ١٩ يونيه سنة ١٨٨٥ بعد أن استخلف ابن أخيه السلطان عبد الله التعايشى ولم يتولد من موت المهدى شئ تضعف منه حركة الدراويش بل استحفظوا على حدودهم وصاروا فى مناوشات شديدة مع العساكر المصرية والانكليزية فى جهتى وادى حلفا وسواكن

﴿واقعة الجميزة﴾ واستمر عثمان دجنة مضايقا على سواكن ومحاصرها الى أن أرسلت الحكومة المصرية فى شهر نوفمبر سنة ١٨٨٨ حملة مركبة من عساكر انكليزية ومصرية تحت قيادة الجنرال غرانفيل سردار الجيش المصرى ولما تكاملت الحملة بسواكن هجم الجنرال غرانفيل على الدراويش الحاصرين لسواكن على بعد ٢٠٠ ياردة تقريبا من طابية الجميزة فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨٨ وكانت النتيجة انتصار الجيوش المصرية والانكليزية على دراويش عثمان دجنة وانقاذ سواكن من الحصار

﴿واقعة ارجين﴾ وفى ٢ يوليه سنة ١٨٨٩ حصلت واقعة أرجين وهى بلدة على مسافة ٣ أميال بحرى حلفا

﴿واقعة توسكى﴾ وفى خلال واقعة ارجين هذه تكاثر تجمع الدراويش تحت قيادة ابن النجومى وأزمعوا حامية الحدود فجمع الجنرال غرانفيل قوة عظيمة وساقها الى الحدود وانتشب القتال بينه وبين

ابن

ابن النجومي في توسكي الواقعة بين حلفا وكرسكو في يوم ٣ اغسطس سنة ١٨٨٩ وكانت نتيجته انتصار الجيش المصري على الدراويش وقتل في هذه الواقعة ابن النجومي وكانت خسارة الدراويش ٥٠٠٠ نفس بين قتيل وجريح وخسائر المصريين زهيدة جدا عبارة عن ٢٥ نفس

﴿واقعة طوكر﴾ وفي سنة ١٨٩١ ميلادية هجمت العساكر المصرية تحت قيادة قومندان سواكن على الدراويش الموجودين بجهة طوكر كانت نتيجته هرب الدراويش واحتلال العساكر المصرية طوكر

﴿واقعة امبجول﴾ وفي ٢ ينايرسنة ١٨٩٣ حصلت واقعة بجهة ابارا امبيجول قبلي المرات بين هجانة الجيش المصري وسواري الدراويش وكانت نتيجتها هزيمة المصريين حيث قتل في هذه الواقعة قومندان الهجانة المصرية وأربعون من صف ضباط وعساكر وكانت واقعة محزنة جدا عند كافة المصريين

﴿سمو الخديوي المعظم عباس باشا حلمي الثاني﴾



وفي ٧ ينايرسنة ١٨٩٢ ميلادية وردت الاخبار التلغرافية من القاهرة تنعي وفاة الخديوي محمد توفيق باشا من اصابته بحمى شديدة وكان ولي عهده على الحكومة المصرية نجله البرنس عباس باشا حلمي غائبا في فيينه فعاد منها الى القاهرة وجلس على الاريكة الخديوية من ابتداء ٨ ينايرسنة ١٨٩٢

﴿ الكتاب الثالث ﴾

(تاريخ الكلدانيين)

﴿ الباب الاول ﴾

(تشييد الحكومة الكلدانية وسقوطها)

كلديا أقدم سلطنة فى آسيا ــ سعة المملكة وامتدادها ــ موقعها الجغرافى ــ أوصافها الطبيعية ــ نهرى الدجلة والفرات ــ مناخ المملكة ــ خصوبة كلديا ــ المحصولات النباتية ــ الحيوانات ــ تأسيس السلطنة الكلدانية بواسطة نمروذ ــ صفة نمروذ ــ خلفاؤه ــ العائلة الرابعة والخامسة ــ ارتباطات كلديا مع أشوريا ــ تغلب أشوريا على كلديا ــ حضارة كلديا ــ مدائنها ــ هياكلها ــ تجارتها ــ سيادة كلديا على الدنيا القديمة ــ ديانتها ــ غذاء الامة الكلدانية وعوائدها

كانت مملكة كلديا أقدم سلطنة فى قارة آسيا والارض التى كانت هذه المملكة فيها محصورة فى قطعة من القسم الخصب الذى يشق وسطه حزام الصحراء العريض الذى يعبر نصف الكرة الشرقى من البحر الاطلنطيقى فى الجهة الغربية الى البحر الاصفر فى الجهة الشرقية وتنقسم هذه الناحية الى سهل غربى تشابه هيئته مشابهة تامة لوادى النيل ولو أنها على منوال أعرض منه ومن ناحية جبلية شرقية مركبة فى معظم ذاتها من خمس أوست سلاسل جبال متوازية ترتفع فى كثير من محال منها عن موازنة خط الثلج الدائمى وأما السهل الغربى الواقع بين الصحراء السورية العربية وذيل جبال سلسلة بلاد الكوردستان واللورستان فانه كان فى الازمان القديمة مركزاً ومقر ثلاثة من الممالك الكبيرة فى الدنيا وكان يعرف عند اليهود باسم ارام النهرين أوسوريا ذات النهرين وعند الجريق والرومانيين باسم ميزوبوتاميا وعند العرب بجزيرة العراق ومن ثم تحتاج هيئته الممتازة وجلالة موقعه وخصوبة أرضه للنهرين العظيمين العابرين منه وهما نهر الدجلة ونهر الفرات وهما ضروريان لرى الاراضى الشاسعة المنخفضة من جزيرة العراق زيادة عن الجهة المرتفعة منها لانه يمكننا أن نقول ان جزيرة العراق هى فى الحقيقة مصر بل وأزيد منها بمعنى أن أرضها مكتسبة وأنها هدية ومنحة من عند النهرين اللذين يرويانها فى أى جهة من جهاتها وانها تشكيل أوتكوين حديث العهد لان الرواسب الطينية المجلوبة مع مياه النهرين من أعالى الاراضى الآخذ منها هذان النهران منبعهما رسبت وترسب فى الجهات الاقل عمقا فى المياه من مياه الخليج الفارسى الجارى تفريغ مياههما فيه من عدة عصور مضت

وتشغل كلديا من هذا السهل القطعة الجنوبية وتمتد من الخليج الفارسى فى الجهة الجنوبية الى الحد الطبيعى بين جزيرة العراق العليا والسفلى فى الجهة الشمالية ومن نهر الدجلة فى الجهة الشرقية الى صحراء العرب فى الجهة الغربية والظاهر أن الخليج الفارسى فى زمن تشييد السلطنة الكلدانية كان ممتدا تقريبا الى نحو ١٢٠ أو ١٣٠ ميلا نحو الجهة الشمالية زيادة عما هو عليه الآن وصار يأخذ فى النقص على التدريج حتى وصل للحدود التى هو عليها الآن وبهذا اكتسبت سعة من الارض طولها ١٣٠ ميلا وعرضها ٦٠ أو ٧٠ ميلا من البحر فى ظرف أربعين قرنا وبهذا تكون كلديا عبارة عن ناحية من أرض مساحتها ٢٣٠٠٠ ميل مسطح

وحالة

وحالة هذا الاقليم واحدة لاتتغير وأنهارها هى هيئتها الاصلية الجغرافية وأما الآن فهى عبارة عن أرض سهلة واسعة مشقوقة بتلال منعزلة تبين مواقع مدائنها القديمة وخطوط من حواجز مكسرة تبين مجارى ترعها وخلجانها التى طمت الآن وعمت ولون الاراضى يوجد على مد البصر شديد القتامة فى السواد ماعدا جهات العيون والمنابع ولهذا اسماها العرب سواد العراق وأما الاراضى النضرة الخضرة فانها توجد فى طول شواطئ الانهر وفى نواحى البطيحات ومستنقعات الجهات فى الجهة الشمالية الشرقية لهذا الاقليم وعلى امتداد بعيد خلف حده الشمالى الى السلسلة الاصلية لجبال طوروس التى يتشكل منها امتداده الشرقى توجد السلسلة القديمة لجبال نفاطيس وهى أكثر ارتفاعا من السلاسل الجبلية المتوازية القائمة بين السهل العراقى والبحر الاسود وتعلو فى كثير من المحال عن خط الثلج الدائمى ويأخذ نهر الدجلة منبعه من الجهة الجنوبية الغربية لسفوح هذه السلسلة وكذا يأخذ نهر الفرات منبعه من الجهة الشمالية الشرقية لسفوحها وينحرف نهر الفرات من بعد مصادمته هذه السلسلة الجبلية بالقرب من منبع نهر الدجلة ويجرى فى مجرى معوج الى أن يصب فى الخليج الفارسى وكل من هذين النهرين معدود من الطبقة الاولى للانهار لان طول نهر الدجلة ١١٤٦ ميلا وطول نهر الفرات ١٧٨٠ ميلا وكل منهما شديد الجريان مشحون بالمياه قابل للملاحة فى طول مسافات عظيمة منه ويصب فى نهر الفرات بضع نهيرات من بعد أن يترك سلاسل الجبال الخارج منها ولا يصب فيه شئ فى طول مسافة ٨٠٠ ميل من مجراه الى مصبه وأما نهر الدجلة فانه يصب فيه على الدوام مياه نهيرات ثانوية موجودة على طول مجراه فلهذا كان نهر الدجلة أعرض وأعمق نهر فى جهته التحتية زيادة عن نهر الفرات وكل من النهرين تعلو مياهه بمقدار عدة أقدام فى أثناء فصل الربيع من السنة وتغمر مياه النهرين شواطئهما فى كثير من المحلات ويروى نهر الدجلة الاراضى الواقعة فى طول مجراه الاسفل ويعم فيضان نهر الفرات سعة كبيرة من أرض الاقليم وتنتشر هذه المياه حتى تتصل بمياه نهر الخابور ومن المحيط الى نحو الجهة الجنوبية تعم المياه فوق الشواطئ ويختلف الفيضان على حسب ميل أرض السهل وطبيعة الشواطئ فلو عملت التحفظات اللازمة لاعمال الرى لامكن توزيع مياه الفيضان على كل من جهتى النهر بالتساوى لكن من حيث ان الشواطئ متروكة هى ونفسها فان المياه تسيل على الجهة الغربية بالخصوص ويتسبب منها فى أراضى هذه الناحية الغربية مستنقعات وبطيحات وتترك الاراضى الموجودة على الشاطئ الايسر من غير ماء ولو أن هذه المياه ليست مشحونة بالرواسب التى يتكون عنها قشرة جديدة على الارض تكون سببا فى جودة نمو الزراعة كما فى حالة وادى النيل لكنها لم تزل هى السبب الاصلى فى وجود الخصوبة فى السهل الاعظم العراقى وانما كانت مدبرة فى قديم الزمان لتعميم رى الاراضى بواسطة ترع وخلجان ومساق محفورة فى جميع أنحاء هذا السهل الشاسع تدل عليها الآن آثارها الموجودة فيه

ومناخ هذا الاقليم متوسط بهج فى مدة فصل الشتاء والصقيع فيه خفيف جدا وبندر تكون الجليد فى بطيحاته والثلج غير معروف فيه ويكثر سقوط الامطار الغزيرة فى هذا الاقليم فى شهرى نوفمبر وديسمبر وتخف الامطار بمجرد قرب فصل الربيع ويبتدئ الصيف فى نحو شهر مايه ولحد شهر نوفمبر تنقطع الامطار بالكلية وينجلى الجو من السحاب أسابيع وأشهرا ويشتد حر الصيف وتلطف الحرارة فى الصباح وفى المساء فقط بواسطة ضباب خفيف يكسر شدة الاشعة الشمسية برهة ما من الزمن وفى هذا

الفصل تم حادثة السراب وتشاهد فى أجمل ما يكون من الصورة وأظرفها

وأما الارض فهى فى حالة جيدة من الخصوبة وكانت تغل فى الازمان القديمة كثيرا من المحاصيل المختلفة الجنس واتفق المتأخرون من السياح على انه لو صار تدبير طرائق الرى بوجه حسن وحصل الاعتناء فى غراس هذا الاقليم وزراعته لصار من ضمن الجهات الاكثر ثروة وأجود محصولا على ظهر الارض

والمحصولات الاصلية لهذا الاقليم القمح والتمر والقمح نبات وطنى فى كلديا كما رواه أهل بلاد هذا الاقليم وهو طويل الورق عريضه حتى كان البابليون يحصدونه مرتين ويعلفون به مواشيهم ويحفظون التقاوى فى سنبلها لزراعة العام القابل وكذا زراعة نخيل التمر كثيرة والتمر هو أحد المواد الرئيسة للغذاء عند الاهالى وينبت فى هذا الاقليم أيضا الشعير والذرة والدخن والسمسم وأصناف الفواكه بوفرة ويوجد محصول آخر وهو الغاب ينبت على هيئة أرمانات كثيفة فى بطيحات الاقليم ومستنقعاته ويرتفع الى ١٤ أو ١٥ قدما وكافة مساكن الفقراء مصنوعة من هذا الغاب ومن أوراقه تصنع الحصر وكذا تصنع عظام المراكب والقوارب من هذا الغاب وتستر بأوراق تدهن بنوع من القار أى الزفت

ولا يوجد فى كلديا أى صنف من أصناف الاحجار والمعادن وأما الاحجار المستعملة فى أبنية أماكنها فهى مجلوبة لها من أماكن أخرى ويوجد فى أراضى سهولها أجود مادة من الطين الابليزى كانوا يصنعون منها أجود الطوب وأحسنه بعد أن يخلطوا هذه المادة الطينية بمادة من الحمرة والحيوانات الوحشية الموجودة فى اقليم كلديا هى الاسد والنمر والضب والفهد والقط الجبلى والذئب وابن آوى والخنزير الجبلى والجاموس الوحشى وبقر الوحش والغزال واليربوع والثعلب والارنب والعناق والقنفذ وأما الحيوانات الاهلية فهى متعددة أيضا منها الجمل والحصان والجاموس والبقر والاثوار والمعز والضأن والكلاب

ثم ان التاريخ القديم لكلديا معتم جدا وغير محقق بالكلية والظاهر أنه من بعد تشتت وانتشار ذرارى أولاد نوح من سهول بابل من بعد تبلبل الالسنة قطن نمروذ بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام فى هذا السهل الشاسع وشيد مملكة فى الناحية الواقعة فى رأس الخليج الفارسى لبثت ١٤٥٠ سنة الى حد آخر ملك من ملوكها وهو ساردن بول أو ساردنابال وقلب الصرح الذى لم يتم بناؤه الى صورة معبد وشيد أبنية أخرى حوله مصنوعة من الطوب المضروب من طين هذا السهل وبهذه الحالة أسس نمروذ بابل كأنه كان المؤسس للمملكة ومدة التاريخ الذى حصلت فيه هذه الحادثة ومن ابتدائه افتتح تاريخ كلديا كان قبل سنة ٢٢٨٦ قبل الميلاد بقرن أو قرنين وكانت مملكة نمروذ هذه ممتدة من بابل الى البحر ولما تمكن من الملك وصار ذا قوة قوية مد سلطته على القبائل والعشائر المجاورة له وبواسطة ما حازه من الصفات والاعمال نجح فى تشييد أمة فى أسفل العراق حكمها بشوكة قوية ويد ثابتة وكانت عاصمة هذه المملكة مدينة أور أو حور واقعة على الشط الايمن لنهر الفرات وعلى مسافة قليلة من مصبه وابتنى مضافا الى بابل كلا من مدينة عراق وأقاد وخلنة ومن بعد ذلك صارت حوادث سلطنته غير معروفة وآثار الاشغال التى كان عملها فى مملكته مشهورة ومن المعلوم انه كان أحد كبار رجال الدنيا القديمة حتى جعله قومه الها يعبدونه من بعد موته واستمروا على عبادته مدة طويلة من الزمن وكان أحد

الآلهة الاصلية المعبودة عندهم تحت اسم بعل أو بعل نمروذ أى اله الصيد أو الصياد الاكبر وقال بعض علماء التاريخ ان الاسم الذى وضعه فلكيو العرب على كوكب الجوزاء وهو اسم الجبار كان علما على تذكار نمروذ ولم تنس الامة القاطنة فى أرضه اسمه الى اليوم وصار مع سليمان والاسكندر الاكبر الثلاثة شجعان الدنيا القديمة وصاروا المخلدى الذكر عند ما انمحق أسماء شجعان الرجال الاخر من الدنيا

وخلف نينوس أباه نمروذ على مملكة كلديا وحاز من الشهرة وعلو المنزلة ما زاد مركز موقعه وسلطنته قوة وجلالة ومهابة وجمع كثيرا من الشبان وسلحهم وأخذ فى تربيتهم وتهذيبهم مع الشدة والعنف مدة من الزمن حتى عودهم على المشاق والاتعاب والجوع والظما والصبر على الحروب والوقائع والشدائد والكروب ومقابلة أعظم الاخطار بقلب قوى ومقام جلى ودخل فى محالفة مع ملك العرب وضم قواه الى قواه وأمن كل منهما غائلة الآخر وقيل ان اخوة نمروذ يعنى أولاد كوش قطنوا بلاد العرب فى طول الخليج الفارسى من حويلة الى الاوقيانوس وكانوا على مسافات قريبة من بعضهم ليساعد بعضهم بعضا على المحافظة والأمن فيما بينهم وكانت عاصمة مملكة نينوس بابل ونسب أغلب المؤرخين تأسيس مدينة بابل الى سميراميس وآخرون نسبوها كما تقدم الى نمروذ لكن اذا نظرنا للحقيقة ونفس الامر فى تأسيس هذه المدينة من الابتداء نجد أن كلا النسبتين خطأ وذلك أن تأسيسها ليس منسوبا الى نمروذ ولا الى سميراميس بل منسوب للمجانين من ذرية نوح الذين اغتروا بأنفسهم وشرعوا فى بناء صرح ومدينة يخلدون بها مذاكرهم فى الدنيا ويصعدون بالصرح الى جو السماء فبلبل الله سبحانه وتعالى ألسنتهم الى لغات شتى وشتتهم فى عالم البسيطة

ولما أراد نينوس توسيع مملكته ومد تغلباته جهز العساكر والجنود وعقد الالوية والبنود ليتم بهم له المقصود ولما استحوذ على توطيد أمن من قبائل العربان المجاورين لمملكته برز الى ميدان الحروب وفى ظرف سبع عشرة سنة تغلب على أراض واسعة وممالك شاسعة من مصر الى الهند الى بقطريانه وعند عوده الى مملكته أضمر فى نفسه قبل أن يشرع فى فتوحات جديدة أخرى أن يخلد اسمه فى الدنيا بكونه ابتنى مدينة تعادل جلالة شوكته وعظمة سلطنته وسماها نينوى وابتناها على الشواطئ الشرقية من نهر الدجلة وذكر ديودور أن نينوس جعل مدينة نينوى أفخر وأجل مدينة فى الدنيا حتى ما صار للذين جاؤا من بعده قدرة أو أمل على بناء مثلها وكان طولها ١٥٠ استادية أى ١٨ $\frac{٣}{٤}$ ميلا انكليزى وعرضها ٩٠ استادية أى ١١ $\frac{١}{٤}$ ميلا ومساحتها ١٣٥٠٠ استادية أى ١٩٦ ميلا مسطحا وقال يونس عليه السلام وهو نبى هذه المدينة ان نينوى مدينة شاسعة الاطراف والاكناف يسير المسافر فى دائرها ثلاثة أيام وكان علو أسوارها ١٠٠ قدم وعلى ثخانة وسمك بحيث يمكن لثلاث عربات السير مواجهة على هذا السور مع السهولة التامة وكانت أسوارها محمية بواسطة ١٥٠٠ برج علو كل برج ٢٠٠ قدم ومن بعد أن تمم هذا الشغل المدهش شرع فى غزوة على الباقطريانيين فجند جيشا حسبما روى مؤلفا من ١٧٠٠٠٠٠ من المشاة و٢٠٠٠٠٠ من الفرسان و١٦٠٠٠ عربة من عربات الحرب المسلحة بواسطة المناجل ومن بعد أن تغلب نينوس على كثير من مدائن الباقطريانيين حاصر مدينة باقطريانة عاصمة المملكة واجتهد فى مضايقة الحصار عليها واستمر ملازما لها مدة طويلة حتى قطع اليأس من التغلب عليها لولا أن تداركت أمره سميراميس زوجة أحد قواده وكانت امرأة على شجاعة وبسالة وحزم وتدبير فاقت به على أبناء جنسها من النساء وكان مولدها

فى عسقلان من أعمال سوريا فدانه على طريق الهجوم على القلعة وبواسطة مساعدتها تغلب على المدينة ووجد فيها مالا يحصى من الكنوز والخيرات ولما رأى زوجها قبولها عند الملك وخشى سطوته من أنه ربما يغتاله من أجلها قتل نفسه بنفسه فتزوجها نينوس ومن بعد عوده الى نينوى أولدها ولدا سماه نينياس ومن بعد قليل مات وترك المملكة محكومة بالملكة سميراميس وابنها نينياس فبنت على قبره طللا فاخرا مكث مدة طويلة قائما بعد خراب نينوى

ثم ان سميراميس وجهت جميع أفكارها التخليد كراسيها بحالة تفوق بها جميع أسلافها فى الابهة والافتخار فلهذا شرعت فى تجديد مدينة بابل العظيمة البأس واستخدمت فى بنائها ٢٠٠٠٠٠٠ نفس جمعتهم من جميع أقاليم مملكتها الواسعة وعملت الاعمال التى صيرت بابل فى أعلى درجات الشهرة والافتخار فى العصور السالفة وكانت هذه الاعمال هى أسوار المدينة أواستحكاماتها والارصفة والقناطر وخزانات المياه والحواجز والسدود وخلجان جريان مياه النهر والسرايات والبساتين المعلقة ومعبد بعل (نمروذ) ولنشرح كلا من هذه الاشغال على حدته بالتفصيل فنقول

أولا الاسوار = استقرار مدينة بابل كان على أرض سهلة خصبة كثيرة المحصول والنباتات وكانت أسوارها عجيبة مدهشة فى بنائها تحير العقول فى أشغالها وكان سمك أى ثخانة هذه الاسوار ٨٧ قدما وارتفاعها ٣٥٠ قدما ودائر محيطها ستون ميلا ومرسوم ماحول المدينة على صورة شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ١٥ ميلا وجميعها مبنية بالطوب الاحمر المضروب من الطين ودائر حولها خندق ملآن بالمياه وجهاته الداخلة والخارجة مبنية بالطوب أيضا والاتربة والمواد الطينية التى استخرجت من حفر هذا الخندق عمل منها الطوب اللازم لبناء هذه الاسوار وغيرها من الاشغال الأخر ومن علو الاسوار وثخانتها وجسامتها يعلم سعة الخندق وعظمه وجسامته

وفتح فى كل ضلع من أضلاع هذا المربع خمسة وعشرون بابا فيكون جميع أبواب المدينة مائة باب على كل منها باب من نحاس وان الله وعد كيرش أى كيخسرو بفتح بابل قال له انه ستكسر أمامه الابواب النحاس قطعا قطعا وجعل بين كل بابين متجاورين ثلاثة أبراج وأربعة فى أربعة أركان هذا المربع الجسيم وثلاثة أبراج بين كل ركن والباب المجاور له على كل من ضلعى زاوية المربع وارتفاع هذه الابراج زيادة عن علو الاسوار الاصلية بقدر عشرة أقدام

ويخرج من الخمسة وعشرين بابا الموجودة على كل ضلع من أضلاع المربع خمسة وعشرون شارعا الى الابواب المقابلة لها فى الضلع الآخر من المربع كل لنظيره فكان عدد جميع الشوارع خمسين شارعا طول كل شارع خمسة عشر ميلا متقاطعة مع بعضها فى زوايا قائمة وغير هذه الشوارع كان يوجد أربعة شوارع أخرى بين منازل السكن والاسوار لافة مع أربع جهات المدينة وعرض كل منها ٢٢٠ قدما وأما عرض الشوارع الاخر فكان ١٥٠ قدما ومن تقاطع هذه الشوارع ببعضها كانت المدينة مقسومة الى ٦٧٦ مربعا دائر كل مربع ميلان وربع ومنازل السكن مصطفة على أضلاع هذه المربعات فى طول الشوارع وعرضها وبين بعضها اخلال لمرور الاهوية وكل بناء مركب من ثلاث طبقات الى أربعة الى خمسة ووجهة كل مسكن مستورة بالنقوشات المدهشة والزخرفة والتصاوير وسعة الارض الموجودة فى داخل كل مربع وخلف أماكن السكن كانت مستعملة حيشانا وجنائن وبساتين واستعمالات أخر للسكان فبهذا كانت مدينة بابل كبيرة فى الظاهر صغيرة فى الباطن لان

نصف المدينة كان عبارة عن بساتين وأرض مزارع

ثانيا - (الارصفة والقناطر) ولما كان أحد فروع نهر الفرات عابرا فى جريانه من وسط المدينة من الشمال الى الجنوب كان على جهة من جهتى هذا الفرع رصيف مبنى بالطوب أيضا وسور مرتفع وفى هذا السور مفتوح اتجاه كل شارع باب يوصل للنهر يغلق بباب من نحاس وينزل من هذا الباب بدرج الى النهر لاجل تعدية الاهالى حسب رغبتهم من جهة الى أخرى فى قوارب وصنادل ظريفة وكانت جميع الابواب مفتوحة طول النهار وتغلق ليلا وأما القناطر فما كانت فى اتقان بنائها واحكام صنعتها ونقشها وزخرفتها أقل من المبانى الاخرى فى شئ وكان طول القنطرة الواحدة ثمن ميل وعرضها ثلاثون قدما مبنية باحكام واتقان صاعدة على أساسات متينة مرمية فى أرض رملية من قاع النهر وكانت عقودها مصنوعة من أحجار ضخمة مرتبطة مع بعضها بجنازير من الحديد ومسبوك فى لحاماتها الرصاص الذائب

ثالثا - (الخزانات والخنادق والخلجان المصنوعة لتحويل مياه النهر) هذه الاشغال العظيمة فى تدبير المياه فى كل العصور كانت محكمة الاتقان والصنعة والاستعمال أيضا عند الكلدانيين وذلك انه فى مبادى فصل الصيف عندما يحصل من حرارة الشمس ذوبان الثلوج الموجودة فوق رؤس جبال أرمينية تحصل الزيادة العظيمة فى المياه الجارية فى نهر الفرات فى شهور يونيه ويوليه وأغسطس حتى تسيل فوق شواطئه كما هو حاصل فى زيادة نيل مصر فلاجل منع الخطر الواقع على كل من المدينة والمملكة من فيضان هذه المياه وزيادة علوها حفر على مسافة عظيمة من فوق المدينة خليجان صناعيان بواسطتهما صار تحويل مجرى هذه المياه الى نهر الدجلة قبل وصولها الى المدينة ولاجل حفظ المملكة أيضا من خطر هذه الفيضانات وحفظ مياه النهر فى مجراها الاصلى أقيمت حواجز وأرصفة على كل من جهتى النهر بنيت بالطوب وامتدت من مبدا رأس الخليجين الى تحت المدينة بمسافة كبيرة وكان لاجل سهولة عمل هذه الاشغال من الضرورى تحويل مجرى النهر حتى يمكن التمكن من العمل فعمل فى الجهة الغربية من المدينة خزان عظيم مساحته ٤٠ ميلا مسطحا وعمقه ٣٥ قدما تحوّل اليه جميع مياه النهر بواسطة خليج حفر فى الجهة الغربية منه حتى تم الشغل وأعيدت المياه لاصل مجراها وبما انه ربما أن مياه النهر لا تروى فى أثناء فيضان المدينة من أبوابها الموجودة على شاطئه كان هذا الخزان مع الخلجان الخارجة من النهر معدة لحفظ المياه اللازمة لريها وكانوا يجرون التحفظ على هذه المياه فى الخلجان والخزانات جميع السنة وهذه تكون خزانات عمومية تصرف منها المياه اللازمة لاحتياج الاراضى الكائنة تحت المدينة بواسطة منافذ وخوخ ذات أبواب تفتح وتغلق حسب الحاجة فى الاوقات الموافقة لها وبهذا كانت الخلجان والخزانات مستعملة بطريق المساواة لحفظ المملكة من غوائل فيضان النهر ولخصوبة الاراضى وسقيها أيضا وقت الحاجة واللزوم

رابعا - (السرايات والبساتين المعلقة) وكان يوجد فى طرفى أونهايتى القنطرة سرايتان متصلتان مع بعضهما بواسطة سرداب معقود تحت مجرى النهر وكان محيط أى دائر السراى القديمة التى كانت مبنية فى الجهة الشرقية من النهر ثلاثة أميال وثلاثة أرباع ميل وبالقرب منها كان هيكل بعل وكانت السراى الجديدة المبنية على الجهة الغربية من النهر وعلى اتجاه الاخرى محيط دائرها سبعة أميال ونصف ميل ومحاطة بثلاثة أسوار داخل بعضها وعلى مسافات كبيرة من بعضها أيضا وكانت هذه

الاسوار وأسوار السراى الاخرى مشحونة بالنقوشات الطريفة والحفور الغريبة وصور الحيوانات ومن ضمن جهات صور التماثيل المنقوشة فى الاسوار جهة مخصوصة منقوش فيها صورة سميراميس راكبة على ظهر حصانها رامية خنجرها فى قلب نمر وزوجها نينوس خرق قلب أسد

وفى هذه السراى كانت البساتين المعلقة المشهورة عند الجريق وكانت شاغلة لشكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ٤٠٠ قدم ومرتفعة على هيئة دكات جسيمة وآكام سمينة بعضها فوق بعض الى محاذاة ارتفاع أسوار المدينة وكانت طرق الصعود من دكة الى أخرى بواسطة سلالم عرضها عشرة أقدام وكل هذا الكوم ثابت الوضع محكم العمل بواسطة عقود جسيمة قائمة فوق عقود أخرى بعضها فوق بعض متقوية بسور محيط بها من كل جهة سمك حائطه ٢٢ قدما ومركب على قمة العقود تبليطة عريضة من الحجر طولها ١٦ قدما وعرضها ٤ أقدام مغروس فوق هذه الاحجار الغاب المخلوط بالزغلة وفوق ذلك دكة من الطوب مركبة من مدماكين فوق بعضهما فى غاية احكام البناء والارتباط وسطح هذه الدكة مدهون بالمونة القوية وجميع هذا مغطى بطبقة من الرصاص الذائب وفوق هذا تربة البستان وعملت كل هذه التحفظات لاجل عدم وصول رطوبة تربة البستان ومياه السقية الى بناء العقود وفسادها وكان للاتربة الموضوعة فوق هذه العقود سمك كاف لاجل مسك جذور أكبر أشجار يمكن غرسها فى هذه البساتين وأنشئ فوق قمة الدكة العليا نوع طلمبة ماصة كابسة لاجل سحب المياه من النهر الى أعلى البساتين وبواسطتها يجرى سقى الاشجار والنباتات حسب الضرورة وكان يوجد فى المسافات الكائنة بين العقود وبعضها الراكب عليها هذا البناء الضخم قيعان ومجالس ولواوين لاجل الراحة والفرجة والنزهة سمر الناظر وترويق الخاطر

خامسا (هيكل البعل) ومن أكبر أشغال بابل وأعمالها هيكل بعل أيضا وقد ذكرنا انه كان قائما بالقرب من السراى القديمة وكان فى وسط هذا الهيكل الصرح العجيب البناء والانتظام وكانت دكة أساس هذا الهيكل حسبما ذكره هيرودوط طول كل ضلع من أضلاعها ربع ميل أى أن طول الدائر ميل واحد وارتفاع البناء ربع ميل أيضا وكان هذا البناء مركبا من ثمانية أبراج راكبة بعضها فوق بعض منظومة الشكل فى علوها وهيئتها عند رؤيتها تشابه شكل أعظم هرمى مصر وهذا هو البرج ذو الصرح الذى ببابل الله سبحانه وتعالى الالسن من أجله وكان يصعد الى قمته بواسطة سلم مصنوع فى سطحه البرانى لاف حوله على هيئة خط حلزونى وهذا السلم مصنوع بغاية الاحكام والاتقان بحيث يسهل الصعود عليه مع غاية الراحة من دور الى آخر من أدوار الصرح وكانت ثمانية أدوار ومن داخل هذه الادوار مجالس وقيعان معقودة والسقف راكب على أعمدة وأما الدور الثامن الذى هو قمة الصرح فكان عبارة عن محل رصد الكواكب فكان علماء الفلك من الكلدانيين يرصدون فيه سير الكواكب ويسجلون قوانينهم ودساتيرهم وبهذا صاروا أعلم أمة فى مدة قليلة من الزمن كما حصل الاستدلال على ذلك من تواريخ تسجيلاتهم

وكان المقصد الاصلى من هذا الصرح المهول المدهش هو محل لعبادة الاله بعل وكان يوجد فى داخله عدة آلهة أخرى مرصوصة فى قيعان ومجالس داخله وكانت ثروة هذا المعبد محصورة فى التماثيل والموائد وأوانى البخور والمباخر وأوان أخرى مقدسة جميعها مصنوع من الذهب كثيرة العدد ومن ضمن التماثيل تمثال بعل أو نمرود وكان ارتفاعه ٤٠ قدما وثقله ١٠٠٠ وزنة بابلية وبما أن

الوزنة

الوزنة الواحدة البابلية عبارة عن ٧٠٠٠ درهم اطيقى وان الوزنة الاطيقية مقدارها ٦٠٠٠ درهم فتكون الوزنة البابلية زيادة عنها بقدر السدس

ومن مقتضى الحسبة التى عملها ديودور من أجل الثروة الموجودة فى هذا الهيكل علم أن المبلغ كان عبارة عن ٦٣٠٠ وزنة بابلية من الذهب وسدس هذا المبلغ ١٠٥٠ فيكون ٦٣٠٠ وزنة بابلية تساوى ٧٣٥٠ وزنة اطيقية من الذهب ومن حيث ان ٧٣٥٠ وزنة اطيقية من الفضة عبارة عن ٢٠٠٠٠٠٠ ليرة استرلينه وكانت نسبة الذهب الى الفضة عند القدماء كنسبة ١٠ الى ١ فيكون ٧٣٥٠ وزنة اطيقية من الذهب تبلغ مبلغا ينوف عن ٢١٠٠٠٠٠٠ ليرة استرلينه

واستمر هذا المعبد على حالته هذه الى زمن أردشير ملك فارس ولما عادمقهورا من حرب الجريس هدمه جميعه ونهب جميع ما كان فيه من التحف والذخائر

ولما أكملت سميراميس جميع هذه المشروعات الجليلة تفكرت أيضا فى كونها تجرى بعض أعمال فى جميع أنحاء مملكتها يعود منها النفع على المملكة فتنقلت فى داخل المملكة وشيدت مبانى وجددت أعمالا فى كل محل حلت فيه خلدت بها ذكرها الى الابد وما كفاها المملكة الواسعة التى تركها لها زوجها بل شرعت فى توسيعها ومدها وتغلبت على قسم عظيم من اثيوبية ولما دخلت فى هذه رغبت فى زيارة معبد جوبيتر أمون وأن تسأل الوحى عن مدة حياتها وقال ديودور انها لو جهت وزارت وكان جواب الوحى لها أنها لا تموت الا من بعد أن يظهر ابنها فى ثورة ضدها ومن بعد موتها يعبدها قسم من أهل آسيا

ولما عادت الى بابل رغبت فى التغلب على البلاد الهندية وأمرت بجمع جيش كثيف من جميع أقطار مملكتها وأن تكون نقطة اجتماع العساكر فى مدينة باقطريانه وسارت بعساكرها مخاطرة حتى تغلبت على بعض الممالك الهندية ووصلت الى نهر السندوعبرته على جسور من خشب بعد محاربة شديدة ومحافظة مهولة من ملك الهنود وأخيرا انهزمت وفقدت من عساكرها عند عودها راجعة فى عبور نهر السند الجم الغفير من العساكر ولم يرجع من جيشها معها سوى الثلث وكان مقداره ٣٠٠٠٠٠٠ من المشاة و ٥٠٠٠٠٠ فارس خلاف الجمال وعربات الحرب المسلحة ثم قام ابنها نينياس فى ثورة عليها مساعدا بقائد الجيوش فتنازلت عن المملكة لابنها حسبما أنبأها به الوحى واعتزلت فى عيشة هنية حتى أدركها حمام المنية بعد أن بلغت من العمر ستين سنة منها أربعون سنة متقلدة زمام السلطنة وعبدها الاشوريون من بعدها تحت تمثال معبودة على هيئة حمامة

وما كان لنينياس أبهة واحترام مثل والديه اللذين استلم هو زمام قيادة التخت منهما بل عكف نفسه على اللهو واللذات فى داخل سراياته لا يظهر لقومه الا نادرا وكان محل مقامه فى نينوى حتى قام عليه العساكر وقتلوه وجاء من بعده نحو من ثلاثين ملكا جميعهم يفوقونه فى الفجور والاعتكاف على اللذات وحب الشهوات ولا يعلم لهم تاريخ ولا آثار تدل عليهم

ومن المحتمل أنه جاء عقب نينياس فترة مجهولة التاريخ بواسطة هجرة القبائل السامية والحامية الى الجهات الشمالية فالاشوريون وهم أمة سامية ساروا الى العراق العليا وأسسوا مملكتهم على طول وسط نهر الدجلة والفينيقيون وهم من نسل حام ساروا الى أرض كنعان واستوطنوا فى طول سواحل البحر الابيض المتوسط وأسسوا مملكة لانفسهم وانتقل الجنس الذى تناسل منه ابراهيم عليه السلام الى

العراق الشمالى

وكان من ضمن ملوك هذه العائلة القديمة ملك اسمه أورخام أو أوروخ وكان أقدم ملك كلدانى أيضا الا أنه ما وجد له شئ من الآثار فى المملكة وكان ابتداء سلطنته فى نحو سنة ٢٣٢٦ قبل الميلاد وابتنى عدة مبان ضخمة يظهر أنها كانت جميعها محصورة فى هياكل ومعابد فقط وكانت كبيرة الحجم غير مقبولة الشكل والشغل وكان الطوب المستعمل فى بنائها غير منظوم كما كان لحامه مع بعضه بطريقة غير منظومة وكانوا يستعملون فى البناء مونة مركبة من الطين وموس التبن أو نفس التبن ويعزجونهما مزجا جيدا كما هو الجارى لحد الآن عند أهل الارياف من بلاد مصر وذكر المعلم رولنسن فى كتابه علم العمارات أنه وان وجد فى الشغل بساطة وعدم انتظام الا أنه يوجد أيضا دلالة على وجود المعرفة وتجاريب فى الصنعة ويظهر أيضا أن مبدأ الشغل فى علم الفلك كان فى مدة سلطنة هذا الملك وكانت مدينة أور عاصمة مملكته ومن بعد موت أوروخ خلفه ابنه الغى وكانت سلطنته فى مدينة أور أيضا واستكشف فى هذه المدينة القديمة خاتمه الاسطوانى الشكل وهو محفوظ الآن فى دار العجائب بلوندره وأعقب سلطنة الغى خرق فى سلطنة كلدياو تاريخها نتج من تغلب العائلة العلاميطيقية على المملكة فى مدة حياة ابراهيم عليه السلام وهذه العائلة من السوس وكان تغلبها فى سنة ٢٢٨٦ قبل الميلاد وكان أول هؤلاء الملوك كدرناخونتى حكم كلديا بواسطة نائب من طرفه واشتغل هو بتدبير أعمال مملكته وكان مقر سلطنته فى السوس وملك آخر اسمه كدرلاغامر تسلطن فى السوس أيضا وقسم كلديا الى عدة أقسام جعل فى كل واحد منها عاملا من طرفه

ثم جلس على التخت عائلة ثالثة فى نحو سنة ٢٠٥٢ قبل الميلاد وكان عدد ملوكها أحد عشر ملكا ولبثت مدة سلطنتهم ثمانية وأربعين سنة ويمكن أن يقال ان هذه العائلة كانت هى علامة الخلو بين خضوع الامة الكلدانية للملوك العلاميطيقية وبين تمام استقلالها تحت جلوس العائلة الرابعة على الكرسى وكانت أحد الملوك الوطنية الكلدانية ثم وصلت هذه العائلة الى درجة الشوكة والنفوذ فى نحو سنة ٢٠٠٤ قبل الميلاد وتسلطنت الى حد سنة ١٥٤٦ قبل الميلاد وكان عدد ملوكها ثمانية أو عشرة ولا يعرف من حوادث سلطنتهم الا قليل لا أهمية فيه

وأزهرت العائلة الخامسة من نحو سنة ١٥٤٦ الى سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد وكان موسس هذه العائلة رئيس من كبار العرب اسمه خاموارى انتهز الفرصة وقت ضعف كلديا وانحطاط شوكتها تحت سلطنة آخر ملك من ملوك العائلة الرابعة ونجح فى أن جعل نفسه سيد البلاد والعباد والظاهر أنه تسلطن ستا وعشرين سنة ومن بعد موته ترك المملكة لابنه وكان ملكا شهما حازم الرأى وهو أول من عرف المنافع التى تعود على المملكة من عمل طريقة صالحة للرى فحفر ترعة من أحد أنهار المملكة لهذا الصدد وقال فى احدى كتاباته المحفورة على الاحجار انه استبدل السهول والصحارى الرملية بمفازات وغيطان زراعية تسقى بالماء بوجه الانتظام وبواسطة أعماله حصل الاصلاح فى خصوبة الاراضى وكثرة المحصولات وشيد عدة مبان جليلة والظاهر أن بابل كانت مقر ملكه وسلطانه وفى مدة وجود هذه العائلة كان يوجد ارتباط حبى بينها وبين أشوريا وكانت هذه صارت مملكة مستقلة من كلديا وكان هذا الارتباط حاصلا تارة اما بواسطة محالفات اتحادية أو بواسطة زواج ملوكى وفى نحو أول مدة سلطنة كلديا تداخلت أشوريا مرة واحدة فى أشغال كلديا بشأن خلع ملك غاصب للتخت ووضع ابن

الملك

الملك الذى قتله قائد الثورة على تخت أبيه ومن هذا انقطعت صداقة الارتباطات بين المملكتين وأخيرا فى سنة ١٣٠٠ ميلادية غزا ملك أشوريا تغلاثنين كلديا وتغلب عليها وأضافها الى المملكة الاشورية واستمرت عدة قرون ايالة من ايالات هذه المملكة

وكانت المدد الابتدائية للتاريخ الكلدانى موشحة بتقدمات أجرتها الامة الكلدانية فى الحضارة والصنائع والعلوم الفلكية فكانت بابل وعراق واقادوكالنه من ابتداء عصر نمروذ مزهرة بالعلوم والآداب والصنائع وكذا مدينة أور ومدائن أخرى وكانت مساكن هذه المدائن مربعة الشكل أو مستطيلة وأسوارها جميعها مبنية من الطوب المرتبط مع بعضه بالمونة جيدا وفى غاية الاتقان من الصنعة وكان أغلب مبانى تلك المدة ضخم الجرم وكانت هيئة الهيا كل هرمية الشكل فى العادة مبنية على هيئة مدرجات متتالية صاعدة بارتفاع عظيم وكانت سطوحها موجهة نحو الاربع نقط الاصلية مباشرة وكانت الكتابة مستعملة عندهم كما شوهدت على سطوح الطوب المحرق المصنوع فى تلك المدة وكان قطع الجواهر وصقلها وجليها والحفر والنقش عليها معروفا عندهم وكذا صناعة أشغال المعادن والاسلحة والزينة وعدد وآلات نافعة كانوا يصنعونها من معادن مختلفة وكذا تشغيل الاقمشة وأصناف المنسوجات المخيشة بالقصب أو المطرزة بهيآت ظريفة كان جاريا تشغيلها عندهم وبلغ علم الفلك فى كلديا مبلغ العلم وتسجلت نتائج الارصاد الفلكية وسير الاجرام السماوية مع الدقة وجودة الاعتناء وكانت التجارات جارية من طريق البحر والبر بين الامة الكلدانية والامم المجاورة لها وكانت مراكب مدينة أور تسافر فى الخليج الفارسى وتتجر مع الامم الموجودة على طول شواطئه

وما كانت السلطنة الكلدانية فى قدمها وشهرتها سهما فى امتداد ممالكها أكثر من السلطنة المصرية فى الاقدمية وزيادة السودد الا أنه من العجب أن كلديا تدعى سبق أقدميتها على كل مملكة أو ايالة شبت على أرض آسيا وأن الاريانيين والتورانيين حتى القبائل السامية يظهر أنهم كانوا فى حالة رحالة وعيشة رعوية عندتوطن الكوشيين فى الاراضى السفلى من بابل وعكفوا على الزراعة وتشييد الهياكل وبناء المدائن وتشييد حكومة وطنية قوية وأن الخيرة التى انفرشت على التدريج من الامم الآسيوية كان مبدأ وجودها على سواحل الخليج الفارسى عند مصب النهر الاعظم ومن هذه القطعة انتشرت الحضارة والعلوم وحروف الكتابة والفنون الى الجهات الشمالية والشرقية والغربية وأخذ كل من اشوريا وليديا وسامى بابل والفرس من كلديا حروف كتاباتهم واستحوذوا على ما يلزم لهم فى شأن اجراء حكوماتهم وادارتهم وصنائعهم وزخارفهم حتى علومهم وآدابهم بواسطة مادة نوه وسجلوه بهذه الحروف ومما لاريب فيه أن كل أمة أصلحت ما استحوذت عليه حسب ظروف الاحوال بان زادت عليه أو نقصت منه تبعا لتوالى العصور الا أن كلديا لم تزل منتصبة أشبه بكونها هى الوالد الاكبر وأنها هى أصل الاختراعات والتمدن الآسيوى من دون أن يعارضها فى زعمها هذا أى خصم يقف أمامها

وكانت ديانة الكلدانيين من المدد القديمة التى ما وجدنا لها تسجيلات وكانوا يقولون بتعدد الآلهة وكان عندهم من المعبودات خمسة عشر أو ستة عشر الها أصليا وعدة من آلهة صغيرة يسمونها بالآلهة الثانوية وأما الآلهة المنزلية فكانت كثيرة العدد وكل مدينة كانت تحت محافظة آلهتها الموجودين فيها ولم يتيسر الحصول على تمام معلوماتنا فى هذه المسئلة لحد الآن والظاهر أن أجل الآلهة التى

كانت موجودة عندهم هى (أولا) عل أو راو هو الاله الاكبر ولم يكن لنا معلومية منه بشئ (ثانيا) ثلاثة آلهة هى عانة و بعل أو بعلاوس وهيعة أو هوعة وهؤلاء مقارنون لدرجات بلوطو (اله العالم السفلى عند الجريق) وجو بتير أى المشترى (الاله الاعظم عند الوثنيين) ونبطون (اله البحر عند الجريق) وكل منهم له زوجة من نفسه فزوجة عانة عانات وزوجة بعل موليطه أو معلطيس وزوجة هوعة دوكينة (ثالثا) ثلاثة ثانوية هى سن أو هوركى اله القمر وسان أوسانسى يعنى الشمس وعول اله الجو وكل منهم له زوجة فزوجة سن أوهوركى معبودة عامة يسمونها الست الكبيرة واسمها غير معروف وزوجة سان أوسانسى هى عولة أو أونيط وزوجة عول هى شعلا أوطعلا وهؤلاء الآلهة والالاهات كانوا جميعا منصوبين فى رأس معبد الكلدانيين و يتلو هؤلاء مجموع خمسة آلهة صغيرة عبارة عن هيئة الكواكب الخمسة وهى نين أونينيت (زحل) وميروداخ (المشترى) ونرغال (المريخ اله الحرب) وعشطار (الزهرة الاهة العشق) ونيبو (عطارد) وهؤلاء مع الذين تقدم ذكرهم عبارة عن الآلهة الاصلية للكلدانيين وأما الآلهة الصغيرة فكانت كثيرة لا تحصر ولا يمكن ذكرها هنا

ومن الجامعة الغريبة فى مذهب الكلدانيين بالنسبة لهذه الترتيبات الخرافية يظهر أنها كانت لغرض معلوم لان هذه الجامعة فيها تشابه كثير ومقارنة زائدة فى بعض أحوال أوجبت العمل على موجبها فى معابد الجريق ورومة أيضا وأن معابد كلديا كانت هى أصل جامعة هذه المعابد الا أن سلسلة المواصلة من الابتداء مقطوعة الاثر لكننا نرى أن أسماء الاناث وأسماء طوائف الآلهة وألقابها مأخوذة فى الاصل من منابع الكلدانيين ومن هنا لا يمكن الشك ولا الترداد بأى حالة كانت فى أنه كان يوجد مواصلات دينية أو طرائق مواصلة فى الازمان القديمة بين سواحل الخليج الفارسى والاراضى التى يحفها البحر الابيض المتوسط و بواسطة هذه المواصلات دخلت الخرافات والتصورات الخزعبلية ومن المحتمل أيضا أنه كان يوجد من ضمن القبائل والعشائر التى كانت مستوطنة على كل من نهرى الدجلة والفرات عشائر الصيطيق أو صيطيق الاريانيين وقت اختراع الحروف الهجائية و وقت ما تدوّن بها ما يلزم لمعرض الديانة وهاجر هؤلاء العشائر حسب أحوال الازمان الى أوروبا وجلوا معهم هذه الحوادث الخرافية بما أنها كانت محبوبة الاعتقاد عندهم ومختلطة بآداب شعرية تختص بأحوال بلادهم الوطنية وسارت هذه الروايات مع سير الايام الى طوائف الامم الذين تناسلوا من ملة الصيطيق أوصيطيق الاريانيين

وكان غذاء أو مأكول الامة الكلدانية محصورا فى المحصولات النباتية الخارجة من الارض والتمر أى البلح الكثير الوجود كان ولم يزل لحد الآن هو الغذاء الرئيسى لاهل البلاد وكان من ضمن مأكولاتهم أيضا السمك والدجاج والحلاليف البرية وأما التغذى بلحوم الحيوانات فكان من النادر جدا وكانت المساكن والدور فى المدن مصنوعة من الطوب وفى جهات الريف مصنوعة من أخصاص من غاب مطلوس بمونة من الطين والتبن وما كان يوجد على مساكن الاغنياء نوع طلاوة ولا رونق ولا منظر يسر النظر

(تم تاريخ كلديا فى ٢ أغسطس سنة ١٨٩١)

﴿الكتاب الرابع﴾

(تاريخ مملكة الاشوريين)

﴿الباب الاول﴾

(تشييد الحكومة وقدماء الملوك)

وصف أشوريا ـ موقعها الجغرافي ومساحتها ـ أشوريا الشرقية والغربية ـ السلسلة الجبلية ـ مدائن أشوريا ـ المناخ ـ خصوبة الارض ـ الثروة المعدنية ـ الحيوانات ـ عوائد الامة ووصف السكان ـ تأسيس المملكة الاشورية ـ أشور ـ الارتباطات مع كاديا ـ قدماء الملوك ـ التغلب على بابل ـ تغلبات تغلاتغلاسر الاول ـ وصف الحضارة الاشورية ـ استعمال الحروف ـ طريقة المحافظة على التسجيلات الرسمية ـ الصنائع الاشورية ـ سراى سرجون ـ النقوشات الحفرية ـ الطريقة العسكرية الاشورية ـ الابهة الملوكية ـ الآلات الموسيقية ـ ملبوس الامة ـ ديانة الاشوريين ـ

تشغل أشوريا القسم الاعلى من وادى العراق وهى محدودة من الجهة الشمالية بجبل ماسيوس على قول بعض المؤرخين أو بمجرى نهر الدجلة من ديار بكر الى نواحى التل على قول آخرين وحدها من الجهة الشرقية سلسلة جبال زغرة الشامخة الارتفاع الصعبة المرتقى وحدها الغربى نهر الفرات وحدها الجنوبى هو الحد الشمالى لمملكة كلديا ويقسمها نهر الدجلة الى كورتين غير متساويتين يطلق عليهما اسم أشوريا الشرقية وأشوريا الغربية وأعظم طول هذه المملكة من ديار بكر فى الجهة الشمالية الى الحد الكلدياني فى الجهة الجنوبية نحو ٣٥٠ ميلا ويختلف عرضها من جبال زغرة الى الفرات من ٣٠٠ ميلا الى ١٧٠ ميلا فتكون مساحة أشوريا ٧٥٠٠٠ ميلا مسطحا

ولو أن أشوريا الشرقية أقل بكثير من كورة أشوريا الواقعة فى غربى نهر الدجلة الا أنها أكثر عمرانا وأجل قسم فى المملكة وتشتمل على ثلاث مدائن من الاربع مدائن الكبيرة الموجودة فى داخل المملكة وتشتمل أيضا على عدة سهول خصبة يخرج منها محصولات وافرة تروى مع الانتظام بمياه عدة نهيرات جارية من الجبال الى نهر الدجلة وهذه السهول مفصولة من بعضها بسلاسل جبال منعزلة تسير فى اتجاه عمومى موازلسلسلة جبال زغرة يخرج منها عدة جداول ونهيرات ومساق صغيرة تعبر المملكة وتضاف مياهها الى الانهر وكل هذه المياه تجرى فى فروشات عميقة بحيث لا يظهر وجودها للناظر اليها من السهول ماعدا وقت انتفاخ مياه هذه الفروشات من مياه الامطار وذوبان الثلوج فانها تجرى طافحة مياهها الحد شواطئها وأحيانا تعم مياهها فوق سطوح موازنة الاراضى حتى تغرقها وترويها وأما كورة أشوريا الغربية فهى أقل صلاحا فى ذاتها الا أنها ولو كانت مقطعة بمجارى مياه الا أن خصوبتها تابعة أو متعلقة بطريقة رى الاراضى ولو أن وصف أرضها مستو الا أن المياه لا يمكن أن تعم الاراضى كاللازم ولا يوجد طريقة فى الجهات جارية لتعميم طرق الرى واكتساب الاقاليم درجة الخصوبة المطلوبة له ويشق الجهة الشمالية من الكورة سلسلة جبال صخرية ذات مهاو عميقة الا أن هذه السلسلة ليست

مرتفعة كثيرا تجرى الى الجهة الشرقيــة والغربية وتمتد من نهر الفرات من نواحى روم قلعة الى التل وشليق على نهر الدجلة ومن تحت هذه السلسلة سهل واسع خفيف التماوج يمتد من الجبال الشمالية الى جروف بابل و ينقطع فى نحو نصف المسافة بسلسلة جبال واطئة مركبة من أحجار جيرية تسمى جبال سنجار وهذه السلسلة تترك نهر الدجلة بالقرب من الموصل وتجرى تقريبا من الشرق الى الغرب عابرة من وسط العراق وتحف أو تلاطم نهر الفرات فى منتصف مسافة سيرها بين الرقة وقرقيسية فى طول ٤٠° تقريبا وأما الاراضى الموجودة فى شمال سلسلة جبال سنجار الى جبل ماسيوس فهى سهل متماوج يشابه طبات المروج الموجودة فى أمريقة الشمالية الا أن المياه نادرة فيها ولا يوجد الا جداول صغيرة نازلة من سلسلة جبال سنجار وهذه تتشربها الاراضى الظمآنة مع العجلة والسرعة وفى هذه الارض الصعبة الزراعة يوجد صنف حجر الجبس بكثرة و يوجد فيها آثار كثيرة من حفر بركانية وكتل جسيمة مرمية من أحجار البازلت والسماق والبورفير فى السهل و يوجد أيضا بالقرب من ملتقى الفرعين الكبيرين لنهر الخابور عدة أحجار قديمة ضالة متولدة من قذف البراكين وسلسلة جبل سنجار مركبة من أحجار جيرية شاهقة البياض ناعمة الملمس

والقطعة الوسطية لاشوريا هى الاقليم الواقع فى طول نهر الدجلة من عرض ٣٠° الى ٣١ ٣٦° وفى داخل هذين الحدين يوجد المدائن الكبيرة للملكة وكثرة تراكم الاهالى والسكان واحدى هذه المدائن كانت مدينة أشور وهى العاصمة الاصلية للملكة واسمها الآن شرجهات وهى واقعة على الشاطئ الغربى لنهر الدجلة وأما نينوى وقلعة نمروذ ودور سرجينه (مدينة سرغون) وتسمى الآن خورشيد اباد فهى واقعة على الجهة الشرقية من هذا النهر وتشتمل الكورة الغربية أيضا على عدة محال جليلة وكذا محلات ومدائن مشهورة معمورة بها الكورة الشرقية وأما نينوى فهى واقعة فى تجاه الموصل الجديد وقلعة نمروذ على مسافة عشرين ميلا فى جنوب نينوى من أقرب طريق وعلى بعد ثلاثين ميلا من طريق مجرى النهر ومدينة أشور على مسافة أربعين ميلا من قلعة نمروذ وعلى الشط الايمن لنهر الدجلة ودور سرجينه أو خورشيد اباد على مسافة تسعين ميلا فى الجهة الشرقية الشمالية من الركن الشمالى لوادى نينوى

ويختلف مناخ أشوريا باختلاف جهات أقاليمها وذلك أن مناخ أشوريا الشرقية بالنسبة لقربها من سلسلة جبال زغرة الشامخة المتوجة على الدوام بالثلوج فهو بارد رطب عن مناخ الكورة الغربية لنهر الدجلة ونسيم الجبال ملطف لسخونة حرارة الصيف والشتاء لطيف جدا وتسقط الامطار بغزارة فى فصل الشتاء حتى فى فصل الربيع و يتكاثف طل ثقيل من بعد نزول الامطار وأغلب القسم الجنوبى من أشوريا الكائن فى غرب الدجلة من طول ٣٤° الى الحد الكلدانى مناخه يشابه مناخ الاراضى الكلدانية وأما وسط أشوريا الغربية فهو أبرد من الجهة الواقعة فى جنوبها وسخونة حرارة فصل الصيف شديدة جدا فى وسط النهار الا أنها فى أوقات الصباح والليل سارة جدا وتسقط أمطار غزيرة وثلوج فى مدة فصل الشتاء الا أن هذا الفصل قصير وغير قاصع البرودة والصقيع ومناخ الكورة الجبلية التى تشكل القسم الشمالى من أشوريا الغربية كثير البرودة والصقيع عن الكورة الوسطية وتنحط درجة البرودة فى فصل الشتاء الى ٨° أو ١٠° تحت الصفر والارتفاع المتوسط للكورة المذكورة ١٣٠٠ قدم وواقعة بالقرب من السلسلة العظمى لجبال أرمينية المغطاة على الدوام بالثلوج

ومن

ومن ثم تكون حدة البرد وقصاعته ويسقط القار بشدة وكثرة ويفصل على الارض عدة أسابيع حتى يتحال وفصل الربيع رطب ذو عواصف وزوابع ورياح شديدة وفصلا الصيف والخريف ظريفان واذا أخذنا الحالة المتوسطة لعموم المملكة نرى أن أشوريا القديمة كانت جيدة الخصوبة الا أنها ما كانت مستحوذة فى الحقيقة على كثرة الفوائد والمنافع التى كانت موجودة فى جارتها الجنوبية كادليا اذ أنه من الاعتناء والالتفات للزراعة وأعمال الرى تكتسب الثروة والغنية من الارض وينبت فى أراضى أشوريا شجر النفاش والكباد والليمون وشجر التوت كثير الوجود وهو غذاء مستعمل فى تربية دود القز الكثير الذى لا يوجد مثله فى محل آخر وكان جاريا زراعة أغلب الخضراوات والنباتات الصالحة للاكل فى أشوريا وينمو فى الجهة الجنوبية منها نخل البلح والبرتقان والليمون وينبت فى جميع أقسام المملكة شجر الرمان والزيتون والعنب والمشمش والتين ويوجد فى أشوريا معادن بكثرة وافرة زيادة عن نواحى بابل وذلك أن صنف الاحجار يوجد فى جميع أقسام المملكة بخواص جيدة والحديد والنحاس والرصاص لم تزل معادنها موجودة بكثرة فى جبال طيارى الغربية من نينوى وزيت البترول والكبريت والشب والملح هذه أيضا من معادن محصولات أشوريا

وأما الحيوانات الوحشية الموجودة فى المملكة فهى السبع والنمر والفهد والقط الجبلى والضب وحمار الوحش والدب والتيتل والغزال والوعل والضأن البرى والحلوف الجبلى وابن آوى والذئب والثعلب وكلب الماء واليربوع والقنفذ والعناق والارنب والصحيح أن النمر كان موجودا فى أشوريا فى المدة القديمة جدا والانهار مشحونة بأصناف الاسماك وكذا البرك والبطيحات مشحونة بالطيور والفراخ البرية وأما الحيوانات الاهلية فهى الجمال والخيل والحير والبغال والضأن والمعز والاثوار والابقار والكلاب

وكان الاشوريون أمة قوية فى الدين يؤدون ما يجب عليهم من عبادة آلهتهم مع الاعتناء والدقة والخشوع وكانوا أهل عتو وبغى وخيانة يبتهجون بما حصل لهم من المخاطرات فى الصيد والحرب وكانت عساكر الاشوريين من أجود وأعظم قدماء العساكر الحربية وما كان عندهم الفظاظة والجبروت الذى يفعله غيرهم فى المثلة بالذين يأسرونهم فى الحروب من الاسرى وما كان لهم عهد ولا ذمة فى نقض المعاهدات والمحالفات عندما يجدون الحالة التى يعود منها النفع عليهم فى نقضها وابرامها فمن ثم كانت الامم المجاورة لهم على ريب منهم وكان لهم شهرة فى الشوكة والقوة وبها صاروا فى أقصى درجة من الامتياز بين الامم الآسيوية

وحيث ذكرنا فى الكلام على السلطنة الكلدانية أنه أعقب سلطنة نيناس مدة مجهولة تولدت من هجرة الامة السامية من الاراضى الواطئة العراقية الى الجهات الشمالية منها فالوقت الحقيقى لهذه الحركة غير معلوم وكذا لا يعلم أكان حصول هذه الهجرة بالاختيار على قسم من الاشوريين أو حصل بواسطة قوة مؤثرة وقعت من ملوك الكلدانيين الآن المعروف أن قبيلة أو قبائل من الذين تفرع عنهم الاشوريون هاجرت من كلديا الى الاراضى العالية الموجودة فى طول وسط نهر الدجلة وشيدوا مدينة لقبوها باسم قبيلتهم أشور ومن المحقق انه من بعد مضى زمن من الانتقال كان الاشوريون محكومين بحكام موظفين من طرف ملوك كلديا أو تحت حكم نفس الملوك ومع هذا فانهم صاروا على التدريج أهل شوكة وأولى بأس وعزم شديد حتى محوا أنفسهم استقلاليتهم مع رغبة طبيعية منهم ونبذوا

القانون الكلدانى وراءظهورهم وشيدوا سلطنة من أنفسهم على حدتها وكان مقر هذه السلطنة فى أشور الا أن مدة تاريخ تشييد السلطنة غير معروف وان بعض الملوك القديمة كان متصلا ومتحدا مع الملوك الكلدانية اما بواسطة محالفات أو بواسطة زواج ونسب ملوكى وكان كل من الاثنين على حدة من الاخرى وكانا على صداقة ووفاق واشتركت أشوريا أيضا فى المنازعات والمحاربات التى حصلت بين الطالبين المدعين لتاج كلديا وتداخل أحد ملوكها وهو أشورعو باليط فى كونه وضع التاج على رأس الوارث الحقيقى له وكان أحد أقاربه وكذا ساق أحد ملوك هذه المدة وهو صلمنصار الاول نحو سنة ١٣٢٠ قبل الميلاد حروبات مظفرة فى نواحى جبال نيفاطيس وأقام مدائن فى ذلك الاقليم وابتنى أيضا قلعة واسمها الآن قلعة نمرود على الشاطئ الشرقى لنهر الدجلة وعلى مسافة أربعين ميلا من أشور ومن البديهى انه من ابتداء هذا الوقت أخذت المملكة فى التقدم والزيادة الى الجهة الشمالية حتى صارت ذات شوكة وأكثر عمرانا ودخلت فى اجراء فتوحاتها الكبيرة وفلاحها الداخلى ومع كل هذا فان الحرف والصنائع كانت فى هذا غير متقنة الصنعة بالكلية وكان استعمال الكتابة نادرا جدا وكان التمدن والحضارة فى أدنى درجة من الحضيض وكانت هيئات المدائن التى شيدت فى تلك المدة على صورة مستطيلة الشكل وكانت الهياكل والمعابد على هيئة أبراج هرمية الشكل والسرايات الملوكية منشأة على روابٍ عالية أو دكات مرتفعة من البناء

ومن بعد موت صلمنصار الاول خلفه ابنه تغلاثنين الاول ومن المحتمل أن هذا هو نينوس المعروف عند الجريق فرفع هذا الملك منار سمو قومه بأن تغلب على بابل فى نحو سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد ومن ثم لا يلزمنا أن نفرض أن كلديا كانت فى هذا الوقت قسما من المملكة الاشورية بحالة استمرارية بل يحتمل أنها كانت خضعت لها مدة قرن واحد الى أن تزلزل وارتج ناف أشوريا بواسطة سلسلة من ملوك يظهر أنهم كانوا من نسل الاشوريين وكانوا على عداوة لاشوريا وأشعلوا حروبا على تلك المملكة وكانت نتيجة هذه الحروب هى أن حفظت أشور سيادتها وعلو كلمتها على بابل واكتفت بابل بأن تحفظ لنفسها موقعا ثانويا فى آسيا الغربية ومعترفة بتبعيتها الملوك نينوى

ثم ان الملوك الذين تسلطنوا من بعد تغلاثنين لا أهمية ولا معنى فى سلطنتهم وان أشور يس عليم الذى تسلطن فى نحو سنة ١١٥٠ قبل الميلاد الى سنة ١١٣٠ كان ملكا كبير الزعامة زيادة عن سلفه من الملوك فأشعل حروبا كثيرة فى الجهات البرانية وحرر طرق تغلبات ابنه تغلا ثغلاصر الاول وغزا بابل وأشعل حربا على ملك اسمه نابخادنيظار (نابوكودوزر) وقال بعض المؤرخين والصحيح أنه ساق جيوشه الى الجهات القاصية الجنوبية من فلسطين وانه هو الملك المذكور فى كتاب القضاة من كتب التوراة شوشانريس أثايم ملك ميزوبوتاميا أى العراق وعلى ماقيل انه أخضع بنى اسرائيل ثمان سنوات تحت حكمه وهذا القول استمر لحد الآن على قواعد غير مؤكدة الحقيقة

وجلس تغلا ثغلاصر الاول على التخت فى نحو سنة ١١٣٠ قبل الميلاد فأخضع القبائل الموجودة فى اقليم جبال زغرة وتغلب على سوريا الشمالية وأنشب حروبا مظفرة على بابل ويظهر أنه كان صيادا مشهورا وشيد عدة مبان كبيرة وسرايات وقصور لاغراض شهواته وأصلح طريقة الرى وأدخل المواشى الاجنبية فى أشوريا وزراعة النباتات الغريبة أيضا وجعلها من النباتات الاصلية فى المملكة وفى مدة سلطنته زادت قوة الجيش وامتدت حدود المملكة وشوكتها وفى هذه السلطنة كانت أشوريا مملكة

كثيرة

كثيرة العمران فى أعلى درجة من سطوتها محكومة بسلطان واحد لها عاصمة واحدة كبيرة فى وسط ملل وأقوام ضعيفة متجزئة لا حضارة عندهم ولا ادراك لهم

ومن بعد موت تغلا ثغلا صر الاول خلفه ابنه أشور بعلخالا وهذا لم يعرف له شئ سوى أنه أنشب حربا على ميزوبوتاميا السفلى (العراق) ويظهر أنه تسلطن من نحو ١١١٠ قبل الميلاد الى سنة ١٠٩٠ قبل الميلاد

ولنذكر الآن حضارة الاشوريين حسب نص الروايات المستخرجة من أطلالهم وأبنيتهم وتشمل هذه التذكرة مدة تاريخهم وقد أدرجناها هنا حسب معرض الموافقة

وذلك أن الاشوريين استعملوا فى العصور القديمة حروف الكتابة وحفظوا بواسطتها مع الاعتناء والدقة تسجيلات وتدوينات تاريخهم وكانت هذه التسجيلات اما محفورة على أحجار أو مدموغة على طوب وكان هذا الطوب على صنفين لبن مجفف فى الشمس وآجر محرق بالنار فالاول لا تتلفه النار والثانى لا تتلفه المياه فكان جاريا دمغ التسجيلات على كل من صنفى الطوب وبهذا حفظت من الضررين الكبيرين وهما النار والماء وكانت أشور عرضة لهذين الضررين ومن المحتمل أن جميع كتابات هذه الامة كانت مدونة مع مواد بهذه الصفة من الفخار وربما كان الورق مستعملا عندهم كما كان مستعملا فى مصر الا انه كان مخصوصا للتحريرات العمومية ونادر الوجود وما وجد منه شئ فى أى بناء من الابنية القديمة التى اكتشفها المتأخرون من أرباب الاستكشافات

وكان الاشوريون فى أشغال المعادن وسن الفيل أى العاج والزجاج والتصوير والعمارة والنقش والحفر على الاحجار وتطريز الملبوسات وزركشتها ووضع الخروج عليها فى أقصى درجات المعالى وكانت عماراتهم وأبنيتهم أقل جسامة من عمارات المصريين وبهذه الصنائع فاقوا على جميع الامم الشرقية ولو أن الاحجار كثيرة الوجود فى أشوريا الشرقية الا أن صنف الطوب كان هو المرجح عندهم فى عماراتهم وكان أجل مبانيهم وأفخرها سراياتهم الملوكية وكانوا على ديانة قليلة عن المصريين والجريق ومن ثم كان لهم التفات زائد بملكهم زيادة عن آلهتهم وكانت هياكلهم لا معنى فيها ولا عبرة بها مع مقارنتها بالسراى الملوكية وأجل السرايات الكاملة الاشورية التى لحد الآن ما صار استكشاف مثلها سراى ترجون فى خورشيد اباد ومن هذه السراى ظهرت عمارات هذه الامة فى عالم الوجود وكذا صنائعها الزينية ونقوشاتها فى هيآت بارزة وواطئة فى غاية من الصنعة والاتقان وهذه السراى مبنية مثل جميع السرايات الاشورية على رابية عالية أى دكة من الطوب وهذه الرابية مرتبة على هيئة دكتين فى صورة التاء الافرنكية غير متساويتين فى العلو ونفس السراى مبنية على الدكة العالية مشتملة على عدة مبان مرصوصة حول دواوين ولواوين واسعة والبناء الاصلى المختص بالملك مبنى فى وسط السراى الاصلية وله وجهة كاملة الانتظام بنقوشات مفتخرة وزينات ظريفة وفى وسط هذه الوجهة باب الطريق وأما الترتيبات الداخلية للبناء فما كان فيها نوع انتظام ولا تماثل وكان ثلثا القسم الشمالى الغربى من السراى عبارة عن صالة استقبال واسعة العرض عظيمة الابهة جليلة القدر ودهاليزها وحيطانها منقوشة بنقوشات بارزة مجسمة الاشكال وأما الثلث الموجود فى الجهة الجنوبية الشرقية فكان محلات سكن مركبة من قيعان صغيرة قليلة النقش والزخرفة والابواب مفتوحة فى كل من جهتى السراى الكبرى أحدها فى الجهة الشمالية الغربية يوصل الى مجالس مربع الشكل أو

سراى كائنة فى الزاوية الشمالية للدكة الصناعية للسراى وفى وجهة بناء الوجهة الشمالية الغربية للسراى لا يوجد فيها موصل الى الداخل وسطوح حوائط هذا البناء مشحونة بالزينة والنقوش وهذا البناء مركب من ست صالات واسعة منقوشة بانواع النقوش البارزة وفيه بعض قيعان أخرى صغيرة ويمكن أن نقول انه يوجد سراى ثانية مضافة الى السراى الاولى وسلاملك ثان معادل فى الزخرفة والزينة للسراى الاصلية والممر المفتوح فى الجهة الشمالية الشرقية لصالة الاستقبال فى السراى يتوصل منه الى الدكة الواطئة والى سراى الخدم والحشم وأرباب الوظائف الكثيرة القيعان والمجالس والدواوين وكانت الدكة السفلى أو الواطئة الصناعية المبنى فوقها سراى سرجون مشغولة بالحريم وكانت قطعة هذا البناء مطلة على المدينة ويوصل مباشرة اليها وأما الخان فكان فى الوسط وهو عبارة عن سراى واسعة مربعة الشكل محاطة من جميع جهاتها بابنية الاسطبلات ومساكن السواس ومساكن عدد لا يحصى من العبيد وكان هذا البناء يقرب من موازنة أبنية المدينة بحائطين كبيرين كائنين فى وسط الوجهة الجنوبية الشرقية لسطوح السراى وطرقه جيلة مزخرفة توصل كما ذكرنا من سراى هذا الخان الى صالة الاستقبال فى السراى وكذا بابان صغيران يوصلان مباشرة الى قيعان السكن فى داخل السراى وقد ذكرنا أنه فى الجهة اليمنى من هذه السراى الضخمة يوجد الخان وهو بناء متسع يشتمل على عدة مجالس وقيعان تشكل قسما من محلات الخدم والمحلات العمومية لارباب الوظائف وكان هذا الخان هو الخزنة لانه كان يوجد فيه مخازن الذخائر والمؤنات والاوانى اللازمة الاستعمال فى السراى الملوكية كما انه محل معد لحفظ جميع الاشياء الثمينة التى ذكر لنا سرجون عنها فى كتاباته المنقوشة على الاحجار أنه استحوذ عليها بقوة جيشه وخزنها فى سرايته وكان الحريم مجاور اللخزنة وهو بناء متوسط الامتداد والسعة يشتمل على ثلاث سرايات حيطان احداها مستورة بزخارف النقوشات الثمينة المصفحة على الطوب وكثير من دهاليز طويلة عريضة معدة للاستقبال فى المواسم والاعياد وتنتهى بقيعان سكن عديدة واسعة وكان هذا الحريم مقفولا مع غاية التحفظ والاحتراس على الدوام وكذا كانت جميع الموصلات الى الخارج مقفولة وكان النساء يعددن أنفسهن بانهن فى سجن لا محالة ولا يتوصل اليه الا من فسحة محفورة بالطواشية وفى هذه الفسحة بابان أحدهما يوصل للسراى الكبرى للحشم والخدم ومدخل للذين يدخلون من الخارج الى الداخل والآخر يفتح على مجلس طويل ضيق يوصل الى محلات سكن السراى ومن هذا الباب كان الملك يتوصل الى حريمه من غير أن يراه أحد من العموم وخلف هذا الحريم برج ضخم شاهق العلو أو هرم مركب من سبع طبقات علوه نحو من خمسين يارده والسبع طبقات متساوية فى العلو وكل واحدة منها أصغر فى المساحة من التى تحتها ومبيضة بالجبس الشاهق المختلف اللون ومن ثم كان يظهر عليها ألوان السبعة أجرام السماوية المقدسة وما كان سفل البناء فى شئ من الزخرفة وكان هذا البناء معدا لرصد الكواكب ومتوطنا فى أعلاه المجمون من القسس وتلامذة الكلدانيين الذين لهم دراية بعلوم النجوم والفلك يجتهدون فى مطالعة ومعرفة ما يكون من الاحوال والوقائع المستقبلة من رصدهم الكواكب

وما كان الاشوريون وراء كثير من الامم القديمة فى فن النقش على الاحجار وكان أجل شغلهم هو النقش المسنم البارز والغير البارز وعلى هذا كانت تماثيلهم نادرة الوجود وغير متقنة فى الصنعة والرسم ولم يتيسر لهم الحصول على تعلم تصوير جسم الانسان بل كان جل شغلهم تصوير الحيوانات وهذه

كانت كثيرة الوقوع فى نقوشاتهم غير المسنمة وقد ذكر رولينسن أن النقوشات غير المسنمة كانت عند الاشوريين منوالاجار بالاستعمال عليه فيما بينهم وكانوا يستعملونها فى كل معرض يحتاجون فيه لتصوير هيئة بفن الصناعة سواء كان لبيان احساساتهم وأفكارهم الدينية أو لاجل تبجيل ملوكهم أو لاجل تدوين ما يلزم لذراريهم من تاريخ الامة وما كانت عليه من الشوكة والابهة وينقشون حوادث الوطن ورواياته والاعمال التى كانت الامة مشتغلة بها وينقشون الاراضى والعمارات ويقلدون أشكال النباتات والحيوانات حتى انهم يرسمون أصناف العدد والآلات الجارى استعمالها فى أشغال عمارات هذه الابنية المهولة والتى زخارفها الاصلية هى هذه النقوشات الغير البارزة ولا يلزم أن يقال انا عرفنا فى الاشوريين أنهم كانوا غير قاصرين على صناعة النقش الغير البارز والمسنم بل كان لهم دراية تامة بالتواريخ وعلم الانساب وعرفنا هذا على الخصوص من نقوشاتهم التى أظهرت لنا مدة حياة هذه الامة بأكملها ولقد تسلطنت عندهم النقوشات حتى كانوا يحفرونها على ألواح من الاحجار يركبونها فى القطع السفلى من الحوائط التى يريدون زخرفتها

وكان للاشوريين فى فن النقش على المعادن قريحة حادة جدا وكان يوجد عندهم ثلاثة أصناف من هذا الشغل وهى اما الصورة بتمامها أو قطع من الصورة أو مجسم الصورة فاما الصورة المجسمة فكانوا يصبونها فى قوالب مشكلة بهيئتها ويتممون شغلها بواسطة الشواكيش والازاميل وينقشونها بواسطة آلات حادة دقيقة جدا وكانت الصور المجسمة صغيرة محصورة فى صور الحيوانات ومعظمها صورة الاسد وكانوا يستعملون الرسومات الدقيقة الرفيعة فى زخرفة التخوت الملوكية والعربات وكانت هذه الرسوم محصورة فى صور الحيوانات أيضا وأشكال الانسان وأجنحة الآلهة والحيوانات الخرافية وكان شغل الحفر المسنم مدهشا عجيبا ظريفا وكان يستعمل على الدروع الحربية والطوارق العسكرية والزينات الشخصية والاوانى البيتية وأشياء أخرى عديدة والمواد التى كانت مستعملة عند الاشوريين فى الزخارف المعدنية محصورة فى البرنز المركب من جزء من القصدير وعشرة أجزاء من النحاس وهو مستعمل بهذه النسبة العظيمة لحد الآن والظاهر أن الاشوريين كان لهم دراية تامة بتلبيس أحد المعادن فى آخر وكان لهم قريحة عالية فى النقش على العاج وقطع الجواهر وصقلها والنقش عليها كما كان لهم دراية تامة فى صناعة الصباغة واستعمال البكر والعتل والسطوح المائلة وكانوا يستعملون هذه السطوح المائلة على الدوام فى هجوماتهم على القلاع الحصينة وحاز الاشوريون فى ترتيب عساكرهم وتطقيمها وتنظيم طرق الهجوم والمدافعة وطرق التغلب على المدائن الحصينة الدرجة العالية على الملل التى خضعت لها

وكان الملك منعزلا عن تحته من الطوائف بواسطة رسوم تحيات شديدة وكان لا يرخص لاحد فى الدنو منه ماعدا من يكون بواسطة خواص حاشيته وخدمه الخاصة بسرايته اذ أنه كان على الدوام فى صحبتهم ولا يجوز لاحد فتح مكالمة معه الا الوزير وكبير الطواشية فانهما مسموح لهما بذلك وعند مقابلته أحد امنهما يجلس الملك على تخته ويجثو الواحد منهما أمامه وكان العساكر يحملون التخت عند ما يتوجه الملك الى الحرب وكان ملك الاشوريين يقاسى أصعب العيشة وأشقها وكان ذلك قانونا عندهم وكانوا يشتغلون فى مدة السلم بالاشغال العمومية والادارات أو الاحكام العدلية ويجدون لذة حياتهم فى تكبد الاخطار والمشاق فى صيد الاسود والابقار الوحشية وكان الملك يركب للحرب فى

عربته وأحيانايمشي على رجليه ويدير حركة العساكر والجيوش وكان يظهر حريته نفسه للامة مع بقاء علو مقامه وعزته في كل شيء وما كان عنده أدنى ضعف ولا فتور عن الحركات الحربية والوقائع العسكرية كما زعم اليونانيون وكانت الاحتفالات الرسمية مقررة عندهم على قاعدة ثابتة وكان ملبوس الملك وقت السلم والحرب زي مجد وأبهة وكان له ملبوس خاص يلبسه في الاحتفالات والشعائر الدينية لاظهار نفسه من بين رعيته

وكانت آلات الموسيقى عند الاشوريين محصورة في العود والقانون والقيثارة والمزمار والصفارة والطبلة والصاجات والطار والطرمبيطة وصنف طقم الموسيقى مبين في النقوشات المسنمة ويظهر أنهم كانوا يستعملونها أحيانا في الاحتفالات العمومية وكانت الملابس المعتادة المستعملة عند عامة الامة جبة سادة واصلة من الرقبة الى ما فوق الركبة بقليل ملمومة على الخصر بواسطة حزام أو سبتة وكانت أكمامها قصيرة وما كانوا يسترون رؤسهم بشيء ولا يلبسون نعالا وكان الملك ومأموروه يلبسون المراكيب في أرجلهم وطواقي على رؤسهم وأما الناس المتوسطو الدرجة فكانوا يلبسون نعالا في أرجلهم وكان العساكر والوجوه من أعيان الناس يلبسون ألبسة ضيقة ومراكيب من الجلد وما كان الاداني من الناس يلبسون ملابس مفتخرة وأما دمالج الاذرعة وأساور الايدي فكان من خصائص لبسها الارباب الرتب وكان العساكر وطقم الموسيقى يلبسون حلقانا في آذانهم وكان أرباب الرتب يلبسون قميصا طويلا مكشكشا واصلا من الرقبة الى القدم قصير الاكمام ساتر الاكتاف فقط ملموما على الوسط بواسطة حزام بحيث يجعله موافقا في الملبوس وكان نساء الدرجة العالية من الطوائف يربطن ربطة الرأس والحلقان والدمالج والاساور وهذه كانت صيغتهن ويلبسن جلاليب مكشكشة زائدة في الشغل عن جلاليب الرجال وأكمامها قصيرة وكن يلبسن فوق هذا الملبوس جبة قصيرة مشغولة مفتوحة الصدر ساترة فوق الاذرعة الى حد الكوع وشعورهن مسبولة في الخلف على هيئة ضفائر وجدائل أو ملمومة على هيئة حلقان ومقاصيص لحد الآذان وضفائر الشعر الخلفية مركبة من أربعة ضفائر وكن يلبسن أيضا قاطات على رؤسهن ويتحزمن بسيور في أوساطهن الأنهن كن حافيات الاقدام أو لابسات نعالا صغيرة وأما نساء الطوائف الواطئة فكن يلبسن جلاليب واصلة الى الكعب وقاطا فوق الرأس وكانت زينة وهيئة نساء الاشوريين اللاتي من الطبقة الاولى في أعلى درجات الطنطنة والجمال في حياتهن الدنيوية

وكانت ديانة الاشوريين مشابهة للعقائد والديانة الكلدانية وكانت قريبة منها في الشعائر والرسوم الواجب اجراؤها للآلهة وغير الآلهة الكبرى كانت توجد آلهة صغرى خاصة باشوريا وكان أكبر عموم الآلهة عند الاشوريين هو الاله الاكبر أشور وكان هو الحافظ لكل من البلاد والعباد وبواسطته يجلس الملك والملوك على تخوتهم ويقوي شوكتهم ويطيل في حياتهم ومدة سلطنتهم ويمنحهم الايام السليمة وينصرهم في الحروب وكان كل من الملوك يقول أشور ربي وليس له معبد أو مزار في أي جهة من جهات المملكة ويعتقدون أن جميع المعابد والهيا كل مفتوحة من أجله مهما كانت مشتملة على آلهة وكانت ديانة الاشوريين خالصة لعبادة أشور وكان الملوك يجعلون في أنفسهم أن مدة حياتهم لخدمته وعبادته ويحاربون لانتشار عبادته ويهلكون أعداءه وكانت صورة أشور عبارة عن شكل ذي أجنحة على هيئة دائرة أو كرة داخلها صورة رأس عليها طاقية ذات قرنين أحيانا يكون

ماسكا في يده قوسا وأحيانا يضرب بنباله على أعداء الاشوريين
وكان الاشوريون يعبدون من تحت أشور في الازمان القديمة آلهة كثيرة باسماء مختلفة وكانت أصنام هذه الآلهة تعمل من الاحجار أو من الفخار وكانوا يقربون لها قربانا من الحيوانات والطيور وكان لديانة الاشوريين صفات وشعائر واحتفالات خاصة بهم

﴿الباب الثاني﴾

﴿ من سلطنة أشور بعلخالا الى سقوط المملكة الاشورية ﴾

المدة الغير الحقيقية لتاريخ الاشوريين ـ سلطنة أشور عزرپال ـ سرعة تقدم أشوريا في مدة سلطنته ـ تغلباته ـ نمو الحضارة ـ صلمنصار الثاني وتغلبه على سوريا وارغام اسرائيل على دفع الخراج ـ شماسعول الثاني ومدة حدود المملكة ـ سميراميس ـ المدة المعتمة في تاريخ الاشوريين ـ تغلا تغلاصر الثاني وتأسيسه مملكة أشورية جديدة ـ امتداد ممالكه ـ صلمنصار الرابع وغزوة فينيقية واسرائيل ـ نجاح عصيان سرجون ـ سلطنته الزاهرة ـ تغلبه على مصر ـ ملك سنحاريب ـ تغلبه على بابل ـ ارغامه يهودا بكونهم اخراجية له ـ ابادة جيشه وتدميره بآية من عند الله ـ حروب سنحاريب الاخيرة ـ غزوته العلاميطيقية ـ عصيان أهل بابل وعودهم للخضوع والطاعة ـ فتح صيليصيا ـ تأسيس طرسوس ـ قتل سنحاريب ـ ملك ايصرحدون ـ تغلباته ـ حملته في بلاد العرب ـ تغلبه على مصر ـ خلافة أشوربانيبال على التخت ـ هشم ثورة المصريين ـ سلطنة أشوربانيبال الزاهرة ـ آخر سنيه ـ الحرب مع ميديا ـ تغلب الصيطيانيين على أشوريا ـ خراب المملكة ـ عدم تأسيس مملكة جديدة ـ ملك صرقوس ـ تجديد ميديا الحرب ـ خيانة نابوبولصار الذي جعل نفسه ملك بابل وانضم للميديين ـ موت صرقوس ـ ضبط نينوى ـ سقوط المملكة الاشورية

كان تاريخ الاشوريين خاليا بالكلية من ابتداء سلطنة أشور بعلخالا الى أواسط القرن العاشر قبل الميلاد ومن المحقق أن المملكة لبثت مدة من الزمن تحت ظلمات من السحب ومن المحتمل أن يكون ذلك ناشئا من سرعة تقدم الممالك الاسرائيلية في مدة سلطنة داود عليه السلام أو من كون البابليين حجبوا أنوار شوكة المملكة الاشورية مدة زمن ما ومع ما حصل من وجود أسباب هذا الاضمحلال الوقتي فانه لم يتيسر لنا الحصول على معرفة أدنى شيء محقق من تاريخ الاشوريين في عصر هذه المدة وكانت جميعها مقصورة على سلطنة أشور بعلخالا وذلك لاشك فيه وانتهت سلطنته في نحو سنة ١٠٩٠ قبل الميلاد وخلفه في سلطانه أخوه الاصغر شماسعول ولا نعرف لهذا من تاريخه شيئا يعول عليه الا أنه بنى أو رمم معبدا في نينوى والظاهر أن سلطنته انتهت في نحو سنة ١٠٧٠ قبل الميلاد ثم من بعده تغشى أشوريا ظلمة خفيفة في نحو سنة ٩٠٩ قبل الميلاد وكانت العاصمة لم تزل باقية في أشور وتسلطن فيها عدة من الملوك كان لهم من الملك الاسم فقط وتشبهوا بملوك العصور القديمة وعكفوا أنفسهم على توسيع المباني العمومية وترميم ما كان الدهر عضه بأنيابه فاكسبتهم هذه الحالة

شرف الذكر نوعا وكان أول هؤلاء الملوك أشورديان والظاهر أنه جلس على التخت في نحو سنة ٩٣٠ قبل الميلاد وذلك من بعد فصل مملكتي بني اسرائيل من بعضهما وهما اسرائيل ويهوذا بقليل ومن المحتمل أنه تسلطن من سنة ٩٣٠ الى سنة ٩١١ قبل الميلاد ثم خلفه ابنه علاوش الثاني فاستمر هذا على التخت الى حد سنة ٨٨٩ قبل الميلاد

وانقضت المدة الغير المحققة للتاريخ الاشورياني في سنة ٨٨٩ قبل الميلاد عندما جلس تغلاثنين الثاني على التخت فتسلطن ست سنوات وخلفه ابنه أشورعزربال في سنة ٨٨٣ قبل الميلاد وكان ملكا عالى الهمة جليل الشوكة ابتدأت أشوريا تحت حكمه في تغلباتها وفتوحاتها فاخضع هذا الملك الباسل الامم المجاورة له وساق جيوشه المنصورة الى داخل اقليم زغرة وأرمينية والعراق الغربي وبابل حتى التصق في أول مرة من حروباته بالميديين والفرس وأخذت حدود المملكة في الامتداد والسعة وصار لاشوريا شوكة قوية على كل حد من حدودها وانتقلت الامة الاشورية مرة واحدة من الظلمة الى النور ومن الحضيض الى الاوج وفي ظرف مدة قليلة من الزمن قدرها ست سنوات باشر أشورعزربال عشر حروب فكانت الاولى والسابعة والعاشرة منها في الاقاليم المتقدمة الذكر وأما التاسعة فانها تفيد مطالعي التاريخ المتأخرين فائدة عظيمة وذلك أن ملك الاشوريين سار بجيشه مباشرة الى نواحي قرشميش بعد أن عبر الفرات على رواميس عملت لتعديته ولما أخضع قرشميش تجول في أراضي باطينة وهو اقليم كان في نواحي أنطاكية وحلب فخضعت له مدائنه ثم سار مع الالف والدوران حول سفوح ومهابط جبل لبنان الشمالية حتى أدرك البحر الابيض المتوسط وأقام محاريب وقرب القربان للآلهة وأرسل ايالات فينيقية من أردوس الى الجهة الجنوبية فسارعت اليه بانقيادها وخضوعها اذ لا طاقة لها على مقاومة تقدم سيره وصده وعاد قافلا الى مملكته محملا بالغنائم والانفال

وما كانت سلطنة أشورعزربال مقصورة على المحاربات فقط بل حصل فيها تقدم أشوريا بسرعة في الثروة وفن الصنائع وكان تقدمها في الصنائع من الامور الغريبة جدا وذلك أنه في مدة هذه السلطنة أقيمت أبنية فاخرة وزينت بالنقوش التي كانت تستعمل في الزمن القديم وكانت هذه النقوش مجسمة على الطوب بالجبس وحجر المرمر وقال رولينسن ان دلائل النقوش وحدها كافية في أن يظهر منها أن الامة الاشورية كانت في مدة سلطنة أشورعزربال أمة عظيمة في رفاهية من الحياة الدنيا اذ أنهم ما كانوا مستحوذين على الصنائع النافعة فقط بل جعلوا الهار ونقاوأبهة عالية وما كانت ملابسهم وأثاث مساكنهم وحليهم وجواهرهم على فرق كبير من الموجود في أزمنتنا هذه

وفي سلطنة هذه المدة ومدة من خلف هذا الملك الكبير انغرست آداب العلوم في أشور وصار تسجيل مدة كل سلطنة بواسطة الحفر على الاحجار أو النقش على اسطوانات من فخار وبهذه الواسطة حفظ لهذه المملكة تاريخ تام وأقيمت قواعد النظام الاشورياني في جميع أنحاء المملكة وتواصل الامم الاجنبية مع بعضهم تطرا للشوكة الاشورية وجاءت جمال همدان وأفيالها وغير ذلك الى أشوريا وفي مدة هذه السلطنة صارت أشور وهي العاصمة القديمة غير موافقة بالكلية لصوالح المملكة فانتقل مقر الحكومة الى قاعة وزينها الملك بمبان جسيمة مفتخرة وأشغال عمومية معتبرة

ثم خلف صلمنصار الثاني أبوه أشورعزربال في سنة ٨٥٨ قبل الميلاد وتسلطن خمسا وثلاثين سنة وفي ظرف السبعة والعشرين سنة الاولى من سلطنته باشر ثلاثا وعشرين حربا بكونه هجم على التوالي على

كل من بابل وكلديا وميديا وزمرى وأرمينية والعراق الاعلى والاراضى الموجودة على مياه نهر الدجلة والحثيين وباطينة وطبرانة وحماة والاعمال السورية لدمشق وباشر ثلاث حروب على دمشق وتساعدت هذه المملكة بقوى مملكة اسرائيل وحماة والحثيين والفنيقيين وكان حصل عند كل من هذه الممالك الخوف والوجل مما رأت من تقدم شوكة أشوريا وكان حصول الحرب الاول فى السنة التاسعة من سلطنة صلمنصار والحرب الثانى من بعد مضى خمس سنوات والثالث فى مدة الثلاث سنين الاخيرة من سلطنته وكان السوريون ومحالفوهم تحت قيادة بنحداد ملك دمشق وكان ما حصل من الاجتهادات من الاشوريين فى مبادى الامر على غير طائل الا أنه حصل لهم النجاح فى الحرب الاول وانهزم المحالفون مع خسارات جمة وانتقض اتحادهم وخضع أعضاء الاتحاد للفاتح ما عدا دمشق فانها بقيت على حدتها أمامه بدايد وفى السنة التالية ساق حربا رابعا كانت نتيجته انهزام السوريين تحت قيادة حزيال ومن بعد مضى ثلاث سنوات غزا الاشوريون سوريا فوهن حزيال وعلا جبنه وصار لا طاقة له أن يجرى أى مقاومة وقدم خضوعه لملك الاشوريين حتى ان مملكة اسرائيل البعيدة عن موقع الحروب كان لها الحظ الاوفر فى مشتراها ما يمنع عنها العقاب بواسطة دفعها الخراج

وفى السنى الاخيرة من سلطنة صلمنصار انفجرت ثورة مهولة تحت قيادة ابنه ولى عهده وهو أشوردانيبال خطم الابن الثانى للملك هذه الثورة وهو شماسعول وأما ولى العهد فانه اما قتل فى الحرب أو أمر أبوه بقطع رقبته وفى سنة ٨٢٣ قبل الميلاد هلك صلمنصار وخلفه ابنه شماسعول الثانى وتسلطن ثلاث عشرة سنة وكانت أشوريا فى هذا الوقت صاحبة الشوكة والقوة العالية فى آسيا ولو أن أرمينية الموجودة فى الجهة الشمالية باقية من دون تغلب عليها الا أن شوكة المملكة كانت ممتدة الى الجهة الغربية لحد تخوم مملكة يهوذا وكان كل من سوريا وفنيقية وحماة واسرائيل ايالات خراجية للمملكة الاشورية وأما الحد الجنوبى فانه كان باقيا بغير تبديل ولا تغيير لان بابل ولو أنها أحيانا خراجية الا أنها كانت ممتازة عن جميع الايالات الاخر فى موقعها ومركزها وكذا كان حصل التغلب على بعض أراضى فى الجهة الشرقية وكان الميديون والفرس فى هذا الوقت قبائل وعشائر رحالة نزالة لا حضارة عندهم ولا حكومة سلطانية لهم فحاز صلمنصار الظفر الاكبر على الميديين وأرغم الفرس على دفع الخراج وساق شماسعول الثانى حروبا مظفرة على الميديين والفرس والبابليين الا أنه لم يضف شيأ من الاراضى الى مملكته ثم هلك وخلفه ابنه علاوش الثالث فى سنة ٨١٠ قبل الميلاد

ومد علاوش الثالث ممالكه فى الجهة الشرقية والغربية بواسطة سوقه ستا وعشرين حربا وأقام سيادته على بابل ووصلت المملكة الاشورية من الخليج الفارسى الى حد البحر الابيض المتوسط وكانت زوجته سمورا ميط هى الوراثة للمملكة بابل وعلى ما قيل ان هذه هى سميراميس التى خلدلها الجريق والرومانيون تواريخ خرافية بحيث جعلوها أكبر وأشجع وأبسل انسان كان على وجه البسيطة الارضية كما أنهم جعلوها أقبح وأفجر وأفسق انسان فى تاريخ الخليقة والمرجح أن سميراميس كانت امرأة نينوس بن نمرود مؤسس مدينة نينوى وأن سمورا ميط هذه كانت فقط أكبر معين لزوجها علاوش الثالث فى الاحكام والادارات وبموت علاوش الثالث تغيرت السياسة الاشورية وتاريخها وانقطعت سلسلة السلطنة فى سنة ٧٨١ قبل الميلاد والى حد سنة ٧٤٥ قبل الميلاد كان تغشى تاريخ أشوريا سحب الظلام وفى هذه المدة عقدت مملكة أشوريا معاهدات سياسية سلمية

ضعيفة وانقطعت حركة التغلبات والفتوحات وظهر على المملكة دخولها فى حيز الهبوط والاضمحلال بأى حالة كانت وفى خلال هذه المدة تسلطن فى المملكة ثلاث ملوك هم صلمنصار الثالث من سنة ٧٨١ الى سنة ٧٧١ ومن بعده أشورديان الثالث من سنة ٧٧١ الى سنة ٧٥٣ ومن بعده أشورلوس الثالث من سنة ٧٥٣ الى سنة ٧٤٥ قبل الميلاد وفى هذه المدة أيضا عصت بابل تحت قيادة نابونصار وارتجت وتزلزلت أشوريا الاصلية بواسطة ثورة مهولة جلس فيها تغلاثغلاصر الثانى على تخت المملكة وأدخل مملكة أشوريا الجديدة أو السفلى فى عصر تاريخ مجيد وسودد فريد وفى أثناء الايام الاخيرة من المملكة الاولى أرسل الله سبحانه وتعالى النبى يونس بن متى الى مدينة نينوى لينذر أهلها سوء العذاب ان لم يتوبوا عما هم فيه من معصيته سبحانه وتعالى

وابتدأت مملكة أشوريا الجديدة أو السفلى بسلطنة تغلاثغلاصر الثانى سنة ٧٤٥ قبل الميلاد والاحوال التى حاز بها تاج المملكة والحكومة غير معلومة لنا الا أنه كان رجلا غاصبا دنىء الاصل وبواسطة اجرائه عدة حروب تعدية مهولة استرد ثانيا جميع ما فقده أسلافه حتى انه زاد فى ممالكه وتغلب على دمشق ومدينة سمارية وصور وفلسطين وعلى عربان بحيث جزيرة الطور أو سينا وتغلب أيضا على الاراضى الواقعة فى شمال مملكة اسرائيل ودمر أراضى المملكة الكائنة وراء نهر الاردن وساق أهلها أسرى الى أشوريا وجعل مملكة يهوذا خراجية له ثم هلك وخلفه صلمنصار الرابع سنة ٧٢٧ قبل الميلاد

ومن بعد جلوس صلمنصار الرابع على كرسى المملكة بقليل رفض هوشيا ملك اسرائيل دفع الخراج لكنه أرغم للخضوع ثانية ومع ما كان عليه هوشيا من هذا الخضوع فانه عصى ثانية من بعد مضى بضع سنين وأدخل نفسه فى محالفة مع المملكة المصرية وكانت مصر فى ذلك الوقت تحت حكم صباح الحبشى وغزا صلمنصار فلسطين وقسم عساكره لاجل الهجوم على فينيقية وكانت خرجت عن الطاعة وقت موت تغلاثغلاصر الثانى وكذا على مملكة اسرائيل وحاصر كلا من مدينتى صور وسمارية ولم ينجح فى اجرا آته الحصارية على مدينة صور وهزم الصوريون الاسطول الذى جمعه لاجل الهجوم على هذه المدينة من البحر وأبادوه وأما سمارية فانها استمرت محصورة لمدة سنتين وفى أثناء هذه الاعمال انفجرت ثورة فى أشوريا وضبط قائدها سرجون التخت وقلب سلطنة صلمنصار وقرضها فى سنة ٧٢١ قبل الميلاد

وحاز سرجون لنفسه أبهة الملك وذلك انه شرع فى اقامة وتشييد سلطنته على كامل مملكة أشوريا وحطم جميع المعاندين والمخالفين له بعزم ثابت وسلمت سمارية نفسها لقواده فى السنة الاولى من سلطنته وخربت المدينة وخلت البلاد من أهلها وانتقل الاسرائيليون الى غتزانيطيس وميديا وكان سرجون تغلب عليهما على الفور عند جلوسه على التخت وخضعت له سوريا أيضا ولما تم سرجون هذه الاعمال حول جيوشه على مصر حليفة مملكة اسرائيل وكانت هى المملكة الوحيدة القوية الشوكة التى بقيت غير خاضعة لمملكة أشوريا فتقابل الجيشان فى نواحى رافية من الجهة الجنوبية من غزة وانهزم المصريون هزيمة فاصلة ولو أنهم كانوا متساعدين بالفلسطينيين وتولد من هذه النصرة أن صار سرجون سيد فلسطين ومصر السفلى وثبتت سيادة الاشوريين فى مصر وانحخم ملك المصريين فى حدود صعيد مصر وصار خراجيا لسرجون وكذا أرسل ملك مروى من اثيوبية بخضوعه الى

هذا الفاتح ومن بعد هذا وجه سرجون التفاته الى جهة بابل وتغلب عليها وصار سرجون ملك بابل وكلديا وأعقب هذه النصرات بالتغلب على الارميانية وأخيراً تغلب على قسم من السوس سنة ٧٠٩ قبل الميلاد وفى السنة التالية أرسلت جزيرة قبرص بخضوعها له ودفعها الخراج وصار سرجون سلطان الدنيا القديمة وأظهر أبهة سلطنته بكونه شيد سراية مفتخرة ومدينة فى دور سرجينة فى خورشيد اباد وكانت السراية أجل وأبهج بناء من خرف بالنقوش وأنواع التصاوير لم يبن قبل نظيرها فى أشوريا وقد ذكرنا وصف هذه السراية فى الباب السابق من هذا الكتاب

وانتهت سلطنة سرجون بموته فى سنة ٧٠٣ قبل الميلاد وخلفه ابنه سنجاريب أشهر ملوك الاشوريين وفى مدة سلطنته وصلت المملكة الى أعلى درجات الفخار والابهة وعظيم الشوكة ومن بعد جلوسه بقليل عصت بابل تحت قيادة مردوخ بعلادن فهزمه سنجاريب شرهزيمة سنة ٧٠٣ قبل الميلاد وأجلس على تخت بابل عاملا من الاشوريين ثم استبدله من بعد مضى سنة أو سنتين بابنه الاكبر أشور عناديسو وكذا لما عصت فينيقية سار اليها سنجاريب وأرغمها الخضوع والطاعة ثم استمر فى سيره الى الجهة الجنوبية وتغلب على فلسطين وكانت عصت من قبل وأرعب مصر وأتيوبية بنصرة عظيمة اكتسبها على جيوشهما فى واقعة حصلت فى علطاخو وأرغمهما على الانقياد والخضوع لطاعته ثم سار الى أورشليم وأرغم حزقيا على أن تكون خراجية له ولما عاد الى بلاده حطم ثورة كانت حصلت جديدا فى بابل

ثم استهل افتتاح القرن السابع قبل الميلاد بمصيبة من أعظم المصائب التى ما تكبدت أشوريا بمثلها أبدا وذلك أن حزقيا ملك يهوذا تجاسر بما ذاقه من ألم العذاب قبل ذلك بمدة سنتين تحت حكم ملك أشوريا ودخل ثانيا فى محالفة مع مملكة مصر وخلع بيعته وطاعته لملك أشوريا فعزم سنجاريب على عقابه وأليم عذابه وفى سنة ٦٩٩ قبل الميلاد سار من نينوى الى فسلطين بجيش جرار قوى البأس كثير الناس لاجل حطم العاصى حزقيا ولما علم علم اليقين أن مصر هى العدو الحقيقى لاشوريا وليست يهوذا سار فى طول ساحل البحر الابيض نحو الحد المصرى عازما على حطم وهشم مصر قبل معاقبته مملكة يهوذا فانحجز تقدم سيره بواسطة قلعتى لبنة ولاخيش الموجودتين على حد فلسطين من نواحى مصر والظاهر أن هاتين القلعتين كانتا فى هذا الوقت تحت حكم المملكة المصرية فوضع سنجاريب الحصار فى الحال على لاخيش وتغلب عليها فى أقرب وقت ثم حاصر من بعدها لبنة ولما رأى سنجاريب فى أثناء ذلك أن حزقيا لم يزل مصرا على ما هو عليه من عدم الطاعة والانقياد أرسل نحوه فرقة من جيشه تحت قيادة الشرنساقى أى كبير شرابه والربساريس أى كبير طواشيته ليدعوا أورشليم الى التسليم وأرفقهما بمكتوب مشحون بالسب والوقاحة فى حق اله اسرائيل وبهذا استوجب انتقام الله سبحانه وتعالى منه فرفض حزقيا هذا الطلب ولما رأى قواد الاشوريين ان الفرقة التى معهم لا طاقة لها على التغلب على مدينة حصينة مثل أورشليم عادوا الى سنجاريب وقد كان تغلب على لاخيش وحاصر قلعة لبنة فأرسل ملك الاشوريين بلاغا جديدا الى حزقيا مع مكتوب كتبه بيده جدد فيه طلبه فى خضوع يهوذا وينذر حزقيا بما آلت اليه عاقبة الملوك الذين عاندوا أشوريا وقاوموها وذكر له فى مكتوبه كلاما من سياق الكفر قائلا له ان الهك الذى أنت معتمد عليه لا طاقة له على خلاصك من يد الاشوريين فأخذ حزقيا هذا المكتوب وتوجه به الى المعبد وفرده أمام الحق سبحانه وتعالى وتضرع اليه

في مساعدته له على سنحاريب الذي أرسل له يسب في حقه عدوا بغير علم سبحانه وتعالى فأوحى الله الى شعيا النبي أن قل لحزقيا ان ملك أشوريا لا طاقة له على القرب من أورشليم ولا على أن يوقع الرعب فيها وانه لابد من عوده فورا الى بلاده من بعد أن يرى سوء عقابه

وفي غضون ذلك لما سلمت لبنة سار سنحاريب الى نواحي بلوزة وهي الفرما من أعمال مصر وعلى حدودها وكان الجيش المصري منتظرا وصوله اليها تحت قيادة سيطوس وفي اليوم الذي فرد فيه حزقيا مكتوب سنحاريب أمام الرب سبحانه وتعالى كان سنحاريب معسكرا بجيشه أمام جيش المصريين عازما على الهجوم عليه في صباح اليوم التالي فأنزل الله آيته في الليل على جيش سنحاريب ومات منه في هذا الموقع ١٨٥٠٠٠ نفس من الاشوريين وهم نائمون فانكرب سنحاريب وارتاع من هذه الآية المزعجة الكبرى وضعفت قوته وعجزت عزائمه وتفكر في نفسه في أنه صار لا طاقة له على استمرار الحرب وترك معسكره في الحال وأسرع في القهقرة ولما رأى المصريون ما حل بجيش سنحاريب من الارتباك ووقوع الفشل والهرب أسرعوا خلفه معقبين له فأسرع في السير وأبطل حروبه وعاد ملك أشور الى نينوى مع من بقي من جيشه الكثيف ومن المحتمل أنه حصل وقفة من الزمن في الاعمال الاشورية ومع ما حصل فان هذه الامة القوية الشوكة لم يحصل فيها نقص ولا اضمحلال من هذه الخسائر الجسيمة ومع كون سنحاريب امتنع من أن يوجه مساعيه في العودة ثانية الى فلسطين في المدة التي كانت باقية من سلطنته الا أنه حاز نصرات عظيمة في جهات أخرى غير فلسطين وذلك انه ساق حربا مظفرا كان أكبر حرب وأعظم جملة حملها في تغلباته في القسم الشمالي من سلسلة جبال زغرة ومن بعد هذا أشعل حربا شديدا على البابليين والسوسيين والظاهر أن ذلك كان بسبب أن البابليين انتهزوا الفرصة وقت حصول المصيبة لسنحاريب في بلوزة وخلعوا طاعتهم من تحت حكم الاشوريين وأن السوسيين أو العلاميطيقيين أوقعوا على أنفسهم غضب أشوريا حيث استقبلوا كلداني بيتياقين وأخذوهم تحت حمايتهم ومحافظتهم وكانوا هربوا من ممالك سنحاريب وأخذ هؤلاء معهم آلهتهم وكنوزهم وذخائرهم ونزلوا في مراكبهم وعبروا الخليج الفارسي ونزلوا على الساحل العلاميطيقي فاستقبلهم ملوك السوسيين مع الشفقة والمرحمة وسمحوا لهم بالاستيطان في أرضهم فعزم سنحاريب على أنه من بعد أن يخضع بابل لطاعته ينتقم من العلاميطيقيين ولما أرغم بابل بالخضوع والانقياد له جلب الجم الغفير من صناع المراكب من فينقية وملاحيها من سواحل البحر الابيض المتوسط وكانت سلطنته سائدة عليهم وأنشأ أسطولا من المراكب الحربية الجسيمة المسماة بالغلايين الفنيقية في أسفل نهر الدجلة وشحن جيشه في هذه المراكب الكبيرة الحجم والسعة التي ما شوهد مثلها قبل على هذه المياه وعبر الخليج الفارسي ونزل على قسم الساحل العلاميطيقي المتوطن فيه مهاجرو الكلدانيين ودمر المدينة التي كانوا شيدوا أركانها وجاس في البلاد والديار وخربها وأحرق عددا كبيرا من المدائن العلاميطيقية وشحن جيشه وأسراءه في مراكبه وعاد الى الدجلة من دون أن يقابل أدنى مقاومة من العلاميطيقيين وكانوا منتظرين هجومه عليهم من طريق البر وكانوا جمعوا جيوشهم في حدودهم الشمالية الغربية فدهمهم نزول الاشوريين على سواحلهم وأخذهم الهجوم من كل جانب وما كانوا على استعداد في مقاومته في النواحي التي جاس فيها سنحاريب

ولو أن سنحاريب نجح في غزوته هذه الا انه لاقى قلاقل وارتباكات كانت في انتظاره حال عوده وهو

لن

أن عموم رعيته اعتبر واغزوته وحملته هــذه من أكبر المخاطرات وانه لابدّ من هلاكه وتدمير أحواله بواسطة البحر فمن ثم تولد من هــذا الامل عند البابليين أن قاموا فى ثورة فى الوقت من بعد سفر الاسطول من الدجلة ثم لم يرو امن بعدها الاعود الاشوريين من غزوتهم متوجين بتاج الظفر والنصر من السوس ولما نزلوا على ساحل بابل شرعوا فى الحال فى اخضاع الاقليم واعادته لطاعتهم وحصــل من ذلك واقعــة كبيرة أسر فيها ملك البابليين صوصوب ومن بعد قليل دخل السوسيون فى بابل لاجل معاضدة حلفائهم فشتتهم الاشوريون وهزموهم وأوقعوا فيهم خسائر جمة والتزمت بابل بالانقياد والطاعة وعاد سنجاريب مظفرا بالنصر الى أشوريا ولاجل كسر شوكة السوسيين عزم سنجاريب على أن يغير على تلك المملكة بجيش جرار فدخــل فى قلبها وأخرب أربعــة وثلاثين من أكبر مدائنها وكثير من قراها وتغلب على مدينــة بداقة وهى المدينة الثانية فى المملكة وأضاف الى المملكة الاشورية مدينتى بيت كهرى وراز وكان السوسيون تغلبوا عليهما فى مدة سلطنة سرجون وعاد الى نينوى محملا بأثقال الغنائم والانفال وتاركا السوس فى غاية الدمار والخراب وبعد ذلك بقليل اشــتعلت نار الحرب ثانية فى نواحى بابل وذلك أن صوصوب الملك الذى كان أسره سنجاريب فى سنة الغزوة البحرية تخلص من أسره وهرب وعاد الى بابل فرحب الامة به واستقبلوه استقبال الملك فاغتصب الخزائن والكنوز وأخذ جميع الاموال والذخائر التى كانت موجودة فى هيكل بعــل فى بابل وجميع ما كان موجودا فيــه من الحلى والحلل واستبدل ذلك جميعه بنقود كافية واشترى محالفة السوسيين فساروا لمساعدته وانضم الى البابليين أيضا جملة قبائل وعشائر من عصاة أرمينية من الاقاليم المتوسطة لنهر الفرات وتلاقى سنجاريب مع هذا الجيش المتحالف فى نواحى خالولى من أسفل الدجلة ومن بعد محاربة طويلة وسفك دماء كثيرة هزم سنجاريب هــذا الجيش وانفكت التحالف وأرغمت بابل بالانقياد والطاعة والتزم الملوك المتحالفون على أن يجدوا سلامة أنفسهم فى الهروب وعاقب سنجاريب بابل بأشد العقاب وهــدم أسوارها وسلب هياكلها وحرقها وكسر صور وتماثيل آلهتها قطعا ووظف عليها عاملا لأشوريا مرة ثانية

ومن بعد ذلك بمدة شرع سنجاريب فى الحملة على صليصيا وفيها تقابل الاشوريون مع الجيوش الجريقية أول مرة وانهزم الاسطول الجريقى الذى كان محافظا على سواحل صليصيا بواسطة مراكب سنجاريب ومن المحتمل أن الجريق انهزموا أيضا فى البر فى نواحى صليصــيا وخضعت هــذه المملكة للفاتح وتوج سنجاريب فتوحاته بتشييد مدينة جديدة على منوال بابل سماها طرسوس وصارت هــذه المدينة من أشهر مدن الدنيا وأعظمها وهى مسقط رأس الحوارى بولس

وكان ســنجاريب محبا للعمارات وأخاذ قا للفنون والصــناعات وابتنى سراية فى نينوى حيث بسعتها وزخرفتها أنوار جميع المبانى التى كانت شــيدت فى أشوريا فى الازمان القديمة وكانت وحيدة عصرها فى جمال الزخرفة واتقان البناء واحكام النقوشات وكانت أجــل بناء بعد السراى التى بناها من بعــده حفيده أشور بانيبال وفى مدة هذه السلطنة أخذ فن النقش والتصوير درجة عالية فى التقدم وبنيت مبان أخرى كبيرة فى محال مختلفة من المملكة وأنشئت الخلجان والترع والمجارى اللازمة لجلب أجود المياه الى داخل المدينة وكانت مياه نهر الدجــلة محصورة فى مجراها الاصلى بواسطة أرصفة وحواجز مبنية من الطوب وانغلقت سلطنة سنجاريب بقتله بواسطة ولدين من أولاده فى ســنة ٦٨١ قبل الميلاد وكذا ذبح القاتلين أخوهما الوارث لتاج المملكة بعد أبيهم وهما أيضا من بعــد مضى بضع

شهورهربا الى أرمينية من أخيهما الاصغر ايصرحدون وكان مساعدا با لجند وكان محافظا فى حدود أرمينية فى الوقت الذى ذبح فيه أبوه

وجلس ايصرحدون على تخت المملكة فى سنة ٦٨١ قبل الميلاد وتسلطن ثلاث عشرة سنة وكان مقره تارة فى نينوى وتارة فى بابل على التعاقب وأرغم أهل بابل على طاعته فى السنة الاولى من سلطنته ثم سار الى فينيقيه وأخمد ثورة الصيدين وغلب ملك اقليم لبنان وكان من أمر هذا الملك انه ساعد أهل صيدا على العصيان وقتل ملك صيدا وملك لبنان وكان حربه التالى لهذا فى أرمينية فحاز فيه مظفرات جليلة وأخضع أيضا أهل صليصيا وكانوا أقاموا بيرق العصيان وقت موت سنحاريب وفى نحو سنة ٦٧٥ قبل الميلاد غزا غزوة فى داخل القسم الجنوبى من كلديا وكان فى هذا القسم نابوزيرسى سيدى ابن مردوخ بعلادن أقام نفسه فيه ملكا بمساعدة السوسيين وعزل ايصرحدون هذا الملك وقلد زمام الاقليم واحدا آخر من أولاد مردوخ بعلادن اسمه نهيد مردوخ وكان هذا نهض لمساعدته ثم تغلب على عيدوم وجعلها خراجية لاشوريا وكانت غزوته التالية فى قلب بلاد العرب فقطع الصحراء بجيش كبير جرار حتى وصل أخصب الاقاليم الموجودة خلف الصحراء وأكثرها عمرانا وتغلب على عدة مدائن ونهبها وعاد الى بلاده فى سلامة وبالنظر الى طبيعة مشاق الصحراء نفسها وصفة حروب سكانها الذين ماقدر أى فاتح على خضوعهم تحت سلطته كان ذلك يعد من أكبر نجاح وأعظم ظفر ولم يحصل التجول فى بلاد العرب الا ثلاث مرات فى تاريخ العالم وان ايصرحدون هو الملك الفريد الذى خاطر بنفسه لمباشرة مثل هذا الهجوم تحت قيادة شخصه وأخضع أيضا قبائل أرمينية القاطنين فى طول نهر الفرات وحاز بعض مظفرات جليلة فى الاقاليم القاصية من ميديا وكان حصول هذه الحروب فى ظرف العشر سنين الاول من سلطنته

وأكبر حادثة جليلة وقعت فى مدة سلطنة ايصرحدون هى تغلبه على مصر وتم له ذلك فى سنة ٦٧٠ قبل الميلاد وذلك انه هزم القوى المصرية التى كانت تحت قيادة طراقة فى واقعة عظيمة وتغلب على منف ثم سار نحو الجهة الجنوبية وتغلب على طيوه وطرد ملك مصر الى نواحى ايتوبيه وشيد سلطنة فوق المملكة وقسمها الى عشرين كورة صغيرة أجلس فى كل واحدة منها ملكا وكان جميع هذه الملوك تقدم واجبات طاعتها وخضوع عبوديتها الى ملك متسلطن فى منف من طرف ملك الاشوريين وكان هذا الملك هو ينخو أو بصاميطقوس وهو مصرى وطنى الاصل أو النزعة وفى نحو هذا الوقت عصى منشا ملك يهوذا الا أن قواد الاشوريين أخمدوا هذه الفتنة وأرسلوا ملك اليهود مغلولا فى الحديد الى بابل وكان مقر ايصرحدون فيها فعامل ملك الاشوريين أسيره فى ابتداء الامر مع الشدة والغلظة الا أنه بعد هذا أعتقه وأعاده الى مقر تخته بشرط أن يدفع خراجا زائدا عن أصل ما كان مقررا عليه ولما سكنت القلاقل والارتباكات فى مملكة يهوذا عزم ايصرحدون على تقوية شوكة الاشوريين فى فلسطين باستعماره أراضى مملكة اسرائيل بعائلات جلبها اليها من خواص أقاليم مملكته والظاهر انه فى سنة ٦٦٩ قبل الميلاد حصل لايصرحدون مرض فظهر طراقة فى الحال فى مصر وأقام سلطنته ثانيا على كامل وادى النيل وطرد الملوك الصغيرة الذين كان الاشوريون أجلسوهم ولما كان ايصرحدون لايمكنه ملافاة هذه الثورة بنفسه أشرك معه ابنه الاكبر أشوربانيبال فى سلطنة المملكة وتنازل هو عن تاج أشوريا لابنه وتخلى عن الاحكام واعتزل بنفسه فى بابل ومات فيها فى نحو سنة ٦٦٧ قبل الميلاد

فى

فى مبادى القسم الاول من هذه السنة

ثم ان أشور بانيبال بمجرد موت أبيه وظف أخاه صولموغينه عاملا من طرفه على بابل وجمع قواه وجيوشه مغيرا على مصر فأرسل طراقة جيشا جرارا قوبا بالمقابلة وفضل هو فى منف منتظرا ما يؤل اليه أمر الحرب فانهزم المصريون فى واقعة كبيرة بالقرب من مدينة قربنيت وانسحب طراقة الى طيوه فطرده الاشوريون منها فهرب الى اتيوبيه وأقيمت السلطنة الاشورية ثانية على مصر وأعاد أشور بانيبال الملوك الصغيرة الذين كان أبوه وظفهم فى كور مصر ولما استتب الامن والراحة فى البلاد رجع عائدا الى نينوى وبمجرد رحيله من مصر رجعت البلاد ثانية الى القلاقل والارتباكات بواسطة سعى الاتيوبيين وانضم نيخو الذى كان متسلطنا فى منف الى الاتيوبيين وترك الاشوريين فقبض الملوك الذين فضلوا على صداقة وعهد أشوريا على نيخو وبعض من الذين اشتركوا معه وأرسلوهم مغلولين فى الحديد الى نينوى واجتهدوا فى اخماد الثورة والارتباك الحاصل فى المملكة الا أن طراقة نجح فى تغلبه ثانيا على طيوه ومنها هدد جميع وادى النيل وأزعجه ولما رأى ملك أشوريا ما حل بالديار المصرية من الخطر عفا نيخو عما وقع فيه من الذنب والجريمة وأعاد تخته وأرسله ثانية الى مصر مع قوة قوية من الجيش الاشوريانى و بواسطة هذه القوة طرد نيخو طراقة الى جهة اتيوبية مرة أخرى ومات هذا الملك فى تلك الجهة تاركا أمره الى ربيبه عوردمانى ومن بعد مضى قليل من الزمن نزل عوردمانى الى وادى النيل وكسر العساكر الاشورية بالقرب من مدينة منف وتغلب على منف عنوة وكذا على مصر السفلى فبرز فى الحال أشور بانيبال الى ميدان الحرب بجيوشه وعساكره وسار بنفسه فى رأس جيشه حتى دخل مصر وطرد الاتيوبيين من المملكة وأخذ الاشوريون طيوة فى هذا الحرب بالقوة عنوة وسلبوها ونهبوا جميع ما كان فيها من عظيم النفائس وحملوها الى نينوى وأعاد أشور بانيبال نظام المملكة على المنوال الذى كان أبوه رتبها فيه وأجرى أشور بانيبال حربا ثالثة كهذه فى آسيا الصغرى وتغلب عليها ولما ارتاع عيفيس ملك ليديا من تقدم سيره دفع له خراجا لاجل خلاص مملكته وتغلب على قسم عظيم من أرمينية وخضعت السوس باكملها وانضمت الى بابل وصارت قسما منها وخضع كثير من قبائل العربان الذين كانوا خارجين عن هذه المملكة وصارت أشوريا فى أعلى درجات فوزها وشوكتها من دون أن يكون لها عدو يرعبها أو يقاومها وابتنى أشور بانيبال أفخر سراى وأجل بناء وأحكمه من جميع السرايات الاشورية فى نواحى السراى التى كان ابتناها جده سنحاريب فى نينوى ومال كل الميل الى الحرف والصنائع والآلات الموسيقية وشيد داركتب ملوكية فى نينوى وكان أجل وأفخر الملوك الاشورية قاطبة من دون ريب وفى مدة سلطنته وصلت الممالك الاشورية الى أقصى درجات السعة والامتداد وانتشرت الصنائع الاشورية وظهر على المملكة مجدها ورونقها وكانت تلك المملكة مقصورة فى الشرق عموما وكانت هذه المدة الزاهرة محصورة فى القسم الاول من سلطنة أشور بانيبال

ولقد نقل من طريق العموم أن أشور بانيبال مات فى نحو سنة ٦٤٧ قبل الميلاد الا أنه ظهر من الاستكشافات الجديدة انه عاش عشرين سنة زيادة ومات فى سنة ٦٢٧ قبل الميلاد واختار هذا الرأى المعلم رولنسن أحد مشاهير مؤلفى تاريخ هذه الامة وقد أظهرت هذه المدة فرقا واضحا للاثنين وعشرين سنة الاولية من سلطنة هذا الملك الكبير وذلك أن القسم الاول منها شاهد علو مجد أشوريا وشوكتها وسمو سلطنتها وشاهد القسم الاخير الذى سندخل فى الكلام عليه مبادى اضمحلال المملكة

العظيمة التى انتقلت فيه أشوريا من درجة السيادة فى الدنيا القديمة الى درجة الحضيض والاضمحلال وكان أول أسباب هذا الاضمحلال هو سرعة تقدم المملكة الميدية ودخولها فى شوكة حربية قوية فى الحدود الاصلية لمملكة أشوريا وأخذت حركة هذا التقدم فى السرعة حتى صار للميديين قوة كافية يغزون بها أشوريا فأغاروا عليها فى سنة ٦٣٤ قبل الميلاد فكانوا على غير طائل منها الا أن تأثير غزوتهم حصل منه فعل فى الحقيقة وانهزموا بالقرب من نينوى وقتل قائدهم المسمى فراعورطيس وفقد الشيخ المسن أشوربانيبال درجة شهامة قواه العقلية الشبابية واكتفى بهزيمة المغيرين على مملكته ولم يسع فى تعقيبهم الى بلادهم فنال كيكاوس الذى جلس على التخت الميدى فائدة عظيمة من تأخير أشوربانيبال عنهم وصرف السنتين اللتين جاءتا من بعد فى تجهيز جيش واستعداده وغزا أشوريا فى سنة ٦٣٢ قبل الميلاد وهزم الجيش الاشوريانى فى ميدان الواقعة وحاصر نينوى ثم انه انجبر بغتة على رفع الحصار وعاد مسرعا الى بلاده بسبب أن قبائل الصيطيان وهم عشائر يأجوج ومأجوج الموجودين فى شمال آسيا غزوا ميديا

وخرجت هذه الامة الجاسرة المتبربرة كالجراد المنتشر من نواحى القوقاس الى آسيا الجنوبية وكان ظهورهم فى الابتداء فى ميديا حتى وصلوا الى البحر الابيض المتوسط وكانت قوة أشوريا فى هذا الوقت ضعفت جدا وخرجت مصر عن سلطنتها تحت سلطنة بصاميطقوس بن نخو وأسرع الصيطيان فى الغلبة على أشوريا وانتقلوا منها الى سوريا فعجز بصاميطقوس سرعة تيار مددهم فحاصروا اشدود فى فلسطين ورشا بصاميطقوس يأجوج ومأجوج لاجل خلاص مصر من أيديهم فتحولوا عنها الى الممالك الاخر وأخيرا اختفى أمرهم وقيل ان البعض منهم رجع الى بلاده الاصلية فى الجهات الوعرة الكائنة خلف القوقاز والبعض دخل فى خدمة الحكام الوطنية فى آسيا ثم ان هؤلاء الحكام حازوا فى ظرف بضع سنين قوة كافية من أجل خلع طاعتهم لهذه الامة المتبربرة وشيدوا سلطنة أنفسهم مرة ثانية وكانت أول مملكة تممت هذا الشغل هى مملكة ميديا تحت ارشاد صاحب الرأى والحزم كيكاوس

وحاق بأشوريا الخوف الشديد مما حصل من الصيطيانيين من الخراب والدمار الذى أحاط ببلاد المملكة وتولد من كثرة عدد الصيطيانيين أن قاوموا الاشوريين بآخر ما عندهم من الطاقة فأخذوا كثيرا من المدائن القديمة ونهبوا خزائنها وحرقوا سرايانها وخربت البلاد وعم الفساد وخلت البلاد من أهلها وسكانها الان المتبربرين تتبعوا الاشوريين وبددوا شملهم فى كل معرض قابلوهم فيه وذكر رولنسن ان الصيطيانيين لما تركوا أشوريا كانت خيالا أوطلالا من هيئة صورتها الاولى ضعيفة كئيبة فى ضنك وأفول تدعو لها فالمحاقو بأفلو كانت حدودها غير مرتبكة وأقاليمها معترفة بسلطتها وسيادتها لكان أهلها فى أمن من خوف وقد حصل لهم هذا الارتباك بسبب ما لاقى أهلها من الضرر والنكال من الامة المتبربرة الشمالية ومع ما كانت عليه أشوريا من الضعف والضنك فى هذا الوقت لم تزل مملكة وحصل الاجتهاد والكد من أشوربانيبال فى عود نظام ممالكه ورتق فتوق الاتلافات التى حصلت من الصيطيانيين الا أنه فى أثناء اجرائه هذه الاعمال النظامية اخترمته المنية ومات فى سنة ٦٢٦ قبل الميلاد من بعد أن تسلطن اثنتين وأربعين سنة

ومن بعد موته خلفه ابنه أشور عميد علين وهو المعروف عند الجريق باسم صرقوس ولم يعلم شئ من

تاريخه

تاريخه الا أن مدة سلطنته كانت مصيبة وداهية على أشوريا فزاد فيها ضعف المملكة وخلت بيوت الاموال من النقود وصارت المملكة تحت قواعد الدمار والخراب مما حل بها من خراب الصيطيانيين وهم يأجوج ومأجوج وما عرف هل كان فيه طاقة لاصلاح وترميم المفاسد التى حلت بالمملكة أم لا والصحيح أنه ما كان له طاقة ولا شهامة على فعل ذلك ومن قبل تمام أى شئ من الاصطلاحات والنظامات الداخلة فى المملكة دخل الميديون والسوسيانيون فى محالفة مع بعضهم وغزوا أشوريا ودهموها ميديا من الجهة الشرقية وسوسة من الجهة الجنوبية فالتزم صرقوس على قسمة جيشه وقوته الى جيشين لاجل ملاقاة هذا الخطر المضاعف وسار مع أحد الجيشين لمقابلة غارة وحملة الميديين وأرسل الجيش الآخر تحت قيادة نابوبولصار القائد الباسل الموجود تحت يده لاجل طرد السوسيين الذين ساروا من البحر ونزلوا على سواحل بابل ولو أن ترتيب الجيشين بهذه المثابة كان من حزم الرأى بالنسبة للحالة الراهنة الا أنه عاد بالخراب على أشوريا بسبب ما حصل من خيانة نابوبولصار وذلك أنه لما رأى فرصته فى ضعف مملكته ترك أمر أشوريا وعمل شروطا ومحالفة مع عدوها وطلب لنفسه تخت بابل وزوج بنت كيكاوس لابنه الاكبر بختنصر ولما ضم قوته مع قوة كيكاوس سار الاثنان على نينوى وحاصراها وضيقا عليها ولما رأى صرقوس أن المدينة صارت على شرف الغلبة والتسليم وقطع الامل واليأس من نفسه حرق نفسه فى داخل سرايته وتغلب الفاتحان على نينوى وقسما أشوربينهما سنة ٦٢٥ قبل الميلاد

وما كان سقوط المملكة الاشورية عن ضعف كان موجودا بها أو من تأثيرات الى الهرم والشيخوخة عليها بل من سوء مقارنات تدبير الاحوال وذلك أن غزوها بالميديين الذين صاروا أمة حربية قوية كان فى وقت وصلت فيه المملكة الى انحطاط كبير حصل من تدفق غزو وغارة الصيطيانيين عليها ومن الخيانة التى حصلت من أكبر نوابها وقوادها الذى كان عليه المعول والاعتماد فى المحافظة على المملكة وأمتها ولبثت مملكة أشوريا مستقلة نحوا من ٠٠٠ ١ سنة مكثت فيها سبع قرون على غاية من الشوكة والسيادة أى من سنة ١٣٠٠ الى سنة ٦٢٥ قبل الميلاد ويحتمل أن يكون أكثر من ذلك الا أنه يلزمنا أن نحصر هذه المدة فى خمس قرون مبتدأة من سلطنة أشوررسعلين فى نحو سنة ١١٥٠ قبل الميلاد ووصلت المملكة فى مدة الاثنين وعشرين سنة الاولية من سلطنة أشوربانيبال الى أعلى درجة من شوكتها وسلطنتها وفى منتصف سلطنة هذا الملك كان لاشوريا السيادة العظمى على قطعة آسيا الغربية المحصورة بين البحر الابيض المتوسط ونهر الهاليس من جهة وبين بحر الخزر والصحراء الكبرى الفارسية من جهة أخرى وكانت حدودها الجنوبية متشكلة من بلاد العرب والخليج الفارسى وأما فى الجهة الشمالية فيظهر أنه ما كان لها وقت فى التقدم نحو البحر الاسود أو الى جبال قوقاس بل وكانت محدودة بخط منكسر ممتد من الحد الشمالى لارمينية فى المدة التى كانت فيها أشوريا فى درجة رونقها وزهو حالتها ولقد استحوذت أشوريا أيضا فى هذا الوقت خلاف ممالكها فى آسيا على قطعة من أفريقة واعترفت مصر بسيادتها عليها الى حد خط طيوه وكانت الممالك الداخلة فى الحدود المتقدمة الذكر وخاضعة للمملكة الاشورية فى مدة سطوتها ونفوذها هى الآتية السوس وكلديا وبابل وميديا وجبال زغرة والعراق وقسم من أرمينية وقبدوقيا وصيليصيا وسوريا وفنيقية وفلسطين وعيدوم وقسم من بلاد العرب وكامل المملكة المصرية والظاهر أن جزيرة قبرص كانت من تبعتها

ومن الجهـة الاخرى كانت فارس الاصلية وبقطرياوالصغدوهرقانية وهذه الايالات كانت بعد الحد الشرقى للملكة أشوريا وأما فى الجهـة الشمالية فانها لم تصل الى حد أبعـد من جارتها قاصوبين التى كانت محدودة فى الجهـة الجنوبيـة بحواجز جبال زغرة وكذا كان فى الجهـة الغربيـة فريجيا وليديا وليصيا وبعفيليا فكل هذه مستقلة وأن الجيوش الاشورية لم تحول أبدا حسب الظاهر فى الجهة الغربيـة خلف صيليصيا أو أنها عبرت نهر الهاليس

ثم ان هيئة الاحكام والقوانين التى أقامها الملوك الكبيرة العراقية على الممالك التى كانت دخلت تحت سـلطنتهم وشوكتهم كانت أجود حكم وأجـل مشروع لو قارناها بمملكة سليمان بن داود فان سليمان تسلطن على جميع الممالك من ابتداء نهر الفرات الى أرض فلسطين الى حدود مصر فكانوا يقدمون له الهـدايا والتحف ويخدمونه فى مدة حياته كلها وان أول الهيآت الغربيـة فى الممالك القديمة جدا هى أن كل مملكة كانت موفرة ومحترمة فى نفس اجراء أصولها وعوائدها حسبما هى عليـه من أصـل منشـئها وليس للملكة السائدة أن تطلب من المتغلبـة عليها تغيـير عوائدها الشخصية كما هو جار الآن فى الممالك الجـديدة بل تبقى المملكة الواحـدة على ما كانت عليـه من قبـل الا اذا لزم بعض اضافات جـبرية بشأن مراعاة السـلطنة السائدة ثم كان الممالك حافظة لشرائعها ودياناتها القديمة وسلسلة ملوكها وقوانين أنساب العائلات وجميع نظاماتها الداخلية وطرائق اجرا آتها العلمية والعملية وكانت المملكة الواحدة تعترف فقط بتبعة براية مربوطة بها على أداء واجبات معلومة للملكة السائدة وكانت هذه الواجبات المعروفة فى الازمان القديمة محصورة فى كلمتى الاحترام والخراج وكانت الواجبات اللازم أداؤها للملوك هى الخدمة وجلب الهدايا والجبر على الانقياد والطاعـة والتوجـه الى محكمة الملك حال طلبها ما لم تحصـل أعذار يسامحون فيها ويعترفون بدرجة الملك وعلو منزلته فيما بينهم وفوق كل ذلك وجوب دفع الخراج مع الانتظام فى الاوقات المقرر دفعـه فيها الذى تعين عليهـم وتقرر دفعه سـنويا فى مدة التغلب أو صيرورة التبعة والذين لا يمتثلون أداء هـذه الواجبات يعـد منهم اشهار عصـيان وبالجملة فانه يجب على المملكة التابعة أن تسمح لجنود ملكهم أن يمر من وسط أرضهم وأن يقاوموا كل سعى يحصـل فى أى حملة بأى حالة كانت تحصـل من مرور عدو فى أراضيهم وأما واجبات المملكة فانه يجب عليها أن تضمن لتبعتها الحماية والمحافظة واستتباب الراحـة والامن على الاموال والانفس من أعدائهـم البرانيـة أو الداخلية اذ من المعـلوم أن كل مملكة تحوى فى داخلها الارتباك والقلقلة وعدم النظام فان مرجعها الى الخراب والدمار وقيـل ان من أشهر الاحوال وجود القوة والضعف فى طائفة الملوك والممالك فأما قوة المملكة وجلالتها وسمو شوكتها فهى محصورة فى سعة المملكة وعظمها وثروتها وضبط عواصمها وأما الضعف فهو محصور فى الفقر والضنك ونفور الايالات التابعة وعلى فرض تمزق المملكة فانه يمكن عودها على الدوام بتدابير حازمة وشجاعة وبسالة على توالى جلوس ملوك حربية يتساعدون بشجعان الامة ورجال سياستها وكانت أشوريا فى حالة سعيدة وسلطنة مجيدة وقت ما كانت مسـتحوذة مدة طويلة من الزمن على ممالكها ودرجة نفوذ شوكتها وما كان لها جار سوء ذو شوكة قوية ينازعها فى نفسها وكانت وجدت بعض صعوبات قليلة فى مد سلطتها على جميع الاقاليم المقسمة والمتوزعـة بين مئات من رؤساء صغيرة لا يوافقون فى كلمة التجمع بينهم وليس لكل منهم طاقة على مقاومة مملكة كبيرة شاسعة ذات قوة عظيمة وخاطرت بنفسها فى اطفاء الثورات وظفرت

بها

بها حتى أمسكت نفسها المدة خمسة قرون وأخذت شوكتها فى التقدم على التدريج وسقطت من بعد حرب مهول حصل من مملكة جديدة تشيدت على حدودها وانتهزت الفرصة فى وقت ضنكها واتحدت مع أقوى الممالك الخاضعة لها حتى صار لها قدرة وطاقة على تمام خراب ودمار الامة التى سادت على الدنيا القديمة مدة طويلة من الزمن

﴿ الكتاب الخامس ﴾

﴿ تاريخ بابل ﴾

﴿ الباب الاول ﴾

﴿ قيام المملكة البابلية وسقوطها ﴾

الموقع الجغرافى لمملكة بابل – هى نفس كلديا – وجود بابل تحت الحكم الاشورياني – وجود العصيان والثورات – تعيين نابو بولصار عاملا على بابل بمعرفة صرقوس – الثورة الاخيرة وجعل نفسه ملك بابل – معاهدته مع الميديين – سقوط أشوريا – تشكيل المملكة البابلية – سلطنة نابو بولصار – الحرب مع مصر – هزم بختنصر نخو فى قرشميش – صيرورة بختنصر ملكا – خضوع فنيقيه ويهوذا – أخذ أورشليم وخرابها – التغلب على مصر – سلطنة بختنصر الزاهرة – أشغاله الكبيرة – البساتين المعلقة – أسوار بابل – الثروة التجارية – صفة الملك – جنونه واختلال عقله – شفاؤه وغلاق سنيه – خلفاؤه – صيرورة نابونادوس ملكا – اشتراك ابنه معه – الحرب مع فارس – عيد بعلشاذار – تغلب كيرش أو كيخسرو على بابل – سقوط المملكة البابلية – صيرورة بابل العاصمة الثانية للمملكة الفارسية

تنحصر مساحة مملكة بابل الحقيقية فى مملكة كلديا القديمة ومن ثم لا حاجة لوصفها هنا وهى واقعة بأكملها فى الجهة الغربية من نهر الدجلة وتنحصر فى سهلين واسعين أى مفازتين كبيرتين فالاول واقع بين نهرى الدجلة والفرات ويشكل القسم الاسفل من ميزوبوتاميه (يعنى جزيرة العراق) والثانى واقع بين نهر الفرات وبلاد العرب وهو حزام أو سير ضيق العرض بطول الايمن لهذا النهر ومساحتها نحو من ٢٧٠٠٠ ميل مسطح وأما الاراضى الموجودة فى شرق نهر الدجلة فانها ليست قسما من بابل الاصلية بل هذه تصيانا أو سوسيانه أو السوس وهى جهة اقليم ممتاز معروف عند اليهود باسم علام وكان مسكونا بأمة جليلة من البابليين وفى مدة ارتقاء شوكة المملكة البابلية كانت استحصلت على قسم واسع من الدنيا الشرقية كما سنذكره بعد

ومن بعد أن تغلب تغلاثنين الاول على كلديا فى سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد وأدخلها فى المملكة الاشورية صارت أمة هذه الجهة على غير رضا كثيرا أو قليل منهم وسعوا وكدوا من وقت الى وقت فى خلع طاعتهم من تحت ناف الحكم الاشورياني الا أن هذا السعى والكد جاء على غير طائل ومع ذلك فانه فى سنة ٧٤٧ قبل الميلاد نجح بابونصار فى ترتيب ثورة نجحت أشغالها وشيد سلطنة مستقلة فى بابل

وتسلطن أربع عشرة سنة وأبطل ما دونه عمال الاشوريين الذين سلفوه في خصوص تقريرهم عبوديته بلاده ثم خلفه نادوس وهذا تسلطن من سنة ٧٣٣ الى سنة ٧٣١ قبل الميلاد ومن بعده جلس على التخت ملكان شينزنوس وبوروس من سنة ٧٣١ الى سنة ٧٢٦ قبل الميلاد وجاء من بعدهما علولوس من سنة ٧٢٦ الى سنة ٧٢١ قبل الميلاد وخلف هذا من بعد موته مردوخ بعلادن وفي سنة ٧١٣ قبل الميلاد أرسل هذا الملك رسولا من عنده الى حزقيا ملك يهوذا ليهنئه بما حصل له من الشفا من مرض خطر كان أصابه وفي سنة ٧٠٩ قبل الميلاد هجم عليه سرجون وخلعه من تخته وأسره ودخلت بابل مرة أخرى تحت حكم عامل أشورياني واستمرت حالة هذه الاعمال الى سنة ٧٠٤ قبل الميلاد ثم أعقبها فترة لبثت أقل من سنة ثم ان مردوخ بعلادن هرب من أسره ونجا بنفسه وعاد لتخته وحكم ستة أشهر حتى هجم عليه سنحاريب وهزمه وأجلس على التخت عاملا أشوريا اسمه بلبوس في نحو سنة ٧٠٢ قبل الميلاد وفي سنة ٧٠٠ قبل الميلاد ارتاب سنحاريب من بلبوس في خيانة ألقيت الى سنحاريب فعزله من حكومة بابل وعهد زمامها الى ابنه الاكبر أشور عناديسو أو أصرنادوس فتسلطن هذا في بابل الى سنة ٦٩٣ قبل الميلاد وفي أثناء هذه السلطنة عصت بابل مرتين على أشوريا ثم خضعت مرتين الى الطاعة والانقياد أيضا وجاء عقب هذه السلطنة مدة مرتبكة مشحونة بالقلاقل والزعازع استمرت ثلاث عشرة سنة وانتهت بتغلب ايصرحدون على بابل في سنة ٦٨٠ قبل الميلاد وأضافها لنفسه وتلقب بلقب ملك بابل وابتنى لنفسه سراية في تلك المدينة وجعل مقره على التوالي تارة في بابل وأخرى في نينوى وضبط حكومتها الى سنة ٦٦٧ قبل الميلاد حتى عين ابنه ساغوس أوساغوسدوقينوس عاملا عليها فحكم هذا البرنس بابل مدة عشرين سنة وخلفه في سنة ٦٤٧ قبل الميلاد سنلادانوس وتسلطن هذا اثنتين وعشرين سنة

وفي سنة ٦٢٥ قبل الميلاد عين صرقوس ملك أشوريا الاخير نابو بولصار قائدا على هذه الايالة لاجل توقيف سير السوسيين الذين اقتربوا من المملكة مغيرين عليها من جهة الخليج الفارسي ومن المحتمل انه كان قلده عاملا أيضا وعند دخوله المدينة قامت الامة البابلية في ثورة وعصيان فرأى نابو بولصار أن يجعل نفسه رأس هذه الحركة المقبولة عند عموم هذه الامة حتى يوقع الدمار والخراب على أستاذه ويقدم المنفعة لنفسه فمن ثم دخل في محالفة مع كيكاوس وأغار هذا على أشوريا من جهة ميديا وعقد نابو بولصار عقد زواج بين ابنه الاكبر بختنصر وابنة كيكاوس وبواسطة نص شروط المحالفة وطد نابو بولصار لنفسه كرسي بابل أشبه بكونه ملكا مستقلا ولما تم نظام مواد المحالفة ضم نابو بولصار قواه في الحال الى قوى كيكاوس واشترك معه في الحرب وكانت نتيجته كما ذكرنا التغلب على نينوى وخرابها وسقوط المملكة الاشورية

ولما صار تقسيم الممالك الاشورية خص نابو بولصار جهة السوس ووادي الفرات وسوريا وفلسطين وأشوريا الاصلية وأما الممالك التي كانت تابعة لاشوريا في الجهة الشمالية فانها وقعت من قسم كيكاوس ومن ثم صارت بابل الآن رأس مملكة ذات شوكة قوية وخضع الممالك والايالات المتقدمة الذكر الى هذا التغيير من دون أن يحصل من واحد منها أدنى معارضة أو مقاومة لان هذه الممالك ما كان عندها علم بالذي حصل حيث يعلمون من أصل عوائدهم أن ملك أشوريا تارة في نينوى وتارة في

بابل حتى انهم ما كان لهم من علم بمبادى هذا التغيير واستمر ملك بابل نابو بولاصار عاكفا نفسه مدة سنين على تقرير سلطنته وربط علاقاتها واستمرت ممالكه فى حالة هدو واستتباب راحة مدة من الزمن ومن سنة ٦١٥ الى سنة ٦١٠ قبل الميلاد كان موجودا حرب بين ميديا وليديا فاشترك نابو بولصار وأحيانا ابنه فى هذا الحرب بمعية حليفه كيكاوس وفى السنة الاخيرة أى فى سنة ٦١٠ قبل الميلاد بينما كان الجيشان على شرف المبارزة الحربية بين بعضهما اذ حصل كسوف للشمس أزعج الجيشين فانتهز نابو بولصار الفرصة فى هذه الحادثة المرعبة وتداخل بطريق التوسط بين كيكاوس والليديين ونجح فى أن أوصل الحالة الى عقد معاهدة سلمية بين الاثنين واستمرت آسيا الغربية نحو نصف قرن تقريبا فى هدو وسكون متوال

ولما خلف نخو أباه بصامطيقوس ملك مصر على الاريكة المصرية فى سنة ٦٠٨ قبل الميلاد أغار على الممالك البابلية وهزم يوسيا ملك يهوذا وكان صدى حركات سيره فى نواحى مجدو وتغلب على جميع البلاد الكائنة بين مصر ونهر الفرات ومن بعد مضى ثلاثة أشهر من عوده الى مصر زار أورشليم وعزل عنها يهوياحاظ وهو الابن الاصغر ليوسيا وكانت الامة أقامته ملكا عليها وأجلس أخاه الاكبر يهوياقيم على التخت وحاصر فى هذا الوقت مدينة غزة الجليلة من أعمال فلسطين .

وما حصل من نابو بولصار أدنى كد ولا سعى مدة ثلاث سنوات فى استرجاع ماضاع من أرضه وبلاده بل وسع لنخو أن يتمتع فى فتوحاته وتغلباته وفى سنة ٦٠٥ قبل الميلاد جمع جيشا جرارا وعهد زمام قيادته لابنه بختنصر وأمره بالغارة فى شأن استرجاع البلاد فأسرع فى التقدم الى الفرات وهجم على الجيش المصرى بالقرب من قرشميش وبدد شمله واستمر سائرا خلفه الى حدود مصر واسترد فى سيره جميع الاراضى التى كانت فقدت من ممالك أبيه واستقبل طاعة يهوياقيم ملك يهوذا وكان على عزم الغارة على مصر وحطمها الا انه التزم الكف عنها عند ما وصل الى سواحلها وحدودها بسبب ما أتاه من الاخبار عن موت أبيه فعقد صلحا مع نخو وأسرع فى العود الى بابل واستلم التاج وتقلد زمام أحكام المملكة فى سنة ٦٠٤ قبل الميلاد والظاهر أن السنين التى كانت باقية على غلاق القرن السابع قبل الميلاد كانت سنين سلمية اشتغل فيها بختنصر باصلاح عاصمته وبتوطيد أركان وقواعد دولته

وفى افتتاح القرن السادس قبل الميلاد دعى ملك بابل مرة أخرى لميدان المحاربات لاجل اطفاء ثورات كانت حاصلة فى فنيقية ويهوذا وكانت يهوذا مدة واة من طرف المملكة المصرية وفى سنة ٥٩٨ قبل الميلاد سار بختنصر فى رأس جيش متحد مؤلف من البابليين والميديين وأغار على فنيقية ووضع الحصار على مدينة صور وكانت هذه المدينة على رصانة وقوة كافية حتى قاومته ثلاث عشرة سنة وفى أثناء هذه المدة خلع يهوياقيم ملك يهوذا وقتله وأجلس بدله يهوياقين ثم استبدله بصدقيا وهشم الثورة الاخيرة لليهود بكونه تغلب على أورشليم وهدم هيكل اليهود ومعبدهم وخرب مدينتهم وحمل الامة اليهودية الى بابل أسرى كما أسلفنا ذكره وفى نفس هذه المدة هزم مساعى ملك مصر وأرغمه رفع الحصار عن أورشليم الا أنه ما كان له طاقة على معاقبة هذا الملك الامن بعد فتح مدينة صور وفى سنة ٥٨٥ قبل الميلاد تغلب بختنصر على مدينة صور وخربها من بعد حصار استمر ثلاث عشرة سنة وأرغمت فنيقية عمومها على الانقياد والطاعة للفاتح بختنصر

ثم ان بختنصر وجه التفاتاته الى عقاب مصر وفى سنة ٥٨١ قبل الميلاد أغار على تلك المملكة

ونال بعض مظفرات غير مهمة والظاهر أنه ما كان ساس هذا الحرب مع العنف والشدة وخلصت مصر مدة ما من الزمن من العقاب الذى جلبته على نفسها بتداخلها فى أعمال بابل ومع هذا فانه فى سنة ٥٧٠ قبل الميلاد أغار بختنصر على المملكة مرة أخرى وتغلب عليها وأجلس على أريكتها ملكا جديدا اسمه أموزيس تحت سيادته وأن يكون عبداله

وكانت سلطنة بختنصر مشتملة على المدة السامية الزاهرة لتاريخ بابل وما كان بختنصر فاتحا كبيرا فقط بل كان أيضا حاكما حائزا البسالة والتدبير وحزم الرأى الخارق للعادة مع الصفات العظيمة والسجايا الجليلة وشحن المملكة بالاشغال العمومية النافعة كالترع والخلجان والحواجز اللازمة لاصلاح طرق الرى وعمل طريقة من المواصل والارصفة فى مين الخليج الفارسى وجعل بابل أفخر وأجل مدائن الشرق ولاجل ادخال السرور على زوجته الملكة أميطيس وكانت اشتاقت لرؤية ومشاهدة جبال ووهدات وطنها ومسقط رأسها وهو ميديا أنشأ البساتين المعلقة فى بابل على قول آخرين من المؤرخين وكانت هذه البساتين معدودة من عجائب الدنيا السبعة وكانت مبنية كما ذكرنا فى الكتاب الثالث على هيئة عدة دكات قائمة على قواصر أو عقود مرتفعة الى أعلى أسوار مدينة بابل ووضع الاتربة على هذه الدكات وغرس فيها الاشجار والنجوم وأنواع الزهورات والنباتات المختلفة وعمل لها الآلات اللازمة لرفع المياه الى أعلى موازين الفساقى والحياض المرتبة لسقى الاشجار والنباتات وتسابقت الصنائع وتفاخرت الحرف وهرعت اليها أرباب الصنائع بخصوص تقليد هذه الهضبة الصناعية بالهيئة الطبيعية لجبال ميديا وشيدت هذه الجبلاية المرتفعة وغرست فيها الاشجار المختلفة وظهر وجود هذه الجنة المدهشة للعقل ولو أنها كانت لا تقرب من منظر جبال ميديا الا أنها بأى حالة كانت مفرحة بالنسبة لتغيير الهيئة الطبيعية لمرج بابل وأعادت الى ملكة بابل رضاها وشكرها وذكرتها فى الحال محبة زوجها لها وحسن وجمال وطنها وكانت المدينة مسورة بأسوار مبنية من الآجر فى علو ٣٣ قدما وسمك ٨٥ قدما ومحيط دائرها ٤١ ميلا وهذا الدائر جعل للمدينة المحيطة بالاسوار مساحة قدرها أقل من ١٠٠ ميل مسطح وهذا على قول من قال ان بختنصر هو الذى شيد البساتين المعلقة وأحاط بابل بالاسوار وأما الذين قالوا ان سميراميس الملكة هى التى شيدت ذلك فقد ذكرنا وصفه فى الكتاب الثالث والله أعلم بالصواب

وصارت بابل تحت حكم وسياسة هذا الملك الخطير المدينة الرئيسة للتجارات فى الشرق بالنسبة لموقعها المستحسن فى منتصف الطريق بين نهر السند والبحر الابيض المتوسط وان لكل من نهرى الدجلة والفرات طرق موصلات بين الخليج الفارسى والجهات القاصية الشمالية فكانت التجارات من عموم الممالك والايالات المعروفة تورد فى أسواقها وكان يخرج من مشغولات معامل بابل أجود الطنافس والبسط والسجاجيد وكانت المدائن الموجودة فى طول نهرى الدجلة والفرات مشهورة بنظرافة مشغولاتها القطنية وجمال ألوانها المختلفة وما كانت بابل وحدها هى التى أصلحها الملك بختنصر ونظم أحوالها فقط بل وكانة المدائن البابلية الاصلية تحلت بالابنية الجميلة والهيا كل الفاخرة والمعابد الظريفة واستحكمت أسوارها القوية وكان لا يوجد جهة من جهات المملكة الا وشيد هذا الملك فيها الاعمال الجليلة النافعة لها

وكان بختنصر أحد كبار الرجال المشهورين فى التاريخ القديم كما انه كان أيضا أحد الصور المدهشة

المذكورة

المذكور فى تاريخ التوراة التى تيسر لنا منه الحصول على جمع أخباره الحقيقية وقد وصفه النبى دانيال فى كتابه بقوله انه كان رأس سلطنة بهية فاخرة محاطا بالبرنسات والحكام والقواد والقضاة ومأمورى بيوت الاموال والنواب والوجوه والاعيان من عموم ممالكه ومتمثلا بين يديه الطواشية المغدق عليهم بانعاماته وكرم جوده يفعلون ما يأمرهم به الملك وجميعهم فى درجة عالية من التربية والتهذيب وموجود فى سراياته الجم الغفير من المنجمين والفلكيين من أذكياء الرجال وأعلمهم يؤدون ما يلزم له ويرغبه ويشرحون له مطلوب آلهته وقال انه كان ملكا مطلق التصرف فى رعيته له طاقة فى لفظة واحدة على خلع ملوك وتولية آخرين وعليه المعول فى المحافظة على حياة الامة وسعادتها فى الاقطار الشاسعة والممالك الواسعة المتسلطن عليها ولا يمكن أن نضع برهانا حقيقيا دالا على تصرف شوكته فى رعيته زيادة عن كونه وضع دانيال الرجل الغريب فوق رؤس جميع طوائف القسس والعلماء البابليين

وكان بختنصر ذا ثروة عظيمة جدا حتى صار له طاقة أن يضع تمثالا من الذهب الخالص علوه تسعون قدما وعرضه تسعة أقدام

وأما أخباره فى الديانة فكان لا يعبد ما يعبده جنسه بل كان يعبد أحيانا آلهته وأحيانا ينتقل بغتة الى طاعة الله أسراء العبرانيين وألزم جميع قومه على الاقتداء بمثاله وكانت خصاله شديدة طائش العقل الا انه ما كان فى رأسه عناد وحماقة وكانت حدة الغضب تظهر عليه أحيانا ثم يستغفر منها فى الحال وكان عنده الحلم والخشوع أزيد مما كان يعتريه من الغضب والحنق وكان مثل أهل الشرق يحب الفخر والتعالى ويحب بهما الا انه كان له طاقة على نفسه فى الخضوع والاذلال أمام القادر سبحانه وتعالى على عقابه وعذابه وكان غريب الاحوال والصفات فى المملكة والوقت الحاضر وكان عنده شهامة الرأفة الحقيقية ويقضى على نفسه بنفسه ويخضع نفسه بنفسه وصار بهذه الصفات الجيدة أحد الرجال المشهورين بحسن الصفات فى الكتب المقدسة وكان من جهة أخرى جبارا عنيدا وما كانت هذه الصفة المهولة على الدوام فيه بل عند ما توجب أسباب الاحوال طلب الشدة من جهته وبسبب ما كان يظهر له من توقيع مصائب الآلام والاكدار على أعدائه الذين تغلب عليهم وكان على خضوع تام لزوجته التى انتخبها له أبوه لاسباب سياسية وشيد لها البساتين المعلقة

وفى نحو غلاق سلطنة بختنصر ويحتمل فى الوقت الذى تم فيه فتوحاته وأشغاله العمومية وفى حال تمتعه بالراحة والفلاح اللذين أكسبهما المملكة أنذر هذا الملك بغتة بانذر من السماء من عند الله سبحانه وتعالى وذلك أنه رأى رؤيا أدهشته وأزعجته فقصها على دانيال النبى ففسرها له بوحى من الله وقال للملك ان الله سيرسل عليه نوع جنون غير معتاد عقابا له على خطيئته وجريمته ويستمر هذا المرض سبع سنوات وفى أثناء هذه المدة لا يكون فيه صلاح لتقليده زمام الحكومة ولا الجلوس على تخت المملكة وان هذا المرض الغير معروف عند الاطباء يتسلطن فيه بحيث يجعله آدميا فى هيئة حيوان يفقد التكلم ويمتنع عن أصناف المأكولات المعتادة ويأكل من نبات الارض ويمشى على أربع تارة وفى ظرف سنة من المدة الموعودة أنذر بختنصر وداخله المرض وصار فى حالة حيوان لا طاقة لانسان على مساعدته وخلاصه منه وتصور بختنصر فى نفسه الصفة البهيمية وترك الاجتماعات البشرية وعاش فى الهواء المكشوف ليلا ونهارا ورمى جميع ما كان عليه من الملبوس وعاش على نبات الارض واستتر جسمه بستر خشن من الشعر الملبد فى بعضه وصار فى حالة يرثى اليها حقيقة وفى المدة التى حصل فيها للملك هذا

الجنون ماسمح لاحد من رعيته أن يراه ووضع فى محل لاتراه فيه العيون محفوظا عليه بخدمه وحواشيه وتقلدت الملكة زمام الحكومة وازدادت صداقة وخضوع أرباب الدولة البابلية الى مليكهم سيء البخت بسبب ماعودهم عليه من شريف الصفات وجميل الطباع ووصلهم بها فى وقت فلاحه ونجاحه وتأكدوا مما قاله لهم النبى دانيال وتعشموا فى أن تكون مدة المرض سبع سنوات ولما تم مقدار هذه المدة رجع للملك عقله بغتة وتمتع بسلطنته وعاد الى تعاطى الاحكام كما كان ولما طعن فى السن واعتبر من دون ريب بما حصل له من العقاب كان غلا قسى سلطنته مزهرا فالحا ناجحا كما كانت فى ابتدائه ثم مات بعد أن تسلطن أربعا وأربعين سنة فى سنة ٥٦١ قبل الميلاد تاركا مملكته لابنه عيفلمردوخ فتسلطن هذا سنتين وذبح فى ثورة حصلت من رعيته قامت عليه تحت قيادة صهره نيرجليصار

وابتدأت سلطنة نيرجليصار فى سنة ٥٥٩ قبل الميلاد فتسلطن أربع سنوات وكانت مدة سلطنته ذات أمن وراحة واشتغل بالخصوص فى بناء السراى الغربية فى بابل ومات فى سنة ٥٥٦ قبل الميلاد وترك مملكته لابنه لعبورو سعرخور أو لعبوسوراقوس وهو غلام صغير فخلع وقتل بعد أن تسلطن بضع شهور بواسطة ثورة واختار أهل الثورة نابونادوس ملكا عليهم ولما لم يكن من أولاد الملوك تدارك تقوية مسنده بكونه تزوج بنت بختنصر أرملة نيرجليصار فولدت له ولدا اسمه بعلشاز عوزار أو بعلشازار ولما بلغ هذا المولود مبلغ الرجال أشركه أبوه معه على التخت ولما ارتاع من تقدم دولة الفرس وجسامة شوكتها دخل فى محالفة تعرضية ودافعية مع قروصوص ملك ليديا لاجل صد تقدم فارس ومع هذا فما أفادته هذه المحالفة شيأ مالانه فى فصل ربيع سنة ٥٣٨ قبل الميلاد أغار كيرش أو كيخسرو ملك فارس على بابل وهزم نابونادوس فى واقعة سافكة للدماء وحصره فى بورسيبه ثم تقدم على مدينة بابل وتغلب عليها بكونه دخلها من مجرى الفرات بعد أن حوّل مياهه الى خارج المدينة وجفف فرشه وجعله طريق عبور لجيشه فى داخل المدينة وكان أهل بابل منهمكين فى لذات ومسرات كانوا مقيمين شعارها تعظيما لاحد آلهتهم ولم يشعروا بحركة كيخسرو الامن بعد تغلبه على المدينة وذبح بعلشازار فى صالة مائدته وسلمت بورسيبه بمجرد سقوط بابل وعامل كيخسرو نابونادوس أحسن المعاملة وأنعم عليه بحكومة ايالة كرمانيا العظيمة وصارت بابل المدينة الثانية للمملكة الفارسية وصارت مقر الحكومة الملك نصف سنة وانقرضت مملكة بابل بتغلب كيخسرو وعلى المملكة البابلية والله يؤتى ملكه من يشاء وهو القوى العزيز

﴿ الكتاب السادس ﴾

﴿ تاريخ فنيقيه ﴾

﴿ الباب الاول ﴾

﴿ من ابتداء الازمان القديمة الى تغلب اسكندر الاكبر ﴾

وصف فنيقيه ـ مدائنها ـ أصل الامة الفنيقية ـ صيدا أقدم مدينة ـ مستعمراتها ـ صور ـ المدائن القديمة والحديثة ـ أول المخاطرات التجارية للفنيقيين ـ تجارة الصفيح أو القصدير ـ أخطار

التجارة

التجارة البرية ـ أخذ الفنيقيين الطرق البحرية ـ نشر تجاراتهم ووصفها ـ المستعمرات الفنيقية ـ صنعة الصباغة ـ شغل الزجاج ـ الفخار ـ شغل البرنز ـ الزراعة ـ الحروف الهجائية الفنيقية واستعمالها في الكتابة ـ اللسان الفنيقي ـ أشغالهم العلمية ـ العمارة ـ الفنون ـ ديانة الفنيقيين ـ صفة الامة ـ قيام صور ـ حيرام الملك ـ معاهدته مع داود وسليمان سلكي اسرائيل ـ نظم الاتحاد الفنيقي ـ خلفاء حيرام ـ بيجماليون الملك ـ هرب ديدو وحزب الاشراف ـ تأسيس قرطاجنه ـ صيرورة فنيقية خراجية لاشوريا ـ حصار صور ـ تغلب سنجاريب على صور ـ انقراض سلطنة الصوريين ـ تخريب ابصرحدون صيدا ـ تغلب بختنصر على صور ـ صيرورة فنيقية ايالة فارسية ـ تغلب اسكندر الاكبر عليها ـ تابع تاريخها

فنيقيه القديمة حزام ضيق من الارض ممتد في طول ساحل البحر الابيض المتوسط من ابتداء مطلع صور في الجهة الجنوبية الى جزيرة عردوس في الجهة الشمالية وكان طول هذه المملكة نحو امن ١٢٠ ميلا وعرضها من قاعدة سلسلة جبل لبنان الى البحر لا يزيد عن عشرين ميلا وأحيانا أقل من ذلك وتبعد الجبال بالقرب من مدينة صيدا بنحو ميلين وعرض السهل الفنيقي من عند مدينة صور خمسة أميال وكامل السهل الفنيقي هو واد كثير الخصوبة يسقى بمياه جداول كثيرة ويوجد بالساحل عدة مين صالحة لان تكون مأوى للمراكب التي كانت تسير في طلب التجارة القديمة ويوجد في طول الساحل عدة مدائن جليلة لها أهمية عظيمة وأكثر هذه المدائن وقوعا في الجهة الجنوبية مدينة صور وعلى عشرين ميلا منها في الجهة الشمالية مدينة صيدا وعلى مسافة ستة عشر ميلا من شمال صيدا توجد مدينة بيروت التي صارت في الازمان الاخيرة أشهر مينة بحرية لبلاد سوريا وفي شمالها بقليل بيلوس أي جبلة وهي مسكونة بناس بحرية صيادين وفي شمال جبلة توجد طرابلس وآخر الجميع عردوس وخلاف المياه الكثيرة التي يعطيها جبل لبنان لسقي هذه المملكة فانه مشحون بوفرة الغابات والاورمانات وتمنح من أخشابه التي لاتفنى محصولا عظيما من الاخشاب اللازمة لصناعة المراكب وهذا الجبل هو القافل لمملكة فنيقية من الجهة الشرقية

والفنيقيون فرع من ذرية حام وهم من نسل كنعان وجاؤا الى هذه الاراضي من سهول كلديا في نحو عصر نمرود وذو بنواعدة مدائن مستقلة اتحدت مع بعضها في جامعة واحدة وكانت احدى هذه المدائن معروفة في العادة عندهم بانها رأس الجامعة وما كانت هذه السيادة لها الا في مدة وقوع حرب فقط وكانت المدائن الاخرى حرة في اجراء أشغالها الداخلية على حسب عوائدها وحكومتها

والظاهر أن مدينة صيدا أقدم المدائن الفنيقية وأول من حاز الثروة والشوكة وهي أول من شرع مشروع التجارات في البر والبحر مع الامم المجاورة لها وأول من دخل في شغل تأسيس المستعمرات التي عادت نتائجها على الاعمال الفنيقية بهيآت ممتازة وصور جليلة وكانت مدينة صور أول هذه المستعمرات وتمتعت مدينة صيدا بالسيادة على المدائن الفنيقية الى حد نحو سنة ١٠٥٠ قبل الميلاد حتى ضبطها الفلسطينيون القاطنون في القسم الجنوبي من فلسطين ودمروها تدميرا والتجأ أهلها الى صور وصارت مدينة أصلية فنيقية ثم ان مدة تاريخ تأسيس مدينة صور غير معروفة في الحقيقة وانما أصل المدينة الاصلية كانت واقعة على البر الاصيل ومن بعد مدة أنشئت مدينة جديدة فوق

جزيرة على بعد نصف ميل تقريبا من الساحل ففاقت بوجه السرعة على صور القديمة فى الثروة واشتهر اسمها وعلا صيتها فى البر والبحر

وكان البحر هو الميدان الاكبر لاشغال الفنيقيين ومعدنا لايعجز عن أن يستخرجوا منه ثروتهم ولبثوا عدة قرون ليس لهم عدو ينازعهم فى معايشهم وتجاراتهم وكانت تجارات الدنيا القديمة باجمعها محصورة فى أيديهم ومن المحقق أن مبدأ مخاطراتهم التجارية كان مع المصريين وكانوا يرسلونها من طريق البحر وقد وجدت عدد وآلات مصنوعة من البرنز فى مقابر المصريين شغلت فى عصر واحد مع الاهرام وكان البرنز مركبا من جزء من القصدير وكان القصدير لايوجد بمصر أو ان مصر قريبة للقوقاس أو الهند أو اسبانيا فمن ثم لزم جلبه الى مصر من الجهات التى كان يستخرج منها ومن المعلوم أن فنيقية كانت الواسطة فى مدخولاتها ويظهر منه أن تجارتهم القديمة كانت محصورة فى تجارة القصدير أو الصفيح ومع هذا فان التجارة البرية فى هذا المعدن مع مصر حصل فيها مشاق ومصاعب كبيرة لانها كانت تحتاج لسفر طويل السير وكانت الطرق اللازم السير فيها مارة من وسط جهات مشحونة بقبائل سلابة نهابة قاطعة للطريق وسكك مفتوحة لامستورة وزيادة على هذا فان سكك تجارات القصدير كانت تحت أيدى حكام ملوك أرباب طمع كانوا يرغبون احتكار هذه التجارات لانفسهم فمن ثم اجتهد الفنيقيون فى البحث عن طريقة أمينة فى توجيه هذا المعدن خالصا من اغتصابه بأى يد كانت وطريقا سالما آمنا من قطاع الطريق فكان يخرج من اسبانيا كميات وافرة من هذا المعدن فاعدوا البحر لان يكون طريقا سالما وسكة مكشوفة وبهذا كانت المراكب الفنيقية تسافر الى السواحل الاسبانية وتشحن منها القصدير الاسبانى وتسافر به الى مصر واستمروا ملازمين على هذه التجارة القديمة حتى أكسبتهم الثروة والشوكة فى تاريخ أجيالهم الاخيرة واستمر الفنيقيون مدة ما من الزمن محصورا فيهم امتياز جلب وتحضير الصفيح لايطاليا والجريس كما كانوا يجلبون لمصر ولما عجزت معادن اسبانيا وفرغت من هذا المعدن صار عبور بوغاز أعمدة هرقل وسافرت الاسفار الى سواحل كرنوال بشأن هذا المعدن بما أنه كان هو القاعدة الاصلية للتجارة

وأخذ تقدم التجارة الفنيقية بسرعة وكانت تجارتهم جارية فيما بينهم ومع الامم القريبة جدا منهم ولاجل نشر ومد تجاراتهم شيدوا مستعمرات وأقاموا محطات تجارية فى جهات بعيدة وكثير من هذه المستعمرات صار فى الازمان الاخيرة مدائن جليلة وبولاد من مواقع هذه المستعمرات درجة امتداد حقيقية للتجارة الفنيقية الا أنه من الواضح جليا أن المستعمرات كانت على العموم مراكز تخرج منها التجارة مخاطرة فى اقتحامها الاقاليم القاصية فكانت المستعمرات الفنيقية الموجودة على الساحل الشرقى للبحر الابيض المتوسط هى باقوس وأمثوس وطامينوس وامقوسطا وثيره وأغلب جزائر السكلادة وطاسوس وفى قبرص وعيا اليسوس وقريوس وفى رودس وكان فى الجهة الغربية من البحر الابيض المتوسط لبيوم وبانورموس وفى صقلية وغولوس وميليط وأوطيقة وقرطاجة وحردمنتون فى شمال أفريقة وقرطبة وملقة فى اسبانيا وعلى ساحل البحر الاطلنطيق خلف عمد هرقل كان يوجد طرطسوس على نهر الوادى الكبير وقاديس على جزيرة ملاصقة لساحل اسبانيا وكان فى الخليج الفارسى طيلوس وعردوس والمحتمل أنهما البحرين

وكانت تسافر الاسفار من قاديس وطرطسوس الى الساحل الغربى من أفريقة لاجل جلب القرود

والى جزائر حيشلى وكرنوال لاجل جلب القصدير وكانت المراكب الفنيقية تنزل من طباوس وعردوس فى الخليج الفارسى وتتجر فى الساحل الجنوبى الشرقى لبلاد العرب وكذا تتجر مع الهند وسيلان وترجع بالالماس واللؤلؤ وان مينة علات فى رأس البحر الاحمر (خليج العقبة) كانت نقطة مبدء الاسفار الى عوفير فى الساحل الجنوبى الشرقى لبلاد العرب وكانوا يستحصلون منه على الذهب وكذا صار عبور البحر الاسود وربطت العلاقات التجارية مع أهل تراسة وصيطيا وكونشيص وأما المحطات التى كانت واقعة على البحر الاحمر والخليج الفارسى فكانت تحتاج لتجارة برية بينها و بين المدائن الفنيقية والظاهر أيضا أن هذه التجارة البرية كانت ممتدة الى الامم المجاورة لها

وزيادة عما كان عليه الفنيقيون من حمل تجاراتهم الى الجهات الخارجة كانوا يستغلون ثروة عظيمة وأموالا جليلة من مشغولات مصنوعاتهم وكان أجل محصولهم فى ذلك ناشئا من صنعة الصباغة المعروفة باللون الارجوانى الصورى واستحصلوا عليه من نقط دقيقة من محار سمك البكسينوم والموريكس ولون هذا الارجوانى أحمر بنفسجى غامق فيجعلون له فى الصباغة هيآت مختلفة تبعا لما يضيفون اليه من أنواع العقاقير التى كانوا يستعملونها معه فكانت مشغولات القطن والكتان والحرير تصبغ بهذا اللون الا أن الصباغة الطريفة كانت تجرى على البضائع المشغولة من الصوف وبما أنه وجد أن الصباغة تتكلف قيما كبيرة صاروا يستعملونها فقط فى أنواع الاقمشة الجيدة والنسيج وما كان شغل هذه البضائع وطرق صباغتها محصورا فى مدينة صور فقط بل فى كافة المدائن الفنيقية وان عوميرا ألبس فرسانه الجلاليب الصيدية المصبغة بهذا اللون الارجوانى المفتخر

ويزعم الفنيقيون أنهم هم الذين اخترعوا صنعة عمل الزجاج ولما كانوا أصلا فى تشغيله كانوا هم أول من حاز الدرجة العالية فى مهارة طريقة وجود الزجاج وكانت صيدة وسربطة مقرين أومركزين شهيرين لهذا الشغل وكانوا يجلبون الرمل المستعمل فى تشغيله من شاطئ نهر بلوس القريب من رأس جبل الكرمل ولحد الآن توجد أوان كثيرة ومواعين كانوا يستعملونها فى تشغيل الزجاج تدل على مهارة وذكاوة شغالى هذا الصنف وكانوا أيضا أرباب دراية تامة فى عمل الفخار ومنهم تعلم الجريق صنعة نقش الاوانى والمواعين المصنوعة من الفخار وغير وافيها حسب الموافقة والتقدم فى الصنعة وكانوا يصدرون الفخار الى البلاد المجاورة لها بكميات وافرة وكان الصوريون يستعملونه فى مبادلة الصفيح وقت أسفارهم الى جهات كرنوال وجزائر حيشلى

وكان الفنيقيون على درجة عالية فى تشغيل البرنز وفى تشغيل المعادن الكريمة وكانوا أمهر جوهرية فى عصرهم ولقد كشف أحد الكشافين المتأخرين بعض قطع من تشغيل هذا الصنف حصل الاستدلال منها على مهارة وذوق المشروع الذى كان عند قدماء جوهرية الكنعانيين وكانوا أيضا على شهرة تامة فى النقوشات الجميلة التى كانوا يرسمونها على العاج أوسن الفيل

وكان لهم دراية تامة فى زراعة الاراضى وفلاحتها فكان يخرج أجود النبيذ وأحسنه من ضواحى صور وبيروت وجبيلة ومن جبل لبنان وكانوا يشتغلون الحرير ويربون دوده بالصورة المستعملة التى صناعته جارية بها الآن وكان يخرج منه محصولات وافرة وأثمار هذا الاقليم وفواكهه مشهورة بحلاوتها ولذة فكاهتها

ومن المحقق أن الفنيقيين هم الذين اخترعوا حروف الهجاء على زعم بعض المؤرخين الأأن

استكشافات السنين الاخيرة أقامت برهان الشك الاكبر فى ذلك ومع ذلك فن المحتمل أنه عند ما كانت كتابة الامم الاخرى القديمة الشرقية دالة على التصور دون اللفظ يعنى حروف تصوريه فقط مأخوذة أصولها من طريقة الحروف المصرية كان الفنيقيون يستعملون حروف هجاء ناطقة مركبة من أربعة وعشرين حرفا فظهر أنهم انتخبوها من حروف الكتابة المقدسة المصرية وكان لكل حرف من هذه الحروف الهجائية غنة ووصلة واحدة ولا تعلم الطريقة التى كان الفنيقيون يستعملونها قبل ذلك والمعتمد أن حروف الهجاء الفنيقية صار اختراعها فى نحو مدة اواريس أحد ملوك الرعاة الذين كانوا متسلطنين فى مصر قبل خروج بنى اسرائيل بقرون عديدة وهى الحروف الابتدائية الحقيقية التى كانت وجدت مستعملة فعلى هذا سواء كان الفنيقيون هم الذين اخترعوا الحروف أولم يخترعوها كانوا أول من استعملها فى أشغال أنفسهم أشبه بطريقة ممتازة عن الكتابة المقدسة المصرية أو الكتابة الدالة على التصور دون اللفظ وعند ماشرعوا فى مشروعاتهم التجارية اخترعوا حروفهم الهجائية أيضا ومن ثم علموا الامم الاخرى طرق استعمال هذه الحروف وقد لاحظ المعلم رنان وكان ملحوظه مقبولا بأن الحروف الهجائية الفنيقية كانت أيضا من جملة الصادرات مثل المواد التجارية

ومن مناقضات التاريخ أن الفنيقيين ولو كانوا من نسل حام الا أنهم كانوا يتكلمون باللغة السامية مع البلاغة والفصاحة ومن المحقق أن اللسان الفنيقى كان فى اختلاف خفيف ليس له أهمية مع اللسان العبرى وأن مطابقة القواعد النحوية ونص الالفاظ بين اللسان العبرى واللسان الفنيقى لا يظهر منها أدنى امتياز بين اللسانين بل مجرد لهجتين بينهما اختلاف يسير فى لسان واحد

والظاهر أن الفنيقيين كانوا أرباب علوم وآداب فى المدة القديمة من تاريخهم فكانت قواعد ديانتهم وجمعياتهم وتآلفهم وتنظيمات سياساتهم مدونة جميعها فى قانون مكتوب ومن جملة ما ألفوه من الكتب شئ مختص بالديانة والزراعة والفنون النافعة وحاز المدائن المختلفة تسجيلات ممتدة الى ماقبل وجودها من أزمان قديمة بطريق الكتابة وحفظوها مع الدقة والاعتناء وحصل عندهم تقدم زائد فى العلوم والفنون وكان معماريو أهل صيدا أجود وأشهر من معمارى سوريا قاطبة وكانت علوم الفلك والحساب والهندسة والملاحة والفلسفة مزهرة فى فنيقية وعلى الخصوص فى صيدا وهذه عوضت ماضاع من سيادتها وشوكتها بمجد ادراكاتها العقلية وأشغالها العلمية

ويظهر من الآثار القديمة والاطلال الباقية من المبانى الفنيقية صفة عمارة الفنيقيين وقال المعلم رنان ان الهيئة الممتازة فى وضع مجسمات المبانى فى حالة قوية هى احدى القواعد المرعية فى الحقيقة ويستدل من هيئة المبانى الفنيقية على ما كانوا عليه من الثروة وعظيم الابهة والشوكة وكانت مبانيهم مبنية بأحجار متعددة مرصوصة فوق بعضها كما هو مشاهد لحد الآن فى شغل حوائط دكة الهيكل فى أورشليم التى بناها معماريو الفنيقيين وبناؤهم وفى رصيف البحر الموجود فى أطلال مدينة صور وكانت قبورهم مبنية مع اتساع كاف لغرض أصلى عندهم ولقد استمرت مبانيهم قائمة الى العصور الاخيرة ومع ماطرأ عليها من الحوادث الجوية والدهرية وما آلت اليه عاقبة أمرها فان وصف هذه المبانى حفظ لنا بعض آثار العصور الماضية بطريقة كافية صار لنا بواسطتها قدرة على ممارستها ومعرفة أحوال الفنيقيين مع النجاح التام

واما

وأما التماثيل الفنيقيــة فكان فيها نوع اختــلاط من هيئة التمــاثيــل المصرية والاشورية وذلك أن الصورة العمومية كانت مصرية والشغل آسيوى فأما التمـاثيل الضخمة الكبيرة فكانت نادرة بالكلية وأما التمـاثيل الصغيرة فكانت عـديدة ومنها ماهو مصنوع بغاية الدقة والظرافة من الاحجار ومنها ماهو مصـنوع من الطوب والآجر ومن البرنز وفى هيئة رديئة فى الشغل والرسم والظاهر أن كلا من الصنفين أصنام وكان عند كل واحد من الفنيقيين فى بيته صنم أو أزيد والاغنياء منهم لهم أصنام الطبقة الاولى من الشغل الظريف وأما الفقراء فكانت أصنامهم الطبقة الثـانية من الشغل الردىء لان شغلها كان مع العجلة ويبيعونها بأرخص قيمة

ومن المعـلوم أن ديانة فنيقية كانت متفرعة من المنبع الذى تفرعت منه ديانة كلدياوأشوريا وكانت مؤسسة على رأى وجود اله واحـد لايمكن وصف شخصـه بمادة من المواد الدنيوية يخرج من جوهر نفسـه من دون حصول أدنى شغل ظاهر فى الخلقة والتكوين وكان يلقب على العموم باسم بعل ومعناه الرب وهو نائب الشمس والنائب الاكبر فى القوة المؤثرة للتكوين ومجزأ الى جـملة آلهة ثانوية اسمها بعليم متكونة من جوهره وهى صور وهيئات مرجعهـا اليـه وأما الاله الاكبر فكان معتـبرا بانه جـد مخلوقات متباينة واسمه بعـل تموث ويسمى أيضا أدون ومعناه الرب ومنـه أخذ الجريس اسم أدونيس وأعطوا لهذا الاله أسماء منها بعلشون ومعناه الحافظ وبعلمولوخ ومعناه الفانى وبعلزعبوب ومعناه معيد الارواح والاجسام البالية الى حياة جديدة وكان لكل اله أنثى أو زوجة ولكل بعل ثانوى زوجة مطابقة له اسمها بعلات تنوب عن الاله المذكور فى مناظر وهيئات متباينة وكانت زوجة الاله الاكبر بعل فى مدينة صيدا اسمها اسـتارتى ومعناها القمر وكانت الكواكب تعبد بقدر مالها من القوة المؤثرة وكانت النار عنـدهم أيضا من المعبودات المحترمة فكانوا يعبـدون الشمس والكواكب بصفة آلهة نارية ذات تأثير عظيم وقال موورس ان ديانة الفنيقيين كانت عبارة عن كونهم يجعلون القوى المؤثرة الطبيعية آلهة يعبدونها ومن ثم كانوا يعبدون الاشـياء التى كانت تظهر فيها قوة التأثير أكثر من غيرها

وكانت عبـادة الآلهة الفنيقية مصحوبة بشعائر مهولة فظيعة جدا فكانوا يحرقون الاطفال على قيد الحياة مرضاة لغضب بعلمولوخ وأحدثت هذه الحالة فى قرطاجه هولاند وانزعاجا زائدا وضغطت هـذه الديانة على جميع أجود الاحساسات الطبيعية البشرية لبنى الانسان وسلبت عقولهـم بخرافات مهولة قبيحة العمل وما أمكن تيسر الحصول على طريقـة نفع للامة هـذه لان الصفات الادبية كانت محصورة عندهم فى ديانتهم وكانوا أمة همجية فى مثل هذه المـادة ليسوا تحت روابط معتادة وكانوا فى هذا الوقت مثـل الارقاء فى حالة مكدرة مغمة جبارين مفسـدين متوحشـين محبين للذات أهل طمع وشح لاذمة لهم ولادين وكانوا أرباب تجارة فى جميع الاشياء الأنهم كانوا مجردين من كل كرم نفسى وعلاشهرة أوصيت

وكان موقع فنيقية على صفة لون تاريخها فكانت هذه المملكة عرضة لجميع كبار الفاتحين الذين جعلوا سوريا لوقائعهم وحروبهـم مدة من الازمان وثروتها وغنيتها هى التى دعتهـم لهجومهم عليها وسـيرهم اليها ومن ثم كانت مدة الاسـتقلال الفنيقى قصيرة جدا وان كان منشأوجوده من ابتداء انشاء هـذه الامة وأرغمت فى الايام القديمة على خضوعها لسـيادة مصر ومن هـذا الوقت انتقلت على التوالى الى

الملوك الذين ضبطوا الدنيا القديمة وحكموها ولقد شاهد القرن الحادى عشر قبل التاريخ المسيحى سرعة تقدم صور حتى صارت أكبر مدينة فى فنيقيه تحت سلطنة ملوكها الوطنيين وتقدمت مع العجلة فى الثروة التجارية والاعمال النفيسة الداخلية وقد علمنا أن أول ملوكها كان أبى بعل وكان معاصرا فى مدة من حياته لداود عليه السلام ومن بعد موته خلفه ابنه حيرام سنة ١٠٢٥ قبل الميلاد فتسلطن المدة الباقية من القرن وعقد حيرام معاهدة تجارية جليلة مع داود وسليمان ملكى اسرائيل وأرسل مقدارا وافرا من المهمات والادوات التى كانت لازمة لعمارة معبد اليهود وكذا أرسل الانفار الشغالين الذين بنوا هذا الهيكل وكانت سلطنته من أجل المدد التى عادت بالفلاح على مدائن فنيقية وامتدت الى مدة تنوف عن أربع وثلاثين سنة وكانت سيادة صور حاصلا الاقرار عليها فى جميع أنحاء فنيقية ولو أن كل واحدة من المدائن كان فيها ملكها القائم بادارتها الا أن التجاريب حنكتهم ضرورة فائدة جامعة الاتحاد والكلمة وكان جميع ملوك هذه المدائن المختلفة خاضعين لسيادة مليكهم ملك صور وهو الملك الحقيقى الوحيد للامة الفنيقية وكان يلقب بملك الصيدين ويجب على مطالع كتابنا هذا أن لا يخلط هذا اللقب بلقب ملك صيدا الذى كان هو الملك المحلى للمدينة القديمة وأجرى ملك صور جميع الاجرا آت المتعلقة بشأن ما يعود من المنافع على فنيقية وعقد معاهدات مع الامم الاجنبية تختص بتجاراتها ومستعمراتها وألغى جميع القوى البرية والبحرية للاجتماع وكان معاضدا فى جميع اجرا آته بواسطة نواب من المدائن الاخر ومات حيرام فى سنة ٩٩١ قبل الميلاد وخلفه ابنه بعليظار فتسلطن سبع سنوات وخلفه ابنه عبداسطرطوس وتسلطن تسع سنوات ثم قتل فى ثورة حصلت فى سنة ٩٧٥ قبل الميلاد وأعقب موت عبداسطرطوس مدة طويلة تسلطنت فيها القلاقل والحروب الداخلية تخاصم فيها على تخت صور كثير من المدعين واحدا بعد واحد مع التوالى السريع وانتهت هذه القلاقل فى نحو سنة ٩٤١ قبل الميلاد بعشبعل الخاخام الاكبر فى هيكل استارتى فذبح فعليس المدعى الاخير وأقام نفسه على كرسى مدينة صور ملك الصيدين وزوج بنته عزابل الى احاب ملك اسرائيل فأخذت عقله وتمكنت محبتها من لبه وخضع لها وازداد نفوذها وقويت شوكتها حتى ارتفعت شوكة الفنيقيين فى اسرائيل مدة سلطنة احاب وجاء من بعد عشبعل ابنه بعدظور فى نحو سنة ٩٠٩ قبل الميلاد فتسلطن ست سنوات وخلفه ابنه معطجين

وجلس معطجين على كرسى صور فى سنة ٩٠٣ قبل الميلاد فتسلطن اثنتين وثلاثين سنة ومات فى سنة ٨٧١ قبل الميلاد تاركا طفلين ولدا اسمه بجماليون وبنتا اسمها عليصار أو عليصه المعروفة باسم ديدو ومعناه المحبوبة وكانت البنت أكبر من أخيها ببضع سنين وكان بلغ عمره احدى عشرة سنة وقت موت أبيه وكان مقصد معطجين أن ولديه يتسلطنان سوية ولما كان مقصد الامة استبدال هيئة الحكومة الارسطوقراطية قاموا فى ثورة وأعلنوا بملك بجماليون وخروج أخته من السلطنة وكانت متزوجة طيخار بعل وهو الخاخام الاكبر فى ملكارث ومن بعد الملك فى الرتبة والشرف وهو رأس حزب الاشراف ومن بعد مضى مدة قليلة أمر بجماليون الملك بقتل طيخار بعل فرتبت ديدو ثورة من أشراف الفنيقيين لاجل أخذ ثار زوجها وخلع أخيها من السلطنة فانهزمت فى شغلها بواسطة حزب الامة وكان الثائرون معها ألوفا من أهل فنيقية فقبضوا على بعض مراكب كانت راسية فى مينة صور حاضرة للسفر وأقلعوا فى تلك المراكب تحت قيادة عليصار ومن هنا تغير اسمها الى اسم ديدو

الهربانة

الهربانقو وصلوا الى الساحل الشمالى من افريقية وأسسوا مدينة قرطاجه ومعنى قرطاجه باللغة العبرية المدينة الجديدة

ويولد من سفر حزب الاشراف من فنيقية ازالة الضغط الاكبر الذى كان واقعا على نفوذ وشوكة ملك الصوريين وأخذ الملك من هذا الوقت فى الحكم المطلق الاستبدادى وفى مدة هذه السلطنة ظهر الاشوريون على ساحل البحر الابيض المتوسط تحت قيادة اشور ءزربال فأخضع المدائن الفنيقية لتطير اعقابهم من الخراب والدمار ودفعوا الخراج والظاهر أن حالة هذه التبعة استمرت نحو قرن وانتهت سلطنة بيجماليون سنة ٨٢٤ قبل الميلاد غير أننا لا نعرف أى تاريخ أو حكاية لملك فنيقى لحد منتصف القرن الثانى وتسلطن كثير من الملوك الوطنية فى المدائن الفنيقية يدفعون الخراج لاشوريا وكانوا مدودين عند ملوك الاشوريين من جملة تبعتهم ومع هذا فان مثل هذه التبعة ما حصل منها أدنى تعطيل ولا تأخير فى حركة نجاح فنيقية ولا ضرر بشوكتها البحرية

واستمرت السيادة الاشورية على رقاب الفنيقيين الى منتصف القرن الثامن قبل التاريخ المسيحى حتى قلت راحة الامة وتكدرت صدورها تحت حكم الاشوريين وفى نحو سنة ٧٤٣ قبل الميلاد عصت فنيقية على تغلا تغلاصر الثانى تحت قيادة حيرام صاحب صور الا أنها أرغمت على بقائها فى موقعها الخراجى بواسطة تقدم الفاتحين فى فلسطين وفى سنة ٧٢٧ قبل الميلاد عصت فنيقية ثانية تحت قيادة عيلولوس وكان هذا العصيان فى مدة سلطنة صلمنصار الرابع فسار ملك الاشوريين مغيرا على مملكة فنيقية واحتل صور القديمة من دون أن يلاقى منها أدنى مقاومة وحاصر جزيرة المدينة وما كان له طاقة على هجومها من البر وما كان أيضا عنده أسطول فى البحر فكان حصارها عبارة عن احاطة فقط وكان أعظم حادثة حصلت هو أن الاشوريين قطعوا مجارى المياه التى كانت واصلة من البر الاصيل الى مدينة صور ومنعوا وصول المياه اللازمة لشرب المدينة فعلى ما قيل ان الاهالى استمروا على شرب مياه الامطار مدة خمس سنوات وهى المدة التى قاومت فيها المدينة الجيش الاشورى وفى مدة هذا الحصار خلع صلمنصار واستمر الحصار جاريا بواسطة سرجون خليفته وأما المدائن الاخر الفنيقية فانها سلمت من مبادى وضع الحصار على مدينة صور وكذا فى أثناء تقدمه وجمع سرجون أسطولا مركبا من ستين سفينة من تلك المدائن واجتهد فى الهجوم على جزيرة المدينة من البحر فخرج الصوريون مع اثنى عشر سفينة وهزموا أسطول سرجون وأبادوه وأخيرا من بعد كذا خمس سنوات مضت على غير طائل رفع قواد الاشوريين الحصار عن المدينة

ولو انه حصل من صور مقاومة عظيمة لاشوريا الا انه اعتراها من طول الحصار ضعف يؤسف من حالته وكانت المدائن الاخرى الفنيقية خرجت من تحت سيادتها وصارت خراجية لسرجون وازدادت مصائبها فى سنة ٧٠٨ قبل الميلاد بكونها فقدت مستعمرتها قبرص بخضوعها للاشوريين وفى سنة ٧٠٤ قبل الميلاد بعد جلوس سنحاريب على التخت الاشوريانى ببرهة قليلة من الزمن أقام عيلولوس مرة ثانية سيادة صور على فنيقية وأعلن باستقلاليتها وفى سنة ٧٠٠ قبل الميلاد أغار سنحاريب على فنيقية بقوة كبيرة من عساكره فتركت المدائن الاخر صور وخضعت للملك الاكبر بمجرد اقترابه منها والتجأ عيلولوس الى جزيرة صور معتقدا سعادته فيها وتركته هذه السعادة فى هذا الوقت وأخذ سنحاريب صور وهرب عيلولوس ناجيا بنفسه فى سلامة وعفا سنحاريب عن المدينة وأهلها وجعل

فيها طو بال ملكا معترفا بعبوديته له ودفع الخراج اليه
ولما تغلب سنجاريب على صور زالت السيادة الصورية التى كانت حملا ثقيلا صعبا على المدائن الأخر وأما صور فانها استمرت فى نفسها مركزا للفوائد التجارية الفنيقية وعاضد المدائن الاخر سنجاريب قلبا ويدا على محاربته صور ثم ان سنجاريب رتب جميع المدائن فى درجة واحدة خراجية لمملكة أشوريا وعند موت سنجاريب عصت صيدا وسعت فى طلب السلطة الاولى التى كانت لصور فأخذ ايصرحدون هذه الثورة وعاقب الصيدبين بأشد العقاب فى سنة ٦٨١ قبل الميلاد وخرب صيدا واستعبد أهلها ولما مات ايصرحدون خلع المدائن الفنيقية طاعتها للاشوريين وعقدت معاهدة مع مصر وفى سنة ٦٦٦ قبل الميلاد لما أعاد ملك الاشوريين أشوربانيبال سلطنته على مصر أطفأ الثورة الفنيقية وفى نحو سنة ٦٣٠ أو ٦٢٩ قبل الميلاد كنست الموجة العظيمة التى حصلت من غارة الصيطانيين وهم يأجوج ومأجوج أرض فنيقية وخربوا البلاد المفتوحة وأما المدائن المستحكمة فانهم لم يقربوها ثم تولد من سقوط مملكة أشوريا الفنيقية مدة وقتية من العتق والخلاص وفى سنة ٦٠٨ قبل الميلاد خضع الفنيقيون الى نخو ملك مصر وانتهت السلطة المصرية فى نحو سنة ٦٠٥ قبل الميلاد بهزيمة نخو بواسطة بختنصر فى قرشميش ثم طلب هذا الفاتح الى بابل بسبب ما حصل من موت أبيه فجأة وسمح للمدائن الفنيقية بالراحة مدة قصيرة قبل ظهور أستاذهم الجديد فى أرضهم ومع هذا فان عقاب هذه الامة نزل عليهم بغتة وذلك أنه فى سنة ٥٩٨ قبل الميلاد أغار بختنصر على فنيقيه وأخضع بلادها بسرعة ووضع الحصار على مدينة صور فقاومته ثلاث عشرة سنة وفى آخر هذه المدة تغلب على المدينة عنوة ودكها دكا وهرب غالب أهلها الى الاسطول ونجوا بانفسهم الى قرطاجة واشتركوا مع أهلها فى تجاراتهم وأشغالهم وما بقى من الاثر استمر فى المدينة تحت حكم ملك اسمه بعل أجلسه الفاتح على كرسيها أشبه بعبد له ومن بعد مضى بضع سنين شرع عوفريس ملك مصر فى اغتصاب فنيقية من بابل الا أن الفنيقيين استمروا فى صداقتهم مع بختنصر وبمساعدة أهل قبرص كسروا الاسطول المصرى وبهذه المخالفات حصل توقيف فى أشغال عوفريس وحملاته ومن بعد أن أخذ صيدا ونهبها وخرب ساحل فنيقية رجع عائدا الى مصر محملا بأثقال الغنائم والاسلاب
ولما سقطت المملكة البابلية انتقلت فنيقية تحت سلطنة الفرس أو وهو الاصح فى مدة سلطنة لهراسب (قمبيز) لان القسم الاصلى من القوى البحرية الذى كان استخدمها هذا الملك فى حرب مصر كان مركبا من المراكب الفنيقية وبحريتها ثم انقرضت سلطنة الفرس بتغلبات اسكندر الاكبر وفى نفس هذا الوقت انقرضت الامة الفنيقية الاصلية ودخلت المملكة فى الممالك التى شيدها خلفاء اسكندر من بعده فكانت تارة لمصر وتارة لمملكة سوريا الجريقية وأخيرا صارت معدودة من ممالك رومة وما زالت حتى اغتصبها الاسلام من الممالك الرومانية ولم تزل تحت يد الاسلام لهذا العهد وأما تاريخها من عهد لهراسب (قمبيز) فقد أدرجناه فى كلامنا على الممالك التى كانت خاضعة لها

﴿ الكتاب السابع ﴾

﴿ تاريخ ممالك آسيا الصغرى أو الاناضول ﴾

﴿ الباب الاول ﴾

﴿ قيام فريجيا وصيليصيا وليديا وسقوطها ﴾

هيئة آسيا الصغرى الطبيعية ـ السبب فى عدم صيرورتها مقر مملكة كبيرة ـ تاريخ فريجيا ـ أصل أهل فريجيا ـ صفاتهم ـ تغلب ليديا على فريجيا ـ تاريخ صيليصيا ـ جعلها خراجية لاشوريا ـ تأسيس طرسوس ـ صيرورتها ايالة فارسية ـ تاريخ ليديا ـ ثروة الامة وتهذيبها ـ عوائد الليديين ـ حروب هرقليدى ومرمنادى ـ صيرورة غجيس ملكا ـ تغلبه على جزء آسيا ـ غارة السمريانيين ـ الحرب مع ميديا وبابل ـ صيرورة قروصوص ملك ليديا ـ ثروته ـ زيارة سولون ـ جواب الحكيم سولون ـ تغلب كيرش أو كيخسرو على ليديا ـ عفوه عن قروصوص ـ صيرورة ليديا ايالة فارسية

تنقسم بحيث جزيرة الاناضول أو آسيا الصغرى الى عدة أقسام بواسطة سلاسل جبل وهذه الاقسام ممتاز بعضها عن بعض وكانت هذه الجهات مسكونة بعدة أجناس من العالم هم الفريجيون والليديون والكادونيون والصيليصيون والبعلاغونيون والقيدوثيون وكانت جميع هذه الطوائف فى قوة ورصانة واحدة وباتحاد هذه المساواة مع طبيعة التقسيمات الارضية الوعرة خرجت آسيا الصغرى عن وجود التقدم فيها لان تكون مملكة قوية قائمة بذاتها وحصل هذا التقدم فى بعض جهات حتى صارت هذه الجهات ممالك مستقلة بنفسها ومن المفيد أن نسرد تاريخ كل واحدة من هذه الممالك على وجه الايجاز فنقول

﴿ أولا ـ تاريخ فريجيا ﴾ كانت فريجيا أول ممالك آسيا الصغرى فى الابهة والجلالة الا أن تاريخها مجهول بالكلية و يعتقد الفريجيون أنهم هم أول من استوطن آسيا الصغرى من الازمان القديمة ومن المحتمل أنهم احتلوا عموم البحيث جزيرة فى وقت واحد ثم توالت الهجرات الجديدة للقبائل التى أتت الى آسيا الصغرى من جهة الشرق ومن جهة الغرب وطردوا الفريجيين الى جهة الخلف من الساحل ماعدا الاقليم الواقع فى جنوب الهلسبون فاستوطنوا هذا الاقليم وسكنوا القطعة المتوسطة من البحيث جزيرة ومن ثم صار لهم مملكة واسعة كثيرة الخصوبة والمرعى والكلا تحوى عدة بحيرات ملحية وكان لهذه الامة شجاعة تامة وتوحش عنيف وعكفوا أنفسهم على حرفة الزراعة والفلاحة وكان أهم مزروعاتهم كروم العنب وأصل مجيئهم الى هذه النواحى من جهات أرمينية وسكنوا فى مبادى أمرهم فى كهوف ومغارات نحتوها فى جهات الجبال الصخرية ثم تركوها على التدريج شيأ فشيأ وشيدوا المدائن الكبيرة على سياق منظوم وفى نحو سنة ٧٥٠ قبل الميلاد أو قبل ذلك بقليل يظهر أن الفريجيين كان لهم سلطنة زاهرة منتظمة كانت عاصمتها غورديوم على نهر صنجاريوس واستمرت فيهم سلسلة الملوك نحو قرنين غير أننا لا نعرف شيأ مما يختص بهم وكانوا يلقبون الملوك على التوالى بلقب غورديا س

وميداس وبمجردما أخذت ليديا فى التقدم والشوكة ابتدأت فريجيا فى الهبوط والضعف وفى نحو سنة ٥٦٠ قبل الميلاد تغلبت ليديا عليها وصارت ايالة من ممالكها

﴿ثانيا – تاريخ صيليصيا﴾ – تشغل صيليصيا القطعة الجنوبية الشرقية من البحيث جزيرة وكانت مملكة غنية خصبة أهلها عاكفون على الفلاحة والزراعة ولم نعلم من تاريخها القديم شيأ ماعدا كونها كانت سلطنة مستقلة فى أثناء المدة القديمة لملوك الاشور يين فأرغمها سرجون على الطاعة والانقياد له وأعطاها فى سنة ٧١١ قبل الميلاد الى امبريس ملك طربال صداقا لابنته ومن ثم صارت ايالة خراجية لاشوريا وفى نحو سنة ٧٠١ قبل الميلاد عصت صيليصيا على أشوريا فأغار عليها سنحاريب وخرب ديارها وفى نحو سنة ٦٨٥ قبل الميلاد أسس هذا الملك الاشورى فيها مدينة طرسوس واشتهرت هذه المدينة مدة من السنين وكانت مسقط رأس الحوارى بولص

وفى نحو سنة ٦٧٧ قبل الميلاد دمرا يسرحدون صيليصيا بسبب حصول ثورة كانت وقعت فيها أغضبته وفى نحو سنة ٦١٦ قبل الميلاد جلس على تختها ملك اسمه طنسيس ومن ابتداء هذا الوقت صار كل ملك صيليصي يلقب بهذا الاسم وقاومت صيليصيا مع الشهامة والعنف مساعى ليديا فى وقت تغلبها عليها الا أنها أرغمت على الخضوع بعد للجيوش الفارسية وصارت ايالة من المملكة الفارسية مدة ما فى أثناء سلطنة لهراسب (قمبيز)

﴿ثالثا – تاريخ ليديا﴾ – ليديا التى صارت أجل مملكة فى آسيا الصغرى كانت واقعة على الساحل الشرقى من البحيث جزيرة وتغلبت على كامل البحيث جزيرة ماعدا ليصيا وصيليصيا وقيدوثيا وكانت مدائنها الاصلية سرديس وهى عاصمتها ومغنسيا فى ذيل جبل صيلوس وتياطيره وفيلادلفيا وكانت الاراضى الليديانية الاصلية على غاية من جودة الخصوبة وأخذ نهير الباقطولوس وهو يصب فى نهر حرموس كميات وافرة من الذهب من سفوح جبال طملوس وكان هذا المعدن النفيس يغسل من الرمال فى شوارع مدينة سرديس وكل من جبل طملوس وصيلوس يشتمل على عروق غنية من الذهب وكان الليديون أمة ذات ثروة وأرباب زراعة وهم أول من ضرب النقود وكانوا أحد الامم التجارية القديمة على ساحل البحر الابيض المتوسط وبلغوا الشهرة العالية فى العطريات الزيتية والبسط والطنافس والمهارة فى الاشغال وأخذ الجريق منهم الناى الليدى والكمنجة والعيدان ذات الثلاث شعرات وذات العشرين شعرة وقلدوهم فى توقيع مغانيهم وألحانهم وفى ترنماتهم ووصفهم الشعراء العبرية بأنهم كانوا أمة يركبون الخيل لابسين الزرد والطاقومة الحربية وذكروا تجارتهم وثروتهم والظاهر أن عبادة الليديين كانت مشابهة لعبادة الاشوريين ثم محقت هذه الديانة وكثيرا ماذكر قدماء المؤرخين شر الليديين وأذاهم ومدحوهم فى شجاعتهم وبسالتهم فى الحرب واذا خضعوا انقادوا الفاتحيهم مع الهدو والراحة

وكانت ليديا منظومة فى سلطنة فى الازمان القديمة وأول من تسلطن فى ليديا عائلة تسمى العائلة الاطيادية مأخوذ اسمها من جدهم الاصلى أطيس وأما الليديون فان اسمهم مشتق من ليديوس بن أطيس ثم جاء من بعد العائلة الاطيادية عائلة تسمى عائلة الهرقليدى أوذرية هرقليوس واستمرت هذه العائلة على كرسى المملكة نحوا من ٥٠٠ سنة

وكان أرجو حفيد الطوس وابن هرقليوس أول ملوك الهرقليدى فى ليديا سنة ١٢٢٣ قبل الميلاد

وآخرهم

وآخرهم كندولس واشتهرت المدة الاخيرة من هذه المدة القديمة بحرب وقع بين الهرقليدى والمرمنادى والظاهر أن عائلة المرمنادى كانوا فرعا من العائلة الملوكية ومن بعد حروب مهولة انجبر عائلة المرمنادى على أن يجدوا طريق سلامتهم فى الهرب الا انهم عادوا مرة ثانية تحت قيادة رئيسهم غيجس وكان غيجس هذا من أكبر قواد كندولس فقتل كندولس وجلس على التخت وتزوج بالملكة زوجة كندولس على رضا منها فى نحو سنة ٧٠٠ قبل الميلاد وتولد من قتل كندولس ثورة كبيرة وهياج شديد بين الليديين وانقسموا حزبين ومن قبل وقوع المضاربة بين الحزبين اتفقوا على فصل هذه المادة عند كاهن دلفى فأثبت السلطنة الى غيجس فأهدى الملك هدايا فاخرة ثمينة لمعبد دلفى فى نظير هذا الجواب وكان من ضمن الاشياء الثمينة التى قدمها غيجس طاستان من الذهب وزنهما ثلاثون وزنة يبلغ هذا نحوا من مليون فرنك أو ٤٨٠٠٠ ليرة استرلينه

وبمجرد ما استوى على التخت واطمأن فى حكمه أشعل حربا على ملطية وأزمير وكولوفون وهى ثلاث مدائن قوية تابعة لمن جاورها من الممالك ومن بعد أن تسلطن ثمانيا وثلاثين سنة مات وخلفه ابنه عرديس فى سنة ٦٦٢ قبل الميلاد فتسلطن أربعا وأربعين سنة وفى سلطنة هذا الملك طرد رحالة الصيطيا نيين السمريانيون من بلادهم ومقر أجدادهم وهم من الصلطيق خلف جبل قوقاس فخرجوا عن حواجز هذه الجبال ونزلوا على آسيا الصغرى وكنسوها وقال بعض المؤرخين ان هذه الحادثة كانت فى مدة سلطنة غيجس وأن غيجس قتل فى واقعة معهم وتغلبوا على سرديس عاصمته ونهبوها وقاومت قلعتها أشد المقاومة هذه الامة المتبربرة وتسلطن من بعده سعدياطيس اثنتى عشرة سنة وأعلن هذا الملك بالحرب أهل ملطية وحاصر مدينتهم وكانت الحصارات فى هذه الايام عبارة عن نوع احاطة جارية مع بطء الحركة فاستمر الحصار عدة سنين ومات هذا الملك قبل أن يتم هجومه على ملطية والتغلب عليها

وفى سنة ٦١٧ قبل الميلاد جلس على التخت الياطيس بن سعدياطيس وتسلطن سبعا وخمسين سنة فكان هذا الملك هو الذى أشعل حربا على كيكاوس فى سنة ٦١٥ قبل الميلاد بعد أن طرد السمريانيين من آسيا الصغرى وتولد من هذه الحركة العظيمة التى أجراها الياطيس مد سيادة ليديا على كامل الامم المختلفة التى كان حصل لها الضجر والعذاب من أمة السمريانيين ولما اشتبكت ليديا فى الحرب مع ميديا وبابل بشأن مساعيها فى مقاومة دولة ميديا من تقدمها فى داخل أراضيها استمر هذا الحرب بين كيكاوس معاضد الله نابو بولصار ملك بابل وبين الياطيس ملك ليديا خمس سنوات وانتهى هذا الحرب بكسوف الشمس وحصل للجيشين ارتعاب من هذه الحادثة المهولة فتوسط ملك بابل فى عقد صلح بينهما فى سنة ٦١٠ قبل الميلاد ومن بعد هذا هجم على كل من مدينتى أزمير وقلاصومينى وتغلب عليهما وشدد فى الحرب الذى كان جاريا على مدينة ملطية الذى كان أبوه شرع فيه مع العنف والغلظة وكان حصار هذه المدينة استمر ست سنوات فى مدة سلطنة أبيه واستمر جاريا أيضا تحت حكمه وانتهى بالطريقة الآتية وذلك أن الياطيس تناول جوابا من كاهن دلفى بكونه يرسل من طرفه رسولا الى المدينة يعرض على أهلها هدنة بضع شهور ولما بلغ هذا الخبر طاغية ملطية وهو طرسيبولوس بمجىء الرسول أمر بأن جميع الحبوب والغلال والذخائر وأصناف المؤن التى جمعها بواسطة نفسه وبواسطة رعيته للمساعدة يجرى جلبها جميعا الى السوق العمومى للمدينة وأمر أهل المدينة والتبعة بأنهم عند مجرد

ماير وأدنى اشارة أعطيت منه يكونون متجهزين بهيئة أعياد وأفراح وبسط وانشراح وبناء على أمره صار اجراء كل ما طلبه حسب أمره ولما وصل الرسول الليديانى ورأى هذه الحالة العجيبة أخذه الاندهال والاستغراب من كثرة ما رأى فى السوق من الخيرات وما فى المدينة من الاعياد والمسرات فعاد وأخبر أستاذه الملك بما رأى وعاين وظهر للملك أن تصميمه فى اخضاع المدينة بطريق القحط لا يمكن وقوعه ورجح الصلح بعد محاربة كانت على غير طائل ورفع الحصار فى الحال وسار الى بلاده ومات فى سنة ٥٦٨ قبل الميلاد تاركا تاجه ومملكته لابنه قرصوص

واستمر قرصوص على الحروب التى كانت جارية فى مدة أبيه وتغلب على يونان وعليان ودوريان الجريق وكامل آسيا الصغرى الغربية الموجودة فى غرب نهر الحاليس ما عدا ليصيا وصيلصيا ووصلت ليديا تحت حكمه الى أرقى درجة فى الابهة وعظيم الشوكة والفلاح الا أن ذلك زال عنها فى أقرب وقت عندما حان وقت خرابها واشتهر قرصوص ملك ليديا بين عالم الدنيا القديمة بكثرة الثروة والغنى واعتبر نفسه أنه أسعد انسان على وجه الارض فكان يضرب بثروته المثل وكانت كنوز هذا الملك وثروته مستخرجة من معادن كانت فى أرض بلاده واقعة بين برجاموس واطارنة وكذا من نهر باقطلوس الذى كان رمله مشحونا بمواد الذهب وكانت سراياته مقر العلماء الرجال وكانت فلاسفة اليونان تزوره

ثم ان سولون أحد المشهورين من فلاسفة الجريق بعد أن دون القوانين الجديدة التى كانت لازمة لاثينة تفكر فى نفسه أنه يمكنه أن يغيب عن بلده بضع سنين لاجل اصلاح حالته فسافر من أثينة سائحا حتى دخل فى مدينة سرديس فقوبل فيها باجل الاحتفالات المناسبة لشهرة اسم هذا الرجل العالم الفلسفى الكبير وظهر الملك فى طنطنته وأبهته بين خدمه وحواشيه لابسا أفخر ملابسه المخيشة بالذهب المرصعة بفصوص الالماس ومع هذا فان سولون لم يلتفت ولم يبال بهذه الهيئة البديعة الشكل ولا تحرك ولا تلفظ بلفظ يستدل منه على الاستغراب أو الشكر لمساعى الملك من أجل التفاته وملاقاته له ولما رأى الملك البرود الحاصل من سولون وعدم مبالاته بما هو فيه من الابهة والطنطنة سقط سولون من عينى الملك وأمر الملك أن يفرجوه على كنوزه ومحلات سراياته المفتخرة وأمتعته الثمينة المكلفة ويظهروا له جميع ما فى داخل سراياته من الاوانى والتماثيل والجوهرات وخلافها الا أن هذه الاشياء جميعها عند سولون ما كانت هى الملك لانه جاء لزيارة الملك لا لزيارة أسوار سراياته ولا قيعانها ولما رأى سولون جميع هذه الاشياء أعادوه ثانيا للملك فسأله قرصوص أى انسان رآه فى أسفاره سعيدا حقيقة فأجابه سولون بقوله شخص اسمه طيلوس من أهل مدينة أثينة أمين صادق على غاية من جودة الطبيعة بعد أن عاش طول حياته قانعا بما عنده من مؤنة حياته وكان يرى على الدوام سعادة بلاده وترك أولاده تحت رضا العموم هم وأولادهم وأخيرا مات هذا الرجل مع عزة المجد والشرف محاربا فى حب وطنه

فعد قرصوص هذا الجواب الذى ليس فيه فضة ولا ذهب من أبرد الاجوبة ومع هذا فانه سأله ليرى هل يعده بعد طيلوس فى السعادة أم لا فقال له ثم من رأيت من بعد طيلوس فأجابه سولون بقوله كلوبيس وبيطون من أرغوس أخوان اثنان تركا خلفهما أنموذج محبة قلبية أخوية كاملة والاحترام المطلوب من الاولاد الى والديهم وذلك أنه فى موسم عظيم وقت ما كانت أمهما قسيسة يونو كان يلزمها الذهاب الى الهيكل الا أن الثورين اللذين كانا يجران عربتها غير حاضرين فوضعا ولديها الناف على رقبتهما

وسحباعربة أمهما الى المعبد وكان طول المسافة خمسة أميال فحصل لجميع الامهات اللاتى كن فى المعبد الذهول والاستغراب وهنين القسيسة على ما أعطيت من مثل هؤلاء الاولاد وهى أيضا من فرحها وشدة شكرها وحبها لولديها تضرعت الى الآلهة ان يكافئوا أولادها عنها أعظم المكافأة التى يمنحها الرب الى عبده الخاضع له فسمع دعاءها وتضرعها ولما تم تقريب القربان ألقى النوم على الولدين فى المعبد وماتا فيه مع الراحة وهدو النوم وقدسهما أهل أرغوس تعظيما لاحترامهما والدتهما وشفقتهما بها وجعلوا لهما تمثالين فى هيكل دلفى

ثم قال قرصوص متنهدا من قلب كئيب لأى سبب لم تعدنى أنت من جملة السعداء فأجابه سولون مع الهدو والراحة من غير قلق ولا حصول حدة يا ملك ليديا انه بخلاف المنافع والفوائد الجليلة التى منحتها الآلهة لنا نحن الجريسيين منحتنا أيضا فراسة متوسطة وحافظة قوية أدخلت بيننا نوع فلسفة واضحة مقبولة عندنا مصحوبة بحرية خارجة من الكبرياء والعجب والفظاظة ليست موافقة لاحوال الملوك وبواسطة هذه الفلسفة يجرى مراعاة كثرة تعداد التقلبات والعوارض التى تقع على الانسان فى حال حياته وبواسطتها لا يسمح لنا أن نمجد أنفسنا بتمتعنا فى نجاح حياة أنفسنا وفوزها ولا نختار أن نجعل السعادة فى آخرين لانه ربما أن تنتقل منه فجأة وذلك أن الانسان تندر حياته أن يعيش ما ينوف عن سبعين سنة التى مقدار أيامها ٦٢٥٠ يوما وما وجد فى هذه الايام يومين بحالة واحدة بل وجدها متباينة عن بعضها فعلى هذا لا عبرة باقبال الايام ومجيئها لانها مشحونة بالعوارض المختلفة التى لا يمكن رؤيتها فمن ثم على رأينا لا يقدر أى انسان أن يعد نفسه سعيدا الا اذا استمرت سعادته من عند الله الى آخر حياته فالذين على الدوام عرضة لكثير من الاخطار لا يمكننا أن نعد سعادتهم محققة ولما تم سولون آخر ألفاظه خرج من عند قرصوص فانحط قرصوص من هذه الالفاظ الا أنها لم تصلح أحواله

ولما ارتاع قرصوص من مظفرات كيرش أى كيخسرو ورأى أن مبارزته مع كيخسرو لابد منها من أجل سيادة آسيا الصغرى عقد محالفة مع البابليين والمصريين واسبرطه ضد الفرس واشتعل الحرب فى نواحى تمبره وبما أن هذه الواقعة من أكبر الوقائع التى حصلت فى الدنيا القديمة بين الفرس وليديا فاذكرها هنا على وجه التفصيل اتماما التاريخ ليديا فاقول

﴿واقعة تمبره﴾ كانت بلوكات المشاة فى جيش كيرش أى كيخسرو وكل بلوك مركب من ١٠٠ نفر بما فيهم ضباط الملك وكل بلوك مقسوم الى أربعة أصناف كل صنف أربعة وعشرون نفرا ليس فيهم الضباط وكل من هذه الاصناف مقسوم الى نصفى صنف كل نصف مركب من اثنى عشر نفرا وكل عشرة بلوكات تشكل طابورا واحدا تحت قيادة ضابط مخصوص اسمه سرهزار أو بكباشى أو رأس الالف وكل عشرة طوابير تشكل ما يقال له لواء فبهذا كان تعداد الطابور الواحد ألف نفس وتعداد اللواء الواحد ١٠٠٠٠ نفس

وفى سابق الامر لما دعى كيخسرو وفى رأس ٣٠٠٠٠ من الفرس لمساعدة عمه كيكاوس بدل فى تنظيم أسلحة عساكره وكان تلك ناهم لحد هذا الوقت يستعملون الحربة أو النشابة فقط وبهذا كانوا على طاقة من مضاربتهم عدوهم على مسافة منه فقط فغير ذلك كيخسرو وسلح القسم الاعظم من عساكره بالتروس والطوارق والدروع والخود والسيوف وبلط الحرب وترك القليل من عساكره أشبه بعساكر

خفيفة التسليح وكان الفرس لحد هذا الوقت لا يعرفون طرق المحاربة على ظهور الخيل ورأى كيخسرو فى نفسه أن لا شئ أهم فى اكتساب الوقائع الحربية من وجود الخيالة الفرسان فاجتهد شيأ فشيأ وفاز فى أغراضه بكونه جند جيشا من خيالة الفرس يبلغ مقداره ١٠٠٠٠ حصان وكان هذا الجيش زهرة عساكره وأجودها

وكان مقدار جميع جيش كيخسرو ١٩٦٠٠٠ نفس فرسان ومشاة منه ٧٠٠٠٠ نفس من وطنى فارس ومن هؤلاء ١٠٠٠٠ زرخ خيالة و ٢٠٠٠٠ زرخ مشاة و ٢٠٠٠٠ سنان و ٢٠٠٠٠ عساكر خفيفة والباقى من الجيش ومقداره ١٢٦٠٠٠ نفس كان مركبا من ٢٦٠٠٠ نفس من الميديين والارمنيين والعربان الخيالة ومن ١٠٠٠٠٠ مشاة من هذه الامم وكان يوجد خلاف هذه العساكر عند كيرش ٣٠٠ عربة حربية مسلحة بالمناجل والهراسات وكل عربة يجرها أربعة أزواج من الخيل مستورة بطقومة الزرخ هى وخيولها

وأمر أيضا كيرش بتشغيل مقادير كبيرة من عربات ذات سعة كبيرة ووضع على كل عربة منها برجا علوه نحو من ١٨ أو ٢٠ قدما رتب فيه عشرين نبالا وكانت كل عربة محمولة على عجل وتجر بثمانية أزواج من البقر وكذا رتب فى جيشه عددا كبيرا من الجمال جعل فوق كل جمل اثنين من نبالة العرب راكبين فى ظهر بعضهما يحفظ أحدهما رأس الجمل والآخر يحفظ جهة ذيله

وأما جيش قرصوص وكان ينوف عن ضعف جيش كيرش وكان جميع مقدار عساكره ٤٢٠٠٠٠ مقاتل منها ٦٠٠٠٠ خيال وكان مقدار العساكر المركبة من البابليين والليديين والفريجيين والقبدوقيين ومن الامم القاطنة على بوغاز الهلسبون أى الدردانيل ومن المصريين نحوا من ٣٦٠٠٠٠ نفس وكان جيش المصريين وحده عبارة عن ١٢٠٠٠٠ نفس لابسين الطوارق والدروع من ابتداء رؤسهم الى أقدامهم وبايديهم الرماح والمزاريق الطويلة وسيوف قصيرة عريضة جدا وكان ما بقى من الجيش مركبا من الفنيقيين والقبرصيين والصليصانيين والليكانيانيين والبغلاجونيين والتراسيين واليونانيين

ونظم قرصوص جيشه فى هيئة طابور على حذاء واحد بأن جعل المشاة فى القلب والخيالة فى الاجنحة وكانت جميع عساكره مشاة وفرسانا واقفة فى هيئة قطارات عمق كل قطر ثلاثون نفرا وكان المصريون الذين كان تعداد عساكرهم كما ذكرنا ١٢٠٠٠٠ نفس وعليهم مدار القوة الاصلية لمشاة قرصوص وكان وقوفهم فى القلب مقسومين الى اثنى عشر لواء واقفة على هيئة قلاع مربعة كل قلعة مركبة من ١٠٠٠٠ نفس ومواجهة كل قلعة ١٠٠ نفر مرصوصة كوما واحدا وكانت هذه القلاع أو اللواآت مفصولة عن بعضها بمسافات بحيث يمكن للقلاع اجراء حركاتهم الحربية من دون أن يمس بعضهم بعضا أو تحصل منهم مضايقة فى الحركة الحربية أو اختلاط اللواآت ببعضها وكان قرصوص يشتهى أن يرتب القلاع المصرية بحيث تكون أعماق القلاع قليلة ومواجهتها عريضة الا أن المصريين لم يتزحزحوا عما اعتادوا عليه من تعليماتهم وقواعدهم العسكرية وكانت الجيوش فى سهل متسع جدا يتشكل منه ميدان كاف لحركات الاجنحة الموجودة فى الشمال واليمين من القلب وكان قصد قرصوص الذى أسس عليه أمل النصر على العدو أن يحيط جيش العدو أو يجعله فى ناحية واحدة من الميدان ورتب جيشه بهذا القصد فى حذاء واحد فى طول مسافة خمسة أميال

وأما كيرش فانه أرسل من طرفه شابا اسمه أرسپيس فتوجه هذا الى جيش قرصوص بصفة أنه مغاضب لكيرش وناقم عليه وكان كيرش أوصاه أن يراعى ويعرف مع الدقة والاعتناء جميع ترتيبات عساكر قرصوص ونظامها ويعود الى المعسكر قبل حصول الواقعة بيوم ولما رجع هذا الشاب المبدى أخبر كيرش بحقيقة أحوال قرصوص وترتيبه جيوشه فرتب هو أيضا عساكره وجعل الحاكم عليه فى الترتيب مواقع ترتيب العدو

وكان عمق قطارات عساكر الفرس وقت الدخول فى المحاربات أربعة وعشرين نفرا فافتكر كيرش مناسبة تغيير هذا الموضوع وكان ذلك من الضرورى له فى أن يشكل وجهة عريضة على قدر امكانه من دون أن يضعف كثيرا لوا آنه وذلك لاجل منع جيشه من التحام بعضه فى بعض وكانت عساكره المشاة على غاية من الجودة لابسين طوارقهم ودروعهم معهم بلط الحرب والسيوف منظومين فى حالة بها يلاقون عدوهم على أقرب مسافة منهم ومن أجل الغرض المتقدم نقص كيرش قطارات عساكره المشاة بقدر النصف وجعل عمق القطار الواحد اثنى عشر نفرا فقط ورتب الخيالة فى الجناحين وجعل الجناح الايمن تحت قيادة كريسطانطاس والايسر تحت قيادة هستاسب أو كشتاسب فصار كامل وجهة الجيش بطول أربعة أميال وجعل بين وجهة جيشه ووجهة جيش العدو مسافة قليلة قدرها نصف ميل

ورتب كيرش على مسافة قليلة خلف الحذاء الاول عساكر المزراق ومن خلفهم النبالة وكل من هذين الحذاءين مستور فى مواجهته بعساكر بحيث ان العساكر الخلفية يمكنهم من فوق رؤس عساكر الحذاء الاول تشغيل مزاريقهم ونبالهم على العدو من دون أن يوقعوا أذى على الموجودين أمامهم من الحذاء الاول وشكل خلف هذه الحذاآت حذاء آخر لاجل حفظ ظهر الجيش وكان هذا الحذاء مركبا من زهرة جيشه وأمرهم أن يفتحوا أعينهم للحذاآت الموجودة أمامهم ويمدوا الذين يحتاجون منهم الامداد وقت الحرب ويثبتون الذين يخافون ويهددونهم سوء العذاب ويقتلون الذين تحصل منهم خيانة الفرار والهرب

ورتب خلف الجيش العساكر الذين يحركون الابراج وينقلونها من محل الى آخر وهؤلاء شكلوا أيضا حذاء مساويا وموازيا لحذاء الجيش وما كان استخدامهم فقط لارهاب العدو وبارسال نبال عليه مستمرة الرمى بل وليكونوا أيضا شبه نوع قلاع وطوابى متحركة أو بالنفات مربعة تتجمع تحتها العساكر الفارسية فى حالة ما اذا حصل لهم هزيمة واقتحمهم العدو بخيله ورجله

وكان يوجد خلف هذه الابراج مباشرة حذاآت آخران مساويان وموازيان لوجهة الجيش أحدهما مشكل حذاء الجلة والآخر عبارة عن العربات التى فيها النساء وناس آخرون من الفرس لا يوافقون فى الخدمات الحربية ورتب كيرش لاجل غلق جميع هذه الحذاآت وحفظها من هجوم العدو عليها خلف كل منها ٢٠٠٠ من المشاة و ٢٠٠٠ من الفرسان والعساكر الجمالة وكانوا كثيرى العدد وأما عربات الحرب فكانت منقسمة الى ثلاث فرق كل فرقة مركبة من ١٠٠ عربة وكانت احدى هذه الفرق تحت قيادة ابراداطيس ملك السوس ومحلها فى مواجهة قلب الحذاآت وكان كل من الفرقتين الاخريين فى جناح من جناحى الجيش وهذا هو كان ترتيب الواقعة عند الجيشين حال بروزهما وتعبيتهما قبل الدخول فى الواقعة

وفى اليوم التالى قام كيرش وقت الصباح وقرب قربانا فى مدة زمن أخذت فيه عساكره الراحة وأما العساكر فانهما من بعد تقديم خضوعها للآلهة واعتمادهم عليها فى حركاتهم لبسوا سلاحهم ودخلوا فى تعبية حركاتهم وبمجرد ماتم كيرش تقريب القربان أعطى ضباطه جميع التعليمات اللازمة فى أثناء المحاربة وتوجه كل انسان الى المحل المرتب فيه وجاءه بعض من الضباط بخمر وأكل فأكل قليلا وهو واقف على قدميه وأمر بتفريق الباقى على الذين كانوا حوله وأخذ قليلا من الخمر وسكبه على الارض أشبه بتقريبه للآلهة قبل أن يشرب وبعد هذا تضرع بالدعاء الى اله آبائه وأجداده مستغيثا بارشاده ومعاضدته على عدوه ثم ركب حصانه وأمر الناس باتباعه وبينما كان قاصدا الجهة التى هو سائر اليها اذ سمع قعقعة رعد عن يمينه وصوتا يصيح نحن تابعون للمشتري المليكا جو بتير فسار فى الحال الى الامام وكان على يمينه كريسطانطاس قائد الجناح الايمن للخيالة وعلى شماله ارساماس قائد المشاة وأمرهما قبل كل شئ بتوجيه التفاتاتهما الى العلم الملوكى حال تقدمهما مع حذائهما وكان العلم الملوكى نسرا من الذهب فى طرف زانة فادار أجنحته وأوقف كيرش عساكره ثلاث مرات للراحة حال سيرهم قبل أن يصل الى جيش العدو ومن بعد أن سار ميلين ونصفا وصل الجيش الى منظر من جيش العدو

ولما صار الجيشان على مرأى من بعضهما ورأى الاعداء أن مواجهتهم طويلة جدا عن مواجهة كيرش وجيشه أوقفوا وقلب جيشهم وأمروا الجناحين بالقرب الى القلب من جهة اليمين ومن جهة اليسار لاجل القرب من جيش كيرش وأن يبتدؤا فى هجومهم من كل جهة فى وقت واحد فلم يرتع كيرش من هذه الحركة لانه كان ينتظر وقوعها ولما عبى كيرش عساكره للحملة والهجوم قال لهم ان القائد والحافظ هو جو بتير وترك جناحه الايمن بعد أن وعده بعوده اليه ثانيا فى الحال لمساعدتهم على النصر ان أرادت الآلهة بذلك

وركب وسار مخترقا جميع الصفوف والحذاآت يقوى عساكره ويعطى أوامره وكان على غاية من الاعتماد والوثوق بالنصر ونادى وقال اتبعونى يا اخوانى النصر لنا محقق ثابت والآلهة معنا ولاحظ أن كثيرا من ضباطه حتى ابراداطيس نفسه كانوا على وجل من الحركة وكان جناحا الجيش الليديانى على شرف الهجوم على جيش كيرش من الجنبين فقال كيرش أتخشون من هؤلاء العساكر صدقونى بانهم أول مهزوم ومكسور وأنت يا ابراداطيس أنا أعطيك اشارة الوقت الذى تقتحم فيه بعرباتك على العدو ولقد حصلت الحركة كما قال كيرش ومن بعد أن أعطى كيرش جميع الاوامر والتنبيهات التى افتكر أنها ضرورية فى كل جهة من جهات جيشه عاد الى جناحه الايمن

ولما صار الفرقتان المنفصلتان من العساكر الليديانية على امتداد كاف فى تعبيتهما أعطى قرصوص اشارة للجيش الاصلى بالتقدم مباشرة الى مواجهة الجيش الفارسى حال ماكان الجناحان يلفان حول جيش العدو ويتقدمان عليه من كل جهة وبهذا انقفل جيش كيرش من ثلاث جهات بثلاث جيوش كبيرة واقفة معه فى ميدان حرب وصار هذا الجيش أشبه بقلعة صغيرة فى داخل قلعة كبيرة

وكان قواد كيرش وعساكره ناظرين للاشارة التى تعطى منه فى أى وقت من الاوقات وعلى غاية من الهدو والسكون منتظرين أمر الحركة فتفكر كيرش فى الوقت بانه يجرى ترتيل مغانى الوقائع والحروب فابتدأ هو بنفسه فى ذلك وجاوبه الجيش بأصوات عالية وتضرعوا فى دعائهم الى اله الحرب ثم

انقض

انقض كيرش فى رأس بعض من عساكره الخيالة متبوعا بحركة سريعة من المشاة مباشرة على قوى العدو الذين كانوا تقدموا للهجوم على جناح جيشه الايمن من الجنب وهجم عليهم من الجنب كما كانوا عازمين هم أيضا على الهجوم من الجنب وأوقع فيهم الفشل وعدم الانتظام والارتباك واقتحم العربات الحربية مع الشدة على الليديين وتمت هزيمتهم وفى هذا الوقت لما عرف عساكر الجناح الايسر مما هو حاصل من الغاغة أن كيرش ابتدأ فى الهجوم من جهة اليمين تقدموا هم أيضا الى العدو وتحرك فى الحال طوابير الجمال الى التقدم على نص أوامر كيرش وما كان خيالة العدو ينتظرون هذه الحركة التى جاءت عليهم بالوبال والخسران لان الخيول لما شمت رائحة الجمال ورأت أصناف هذه الحيوانات المهولة الخلقة التى ما رأتها قط قبل جفلت وقفزت وشبت وتزعزعت ورمت ركابها من فوقها وداستها بأرجلها وبينما كان عساكر خيالة الليديين على هذه الحالة اذ جاءهم فرقة من الخيالة تحت قيادة ارطاغسيس واقتحمت هذه الفرقة عليهم مع الحماس ومنعوهم من التجمع ثانية وانقضت عليهم عربات الحرب المسلحة بالمناجل والهراسات وبددوهم مع القتل والاسر المهول

ولما حصل ذلك أمر كيرش ابراداطيس بالهجوم على مواجهة جيش العدو فانقض على العدو مثل البرق اللامع بجميع عرباته ولما رأى الحذاء الاول لمواجهة جيش العدو أن لا طاقة له على الوقوف أمام حملة مهولة مثل هذه ولت عساكره الادبار وركنوا الى الفرار وتشتتوا اشذر مذر ولما كسرهم ابراداطيس وأوقع فيهم الفرار عاد الى اللواآت المصرية وكانوا مستورين بتروسهم وطوارقهم وكان سيرهم فى حالة مقاربة بعضهم من بعض حتى ان عربات ابراداطيس ما وجدت لها مجالا فى خرق صفوف اللواآت المصرية وحصل عنده ارتباك كثير وصار لا طاقة له على كسرهم فهجم معه الفرسان والمشاة من جيش الفرس وصار منظر محل الواقعة هائلا من كثرة ما على وجه الارض من الخيل والرجال والاسلحة المكسرة ومما حصل من تأثير العربات من القتل والتقطيع الا أن الفرس لما رأوا اشدة مقاومة المصريين ارتدوا على أعقابهم وتغلب المصريون على عربة ابراداطيس وقتلوه مع جماعته ثم تقدم المصريون وهم متقاربون فى هجومهم من بعضهم مستورين بطوارقهم وألزموا مشاة الفرس على القهقرة الى الخلف وطردوهم خلف الحذاء الرابع لهم الى حد آلاياتهم وأبراجهم وفى هذا المحل قابل المصريون هجوما جديدا من نبال وحراب سقطت على رؤسهم من الابراج المتحركة وتقدمت اللواآت الفارسية الموجودة فى خلف الجيش وسيوفهم فى أيديهم صادين بنبالتهم وعساكر المزراق عساكر الفرس من القهقرة وألزموهم بالعود الى الحملة والهجوم

وأما كيرش فانه هذا الوقت لما أوقع بالخيالة والمشاة الذين كانوا على يسار المصريين الهزيمة والفرار لم يفقد أدنى زمن فى تعقيب الفارين الا أنه لما اقتحم القلب مباشرة وجد أن عساكره الفارسية تقهقرت وتحقق فى نفسه أن الوسائل الوحيدة لصد المصريين من تقدمهم الى الامام هو الهجوم عليهم من الخلف ففعل ذلك وهجم من خلفهم وجاءه عساكر الخيالة فى هذا الوقت وهجموا على المصرية بشدة قوية ولما رأى المصريون أنفسهم بانهم صاروا مهجومين من كل جهة حفظوا أنفسهم بشجاعة عجيبة وصار كيرش نفسه على حالة خطرة مهولة فضرب حصانه أحد العساكر بخنجر فوقع تحته وسقط هو فيما بين أعدائه فارتاع الضباط والعساكر من الخطر الذى وقع فيه قائدهم وأسرعوا متكاثرين فى طوابيرهم مقتحمين على خلاصه وأسرع هو أيضا فى أن ركب حصانا آخر وصارت الوقعة أشد وقعا

وأكثر دمامن الاولى وأخيرا استغرب كيرش من شجاعة المصريين واقدامهم على الحروب والوقائع ورأى أنه من الخسارة هلاك مثل هؤلاء فى الحروب فعرض عليهم شروطا توافق شرفهم وكرم أنفسهم اذا أعلموه بتسليمهم له وفى هذا الوقت كان جميع حلفائهم تركوهم فقبل المصريون الشروط وقالوا انهم لا يلزم جبرهم بأى حالة كانت على حمل سلاح ضد قرصوص الذين هم فى خدمته فى هذه المحاربة وصاروا من الآن وصاعدا يخدمون فى الجيش الفارسى من دون فسخ صداقتهم ووثاقتهم وأعطى كيرش للمصريين مدائن على ساحل البحر وميناسكنوها فى مدة حياته وسموها بالمدائن المصرية واستمرت الواقعة الى غروب اليوم الذى كان جاريا فيه الحرب وأسرع قرصوص على قدر امكانه فى القهقرة مع عساكره ليلا الى سرديس عاصمته وتوجهت الامم الاخرى بهذه الحالة كل مسرع فى سيره الى بلاده ومن بعد أن أكل الفاتحون شيأ من الغذاء رتبوا خفرهم وتوجهوا الراحتهم

وفى اليوم التالى سار كيرش على سرديس وما كان يتصور قرصوص أن كيرش يسعى فى محاصرته فى داخل المدينة فمن أجل هذا سار فى قواه لمقابلته للمحاربة معه وذكر بعض المؤرخين أن الليديين كانوا أشجع أمة حربية فى آسيا الصغرى وكانت قوتهم وشجاعتهم الاصلية محصورة فى خيالتهم فأمر كيرش عساكر الجمال بالتقدم والحملة لاجل صد الخيالة من اجراء حركاتهم العسكرية ولما شم الخيل رائحة الجمال فزعت وارتدت على أعقابها فنزل الخيالة من على خيولهم وحاربوا على أقدامهم وكانت الواقعة بين الجيشين مع الشدة والعناد الا أن الليديين أخيرا تقهقروا وانجبروا على الانسحاب فى داخل المدينة فحاصرها كيرش مع السرعة وأمر بهدم أسوارها وصار يستعد بالابراج والسطوح المائلة والسلالم فى الهجوم عليها عنوة وبينما كان كذا فى هذه الاستعدادات اذ حضر عنده ليلا عبد فارسى كان خادم حاكم هذه المدينة وأخبره على سكة يدخل منها المدينة بسهولة وبواسطة هذا العبد دخل كيرش المدينة وقت الفجر من دون أن يحصل له أدنى مقاومة من أهلها وكان أول احتراز أجراه هو حفظ المدينة من السلب والنهب لانه رأى أن الكلدانيين تركوا محلاتهم وانتشروا فى شوارع المدينة ونشر كيرش من عنده منشورا بان أهل المدينة وتبعتها آمنون على أرواحهم وأزواجهم وأولادهم ان أتوه بما عندهم من الذهب والفضة وتم له ذلك وأسر الملك قرصوص وسجنه وسلب ثروته وذخائره ثم أمر كيرش بحرق قرصوص على حسب العوائد الوحشية التى كانت جارية فى هذا الوقت فصار تركيب أخشاب عمود الحرق ووضع الملك المشؤم عليه وبمجرد الشروع فى ايقاد النار تذكر قرصوص محادثته الاولى مع سولون ورأى أن جميع ما كان قاله هذا الفيلسوف الكبير وقع من غير ريب فصاح بصوت عال ثلاث مرات سولون سولون سولون وكان كيرش حاضرا مع ضباطه فى هذا المحفل الجامع فانذهل واستغرب ورغب أن يعرف لماذا قرصوص تلفظ باسم هذا الفيلسوف المشهور فى هذه اللحظة الاخيرة من عمره فقيل له عن السبب الموجب لذلك فاشتغل قلب كيرش وتفكر فى مصائب الدنيا وأحوالها وتقلباتها واعتبر بما حصل لهذا الملك من سوء العاقبة وأمر بانزاله من على عمود الحرق وأغدق عليه بالاكرام طول حياته وعامله بالوقار والاحترام وبهذا كان لسولون الفخر الاكبر فى كونه خلص حياة أحد الملوك بلفظة واحدة وكانت موعظة أخرى لآخرين

وصارت ليديا من هذا الوقت ايالة من المملكة الفارسية وانتهت استقلاليتها فى سنة ٥٥٤ قبل الميلاد والله أعلم

(الكتاب الثامن)

(تاريخ مملكة ميديا)

(الباب الاول)

(من الازمان القديمة الى سقوط المملكة)

وصف ميديا ـ موقعها الجغرافى ـ وصفها الطبيعى ـ الوصف الجبلى ـ الطقس والمناخ ـ المحصولات النباتية ـ الثروة المعدنية ـ الحيوانات ـ أصل الميديين ـ الهيئة الشخصية للامة وعوائدها وصفتها ـ تعدد الزوجات ـ ديانة الميديين ـ الدين الاصلى ـ ظهور دين المجوس وأخذه فى التقدم على التدريج ـ الوصف الحقيقى لدين المجوس ـ عبادة العناصر ـ عدم معلومية التاريخ الاصلى لميديا ـ النظام العشائرى للامة ـ كينيه مؤسس المملكة الميدية ـ حربه على أشوريا ـ هزيمته وقتله ـ صيرورة كيكاوس ملكا ـ غزو أشوريا ـ تغلب الصيطانيين على ميديا ـ مأدبة كيكاوس ـ عود استقلال الميديين ـ تجديد الحرب مع أشوريا ـ المعاهدة مع بابل ـ سقوط المملكة الاشورية ـ أخذ ميديا نصيبا من الممالك الاشورية ـ حروب كيكاوس وتغلباته ـ عقد الصلح مع ليديا ـ صيرورة سياوخش ملكا ـ ضعف المملكة الميدية على التدريج ـ خضوع ميديا لفارس وصيرورتها ايالة منها

ميديا التى كانت ثالث مملكة جليلة من ممالك آسيا القديمة تشغل اقليما واسعا مرتفع الارض علوه المتوسط ٣٠٠٠ قدم عن موازنة سطح البحر المالح وهى واقعة فى جنوب وغرب بحر الخزر بين هذا البحر ومملكة أشوريا وطولها نحو من ٦٠٠ ميل وعرضها نحو ٣٥٠ ميل فتكون مساحة أرضها ١٥٠٠٠٠ ميل مسطح وهو امتداد أكبر بكثير من امتداد مملكة أشوريا وكلديا متحدتين مع بعضهما ومديا واقعة على صخور جبلية صعبة وعرة فى حالة جيدة من الحماية والرصانة فى جميع جهاتها بواسطة حواجز وسدود طبيعية يحدث منها متاعب ومصاعب كبيرة لكل من يأتى مغيرا عليها من الاعداء

ويمكن تقسيم الاراضى الميدية الى كورتين وهما عدة سلاسل جبال شامخة تشكل جهتها الشمالية والغربية ومفازة عالية أو صحن مرتفع ممتد من ذيل الاقليم الجبلى نحو الجنوب الى البحر المحيط الهندى ونحو الشرق الى المملكة الافغانية والقسم الغربى من الاقليم الجبلى المعروف عند القدماء باسم زغرة وعند متأخرى الجغرافيين باسم الكوردستان واللوريستان مشحون بمجارى مياه وغدران عميقة ورؤس صخرية صعبة الارتقاء ويحوى بعضا من المعابر والطرق الضيقة التى يمكن حمايتها بأسهل طريقة وبواسطة هذه الجبال والمعابر الصعبة الوعرة وزيادة شدة مناخها وطقسها مدة تزيد عن نصف السنة حفظت نفسها من جيش محارب لها ومن كل المساعى التى أجريت فى شأن خضوعها الدائمى لمملكة ما وقاومت كل المقاومات ضد مساعى الاشوريين والفرس والاغريق والترك وبقيت الى هذه الايام كدولة عظيمة مستقلة عما جاورها من الممالك كما حصل مقاومتها للجيش الاشوريانى عند ما دخلها

أول مرة وتقهقرمنها والظاهر أن طبيعة أراضيها مستعدة لتكون مغارس لرجال ذوى بأس وشدة وعيثرة للمتغلبين وشوكة فى جنب كل مملكة تشيد نفسها فى هذه الجهة من القارة الكبيرة الشرقية وأما القسم الثانى من الاقليم الجبلى المعروف عند متأخرى الجغرافيين باسم البورز فهو أقل جلالة من اقليم زغرة وليس على حالة جيدة من وجود المياه الكافية لسقى أراضيه وأنهاره صغيرة تجف غالبا فى أثناء فصل الصيف وتصرف مياهها بسرعة فى بحر الخزر أو تنتشر بها الصحارى والهيئة الاصلية لهذه السلسلة الجبلية هى شماخة علوها ومتراسنان وماوند المطلة على طهران بالثلوج وهى أعلى قسم فى آسيا الغربية لسلسلة جبال جالية العظيمة

وأما الصحن المرتفع الممتد من ذيل هذين الاقليمين الجبليين الى جهة الجنوب والى جهة الشرق فهو فى غالب جهته مفازة وصحراء رملية خالية من العمران الا قليلا منتشتين فى جهاته ومع هذا فان الجهات الشمالية والغربية أقل محولة من النواحى الشرقية والجنوبية لانها تسقى على مسافة منها بواسطة مياه الغدران النابعة من جبال زغرة وجبال البورز وتكتسب خصوبتها أيضا من مياه الامطار وبعض أنهار نابعة من جبال زغرة جارية على هذه الناحية عريضة قوية التيار أحدها يسمى قزل أوزون يصب فى بحر الخزر والثانى اسمه زنديرد يروى قسما كبيرا بالقرب من أصفهان والثالث اسمه بندامير يجرى من ناحية برسبوليس (اصطخر) وينتهى الى بقعة من المياه بسعة تسمى بحيرة بختيجان ومن ثم يوجد بين الاقاليم الجبلية والصحراء جهة من الارض ولو انه لا يمكن أن يقال عنها انها خصبة الا أنها مثمرة نوعا ويمكن أن يحصل من أرضها مساعدة لناس يستوطنونها وهذه الارض تشكل القطعة الاصلية للاقليم الذى كان القدماء يسمونه باسم ميديا

وعلى العموم فان ميديا هى اقليم مجدب محل رديئة المنظر كئيبة الهيئة ما عدا مبادى فصل الربيع ومناخها فى الاقليم الجبلى شديد الصقيع ومتلطف فى السهول الا أن درجة الترمومتر قل أن تصل الى ٩٠ تحت الظل ويعتبر الطقس فى عموم الاقليم صحيا وبمساعدة طرق الرى يستحصل من الصحن الكبير على محصولات عظيمة من الحبوب والارز والقمح والشعير والذرة الرفيعة والغليظة والذرة الصفراء والسمسم ويزرع أيضا فيه القطن والدخان والزعفران (القرطم) والراوند والفوه والخشخاش الذى يستخرج منه أجود الافيون والسنامكى ونباتات بستانية فى غاية اللذة والفاكهة يخرج منها البطاطس والكرنب والعدس والفول ونوع من القلقاس والفاصوليا والبسلة واللفت والجزر والاسبانخ والخيار والى آخره

ومعادن ميديا كثيرة ثمينة القيمة وكثيرا ما يوجد فى أراضيها الى الآن أحجار ظريفة مختلفة اللون والشكل وأشهرها حجر الرخام التبريزى الجميل الصورة وكذا يستخرج منها الى الآن الحديد والنحاس والفولاذ البلدى وكان يوجد فى جبالها فى الازمان القديمة عروق من الذهب والفضة وكذا يوجد فيها الكبريت والشب والجبس فى محال مختلفة من المملكة ويوجد فيها صنف الملح بوفرة

والميديون هم من نسل أريان وينسبون الى هذا الجنس كانتساب الفرس اليه لانهم لا يختلفون عنهم فى الهيئة الا قليلا وهم على العموم أهل مروءة وشرف وعلو همة حسان الوجوه ذو وقوة ونشاط لهم ذقون كثيفة وشوارب طويلة وشعور طويلة مجعدة على هيئة حلقات مجسمة خلف قفاهم ونساؤهم مشهورات بحسن القد والجمال ويلوح على هيئة الميديين الشجاعة والبسالة ومن قبل أن

تشربهم

تشرّبهم السلطنة الفارسية كانوا معروفين من بعد العساكر الفارسية بالثبات والشجاعة فى الحروب وكانوا ذوى عزم شديد فيها وكانت غلباتهم مصحوبة بالفواحش القبيحة المقرونة بالطمع والذم وقبح الخصال حالما يتمكنون من نصرتهم وكانت عوائد الميديين فى الابتداء البساطة والرجولية الا أن نجاحهم فى الحروب فتح لهم باب طريق الرفاهية واللذة فى العيشة حتى غرقوا فيها وكان تغلبهم على أشوريا عاقبته مشؤمة على هؤلاء الاشداء الحربيين فانهم أخذوا عنهم عوائد الرفاهية والتلذذ بالمعيشة ومن ثم أعقبها انحطاطهم وخستهم على وجه العجلة وكانت ملابسهم مكلفة ذات زخرفة ونقش وزينة فكان يرى فيها محبتهم للتظاهر وكان الميديون فى الاصل أمة خيالة ماهرين فى استعمال ضرب النشاب وكانوا هم نبالة الخيالة فى وقت الحرب وكانوا يستعملون أيضا السيوف والمزارق الا أنهم اكتسبوا فى ضرب النبال على ظهور الخيل الدرجة القاصية

وكان تعدد الزوجات عندهم مرعى الاجراء عند الملك وطوائف الاغنياء من الناس وما كان عندهم كد ولا سعى فى تيسر الحصول على القراءة والكتابة الا قليلا وتركوا الصنائع والحرف

ولقد حصل التغيير الكثير فى ديانة الميديين وكانت فى هيئتها القديمة مشتملة على عقيدة مدبر كبير خبير هو أهورومزدان وهو الخالق الحافظ مالك الملك مقره أمام روح مكون واحد منبع للخيرات والطيبات وكان هذا هو المقصد الاصلى من اعتقاد العقيدة والتعبد على مقتضاها وان أهورومزدان هو خالق الحياة أرضية كانت أو سماوية وهو الذى صنع الاجرام السماوية والارض والماء والشجر وجميع المخلوقات الطيبة الحقة وهو محسن مقدس نقى حق الله المقدس الاقدس خلاصة الحق أب الحق كله أكبر خالق سيد الطاهرين والمقدسين متحوز على درجات السعادة والشكر والثناء الجميل والصحة والعافية الغنية والفضيلة والحكمة والازلية ومنه وصلت جميع الخيرات والطيبات الى الانسان وانه لا يفيض على العباد والمؤمنين النعم الدنيوية والعطايا الجزيلة فقط بل ويمنحهم الروح الطيبة والحق والخشوع والعقل الذكى والسعادة الابدية وكما انه يكافئ على الطيب فانه يعاقب على الردىء ولو أن ذلك لم يحصل منه الا نادرا ومن هنا يظهر أن أهورومزدان أو اهورامزدا أو أورمزد قريب جدا من اعتقاد العبرانيين فى وجود الاله الحق زيادة عن أى مذهب من المذاهب الوثنية وكانت عبادة الميديين خالية من أى تصور أو احساس من احساسات الوثنيين وان اله هذه الديانة لا يرى بل موجود فى عالم غير مرئى فى المستقبل ليس له صورة ولا تمثال يفسد عبادته وينجسها وان تحت سلطة هذا الخالق الاكبر عدة ملائكة ممتازة بقليل عن صفات الالوهية أو الاله وهؤلاء يفعلون ما يأمرهم به أورمزد وهم ملائكة الوحى بينه وبين الانسان ولا يوجد فى العقيدة القديمة الميدية الاقليل لا يختص بالشر أو الانبا آت المضادة للانبا آت الطيبة فى عقيدة زرادشت وبهذه الحالة كانت الديانة الميدية والديانة الفارسية واحدة ثم من بعد مضى مدة من الزمن حصل تغيير فى الديانة وأضيف الى الدين القديم عقيدة فى مادتين غير مختلقتين أو مخلوقتين ومستقلتين احداهما عقيدة الخير والاخرى عقيدة الشر وهما ضدان أصليان محصورتين فى التثنى وهاتان المادتان فى حرب مستمر مع بعضهما وقال بعض المؤرخين انه كان كلما امر الزمن ازدادت عقيدة التثنى من المذهب الزرادشتى وحصل من اللسان تأثير شديد مضر بالفكر وصار التشتت والانفصال فى الدنيا القديمة بين الناس وكثرت الاختلافات فى مسئلة مادة الخير والشر ولما نمى العقل الايرانى وكان مبدأ توجهه هو التأمل فى الدنيا ليعرف حقيقة نفس الامر

فلما دخل فى هذا الفجاج الواسع التزم على السير الى الامام لاجل كشف حقيقة أصل الخصام والنزاع الواقع بين بنى الانسان والاسباب المتصف بها هذا الخصام فظهر له أن الشر معدود من تصور شخص شرير والاستمرار فى منازعات متمادية من دون حصول أدنى فائدة لجهة وكل ما تصوره العقل الايرانى تمسكوا به فى الدنيا وأذاعوه فيما بينهم حتى ظهر لهم المساواة بين الشخص الشرير والشخص المعتقد أنه أصل للخير ومن هذا انبسق التثنى

وتعتقد الايرانيون فى مادتين متساويتين فى الازلية وفى الندية وهما الخير والشر ويوجد بينهما من الازل ضدية مستمرة وخصام لا ينقطع وانه متولد من النزاع الواقع بينهما على الدوام غضب وحقد فى جميع الزمن المستقبل فمادة الخير مرسولة من عند أهورومزده ومادة الشر مرسولة من عند انجرومينوس وان ما يقال له خير فهو شغل أهورومزده وكل ما يقال له شر مرسول من عند انجرومينوس أى انه يتولد منه كل شئ يحصل منه الضرر والاذى فيتولد من انجرومينوس الحرب والمرض والقحط والفقر والخبث ومعاناة جميع الآلام والمصائب والمضار التى تدخل على المواد التى يفعلها الخير من أجل حصول السعادة وأنهم يراعون أن الدنيا ميدان حرب بين هاتين الدولتين أو القوتين وكل جماعة من القوى المتنازعة تعتقد أن عندها مجلسها الشورى المركب على الدوام من ستة أعضاء فأما مجلس أهورومزده الشورى فانه مركب من الاولياء الطاهرين الازليين وأنه يوجد عند مادتى الخير والشر جنود وعساكر مختصة بهما وان أهورومزدان خلق ألوفا من الملائكة الشاكرين له المباركين يفعلون ما يأمرهم به ويحاربون عساكر الشر وأما انجرومينوس فانه دعا الى حالة الوجود ألوفا من الاشرار الروحية ليساعدوه على هجومه على المباركين الشاكرين

ويعتقد الميديون فى أزلية الروح ويقولون ان الارواح الطيبة والخبيثة تمشى بعد الموت فى طول طريق بين حتى تصل الى قنطرة التجمع ومن هذه القنطرة يخرج طريق ضيق يوصل الى الجنة أو الى مساكن الابرار أما الارواح الخبيثة فتسقط من فوق القنطرة الى بركة أسفل منها وفى هذه البركة تتلقى العذاب ويحتم عليها المقام أبديا فى مملكة انجرومينوس وتتغذى فيها من طعام الاثيم أو طعام الغسلين وأما الارواح الطيبة فانها تساعدت فى عبورها من على القنطرة بواسطة الملك صيروش وهو يوصلها الى مساكن الابرار وحضور أهورمزدان

ولما ابتدأت الامة الايرانية فى انتشار أنفسها خلف أراضيها الواقعة فى شرق بحر الخزر وجنوبه وصاروا ملاصقين لقبائل الصيطانيين أو ياجوج وماجوج المختلفة القاطنة فى الاقاليم الجبلية من أرمينية وأذربيجان والكوردبستان واللوريستان كانت ديانة هؤلاء الامم منحصرة فى العقائد المجوسية التى هى عبارة عن عبادة العناصر المعروفة بالنار والهواء والتراب والماء وهى المواد الاصلية النافعة للنوع البشرى وما كان للمجوس آلهة مشخصة فنبذوا من طبعهم الهياكل والمزارات والصور والتماثيل ومالوا على تقوية الامة فى اعتقادهم ان الآلهة موجودة فى حالة طبيعية مع الانسان بمعنى ان الآلهة حائزة الشخصية والحياة وهم أرباب بصارة وتدبير وخبرة وان عبادتهم عبادة طبيعية يجرى تأديتها بكامل ما يختص بها من جميع الاركان وما كان المجوس يهيئون الآلهة بصور مختلفة من الاحجار مثل الجريق وما كانوا يشخصون المؤثرات الطبيعية مثل الهنود بل كان خشوعهم لنفس أشياء مادية عرضية مؤثرة مثل النار ومن ثم كانت النار عندهم هى الداهية الكبرى وأعظم خداع عندهم وهى

مادة

مادة أثيرية لها التأثير الاكبر وجهوا اليها غايات التفاتاتهم وانه فى محاريبهم النارية اللهبية المقدسة المعتقدين بانها ولعت من السماء جارى المحافظة على قيادتها من دون انقطاع من يوم الى يوم ومن سنة الى سنة ومن عصر الى عصر بواسطة شرذمة من قسس وظائفهم الخاصة بهم النظر فى عدم انطفاء اللهبة المقدسة مطلقا و يتنجس المحراب وتنتهك حرمته اذا حصل نفخ اللهبة بواسطة نفس الانسان وان مثل هذا يعد من أكبر الجرائم ورأس الكبائر و يعد أيضا حرق الجيف والرمم والعظام من أقبح الذنوب وعند تقريب القربان للنار كان الذى يجرى حرقه فيها قطعة من الدهن أو الشحم فقط وكان مثل النار فى الاحترام الماء فكانوا يقربون القربان للانهر والبرك والعيون بأن يجلبوا الذبائح ويذبحونها بالقرب منها ويحترزون فى أثناء الذبح من عدم سقوط قطرة من الدم فى الماء لئلا تنجسها وتفسدها وما كانوا يسمحون فى رمى أى شئ من النجاسات فى الانهر وأن لا يجوز قانونا الاى شخص غسل يده أو استحمامه فى أى نهر من الانهر وكانوا يظهرون احترامهم للارض بتقريبهم القربان اليها ويحرمون فعل العادة الجارية بين الامم من دفن أجسام الموتى فيها

وكان الدين المجوسى شديد السحر والكهانة أى الرقيا فكان العباد محتاجين فى جميع حالاتهم وقت العبادة من أجل قبول عبادتهم الى قسيس يكون واسطة بينهم و بين الاله وكانت وظائف المجوس وراثية على التعاقب فى الوظيفة وكانت ملابسهم مكلفة مزخرفة واهم أعلى درجات المقام والرفعة وكانت أسرارهم مكتومة يدعون خوارق العادات وحصول المعجزات يفسرون الفال والطيرة و يعبرون الرؤيا والاحلام و ينبؤن بالحوادث المستقبلة وكانت هذه الادعاآت المعضدة بواسطة أسرارهم المخفية ما كانت مرعية التصديق عند العوام فقط بل كانت محترمة معتبرة مرعية العمل عند أمرائهم وملوكهم ومن المحقق أن الاتحاد الاولى بين مذهب زرداشت الذى ذكرناه و بين المذهب المجوسى كان فى ميديا ومن عهد هذا الاتحاد صارت طائفة القسس والمجوس محصورة فى واحدة من الست عشائر الميدية وقال رولنسن الذى أخذنا من كلامه على الديانة الميدية هذا المختصر لا حاجة فى أن يتصور أن الميديين ارتدوا عن عبادة أو رمزد أو سلموا فى دينهم التثنى الاأن تأثير العقائد المجوسية وعوائدها التى هى العبادة العنصرية والكهانة والرقيا بواسطة العكاكيز المقدسة وتعبير الاحلام والسحر والرقيات والتعوذات عند محاريب النيران والذبائح التى تأكلها المجوس الموظفة على النار يظهر أنها كانت متسلطنة عندهم فمن ثم ارتفع الدين الجديد على الدين القديم واضمحل الدين القديم بواسطة قوة حصلت من زرداشت مبتدع هذا الدين وتغلب الدين المجوسى على العقيدة الاريانية الاصلية و بتوالى الزمن ومروره أخذ مذهب المجوس فى الارتقاء شيأ فشيأ حتى صار هو الدين الحقيقى للامة ولو أن الدين المجوسى كان أقل علوا وأقل تهذيبا من مذهب زرداشت القديم الا أنه يلزمنا أن نقول انه استحوذ على درجة صعود حقيقية حتى آل أمره الى أن يكون هو الموافق والصالح لان يكون دين مملكة باهرة شاسعة مثل مملكة فارس ومن محاريب النيران المكنونة فوق رؤس الجبال وشهرتها فى وقودها من الزمن القديم واسم دوام قيادة النار المعتقد دبانه صار ولعها من السماء والعبادة فى الهواء المطلق تحت قبة زرقاء سماوية وهيئة العساكر المجوسية الطويلة فى ملابسهم البيض مع طواقيهم العجيبة الشكل وصولجاناتهم وحرابهم وصلاتهم الدائمة وكثرة تقريب القربان وطول عمل الرقيات والكهانة والسحر المتصور عند الناس أنها مؤثرات معجزات من طائفة القسس

كل هذا حصل منه تأثير فى الحال على العين والعقل وكان هو السبب الاكبر فى العقيدة الميدية ووجودها وكانت عقائدزرداشت قوية جدا حتى انها كانت لا تتحد بالنسبة لشدتها مع الرفاهية والعزة الشرقية أولان تكسب قوة ما الحكومة مؤسسة على مواد اعتيادية اسلطنة مطلقة استبدادية آسوية فمن ثم نشر الدين المجوسى حكومة دينية لاجل معاضدة السلطنة وتحتها وأضاف العزة والابهة للملوك وحال ما كان هذا الدين متغلبا على طوائف الرعية بواسطة قسسه الذين استحوذوا على العقول بأنهم هم أرباب المعجزات ولهم الحق فى التوسط بين السماء والانسان نشأت طريقة عبادة انتشر تأثيرها وزادت فى أبهتها وتولد منها ميدان واسع يجب الانسان فى الكهانة والعقائد المقدسة وتفسير الفال والطيرة وتعبير الاحلام وانسر منها أرباب الدنيا الذين دخلوا فيها وأباحت لهم الاعمال التى كانوا لا يمكنهم عملها قبل ووضعت موادا وأصولا عديدة تختص بالشرف والدقة وعدم البغض والحقد للديانة الوثنية القديمة التى كان الاريانيون يجدونها فى ذلك الوقت بل ازدادت شوكتهم فى اكثار الصور والتماثيل الذين كانوا يقيمونها وعلى الدوام يعبدونها ولهذا امتزجت بغاية السهولة مع العقيدة القديمة للامة ولم تبد أدنى مشروع أوغرض يجحف بمنفعة ما وكانوا ينشرون قواعدها وأصولها بطريقة حلم وعدم جور عندما كان حاصلا الشروع فى مباديها ولما جاء الوقت الموافق لحصول الشدة والتدقيق على السير فيها والاعتقاد بعقائدها ارتفع برقع الخشوع والخضوع وكانت هذه آخر حالة الدين الميدى الذى كانت متمسكة به الامة الميدية حال ما كانت ناشرة ألوية سلطنتها على الدنيا وكانت أمة مندمجة فى بعضها وعلى غاية من حسن انتظام السلطنة

ولا نعرف من التاريخ القديم الاصلى للميديين الاقليلا والظاهر أنهم كانوا قبيلة جليلة فى الازمان القديمة وزعم أهل التوراة أن أصلهم عشيرة من العشائر البابلية وفى نحو سنة ٨٣٠ قبل الميلاد أغار الاشوريون على ميديا مغتنة وهى الارض الاصلية للميديين ومن عهد هذه الغارة عرف أصل مبدئهم وذلك أنهم كانوا منقسمين الى عدة قبائل محكومة برؤساء صغيرة ولو أن هذه القبائل حصل منها مقاومة ضعيفة لغارات صلمنصار الثانى عليهم الا أنه ما خضع قسم من أراضيها فى الحقيقة الى أن أغار عليها سرجون فى نحو سنة ٧١٠ قبل الميلاد وتغلب على قسم منها وشيد فيه مدائن استوطنها أسراء بنى اسرائيل وشرع خلفا سرجون فى عمل بعض تغلبات وفتوحات أخرى فى ميديا وفى آخر الامر فى سنة ٦٧١ قبل الميلاد أغار عليها ايصرحدون وتغلب على أقسامها القاصية ووجدها لم تزل مقسومة الى عدة رؤساء صغيرة

وفى نحو سنة ٦٦٠ قبل الميلاد حصل فى ميديا تغيير على حين غفلة فى نظاماتها وحكوماتها نشأ من زيادة كبيرة حصلت فى سكان الاراضى تولدت من مهاجرى الاريانيين من الاقليم لجبال زعرة (الكرد) تحت قيادة كينية (فروعرطيس) أبى كيكاوس فلما توطن هذا القائد مع أتباعه فى ميديا وتحقق له الضرر الحاصل من تجزئة الحكومات والاحكام فى مثل هذه الممالك والرياسات الصغيرة عكف نفسه على شغل ترتيب وتنظيم مملكة مركزية قوية صالحة لمقاومة الاشوريين فنجح فى مشروعه هذا حتى انه فى نحو سنة ٦٣٤ قبل الميلاد وجه عزمه على الغارة على أشوريا وكانت محكومة فى هذا الوقت بالشيخ الكهل أشوربانيبال وتقابل الجيش الميدى مع الجيش الاشورى على المداخل من أراضيها وانتشب بين الجيشين وقعة مهولة فى محل يقال له اديابينى انهزم فيها الجيش الميدى بالكلية وقتل كينية مذبوحا

بين

بين عساكره

وخلف كيكاوس أباه فى ملك ميديا وعكف فى السنى الاولى من سلطنته على ترتيب طريقة عسكرية للملكة فجند جيشا كثيفا قويا على غاية من جودة التطقيم والتسليح مركبا من رعاياه الفارسية والميديين وفى سنة ٦٣٢ قبل الميلاد جدد الحرب بالغارة على أشوريا مرة أخرى فهزم الجيش الاشوريانى ميدان الحرب ووضع الحصار على مدينة نينوى وشدّد عليها فى الحصار وضايقها حتى انها كادت تسلم له فى هذه السنة لولا أن صار طلبه من مملكته أن يسرع بالعود اليها المقاومة غارة الصيطيانيين وكانوا انسكبوا على مملكته كالجراد المنتشر من الجهة الشمالية فقابل هذه الامم المتبربرة فى واقعة كبيرة حصلت مباشرة حال عوده الى مملكته فهزمه الصيطيانيون والتزم أن يعقد معهم صلحا واستمر فى مملكته معترفا بسيادتهم واتفق معهم على أن يدفع لهم خراجا سنويا ومن ثم لم تكبد ميديا مضار الآلام والاكدار التى تولدت من خراب الصيطيانيين فى الممالك الاخرى الأن وجود هذه الامة المتبربرة وحكمها كان كدرا وغما على الميديين الذين هم بالطبع أهل شجاعة وعلو فى الجنس

(تنبيه) - اعلم ان الصيطيانيين هم يأجوج ومأجوج المذكورون فى القرآن الشريف كانوا مستوطنين جهات بلاد التتار وفى شمال بحر الخزر وفى شمال قوقاس الجراكسة وعلى سواحل البحر الاسود الى نهر الطونة وكل هذه الجهات كان يطلق عليها اسم الامة الصيطيانية أو التتارية وهؤلاء هم يأجوج ومأجوج الذين كانوا مفسدين فى الارض حسب نص القرآن الشريف

ومن توالى الازمان وضعف قوة المتغلبين بواسطة انتشارهم فى وسيع أراضى آسيا الغربية ابتدأ الميديون فى أن يشتتوا حيلهم ويشربوا نفسهم وفى آخر الامر لما أحس كيكاوس بمجيء الوقت الذى يستقل فيه بلاده عزم على هلاك قواد الصيطيين بخديعة يجريها حسب موافقة الاحوال فدعا الجم الغفير من رؤساء الصيطيين الى ضيافة أو مأدبة صنعها لهم وشحنها بالنبيذ والعرقى ولما شربوا وسكروا وخمدت قواهم من كثرة السكر أمر بقتلهم جميعا فكانت هذه اشارة عامة لقيام الامة الميدية فقام الامة الميدية على المتغلبين عليهم بعنف وشدة غيظ واشعلت نار الحروب بينهم عدة سنين كانت نتيجتها طرد الصيطيين من ميديا وما جاورها من الممالك فعبروا فى هربهم جبال القوقاس حتى دخلوا أراضيهم وبلادهم

ولما خلص كيكاوس مملكته عهد لنفسه شغل عود شوكتها وفلاحها اليها بعد أن كانا سلبا منها بواسطة الامة الصيطيانية فنجح فى عزمه هذا وفى قليل من السنين وجد نفسه فى حالة كافية بها يجدد الحرب الذى كان شارعا فيه قبل على عدوته القديمة أشوريا وكانت آلت حالتها الى الهزال والضعف الكلى بسبب ما حل بها من الدمار والخراب والخسارات من أيدى المتبربرين واجتهد كيكاوس وسعى فى هياج وتحريض السوسيين والكلدانيين عن نكث طاعتهم لاشوريا والانضمام اليه فاستحوذ على هذا الطلب واتفق على أن السوسيين يهجمون على أشوريا من جهتها الجنوبية حال ما يهجم هو على الجيش الميدى من الجهة الشرقية فلما بلغ صرقوس ملك أشوريا تصميم الحرب بهذا الرأى أرسل نابو بولصار قائده الى بابل لاجل مقابلة الخطر الذى يحصل فى تلك الجهة وأخذ هو فى الاستعداد بنفسه لمقابلة الميديين فقيل ان نابو بولصار اشتغل بجلب المنفعة لنفسه والغدر بمليكه وأرسل رسولا الى كيكاوس يقدم له محالفة وصداقة لميديا ان رضى كيكاوس بان يضمن ويتكفل له باستقلال

مملكة بابل ويسمح بزواج ابنته اميطيس من بختنصر ابنه نابو بولصار وأن تكون زوجة له فقبل كيكاوس هذه التقدمة وزوج البرنس الشاب بختنصر بابنته وأضاف نابو بولصار قواه الى قوى الميديين ووضعوا الحصار على مدينة نينوى وتغلبوا عليها ودمروها واقتسم المتغلبون المملكة الاشورية بينهم وقد ذكرنا فيما تقدم الحصة التى خصت نابو بولصار وأما الحصة التى خصت كيكاوس فهى أشوريا الاصلية والايالات التابعة لها الموجودة فى شمالها وفى شمالها الغربى ومن ثم صارت ميديا مملكة شاسعة مثل مملكة بابل وصارتا هاتان الدولتان اللتان أقيمتا على أطلال المملكة الاشورية أصدقاء بين بعضهما وتعاهد ملكاهما مع بعضهما بصلة المصاهرة كما تحالفا بالمعاهدات الرسمية ورضى كل واحد منهما بما خصه من الايالات والممالك واستعد كل منهما لمساعدة الآخر ومعاضدته فى الاوقات الشديدة مدة حياتهما

ومن بعد التغلب على نينوى تمتعت بابل ببضع سنين من الراحة وأما ميديا فانها اشتبكت فى الحال فى حروب مع الممالك الموجودة فى آسيا الغربية وكانت هذه الممالك خراجية لاشوريا فكذلك فى أن جعلت سقوط المملكة الاشورية سببا فى استقلالية أنفسها فتغلب كيكاوس على كامل هذا القسم من آسيا من ابتداء بحر الخزر الى نهر الحاليس وأرمينية وقبدوقيا اللتين ما خضعتا مطلقا لاشوريا دخلا فى هذه التغلبات وتولد من هذه الحروب اشتباك كيكاوس مع ليديا فى حرب وكانت ليديا اجتهدت وسعت فى استرداد ما تغلب عليه وكان كيكاوس متساعدا فى حرب ليديا بالبابليين تارة تحت قيادة بختنصر وتارة تحت قيادة نابو بولصار نفسه ومن بعد مضى خمس سنوات بينما كان الجيشان على شرف تعبية الحرب اذ حصل كسوف للشمس أراع الجيشين وأزعجهما فانتهز نابو بولصار الفرصة وقت حصول هذه الحادثة المزعجة وتوسط بين كيكاوس والياطيس ملك ليديا وكانت النتيجة ترتيب عقد مسالمة بين الملكين تقرر فيها أن نهر الحاليس هو الحد الفاصل بين هاتين المملكتين وحلف الملكان أيمان الصدق والوداد وسمروا هذه الايمان بزواج سياوخش (اسطياجيس) بن كيكاوس بعرينيس بنت الياطيس وآلت نتيجة هذه المداولات الى صلح واستتباب راحة امتد فى آسيا الغربية نحوا من خمسين سنة واستمرت الثلاث ممالك ميديا وليديا وبابل أصدقاء مع بعضها فى أثناء هذه المدة يفصلون ما يقع بينهم من مواد الاحوال بغير منازعة ولا مخاصمة وقضى كيكاوس ما بقى من القرن فى تنظيم حكومة ممالكه الواسعة واستتباب الامن والراحة فيها

ثم ان كيكاوس خلفه ابنه سياوخش (اسطياجيس) فى سنة ٥٩٣ قبل الميلاد فتسلطن خمسا وثلاثين سنة وهذه المدة وان كانت مدة سلمية وفيها بعض من النجاح والفلاح الا أنها كانت تاريخ مدة ضعف تولد فى الميديين من الرفاهية والتمتع بلذة المعيشة التى اكتسبوها من عهد سقوط المملكة الاشورية وجعلوا ذلك من عوائدهم وكانت سراية الملك فى مدينة همدان من أجل السرايات المفتخرة فى الشرق وكان سياوخش مغرما بسروره ومحبا للذاته فى حريمه زيادة عن أخطار ميادين حروبه فكان يقضى أوقاته فى الصيد والقنص فى جنة من أو رمان بالقرب من العاصمة وخدمه وحواشيه متوشحون بالملابس الناعمة وأهملوا عوائدهم القديمة الحربية وصاروا ضعفاء جبناء مخنثين كما صار لطائفة قسس المجوس الصولة الكبرى والنفوذ الاعظم فى السلطنة الميدية فكانت هذه حالة الاعمال عندما ثار الفرس فى ثورتهم وسنذكر الوقائع والحوادث التى انتشبت من هذه الثورة فى تاريخ المملكة

الفارسية

الفارسية ولوأن الميديين كانوا في مبدا أمرهم على فوز ونجاح الاأنه من تسلطن الضعف عليهم من اعتكافهم على الرفاهية ما كان لهم طاقة في آخرأمرهم على مقاومة أشداء الجبليين وانتهى الحرب بتمام سقوط المملكة الميدية في سنة ٥٥٨ قبل الميلاد وصارت ميديا أول الايالات الفارسية أهمية وجلالة واستمرت على هذا الموقع مدة طويلة من الزمن

﴿الكتاب التاسع﴾

﴿تاريخ مملكة فارس﴾

﴿الباب الاول﴾

﴿من ابتداء الازمان القديمة الى موت كيرش الاكبر أى كيخسرو﴾

وصف فارس ــ موقعها الجغرافى ــ الاقليم الجبلى ــ الطقس أو المناخ ــ المحصولات ــ المعادن عوائد الامة الفارسية ــ خضوعهم لملوكهم ــ ديانة الفرس ــ تأسيس السلطنة الفارسية ــ صيرورة فارس خراجية لكلديا ــ اقامة كيرش فى الديوان الميدى ــ هربه ــ اقامته بيرق العصيان ــ سقوط المملكة الميدية ــ تشييد المملكة الفارسية ــ تغلباته وفتوحاته ــ فتحه بابل ــ اختيار التمدن الميدى ــ موت كيرش الاكبر

تطابق فارس الاصلية بوجه التقريب الكلى الاقليم الفارسى الايرانى الاخير وهى واقعة على الخليج المسمى باسمها وتمتد من نهر التاب الى النقطة التى يتصل فيها الخليج الفارسى بالبحر المحيط الهندى ومحدودة من الجهة الشمالية بميديا مغنه ومن الجهة الشرقية بميسيا ومن الجهة الجنوبية بالبحر ومن الجهة الغربية بالسوس وطولها نحو ٤٥٠ ميلا وعرضها المتوسط ٢٥٠ ميلا فتكون مساحتها تنوف عن ١٠٠٠٠٠ ميل مسطح

وكانت فارس مقسومة الى كورتين ممتازتين سماهما متأخروا الجغرافيين باسم الكورة الحارة والكورة الباردة فاما الكورة الحارة فانها تشغل نحو ثمن أرض المملكة وهى عبارة عن جهة سهل رملى مشحون بكثير من المواد الملحية ممتد بين الجبال والبحر فى جميع طول المملكة وأرضه فقيرة ليس فيها ما يكفيها من مياه الرى وأما الباقى من المملكة فانه داخل فى الكورة الباردة وهى كورة جبلية مركبة على التوالى من جبال وسهول وأودية ضيقة مختلطة ببعضها فى صور أشكال غريبة حتى انه لحد الآن لم تتم لها خريطة مضبوطة ومنظرها العام منظر كآبة وخولة لكنها تشتمل على بعض نواح ذات قيمة فى الجمال والخصوبة والمياه الواردة للرى قليلة جدا ويندر وصول أى نهر من النهيرات الى البحر ويوجد فى أرض فارس كثير من البرك والمستنقعات بعضها ملحية تصب فيها مياه معظم الانهار والهيئة المعتبرة فى عموم المملكة محصورة فى حلوق وخيران مهولة خارقة للسلسلة الجبلية الاصلية ومن وجود هذه الحلوق يستحيل انشاء سكك أو طرق تعبر لهذه الحواجز المهولة المخيفة ومياه الصخور المنحدرة الواقعة بالتوازى على كل من جهتى الانهار الجبلية تسيل من هذه الصخور بخرير مرتفع

وشلالات ومهابط مزعجة وفى طول هذه الصخور القليلة أو العديمة الانتظام موجود سكك ومدقات على هيئة تعاريج قاطعة للانهر من جهة الى أخرى على قناطر كل قنطرة مركبة من قبو واحد أو عقد واحد منشأة على خروق عميقة جدا أسفل منها المياه وقت فيضانها بمئات من الاقدام والسكك والمدقات مقطوعة فى معظم طولها بأرباب الصناعة ويبتدئ الطريق من النهر أحيانا ثم يأخذ فى العلو حتى يصل الى علو ٢٠٠٠ قدم من مبدء انخفاض النهر أو الطريق وفى أثناء العبور من الخليج الفارسى الى أعلى الصحن الايرانى لا يوجد أقل من ثلاثة أو أربعة من هذه الكاولات أو معابر الحلوق الغريبة يلزم عبورها على التعاقب ومن ثم تكون المملكة محفوظة من جهة حرف الصحن من أنواع الهجوم عليها من هذه الجهة كما أنها محفوظة من الجهة الشمالية والشرقية بصحار واسعة ومن الجهة الجنوبية بحاجز جبلى فى غاية من الرصانة والصعوبة

والطقس فى بلاد فارس الاصلية على حالتين فأما فى الجهات الواطئة فهو حار موهن للجسم وأما فى الكورة الجبلية فهو بارد فى الشتاء ولطيف فى المدة الباقية من السنة والمحصولات النباتية ليست كثيرة ولا مشهورة ويشتغل من الاراضى كميات ومقادير متوسطة من ثمر البلح ونوع حنطة فى قليل من الجهات وينبت فيها كروم العنب وأجناس مختلفة من أشجار الاثمار ويوجد فى الكورة الجبلية كثير من الكلأ والمراعى وينبت فيها سائر أصناف العنب وتكثر فيها جميع الاثمار ما عدا الزيتون والصحيح يلزم أن يكون الخوخ بذرة فارسية أصلية وكذلك الليمون ومن الغلال القمح والشعير والذرة والارز محصولاتها الاصلية وفى الازمان الاخيرة تزرع فيها القمح الهندى وكان يجلب اليها من أمريكا فنجحت زراعته فيها جيدا وكذا البسلة والحمص والسمسم والفوه والحناء والقطن كانت تزرع فيها من الزمن القديم

وأما الحيوانات الوحشية للمملكة فهى السبع والدب والحمار الوحشى والتيتل والغزال والوعل أو التيس الجبلى والخنزير البرى والضب وابن آوى والذئب والثعلب والارنب والقنفذ وكلب البحر واليربوع والنمس والمرموث وأما الحيوانات الاهلية فهى عين حيوانات ميديا ولا لزوم هنا لذكرها ومعادن فارس الاصلية عديدة وثمينة وهى محصورة فى الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص الاحمر والرهج الاصفر والقار والملح والنفط والكبريت والرصاص المعتاد ويكثر فى أرضها الكبريت والملح بوفرة ويوجد فيها أبنية ظريفة مبنية من الاحجار

والفرس جنس ايرانى متولد من الفرع الذى تولد منه جيرانهم الميديون وفى الحقيقة فان الملتين ملة واحدة وللفرس حركة خفيفة سريعة وادراك حاد وتطرز زائد أكثر من غالب الامم الشرقية وهم أهل شجاعة وبأس مستحوذون على كثير من خصال الفضائل وكانوا مشهورين فى الازمان القديمة بقولهم الحق ومراعاتهم له وكانوا يلقبون بالامة ذات العقل الحاد وحازوا الجراءة والجسارة والصدام والضرب والطعن حتى صاروا أمة لا تطاق فى أثناء الوقائع وما كان لامة من طاقة على الثبات أمامهم حتى قابلوا الجريق واكتسبوا منهم علو درجة الطقم الحربى والدخول فى نظام العساكر الهلنيقية وقال هردوط ان معلمى شبان الفرس كان يطلب منهم تعليم الشبان ثلاثة أشياء أصلية وهى طريقة ركوب الخيل وضرب النشاب وقول الحق وكان الفرس مشهورين فى جميع العصور بالنشاط وعنفوان الجنسية وبهاتين الصفتين صاروا فوق الامم البطيئة الحركة من الممالك المجاورة لهم وكانوا أمة حربية ومن جملة

صفاتهم

صفاتهم الغريبة خضوعهم لمليكهم الذى يقودهم الى الخضوع الاستبدادى حسب رغبته و يقتحمون المهالك والمخاوف من أجل خاطره وتولد من هذا الخضوع الزائد الحاصل من جهة هذه الامة تحجير طرق المظالم الشديدة لسير الملك والملوك وفى آخر الامر انعصر حب احترام الامة وفسدت جميعها وكانت الجيوش الفارسية مركبة من مشاة وخيالة وكانت العربات الحربية غير مرعية عندهم وقليلة الاستعمال وكان القوس والمزراق آلتهم الحربية الاصلية وكانت القوس بسعات مختلفة تستعملها عساكر الفرس بأعظم تأثير وكان المشاة يحملون التروس والطوارق والخيالة من غيرها وما كان الفرس مثل الميديين فانهم كانوا يعطون الراحة وقت سؤالها ويعاملون أسراءهم فى الحرب بالشفقة والرحمة محبين للرفاهية والظهور والتعالى وكان الديوان الفارسى فى مدة بناعة المملكة أحد الدواوين الجليلة المعروفة عند التاريخ

وأما ديانة الفرس فان أصل عقائدهم كانت محصورة فى عقيدة وجود اله واحد قوى طيب جواد رحيم عدل نوّابه الكواكب مغدق بالمحبة على النوع البشرى رحمن وعطوف على المخلوقات البهيمية وكانت عقائدهم عين العقائد الميدية أى أنهم يعتقدون فى التثنى المحصور فى عبادة أهورومزدان (الملك الاكبر) والاعتراف بعقيدة الشر المحصورة فى أنجرومينوس أواهريمان والاعتقاد لما قاله زرداشت فان هذا وقت ظهوره نقح الدين القديم وضم اليه فرائض وسنناذ كرانها أنزلت عليه من عند أورمزد وصنف كتبا مقدسة كانت أصلا لشريعته الديانية أو قانونه الدينى

ومن هذه الكتب زندوست فانه يشتمل على جميع العقائد الصحيحة الحقة عند الفرس وعلى جميع ما وصف به نفسه وهذا التأليف مملى بوحى من السماء على حسب ادعاء الفرس ومركب من احدى وعشرين نسخة لم يبق منها الا واحدة وهى العشرون واندثر باقى الكتب الاخر وما بقى منها الا قطعة صغيرة وكان زندوست مؤلفا أو مكتوبا بلسان لا يشابهه لسان من جميع اللغات والالسنة الموجودة فى فارس وقت ظهور زرداشت بهذا التأليف ولو أنه كان مكتوبا بحروف ليست على مثال البهلوى الأن تركيبه يقرب جدا من لسان السنسكريت وكانت حروفه مركبة من ثمانية وأربعين حرفا مطابقة فى أصواتها وشدتها للحروف الهندية بما فيها اثنا عشر حرفا ساكنا وأما البهلوى فهو مركب من تسعة عشر حرفا ليس فيها حروف ساكنة وكثير من ألفاظه سنسكريتية صرفا ومن المحتمل أن جميع ألفاظه كانت مأخوذة من اللسان السنسكريتى المشهور فى الاقطار الهندية وهو اللسان الاصلى هو واللسان البالى عند البودهيم

و يتضح من ذلك أن زرداشت تم شغل تصنيف زندواست تحت نفوذ وسلطة حاكم هندى وحقيقة فان الخرافات التى تساعد بها على أفكاره فى تصنيف هذا الكتاب جميعها مأخوذة من المملكة الهندية كما انه اختار عدة عقائد أخرى من ممالك مجاورة لها

وتزعم الفرس أن زندواست يشتمل على القواعد الاساسية لجميع الفنون والعلوم ولو أنها مكنونة تحت اشارات وأسرار ومن ضمن الكتب المقدسة كتاب الدابستان وكتاب الدساتير فأما الدابستان فانه يشتمل على تاريخ اثنتى عشرة خرافة ابتداؤها هوشنج الذى كان سببا فى ايجاد عبادة النار وأما كتاب الدساتير فيشتمل على رسائل تختص بديانة مهاباد مخترعة من خمسة عشر نبيا وكان آخر هؤلاء الانبياء ساسان ظهر فى مدة كيخسرو وأبرويز وكانت عقائد زرداشت معروفة عند قدماء الفرس لاهوتية كانت

أو فلسفية الا انه حصل اختلاف كبير في مسئلة تاريخ ظهوره فقال البعض انه كان يوجد زيادة عن واحد من اسمه زرداشت تقلدوا زمام التشريع على التعاقب وقالوا ان زرداشت الاول كان من مدينة الرهامن أعمال ميديا وأسس ديانته في بلخ تحت سلطنة كيكاوش الاول وبنى هيكلا كبيرا للنار في بلخ وسماه ازركشتاشب ثم قتل في غارة حصلت من الصيطيان هو وجميع من كان معه من القسس وكانت هذه الحادثة في سنة ٦٣٠ قبل الميلاد وأما زرداشت الثاني فيحتمل انه كان في مدة سلطنة دارا والظاهر أنه كان تلميذا للنبي دانيال أو لنبي آخر من أنبياء اليهود وكان المنظور فيه أن يكون من جملة الاربعة والعشرين رسولا الذين رآهم حزقيال في رؤيا منامية ولما صارله ملكة عظيمة في عقله سولت له نفسه التوجه تحت مراعاة كيرش الاكبر واحسانا ته فجعله رئيس قسس المجوس وبحذاقته وتدبيره أعاد الديانة القديمة للملكة وصنف عدة كتب سماها ابراهيم زرداشت

وقال البعض انه كان لا يوجد الا زرداشت واحد فقط وكان من أهل اصطخر وكان ظهوره في القرن السادس قبل الميلاد في مدة سلطنة دارا كستاشب وانه ولد في سنة ٥٨٩ قبل الميلاد وان أورمزد كلمه وتمم قانون ديانته بين السنة الثلاثين والسنة الاربعين من حياته ومن بعده عاش ثلاثين سنة ثم قتله الصيطيان في سنة ٥١٢ قبل الميلاد كما ذكره مؤرخو الفرس

وكانت الديانة الفارسية القديمة منقسمة الى مدتين الاولى تبتدئ من زمن جشيد وذلك ان حم المشرع اللبيب قدم قانون الشرع الى الملك الشاب جشيد فارتاع هذا الملك من فعل الاجرا آت الشديدة والشعائر المطلوبة فاتذر من طرف أورمزد على أنه يأخذ منه القواعد والاصول الادابية ويجريها في حكومة مملكته على شرط انه في مدة سلطنته ينقرض الذل والمسكنة والقتل من الدنيا فجرى الوعد بما حصل واستمر القانون جاريا على قدم غير كامل حتى ظهر زرداشت الحقيقي وكان البعض من أهل المملكة عاكفا على عبادة النار وآخرون على عبادة الكواكب والاصنام والشياطين

وكان احياء الشرع الاصلي الخالص واتمام عقائده والالزام على التمسك بها هي المقاصد الاصلية التي من أجلها بعث هذا الحكيم فجمع العقائد ورتبها وكذا المذاهب المشتملة على القسم الاساسي من الدين وأضاف بعض سنن وفرائض حسب ما أنزلت عليه من عند أورمزد وحرض على قانون الوصايا مثل قانون الديانة

وذكر زرداشت في تأليفه زندواست أن أول العقائد الكبرى هي عقيدة تزروان ومعناها الزمن وان الزمن ليس له ابتداء ولا انتهاء وأن المكوّن الذي لا يدرك وجوده صنع قوتين كبيرتين مؤثرتين في المسكونة هما أورمزد أصل كل الخير والحرومينوس أو اهريمان أصل كل الشر وشرع زرداشت في تقويه ونشر الدين المجوسي حتى خيم بظلاله على الدين القديم الميدي حتى صار هو دين الملك والامة الفارسية والصحيح المعول عليه أن الديانة الفارسية في تلك المدة كانت مجمعة من العقائد المجوسية وعقائد زرداشت وقد ذكرنا مفصلاتها في تاريخ ميديا

وفي المدة التي شيد فيها كيرش المملكة كانت العقائد الدينية هي عقائد زرداشت ورأى هذا الملك أنه يوجد ارتباط قوي بين أسراء اليهود في بابل وبين قومه ورآهم يعبدون الها واحدا هو في الحقيقة أورمزد عينه الهه فقبل الامر الالهي الذي أنبأ به اليسع وشرع في كونهم يعيدون بناء معبدهم لانهم

امة

أمة مثل قومه غير مسموح لهم بوضع تمثال أشبه بالاله مفسدو مخص لعبادتهم الطاهرة وكذا قوى دارا على اتمام شغل بناء معبد اليهود بعد أن كان صار توقيفه بواسطة ثورات أعقبت موت لهراسب (قبيز) ومن ثم وضع أساس المعبد على محبة صافية خصوصية بين الملتين وتولد من هذه المحبة الصادقة دوام صداقة اليهود لفارس مدة طويلة حتى رفضوا الخضوع والطاعة لفاتح عصوص ولم يتركوا مواليهم الذين أظهروا لهم المحبة والشفقة والميل

ثم ان الاقليم الذى ذكرنا انه فارس الاصلية صار التغلب عليه فى نحو منتصف القرن السابع قبل التاريخ المسيحى بواسطة أمة باسلة أهل بأس وشجاعة حربية وصلت اليه من مرتفعات أراضى الكورة الواقعة فى شرق بحر الخزر وهؤلاء هم أصل الامة الفارسية

وكانت هذه الامة مقسومة من أصل وجودها الى عشر قبائل أربعة منها رحالة نزالة وثلاثة مزارعون وثلاثة معدون لحمل السلاح للمحافظة على الامة وكان ينحصر فى القبائل الحربية شرف المملكة وأشهرها كانت قبيلة اسمها بزركادى فانحصرت فيها جميع الوظائف العالية ملكية أو عسكرية والعائلة التى تسلطنت المسماة بالعائلة الاشكانيانية كانت تنسب الى هذه القبيلة واشتقوا اسمهم من أشك أول رئيس قام فى مدة سلطنته فى هذه الجهة واعتبر أنه هو المؤسس للمملكة الفارسية

وفى المدة القديمة طلبت مملكة ميديا المجاورة لفارس سلطة النفوذ على فارس فكان ملوك فارس لحد جاوس كيخسرو أو كيرش الاكبر حافظين وماسكين حكوماتهم تحت ظل ملوك ميديا وهم لهم أشبه بملتزمين وكان لهراسب (قبيز) أب كيرش ملك فارس الا أنه كان عبدا لسياوخش صاحب ميديا وكان يدفع له خراجا سنويا والتزم أيضا على أن يرسل ابنه وولى عهده كيرش ليقيم فى الديوان الميدى رهينة دالة على خضوعه لملك ميديا فأقام ابن الملك فى الديوان الميدى فى صورة أسير محترم معامل بالوقار والاحترام اللائق بمقامه الملوكى مع الشفقة الزائدة من طرف الملك الا أنه ما كان يسمح له بالخروج من الديوان من دون رخصة أو اجازة من مليكه

ثم ان كيرش لاحظ فى مدة اقامته فى الديوان الميدى ان شوكة الميديين وعزتهم صار على شرف الدمار والخراب من كثرة ما هم فيه من الرفاهية واللذات الدنيوية ورآهم أنهم أقل تطبعا وأقل عقلا وتصورا من رجال أهل بلاده ذوى الشجاعة والبأس الشديد فشدد قلبه بهذه المعلومات وأضمر فى نفسه أن يجرى رأيه الجسورى من قذفه النافى الميدى من على قفاه ويشيد استقلالية بلاده وزاده غضبا على غضبه ما رآه من التعدى والجور الشديد من المجوس على الديانة الطاهرة التى هى ديانة آبائه وأجداده فازدادت جسارة قلبه وحصل عنده هيجان وثورات ورأى أنه لا بد من أن يضع تصميمه فى موضع العمل فى مدة سلطنة هذا الخنث سياوخش فمن ثم طلب رخصة ملك الميديين فى عوده الى بلاده مدة قليلة من الزمن معتذرا بأن صحة أبيه ليست جيدة ويحتاج للمحافظة عليه فخاف سياوخش من ضياع صولته على فارس وأعاد على كيرش الجواب المملق فقال له ان زيادة شوقه له ومحبته اياه تجبره على كونه يراه ولو مرة واحدة فى اليوم الواحد وانه لا يمكنه فراقه وعدم النظر اليه مدة ما فأظهر كيرش انه اقتنع بهذا الجواب ورضى بعدم التوجه وانتظر سنوح فرصة موافقة له ثم من بعد مضى مدة طويلة من الزمن جدد كيرش طلب الاجازة بواسطة واحد من متقربى الملك فنجح فى هذا السعى وأخذ اجازة بغياب مدة خمسة شهور وترك فى الحال همدان العاصمة الميدية واستلم طريق فارس مع قليل من

خواصه وخدمه

وفى مساء اليوم التالى بينما كان سياوخش مبتهجا بالسرور والحظ فى حريمه اذ قام فى وجهه الغضب من ثوران فعل حصل من سجعات مغان غنتها احدى البنات اللاتى كن يرقصن أمامه فطلب فى الحال واحدا من ضباط عساكره الخيالة للحضور عنده وأمره بان يأخذ معه فرقة من الخيالة ويتبع أثر البرنس الفارسى ويأتى به ميتا أو حيا فسار الميدى فى الحال فى مأموريته حتى لحق كيرش فى الطريق فبلغه أمر الملك فأجاب باطاعته لامر الملك فى كل ما يطلبه ويرغبه الا أنه قال حيث ان الوقت فات فيلزمنا أن نحط رحالنا فى الليل هنا ونعود الى الملك فى صباح باكر فرضى الميديون بذلك وعمل لهم كيرش وليمة سقاهم فيها الشراب حتى أسكرهم وصاروا على الارض مطروحين وركب حصانه وأخذ خدمه وحواشيه وسار مسرعا حتى وصل حدود مملكة أبيه وكان بينه وبين أبيه من الاصل اتفاق على تصميماته الخفية فوجد قوة عظيمة من خيالة الفرس فى انتظاره ولما أفاق الميديون من سكرهم ركبوا خيولهم وأسرعوا فى سيرهم وراء كيرش حتى لحقوه فى رأس خيالته على حدود مملكته فهجموا عليه فهزمهم بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة وسار كيرش أو كخسرو مسرعا الى ديوان أبيه

وبهذا أقامت فارس رايات العصيان فجمع سياوخش جيشا كثيفا وساقه لخضوع عبده العاصى الى طاعته فاشتعل حرب دموى انهزم الفرس فيه فى أول وقعة وقتل ملكهم لهراسب وصار كيرش ملك فارس من بعد أبيه ثم انتصر سياوخش نصرة ثانية كبيرة بالقرب من مدينة بذركادى عاصمة فارس وفى الواقعة الثالثة أوقع كيرش على سياوخش هزيمة فارصة وفى الواقعة الخامسة وكانت حصلت فى ضواحى بذركادى تشتت الجيش الميدى بأكمله وتعالت العساكر الفارسية بنصرتها ورحبوا بكيرش وأهلوا به وحاربوا معه ونادوا باسمه ملك ميديا وفارس وأعقب كيرش نصرته هذه بكونه سار خلف الميديين مع الشدة حتى كسر جيشهم وأسر سياوخش ملكهم وبواسطة هذه النصرة صار كيرش ملك ميديا ودخلت تحت حكمه فى سنة ٥٥٨ قبل الميلاد ومن ثم وضعت أساسات المملكة الميدية الفارسية وأعقب تغلبه على ميديا تغلبه على ليديا وألحقت بالممالك الفارسية فى سنة ٥٥٤ قبل الميلاد وكذا أخضع هرباجوس نائب كيرش المدائن الجريقية فى آسيا الصغرى للخضوع والطاعة لمملكة فارس فى سنة ٥٥٣ قبل الميلاد

ثم دخل كيرش فى تغلبات وفتوحات عريضة فى أقاصى الشرق وفى ظرف ثلاث عشرة سنة بين سنة ٥٥٣ وسنة ٥٤٠ قبل الميلاد أخضع هرقانية وفارطيه وبقطريا وساسيا وخوارزم والصغد وأريا ودرنقيانة وأرقوسيا وسطفيادية وغنداريه وهو الاقليم الشاسع الواقع بين بحور سيحون والخزر وبحر خوارزم وكان نهر السند هو الحد الشرقى لمملكته

ولما تمم كيرش هذا المشروع الكبير وجه جيشه بعد ذلك على بابل فتغلب على هذه المدينة كما ذكر سابقا وأضاف مملكة بابل الى ممالكه ومابقى أمامه الا دولة مصر القوية فانها هى التى ماوقعت فى مخاليب ملك فارس فعزم على التغلب على هذه المملكة الا أنه لم يضع عزمه هذا موضع العمل والفعل وكان السبب فى ذلك مجهولا وبمجرد ماتغلب كيرش على بابل جعلها العاصمة الثانية لمملكته وصارت همدان العاصمة الاصلية للمملكة وأما بذركادى العاصمة القديمة الفارسية فانها جعلت مدينة مقدسة وعدت لتتويج الملوك ودفنهم فيها من بعد موتهم واختار الفرس التمدن الميدى وصنائعهم وعماراتهم

وملبوساتهم

وملبوساتهم وعوائدهم وكذا عوائد الرفاهية ولم يلتفت كيرش الاقليلا فى نحو تقرير مملكته أو تشييد طريقة حكومة لها وترك هذه الاشغال لخلفائه الذين يأتون من بعده

وكانت ديانة المملكة فى مدة هذه السلطنة محصورة فى عقائد مذهب زرداشت الا أن جميع مذاهب العقائد الاخر كانت مباحة العمل وكان كيرش موحدالله منجذب الطبع الى أسراء اليهود الموجودين فى بابل لان ديانتهم كانت مطابقة بالكلية لديانته فنظر اليهم بعين الرضا والاحترام وأعادهم الى مملكتهم وفيها عاملهم نوابه بنفس الشفقة التى كان يعاملهم بها كيرش

وانقفلت سلطنته بحوادث مجهولة ووقائع غير معلومة فالروايات المأخوذة عن هردوط هى ان آخر حرب أجراه كان مع المساغيطى وهم قوم كانوا مستوطنين فى شمال مملكته الى شرق بحر أرال أو خوارزم وأخضع فى هذا الحرب هذه الامم المتبربرة وأذهلهم بحروب مزعجة حتى صاروا لايتجاسرون على الهجوم على المملكة الفارسية مدة حياته وذبح فى واقعة مع هذه الامم وأرسلت جثته الى فارس ودفن فى بندركادى

وقد ذكر من وجه آخر فى أصل تشييد المملكة الفارسية من ابتدائها الى موت كيرش أو كيخسرو ان أحد الامراء أو البرنسات من أصل بيت ساسان يدعى نسبه الى بهرام جوبين أحد الملوك الساسانية أول من رغب فى جمع تاريخ مملكة فارس من بواقى النسخ وفضلات الكتب التى بقيت من دمار أيدى المسلمين الذين تغلبوا على فارس فى صدر الاسلام وعهد هذا الشغل الى عالم اسمه الدقيقى وأمره بنظم تاريخ ملوك فارس من ابتداء كيومرث الى يزدجرد فى أبيات شعر ففات الدقيقى مقتولا بواسطة أحد عبيده بعد أن كتب نحو ألف بيت من الشعر ومن بعد مضى قرن من موت الدقيقى عهد محمود الغزنوى هذا الشغل الى الشاعر المشهور الفردوسى فتبع هذا الشاعر الطريق التى كان جاريا عليها سلفه وصنف الكتاب المسمى بالشاه نامه ومعناه تاريخ الملوك ومن بعده صار تصنيف كتب أخرى مثل روضة الصفا والخلاصة الكبرى وزينة الطريق بواسطة كتاب الفرس ومؤرخيهم الا أنها مشحونة بالخرافات والخزعبلات وقال هيردوط ان أول سلطنة مستقلة أقيمت فى فارس الاخيرة كانت سنة ٧٤٧ قبل الميلاد وان أول من أقامها هو ديجوسيس أو كيقباد بن كينية أو فرعورطيس وكان انتهز الفرصة بالنسبة لعدم وجود نظامات الاحكام الموجودة فى أقاليم فارس وتساعد بشهرة صيته وأقام نفسه فى وظيفة ملك البلاد

والمذكور فى الدابستان أن الزمن من الازل مقسوم الى أدوار متتالية فى كل دور منها طوائف مخلوقات مختلفة تنتهى هذه المخلوقات مع غلاق الدور الواحد ولا يفضل من أهله الا رجل أو ذكر وأنثى يكونان والدين لجنس يأتى بعد وفى نهاية الدور الاكبر الذى كان قبل الدور الذى ظهر فيه كيومرث نجا منه شخص اسمه مهاباد ليكون جدا لدنيا جديدة فكان هذا أول مشرع وملك وقسيس وكان يعرف الصنائع الاصلية للحياة الدنيوية ثم خلفه ثلاثة عشر من ذريته ساروا على منواله ونشروا العدل والامن والراحة بين النوع البشرى وكان آخر هؤلاء الملوك البطارقة ازراباد وهذا لما خلع نفسه من الدنيا واعتزل الى معيشة زهد ونسك ارتبكت الدنيا وصارت فى حكومة فوضوية وكثرت فيها القلاقل وازداد الذل والمسكنة والقتل والسلب ثم خلصت الدنيا من هذه من بعد مدة طويلة بواسطة آجى فران وهو شخص مقدس نصحه الملك جبرائيل على أن يتقلد زمام حكومة ويعيد العدل والسعادة فى الدنيا

ومن ثم تأسست عائلة جديدة ثم دورها وكان آخر ملوكها جى اباد ومن بعده حصل فى الدنيا الاهانة والارتباك وبالمثل حصل الخير والشر على يد عائلتين تسلطنا على التعاقب وراء بعضهما ولما ازدادت الجرائم والآثام أرسل الاله أنواع العذاب والعقاب على أهل الدور فقتلوا ولم يبق الا منهم قليل هربوا فى الغابات والكهوف وتركوا الارض خالية قفرا حتى جاء أمر الاله وخلق كيومرث أو جل شاه يعنى ملك الارض فكان هو أول الجنس البشرى الحالى لاجل خلاصهم مما وقعوا فيه من الآثام

وذكر العلماء من المسلمين ان كيومرث كان أول ملك فى فارس وينسبون سلسلة أصله الى نوح عليه السلام حسب ما هو مذكور فى زينة الطريق وكان هو أصل الجنس الملوكى الملقب بالملوك البشيدادبانية يعنى موزعى العدل القديم وكانوا يسندون أعماله الى المعجزات والكرامات وخوارق العادات وكان أعداؤه السحرة والشياطين وجحافل أسد الغابة ونحوها ومن بعد أن لبث فى سلطنة باهرة مفتخرة اعتزل الى بلخ عاصمته ومات فيها أو تنازل عن السلطنة لابنه هوشنج بعد أن تسلطن مدة كبيرة مقدارها ثلاثون سنة وكان هوشنج وهو الثانى من البشيدادبانية ملكا فاضلا اخترع كثيرا من الصنائع النافعة من ضمنها استخراجه النار من حجر الصوان وأنشأ المجارى لاجل رى الاراضى واستمر على التخت أربعين سنة وخلفه وارثه طهمورث ولقب بالشيطان من كثرة نجاحه فى مضارباته مع السحرة والكهان وتقلد زمام المملكة ثلاثين سنة وخلفه جمشيد الملك الرابع من العائلة وكان أحد المشهورين من شجعان الخرافات الفارسية وكان صاحب شوكة وثروة واخترع عدة اختراعات نافعة منها صنعة تشغيل العرقى والنبيذ وأصلح بلاده ورفع منار أهلها ومن بعد مدة طويلة من التوفيق والنجاح دخلت فيه الغلطة والفظاظة والجبروت فعوقب بأن أغار عليه الضحاك ملك سوريا وطرده من ممالكه وأخيرا قتله شر قتلة وقال بعض المؤرخين ان أصل هذا الفاتح هو ملك سوريا وقال آخرون انه رجل عربى من ولد شداد وقال اخرون انه هو النمرود بن كوش واتفقوا جميعهم على انه كان رجلا ظالما سفاكا للدماء وتولد من كثرة ظلمه وسفكه الدماء أن قام كابى الحداد وخلص بلاده وأهلها من هذا الرجل السفاح وذلك أنه لاجل خلاص أولاده من أن يكونوا أضحية لهذا العنيف الجبار أسرع فى حمل السلاح وجعل على رأس عكازه مخلاة وجعلها بيرقا جمع تحته شجعان أهل بلاده وخلع الغاصب وقتله وأجلس مكانه فريدون من ولد طهمورث على تخت المملكة فزخرف فريدون الملك عكاز الحداد باللآلى والجواهر تبركا بما حصل من النصر والظفر وجعله علما ملوكيا استمر باقيا فى مملكة فارس دهرا طويلا تحت اسم درفش كابيان ولما تغلب المسلمون على فارس أول مرة أخذوه من الفرس وأرسلوه الى الخليفة عمر بن الخطاب

وأطنب مؤرخوا الفرس فى المدح والثناء على عدل فريدون ونباهته ومجده حتى ان فضائله وكرمه جعلا له صفة يتسمى بها وهى الفروخ ومعناه السعيد وذكر الفردوسى فى الشاهنامه ان أول سلطنته التى امتدت نحو ٥٠٠ سنة تكاثف السحب عليها بمشاحنات ومحاربات حصلت فى عائلته وفيها قتل ابنه ايرج بواسطة اخوته فقام منوچهر وعاقب المجرمين أشد العقاب وكان هو وارث ايرج خلفه على تخت جده وكانت سلطنة هذا الملك الفاضل مشهورة بظهور رستم الشجاع المشهور ووصف الفردوسى فى الشاهنامه مولد هذا الشجاع الغريب وتهذيبه وما فعله فى مدة حياته الطويلة وصفا

خارقا

خارقا للعادة وخلف منوجهر ابنه نوذر وكان ملكا ضعيفا عاجزا لرأى والتدبير ومن بعد أن تمتع بالحكومة العالية سبع سنوات خلعه افراسياب ملك التتار وتغلب على فارس مدة اثنتى عشرة سنة وطرد زال أبو رستم هذا الغاصب من المملكة وأجلس بدله زو البرنس الوارث على تخت المملكة وخلف الملك زو ابنه كرشاسب ولما وجد زال أن لا طاقة لزو على الحكومة خلعه وبه انقرضت العائلة البشيدادياتية وحكمت هذه العائلة المملكة نحوا من ٢٤٥٠ سنة حسب ما ذكره مؤرخو الفرس

ومن العائلة الكيانيانية المتفق عليها قدماء المؤرخين ومتأخروهم أنها هى العائلة الميدية يبتدئ أول التاريخ المطابق مع التسجيلات الحقيقية السنوية الغربية وان كيقباد الذى ذكره الفردوسى فى الشاهنامه هو نفس ديجوسيس الذى ذكره هردوط وغيره من مؤرخى قدماء الجريق كان فى سنه ٧١٠ قبل الميلاد ولما رأى ما كانت عليه فارس من فوضوية الحكم والضرر العائد منه على أهلها صار انتخابه ملكا بواسطة جمعية من أشراف المملكة وكانت مدة سلطنته على قول هيردوط ٥٣ سنة وعلى قول الفردوسى ١٢٠ سنة وابتنى سراية مفتخرة وأسس مدينة همدان وأول من تقلد درجة فخر وأبهة خارقة للعادة من طرف قومه وقد تقدم ذكر كيقباد وخلفائه فى تاريخ ميديا والله الموفق للصواب

﴿ الباب الثانى ﴾

﴿ من موت كيرش أو كيخسرو الاكبر الى سقوط المملكة ﴾

جلوس لهراسب (قمبيز) ـ صفته ـ تغلبه على مصر ـ معاملته تلك المملكة بالعنف والقساوة ـ عدم نجاحه وخيباته ـ سمرديس الكذاب ـ موت لهراسب ـ صيرورة دارا دارا الاول أو دارا كشتاسب ملك فارس ـ اعادته النظام فى المملكة ـ طريقته الحكمية ـ تغلبه على قسم من الهند ـ الحملة على الصيطيانيين ـ مبادى الحرب مع الجريس ـ خيبة حملة مردونيوس ـ هزيمة الفرس فى نواحى مرثون ـ أردشير الاول ملك فارس ـ حملته فى الجريس ـ وقائع طرفو بيلى وسليس ـ خيبة الحملة وعدم نجاحها ـ عود أردشير الى فارس ـ اعتكافه على اللذات والرفاهية ـ هزيمة مردونيوس فى بلاطيا ـ أردشير درازدشت الاول ملك فارس ـ عصيان مصر ـ صلح فالياس ـ أردشير الثانى ـ موته ـ دارا الثانى ملك فارس ـ ضعف سلطنته ـ سرعة هبوط فارس ـ أردشير درازدشت الثانى ـ عصيان قبرص ـ واقعة كانكسه ـ تقهقر العشرة آلاف ـ حروب مع الايالات الجريقية ـ سرعة انحلال المملكة ـ تصميمات أردشير فى تغلبه على الجريس ـ الارتباكات الداخلية فى المملكة أو خوض سلطنته الشديدة ـ ذبحه ـ دارا الثالث ـ الحرب المقدونى ـ دخول اسكندر الاكبر فى آسيا ـ واقعة عصوص ـ القبض على العائلة الملوكية ـ فتح اسكندر الايالات الفارسية الموجودة على سواحل البحر الابيض المتوسط ـ واقعة أربله ـ هروب دارا وموته ـ سقوط المملكة الفارسية

ومن بعد موت كيرش الاكبر خلفه ابنه الكبير لهراسب الملقب عند الجريق باسم قمبيز فى نحو سنة

٥٢٩ قبل الميلاد وترك ابنا آخر اسمه بارديوس أو كان يلقب باسم سمرديس وكان أبوه أوصى له بحكومة بعض الايالات الجليلة الكبيرة فتولد من هذه الوصية اشتعال نار الغيرة فى قلب لهراسب فأمر فى مبادى سلطنته بقتل سمرديس فى السر وورث لهراسب شهرة أبيه وحب الحرب وليست له ذكاوته وتدبيراته وعظيم اجرا آته وكانت درجة لهراسب فى التاريخ مثل واحد من كبار المدمرين المخربين للدنيا القديمة والجديدة وأرغم فنيقية وقبرص الى الخضوع له وهما الدولتان العظيمتان البحريتان فى آسيا الغربيـة اللتان ما دخلتا تحت خراج كيرش الاكبر وفى سنة ٥٢٥ قبل الميلاد شرع فى تجهيزات حربية برا و بحرا للغارة على مصر فجهزه الفنيقيون والقبرصيون بالمراكب اللازمة وأما جيشه البرى فانه أضاف الى عساكره جما غفيرا من الجريسيين واليونانيين والعيواليانيين وكان هؤلاء هم القسم الاعظم من جيشه الا أن ما حصل من جليل الخدمة وتقديم المعروف الى لهراسب من فانيس الهاليكارناسى وكان من ضمن القواد الجريقية الموجودين فى خدمـة أمزيس ملك مصر كان لا ينكر ولا يمكن لاحد غيره اصطناعه وذلك أن فانيس المذكور حصل بينه وبين امزيس نفور فعزم الملك على البطش به فهرب الى لهراسب وأخبره بالاخبار المخصوصـة بحالة المملكة وصفتها وقوة عدوه وهيئة حالتـه وسهل له كثيرا غزوته ونجاحها وأرشده على عقد محالفة مع ملك العربان القاطنين فى الصحارى الكائنة بين فلسطين ومصر لجلب لجيشه المياه اللازمة وقت سير العساكر من وسط الصحراء الموجودة بين المملكتين واتفقا على أن ملك العربان يرسل المياه على ظهور الجمال لانه من غيرها لا يمكن لملك فارس تمشية عساكر من هذه الطريق

ولما جهز لهراسب جميع الاستعدادات سار مغيرا على مصر فى السنة الرابعـة من سلطنته فلما وصل الى حدودها أتته الاخبار بموت أمزيس ملك مصر وخلافة ابنه بصاميطقوس من بعده وأنه مشتغل بجمع جميع قواه لاجل صده عن الدخول فى مملكته ومن قبل أن تمكن لهراسب من فتح طريق يدخل منها هذه المملكة رأى أنه من الضرورى أن يجعل نفسه ابتداء سيد مدينة بلوزه بما أنه مفتاح مصر على الجهـة اللازم غزوها منها وبما أن بلوزه قلعة رصينة ولا بد أن تكون هذه القلعـة سببا فى توقيف حركاته العسكرية مدة ما من الزمن شرع فى اجراء طريقة يسهل له بها أخذ المدينة والتغلب عليها وذلك أنه لما أخبر أن محافظى المدينة من المصريين رتب فى مواجهة جيشه مقدارا وافرا من القطط والكلاب والغنم وحيوانات أخر كانت مرعية عنـد الامة المصرية بانها مقدسة ثم هجم عنوة على المدينة ولما لم تتجاسر العساكر المصرية على الضرب بالمقاليع أو السهام على جيش لهراسب خشية من حصول ضرر لآلهتهم استلم لهراسب المدينة من دون طعن ولا ضرب

ولما تغلب لهراسب على مدينـة بلوزه تقدم بصاميطقوس بجيش جرار كثيف لاجل توقيف حركة سيره وحصل بين الملكين واقعة مهولة الا أنه قبل اشتعال نار الحرب فعل الجريقيون الذين فى جيش بصاميطقوس فعلة فظيعة شنيعة قصـدوا بها الانتقام من فانيس الهاليكارناسى تطيير عصيانه وهربه فأخـذوا أولاده الذين انجبر على تركهـم فى مصر وقت هربه وأحضروهـم أمام الجيشـين وقطعوا أزوارهم وشربوا دماءهم ومع ذلك فان هذه الفعلة الفظيعة لم يحصـل منها النصر لهم ولم تساعدهم على عدوهم فلما رأى الفرس هـذا المنظر الفظيع احتدم فيهم الغضب وتمكن منهـم الحنق وسقطوا عليهم فشتتوا الجيش المصرى وقتلوا معظم عساكره فى ميـدان الواقعـة والذين أمكنهم الفرار التجؤا الى

مدينه

مدينة منف

وقد ذكر هردوط وكان نفسه من الشاهدين لهذه الواقعة أن عظام الفرس والمصريين لبثت مددا طويلة مرمية في ميدان الحرب الذى حصلت فيه هذه الواقعة وكان يعرف الفارسي من المصرى بواسطة جماجم الرؤس وهو أن جماجم المصريين كانت صلبة جدا لايمكن كسرها الا بقوة كبيرة بواسطة الاحجار وأما جماجم الفرس فكانت طرية هشة يمكن كسرها بسهولة والسبب في هذا الاختلاف أن المصريين من وقت صغرهم متعودون على حلق رؤسهم ومشيهم مكشوفى الرؤس وأما الفرس فكانوا على الدوام بشعورهم ورؤسهم مستورة بالعمائم والتيجان وكان ذلك من الزينة الاصلية لهم

ولما ساق لهراسب عساكره الى نحو منف أرسل رسولا الى أهل المدينة في مركب من طريق النيل يدعوهم الى التسليم فلما وصل اليهم انقلبت أحوالهم وداخلهم الغضب وسقطوا على الرسول وقطعوه اربا هو وجميع من كان معه ولما تغلب لهراسب على المدينة أمر باخذ الثار والانتقام من الذين قتلوا رسوله ومن معه وأن يأخذ في ثارهم عشرة أمثالهم من المصريين وأرباب المناصب فأخذوهم وقتلوهم أمام العموم وكان من ضمن الذين قتلوا الابن الاكبر لبصاميطقوس وأما الملك نفسه فان لهراسب ملك فارس أحسن معاملته ولم يعف عن حياته فقط بل أعد له ما يليق باكرامه واعزازه غير أن الملك ما اكتفى بهذا المعروف الزهيد واجتهد في قيام ثورات وارتباكات بقصد بها عود مملكته فشرب كأس الحمام من بعد أن تسلطن ستة أشهر تمام وبعد ذلك صارت مصر جميعها خاضعة للملك الفاتح

وتولد من هذه النصرة أن كلا من الليبيين والصرنيقيين (نواحى تونس الغرب) وأهل برقة أرسلوا رسلهم بهدايا الى لهراسب يقدمون خضوعهم اليه ثم سار لهراسب من منف الى مدينة صان وهى محل مدفن الملوك المصرية وبمجرد دخوله في سراية المدينة أمر باخراج جثة امزيس من القبر وضربه ألف سوط بحضوره ثم أمر برمى الجثة في النار وحرقها وكانت هذه الحالة من العادات المغايرة الغير المرضية عند الفرس وعند المصريين ومن هذا ظهر أن لهراسب كان يكره امزيس ويبغضه وفى السنة التالية أى في السنة السادسة من سلطنته تفاخر كثير ابظفره ونصره ودخل في مشروع فتوحات واسعة ماصار له طاقة على اجرائها وذلك أنه عزم على أن يجرى الحرب على ثلاث جهات مختلفة وهى القرطاجيون والامونانيون والاتيوبيون فأما الاول من هذه التدبيرات فانه انجبر على صرف النظر عنه لأن الفنيقيين الذين من دون مساعدتهم لايمكنه اجراء هذا الحرب رفضوا تعضيده على القرطاجيين بما أنهم ذرية منهم وان أصل قرطاجة مستعمرة صورية

ولما عزم على غزو الامتين الآخرتين أرسل رسلا الى اتيوبية بصفة جواسيس من عنده يعلمونه بحالة البلاد وقوتها ويرسلون له الاخبار عن الحالتين وأخذوا معهم هدايا من الاشياء الجارية عند الفرس مثل الارجوانى والاساور والخواتم الذهب والروائح العطرية والنبيذ وكان النبيذ مكروها عند الاتيوبيين فلم يلتفتوا له ولا للرسل وما كان عندهم شئ يرد في نظير الهدية فأخذ ملك اتيوبية في يده قوسا لاطاقة لاحد من الفرس على حملها فضلا عن ضربها وشدها بيده بحضور الرسل وقال لهم هذه هدية الملك ونائبة عن ملك اتيوبية أعطاها الملك فارس ففى وقت ما يكون للفرس طاقة على استعمال قوس بهذه الصفة والصلابة ويمكنهم استعمالها بسهولة كما أنى شددتها فقولوا لهم يأتون للهجوم على اتيوبية على

شرط أن يحضر لهراسب وما يمكنه جمعه من العساكر ثم تركهم ومضى وهم يثنون على الآلهة اذلم يجعلوا في قلوب الايتيوبيين رغبة في مد ممالكهم خلف ممالكهم

ولما عاد الرسل وأخبروا الهراسب اشتد في وجهه الغضب وأمر في الحال جيشه بالرحيل من دون أن يلاحظ هل كان عنده ذخائر كافية ومؤن لهذه الغزوة أم لا وترك عسكر المحافظين في مملكته التي تغلب عليها جديد الاجل حفظها من حصول ثورة تحصل فيها وأن تكون خاضعة لسلطانه مدة غيبته وبمجرد وصوله الى طيوه من صعيد مصر فصل فرقة مقدارها ٥٠٠٠٠ نفس وأرسلها لغزو الامونيانيين وأمر العساكر والقواد بخراب المملكة ونهب معبد جوبيتر أمون الموجود فيها فمن بعد أن سافرت هذه الفرقة عدة أيام في الصحراء هبت عليها ارياح عاصفة من جهة الجنوب مشحونة بالرمال المتطايرة وسفت الرمال على الجيش حتى غرق جميع العساكر فيها واندفنت تحتها وكان هذا عاقبة أمرهم

وفي هذا الوقت سار لهراسب مثل المجنون على الاتيوبيين من دون أن يكون مستعد العساكر بالمؤن والذخائر فلم يمض الا القليل حتى وقع القحط الشديد في جيشه وقال هردوط انه كان عنده الوقت الطيب في مداواته هذا الضرر الا أنه تذكر في نفسه أن حيادته عن مشروع شرع فيه ليس من الشرف وعلو الهمة ولا يصح من مثله تركه فاستمر سائرا في غزوته وحملته فانجبر جيشه من أول الامر على أكل الجذور والحشائش والنباتات وأوراق الاشجار لكنهم لما وصلوا الى الارض العقيمة القحلة أحوجتهم الضرورة الى أكلهم حيوانات الاحمال ثم من فراغها وصلوا الان يأكل بعضهم بعضا فكان العشرة يأخذون واحدا منهم بالقرعة ويسوونه طعاما ومع كل هذه الفظائع والاحوال الشنيعة مازال الملك مصرا على تنفيذ أغراضه الا أنه أخيرا ابتدأ الخوف فيه وخشي على نفسه وأمر بعود ما بقي من عساكره بعد أن هلك معظمهم في هذه الغزوة وعاد الى طيوه غضبان على آلهتها فنهب هياكلها وكسر صور وتماثيل آلهتها وأخذ من معابدها أموالا لا تحصى وسار منها متوجها الى منف وكان أخلى سبيل الجريق وأرسلهم الى بلادهم مكرمين وعند دخوله في مدينة منف وجدها ملآنة بالافراح والمسرات فأخذه الغضب والحنق الشديد وظن أن فعلهم هذا سرورا بما حصل له من عدم الظفر والنجاح في غزوته فطلب حكام المدينة أمامه ليعرف ما معنى وجود هذه الاعياد والافراح فقالوا له ان ذلك بسبب أنهم وجدوا الههم أپيس فلم يصدقهم لهراسب وأمر بقتلهم على الفور بصفة أنهم كاذبون وأرسل الى القسس وسألهم عن السبب الداعي لعمل هذه الاعياد والافراح فأجابوه بمثل جواب من قبلهم فقال لهم من حيث ان الههم رؤف على قدر هذه الحالة حتى انه يظهر لهم فيلزمني أن أتعرف معه وأمر في الحال باحضاره عنده الا أنه بدل أن ينظر الها رأى عجلا فاستغرب لهراسب غاية الاستغراب وأخذه الغضب وسحب خنجره وضرب به فخذ الحيوان ورماه وأمر بضرب القسس بالسياط ضربا شديدا وأمر بان جميع المصريين في منف يلزم أن يعملوا عيدا وموكبا عظيما من أجل قتل الههم أپيس فأخذ المصريون العجل وتوجهوا به المعبد الاكبر ثم مات بعد وصرف عيد أپيس في سفك الدماء ونبش المقابر واستخرج منها الموميات ودخل المعبد الاكبر المقدس في منف ولعن جهارا تمثال فطه وأمر بتدمير وتكسير جميع تماثيل الآلهة وعم هذا الدمار والخراب كل جهة من الجهات المصرية واستمر الخراب الذي تركه لهراسب من بعده عدة قرون ولما أوقع لهراسب الرعب والهول في قلوب المصريين ورأى أن ما أجراه

فى المملكة كاف لخلوص أهلها له سافر عائدا الى عاصمته لانه غاب عنها مدة طويلة ولما وصل الى سوريا قابلته الاخبار بان سمرديس اغتصب تخته وكان سمرديس هذا هو الكذاب ولقب بسمرديس الكذاب ولما قطع لهراسب اليأس من انتصاره وتغلبه على المعتدى عليه قتل نفسه بنفسه فى سنة ٥٢٢ قبل الميلاد بعد أن تسلطن ثمان سنوات وقيل سبع سنوات وخمسة أشهر

وتسلطن سمرديس الكذاب أقل من سبعة شهور وبمجرد جلوسه على التخت من بعد موت كى لهراسب قدم له أهل سمارية عريضة يلتمسون فيها توقيف اليهود عما هو حاصل منهم من الارتباك والهياج فى شأن بنائهم مدينتهم وهيكلهم وبواسطة هذه العريضة استحوذوا من الملك على أمر يقضى بمنع اليهود من حصول أدنى مشروع فى اعادة بناء مدينتهم وهيكلهم ومن ثم صار توقيف شغل بناء المعبد الى السنة الثانية من سلطنة دارا كشتاسب وهى مدة سنتين ثم ان سمرديس المجوسى بذل مجهوده فيما يجب من أمره حتى لا ينكشف كذبه وابتدأ فى سلطنته بكونه لا يظهر لاحد من رعيته وأن يعتزل فى سرايته وترفع اليه أشغال المملكة بواسطة طواشية من حرمه من دون أن يراه أحد الا المتقربين اليه المعتمد عليهم فى شدته وكان ضبطه تخت المملكة وجلوسه عليه بصفة أنه سمرديس بن كيرش أخو لهراسب المقتول واعتقد فيه رعيته ذلك الا انه من عدم ظهوره واعتزاله فى سرايته حصل الشك فيه فلاجل توطيد نفسه على التخت الذى اغتصبه واستحوذ عليه عزم من ابتداء جلوسه على جذب محبة قلوب رعيته اليه بكونه رفع عنهم العوائد والضرائب والخدمات العسكرية التى كانت مقررة عليهم من قبل مدة ثلاث سنوات ورتب لهم أشياء كثيرة تعود بالمنفعة عليهم حتى انه وقت موته نعاه كثير من أمم آسيا ما عدا الفرس فانه بسبب الثورة التى قامت عليه والاحترازات التى أجراها لاجل حفظ نفسه وعدم ظهوره للامة أولا شرافها أوقع عليه الشبهة بانه لم يكن هو سمرديس الحقيقى بن كيرش الاكبر وكان تزوج جميع نساء سلفه ومن ضمنهن اطوسه بنت كيرش الاكبر وفيديمة بنت أوطانيس رجل من أشراف فارس من الطبقة الاولى فأرسل أوطانيس الى بنته فيديمة رسالة وثيقة يسأل منها هل الملك هو حقيقة سمرديس بن كيرش أو رجل خلافه فأرسلت الى أبيها تقول انها ما رأت قط سمرديس بن كيرش حتى تقول ان كان هو أولا فأرسل لها رسالة ثانية يقول لها اسألى من أطوسه العارفة بأخيها هل هو أخوها أولا فأجابته أن الملك الحالى الذى ربما يكون هو سمرديس أسكن نساءه من أول يوم جلوسه على التخت فى مساكن منعزلة عن بعضها بحيث لا يمكن واحدة منهن القرب من الاخرى أو المحادثة معها وانه لا يمكنها الوصول الى أطوسه حتى يمكنها أن تسأل هذا السؤال منها فأرسل لها رسالة ثالثة وأمرها انه عندما يأتى فى حالة النوم عندها يمكنها أن تنتهز الفرصة وقت نومه وتنظر هل له آذان أولا لان كيرش كان أمر بقطع آذان سمرديس المجوسى بسبب جريمة جناها وقال لها اذا كان الشخص الذى يرقد معك هو سمرديس المجوسى فيكون هذا من أقبح العار والفضائح فى استحواذه على تاج المملكة وعليك ولما أخذت فيديمة هذه التعليمات من أبيها انتهزت الفرصة فى اليوم الثانى واجتهدت فى فحص ما أمرت به ووجدت أن الشخص الذى يضطجع معها ليس له آذان فأرسلت خبرا الى أبيها بذلك ومن ثم انكشفت خديعته وخيانته

ثم ان أوطانيس شكل ثورة مع خمسة من رؤساء الفرس وأشرافهم ومع دارا وهو رجل فارسى مشهور الاصل شريف النسب كان أبوه هستاسب أو كشتاسب حاكم فارس واشتركوا سوية وعزموا على

قتله وتآمروا فيما بينهم وأخذوا يدبرون أشغالهم فى السر من دون أن يشعر بها أحد خلا فهم السبعة وعينوا لهم يوما معلوما يتمون فيه أشغالهم خشية كشف أعمالهم

وبينما كان هؤلاء السبعة مشغولين سرا بتدبير أعمالهم اذ حصل هيجان بين المجوس ما كان يخطر لاحد منهم على بال فلاجل ازالة هذا الشك من بينهم عرضوا الى بريكزابيس قائد خفر الملك واستحوذوا على عهد منه أن يعلن جهارا أمام الامة الذين سيجتمعون لهذا الغرض بأن الملك الموجود على التخت هو سمرديس الحقيقى بن كيرش ولما اجتمع الامة فى اليوم المعلوم كلهم بريكزابيس من فوق قمة برج عال بجسارة بحضور الجمهور وقال الحق أحق أن يقال أنا الذى قتلت بيدى سمرديس بن كيرش بأمر من كى لهراسب وأن الشخص المستحوذ الآن على التخت هو سمرديس المجوسى وانى أرجو من الآلهة ومن الناس غفران هذه الجريمة التى اكتسبتها رغما عن غرضى وجبرا عن نفسى ولما تم مقالته رمى نفسه من قمة البرج فسقط وانكسرت رقبته وتولد من هذه الاخبار حصول الارتباك فى السراية وفى أثناء هذه الحادثة توجه الثائرون الى السراية وعانوا الدخول من دون أن يشتبه فيهم أحد لان الخفر البرانى يعرف جيدا أن هؤلاء أناس من الطبقة الاولى ومن أرباب الدولة فمن ثم لم يسألهم عن شئ ولما صاروا بالقرب من محل الملك ورأوا أن الضباط منعوهم من الوصول اليه ولم يسمحوا لهم بالتقرب منه سحبوا خناجرهم وسطوا على الخفر وأفرجوا لانفسهم طريق الدخول وكان سمرديس المجوسى مشتغلا مع أخيه فى شأن مسئلة بريكزابيس فسمع الاثنان ضجة على حين غفلة فخطفا سلاحهما ودافعا عن أنفسهما بقدر طاقتهما وجرحا بعضا من الثائرين وأخيرا قتلوا سمرديس وأخاه وخرجوا من السراية مغموسين فى الدماء وفى أيديهم رأس سمرديس المجوسى وأخيه وأظهروهما لعموم الامة وأظهروا كذب سمرديس فتولد من ذلك حصول الغضب الشديد عند الامة الفارسية فقاموا ايدا واحدة على كل من ينتسب الى مذهب وعقائد سمرديس المجوسى الغاصب وقتلوهم حيث وجدوهم وجعل الفرس لهذا اليوم عيدا سموه عيد ذبح المجوسى لا يمكن فيه لاحد من الذين على عقيدة سمرديس الكذاب أن يظهر فى يوم هذا العيد

ولما تمت هذه الحادثة اجتمع السبعة الامراء الفارسية فى جمعية واحدة للمداولة فيما يجب اجراؤه بشأن الحكومة فقال بعضهم يلزم أن تكون الحكومة جمهورية شورورية وقال آخرون الاجود أن تكون سلطنة ملوكية لها الحل والعقد وكذا قر دارا فاتفقوا جميعا بعد المحادثات والمباحثات وما وقع بينهم من المناقضات فى أن تكون حكومة فارس سلطنة ولم يبق عليهم الا مسئلة من يكون الملك أو ما هى الطريقة فى انتخابه فتقرر بينهم أن يكون الامر فى ذلك مفوضا للآلهة وعلى هذا اتفق السبعة أن يكون اجتماعهم فى يوم معلوم فى الصباح وقت طلوع الشمس على ظهور خيولهم فى محل كذا من ضواحى المدينة والذى يصهل حصانه فى الاول يكون هو الملك لانه من حيث ان الشمس هى الاله الاعظم عند الفرس ظنوا أن الذى شرع هذا المشروع ربما يعطيه الاله حق شرف الانتخاب ولما سمع سائس دارا هذا الاتفاق استعمل الحيلة الآتية لتوطيد تاج المملكة لاستاذه وذلك انه فى الليلة التى فى صباحها يكون الاجتماع جلب لحصان أستاذه فى المحل المعين فرسا أنثى وشممه اياها وفى صباح اليوم اجتمع الاشراف فى المحل المعهود ولم يمض قليل حتى أشرف دارا كباً على حصانه ولما وصل الى المحل الذى شم الحصان

فيه الفرس أخذ يصهل بصوت عال فسلم الآخرون على دارا بالملك وأجلسوه على التخت وكان ابن كشتاسب فارسى المولد من العائلة الملوكية فتسلطن ستا وثلاثين سنة

ولما جلس دارا الاول أو دارا كشتاسب على تخت المملكة فى سنة ٥٢١ قبل الميلاد أعاد الديانة الفارسية على أصولها المقدسة كما كانت عليه فى السابق وكان أجل ملوك فارس وأعظمهم ولما جلس كانت ممالكه فى حالة عامة من العصيان وكان لا أقل من احدى عشرة ايالة من الايالات الكبيرة من مملكته حاملين السلاح ضده ورأى أن مملكة كيرش الاكبر أو كيخسرو على شرف الدمار والخراب فاشتغل دارا مدة ست سنوات عاكفا نفسه على فتوحه هذه الجهات حتى أخمد ما كان فيهما من الثورات وتولد من كثرة جنوده وحذاقة أفكاره ومهارة أعماله حفظه وسلامته فى جميع مساعيه وأعاد النظام والامن واستتباب الراحة فى عموم ممالكه وقتل جميع رؤساء الثورات واعترف بحكمه كل قاص ودان من سائر أطراف ممالكه وعموم جهات سلطنته

ولقد كشفت هذه القلاقل والارتباكات وكثرة الثورات لدارا ضرورة وضع المملكة تحت أحكام ونظامات وقوانين ثابتة محكمة الاساس مؤيدة الاعمال فابتدأ فى هذا الشغل بكونه عزل جميع الملوك الخراجية الموجودة فى الايالات التابعة لممالكه وقسم المملكة الى عشرين مديرية أو مرزبانة وجعل على كل مرزبانة مرزبانا فارسيا أى حاكما مدنيا مسؤلا عن أعمال مرزبانته لدى الملك مباشرة وشكل جندا ثابتا ووزعه على المرازبة بقصد اخماد الثورات ان حصلت أو مقاومة تعديات تقع من الخارج من جهة عدو ما وجعل قواد العسكر صوادبد أيضا على المرزبانات وضرب مقدارا ثابتا من الخراج على كل اقليم أو ايالة يدفعه الى الخزينة الملوكية فى أوقات معلومة وأنشأ الطرق السلطانى من عاصمة المملكة الى جميع المديريات المختلفة ورتب البريد والبوسطة لاجل امكان سرعة المواصلة مع الديوان الملوكى وكذا سرعة مواصلة الديوان مع عموم الايالات بحالة منظومة ووزع جماعة من كتاب الاسرار الملوكية أطلق عليهم اسم عينى الملك وأذنيه على المديريات فكان من واجبات هؤلاء المراقبة على المرازبة والمباشرة على أعمالهم واعطاء الاخبار للملك أولا بأول بحيث يكون عنده علم يوميا بالحوادث والوقائع الجارية والمزمع على اجرائها فى كل ايالة من ممالكه أو فى كل ادارة من اداراته ورتب مفتشين ملوكية وأحيانا نفس الملك يتوجه بجاه الى الايالات لاجل مناظرة أحوال الجهات وما هو جار فيها من الحركات وبهذه الوسائل صارت الايالات وحكامها على صداقة وخلوص نية وحسن طوية من مراعاتهم الواجبات المقررة عليهم لمليكهم الا أنه من مرور الزمن وتوالى الايام وانقطاع حركات التفتيش زال ما كان حاصلا من الصد والحجز على المفاسد ووقوع المشاكل واتفق حكام المرزبانات مع قواد العساكر لمطامع ذاتية بينهم وازدادت شوكة الايالات حتى جاء الوقت الذى أشرفوا فيه على العصيان فأعاد دارا ترتيب الجيش ثانيا وجعل القوة الحاكمة من أمراء الميديين والفرس وحشد العساكر وجند الجنود ورتب الخيالة وجعلهم هم الطبقة العالية فى صنف العسكرية ورتب العساكر البحرية من الامم التابعة لمملكته خصوصا من فنيقية ومصر وقبرص وصيليصيا وآسيا الجريسية

ولما أحكم دارا قواعد مملكته وأزال ما كان فيهما من الفساد والعفونة شرع فى حملة على الهند لاجل اتساع ممالكه فى الجهة الشرقية وقرر لاجل تسهيل فتوحاته وأن يكون له دراية وخبرة بالمملكة

الهندية بانشاء أسطول موافق لهذا الغرض فى نواحى كاسپاپترو وهى مدينة على شاطئ نهر السند وأمر بانشاء مراكب أخرى فى جهات متعددة من النهر لحدود صبطيا الشرقية وعهد قيادة هذا الاسطول الى سيلاكس من أهل مدينة كاريه من أعمال الجريس وكان على دراية تامة وخبرة كاملة بالاعمال البحرية وأمره أن يحدر مع أسطوله فى النهر ويكشف على قدر امكانه جهتى البر من شاطئ النهر حتى يصل الى مصبه ثم يخرج منه الى المحيط الجنوبى ويستمر فى سيره نحو الغرب ثم يعود الى فارس من تلك الطريق فعرف سيلاكس جيدا كل ما أعطى له من التعليمات والاوامر وسار منحدرا فى نهر السند ومنه سار فى البحر المحيط الجنوبى حتى دخل البحر الاحمر من بوغاز باب المندب ومن بعد سياحة مكثت ثلاثين شهرا من ابتداء خروجه من كاسپاپترو وصل مصر فى المينة التى كان أرسل منها نخو ملك مصر فى السابق الفنيقيين الذين كانوا تحت خدمته لاجل كشف دائر سواحل افريقية وهى المينة الواقع عليها السويس الآن ورأس البحر الاحمر من الجهة الشمالية ثم عاد سيلاكس الى السويس وأعرض لدارا جميع استكشافاته فدخل دارا فى الهند مع جيش وتغلب على پنجاب يعنى أرض الخمسة أنهر وأرض السند فى مدة محصورة بين سنة ٥١٥ وسنة ٥٠٩ قبل الميلاد ولم يذكر هردوط حالة الحرب التى وقعت بل ذكر أن الهند كانت هى الايالة المتممة للعشرين من الممالك الفارسية وكان خراجها الجارى ارساله سنويا الى خزينة دارا مقداره ٣٦٠ وزنة من الذهب يعنى ٥٠٠,٠٠٠ ليره استرلينه وربط أيضا فيها علاقات تجارية فعالة بين الهند وفارس

وكانت الحملة الثانية لدارا على الصيطيانيين وهم قبائل من ياجوج وماجوج الغربيين قاطنين فى السهول الواسعة الواقعة بين نهر الدون ونهر الدانوب أو الطونة فى الاقليم المسمى فى الحالة الراهنة باقليم ولاخيا وما كان فى عزم دارا التغلب على هذه الاراضى بل كان مقصده الاصلى توقيع الخوف والرعب فى قلوب الصيطيانيين وصدهم عن سعيهم فى الاغارة على ممالكه ونهبها فعبر بوغاز البوسفور على جسر صنع له من المراكب فى سنة ٥٠٨ قبل الميلاد وسار من وسط تراسة حينما كان أسطوله سائرا الى نهر الدانوب من البحر الاسود وأمر بعمل قنطرة على نهر الدانوب من مراكب وانقاد له تراسى السواحل من دون أن يحصل منهم مقاومة فاجتهد الزيطيون فى توقيف سيره فغلبهم ثم عبر الدانوب الى بلاد الصيطيانيين ومن بعد أن عبر النهر أمر بكسر القنطرة حتى لا يترك عندها فرقة تشتغل بمحافظتها من عساكره فعرض له أحد ضباطه الاأن وفق حفظ القنطرة وعدم كسرها لنفعها عند الحاجة فى حالة ما اذا كان الحرب للصيطيانيين وليس لنا فعرف الملك ضرورة وجودها وبقائها فأمر بالمحافظة عليها ورتب لها عساكر من اليونانيين الذين صنعوها وسمح لهم بأن يتوجهوا الى بلادهم ان لم يرجع اليهم فى مدة شهرين ثم استمر فى طريقه الى الصيطيانيين

وبمجرد ما بلغ الصيطيانيين أن دارا ماش اليهم شرعوا فى أخذ الاحتياطات اللازم اجراؤها لمنفعة أنفسهم وعلموا فى أنفسهم أن لا طاقة لهم على مقاومة جيش قوى مهول مثل جيش دارا فاستغاثوا بجميع الامم المجاورة لهم فى مساعدتهم والاتحاد معهم على تشكيل هذا الكرب العام وقالوا لهم ان المقصود هو اشتراكنا سوية فى جامعة واحدة لدفع عدو يقصد التغلب على كافة بلادنا وأملاكنا وليس قاصرا تدبيره على محاربة أمة واحدة فقط فأجاب طلبهم بعض الامم ورفض البعض الآخر الدخول فى حرب لم يكن لهم فيه دخل

فشرع

فشرع الصيطيون فى تدبير أمرهم مع الحزم والكياسة وذلك أنهم أرسلوا نساءهم وأولادهم فى عربات الى أقاصى الجهات الشمالية من أرضهم وكذا أرسلوا جميع مواشيهم وأنعامهم ولم يبقوا لانفسهم شيأ سوى ما كان لازما لجيشهم وطمسوا جميع الابار والعيون وعطلوا المنابع وغلقوها وحرقوا الحشائش ومواد العلف الموجودة فى الجهات التى يمر منها الجيش الفارسى ولما تمموا ذلك جميعه ساروا فى اتحاد واحد مع محالفيهم لمقابلة عدوهم وعزموا على عدم الدخول معه فى أى محاربة أو مناوشة بل يجرونه الى جهات مناسبة لهم حتى يكل ويضجر وتعود الخسارة عليه فلما رآهم الفرس وأرادوا الهجوم عليهم تقهقروا الى الخلف فى بلادهم فتبعهم الفرس ومازال الفرس يتقدمون والصيطيون يتقهقرون من محل الى آخر حتى أوصلوهم الى داخل أراضى الامم الذين رفضوا الدخول معهم فى المحالفة وصارت أرضهم وبلادهم صيدا ونهبا للجيشين الفارسى والصيطيانى

ولما كل دارا وحصل له الضجر والتعب من سوقه خلف الصيطيين أرسل الى ملكهم رسولا وكان اسمه انداطيرسوس بيلاغ باسمه يقول فيه ياملك الصيطيين الى متى أنت مستمر على فرارك منى لماذا لم تقف فى محل تحاربنى فيه ان كنت تعرف من نفسك طاقة على حماتى وان كنت معترفا فى نفسك بالضعف والوهن فاعترف بسيادتى عليك وسلمنى الارض والماء وكان الصيطيون أمة على غاية من علو الانفة والكبرياء ولهم غيرة على حريتهم وهم العدو الالد لكل رق أو استعباد فأرسل أنداطيرسوس جوابا الى دارا يقول له ان كنت أناهربان أمامك ياملك الفرس فلا تظن انى خائف منك أو على وجل من جيشك والحاصل عندى من الاعمال الآن هو كالجارى عندى فى مدة السلم لاننا أمة الصيطيين ليس لنا مدائن نحفظها ولا أرض ندفع عدوا عنها فان كان لك رغبة فى الزامنا على دخولنا فى محاربة معك فتعال اهجم على قبور آبائنا حتى تعرف العادة التى نحن عليها وأما من جهة لقب السيادة الذى أنت متقلده فاجعل هذا اللقب على أمة خلاف أمة الصيطيانيين لانى أنا لا أقر لاحد بالسيادة خلاف جوبتير الاكبر أحد أجدادى والمعبودة الزهرة الاهة النار وكان دارا كلما يتقدم فى داخل المملكة يصير جيشه عرضة للمتاعب والمشاق الكبيرة حتى وصل الى آخر رمق وشدة من الكد والتعب ووصل رسول من عند ملك الصيطيين ومعه هدايا لدارا هى طير وفار وضفدعة وخمس سهام فطلب الملك من الرسول معرفة معنى هذه الهدايا فأجاب بان الملك أمره بتسليم الهدايا بلا زيادة على ذلك فحل دارا فى الحال معنى الهدايا وقال ان ملك الصيطيين رضى بتسليم الارض والماء لنا واستدل على ذلك بالفار والضفدعة وكذا تسليم خيالته وأناب عنهم الطير وكذا أنفسهم وأسلحتهم وأناب عن ذلك الخمس سهام فقال أحد قواده غوبرياس وهو أحد السبعة أشراف الذين خلعوا اسمرديس الكذاب المجوسى وقتلوه ان تفسير معنى هذه الهدايا هو اعلم ياملك الفرس ان كنت تقدر على الطيران فى الهواء مثل الطير أو تخفى نفسك فى الارض مثل الفار أو تخفى نفسك تحت الماء مثل الضفدعة فلا يكون لك طاقة على امتناعك من سهام الصيطيانيين

وفى الحقيقة كان جميع الجيش الفارسى سائرا فى أرض خالية لانبات بها ولا زرع معدومة المياه خالية السكان حتى صار الجيش ينظر أمامه فلا يجد الا قفرا وبرارى خربة واستشعر دارا فى نفسه بحصول الخطر العام ومارأى خلفه الا جبلا واحدا عليه المياه اللازمة لشربه وخاض هذا الجبل معه المعامع والمصاعب الكبيرة فى الصحارى المقفرة والهضاب الوعرة فانسى دارا معروف هذا الجبل وكرمه

واحسانه وكان أمن بعد أن عاد الى آسيا على ما أداه من صنيع خدمته وحسن كرمه ومعروفه معه وما حصل له من مشاق الاسفار بكونه أقطعه ناحية باسمه يستريح فيها المدة الباقية من حياته ويأكل من محصولاتها مع خدمه وحواشيه ولهذا سمى المحل الذى أقطعه له دارا باسم قوى جملا يعنى ضيعة الجمل وكان موجودا بالقرب من المحل الذى حصلت فيه الهزيمة لدارا الثالث مع اسكندر الاكبر فى الواقعة الثانية

ولما رأى دارا أن لا فائدة تعود عليه من هذه الحملة ترك هذا المشروع وتدبر فى أمر الرجوع وعزم على عدم ضياع الوقت فى الرجعة ولما جاء الليل أمر بوقود نيران كثيرة أمام العدو على صورة خديعة كما كانوا يفعلون حسب عوائدهم وتركوا الشيوخ والضعفاء فى معسكرهم وانسحبوا من دون حصول أدنى غاغة قاصدين الوصول الى نهر الطونة على عجل وأما الصيطيون فانهم لم يعلموا بسفرهم ورجعتهم الا فى صباح اليوم الثانى فأسرع الصيطيون فى الحال وأرسلوا فرقة الى نهر الطونة وبما أن هذه الفرقة كان لها معلومية بسكك بلادها وأرضها وصلت الى القنطرة قبل وصول دارا بجيشه اليها وكان اليونانيون تركوها حسب أمر دارا لهم وتوجهوا الى بلادهم فكسر الصيطيون القنطرة وانتظروا حضور دارا وجيشه واجتمع الصيطيون عند نقطة عبور دارا من النهر ولما وصل دارا مع جيشه ووجد القنطرة مكسورة ولا وجود لليونانيين غضب كثيرا وزاحمه الصيطيون على العبور ووقع بينه وبينهم محاربات كانت نتيجتها هزيمة الصيطيين وتخريب بلادهم وأمر دارا بنصب قنطرة جديدة عبر عليها هو وجيشه الى تراسه وعاد الى آسيا من الطريق التى جاء منها وكانت نتيجة هذه الحملة أن صار التراسيون خراجيين له داخلا فيها الجهات الواقعة على بحر الارخبيل حتى مقدونيا خضعت له ومن ثم امتدت المملكة الفارسية من الصحارى الهندية الى حدود تساليا ومن جبال القوقاس الى اتيوبيه فى سنة ٥٠٦ قبل الميلاد

وفى السنة الثالثة من سلطنة دارا أو فى السنة الثانية على حساب اليهود حصل من أهل سمارية ارتباك جديد وقلقلة بشأن اليهود لان السماريين كانوا استحصلوا من السلطنات السابقة على أوامر يمنعون بها اليهود من أن يجروا أى عمل يعملونه فى بناء مدينة أورشليم الا أنه على موجب ما أنبأ به أنبياء بنى اسرائيل من الاوامر المنزلة من عند الله شرع الاسرائيليون فى الشغل من بعد أن كان حاصلا توقيفه من مدة سنين مضت وشمروا عن ساعدهم فى الشغل مع الشدة والشهامة فاعتل السماريون بما عندهم من الاوامر الملوكية القديمة ومنعوا اليهود عن الشغل واستغاثوا الى طاطناى وكان دارا اقره حاكما على ايالتى فلسطين وسوريا وشكوا له من الوقاحة والجسارة الحاصلة من اليهود فى مخالفتهم الاوامر الملوكية وكذا صمم اليهود على الاستمرار فى بناء معبدهم ومدينتهم ووقع بين الاثنين مشاحنات حتى آل أمر الحاكم أن يتوجه بنفسه الى أورشليم محل الواقعة للنظر فى هذه المادة ولما رأى ما عليه حالة اليهود تفكر فى نفسه أنه لا يمكنهم استمرار العمل ولا توقيفه الا اذا ارتكن على شئ فى مثل هذه المادة فسأل من مشايخ بنى اسرائيل هل عندكم رخصة دخلتم بواسطتها فى مثل هذا العمل الجسيم فأبرز له رؤساء اليهود الامر الصادر لهم من كيرش أو كيخسرو الاكبر فلما رآه صار لا طاقة له أن يفعل شيأ يخالف الامر وأرسل بواقع الكيفية وشرح حقيقتها الى الملك دارا وأعلمه بأمر كيرش الاكبر المصرح فيه لليهود ببناء مدينتهم ومعبدهم ورغب من الملك أن يأمر بالكشف من الدفاتر عن

حقيقة هذا الامر حتى يعرف أ كان ذلك أمر كيرش حقيقة أولا والتمس أن ترسل اليه التعليمات اللازم الاجراء على موجبها فى هذه المسئلة فطلب دارا الكتاب وسألهم الكشف عن هذا الامر فوجدوا أن هذه الرخصة والمنحة أعطيت لهم فى مدينة همدان من أعمال ميديا مقر كيرش الاكبر فى ذلك الوقت فأثبت دارا أمر الملك كيرش وأصدر امرا آخر جديدا مؤكداله وصدق عليه دارا وبواسطة هذا الامر الصادر من دارا لم يهتم اليهود فى بناء معبدهم ومدينتهم فقط بل كانت المصاريف تؤخذ من المقرر عليهم من الخراج والعوائد المضروبة على ايالة فلسطين وبهذا تمم اليهود بناء معبدهم ومدينتهم فى مدة سلطنة دارا الاول هذا

ولقد توشحت السنين المتممة للقرن السادس قبل التاريخ المسيحى بعصيان حصل من جريق اسيا من شدة ما حصل لهم من الجور والمظالم التى تساعد على اجرائها حكامهم بواسطة الاوامر الصادرة من دارا فقاموا فى ثورة تحت قيادة ارسطفوراس طاغيتهم من ملطية وحملوا السلاح على فارس وانضم اليهم الاثينيون والارطريانيون من جريس أوروبا وافتكروا فى أنفسهم الجراءة والشجاعة وهجموا على سرديس عاصمة المرزبانة وضبطوها وحرقوها ودمروها فغلبهم القوى الفارسية وهزموهم فى واقعة بالقرب من أفسوس سنة ٥٠٠ قبل الميلاد فترك الاثينيون والارطريانيون محالفيهم فى الحال ومع هذا فانه ورد الجم الغفير لمساعدة الجريق وثارت ثورة عامة ضد فارس انتشرت فى طول كامل الساحل الآسيوى من بحر مرمرا الى خليج عصوص وذلك أن اليونانيين والعيوليانيين وجريق الهلسبون والكاريانيون والقومانيون والقبرصيون كل هؤلاء انضموا فى جامعة واحدة على فارس فأسرع دارا فى اخماد هذه الثورة الكبيرة وبذل جهده ومافى طاقته فى انحطامها وهشمها وحصل عدة وقائع كان الظفر فيها متبادلا بين الاثنين وأخيرا سادت القوى الفارسية وانهزم الاسطول اليونانى هزيمة فاصلة فى واقعة لادى وأخذت ملطية بالهجوم عنوة فى سنة ٤٩٤ قبل الميلاد واستشعرت الايالات العاصية بثقل أحمال الانتقام الذى وقع عليهم من دارا وأعيدت الحكومة الفارسية مع الشدة والثبات فى جميع الاقاليم التى كانت دخلت فى هذا العصيان

ولما وطد دارا جميع ممالكه وأخمد ثوراتها شرع فى أخذ الاحتياطات اللازمة للانتقام من الايالات الجريقية التى تجاسرت على مساعدة رعاياه فى العصيان على سلطنته وكان مترددا فى ذلك من مدة زمن طويل فى التغلب على الجريس فمن مداخلة الاثينيين والارطريانيين فى ثورة العصيان اليونانى انفتح لدارا باب عظيم فى المحاربة معهم وفى فصل ربيع سنة ٤٩٢ قبل الميلاد صار استعداد حملة وأمر دارا بتسفيرها ضد الجريس تحت قيادة مردونيوس فسار فى طول الساحل ولما صار على مسافة من جبل أثوص نزلت عليه تلاقيح الرياح وعواصف البحر فغرق القسم الاعظم من اسطوله وانهزم جيشه البرى وأشرف على الدمار من هجوم حصل عليه ليلا من قبائل البريجيانيين من تراسة ومع حصول هذه الاهوال والمصائب فما حصل لدارا انزعاج ولا ضعف فى القوة ولا صرف نظرا عن الحملة الجريسية ومع ذلك فما كانت نتيجة هذه الغزوة جميعها على غير طائل بل أخذ مردونيوس طاسوس وصارت مقدونيا تابعة لفارس

ومن بعد مضى سنتين جمع دارا حملة ثانية فى سنة ٤٩٠ قبل الميلاد وأرسلت هذه الحملة ضد الجريس تحت قيادة داطيس أحد القواد الماهرة الفارسية ولما عبر داطيس جزائر السكلاده سار ابتداء الى أرطريا

فتغلب عليها بالخديعة والخيانة وحرقها كلها وساق أهاليها في الحديد الى آسيا ولما تغلب الفرس على ارطرياعبروا الاوربيوس ونزلوا في نواحي مرتون عازمين على التقدم الى أثينة فتقابل الجيش الفارسي في مرتون مع الجيش الاثيني تحت قيادة ملطياريس وكان جيش الفرس الموجود تحت قيادة داطيس مؤلفا من ١٠٠٠٠٠ من المشاة و ١٠٠٠٠ فارس وأما جيش الاثينيين فكان جميعه مؤلفا من ١٠٠٠٠ نفس تحت رياسة عشرة من القواد كان أكبرهم ملطياريس وكل واحد من هؤلاء العشرة قوادير حركة الجيش يوما واحدا فحصل بين هؤلاء القواد مشاحنة في كونهم يقابلون العدو بحركة تعرضية أو يحاربونه في داخل الاسوار وبعد مناقضات ومباحثات اتفق أمرهم على محاربة العدو بحركة تعرضية وأن يكون الجيش وقواده تحت ادارة وقيادة ملطياريس لاغير فأخذ ملطياريس احتياطاته اللازمة في تقوية جيشه وعسكره تحت سفح جبل مقابل العدو بحيث لايكون للعدو طاقة على التغلب على المعسكر أو على الهجوم عليه من الخلف وأمر بقطع أشجار وتثبيتها على كل من جنبي المعسكر لاجل حفظ أجنابه من هجوم خيالة العدو وأما داطيس فانه ظهر له عدم موافقة هذا المحل لحركاته العسكرية الا أنه ارتكن على كثرة عدد عساكره وكانوا زيادة عن عشرة أمثال الجيش الاثيني وبينما كان على عدم الرغبة في البقاء في هذا الموقع اذ وردت تقويات الاسبارطيين فعزم على الحرب واستعد لذلك وأما الاثينيون فانهم لم ينتظروا هجوم العدو عليهم بل بمجرد ما أعطيت لهم اشارة الحرب أسرعوا في حركة هجوم عنيفة ما كانت تتصور فيهم ونظر الفرس الى هذه الحركة الاولية التي حصلت من الاثينيين فرأوا أنها حركة جنون مراعين صغر جيشهم وقلة عدد عساكرهم فاضعفوا خيالتهم ونبالتهم واشتعلت الواقعة وقوى ملطياريس أجنحة جيشه تقوية عظيمة الا أن القلب كان ضعيفا وكان قليل عوق بالنسبة لما كان عنده من العساكر القليلة وافتكر في نفسه أنه لا يمكنه اكتساب النصرة الا ان كان جناحاه قويين وبهما يشتت أجنحة الجيش الفارسي ومن ثم هجم الفرس على قلب الجيش الاثيني وجعلوا اجتهادهم بالخصوص على مواجهة الجيش الاصلي وفي هذا الوقت انتصر جناحا الجيش الجريسي على جناحي جيش الفرس وألزموهم الهرب والفرار ثم اتجه الجناحان لمساعدة القلب بينما كان على شرف الهزيمة وساعداه وشتتوا الجيش الفارسي ولم تأخذ عساكر الفرس في الفرار نحو معسكرهم بل أسرعوا في فرارهم لاجل نجاة أنفسهم نحو المراكب وتبعهم الاثينيون نحو المراكب وحرقوا كثيرا من مراكبهم واستحوذوا على سبع مراكب وقتل من الجريسيين في هذه الوقعة ٢٠٠ نفس وقتل في ميدان المعركة من الفرس نحو من ٦٠٠٠ قتيل خلاف الذين غرقوا في البحر وقت نزولهم في المراكب وأقلعوا في مراكبهم وسافروا حول الرأس الاثيني بقصد الهجوم عنوة على أثينة فأسرع ملطياريس في السير الشديد من مرتون فوصل أثينة في وقت ظهر فيه لقائد الفرس عيانا أن كل شغل يجربه على المدينة لاثمرة فيه فمن ثم أقلع داطيس الى الساحل الآسيوي وأخذ معه أسرى ارطرياوتولد من النصرة التي حازها الجريق في مرتون أكبر ضد للفرس الآن دارا لم يرتج من هذه المعاكسات التي حصلت واستعد ثانية لحرب الجريس بكامل ما عنده من العساكر والجيوش وعزم على قيادتها بنفسه فحصل في مصر ارتباكات أوقفت سيره وكذا مونه في سنة ٤٨٦ قبل الميلاد تمم مشروعاته وأنهاها وجعل للجريق فرصة في اتمام استعداداتهم للمقاومة ومن بعد موت دارا الاول خلفه ابنه اردشير الاول فابتدأت سلطنته بالكبس الشديد على الثورة المصرية وجعل أخاه أخمنس عاملا

على مصر وفى نحو هذا الوقت اجتهد البابليون فى العصيان على فارس فأخمد الفرس ثورتهم وعاقبهم أردشير الاول أشد العقاب بكونه سلب كنوزهم وأموالهم العريضة التى كانت موجودة في هيا كلهم في سنة ٤٨٥ قبل الميلاد وسار أردشير الاول فى مشروع أبيه في الحملة والغزوة على الجريس وأقام الحمية والحماسة فى رأس مرازبته وقواد عساكره ووضع لهم فى مجلس عام ندبهم اليه وعقده فى جهة السوس فوائد ومزايا التغلب على الجريش فشرعوا فى الاستعدادات اللازمة للحملة وفى مدة أربع سنوات كانت المملكة الفارسية مشغولة بالاستعدادات والتجهيزات اللازمة للحرب القادمة عليهم وصار جمع الاسطول العريض فى البحر الابيض المتوسط وكان أسطولا لم يجمع فى البحر الابيض قبله مثله من الممالك الساحلية لفارس وتألف جيش كثيف جمع من عموم أنحاء الاقاليم الفارسية وقيل ان الاسطول كان مؤلفا من ١٢٠٠ سفينة من سفائن الحرب الكبيرة ومن ٣٠٠٠ مركب أقل منها في الحجم ورتبت مخازن الذخائر والمؤن فى جهات مختلفة من طول الطريق المزمع على سير الجيوش منها وكان أردشير استنبط من تجارب بداطيس أن حملة قوية كبيرة مثل هذه كافية للتغلب على بلاد الجريس لا يمكن ارسالها من طريق البحر بل يقتضى عبور الهلسبون (الدردانيل) والسير من طريق الساحل الشمالى لبحر الارخبيل ولهذا الصدد كلف أردشير المصريين والفنيقيين بانشاء جسر من المراكب فوق مياه بوغاز الهلسبون أو الدردانيل فأنشأ هذا الجسر على التوالى الا أنه كان يتكسر من شدة العواصف والرياح فعلى ما قيل ان أردشير أمر بقطع رقاب المهندسين وأن يضرب البحر بالسياط ويوضع فى السلاسل والاغلال دلالة على ما حصل منه من الوقاحة على أستاذه ملك فارس ثم مدوا جسرين فى غاية من المتانة والصلابة وصار تقويتهما وتوطيدهما واحكامهما بواسطة الاخشاب والخنازير الحديد والاربطة القوية وجعلوا الواحد منهما طريقا ساطانيا تسير عليه الناس والعربات والخيول مع غاية الامن والسهولة كأنها سائرة على أرض الساحل ولاجل حفظ الاسطول من الاخطار التى تسقط عليه من عواصف جبل أتوص استخدم الملك جما غفيرا من الناس مدة ثلاث سنوات تحت مناظرة ومباشرة رجال من الفرس فى حفر خليج خلف الجبل بين خليج سطريمونى وخليج سنغى وجبل أتوص هذا موجود فى مقدونيا وهى اقليم من تركية أوروبا يمتد امتدادا طويلا فى البحر ويشكل بحيث جزيرة ويتصل مع البر الاصلى بواسطة برزخ طوله يزيد عن نصف فرسخ والبحر فى هذا المحل ذو عواصف وتلاقيح شديدة يتسبب منها غرق المراكب

ولما استعدت جميع هذه المهمات والادوات سار أردشير الاول الى سرديس فى فصل شتاء سنة ٤٨١ قبل الميلاد لاجل مناظرة الترتيبات النهائية بنفسه وفى فصل ربيع سنة ٤٨٠ قبل الميلاد تجمع الجيش الفارسى فى ليديا فقال هردوط انه كان يوجد تسع وأربعون أمة سائرة تحت بيرق الملك الاعظم وقد ذكر هردوط أيضا ان جيش أردشير كان مؤلفا من ١٨٠٠٠٠٠ نفس من المشاة و ٨٠٠٠٠ فارس ولما عبر الهلسبون ساعده الامم الخاضعة له بجيش مقداره ٣٠٠٠٠٠ نفس فبهذا وصلت قوة جيشه البرى ٢١٠٠٠٠٠ نفس وكان أسطوله لما سافر من آسيا مؤلفا من ١٢٠٧ سفينة حربية ذات ثلاث بنوكة من المجاديف فى كل سفينة ٢٠٠ نفس جميعها من أهل المملكة خلاف ٣٠ نفس من الفرس أو الميديين فيكون عدد جميع عساكر هذا الاسطول ٢٧٧٦١٠ وأعانه الامم الاوروباوية باسطول مركب من ١٢٠ سفينة كل سفينة فيها ٢٠٠ نفس فيكون عدد نفوس هذه السفن ٢٤٠٠٠ نفس

يضاف الى مقدار نفوس البحرية المتقدم فيكون المجموع الكلى ٣٠١٦١٠ نفس وخلاف هذا الاسطول المؤلف من السفائن الحربية الكبيرة كان يوجد مراكب اقل منها فى الجم والسعة موجود فى كل منها ٣٠ أو ٥٠ مجدافا ومراكب النقل والحائل ومراكب كانت مستعملة فى أشغال مختلفة بلغ مقدارها نحوامن ٣٠٠٠ سفينة فاذا حسبنا لكل سفينة من هذه السفن ٨٠ نفسا كان مجموع الانفس ٢٤٠٠٠٠ نفس وعلى هذا لما وصل أردشير فى نواحى طرموبيلى كانت قوته البرية والبحرية ٢٦٤١٦١٠ نفس لايدخل فيها الخدم والطواشية والنساء وباعة الجيش وأمم أخرى من هذا الصنف تابعة لكل جيش فى حركته كان عددهم فى ذلك الوقت يعادل عدد قوة الجيش فبهذا يكون عدد الذين تبعوا أردشير الاول فى هذه الحملة نحوا من ٥٢٨٣٢٢٠ نفس وكان الغذاء الجارى صرفه يوميا حسب ماقرره هردوط ١١٠٣٤٠ مدّ من الدقيق والمدّ هنا عبارة عن ٦ بوشل انكليزى أو ٦ كيلات مصرية

وسار الجيش من سرديس حتى وصل ابيدوس وفيها عرض الجيش والاسطول على الملك وكانت هذه أول مرة رأى فيها الملك اسطوله العريض الواسع وفى صباح اليوم الثانى ابتدأ العبور من فوق بوغاز الهلسبون واستمر مدة سبعة أيام وكان مرور العساكر من فوق جسر والحملة والتبع من فوق الجسر الآخر وكانت حركة الجميع فى غاية من الشدة والسرعة واستمر السير من جهة أروبا فى داخل تساليا فقطع تساليا واخيا وفثيوطيس الى أن دخل السهل الملياني ثم وقف الجيش لاجل راحة السفر بالقرب من مدينة طرخيس الصغيرة مقابل معبر أو بوغاز طرموبيلى وهو مدخل الجريس الوسطى وهو دربند أو درب ضيق فى جبل عوطة بين تساليا وفوثية عرضه أربعة وعشرون قدما ومن ثم يمكن حمايته بقوة قليلة العدد وهذا الدرب هو الذى يمكن للجيش الفارسى الدخول منه فى مملكة اخيا والتقدم لمحاصرة أثينة ورأى الجيش الاثينى أن الموافق له انتظار العدو فى هذا الدرب وصده عن الدخول فى بلادهم فكان قائد هذا الجيش الجريسى شخص اسمه ليونيداس أحد ملكى اسبرطة وكان لما ابتدأ أردشير الاول السير من بوغاز الهلسبون أمر أسطوله كذلك بالسير فى طول الساحل مقابلة الجيش وأن ينظم حركة سيره فى البحر مع حركة الجيش فى البر حتى اذا نزل أى منزل يجد الذخائر والمؤن تحت يده جاهزة ولما وصل مقابل درب طرموبيلى كان مقدار الجيش الذى أرسلته أثينة للمحافظة على هذا الدرب ٤٠٠٠ نفس من أصل مجموع جيش مقداره ١١٢٠٠ نفس ولما وصل اردشير الى فم الدرب حصل له الاستغراب من استعداد الجريسيين فيه لصده ومنازعته العبور منه لانه كان يعلل نفسه بان الجريسيين متى بلغهم أول مرة حضوره الى بلادهم فروا هاربين أمامه فأرسل من طرفه جاسوسا لينظر العدو وحركته وما هو عليه من الاستعداد فجاءه الجاسوس وأخبره بأن اللاسيدومونيين يد واحدة فى حركتهم العسكرية رابطين شعورهم ببعضها متحالفين على النصر أو الموت وكانت هذه عادة اللاسيدومونيين فى الوقائع والحروب فانتظر اردشير مدة أربعة أيام مؤملا فيها أنه ربما تأتى ساعة يتقهقرون فيها من الدرب وبذل جهده وما فى طاقته فى ظرف هذه المدة فى كونه يظفر بالملك ليونيداس وواعده المواعيد العالية وأكد له أن يجعله ملكا على عموم الجريسيين ان أتى اليه ودخل فى حزبه فرفض ليونيداس كل ماطلبه اردشير منه مع الحنق والغضب ثم كتب له اردشير بشأن تسليمه جيشه ونفسه فأجابه ليونيداس بشدة بلسان لاسيدومونيا جوابا مركبا من لفظتين

تعال خذهم وغير هذا لا يكون الا الحرب فأمر اردشير القوى الميدية بالسير الى الجريسيين والقبض عليهم وجلبهم على قيد الحياة أمامه فهجم الميديون فى الدرب على الجريسيين فأذاقهم الجريسيون كأس الهزيمة والفرار بعد أن قتلوا منهم مقتلة عظيمة وقال هردوط ان اردشير كان عنده رجال كثيرة من دون أن يكون عنده عساكر محاربون فأرسل ثانية الى هؤلاء الاسبرطيين فرقة من الفرس يقال لها الفرقة الثابتة وكانت مركبة من ١٠٠٠٠ نفس فحصل لها من الجريسيين ما حصل لسابقتها وبينما كان أردشير جائل الفكر قاطع اليأس من فتح طريق هذا الدرب وأخذه من عساكر عازمين على النصر أو الموت ولا يدرى ماذا يفعل اذ حضر عنده واحد من أهل البلاد وأخبره فى السر بوجود طريق يوصل الى أعلى جبل مطل على هذه القوى الاسبرطية وأن هذا الجبل يحكم على الموقع الموجودين فيه فأرسل معه على الفور فرقة عسكرية الى تلك الجهة ومازالت هذه الفرقة سائرة مع هذا الدليل طول الليل حتى وصلت الى أعلى الجبل فى الفجر ووطنت نفسها فى هذا المحل النافع ولما رأى الجريسيون ما حل بهم من هذه المصيبة ونظر ليونيداس أن لا طاقة له على مقاومة العدو ألزم الباقى من المتحالفين على القهقرة وبقى هو ونفسه مع ٣٠٠ نفس من اللاسيدومونيين عقدوا نيتهم على الموت مع قائدهم وقطعوا اليأس من النصر أو الفرار ونظروا الى طرموبيلى بنظر أن هذا المحل هو محل مدفنهم وهجم الفرس عليهم فكان أول قتيل ليونيداس وقتلوا عن آخرهم ولم ينج منهم الا واحد هرب الى اسبرطة وأخبر بموتهم فعده أهل اسبرطة من الجبناء وعاملوه معاملة الخائن لبلاده وامتنعوا من النظر اليه حتى من المحادثة معه وخسر أردشير فى هذه الواقعة زيادة عن ٢٠٠٠٠ نفس من ضمنهم اثنان من اخوته ورأى اردشير أن خسارة مثل هذه وقعت فى عسكره تدل دلالة واضحة على شجاعة الجريس ووقوع الرعب والفشل فى عساكره فأمر بدفن جميع الذين قتلوا فى السر قبل انتشار معلومية ذلك فى عسكره الا ١٠٠٠ نفس أمر بابقائهم فى ميدان المحاربة ثم أمر بدفنهم بعد أيضا ومن بعد هذا عبر الفرس درب طرموبيلى وانصبوا مثل الجراد فى داخل الجريس الوسطى وتقدموا الى أثينة بعد أن نهبوا المدائن التى مروا عليها وحرقوها وجعلوها كاما من الرماد وفى هذا الوقت أقلع الاسطول الفارسى وسار حول رأس سينيوم حتى وصل ورسا فى جون فاليرم وكان الجريسيون على غاية من ضعف الحال وأمر أردشير أن ينصب له تخت على سفح جبل اغاليوس حتى يمكنه أن يكشف جميع الاعمال الحربية وأصدر أوامره الى قواد الاسطول بالهجوم على الاسطول الجريسى وكان مؤلفا من ٣٨٠ سفينة فاشتعلت نار الحرب بين الاسطولين فى خليج صرونى على مسافة من جزيرة سلميس واستمر الحرب طول النهار وانجلى عن هزيمة الاسطول الفارسى جميعه مع ما كان عليه من كثرة القوة وجسامتها

ثم أعقب كسر أسطول اردشير فقدان ما كان مصمما عليه من التدبيرات ولما رأى أن لا أمل عنده فى انتصار أسطوله على الجريسيين كما تحقق أنهم ربما يسودوا عليه فى البر كما سادوا عليه فى البحر عزم على ترك الحملة والعود الى فارس ولم يحصل منه أدنى همة فى مقاومة ما أصابه من المصائب وابتدأ فى قهقرة سريعة من الطريق التى جاء منها وأمر الاسطول بالعود مباشرة الى الهلسبون لاجل المحافظة على الجسرين وبمجرد وصوله الى تساليا ترك فيها مردونيوس مع قوة مقدارها ٣٠٠٠٠٠ نفس للمحافظة وصد الجريسيين من تعقبهم اياه على أن يجدد العزم فى السنة القابلة على التغلب على الجريس

وفتحها و جد الملك فى سيره مع مابقى من عساكره نحو الهلسبون وفرغت مخازن ذخائره ومؤناته وهلك الجم الغفير من العساكر من الجوع والتعب والنصب من سفر الطريق ولما وصل الهلسبون وجد الجسر ين مكسورين قطعا من شدة الرياح والعواصف فانجبر على تعدية البوغاز مع جيشه فى مراكب من أبيدوس وفيها تيسر له الحصول على القوت اللازم لعساكره ثم عقد عزم السير على سرديس ومات أغلب العساكر فى الطريق من كثرة ما نالهم من تخمة الاكل والافراط فيه وصار مابقى معه الا القليل من جيشه الزاخر وساق الملك الى عاصمة ليديا ودخلها بهذه الحالة الخسيسة من بعد أن كان سافر منها من مدة ثمانية أشهر فى طنطنة من الجيوش والابهة والآمال الكبيرة

وسنعقد لفصلات هذا الحرب وأعمال مردونيوس بابا مخصوصا فى تاريخ الجريس من الجزء الثانى من هذا الكتاب ونشرح ماحصل من أهل الجريس ومن رجالهم فى شأن هذه الحروب بعون الله تعالى كاشف الغموم والكروب

ويتولد من نتائج الاعمال فى بلاطيا ودمار الاسطول فى نواحى ميخالى ومن توالى المصائب على الفرس سقوط الشوكة الفارسية فى أوروبا وأعقب الجريق مظفراتهم بخلاص جزائر بحر الارخبيل من الفرس وخربواسواحل آسيا وفى ظرف اثنتى عشرة سنة لم تتجاسر مركب من المراكب الفارسية على السير أو الظهور فى البحر الابيض المتوسط مطلقا

ولما وهنت وضعفت أحوال أردشير الاول بالكلية مما حصل له من الخيبة فى خضوع الجريس والتغلب عليها عكف نفسه على الرفاهية وأنواع الملاهى والانبساط وما حصل عنده أدنى همة أو عزم فى مدة ما كان باقيا من سلطنته فى أى مشروع من المشروعات العسكرية ومن الواضح أن الخسارات الكبيرة التى حلت على المملكة أعجزتها وكسرتها وأقعدتها حتى كانت أحوالها لا تسمح لها فى فتح أو فى عمل أى مهم كان مدة من الزمن واستمرت المملكة مدة فى راحة من تعبها ونصبها الاول وعكف أردشير على ماجبلت عليه طبيعته من العار والخزى فى اللذات وأنواع الملاهى فى حريمه وقاد نفسه لحكومة النساء والطواشية وصرف النظر عن مداخلته واشتراكه فى المواد اللازمة للمملكة ومن ثم كانت المدة الباقية من سلطنته مدة فجور وفساد وكان ذلك من ملحقات نهاية سلطنته ثم قتله أرطبانوس قائد خفره فى سنة ٤٦٥ قبل الميلاد بمساعدة حاجبه داسميطريس الطواشى

وذكر بعض المؤرخين أن أردشير الاول هذا هو نفس اسفنديار وأجلس ارطبانوس الابن الاصغر لاردشير على التخت وهو بهمن بن سفنديار ولقب بلقب أردشير درازدشت أى طويل اليد أو الايدى لان يديه كانتا طويلتين حتى اذا وقف وأرسلهما بجانبه وصل كفه الى ركبته وقيل ان احدى يديه كانت طويلة والاخرى قصيرة وكان ارطبانوس قتل الابن الاكبر لاردشير وأجلس أخاه هذا وظن فى نفسه أنه يقتل هذا أيضا ويجلس هو على التخت ويجعل نفسه ملك فارس الا أن الملك من بعد قليل أمر بقتل ارطبانوس عندما تحقق له أن هذا المرزبان هو قاتل أبيه

وفى سنة ٤٦٠ قبل الميلاد عصت ليبيا ومصر على فارس وطلبا مساعدة أثينه وكانت أثينه أصل تحريض هاتين المملكتين على العصيان فأجابت طلبهما وأرسلت اسطولا مركبا من ٢٠٠ سفينة لاجل مساعدة المصريين الا أن الجيش الفارسى نال الظفر والنجاح تحت قيادة المرزبان ميغاباطو وأخمد العصيان وأخذ انادوس ملك ليبيا أسيرا فصلب بأمر أردشير درازدشت وانهزم الاسطول

الجريق وتدمرت مراكبـه وهرب أمرطيس ملك مصر فى الجهات المستنقعة من اقليم الدلتا ولبث مقيمـا فيها نحو ست سنوات وتكبدت أثينه آلام فقدها أسطولها ثم اجتهدت فى تجديد علاها همتها وزيادة شوكتها فى سنة ٤٩٩ قبل الميلاد حتى ان فارس رأت نفسها أنها على خطر من ضياع مصر وقبرص منها فرضى أردشير درازدشت بعقد معاهدة عسكرية ذليلة تعرف بمعاهدة صلح كالياس تقررفيهـا اعتراف فارس باستقلالية جريق آسيا وعهدت على نفسها عدم وقوع رعب أو ارتباك يخل باستتباب راحة الساحـل الغربى من آسيا الصغرى سواء كان من جيشها أو من أسطولها واعترفت أثينة من جهتها بسـيادة فارس على مصر وقـبرص ومن ثم تنازلت فارس عن جميع المدائن البحر يقيـة من باب بوغاز الدردانيل الى حدود فاسيليس فى ليتيا للاتحاد الاثينى وأما المدائن الموجودة على سواحل البحر الاسود فانها بقيت فى حوزة المملكة الفارسية

ومن بعد مضى سنتين أى فى سـنة ٤٤٧ قبل الميلاد غضب ميغاباطوس مرزبان شوريا وأخذه الحنق الشديد بشأن ماحصل من قتل اناروس ملك ليبيا وفسخ عقد الامان الذى كان عقده مع ملك ليبيا وخلع طاعته لفارس فرخصت له بالعود الى الطاعـة تحت شروطه التى يعقدها وكـانت هـذه الشروط مشحونة بالاخطار والمصائب على فارس ثم مات اردشـير درازدشت فى سـنة ٤٢٥ قبـل الميـلاد وخلفه ابنه الفريد الشرعى أردشـير الثانى فتسلطن خمسـة وأربعين يوما وقتـله أخوه صا ئيديانوس أو صغديانوس وجلس هذا على التخت ليكون أضحية لتخته من بعد مضى ستة شهور وقتله أخوص وهو ولد غـير شرعى لاردشـيردرازدشت فجلس على التخت وتلقب باسم دارا الثـانى (أو دارا ب الاول عنـد الفرس) فى سنة ٤٢٤ قبل الميلاد

وتزوج دارا الثانى أو أخوص بنت عمه أردشـير الاول المسماة بارساطيس وانقضت مدة تسعة عشرة من سلطنته تحت أحكامها وتولد من جورها وعنفوان أحكامها أن جعلت للهيجان بابا وفى هـذه المدة حصـل فى المملكة زعازع وقلاقل أزعجت أهـل المملكة وتكبدت آلامها من كثرة وجود الثورات المتتالية واحـدة بعد الاخرى فشرع دارا فى اخماد هـذه الثورات بطرائق غير محمودة وشرع فى الغش والخيانة بين المرازبة ويعدهم ويمنيهم لدخولهم تحت سلطنته بمواعيد عرقوب ثم يقتلهم ومن ثم تولد الغش والفسـاد فى سائر فروع الوظائف والخدامات ومنح عـدة امتيازات واهية لمن بقى من المرازبة فتولد منها فساد شوكة المملكة وفى سنة ٤٠٨ قبل الميلاد قامت ميديا فى ثورة مهولة فأطفئت على الفور لكنها اشتعلت فى مصر فى سـنة ٤٠٥ قبل الميلاد فكانت هذه الثورة أكثر نجاحا من ثورة ميديا لان ملك مصر نفرطيس طرد الفرس من داخل مصر وأقام استقلالية بلاده

وكانت النتيجة الوحيدة من هذه الخسارات جميعها هو استرداد الادارة الفارسية على جريق آسيا الصغرى مرة أخرى وذلك ان دارا انتهز الفرصـة فى مدة الحرب البلوبونيزى أى المورى عندما دخلت فيه أثينة واسبرطه وفاز فى كونه استرد لمملكته مرة أخرى المدائن الجريقية فى آسيا الصغرى واشترك فى الحروب الاوروباوية الجريقية وابتدأ فى ايقاع الشقاق والفساد بين الايالات الجريقيـة وبعضها قاصدا بذلك حصول الوهن والضعف فيها وجعل شوكته وقوته فى صرف ذهبه واستعمله فى جـذب قلوب الجريقيين اليـه حتى صار لا طاقة لهم على مقاومته ومن هـذا العهد الى أن فقـدت الجريس حريتها صار لفارس معظم النفوذ والسلطة فى التداخل فى الاعمال الجريقية

وفى هذا الوقت صار بوظيف كيرش أصغر أولاد ملك فارس مرزبانا على فريجيا وليديا وقبدوثيا فوجه نفسه مع الجمية الى التحالف أو الاتحاد الاسبرطى وأخبر ليصانور الاميرال الاسبرطى بان له رغبة فى بيع تخته الحقيقى حتى يجمع نقودا يصرفها فى الحرب ضد أثينة وكان كيرش فى هذا الوقت صارفا أفكاره وحواسه فى السعى والكد على اقامة نفسه على تخت فارس وكانت غيرته وحميته نحو الاسبرطيون رغبة فى مساعدته على مشروعه هذا وكان محبوبا عند أمه باريصاطيس فطالما كانت تحث دارا على أن يجعله ولى عهده الا أن مساعيها كانت على غير طائل فقلده أبوه وظيفة ملك فى ايالته وحاز بعقله وتدبيره التفات أرباب دولته له وكانت خصاله محبوبة لديهم وكان يرعى جانبهم ويحفظ واجباتهم بوقار لاشبهة فيه فارتاع دارا مما اشتهر به ابنه فدعاه اليه فى فارس فوصل العاصمة فى الوقت الذى مات فيه أبوه وجلس فيه أخوه الاكبر على تخت المملكة

ومن بعد موت دارا الثانى خلفه ابنه الاكبر اردشير درازدشت الثانى وكان يلقب بجيد القريحة فى سنة ٤٠٥ قبل الميلاد فكان أول عمل عمله هذا الملك الجديد أن أمر بحبس كيرش وحكم عليه بالاعدام فقامت باريساطيس واجتهدت ونجحت فى خلاص ابنها بل فى عوده الى مرزبانته أيضا فرجع الى ايالته عازما على عدم ضياع أدنى وقت بشأن وضع مقاصده الطمعية فى موضع العمل والاجراء فجند جيشا كانت زهرته قوة من مستأجرى الجريق بعلة أنه سيجرى حربا على قطاع الطريق الموجودين فى بسيديا وسار من سرديس عاصمة ليديا فى فصل ربيع سنة ٤٠١ قبل الميلاد فلما بلغ أردشير درازدشت الثانى حركته استعد لملاقاته ومن ثم تقدم فى رأس جيش كثيف وسار كيرش بسرعة من فريجيا وصيليصيا وسوريا وعبر الفرات من نواحى طابصاقوس ومن حركة هذا العبور تيقن مستأجرو الجريق المقصد من هذه الحملة وعرفوا حقيقة أمرها الا أن زمن انسحابهم منها انقضى نحبه ولما وصل كيرش الى سهل قوتقصه على مسافة سبعة وخمسين ميلا من بابل وجد طريق سيره مغلوقة بسد من الجيش الملوكى تحت قيادة نفس الملك فهجم الملك أربع هجمات متوالية على قدر طاقة عساكره فقاومه الجريق مقاومة شديدة وأوقع الجريق هزيمة حادة على العساكر الملوكية الموجودين فى مواجهتهم وفى أثناء هذه النصرة اقتحم كيرش قلب الفرس وصدمه وكان تحت قيادة الملك وهجم فى اقتحامه بشدة وبسالة فجرح أخاه فضربه واحد من رجال الخفر الملوكى ورماه من فوق حصانه وأمر فى الحال أردشير درازدشت بقطع رأسه ويده اليمنى وبواسطة موته انتهت حركة الواقعة الا أن حالة العساكر الجريقية الذين شبكهم كيرش فى هذه الحملة صارت على خطر جدا وفى حالة نهائية صعبة لان محالفيهم من الفرس تركوهم وعقدوا صلحا مع الملك الاكبر فوعدهم طيسافريس بارسالهم الى محل مأمنهم وأخرهم عن حركتهم وكان اردشير درازدشت منحه حكومة كيرش واستمروا منتظرين نحوا من شهر ثم سار معهم يداهنهم حتى وصل معهم الى أعلى مياه نهر الدجلة ثم عمل حيلة فى أخذ ضباطهم وقتلهم وكان يوجد بين هؤلاء العساكر واحد من أهل أثينة اسمه كصنفون كان مصاحبا للجيش فى حملة كيرش فمع كونه لم يكن عسكريا وماله دراية بالاعمال الحربية الا أنه جمع كبار الجريق فى منتصف الليل وأراهم ضرورة العمل الذى يلزم اتخاذه فى مثل هذه الحالة وحثهم على أن ينتخبوا من بينهم قوادا مستجدين يسعون فى عودتهم ثانيا الى بلادهم وكانت بلادهم بعيدة عنهم نحو ألف ميل فانتخبوا خمسة قواد كان من جملتهم كصنفون وشرعوا فى القهقرة فى صباح اليوم الثانى وقت الفجر

وكان الزمن فصل شتاء قاصع وليس معهم أدلاء ولا يعرفون سكك الاراضي وكانت طريق سيرهم مارة من العصن المرتفع الشديد الصقيع والبرد من بلاد أرمينية وصار كثير منهم عرضة للثلج وشدة الصقيع والجليد وسار خلفهم الجيش الفارسي تحت قيادة طيسافرنس في مدة حركة قهقرتهم الا أن جودة حركة القهقرة وحسن نظام السير جعل عدوهم لا يتمكن منهم ولا يوقف حركة سيرهم في وقت من الاوقات أو ينتهز فيهم فرصة يفوق عليهم بها زيادة عما هو حاصل لهم من المصائب والتعب والجوع وأخيرا انجح اجتهاد هذه الشرذمة الباسلة نجاحا تاما وشدوا حيلهم رويدا في سيرهم حتى رأوا أخيرا من جبل في الجهة الجنوبية لطرابزون الوادي الرفيع العماد للبحر الاسود على مسافة منهم ولما رأوا البحر انفجرت من قلوبهم أصوات السرور والفرح وزعقوا بصوت واحد البحر البحر فسرى هذا الصوت في باقي القول وشاهدوا بعين التلهف والشوق الى ماشرح صدورهم وتحققوا من نجاتهم وخلاصهم من مشاق أسفارهم وهلاكهم

فتولد من مداخلة هؤلاء العشرة آلاف في ثورة كيرش واشتراكهم معه العداوة والبغضاء عند فارس لاسبرطة مع كونها لم يكن لها دخل في مثل هذه المسئلة وليست مسؤلة عنها ومن ثم انفسخت المعاهدة التي كانت معقودة بين المملكتين وشرعت فارس مجاهرة في كونها تبطش باسبرطة وتنتقم منها لتطير الوقاحة وقلة الحياء الذي حصل منها فمن ثم عزم الاسبرطيون على أن يكونوا هم الضاربين أول ضربة فأدرجوا الموجودين على قيد الحياة من العشرة آلاف نفس في جيشهم وأشعلوا حربا على مرزبانتي ليديا وفريجيا واستمر هذا الحرب ست سنوات أي من سنة ٣٩٩ الى سنة ٣٩٤ قبل الميلاد حصل لاسبرطة فيه الظفر التام حتى ان فارس رأت نفسها أنها على شفا جرف من ضياع جميع ممالكها في آسيا الصغرى وحقيقة لو كان لاسبرطة طاقة على استمرار الحرب مدة قليلة من السنين كان هذا هو نتيجة الحرب ثم ازداد الانحلال والتقسيم في المملكة الفارسية حتى ان مرزبانتي ليديا وفريجيا هزمت أحداهما الاخرى بدل أن يتحدا سوية ويضربا الجريق وأخيرا آل أمر احداهما الى أن قدمت رشوة للاسبرطيين على خلاص أراضيها والهجوم على أراضي عدوتها وكذا من النحوسات والارتباكات التي حصلت لفارس أن المسيانيين والبسيديانيين استقلا عن حكمها وكذا اقرر البغلاغونيون مع شدة جسارتهم استقلالية أنفسهم وظهر على البثنيانيين دلائل العصيان فقابلت فارس هذه القلاقل مع التأمل والتبصر في أمور أحوالها زيادة عما أجراه حكامها من عهد دارا الاول واستعملت مع عدم المبالاة ذهبها ونقودها مبالغها وعقدت محالفة مع ارغوس وقورنثة وأثينة وطيبة ونفسها ضد اسبرطة فتولد من هذا الاتحاد الكبير أن طلب الاسبرطيون قواهم وعساكرهم من آسيا الصغرى لاجل المحافظة على أرضهم وبلادهم واشترك الاسطول الفارسي في واقعة قندوس في الحرب وكانت نتيجة هذا الحرب ارغام اسبرطة على تسليم قيادة البحر وحكمه للمتحالفين وفي سنة ٣٨٧ قبل الميلاد عقدت اسبرطة لاجل سلامة نفسها صلحا كان غير محمود العاقبة عليها يدعى صلح أنطالسيداس وبواسطة هذا الصلح أعادت فارس سيادتها على الاراضي الجريقية في آسيا الصغرى وصار لها النفوذ الحكمي في أعمال الجريس الاوروباوية

وكان أردشير دارازدشت الثاني متشوقا على التغلب على جريس أوروباو مصمما على ما كان في خاطر دارا الاول وأردشير الاول فعاقه عن ذلك عصيان جزيرة قبرص وكانت مصر مساعدة لها على هذا

العصيان اذ أنها كانت مستقلة فى نفسها عملا من عهد مبادى القرن فأخذت هذا العصيان القبرصى بمشقة كبيرة بعد حرب طويل كان مقطوع اليأس من نجاح فارس فيه لكنه ترخص لقائد الثورة ايفاغوراس طاغية سلميس بالبقاء فى سلطنته على دفع خراج زيادة عما كان مضروبا عليه من قبل وكان ذلك فى سنة ٣٧٩ قبل الميلاد وفى نحو سنة ٣٨٤ قبل الميلاد انفجرت ثورة مهولة بين الكادوسيانيين الموجودين على سواحل بحر الخزر فعزم الملك على اطفائها بنفسه فخلص من الهزيمة بواسطة مهارة أحد قواده المدعو طيريباطوس كما أخضع هذا القائد الاقليم العاصى وفى سنة ٣٧٥ احتلت القوى الفارسية جزيرة صاموس وافتكر اردشير درازدشت أن هذه الحالة صارت مبدأ الخضوع عام فى الجزائر الحريقية الأأنه التزم على تأخير ما فى ضميره من العزم بما حصل من استعداد القلاقل مع المصريين وأرسل عليهم جيشا كشيفا تحت قيادة افيقراطيس الاثينى وفرنابا طوس أحد القواد الفارسية فتولد من مشاحنات حصلت بين القائدين عدم نجاح فى الحركة وكذا تولد من معاومة عدم نجاحها تشجيع المرزبانات التى كانت نافرة من فارس فى الاقاليم الغربية فأزيلت هذه الاخطار والقلاقل بواسطة صرف النقود والذهب وانفض المشكل بقتل الذين كانوا سببا فى هذه الثورة

وفى سنة ٣٦١ قبل الميلاد صار تشجيع مصر وتقويتها بمعرفة اسبرطة وعزمت على التغلب على فنيقية وسوريا الاأن هذا العزم ما حصل فيه ثمرة ومن بعد ذلك بقليل مات اردشير درازدشت الثانى فى سنة ٣٥٩ قبل الميلاد وفى مدة سلطنة هذا الملك كان الديوان الفارسى ميدان جور وظلم مستمر لان الفاجرة باريصاطيس أم الملك كانت صاحبة النفوذ والكلمة فى الديوان ففجورها وأفعالها الرديئة التى ما وازنها ولا وزاها أعمال فى التاريخ الشرقى كانت سببا فى انقسام أعضاء العائلة الملوكية مع كراهة وعداوة تمكنت بينهم حتى آل أمرهم الى أن أوقعوا بأنفسهم قتلا وذبحا وقرب البيت المتسلطن من العدم والانقراض فقبض أوخوص الابن الاصغر لاردشير درازدشت الثانى على تخت المملكة وأمر بقتل أخيه الاكبر وقتل أخوه الثانى نفسه بنفسه وجلس على التخت باسم ادرشير درازدشت الثالث واستحوذ على طبائع عنيفة وفظاظة شديدة زيادة عن كل ملك فارسى جلس على التخت من عهد دارا الاول وأمر لاجل تقوية نفسه على التخت بهلاك جميع فروع العائلة الملوكية ما عدا الذين تراأى له فيهم انه لا يحصل له منهم تكدير ولا ارتباك وصمم فى نفسه على عدة أعمال بحربها وفاز فى أن أعاد لفارس هيئة عظمتها الاولى وقوتها مدة حياته ثم تعطل ما كان مصمما عليه من أعماله بواسطة عصيان ارطاباطوس فى آسيا الصغرى وكان عصيان هذا بمساعدة من أثينة وطيبة له فأرسل عليه أوخوص قوة هشمته وأرغمته على الهرب بمدة حياته ملتجئا الى ديوان فيليب ملك مقدونيا فحماه هذا الملك من غوائل فارس ومن ثم تولد ارتباك وقلقلة بين مقدونيا وفارس انفتحت فيه طرق تغلبات اسكندر الاكبر

وأضمر أوخوص فى نفسه على عزم التغلب على مصر وكانت مستقلة فى نفسها من مدة تزيد عن نصف قرن وفى سنة ٣٥١ قبل الميلاد غار على تلك المملكة فانهزم شر هزيمة والتزم على أن يتنازل عن عزمه ورأيه وعاد الى فارس ليجمع جيشا جديدا فقامت عليه الايالات الغربية فى الحال فى عصيان واحد واستقلت فنيقية تحت قيادة صيدا وقام تسع ممالك وطنية فى قبرص وأما فى آسيا الصغرى فانه قام اثنا عشر رئيسا من الرؤساء الصغيرة واجتهدوا فى أن يكونوا ممالك مستقلة وكان أوخوص لا يهين

ولا

ولا يضعف من هذه الاخطار وأصدر أوامره لمرزباناته في أن يشتغلوا بقمع هذه الثورة الصغيرة وأما هو فانه سار في سنة ٣٤٦ قبل الميلاد في رأس جيش كثيف تحت قيادة قواد جريقية وفيه فرقة من مستأجري الجريق مقدارها ١٠٠٠٠ مقاتل لاجل قصاص فنيقية والتغلب على مصر فحاصر صيدا وأخذ جزأ منها بالقوة وجزأ بالخديعة وهرب من الجريق محافظوها نحو ٤٠٠٠ نفس تحت قيادة منطور وانضموا الى الفرس ودخلوا في خدمتهم وخضع الباقي من فنيقية وعاد أوخوص على مصر وفتحها وجعلها مرة ثانية تحت سلطنة مرزبان فارسي ومن هذه الاعمال الجليلة التي كان النصر والظفر منسوبا فيها المهارة القواد الجريقية وشجاعة مستأجري الجريق الذين استخدمهم أوخوص في عساكره صارت فارس في موقع عظيم قوي ومجد بهي ومع هذا فان جور أوخوص الوحشي جعله ألد الاعداء في دوانه حتى انه في سنة ٣٣٨ قبل الميلاد قتله وزيره الاول الطواشي باغواس وقتل باغواس المذكور جميع أولاد أوخوص ماعدا ارصيص فانه كان طفلا صغيرا فأجلسه على تخت المملكة وضبط هو الحكومة في يديه وفي سنة ٣٣٦ قبل الميلاد ارتاع باغواس من تهديدات هدده بها أرصيص فقام عليه باغواس وقتله لكنه لم يتجاسر على أن يتقلد تاج المملكة لنفسه خوفا من حصول قلقلة تقوم عليه من عموم المملكة فقدم الى كودومانوس وهو على ماقيل انه كان حفيد دارا الثاني تاج المملكة وجلس على التخت باسم دارا الثالث وكان أول شغل عمله هذا الملك الجديد أن أمر بقطع رقبة باغواس الطواشي في سنة ٣٣٤ قبل الميلاد وكان دارا الثالث أو دارا ابن دارا أجل ملك جلس على تخت فارس الا انه ما كان مستحوذا على المهارة وحزم الرأي في التدبيرات اللازمة لحفظ مملكته من الاخطار والقلاقل التي انفجرت فيها في مبادي سلطنته وذلك انه من قبل جلوسه على التخت كان حصل الشروع في الحرب المقدوني ومن عهد واقعة مرثون كان الحرب بين الجريس وفارس منظور الوقوع الا أن الذهب الفارسي كان له طاقة على توقيف هذا الحرب الى هذا الوقت الذي جلس فيه دارا الثالث على تخت فارس ولم يحصل لدارا أدنى تأثير مما كان حاصلا من اسكندر ملك مقدونيا من التهديدات واستصغر في نفسه هذا الملك وقال انه ولد طائش العقل فرحان بشبابه وملكه فمهما حصل عنده من الالتفات والاعتنا في محاذرته من هذه المشاكل فلا بد من أن اسكندر يقهره بواسطة مهارة وحذاقة أعماله في آخر أمره الا انه ترك الامور تجري في مجاريها فهدد دارا أشغال هذا الفاتح وسوى له طرائق التغلب على مملكته ولما رأى ماهو حاصل من المقدونيين من العصيان والتهديدات الجارية من تغلبهم على آسيا الصغرى جند قوة كبيرة في نواحي ميسيا المقابلة المقدونيين وأرسل أسطولا قويا لمقابلة المقدونيين في الهلسبون (الدردانيل) ومنعهم من عبوره ومع هذا فكانت هذه الاعمال على غير طائل وعبر اسكندر وجاز الدردانيل في فصل ربيع سنة ٣٣٤ قبل الميلاد وجند قوة مقدارها ٣٥٠٠٠ مقاتل على ساحل آسيا وأشار ممنون وهو قائد روديائي في خدمة دارا على دارا أن يتجنب الحرب في آسيا ويعبر بحر الارخبيل بجميع جيشه ويغير على مقدونيا ويرغم اسكندر بالعود والانسحاب من آسيا فرفض دارا هذا الرأي وكان ممنون من أمهر قواد الفرس وأحزمهم رأيا وتدبيرا فعقد مجلسا من قواد الفرس ونواب الحكومة الفارسية في آسيا الصغرى وكان هو قائد جميع ساحل آسيا الصغرى وأشار عليهم بعدم المخاطرات في الحروب وقال انه يجب تخريب السهول حتى المدائن وتحريق كل ما يحصل منه فائدة تعود على جيش اسكندر في

المستقبل حتى يقحط الجيش ويلتزم اسكندر على العود الى أوروبا ثانيا فرفض المجلس رأيه هذا ومن بعد هذين الرأيين لم يبد ممنون رأيا وعزم الفرس على مقاتلة المقدونيين والجريق وصدهم عن التقدم والسير فى آسيا الصغرى ومازال اسكندر سائرا بجيوشه فى آسيا الصغرى يفتح فى ايالاتها حتى تقابل مع جيش الفرس فى نواحى غرانيقوس وهونهر فى ايالة فريجيا وكان المرزبانات ونواب الحكومة الفارسية منتظرين حضوره فى الجهة الاخرى من النهر وعازمين مع الثبات وشدة البأس على صده ومنازعته عبور النهر وكان جيش الفرس مؤلفا من ١٠٠٠٠٠ مقاتل من المشاة ومانيوف عن ٢٠٠٠٠ فارس خيال وسار اسكندر فى هذا الوقت فى رأس جيشه الثقيل معبياعساكر المشاة فى صورة حذائين والخيالة فى الاجنحة ولما وصل الى شواطئ النهر أشار برمنيو وهو أول قائد تحت يد اسكندر وعليه معتمده أن يعسكر فى هيئة تعبيته هذه حتى تجد العساكر لانفسهم اراحة ولا يعبروا النهر الا فى صباح اليوم الثانى لان العدو ربما يكون له طاقة على صدهم ومنعهم وكذا من الخطر الاكبر والضرر الاحمر تعديته نهر على مرأى من العدو خصوصا اذا كان النهر عميقا وواقف الجروف والشواطئ ومن هذا ربما يهزم عساكر خيالة الفرس المستعدين على الشاطئ المقابل فى تعبيتهم العساكر قبل وصولهم الى البر واستعدادهم لمقابلتهم فرفض اسكندر هذا الرأى وقال من العار والفضيحة علينا أننا بعد أن كابدنا عبورنا بوغاز الدردانيل وانتصرنا على عدونا ونلنا تعديتنا نخشى من تعديه مجرى ماء وكانت خيالة الفرس الكثيرة العدد مرصوصة فى طول الشاطئ ومشكلة مواجهة طويلة لمعارضة ومقابلة اسكندر فى وقت كده وسعيه فى التعدية وكذا كانت عساكر المشاة معسكرة خلف الخيالة وكان معظم المشاة من الجريق الموجودين فى خدمة دارا

واستمر الجيشان على مرأى من بعضهما على شاطئ النهر منتظرين حصول حركة فأما الفرس فكانوا منتظرين دخول المقدونيين فى النهر والهجوم عليهم حال وصولهم الى البر وأما المقدونيون فكانوا ينتخبون معبرا صالحا للتعدية النهر منه ومحاذرين من صد العدو اياهم ولما تم لاسكندر ذلك الانتخاب أمر بجلب حصانه فركبه وأمر أرباب دولته باتباعه وكان هو نفسه قائدا الجناح الايمن وبرمنيو قائدا الجناح الايسر وأمر الملك بسير فرقة قوية الى النهر فى الابتداء وتبعها هو مع الباقى من قواه وأمر برمنيو أن يتقدم بقوله شيأ فشيأ وساق العساكر الى النهر وضربت الطرمبيطه وزعقت البوقات والنفيرات وضرخ الجيش بصوت واحد

ولما شاهد الفرس الفرقة الاولى آخذة فى التقدم فى التعدية ابتدؤا فى رمى سهامهم وحرابهم عليهم ووجهوا الى محل قليل الانحدار من الشاطئ لاجل صد المقدونيين من العبور واشتغل الخيالة بالخيالة فى محاربة شديدة هؤلاء مجتهدون فى الطلوع على البر وهؤلاء مجتهدون فى صدهم من طلوعهم على البر فانجرح كثير من المقدونيين بما أنهم قليلو العدد وليس لهم مجال يخوضون فيه معامع الحرب وأخذتهم الهزيمة فى الابتداء بعد أن قتل منهم الصف الاول فوصل اليهم اسكندر وكان تابعا لهم على قرب وقواهم بعسكره وجعل نفسه فى رأسهم وأحيا أرواحهم بوجوده واقتحم اسكندر مع عسكره الفرس وشتت شملهم وتبعه سائر الجيش وعبروا النهر وهجموا من كل جهة على الفرس وهجم اسكندر على القسم الاعظم من خيالة العدو وكان فيه معظم القواد والحكام واشتبك القتال وعظم الولوال وكانت الحملة مهولة من طرف اسكندر وتضاربه الرجال كأنهم على الارض ولو انهم كانوا على ظهور الخيل واجتهد كل

واحد

واحد فى صد عدوه وكان سبيطر وهاطيس نائب حكومة يونيا وزوج بنت دارا ممتازا فوق جميع القواد بعلو همته وشجاعته ومعه أربعون من كبار الفرس كلهم أقاربه مشهورون بالحروب فكان هذا كلما توجه الى جهة زعزعها وأوقع الفشل فيها وأزعجها فنظر اليه اسكندر ولما رأى من شجاعته ما يدهش العقل ضرب حصانه بمهموزه وتقدم اليه واشتبك الاثنان فى الحرب وكل منهما وجه مزراقه على الآخر وجرح بعضهما بعضا الا أن الجراحات كانت خفيفة فأخذت سبيطر وهاطيس الحدة والغضب وكان السيف فى يده فطوحه وأراد أن يضرب به اسكندر فضربه اسكندر بمزراقه فى وجهه فرماه تحت أقدامه وفى هذا الوقت حمل روزاسيس أخو هذا البطل على اسكندر وضربه ضربة شديدة على رأسه ببلطة فكسرت خودته وشجت رأسه شجا خفيفا فاراد أن يضربه الثانية عندما ظهرت رأسه من خودته فضرب كليطوس روزاسيس على يده بسيفه فقطعها ونجى حياة مليكه ومن وقوع هذا الخطر لاسكندر استحيت أرواح عساكره وانصب العساكر الخفيفة من كل جهة على خيالة الفرس ورموا عليهم مطرا من السهام والرماح وحملوا عليهم حملة واحدة بالحراب والمزاريق حتى صار لا طاقة للفرس على الثبات لحملة المقدونيين فشرعوا فى الفرار ولم يعقبهم اسكندر بل عاد لاجل الهجوم والغارة على المشاة

وقال بعض المؤرخين ان عساكر المشاة كانوا على قدم ثابت حال هجوم مشاة المقدونيين عليهم الا أنهم لما رأوا أن خيالة المقدونيين أحاطتهم فى هجومهم من كل جانب لم يحصل منهم طول فى المقاومة بل فروا جميعا وأما الجريسيون الذين كانوا فى خدمة دارا فانهم التجؤا الى جبل ينتظرون ماذا يفعل بهم اسكندر فاشعل فيهم نار الحرب وقتل منهم ٢٠٠٠ نفس وأسر الباقى وكان الذى قتل فى هذه المعركة من الفرس ٢٠٠٠٠ من المشاة و ٢٥٠٠ من الخيالة ومن المقدونيين قليل ولما حطت الحرب أوزارها وتشتت شمل الفرس أمر اسكندر بدفن المقتولين جميعا من الجيشين على حد سواء وأصدر أمره بان كل من مات من المقدونيين ومن عساكره فى هذه الواقعة يرفع عن ابائهم وأولادهم كل صنف من أصناف العوائد والضرائب والخدمات العسكرية وأمر بوضع الذين أسرهم من الجريق فى الحديد وأرسلهم الى مقدونيا يشتغلون فيها الاشغال الضرورية للمملكة نظير خدمتهم لدارا وبهذه النصرة أصبحت اسيا الصغرى فى يد اسكندر ثم جمع دارا جيشين جديدين وفى فصل ربيع سنة ٣٣٣ قبل الميلاد جدد العزم ثانيا على توقيف سير اسكندر وهجم على اسكندر وجيوشه بالقرب من مدينة عصوص فقوبل من اسكندر بهزيمة حاطمة تشتت فيها جيشه وانجبر هو على الهرب وأسرت زوجته وأمه وأولاده وعاملهم اسكندر بالشفقة الزائدة ورتب لهم الرواتب الكافية وسنأتى بمفصلات هذه الواقعة فى تاريخ اسكندر فى الجزء الثانى ان شاء الله تعالى رب العالمين

ولما طرد اسكندر دارا من آسيا الصغرى تغلب فى السنتين التاليتين على فنيقية ومصر وسوريا وأضاف هذه الممالك الى مملكته ثم سار متوجها الى الفرات لاجل اتمام فتح المملكة الفارسية وكان دارا جمع قوة مملكته واستعد بكل ما يلزم له لوقوع واقعة نهائية فتقابل الجيشان فى السهل الاشوريانى الواسع الكائن فى شرقى نهر الدجلة وكانت الواقعة بالقرب من اربل فانهزم الفرس وهربوا وهرب دارا أيضا الى مدينة اربل على مسافة عشرين ميلا من محل الواقعة فقبض عليه قواده زاعمين أنهم يخلصونه من اسكندر ويحصل لهم بوجوده معهم الفوز والنجاح وأوثقوه فى الحديد وأرغموه مصاحبتهم فى

الى قهقرخلف اربل فأسرع المقدونيون فى السوق خلفهم ومنعوهم من الهرب فعادوا على الملك وأثخنوه بجراحات مهلكة وتركوه ملقى على قارعة الطريق يموت فكشف أحد العساكر المقدونية الملك المصبوغ بدمائه فاستغاث بالعسكرى فى أن يسقيه شربة ماء فأتاه بقدح من الماء شربه فشكر دارا كرم عدوه وقال له ان عدم مقدرته على مكافأته فيما فعل معه من صنيع العمل يضاف الى مرارة ساعة موته وأوصاه أن يعرض لاسكندر أن يصنع المعروف بقتل وابادة وتدمير من كان سببا فى انصباغه بهذه الدماء وبأخذ بثأره منهم ثم خرجت روحه ووصل اسكندر من بعد موته بقليل وأسف كثيرا على موته وغطى جسمه ببرنسه وأمر بدفنه فى بذركادى مع الاحتفال الملوكى وقرر جميع ما يلزم لتربية أولاد دارا وسنأتى بتفصيلات هذه الواقعة فى تاريخ اسكندر وكانت واقعة اربل ختام عاقبة المملكة الفارسية وأخضع اسكندر جميع ممالكها وأضافها الى مملكته

﴿ الكتاب العاشر ﴾

﴿ تاريخ المملكة الفارطية ﴾

﴿ الباب الاول ﴾

﴿ من ابتداء تشييد المملكة الفارطية الى سقوطها ﴾

وصف مملكة فارطية ــ وصف الفارطيين ــ قيام المملكة الفارطية ــ الملوك القديمة ــ الحروب مع سوريا ــ حملة انطيوقوس الاكبر ــ المعاهدة بين فارطية ورومة ــ انتشاب حرب رومة على فارطية ــ هزيمة قراصوص ــ عزم رومة على التغلب على فارطية ــ الحروب بين فارطية وجمهورية رومة ــ سلطنة أرصيص الخامس والعشرين ــ هزيمته بواسطة الامبراطور طراجان ــ الحرب بين ولوغيصيص الثالث ومرقوص عورليوص ــ حرب آخر مع رومة ــ أرصيص الثلاثون ــ عصيان الفرس ــ سقوط المملكة الفارطية بغتة

تعادل فارطية الاصلية على وجه التقريب فى السعة والامتداد اقليم خورسان الفارسى الجديد وطولها من الشرق الى الغرب نحو من ٣٠٠ ميل وعرضها من ١٠٠ الى ١٢٠ ميلا فتكون مساحتها ٣٣٠٠٠ ميل مسطح وهذا الاقليم عبارة عن أراض جبلية فى الجهة الشمالية منه وأراض سهلة فى الجهة الجنوبية ولم يكن علو السلاسل الجبلية الموجودة فيه كبيرا جدا ومن النادر أن تزيد الارتفاعات فيها عن ٦٠٠٠ قدم ومعظم جبالها خالية جدا شعثة المنظر الا أن الوديان الكبيرة بعضها مشهور بالغنية والخصوبة الجيدة وتروى البلاد الجبلية بواسطة عدة أنهر خارجة من جبالها وأرض المفازة أو السهول الواقعة فى الذيول الجنوبية لهذه الجبال هى التى كانت مرعية عند القدماء بفارطية الاصلية أو الحقيقية وطولها نحو من ٣٠٠ ميل وخصوبتها تابعة لطرائق ريها وكانت المنطقة الخصبة فى الزمن القديم أعرض مما هى عليه الآن وكانت أعمال الرى حاصلة فيها بكثرة واعتناء تام الا أنه لا يمكن مد السهل زيادة عن عشرة أميال خلف ذيل الجبال بما أنه من بعد هذه المسافة تبتدئ الصحراء الملحية وتكون الزراعة غير ممكنة وبمقارنة أرض فارطية بالاراضى المحيطة بها

نجد أنها بقعة جنة أو بستان وكانت مرعية عند ملوك الفرس بانها احدى الاقسام والجهات العظيمة عندهم وفى ممالكهم وكانت ممدودة من جهة الشمال بخوارزم ومراغة ومن جهة الشرق بواسطة أرياو من جهة الجنوب بواسطة سرتغية ومن جهة الغرب بواسطة لغربطية وهرقانية ومواقع فارطية بهذه الحالة هو الذى جعلها دولة ذات شوكة قوية وكانت ذات محصولات وافرة فى داخل أرضها وكانت أرضها صالحة جدا للنتاج جنس قوى صلب من الناس والفارطيون هم قوم من الجنس الطورانى مثل قبائل التركمان والتتار يقضون جميع عيشتهم على ظهور الخيل فيتحادثون ويجرون أشغالهم ويبيعون ويشترون حتى يأكلون وهم على ظهور خيلهم وعندهم تعدد الزوجات ويحجبون نساءهم من نظر الاجنبي ويعاقبون على الخيانة وعدم الذمة بأشد العقاب ولهم معاناة شاقة على الصيد وقل أن يأكلوا لحوما الا ما استحصلوا عليه من الصيد وهم على حالة متوسطة من المأكول الا أنهم كثيروا الشرب وقليلو الكلام وقليلو الهدو والراحة أهل غارات وشرور فى بلادهم وفى الخارج والقليل من هذه الملة حر فى نفسه وما بقى أرقاء لقليلين منهم ممتازين بامتيازات مخصوصة عندهم وعادتهم الظعن والنزول وهى عادة باقية عندهم فى داخل بلادهم حتى فى وقت حصول الفلاح الداخلى لهذه المملكة وعندهم السماجة والفظاظة وعوائد بربرية مرتبطة بهم دائما أبدا حتى على القسم الاعظم من كبار ووجوه الامة والملك وأرباب دولته والامراء على العموم وهى عادة تزيل بهجة التمدن وصفاءه حتى ان تلك الاوصاف بينهم فى معاملتهم مع بعضهم ومع الامم الاجنبية وتلقب الفارطيون فى الازمان القديمة بالترك لانهم متحدون معهم فى الجنسية وكانوا حكاما على نفس هذه البلاد وكان الفارطيون فى عز علو درجتهم وشوكتهم أهل توحش وبربرة مكروهين فى الظاهر خائنين فى الحروب كسالى وغير مهذبى الاخلاق فى وقت السلم ومع ذلك كانوا أهل شجاعة واقدام ومحبة للحروب وحازوا كثيرا من الخصال والفضائل التى قربتهم لان يصيروا ملوكا وما خضعوا للرومانيين فى عز شوكتهم وعلو مجدهم واستمروا على استقلال أنفسهم الى حد سنة ٢٢٦ بعد الميلاد حتى سقطوا تحت أقدام مملكة فارس الجديدة وعجزت رومة عن طاقتها فى تصرفها مع هذه الامة الحربية العنيفة عندما سجد جميع الدنيا القديمة لطاعة الجهورية والمملكة وبقيت فارطية مستقلة تحت حكم ملوك منها

وكانت فارطية قسما من أقسام المملكة الفارسية فى الايام القديمة وكانت محكومة بمرزبان وبمجرد سقوط مملكة فارس صارت قسما من مملكة اسكندر على ما كانت عليه فى سابق حالتها ولما مات اسكندر انتقلت تحت حكم سلقوس خليفة اسكندر على بلاد آسيا وصارت تحت حكم ملوك سوريا الى سنة ٢٥٥ قبل الميلاد وكانت السلطنة السلوسيدية الى هذا الوقت فى هدو وحال وراحة بال حتى سعى الفارطيون أول مساعيهم فى خطف قضيب السلطنة من السلوسيديين وتلقب ملوكهم بلقب الاشكانيانية أو ملوك الطوائف وعلى ما قيل ان سلطنتهم كانت عبارة عن رؤساء صغيرة يلقبون بالملوك يرجعون فى أحكامهم الى حكومة مركزية تحت رئيس يلقب بملك الملوك أو شاهنشاه واستمرت السلطنة الاشكانية نحوا من خمس قرون أو ٤٨٠ سنة والمدة التى كانت فيها هذه السلطنة احدى المدد المبهمة الغير معروفة عند مؤرخى الشرقيين حتى ان الفردوسى صاحب الشاهنامه لم يذكر عنهم شيأ واذا راعينا هذه المدة عند مؤرخى الرومانيين نجدها مشحونة بحوادث هذه الامة التى كانت متعاظمة فى نفسها ومغرورة فى ذاتها وأن الملوك الفارطية الذين ما أمكننا تيسر الحصول على أسمائهم من تاريخ

نفس بلادهم كانوا هم الملوك الذين ماقدرت الجيوش الرومانية وهم فى أعلى درجات مجدهم أن يخضعوهم ويجلبوهم تحت ناف مملكتهم

وقد وصف ميرخوند وكان أجل المشهورين من أهل بلاده هذه فى تسجيلاته السنوية بأن أصل الملوك الفارطية الملقبين بالارصيصانيين أوالاشكانيانيين منسوبين الى أشك أوأشج من ذرية ملوكهم القديمة وكان رئيسا صغيرا نال مسعدة أهل بلاده بكونه أذاع انه استحوذ على العلم الفارسى الملوكى وهو درفش كايان وكان عمه خلصه من المقدونيين عندما انهزم دارا وقتل ومن بعد أن قتل العامل أرطاحيش أوأبطحاحيش دعا رؤساء الاقاليم لينضموا اليه ضد العائلة السلوسيدبانية ويكونوا فى جامعة واحدة لاجل خلاص بلادهم من الناف الاجنبى ومن هذا الاتحاد تسمت العائلة الاشكانيانية أوالارصيصيانية بملوك الطوائف

وقال آخرون ان أرصيص قائد الثورة على المملكة السلوسيديانية كان قائدا من صيطيا كبير جماعة من صيطى دهاى أوضاهاى منسوبة الى الضاغستانيين من شواطئ نهر أوخوس هاجر الى فرطيا ونال فى أراضيها درجة الارتقاء ومن المحتمل انه كان يوجد قرابة بين مهاجرى ضاهاى والسكان القديمة لهذا الاقليم حتى امتزج الجنسان ببعضهما وصارا أمة واحدة والظاهر أن كلا من الجنسين كان طورنيا فى الاصل وانقرض الجنس الضاهاى بالكلية حتى صرنا لانسمع عنه شيأ فى حوادث التاريخ وان أرصيص لما أخذه الغضب والحنق الشديد من اساءة شديدة حصلت من حاكم الاقليم فى حق أخيه الاصغر طريداطيس لم يملك نفسه أن جمع قليلا من أحبابه وأصحابه وقتل الطاغية ولما رأى حزبه آخذا فى الزيادة أضمر فى نفسه على طرد المقدونيين وشرع فى مشروعاته هذه وتممها وجعل نفسه ملك فارطية وامتدت سلطنته سنتين صرفهما فى تقرير سلطنته على أهل فارطية وكان البعض منهم معارضا له فى سلطانه وخلفه أخوه طريداطيس أو أرصيص الثانى فى سنة ٢٥٣ قبل الميلاد وكان ساعده فى ثورته وصعد الملك الجديد على التخت وتلقب بلقب أرصيص الثانى وأهم حادثة حصلت فى مدة سلطنته هزيمة سلقوس فالينقوس وألزمه الاقرار والاعتراف باستقلال فارطية وخلفه ابنه أرصيص الثالث فى سنة ٢١٦ قبل الميلاد ومن بعد مضى سنتين من سلطنته أغار على ميديا وهدد الحكومة السوريانية فى اغتصاب ميديا منها فسار اليه انطيوقوس الاكبر وطرده من ميديا وأغار على فارطية وأخذ عاصمتها وسار خلف أرصيص فى داخل هرقانية وهزمه فى واقعة دموية وقعت بينهما ومع هذا فان انطيوقوس وجد من المستحيل عدم خضوع هذه البلاد فقرر مع حزم الرأى صلحا أثبت فيه لارصيص ملك فارطية وهرقانية والصحيح أن هذه السلطنة نشرت أعظم أحكامها الى سنة ١٩٦ قبل الميلاد

ومات أرصيص الثالث فى سنة ١٩٦ قبل الميلاد وخلفه الملك الرابع الملقب بأرصيص الرابع وكانت مدة سلطنته خالية الوقائع والحوادث وفى سنة ١٨١ قبل الميلاد جلس أرصيص الخامس وهو فرعاطيس على التخت وفى سنة ١٧٤ قبل الميلاد ترك سلطنته لاخيه متريداطيس وتلقب بلقب أرصيص السادس وكان ملكا جليلا مهيبا ذا شجاعة واقدام فى الحروب تغلب على ميديا والسوس وفارس وبابل وبقطريا (أى بلخ) وأسس المملكة الفارطية وكان حدها الغربى نهر الفرات وكانت مدة سلطنة أرصيص السابع من سنة ١٣٦ الى سنة ١٢٧ قبل الميلاد وأرصيص الثامن من سنة

١٢٧ الى سنة ١٢٤ قبل الميلاد خالية من الوقائع والحوادث وكان متريداطيس الثانى أو أرصيص التاسع الملقب بالاكبر ملكا قوى الشوكة عالى الهمة ذا شجاعة واقدام فى معامع الحروب طرد القبائل الطورنيانية من ثغوره الشمالية وكسر شوكتهم وأذلهم ووسع المملكة الفارطية من جميع أطرافها باجراء حروب عديدة طويلة ومن ثم صارت فارطية هى المملكة الثانية من بعد رومة التى هى أقوى مملكة فى الدنيا القديمة وتسلطن من سنة ١٢٤ الى سنة ٨٩ قبل الميلاد ومن ابتداء هذه المدة صار تاريخ فارطية خالى الحوادث والوقائع وغير محقق الاحوال حتى جلس على التخت فرغاطيس الثالث أو أرصيص الثانى عشر فجلس على التخت فى سنة ٦٩ قبل الميلاد فى الوقت الذى طردت فيه رومة متريداطيس الاكبر من مملكة بونطوس على سواحل البحر الاسود وشبكت أرمينية فى الحرب وتحالف مع فارطية المملكتان المتحاربتان الا أن فارطية استمرت مدة من الزمن فى حيادة منهما ولما تقلد بومبى زمام القيادة الرومانية فى الشرق نجح فى كونه أدخل فرعاطيس فى محالفة معه وأغار فرعاطيس على أرمينية واحتل طيجرانيس ماتركه بومبى حال سيره للتغلب على مملكة بونطوس ولما تم مرغوب الرومانيين من التغلب على بونطوس عقدوا شروطا مع طيجرانيس حتى انهم ساعدوه على فارطية سنة ٦٥ قبل الميلاد وأما اقليم غورديانة الذى كان احتله فرعاطيس فان الرومانيين اغتصبوه منه وأعطوه الى أرمينية فاعترض فرعاطيس مع بومبى وعاتبه فى نقض ونكث هذه الذمة فأصم الرومانيون اذانهم بشأن هذا الاعتراض والعتاب ومن ثم عقد فرعاطيس شروطا مع طيجرانيس وانتهى الحرب الذى كان بينهما فى نحو سنة ٦٣ قبل الميلاد وفى سنة ٦٠ قبل الميلاد مات ملك الفارطيين مسموما والصحيح أن الذى سمه ولداه وبواسطة الحرب الذى أجرته رومة مع بونطوس استحوذت على كل سوريا وامتدت ممالكها الى الحد الغربى للمملكة الفارطية وهو نهر الفرات ثم وقع التباين والخلاف بين هاتين المملكتين الكبيرتين القاسمتين للدنيا القديمة واستمر هذا التباين عبارة عن مجرد مسائل الوقت

ثم ان متريداطيس الثالث أو أرصيص الثالث عشر خلف أباه ولما مات طيجرانيس الاول فى أرمينية خلفه على التخت ابنه الثانى فغار فى الوقت متريداطيس على أرمينية لاجل اعادة الوارث الحقيق على تخته وكان صهره غير أن مساعيه صارت على غير طائل وأغضب الملك المتسلطن فى أرمينية من جهته ومن بعد مضى بضع سنين خلع أمراء الفارطيين متريداطيس عن التخت وجعلوا أخاه ملكا مكانه فسار الى بابل وأقام فيها مدة من الزمن وأخيرا ضبط وقتل فى سنة ٥٥ قبل الميلاد

ولما صار عورود يس أو أرصيص الرابع عشر ملكا بدل أخيه فبمجرد جلوسه على التخت انشبك فى حرب مع رومة وكان يظهر من حروب فارطية مع بونطوس وأرمينية للرومانيين أن المملكة الفارطية أغنى وأقوى مملكة زيادة عن أى مملكة شرقية حتى انهم لغاية هذا الوقت ماقربوها ولامسوها بسوء فانها فى الحقيقة كانت هى الدولة الفريدة التى ماخضعت مطلقا لرومة حتى ثارا الحسد والغيرة والحمية فى رأس الجمهورية الرومانية من وجود مملكة قوية مهولة بهذه الحالة عدوة لها ومن ثم عقدت النية على حرب معها وأعلنت رومة عليها الحرب من دون أدنى حجة تقيمها عليها فى أى شئ من الاشياء فى سنة ٥٥ قبل الميلاد وفى سنة ٥٤ قبل الميلاد أغار قراصوص على فارطية فى رأس جيش كثيف جرار فهزمه عورود يس شر هزيمة وقتله شر قتلة وفى سنة ٥٢ وكذا فى سنة ٥١ قبل الميلاد عبر جيش فارطى قوى نهر الفرات تحت قيادة بخوروس بن عورود يس وولى عهده وجاس خلال الاراضى الرومانية

وغريها وتغلب مع العجلة على سوريا العليا واستشعرت صيليصيا وانطاكية بالبطش والانتقام الفارطي ولما اوتابحور ودس من اطاعة ابنه له دعاه اليه وسحب جيشه من خلاف الفرات ومن بعد مضى احدى عشرة سنة أى فى سنة ٤٠ قبل الميلاد عبر الفارطيو مرة أخرى نهر الفرات تحت قيادة بخوروس وأغاروا على سوريا بمساعدة ليبانوس الرومانى وكان التجأ الى سلطنتهم وهزم جيشا رومانيا كان متعرضا له فى طريقه تحت قيادة سيديوس سافصه وتغلب على أنطاكية وابيا وصيدا وفنيقية وأخذ أورشليم ونهب كل هذه المدائن ووقعت سوريا وفلسطين وفنيقية فى أيدى الفارطيين ومن بعد هذا اتجهوا نحو آسيا الصغرى وأخضعوا جميع الساحل الجنوبى الى حد كاريا وفى هذه الجهة صدهم الجيش الرومانى تحت قيادة ونطيديوس وهزمهم وقتل ليبانوس فى سنة ٣٩ قبل الميلاد

ولم يعش عورودس زمناطويلا لمشاهدة هذه المصائب بل مات فى سنة ٣٧ قبل الميلاد وخلفه ابنه الثانى فرعاطيس الرابع أو أرصيص الخامس عشر وفى سنة ٣٦ قبل الميلاد أغار الرومانيون على فارطية تحت قيادة مارك انطونى ومن بعد أن نال أنطونى بعض مظفرات قليلة ذاق وبال هزيمة عظيمة وقعت عليه من الفارطيين وارتد ناكصا على عقبيه الى سوريا وما حصل من الفارطيين أدنى اجتهاد فى عبور النهر خلفه وكان لم يزل حدا بينهم وبين الممالك الرومانية واكتفوا بحفظ ممالكهم وأما الرومانيون فانهم تحققوا جيدا من شوكة الفارطيين وقوتهم واقدامهم وصداقتهم فى الحروب

ومن ابتداء هذا الوقت الى مبادى القسم الاول من القرن الاول من بعد تاريخ المسيح كان تاريخ الفارطيين خاليا من الحوادث والوقائع وقليل الاهمية وما كان فيه الاحكاية تعاقب ملوك ودسائس فى العائلة الملوكية ووقوع مشاحنات فى أهلها شوشت سلطنتهم وأقلقت داخلية بلادهم ثم ان الرومانيين ماشرعوا فى اجراء أى حرب رسمى على فارطية فى أثناء هذه المدة الا أنهم قووا الارتباكات والقلاقل الداخلية فى هذه المملكة وكدروا عليها عيشتها وفى هذه المدة عصت أرمينية أيضا على فارطية بمساعدة الرومانيين وصارت خراجية لرومة وفى سنة ١٠٧ بعد الميلاد جلس خسرو أو أرصيص الخامس والعشرون على التخت وكان أول عمل عمله هو عود سلطنته على أرمينية فتولد من هذا أن جلب على نفسه انتقام رومة وبطشها وأسرع الامبراطور طراجان فى التغلب على أرمينية وجعلها ايالة رومانية من دون حصول أدنى مقاومة ثم سار فى رأس جيش قوى جرار على ميزوبوتاميه أى العراق وأشوريا وتغلب على مدائن هذه الجهات وأضافها الى ممالكه ثم انحرف الى نحو الجنوب وتغلب على سلوسيا وطسيفون وبابل ونزل منحدرا فى نهر الدجلة حتى وصل البحر واستحوذ على طاعة ميسان وهو اقليم من فارطية على الخليج الفارسي ومد فتوحاته الى جهة الشرق الى حد السوس والى هنا التزم الوقوف بسبب ما حصل من الثورات العديدة التى اشتعلت فى الممالك التى تغلب عليها وتولد من هذه القلاقل والاخطار انسحابه الى سوريا واستردت فارطية جميع ايالاتها ماعدا أرمينية وميزوبوتاميه وأشوريا لان طراجان كان وضع فيها قوى كافية لحفظها من الفارطيين ولما صار هردريان امبراطور رومة فى سنة ١١٧ بعد الميلاد تنازل عن جميع ما تغلب عليه طراجان وسحب جيوشه فى داخل خط الفرات ومن ثم استلمت فارطية حدودها الاولية ونضلت مع رومة فى ارتباطات وعلاقات ودية الى أن مات خسرو فى سنة ١٢١ بعد الميلاد

ولما مات خسرو خلفه ابنه ولوغيصيص الثانى أو أرصيص السادس والعشرون فتسلطن من سنة

١٢١ بعد الميلاد الى سنة ١٤٩ واستمر فى العلاقات الودية التى كان عقدها أبوه مع رومة ولم يحصل منه أدنى سعى فى أخذ أرمينية من رومة ثم خلفه ولوغيصيص الثالث أو أرصيص السابع والعشرون والصحيح أنه كان ابنه وتسلطن هذا الملك من سنة ١٤٩ الى سنة ١٩٢ بعد الميلاد واستمر فى مبادى أمره على صداقة رومة وفى سنة ١٦١ بعد الميلاد بمجرد جلوس الامبراطور مرقوص أوريليوس عزم على اغتصاب أرمينية من الرومانيين ونجح فى مبادى أمره وتغلب على أرمينية وهزم جيشا رومانيا كان تحت قيادة سوريانوس نائب حكومة قبدونيا وقتل قائده وعبر الجم الغفير من الفارطيانيين نهر الفرات ونهبوا سوريا وخربوها فاستعد الرومانيون استعدادا كبيرا تحت قيادة ويروس وطردوا الفارطيين من سوريا ومن أرمينية وساروا خلفهم حتى دخلوا بلادهم وأخذوا سلوسيا وطسيقون عاصمة المملكة الفارطية وبابل وحرقوا السراية الملوكية فى طسيقون سنة ١٦٥ بعد الميلاد فعقدت فارطية صلحا تنازلت فيه عن ميزوبوتامية وأعادت أرمينية الى الرومانيين

وجلس ولوغيصيص الرابع أو أرصيص الثامن والعشرون على تخت أبيه فى سنة ١٩٢ بعد الميلاد فاشتبك فى حرب مع رومة من أجل مساعدته بصنيوس نجيرة فى سنة ١٩٣ بعد الميلاد ودخل جيش رومانى فى مملكته وتغلب على سلوسيا وطسيقون وبابل ثم انسحب الجيش من دون حصول تلفيات كبيرة

ومات ولوغيصيص الرابع فى سنة ٢١٣ بعد الميلاد تاركا عدة أولاد ووقع بينهم منازعة ومخاصمة بشأن وراثة التخت وأخيرا جلس على التخت ولوغيصيص الخامس أو أرصيص التاسع والعشرون فتسلطن ثلاث سنوات وخلفه أخوه ارطابانيس أو أرصيص الثلاثون وهو آخر ملوك فارطية وامتدت سلطنته الى سنة ٢٢٩ بعد الميلاد ثم ان الامبراطور الرومانى قرقالا كان حصل له منازعة شديدة مع سلفه فعزم على الزام ارطابانيس فى الدخول فى حرب معه وطلب ابنة ملك فارطية أن تكون زوجة له فرفض ارطابانيس طلبه هذا فعبر قرقالا الفرات فى سنة ٢١٦ بعد الميلاد وسار من وسط ميزوبوتاميه الى نهر الدجلة وتغلب على اربل وجبر الفارطيين على القهقرة الى نحو الجبال وفى السنة التالية قتل قرقالا والذى قتله مقرنيوس وخلفه على تخت الامبراطورية وشرع مقرنيوس فى استمرار الحرب فهزمه أرطابانيس مرتين والتزم على اشتراء الصلح بكونه دفع مبلغا عظيما من النقود وسلم جميع ما فتحه الرومانيون فى شرق نهر الفرات الى فارطية ومن ثم عادت الحدود القديمة للمملكة الفارطية حتى عادت أيضا أرمينية تحت حكم فارطية مرة أخرى

وفى هذا الوقت لما ظهر السعد على المملكة وأعيد اليها كامل سطوتها وشوكتها نعاها ناعى الموت وانقضى نحبها مثل الذين خلوا من قبلها وذلك انه حصلت ثورة مهولة تحت قيادة اردشير بابكان بن ساسان قامت فى الاقاليم الفارسية الموجودة فى القسم الجنوبى من المملكة وهزم الفرس القوى الفارطية فى ثلاث وقائع كبيرة وفى الثالثة قتل أرطابانيس وبهذه المظفرات استقبل الفرس أردشير بابكان باسم شاهنشاه أو ملك الملوك وصاروا أسيادا الممالك الفارطية وأقام أردشير بابكان على أطلال المملكة الفارطية مملكة فارس الجديدة الساسانية التى سنذكر تاريخها بعد هذا

وقد وضعت جدولا بأسماء الملوك الاشكانيانية أو ملوك الطوائف مأخوذا من تاريخ العالم حسب ماذكر مؤرخو أوروبا أسماءهم

١	ارصيص الاول	١١	عورود يس الاول	٢١	متريداطيس
٢	طريداطيس أخوه	١٢	متريداطيس الثانى	٢٢	دونيس الثانى
٣	أرصيص الثانى	١٣	فرعاطيس الرابع	٢٣	ولوغيصيص الاول
٤	بريباطيس	١٤	فرعاطيسيس	٢٤	ارطبابانيس الثالث
٥	فرعاطيس الاول	١٥	عورود يس الثانى	٢٥	بخوروس الثانى
٦	متريداطيس الاول	١٦	وانونيس الاول	٢٦	خسرو
٧	فرعاطيس الثانى	١٧	أرطابانيس الثانى	٢٧	بارثوناسباطيس
٨	أرطابانيس الاول	١٨	طريداطيس	٢٨	ولوغيصيص الثانى
٩	باوخودوس الاول	١٩	بردانيس	٢٩	ولوغيصيص الثالث
١٠	فرعاطيس الثالث	٢٠	غوطارطيس	٣٠	ارطابانيس

وهذه أسماء ملوك الطوائف أو الملوك الاشكانيانية حسب ماهو مذكور فى كتاب زينة الطريق مدة سلطنة كل واحد منهم فأولهم اردوان بن أشك تسلطن ثلاثا وعشرين سنة ثم خسرو بن أردوان تسع عشرة سنة ثم بلاش بن أشر اثنتى عشرة سنة ثم جودرز ثلاثين سنة ثم نرسى بن جودرز ثلاثين سنة ثم نرسى بن نرسى ثمانى عشرة سنة ثم اردوان أو أرطابانيس الذى قتله اردشير بابكان ولم يذكر سنى سلطنته والذى ذكره ابن الاثير فى الكامل أن أشك بن أشكان من ولد دارا وكان مولده ومنشؤه بالراى فملك السواد وهى مملكة فارطية ثم ملك بعده ابنه سابور ثم جودرز ثم بلاش أبو أردوان الذى قتله اردشير بابكان وذكر فى طبقات ملوك الفرس أن الطبقة الثالثة هى طبقة ملوك الاشكانية وهم على ماسبق ذكره ملوك الطوائف الذين استولوا على العراق والجبال كان أولهم أشك بن أشكان ملك اثنتين وخمسين سنة ثم ابنه سابور أربعا وعشرين سنة ثم ابنه جودرز خمسين سنة ثم ويجن بن بلاش احدى وعشرين سنة ثم جودرز بن ويجن تسع عشرة سنة ثم نرسى ثلاثين سنة ثم هرمزان تسع عشرة سنة ثم ابنه فيروز اثنتى عشرة سنة ثم ابنه خسرو أربعين سنة ثم أخوه بلاش أربعا وعشرين سنة ثم ملك ابنه اردوان خمسا وخمسين سنة وهو الذى قتله اردشير بابكان واختلاف مؤرخو الشرق فى تواريخ هؤلاء الملوك وأسمائهم اختلافا يفوق الحصر والعدد وذلك لعدم معلوميتهم بعدة تاريخ هؤلاء الملوك الذين أحرزوا قصب السبق فى ميادين الحروب أمام رومة فى وقت ما كانت فى أعلى درجات أوجها والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب

﴿ والى هنا تم الجزء الاول ويليه الجزء الثانى وأوله تاريخ مملكة فارس الاخيرة ﴾

(فهرست الجزء الاول من البحر الزاخر)

﴿ بيان الخطا الواقع فى هذا الكتاب وصوابه ﴾

سطر	صحيفة	خطا	صواب
٣٢	٦٩	٩٣٩	٨٣٩
٩	٧٦	نوا	وان
٣	٧٣	لليهود	اليهود
٢٠	٨١	المعلاملات	المعاملات
٢	١٢٥	حاكا	حاكما
١٣	١٢٧	مصرم	مصر
١٠	١٣١	المملكة	الملكة
٥	١٦١	المخناء	انحاء
١٦	١٩٣	القنابر	القنابل
٦	٢٤٥	ادلن	اقلن
٣١	٣١٤	وقوة	قوة

الجـــزء الثانى

من البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الاوائل والاواخر

تأليف

الهمام البارع والعالم النافع المرحوم محمود فهمى المهندس
المتوفى بجزيرة سيلان فى شهر ذى الحجة سنة ١٣١١ هجرية على صاحبها
أفضل الصلاة والسلام

﴿الطبعة الاولى﴾
بالمطبعـــة الاميريه ببولاق مصر المحميه
ســـنة ١٣١٢
هجريه

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب الحادى عشر

تاريخ مملكة فارس الاخيرة

الباب الاول

من ابتدا سقوط المملكة الفارطية الى الوقت الحاضر

امتداد المملكة الاخيرة وموقعها ـ رمى الفرس النير الفارطى وتشييد استقلاليتهم ـ سلطنة أردشير بابكان ـ اعادته الدين المجوسى ـ سلطنتى الاثنين سابور ـ بهرام الخامس ـ خسرو أنوشروان ـ سلطنته الكبيرة ـ الصلح الذى لانهاية له ـ فتوحات ملك الفرس ـ اغتصاب خسرو أبرويز الاقاليم الاسياوية والافريقية من المملكة الرومانية ـ أبهة ديوانه ومجده ـ نبأ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ـ السنى الاخيرة لخسرو ـ عاقبته ـ صيرورة شيرويه ملكا ـ تغلب العرب ـ ابادة الدين المجوسى ـ صيرورة فارس محمدية ـ عود استقلالية فارس بواسطة الصفار ـ تغلب الاتراك السلجوقية على المملكة ـ طغرول بك ـ سلطنة ملكشاه ـ تغلب التتار ـ اقامة المملكة الوطنية بواسطة اسماعيل ـ سلطنة عباس ـ تغلب الافغانية على فارس ـ طرد نادرشاه الافغانية وعودة المملكة ـ سلطنته ـ أغا محمد خان ـ خلفاؤه ـ حروب مع الروسيا ـ جلوس نصر الدين ـ حرب مع انكلترا ـ زيارة الشاه أوروبا

ماذكرناه فى الكتاب التاسع والكتاب العاشر من وصف مملكة فارس القديمة وان كان كافى الايضاح الاأنه يلزمنا أن نشرح مملكة فارس الجديدة على حسب تقسيماتها الموجودة هى الآن عليها فنقول انه لاريب فى أن مملكة الفرس هى احدى الممالك العظيمة المشهورة التى كانت أينعت وأزهرت فى الشرق وكابدت عدة انقلابات وأدوار متوالية غير متعادلة مع بعضها فى مدة تنوف عن ألفين وسبعمائة سنة من ابتداء موجودها فى عالم الدنيا الى وقتنا هذا بكونها وقعت فى مخالب الاعداء الغريبة وألعوبة فى يد ثوراتها الداخلية وما زالت من مدة وجودها لا تخضع للحكم المطلق الاستبدادى فتارة ترتفع الى أعلى ذروة مجدها وتارة تغرق فى مهاوى ذلها وكانت من قديم الزمان امامقر الملوك آسيا الغربية واما ميدان حرب تتخاصم فيه الملوك من أجل التاج الشرقى وأما سبب تسميتها فارس فهو غير معلوم لاهلها الذين قالوا ان اقليم آسيا المحصور بين نهرى الدجلة وجيحون يسمى باسم ايران ابن ملكهم المشهور فريدون فعلى حسب ما رووه ان ذلك الملك من بعد أن تسلطن مدة طويلة فى أبهة واجلال قسم ممالكه بين أولاده الثلاث فاعطى يسلم أو شرم جميع الممالك المسماة الآن تركية آسيا وأعطى لطور أو طوج السهول المجدبة الشاسعة من بلاد التتار بما فيها من جميع الاراضى الكائنة من وراء نهر جيحون المسماة عند الفرس باسم طوران وأعطى ما بقى من الاراضى لابنه الاصغر إيرج وكان يحبه زيادة عن اخوته

واسمها القديم المذكور فى التوراة عيلام الاانه يحتمل أن سلطنة عيلام كان داخلا فيها قسم صغير من فارس محصور فى السوس أو خوزستان الآن ولورستان مع قطعة من الاقليم المجاور له الواقع على نهر الدجلة وأما ماذكر فى التوراة من اسم فاراس وما سمناه الجريق باسم فارسيس وما سمى فى الازمان الاخيرة باسم فارس فهو جميعه مشتق من فرس وهو اسم لاحدى الايالات أو الاقسام الجنوبية

وأما حدودها الطبيعية فهى واقعة الآن فى الجهة الغربية من آسيا بين عرض ٣٠′ ٢٥° و ٥٠′ ٣٠° من العرض الشمالى وبين ٤٤° و ٦٢° من الطول الشرقى وطولها الاكبر من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى ١٤٠٠ ميل وعرضها الاكبر من الشمال الى الجنوب ٩٠٠ ميل ومساحتها ٦٢٨٠٠٠ ميل مسطح وتعداد سكانها ٧٦٥٠٠٠٠ نفس وربع هذا العدد من الجنس الفارسى الصافى يسكنون فى الغالب المدائن والباقى ترك ويهود وكرد وقبائل أخرى رحالة نزالة

وتحتد فارس من الجهة الشمالية بتركستان وبحر الخزر وما وراء جبال قوقازة ومن جهة الغرب بتركية آسيا ومن جهة الجنوب بالخليج الفارسى ومن جهة الشرق بالافغان والبلوجستان وهى محدودة من الجهة الجنوبية بالمحيط الهندى والخليج الفارسى وبنهر الدجلة فى الجهة الجنوبية الغربية والجهة الغربية وبنهر عراس فى الجهة الشمالية ويفصلها من أرمينية وجورجستان وبحر الخزر وخط غير محدود فى الصحراء يفصل خراسان فارس من واحات خوارزم وأراضى بخارى وبلخ وفى الشرق توجد حدود غير معروفة داخل فيها اقليم هراة واقليم سيستان وبلوجستان مختلطة مع جبال أفغانستان والحقيقة ان اقليم قاين وصفه بعض الجغرافيين بانه من فارس ويمتد الى جهة الشرق الى أطوق حتى يتصل بالهند

وتنقسم مملكة فارس الى احد عشر اقليما هى اقليم فرس ومدائنه شيراز وبشير ولارستان ومدينة لار واقليم خوزستان ومدائنه شاستير وديزفول واقليم عراق العجم ومدائنه طهران وأصفهان وهمذان

واقليم أذربيجان ومدينته تبريز واقليم غيلان ومدينته رشت واقليم مازندران ومدائنه سارى
و بلفروش واقليم خراسان ومدينته مشهد واقليم كرمان ومدائنه كرمان وجومبدرن ولوريستان
ومدينته حورامآباد واقليم سيستان ومدينته شيلولاومكران

فاما اقليم فارس أو فارسيس عند القدماء فهو محدود من جهة الجنوب بالخليج الفارسى ومن جهة
الشرق بكرمان ولوريستان ومن جهة الغرب بخوزستان ومن جهة الشمال بالعراق العجمى والجهات
الشرقية منه رملية وخالية عن الجهات الشمالية والشمالية الغربية وهذه الجهات الاخيرة تشتمل على
نفوس وعمران أقل من الجهات الاولى وعاصمة قسم فارس مدينة شيراز المشهورة وكانت أجل مدن
فارس قبل الفتح الاسلامى وذكر ابن حوقل أن الذى أسسها أخو الحجاج بن يوسف الثقفى أمير العراق
فى سنة ٧٤ من الهجرة ونسب بعضهم بناءها الى طهمورث أو الى ملك يسمى فرس حفيد نوح عليه
السلام ومقدار أهلها الان ٤٠٠٠٠ نفس وهى أصل مركز السلطنة الفارسية جيدة المناخ
خصبة الارض مركز تجارة كبيرة وتشتمل على ١٠٠٠٠ بيت وأطلالها تمتد نحو ميلين وبها
٣٨ محلة و ٣٠٠ مسجد و ٢٠٠ حمام ومعظم مبانيها فى حالة الشيخوخة والقدم ودائرها فرسخان
وهى ضيقة الشوارع والحارات قذرتها ويصعب المشى فى شوارعها وقت فصل الامطار وبها سوق
تحت قبوات وعقود طوله نحو ميل بناه كريم الدين خان زند وعرض هذا السوق ٤٠ قدما يحتوى على
مئات من الدكاكين وبها مسجد جامع كبير وبها قبر السعدى والحافظ الشيرازى ويوجد فى فارس
عدة مدائن كثيرة منها اصطخر وكانت فى السابق عاصمة المملكة وهى مبنية على أطلال فرسفوليس
القديمة ومدينة دارابجرد وفيروزاباد فالاولى بها من السكان نحو ١٥٠٠٠ نفس والثانية ٣٠٠٠
نفس وفيروزاباد مشهورة بان الذى أسسها هو أردشير بابكان أول الملوك الساسانية ولحد الان توجد
فى ضواحيها آثار عائلته

وأما لوريستان فكانت فى السابق مملكة مستقلة وهى الان صحراء جافة عبارة عن جبال حجرية وأودية
رملية ملحية متباينة السطح ومع هذا فانه يوجد فى محال مختلفة منها شجر البرتقان والرمان ونخل البلح
ينبت فيها وعاصمة هذا القسم مدينة لور وبها ٢٠٠ بيت مصنوع غالبها من أفلاق النخل وعمل فيها
شاه عباس سوقا عظيما وهذا هو الجهة المحلى بها المدينة ومينة ككو ويكون سكانها ٦٠٠٠ نفس
وبها مينة عظيمة يرسو فيها بعض المراكب الكبيرة الا أن ساحلها مشحون بقطاع الطريق من العرب

وأما خوزستان وهى السوس القديمة فهى واقعة فى الجهة الشمالية الغربية من فارس وعلى الشاطئ
الشمالى لنهر الدجلة وتنقسم الى كورتين يختلفان فى الوصف والمناخ فالاولى تمتد من سواحل الخليج
الفارسى الى الجبال والتلال الممتدة لوادى رامهرمز الكثير الخصوبة ومن شواطئ نهر التاب الى مصب
نهر قارون وابزال و يسمى اقليم الشاب ومدينة الدورق الموجودة على شط نهر الحافر وهو فرع من
نهر قارون مصنوعة من أخصاص من أفلاق النخل وتعداد أهلها من ٧٠٠٠ الى ٨٠٠٠ نفس
وهذا القسم تحت حكومة رئيس من العرب وأما الكورة الشمالية فانها تشكل حكومة شاستر
وهى تحت مباشرة واحد بكلربك ولا تشتمل هذه الكورة على القسم الاعظم من خوزستان فقط بل
وعلى أعظم قسم يخرج منه أجود المحصولات فى المملكة الفارسية ويسقى بأربعة أنهار كبيرة نهر قارون
ونهر ابزال وقرهصو وشط هودو وهذه غير غدران صغيرة ومجار طويلة وأرضها جيدة الخصوبة وهى

أشوان جنوب فارس وينبت فيها القطن والارز والحبوب بمحصولات مختلفة ومدينتا شاستير وديزفول هما المدينتان الرئيستان فى خوزستان فى القسم الجنوبى الغربى من مملكة فارس بهما تجارة عظيمة نوعا وشاستير واقعة على نهر قارون وكذا مدينة المحمرة واقعة فى ملتقى نهر قارون بنهر الفرات وهذه المدينة تقدمت فى تجارتها من عهد حديث وتعداد سكان مدينة شاستير ١٥٠٠٠ نفس ومساكنها مبنية من الحجر وشوارعها ضيقة قذرة وقيل ان الذى بناها سابور الاول

وأما العراق أو عراق العجم المشتمل على القسم الاعظم من ميديا القديمة وفارطاية فهو أوسع وأعظم وأجود أقاليم المملكة الفارسية وبه خلاف عاصمته أصبهان الاخيرة جملة مدائن ظريفة فى المملكة وجميع هيآت جهاته واحدة وعمومه جبلى وطول ودبانه كبير جدا وان كان عرضها لا يزيد عن عشرة أميال وجباله عقيمة خالية من أخشاب الصناعة وتجرى هذه الجبال بصور مختلفة من الغرب الى الشرق وتختفى فى الصحراء ويخرج منها فروع تجرى فى داخل كرمان وخراسان وعموم الوديان غير قابل للزراعة ماعدا ضواحى القرى والمدن مع أن أراضيها جيدة صالحة لاستخراج واستغلال محصولات وافرة

وكانت أصبهان فى السابق مقر سلطنة العائلة الصوفية وكانت ذات أبهة وجلالة وأجل عواصم الشرق وكائنة على نهر زندزرد الآخذ منبعه من كوه زردأ والجبل الاصفر وأسوارها مبنية من الطين ودائرها أربعة وعشرون ميلا ومحاطة بمساكن وبساتين حتى لا تكاد ترى وبها ٣٨٢٤٩ بيت جميعها منسوبة للمدينة منها ٢٩٤٦٩ بيت داخل المدينة ٨٧٨٠ خارج دائرها ومن هذه الابنية ١٦٢ مسجدا و ٤٨ مدرسة و ١٨٠٢ خان و ٢٧٣ حماما وكان تعداد أهلها من ٦٠٠٠٠٠ نفس الى ١٠٠٠٠٠٠ نفس وكان الفرس يزعمون أنه لا يوجد مدينة فى الدنيا تعادل أصبهان فى العظمة والسعة ويقولون أصفهان نصف جهان است يعنى أصبهان نصف الدنيا وهذه الالفاظ لحد الآن فى أفواههم والآن خلت أصبهان من أبهتها وجلالتها تماما ووقع عليها من تقلبات أدوار السلب والنهب والقتل والحكم وصار تعداد سكانها ٦٠٠٠٠ نفس الآن وهى أجل موقع تجارى

وأما السهل الموجود فيه مدينة طهران عاصمة المملكة الفارسية فهو قليل الاهمية وهو سهل مجدب محل خالى المزارع والاشجار ولا تنبت فيه الخضرة الا فى فصل الربيع ونفس طهران لا تستحق الذكر الا لكونها دار الملك ودائرها أربعة أميال محيطة بسور من الطين محفوظ بعدة أبراج وخندق جاف ولا يوجد بها أبنية فاخرة الا سراى الشاه وأسواقها مشحونة بالعالم وبها الجوامع والمكاتب والمدارس والخانات وتعداد أهلها نحو من ١٠٠٠٠٠ الى ١٠٠٠٠٠ نفس وسبب اختيار الملك هذا المحل الحقير أن يكون دار الملك لكونه قريبا من مازوندران واستراباذ بلاد أهله وعائلته وبها كثير من البساتين والمساكن الخلوية المعدودة للملك وقت تنقله من محل الى آخر الا أنه قبل حلول حرارة الصيف يجمع جيشه ويعسكر فى سهول مدينة سلطانية

ويوجد فى ضواحى طهران أطلال وخربات مدينة الرها القديمة التى كانت معاصرة لنينوى وهمذان وكانت مشهورة فى حالة وجودها بأنها ميدان لوقائع عظيمة حصلت بها ووقف اسكندر بجيشه عندها خمسة أيام وهو معقب دارا وكانت عاصمة الملوك الفارطية ومسقط رأس الخليفة هارون الرشيد ومن

طهران بمسافة ستة وتسعين ميلا مدينة قاشان بناها ساوبرذوالاكاف وكانت قبل سلطنة شاه عباس مقر سلطنة العائلة الصوفية وهي احدى المدن التجارية الكبيرة في فارس وعلى مسافة ستة وثمانين ميلا من الجهة الغربية توجد مدينة سلطانية وكانت في السابق مدينة كبيرة وهي الآن قرية صغيرة كائنة في سهل واسع يمتلئ في فصل الصيف بخيام وأخصاص العساكر الملوكية المضروبة حول سراى الملك وبها قبر السلطان محمد خداوند أخي غازان خان المشهور وهو بناء جليل من الطوب وفي هذه الجهات أيضا مدينة همذان وكرمانشاه فأما مدينة همذان فهي واقعة في ذيل جبل الوند وكان اسمها في السابق أكباتان عند الجريق وكانت من أعظم مدائن الشرق فخربها تيمورشاه وقت غاراته على فارس ثم حازت أبهتها ومجدها بعد ذلك والآن هي عبارة عن مجمع مساكن مبنية من الطوب والطين وبها قبر الفيلسوف ابن سينا وتعداد أهلها نحو من ٥٠٠٠٠ نفس وأما مدينة كرمانشاه فهي مدينة صغيرة تشتمل على ١٥٠٠٠ عائلة محلاة ببعض أبنية عمومية ظريفة

ويوجد بين كرمانشاه وأصفهان كورة لوريستان وهي مشتملة على النواحي الاكثر خصوبة من العراق الفارسي وهذه الجهة وان كانت محتلة ببطون رحالة من قبائل لالك وفيلي وبختياري غير أنها قليلة الزراعة وديارها مشحونة بخيامهم السود وبها قليل جدا من القرى ولا يوجد الا مدينة كروماباد وهي مدينة قديمة وهي الآن عاصمة رئيس بطون قبائل الفيلي ويوجد في الشمال الشرقي حصار وبورجرد ونهاوند وفي مدينة نهاوند كانت الواقعة الفاصلة بين الفرس أتباع زردشت والمسلمين أتباع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم والجنس الاخير الساساني الذي كان حاملا للبيرق العراقي القديم غرق أمام البيارق وعلامات النصر الخضر التي كانت مرفوعة أمام المغيرين عليه

ويعتبر اقليم يزد بأنه مبادى العراق لانه في الحقيقة قسم أوجهة من خراسان وهو واحة في صحراء واسعة واصلة من جبال البورز الى كرمان ومدينة يزدجرد واقعة في سهل رملي مشحون بتلال جبلية وهو قليل العمران من السكان ويوجد فيه عدة مدن وقرى منتشرة الى جهة أصبهان ومع ما كان عليه هذا الاقليم من جفاف الارض فانه يخرج منه محصولات جيدة مثل الحرير والحبوب الا أنها ليست كافية بشئ ومع كون مدينة يزدجرد خالية من الفوائد والمنافع الا أنها معدودة من ضمن المدائن العظيمة في مملكة فارس بالنظر لتجارتها ومشغولاتها وهي احدى المراكز التجارية المشهورة بين الشرق والغرب وتتقابل فيها القوافل الواردة من قاين وكشمير وبخارى وهراة ومشهد وكرمان مع التجار الواردين من أصبهان وشيراز وقاشان وطهران ويتبادلون تجاراتهم مع بعضهم وبها من السكان نحو من ٥٠٠٠٠ نفس من ضمنها ٣٠٠٠ نفس جبرية أومجوس

وأما اقليم أذربيجان الواقع في حدود فارس فانه عظيم جيد الخصوبة ومفصول من أرمينية من جهة الشمال بنهر عراس ومن العراق بقزل أوزون ويحد من الجهة الشمالية الشرقية ببحر الخزر وغيلان ومن الجهة الجنوبية كورديستان وداخل في هذا الاقليم اروان وقره بوق وقره طاغ ومنقسم الى اثنتي عشرة كورة وعاصمته تبريز وأهلها الآن ١٦٥٠٠٠ وكانت الموقع المحبوب لهارون الرشيد وقيل ان الذي أسس هذه المدينة زوجته زبيدة وهذا الاقليم أحد الاقاليم الكثيرة المحصولات في المملكة الفارسية ويوجد في هذا الاقليم بحيرة شاهي أو أرمينية ذات المياه الملحية ودائرة هذه البحيرة ٣٠٠ ميل وهي محاطة بجبال وأودية كانت في السابق خصبة جيدة الزراعة وكان في ضواحيها عدة مدائن

منها

منها مدينة مراغة كانت مقر سلطنة هولاكو خان ودفن فيها مع زوجته وكان اقليم أذربيجان فى الاصل مركز جميع مذاهب العبادة التى كانت جارية فى مملكة فارس ولم يزل به مغارات وكهوف ومحاريب مثل الكهوف الهندية وبالقرب من هذه البحيرة قرية طابرنه التى هى مسقط رأس زردشت نبى المجوس

ويوجد فى الجهة الشمالية من بحيرة شاهى كورنان ظريفتان وهما مورند وخوى واقليم خوى خصب جيد الزراعة ومدينته خوى من أعظم مدن فارس وبها ٣٠٠٠٠ نفس وسهل هذا الاقليم مشهور بكونه كان ميدان محاربة مهولة حصلت بين الشاه اسماعيل وسليم الاول العثمانى

ويشتمل القسم الشمالى الشرقى من أذربيجان على جهات الخلخال ومسكين وأردبيل ومدينة أردبيل كانت مشهورة بكونها وطن العائلة الملوكية الصوفية وبها قبر الشيخ الصوفى وقبر الشاه اسماعيل وكان يوجد بها ٣٠٠ خان و ٢٥٠ مسجد وتعداد أهلها ٥٠٠٠٠ نفس الا أنها خربت وعضها الدهر بنابه وصارت الآن قليلة العمران والسكان

ويتبع اقليم أذربيجان ثلاث جهات وهى غيلان ومازندران واستراباذ فعاصمة غيلان وهى مملكة غيلى القديمة مدينة ريشت ومدينة بلفروش واقعتين فى داخل السهول الحارة المنخفضة المجاورة لبحر الخزر وبها من السكان من ستين ألف نفس الى ٨٠٠٠٠ نفس ولها تجارة عظيمة واسعة فى صنف الحرير وأصناف أخر وأسواقها كبيرة نظيفة وأما مازندران وهى هرقانية القديمة فهى أقل من غيلان فى المحصولات الا أنها أكثر شهرة ومدنه الاصلية سارى وعمول وبلفروش ومدينة سارى هى العاصمة وأسوارها أى أسوار مدينة سارى مبنية من الطين وعليها أبراج مربعة الشكل مبنية من الطوب ودائرها ينوف عن ميلين ولا تزيد سكانها عن ٤٠٠٠٠ نفس وبها قبر حسام الدولة أحد العائلة الديلمية وكذا مدينة عمول مشهورة بمقام السيد قوام الدين وهو ملك ناسك من مازندران ظهر فى القرن الثامن من الهجرة وشيد مقامه شاه عباس وسكان عمول مثل سكان سارى الا أنهم يذهبون فى فصل الصيف الى مساكن لهم فى الجبال وأما بلفروش فانها مدينة تجارية أهلها مشغولون بالتجارة خاصة ولا يوجد بها خانات ولا مبان مزخرفة وتعداد أهلها غير محقق

وأما اقليم استراباذ فانه صغير ومفصول من خراسان من جهة الجنوب بجبال البورز ومن جهة الشمال ببحر الخزر والصحراء الواسعة الى سواحله وعاصمته مدينة استراباذ وعلى ماقيل ان الذى بناها يزيد بن محلوب وهو قائد عربى كان ظهر فى القرن الاول من الهجرة ودائرها ثلاثة أميال ونصف ومحفوفة بآثار أسوار عريضة وشوارعها مبلطة عموما وسوقها واسع الا أنه قليل التجارة ويوجد على مسافة ستة أميال منها الاشرف مقر عباس شاه والقسم الشرقى من استراباذ يسمى جورجان وهو سهل بعضه أورمانات وبعضه مستور بالكلا والحشائش ويسقى بعدة غدران صغيرة وكان فى السابق كثير العمران الا ان التركمان خربوه وهو الآن ميدان لرعى مواشيهم وأنعامهم

وكان اقليم خراسان الشاسع فى الازمان القديمة مقر مملكة عظيمة غنية بالرجال والزراعة وهى فى هذه الايام سهول قحلة متوالية لانهاية لها مجدبة قليلة العمران مفصولة عن بعضها بجبال ويوجد به مدائن كثيرة مثل مشهد وسمنون ودمغان وبسطام وسبزوار ونيسابور وما يتبعها والبعض من جهات هذه المدائن خصب جيد الزراعة ونيسابور أقدم مدينة فى خراسان وأجلها والذى أسسها سابور ذو الاكتاف

وكانت مركزاقليم يحتوى على ١٤٠٠٠ قرية ويسقى بواسطة ١٢٠٠٠ ترعة خلاف الغدران الطبيعية ثم ابتدأ فيه الخراب من النهب والسلب وتم خرابه الافغانية عند تغلبهم على مملكة فارس حتى صار اكاما من الآثار والاطلال وسكانه الآن نحو ٥٠٠٠ نفس

وعاصمة اقليم خراسان الفارسى مدينة مشهد وهى على مسافة سبعة عشر ميلا من طوس القديمة والذى رسمها الامبراطور هـارون حالما كان نزيلا عند طماسب شاه الا أن عظمها وسعة حجمها منسوب من غير ريب لذهاب القوافل وتوجههم لزيارة قبر الامام الرضى الموجود بها وأهل مشهد نحو ١٠٠٠٠٠ نفس وبها كثير من الجوامع والعلماء وبها ست عشرة مدرسة أكثرها فى غاية الاتقان ومزار الامام الرضى موجود فى موقع فى وسط الشارع الاكبر للمدينة وأنفق عباس شاه على هذا المزار مبالغ جمة من النقود حتى زخرفه وزينه وحلاه بالنقوش المذهبة والابنية الفاخرة ولا يجوز لليهود والنصارى الدخول فى هذا المزار

وأما مدينة مرو التى كانت فى السابق مقر مملكة ومحل رفاهية فهى الآن تلول خربة ولم تكن فى داخل الحدود المقررة لمملكة فارس لانها على مسافة واحدة بين مشهد وبخارى وموجودة فى واحة فى الصحراء وبها حاكم من طرف أمير بخارى وحول أسوارها قبائل التركمان وزال عنها مجدها الاولى حتى لا يعرف الآن فيها قبر الب ارسلان وبها من السكان ٣٠٠٠ نفس وهى مركز توزيع تجارات كبيرة واردة من الهند الى مدائن فارس

وأما مدينة هراة وكانت المقر الملوكى لذرية تيمورشاه فهى واقعة فى واد خصب طوله ٣٠ ميلا وعرضه ١٥ ميلا مشحون بالقرى والضياع ولقد زال مجد هذه المدينة عنها وأما المدينة الحالية فان مساحة أرضها ٤ أميال مسطحة ومحيطة بسور من الطين وخندق مبلول ومن ضمن مبانيها العمومية جامعها الجامع كانت قبابه ومناراته على غاية من الابهة والفخر لكنه الآن على غاية من الدمار والخراب وهى كثيرة السكان قليلة التجارة ومن بعد جملة أدوار تعاقبت عليها وقعة فى سنة ١٧٤٩ تحت يد أحمد شاه عبد الله وهى تابعة الآن لحكومة قاين

وأما كرمان أو كرمانية القديمة فيوجد فى شمالها سيستان وخرسان وفى جنوبها مكران والخليج الفارسى وفى غربها لويستان وفارس والعراق وهى اقليم جبلى مجدب لا ماء به ولا منبع غير أنه يوجد بعض منابع قليلة جدا فى الكور الجبلية ويوجد على الساحل كثير من أشجار النخيل والعاصمة موجودة فى سهل متسع جيد الزراعة ومدينة كرمان من المدن القديمة التى كانت مزهرة فى المملكة القديمة وهى واقعة على الطريق الاعظم الموصل من أكبر المدائن الشمالية الى هرمز وبندر عباس وهى محط التجارة الشرقية وكانت كثيرة الغنية فى السابق ومن ثم توالى عليها السلب والخطف حتى اضمحل حالها وذاقت وبال الخسارات فى الحروب التى حصلت بين عائلتى زند وقجور ومن بعد أن دافع فيها لطف على خان زند اخر هذه العائلة وحفظها من تغلب العدو عليها تغلب عليها آغا محمد خان بالخيانة وسبى جميع نسائها وأطفالها وباعهم وقتل جميع رجالها وهدم أبنيتها وأسوارها ومن بعد مدة أعيدت على سياق أقل مما كانت عليه قبل وبها الآن من السكان ٣٠٠٠٠ نفس وهى مركز حكومة وأسواقها ظريفة معمورة وعادت اليها تجارتها التى كانت سببا فى دمارها فى الاول

واقليم سيستان الصغير ويسمى نيم روز ويشمل مملكة سرنغيان القديمة يوجد على شماله وشماله

الغربى خراسان وفى شرقيه قندهار وفى جنوبه وجنوبها الغربى مكران وكرمان وهو صحراء رملية حجرية يمر منها نهر لطيف اسمه هيرموند يتشكل فى مجراه أرض خصبة على كل من شاطئيه بعرض ميلين وفى كل ناحية صخور وعرة قائمة وغالب هذه الاراضى مراع وبها قليل من المزارع ويوجد بها كثير من أطلال المدن وآثارها وعاصمة هذا الاقليم دوشاخ أو جلالباد وهى مدينة صغيرة مبنية على أطلال وآثار مدينة كبيرة هيئتها مثل هيئة أصبهان ومساكنها مصنوعة من الآجر بعلاودورين وسقوفها معقودة واقليم سيستان الآن مسكون بقبائل من الافغانية وبطون من البلوجستانية يظعنون من جهة وينزلون فى أخرى وليس لهم قرار ثابت ورؤساء هذه القبائل متوطنون فى قرى محصنة على نهر هيرموند ومن دأبهم الاغارة على بعضهم كما هو دأب القبائل والبطون من السلب والنهب والخطف وأما مكران الاصلية فهى جبلية خلة يوجد فيها بعض جهات قليلة الجدب عن الجهات المجاورة للصحراء المحيطة بها وينتج من بعض الجهات قليل من الحبوب والغلال والمراعى وفى بعض جهات الساحل كثير من أشجار النخيل وبعض محصول من الحبوب الا أن جهة الساحل والاقليم حار جدا حتى ان الاهالى لا تتجاسر فى فصل الصيف على أن تخرج من أخصاصها وأعشاشها وتهلك الارياح جميع النباتات وهذا الاقليم مقسوم الى كورتين كل كورة محكومة بحاكم تابع لخان كلات فى الاسم الملوكى على جميع المملكة الا انه لا سلطة للخان المذكور على أقاليم بلاده الجنوبية وهذا الاقليم الشاسع مختلف فى الطقس أو المناخ وسواحل مكران رملية وأشد حرا وسخونة ومداومة الثلوج المغطية لأسنان جبالها كاسرة شدة الحرارة وحاصل منها تلطيف للهواء نوعا

ومن هنا نشرع فى ذكر تاريخ مملكة فارس الاخيرة فنقول وعلى الله التوكل وحسن القبول قد ذكرنا الحوادث التاريخية للمملكة الفارسية من ابتداء تأسيسها الى حد سقوطها وخرابها بواسطة اسكندر الاكبر فى الكتاب التاسع وكذا ذكرنا ما بعدها من تاريخ فارس تحت حكم الملوك الفارطية والمملكة الفارطية فى الكتاب العاشر ثم نقول الآن ان المملكة الفارسية الاخيرة انتصبت على أطلال وخرائب المملكة الفارطية وان أرصيص الثلاثين أو أردوان آخر ملوك الفارطيين ابتدأت سلطنته فى سنة ٢١٣ بعد الميلاد ومن بعد جلوسه بمدة قليلة جدد قرقالا امبراطور رومة الحرب مع فارطية وفى سنة ٢١٦ بعد الميلاد عبر الفرات وتقدم من وسط ميزوپوتاميه أى جزيرة النهرين الى نهر الدجلة وتغلب على اربل وأرغم الفارطيين على الهرب الى الجبال وقتل فى السنة التالية فشرع خليفته مقرنيوس فى استمرار الحرب فهزمه أرصيص مرتين فى واقعتين كبيرتين فالتزم على مشترى صلح دفع فى ثمنه جميع الفتوحات الرومانية التى كانت موجودة فى شرق الفرات وتولد من هذه المظفرات عود الحدود القديمة للمملكة الفارطية وظهر عليها رونق عنفوانها الاول الا انه فى هذا الوقت جاءتها قوة صادمة أعدمتها الحياة وانقضى نحبها

وذلك أن أهل فارس كانوا قلقين غير راضين بوجودهم تحت القانون الفارطى من مدة طويلة جدا ومع انه حصلت هزيمة الرومانيين الا أن المملكة كانت لم تزل فى اختلال وارتجاج وزلزلة من دعوى المدعين المزاحمين لأرصيص على تاج المملكة وكانوا فرعين من العائلة الملوكية الارصيصية أو الاشكانية وكانوا متوطنين فى نواحى بلخ أشبه بمقاطعين مع الملك المتسلطن فتولد من هذه المنازعات الاهلية حالة أدتهم أخيرا الى الانقياد الى أجنبى أولى لهم وأحسن من انقيادهم الى رئيس من أهل بيتهم وما حصل

من مظفرات ارطبابانيس أوارصيص الثلاثين أواردوان مع الحروب مع رومه أدنى تأثير على أعداء بيته فنشأ من هذه الاعمال تقوية الفرس على خلع طاعتهم للفارطيين واعادة استقلالية أنفسهم كما كانت سابقا وكان للفرس من أصل نظامات المملكة الفارطية امتيازات معلومة محترمة عند الملوك الفارطيين وكانوا مرخصين بيقاء ملوكهم الوطنية وهى منحة جعلت لهم استمرار شرائعهم وعوائدهم وأحاديثهم وخرافاتهم وما كان حصل التعدى من الفارطيين على ديانتهم التى انجذب اليها قلوب ملوك فارس فى الزمن السالف الا أنه يحتمل أن امتيازات هذه الامة كان قل عملها فى آخر الامر وتعدى العمال عليها حتى أوغروا صدور الفرس فى نبذ طاعة الفارطيين وراءهم ظهريا وكان ملك فارس الخراجى الموجود تحت سلطنة فارطية أردشير بن بابكان بن ساسان وكان يدعى نسبه الى ذرية كيرش الاكبر أوكيخسرو فتقوى فى وقت حصول الاختلالات والزعازع فى المملكة الفارطية وحمل السلاح فى وجه مليكه فى سنة ٢٢٠ بعد الميلاد أو أقل من ذلك بقليل وفى ظرف مدة قليلة فاز بتشييد استقلالية فارس الاصلية أواقليم فارستان الاخير ثم وجه جيشه نحو الشرق على كرمان فأخضعها ومن بعدها تغلب على ميديا فاجبر ملك فارطية على البروز الى ميدان الحرب على عبده العاصى فانهزم وقتل فى واقعة كبيرة حصلت فى هرمز سنة ٢٢٦ بعد الميلاد فاستمر الحرب جاريا بواسطة أولاده بمساعدة ملك أرمينية الا أن الفرس كان لهم الظفر فى كل جهة توصلوا اليها ومن بعد حصول حرب استمر بضع سنين خضعت المملكة الفارطية القديمة وصار أردشير بابكان من غير مزاحم ولا مضاد ولا مشاحن مستحوذا على مملكة فارس الاخيرة فاشتغل بتقرير قواعد مملكته وأعاد ديانة زرداشت القديمة وسلطة المجوس وعرفت العائلة التى أسسها أردشير بابكان بالعائلة الساسانية واستمرت هذه العائلة على تخت فارس مدة تنوف عن أربعمائة سنة وكان عدد ملوكها تسعة وعشرين ملكا وقليل من هذه الملوك من يستحق الذكر فى التاريخ وهذه أسماء ملوكهم ومدة سلطنتهم مذكورة فى الجدول الآتى بيانه

﴿ جدول ملوك الفرس الطبقة الرابعة الساسانية ومدة سلطنة كل منهم ﴾

عدد	أسماء الملوك	سنة	شهر	عدد	أسماء الملوك	سنة	شهر	عدد	أسماء الملوك	سنة	شهر
١	اردشير بابكان	١٤	٠٠	١١	سابور	٥	٠٠	٢١	هرمز	١٢	٠٠
٢	سابور	٣١	٠٠	١٢	بهرام كرمنشاه	١٣	٠٠	٢٢	خسرو أبرويز	٣٢	٠٠
٣	هرمز	٣١	٠٠	١٣	يزد جرد	٢١	٠٠	٢٣	شيرويه	٠٠	٦
٤	بهرام	٣	٣	١٤	بهرام جور	٢٣	٠٠	٢٤	أردشير	١	٦
٥	بهرام	٧٠	٠٠	١٥	يزدجرد	١٨	٠٠	٢٥	شهريار	٢	١
٦	بهرام	٣٠	٤	١٦	هرمز	١	٠٠	٢٦	توران دخت	٠٠	٢
٧	نرسى	٩	٠٠	١٧	فيروز	٢٨	٠٠	٢٧	ارزميدوخت	١	٤
٨	هرمز	٧	٥	١٨	بلاش	١٤	٠٠	٢٨	فروخذاره	٠٠	١
٩	سابورذوالاكتاف	٧٢	٠٠	١٩	قباد	٤٣	٠٠	٢٩	يزد جرد	٢٠	٠٠
١٠	اردشير	٤	٠٠	٢٠	أنوشروان	٤٨	٠٠				

وقد

وقد قيل ان أردشير بابكان كان أحد الضباط الصغيرى الرتبة فى ديوان السلطنة الفارطية وهو من ذرية ساسان حفيد اسفنديار وترقى بسرعة فى الخدمات العمومية فأدته حدة عقله وماسولت له نفسه الى تولد مطامع اماله على تأكيد رغبته ونواله ولما طرد من الديوان استقبله أشراف فارس مع السرور والترحاب وتقوى على حل مقصده فى تشكيله سلطنة قوية بضعف الجيوش الملوكية ومعاضدة أهل بلده على السوية فسار من غير معارض الى أصبهان وتغلب على القسم الاعظم من العراق حذرا من أن يتمكن ارطابانيس من الخروج الى الميدان وتمم آماله ومقاصد أحواله فى ثلاث وقائع أجراها وقتل الملك المتسلطن ولقب أهل فارس بأردشير فى ميدان الحرب بصفة شاهنشاه أى ملك الملوك وفى مدة سلطنته أعاد الديانة القديمة لمملكته وقد جمع لذلك مجلسا مؤلفا من ٤٠٠٠٠ نفس من الموابذة والقسس من المجوس وانتخب من هذا الجم الغفير ٤٠٠ نفس ومن هؤلاء صار انتخاب ٤٠ نفس ومن هؤلاء صار انتخاب سبعة عهد اليهم تنقيح وتهذيب الديانة وعودها الى ما كانت عليه لان ملوك الفارطيين كانوا أهملوها وأمروا بعدم التمسك بها وكان هذا المحفل مجموعا من عموم أطراف وجهات المملكة ولبثت سلطنته أربع عشرة سنة قاوم فيها أردشير بنصرات متباينة جيوش الامبراطور اسكندر الرومانى ثم ربط علاقات مملكته وشرع قوانينها وأحكم قواعدها وذكر الفردوسى أنه وعظ ابنه وحثه على الالتفات الى الديانة وواجبات السلطنة ومايعود منه النفع على الامة الفارسية والمملكة الايرانية وابتنى كثيرا من المدن فى جهات شتى من المملكة ولم يزل محمود السيرة مظفرا منصورا الى أن هلك بعد أن تسلطن أربع عشرة سنة فى سنة ٢٤٢ بعد الميلاد

ولما هلك أردشير بن بابكان قام بالملك بعده ابنه شابور أو سابور الاول فى سنة ٢٤٢ بعد الميلاد وكان ملكا شديد البأس عالى الهمة مقداما فى الحروب ساق جيوشه الى داخل الاقاليم الرومانية فى آسيا فاستعد الامبراطور الشاب عورديان للاقاته ومعاقبته على ما أجراه من هذه الوقاحة الا أنه قبل سيره قتل فجأة فعزم من بعده الامبراطور فاليريان على خلاص ادسا فحاصره فيها ابن أردشير وأسره وعامله بمعاملات مختلفة من العذاب والالام وروى انه كان يصب عليه كل يوم أشكال العذاب ويؤتى به فيجعل سابور رقبته موطأ لقدمه وقت ركوبه على حصانه ومن بعد أن حبسه حبسا شديدا وعذبه عذابا مؤلما وجيعا أمر بقتله فشنع فى حقه مؤرخو الغرب وذموه وقالوا انه كان رجلا جبارا ظلوما مجردا عن الشرف والانسانية لا رحمة عنده ولا حنية وأما مؤرخو الشرق فانهم وصفوه بانه أنموذج الحكمة والعقل والعدل ومن بعد أن ابتنى سابور المدائن المختلفة فى مملكته منها مدينة نيسابور ومدينة سابور ومدينة فيروزسابور وهى الانبار وجنديسابور وفتح كثيرا من الاقاليم والبلدان تنازل عن مملكته الى هرمز ابنه وقيل انه أوصى بها اليه قبل موته فى سنة ٢٧٣ بعد الميلاد

ومن بعد أن تسلطن هرمز بن سابور احدى وثلاثين سنة خلفه بهرام وذكر فى الكامل لابن الاثير أن أباه كان ولاه خراسان وسيره اليها فقهر الاعداء واستقل بالامر فوشى به الوشاة الى أبيه سابور على أنه عزم أن يأخذ الملك منه وسمع هرمز بذلك فقيل انه قطع يده وأرسلها الى أبيه فكتب اليه بما بلغه وانه فعل ذلك ازالة للتهمة فلما وصلت يده الى سابور تقطع أسفا وأرسل الى هرمز يعلمه بما ناله من ذلك وعقد له على الملك وملكه ولما ملك عدل فى رعيته وكان صادقا وسلك سبيل آبائه

وخلفه بهرام الاول ابن هرمز وكان حسن السيرة وقتل مانى مؤسس المذهب المانيانى فى مملكة فارس

وكان مانى هذا عزم على أن يجمع العقائد الذردشنية وعقائد تناسخ الارواح الهندية ومذاهب الديانة المسيحية فى شريعة واحدة ديانية فطرد من فارس فى مدة سلطنة سابور ثم خاطر بنفسه وعاد ثانيا فى مدة سلطنة بهرام فقبض على هذا الكذاب بعلة أن يرغب أن يسمع مذهبه وطرائق شريعته فقتله وحشى جلده تبنا وعلقه على باب مدينة جنديسابور ويسمى هذا الباب باب مانى وكان ملكه ثلاث سنين وثلاثة أشهر

ومن هذا البيت نرسى الملك السابع اشتهر بهزيمته الامبراطور غاليريوس فى نفس الميدان الذى انهزم فيه قراصوص وقتل وذلك من بعد أن هزم الجيوش الفارسية مرتين بالقرب من أنطاكية وكان ملكه تسع سنين

ومن الملوك الساسانية المستحقين للذكر فى التاريخ سابور الثانى وهو الملك التاسع ويلقب بذى الاكتاف وسبب تسميته بهذا الاسم ما كان يوقعه من العذاب الشديد من نزع أكتاف رؤساء القبائل الذين يتجاسرون على العصيان عليه وكذا قطاع الطرق واللصوص وكانت ولادته فى سنة ٣٠٩ بعد الميلاد وتسلطن اثنتين وسبعين سنة أو من يوم ولادته واشتبك فى حروب دموية مع الامبراطور قسطنطين والامبراطور جوليان الرومانيين وهزم جوليان وقتله فى سنة ٣٦٣ بعد الميلاد وبنى سابور ذو الاكتاف ايوان الاكاسرة بالمدائن الشرقية وانتقل اليه وصار هو دار الملك من بعده ثم ان خليفة جوليان وهو يوويان رضى بعقد صلح مع سابور ذى الاكتاف واشترى هذا الصلح بكونه تنازل عن جميع الاقاليم والجهات الواقعة فى شرق القرجلة التى كانت تنازلت عنها أسلاف ذى الاكتاف لممالك الرومانية

ومنهم بهرام جور أو بهرام الخامس عند الجريق وهو الملك الرابع عشر من هذه العائلة تسلطن ثلاثا وعشرين سنة . وكان مشهورا بجدد دوانه وكثرة سخائه وكرمه وطرد قبائل التتار الذين كانوا عزموا على التغلب على فارس وكانت سلطنته تماثل فى طريقة أحكامها سلطنة رجل عربى لاملك مستبد فى أحكامه وكان كثير المحبة للصيد فكان ذات يوم فى ميدان الصيد اذ ظهر له كورخر أو جورخر أى حمار وحشى فما زال سائقا خلفه متشوقا للقبض عليه ومن هذا الوقت سمى بهرام جور وكان محل هذا الصيد فى سهل اسمه سهل أوجان فجعل هذا السهل محل صيد الملوك تذكرة لبهرام جور وسماه الفرس وادى الشجعان ومازال هذا الملك سائقا خلف هذا الحمار الوحشى حتى عدمت حياته وهلك

ومنهم خسرو أنوشروان الملك العشرون جلس على التخت فى سنة ٥٣١ بعد الميلاد وتسلطن الى سنة ٥٧٩ بعد الميلاد أى ثمانيا وأربعين سنة وهو ملك مشهور الاسم والاحترام وحزم الرأى والتدبير عند كافة المؤرخين ولم يزل لحد الآن فى فم كل فارسى أن أنوشروان معدن الحكمة والعدل والكرم وقيل ان مولده منسوب الى أبيه قباد الملك التاسع عشر من هذه العائلة عشق امرأة جميلة من نيسابور وقت ما كان فارا من أخيه فيروز وبات فى مدينة نيسابور ليلة واحدة ومن بعد مضى أربع سنوات عند عوده من هذه الطريق فى رأس جيش قواه به خاقان الترك أتت اليه معشوقته الجميلة ومعها ولد ثمرة محبتهما وأعلمته انه ابنه وبينما هو يتأمل فيه اذ وردت الاخبار له بموت أخيه وانتظار التخت له فتيمن بالمولود وحمله وأمه على مراكب نساء الملوك ورباه أعظم تربية وجعله ولى عهده ووارث ملكه ولما تولى من بعد قباد كان أعظم ملوك فارس واعتبره أهل بلاده بأنه معدن العدل والحكمة والكرم والسياسة ولقبوه بالملك العادل ووجد هذا الملك مملكته تبكى تحت أحمال ثقيلة قبيحة محمولة

فوقها

فوقها وذلك أنه كان ظهر فى أيام أبيه على ماذكره ابن الاثير فى الكامل وكذا فى بعض التواريخ غير العربية مزدك وابتدع ووافق زرادشت فى بعض ما جاء به وزاد ونقص وزعم أنه يدعو الى شريعة ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حسبما دعا اليه زرادشت واستحل المحارم والمنكرات وسوّى بين الناس فى الاموال والاملاك والنساء والعبيد والاماء حتى لا يكون لاحد على أحد فضل فى شئ البتة فكثرت أتباعه من السفلة والاوباش فصار واعشرات ألوف فكان مزدك يأخذ امرأة هذا فيسلمها الى الآخر وكذا فى الاموال والعبيد والاماء وغيرها من الضياع والعقار فاستولى وعظم شأنه وتبعه الملك قباد وحواشيه ومافى داخل سراياته فقال يوما لقباد اليوم نوبتى من امرأتك أم أنوشروان فأجابه الى ذلك فقام أنوشروان اليه ونزع خفيه بيديه وقبل رجليه وشفع اليه حتى لا يتعرض لامه وله حكمه فى سائر ملكه فتركها

ولما جلس أنوشروان على التخت أذن للناس بالدخول عليه اذناعاما فدخل عليه المنذر بن ماء السماء وكان يومئذ عاملا على الحيرة ونواحيها ودخل عليه مزدك فقال انى كنت تمنيت أمنيتين أرجو أن يكون الله قد جمعهما الىّ فقال مزدك وماهما أيها الملك قال تمنيت أن أملك وأستعمل هذا الرجل الشريف يعنى المنذر بن ماء السماء وان أقتل هذه الزنادقة فقال مزدك أو تستطيع أن تقتل الناس كلهم فقال أنوشروان وانك ههنا يا ابن الزانية والله ماذهب نتن ريح خفيك من أنفى منذ قبلت رجلاك الى يومى هذا وأمر به فقتل وصلب وقتل منهم مابين جاذر الى النهروان الى المدائن فى ضحوة واحدة نحو مائة ألف زنديق وقسمت أموالهم فى أهل الحاجة وأمر بقتل جماعة ممن دخل على الناس فى أموالهم ورد الاموال الى أهلها وأمر بكل مولود اختلفوا فيه أن يلحق بمن هو منهم اذا لم يعرف أبوه وأن يعطى نصيبا من ملك الرجل الذى يسنده اليه اذا قبله الرجل وبكل امرأة غلبت على نفسها أن يؤخذ مهرها من الغالب ثم تخير المرأة بين الاقامة عنده وبين فراقه الا أن يكون لها زوج فترد اليه وأمر بعيال ذوى الاحساب الذين مات قيمهم فأنكح بناتهم الاكفاء وجهزهن من بيت المال وأنكح نساءهم من الاشراف واستعان بأبنائهم فى أعماله وكانت مملكته مشتبكة فى حرب مع الرومانيين وكان غسطيانوس على رغبة زائدة من عقد الصلح فاشتراه من أنوشروان بثمن مقداره ١١٠٠٠ دينار من الذهب فى سنة ٥٣٣ بعد الميلاد وشرط الملكان على بعضهما أن يكون هذا صلح لانهائى الا انه فى سنة ٥٤٠ حصل لأنوشروان الغيرة والحمية من المظفرات الكبيرة التى نالها غسطيانوس فى افريقية وسيسليا وايطاليا فجدد الحرب بغتة وأغار على سوريا وفلسطين فى رأس جيش كثيف وتغلب على هذه الممالك بسرعة زائدة فأرسلت رومة القائد الاكبر بليصاريوس لقيادة الجيش الرومانى وفى حربين متعاقبين حصلا فى سنة ٥٤١ وسنة ٥٤٢ بعد الميلاد أرغم بليصاريوس ملك الفرس على العود الى بلاده والقهقرة من الاراضى الرومانية ثم انفصل بليصاريوس من قيادة الجيوش الرومانية وأرسل لمباشرة الحروب فى ايطاليا فحصل الظفر للجيوش الفارسية مرة ثانية ودام الحرب الى سنة ٥٦١ بعد الميلاد حتى انجبر الرومانيون على عقد صلح بشرط أن يدفعوا الفارس مبلغا سنويا مقداره ٣٠٠٠٠ قطعة من الفضة وهذا خلاف الحروب التى كانت جارية مع الرومانيين فان خسرو أنوشروان ساق جيوشه وفتوحاته الى ماوراء نهر جيحون والسند من الجهة الشرقية وفى داخل بلاد العرب من الجهة الجنوبية وكانت سلطنته مرعية فى فارس بانها العصر المذهب وابتنى الخانات والاسواق والقناطر ورمم ما تداعت

أركانه منها وأنشأ مبانى عمومية وأسس المكاتب والمدارس وحث على التعليم ودعا الى ديوانه فلاسفة الجريس وكان مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر ملكه وقيل ولد عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم لاربع وعشرين سنة مضت من ملك أنوشروان وولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة اثنتين وأربعين فى آخر ملكه وأرسله الله تعالى لمضى اثنتين وعشرين سنة من ملك خسرو أبرويز وهاجر لاثنتين وثلاثين سنة مضت من ملك أبرويز والله أعلم

ومن بعد موت أنوشروان خلفه ابنه هرمز الثالث وكان ملكا عاجز التدبير فاجرا قبيح السلوك وكان ملكه اثنتى عشرة سنة قال ابن الاثير فى تاريخه الكامل ان هرمز بن خسرو أنوشروان كان أديبا راغبا فى الاحسان الى الضعفاء والحمل على الاشراف فعادوه وأبغضوه وكان داهيا ردىء النية قد نزع الى أخواله الترك لان أمه كانت ابنة خاقان الاكبر ملك الترك وقتل من العلماء وأهل البيوتات والشرف ثلاثة عشر ألف رجل وستمائة رجل ولم يكن له رأى الا فى تألف السفلة وحبس كثيرا من العظماء وأسقطهم وحط مراتبهم ففسد عليه كثير ممن كان حوله وقتله أحد قواده فى سنة ٥٩٠ بعد الميلاد فدخل الامبراطور موريس الرومانى فى أمر خسرو أبرويز ابن الملك المقتول وأجلسه على تخت أبيه فشكر خسرو صنيع هذه المساعدة واستمر فى ارتباطات ودية وصداقة قلبية مع المملكة الرومانية مدة حياة موريس الا أنه بمجرد قتل الامبراطور موريس حول خسرو أبرويز جيوشه على المملكة الرومانية وأخذ بعضا من أقاليمها العظيمة وخضعت سوريا وفلسطين ومصر وقرطاجنة وطرابلس ولبثت هذه الممالك مدة من الزمن خاضعة لمملكة فارس وأوقع المصائب وأعظم البلايا على أورشليم وقال جبون ان جميع النذور الديانية التى كانت وفدت الى أورشليم فى مدة ثلاثمائة سنة سلبت فى يوم واحد انتهكت فيه حرمة أورشليم ونقل البطريرك زكريا وخشبة الصليب الى فارس وذبح من المسيحيين فى هذه الواقعة نحو من ٩٠٠٠٠ نفس نسبت مذبحتهم لليهود والعرب الذين زادوا فى ارتباك ملك فارس ونفس مصر التى كانت ايالة وحيدة مستثناة من عهد دوقلطيانوس من الحروب الاجنبية والداخلية أخضعها أيضا خلفاء كيرش الاول وأقيمت بيارق الظفر والنصر فى الجهات الغربية لا على أسوار قرطاجنة فقط بل وفى جميع ما جاور طرابلس الغرب وتدمرت المستعمرات اليونانية التى كانت فى نواحى صرنى (طرابلس الغرب) وسار هذا الفاتح على قدم اسكندر الاكبر وعاد فى أبهة وطنطنة من وسط رمال صحراء ليبيا أى صحراء برقة وأخضع فى حرب آخر كامل الاقليم الكائن بين نهر الفرات وبوغاز البوسفور أى بوغاز القسطنطينية وفتح كليشدون بعد حصار طويل واستمر الجيش الفارسى معسكرا عشر سنوات على مرأى من القسطنطينية وكان خسرو أبرويز مشهورا بأبهة ديوانه ورفاهية حياته وكان أمام باب سرايته ستة آلاف فارس خفر راكبين على خيولهم يتعاقبون بعضهم بعضا فى نوبات الخفر وكانت خدمة الجهات الداخلية من السراية معهودة الى ١٢٠٠٠ من العبيد وكانت الكنوز المختلفة من الذهب والفضة والجواهر والحرير وأنواع العطريات مخزونة فى مائة قبوة تحت الارض ولا علينا من العار والفضيحة أن يقال على سبيل التملق أو الكذب انه كان يوجد ٣٠٠٠٠ ستارة ثمينة غالية القيمة مزين بها حوائط السراية و ٤٠٠٠٠ عمود من الفضة حاملة سقف السراية و ١٠٠٠ كرة من الذهب معلقة فى القبة على هيئة حركات الكواكب وسيارات منطقة فلك البروج وكان يوجد فى مجلس الملك الاعظم أمهر الشعراء وأجودهم قريحة النادر وجود أمثالهم وفى اسطبلاته ٥٠٠٠٠

حصان

حصان من جياد الخيول وفى حريمه ٣٠٠٠ من أحسن النساء وأجملهن وكان أجلهن وأظرفهن شيرين وكانت جريقية نصرانية ألف الشعراء فى جمالها وظرفها وهيام الملك بحبها وخضوعه لها فى نكاتهم وحكاياتهم وأشعارهم التاليف العجيبة والاشعار الغريبة وبينما كان ملك الفرس متمتعا بما هو فيه من النعم الوافرة والشوكة الظافرة اذ وردت عليه رسالة من أحد أهالى مكة مع شخص اسمه عبد الله بن حذافة فخرق الكتاب ورفض الدعوة فقال النبى صلى الله عليه وسلم ان الله سيمزق ملك خسرو كما مزق كتابنا ولا يقبل توبته ولا توسله كما رفض دعوتنا وكانت صورة الكتاب الذى أرسل اليه

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وامن بالله ورسوله وشهد أن لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله وانى أدعوك بدعاء الله وانى رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين فأسلم تسلم وان توليت فانما اثم المجوس عليك فلما قرأه شقه وقال يكتب الى بهذا وهو عبدى ثم كتب خسرو أبرويز الى باذان عامله باليمن أن ابعث الى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به فبعث باذان بانوه وكان كاتبا حاسبا ورجلا اخر من الفرس اسمه خرخسره وكتب معهما مكتوبا يأمره بالمسير معهما الى كسرى وسمعت قريش بذلك ففرحوا وقالوا أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الفرس أو ملك الملوك كفيتم الرجل فخرجا حتى قدما على محمد صلى الله عليه وسلم وقد حلقا لحاهما وشواربهما فاكره النظر اليهما وقال ويلكما من أمركما بهذا قالا ربنا يعنون الملك فقال لكن ربى أمرنى أن أعفى لحيتى وأقص شاربى فاعلماه بما قد قاله وقالا ان فعلت كتب باذان فيك الى خسرو وان أبيت يهلكك ويهلك قومك فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ارجعا حتى تأتيانى غدا وأتى رسول الله الخبر من السماء ان الله قد سلط على خسرو ابنه شيرويه فقتله فدعاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرهما بقتل خسرو وقال لهما ان دينى وسلطانى سيبلغ ملك خسرو وينتهى منتهى الخف والحافر وأمرهما أن يقولا لباذان ذلك ويسلم فان أسلم أقره على ما تحت يده وملكه على قومه ثم أعطى خرخسره منطقة ذهب وفضة أهداها له بعض الملوك وخرجا فقدما على باذان وأخبراه الخبر فقال ماهذا كلام ملك وانى لأراه نبيا ولننظرن فان كان ما قال حقا فهو رسل وان لم يكن فنرى فيه رأينا فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه يخبره بقتل خسرو وأن قتله غضبا للفرس لما استحل من قتل أشرافهم ويأمره بأخذ الطاعة له باليمن وبالكف عن محمد صلى الله عليه وسلم فلما أتاه كتاب شيرويه أسلم وحققت السنون الاخيرة من سلطنة خسرو نبأ محمد صلى الله عليه وسلم وحصل تمزيق المملكة كما أنبأ وذلك أن الامبراطور هرقل استيقظ من غفلته ووضع مبادى سنى سلطنته بطرد الفرس من البوسفور فى سنة ٦٢٢ بعد الميلاد وفى ظرف ست سنوات طرد خسرو من جميع فتوحاته البرانية وأغار على فارس وأخذ سراينه فى مدينة دستجردونهبها وحرقها وقبض ابنه البكرى شيرويه على ثمانية عشر ولدا من أولاده وهو فى وسط المصائب التى حلت به وقتلهم أمام عينيه ورماه وهو فى سرداب تحت الارض ثم أمر بقتله من بعد مضى خمسة أيام فى سنة ٦٢٨ بعد الميلاد

وجلس شيرويه بن أبرويز على تخت المملكة بعد أن حبس أباه فى سرداب تحت الارض وقال ابن الاثير فى الكامل انه دخل على شيرويه الاشراف والعظماء من أهل مملكته وقالوا له لا يستقيم أن يكون لنا ملكان فاما أن تقتل كسرى أبرويز ونحن عبيدك واما أن نخلعك ونطيعه فأرسل له رسولا من

طرفه وقال له قل لابينا الملك عن رسالتنا ان سوء أعمالك فعل بك ماترى منها جراءتك على أبيك وسملك عينيه وقتلك اياه ومنها سوء صنيعك الينا معشر أبنائك فى منعنا من مجالسة الناس ومنها اساءتك الى من خلدت فى السجون ومنها اساءتك الى النساء تأخذهن لنفسك وتركك العطف عليهن ومنعهن عمن يعاشرهن ويرزقن منه الولد ومنها معاملة رعيتك بالعنف والغلظة والفظاظة ومنها جمع الاموال فى شدة وعنف من أربابها وعتدا اليه أمورا أخرى فان كان لك حجة تذكرها فافعل وان لم يكن لك حجة فتب الى الله تعالى حتى يأمر فيك بأمره فجاء الرسول الى أبرويز فأدى اليه الرسالة فقال أبرويز قل عنى لشيرويه القصير العمر لو كنا كما تقول لم يكن لك أيها الجاهل أن تنشر عنا مثل هذا العظيم الذى يوجب علينا القتل لما يلزمك فى ذلك من العيوب فانه قضاء أهل ملتك ينفون ولد المستوجب للقتل من أبيه وينفونه من مضامة الاخيار ومجالستهم فضلا عن أن يملك مع انه قد بلغ من اصلاحنا أنفسنا وأبناءنا ورعيتنا ماليس فى شئ منه تقصير ونحن نشرح الحال فيما لزمنا من الذنوب لتزداد علما بجهلك فمن جوابنا ان الاشرار أغروا كسرى هرمز والدنا بنا حتى اتهمنا فرأينا من سوء رأيه فينا مايخوفنا منه فاعتزلنا بابه الى أذربيجان فلما انتهك منا ما انتهك شخصنا الى بابه فهجم المنافق بهرام علينا فأجلانا عن المملكة فسرنا الى الروم وعدنا الى ملكنا واستحكم أمرنا فبدأنا بأخذ الثأر ممن قتل أبانا أو اشترك فى دمه وأما ماذكرت فى أبنائنا فانا وكلنا بكم من يكفكم عن الانتشار فيما لايعنيكم فتتأذى بكم الرعية والبلاد وكنا أقمنا لكم النفقات الواسعة وجميع ماتحتاجون اليه وأما ماذكرت عمن خلدناه فى السجون فانا لم نحبس الامن وجب عليه القتل أو قطع بعض الاطراف وقد كان الموكلون بهم والوزراء يأمروننا بقتل من وجب قتله قبل أن يحتالوا لانفسهم فكنا بحبنا الاستبقاء وكراهتنا لسفك الدماء نتأنى بهم ونكل أمرهم الى الله فان أخرجتهم من محبسهم فقد عصيت ربك وأما جمع الاموال وأنواع الجواهر والامتعة بأعنف جمع وأشد الحاح فاعلم أيها الجاهل أنه انما يقيم الملك بعد الله الاموال والجنود وخاصة ملك فارس الذى قد اكتنفه الاعداء ولا يقدر على كفهم وردعهم عما يريدونه الا بالجنود والاسلحة والعدد ولاسبيل الى ذلك الا بالمال وقد كان أسلافنا جمعوا الاموال والسلاح وغير ذلك فأغار المنافق بهرام ومن معه على ذلك الا اليسير فلما ارتجعنا ملكنا وأذعن لنا الرعية بالطاعة أرسلنا الى نواحى بلاد ناجيوشنا فكفوا الاعداء وأغاروا على بلادهم ووصل الينا غنائم بلادهم من أصناف الاموال والامتعة الكثيرة الحد وقد بلغنا أنك هممت بتفريقها فاعلم أن هذه الاموال لم تجتمع الا بعد الكد والتعب والمخاطرة بالنفوس فلا تفعل ذلك فانها كهف ملكك وبلادك وقوة على عدوك ولما انصرف الرسول الى شيرويه قص عليه جواب أبيه ثم ان عظماء الفرس عادوا الى شيرويه اما أن تأمر بقتل أبيك واما أن نطيعه ونخلعك فأمر بقتل أبيه واخوته ويقال انه أباد من قدر عليه من أهل بيته

ولما جلس شيرويه عقد صلحا مع الامبراطور هرقل وتسلطن ست شهور أو ثمانية وفى ظرف الاربع سنوات التى جاءت عقب موته جلس على تخت مملكة فارس خمس ملوك كان آخرهم يزدجرد بن شهريار ابن أبرويز وكانت حالة هذه الملوك المضاربة بالسيوف أو الخناجر من أجل سلطنة كئيبة الحال متشوش البلبال كل أقاليم فيها حتى ان كل مدينة فى غاية الارتباك والقاقلة بشأن الاستقلال وما كان فى المملكة الا نزاع وسفك دماء

وفى سنة ٦٣٢ بعد الميلاد قام يزدجرد الثالث بن شهريار وضم هذه الاحزاب تحت حكمه ومع هذا فانه لم يتم له خلاص السلطنة الفارسية القديمة لان المسلمين دخلوا بلادهم ودهموهم بجيوشهم التى لا تقهر واجتهد يزدجرد فى طردهم وردهم على أعقابهم الى بلادهم فكان على غير طائل من اجتهاده وهزمه العرب فى واقعة كبيرة حصلت فى الفارسية سنة ٦٣٦ بعد الميلاد وفى واقعة أخرى حصلت فى نهاوند سنة ٦٤١ بعد الميلاد وقيل انه هلك من الفرس فى واقعة نهاوند ۱۰۰۰۰۰ نفس وكانت هذه الواقعة ختام المملكة وانقضاء نحبها والتزم يزدجرد على أن يجد سلامة نفسه فى الهرب فسار متنقلا من اقليم الى اقليم ومن بلد الى بلد فى الاقاليم الشرقية حتى انه فى سنة ٦٥١ بعد الميلاد رأى رجل طحان ماعليه من الملابس الثمينة فقتله وأخذ ماعليه ومامعه ورمى جثته فى النهر وبموته انقرضت السلسلة الساسانية والديانة المجوسية

ولما تغلب المسلمون على المملكة الفارسية من بعد واقعة نهاوند شرعوا فى استئصال المجوس فقتلوا كل من كان داخلا فى هذا الدين القديم من دون استبقاء أحد منهم ولا رحمة بهم ماعدا القليل منهم فانهم جازفوا وتجاسروا فى بقائهم على دين آبائهم وماحصل من الفرس أدنى مقاومة بعد واقعة نهاوند لاهل بلاد العرب أهل القوة والحماس وتغلبوا على المملكة من الفرات الى نهر جيحون ودمروا كل ما كان نافعا فيها من الاشياء المقدسة وغيرها التى كانت موجودة فى المملكة وكانت تقدمات المسلمين فى فتوحاتهم فارس على غاية العجلة المستغربة وأينع قبائل الصحارى المحرقة فى الجهة الجنوبية من آسيا فى البلاد الباردة بخراسان وبلخ ونبتوا فى الاراضى التى انغرسوا فيها وانتشروا حولها وأتم العرب خضوع المملكة الفارسية واستمرت اقليما من مملكة الخلفاء نحوا من مائتى سنة أو قرنين وفى ظرف هذه المدة اعتنق الامة الفارسية الديانة الاسلامية وبما أنهم اختاروا ديانة هؤلاء الفاتحين كانوا بالطبع راضين بأحكامهم الا أن الامم صاروا لا طاقة لهم بعد على مداومتهم على هذا الرق والاستعباد ومن كثرة شدة توالى الحروب والذبح والقتل من حصول الثورات والخروج من الطاعة هبطت الامة عن طلب حقوقها الا أن الرؤساء أعيدت لهم شوكتهم شيأ فشيأ ولما انحطت حمية الغيرة الدينية وانقرض احترام الخلفاء حصل النفور أولا ثم بعده العصيان ثم امتدت الايدى الى قضيب الخلافة وبما أنه صار لا طاقة للخلفاء على المحافظة على هذا القضيب صار جائزة لاول مجازف ومخاطر فى القبض عليه مع الشجاعة والبسالة

مبادى دولة يعقوب بن الليث الصفار أول ملوك فارس

وفى سنة ٨٦٨ بعد الميلاد الموافقة لسنة ٢٥٣ من الهجرة قام يعقوب بن الليث الصفار ورفع بيرق العصيان على الخلفاء وشرع فى استقلال مملكة فارس وكان يعقوب بن الليث وأخوه عمرو يعملان الصفر المركب من القصدير والنحاس بسجستان ويظهران الزهد والتقشف وكان فى أيامهما رجل من سجستان يظهر التطوع بقتال الخوارج فصحبه يعقوب وقاتل معه فحظى عنده ثم هلك وقام مقامه انسان آخر اسمه درهم فانضم يعقوب الى درهم ولما عظم شأن درهم وكثرت أتباعه احتال عليه صاحب خراسان حتى ظفر به وأرسله الى بغداد فحبسه بها وعظم أمر يعقوب بعد أخذ درهم وصار متولى أمر المتطوعة مكانه وقام بمحاربة الشراة فظفر بهم وأكثر القتل فيهم حتى كاد يفنيهم وخرب قراهم وأطاعه أصحابه بمكره وحسن حاله ورأيه طاعة لم يطيعوها أحدا كان قبله واشتدت شوكته فغلب على سجستان وأظهر التمسك بطاعة الخليفة وكاتبه وصدر عن أمره وأظهر انه أمره بقتال

الشراة وملك سجستان وضبط الطرق وحفظها وكثرت أتباعه ثم سار من سجستان الى هراة من أعمال خراسان وتغلب عليها وعلى بوشنج وعظم أمره وهابه أمير خراسان وغيره من أمراء الاطراف ثم ساق جيشه على اقليم كرمان وتغلب عليه وأسر عامله طوق بن المغلس وكان صار ارساله من طرف على بن الحسين بن شبل عامل فارس بعد مدافعة قليلة ثم ساق الى فارس وجرى بينه وبين عاملها على بن الحسين ابن شبل حروب كانت نتيجتها هزيمة عامل فارس ودخل يعقوب شيراز وطاف بالمدينة ونادى بالامان وكان على بن الحسين جرح فى الحرب ثلاث جراحات وأخذ أسيرا وكان القتلى فى الحرب خمسة آلاف قتيل واطمأن الناس فى المدينة وعذب الصفار على بن الحسين بأنواع العذاب وأخذ جميع أمواله وسلاحه وخيله وكتب الى الخليفة بطاعته اسميا لارسميا وأهدى له هدية جليلة منها عشر بازات بيض وباز أبلق صينى ومائة من مسك وغيرها من الطرائف وعاد الى سجستان ومعه على وطوق ولما فارس بلاد فارس أرسل الخليفة عماله اليها

وفى سنة ٢٥٧ من الهجرة سار يعقوب بن الليث الى فارس فأرسل اليه المعتمد ينكر ذلك عليه فلما أتى رسول الخليفة كان يعقوب أصابته حمى شديدة ألزمته الفراش فقال للرسول وهو يتألم من أثر الحمى قل للخليفة انى أنا مديون لسيفى هذا بشأن الاراضى التى أحسنها الى من كرمه فان عشت فالسيف حكم بيننا وان مت يخلص من أفكاره بسببى وان كنت تنتصر فالانسان الذى يقدر على عيشة وحياة بالعيش الاسود والبصل لايخشى عواقب الحرب وماتؤول اليه حالته بعد ثم كتب اليه الموفق بولاية بلخ وطخارستان وسجستان والسند فقبل ذلك وعاد وسار الى بلخ وطخارستان فلما وصل الى بلخ نزل بظاهرها وخرب نوشاد ثم سار من بلخ الى كابل واستولى عليها وسار الى بست فأقام بها سنة ثم عاد الى سجستان ورجع الى هراة وحاصر مدينة كروخ حتى أخذها وسار الى بوشنج وقبض على الحسين ابن طاهر عاملها ثم سار الى نيسابور وتغلب عليها فى سنة ٢٥٩ من الهجرة واستولى على كافة خراسان ورتب فيها عماله ونوابه وفى سنة ٢٦٠ من الهجرة واقع يعقوب بن الليث الحسن بن زيد العلوى فى طبرستان فهزمه ودخل طبرستان وهرب الحسن نحو السر وأرض الديلم ودخل يعقوب سارية وآمل وجبى من أهلها خراج سنة وعاد الى سجستان ثم جدد طمعه فى ملك بلاد فارس فأغار عليها وسلبها من ابن واصل ورتب بها أصحابه وأصلح أحوالها وحدثته نفسه بالاستيلاء على الاهواز وغيرها

وفى سنة ٢٦٢ من الهجرة سار يعقوب بن الليث من فارس الى الاهواز فلما بلغ المعتمد سار بعساكره لمقابلة يعقوب وكان قائد جيشه الموفق ولما تقابل الجيشان تحاربا حربا شديدا وثبتت عساكر يعقوب وهزموا ميمنة الموفق وقتلوا جماعة من قوادها ثم تراجع المنهزمون وكشف أبو أحمد الموفق رأسه وقال أنا الغلام الهاشمى واشتد الحرب وحملوا حملة منكرة وأصاب يعقوب ثلاثة أسهم فى حلقه ويديه واستمر الحرب الى قريب العصر وقد ظهر من أصحاب يعقوب كراهة القتال معه اذ رأوا الخليفة يقاتله فحملوا على يعقوب ومن قد ثبت معه للقتال فانهزم أصحاب يعقوب وثبت يعقوب فى خاصة أصحابه حتى فارقوا ميدان الحرب وتبعهم أصحاب الموفق فغنموا مافى معسكرهم وكان فيه من الدواب والبغال ماينوف عن عشرة الاف ومن الاموال مايكل عن حمله ومن أجربة المسك أمر عظيم وسار يعقوب من الهزيمة الى خوزستان فنزل جنديسابور وراسله العلوى البصرى يحثه على

الرجوع الى بغداد و بعده المساعدة فقال لكاتبه اكتب اليه قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون الى آخر السورة وسير الكتاب اليه وكتب المعتمد الى ابن واصل بتولية فارس وكان قد سار اليها وجمع جماعة فغلب فسير اليه يعقوب عسكرا عظيما تحت قيادة ابن عزيز بن السرى فغلب على فارس وطرد منها ابن واصل

وفى سنة ٢٦٥ من الهجرة الموافقة ٨٧٧ بعد الميلاد مات يعقوب بن الليث الصفار بجند يسابور من كور الاهواز وكانت علته القولنج فأمره الاطباء بالاحتقان بالدواء فلم يفعل واختار الموت وكان المعتمد قد أنفذ اليه رسولا وكتابا يستميله ويترضاه ويقلده أعمال فارس فوصل الرسول ويعقوب مريض راقد فى فراشه فجلس له وجعل عنده سيفا ورغيفا من الخبز الخشكار ومعه بصل وأحضر الرسول فأدى الرسالة فقال له قل للخليفة انى عليل فان مت فقد استرحت منك واسترحت منى وان عوفيت فليس بينى وبينك الاهذا السيف حتى اخذ بثارى أو تكسرنى وتعقرنى وأعود الى هذا الخبز والبصل وأعاد الرسول فلم يلبث يعقوب أن مات وقام بالامر بعده أخوه عمرو بن الليث وكتب الى الخليفة بطاعته فولاه الموفق خراسان وفارس وأصبهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد وأشهد بذلك وسيره اليه مع الخلع

وفى سنة ٢٧١ بعد الهجرة أدخل المعتمد اليه حاج خراسان وأعلمهم بانه قد عزل عمرو بن الليث عما كان قلده ولعنه بحضرتهم وأخبرهم أنه قد قلد خراسان محمد بن طاهر وأمر أيضا بلعن عمرو على المنابر فلعن فسار صاعد بن مخلد الى فارس لحرب عمرو فاستخلف محمد بن طاهر رافع بن هرثمة على خراسان فلم يغير السامانية عما وراء النهر وحصلت الواقعة بين عسكر الخليفة و بين عمرو بن الليث ودامت الحرب من أول النهار الى الظهر فانهزم عمرو وعساكره وكانوا ١٥٠٠٠ نفس بين فارس وراجل وغنموا من معسكر عمرو من الدواب والبقر والحمير ثلاثين ألف رأس وما سوى ذلك خارج عن الحد

وفى سنة ٢٧٤ من الهجرة سار الموفق الى فارس لحرب عمرو بن الليث الصفار فبلغ الخبر الى عمرو فسير جيشه تحت قيادة العباس بن اسحاق وأرسل ابنه الى أرجان وأرسل أبا طلحة على مقدمته فاستأمن أبو طلحة الى الموفق وسمع عمرو ذلك فتوقف عن قصده الموفق وعاد الى كرمان ومنها الى سجستان على الصحراء ولم يقدر الموفق على أخذ كرمان وسجستان من عمرو فهادنه وفى سنة ٢٨٧ من الهجرة أسر عمرو بن الليث الصفار وكان أرسل الى المعتضد برأس رافع بن هرثمة وطلب منه أن يوليه ما وراء النهر فوجه اليه الخلع واللواء الذلك وهو بنيسابور ووجهه لمحاربة اسماعيل بن أحمد الساماني صاحب ما وراء النهر محمد بن بشير وكان خليفته وحاجبه فى رأس جيش فعبر اليهم اسماعيل جيحون وحاربهم فهزمهم وقتل محمد بن بشير فى نحو ستة آلاف رجل وبلغ المنهزمون الى عمرو وهو بنيسابور وعاد اسماعيل الى بخارا فتجهز عمرو للملاقاة اسماعيل وسار من نيسابور نحو بلخ فسار اسماعيل نحوه وعبر النهر الى الجانب الغربى وجاء عمرو فنزل بلخ وأخذ اسماعيل عليه الجهات لكثرة جمعه وصار عمرو كالمحاصر وندم على ما فعل ثم حصلت الواقعة وكانت نتيجتها هزيمة عمرو فولى هاربا ومر باجمة فى طريقه فقيل له انها أقرب الطرق فدخل فيها فضلت دابته فتركه أصحابه وجاء أصحاب اسماعيل فأخذوه أسيرا فسيره اسماعيل الى سمرقند ثم خيره اسماعيل بين مقامه عنده أو انفاذه الى المعتضد فاختار المقام عند المعتضد فوصل الى بغداد موثقا فى الحديد سنة ٢٨٨ من الهجرة فلما وصل أركب على جمل

وأدخل بغداد وحبس فيها وفى سنة ٢٨٩ من الهجرة الموافقة لسنة ٩٠١ بعد الميلاد أمر الخليفة المعتضد بقتل عمرو بن الليث الصفار وقيل انه حالما أخذ أسيرا كان قاعدا فى ميدان الواقعة وعليه الخفر اللازم من طرف اسماعيل فاحضر اليه أحد عساكره لقمة طعام خشنة سمك مصلوق فى قدر صغيرة فجاء كلب على غاية من الجوع واللهث ووضع رأسه فى القدر ولما لم يقدر أن يخرجها من القدر أخذها فى رأسه بما فيها وجرى فضحك عمرو بن الليث ضحكا عاليا من فعل الكلب فقال له أحد الخفر الواقفين عليه أى شئ على الارض حث رجلا واقعا موقعك هذا على الضحك فقال له عمرو أنظر فى مثل هذا اليوم اشتكى أمين بيتى وتضرر من أن ٣٠٠ جمل ليست كافية لجهاز مطبخى والان هذا الكلب أخذ جميع جهاز المطبخ وجرى فأى شئ هذا حال الدنيا

وبموت عمرو زالت سعادة بيت الصفار ولو أن اثنين من هذا البيت كانا مستمرين فى السلطنة الا أن سلطنتهم كانت مرتجة مضطربة وانقسمت مملكة فارس فى مدة القرن العاشر من التاريخ المسيحى بين عائلتين هما عائلة السامانى وعائلة الديلمى فأما العائلة السامانية وكانت متسلطنة فيما وراء النهر وخراسان وبلخ وسيستان وأما عائلة الديلمى وان كانوا عادين أنفسهم عبيدا للخليفة الا أنهم كانوا سلاطين فى أنفسهم ولهم شوكة كبيرة وقوة عظيمة فى القسم الاعظم من العراق وفارس وكرمان وخوزستان ولاريستان

مطلب العائلة السامانية

وكان أول العائلة السامانية نصر بن أحمد السامانى وذلك أن الخليفة المعتمد استعمل نصر بن أحمد سنة ٢٦١ من الهجرة على ماوراء النهر وكان جده سامان منسوبا الى بهرام جوبين ولما ولى المأمون خراسان واصطنع أولاد أسد بن سامان وهم نوح وأحمد ويحيى والياس قربهم المأمون ورفع درجاتهم واستعملهم ورعى حق سلفهم فلما رجع المأمون الى العراق استخلف على خراسان غسان بن عباد فولى غسان نوح بن أسد سنة ٢٠٤ من الهجرة سمرقند وأحمد بن أسد فرغانة ويحيى بن أسد الشاش وأشروسنة والياس بن أسد هراة ثم توفى نوح بن أحمد فتولى عمله أخواه يحيى وأحمد ولما مات الياس بهراة تولى ابنه أبو اسحق محمد بن الياس عمله وأقام بهراة وكان لاحمد بن أسد سبعة بنين وهم نصر وأبو يوسف يعقوب وأبو زكريا يحيى وأبو الاشعث أسد واسماعيل واسحاق وأبو غانم حميد ولما توفى أحمد بن أسد استخلف ابنه نصرا على أعماله بسمرقند وماوراءها وكان اسماعيل بن أحمد يخدم أخاه نصرا فولاه نصر بخارا سنة ٢٦١ من الهجرة وكان سبب استعماله اسماعيل أنه لما استولى يعقوب بن الليث على خراسان أنفذ نصر جيشا الى شط جيحون ليأمن عبور يعقوب واستعمل اسماعيل على بخارا ولما تولى رافع بن هرثمة على خراسان تعاقد معه اسماعيل على التعاون والتعاضد فطلب منه اسماعيل أعمال خوارزم فولاه اياها ثم سعت السعاة بين نصر وأخيه اسماعيل فأفسدوا ما بينهما وصارا على شرف الحرب ثم اصطلحا ثم عادت السعاة ففسد ما بينهما ثانية حتى تحاربا سنة ٢٧٥ من الهجرة وظفر اسماعيل بأخيه نصر فلما حمل اليه ترجل له اسماعيل وقبل يديه ورده من موضعه الى سمرقند وتصرف على النيابة عنه ببخارا هكذا ذكر ابن الاثير فى الكامل

وفى سنة ٢٧٩ بعد الهجرة مات نصر بن أحمد السامانى وقام بما كان اليه من العمل بما وراء النهر أخوه اسماعيل بن أحمد وكان نصر دينا عاقلا له شعر حسن منه ما قاله فى رافع بن هرثمة

أخوك فيك على خبر ومعرفة ❊ ان الذليل ذليل حيثما كانا

لولا زمان خؤن فى تصرفه * ودولة ظلمت ما كنت انسانا

وكان هرثمة بن رافع عامل خراسان وقد تقدم ذكر تغلب اسماعيل على خراسان وأسره عمرو بن الليث الصفار

وفى سنة ٢٩٥ من الهجرة الموافقة لسنة ٩٠٧ بعد الميلاد توفى اسماعيل بن أحمد أمير خراسان وماوراء النهر بخارا بعد أن بلغ من العمر ستين سنة وولى بعده ابنه أبو نصر أحمد وأرسل اليه المكتفى عهده بالولاية وعقد لواءه بيده وكان اسماعيل عاقلا حسن السيرة فى رعيته حليما حكى عنه انه كان لأحد مؤدب يؤدبه فمر به الامير اسماعيل يوما والمؤدب لا يعلم به فسمعه وهو يسب ابنه ويقول له لا بارك الله فيك ولا فيمن ولدك فدخل اليه وقال له ياهذا نحن لم نذنب ذنبا فتسبنا فهل ترى أن تعفينا من سبك وتخص المذنب بشتمك وذمك فارتاع المؤدب فخرج اسماعيل عنه وأمر له بصلة جزاء لخوفه منه ولما ولى بعد أخيه كان يكاتب أصحابه وأصدقاءه بما كان يكاتبهم أولا فقيل له فى ذلك فقال يجب علينا اذا زادنا الله رفعة أن لا ننقص أخواننا بل نزيدهم رفعة وعلا وجاها ليزيدوا لنا اخلاصا وشكرا

ولما ولى بعده ابنه أبو نصر أحمد واستوثق أمره أراد الخروج الى الرى فأشار عليه ابراهيم بن زيدويه بالخروج الى سمرقند والقبض على عمه اسحق بن أحمد لئلا يخرج عليه ويشغله ففعل ذلك واستدعى عمه الى بخارا فحضر فاعتقله بها ثم عبر الى خراسان وتوجه الى نيسابور وفى سنة ٢٩٨ من الهجرة استولى أبو نصر أحمد بن اسماعيل السامانى على سجستان وكان بها صاحبها المعدل بن الليث بن الصفار فأخذه أسيرا وكان أخو المعدل محمد بن على بن الليث فى نواحى بست والرخج بعساكر ليحفظها فارسل اليه أحمد بن اسماعيل جيشا فقهره وأخذه أسيرا ولما تغلب السامانية على سجستان بلغهم خبر مسير سبكرى فى الصحرا من فارس الى سجستان فسيروا اليه جيشا فلقوه هو وعسكره قد أهلكهم التعب فأخذوه أسيرا واستولوا على عسكره وأرسل الامير أحمد سبكرى ومحمد بن على بن الليث الى بغداد وأدخلا فيها مشهورين على فيلين وأعاد المقتدر رسل أحمد صاحب خراسان ومعهم الهدايا والخلع

ثم عصت سجستان على الامير أحمد وخالف من بها وذلك أن محمد بن هرمز المعروف بالمولى الصندلى كان خارجى المذهب وكان قد أقام ببخارا وهو من أهل سجستان وكان شيخا كبيرا فجاء يوما الى الحسين ابن على بن العارض أمير بخارا من طرف أحمد السامانى يطلب رزقه فقال له على ان الاصلح لمثلك من الشيوخ أن يلزم رباطا يعبد الله فيه حتى يوافيه أجله فغاظه ذلك فانصرف الى سجستان والوالى عليها منصور بن اسحق فاستمال جماعة من الخوارج ودعا الى الصفار وبايع فى السر لعمرو بن يعقوب بن محمد ابن عمرو بن الليث وكان رئيسهم محمد بن العباس المعروف بابن الحفار وكان شديد الحيل والقوة فخرجوا وقبضوا على منصور بن اسحق أميرهم ورموه فى السجن وخطبوا لعمرو بن يعقوب وسلموا اليه سجستان فلما وصل الخبر الى الامير أحمد بن اسمعيل سير الجيوش تحت قيادة الحسين بن على مرة ثانية الى زرنج فى سنة ٣٠٠ من الهجرة فحصرها تسعة أشهر فصعد يوما محمد بن هرمز الصندلى الى السور وقال ماحاجتكم الى أذى شيخ لا يصلح الا للزوم رباط يذكرهم بما قال العارض ببخارا واتفق موت الصندلى فاستأمن عمرو بن يعقوب الصفار وابن الحفار الى الحسين بن على وأطلقوا منصور بن اسحق ولما بلغ الامير أحمد فتح سجستان استعمل عليها سيمجور الدواتى وأمر الحسين بن على بالرجوع اليه فرجع

ومعه عمرو بن يعقوب وابن الحفار وغيرهما
وفي سنة ٣٠١ من الهجرة مات الامير أحمد مقتولا على سريره في عسكره فحمل الى بخارا ودفن بها وطلب الذين قتلوه فقتلوا عن آخرهم وولى بعده نصر بن أحمد وكان عمره ثمان سنين وكانت ولاية أحمد ثلاثين سنة وثلاثة وثلاثين يوما ولقب نصر بالسعيد وبايعه أصحاب أبيه ببخارا وتولى أمور دولته وتدبيرها أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني فأمضى الامور وضبط المملكة ومع هذا فان أصحاب الاطراف طمعوا في البلاد فخرجوا من النواحي وممن خرج عن طاعته أهل سجستان وعم أبيه اسحق ابن أحمد بن أسد بسمرقند وخرج عليه الكثير وكان السعيد مظفرا منصورا عليهم وفي سنة ٣١٠ من الهجرة خرج الياس بن اسحق وكان خرج مع أبيه في السابق وانهزم هو وأبوه فأما الياس فانه كان انهزم الى فرغانة وأقام بها الى أن خرج ثانيا وهي هذه المرة وجمع من الترك ثلاثين ألف عنان وقصد سمرقند مشاققا للسعيد نصر فسير اليه السعيد ألفين وخمسمائة مقاتل تحت قيادة محمد بن أسد فكمنوا خارج سمرقند يوم ورود الياس فلما وردها واشتغل هو ومن معه بالنزول خرج الكمين عليه من بين الشجر ووضع السيوف فيهم فانهزم الياس وأصحابه الى فرغانة وخرج مرة ثالثة ورابعة فانهزم وتوجه الى كاشغر فكاتبه محمد بن المظفر واستماله ولطف به فأمن الياس اليه وحضر الى بخارا فأكرمه السعيد وصاهره وأقام معه وفي سنة ٣١٤ من الهجرة استولى السامانية على الري وأقام بها السعيد شهرين وولى عليها من طرفه سيمجور الدواتي وعاد منها وما زال مظفرا في دولته منصورا على أعدائه حتى توفي سنة ٣٣١ من الهجرة بعد أن تمرض ثلاثة عشر شهرا ولم يكن بقي من مشايخ دولتهم أحد فانهم كانوا قد سعى بعضهم ببعض فهلك بعضهم ومات بعضهم وكان مرضه السل ولما مات دفن عند والده وكان حليما كريما عاقلا فمن حلمه أن بعض الخدم سرق جوهرا نفيسا وباعه على بعض التجار بثلاثة عشر ألف درهم فحضر التاجر عند السعيد وأعلمه أنه قد اشترى جوهرا نفيسا لا يصلح الا للسلطان وأحضر الجوهر عنده فحين رآه عرفه انه كان له وقد سرق فسأله عن ثمنه ومن أين اشتراه فذكر له الخادم والثمن فامر فأحضر ثمنه في الحال وأربحه ألفي درهم زيادة ثم ان التاجر سأله في دم الخادم فقال لا بد من تأديبه وأما دمه فهو لك فأحضره وأدبه ثم أنفذه الى التاجر وقال كنا قد وهبنا لك دمه فقد أنفذناه اليك وله نوادر وحكايات ملوكية عجيبة

وتولى نوح بن نصر بعد أبيه خراسان وما وراء النهر وبايعه الناس وحلفوا له ولقب بالامير الحميد وفوض أمره وتدبير مملكته الى أبي الفضل محمد بن أحمد الحاكم وفي سنة ٣٣٢ من الهجرة خالف عبد الله ابن اشكام على الامير نوح وتحصن بخوارزم فسار نوح من بخارا الى مرو وسير اليه جيشا تحت قيادة ابراهيم بن بارس فمات هذا القائد في الطريق وكاتب ابن اشكام ملك الترك وراسله واحتمى به وكان لملك الترك ولد في يد نوح محبوس ببخارا فراسل نوح أباه في اطلاقه ليقبض على ابن اشكام فأجابه ملك الترك الى ذلك فلما علم ابن اشكام الحال عاد الى طاعة نوح وفارق خوارزم فأحسن اليه نوح وعفا عنه وأكرمه

ولما استقر الامير نوح في ولايته بما وراء النهر وخراسان أمر أبا علي بن محتاج وكان عاملا على نيسابور أن يسير في عساكر خراسان الى الري ويستنقذها من يد ركن الدولة بن بويه (وسنذكر بعد السامانية دولة بني بويه) فسار في جمع كثير فلقيه وشمكير بخراسان وهو مقصد الامير نوح فسيره اليه وكان نوح

حينئذ بمرو فلما قدم عليه أكرمه وأنزله وبالغ في اكرامه والاحسان اليه وأما أبو علي فانه سار نحو الري فلما نزل بسطام خالف عليه بعض من معه وعادوا عنه مع منصور بن قراتكين وهو من أكابر أصحاب نوح وخواصه وساروا الى جرجان فصدوا عنها فانصرفوا الى نيسابور وساق أبو علي نحو الري فخرج اليه ركن الدولة فانهزم أبو علي وعاد الى نيسابور وغنموا بعض أثقاله

ولما عاد أبو علي الى نيسابور راقبه وشمكير وقد سيره الامير نوح في رأس جيش وأرسل الى أبي علي بأمره بمساعدة وشمكير فوجه فيمن معه الى جرجان وبها الحسن بن الفيرزان فالتقوا واقتتلوا فانهزم الحسن وتغلب وشمكير على جرجان ثم سار أبو علي من نيسابور الى مرو وبها الامير نوح فاجتمع به فأعاده الى نيسابور وأمره بقصد الري وأمده بجيش كثير فعاد الى نيسابور وسار منها الى الري واستولى عليها وعلى سائر أعمال الجبل وأنفذ نوابه الى الاعمال ثم ان الامير نوحا سار من مرو الى نيسابور فأقام بها خمسين يوما فوضع أعداء أبي علي جماعة من الغوغاء والاوباش فاجتمعوا واستغاثوا عليه وشكوا سوء سيرته وسيرة نوابه فاستعمل الامير نوح على نيسابور ابراهيم بن سيمجور وعاد عنها الى بخارا فاستوحش أبو علي لذلك فانه كان يعتقد أن يحسن اليه بسبب فتح الري فلما عزل شق ذلك عليه ووجه أخاه الفضل بن محمد الى كور الجبال وولاه همذان وجعله خليفة على من معه من العساكر فقصد الفضل نهاوند والدينور وغيرهما واستولى عليها واستأمن اليه رؤساء الاكراد من تلك الناحية وأنفذوا اليه رهائنهم

وفي سنة ٣٣٤ من الهجرة خالف أبو علي على الامير نوح وحرض الناس على القيام معه وكان بهمذان واتفق أبو علي مع من انضم اليه من الجند على مكاتبة ابراهيم بن أحمد بن اسمعيل عم نوح واستقدامه اليهم ومبايعته وتمليكه البلاد وكان ابراهيم هذا بالموصل في خدمة ناصر الدولة فسار اليهم في تسعين فارسا ولما بلغ الخبر نوحا تجهز وسار من بخارا الى مرو وساق في البلاد حتى أصلحها وعاد الى بخارا وولى جيوش خراسان منصور بن قراتكين وأقام أبو علي بالصغانيان وبلغه أن الامير نوحا قد عزم على تسيير عسكر اليه فجمع أبو علي الجيوش وخرج الى بلخ وأقام بها وأتاه رسول الامير نوح في الصلح فأجابه اليه فأبى عليه جماعة ممن معه من قواد نوح الذين انتقلوا اليه وقالوا نحب أن تردنا الى منازلنا ثم صالح فخرج أبو علي نحو بخارا فخرج عليه الامير نوح في عساكره فانهزم عسكر أبي علي وتفرقوا عنه ورجع الى الصغانيان ثم بلغه ان الامير نوحا قد أمر العساكر بالمسير اليه من بخارا وبلخ وغيرهما وسار أبو علي في جيشه الى ترمذ وعبر جيحون وسار الى بلخ فنازلها واستولى عليها وعلى طخارستان وجبى مال تلك النواحي وسار من بخارا عسكر جرار الى الصغانيان فأقاموا بنسف ومعهم الفضل بن محمد أخو أبي علي وكان قد نفر من أخيه وسار الى الامير نوح فأكرمه وأغدق عليه فكتب جماعة من قواد العسكر الى الامير نوح بأن الفضل قد اتهموه بالميل الى أخيه فأمرهم بالقبض عليه فقبضوا عليه وسيروه الى بخارا ووقع بين عسكر أبي علي وعساكر الامير نوح حروب كبيرة ودخل عسكر نوح الى الصغانيان وحرقوا قصور أبي علي ومساكنه وآل أمر هذه الحروب أخيرا الى الصلح وأرسل أبو علي ابنه أبا المظفر عبد الله رهينة الى الامير نوح واستقر الصلح بينهما في سنة ٣٣٧ بعد الهجرة وزال الخلف من بينهما وفي أثناء هذا الخلاف رجع ركن الدولة الى الري واستولى عليها وعلى سائر أعمال الجبل وطرد منها الخراسانية ثم سار عساكر خراسان الى جرجان وتغلبوا عليها وكانوا تحت قيادة منصور بن قراتكين ووشمكير وكان بها الحسن بن الفيرزان فجلا منها وبقي بها وشمكير وفي سنة ٣٣٩ من الهجرة سار منصور بن

قراتكين من نيسابور الى الري بأمر الامير نوح فوصل اليها واستولى عليها وفرق العساكر فى البلاد وأزالوا عنها نواب ركن الدولة واستولوا على همذان وغيرها فبلغ الخبر ركن الدولة وهو بفارس فكتب الى أخيه معز الدولة يأمره بانفاذ عسكر يدفع تلك العساكر عن النواحى المجاورة للعراق فسير سبكتكين الحاجب فى عسكر ضخم من الاتراك والديلم والعرب فلما سار سبكتكين عن بغداد خلف أثقاله وسار فى جريدة الى من بقى من الخراسانيين فكبسهم وهم غارون فقتل فيهم وأسر مقدمهم واسمه بحكم الخمارتكيني وأنفذه مع الاسرى الى معز الدولة فحبسه مدة فى بغداد ثم أطلقه ولما بلغ الخراسانية ذلك اجتمعوا فى همذان فسار نحوهم سبكتكين ففارقوا همذان ولم يحاربوه ودخل سبكتكين همذان وأقام بها حتى وردعليه ركن الدولة وظفر ركن الدولة بالخراسانية ورد منصور بن قراتكين وعساكره الى بلاده وفى سنة ٣٤٠ بعد الهجرة مات منصور بن قراتكين قائد الجيوش الخراسانية ولما مات رجعت العساكر الخراسانية الى نيسابور وقال العراقيون انه أدمن الشرب عدة أيام بلياليها فمات فجأة وقال الخراسانيون انه مرض ومات وحمل تابوته ودفن الى جانب والده فى مدينة اسبيجاب وأعيد أبو على ابن محتاج الى قيادة الجيوش بخراسان وأمر بالعود الى نيسابور ولما حصل من الحروب بين ركن الدولة ووشمكير فى جهات الرى مضايقة وكتب وشمكير الى الامير نوح يستمده كتب نوح الى أبى على بن محتاج يأمره بالمسير فى جيوش خراسان الى الرى لمحاربة ركن الدولة فسار أبو على فى جيوش كثيرة واجتمع معه وشمكير فسارا الى الرى وبلغ الخبر ركن الدولة فحارب الخراسانيين وأقام عليه أبو على عدة شهور يحاربه فلم يظفر به وهلكت دواب الخراسانيين وأتاهم الشتاء وملوا فالتزم أبو على الى الصلح فتراسلا فى ذلك وتصالحا وتقرر على ركن الدولة كل سنة مائتا ألف دينار وعاد أبو على الى خراسان وكتب وشمكير الى الامير نوح ان أبا على لم يصدق فى الحرب وانه مال لركن الدولة فاغتاظ نوح من أبى على ولما ترك أبو على ركن الدولة سار الى وشمكير وهزمه واستولى على طبرستان وكتب نوح الى أبى على بعزله عن خراسان وكتب الى القواد يعرفهم أنه قد عزله عنهم واستعمل على الجيوش بعده أبا سعيد بكر بن مالك الفرغانى فأرسل أبو على يعتذر وراسل جماعة من أعيان نيسابور يقيمون عذره ويسألون أن لا يعزل عنهم فلم يجابوا فأظهر أبو على الخلاف وخطب لنفسه بنيسابور وكتب نوح الى وشمكير والحسن بن فيرزان يأمرهما بالصلح وأن يتساعدا على من يخالف الدولة فلما علم أبو على باتفاق الناس مع نوح كاتب ركن الدولة فى المسير اليه لانه علم أنه لا يمكنه المقام بخراسان ولا يقدر على العود الى الصغانيان فأذن له ركن الدولة بالقدوم اليه فسار أبو على الى الرى وأكرمه ركن الدولة وأقام له ولمن معه الضيافات وطلب أبو على أن يكتب له عهدا من جهة الخليفة بولاية خراسان فأرسل ركن الدولة الى معز الدولة فسير له عهدا بما طلب وسير له نجدة من عسكره فسار أبو على الى خراسان واستولى على نيسابور وخطب للطيع بها وبما استولى عليه من خراسان

وفى سنة ٣٤٣ من الهجرة مات الامير نوح بن نصر السامانى وكان حسن السيرة كريم الاخلاق ولما توفى ملك بعده ابنه عبد الملك وكان قد استعمل بكر بن مالك على جيوش خراسان فقام بكر بأمر عبد الملك بن نوح وقرر أمره ولما استقر حاله وثبت ملكه أمر بكرا بالمسير الى خراسان وأمره باخراج أبى على منها فسار فى العساكر نحو أبى على فتفرق عن أبى على أصحابه وعسكره ولم يبق معه الا القليل فاضطر الى الهرب وسار نحو ركن الدولة فأنزله معه فى الرى واستولى بكر على خراسان فأقام بنيسابور وتتبع

أصحاب أبي علي وفي سنة ٣٥٠ من الهجرة سقط الفرس تحت الامير عبد الملك بن نوح صاحب خراسان فوقع الى الارض فمات من سقطته وولي بعده أخوه منصور بن نوح وفي سنة ٣٦١ من الهجرة تم الصلح بين الامير منصور بن نوح الساماني و بين ركن الدولة وابنه عضد الدولة على أن يحمل ركن الدولة وعضد الدولة اليه كل سنة ١٥٠٠٠٠ دينار وتزوج نوح بابنة عضد الدولة وحمل اليه من الهدايا والتحف مالم يحمله مثله وكتب بينهم كتاب صلح وشهد فيه أعيان خراسان وفارس والعراق وفي سنة ٣٦٦ من الهجرة مات الامير منصور وكان موته ببخارا بعد أن تسلطن خمس عشرة سنة وولي الامر بعده ابنه أبو القاسم نوح وكان عمره حين ولي ثلاث عشرة سنة ولقب بالمنصور واستوزر أبا الحسين العتبي فقام في حفظ الدولة القيام المرضي وكان محمد بن سيمجور قد استوطن خراسان وطالت أيامه فيها فلا يطيع الا فيما يريد فعزله أبو الحسين العتبي عنها واستعمل مكانه حسام الدولة أبا العباس تاش وسيره من بخارا الى نيسابور فاستقر بها ودبر خراسان ونظر في أمورها وأطاعه جندها ثم ان ابن سيمجور وضع جماعة من المماليك على قتل أبي الحسين العتبي فقتلوه فكتب نوح الى حسام الدولة يستدعيه الى بخارا ليدبر دولته و يجمع ما انتشر منها بقتل أبي الحسين فسار عن نيسابور اليها وقتل من ظفر به من قتلة أبي الحسين وقد حصل للامير نوح مضايقة شديدة من أمرائه فاستغاث بمساعدة سبكتكين فارسل ابنه في رأس جيش لمساعدته و بواسطة هذه المساعدة تشتت حال العصاة ونال محمود مكافأة له حكومة خراسان فهذه كانت مبادي محمود الاكبر الغزنوي في فارس ومبادي مملكته التي امتدت في بضع سنين من بغداد الى كاشغر ومن جورجستان الى بنغاله بارض الهند الا أنه قبل الدخول في هذه الفتوحات نتمم ذكر الدولة السامانية ثم نتبعها بالعائلة الديلمية التي غرقت تحت أمواج بحور محمود الغزنوي

وفي سنة ٣٨٧ مات الامير نوح و بموته اختل ملك آل سامان وضعف أمرهم ضعفا زائدا وطمع فيهم أصحاب الاطراف فزال ملكهم بعد مدة يسيرة ولما مات قام بالملك بعده ابنه أبو الحارث منصور بن نوح وبايعه الامراء والقواد وقام بأمر دولته وتدبيرها بكتوزون ثم بعد قليل صار القبض عليه وملك أخوه عبد الملك وكان هذا آخر سلاطين آل سامان وتغلب على ممالكهم محمود بن سبكتكين كما سنذكره في مدته فيما سيأتي بعد ذكر العائلة الديلمية

قد ذكرنا فيما سلف أن مملكة فارس بعد موت عمرو بن الليث الصفار انقسمت بين عائلتين وهما العائلة السامانية وتقدم ذكرها والعائلة الديلمية وكانوا في القسم الاعظم من العراق وفارس وكرمان وخوزستان ولورستان وهذه العائلة الديلمية هي عماد الدولة أبو الحسن علي وركن الدولة أبو علي الحسن ومعز الدولة أبو الحسين أحمد أولاد رجل صياد سمك اسمه أبو شجاع بويه من ديلم من أعمال مازوندران نسبه الامير أبو نصر بن ماكولا رحمه الله الى سابور ذي الاكتاف ونسبه ابن مسكويه فقال انه من ولد يزدجرد بن شهريار آخر ملوك الفرس ونسبوا الى الديلم لانهم طال مقامهم بها

مطلب (العائلة الديلمية) دولة بني بويه

وكان ابتداء أمر هؤلاء على ما هو مذكور في الكامل لابن الاثير أن والدهم أبا شجاع بويه كان صياد سمك وكان متوسط الحال فماتت زوجته وخلفت له ثلاث بنين المتقدم ذكرهم فلما ماتت اشتد حزنه عليها فحكى شهريار بن رستم الديلمي قال كنت صديقا لابي شجاع بويه فدخلت اليه يوما فعذلته على كثرة حزنه وقلت له أنت رجل تحتمل الحزن وهؤلاء المساكين أولادك يهلكهم الحزن وربما مات أحدهم

فيجد ذلك من الاحزان ما ينسيك المرأة وسلبته بجهدي وأخذته ففرحته وأدخلته ومعه أولاده الى منزلي ليأكلوا طعاما وشغلته عن حزنه فبينما هم كذلك اذ اجتاز بنا رجل يقول عن نفسه انه منجم ومعزم ومعبر للمنامات ويكتب الرقى والطلسمات فأحضره أبو شجاع وقال له رأيت في منامي كأني أبول فخرج من ذكري نار عظيمة استطالت وعلت حتى كادت تبلغ السماء ثم انفجرت فصارت ثلاث شعب وتولد من تلك الشعب عدة شعب فاضاءت الدنيا بتلك النيران ورأيت البلاد والعباد خاضعين لتلك النيران فقال المنجم هذا منام عظيم ولا أفسره الا بخلعة وفرس ومركب فقال أبو شجاع والله ما أملك الا الثياب التي على جسدي فان أخذتها بقيت عريان قال المنجم فعشرة دنانير قال والله ما أملك دينارا فكيف بعشرة فاعطاه شيأ فقال المنجم اعلم أنه يكون لك ثلاثة أولاد يملكون الارض ومن عليها ويعلو ذكرهم في الآفاق كما علت تلك النار ويولد لهم جماعة ملوك بقدر ما رأيت من تلك الشعب فقال أبو شجاع أما تستحي تسخر منا أنا رجل فقير وأولادي هؤلاء فقراء مساكين كيف يصيرون ملوكا فقال المنجم أخبرني بوقت ميلادهم فأخبره فجعل يحسب ثم قبض على يد أبي الحسن علي فقبلها وقال هذا والله الذي يملك البلاد ثم هذا من بعده وقبض على يد أخيه أبي علي الحسن فاغتاظ منه أبو شجاع وقال لاولاده اصفعوا هذا الحكيم فقد أفرط في السخرية بنا فصفعوه وهو يستغيث ونحن نضحك منه ثم أمسكوا عنه ثم قال لهم اذكروا لي هذا اذا قصدتكم وأنتم ملوك فضحكنا منه وأعطاه أبو شجاع عشرة دراهم ثم خرج من بلاد الديلم جماعة ليملكوا البلاد منهم ما كان بن كالي وليلي بن النعمان واسفار بن شيرويه ومرداويج بن زياد وخرج مع كل واحد منهم خلق كثير من الديلم وخرج أولاد أبي شجاع في جملة من خرج وكانوا من جملة قواد ما كان بن كالي ومن بعد أن تغلب ما كان على طبرستان وجرجان وعاد الى نيسابور مهزوما فلما رأى أولاد بويه ضعفه وعجزه قال له عماد الدولة وركن الدولة نحن في جماعة وقد صرنا ثقلا عليك وعيالا وأنت مضيق والاصلح لك أن نفارقك لتخفف عنك مؤنتنا فاذا اصلح أمرك عدنا اليك فأذن لهما فسارا الى مرداويج واقتدى بهما جماعة من قواد ما كان وتبعوهما فلما صاروا اليه قبلهم أحسن قبول وخلع على بني بويه وأكرمهم وقلد كل واحد من قواد ما كان الواصلين اليه ناحية من نواحي الجبل من جهات طبرستان وجرجان فأما علي بن بويه فانه قلده كرج وأخذ علي بن بويه في درجة الارتقاء والرفعة من بين القواد وكان سمحا حليما شجاعا فلما قلده مرداويج كرج وقلد جماعة القواد المستأمنة معه الاعمال وكتب لهم العهود ساروا الى الرى وبها وشمكير بن زياد أخو مرداويج ومعه الحسين بن محمد الملقب بالعميد وكان العميد يومئذ وزير مرداويج وكان مع عماد الدولة بغلة شهباء من أحسن ما يكون فعرضها للبيع فبلغ ثمنها مائتي دينار فعرضت على العميد فأخذها وأنفذ ثمنها فلما حمل الثمن الى عماد الدولة أخذ منه عشرة دنانير ورد الباقي وجعل معه هدية جليلة ثم ان مرداويج ندم على ما فعل من تولية أولئك القواد البلاد فكتب الى أخيه وشمكير والى العميد يأمرهما بمنعهم من المسير الى أعمالهم وان كان بعضهم قد خرج يرد وكانت الكتب تصل الى العميد قبل وشمكير فيقرؤها ثم يعرضها على وشمكير فلما وقف العميد على هذا الكتاب أنفذ الى عماد الدولة يأمره بالمسير من ساعته الى عمله ويطوي المنازل فسار من وقته وكان ذلك وقت المغرب فلما أصبح العميد عرض الكتاب على وشمكير فمنع سائر القواد من الخروج من الرى واستعاد التوقيعات التي معهم بالبلاد وأراد وشمكير أن ينفذ خلف عماد الدولة من يرده فقال العميد انه

لا يرجع

لا يرجع طوعا وربما قاتل من يقصده ويخرج عن طاعتنا فتركه وسار عماد الدولة الى كرج وأحسن الى الناس ولطف بعمال البلاد فكتبوا الى مرداويج يشكرونه ويصفون ضبطه البلد وسياسته وافتتح قلاعا كانت للخرمية وظفر منها بذخائر كثيرة صرفها جميعها فى استمالة الرجال والصلات والهبات فشاع ذكره فقصده الناس وأحبوه وكان مرداويج ذلك الوقت بطبرستان فلما عاد الى الرى أطلق مالا لجماعة من قواده على كرج فاستمالهم عماد الدولة ووصلهم وأحسن اليهم حتى مالوا اليه حبوا طاعته وساروا معه وجبى مال كرج واستأمن عليه شيرزاد من قواد الديلم فقويت نفسه وازدادت شوكته فسار بقواده وعساكره الى أصبهان وبها المظفر بن ياقوت فى عشرة آلاف مقاتل (عامل من طرف الخليفة) فأرسل اليه عماد الدولة يستأذنه فى الانحياز اليه والدخول فى طاعة الخليفة ويتوجه الى بغداد فلم يجبه ابن ياقوت وبرز ابن ياقوت عن أصفهان ثلاثة فراسخ فاستأمن لعماد الدولة من عسكر ابن ياقوت ستمائة نفس من الديلم لما بلغهم من كرمه وضعف قلب ابن ياقوت وقويت شوكة عماد الدولة ثم اقتتلوا قتالا شديدا فانهزم ابن ياقوت واستولى عماد الدولة على أصبهان وعظم فى عيون الناس لانه كان فى تسعمائة نفس وبلغ الخليفة فاستعظمه وبلغ خبر هذه الواقعة مرداويج فأقلقه وخاف على ما بيده من البلاد واستولى ابن بويه على أرّجان وغيرها

وفى سنة ٣٢٢ من الهجرة استولى ابن بويه عماد الدولة على شيراز وهزم ابن ياقوت وأصحابه وكان أخوه معز الدولة أحمد بن بويه من أحسن الناس أثرا فى هذه الحروب وكان شابا لم تنبت لحيته وكان عمره تسع عشرة سنة وأحسن عماد الدولة الى الاسارى وأطلقهم وخيرهم بين اللحوق بابن ياقوت أو المقام عنده فاختاروا المقام عنده فخلع عليهم وأحسن اليهم ودخل شيراز ونادى فى الناس بالامان وطلب الجند أرزاقهم فلم يكن عنده ما يعطيهم فكاد ينحل أمره فقعد فى غرفة فى دار الامارة يفكر فى أمره فرأى حية خرجت من موضع فى سقف تلك الغرفة ودخلت فى ثقب فى السقف فخاف أن تسقط عليه فدعا الفراشين ففتحوا الموضع فرأوا خلفه بابا فدخلوه الى غرفة أخرى فيها عشرة صناديق مملوءة بالاموال والجواهر قيمة خمسمائة ألف دينار فأنفقها وثبت ملكه وروى أنه أراد أن يفصل ثيابا فدلوه على خياط كان لابن ياقوت فأحضره وكان أصم وخاف من عماد الدولة فقال له لا تخف فانما أحضرناك لتفصل ثيابا فلم يسمع ما قال فحلف بالبراءة من دين الاسلام والطلاق أن الصناديق التى عنده لابن ياقوت ما فتحها ولا يعلم ما فيها فتعجب عماد الدولة من هذا الامر الغريب وأمر باحضارها فكانت ثمانية صناديق فيها مال وثياب قيمته ٣٠٠٠٠٠ دينار ثم ظهر له من ودائع ابن ياقوت وذخائر يعقوب وعمرو ابنى الليث الصفار جمل كثيرة فامتلأت خزائنه وثبت ملكه ولما تمكن من شيراز وفارس كتب الى الخليفة الراضى بالله والى وزيره ابن مقلة يعرفهما أنه على الطاعة ويطلب أقطاعا على ما بيده من البلاد وبذل ألف ألف درهم فأجيب الى ذلك وأنفذ له التقليد والخلع واللواء فخرج عماد الدولة لمقابلة الرسول وأخذ منه الخلع واللواء ولبس الخلع ونشر اللواء بين يديه ودخل البلد وعظم شأنه وقصده الرجال من الاطراف ولما سمع مرداويج بما ناله ابن بويه اصداه اغتم وسار الى أصبهان فلما وصلها رد أخاه وشمكير الى الرى وأرسل عسكرا الى الاهواز ليستولى عليها ويسد الطريق على عماد الدولة بن بويه اذا قصده فلا يبقى له طريق الى الخليفة ويقصده هو من ناحية أصبهان وعسكره من ناحية الاهواز وقلد الخليفة ابن ياقوت الاهواز وصار أخو عماد الدولة وهو معز الدولة أبو الحسين يخالف ابن ياقوت ببغداد

ولما بلغ عماد الدولة استيلاء مرداويج على الاهواز كاتب نائب مرداويج يستميله و يطلب منه أن يتوسط بينه و بين مرداويج ففعل فأجابه مرداويج الى ذلك على أن يطيعه و يخطب له فاستقر الحال بينهما وأهدى له ابن بويه هدية جليلة وأنفذ أخاه ركن الدولة رهينة وبهذا قوى أمر ابن بويه

وفى سنة ٣٢٣ من الهجرة قتل الغلمان الاتراك مرداويج شر قتلة فى الحمام لانه كان يكرههم فتتبع الديلم الاتراك وفتكوا بهم وحملوا تابوت مرداويج وساروا نحو الرى فخرج من بها من أصحابه مع أخيه وشمكير فالتقوه على أربعة فراسخ مشاة حفاة وأما أصحابه الذين كانوا بالاهواز وأعمالها فانهم لما بلغهم الخبر كتموه وساروا نحو الرى فأطاعوا وشمكير واجتمعوا عليه وكان ركن الدولة بن بويه رهينة عند مرداويج فنجا الى أخيه عماد الدولة بفارس وفى سنة ٣٢٤ من الهجرة سار معز الدولة بن بويه الى كرمان واستولى عليها وهو أبو الحسين أحمد بن بويه وسبب ذلك أن عماد الدولة بن بويه وأخاه ركن الدولة لما تمكنا من بلاد فارس و بلاد الجبل وبقى أخوهما الاصغر أبو الحسين أحمد بغير ولاية يستبد بها رأيا أن يسيراه الى كرمان ففعلا ذلك وسار الى كرمان فى عسكر ضخم شجعان واستولى عليها واستبد بحكومتها حتى أنفذ اليه أخوه قائدا من قواده وأمره بالعود اليه الى فارس فعاد الى أخيه وأقام عنده باصطخر ثم أرسله مع أبى عبد الله البريدى لاجل التغلب على العراق فسار معز الدولة الى الاهواز مع البريدى بعد أن ترك ولديه أبا الحسن محمدا وأبا جعفر الفياض رهينة عند عماد الدولة وتغلب عليها

وفى سنة ٣٣١ من الهجرة استولى ركن الدولة بن بويه على الرى وطرد منها وشمكير بعد حرب انهزم فيه وسار الى طبرستان فقصده الحسن بن الفيرزان فانهزم وشمكير الى خراسان ثم ان الحسن بن الفيرزان راسل ركن الدولة و واصله فتزوج ركن الدولة بنت الحسن فولدت له ولده فخر الدولة عليا

وفى سنة ٣٣٤ من الهجرة استولى معز الدولة على بغداد وخلع الخليفة المستكفى بالله الخلع على معز الدولة ولقبه بهذا الاسم ولقب أخاه عليا عماد الدولة ولقب أخاه الحسن ركن الدولة وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم ونزل معز الدولة بدار مؤنس ونزل أصحابه فى دور الناس وأقام للمستكفى بالله كل يوم خمسة آلاف درهم لنفقاته وكانت ربما تأخرت عنه فأقرت له مع ذلك ضياع سلمت اليه تولاها أبو أحمد الشيرازى كاتبه واستمر معز الدولة أشبه بوزير للخليفة الا أنه فى الحقيقة هو المتغلب على الخلافة وأمرها والخليفة تحت يده وفى سنة ٣٣٦ من الهجرة اجتمع ركن الدولة بن بويه والحسن بن الفيرزان وقصدوا بلاد وشمكير وملك ركن الدولة طبرستان وجرجان واستأمن اليه من قواد وشمكير مائة وثلاثة عشر قائدا وهرب وشمكير الى خراسان مستجيرا ومستنجدا لاعادة بلاده وملك معز الدولة الموصل

وفى سنة ٣٣٨ من الهجرة مات عماد الدولة أبو الحسن على بن بويه بمدينة شيراز بقرحة فى كلاه طالت به وتوالت عليه الاسقام والامراض فلما أحس بالموت أنفذ الى أخيه ركن الدولة يطلب منه أن ينفذ اليه ابنه عضد الدولة ليجعله ولى عهده و وارث مملكته بفارس لان عماد الدولة لم يكن له ولد فأنفذ ركن الدولة ولده عضد الدولة فوصل فى حياة عمه قبل موته بسنة فى جملة من ثقات ركن الدولة فخرج عماد الدولة الى لقائه فى جميع عسكره وأجلسه فى داره على السرير ووقف هو بين يديه وأمر الناس بالسلام على عضد الدولة وكان يوما مشهودا ومات عماد الدولة فاختلف أصحابه على عضد الدولة فكتب معز

الدولة

الدولة الى وزيره الصيمري بالمسير الى شيراز فوصل الى فارس ووصل ركن الدولة أيضا واتفقا على تقرير قاعدة عضد الدولة ولما وصل ركن الدولة الى شيراز ابتدأ بزيارة قبر أخيه باصطخر فمشى حافيا حاسرا ومعه العساكر على حاله ولزم القبر ثلاثة أيام حتى سأله القواد العود الى المدينة فرجع اليها وأقام تسعة أشهر وأرسل الى أخيه معز الدولة شيأ كثيرا من المال والسلاح وكان عماد الدولة في حياته هو أمير الامراء فلما مات صار أخوه ركن الدولة أمير الامراء وكان معز الدولة هو المستولى على العراق والخلافة وهو كالنائب عنهما وكان عماد الدولة كريما حليما عاقلا حسن السياسة للملك والرعية وما زال معز الدولة في حروب ومدة سلطنة وقوة حتى مات في سنة ٣٥٦ من الهجرة بعلة الذرب وكان بواسط وقد جهز الجيوش لمحاربة عمران بن شاهين وكانت طالت المحاربات بينهما فابتدأ به الاسهال وقوى عليه فسار نحو بغداد وخلف أصحابه ووعدهم أنه يعود اليهم فلما وصل الى بغداد اشتد مرضه وصار لا يثبت في معدته شئ فلما أحس بالموت عهد الى ابنه عز الدولة بختيار وأظهر التوبة وتصدق بأكثر ماله وأعتق مماليكه ورد شيأ كثيرا على أصحابه وتوفى ودفن بباب التبن في مقابر قريش فكانت امارته احدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وكان حليما كريما عاقلا ولما مات معز الدولة وجلس ابنه عز الدولة في الامارة مطر الناس ثلاثة أيام بلياليها مطرا مستمرا منع الناس من الحركة فأرسل الى القواد فأرضاهم فانجلت السماء وقد رضوا فسكنوا ولم يتحرك أحد وكتب عز الدولة الى العسكر بمصالحة عمران بن شاهين ففعلوا وعادوا وكانت احدى يدى معز الدولة مقطوعة فقيل انها قطعت بكرمان لما سار الى قتال من بها وقيل غير ذلك وهو الذى أحدث أمر السعاة وأعطاهم عليه الجرايات الكثيرة لانه أراد أن يصل خبره الى أخيه ركن الدولة سريعا فنشأ في أيامه شخص اسمه فضل وآخر اسمه مرعوش وفاقا جميع السعاة وكان كل واحد منهما يسير في اليوم نيفا وأربعين فرسخا وكان أحدهما ساعى أهل السنة والآخر ساعى الشيعة

ولما حضر معز الدولة الوفاة وصى ولده بختيار بطاعة عمه ركن الدولة واستشارته في كل ما يفعله وبطاعة عضد الدولة ابن عمه لانه أكبر منه سنا وأقوم بالسياسة ووصاه بتقرير كاتبيه أبى الفضل العباس بن الحسين وأبى الفرج محمد بن العباس لكفايتهما وأمانتهما ووصاه بالديلم والاتراك وبالحاجب سبكتكين فخالف هذه الوصايا جميعها واشتغل باللهو واللعب وعشرة النساء والمساخر والمغنين وشرع في ايحاش كاتبيه وسبكتكين فاستوحشوا وانقطع سبكتكين عنه فلم يحضر داره ونفى كبار الديلم عن مملكته طمعا في اقطاعاتهم وأموالهم وأموال المتصلين بهم وعصى عليه أخوه حبشى بن معز الدولة في البصرة فسير بختيار وزيره أبا الفضل العباس بن الحسين اليه وأمر بأخذه كيف أمكن فوصل الوزير على حين غفلة من حبشى فظفر به وأخذه أسيرا وحبسه برامهرمز فأرسل عمه ركن الدولة وخلصه فسار الى عضد الدولة فأقطعه اقطاعا وافرا وأقام عنده الى أن مات في آخر سنة ٣٦٩ من الهجرة وفي سنة ٣٥٧ من الهجرة تغلب عضد الدولة على كرمان وأخذها من أبى على بن الياس وفي سنة ٣٦٢ من الهجرة عزل الوزير أبو الفضل العباس ابن الحسين من وزارة عز الدولة بختيار واستوزر محمد بن بقية وفي وزارته زاد الاختلاف بين الاتراك وبين بختيار فشرع ابن بقية في اصلاح الحال مع بختيار وسبكتكين فانصلح وكان على غش وركب سبكتكين الى بختيار ومعه الاتراك فاجتمع به ثم عاد الحال الى ما كان عليه من الفساد وذلك أن ديلميا اجتاز بدار سبكتكين وكان سكران فرمى الروشن بسهم فأثبته فيه وأحس

به سبكتكين فصاح بغلمانه فأخذوه وظن سبكتكين أنه قد وضع على قتله فقرره فلم يعترف وأنفذه الى بختيار وعرفه الحال فأمر به فقتل فقوى ظن سبكتكين انه كان وضعه عليه وانما قتله لئلا يفشى ذلك وتحرك الديلم لقتله وحملوا السلاح فأرضاهم بختيار فرجعوا ثم توجه بختيار نحو الموصل لاجل الاستيلاء عليها ثم عاد عنها الى بغداد من بعد أن سعى فى الغلبة وكان سعيه على غير طائل

وفى سنة ٣٦٣ من الهجرة كانت مبادى الفتنة بين الاتراك والديلم بالاهواز وكان بختيار بالاهواز فاجتهد فى اطفاء الفتنة فلم يمكنه فاستشار الديلم فيما يفعله وكان أذنا يتبع كل قائل فأشاروا عليه بقبض رؤساء الاتراك لتصفو له البلاد فأحضر بعضا من قواد الترك واعتقلهم وأطلق الديلم فى الاتراك فنهبوا أموالهم ودوابهم وقتل بينهم قتلى وهرب الاتراك واستولى بختيار على اقطاع سبكتكين وأمر فنودى فى البصرة باباحة دم الاتراك

وكان بختيار قد واطأ والدته واخوته أنه اذا كتب اليهم بالقبض على الاتراك يظهرون أن بختيار قد مات ويجلسون للعزاء فاذا حضر سبكتكين عندهم قبضوا عليه فلما قبض بختيار على الاتراك كتب اليهم على أجنحة الطير يعرفهم ذلك فلما وقفوا على الكتب وقع الصراخ فى داره وأشاعوا موته ظنا منهم أن سبكتكين يحضر عندهم ساعة يبلغه الخبر فلما سمع الصراخ أرسل يسأل عن الخبر فأعلموه فأرسل يسأل عن الذى أخبرهم وكيف أتاهم الخبر فلم يجد ثقة يثق القلب به فارتاب بذلك ثم وصله رسله الاتراك بما جرى فعلم أن ذلك كان مكيدة عليه ودعاه الاتراك الى أن يتأمر عليهم فتوقف وأرسل الى أبى اسحق ابن معز الدولة يعلمه أن الحال قد انفسد بينه وبين أخيه فلا يرجى صلاحه وانه لا يرى العدول عن طاعة مواليه وان أساؤا اليه ويدعوه الى أن يعقد الامر له فعرض قوله على والدته فمنعته فلما رأى سبكتكين ذلك ركب فى الحال فى الاتراك وحاصر دار بختيار يومين ثم أحرقها ودخلها وأخذ أبا اسحق وأبا طاهر ابنى معز الدولة ووالدتهما ومن كان معهما فسألوه أن يمكنهم من الانحدار الى واسط ففعل وانحدروا وانحدر معهم المطيع لله الخليفة فأنفذ سبكتكين فأعاده ورده الى داره واستولى على ما كان لبختيار جميعه ببغداد ونزل الاتراك فى دور الديلم وتتبعوا أموالهم وأخذوها وثارت العامة من أهل السنة ينصرون سبكتكين لانه كان يتسنن فخلع عليهم وجعل لهم العرفاء والقواد فثاروا بالشيعة وحاربوهم وسفكت بينهم الدماء وظهرت أهل السنة على الشيعة

ولما بلغ ذلك بختيار فى جهة واسط كتب الى عمه ركن الدولة وابن عمه عضد الدولة يحدانه ويساعدانه على ما حل به من المصائب من جهة سبكتكين الحاجب التركى والاتراك فأرسلا له الجيوش مساعدة له وسار سبكتكين من بغداد بالاتراك ومعه الخليفة فتوفى سبكتكين فى الطريق وكذا الخليفة وانحل أمر الاتراك وعاد بختيار الى أملاكه

وفى سنة ٣٦٦ من الهجرة توفى ركن الدولة أبو على الحسن بن بويه واستخلف على ممالكه ابنه عضد الدولة وجعل لولده فخر الدولة أبى الحسن على همذان وأعمال الجبل ولولده مؤيد الدولة أصبهان وأعمالها وجعلهما فى هذه البلاد بحكم أخيهما عضد الدولة وخلع عضد الدولة على سائر الناس ذلك اليوم الاقبية والاكسية على زى الديلم وحياه القواد واخوته بالريحان على عادتهم مع ملوكهم وأوصى ركن الدولة أولاده بالاتفاق وترك الاختلاف وخلع عليهم ثم سار من أصبهان نحو الرى فدام مرضه الى أن توفى فأصيب به الدين والدنيا جميعا لاستكمال جميع خلال الخير فيه وكان عمره قد زاد على سبعين سنة

وكانت امارته أربعا وأربعين سنة وكان حليما كريما واسع الكرم كثير البذل حسن السياسة لرعاياه وجنده مرؤفا بهم عادلا فى الحكم بينهم وكان بعيد الهمة عظيم الجد والسعادة متحرجا عن الظلم مانعا لاصحابه منه عفيفا عن الدماء يرى حقنها واجبا الا فيما لا بد منه وكان يحامى على أهل البيوتات وكان يجرى عليهم الارزاق ويصونهم عن التبذل وكان يقصد المساجد الجامعة فى شهر الصيام للصلاة وينتصب لرد المظالم وكان فيه جميع الخصال المحمودة رحمه الله تعالى ولما مات معز الدولة وركن الدولة لم يستحصل عز الدولة بختيار على كافة ممالك عائلة بيته الا أنه ارتقى الى درجة وزير واستمر فيها نحوا من أربع وثلاثين سنة ولما مات صلى عليه الخليفة بنفسه وكانت أحواله صلحت فى أواخر أمره وصار معتبر الاسم محمود المدة والعاقبة وكان عز الدولة أكبر ملوك الديلم وأجلهم الذين غرقوا تحت أمواج بحور محمود الغزنوى

ومن بعد أن تسلطن البيت السامانى نحو مائة سنة على ماوراء النهر وفارس مع العدل والانصاف والخير والذكر الجميل أخذ أخيرا فى الاضمحلال والهبوط حتى صارت جميع ممالك هذا البيت عرضة للخطف والنهب والاستقلال وازداد ضعفه بواسطة كثرة المشاحنات التى توالت فى الممالك حتى ان أبا اسحاق حاكم نصف اقليم التتار الخراسانى الشاسع الاطراف نجحت أموره ورفع بيرق عصيانه وكان صاحب جيش غزنة لهذا البيت السامانى وخرج عن طاعة السامانية وصار ملكا مستقلا فى نفسه ولما استقل أضاف الى مملكته الاراضى العالية لجبال كابل وقندهار وهذا الاقليم الكائن فى ذيل جبال الهند مسكون بالامة الافغانية وهم جنس أرباب مهارة فى الزراعة وأرباب مواش وأهل حرب مدوا سلطنة ملوكهم وأمرائهم على الممالك المجاورة لهم وانتخب أبو اسحاق غزنة عاصمة مملكته

مطلب
ابتداء دولة آل سبكتكين بغزنة

وفى سنة ٣٦٦ من الهجرة الموافقة ٩٧٧ من بعد الميلاد توفى أبو اسحاق ولم يخلف من أهله وأقاربه من يصلح للتقدم وكان سبكتكين من غلمانه ومقدما عنده وعليه مدار أمره وقدم الى بخارا أيام الامير منصور بن نوح مع أبى اسحاق فعرفه أرباب تلك الدولة بالعقل والعفة وجودة الرأى والصرامة وعاد معه الى غزنة ولما مات أبو اسحاق اجتمع عسكره ونظروا فيمن يلى أمرهم ويجمع كلمتهم فاختلفوا ثم اتفقوا على سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه ومروأته وكمال خلال الخير فيه فقدموه عليهم وولوه أمرهم فقرر قواعد مملكته الجديدة وصار مؤسسا فى الحقيقة لعائلة ذات مجد وشوكة وكان عادلا خيرا كثير الجهاد حسن الاعتقاد ذا مروءة تامة وحسن عهد ووفاء لا جرم بارك الله فى بيته ودام ملكهم مدة طويلة جاوزت مدة ملك السامانية والسلجوقية وغيرهم وكان خالص النية حسن الطوية فيه اللطف واللين * روى أنه كان ذات يوم فى أجمة يصطاد فيها فلمح ظبيا مع أمه فى سهل فحمل على الظبى وقبض عليه وهربت أمه فربط الظبى من رجليه ووضعه على سرج حصانه وسار ثم نظر خلفه فرأى أم الظبى تابعة له على بعد وعينها مغرورقة بالدموع فذابت روحه من هذا المنظر العجيب ففك الظبى وقال له الحق باهلك فانقلب الظبى يجرى وعين سبكتكين تقطر دموعا من شدة الفرح فتولد من هذه الافكار المرضية أن رأى سبكتكين رؤيا فى المنام فى تلك الليلة أنه صار مكافأ على صنيع مروأته هذه بمملكة موعودة له وكان يقول يجب على الانسان أن يزرع الاشياء التى يكتسب بها الاسم الطيب الذى يخلده الى الابد

وقد أغار سبكتكين مرتين على مولتان ولاهور فى بلاد الهند وحصل له الظفر فى كل من الحالتين

وهزم جيبال ملك لاهور شر هزيمة وأضاف اقليم بيشاور والطريف الى مملكته ومد سلطنته الى نهر السند ومازال سبكتكين مؤيدا منصورا حتى توفي سنة ٣٨٧ من الهجرة وكان مقامه بغزنة وقيل ببلخ وقد ابتنى بها دورا ومساكن فمرض وطال مرضه ونزع الى هواء غزنة فسار عن بلخ اليها فمات في الطريق فنقل الى غزنة ودفن فيها ولما حضرته الوفاة عهد الى ابنه اسماعيل بالملك بعده فلما مات بايع الجند لاسماعيل وحلفوا له وأطلق لهم الاموال وكان أصغر من أخيه محمود فاستضعفه الجند فاشتطوا في الطلب حتى أفنى الخزائن التي خلفها أبوه

ولما توفي سبكتكين وبلغ الخبر الى ولده يمين الدولة محمود وهو بنيسابور جلس للعزاء ثم أرسل الى أخيه اسماعيل يعزيه بابيه ويعرفه ان أباه انما عهد اليه لبعده عنه ويذكره ما يتعين من تقديم الكبير ويطلب منه الوفاق وارسال ما يخصه من تركة أبيه فلم يفعل وترددت الرسل بينهما فلم تستقر القاعدة فسار محمود من نيسابور الى هراة عازما على قصد أخيه بغزنة واجتمع بعمه بغراجق بهراة فساعده على أخيه وسار نحو بست وبها أخوه نصر فتبعه وأعانه وسار معه الى غزنة وبلغ الخبر الى اسماعيل وهو ببلخ فسار عنها مجدا فسبق أخاه محمودا الى غزنة وكان الامراء الذين مع اسماعيل كاتبوا محمودا يستدعونه ووعدوه الميل اليه فجد في المسير والتقى هو واسماعيل بظاهر غزنة واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم اسماعيل وصعد الى قلعة غزنة فاعتصم بها فحصره أخوه محمود واستنزله بامان فلما نزل اليه أكرمه وأحسن اليه وأعلى منزلته وشركه في ملكه وعاد الى بلخ واستقامت الممالك لمحمود وكانت مدة ملك اسماعيل سبعة أشهر وقيل ان محمودا لم يشرك اسماعيل في الاحكام بل سجنه حتى مات في السجن وخلف أباه سبكتكين أو سبكتاجي في سنة ٣٨٧ هجرية الموافقة سنة ٩٩٧ بعد الميلاد ومد محمود ممالكه واتسعت سلطنته حتى صارت مشتملة على جميع آسيا من سواحل بحر الخزر الى نهر السند بما فيها مملكة بخارا وما وراء النهر كما سيرد من أخباره على وجه الاختصار وهو أنه لما فرغ محمود من أمر أخيه وملك غزنة وعاد الى بلخ رأى بكتوزون قد ولي خراسان من طرف الامير منصور بن نوح الساماني فارسل محمود للامير منصور يذكره طاعته والمحاماة عن دولته ويطلب خراسان فاعاد الجواب يعتذر عن خراسان ويأمره بأخذ ترمذ وبلخ وما وراءها من أعمال بست وهراة فلم يقنع بذلك وأعاد الطلب فلم يجبه الامير منصور ولما تيقن محمود المنع سار الى نيسابور وبها بكتوزون فلما بلغه خبر مسيره نحوه رحل عنها فدخلها محمود وملكها فلما سمع الامير منصور سار من بخارا نحو نيسابور فلما علم محمود سار عن نيسابور الى مرو الروز ونزل بالقرب منها ينتظر ما يكون ولما بلغه وهو في هذا الموقع أن بكتوزون وفائق القائدين قبضا على ملكهما منصور بن نوح وسملا عينيه ولم يراقبا الله فيه أرسل الى فائق وبكتوزون يلومهما ويقبح فعلهما وقويت نفسه على لقائهما وطمع في الاستقلال بالملك فسار عنهما عازما على القتال وتغلب على خراسان وذلك انه سار نحو فائق وبكتوزون فلما سمعوا بمسيره ساروا اليه فالتقوا بمرو واقتتلوا أشد قتال رآه الناس في سنة ٣٨٩ من الهجرة فانهزم بكتوزون وفائق ومن معهما فأما فائق فانه لحق ببخارا وأما بكتوزون فانه قصد نيسابور وقصد أبا القاسم بن سيمجور قهستان فرأى محمود أن يسير خلف بكتوزون وأبي القاسم ويمنعهما من الاجتماع والاحتشاد فسار الى طوس فهرب منه بكتوزون الى نواحي جرجان فارسل محمود خلفه أكبر قواده وأمرائه وهو أرسلان الجاذب في عسكر جرار فاتبعه حتى لحقه بجرجان وعاد فاستخلفه محمود

على طوس وسار هو الى هراة فلما علم بكتوزون بمسير محمود عن نيسابور عاد اليها فملكها فقصدها محمود فاجفل من بين يديه واجتاز بمرو فسار عنها بعد أن نهبها الى بخارا واستقر ملك محمود بخراسان فازال عنها اسم السامانية واستقل بملكها منفردا وولى محمود قيادة جيوش خراسان أخاه نصرا وجعل نيسابور على ما كان يليه السيمجور للسامانية وسار هو الى بلخ مستقر والده فاتخذها دار ملك واتفق أصحاب الاطراف بخراسان على طاعته وفى هذه السنة انقرضت دولة السامانية وملك الترك ماوراء النهر ولما قرر محمود بن سبكتكين أحوال رعيته وقواعد مملكته على قدم الثبات وبث فيها العدل وجودة الاحكام وصار لامنازع له ولا مضارب واشتهر اسمه وعلا ذكره حتى ذكر مؤرخو الشرق عنه ان الذئب والخروف كانا يشربان من مجراة واحدة فى مدة سلطنته الا أن الاحوال الجارية التى لاتخلو عن خطف وسلب كانت لاتخلو عن الاثم وكان مشهورا باللين والدين وحسن السياسة فى رعيته وقد ذكر الفردوسى أن محمودا كان يميل فى مبادى أمره وأول حياته الى الشك والابهام فكان متردد العقل والفكر فى حالتين مختلفتين الاولى هل توجد آخرة أم لا والثانية هل هو ابن سبكتكين أم لا وأما أمه فانه لامعارضة فيها فرأى ليلة فى منامه النبى صلى الله عليه وسلم فازال عنه هاتين الحالتين وكان فى قلق شديد منهما وقال له لاشك من وجود الآخرة ولا شك من انه ابن سبكتكين فاعترف هذا الملك الكبير بالدين وصار على اعتراف واقرار نقى من الديانة الاسلامية وغيرة وحمية تامة عليها حتى جلبت عليه هذه الغيرة الاسلامية كثرة الشوكة وزيادة الهمة وكثرة الاموال وزيادة السعادة وكان جامعا للاموال خازنا لها على بخل وشح لطخ اسمه فى آخر حياته ومن كثرة حرصه على جمع الاموال وزيادة شوقه على ذكر وتخليد اسمه شرع فى الحملة على البلاد الهندية وكان بلغه أن بها كنوزا وأموالا لاتحصى موجودة فى المزارات والمعابد المقدسة الهندية وكان قبل هذا فى تردد بال من غزوها حتى استعمل الوسائط والطرق التى انتهك بها حرمة هذه الهيا كل وسلب خزائنها وكنوزها وحلى بها سراية غزنة وكان ملوك الهند حاكمين فيها من مدة قرون وعصور ومكثت أربعمائة سنة الشوكة الاسلامية لاتجد مسلكا لهذه الاقاليم الشاسعة الاطراف والاكناف فانقلب هذا التوطيد واختل نظام أحوال الممالك الهندية عندما صار تشييد مملكة قوية فى حدودها فقد ذكرنا فيما سبق ان سبكتكين أغار على مولتان ولاهور مرتين وفى كل منهما يحصل له الظفر وأضاف اقليم بشاور الطريف الى مملكته ومدها الى حدود نهر السند وأما محمود الذى أظهر فى حروبه وغزواته وتغلباته على بلاد فارس وما وراء النهر دلائل شجاعته الشخصية وعلو همته الحربية فانه جعل تلك المملكة الموجودة وراء ذلك النهر أى نهر السند ميدانا كبيرا لحركاته العسكرية وجعل علة توجهه اليها اخماد ثورات حصلت فى الملحقات القاصية من مملكته وتوطيد الارتباكات والقلاقل الحاصلة من هجوم قبائل التتار وقد أورد المؤرخون الى محمود بن سبكتكين اثنتى عشرة حملة حملها على البلاد الهندية وبعضهم ذكر له ست عشرة غزوة كان فى جميعها مظفرا وعاد الى غزنة مؤيدا منصورا محملا بأثقال غنائم البلاد الهندية فكانت غزوته الاولى مجرد عبوره نهر السند والثانية كانت ضد جيبال صاحب لاهور لانه كان خراجيا لابيه سبكتكين ثم قام بيرق عصيانه واستقل بنفسه ومملكة لاهور هذه عبارة عن جبال وصحار مشتملة على جهات جيدة الخصوبة وهى من عهد اسكندر الى هذا الوقت يعنى وقت محمود موطن أمة حربية ونفس المملكة حصن حصين ضد حملات الاعداء القريبة من

حدودها وجهز جيبال جيشا مهولا لمقابلة محمود فهزمه محمود وأسره مع خمسة عشر من كبار قواده ففدوا أنفسهم بكثير من الاموال والجواهر وأطلقهم محمود على أن جيبال تابع له ولما رأى جيبال المنحوس انه صار أسره مرتين راعى حقارة شرفه وعدم بخته وانحطاط رفعة قدره وفعل أفعال عوائد أهل بلاده البربرية وأعدّ لنفسه عمود الموت والحرق وقذف بنفسه فى لهيب النيران وجلس من بعده ابنه أننديال على تخت أبيه واعترف بتبعة مملكته الى سلطان غزنة

وأما الثلاث غزوات التى أجراها محمود بعد ذلك فكانت بعلة جمعه الخراج واخماد عصيان بعض الاحزاب وكانت الخامسة فى سنة ١٠٠٩ بعد الميلاد صار البدء فيها بهجوم حصل من ناحية أننديال وذلك أن أننديال عقد محالفات ومعاهدات مع جميع الملوك الكبيرة الممدودة فى داخل البلاد الهندية مثل ملك دلهى وملوك كانوج وأوجين وجواليور وكالنجير وغيرهم وجمع أكبر جيش ماسمع بمثله فى هذا الاقليم من عدة قرون مضت وعبر نهر السند ودخل هذا الجيش الكثيف سهول بيشاوور وكان فيها المسلمون فارتاع المسلمون من مقابلة جيش عرمرم كثيف مثل هذا فى ميدان مكشوف فحصن محمود عساكره بالمتاريس واستمر الجيشان فى مواجهة بعضهما أربعين يوما ومن بعد هذه المدة حصل البدء فى الواقعة من جهة أهل البلاد وذلك أن قبيلة اسمها قبيلة الجو يكواربين وهى أمة وحشية قاطنة فى نواحى الجبال الموجودة فى شمال لاهور أمطرت مطرا من النبال والحراب على عساكر محمود فأثرت تأثيرا شديدا الا أن الجيش الاصلى ما كان له طاقة على اجراء هجوم أو كبس على أهل القوة والمنعة عساكر محمود المتحصنين فى متاريسهم وأهلك المسلمون منهم عددا كثيرا وفى أثناء الواقعة خاف الفيل الراكب عليه أننديال ملك لاهور من فرقعة كلة نار بة وقعت أمامه فقفز وبرطع ورمى براكبه من فوقه فى ميدان الواقعة فظن عساكر أننديال فى هذا الوقت فى أنفسهم أن قائدهم تركهم وهرب فوقع فيهم الارتباك والفشل وابتدأ جميع هذا الجيش المهول فى الهرب من ميدان الحرب مع الخوف والفشل الاكبر وكانت هذه الواقعة مثل واقعة أردشير الاول ملك فارس مع الجريس الا أن محمودا بدل أن يقابل أمة حربية لها اقدام وشجاعة فى الحروب قابل نساء فى حركة مجاجة حربية فسار محمود خلفهم بعساكره وقتل منهم نحوا من ٢٠٠٠٠ نفس وأخذ مالا يحصى من الفيلة المحملة بنفائس الجواهر والاموال ولما رأى محمود من لا يصده فى تقدمه سار مباشرة على قلعة بيمى أو بهجهور وهى قلعة شاهقة فى الجو لا يمكن الوصول اليها وكانت مخزنا عاما لجميع أموال الهياكل المقدسة الموجودة حولها ولما سار ملوك الهند الى الامام نحو محمود متيقنين حصول الظفر لهم باسهل حالة أخذوا معهم كافة المحافظين الذين كانوا فى المدائن والقلاع لاجل تقوية عساكرهم وكثرة عددها وتركوا القسس يحفظون المزارات والهياكل فلما رأى القسس ما حل بهم من عساكر الاسلام فتحوا أبواب القلاع والهياكل للفاتح وخروا ساجدين على وجوههم فى الارض أمام الملك المنصور وأخذ محمود من القلعة ما كان فيها من الذهب والفضة والاحجار الثمينة ما قدره فريشته بانه لا يوجد مثله ولا نظيره فى خزائن أى ملك من ملوك الارض الا أن القولونيل بريجس قدر قيمة هذه الغنيمة بغاية الدقة الى مبلغ ٣٠٠٠٠٠ ليرة من النقود بما فى ذلك أثمان الالماس والجواهر النفيسة وهذه المكاسب التى عادت جميعها على محمود فرق منها على عساكره وأحسن بقسم منها على فقراء غزنة وعلمائها وأصلح مساجدها

ومن هذه الحالة الشديدة كشف ملوك الهند الى محمود عاقبة سر ضعفهم وعدم طاقتهم على الحروب

وعلى

وعلى مقدار الخزائن والكنوز والجواهر الموجودة فى مملكتهم وهذه حالة مكسب لا يلزم السير فيها مع التوانى ثم وردت الى محمود الاخبار بشأن مزار طنسار وهو محل مشحون بالذخائر والاموال مقدس عند الهنود وهذا المزار كائن بالقرب من ميدان الواقعة الكبرى المعروفة عند الهنود بواقعة المهابرات ولما مر محمود فى حال سيره من أراضى لاهور أرسل له اندبال يلتمس منه مع التلهف والخضوع أن الهنود صبروا ورضوا بما أخذه من قلعة بيمى من أموال المعابد والهيا كل التى كانت بها والآن يرغب منه أن لا يقرب ما يخص مزار طنسار الجليل القدر عند الهنود ويتركه لهم فلم يقبل محمود ما التمسه منه اندبال مع الشدة والثبات وأعاد عليه جوابه بانه يتعين عليه أن يمحو أثر الاصنام من بلاد الهندستان ووصل محمود الى المحل المعهود قبل أن تمكن اندبال من أن يأتى اليه ولو بمساعدة قليلة من ملك دلهى واستحوذ من دون حصول أدنى مقاومة على جميع الكنوز التى كانت مجموعة فى مزار طنسار من عهد قرون وعصور مضت وكسر جميع الاصنام ورماها على قارعة الطريق ما عدا صنما ضخم الجثم اسمه يوجسوم حمله الى غزنة وكسره قطعا وتغلب هذا الفاتح على دلهى وعزم أن يضيف هذا الاقليم الظريف الى ممالكه الا أنه تفكر فى نفسه وتدبر فى أمره ورأى أنه تستحيل المواصلة مع الانتظام بين عاصمة دلهى وعاصمة غزنة بسبب صعوبة اقليم لاهور المسكون بأمم أهل بسالة وشجاعة وكذا صعوبة عبور الاقليم ووجد أنه يجب خضوع اندبال قبل كل شئ فمن هذا اصرف محمود النظر عن وقوع العداوة ورأى أنه من الحزم عدم السعى فى استعداد حروب ومن ثم عزم على عدم التغلب على البلاد الهندية الا أنه صار ينقض من وقت الى آخر مثل انقضاض العقاب من عشه العالى فى وسط ثلوج الجبال ويخطف صيده ويطير الى حيال مملكته وفى سنة من السنين صرف هذا الملك الجليل والسلطان النبيل فصل صيف فى التغلب على وادى كشمير الجميل وتولد من تغلبه عليه فتح طريق له الى داخل البلاد الهندية من دون أن يمر على أرض اندبال أو يتخابر معه فى شئ وفى سنة ١٠١٧ بعد الميلاد جمع جميع قواه وعساكره من أقاليم التتار وسار فى رأس ١٠٠٠٠ فارس و ٣٠٠٠٠ راجل فى طول منابع الانهر الكبيرة متوجها الى مدينة كانوج وكانت أجل وأعظم مدينة فى بلاد الهند ووصف مورخو الشرق مجد هذه المدينة وفخامتها وعظمها وشماخة أبراجها وذكروا أنه كان يوجد بها ٣٠٠٠٠ دكان يباع فيها البتل (وهو ورق أخضر ينبت شجره فى أرض الهند وسيلان يستعمل مضغه عند أهل البلاد مع معجون الجير مثل مضغ الدخان والنطرون فى مصر) وفيها أيضا ٦٠٠٠٠ نفس آلاتية يضربون على آلات الموسيقى فمثل هذه المدينة التى أهلها كانوا منعكفين على الرفاهية ولذة العيشة ما كان عند أهلها استعداد لمقابلة كتائب صبت عليها من الافغانستان ولم يجد مليكها حيلة فى المدافعة عن المدينة وأهلها الا فى كونه سار وقدم طاعته الى الملك الفاتح فمن ثم صار معاملة كانوج وأهلها مع الرفق واللين وأقام بها محمود وعساكره ثلاثة أيام ومن بعد أن أخضع عدة جهات أخر وردت اليه الاخبار بوجود مدينة جليلة مشحونة بالجواهر والاموال وهى مدينة ماطرة أو ماطورة محل معبد كرشينة المقدس وتحتوى هذه المدينة على مزارات ومعابد ثروتها وغنيتها تزيد عن ثروة أى اقليم متمول فسار اليها محمود بعساكره ودخلها من بعد أن لاقى من أهلها مقاومة ضعيفة ووجد هيا كلها أفخر هيا كل لم ير مثلها فقبل ملآنة بالاصنام الهائلة المصنوعة من الذهب الخالص وعيونها من الزمرد

الاحمر النقى وعينا كبيرة هذه الاصنام من الزمرذ الازرق الخالص فلم يضع هذا الفاتح أدنى لحظة من الزمن فى فك هذه الاشياء النفيسة المقدسة عند الوثنيين وجمعها جميعها كل صنف على حدته من الذهب والجواهر والاحجار الكريمة وحملها على قطر طويل من الجمال وأخضع بعض المدائن بمحاربات شديدة الا أنها كانت قليلة المكسب وعاد من طريق لاهور الى غزنة وكانت غنيمته هذه زائدة بكثير عن غنيمة طنسار وصار تقديرها الى نصف مليون من النقود بما فيها من الجواهر واللآلئ ويضاف الى هذه الغنيمة ثمن ٥٣٠٠٠ أسير صار تقدير قيمة كل رأس خمسة شلنات وأما الاموال التى أخذتها قواد العساكر فى السر وكذا التى أخذتها العساكر فكانت تعادل قيمة ما اكتسب الملك

وبواسطة ما أرسل محمود من الغنائم والاسلاب الى غزنة صارت أحسن موقع لمهاجرى رعاة الافغانية وشرع محمود يشيد فى غزنة بواسطة الاموال والكنوز التى جلبها من كانوج وماطورة مبانى عمومية فاخرة ذات أبهة حتى يجعلها أحسن مدينة وأجل عواصم الدنيا الموجودة فى مدته فابتنى فيها مسجدا رحبا من الصوان والرخام الغالى الثمن ونقشه بأبدع النقوش وذهبه بأحسن الصناعات حتى فاق وساد فى أبهته وفخر بنائه على جميع مبانى آسيا وسماه العروسة السماوية وقلد الامراء فى هذا العمل العظيم مليكهم وشيدوا لانفسهم مبانى مفتخرة وعمارات جليلة حتى فاقت غزنة فى الفخر والفخامة مدائن البلاد الهندية وفى هذه الاثناء وردت الاخبار الى محمود بأن انقياد ملك كانوج لطاعته ومعاهدته معه كانت عاقبتها مشؤمة على هذا الملك وعلى مدينته وذلك أن نونده ملك كالنجهر اغتم واشتد فى وجهه الغضب من مفارقة ملك كانوج الاتحاد العام العائد على البلاد الهندية بالنفع والفائدة وتعاون بالملوك المجاورين له وأشعل حربا مهولا على ملك كانوج كانت نتيجته هزيمة هذا الملك وموته واستلام عاصمته وخرابها بعد هلاك أهلها فتأهب ملك غزنة وسار مجدا فى سيره عابرا المحلات الصعبة الشامخة والواطية والسهلة والصعبة ومن بعد أن عبر نهر جنة بالقوة والاقتدار وجد نونده ملك كالنجهر محصنا نفسه فى متاريس بالقرب من مدينة كانوج ومن المحتمل انه كان منتظرا هجوم محمود عليه الا أنه من بعد مناوشات قليلة تقهقر الملك الهندى وترك المملكة عرضة لسلب ونهب الهاجمين ومع هذا فان مدينة كانوج ومملكتها لم يعد اليهما مجدهما القديم مرة ثانية ومدينة لاهور وان كانت قريبة من الاراضى الغزنوية الا أنها استمرت مستقلة مدة ثلاثين سنة التى هى مدة سلطنة محمود الغزنوى ومن بعد موت انندبال سعى محمود السعى الثابت فى الحصول على استحواذ هذه المملكة المهمة المعتبرة بأنها مفتاح الهند وجمع قوة كبيرة وسار نحو عاصمتها ولما كان ملكها الشاب لا طاقة له على مقابلة جيش عريض مثل جيش محمود الغزنوى ترك المدينة ومملكته وهرب والتجأ فى اجمير وبهذا دخلت مملكة لاهور فى ضمن الاراضى الغزنوية

ومن بعد أن أجرى محمود غارات قليلة على البلاد الهندية شرع فى سنة ١٠٢٤ بعد الميلاد فى حملته الاخيرة المهولة على بلاد الهندستان وكان أدخل جيشه فى انتظام وترتيب جديد وبدل هيئته القديمة بهيئة أحسن منها وكان سبب ذلك أنه سمع بانه يوجد فى اقليم الجوزيرات من ممالك الهند وعلى ساحل البحر المحيط الهندى سومنات وهو مزار أعلى من جميع المزارات التى خربها وجردها وكان موقوفا على هذا المزار ألفا قرية يرسل خراجها اليه خلاف الهدايا والنذور التى كانت ترد اليه من الاقاليم

والاقطار

والاقطار المحيطة به وأما سومنات نفسه فكان مرعى عند الهنود بأنه القاضي العمومي للموت وكان يغسل تمثاله المصنوع من الذهب الخالص كل يوم بماء يجلب من نهر الكنج وهو على مسافة ألف ميل من قلعة سومنات وهو نهر مقدس عند الهنود يلقون فيه بعضا من رماد حريق ملوكهم في زجاج مغلوق وكذا من يموت من أعيانهم وأمرائهم معتقدين سوقهم الى جنات النعيم وبه من الخدم البراهمة ما ينوف عن ألفي نفس وخمسمائة من البنات المغنين الراقصات وثلاثمائة يضربون على آلات الموسيقي وثلاثمائة نفس من الحلاقين وقد بلغ السلطان محمود أن قسس سومنات يعتقدون أنهم في حفظ وحصن حصين من شوكته وحملته ويعتقدون أن الجرائم والذنوب التي حصلت من دلهي وكانوج كانت هي السبب الوحيد في دمار وخراب هذه المدائن وأما هم فانهم على طهارة ولا طاقة لهذا الملك المتشعبذ في تغلبه عليهم فلما سمع الملك بذلك اجتهد في حطم هؤلاء القسس وجمع عساكره وساقهم الى داخل مولتان وجمع ٢٠٠٠٠ جمل حمل عليها الذخائر والمؤن وعبر الصحراء الكبيرة الشاسعة فرأى أن أهل مدينة أجمير تركوا مدينتهم وقلعتهم الحصينة التي لا يمكن الوصول اليها وكذا نهروالى عاصمة الجوزيرات تركها اهلها ومن بعد أن عبر صحارى أخرى وصار على مرأى من سومنات رأى قلعة شامخة على بحيث جزيرة داخلة في البحر محيط جميعها بماء البحر ماعدا نقطة واحدة منها محفوظة باسوار قوية مرصوص على كرانكها وشرفاتها محافظون كثير والعدد فأرسل اليهم محمود رسولا قال لهم ان الههم سومنات هو الذي جلب المسلمين هنا لاجل أن يخربوا هذا البناء المهول الموجود فيه الآلهة بيلطهم وفوسهم ويسووابه الارض ثم تقدم المسلمون مع سرعة شديدة أذهلت عقول الهنود حتى أسرعوا الى آلهتهم وبكوا وأنوا واشتكوا أمام الآلهة ولما رأوا السلالم وضعت على الاسوار دافع الهنود مدافعة شديدة مع الغضب والحنق واستمر هذا الحرب طول النهار وفي آخر النهار لما كل الهاجمون وتعبوا انجبروا على التقهقر الى معسكرهم وفي صباح اليوم الثاني بكر المسلمون وشرع محمود في الهجوم وكان هذا الحرب في هذا اليوم أحسن من حرب أمس

وفي اليوم الثالث شاهد محمود جيشا كبيرا واردا على بعد منقدما في سيره لخلاص سومنات فعبى محمود عساكره للحرب واشتبك الحرب لان أهل هذه الجهة من البلاد الهندية أهل بسالة وشجاعة واقدام وصبر على الحروب فاشتدت الواقعة وعظم المصاب وظن هنود سومنات أنهم نالوا السعادة عندما رأوا قدوم هذا الجيش اليهم تحت قيادة بيرم ديو ودابيساليمه من رؤساء الهنود المشهورين في اقليم الجوزيرات وزادت الواقعة شدة على شدتها وعظم الخطب ورأى محمود أن هذه أول مرة في أرض الهند صار عرضة فيها للخطر والبلاء والكرب العظيم فذكر عساكره بالغيرة الاسلامية وخر ساجدا على الارض وتضرع الى الله سبحانه وتعالى لمساعدته في هذا الحرب المقدس ونادى بصوته في عساكره وقواده أن تقدموا واقتحموا القتال فاما النصر واما التتويج بتاج الشهادة ومن ثم اكتسب أخيرا نصرة كاملة وهزم الهنود شرهزيمة وهربوا من ميدان المعركة ولما رأى محافظو سومنات هزيمة الجيش الاعظم الذين كانوا معتمدين عليه في خلاص أنفسهم حصل فيهم الارتياع والارتباك والفشل وتركوا القلعة وفروا هاربين فدخل محمود القلعة وسار وابه الى المعبد فوجده بناء مرحبا قديما وفي داخله فسحة وايوان كبير جليل القدر محمول على ستة وخمسين عمودا مرصوص في جهاته تماثيل الآلهة الهندية وصورها مصنوعة من الذهب الخالص وأما سومنات نفسه فكان مثل

البرج ضخم الجسم أعلى من كافة الاصنام وأول ماوقع بصر محمود على هذا الصنم المهول ثارت فيه نار الغيرة الاسلامية والديانة المحمدية وقلع أنفه وأمر بفك جميع هذه الصور وتكسيرها ولما رأى البراهمة ماحل بآلهتهم من هذه المصيبة خروا على ركبهم ساجدين أمام محمود وقدموا له مبالغ جسيمة فداء على ترك الباقى فلم يقبل فعرض الامر امله بأن قبول الفداء من حزم الرأى فقال لهم أنا لا أكون بياع أصنام وأمر بكسر جميعها ووجد داخل الهيكل براميل مملآنة بالاحجار الكريمة من أنواع الزمرذ والالماس وغيرهما مما يتعسر تقدير قيمته ثم انشرح صدر محمود من اقليم الجوزيرات وتردد فى نفسه هل يجعل هذا الاقليم المقر أو المركز الاصلى لحكومته أو يضيف مجده وثروته الى ممالكه فرأى من بعد تردد أن المسافة بين ممالكه وبين الجوزيرات بعيدة والوصول اليها صعب جدا فعزم على أن يوظف فى هذه المملكة الجميلة سلطانا برهمى المولد يكون تحت سلطته ومن بعد سفره بقليل قام أهل الجوزيرات ودخلوا تحت طاعة أهل بيت ملوكهم القديمة وكانت هذه الحادثة فى سنة ٤١٠ من الهجرة ولما رجع المنصور محمود متوجها الى غزنة تحمل أنكاد الآلام والمصاعب فى أثناء عبوره الصحارى والبرارى الواسعة وحصل له خوف شديد وارتباك من يد من الجوت وهم قبيلة متوطنة فى مولتان حاكمون على ملاحة نهر السند بواسطة قوارب حربية تحت أيديهم ولما عاد محمود الى غزنة شرع فى السنة التالية فى حملة على هذه الامة بغاية الحنق والغضب وأعد لها قوة من القوارب الصغيرة المحفوظة بسهام وحرب من الحديد وسار اليها ومن بعد أن حصل بينه وبينهم مبارزات ووقائع شديدة هزمهم شر هزيمة وقتل معظمهم وباع مابقى منهم فى أسواق ممالكه

مطلب وفاة محمود بن سبكتكين

ولما عاد الى غزنة من هذه الغزوة غزا عدة غزوات فى خراسان وعند عوده منها الى غزنة فى سنة ١٠٣٠ بعد الميلاد أصابه مرض ومات بعد أن بلغ من العمر ثلاثا وستين سنة وكان مرضه سوء مزاج واسهالا وبقى كذلك نحو سنتين وكان قوى النفس لم يضع جنبه فى مرضه على الارض بل كان يستند الى مخدته فأشار عليه الاطباء بالراحة وكان يجلس للناس بكرة وعشيا فقال أتريدون أن أعتزل الامارة فلم يزل كذلك حتى توفى قاعدا ولما حضره الموت أوصى بالملك لابنه محمد وكان أصغر من مسعود وكان ببلخ فسار الى غزنة ووصلها بعد موت أبيه بأربعين يوما فاجتمعت العساكر على طاعته

وكان محمود بن سبكتكين عاقلا دينا خيرا حليما عدلا خاضعا فى أحكامه ممايدل على حلمه أن جاءت امرأة اليه تشكو لصوصا قتلوا ابنها فى صحارى العراق ونهبوا أموالها فقال لها ان هذه محلات قاصية بعيدة علينا لا يمكننا أن نمنع منها مثل هذه الاحوال فأجابته المرأة بغضب وحدة لاى شئ تتغلب على ممالك لاطاقة لك بحفظها ولاخبرة لك بنظامها وبماذا تجاوب عند الله يوم القيامة وصارت توبخه فقال لها انه على أسف وحزن شديد من موت ابنها وهذه الملامة لا يمكن حصولها الملك الا اذا كان حليما متواضعا ومما يدل على عدله أن واحدا من أهل غزنة عرض له أن سيدا كبيرا من حواشى الملك اغتصب منه امرأته ويأتى اليها ويخرجه من بيته ويحل محله غصبا فاشتد الغضب فى وجه محمود وقال له بينى وبينك هذا وأول مايدخل هذا المجرم بيتك أخبرنى فى الحال فجاء الرجل بعد ثلاث ليال وكان محمود فى انتظاره وأخبره بدخول الرجل داره فأخذ محمود خنجرا من عساكره وسار مسرعا الى بيت الشخص وأمره باطفاء جميع النور وتقدم ومعه جعبته وخنجره وقبض فى الظلام على الجانى وخلع رأسه من بين كتفيه وأمر بتوليع النور فلما نظر الى أضحيته خر ساجدا لله

سبحانه وتعالى فسئل عن معنى اطفاء النور فقال خشية أن يكون الجانى من المقربين الى كاحد أولادى مثلا فأتركه فيضيع العدل وأمر بارسال عساكر ومحافظين فى الصحارى والطرقات لحفظ المارين فيهما من اللصوص وقطاع الطرق

وكان عنده علم ومعرفة وصنف له كثير من الكتب فى فنون العلوم وقصده العلماء من أقطار البلاد وكان يكرمهم ويقبل عليهم ويعظمهم ويحسن اليهم فكان من ضمن الذين وفدوا على ديوانه الفردوسى شاعر مملكة فارس وكان فى عصره مثل عمير الشاعر فى بلاد اليونان أو الجريس فطلب منه محمود أن يصنف له كتابا بالشعر فى سلاطين فارس فاتبع الفردوسى فى طريقة تصنيفه هذا الكتاب طريقة سلفه الدقيقى ولبث مدة قدرها ثلاثون سنة حتى أتم كتابه وكان محمود وعده أن يكافئه على كل بيت من الشعر بدرهم من الذهب فاستمر الفردوسى فى تصنيف كتابه حتى بلغ الى ٦٠٠٠٠ بيت من الشعر وسماه بالشاهنامه أى تاريخ الملوك وقدمه للملك وطلب مكافأته فأمر له محمود بمبلغ ٦٠٠٠٠ درهم من الفضة بدل ٦٠٠٠٠ من الذهب فثار الغضب فى وجه الفردوسى وخرج من ديوان الملك وتوجه الى مدينته وشرع فى تصنيف كتاب يقدح فيه على محمود وعلى خسة مولده من ابتداء أمره الى الحالة الموجود هو عليها فلما بلغ الملك سامحه فى ذمه وأمر بمكافأته بمبلغ ١٠٠,٠٠٠ درهم من الذهب الا أن هذه المكافأة مضى وقتها لانه بمجرد وصول رسول الملك الى مدينة الفردوسى بأكياس الذهب ودخوله من أحد أبوابها كانت جنازة الفردوسى خارجة من باب اخر

وبموت محمود انحط مجد عائلته وانهزم وارثه مسعود من بعد مضى عشر سنوات بواسطة التركمان السلجوقية فى نواحى خراسان ومن بعد مضى مدة قليلة أخذ أسيرا بواسطة ثورة حصلت فى جيشه وقتله ابن أخيه محمود وكان سمل عينيه وفى مدة سلطنة مودود اغتصب السلجوقية جميع ممالك محمود الفارسية وطردوا منها العائلة الغزنوية

مطلب العائلة السلجوقية

وأصل هؤلاء السلجوقية من التركمان من ذرية سلجوق بن تقاق وكان تقاق هذا (ومعناه القوس) مستخدما تحت يد ملك الترك ولما كبر سلجوق فى بيت أبيه وظهرت عليه أمارات النجابة ومخايل التقدم قربه ملك الترك وقدمه ولقبه سباشى (ومعناه مقدم الجيش أو قائده) فدخل أعداء سلجوق حتى أفسدوا بينه وبين ملك الترك فلما رأى ذلك سلجوق هاجر بقومه من منحدرات كيجوق الى سهول بخارا وتوالدوا واستولدوا وقامت منهم عائلة قوية جلست على كرسى فارس لم يجلس نظيرها قبلها وكانت هذه العائلة استوطنت فى نواحى خراسان وكثر عددهم فى زمن سلطنة محمد بن سبكتكين حتى خاف هذا الملك منهم ومن كثرة عددهم فسأل ذات يوم النائب عنهم اسمعيل بن سلجوق وكان يحضر ديوان الملك كل يوم ويجلس أمام الملائمة متقلدا سيفه ورمحه وجعبته حسب العوائد الجارية عندهم وقال له محمد ما مقدار الذى يمكننى أن آخذه من قبيلتكم لمساعدتى فى وقت الاحتياج فأجابه اسمعيل لو أرسلت هذا الرمح الى قبيلتى ورمى آخر من تحت أقدام الملك للبى الدعوة ٥٠,٠٠٠ فارس خيال فقال له السلطان كل هذا قوتكم فأجابه أيضا لو أرسلت هذا ورمى آخر لبى الدعوة ١٠٠,٠٠٠ خيال فقال السلطان اذا كنت فى حالة ضيق جدا وأطلب مساعدتكم فما مقدار ما تساعدونى به فقال له لو أرسلت جعبتى هذه الى قبيلتى للبى الدعوة ٢٠٠,٠٠٠ خيال طائعين مختارين فارتاع محمد من ذلك وتيقن دمار مملكته من بعده فى المستقبل

مطلب سلطنة طغرول بك

وفى سنة ١٠٤٢ بعد الميلاد صار طغرول بك محمد بن سلجوق رئيس السلجوقية وجعل نفسه أستاذ خراسان واشتد ملكه ووطأنه وقلد نفسه فى هيئة سلطان أو ملك فى نيسابور وفى مدة أقل من عشرين سنة تغلب على فارس ودخل بغداد باذن من الخليفة وخطب له فى مساجدها من بعد الخليفة وزادت العلاقة والمحبة بين الخليفة وطغرول بك بواسطة زواج حصل وكان ذلك آخر زوال العائلة الديلمية من بغداد ودخل تحت طاعة طغرول بك جميع الجهات وتزوج الخليفة القائم بأمر الله ابنة داود أخي طغرول بك وكذا تزوج طغرول بك بنت الخليفة

مطلب وفاة طغرول بك

وفى سنة ٤٥٥ من الهجرة سار السلطان طغرول بك من بغداد الى بلاد الجبل فوصل الى الرى وكان مستصحبا معه أرسلان خاتون ابنة أخيه زوجة الخليفة لانها شكت اطراح الخليفة لها فأخذها معه فمرض وتوفى وكان عمره سبعين سنة تقريبا حكى عنه أنه قال رأيت وأنا بخراسان فى المنام كأنى رفعت الى السماء وأنا فى ضباب لا أبصر معه شيأ غير انى أشم رائحة طيبة وانى أنادى انك قريب من البارى جلت قدرته فاسأل حاجتك لتقضى فقلت فى نفسى أسأل طول العمر فقيل لك سبعون سنة فقلت يارب ما يكفينى فقيل لك سبعون سنة فكررتها فقيل لك سبعون سنة فلما مات حسب عمره بوجه التقريب فوجد سبعين سنة وكانت مملكته بحضرة الخلافة سبع سنين وأحد عشر شهرا واثنى عشر يوما وكان عاقلا حليما من أشد الناس احتمالا تقع فى يده مكاتبات من حواشيه بذمه والقدح فيه ولا يظهر غضبا ولا يظهرها لهم وكان يحافظ على الصلوات ويصوم الاثنين والخميس وكان لبسه الثياب البيض وكان ظالما غشوما قاسيا وكان عسكره يغصبون الناس أموالهم وأيديهم مطلقة فى ذلك ليلا ونهارا وكان كريما فمن كرمه أن أخاه ابراهيم ينال أسر من الروم لما غزاهم بعض ملوك فبذل فى نفسه أربعمائة ألف دينار فلم يقبل ابراهيم منه ذلك وحمله الى طغرول بك فأرسل ملك الروم الى نصر الدولة بن مروان حتى يخاطب طغرول بك فى فكاكه فلما سمع طغرول بك رسالته أرسل ملك الروم الى نصر الدولة بغير فداء وسير معه رجلا علويا فأرسل ملك الروم الى طغرول بك مالم يحمل فى الزمان المتقدم وهو ألف ثوب من الديباج وخمسمائة ثوب أصنافا وخمسمائة رأس من الكراع الى غير ذلك وأنفذ مائتى ألف دينار ومائة لبنة فضة وثلثمائة حمار مصرى وألف عنز بيض الشعور سود العيون والقرون

مطلب سلطنة ألب ارسلان

ولما مات طغرول بك جلس من بعده ابنه الب ارسلان على كرسى أبيه (ومعنى الب ارسلان الاسد الكاسر) وقال بعض العلماء من الافرنج ان الب أرسلان حاز طبائع هذا الحيوان فى الشجاعة والبسالة وكان من أنجب الاولاد ومن دأبه العدل والكرم وكانت الفضائل من سجيته ومما يدل على ما كان عليه من الكرم والحلم والمروأة وعلو الهمة التفاته الى رومانوس ديوجنيس وكان رومانوس أغار على بلاده وهدمها مع الوقاحة بالدمار والخراب ولما أسره الب أرسلان أظهر عزة النفس وشرفها وأقامه من على الارض وضرب كفا على كف وقال لا يجب نقض شرف الامبراطور ولا حصول أدنى ضرر ولا ألم يخل بحيانه وصار يستقبح خسة الذين تركوا قائدا شجاعا مثل هذا فى وقت الخطر وعامله معاملة الملوك مدة ثمانية أيام ثم سأله أمام مجلس عقده له من بعد مضى المدة وقال له ماذا كانت أيامك السعيدة لو وقعت أنا فى يدك وما كانت حالة أيامى عندك فأجابه رومانوس كنت أضربك ضربا مؤلما وأخرب بلادك ولا أقبل فيك فدية فقال له الب أرسلان وماذا تنتظرمنى الآن بعد أن تبسم فى وجهه من معاملتى فيك فأجابه رومانوس ان كنت جزارا فتقتلنى وان كنت مغرورا معجبا بنفسك فتضعنى فى

عربتك

عرينك أجرها مثل رقيق وان كنت كريما حازم رأى فهبنى حريتى واقبل فدائى فاتفقا على الفداء وفى المدة التى كان فيها رومانوس مأسورا عند الب أرسلان صار اغتصاب تخته ولما خلى سبيله صار لاطاقة له على دفع مبلغ الفداء وايفاء ما وعد به الب ارسلان ومع هذا فانه أرسل ما قدر عليه من النقود على قدر امكانه فاستعد الب أرسلان فى غزوة لاجل أن يعيد سلطنة رومانوس اليه ومن بعد استعداده سمع بموته فتوقف عن حركة مسيره

ولقب الب أرسلان بعضد الدولة وكان صاحب خراسان فى سلطنة أبيه ووزيره نظام الملك فدخل عميد الملك وزير طغرل بك على نظام الملك وزير الب أرسلان قاصدا خدمته وقدم بين يديه خمسمائة دينار واعتذر وانصرف فسار أكثر الناس معه فخوف السلطان من غائلة ذلك فقبض عليه وأرسله الى مرو الروز واعتقله فيها ومن بعد مضى سنة أرسل له غلامين فدخلا عليه وهو محبوس فقتلاه ولف فى قميص ديبقى من ملابس الخليفة وحملت جثته الى كندر بلده ودفن عند أبيه وكان سبب اتصال عميد الملك بالسلطان طغرل بك أن السلطان لما ورد نيسابور طلب رجلا يكتب له يكون فصيحا بالعربية فدل عليه وأعطته السعادة وكان فصيحا فاضلا وانتشر من شعره ما قاله فى غلام تركى صغير السن كان واقفا على رأسه يقطع بالسكين قصبة فقال عميد الملك فيه

أنا مشغول بحبه * وهو مشغول بلعبه * لو أراد الله خيرا * وصلاحا لمحبه
نقلت رقة خديه الى قسوة قلبه * صانه الله فما أكثر اعجابى بعجبه

ومن شعره

ان كان بالناس ضيق من منافستى * فالموت قد وسع الدنيا على الناس
مضيت والشامت المغبون يتبعنى * كل لكأس المنايا شارب حاسى

وكان عميد الملك خصيا قد خصاه طغرل بك لانه أرسله يخطب عليه امرأة ليتزوجها فتزوجها هو وعصى عليه فظفر به وخصاه وأقره على خدمته

ثم ان الخليفة القائم بأمر الله لقب عضد الدولة الب أرسلان بضياء الدين عضد الدولة وجلس الخليفة جلوسا عاما وشافه الرسل المرسولين من طرف ألب أرسلان بتقليده السلطنة وسلمت الخلع بمشهد من الخلق وأرسل اليه من ديوان الخليفة النقيب طراد الزينبى فوصلوا اليه وهو بنقجوان من أعمال أذربيجان فلبس الخلع وبايع للخليفة وفى سنة ٤٥٦ من الهجرة عاث الب أرسلان فى بلاد الروم وفتح منها مدينة انى ومدينة الكرج وجهات أخرى وعاد من الروم الى أصبهان ومنها الى كرمان وكان بها أخوه قاورت ثم منها الى مرو فزوج ابنه ملكشاه بابنة خاقان ما وراء النهر وزفت اليه وزوج ابنه ارسلان شاه بابنة صاحب غزنة واتحد البيتان البيت السلجوقى والبيت المحمودى واتفقت الكلمة وفى سنة ٤٥٨ من الهجرة سار الب أرسلان من مرو الى رايكان فنزل بظاهرها ومعه جماعة أمراء دولته فأخذ عليهم العهود والمواثيق لولده ملكشاه بأنه السلطان بعده وأركبه ومشى بين يديه يحمل الغاشية وخلع السلطان على جميع الامراء وأمرهم بالخطبة له فى جميع البلاد التى يحكم عليها ففعل ذلك وأقطع البلاد فأقطع مازندران للامير اينانج بيغو وبلخ لاخيه سليمان وخوارزم لاخيه أرسلان أرغو ومرو لابنه الآخر أرسلان شاه وصغانيان وطخارستان لاخيه الياس وولاية بغشور ونواحيها لمسعود بن ارتاش وهو من أقارب السلطان وولاية اسفزار لمودود بن ارتاش

قتل ألب أرسلان

وفى سنة ٤٦٥ من الهجرة قصد فى مباديها الب أرسلان ماوراء النهر فعقد على نهر جيحون جسرا من المراكب وعبر عليه فى نيف وعشرين يوما وكان عسكره يزيد على مائتى ألف فارس فأتاه أصحابه بمستحفظ قلعة اسمه يوسف الخوارزمى وحمل الى قرب سريره مع غلامين فأمر أن تضرب له أربعة أوتاد فى الارض وتشد أطرافه اليها فقال له يوسف يا مخنث مثلى يقتل هذه القتلة فغضب السلطان الب أرسلان وأخذ القوس والنشاب وقال للغلامين خلياه ورماه السلطان بسهم فأخطأه فوثب يوسف يريده والسلطان على سدة فلما رأى يوسف يقصده قام عن السدة ونزل عنها فعثر فوقع على وجهه فبرك عليه يوسف وضربه بسكين كانت معه فى خاصرته وكان سعد الدولة واقفا فجرحه يوسف جراحات ونهض السلطان الى خيمة أخرى وقال وا أسفاه قد عرفت الآن سن التجربة حقيقة الدروس والنصائح التى تلقيتها من محترم عاقل قال لا تحتقر بصغر عدوك وكن منه على حذر وكن خاضعا لله ولا تركن الى مهارتك وبسالتك ومكنتك فأنا نسيت نصيحته ومجلس علمه ثم قال ما من وجه قصدته وعدو أردته الا استعنت بالله عليه ولما كان أمس صعدت على تل فارتجت الارض تحتى من عظم الجيش وكثرة العسكر فقلت فى نفسى أنا ملك الدنيا وما يقدر أحد علىّ فعجزنى الله تعالى بأضعف خلقه أواه وا أسفاه ما قوة المرء وشوكة الملوك عند معارضتهم قدرة الخالق سبحانه وتعالى وأنا أستغفر الله تعالى وأستقيله من ذلك الخاطر وتوفى ونقل الى مرو ودفن فيها بعد أن بلغ من العمر أربعين سنة وشهورا وكانت مدة ملكه منذ خطب له بالسلطنة الى أن قتل تسع سنين وستة أشهر وأما يوسف فان أحد الفراشين ضربه بمرزبة على رأسه فقتله وقطعه الاتراك

نسب ألب أرسلان وصفته

وأما نسبه فهو الب ارسلان محمد بن داود جغرى بك بن ميكائيل بن سلجوق وكان كريما عادلا عاقلا لا يسمع السعايات واتسع ملكه جدا ودان له العالم وكان رحيم القلب رفيقا بالفقراء كثير الدعاء بدوام ما أنعم الله به عليه وكان يكثر الصدقة فيتصدق فى رمضان بخمسة عشر ألف دينار وكان فى دوانه أسماء خلق كثير من الفقراء فى جميع ممالكه عليهم الادرارات والصلات ولم يكن فى جميع بلاده جناية ولا مصادرة فقد قنع من الرعايا بالخراج الاصلى يؤخذ منهم كل سنة دفعتين رفقا بهم وكتب اليه بعض السعاة سعاية فى نظام الملك وزيره وذكر ماله فى ممالكه من الرسوم والاموال وتركت على مصلاه فأخذها فقرأها ثم سلمها الى نظام الملك وقال له خذ هذا الكتاب فان صدقوا فى الذى كتبوه فهذب أخلاقك وأصلح أحوالك وان كذبوا فاغفر لهم زلتهم وأشغلهم بمهم يشتغلون به عن السعاية بالناس وكان شديد العناية بكف الجند عن أموال الرعية وبلغه أن بعض خواص مماليكه سلب من بعض الرستاقية ازارا فأخذ المملوك وصلبه فارتدع الناس عن التعرض الى مال غيرهم

سلطنة ملكشاه بن ألب أرسلان ١٠٧٢ بعد الميلاد

وجلس من بعده ابنه ملكشاه على كرسى أبيه وكان لما جرح السلطان الب أرسلان أوصى بالسلطنة لابنه هذا وكان معه وأمر أن يحلف له العسكر فحلف جميعهم وكان المتولى للامر فى ذلك نظام الملك وأرسل ملكشاه الى بغداد يطلب الخطبة له فخطب له على منابرها وأوصى ألب أرسلان ابنه ملكشاه ان يعطى أخاه قاورت بك بن داود أعمال فارس وكرمان وشيأ عينه من المال وأن يزوج بزوجته وأوصى أن يعطى ابنه اياز بن ألب ارسلان ما كان لابيه داود وهو خمسمائة ألف دينار وقال كل من لم يرض بما أوصيت له فقاتلوه واستعينوا بما جعلته له على حربه وعاد ملكشاه من بلاد ماوراء النهر فعبر العسكر الذى قطع النهر فى نيف وعشرين يوما فى ثلاثة أيام وقام بوزارة ملكشاه نظام الملك وعادوا الى خراسان

وقصدوا

وقصدوا نيسابور وراسل ملكشاه جماعة الملوك أصحاب الاطراف يدعوهم الى الخطبة له والانقياد اليه وأقام اياز أرسلان ببلخ وسار السلطان ملكشاه من نيسابور الى الري

وكان ملكشاه مثل أبيه نادرة عصره ووحيد دهره ذا شجاعة ومهارة وعلو همة واقدام على المصاعب وكذا وزيره ووزير أبيه من قبله وهو نظام الملك كان على غاية من السياسة والتدبير وحسن العاقبة وكان السلطان من أكبر الفاتحين في الدرجة خضعت لسلطنته سوريا ومصر وجرجستان في الجهة الغربية وبخارا وسمرقند وخوارزم في الجهات الشرقية ودفع له الخراج القبائل المتبربرة الموجودة فيما وراء النهر أي نهر سيحون وكان الملوك والسلاطين والخانات من ابتداء سواحل البحر الابيض المتوسط الى السد الصيني يقدمون له طاعته وواجبات احترامه وخطب له على منابر جوامع بيت المقدس ومكة والمدينة وبغداد وأصفهان وبخارا وسمرقند وأورجنج والرها وكاشغر ولما بلغ قاورت بك وهو بكرمان وفاة أخيه ألب ارسلان سار طالبا للري يريد الاستيلاء عليها وعلى الممالك فسبقه اليها السلطان ملكشاه ونظام الملك وسارا منها اليه فهزماه وهرب قاورت بك فجاء رجل من أهل السواد الى السلطان ملكشاه فأخبروه أن عمه قاورت بك في قرية من بعض القرى فأرسل من أخذه وأحضره فأمر بخنقه وأقر كرمان بيد أولاده وسير اليهم الخلع ثم ان السلطان ملكشاه فوّض الامور الى نظام الملك وزيره وذلك أن عسكره بسطوا أيديهم ومدوها الى أموال الرعية وقالوا ما يمنع السلطان أن يعطينا الاموال الا نظام الملك فنال الرعية أذى شديد فذكر ذلك نظام الملك للسلطان وبين له ما في هذا الفعل من الوهن وخراب البلاد وذهاب السياسة فقال له افعل في هذا ما تراه من صواب فقال وما فيه مصلحة فقال له نظام الملك لا يمكنني أن أفعل الا بأمرك فقال السلطان قد رددت الامور كلها اليك كبيرها وصغيرها فأنت الوالد وحلف له وأقطعه اقطاعا زائدا على ما كان من جملته طوس مدينة نظام الملك وخلع عليه ولقبه ألقابا منها أتابك فأظهر من كفايته وشجاعته وحسن سيرته ما خلد له الذكر الجميل فمن ذلك ان امرأة ضعيفة استغاثت اليه فوقف يكلمها وتكلمه فدفعها بعض حجابه فأنكر ذلك عليه وقال انما استخدمتك لامثال هذه فان الامراء والاعيان لا حاجة بهم اليك ثم صرفه عن حجابته

ثم سار ملكشاه الى الري وعرض عليه عساكره فأسقط منهم ٧٠٠٠ رجل لم يرض حالهم فمضوا الى أخيه تكش وهو ببوشنج فقوي بهم وأظهر العصيان على أخيه ملكشاه واستولى على مرو الروذ ومرو الشاهجان وترمذ وغيرها وسار الى نيسابور طامعا في ملك خراسان وقيل ان نظام الملك قال للسلطان لما أمر باسقاطهم ان هؤلاء ليس فيهم كاتب ولا تاجر ولا خياط ولا من له صنعة غير العسكرية فاذا سقطوا لا نأمن أن يقيموا منهم رجلا وقالوا هذا السلطان فيكون لنا منهم شغل ويخرج عن أيدينا أضعاف ما لهم من الجاري الى أن نظفر بهم فلم يقبل السلطان قوله فلما مضوا الى أخيه وأظهروا العصيان ندم على مخالفة وزيره واتصل خبره بالسلطان ملكشاه فسار مجدا الى خراسان فوصل نيسابور قبل أن يستولي تكش عليها فلما سمع تكش بقربه منها سار عنها وتحصن بترمذ وقصده السلطان فتحصن بها وكان تكش قد أسر جماعة من أصحاب السلطان فأطلقهم واستقر الصلح بينهما ونزل تكش الى أخيه السلطان ملكشاه ونزل عن ترمذ في سنة ٤٧٣ من الهجرة

وفي سنة ٤٧٤ من الهجرة أرسل الخليفة المقتدي بأمر الله وزيره فخر الدولة الى السلطان ملكشاه يخطب ابنته لنفسه فسار الى أصبهان الى السلطان فأمر نظام الملك أن يمضي معه الى خاتون زوجة

السلطان فى المعنى فضيا اليها خاطبا هامنها فقالت ان ملك غزنة وملوك الخانية بما وراء النهر طلبوها وخطبوها لاولادهم وبذلوا أربعمائة ألف دينار فان حمل الخليفة هذا المال فهو أحق منهم فعرفتها أرسلان خاتون التى كانت زوجة الخليفة القائم بأمر الله بما يحصل لها من الشرف والفخر بالاتصال بالخليفة وان هؤلاء كلهم عبيده وخدمه ومثل الخليفة لا يطلب منه هذا المال فأجابت الى ذلك وشرطت أن يكون الحمل المعجل خمسين ألف دينار وأنه لا يبقى له سرية ولا زوجة غيرها ولا يكون مبيته الا عندها فأجيبت الى ذلك فأعطى السلطان يده وعاد الوزير الى بغداد

وفى سنة ٤٧٩ من الهجرة قدم السلطان ملكشاه بغداد بعد أن فتح حلب وغيرها من بلاد الشام وعراق الجزيرة وكانت هذه أول قدمة قدمها ونزل بدار المملكة وأرسل الى الخليفة هدايا كثيرة فقبلها وأرسل نظام الملك الى الخليفة خدمات كثيرة فقبلها وزار السلطان ونظام الملك مشهد موسى بن جعفر وقبر معروف الكرخى وأحمد بن حنبل وأبى حنيفة وغيرها من القبور المعروفة فقال ابن زكرويه الواسطى يهنى نظام الملك بقصيدة منها

زرت المشاهد زورة مشهودة * أرضت مضاجع من بها مدفون
فكأنك الغيث استهل بتربها * وكأنها بك روضة ومعين
فازت قداحك بالثواب وأنجحت * ولك الاله على النجاح ضمين

وكان السلطان ملكشاه مغرما بالصيد وكان حشمه الذين يصطادون معه ٤٧٠٠٠ فارس وتوجه مع نظام الملك الى الصيد فى البرية فزار المشهدين مشهد أمير المؤمنين على ومشهد الحسين رضى الله عنهما واصطاد شيأ كثيرا من الغزلان وغيرها وعاد الى بغداد

وفى محرم سنة ٤٨٠ من الهجرة نقل جهاز ابنة السلطان ملكشاه الى دار الخلافة على مائة وثمانين جملا مجللة بالديباج الرومى وكان أكثر الاحمال من الذهب والفضة وثلاث عماريات وعلى أربعة وسبعين بغلا مجللة بأنواع الديباج الملكى وأجراسها وقلائدها من الذهب والفضة وكان على ستة منها اثنا عشر صندوقا من الفضة لا يقدر ما فيها من الجواهر والحلى وبين أيدى البغال ثلاث وثلاثون فرسا من الخيل الرائعة عليها مراكب الذهب مرصعة بأنواع الجواهر ومن عظيما كسير الذهب وسار بين يدى الجهاز الوزراء وكان السلطان قد خرج من بغداد متصيدا فأرسل الخليفة وزيره الى تركان خاتون زوجة السلطان وبين يديه نحو ثلاثمائة موكبية ومثلها مشاعل ولم يبق فى الحريم مكان الا وقد أشعل فيه الشمعة والشمعتان وأكثر وأرسل الخليفة مع ظفر خادمه محفة لم ير مثلها حسنا وقال الوزير لتركان خاتون سيدنا ومولانا أمير المؤمنين يقول ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها وقد أذن فى نقل الوديعة الى داره فأجابت بالسمع والطاعة وحضر نظام الملك فمن دونه من أعيان دولة السلطان وكل منهم معه من الشمع والمشاعل الكثير وجاء نساء الامراء الكبار ومن دونهم كل واحدة منهن منفردة فى جماعتها وتجملها وبين أيديهن الشمع الموكبيات والمشاعل يحمل ذلك جميعه الفرسان ثم جاءت الخاتون ابنة السلطان بعد الجميع فى محفة مجللة عليها من الذهب والجواهر أكثر شئ وقد أحاط بالمحفة مائتا جارية من الاتراك بالمراكب العجيبة وسارت الى دار الخلافة وكانت ليلة مشهودة فلما كان الغد أحضر الخليفة أمراء السلطان لوليمة أمر بعملها وخلع عليهم كلهم وعلى كل من له ذكر فى العسكر وأرسل الخلع الى تركان خاتون زوجة السلطان والى جميع الخواتين ومن بعد ذلك عاد السلطان

من

مقتل الوزير نظام الملك

من الصيد وفى الكامل لابن الاثير قال انه فى سنة ٤٨٥ من الهجرة أو سنة ١٠٩٢ بعد الميلاد قتل نظام الملك أبو على الحسن بن على بن اسحق الوزير بالقرب من نهاوند وكان هو والسلطان فى أصبهان وقد عاد الى بغداد فلما كان بهذا المكان بعد أن فرغ من أفطاره وخرج فى محفته الى خيمة حرمه أتاه صبى ديلمى من الباطنية فى صورة مستغيث فضربه بسكين كانت معه فقضى عليه وهرب فأدركوه فقتلوه وركب السلطان الى خيمته فسكن عسكره وأصحابه ومكث وزير السلطان ثلاثين سنة سوى ماوزر للسلطان الب أرسلان قبل أن يتولى السلطنة مدة ما كان صاحب خراسان وكان قد كبر سنه وكان سبب قتله أن عثمان بن جمال الملك بن نظام الملك كان ولاه جده نظام الملك رياسة مرو وأرسل السلطان اليها حاجبا يقال له قودن وهو من أكبر مماليكه ومن أعظم الامراء فى دولته فجرى بينه وبين عثمان منازعة فى شئ فحملت عثمان حداثة سنه وتمكنه وطمعه بجده على أن قبض عليه وأخرق به ثم أطلقه فقصد السلطان مستغيثا شاكيا فأرسل السلطان الى نظام الملك رسالة مع تاج الدولة ومجد الملك البلاساني وغيرهما من أرباب دولته يقول له ان كنت شريكى فى الملك ويدك مع يدى فى السلطنة فلذلك حكم وان كنت نائبى وبحكمى فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة وهؤلاء أولادك قد استولى كل واحد منهم على كورة عظيمة وولى ولاية كبيرة ولم يقنعهم ذلك حتى تجاوزوا أمر السياسة وطمعوا الى أن فعلوا كذا وكذا وأرسل معهم واحدا من خواصه وثقاته وقال له تعرفنى ما يقول فربما كتم هؤلاء شيأ فحضروا عند نظام الملك وأوردوا عليه الرسالة فقال لهم قولوا للسلطان ان كنت ما علمت انى شريكك فى الملك فاعلم بانك ما نلت هذا الأمر الا بتدبيرى ورأيى أما يذكر حين قتل أبوه فقمت بتدبير أمره وقمعت الخوارج عليه من أهله وغيرهم وهو ذلك الوقت يتمسك بى ويلزمنى ولا يخالفنى فلما قادت الامور اليه وجمعت الكلمة عليه وفتحت له الامصار القريبة والبعيدة وأطاعه القاصى والدانى أقبل يتجنى لى الذنوب ويسمع فىّ السعايات قولوا له عنى ان ثبات تلك القلنسوة معذوق بهذه الدواة وان اتفاقهما رباط كل رغيبة وسبب كل غنيمة ومتى أطبقت هذه زالت تلك فان عزم على تغيير فليتزود للاحتياط قبل وقوعه وليأخذ الحذر من الحادث أمام طروقه ثم قال لهم قولوا للسلطان عنى مهما أردتم فقد أهمنى ما لحقنى من توبيخه وفت فى عضدى فلما خرجوا من عنده اتفقوا على كتمان ما جرى عن السلطان وأن يقولوا له ما مضمونه العبودية والتنصل ومضوا الى منازلهم وكان الليل قد انتصف ومضى رسول السلطان السرى فأعلمه ما جرى وبكر الجماعة الى السلطان وهو ينتظرهم فقالوا له من الاعتذار والعبودية ما كانوا اتفقوا عليه فقال لهم السلطان انه لم يقل هذا وانما قال كيت وكيت فأشاروا حينئذ بكتمان ذلك رعاية لحق نظام الملك وسابقته فوقع التدبير عليه حتى تم عليه من القتل ما تم ومات السلطان بعده بخمسة وثلاثين يوما وانحلت الدولة ووقع السيف وكان قول نظام الملك شبه الكرامة وأكثر الشعراء مراثيه فمن جيد ما قيل فيه قول شبل الدولة مقاتل بن عطية

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة * يتيمة صاغها الرحمن من شرف
عزت فلم تعرف الايام قيمتها * فردها غيرة منه الى الصدف

وأما أخباره فانه كان عالما دينا جوادا حليما كثير الصفح عن المذنبين طويل الصمت كان مجلسه عامرا بالقراء والفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح وأمر ببناء المدارس فى سائر الامصار والبلاد وأجرى

عليها الرواتب العظيمة وأملى الحديث بالبلاد ببغداد وخراسان وغيرها وكان يقول انى لست من أهل هذا الشان لما تولاه ولكنى أحب أن أجعل نفسى على قطارنقلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان اذا سمع المؤذن أمسك عن كل ماهو فيه وتجنبه فاذا فرغ لايبدأ بشئ قبل الصلاة وأسقط المكوس والضرائب وكان يجل العلماء ويجلسهم فى صدر مجلسه وأخباره مشهورة ومحاسنه مأثورة قد ألفوا لها كتبا كثيرة وروايات خطيرة

موت ملكشاه وصفاته

وفى سنة ٤٨٥ من الهجرة أو سنة ١٠٩٢ من الميلاد سار السلطان ملكشاه بعد قتل نظام الملك الى بغداد واستوزر من بعد نظام الملك تاج الملك وكان هو الذى سعى بنظام الملك وقد أمر السلطان ملكشاه بتفصيل خلع الوزارة له فلما فرغ من الخلع ولم يبق غير لبسها والجلوس فى الدست اتفق أن السلطان خرج الى الصيد وعاد مريضا وأنشب الموت أظفاره فيه وكان سبب مرضه انه أكل لحم صيد فحم وافتصد ولم يستوف اخراج الدم فثقل مرضه وكانت حمى محرقة ولما ثقل نقل أرباب دولته أموالهم الى حريم دار الخلافة ولما توفى سترت زوجته تركان خاتون موته وكتمته وسارت من بغداد والسلطان معها محمول فى محفة وبذلت الاموال للامراء سرا واستحلفتهم لابنها محمود وكان تاج الملك يتولى ذلك لها ولم يسمع أحد من أقاليم ممالكه بموته وكان من أحسن الناس صورة ومعنى وخطب له من حدود الصين الى آخر الشام أو سوريا ومن أقاصى بلاد الاسلام فى الشمال الى آخر بلاد اليمن وحمل اليه ملوك الروم الخراج وانقضت أيامه على أمن عام وسكون شامل وعدل مستمر ومن أفعاله أنه لما خرج عليه أخوه تكش بخراسان اجتاز بمشهد على بن موسى الرضا بطوس فزاره فلما خرج قال لنظام الملك بأى شئ دعوت قال دعوت الله أن ينصرك فقال أما أنا فلم أدع بهذا بل قلت اللهم انصر أصلحنا للمسلمين وأنفعنا للرعية وحكى عنه أن سواديا لقيه وهو يبكى فاستغاث به وقال كنت ابتعت بطيخا بدريهمات لا أملك سواها فغلبنى عليه ثلاثة أنفار من الاتراك فأخذوه منى فقال له السلطان اقعد ثم أحضر فراشا وقال له قد اشتهيت بطيخا وكان ذلك عند أول استوائه وأمره بطلبه من العسكر فغاب ثم عاد ومعه البطيخ فأمره باحضار من وجده عنده فأحضره فسأله السلطان من أين لك ذلك البطيخ فقال غلمانى جاؤنى به فأمر أن يجيء بهم اليه فمضى وأمرهم بالهرب وعاد فقال لم أجدهم فقال للسوادى خذ هذا مملوكى قد وهبته لك عوضا عن بطيخك أو يحضر الذين أخذوه والله لئن أطلقته لاضربن عنقك فأخذه السوادى فاشترى الغلام منه نفسه بثلاثمائة دينار فعاد السوادى الى السلطان وقال قد بعته نفسه بثلاثمائة دينار فقال أرضيت بذلك قال نعم قال امض مصاحبا السلامة وقيل انه مر فى ممالكه الواسعة اثنتى عشرة مرة وكان له فكرة سامية وقادة فى الحروب الداخلية واخمادها والغلبة على من يقوم بها واتفق فى عبوره نهر جيحون الى ماوراء النهر أن رئيس المعداوية الذين كانوا ينقلون العساكر من شاطئ الى آخر تشكى من تحويل صرف أجرته على ما يأتى من خراج أنطاكية فغضب السلطان وأخذه الزعل وسأل نظام الملك فى ذلك فقال نظام الملك المتصنع فى الكلام لست أقصد توقيف أجرته بل ذكرت له هذه الجهات القاصية ربما يأتينا النصر من عند الله حتى ان أنطاكية وجيحون يكونان تحت سلطنة واحدة فتبسم الملك لذلك وانصرف عن المعداوى الزعل ولم يمض الا القليل حتى ورد الخراج من سوريا واستوفى المعداوى حقه وقيل انه ورد بغداد ثلاث دفعات وأسقط المكوس والمؤن من جميع

البلاد

البلاد وعمر الطرق والقناطر والربط التى فى المفاوز وحفر الانهار الخربة وعمر الجامع ببغداد وعمل المصانع بطريق مكة وبنى البلد بأصبهان وكان يتصدق بكثير من الاموال

ومن بعد موت السلطان ملكشاه استمرت المملكة الفارسية فى حروب داخلية وارتباكات وقلاقل بين أولاده مدة ثلاثين سنة وفى مدة سلطنته كان ظهر مذهب القرامطة القديم تحت قيادة شيخ الجبل حسن الصباح وهو ابن واحد من العرب من حمير ولقبوا بالباطنية أو الزنادقة أو الاسماعيلية فجاسوا خلال الديار وتغلبوا على بعض جهات من المملكة وأذاعوا الدين القرمطى أو دين الزندقة وغلبوا على أكثر مدائن بلاد العجم وصار بينهم وبين أولاد السلطان ملكشاه حروب استمرت المدة المتقدمة وكانت نتيجة هذه الحروب جلوس سنجر الولد الثالث من أولاد السلطان ملكشاه الاربعة وكان سنجر هذا وبركيارق ومحمد ومحمود الاربعة أولاد السلطان محمد ملكشاه وكان بركيارق أكبر أولاد السلطان وكان فى أصبهان ولما مات السلطان وأخفت زوجته تركان خاتون موته أرسلت فى الحال الى أصبهان بالقبض على بركيارق مخافة أن ينازع ولدها فى السلطنة فصار القبض عليه ولما ظهر موت ملكشاه وثب المماليك النظامية على سلاح كان لنظام الملك فى أصبهان فأخذوه وثاروا فى البلد وأخرجوا بركيارق من الحبس وخطبوا له باصبهان وملكوه وكانت والدة بركيارق ابنة عم ملكشاه وقتل الوزير تاج الملك واستوزر بركيارق عز الملك بن نظام الملك وفى سنة ٤٨٧ من الهجرة خطب للسلطان بركيارق بن ملكشاه فى بغداد وكان قدمها وأرسل الى الخليفة المقتدى بأمر الله يطلب الخطبة فأجيب الى ذلك وخطب له ولقب ركن الدين وحملت اليه الخلع والتواقيع وفى سنة ٤٩٠ من الهجرة ملك بركيارق خراسان وسلمها الى أخيه سنجر وجعل الامير قماج أتابك سنجر ورتب فى وزارته أبا الفتح على ابن الحسين الطغرائى وفى هذه السنة كان ابتداء دولة محمد بن خوارزمشاه وفى سنة ٤٩١ من الهجرة كانت الحروب بين سنجر ودولتشاه وهو من أبناء الملوك السلجوقية فهزم سنجر فى نواحى بلخ وعفا عنه من القتل وحبسه ثم سمل عينيه وسير سنجر جيشا الى مدينة ترمذ فملكوها وفى سنة ٤٩٤ من الهجرة أمر سنجر بقتل جميع الزنادقة الباطنية بسبب ما فعلوه من الفظائع فى بلاده والخروج عن الدين وما ارتكبوه من الاثم والعدوان وكانوا استولوا على قلاع كثيرة فى بلاد مملكة فارس

وفى سنة ٤٩٨ من الهجرة مات السلطان بركيارق بن ملكشاه وكان قد مرض بأصبهان بداء السل والبواسير فسار منها فى محفة طالبا بغداد فاشتد مرضه فى الطريق فلما أيس من نفسه خلع على ولده ملكشاه وعمره حينئذ أربع سنين وثمانية أشهر وجعل الامير اياز أتابكه وأحضر جماعة الامراء وأعلمهم أنه قد جعل ابنه ولى عهده فى السلطنة وأمرهم بالطاعة له ولاتابكه ومساعدتهما على حفظ السلطنة وكان عمر بركيارق لما توفى خمسا وعشرين سنة ومدة وقوع السلطنة عليه اثنتا عشرة سنة وأربعة أشهر وقاسى من الحروب واختلاف الامور عليه ما لم يقاسه أحد وفى سنة ٥٠٨ من الهجرة تغلب سنجر على ما كان لبيت محمود بن سبكتكين فى نواحى غزنة وأعمالها من بعد وفاة علاء الدولة بن سبكتكين وخطب له بنواحى غزنة وفى نفس المدينة وحصل لاصحاب سنجر من الاموال ما لا يعد ولا يحصى من السلطان والرعايا وكان فى دور الملوك عادة دور على حيطانها ألواح الفضة وسواقى مياه البساتين من الفضة فقلع من ذلك أكثره ونهب فلما بلغ سنجر ما يفعل منع عنه بجهده وصلب جماعة حتى كف الناس ومن جملة ما حصل لسنجر خمسة تيجان قيمة أحدها يزيد على ألفى ألف دينار وألف

مطلب سلطنة سنجر

وثلاثمائة قطعة من المصاغ مرصعة وسبعة عشر سريرا من الذهب والفضة وأقام بغزنة أربعين يوما وقرر فيها بهرامشاه ورجع الى خراسان

وفي المدة التي بين سنة ٥٠٨ وسنة ٥٣٦ من الهجرة حصلت وقائع وحروب بين سنجر واخوته وأولاد اخوته وبينه وبين الباطنية كان جميعها النصر فيها لسنجر بن ملكشاه وفي سنة ٥٣٦ من الهجرة كان انهزام سنجر من الاتراك الخطا وملكهم ماوراء النهر وسبب ذلك أن سنجر كان قتل ابنا لخوارزم شاه أتز بن محمد فبعث خوارزم شاه الى الخطا وهم بما وراء النهر يطمعهم في البلاد وزوج عليهم أمرها وحثهم على قصد مملكة سنجر فساروا في ٣٠٠٠٠٠ فارس وسار اليهم سنجر في عساكره فالتقوا بما وراء النهر واقتتلوا أشد قتال وانهزم سنجر وعساكره وقتل منهم ١٠٠٠٠٠ قتيل وأسرت زوجة السلطان سنجر واستمر سنجر منهزما الى ترمذ وسار منها الى بلخ ولما انهزم سنجر قصد خوارزم شاه خراسان وجاس فيها وقتل أهل كل مدينة توقفوا في تسليمها اليه مثل مرو ونيسابور وغيرهما وكان السلطان سنجر لم يزل مسعودا الى هذا الوقت لم تنهزم له راية ولما تمت عليه الهزيمة أرسل الى السلطان مسعود ابن أخيه وأذن له في التصرف في الري وما يجري معها على قاعدة أبيه السلطان محمد وأمره أن يكون مقيما فيها بعساكره بحيث ان دعت حاجة استدعاه لاجل هذه الهزيمة فوصل عباس صاحب الري الى بغداد بعساكره وخدم السلطان مسعود خدمة عظيمة وسار الى الري امتثالا لامر عمه سنجر ثم بعد قليل عاد سنجر الى بلاده وصار له قوة كما سيذكر بعد

وفي سنة ٥٤٨ من الهجرة في أولها انهزم السلطان سنجر من الاتراك الغز وهم طائفة من الترك مسلمون كانوا بما وراء النهر فلما ملك الخطا وكانوا كفارا أخرجوهم من البلاد التي تغلبوا عليها فقصدوا خراسان وكانوا خلقا كثيرا وأقاموا بنواحي بلخ يرعون في نواحيها ومراعيها وكان لهم أمراء منهم دينار وبختيار وطوطي وأرسلان وغيرهم فأراد الامير قماج ملتزم بلخ ابعادهم من بلاده فصانعوه بشيء بذلوه له فعاد عنهم فأقاموا على حالة حسنة لا يؤذون أحدا ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ثم ان قماج عاودهم وأمرهم بالانتقال من بلده فامتنعوا وانضم بعضهم الى بعض واجتمع معهم غيرهم من طوائف الترك فسار قماج اليهم في رأس ١٠٠٠٠ فارس فجاء اليه أمراؤهم وسألوه أن يكف عنهم ويتركهم في مراعيهم ويعطونه من كل بيت مائتي درهم فلم يجبهم الى ذلك وشدد عليهم في الخروج من بلده فعادوا عنه واجتمعوا وقاتلوه فانهزم قماج ونهبوا ماله ومال عسكره وأكثروا القتل في العسكر والرعايا واسترقوا النساء والاطفال وعملوا كل عظيمة وقتلوا الفقهاء وخربوا المدارس وانتهت الهزيمة بقماج الى مرو وبها سنجر فأعلمه بالحال فراسلهم سنجر يتهددهم وأمرهم بمفارقة بلاده فاعتذروا وبذلوا له بذلا كثيرا ليكف عنهم ويتركهم في مراعيهم فلم يجبهم الى ذلك وجمع عساكره من أطراف البلاد واجتمع معه ما ينوف عن ١٠٠٠٠٠ فارس وقصدهم ووقع بينهم حرب شديد فانهزمت عساكر سنجر وانهزم هو أيضا وتبعهم الغز قتلا وأسرا وقتل قماج وأسر السلطان سنجر ومن معه من الامراء فأما الامراء فضربوا أعناقهم وأما السلطان سنجر فان أمراء الغز اجتمعوا وقبلوا الارض بين يديه وقالوا والله نحن عبيدك ولا نخرج عن طاعتك فقد علمنا أنك لم ترد قتالنا وانما حملت عليه فأنت السلطان ونحن العبيد فمضى على ذلك ثلاثة أشهر ودخلوا معه مرو وهي كرسي ملك خراسان فطلبها منه بختيار اقطاعا فقال السلطان هذه دار الملك ولا يجوز أن تكون اقطاعا لاحد فضحكوا منه وحنق له بختيار فلما رأى ذلك نزل عن

سرير

مطلب تغلب الغز

سرير الملك واستولى الغز على البلاد وظهر منهم من الجور ما لم يسمع بمثله وفي هذه المدة غلب كل واحد من الغز على ناحية من خراسان يأكل من دخلها ولا رئيس لهم يجمعهم فهرب السلطان سنجر من أسر الغز من بعد أن لبث في الأسر أربع سنوات في ضيق حال هو وجماعة من الامراء الذين معه وساروا الى قلعة ترمذ واستظهروا بها على الغز وسار سنجر من ترمذ الى جيحون يريد العبور فأقبل عليه الاتراك القازغلية من بعد موت أميرهم على بك وكان أشد شيء على سنجر وكذلك غيرهم من الامم من أقاصي البلاد ودانيها وعاد الى ملكه بمرو وفي سنة ٥٥٢ من الهجرة توفي السلطان سنجر أي في سنة ١١٧٥ بعد الميلاد أصابه قولنج ثم بعده اسهال فمات منه واستوطن مدينة مرو ودخل بغداد مع أخيه السلطان محمد واجتمع معه بالخليفة المستظهر بالله فعهد الى محمد بالسلطنة وجعل سنجر ولي عهده فلما مات محمد خوطب سنجر بالسلطان واستقام أمره وأطاعه السلاطين وخطب له على أكثر منابر الاسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة وكان قبلها يخاطب بالملك عشرين سنة ولم يزل أمره عاليا وحده مترقيا الى أن أسره الغز كما سبق ذكره ثم انه خلص بعد مدة وجمع اليه أطرافه وكاد يعود اليه ملكه فأدركه أجله وكان مهيبا كريما رفيقا بالرعية وكانت البلاد في زمانه آمنة ولما مات دفن في قبة بناها لنفسه سماها دار الآخرة وكان سنجر آخر ملوك البيت السلجوقي وأما طغرول الثالث الذي بموته انقرض الفرع السلجوقي الفارسي فقتله خوارزم شاه وكان اقتحم في ميدان المحاربة وهو سكران الآن هذه القبيلة كانت انتشرت في آسيا الصغرى ومنهم ملوك قونية المعروفون في التاريخ الغربي لآسيا ومن بعد سقوط العائلة السلجوقية الى أن فتح مملكة فارس هلاكو خان حفيد جنكيزخان مدة تنيف عن نصف قرن تدمر القسم الاعظم من هذه المملكة بواسطة محاربات جرت بين ملوك صغيرة أطلق عليهم اسم الاتابكية وهذه اللفظة مركبة من كلمتين أتا ومعناها وصي أو مربي وبك ومعناها سيد أو أمير وكان هؤلاء شيدوا أنفسهم وأقاموا لهم سلطنات عندما رأوا أن المملكة آخذة في الهبوط والظاهر أن هؤلاء هم الغز المتقدم ذكرهم وكانت مدتهم محزنة كئيبة وكانت حالة المملكة كل يوم في حال وتغير أهوال من تسلطن الزعازع والعواصف وخراب البلاد وهلاك العباد وزاد ذلك وحلة على وحله خروج جنكيزخان كصواعق انقضت على آسيا حتى غرق أراضيها بدماء أهلها ولا يمكن وصف ما أوقعه جنكيزخان من خراب مدائن فارس وتبعه السلطان محمد سلطان خوارزم وكان جنكيزخان هذا ابن خان صغيرا وكان فارق بلاده وسار الى نواحي تركستان وسير جماعة من التجار والاتراك ومعهم شيء كثير من النقود والنقرة الى بلاد ما وراء النهر سمرقند وبخارا ليشتروا له ثيابا للكسوة فوصلوا الى مدينة من بلاد الترك تسمى أوترار وهي آخر ولاية خوارزم شاه وكان له نائب فيها فلما وردت عليه هذه الطائفة من التتر أرسل الى خوارزم شاه يعلمه بوصولهم ويذكر له ما معهم من الاموال فبعث اليه خوارزم شاه يأمره بقتلهم وأخذ ما معهم من الاموال وانفاذه اليه فقتلهم وسير ما معهم وكان شيأ كثيرا فلما وصل الى خوارزم شاه فرقه على تجار بخارا وسمرقند وأخذ ثمنه منهم ولما وصل الخبر الى جنكيزخان انقض في رأس ٧٠٠٠٠٠ من عساكر المغول على البلاد مثل سحاب استدبرته الريح وكنسوا وادي الصغد الغني الثروة وأخذوا وأحرق وهدم في أثناء سيره مدائن بخارا وسمرقند وخوقند وأوترار ومرو وبلخ ومدائن أخرى كثيرة وخربوا خراسان ونهبوا مدائنها وذبحوا أهلها وهدموا نيسابور وروسوا أبنيتها بالارض وسفكوا دماء أهلها وقد روي أن الحصان ما كان يمشي

خروج جنكيزخان

فى شوارعها خطوة الا ويعثر من كثرة الرمم وصار تقدير الذين قتلوا فيها بما فيهم من أهالى البلاد والقرى المجاورين لها الذين التجؤا فى داخل أسوارها فبلغ عددهم نحو من ١٧٤٧٠٠٠ نفس وأما عدد الذين قتلوا فى مرو وهراة وبغداد فقد ذكر مؤرخو الشرق أعدادا لا يمكن التصديق بها حتى صارت أقاليم فارس من ابتداء بحر الخزر الى الخليج الجنوبى ومن نهر تيجان الى نهر الدجلة متسلطن فيها الدمار والخراب وعاقب جنكيزخان المحلات التى تأخرت عن فتح أبوابها عند أول اعلان لهم بأشد العقاب والعذاب ومن قبل توقيف حركته هذه بالموت ومن بعد أن شبع بالدماء استيقظ من منام جنونه الذى تولد منه دمار هذه البلاد وقتل أهلها من العباد ورغب فى اعادة ما أمر بتدميره الا أنه لم يجد وقتا يساعده على مرغوبه ووصى لاولاده بالممالك القفرة التى خربها فوقع من قسم هولاكو حفيده مملكة فارس وتمام خضوعها فسار حفيده رأس المغول فى رأس جيش قدره ١٢٠٠٠٠ فارس و ١٠٠٠ عائلة من الصينيين من أرباب الصنائع والمهندسين من قلعة الموت وأصلها قلعة اله موت ومعناه تعليم العقاب وكان تغلب على هذه القلعة نحو القسطنطينية وكان معه نصر الدين الفلكى المشهور فلما قرب من بغداد استشاره نصر الدين فى عدم الغلبة على مدينة المؤمنين وهى الوطن الباهر لعائلة العباس فلم يلتفت هولاكو الى قوله ومحق الطيف الخيالى الذى كان باقيا فى هذه العائلة التى كانت صاحبة الشوكة والمجد والسعادة وأنزل عليها سيل الدمار وغرقت أطلال بغداد بدماء أهلها وسكانها وانتقلت مملكة الخلفاء الى أيدى أحد المتوحشين وتغلب على فارس وأقاليمها فى سنة ١٢٥٨ بعد الميلاد

مطلب هولاكو وابنه ومحمد خودابنده

ومع أن هولاكو كان معدودا من المتبربرين المتوحشين الذين كانت أيامهم مشحونة بالدمار والخراب والقتل والنهب الا أنه ما كان له طاقة على اغماد سيفه فى قمع المعارضين له وجعل هولاكو مركز مملكته ومقر سلطنته مراغة من أعمال أذربيجان ومن هذا الوقت صار تاريخ المملكة خاليا من الحوادث والوقائع وتمتع هولاكو بسلطنته وبالآداب والعلوم وصرف أوقاته وساعات راحته فى محادثة الفلاسفة والعلماء وأما العالم نصر الدين وكان خلصه من حبوس الاسماعيلية فانه حثه على بناء محل رصد للكواكب فابتنى هولاكو دار الرصد فى مدينة مراغة وصار له دراية تامة ومعلومية كاملة فى علم الفلك مع نصر الدين حتى حسبوا الجداول الفلكية المعروفة بجداول الخانى وهو لقب هولاكو حفيد جنكيزخان وصارت جداول نصر الدين وأولغ بك مرعية لحد الآن وبها درج أطوال وعروض الجهات لم يصل أرباب الرصد من أهل أوروبا الى تعيينها لحد الآن ومات هولاكو ودفن فى مدينة مراغة وجلس من بعده ابنه ابغاخان وكان متنورا بالذكاء والعدل والعقل وكان كريما حليما رؤفا على رعيته ومازالت أحوال السلاطين جارية على حالة من الهدو والسكون وفى هذه المدة ظهر غازان خان فدون القوانين والشرائع المشهورة لحد الآن فى الشرق ومن بعده ابنه محمد خدابنده واشتهر هذا بأنه أول ملوك فارس وأشهر نفسه أنه من شيعة على رضى الله عنه وابتنى مدينة سلطانية ولم يزل قبره بها لحد الآن ومن ابتداء موته لحد فتوح تيمور كان تاريخ مملكة فارس لا يشتمل الا على ثورات وغاغات وجرائم وقبائح وقتل وربما كانت تولد منها دمار المملكة وخرابها

مطلب تيمورلنك

وفى سنة ١٣٩٣ بعد الميلاد انبثق الفاتح الكبير تيمور أو تيمورلنك فى مملكة فارس وأخضع المملكة مع السرعة لطاعته وكان ظهور تيمور من الاقاليم الصيطيانية (التتار) التى هى محل مسقط رأس الشجعان والفرسان وكان ينسب نفسه للفرع الذى منه جنكيزخان الا أن عمود نسبه منسوب الى

قره شارناويانى وزير زغطاى خان بن جنكيزخان وتولد من شجاعته وشهامته فى مبدا شبابه كونه اشترك فى حروب الوقت حتى تقلد بالنسبة لشرف مولده وانه هو الامير الوارث على قبيلة الكيش وظيفة قائد ١٠٠٠٠ فارس من طرف الخان الاكبر وما كان عمره بلغ خمسا وعشرين سنة لحد هذا الوقت ولما ألزم خلفاء تيمور طغليق ملك كاشغر وتركستان فيما وراء النهر كافة الامراء بالحروب أو الانقياد لهم ظهرت شجاعة الفاتح فى المستقبل فى ميدان الحروب ومن ابتداء هذا الوقت عرض حياته لميدان مشروعات الاخطار والاهوال أو النصر والظفر واستمر فى حروبه حتى أخرج أعداءه من بلاده وديار قومه ولما بلغ عمره أربعا وثلاثين سنة دعى مخلص بلاده ومنقذ قومه الى أن صار هو الحاكم الاكبر والسلطان الاعظم فى مجلس عام عقد فى عاصمة زغطاى من كافة أهل المملكة الزغطانية ووضع بيديه على رأسه تاجه الذهب وتمنطق بالمنطقة الملوكية ونثر عليه الامراء والاعيان وحكام المملكة الذهب والجواهر وحيوه بتحية ملك الوقت وفاتح الدنيا فلم يقبل تيمور مع الادب وحزم الرأى والخضوع هذه الالقاب واكتفى بلقب أمير وصار معروفا لحد الآن فى الشرق بهذا اللقب ومن صبره وتيقظه وأخذه الاحترازات فى مدة الحروب صار على دراية تامة فى سوق الجيوش وتدبير الحركات الحربية والشجاعة وحزم الرأى والاقدام على مصاعب الامور وانتهاز الفرص فى الاعمال اللازمة لزيادة شوكته واحكام مملكته ونقل عنه أهل بلاده أن تيمور قال بنفسه فى مجلسه انى كنت ذات يوم أخفيت نفسى عن أعدائى فى خرابات بناء قديم وبينما أنا جالس بمفردى فى هذا المكان أدبر نفسى فيما يحصل لى من عدم المساعدة وقطع الامل من حالتى اذ حققت نظرى من غلة كانت حاملة حبة من الذرة أكبر منها صاعدة بها الى قمة حائط فوقعت الحبة منها فعادت وأخذتها وصعدت بها فوقعت منها فعادت اليها فعددت لها تسعا وستين مرة وفى المرة السبعين أخذت الحبة وتمكنت منها وصعدت بها الى أعلى الحائط فلما رأيت ذلك قويت نفسى ولم أنس مدة حياتى هذه التذكرة التى أرسلت الى من عند الله

وقال تيمور كنت معسكرا فى ضواحى بلخ مع قوة قليلة معى ومن بعد أن استمريت فى الخفر طول الليل محييا ليلتى بالقراءة والصلاة والفكر والاشتغال انقضى الليل ولاح الفجر فقمت وصليت ودعوت الله سبحانه وتعالى أن ينقذنى ويخلصنى من هذه العيشة التى أنا فيها من رحيل ونزول وسفر وأتعاب ومشاق ومن قبل أن أتم دعائى رأيت على بعد جماغفيرا من الناس مروا على صف واحد فى طول الجبل فركبت حصانى وسقت خلفهم لاعرف حالتهم ومن أى الجهات هم وكانوا سبعين فارسا فسألتهم وقلت لهم من أنتم أيها الفوارس ومن أى الجهات أنتم فقالوا لى نحن خدم الامير تيمور ونحن مجرون البحث عليه فما استدللنا عليه ولا وقفنا على مكانه فقلت لهم ماذا تقولون لو دللتكم عليه وأوصلتكم اليه فركض واحد منهم حصانه بسرعة وذهب وأخبر القواد وقال لهم نحن وجدنا من يدلنا على الامير تيمور ويوصلنا اليه فدار القواد سروج خيلهم وأمروا أنى أحضر أمامهم وكانوا ثلاثة عساكر فكان القائد الاول منهم طغليق خوجه والثانى الامير سيف الدين والثالث طبوق بهادر وبمجرد ماوقع بصرهم على انشرحت صدورهم ونزلوا جميعا من فوق خيولهم وجثوا على ركبهم وقبلوا ركابى فى السرج فنزلت أنا أيضا من فوق حصانى وأخذتهم بالحضن والاعتناق ووضعت عمامتى على رأس طغليق خوجه ومنطقتى المرصعة بالجواهر فى وسط الامير سيف الدين ونزعت ملابسى وألبستها طبوق بهادر فبكوا جميعا وأنا بكيت معهم أيضا ولما حضر وقت الصلاة صلينا جماعة وجمعت قومى وعملت لهم وليمة عظيمة

وبواسطة ما حازه تيمورلنك من الخصال الجيدة التي جلبت اليه قلوب العساكر التركمانية الخشنة استحوذ على حقيقة نجاحه ومقصده ونواله ولما ازداد ثناء أهل بلاده عليه علت سطوته وازدادت شوكته وساق عساكره من اقليم الى اقليم ومن بلد الى بلد حتى داس الملوك تحت رجليه وأباد جيوشهم وشتت شملهم وهدم المدائن وجعل السهول الخصبة صحارى قفرة وسار من شطوط نهر الارطيش الى أبواب مدينة موسكو وأخضع جميع بلاد التتار وتسلق جبال الهند وانقضت عساكر المغول من فوق رؤس هذه المناطق الارضية كانقضاض النسور على الاقاليم العظيمة الهندية وغرقوا أرضها بدماء أهلها وحرقوا الهياكل وكسروا الاصنام وغيروا حالة البلاد ولما أوقع تيمور بالبلاد الهندية المصائب والدمار عاد عنها راجعا مع السرعة تاركا خلفه أرضها الخربة وصحاريها المقفرة وكان تغلبه بعد الهند على فارس وأرمينية وسوريا وآسيا الصغرى وجرجستان والقوقاس من أشد الاحوال وأصعب الاهوال وكان السلطان بايزيد جالس على تخت أبيه عثمان وكان ملكا مستحوذا على أقاليم شاسعة فحصل بينه وبين هذا الجبار واقعة في نواحي أنقرة كانت نتيجتها هزيمته عساكر بايزيد وأسره تحت يد تيمور ورأى تيمور نفسه في الدنيا الغريبة من غير عدو ولا خصم حالما أسر عدوه بايزيد العثماني

وكانت مملكة فارس في هذا الوقت مقسومة الى ايالات صغيرة ليس لها طاقة على مقاومة تيمور وعساكر التتار فخضع غياث الدين سلطان خراسان من بعد أن صارت محاصرته في هراة وفتحت نيسابور وسبزوار أبوابها ونجت من مصابها وعذابها ونهب تيمور المدائن الاخرى التي حصل منها مقاومة له في تسليمها اياه ودمرها وقتل أهلها وفتح قلاع كلات الحصينة ومال سلطان مازوندران الى الطاعة والخضوع وأرغم تيمور خراسان وسيستان الى الطاعة والانقياد الا أن الاهالي لما وجدوا أول فرصة لهم قاموا في ثورة وخرجوا عن الطاعة فسار اليهم تيمور وعاملهم بكل قطاعة وشناعة وتولد من تيمور وعساكره التتارية خسارة البلاد وقتل العباد وصارت الرمم آكاما والرؤس أهراما وأرسل الملك والامراء والاعيان أسارى الى سمرقند وأسر من كان عاصيا عليه في مكران وتغلب على قندهار وكلات بالهجوم عنوة وأما الافغانية القاطنون في جبال سليمان فانهم من بعد أن أطاعوه وخضعوا له نقضوا طاعته وخرجوا عن سلطنته فتوجه اليهم ودمر بلادهم وقتل رجالهم وسبى نساءهم وأطفالهم ونهب الرها ونجت مدينة سلطانية بنفسها بدفع خراج قدرته له وخضعت مدينة سارى وعمول فنجت أهاليهما من عذاب تيمور وبطشه وأخضع العراق وهدم قلاعها وصارت أذربيجان ميدانا لسفك الدماء والنهب والسلب وذكر بعض المؤرخين أن تيمور وعساكره لما قربوا من مدينة بغداد لاجل التغلب عليها أرسلت بطاقة مع حمامة من القبة الابراملقية وهي محل مزار على مسافة سبعة وسبعين فرسخا من مدينة بغداد في الجهة الشمالية الغربية منها وكانت هذه البطاقة من طرف حاكم الجهة ينذر السلطان ومن معه بحصول الخطر والضرر فنقل السلطان أحمد الخاناني عائلته وسار الى الجهة الجنوبية من نهر الدجلة وكسر الجسر المصنوع من المراكب على الدجلة وأمر بتغريق المراكب ولما كشف تيمور حالة البطاقة أمر حاكم الجهة بارسال بطاقة أخرى للسلطان بأن ما حصلت الاشاعة عنه لا صحة له وتولد من هذه الحيلة اغفال السلطان عن المراقبة وان لم يغفل عنها عساكره وخفره فجد تيمور مسرعا في سيره وسار نحوا من ثمانين ميلا من دون أن يقف برهة لاخذ الراحة حتى وصل هو وعساكره الى شواطئ نهر الدجلة في صباح يوم ٥ سبتمبر سنة ١٣٩٣ بعد الميلاد وكان السلطان مستعدا راكبا على ظهر حصانه ناظرا الى جهة الشرق

فسمع

فسمع نعيق القرون وضرب الطبول ورأى كثرة عساكر لا يحصى عددها اسود منها السهل والوعر وتتابعت طوابير العساكر بعضها وراء بعض ودخلوا فى النهر السريع الجريان من دون وقوف كأنهم فى حركة على الارض واقتحموا النهر من فوق المدينة ومن أسفل منها ومن كل منفذ وصار لا فرق بين المياه والارض الجافة واستترت المياه والارض بازدحام هذا الجيش الكثيف ووقف الاهالى ينظرون ويستغربون ويعضون على أصابعهم ويسأل بعضهم بعضا ما هذا العالم وما شأنه ويطلبون من الله العون والحماية من مثل هؤلاء الناس أهل الجراءة والاقدام ولما رأى السلطان هذه الحالة التى أفزعته هرب فى الحال وتبعه قسم عظيم من عسكر تيمور تحت قيادة شجعان ضباطهم وطاردوا السلطان طول النهار والليل وفى صباح اليوم التالى رأى الطاردون من عساكر تيمور أنفسهم على شواطئ نهر الفرات فعبره بعضهم بالقوارب وبعضهم بالعوم غير أن قوة الخيل ما كانت معادلة لحية ركابها وتعب جميعها ما عدا خمسة وخمسين من أجود الخيول كان راكبا فوقها الامراء والقواد وألفانفس من الشجعان أدركوا السلطان ومن معه فى مرج كربلاء المشهور فوقف لهم السلطان وعساكره وصاروا يضربون عليهم بالنشاب والحراب واستمروا معهم فى حرب وضرب حتى صار الضرب يدا بيد وقتل كثير من الطرفين ورجع التتار وهرب السلطان مع نفره ولم يجد بسلامة نفسه وترك ميدان الحرب وسفك الدماء الى التتار ولا لزوم فى هذا المختصر لتتبع مفصلات حكايات تيمور ولما أحس تيمور باشرافه على الموت فى سنة ١٤٠٥ بعد الميلاد وصى بمملكة زغطاى الى حفيده بير محمد بن جهانكير مرزه الابن الاكبر لتيمور فحصل بين هذا الامير وبين ابن عمه السلطان خليل بن ميرانشاه مرزه الابن الثالث لتيمور مشاحنات وحروب انتهت بموت بير محمد ووقع خليل أضحية فى حب وغرام الجميلة شاه الملك وكانت امرأة من أجمل النساء خصالا وجمالا وصرف عليها خليل الاموال والخزائن الكثيرة التى كان جمعها جده وكانت أعظم صديق له ومحبة فيه ولما مات ضربت نفسها بخنجر فماتت ودفنت معه فى قبر واحد فى الرها وذلك أن البارشاه مرزه أصغر أولاد تيمور وكان فى مدة حياة أبيه حاكم خراسان قتله وصار سلطانا وما كان لهذا السلطان غرام فى الفتوحات والحروب بل عكف نفسه على اصلاح ما دمرته وخربته حروب السلطنة الاولى فأعاد بناء هراة ومرو وصار ديوانه الجميل مركز الفلاسفة ومقر العلماء والشعراء وكانت حروبه المهمة مع عصاة التركمان فى آسيا الصغرى حتى أخضعهم لطاعته وقادهم لحكومة سلطنته

ومن بعد أن جلس أولغ بك بن شاه رخ وكان على دراية من العلم وعلى الخصوص العلوم الفلكية فكانت سلطنته مشهورة بجمعيات علماء الفلك الذين كان يدعوهم الى ديوانه من أقصى بلاده وحسب الجداول الفلكية المشهورة باسمه ولم تزل مرعية لحد الآن ثم خلع وقتل فى سنة ١٤٤٩ بعد الميلاد وخلفه ابنه عبد اللطيف وهذا قتله عسكره من بعد مضى ستة شهور من سلطنته وصارت مملكة فارس مرة أخرى عرضة للقلاقل والاختلالات الداخلية الحاصل وقوعها عند هرم وشيخوخة وسقوط كل عائلة أودولة وآلت النتيجة فى آخر الامر الى أن وقعت المملكة الفارسية فى أيدى ثلاثة ملوك كل منهم على حدة من الآخر فمنهم السلطان حسين مرزه من ذرية تيمور كان له ديوان مفتخر فى هراة وكان سلطانا على خراسان وقره يوسف ويلقب برئيس تركمان النعاج السود وكان مستحوذا على أذربيجان والعراق الفارسى وفارس وكرمان وأزون حسن الملقب برئيس تركمان النعاج البيض وكان مستحوذا على

أرمينية وعراق الجزيرة وقسم من آسيا الصغرى ولما صار له جميع فارس الغربية هجم على السلطان العثمانى محمد الثانى فانهزم شر هزيمة وانتهى مشروع مطامعه واكتفى أولاده أولاده أولاده وأولاد اخوته باراضيهم وممالكهم الا أن مدة سلطنتهم كانت قصيرة بواسطة قيام دولة جديدة أقوى منهم شوكة ولما خربت مملكة فارس الخراب الطويل من المظالم والجور الحاصل من الاجانب ومن الاختلالات الداخلية حصل لها أخيرا الظفر والنجاح والتوفيق بان صارت تحت شوكة وسلطنة واحد من أهلها

مطلب الدولة الصوفية

وذلك انه كان بمدينة أردبيل من أعمال أذربيجان ولى من أولياء الله اسمه الشيخ صفى الدين كان تقيا نقيا زاهدا من ذرية الامام موسى الكاظم الامام السابع فمن بعد موته جلس على سجادته ابنه صدر الدين فزاد اعتقاد الناس فيه حتى زاره الملوك والسلاطين فى خلوته ولما وصل تيمور الى هذه الجهات توجه أيضا لزيارته والتماس بركته فقال له الشيخ صدر الدين أفلا استكفيت بما أعطيت أعطنى هؤلاء الاتراك الذين أخذتهم أسرى فما كان لتيمور جواب الا أن سمح خاطره بقبول طلب الشيخ وأمر بتسليمهم الى خدمه فكساهم الشيخ وفرق فيهم هدايا من بعض خيراته وأخلى سبيلهم فجعل القبائل الذين كان هؤلاء الاسرى ينسبون اليهم أنفسهم أتباع الشيخ وحماة دياره وذكر فى زينة الطريق أن أسماء السبع قبائل الذين تميزوا فيما بعد بغطاء الرأس بعمامة أو ملبوس مخصوص ولقبوا بلقب قزلباشية هم قبائل أوتاجلو والشاملو ونيكالو وبهارلو وذو القدر وكجر والافشر واستمر أولادهم على ما كان عليه آباؤهم من الخضوع والخشوع والاحترام وصارت ذرارى أسرى تيمور معاضدين لعائلة الشيخ صفى الدين حتى أمكن لولد متعبد فى خلوة أن يجلس على أعظم التخوت الباهرة فى الدنيا

وكان السلطان حيدر النسل الخامس من ذرية الشيخ الصوفى ودمه مخلوط من دم صاحب الشوكة أزون حسن رئيس تركمان النعاج البيض هو أول من نال الدولة والشوكة الدنيوية الا انه مات فى مشروع كان أجراه على شيروان وقبره مشهور ويزار لحد الآن فى مدينة أردبيل وقتل يعقوب من ذرية أزون حسن السلطان على خليفة حيدر وفى سنة ١٤٩٩ بعد الميلاد وقال آخرون فى سنة ١٥٠٤ من موت يعقوب ببضع سنين قام اسماعيل الابن الثالث لحيدر من بنت أزون حسن وساق أتباعه وعمره أربع عشرة سنة وهزم العدو المتغلب على مملكة بيته وهو السلطان شيروان ولازمته السعادة هو وعسكره فى واقعتين مع ملوك النعاج البيض حتى جعل نفسه سيد أذربيجان ثم فى حرب تالية تغلب على العراق وفى ظرف أربع سنوات من ابتداء خروجه الى ميدان الحروب خضعت الى سلطنته كامل مملكة فارس ولما كان اسماعيل ليس من أبناء أحد رؤساء القبائل حتى يكون عرضة لحروب ومشاحنات انتظامية تقع عليه من أى قبيلة وما كان تحت غرض عدوانى تولد من هذا أن صار موقرا محترما عند عموم القبائل والعشائر ولما دخل فى عقائد الشيعة وكان أهلها أقل شوكة وأقل اعتبارا فى المذهبين الكبيرين الاسلاميين اتحد الشيعة وصاروا جامعة واحدة وقويت فى التعصب شوكتهم الا أن اسماعيل تجنب تعصب أتباعه وجعل المحافظة على نفسه فى الاعتكاف والعبادة تحت ملازمة القبيلة السابعة القزلباشية وأعد أهل هذه القبيلة رجالهم وسيوفهم فى سبيل المدافعة عن مليكهم ودينهم ومن ثم سار ابن الشيخ الصوفى من غير مبالاة فى اجراء أعماله المنصورة واستمرت السعادة باسمه له ولعساكره وجيوشه مدة خمس عشرة سنة فخضعت له بغداد وبوابها وطرد

الازابكة من خراسان وقتل أميرهم الفارس شاهبانى خان واعترفت بلخ بسلطنته ومابقى له الاعدو واحد مهول يلزمه المقابلة معه فى ميدان الحرب (وهو السلطان سليم العثمانى) وهذا السلطان عند مااشتعلت فى رأسه نار الغيرة سار من القسطنطينية بخصوص هشم وحطم الشوكة والدولة القائمة فى مملكة فارس فتقابل الجيشان على حدود أذربيجان ومع ما كان فيه اسماعيل من الاحتراز وتدبير الحركات العسكرية فانه انهزم ولو أن خصمه لم يتحصل منه على ما كان عازما عليه من نصرته نصرا حقيقيا على اسماعيل الا أن الهزيمة كانت من أصعب الامور على اسماعيل حتى انه ماروئى بعدها يضحك أو يتبسم بالضحك

وبمجرد موت السلطان سليم عبر ابن حيدر نهر عراس وأدخل جورجستان فى طاعته ومن بعد ذلك بقليل مات سنة ١٥٢٣ من بعد الميلاد فى مدينة أردبيل تاركا لنفسه الذكر الجميل عند الفرس لانهم جعلوا أنه هو المخلص لبلادهم والمؤسس لعائلات ملوكهم الكبيرة الاسلامية ومعيد دينهم وهى العقائد الشيعية

وخلف طماسب أباه على كرسى السلطنة وكان عمره وقتئذ عشر سنوات ومكثت سلطنته مدة طويلة قدرها ثلاث وخمسون سنة وكانت على غاية من الفلاح والنجاح ولو أنها كانت مضطربة الاحوال فى مبادى أمرها بواسطة ماحصل من الثورات التعصبية من رؤساء القزلباشيه وكبرائهم والغارة على المملكة بالازابكة من الجهة الشرقية وبالعثمانيين من الجهة الغربية فانتصر طماسب على كل من هؤلاء المغيرين والثائرين ووطد مملكته وأثبت قواعد أساساتها واستقبل مع الاحترام والاجلال السلطان همايون سلطان الهند عندما التزم الهرب من قيام أشراف مملكته عليه وسنذكر همايون هذا فى تاريخ الممالك الهندية فى الجزء السابع من هذا التاريخ ان شاء الله تعالى وبمساعدة طماسب للسلطان همايون صارله قدرة على عود تخته اليه مرة ثانية وكذا اقدم فى مدة سلطنته انطونى زنكنسن أقدم واحد انكليزى تجاسر ودخل مملكة فارس وزار ديوان طماسب أشبه بسفير من طرف الملكة اليزابث ملكة انكلتره الا أن تعصب هذا السلطان فى دينه ألزمه طرد هذا النصرانى من حضوره أمامه

وكانت أولاد السلطان طماسب وعائلته كثيرى العدد وكل واحد من أولاده سعى وكدّ فى تيسر الحصول على التاج ومن ثم كان لايوجد فى مدة سلطنتهم الا محفوظات قليلة الاهمية فأما حيدر واسماعيل ومحمد أولاده فقد انقضى نحبهم وأما حمزة مرزا ابنه فانه قتل مذبوحا وفى آخر الامر ظهر طالب جديد للتخت معضد باثنين من أرباب الشوكة من رؤساء القزلباشية وهو عباس الاخ الاصغر لحمزة مرزه المقتول وكان عباس هذا فى مدة صغره موظف حاكم فى خراسان وأتابكه على خولى خان شاملو وفى هذه الاثناء حرضه الامراء بجهة خراسان بعد أن جعلوه ملكا عليهم فى سنة ١٥٨٢ بعد الميلاد وألزموه بحمل السلاح وقود الجيوش مخالفا لابيه حتى جلس على كرسى المملكة فى سنة ١٥٨٧ بعد الميلاد وسار نحو العراق محاربا لاخيه السلطان محمد فخضعت له قزبين وترك عساكر السلطان محمد سلطانهم وصار محمد هذا لاذكر له فى التاريخ ومازالت تعديات الاجانب والارتباكات الداخلية متسلطنة فى المملكة فخرب الازابكية من جهة والعثمانيون من جهة أطراف المملكة ودمروها وارتبك الرؤساء الواقعون فى عداوات فيما بينهم ومشاحنات وحروب باسم مليكهم ولما رأى ذلك عباس أظهر نفسه

وخلع طاعته للامراء وفى ظرف ثلاث سنوات عكف فيها بنفسه على أشغاله حتى استحوذ على دولة لامنازع له فيها وكان ملكا شهما قوى الشوكة على أعدائه وصاحبه الظفر والنجاح التام حتى حفظ مملكته من غارات الاتراك العثمانية وهزم جيشهم هزيمة فاصلة بقوة مقدارها ٦٠٠٠٠ فارس وكان جيش العثمانيين مؤلفا من ١٠٠٠٠٠ مقاتل ولم تعقب هذه النصرة فى مدة سلطنة عباس صد العثمانيين عن مملكة فارس فقط بل أضاف جميع أملاكهم الموجودة على بحر الخزر وأذربيجان وجورجستان وكورديستان وبغداد والموصل وديار بكر الى مملكته وألزم فى الجهة الشرقية الازابكة على الدخول فى طاعته والانقياد لسلطنته وخلصت خراسان من غاراتهم وتخريباتهم وفى مدة سلطنته عقدت علاقات تجارية مع انكلتره وصار طرد البورتكيز من مدينة هرمز وأباح عباس جميع المذاهب الديانية فى مملكته وكان محبا صادقا لبعض المسيحيين الذين جاؤا الى مملكته وكان يصرف مدخوله فى اصلاحات مملكته كبناء الخانات والقناطر وانشاء الطرق ومجارى المياه والاسواق والجوامع وشيد المكاتب والمدارس فى كل جهة من جهات مملكته وحلى أصبهان عاصمة مملكته بانواع الابنية الظريفة وزخرف مدينة مشهد بالابنية الجليلة ويظهر من أطلال وخرائب سرايات فرح ابادفى مازوندران وسراية الاشرف فى استراباد الموجودة آثارها لحد الآن ما كان عليه عباس من ذوق الاشغال وعلو الجد وكان شديد الحزم فى ادارته العدلية وفى السنى الاخيرة من سلطنته عوقب فجأة بالاكدار وشدة العذاب ووقع عنده الشبهة والارتياب فكان جبارا شديدا وظالما قاسيا على عائلته وقتل ابنه الاكبر فى تهمة اتهمه فيها بانه عاص عليه وسمل أعين الباقين من أولاده ومات فى سنة ١٦٢٨ بعد الميلاد ومن بعد موته ضعفت شوكة العائلة الصوفية بالكلية وفى ظرف نحو قرن لم يسجل فى تاريخ فارس اسم أحد من ملوك أهلها وفى سنة ١٧٢٢ بعد الميلاد أغار الافغانية على فارس وأخضعوا المملكة وتغلبوا على أصبهان وأقاموا فيها عائلة من عائلاتهم فكان أول ملك من الملوك الافغانية محمود غيلزى ابتدأت سلطنته بذبحة فظيعة عامة فى رجال أصبهان وانتهت بجنون وخبل حصل له وحكم الافغانية فارس سبع سنوات كانت جميعها مدة جور وظلم فاحش وفى سنة ١٧٣٠ بعد الميلاد قام نادرشاه رئيس القبيلة الافشارية وحمل السلاح ووجه قصده ورغبته لطرد الافغانية من كافة جهات فارس واحياء وراثة ابن الملك الاخير من العائلة الصوفية فأسرعت الامة أفواجا تحت بيرقه فهزم الافغانية فى عدة وقائع حربية ودمرهم وأباد عساكرهم ولم يبق منهم باقية واستدل نادرشاه على آخر ملك منهم وكان شارعا فى الهروب من مملكة فارس فضبطه وقتله ومن ثم انقشع الضباب القبيح الذى كان مخيما على فارس مدة سبع سنوات وقلب أقاليمها الخصبة الى صحار مجدبة ومدائنها الجليلة الى خربات وأطلال وأهدر فيها دماء ملايين من أهلها

وفى سنة ١٧٣٦ بعد الميلاد خلع نادرشاه الملك الذى كان أعاده الى تخته واستحوذ على السلطنة لنفسه فأخضع خراسان وتغلب على قندهار وأخضع أفغانستان وأغار على الهندستان وتغلب على مدينة دلهى الكبيرة ونهبها وكانت حدود فارس فى مدة سلطنته نهر جيحون والسند وبحر الخزر والقوقاز ونهر الدجلة وكان نادرشاه ظالما غشوما على رعيته وعلى الخصوص أهل بيته وارتاب من ابنه الاكبر فى تهمة اتهمه فيها فأمر بسمل عينيه فقال له ابنه أنت ما قلعت عينى بل قلعت عينى فارس فكان هذا نبأ حقا صحيحا عليه وذلك انه انقبض صدر نادرشاه من هذا القول وصار فى ضيق شديد حتى صار من ابتداء هذا

الوقت

الوقت منبعاللاحزان والاكدار ومركزا لمكابدة الاهوال والاخطار وصارت لا تفارقه هذه الاحوال ولا ينظر الى أشغال ولا أعمال حتى صار لا يحس بما هو فيه من السعادة الملوكية والنعم اللذيذة الالهية ومن أعماله الوحشية وأفعاله الشنيعة القسوية جفاه قومه ورعيته وبعد عنه حاشيته وخدمه وقطع الناس بأسهم منه وفي سنة ١٧٤٧ بعد الميلاد ذبحه رئيس خفره وأعقب موته مدة تزيد عن خمسين سنة مشحونة بالقلاقل والثورات والاختلالات المتسببة من سعي كثيرين من طلاب التاج الملوكي لانفسهم وفي نحو أواخر القرن الثامن عشر قام أغا محمد خان وضبط التخت وأعاد النظام في المملكة وأسس العائلة المتسلطنة الآن في مملكة فارس وكان رجلا وحشي الطبع للغاية فانه عامل أهله وعائلته بالعنف القاسي الشديد وكان ذكيا متبحرا في التصانيف شديدا في الحق طماعا شحيح النفس عدوا ألد للاختلاسات التي كانت تظهر في حق مستخدميه وحكامه وكان يدافع عن حقوق عساكره فمن ثم نال من شفقته لهم حسن وثوقهم وصداقتهم له وفي السني الاخيرة من سلطنته تغيرت أخلاقه وصارت تزداد مع توالي الزمن حتى صار في حالة وحشية وقساوة ردية وصار لا يجرأ أحد الى النظر اليه ولا الوقوف بين يديه واذا قرب منه أحد من خدمه حصل له الرعب والخوف وكانت تجمد دماؤهم في أبدانهم عند ما يطلب أحدا منهم أو ينادي بصوته عليه وصار لا يقوم ولا يقعد الا اذا سب أو شتم أو أمر بعقاب أو عذاب وأخيرا قتله اثنان من خدمه في سنة ١٧٩٧ بعد الميلاد كان أصدر حكمه عليهما بالموت لانهما كدراه بزعيق حصل منهما

وخلفه في سلطانه فتح علي شاه ابن أخيه ومن بعد سلطنته اشتبك في حرب مع روسيا حصل له منها مكابدات ومشاق من كثرة ما نال من مخالفات الدهر ومعاناة مصائبه وفي سنة ١٨٠٠ أرغم على تسليم جورجستان لقيصر الروسيا وفي سنة ١٨٠٣ اغتصب الروسيا منه منغرليا وتغلب الروسيا أيضا على الضاغستان وشروان وفي سنة ١٨٠٥ خضعت قرهباغ مع رغبتها للروسيا وانتهى الحرب بواسطة مداخلة انكلتره وفي أقطوبر سنة ١٨١٣ حصل التوقيع على معاهدة جوليستان وفي وقت تحديد الحدود بين فارس وروسيا حصلت منازعات شديدة تولد منها حروب جديدة انفجرت في سنة ١٨٢٦ بعد الميلاد وانتهت بمعاهدة عقدت في تركمانشاه في ٢١ فبراير سنة ١٨٢٨ بعد الميلاد ومن هذه المعاهدة فقدت فارس معظم أراضيها وتقدم الحد الروسي الى حد جبال عرارة والشط الايسر لنهر عراس وهو الحد الموجود الآن بين مملكة فارس وروسيا

ومن بعد موت فتح علي خان خلفه محمد شاه في سنة ١٨٣٥ بعد الميلاد فتسلطن الى سنة ١٨٤٨ وكانت سلطنته خالية من الحوادث والوقائع ومن بعد موته خلفه نصر الدين شاه وهو الشاه الحالي وكان عمره وقتئذ ثمان عشرة سنة وفي سنة ١٨٥٦ اشتبكت فارس في حرب مع بريطانيا الكبرى ومن بعد جملة مظفرات حصلت للجيوش الانكليزية في القسم الجنوبي من المملكة التزمت فارس على عقد صلح وصار التوقيع على المعاهدة في باريس في ٤ مارث سنة ١٨٥٧ بعد الميلاد وكانت شروط هذه المعاهدة على رغبة طلبات بريطانيا الكبرى وفي سنة ١٨٦٠ حصل وباء مهول وغلاء شديد كنس قسما عظيما من المملكة وفي سنة ١٨٧٠ وسنة ١٨٧١ بعد الميلاد اشتد بالمملكة القحط والغلاء حتى قيل انه هلك في ظرف مدة هذا القحط الاخير ٢٠٠٠٠٠ من أهل البلاد وفي صيف سنة ١٨٧٣ بعد الميلاد زار نصر الدين شاه بلاد أوروبا وتوجه الى ڤيانه وباريز ولوندره وحصل له فيها

الاكرام والالتفات الزائد ومن ابتداء هذا الوقت صار تاريخ فارس خالى الحوادث والوقائع وفى سنة ١٨٨٩ زار الشاه أيضا بلاد أوروبا وتوجه منها زائرا مصر وأحسن فيها على بعض مستخدميها بنيشان الحكومة الفارسية والى يومنا هذا وهو ٤ سبتمبر سنة ١٨٩١ لم يحصل فى مملكة فارس وقائع ولا حوادث

فصـــل وأما ديانة الجبرية أو المجوس الموجودين عليها الآن فانهم يؤمنون باله واحد فقط ولا يشركون به شيأ وهو الذى خلق السموات والارض والملائكة والكواكب والشمس والقمر والنار والماء والعناصر الاربعة وكل من فى السموات والارض وبه يؤمنون وله يسجدون وبه يستعينون ومن يؤمن باله غيره فهو كافر يعذب فى جهنم عذابا أليما ويعتقدون أن الاله ليس له وجه ولا شكل ولا صورة ولا لون ولا محل يحل فيه ولم يكن له كفوا أحد ولا يقدرون على وصفه ولا تدركه العقول ويعتقدون أن النبى الذى جاءهم بهذا الدين من عند الله هو زرداشت وهو نبى حق مرسل من عند الله وهو أصبهانطمانى أنوشروان ويعتقدون أنهم متناسلون من جيومرث ومن جيومرث تشعبت الاعجام وقالوا ان جيومرث أول بنى الانسان على حسب ديانتهم الا أن علماء الملة الآن والصينيين والهندوملا أخرى تجادلوا فى هذا الامر وقالوا ان الانسان والارض كانا موجودين قبل وجود جيومرث

وأما العقائد التى جاء بها زرداشت التى أرسلها الله لهم على لسان نبيهم هذا فهم يعتقدون بان الله واحد وأن نبيه الاكرم زرداشت هو نبى حق ويؤمنون بالملائكة وان أوسطا (جبريل) كان يوحى اليه كل ما هو حق لا ريب فيه ويؤمنون بكرم الله سبحانه وتعالى ولا ينقضون أى أمر من أوامر مذهب مازديشنا ويجتنبون أعمال الشيطان ويعودون أنفسهم على فعل الخير وعمل الطيبات ويصلون خمسة أوقات فى اليوم والليلة ويؤمنون بالحساب والقضاء فى صباح رابع يوم بعد الموت ويرجون الجنة ويخشون النار وعذابها ويعتقدون الفناء والحشر ويعتقدون أن الله فعل ما أراد ويفعل ما يريد ويدعون بعد كل صلاة بما يقربهم الى الله سبحانه وتعالى

ويعتقدون أن الانسان اذا كسب سيئة أو خطيئة واعتقد أن أحدا من الناس ينجيه منها فالغاش والمغشوش يلعنان يوم راستا كهيز يعنى يوم القيامة يوم لا شفيع ولا مخلص الا الله وحده وان الانسان يجازى يوم القيامة بحسب أعماله وان الله هو الذى ينجيه فقط وهو الذى يعفو عنه وهو الغفور الرحيم واذا كفر الانسان عن ذنوبه وخطاياه وقبل الله سبحانه وتعالى توبته وعفا عنه بفضل منه ورحمة فهو ينجيه من دون واسطة أحد هذه هى العقائد الدينية عندهم الجارى تعليم أطفالهم عليها

الكتاب

﴿ الكتاب الثاني عشر ﴾

﴿ تاريخ قرطاجنة ﴾

﴿ الباب الاول ﴾

﴿ من ابتداء تأسيس قرطاجنة الى الحروب مع رومة ﴾

تأسيس قرطاجنة بواسطة ديدو ـ موقع المدينة ـ عدم معرفة حقيقة تاريخها القديم ـ تقدم قرطاجنة على التدريج ـ امتداد أراضيها ـ امتداد سلطتها وحكومتها على القبائل الافريقية ـ عيوب الطريقة القرطاجنية ـ المستعمرات القرطاجنية ـ القوى البرية والبحرية للجمهورية ـ المدخولات ـ التجارة ـ صفة الجمهورية ـ طريقة الحكومة ـ الديانة ـ السعي في التغلب على سيسليا ـ حروب في أفريقه ـ تجديد السعي في التغلب على سيسليا ـ حروب مع صيراقوس أوسرقوسه ـ حملة السرقوسيين على مملكة قرطاجنة ـ تداخل رومة في الاعمال القرطاجنية

قد ذكرنا تاريخ هرب ديدو وحزب الاشراف من مدينة صور في كلامنا على تاريخ فينيقيه وسار هؤلاء الفارون حتى نزلوا على الساحل الافريقي وكان مقاما عليه من قبل عدة مستعمرات فينيقيه مثل أوطيقه وحضرميتوم وغيرهما وصار انتخاب موقع هذه المستعمرة الجديدة في رأس بحيث جزيرة ممتدة نحو الشرق الى خليج تونس على الخط الجاني العاشر للطول ومتصلة مع البر الاصلي ببرزخ أورقبة عرضها نحو ثلاثة أميال ويشكل هذا الموقع مينتان ظريفتان يكتنفهما البر ويمكن حفظ الرقبة الضيقة بطريقة سهلة من أي هجوم يقع من البر الاصلي ورغب الوطنيون الذين يحبون المنافع التجارية في قبول تأجير هذه الارض للذين يريدون أن يشيدوا عليها لانفسهم مدينة واتفق الطرفان على دفع مبلغ مقرر يدفع سنويا قيمة ايجارها ومن ثم تأسست قرطاجنة في سنة ٨٦٩ قبل الميلاد

وكان تقدم هذه المستعمرة في مبادي أمرها بطيء الحركة جدا الى أن صار جليلا على التدريج ومن مدة قرنين كان تاريخ قرطاجنة غامضا لاحقيقة له وفي القرن التاسع والثامن والسابع قبل التاريخ المسيحي تغيرت حالة قرطاجنة بواسطة هذا التقدم التدريجي ومدت شوكتها على البر الاصيل ولما ابتدأ تاريخ قرطاجنة في الظهور في القرن السادس قبل الميلاد برغت المدينة من الظلام التي كانت محجوبة تحته لهذا الوقت الى صورة مدينة قوية ظريفة يانعة لها شوكة سائدة معروفة على الساحل الشمالي الافريقي من ابتداء عمد هرقل (جبل طارق) الى أراضي صرنيه (طرابلس الغرب) ومن البحر الى بركة تريطون في الجهة الجنوبية

ومن الصعب ان لم يكن من المستحيل ذكر الاحوال المتوالية التي جاءت عقب بعضها حتى تم بها هذا التقدم والشوكة الا أنه من الظاهر أنه من قديم الزمن من عهد تأسيس المدينة كان عزم القرطاجنيين ورغبتهم في تشييد مملكة في البحر والبر ومن ثم كانت مساعيهم الاولية التغلب على القبائل الرحالة النزالة المجاورين لهم على البر الاصيل واشغالهم بطرائق الزراعة ولما تم لهم ذلك انتشرت المستعمرات

والمساكن القرطاجنية بينهم مع الكثرة وتواصلوا مع بعضهم بالنسب والمصاهرات وازدادت الالفة بينهم وتولد منهم جنس مخلوط الدم فى طول الساحل نحو الجنوب والى الجنوب والغرب كان على غاية من الاستعداد والانقياد قلبا ولسانا لقرطاجنة واختار لسان وعوائد أهل المدينة وكذا كان يوجد خلف خط هذه المستعمرات الداخلة قبائل وطنية افريقية حثوا بعضهم على الزراعة ومع هذا كان معظمهم حالته العيشة الرحاوية حسب عوائدهم القديمة وكان لهذه القبائل عوائد وطبائع جارية عليها مثل عوائد وطبائع أهل بلاد الجزائر الآن وكانوا تحت خضوع اسمى فقط الا أنهم كانوا يرون خضوعهم لقرطاجنة أنه حقيق ويعتقدون فى أنفسهم أنهم منسوبون لهذه المملكة وكانت أراضى قرطاجنة الاصلية معتبرة أنها ممتدة الى الجنوب لحد بحيرة تريطون والى الغرب لحد نهر توسقه الذى يفصل زوجيطانه من نوميديا وهذا الاقليم هو اقليم تونس الآن

ومع هذا كانت هذه الحدود غير كافية للقرطاجنيين وذلك أنهم بمجرد ماصار لهم قدرة شرعوا فى اقامة شوكتهم وسيادتهم على الاقاليم الموجودة فى الجهة الشرقية منهم والجهة الغربية أيضا ونالوا كاذ كرنا توطيد حكومتهم بين نهر توسقه وعمد هرقل وبين بركة تريطون وأراضى صيرنيه

وكان يوجد فى وقت تأسيس قرطاجنة عدة مستعمرات فينيقية موجودة فى طول ساحل الاقليم صارت جميعها فيما بعد أراضى قرطاجنية الا أنه كان من أصعب المشاكل وأشق الاشغال على هذه المدينة الجديدة اقامة سيادتها على تلك المدائن والمستعمرات لان هذه المدائن ماتنازلت مطلقا عن استقلاليتها لاحد وكان الواجب على قرطاجنه أن تراعيهم لانهم أصل الموقع الذى استحوذت عليه صور لصالح المدائن الفنيقية وأن تكون قرطاجنة هى الجامعة الاصلية لهم أو رئيسة الاتحاد وكانت قرطاجنة من مبادى أمرها أقوى من مدائن أوطيقه وحضرميتوم والمستعمرات الاخر الفنيقية ولما توطدت دولتها وعظمت شوكتها صار لاقدرة لواحدة من هذه المدن على مقاومتها أو اجراء الاعمال اللازمة لصد سياستها ولو أن ماوصلت اليه من الاعمال كان غاية الا أنها ما بلغت درجة النفوذ المطلق فى السلطنة عن كثير من الجهات الداخلة فى حدودها لكنها فازت بأن شيدت سلطتها على القسم الغربى من سيسيليا فى مبادى أيامها وشرعت بعد ذلك فى الالتفات الى سردينة وتغلبت عليها بعد حروب شديدة دموية قريبا من تمام القرن السادس قبل الميلاد وفى نحو هذا الوقت أو قبله احتلت جزائر ابالبريك وماجورقه ومينورقه وايبقاقه واستمرتها بمستعمراتها ومن بعد مضى قليل أقامت مستعمرات فى كورسيكا واسبانيا وفى جزائر ماديره وكناريز ومالطه وغولوس وكذا تغلبت على سرسينه وفى آخر القرن السادس قبل الميلاد امتدت الشوكة القرطاجنية من صرطيس الكبرى الى جزائر الفورطونات ومن كورسيكا الى سفوح جبال الاطلس وأنشأت بين كل من هذه المستعمرات علاقات تجارية ومعاملات كانت الحكومة المحلية هى الكافلة لحفظها والمحاذرة عليها ومن ثم وردت اليها الاموال من كل جهة وحصلت لها السعادة والثروة

وكان لتغلبات قرطاجنة تأثير شديد تولد من استخدامها عساكر ورتبت لها الرواتب الكافية من العساكر الاجنبية وجندت قوة كبيرة نظامية من عساكرها الوطنية وجعلت هذه القوة أساس الجيش القرطاجنى الا أن عساكرها من الاعراب كانوا كثيرى العدد وكانوا من النوميديانيين والموريطانيين ومن أمم أخرى مستقلة فى افريقة وكذا من ابرلان اسبانيا ومن جول سلتس فى غلية ومن

ليغورين

ليغورين في شمال ايطاليا وأما الزمن الحقيقي الذي استخدمت فيه هذه المملكة العساكر الاجرية الاغراب فانه غير معلوم ومن المحتمل أن حصول ذلك كان في سنة ٤٨٠ قبل الميلاد

ولقد أنشأت قرطاجنة أيضا أسطولا بحريا قويا وكان هذا الاسطول ضروريا لها بما أن جمهوريتها عهدت على نفسها من ابتداء أمرها حفظ تجارتها من اللصوص وقطاع الطريق الذين يسعون على ظهر مياه البحر الابيض المتوسط وكان ملاحو هذا الاسطول من العبيد أو عبيد امر بين لهذا الخصوص من طرف الحكومة الا أن القواد كانوا من وطني القرطاجنيين وكانت الحكومة على غاية من الالتفات الى الجيش البري والاسطول البحري بما أن عليه مامدار حفظ شوكة الجمهورية والحكومة وكانوا يعطونهم لوازمهم من طرف الحكومة ولهم رواتب مقررة سنويا تؤخذ من أملاك المملكة وعلى الخصوص من محال استخراج المعادن التي كانت موجودة في اسبانيا ومن بعض مستعمرات أخر ومن بعض الخراج الجاري دفعه سنويا من طرف المدن الخاضعة لقرطاجنة مثل أوطيقه وحضرميتوم وغيرهما ومن مستعمرات فنيقيه ومن القبائل الافريقية الرحالة ومن مستعمرات مثل سردينة وسيسيليا وبعضه من عوائد الجمارك المضروبة في كل جهة من جهات المملكة القرطاجنية وكان خراج المملكة القرطاجنية يختلف مقداره بحسب احتياج المملكة فيبلغ أحيانا نصف مدخول المقرر عليهم دفع الخراج أو أقل منه

ومع أن قرطاجنة كان لها الطمع الزائد في مد حدودها الا أن فتوحاتها كانت مقررة على قواعد أساسية سياسية عظيمة وذلك أنها لا تتغلب على أراض ليس في طاقتها المحافظة عليها وبهذا الفكر النير حفظت داخليتها وحدودها ولو أن كافة قارة افريقية جعلت لها ميدانا واسعا لأداء مطامعها حتى في اسبانيا لكنها لم تلتفت لمشروع فتوحات كبيرة حتى انجبرت على ذلك بالنسبة لضرورة حركات جيوشها في الحروب مع الرومانيين ثم رأت هذه الامة التجارية البحرية من مباشرتها الاعمال أنه لا يوجد لها أسلم عاقبة ولا أنفع فائدة من استحواذها على جزائر وتأكد لها من الامثلة التاريخية أن الاراضي القارة الواسعة لا يمكن حفظها بالاسطول البحري فقط حتى لو كانت جميع أبوابها مقفولة أو محصورة فانه يأتيها لوازمها الواسعة من نواحي الجزائر واستصوبت قرطاجنة هذا المشروع حتى في مدة نجاحها وعلو شوكتها وحصرت أملاكها من بعد أراضيها الاصلية في الاستحواذ والغلبة على الجزائر وكان لا يوجد لها عدو تخشاه واستمرت شوكتها في البحر محافظة على ممالكها وكانت تحمل تجاراتها في أي وقت تريده من دون مراعاة أدنى خطر يحصل في العصر الذي ما كان ظهر فيه عدو بحري ذو شوكة أعظم من شوكتها وكان الجزء الغربي من البحر الابيض المتوسط ملآن بجزائر كبيرة وصغيرة فصارهذا ميدانا مكشوفا واسعا لقرطاجنة ومعادلا في كل من المواقع والمحصولات الخارجة منه لها ومن المعلوم أن تجارة قرطاجنة كانت في سعة زائدة الا أن مقدار امتدادها كان غير محقق وقال رولنسن انه كان لا يوجد أدنى ريب في سعة تجارة القرطاجنيين لانهم وصلوا في تجاراتهم الى الجهات الآتية فكانت تجارتهم في الجهة الشمالية في كرنوال وجزائر شيلي وفي جهة الشرق فنيقيه وفي الجهات الغربية ماديره وجزائر كناريز وساحل غينا وفي الجهة الجنوبية فيزان وبهذه الوسائط التجارية كانت قرطاجنة تستحصل بسهولة على لوازمها واحتياج أهلها مثل العرقي أو النبيذ والزيت والتمر والملح والسمك والسيلفيوم والذهب والقصدير والرصاص وسن الفيل أو العاج والاحجار الكريمة

والرقيق وكانت تستعوض بهذه المواد كل ما كان يخرج من مشغولاتها ومنسوجاتها والخردة والفخار وأنواع الزينة وطقومة الخيول والآلات والعدد وبواسطة هذه التجارة الواسعة أمكن لقرطاجنة أيضا الحصول على محصولات وتصديرات الامم القاطنة فى غربى أوروبا وغربى آسيا وداخل أفريقة وكان يحمل قسم من هذه التجارة فى البر وآخر يحمل فى البحر ولما كان تجار القرطاجنيين آمنين على تجاراتهم البحرية بواسطة مراكبهم التجارية وجهوا القوافل وأمروهم بالتجول فى داخل الصحراء الكبرى لجلب هذه القوافل الى قرطاجنة من الجهات الجنوبية والجهات الجنوبية الشرقية محصولات الاقاليم القاصية وكذا مصر وصعيدها العليا وواحات الصحراء وفيزان وانيوبية وبرنيو كل هؤلاء دخلوا فى معاملات تجارية وجعلوا قرطاجنة المركز العمومى لهم وأما تجارة قرطاجنة فى البحر فكانت جارية بالخصوص مع مدينة صور ومستعمراتها ومع الامم الغربية من البحر الابيض المتوسط وقبائل الساحل الافريقى من عمد هرقل الى خليج بنين ومع الامم المتوحشة القاصية الموجودة فى الجنوب الغربى من جبال الالب

وكانت حكومة قرطاجنة على الدوام جمهورية مشكلة من حزب الاشراف وكان النفوذ الاكبر محصورا فى أيدى جماعة من وطنى القرطاجنيين المقيمين فى المدينة أو فى ضواحيها وكانت قوانين الحكومة ونظاماتها جارية مع حسن الانقياد والطاعة للحكومة المحلية فى جميع أقاليم المملكة وكان الامتياز الاصلى الذى كانت تمتاز به كل طائفة عن أخرى فى الدرجات هو الزيادة فى الثروة والغنية وكان القرطاجنيون هم الموظفين فى الوظائف الا أنه لا راتب لاحد منهم فمن ثم ما كان يمكن توظيف الفقير فى مصلحة من المصالح وبهذا كان كامل الشوكة والسلطة فى أيدى الاغنياء بما أنهم مستحوذون على نقود وعندهم أوقات وأزمان يلازمون فيها على مباشرة الاعمال العمومية وتقرر عند القرطاجنيين عدم توظيف أى فقير ما فى مصلحة ما من المصالح

وكان الموظف فى رأس الحكومة اثنان من القضاة الذين كانوا فى مبادى أمرهم قواد جيوش الامة لامن الذين دخلوا فى المصالح المدنية ومعلوم أنهم ملكية صرف وليس لهم دراية بالعسكرية وكان القضاة ينتخبون بمعرفة الامة وأهل المدينة من عائلات محصور فيها الشرف وعلو النسب ويراعى فيهم اللياقة لهذا المسند طول حياتهم ومن بعد القضاة مجلس مركب من مئات من الاعضاء يؤخذ منه جميع حكام المملكة مثل مجلس الاعيان المركب من مائة عضو وهى جمعية من أصل المجلس الاكبر تدير جميع اجراآته وأوامره ومنه مجالس صغيرة مركبة من خمسة أعضاء منوطة بمباشرة أشغال الاقاليم المختلفة من المملكة ومن هذه المجالس الصغيرة كانت تتوظف أعضاء مجلس الاعيان وأما مجلس المائة أو المائة وأربعة بما فيهم من القاضيين واثنين من كبار القسس والقضاة وأرباب المحكمة العدلية فكان انتخابهم بمعرفة الامة هو أول مادة مرعية الاجراء فى النظامات الداخلية الا أنه وان كانت أعضاؤه منتخبة من الطوائف العالية لم يكن لهم سلطة نوعا فى صد المطامع الشخصية الحاصلة من حزب الاشراف فى زيادة الحقوق المدنية أو عدم صلاح حالة الجمعية المنعقدة من طرف الامة ومع هذا فكانت الامة على رضا من ذلك وكان القضاة ينتخبون تحت قواعد وحدود معلومة وحرية تامة وكان مجلس المائة تام الاعضاء على الدوام لا ينقص منه أحد وفى الاحوال التى يقع فيها خلاف بين القضاة وأرباب المجلس كان يجرى قطع الحكم فى هذا الخلاف باجراء طرق سياسية وأما مسائل الصلح والحرب والمعاهدات وما ماثل ذلك فكانت تعرض عليهم ولو لم تكن ضرورية وكان يبت الحكم فيها بواسطة أغلبية

آراء

آراء أعضاء المجلس حسبما يجوّزه نظام المملكة نظر الصالح أحوالها وبواسطة ما حصل من افتتاح المشروعات التجارية صارت لا تعرف عند القرطاجنيين فاقة الفقر وكذا من عهد ما شيدوا المستعمرات في أنحاء الجهات ووزعوا فيها رعاياهم ووزعوا عليهم الاراضى الكافية لمعاشهم

وكانت ديانة القرطاجنيين في الهيئة والشعائر والاجراآت مطابقة بالكلية للديانة الفنيقية ومن بعد أن تغلب الرومانيون عليهم أرغموهم بقطع هذه العوائد العاكفين فيها على هذه الديانة وعلى الخصوص تقريبهم النوع البشرى قربانا لالههم بعل

وأول شئ من الطمع المذموم الذى فعلته قرطاجنة بعد أن صار لها قوة قوية هو سعيها في الحصول على دولة برانية باستحواذها على جزيرة سيسيليا فسارت في هذا المشروع واحتلت الركن الغربى من الجزيرة وكان يلزم القرطاجنيين من مبادى أمرهم أن يطردوا متوطنى الجريق من جزيرة سيسيليا أى صقلية حالما كان لهم قوة كافية يمكنهم بواسطتها فعل ذلك لكنهم تساهلوا ولم يحصل منهم أدنى سعى في مثل هذا الموضوع لحد القرن الخامس قبل الميلاد ولما أغار أردشير ملك فارس على الجريدس وأشغل جميع الجنس الهلينى بحروبه ظنت قرطاجنة أن وقتها جاء في السعى على التغلب على المدائن الجريقية في سيسيليا بما أن هذه المدائن لا عشم لها في أن تأتيهم مسعدة من حكومتهم أو من أهل بلادهم في مثل هذا الوقت فمن هذا جندت جيشا كثيفا تحت قيادة حملقار بن ماجو وأرسلته للتغلب على سيسيليا فهزم جيلو هذا الجيش في نواحى الهيرة والتزمت قرطاجنة على أن تترك هذا المشروع واكتفت بعقد صلح قبيح في سنة ٤٨٠ قبل الميلاد

ومن بعد هذا وجهت قرطاجنة جيشها على قبائل ليبيا وأخضعتهم حتى صاروا من تبعتها وامتنعت عن دفع الخراج الذى كانت لحد هذا الوقت جارية دفعه من طرفها اعترافا بأن الارض المبنية عليها المدينة هي أرض أهل ليبيا وانتصر الجيش في حروبه مع المدينة الجريقية الموجودة في صرنيه وكان قواد هذه الغارات المظفرة حنبال وحاصدروبال وصافو حفدة ماجو وأولاد أخى حملكار ولما خشى القرطاجنيون من أن مظفرات هذه العائلة ربما يعود منهم الضرر على المملكة عقدوا مجلس المائة وألزموا كل قائد بالحضور أمام هذا المجلس وقت عوده مباشرة من حملته ليقص أمام المجلس أعمال اجرآته

وفي سنة ٤٠٩ قبل الميلاد من بعد مضى سبعين سنة من خيبة القرطاجنيين في حربهم الاولى في سيسيليا رجعوا الى الحملة على هذه الجزيرة وطلبوا في هذا الوقت مساعدة مدينة اجيسطه في الحرب مع مدينة سيلنوس وجهزوا أسطولا كبيرا وجيشا كثيفا تحت قيادة حنبال حفيد حملكار وأرسل لهذه الحملة فانهزم الجريق في عدة وقائع وخرب الجيش القرطاجنى مدينة سيلنوس والهيرة وعاد القرطاجنيون الى بلادهم متوجين بالنصر والظفر وتولد من هذه النصرات حث القرطاجنيين على أن يبذلوا كل ما في طاقتهم في التغلب على سيسيليا فامتدت حروبهم ذلك الوقت في كل القرن الرابع قبل الميلاد المسيحى وفي سنة ٤٠٥ قبل الميلاد أغار حنبال وحملقو على سيسيليا بقوة قوية فتغلبوا على اجريجنتم وجيلا وقرينة فارتاع ديونيشس ملك سراقوص لما رأى من تقدمات القرطاجنيين فعقد صلحا معهم ومن ثم وقفت حروبهم مدة تمامن الزمن ولما صار لديونيشس قوة كافية لمقاومة القرطاجنيين نقض المعاهدة في سنة ٣٩٧ قبل الميلاد وأسرع في عدة حركات وخلص مدائنه التى

كانت فقدت منه وتغلب على مدينة مويطه وفى السنة التالية أرسلت الحكومة القرطاجنية جلقوا الى سيسيليا فاسترد مويطة وتغلب على مسينه وفى نفس هذه السنة أى ٣٩٦ قبل الميلاد اكتسب ماجو قائد الاسطول القرطاجنى نصرة عظيمة على السيسيليين على مسافة من كاتانة واتحد القوتان البرية والبحرية مع بعضهما فى حصار سراقوص وفى سنة ٣٩٥ قبل الميلاد وقع فى الجيش القرطاجنى وباء مفن فضعفت عزائم جلقو من هذه المصيبة ولما خاب من تغلبه على المدينة ترك جيشه وقتل نفسه بنفسه فاغار السراقوصيون وأهلكوا ما بقى من الجيش القرطاجنى ثم ان ماجو خلف جلقو الا أن الحرب حصل فيه توقيف وفى سنة ٣٩٣ قبل الميلاد صار عقد الصلح مع سراقوص وفى سنة ٣٨٣ وسنة ٣٦٨ قبل الميلاد اجتهد دونيشس فى طرد القرطاجنيين من الجزيرة الا انه كان يحصل له انهزام كل مرة فالتزم على عقد الصلح

وفى سنة ٣٤٦ قبل الميلاد جددت قرطاجنه الحرب عندما انتهزت الفرصة وقت حصول الارتباكات الداخلية فى سراقوص عقب موت دونيشس الاول واجتهدت فى مد شوكتها على عموم سيسيليا فانهزمت فى مساعيها وأرغمت على عقد صلح فى سنة ٣٤٠ قبل الميلاد

وفى سنة ٣١١ قبل الميلاد شرع أغاتوكليس ملك سراقوسه فى حرب على القرطاجنيين الموجودين فى سيسيليا فهزمه جلقار شر هزيمة فى نواحى الجيرة سنة ٣١٠ قبل الميلاد وحاصر القائد المنصور فى الحال مدينة سراقوص فاجتهد أغاتوكليس فى خلاص عاصمته بكونه نقل الحرب بغتة فى افريقه وذلك أنه أقلع الى تلك القارة فى جزء عظيم من جيشه تاركا مملكته فى خفارة وكفالة ولده ونزل بالقرب من قرطاجنه وهجم على أراضى مملكة الجمهورية فحصل له الظفر مدة ما من الزمن بواسطة ما حصل من الاختلاس بينه وبين القائد القرطاجنى بوميلكار الا انه أرغم أخيرا على سحب جيشه من افريقه وعوده الى سراقوص وكان ابنه انهزم فيها مرتين فانضرب الملك ضربة قوية فى حرب حصلت بعد عوده فالتزم على عقد صلح فى سنة ٣٠٤ قبل الميلاد

وتكلفت هذه الحروب على قرطاجنة كثيرا من الانفس ونقودا جمة من دون ثمرة عادت عليها ومن ثم ضبطت الجمهورية أملاكها الاصلية فى سيسيليا وقدرها ثلث أملاك الجزيرة ولما لم يحصل من القرطاجنيين عقد شروط مع الجريسيين حصلت لهم الهزيمة وكانت هذه موعظة عظيمة لقرطاجنة عرفت منها أيضا أن أراضيها عرضة للغارة وان رعاياه فى افريقه يشتهون مساعدة المحاربين كما أنهم يبقون على صداقتهم معها

ومع ما رأت قرطاجنة من هذه المواعظ فانها ما زالت متمسكة على مرغوبها فى التغلب على سيسيليا ثم مات اغاتوكليس فى سنة ٢٨٩ قبل الميلاد ومن هذا الوقت أخذت الشوكة الهلنيقية فى سيسيليا فى الضعف فجددت قرطاجنه الحرب وتغلبت على أجريجنتم واحتلت القسم الجنوبى من الجزيرة وهددت سراقوص فدعا أهل سراقوص برهوس لمساعدتهم فاقلع هذا الملك فى الحال وخلص المدينة وأرغم القرطاجنيين بالقهقرة الى الجهة الجنوبية فى سنة ٢٧٩ قبل الميلاد وضايقهم أشد مضايقة ولما عاد الى ايطاليا فجأة تغيرت سعادة الحرب فانعقد صلح بشروط موافقة بين قرطاجنة وهيير وملك سراقوص ثم ظهرت دولة جديدة فى هذا الوقت وهى رومة فى الميدان ومن هذا الوقت صار تاريخ قرطاجنه ملحقا بتاريخ رومة ومتحدا معه فى الحركات والانقلابات ولهذا صرفنا النظر عنه هنا وسنذكره مع تاريخ رومة ان شاء الله تعالى

الكتاب

﴿ الكتاب الثالث عشر ﴾

﴿ تاريخ اليونان أو الجريس ﴾

﴿ الباب الاول ﴾

﴿ عصر الشجاعة ﴾

موقع الجريس الجغرافى ـ وصف المملكة أو الاراضى ـ أوصافها الطبيعية ـ أوصاف جبلية ـ حكم هذه على الجريس ـ التقسيمات السياسية الجريسية ـ الجزائر الجريسية ـ عدم معرفة التاريخ الجريسى القديم ـ السكان الاصلية ـ البلاسجى ـ عصر الشجاعة ـ الثلاثة الشجعان الكبار الذين كانوا موجودين فى هذا العصر ـ المدائن ـ دخول حروف الهجاء أو الكتابة فى الجريس ـ الحرب الطروجانى ـ استكشافات الحكيم صشليمان ـ النظام الاتحادى والسياسى الجريسى فى دور الشجاعة ـ مهاجرة العشائر الجريسية ـ العود الهراقليدى ـ استيطان جزائر الارخبيل وسواحل اسيا الصغرى ـ ديانة الجريق ـ ايجاز القول فى عقيدتهم ـ الاسرار الالوسيانية ـ كلام الكهانة أى وحى الاصنام ـ تقدم المواطن الجديدة الجريسية على التدريج ـ تقدم المدينة وأوصافها السياسية ـ محبة الجريق لدرجة الاستقلال ـ نتائجها ـ الارتباطات العامة للممالك الجريقية

الجريس أو كما كانوا يسمونها فى الزمن القديم بالهلاس شاغلة للقسم الجنوبى من البحيث جزيرة الشرقية من قارة أوروبا وطولها الاكبر من جبل أولمبوس فى الجهة الشمالية الى رأس تنرم فى الجهة الجنوبية نحو ٢٥٠ ميلا وعرضها الاكبر من الشرق الى الغرب نحو ١٨٠ ميلا ومساحة سطحها نحو من ٣٥٠٠٠ ميل مسطح وتحد القارة الجريسية من جهة الشمال بسلسلة جبل قامبونى ومن جهة الشرق بالبحر الايجيانى أو بحر الارخبيل ومن جهة الجنوب بالبحر الابيض المتوسط ومن جهة الغرب بالخليج اليونيانى أو البحر الادرياطيق

وأعظم امتياز للهيآت الجغرافية الجريسية هو تعدد جبالها وعظم امتداد ساحلها المكسر بواسطة عدة أجوان عميقة وليس للبحر فى طول هذا الساحل مدولا جزر وهو مرصع بجزائر ساحلية جيدة خصبة الارض ومن ثم صارت المواصلة بين الجهات المختلفة من المملكة سهلة جدا بطريق المياه ومناخ الجريس متوسط الحالة وخصوبة الارض عجيبة وموافقة للاستيطان وتعيش أئمة كبيرة ذات نشاط فى الاشغال وكذا فى الاعمال وبواسطة كثرة الجزائر الموجودة فى البحر الابيض المتوسط تسهل الملاحة فيه وتشبه مواقع هذه الجزائر مراسى عديدة بين الجريس وساحل اسيا الصغرى أو الاناضول والبحر الاسود وأما بحيث جزيرة ايطاليا فهى على مسافة ثلاثين ميلا فقط من الساحل الغربى للجريس وتنقسم بحيث جزيرة الجريس الى ثلاثة أقسام أصلية بواسطة خلجانها الطويلة الداخلة فى سواحلها وذلك أن خليجى امبراسيان وماليان يفصلان القسم الشمالى من الجريس الوسطى وتنفصل الجريس الوسطى من الجريس الجنوبية المسماة بلوبونيزه أو موره بخليج قورنثه وخليج صارونيك

ثم ان البحيث جزيرة متماوجة أو مجعدة جدا بسلاسل جبال تقسمها الى عدة كور ممتازة عن بعضها صالحة لان تكون مواطن ملل أو طوائف مستقلة عن بعضها وليست هذه الصفة الجبلية قاصرة على حفظ الاراضى من هجومات مظفرة تقع عليها من أمم أجنبية فقط بل وتجعلها صعبة على كل كورة جريسية تشتهى التغلب على الاخرى المجاورة لها ومن هذه الجبال تتولد صعوبة المواصلات الداخلية والمعابر الجبلية القليلة يمكن حفظها بشرذمة قليلة من الناس ضد تقدم جيش حاكم ويحدث من البحر سهولات عظيمة فيما يختص بالاحوال السلمية والمعاملات الودية ومن ثم جمع الجريق الصفتين المتضادتين الجبلية والبحرية المتولد من أحدهما شدة حب العتق والحرية ومن الاخرى شدة الجسارة الحربية

وكان أعظم محصولات الجريس القديمة القمح والشعير والنيل والنبيذ والزيت والانعام والاغنام وهذه موجودة فيها بكثرة ولها فى الجبال والتلال مراع وافرة وكلأ مباح شاسع وكانت الجبال فى الازمنة القديمة مغمورة بالاورمانات الكثيفة الاشجار الا أنها الا ن عارية عنها ومع أن سعة المملكة الجريسية قليلة الا أنها كانت مشتملة على أربع وعشرين مملكة كل منها مستقلة فى نفسها عن الاخرى فكانت الجريس الشمالية مشتملة على مملكتين أصليتين وهما تساليا وابروس وفى شمال هاتين المملكتين موقع مملكة مقدونيا وكان ملوك مقدونيا يزعمون أنهم من النسل الهلينقى الأن مقدونيا ما كانت مرعية بأنها قسم من المملكة الجريسية الا من بعد مدة مضت عليها

وكانت الجريس الوسطى مشتملة على احدى عشرة مملكة هى أخرنانية وعطوليه ولوكريس الغربية وعنيانية ودوريس وماليس ولوكريس الشرقية وفوسيس وبيوطيه وأطيقه ومجاريس والوصف العمومى لهذه الكورة أو الاقليم هو كونه أقل خصوبة من باقى المملكة الجريسية وكانت أطيقة الشاغلة للرأس الشرقى من البحيث جزيرة هى المملكة الاصلية وكانت مدينتها الاصلية أثينة أجل من كافة المدائن الجريسية وأعظمها

وأما بلاد بونيزه أو موره أو الجريس الجنوبية فكانت مشتملة على احدى عشرة مملكة هى قورنثه وصكيون واخايه وعليس واركادية ومسينه ولاقونية وارغوليس وعبيدرو باوطريزينية وحرميونيس ومن تلك الممالك كانت مملكة لاقونية المسماة أحيانا باسم لاسيدمون أجل مملكة وكانت عاصمتها مدينة اسبرطه المشهورة

وخلاف القارة الجريسية كان داخلا فى الهلاس القديمة عدة جزائر واقعة بالقرب من الساحل وفى البحر الابيض المتوسط وكان أكبر هذه الجزائر الساحلية جزيرة عوبيه وهى على مسافة من الساحل الشرقى وطولها ١٠٠ ميل وجزيرة قورشيرة وهى على مسافة من الساحل الغربى وكانت أجل الجزائر وطولها أربعون ميلا وجزيرة كريد على مسافة من الساحل الجنوبى وطولها ١٥٠ ميلا ويوجد خلاف هذه الجزائر جزائر السكلاده وجزائر اسبوراده وهى واقعة جميعها فى بحر الارخبيل كرافى بين الجريس وآسيا الصغرى ويطلق أيضا اسم الهلاس على المساكن والمواطن الجريقية الموجودة بالقرب من سواحل أوروبا وسواحل آسيا وبالجملة فان هذا الاسم يطلق على كافة الجهات التى وضع الجريقيون فيها أقدامهم وقطنوها

ثم ان التاريخ الجريسى القديم مشحون جميعه بالخرافات والخزعبلات حتى يكاد لا يعرف له حقيقة ويعتقد الجريق فى أنفسهم أنهم من ذرية هلان بن دوقاليون وبيرها ومن ثم يسمون أنفسهم باسم هلانيس ومملكتهم باسم هلاس وأما اسما جريس وجريق فهما غير معروفين عندهم مأخوذ أصلهما من الرومانيين فانهم كانوا يطلقون على البحيث جزيرة الشرقية من أورو باسم جريس وسكانها جريق ولم يكن للجريقيين فى الازمان القديمة معلومية بهجرة أجدادهم من آسيا بل يعتقدون أن أجدادهم كانوا قاطنين بالارض من أصل الخلقة البشرية وان كان لا يطلق عليهم اسم الهلانيس

والصحيح المحقق أن السكان الاصلية لهذه المملكة فرع من الجنس الكبير الهندى الاوروباوى وفى وقت أوفى عصر ما كانت جميع الفروع المتفرع هذا الجنس عنها قاطنة جميعها فى محل يجمعها فى الاصل أمة واحدة كانت هذه الامة متوطنة فى الصحن العالى من آسيا الوسطى رحل فى مدة قاصية جدا الجدود القديمة للجريق نحو الجهة الغربية ودخلوا أوروبا واستوطنوا البحيث جزيرة وكان متوطنا فى الجريس فى الزمن القديم جنس يعرف بالبلاسجى مقسوم الى عدة شعوب تعرف بالهلانيس والجيس وكوكونيس وآخرين وكان هذا الجنس البلاسجى متحوذا على درجة تامة من المدنية وعشائره قاطنة فى مدائن محصنة بأسوار عاكفين على زراعة الارض وكانت ديانتهم مقصورة على عبادة يوف اله الجريق المتأخرين وكان معبد هذا الاله المشهور موجودا فى مدينة دودونه من اقليم ابروس وكانت الكهانة فى هذا المحل مرعية بانها أقدم كهانة فى الجريس ومن توالى الازمان والعصور اما صار طرد هذه الشعوب أو قرضتها الهلانيس ولما هج الهلانقيون باللهجة البلاسجية صار هذا اللسان لسان الجريس وتولد من عبادة يوف الدودونيانى عبادة يوف الاولمبيانى المعروف عند الجريقيين بأنه أقدم اله أيضا

وكانت تعرف هذه المدة بعصر الشجاعة أو دور الفروسية حتى صارت فى الازمان التالية مبحثا وموضوعا للشعراء وكان يعتقد فى هذه المدة بانهم جنس متوسط بين الآلهة والبشر وهم وان لم يعبدوا كانوا أعلى وأشرف من الامم التى جاءت بعدهم فى عظم النفس وصلابة القوة الطبيعية ونتائج هؤلاء الشجعان وحوادثهم مقصورة على خرافات وثنية ومن الضرورى أن نذكر فى هذا المحل الثلاثة الفوارس الذين تصور الناس أنهم حازوا القوة والشجاعة الخارقة للعادة وهم هرقول أكبر شجاع وطنى وطيسوس وكان الجريق يرون أنه أول ملك مهذب فى أطيقة وأنه المؤسس للحكومة النظامية ومينوس ملك كريد أول من شرع الشرائع ودون القوانين وتعتقد الجريق بانهم مديونون الامم الاجانب فى كونهم نشروا عليهم تمدنهم وهذا ممكن لا ريب فيه لانه ماعدا ادخال استعمال الحروف الهجائية والكتابة كان التمدن الجريقى محصورا فى المحصولات الارضية والاعمال الشاقية التى كانت تعملها الامة الجريقية ومن اعتقادات قدماء الجريق أن أثينة صار تأسيسها واقامة شعائر ديانتها بواسطة صقروبس من أهل تنيس القديمة بمصر وأما متأخرو المؤرخين فانهم يجعلون صقروبس فارسا بلاسجيانيا وكذا يقولون ان أرغوس صار تأسيسها بواسطة داذوس من أهل مصر أيضا كان هرب على ما قيل مع بناته الخمسين الى الجريس لينجو من فضيحة ظلم عشاقهن وهذا القول خراف لا شك فيه ويقولون ان كادموس الفنيقى هو الذى أسس طيبة فى بيوطية وانه أول من أدخل الحروف الهجائية واستعمل الكتابة فى الجريس ورجح متأخرو المؤرخين هذا القول وساروا عليه وجعلوه حقيقى

الاصل ومهما كان يوجد شخص ككادموس الفنيقي وهو الذى بنى مدينة كادميا التى صارت فيما بعد قلعة طيبة فانه لايمكن الآن الجزم بهذا القول اذ أنه من المحقق أن الفنيقيين أقاموا مستعمرات فى الجزائر الجريقية فى مدة قديمة جدا و يوجد سبب يعتقد منه أنهم أيضا أنشؤا مستعمرات ومواطن على البر الاصيل وكذا من المحقق أن الحروف الجريقية مشتقة من الحروف الفنيقية وكلاهما فى الاسم والرسم واحد فثبت من هذا بداهة أنه كان يوجد معاملة قديمة بين الجريس وفنيقية

وأما المدة الخرافية للجريس فانها مقصورة على حكايات حرب السبعة على طيبة وايجونى وحصار تروى وكان حرب تروى أعظم مشروع فى عصر الفروسية وقد ذكره عمير الشاعر الوطنى الجريقى المشهور فى أشعاره وحماسته فعلى حسب الحكاية الخرافية أن باريس بن بريام ملك تروى فى آسيا الصغرى لما نزل ضيفا عند منلاوس ملك اسبرطة أكرم وفادته وأجل قراه فخان نزله وهرب مع زوجته الجميلة هلينه فعظم على ملوك الجريق ما حصل من هذه الوقاحة وقلة الادب وقدموا أنفسهم لمساعدة منلاوس وجمعوا قواهم وعبروا بحر الارخبيل فى مراكب يبلغ عددها ١٢٠٠ سفينة وحاصروا تروى وكان قائد هذه الحملة أغاممنون ملك مسينه وكان جميع شجعان الهلاس موجودين فى هذه الغزوة ولبث الحصار عشر سنوات متتالية كانت نتيجته التغلب على تروى وخرابها وذكر عمير فى روايته أن الآلهة اشتركوا فى هذا الحرب وحفظوا الجهات التى كان أخلاؤهم موجودين فيها وأما متأخرو المؤرخين فانهم يشكون حتى فى انه كان يوجد مدينة مثل مدينة تروى وما قيل من انه حصل فيها حرب يعدونه من باب الخرافات الا أنه فى السنى الاخيرة ظهر من بعض استكشافات عملت فى اثبات الحكم القطعى فى هذه المسئلة التى كانت جارية تحت المداولة والمجادلة وذلك أن العالم صشليمان عمل استكشافات عظيمة فى المحل المقول فيه ان أصله موضع مدينة تروى القديمة ولم يزل جاريا فى أنواع الحفر حتى كشف أساسات مدينة كان وجودها قبل التاريخ المسيحى بمدة تنوف عن ١٤٠٠ أو ١٥٠٠ سنة وكانت هذه الاطلال تحت سطح الارض بعمق يختلف من ٢٣ الى ٣٣ قدما وعليها دلالات احتراق شديد واستخرج العالم المذكور أشياء كثيرة من الاوانى الجارى استعمالها فى المنازل والمساكن وأسلحة وزينات كثيرة وغيرها واتضح وجود مدينة حقيقية قديمة على الوصف الذى وصفها به عمير وثبت وجود المدينة القديمة التى ذكر أن أطلالها احرقت بالنار الا أنه لم يثبت لحد الآن أ كانت هذه المدينة هى مدينة تروى القديمة أم غيرها من مدن آسيا الصغرى

ووصف عمير فى أشعاره وحماسته حالة التألف والسياسة الجريسية فى مدة عصر الشجاعة وصفا دقيقا وكانت المملكة مقسومة الى عدة ممالك مستقلة كل منها محكوم بملك من أهلها وكانت حكومة الملك فى الغالب مثل حكومة الاب وليست حكومة ملوكية وكان الملك مسؤلا عن اجرآته وأحكامه عند يوف الاله فقط لانه منسوب انه من ذرية الآلهة و يتلقى منهم أوامر سلطنته وكان الملك فى الحرب هو قائد الامة لاخلافه وكان هو أيضا فى السلم قاضيهم وقسيسهم ومدبر العدل بينهم و يقدم صلواتهم وقربانهم الى الآلهة وان كانت حكومته على حدود مقررة الا أن له على أمته سيادة وعزة شخصية وكان ذلك شرطا قانونيا عليهم وكان يظهر شجاعة و بسالة شخصية فى الحرب ومهارة وحذاقة فى المجلس وفصاحة و بلاغة فى المحاورات والمجادلات وكل من كان مستحوذا على هذه الصفات العالية كان حقه فى الحكم والسلطنة مقررا ثابتا والامة تنقاد له حتى فى أغراضه وشدة حدته و تبتدئ سلطنته فى

الضعف والهبوط اذا ظهر عليه ضعف فى الجسم أو نقص فى العقل

وكانت جريق فى هذا العصر مقسومة الى ثلاث طوائف الامراء أو الوجوه والعوام الاحرار والارقاء العبيد فأما الامراء فكانوا مثل الملك ينسبون أنفسهم أنهم من نسل الآلهة وكانوا ذوى شوكة وثروة حائزين اقطاعات عريضة وعبيدا كثيرة وكانوا قواد الامة فى الحرب وذكر عميرفى قطع أوراقه التى تركها لنا ان هؤلاء الرؤساء كانوا هم الذين يجرون الحروب فى الحقيقة وكان العساكر المعتادة يقفون فى ميدان الحرب بمثل متفرجين على هيئة الحرب فى مدة الاخطار المهولة الواقعة فى أى محاربة تحصل وأما الاحرار فكانوا حائزين أراضى لانفسهم يزرعونها بمعرفتهم وأما طائفة الفقراء الذين كانوا لايملكون أرضا يزرعونها فكانوا يشتغلون فى أراضى الغير بالاجرة وكان المنبئ والشاعر والرسول أو الساعى من طائفة الاحرار الا أن فطانتهم وذكاءهم كان يجعلهم درجات فوق أمثالهم ويوطد احترامهم عند الامراء ومن هذه الطائفة أيضا طوائف النجارين والحدادين وكان هؤلاء حائزين درجة الاحترام بسبب ماهم عليه من معلومية شغل الآلات الا أن احترامهم كان قليلا وان كان لهم ذكر وشهرة وأما الارقاء فكانوا ملكا مطلقا للامراء فقط وما كانوا كثيرى العدد مثل الازمان التى جاءت بعد وما كانوا يعاملون بالقساوة ولا الرداءة والظاهر فى الحقيقة انه كان يوجد ارتباط شفقة ورحمة كبيرة بين السيد والعبد فى أثناء هذا العصر

وحازت الارتباطات الاهلية أرقى درجات الكمال فى طريقة التألف الجريسى الاولى وكان حكم الآباء على غاية من الوقار والاحترام وما كان يحصل شئ اذا كان الاب يحصل منه زجر أو سفاهة وكان جميع أعضاء العائلة أو القبيلة الواحدة مرتبطة مع بعضها بارابطة قوية ومتحدين اتحادا كليا فى أخذ الثار أو البطش بمن يحصل منه أدنى ضرر أو أذى لابناء عشيرتهم وكان النساء فى أرقى درجة من المراتب ولهن الحرية التامة زيادة عن غيرهن فى التاريخ الجريسى وكان للزوجة والام أعلى درجات العز والنفوذ مع ما كانت عليه عوائدهم من شراء الازواج زوجاتهم وكان الكرم وقرى الضيف من سجاياهم ومن الواجبات الجليلة عند كافة الطوائف فكانوا يؤهلون بالغريب واذا طلب شيأ من المنزل يقدمونه له باسمه وان كان له شغل صار قضاؤه وان كان حضوره من أجل التجاء أو حماية يجاب نزله على غاية من الحفظ والصيانة وان تسبب من ذلك قلاقل وارتباكات وأما وقف الاله فكانوا يعاقبون كل انسان تكاسل عن عبادته أو لم يتوسل اليه بعطاء بمعاقبة لا رحمة فيها

وكانت عادات هذا العصر القديم وعوائده سهلة بسيطة وكان الشغال محترما وما كان ينظر للملوك بنظر أقل من العزة والشرف الواجب أداؤه اليهم وقد ذكر أن عوليس الملك كان يشجع رعاياه على الاشغال والاعمال بكونه بنى القاعة التى كانت معدة لنفسه بنفسه وأنشأ روسه فى البحر وتفاخر بمهارته وعقله فى كار الحراثة والحصاد وكان غذاء الامة وطعامها بسيطا جدا مقصورا على اللحم الخشن والضان والمعز والجبن والخبز وتارة الفواكه وكان الخمر مستعملا عندهم الا أنهم كانوا لا يعرفون السكر المفرط وكان الامراء والوجوه يتفاخرون فى أطعمتهم الفكيهة وكان نساء الملوك والوجوه وبناتهم يشتغلن بالحياكة والخياطة والتطريز وكن يجلبن المياه من الآبار أيضا ويساعدن الارقاء فى غسل الملابس فى الانهر

ومن جهة أخرى كان هذا العصر فى الفروسية عنيفا قاسيا فى الحرب وذلك أن الرئيس ذا القوة

ينهب جاره الضعيف فى القوة ويعامله باقبح المعاملات وكان اللصوص وقطاع الطريق فى حالة قبيحة وكان سفك الدماء عاما وما كانوا يرحمون العدو واذا وقع فى أيديهم وتكون أسلحة المغلوبين غنيمة للغالبين وكانوا يرمون رمم الاخصام عريانة للطيور والصيد وقد ذكر عيريان أخيلوس قرب أحد عشر آدميا على قبر بطروقلوس

ولقد قيل ان جريق هذا العصر كانوا يسكنون فى مدائن حصينة محيطة باسوار قوية محلاة بالسرايات والهياكل وكانت مساكن الامراء مفتخرة مكلفة مزينة بالذهب والفضة والبرنز وكانت ملابس الامراء فى مدة الاحوال السلمية مكلفة وظريفة ويلبسون فى أثناء الحرب الدروع المفتخرة وكان الفنيقيون يجلبون لهم كل ما لا يمكنهم الحصول عليه من أنفسهم ونسب المؤرخون الاطلال الضخمة لمدينة ميسينيه ومدينة طيرنس لهذا العصر ويستدل من أطلال وآثار هاتين المدينتين قطعيا على متانة وقوة مدائن عصر الشجاعة وفخرها وكان فن النقش والرسم عندهم فى درجة عظيمة وكان فن الشعر مغروسا بينهم الا أنه لحد الآن مشكوك فى الكتابة هل كانت معلومة أولا

وقد انغلق عصر الشجاعة بحركة عمومية حصلت من قيام القبائل والعشائر نحو الجهة الجنوبية وهؤلاء العشائر هم المحصور فيهم أجداد تاريخ الاوقات والازمان الجريسية ومن الممكن أن حصول هذه الحركة كان من ضغط حصل على الامة الايليريانية التى كانت قاطنة فى الشمال الغربى للجريس فدخلت هذه الامة فى ابروس (نحو سنة ١٢٠٠ بعد الميلاد أو قريبا من هذا التاريخ بما أنه على وجه الظن) وتولد من ذلك حركة عمومية فى السكان الشمالية للجريس الوسطى وترك التساليون تسبروطيه من أعمال ابروس وعبروا جبال بندوس وطردوا البيوطيانيين من مساكنهم من وادى بنوس الخصب واحتلوه ولقبوا هذا الاقليم باسم تساليا وأما من جهة البيوطيانيين فانهم أيضا عبروا جبال أتريس وعوطه وتغلبوا على صيفسوس وطردوا الكادمنيون والميناهيون منه وعرف هذا الاقليم باسم اقليم بيوطيه وأما الكادمنيون والميناهيون فانهم تشتتوا فى أطيقه ولاسيدمون والممالك المجاورة لهما وفى نحو هذا الوقت سار الدوريانيون من مواطنهم القديمة التى كانت موجودة فى الجهة الشمالية وتغلبوا على دريوبيس وهو واد ضيق كائن بين عوطه وبرناسوس يعرف باسم دوريس وهرب الدرويبيانيون من طريق البحر وسكنوا فى عوبياوسينوس وبلوبونيزه أى موره

ولم تمض مدة طويلة حتى ظهرت حركة أخرى كانت أكبر من الحركة الاولى وذلك أن الدوريانيين رأوا أن الوادى الضيق الذى قطنوا فيه صغير جدا عليهم فعقدوا محالفة مع العوطوليانيين وعبر هؤلاء العشائر خليج قورنته من أضيق محل فيه بين رهيوم ورهيوم الصغيرة وأخذوا لهم مواطن فى بلوبونيزه أى موره ومن هذه المواطن تغلبوا بوجه التعاقب على عليس ومسينه ولاقونيا وأرغوليس وأما سكان أخايا القديمة فان قسما منهم خضع وقسم سار الى الجهة الشمالية وتغلب على الساحل الشمالى لموره والتجأ السكان الذين كانوا موجودين فيه من قبل فى أطيقة مؤقتا ودخلت عليس تحت يد العوطليانيين وأقام الدوريانيون ممالك لانفسهم فى الاراضى الاخر وعرف تغلب الدوريانيين على موره باسم العود الهراقليدى لان الدوريانيين زعموا أنهم استحوذوا مرة ثانية على أملاك جدهم الاكبر هراقوليس وكان صار طرده من البحيث جزيرة الجنوبية قبل ذلك بقرن

وتولد من هذه المهاجرات والتغلبات حركات فى الجريس وذلك أنهم لما رأوا أن ما استحوذوا عليه من

الارض القارة غير كاف لهم فى المسكن والمعاش سار بعض العشائر منهم الى جزائر البحر الابيض المتوسط والى سواحل آسيا الصغرى وكذا تولد من تغلب البيوطيانيين على سهل صفسوس عمار جزيرة لسبوس ومبادى عمار المواطن القاصية الشمالية فى آسيا الصغرى بين هرموس وبوغاز الهلسبون أى الدردانيل وعبر اليونانيون الذين طردوا من الساحل الشمالى لموره من بعد أن أقاموا فى أطيقه مدة قليلة الى جزائر السكلاده ومنها الى خيوس وساموس وسواحل آسيا المقابلة لها مباشرة بين الهرموس وميندر ومن بعد أن طرد الدوريانيون الاخائيين من موره هاجر الاخائيون بعضهم سار الى ايطاليا تحت قيادة رؤساء من الدوريانيين وبعضهم سار الى جزائر كوس ورودس والى الساحل الجنوبى الغربى من آسيا الصغرى وكان للعوليانيين اثنتا عشرة مدينة مبنية فوق أرض جزائرهم وعلى سواحل آسيا وكانت ميطيله أو جزيرة لسبوس مرعية عندهم بانها عاصمتهم وكان لليونانيين أيضا اثنتا عشرة مدينة وتلك المدائن مستقلة عن بعضها الا أنها كانت فى ارتباط مستحكم فيما بينها بواسطة العبادة العامة وكان معبدهم الاصلى مخصوصا الى بوسيدون ومبنى على قطعة من الارض داخلة فى البحر اسمها ميكالى وكان للدوريانيين ست مدائن وكان لتلك المدائن أيضا معبد مشترك وهو معبد اكسابولس الدريانى

ولما كان الجريق أهل ديانة كانت معرفة حقائقهم فى الديانة التى كانوا عليها واجبة وضرورية لاجل جودة فهم تاريخهم ومما سنشرحه هنا تعرف هيئات وصور مذاهبهم فعلى مقتضى الخرافات الجريقية ان العالم كان فى الاصل هيجيا وكان على غاية من الاضطراب والارتباك فانفصل منه السماء أو اورانوس والارض أو جيا وصارا آلهة معبودة مستقلة وخرج من هذين الجنس الاول من الآلهة المعروف باسم الاورانيديون يعنى أولاد السماء والارض ونسب لهذا القفس الطيطانيون الاشد قوة وبأسا وكان حاكم الجنس الثانى كرونوس فأنشب ظوس حربا عليه وانتصر ظوس على كرونوس وشيد دولته بعد حروب كبيرة مع الطيطانيين والجبابرة الذين كان حاصلا منهم الارتباك والقلاقل فى العالم وصار ظوس من ابتداء هذه النصرة الاله الاعظم ورأس جميع المذهب الديانى وملك الآلهة والعالم الانسانى وأبوهم وكرسيه موجود فوق رأس جبال أوليمبوس فى تساليا وأوليمبوس أيضا مسكن الآلهة الاخر ورؤس الجبل مغشاة على الدوام بالسحب وجعل الجريق فوق هذه السحب مسكن آلهتهم فى اقليم مستمر فيه ضوء الشمس عاليا جدا خاليا من عواصف وزعازع الدنيا السفلى وباب السحب واقف عليه خفر من الآلهة النساء أو المعبودات يؤدون ما يلزم من المواصلات بين الآلهة والارض وكل اله قاطن فى مسكن مخصوص له الا أنه ملزم بالتوجه لسراية بوف أو ظوس وقت طلبه اليها وتعمل لهم فيها ضيافات الولائم من طعام الآلهة وشراب الرحيق ويتداولون فيما يختص باعمال السماء والارض ويسمعون آلات الطرب والموسيقى وترنمات موسى وان ظوس قاسم ممالكه مع بوصيدون وأعطى له قيادة البحر وحكومته وعهد الى بلوطو حكم الدنيا السفلى ومسكن أرواح الموتى

وكان المجلس الاولمبى الذى رئيسه الاكبر بوف مركبا من أحد عشر الها من الآلهة الكبرى هم بوصيدون اله البحر وأبولو اله الشمس ومحب الشعر والموسيقى والبلاغة وأرس اله الحرب وهفوصطس اله النار والفنون النافعة وهرمس رسول الآلهة ومحب التجارة والثروة وهيرا المعبودة الكبرى وإثينا ابنة ظوس الهة التمدن والعلوم والفنون وارطميس الهة القمر والصيد وافروديط الهة الجمال والعشق ودمطير الهة الحصاد والمحصولات الوافرة وهستيا الهة الحياة

ويوجد خلاف هذه الآلهة آلهة كثيرة أخرى بعضها معادل تقريبا فى القوة الى بلوطوا له الدنيا السفلى وهيليوس وهيقاط وديونوصوص ولاطو وديونوى وبرصفون وصلنى وطميس وعوس واولوس ونيموصيس وغراصيس وموصيص وموورى أو المبخت ويومنيد أو فوريس وأوشيادس والنيريدس والنمف والهورس والهة أخرى صورتها مخفية مثل اطى وليطيا واريس وثناطوس وهبنوس وكراطوس وبيا والهة أخرى مهولة الشكل والهيئة متفرعة من الآلهة السابق ذكرها مثل هاييس وجرجون وجراياوبيجاصوص وقربسور وأخيندموشميره وصربروس وغريون ولرنيان حيدرا ونميين الاسد والسنطور والصيرين وأبو الهول والصيلا والقريديس وكل هذه الآلهة فى الارض والبحر والعالم والدنيا الجهنمية ولهم صفات وخصال وطبائع وقوى مختلفة مشروحة فى المطولات من الكتب الافرنكية يضيق علينا أن نذكرها هنا

فأما بوصيدون فجلسته الفطريط وطيطيس ونيريدس وطريطونس وأما اومنيد فانه تابع المجرمين بالعذاب الشديد وأما برصفونى فانه حاكم الهاديس مع بلوطو وأما صربروس فهو خفير الطريق الموصل الى أقاليم جهنم وأما مينوس وايا كوس ورهادامنطوس فهم قضاة أرواح الموتى وأما بان وفونس فهما حاكما الغيطان والبرور وأما نمفس فهو حاكم الجبال والمنابع والغدران وأما الدريادس والهمادريادس فهما حاكما الغابات والاورمانات وأما الموسس وغراسس فهما ملهما الشعر والجمال والفصاحة وأما أبوس الفجر فهو ساكن على شواطئ البحر المحيط فى سراية أبوابها من ذهب يخرج الفجر كل يوم منها وقت الصباح ويخبر بقرب حضور أخيه الاكبر أوبولو وهو الشمس وأما عولوس فهو حابس الرياح فى مغارات وكهوف يرسلها وقت حاجتها وأما اريس فانه رسول الآلهة وقوس قزح جسر تعبر عليه الملائكة وقت أن ترسل الى أسفارها وأما ديونطيس فهو سبب الخمر والنبيذ وكانت تعمل شعائره مع الجنون وقلة العقل وأما نمصيس اله العدل فانه يعاقب المجرمين على جرائمهم

والعقيدة الكبرى الموجودة فى الديانة الجريقية هى الانقياد والطاعة لحاكم الدنيا الموجود فيها على الدوام يفعل فعله النافذ بغير انقطاع على الافعال البشرية وهذه الطاعة متسلطنة على الافكار والكلام والاعمال وكان تقريب القربان فى عصر الشجاعة بصفة شكر وثناء للآلهة أو لاجل اكتساب الجود والكرم الذى يتفضل به الآلهة عليهم ويعتقدون أنه لا يمكن لأى شخص مجرم أن ينجو من عذاب يومنيد واعتقدوا فى المدة الاخيرة أن خاصية القربان تكفير السيئات واحتجاب غضب الآلهة ومحو أثر الخطيئة يكون بواسطة تقريب القربان

وكان من جملة الشعائر المقدسة الكبيرة عند الجريق الاسرار الالوسنيانية أو العلوسينانية وهى الاحتفالات التى كانت تعمل فى علبس تعظيما الى دمطير وبرصفونى وكان الذين يجرون هذه الاحتفالات هم الملازمون لها من الاصل وكان من الكبائر العظيمة عندهم الكلام معهم من غير أن يكون له معرفة بهم من الاصل وكان الذين يخدمون هؤلاء يراعون أنهم محفوظون تحت حماية مخصوصة من طرف الآلهة

وكانت تعرف مطالب الآلهة ومرغوبها بواسطة الكهانة والعرافة وكان أقدم الكهان كاهن طوس أو يوف فى مدينة دودونه من أعمال ابروس وكانوا يعتقدون أن الاله يتكلم فى صرير أوراق

شجرة البلوط المقدس وتفسر أقواله أو تترجمه القسس أو القسيسات وكان ابولو رئيس متكلمى الآلهة وله أربعة وعشرون كاهنا فى الجريس وفى المستعمرات الجريقية فى آسيا الصغرى وأجل هؤلاء الكهان شهرة كان قاطنا فى مدينة دلفى من أعمال مملكة فوسيس وكان لابولو هيكل أو معبد مخصوص فيه تمثاله مصنوعا من الذهب ونار موقدة على الاستمرار من حطب الوقود وكان يوجد خرق فى وسط أرضية المعبد خارجة منه أبخرة مخصوصة يعتقدون أنها نفس الاله ولاجل معرفة مقصد الاله وطلبه كانت القسيسة تقعد على هذا الخرق وتملأ نفسها بالابخرة وتستنشقها ومن ثم يعتقدون انه أوحى اليها ومتى قل صعود البخار تنطق بما أجاب به ابولو بسجعات مقفاة فتأخذ القسس الملازمون لها كلامها ويخلطوه أو يعموه بحيث لا تفهم معانيه ويلقوه على الناس وما كان يحصل مشاورة كاهن دلفى من الجريق فقط بل ومن الليديانيين والفريجانيين حتى الرومانيين

ومن ابتداء غلاق عصر الشجاعة الى حدمدة الاولمبيا الاول كانت الحوادث التاريخية للجريس مجهولة لم نعلم منها الا بعض حوادث عمومية تختص بسير الحوادث فى هذه المدة الطويلة وأول حادثة نوجه التفاتنا اليها هى نتيجة التأثير الذى حصل على المملكة من المهاجرات التى ذكرناها فيما سبق ثم بعدها مباشرة وقوف التمدنات المدنية فى الجريس وكان الاجناس الذين استحوذوا على الاراضى ذوى قوة وخشونة وعنفوان زائد عن الامم الضعيفة المهذبة الذين كانوا طردوهم من أرضهم ومن بعد مدة من الزمن جذبتهم الخصال الطبيعية الى الاستحواذ على التهذيب والزراعة وأما السكان الجديدة الذين قطنوا الممالك الجريقية من بعدهم فانهم لم يكتفوا بتدمير نظامات الاعمال القديمة فقط بل رموا بدلا منها أساسات أمة صعبة المراس والجراءة انها تحمل على مكابدة الاخطار والمشاق حتى خسفت فجر عصر الشجاعة وتولد من الحروب والحركات خصال وخواص شخصية عند كل انسان بالنسبة لتقدم عظمة نفسه وعلو شأنه وسلطنته ومن بين الكد والاهوال والاخطار التى اشترك فيها عموم السكان قام الفكر السياسى أيضا وأخذ له محلا فى البلاد وانتقلت أحوال الناس واستنبطوا الاعمال السياسية وخصوا فى كثير من الاشياء وازداد فرع الافكار السياسية مع سرعة عظيمة وكانت السلطنة الوراثية متتالية العمل والاجراء فى عصر الشجاعة فى كل جهة من الجهات الجريقية ماعدا ارجوس فانها كانت على طريقة غير منتظمة فى الحكم وكان البعض من حكامها على طرائق غير موافقة للحرية والتهذيبات الشخصية واجتهد الناس فى توطيد نظامات جديدة غيروا بها الاحوال القديمة التى كانت متسلطنة عندهم حتى اكتسبت المدائن عزها وشرفها المخصوصين بهامع جلالة أهميتها واستوطن الفاتحون مدائن حصينة قوية وربطوا علاقات ودية مع بعضهم خشية من حصول ثورات تقع عليهم ومن ثم صار كل محل حصين مملكة مستقلة يحكم على بعض جهات من البلاد الموجودة حوله مباشرة

ويلزم أن نتذكر فى وقت ممارسة التاريخ الجريسى بان المادة الاساسية فى الطريقة السياسية الجريقية هى سيادة كل مدينة وكمال استقلالها وكان من الفرائض الواجبة على كل جريقى بذل طاعته لمدينة مسقط رأسه ومن هذا تأكدت محبة الوطن وظهرت الدرجة الحقيقية للاحساسات البشرية التى أظهرت تاريخ تلك الامم وكان من تمام هذا الاستقلال الاقرار والاعتراف بان كل واحد من أى مدينة ما يعد نفسه أجنبيا فى المدائن الاخر وكل مدينة من المدن كانت تدفع عن نفسها حركة المدائن

الاخرعنهامع الثبات والقوة وكان الغرض الاصلى من ذلك هو توجيه احساس كل مدنى الى ملته وقومه ومن ثم تولد عند الجريق الصعوبة الزائدة فى اتحادهم مع بعضهم فى أوقات حلول الاخطار العمومية عليهم وتوجيه جيوش الاعداء اليهم وصاروا فى حالة مستعدة مستمرة الدوام فى توجيه جيوشهم على بعضهم ومن تجزئهم بهذه الحالة تغلب عليهم ملوك المقدونيين بغاية السهولة وكان حكم مدينة على أخرى مبغوضا بالكلية عند الجريق فى مدة تاريخهم المعروف وأما من جهة حكم طيبة على المدائن البيوطيانية وحكم أثينة على رعاياها المخالفين لها فانه كان خضوعا مع الكراهة والبغضاء وعند انتهازهم أول فرصة تحصل عندهم يشكون طاعتهم وخضوعهم وأما من قال من مطالعى التاريخ بان أراضى الجريس كانت مقسومة الى عدة من الايالات الصغيرة والممالك المستقلة مثل اطيقة واركاديا وبيوطية وفوسيس ولوكريس وما يماثل ذلك فقولهم هذا من دون تأمل وهو خطأ فاحش تولد منه عدم فهم التاريخ الجريقى بالكلية والذى عليه الحقيقة أن كل مدينة كانت مملكة مستقلة فى نفسها وبهذا كان كل من الاراضى الواقع عليها اسم اركاديا وبيوطيه وفوسيس ولوكريس مشتملة على مالك سياسية عديدة مستقلة عن بعضها الا أن اطيقه كانت فى الحقيقة مشكلة مملكة واحدة ومدائنها الاصلية معترفة بأن أثينة عاصمتها ومنبع شوكتها وذلك استثناء فى القاعدة العمومية ومع هذا كانت توجد روابط مرتبط بها الجريق مع بعضهم وهى رابطة الدم واللسان ورابطة الدين والمواسم وروابط العوائد والطبائع ويراعون أنفسهم بانهم من نسل وذرية هلين ويسمون الامم الاخرى من العالم باسم متبربرين وهمج فكانوا يطلقون هذا اللفظ على المصريين المتمدنين وعلى الصيطيانيين الخشنين

وتولد من اتحادهم فى الديانة واجتماعاتهم فى المواسم والاعياد تشكيل جمعيات ممن جاورهم من العشائر والمدائن الذين تعودوا على الاجتماع فى أوقات معلومة لاجل تقريب القربان لاله مخصوص عندهم فى معبد معلوم مشترك بينهم فى العبادة وتحت محافظة الجميع وكان الاكثر شهرة من هذه الجمعيات هو الجمعية الامفيقطيونيقية فكانت هذه الجمعية التى لاعبرة بها ولا معنى فى ذاتها جليلة عندهم بسبب انها معدة لخفارة معبد دلفى وهو أكبر المزارات الملية الجريسية وكانت مدة مباديها غير معلومة الا انه يظهر أنها كانت احدى الاساسات التى كانت تحيى عصر الشجاعة وكانت هذه الجمعية تلتئم فى السنة مرتين فى فصل الربيع فى معبد أبولو فى دلفى وفى فصل الخريف فى هيكل دمطير فى ترموپلى وكانت أعضاء هذه الجمعية مركبة من مبعوثين مقدسين من طرف احدى عشرة قبيلة تشتمل على عدة ممالك مستقلة أو مدائن وكان نواب كل قبيلة أو عشيرة أو مدينة تنحصر فى رئيس اسمه هيرمنون وتوابع معه يسمونه پيلاغورى وكانت الواجبات الاصلية المفروضة التى كانت تجريها هذه الجمعية هى منع التعدى والجور ضد أعضائها وتوطيد حقوق الآلهة وشرف المعابد والهيا كل وما كانت هذه الجمعية ملتئة يؤدون ما يجب عليهم فى حفظ وصيانة ما يعود منه المنفعة العامة على البلاد والعباد فى الاراضى الجريسية وأن تستعمل سلطتها فى المقاصد السياسية فقط عندما يمكنهم صد واخماد أى مملكة من الممالك توجه مطامعها على غيرها من الممالك الاخرى

﴿ الباب الثانى ﴾

﴿ من التاريخ القديم الى الاولمبيادا الاول ﴾

تقدم أرغوس ـ المستعمرات الدوريانية ـ قيام اسبرطة ـ الحرب مع مدينة اميقلى ـ تاريخ

أثينة القديم ـ موت كودروس ـ ابطال السلطنة ـ انشاء قانون ارخونس ـ الارخونس السنوى ـ مبادى حقيقة تاريخ المدة فى التاريخ الاثينى ـ سرعة تقدم اسبرطة ـ قسمة الاهالى الى طوائف ـ الهلوطيون (العبيد) ـ شرائع ليكورغس ـ تهذيب وأهل اسبرطة ـ الرغبة فى نفى ليكورغس ـ عميرالشاعر ـ تأثيره على التاريخ الجريسى ـ نجاح ارغوس وفلاحها ـ الحرب الاول المسينى ـ احياء الالعاب الاولمبيقية ـ صفاتها ـ الاولمبياد الاول

أول مملكة بلغت الدرجة العظمى فى السياسة والحكومة الادارية بعد عصر الشجاعة مملكة أرغوس وثبت من الروايات والاحاديث انه خرج من ارغوس عشائر الدوريانيين لاجل التوطن والاقامة فى ابيدروس وطروزين وفليوس وصكيون وقورنثه وعلى ماقيل ان الدوريانيين من ابيدروس توطنوا فى ايجنة ولميرة وابيدروس واندروس ومغاره من أعمال قورنثه وكانت هذه المستعمرات تحت حماية مملكة ارغوس ومن بعد مضى عدة قرون صارت هى المملكة الرئيسة فى بولوبونيزة أى موره

وأما التاريخ القديم لمدينة اسبرطة فكان ابتداؤه حصول الكد والسعى من فاتحى الدوريانيين لمد سلطتهم ودولتهم فانهم وطنوا أنفسهم فى مبادى أمرهم الى حد القسم العلوى من الوادى المحصور بين سلاسل طايغوتس وبارنون وهو ناحية طولها نحو خمسة وعشرين ميلا وعرضها نحو عشرين ميلا وتغلب الاخائيون على الوادى السفلى وشيدوا عاصمتهم اميقلى على نهر عوروطاس وعلى مسافة ميلين من جنوب مدينة اسبرطة فاستمر الحرب بين اسبرطة واميقلى مدة ثلاثة قرون الا أنه لم يحصل من اسبرطة أدنى تقدم نحو الجهة الجنوبية وصدت الاستحكامات القوية لمدينة اميقلى شوكة الاسبرطيين وأضعفت مساعيهم بخصوص توسيع أراضيهم ثم التفتت اسبرطة بعد هذا لاخضاع اركاديا الا أن مساعيها كانت على غير طائل ثم تحولت على مسافة بعيدة وشنت غاراتها الحربية على مسينه وأرغوس الا أن حوادثها وحروبها كانت قليلة الاهمية بالكلية

وأما التاريخ القديم لاثينة فانه يبتدئ بالمدة الملوكية وذلك انه من نحو سنة ١٣٠٠ الى سنة ١٠٥٠ قبل الميلاد كانت أطيقة محكومة بملوك مطلقة التصرف والاستبداد وكان آخر هذه الملوك كودروس وعلى ماروى أنه قاسى الشدائد والاهوال فى مقاومة غارة الدوريانيين وكانوا أغاروا على أطيقة من الدوريانيين الذين تغلبوا جديدا على مورة وفى أثناء هذه المدة انقسمت الامة الى أربعة عشائر طليونطين وهبوليطس وايجيكوريس وارغاديس وكل من هؤلاء انقسم الى قسمين الاول اخوان وأقارب والثانى طسردلين ونوقرارين فأما القسم الاول فهو مقصور على القرابة وأما الآخر فمقصور على الترتيبات الصناعية للمملكة فيما يختص بالضرائب والعوائد والخدمات العسكرية وطوائف هؤلاء التبعة على ثلاثة أصناف الوجوه والمزارعين وأرباب الصنائع فأما الصنف الاول فكان محصورا فيه كل مايختص بالشوكة السياسية وكانوا متمتعين بالحق الوحيد للتوظف فى المصالح العامة وكان مجلس الاعيان أو السنا ومأخوذا من هذا الصنف ومقره على جبل مارث ومن المستحيل أن يكون للمزارعين وأرباب الصنائع دخل فى حصول الشقاق والخلاف فيما يختص بقسمة الاراضى أو الاملاك

وكان تاريخ الجريس فى مدة القرن الحادى عشر قبل التاريخ المسيحى غير مؤكد ولم تزل مدة

الحوادث التاريخية الحقيقية بعيدة المسافة بعدة قرون وانقضى هذا القرن فى توطين الدوريانيين أنفسهم فى الجهات التى تغلبوا عليها فى بلوبونيزه واستمرت اسبرطة فى حربها مع مدينة امية لى بخصوص الاستحواذ على وادى عوروطاس وبواسطة الاخائيين استحوذت على القسم العلوى من الوادى المذكور وكانت ارغوس هى الدولة السائدة فى بلوبونيزه (موره) وانتشرت مستعمراتها فى الجهة الشمالية من البحيث جزيرة وكانت حكومة ارغوس ملوكية على سياق عصر الشجاعة وكان التاج فيها موراثيا فى بيت طمينندى وهذا البيت منسوب الى طمينوس الابن الاكبر لارسطوماخوس أحد الهرقليديين والصحيح أن هذا القرن فى التاريخ شاهد تغيير هيئة الحكومة من الملوكية الى حكم الارخونيين مدة حياة كل منهم وعرفنا من الحوادث الخرافية المختصة بشأن هذا التغيير أن الدوريانيين أغاروا على أطيقة من بعد مدة قليلة من توطنهم فى بلوبونيزه وقال لهم الكاهن بانهم يمكنهم التغلب على هذه المملكة ان كانوا يحافظون على سلامة ملك أثينة ولما أخبر كودروس بهذا الخبر وكان هو فى هذا الوقت ملك أثينة صمم على كونه يجعل نفسه قربانا لنجاة بلاده من مثل هذه الغارة فدخل مستخفيا فى معسكر الدوريانيين وتنازع مع أحد العساكر الدوريانية حتى تولد منها قتله وبمجرد ما عرف الدوريانيون موت الملك تقهقروا من أطيقة الى بلادهم وكفى أهل أثينة شر الدوريانيين ومن ثم أبطل الاثينيون وظيفة ملك احتراما لذكر هذا الملك الذى مات من أجل بلادهم شهيدا واستبدلوها بوظيفة أرخون يحكم مدة حياته وكان حصول هذه الحادثة فى سنة ١٠٨٥ قبل الميلاد وكان أول أرخون يجلس فى الحكم مدة حياته هو ميدون بن كودروس الملك وأعقبه اثنا عشر من ذرية كودروس وانحصر الشرف والسمو فى هذه العائلة ولما مات علقميون الارخون الثالث عشر وهو آخر الذين تملكوا الحكم مدة حياتهم حدد وجوه الاثينيين لفظة ارخن فى الوظيفة لمدة عشر سنوات وكان هذا فى نحو سنة ٧٥٢ قبل الميلاد ومازال السمو محصورا فى ذرية كودروس وميدون الا أنه فى سنة ٧١٤ قبل الميلاد صار فتح هذه الوظيفة لكافة الوجوه الموجودة فى المملكة وفى سنة ٦٨٣ قبل الميلاد صار ترتيب الارخن الذى يحكم لمدة سنة واحدة فقط وانقسمت واجبات الوظيفة الملوكية على تسعة أشخاص كل منهم لقب بلقب أرخن وكل أرخن كان يجعل اسم نفسه للسنة ومن هنا كان تغيير الحكومة على حسب الوقائع والحوادث الخرافية الجريقية من الملوكية الى الجمهورية وأما الشوكة السياسية أى الادارية للمملكة فكانت محصورة على الخصوص فى الوجوه وكان يصير انتخاب التسعة ارخن السنوية منهم ويكونون تحت المسؤلية لديهم فقط وأما الامة فما كان لها نصيب فى الاحكام والاجراآت الخاصة باموال المملكة

ويبتدئ التاريخ الحقيقى للاثينيين بتنصيب التسعة أرخن السنوية فى سنة ٦٨٣ قبل الميلاد وهذا هو أول مدة تاريخها الحقيقى وفى أثناء هذه المدة أخذت اسبرطة فى التقدم بسرعة فى الشوكة والجلالة وصارت الحكومة الاسبرطية ملوكية وكان يحكم المملكة ملكان على السوية وكانت السلطنة على مثال عصر الشجاعة وكانت أعمال الملكين مانعة بعضهما ومن ثم أخذت الشوكة الملوكية فى الضعف والاضمحلال حتى صارت فى وسط القرن التاسع لامعنى لها فى ذاتها ولا فى صفاتها وكانت الامة منقسمة الى ثلاث طوائف فأما الطائفة الاولى فهم الاسبرطيون وعددهم نحو ٩٠٠٠ نفس وهم سكان العاصمة وكانوا من ذرية الدوريانيين الذين تغلبوا على البلاد والاراضى وأمرائها

والشوكة

والشوكة الادارية محصورة فيهم على الخصوص وكانوا مالكين معظم الاراضى الزراعية عائشين فى اسبرطة على الاجارات التى يأخذونها من مزارعيهم وأما الطائفة الثانية فهم الاهالى الحرة القاطنون فى مدائن المملكة وقراها وكان هؤلاء تبعة فى المعنى الحقيقى وما كان لهم سلطة سياسية وكانوا مختلطين بالدم الدوريانى والاخانى منتشرين فى جميع أنحاء المملكة وجهاتها مالكين للاراضى العاطلة ومشتغلون بالبيع والشراء والتجارة والصنائع ويحاربون الجيوش الاسبرطية كعساكر ثقيلة الا أنهم ليسوا تحت القوانين التى كان الاسبرطيون يتعلمونها من أجل الحروب خاصة وأما الطائفة الثالثة فهى طائفة الهلوطيين وهم الارقاء والعبيد من سكان المملكة وكانوا فى الاصل من الدم الاخانى الا انه من بعد الحروب المسينية ازداد عددهم من الاسارى الذين أخذوا فى الوقائع وامتزج الجنس ببعضه فكانوا مستخدمين فى زراعة أراضى أسيادهم الاسبرطيين ويدفعون لهم أجرة مقدرة مقدارها نصف محصول الارض وكانت هذه الطائفة مهانة فى الاصل والجنس فكانوا قليلين جدا وكان لهم احساس تام من الشفقة حتى صاروا فى درجة متوسطة بين الارقاء والاسبرطيين ثم صار الهلوط المسينيون هم الطائفة الاكثر عددا فى المملكة ومن هذا الوقت نظر اليهم أسيادهم بعين الخوف والارتياب ولبسوا الهم ملابس مخصوصة وشرعوا فى انحطاطهم وضعفهم وصارت اسبرطة منبع الهيجان والثوران الحاصل من العبيد أى الهلوط فشرعت اسبرطة لاجل قمع هذه الطائفة العنيدة فى انتخاب عدد من شبانها على التدريج وسلحتهم من أجل هذا القمع بالخناجر والسكاكين وأرسلتهم فى مأموريات الدورية والطواف فى أنحاء البلاد ومعهم أوامر سرية من الحكومة بقتل الهلوط أينما تمكنوا منهم بالنظر لكثرة ماهو حاصل منهم من الاذى والخطر ومن جهة أخرى فان الهلوط لما أظهروا شجاعتهم فى حروب التزموا فيها على أن يكونوا عساكر خفيفة من طرف اسبرطة فحتم الحكومة حريتهم أنفسهم ومن ثم تولدت طائفة ممتازة عرفت باسم المعتوقين حديثا

ومما حصل فى الحكومة الملوكية من الضعف والاضمحلال ارتاع الاسبرطيون حتى انهم صمموا على ضرورة تغيير فى طريقتهم الادارية السياسية وفى نحو سنة ٨٥٠ قبل الميلاد أعد ليكورغس قانون شرائع دبر به حكومة المملكة وتهذيب التبعة وكان من أعضاء العائلة الملوكية الا انه ما كان من عمود الذين يجلسون على التخت وكان صرف عدة سنين فى سياحاته وأسفاره فى كريد ومصر والهند ونظر فى قوانين وشرائع هذه البلاد واجتمع فى مجالس أهلها واكتسب فوائد وعلوما من كل فن حتى دبر قانونه هذا لاسبرطة وكانت قوانينه عامة على كل فرع من فروع الادارة والائتلاف الدائمى لاهل اسبرطة وأجرى العمل على موجبها من بعد أن حصل فيها شدة المناقضات والمجادلات وعدم القبول حتى استحسنت أخيرا وسارت عليها أحكام اسبرطة ورعوها حق رعايتها

وكان المقصد الاصلى من قوانين ليكورغس بقاء سلطة المملكة فى أيدى الاسبرطيين وهذه الطائفة البالغ عددها ٩٠٠٠ نفس فقط تفضل حكومتها وادارتها باقوة واجتهاد يحصل من سن قوانين تربطهم ببعضهم رابطة واحدة بعقود قوية لا انفكاك لها ولا انصرام فيها وتجعلهم جسما واحدا وتميلهم الى درجات المعالى وتقودهم الى عوائد الشجاعة وتحمل المشاق والانقياد العسكرى وأن يكونوا على الدوام مستعدين لحفظ درجات مقدارهم كلما اكتسبوها بالسيف والرمح فقابل الاسبرطيون فى الابتداء هذه النظامات بوجوه مقطبة وصدور ضجرة وتذمر لم يرمثله فى عصر من العصور

وذكر ليكورغس فى القانون الذى سنه والنظامات التى شرعها أنه يلزم أن تكون الشوكة فى يد ملكين وحد شوكة هذين الملكين وجعلهما فوق مجلس أعيان وأن يكون انتخابهما بطريق الاصوات وأغلبية الآراء واذا تساوت الآراء عملت قرعة بين المنتخبين فى مجلس الاعيان ومن مجلس مركب من ثلاثين عضوا منهم الملكان ويطلق على هذا المجلس اسم مجلس الشيوخ أو الاعيان وكل من أعضائه لا يكون عمرهم أقل من ستين سنة وانتخابهم لمدة حياتهم ولهم حق الاشتراك فى الادارة العمومية للملكة ويناقشون الاعمال والاجراآت التى يجب تقديمها لهم من مجلس الملة ويحضرونها ويبتون الحكم فيها وكذا يفصلون أحكام الجرائم المؤثر فعلها على التبعة ويقررون فيها أحكامهم بطريق العرف اذا لم يوجد قانون مدون فى شأنها ولمجلس الملة السلطة والنفوذ فى انتخاب مجلس الاعيان حسب القوانين وله قطع الحكم فى حالة السلم والحرب والظاهر أن هذه السلطات كانت مجرد اسم فقط لان هذا كان القصد منه المصادقة فقط على الاجراآت التى صار الحكم فيها بواسطة مجلس الاعيان وما وجد مناقشات أو مجادلات فى الاجراآت العمومية التى حصلت فى اسبرطة كما كان جاريا فى أثينة ثم توظف بعض من الحكام كل سنة اسمهم عفورس أى مفتشين من طرف المجلس العمومى فكانت وظائفهم المراقبة والمحافظة على السير على حسب قوانين وشرائع ليكورغس ويعاقبون كل من خالفها بأشد العقاب ومن توالى الزمن ومروره انحصر النفوذ السياسى فى أيدى هؤلاء المفتشين وصاروا هم الحكام فى المملكة فى الحقيقة وخضعت لطاعتهم جميع طوائف الاسبرطيين وانقادوا الاوامرهم وأحكامهم واستبدوا فى شوكتهم وصاروا مطلق التصرف فى الرعايا من غير مانع يمنعهم ومن ثم آلت نهاية الحكومة الاسبرطية الى حكومة أعيان صار فيها الملك ومجلس الشيوخ والامة رعايا أو تبعة لخمسة عفورس أو مفتشين فى الاصل ليس لهم حدود معلومة فى أحكامهم وليسوا مسؤلين عن شئ لدى أحد

وفى حالة ما كانت هذه الحالة جارية فى المملكة كان العمل جاريا فى تهذيب على حسب قانون وشرائع ليكورغس وذلك أن كل مولود يولد فى اسبرطة يفحص عنه فى المجلس فان وجد ضعيفا أو مشوه الخلقة أمر بقتله على جبل طايغطوس ومتى بلغ عمر المولود سبع سنين أخذوه من حضانة أمه وكفالتها وشرعوا فى تربيته وتهذيبه تحت مناظرة مربين ومعلمين أو حكام موظفين من طرف الحكومة فكانوا يعلمون الطفل جميع تمرينات الالعاب الرياضية السريعة الحركة مثل الجباز لاجل تولد القوة والنشاط فى جسمه ويعلمونه جميع الحركات والتعليمات اللازمة للعسكرية الاسبرطية فى الميادين وكذا يعلمونه فن الصيد ويعودونه على تحمل الالام المتاعب والاخطار من دون أن يتأوه أو يتضجر وكان يفحص عن عزمه وثباته بواسطة ضرب وجيع فظيع بحضور عموم أهل المدينة فى جهة محراب أرطميس (أى ديانا) ومات كثير من الشبان تحت هذا الضرب الوجيع من دون حصول تأوه ولا تضجر وكان الولد يلبس فى الشتاء والصيف ملبوسا واحدا ويتحمل مكابد الجوع والعطش والحر والبرد ويأكل على المائدة العمومية ولا يسمح له فى الاكل الاعلى قدر ما يسد به رمق جوعه وينام مع أقرانه فى محلات النوم العمومية ومتى بلغ عمرا معلوما سمح له بغذاء ضرورى فان سرق زيادة عن ذلك وضبط حال سرقته عذب عذابا شديدا وكان تعليم الكتابة وفن الموسيقى داخلا فى تربية الطفل الا أنه كان يهذب فى هذه على حسب ذهنه الطبيعى وكان يتعلم علم الالحان بالضرب على العود والمغانى الا أن مغانيه وترنماته اما أن تكون مخصوصة بوقائع حربية أو سجعات الهيئة وكانت الآداب والفلسفة

مهانة فى اسبرطة وكان الاسبرطيون يكبسون على أنفسهم حتى يتعودوا على الايجاز فى الكلام والاختصار فى الاقوال والالفاظ ومن ثم كانوا يكرهون كثرة الكلام

وبمجرد ما يبلغ الطفل مبالغ الرجال يتمتع قليلا بعتقه من التهذيبات والتعليمات الشاقة المضروبة عليه من طرف الحكومة ويأكل فى الموائد العمومية وينام فى محال النوم العمومية ومتى بلغ عمره ثلاثين سنة سمح له بالزواج وكل من بلغ هذا العمر ولم يتزوج يعاقبونه اذا استمر على غير زواج ومع هذا فما كان لهم حالة خاصة بمعيشتهم وكان الرجل الواحد يصرف معظم حياته فى العسكرية والالعاب الرياضية والصيد والذين عمرهم ستون سنة يزال عنهم جميع ما كان مربوطا عليهم من الاعمال الاسبرطية ويسمح لهم من هذا الوقت فى التمتع بما يعود عليهم من الراحة فى بيوتهم

وكان البنات يتعلمن أيضا تعليمات المصارعة العنيفة وكن مرعيات فى حالة أنهن قسم من المملكة ومن واجباتهن أن ينتجن أو يلدن أولادا أهل شدة وشهامة ومتى بلغ بنات الاسبرطيين عشرين سنة صار زواجهن والزوجة وان كانت متمتعة بائتلاف قليل مع زوجها الا انه كان يعاملها بأحسن المعاملات ويمنحها أعظم الحرية زيادة عن الممنوح بها أى زوجة فى الممالك الاخرى الجريسية وكانت المرأة تتهذب بما يعود منه الشرف والسمو لبلادها مدة حياتها وكانت الشهامة العظمى لنساء الاسبرطيين هى تهييج الرجال فى الحصول على أعمال الفروسية والشجاعة والاقدام على الاهوال والاخطار وكان الجبان يلاقى أرذل الاهانة والاحتقار من النساء ويكافأ الشجاع منهن بالمدح والثناء الزائد وكن يقلن لاولادهن حال توجههم الى القتال تعال امامع جعبتك أو محمولا عليها وكان موت الزوج أو الابن فى الوقائع الحربية من أسباب الشكر والثناء للآلهة

ولقد أكد بعض المؤرخين أن ليكورغس قسم أراضى المملكة ووزعها على أهلها الا أن أغلب المؤلفين المعول عليهم شكوا فى هذا القول وكذا قالوا ان ليكورغس أبطل جميع نقود الذهب والفضة من اسبرطة واستبدلها بحديد ثقيل فى المعاملة لاجل حرمان أهل اسبرطة من حبهم جمع هذه النقود وتكاثرها عندهم حتى لا يكون لجامعها نفوذ عظيم على الاسبرطيين وهذا يحتمل الشك فيه أيضا لان النقود الفضية لم تضرب فى الجريس الى زمن فيدون صاحب ارغوس فى القرن الذى جاء عقب هذا وان ابتداء ضرب النقود الذهبية كان فى اسيا وما كانت معروفة فى الجريس الا نادرا حتى فى الحرب الاخير الذى حصل فى بلوبونيز ومنع ليكورغس حالة التلذذ والترفه فى المعيشة وسهل الاسلوب اللازم اجراؤه فى معيشة الانسان وكان لا يسمح للاغراب بالتوطن فى اسبرطة من دون رخصة من حكامها ولا يرخص لتبعة اسبرطة بالتجول فى الجهات الاجنبية من غير رخصة من الحكام أيضا

وأخيرا لما قبل أهل اسبرطة قوانين وشرائع ليكورغس عزم هذا المشرع على أن يجعل نفسه أضحية أو قربانا من أجل بلاده ورفاهيتها ولما استمسك من أهل اسبرطة والملكين بقسم أكيد وثيق على أن لا يبدلوا شيأ من قوانينه حتى يرجع اليهم وكذا توطد استتباب الراحة والسكون الى الابد فى اسبرطة توجه ليكورغس ابتداء الى دلفى فأوحى اليه صنم دلفى بواسطة الكاهن أنه حافظ أهل اسبرطة فى جميع أفعالهم وأعمالهم ووعده بالفوز والنجاح لاهلها ماداموا متمسكين بشرائعه وقوانينه ثم سافر الى جهات غير معلومة ومن بعدها لم يظهر له خبر ولا جلية أثر واستمر الاسبرطيون متمسكين بقسمهم

صادقين فى اجرا آتهم على قوانين وشرائع ليكورغس وظهرت نتائج هذه القوانين مع السرعة وصار الاسبرطيون على حالة حسنة من التهذيب والتعليم والتدريب فى فنون العسكرية فى وقت ما كانت فيه الممالك الجريسية ليس لهم خبرة ولا دراية بمعرفة النظامات العسكرية ولا التهذيبات المدنية ولا فى أى فرع من معارف القوانين والشرائع التى عليها مدار الاحكام وشوكة المملكة ومن ثم صار الاسبرطيون لا يغلبون فى الحروب والوقائع وتغلبت اسبرطة مع العجلة على الممالك المجاورة لها وجعلت لنفسها السيادة العظمى على بلوبونيزه وفى آخر القرن تغلبت على مدينة اميقلى وصار الاسبرطيون أسياد كافة وادى عورطاس وخضع الاخائيون أوهربوا الى ايطاليا

واشتهر القرن التاسع قبل التاريخ المسيحى فى التاريخ الجريسى بانه عصر عميرالشاعر وذكر فى مدة ظهوره تواريخ مختلفة الا أنه من المحتمل أن تاريخ ظهوره كان فى سنة ٨٥٠ قبل الميلاد ولا أقل من سبع مدائن كل منها زعم أنها مسقط رأسه ومحل مولده وأما متأخرو المؤرخين فانهم يعتبرون أنه من أهل أزميرمن أعمال آسيا الصغرى ومن ثم كان من جريق آسيا وكانت أشعاره وقصائده الشعرية من أجود الاشعار الوطنية الجريسية فكانوا يغنون ويترغون بها فى المواسم والاعياد والمحافل العمومية والائتلافات المدنية فى كل مملكة من الممالك الجريسية ويقرؤنها عند الدفايات أى كوانين النار المجموع حولها العائلة الواحدة لاجل الدفاء والعشاء وبواسطتها وصل الجنس الهلينقى الى أعلى درجات الاتحاد وصارت أشعار عميراحدى العقد القوية فى الجامعة العمومية للاعضاء المختلفة للجنس الهلينقى وأما ارغوس فانها استمرت المملكة الاصلية لبلوبونيزه مدة القرن الثامن قبل التاريخ المسيحى وفى نحو ٧٨٠ قبل الميلاد جلس فيدون أعظم ملوكها على التخت وكانت الحكومة الملوكية ضعفت شوكتها بالكلية فى السلطنات السابقة وآلت الحكومة فى الحقيقة الى حكومة جمهورية لا ملوكية وكان الملك صورة وكان فيدون رجلا شهما مقداما فى جميع أفعاله ذا بسالة فى أعماله واجرا آته وأعاد فى مدة سلطنته شوكة السلطنة ونفوذها وصارت ارغوس أقوى مما كانت عليه قبل فى بلوبونيزه وفى مدة سلطنته استوطن الارجيفيون جزائر كريد ورودس وكوس وكيندوس وهليكارناسوس ومات فى نحو سنة ٧٤٤ قبل الميلاد وأخذت ارغوس فى ضعف شوكتها حالا واضمحلت حالة الحكومة حتى وصلت الى الحالة التى كان فيدون وجدها عليها وصار تاريخ مملكة ارغوس لا معنى له فى ذاته ولا فى صفاته

واستمرت اسبرطة مجرية حكومتها على حسب قوانين ليكورغس وشرائعه وكانت سلطة هذه القوانين جارية بأحسن مما كانت عليه فى القرن السالف ومن ثم صارت اسبرطة مملكة كثيرة العمران وانتظمت ادارتها وهيئة أحكامها ومدت سلطنتها على كل لاقونيا ولما استحوذت على كامل النظامات العسكرية من بين الممالك الجريسية شرعت فى الحروب مع ما جاورها من الممالك فتغلبت على كامل وادى عورطاس وأعقبه الحروب مع اركاديا وأرغوس وفى هذه الحروب اكتسبت اسبرطة بعض الفوائد والمنافع لنفسها وفقدت أرغوس جميع أراضيها التى كانت موجودة فى جنوب ثينوريا ولما تقوت بهذه النصرة شرعت فى اجراء تعديات كثيرة على مملكة مسينة الملاصقة لها واحتجت تارة بأن مقصدها توسيع أراضيها وتارة بالظلم والجور الحاصل من فاتحى الدوريانيين فى مسينة على رعاياها الاخائيين وأعقب هذه المنازعات والتعديات الشروع فى الحرب المعروف باسم الحرب المسينى وكان

ذلك

ذلك فى سنة ٧٤٣ قبل الميلاد وما كان لاسبرطة فى هذا الحرب الا حليف واحد وهو قورنثة وانضم الى مسينة ارغوس واركاديا وصكيون واستمر الحرب بينهم تسع عشرة سنة وكان سبب امتداده طول المدافعة التى كانت جارية من مدينة أثومى فى شأن حماية نفسها وفى أثناء سير الحرب ضعفت شهامة أهل مسينة على التدريج وفى السنة العشرين من هذا الحرب أرغمتهم اسبرطة على اخلاء مدينة أثومى وكملت الغلبة على المملكة وهرب كثير من السكان الى أرغوليس واركاديا والذين بقوا آلت حالتهم الى أن صاروا جميعا تحت يد الاسبرطيين وهدمت أثومى وتساوت مبانيها بالارض وحكمت اسبرطة ممالكها التى تغلبت عليها بنفوذ شديد وحكم ثابت عنيد واستمر المسينيون تسعا وثلاثين سنة فى ضيق شديد وظلم عنيف مديد

واشتهر القرن الثامن قبل الميلاد فى التاريخ الجريسى بانه تاريخ الاولمبياد أو احياء الالعاب الاولمبيادية وكان مبادى وجودها وسن قوانين اجرا آتها فى الجريس فى عهد عصر الشجاعة وكانت تشهر هذه الالعاب فى الاراضى المقدسة فى عليس من أعمال أولمبيا على شواطئ نهر الفوس تعظيما ليوف الاولمبى وهرقوليس وكانت تركت قبل فى زوايا الاهمال فى أثناء التغيير والتبديل والغلبة التى كانت حصلت عقب عصر الشجاعة الى أن صار احياؤها فى سنة ٧٧٦ قبل الميلاد والذى أحياها أفيطوس ملك عليس وهذه هى الرواية وان كان بعض المؤرخين جعل تاريخ أفيطوس متقدما عن هذا التاريخ بقرن واحد ومن بعد مضى مدة قليلة ابتدأ الجريسيون فى حساب مدد وقائعهم وحوادثهم وانقلاباتهم من ابتداء هذه الالعاب فاعتبروا أن الالعاب التى حصلت فى سنة ٧٧٦ قبل الميلاد هى الالعاب الاولمبيادية الاولى واستمر اشهار هذه الالعاب جاريا الى سنة ٣٩٤ قبل الميلاد وكانت تشهر فى آخر كل أربع سنوات والمسافة المحصورة بين كل شهرتين سموها أولمبياد ومازالت جارية حتى أبطلها الامبراطور طيودوسيوس وعهد عمل هذه المواسم الى العليانيين فانتخب هؤلاء جماعة من أنفسهم ليكونوا رؤساء على مثل هذه الملاهى كقضاة وحكام وأطلقوا عليهم اسم هيلانودين وحدد والكل موسم فى الابتداء يوما واحدا فقط ثم امتدت هذه الالعاب بعد وكثر عددها حتى وصلت أيامها خمسة أيام وكان أصل هذه الالعاب مقصورا على السباق بالجرى بالارجل على مسافة فرسخ واحد وأربعين قصبة يعنى استارية الا أنه أضيف عليها ألعاب أخرى مختلفة تختص بالقوة والشجاعة والبسالة والاقدام مثل الضرب باللكم واللى والاعوجاج والعصر والضرب واللكم مع الالتواء والقفز والنط والجرى وضرب دبابيس من الحديد ورميها ورمى النشاب والمصارعة والمطاردة وكان يدخل فى هذه الالعاب أيضا سباق الخيل والعربات الا أنه ما كان مرخصا لاحد أن يلبس درعا أو شيأ من ملابس الحروب باى حالة كانت وفى مدة الشهر التى كانت تشهر فيه هذه الالعاب تنقطع أعمال الحروب واجرا آتها من جميع الجهات والممالك الجريسية ماعدا حالة ما اذا كان الحرب جاريا مع أمة أجنبية محاربة لمملكة ما من الممالك الجريسية وما كان يرخص للعساكر والجيوش بالدخول فى حدود عليس لان دخولهم كانوا يعدونه انتهاك حرمة ونجاسة وكانت المكافآت التى تعطى للمنصورين أو الذين اكتسبوا الالعاب أكاليل من الزيتون الجبلى وكان هذا من أجود الامتيازات الباهرة فى الجريس وكانوا يعتبرون الغالب و ينظرون اليه بانه أشجع انسان فى الجيش الهلنيقى فى هذه الالعاب الاولمبيادية ويقيمون له تمثالا فى الايكة المقدسة المخصوصة الى يوف فى نواحى أولمبيا وعند عوده الى بلده يقابل باعظم درجات الاحترام

والشرف ويدخل مدينته فى موكب جليل من شرم يعمل لدخوله فى سور المدينة بالقول على أن حفظ شرف المدينة منوط باولادها وليس باسوارها المصنوعة من الاحجار وتمدحه الشعراء فى قصائدهم وأشعارهم وله حق الجلوس فى الصدر فى كافة الجمعيات العمومية ويعافى فى العادة من دفع الضرائب والعوائد وأما فى أثينة فكانوا يكافؤن مكتسب الاكليل الاولمبى بجائزة مقدارها ٥٠٠ درهم وله الحق فى أن يكون له محل على مائدة النواب فى ميدان المدينة وأما فى اسبرطه فكان له الحق فى أن يحارب وهو بجانب الملك فى الوقائع الحربية وكانت الالعاب الاولمبيادية مفروضة على كل شخص جريقى من دون امتياز فى الدرجة والغنية وكانوا يطردون الذين ايسوا من الجنس الجريسى من ميدان الالعاب مع الشدة والعنف وكانوا يأتون اليها أفواجا مزدحمين من كل فج عميق من كافة الممالك الجريسية لانه خلاف هذه الالعاب التى كانت مسنونة لمنافع معلومة أو لنوادر غريبة كان التاجر يجد فرصة لمبيع تجارته وينشد الشعراء قصائدهم وأشعارهم فى هذه الميادين وتشرح الفلاسفة ماعندهم من العلوم والمعارف الفلسفية لكافة أهل الجريس وكان الاولمبياد الاول من سنة ٧٧٦ الى سنة ٧٧٢ قبل الميلاد ومن ابتداء هذا الوقت أرخ الجريس مدة حوادثهم التاريخية الى حد المدة الاخيرة من سلطنتهم واضمحلال دولتهم

﴿ الباب الثالث ﴾

﴿ من ابتداء الاولمبياد الاول الى الحرب الفارسى ﴾

الحرب المسينى الثانى — استنتاجات اريسطومينس — خراب المملكة المسينية ودمارها — وصف الحكومة الاثينية — صيرورة شوكة المملكة فى أيدى الاشراف — قانون دراكو — مساعى صيلون فى القبض على الحكومة — انتهاء حرمة قداسة ميغاقليس — طرد القميونيدى — تغلب اسبرطة على طجيا — وجود سيادتها فى بلاد بولونيزه — طلبها حق التداخل فى أعمال الممالك الجريقية — الطاعون فى أثينة — تطهيرا بيمندس — القلاقل والارتباكات السياسية فى أثينة — شرائع سولون وقوانينه — السبعة الحكماء فى الجريس — عدم قبول البعض من اصلاحات سولون الا أنها قبلت جميعها فى أثينة — وضعها تحت المداولة والمباحثة — منازعات الاحزاب الاثينية — موت سولون — صيرورة بزيسطراطوس الآمر الناهى — طرده من أثينة — عوده اليها ثانيا — المضاربة مع ميغاقليس — طرده مرة ثانية وعوده الى تخته — فضله وكرمه — صدور أمره بجمع أشعار عبر وقصائده — موته — الاثنان الطاغيان — سلطنة هيباس — طرده من أثينة — عود القميونيدى — وجود كليسطنس فى السلطنة — تغييراته فى القانون الاثينى — كراهة الاشراف له — طرده وسرعة عوده — المنازعات بين أثينة واسبرطه — التغلب على عوبيا — مساعدة أثينة للجريق اليونانيين فى قيامهم وعصيانهم على فارس

قضى المسينيون التسع والثلاثين سنة التى جاءت عقب ختام الحرب المسينى الاول فى رق عنيف وظلم زاعق حريف وفى ختام هذه المدة قاموا فى ثورة على الاسبرطيين تحت قيادة واحد منهم اسمه اريسطومينس من اندانيا ومن ثم كان ابتداء الحرب المسينى الثانى فى سنة ٦٨٥ قبل الميلاد وجاء

الارجيفيون والاركاديون والصيكيون والبيزاطونيون لاجل مساعدة المسينيين وما كان مع اسبرطة الاقورنثه حليفتها كما كانت معها فى الحرب الاول فكانت الواقعة الاولى التى وقعت قبل وصول المحالفين غير فاصلة الا أن ما انتجته اريسطومينس من الاعمال أضعف قوة الاسبرطيين ووهنوا حتى استغاثوا بكاهن لهم ليكون قائدهم فى الحرب فأمرهم أن يبحثوا على قائد لهم من أثينة ولما خشى الاثينيون من عدم طاعتهم أمر الكاهن تداركوا انجاز أمره وأرسلوا للاسبرطيين واحدا أعرج من معلمى المكاتب اسمه طيرطيوس لاجل قيادتهم فهيج باشعاره وترنماته احياء الشهامة العاجزة للاسبرطيين وقواهم على الاجتهاد مرة أخرى فى انتشاب حرب وفى واقعة وقعت دخل فيها المحالفون فى جهة كل من المتحاربين بالقرب من قبر بوعار فى سهل صطنقليروس انهزم الاسبرطيون شر هزيمة وخسروا خسارات جسيمة وانجبروا على الانسحاب الى بلادهم وحصل فى السنة الثالثة من الحرب وقعة أخرى شديدة انهزم فيها المسينيون بخيانة حصلت من اريسطوقراطيس ملك أرخومينوس من اركادى وتولد من هذه الهزيمة أن صار لا طاقة لاريسطومينس على الخروج الى ميدان الحرب مرة ثانية وسحب نفسه وتوجه الى قلعة ايرا فى الجبل ومنها استمر الحرب احدى عشرة سنة وكان الاسبرطيون معسكرين تحت ذيل الجبل فكان اريسطومينس يخرج أحيانا من معقله ويغير على لاقونيا ويخرب بلادها بالسيف والنار وكان مظفرا فى أعماله هذه وقرب ثلاث مرات الى يوف الاثومى قربانا اسمه هيكاطومفنسه وكان لا يقرب الا بمعرفة الفارس الذى ذبح بيده مائة من الاعداء ثم قبض عليه ذات يوم مع جملة من أصحابه وأرسل الى اسبرطة فرموه مع أصحابه فى جب عميق فمات جميع أصحابه بمجرد رميهم فى الجب وأما اريسطومينس فانه لما وقع فى الجب لم يحصل له ضرر ولا أذى فانتظر موته من الجوع وشدة الضنك اذ لم ير خلاصه لنفسه من ضيق ما هو فيه وفى اليوم الثالث رأى ثعلبا يتلمس بين رمم الموتى فى الجب فقبض على ذيل الثعلب وصار يروغ منه من أجل خلاص نفسه فدله الثعلب على منور مفتوح فى الجبل فخرج اريسطومينس منه ونجا بنفسه وعاد الى قلعة ايرا فاستغرب واندهش أصدقاؤه وأعداؤه من طريقة خلاصه هذه الا أنه مع ما كان فيه من الشجاعة والظفر فان الحرب آل أمر نصرته الى الاسبرطيين وهجموا على قلعة ايرا ذات ليلة من ثلم عملوه فى سورها وكان اريسطومينس فى هذا الوقت مجروحا جرحا بليغا وصار لا طاقة له على محافظة القلعة فانقطع أمل الاعداء منه بواسطة شجاعة أصحابه فأخذوه ونجوا به وبأنفسهم وما زال سائرا فى طريقه حتى التجأ فى اركاديا وصمم على الهجوم على اسبرطة فأفشى اريسطوقراطيس أمره هذا الى اسبرطة فرجمه أهل بلاده بالاحجار فى نظير افشائه هذا السر ومن أجل هذا سار اريسطومينس الى رودس وقضى أيام حياته فيها وترك كثير من المسينيين بلادهم وهربوا الى رهجيوم من أعمال ايطاليا والآخرون أخضعهم الاسبرطيون وجعلوهم عبيدا وأرقاء هلوط واختار سكان بعض المدائن موقع بيربوصى

وانتهى الحرب فى سنة ٦٦٨ قبل الميلاد ولغاية سنة ٣٦٩ قبل الميلاد اختفت مسينة من وجه التاريخ وصارت أراضيها فى أثناء هذه المدة قسما من لاقونيا وكان ذكر اريسطومينس عزيزا جدا عند أهل بلاده ونشرت خرافات الازمان الاخيرة انه فى الواقعة الكبيرة التى حصلت فى نواحى لوقطره وفيها انحطت الشوكة اللاسدمونية شوهدت روحه منعشة لاهل بلاده وأوقع الدمار والخراب والتشتيت فى أعدائه

ثم جاء عقب الحرب المسيني حرب مع اركاديا لانها كانت حليفة مسينه ويظهر أن نتائج هذا الحرب كان تغلب اسبرطة على القسم الجنوبي من اركاديا وأما المساعي التي أجراها الاسبرطيون في التغلب على طجيا فكانت قليلة الفائدة جدا وكان موقع طجيا على غاية من الحصانة والمقاومة حتى قاومت فيه القوى الاسبرطية نحوا من ثلاثة قرون

وكان ابتداء التاريخ الحقيقي لاثينة في سنة ٦٨٣ قبل الميلاد وفي هذه السنة حصل تغيير في طريقة الارخونيين من عشر سنين الى سنة واحدة ومعنى الارخون الحاكم العمومي في كل شئ وازداد عددهم من واحد الى تسعة وعمل انتخابهم لمدة حياتهم وكان الاول منهم ملقبا بالارخن أي الوصي العمومي على حقوق أملاك الامة والارخن الثاني في هيئة ملك يحكم على الاحتفالات الدينية والثالث قائد الجيوش في الحرب والستة الباقون متشرعون يجرون الادارة العدلية وكان يوجد بالاضافة على الاراخنة مجلس اريوباغوس أو مجلس الشيوخ واسمه هذا مشتق من المحل الذي يجتمع فيه على جبل عال اتجاه اكروبوليس ويقال له جبل اريس أو تل مارث وكان هذا المجلس مركبا من العوباطريدين أي الاشراف فقط وجميع الارخونيين من بعد تمام سني وظيفتهم يصيرون أعضاء في هذا المجلس وكان يطلق عليه في الاصل اسم سناتو أو مجلس ومن بعد مدة شكل سولون مجلسا آخر (سناتو) ولقب المجلس الاصلي أريوباغوس لاجل تمييزه عن المجلس الآخر

واستمرت شوكة المملكة جميعها في يد الاشراف وآلت الحالة كما هي العادة في حكومة الاعيان الى استعمال التعدي والجور الفاحش على الامة واستحوذ الارخونيون على شوكة الاستبداد ومطلق التصرف حيث لا توجد قوانين مدونة تمنعهم ولا أمة تصدهم وتقنعهم وازدادوا في الاوامر والاجراآت التي يعود منها النفع عليهم بظلمهم البلاد وضررهم العباد وفي ظرف ست سنوات من تنصيب الارخونيين السنوية ازداد ضجر الاهالي وتذامروا فيما بينهم وكابدوا الآلام ونفروا كل النفور مما هو حاصل وطلبوا سن قوانين قاطعة وشرائع حاكمة تروع هؤلاء الاشراف ولا تجوز لهم الظلم والاسراف ولا يمكنهم أن يحيدوا عنها ولا يخالفوا قواعدها وأصولها ولا يقاوموها بأي حالة كانت وفي سنة ٦٢٤ قبل الميلاد صار تعيين دراقو لاجل سن قانون مدني فسن دراقو القانون وقدمه فكان في غاية من البساطة وحكم فيه بالموت على كل مجرم ومذنب وعلى كل لص وقاتل فمن هنا قالوا ان قوانين دراقو وشرائعه ما كتبت بالحبر بل كتبت بالدم وجعل حياة التبعة بأكملها في قانونه هذا تحت رحمة الاشراف فازداد نفور الامة وازداد الوحل وحلا وبل الهدو والاطمئنان وازداد النفور والهيجان وفي هذه الاثناء سعى واحد من الاشراف يسمى صيلون وانتهز الفرصة في مدة حصول هذه القلاقل وجعل نفسه طاغية أثينة في سنة ٦١٢ قبل الميلاد وكان من قبل حاز الاكليل الزيتوني في الالعاب الاولمبيقية وتزوج بابنة طغينس وكان هذا أيضا جعل نفسه طاغية بيغاره ثم تخابر صيلون في مقصده وعزمه مع كاهن دلفي فقال له اضبط أكروبولي في الموسم الاكبر ليوفنسي صيلون أن دياسيا كانت هي الموسم الاكبر ليوف في أثينة وفهم أن الكاهن عناه بالالعاب الاولمبيقية وبناء على فهمه ضبط أكروبوليس عند اشهار الالعاب في المرة التي جاءت بعد وكان معه جماعة كثيرة من الناس بعضهم من أحزابه وبعضهم عساكر كان جهزها الحموه ومع هذا فانه لم يجد مسعفا ولو كان معه كثير من الناس وأحاط به عساكر الحكومة في اكروبولي ولما رأى صيلون ذلك فر هاربا مع أخيه واشتد الجوع على أتباعه

وصار

وصار لا طاقة لهم على مقاومة هجوم عساكر الحكومة فالتجؤا الى معبد أثينى وهو معبد مينروه (الزهرة) ثم ان الارخن ميغاقليس أحد أعضاء العائلة القيمونيدية المشهورة وجدهم فى المعبد نخشى من أن موتهم فيه ينجس طهارة معبد المعبودة مينروه فألزمهم بالخروج منه والحضور عنده ووعدهم بسلامة حياتهم فأسرع أناس منهم اليه وتركوا المعبد وبمجرد خروجهم صفهم وقتلهم والذين هربوا منه التجؤا فى معبد عوميندس فذبحهم على أرض هذه البقعة

وتولد من وساخة هذه النصرة انتهاك الارخونيين حرمة المحلات الطاهرة فنشأ من ذلك قيام قلاقل وارتباكات فى المملكة وصار وايرون أن كافة العائلة القيمونيدية مدهونة بانتهاك الحرمات التى فعلها ميغاقليس وطلب أصدقاء الناس الذين قتلوا الانتقام وأخذ الثأر من هذه العائلة الملعونة وكان هؤلاء الاصدقاء على غاية من الثروة والنفوذ الزائد وصاروا متمسكين فى أمرهم ضد أعدائهم فى المدة التى كانت باقية من القرن وأخيرا صار نفيهم من أطيقه بقرار حصل الاقرار عليه من مجلس عقد لهذا الشأن مركب من ثلاثمائة عضو فى سنة ٥٩٧ بعد الميلاد

وانتهى الحرب بين اسبرطه واركاديا فى نحو سنة ٥٥٤ قبل الميلاد بواسطة خضوع طجيا الى اسبرطة وكان لا معنى لانتهاء حرب طالت مدته مثل هذا وفى نفس هذا الوقت صار اغتصاب طرياطيس من أرغوس وقام النفوذ الاسبرطى على ثلثى بلوپونيزه ولم تزل السياسة الاسبرطية مقصورة على الاعمال الداخلية اللاسيديمونيه مكدة على توسيع أراضيها وابتدأت فى كونها تأخذ لها مجالا عريضا وفى سنة ٥٥٥ قبل الميلاد وصل الى اسبرطة رسول من طرف قروصوص ملك ليديا معترفا بان اسبرطة هى المملكة الرئيسة فى الجريس ويطلب محالفتها والاجتهاد فى مساعدته على هزيمة الفرس فقبل الاسبرطيون رسول قروصوص وما جاء به من طرف قروصوص وأعدوا حملة لمساعدته ومن قبل تسفير هذه الحملة تغلب كيرش أو كيخسرو ملك فارس على ليديا وصار لا فائدة فى هذه الحملة وكانت هذه المحالفة مبادى سياسة اسبرطة فى الممالك البرانية وأعقب هذه الحملة حملات أخرى فيما وراء حدودها وفى سنة ٥٢٥ قبل الميلاد أرسلت اسبرطة وقورنثة حملة متحدة من الاثنين الى ساحل آسيا لاجل خلع وعزل بوليقراط صاحب ساموس فكانت هذه الحملة على غير طائل ولقد أدى طمع اسبرطة بما نالته من هذه النصرة والمخاطرات أن طلبت فى سنة ٥١٠ قبل الميلاد أن يكون لها الحق فى التداخل فى أعمال الممالك الجريقية الموجودة فى ماوراء حدود بلوپونيزه أشبه بانها محافظة على حقوق العالم فتولد من مساعيها ضد أطيقة أن نظروا اليها بعين الوجل الشديد والكراهة والبغض العنيد مدة قرن ونصف تقريبا ولم يحصل من طرد القيمونيديين فى سنة ٥٩٧ قبل الميلاد سكون الارتباعات الخرافية التى تسلطنت فى أثينة من انتهاك الحرمات التى فعلها ميغاقليس وبينما كان الاهالى على وجل شديد وتردد من وقوع الخوف والمصائب اذ حصل طاعون فى المدينة ظنوه آفة سماوية أرسلت لعذابهم وعقابهم من أجل هذه الجريمة فخابروا فيها كاهن دلفى فأشار عليهم بان يدعوا النبى قريطان المشهور والحكيم ايمانندس للحضور من أجل زيارة أثينة وبطهر وامدينتهم من النجاسات القذرة وانتهاك الحرمات وكان ايمانندس له الدرجة العالية فى معرفة التأثيرات الطبيعية للصحة فزار أثينة وأقام بعض شعائر وقرب قربانا واعتقد أهل أثينة من أعماله أنه سكن عنهم غضب الآلهة وانقطع الوباء وزال فقدم الاثينيون شكرا على خلاصهم من هذه الآفة وزنة من الذهب فلم يقبلها

ابيمانيدس منهم وماقبل منهم الا أن يعطوه فرعا من شجرة مقدسة من الزيتون مغروسة فى أكروبولى وكان تاريخ هذا التطهير فى سنة ٥٩٦ قبل الميلاد

ثم ان الارخونيين استشعروا باخطار حقيقية مهددة للمملكة فاستيقظوا لها وهى أن قربان أبيمانيدس وطهارته المدينة لم تفد فائدة فى ازالة الآفة أو الوباء من المدينة ولم يحصل منها تأثير على النفور الحاصل من الاهالى وتولد من هذا النفور أن انقسم أهل أثينة الى ثلاثة أحزاب هى أهل السواد ويتركب من أغنياء الاشراف وأهل الساحل وهم التجار وأهل الجبال ويدخل فيهم فقراء فلاحى أطيقه وازدادت هذه الشحناء الحاصلة بين الاهالى على القيام على بعضهم بكونه يوجد كثير من الحزب الثالث التزموا الضرورة احتياجاتهم أن يقترضوا نقودا من الاشراف باسعار مفرطة فى الارباح ولما صار لاطاقة لهم على سدادها لاربابها صاروا أرقاء لهم ولما رأى الارخونيون هذه الحالة المفزعة طلبوا من سولون أزكى أعضائهم سن قانون شرائع لاثينة بدل قانون دراقو

وكان سولون أحد الاشراف الكبار فى المدينة الا أن سعادته كانت وهنت جدا فى مبادى حياته فانجبر على أن يشتغل بالتجارة ليرمم مافقد من سعادته فجال فى مشروعاته التجارية وزار على التوالى الاقاليم المشهورة من الدنيا الجديدة ومارس شرائعها وعوائدها وجالس أهلها ومن ثم صار أعدل شخص فى العقل والذكاء فى أثينة للشغل الذى عهد اليه وكان ينسب نفسه الى ذرية الفارس كودروس وكان ابن عم بيزسطراطوس الذى سيأتى الكلام عليه وكان له شهرة بالعلم والحكم الطبيعية حتى عد من ضمن السبعة رجال الحكماء فى الجريس وأما الستة الآخرون فكانوا برياندر صاحب قورنثه وقوليبولص صاحب لندوس وبياس من برين وبطاقوس من ميتيلينة وطاليس صاحب ملطيس وشيلو من اسبرطة رفى نحو سنة ٦٠٠ قبل الميلاد كان سولون حرض الاثينيين وحثهم على السعى والاجتهاد فى استرداد جزيرة سلميس وكان تغلب عليها المغريانيون وقادهم بنفسه الى المحاربة واسترد المدينة لجهة أثينة وفى سنة ٥٩٤ قبل الميلاد صار انتخابه أرخن وعهد اليه سن قوانين وشرائع جديدة مع الحرية وسلطة الشوكة المطلقة ورضى جميع الاحزاب باحالة سن هذه القوانين اليه

وكان المقصد الاصلى من قوانين سولون الغاء الحكومة الطاغية الظالمة المستبدة المشكلة من الاعيان واستبدالها بحكومة متوسطة يكون فيها لجميع أرباب الطوائف التبعة صوت ولو كان نفوذ الحكم باقيا فى يد الاشراف فلاجل اتمام مرغوب هذا قسم الامة الى أربعة طوائف على حسب مدخولهم السنوى فأما الطائفة الاولى فهى البانطاقوصيوميدمنى وهم المستحوذون على مدخول ٥٠٠ اردب سنويا أى ميدمنى من الغلال وأما الطائفة الثانية فهم الهيپيس أو الفرسان وهم الذين مدخولهم سنويا ٣٠٠ ميدمنى من الغلال والثالثة الطوغيطى الذين مدخولهم ينوف عن ١٥٠ ميدمنى فى السنة من الغلال والرابعة الطيطس الذين مدخولهم لايقل عن ١٥٠ ميدمنى وكان للطائفة الاخيرة حق الصوت فى الانتخاب الا أنه لايوجد فى أحد منهم صلاحية لتوظيفه فى أى وظيفة من المصالح وكانت أعلى وظيفة هى وظيفة الارخينية ومقصورة فى أول طبقة من الامة أو الاكثر غنية فيهم ورتب سولون مجلس سناتو جديدا مركبا من ٤٠٠ عضو منهم ١٠٠ عضو من الاربع القبائل أو العشائر القديمة فى أثينة وكان انتخاب أعضاء هذا المجلس سنويا بواسطة أصوات الامة والواجبات الخاصة بهذا المجلس تحضير المواد النظامية واللوائح القانونية

وارسال نتائجها الى مجلس العموم وكان هذا المجلس أى مجلس العموم مركبا من جميع أصناف طوائف التبعة وفيه الارخونات وأرباب مجلس السناتو أو الاعيان ويوقع الحكم على الارخونية عند فراغ سنة توظيفهم ويقرر أو يرفض جميع اللوائح وأوراق القوانين التى تقدم اليه من مجلس الاعيان أو السناتو ورتب محاكم شرعية محلية لاجل سماع القضايا الواجب استئنافها الواردة من محاكم أخرى وهذه الحالة هى التى أدخلت فى أثينة البحث فى القضايا بواسطة وكلاء دعاوى وأما مجلس اريوباغوس فكان باقيا على ما كان عليه الا أنه كان منوطا بالمراقبة العمومية على سير القوانين والعمل بمقتضاها وله السلطة القوية فى الجبر على السير بواسطتها ومنع المخالفة لها أو المعاقبة على من يخالفها ولما رتب سولون المملكة بهذه المثابة شرع فى معالجة الامراض الحاصلة عند الاهالى المتولدة من حالة الفقر العام ومداواة المصائب المتسلطنة فى أثينة بما أنه فى حكومة الاعيان زادت ثروة الغنى وانحطت حالة الفقير زيادة عن أصلها فأبطل سولون جميع صكوك الاوراق أو المعاقدات المكفول فيها الارض أو نفس المديون للدائن ومنع الاستقراضات فى المستقبل التى يدخل فيها نفس الشخص رهنا على دينه للدائن ومن ثم أعتق جميع المديونين من الرق وخلص الاراضى من المستحوذين عليها بأوراق دين وأزال الاثقال والاحمال التى كان الاهالى متضجرين منها وأبطل بالكلية وجود العادة القبيحة وهى حالة الرق من أجل الدين وبواسطة هذه الاصلاحات خلصت طوائف الفقراء مما كانوا فيه من المشاكل والمصاعب الا أنه لم يزل موجودا أشخاص تركوا وليس لهم طاقة على سداد ما عليهم من الديون فلمساعدة هؤلاء نزل قيمة سعر النقود الجارى المعاملة بها بحيث ان كل مديون أزال عنه قيمة ربع ما عليه من الديون وبالطبع تولد من هذه الاصلاحات خسارة جة للاغنياء وخسر سولون نفسه خمس وزنات وقال هذا المشرع مع الذكاء والعقل ان وقوع الخسارة على الطائفة يلزم أن تكون قادرة على تحملها وقرر أيضا لاجل منع حالة الفقر أن كل والد أو أب يلزمه أن يعلم ابنه صنعة نافعة له ولو فى البيع والشراء يحفظ بها حياته وان لم يفعل صار الولد خالصا من جبره على مساعدة أبيه وفى وقت شيخوخته وكبر سنه

ورتب سولون أيضا مكافآت وعقابات على أمل انه يحرك العفة والشرف فى التبعة ومنعهم من فعل الجرائم والخبائث فأبطل القانون الدموى الذى كان سنه دراقو وكان من ضمن المكافآت التى قررها لاصدقاء التبعة أن تمنحهم تيجانا فى جمعيات العموم من طرف مجلس السناتو أو الامة فى دعوات عامة فى ميدان المدينة ومحلات الشرف فى محلات الملاعب والاحتفالات العمومية وتماثيل فى أغوره أو فى شوارع المدينة وقوى الاغراب على الاقامة فى أثينة الا أنهم يجبرون على أن يشتغلوا ببعض صنائع أو حرف نافعة وان مجلس اريوباغوس له الحق فى أن يعاقب المهمل والكسلان واللعاكف على الموبقات والخلاعات بأشد العقاب وأما السارق فعقابه أن يلزم برد ضعف قيمة ما سرقه من الاشياء وحرم كلام الغيبة فى الناس أحياء وأمواتا وكان سولون من أعظم رجال السياسة الا أن قوانينه ونظاماته ولدت له العداوة عند طائفة الاشراف وتضجر الطوائف من كونه لم يمنحهم ما يكفيهم فقال لهم وأوجز فى قوله وزاد فى شهامته ان قوانينه ليست جيدة الانشاء ولكن الاحسن قبولها عند الامة وتولد من المقام العالى الذى احترمه كافة الاحزاب عدم حصول شغب وهياج برهة ما وأخيرا حصل له الضنك وسوء الحال من تشكيات وأسئلة فوثق من الاثينيين بقسم أكيد على أنهم يحترمون قوانينه لمدة عشر سنوات وسافر الى البلاد الاجنبية فى سنة ٥٧٠ قبل الميلاد

ولما عاد الى أثينة فى سنة ٥٦٠ قبل الميلاد رأى حالة المملكة تمزقت بواسطة ما تشتهى الاحزاب من أغراضهم وعاد أهل السواد تحت قيادة ليكورغس وأهل الساحل تحت قيادة ميغاقليس وأهل الجبل تحت قيادة بيزيسطراطوس ابن عم سولون الى عداوتهم القديمة وكان أحسن الثلاثة القواد بيزيسطراطوس لما كان فيه من جمال الصورة والفروسية والسخاوة والبلاغة ومع هذا فانه كان منشارا نظيفا مثل سولون وكان لانظير له فى الطمع وجمع الاموال وصمم فى نفسه على أن يكون أستاذ أثينة ونجح فى هذه المادة لانه لما ظفر الجبليون على الحزبين الآخرين جعل هذه النصرة وسيلة فى أن جعل نفسه صاحب الامر والنهى المطلق أو كما سماه الجريق طاغية وقبض على زمام الشوكة العالية فى سنة ٥٦٠ قبل الميلاد ومن بعد هذه الحادثة بقليل مات سولون بعد أن جاهد وقاوم الفعل الذى صدر من قريبه وعلى حسب وصيته أحرقوه وذروا رماده حول جزيرة سلميس التى كان ردها الاثينة

ثم ان بيزيسطراطوس استمر فى ظرف الست سنوات الاول من بعد جلوسه على مراعاة شرائع سولون مع الصداقة والوفاء وفى سنة ٥٥٤ قبل الميلاد صار طرده من المدينة باتحاد الحزبين السوادى والسواحلى ومن بعد مضى بضع سنين تنازع الحزبان فطالب ميغاقليس رئيس حزب الساحل بيزيسطراطوس ثانيا الى سلطنته ومحل شوكته على شرط أن بيزسطراطوس يتزوج بابنة ميغاقليس فقبل بيزيسطراطوس هذا الشرط واستحوذ على تخته ثانيا فى سنة ٥٤٨ قبل الميلاد ثم تزوج ابنة ميغاقليس حسبما كان عليه من الاتفاق الا أنه لما كان لبيزيسطراطوس أولاد من زوجته الاولى وكان لا رغبة له فى امتزاج دمه بدم عائلة مرعية أنها ملعونة بسبب ما حصل من صيلون من انتهاك حرمة الاشياء المقدسة فعاملها بأنها زوجة له ولما استشعر ميغاقليس لهذا الفعل جدد محالفته مع ليكورغس قائد حزب السواد وطرد بيزيسطراطوس ثانيا من أثينة سنة ٥٤٧ قبل الميلاد فقضى عشر سنوات منفيا من أثينة واشتغل فى هذه المدة بتجنيد عساكر وجمع نقود من الجهات المختلفة من الجريس وفى سنة ٥٣٧ قبل الميلاد نزل فى مراثون بجيش جرار ولما انضم اليه أصدقاؤه زحف على أثينة وهزم أعداءه وجعل نفسه سيد المدينة مرة أخرى فتسلطن عشر سنوات أيضا سير فيها الادارة على حسب قوانين سولون مع العدل والانصاف ونسى الاهالى ضياع حريتهم بسبب معاملته اياهم بأحسن المعاملات وفتح دار كتبه وبساتينه الظريفة الموجودة على نهر الهيصوص ومنح الامة الدخول فيها وأمر بجمع أشعار عمير وقصائده وكانت موجودة لحد الآن مدشتة فى أوراق وان توضع فى قالب منظوم حتى يمكن للمغنين والمنشدين أن يغنوا بها وينشدوها فى العيد الاكبر والموسم الجامع وهذا العيد اثنا عشر يوما احتفالية لموسم أثينى مستحفظ أثينة وكانت سلطنته مطابقة بالتمام لقوانين وآراء سولون فكان أحسن الطغاة الذين حكموا فى الجريس الا أن طمعه كان عيبه الاكبر ومات فى سنة ٥٢٧ قبل الميلاد

ومن بعد موت بيزيسطراطوس خلفه ولداه هيباس وهيبارخوس وكانا يعرفان بالطاغيتين فتسلطنا مدة أربع عشرة سنة فى أمن وطمأنينة سائرين فى أحكامهما على ما كان أبوهما جاريا عليه فى حكمه ولما انفصل ضرائب الارض من العشر الى واحد من اثنى عشر أخذت أثينة فى التقدم والفلاح بسرعة حتى ان أهلها كانوا يعتبرون مدة سلطنتهما من أسعد المدد فى التاريخ الاثينى

وفى سلطنة ٥١٤ قبل الميلاد حصل تغيير فى هيئة السلطنة وذلك أن واحدا من أهل أثينة اسمه هرموديوس وقعت بينه وبين هبياس الطاغية كراهة شديدة فشدد هبياس تنديدا زائدا على أخته فى العموم وقذفها بالسب فتساعد هرموديوس بصديق له عنده اسمه اريسطوغيطون ورتب ثورة لاجل قتل الطاغيتين فتولد من هذه الثورة قتل هيبارخوس وأما هبياس فانه نجا وسلم بتدبيرة له الحاضر الا أن أحواله تغيرت من ابتداء هذا الوقت ونفرت طباعه من الناس وظن فى كل واحد أنه عدوّله وقتل كثيرا من التبعة وأهل المدينة وضرب عوائد وضرائب باهظة على الرعية فنفرت طبيعة الاهالى منه وبغضوه وأحس هو فى نفسه بأن خلعه وسقوطه لم يكن الا شيأ وقتيا فلاجل استعداده لمحل أمين يلتجئ اليه وقت نزول هذا الكرب شرع فى غرس ارتباطات الود والحب مع الفرس

ثم ان القميونيدى وكان على قيد الحياة فى النفى من عهد العود الثالث أى الاخير لبيزيسطراطوس أغار على أطيقة مؤملا فى ذلك طرد الطاغية الا أن هبياس هزمه وكسر جيشه ثم ان كليسينس رئيس العائلة استحصل على وصاية من كاهن دلفى يدعو بها الاسبرطيون للمساعدة فى خلاص أثينة من الطاغية وكان كليسينس هذا رشى الدلفيانيين بهدية نفيسة وهى انه بنى لهم معبدا مفتخرا فى مكان المعبد القديم الذى كان جميعه أحرق من نار شبت فيه ودمرته فكانت نتيجة هذه الوصية أن أغار الاسبرطيون على أطيقة الا أنها كانت على غير طائل ثم غزاها مرة ثانية وتغلب على أثينة ونفى هبياس مع جميع أقاربه مدة حياتهم سنة ٥١٠ قبل الميلاد

ولما صار كليسينس رئيس المملكة اتحد مع الحزب الاهلى وقسم الامة الى عشرة عشائر وقسم المملكة كورا وجعل فى كل كورة عاملا له ومجلسا من أهلها واستصوب جميع السكان الحرة الموجودين فى أطيقة الامتيازات المدنية التى أعطيت للتبعة وأولاد البلد وزاد مجلس السناتو الى ٥٠٠ عضو يعنى من كل عشيرة خمسون عضوا ولاجل الاحتراز والمحافظة من قوة غاصبة ربما يحصل وقوعها من احاد الناس سن كليسينس قانون النفى وأمر أنه لا يمكن نفى مدنى أو واحد من التبعة الا من بعد محاكمته أو يدافع عن نفسه فان قرر مجلس السناتو بضرورة نفيه يكتب كل مدنى وكل واحد من التبعة اسم اللازم نفيه على شقفة أو محارة فان وجد هذا مكتوبا من ستة آلاف نفس ألزم الشخص بترك أثينة مدة عشرة أيام وكانت مدة النفى مقررة لحد عشر سنوات فآلت حسب هذه الاحوال الى خمس سنوات فقط

وتولد من اجراآت وأحكام كليسينس بغض الاشراف له وكراهتهم له وطلب رئيس الاشراف المسمى ايصاغورس تداخل الاسبرطيين فى أشغال أثينة وأن يطردوا القميونيدى الذين أجلسوه ونفى ايصاغورس سبعمائة عائلة من أثينة بمساعدة كليومنس ملك اسبرطة لاجل ابطال مجلس السناتو وشرع فى تغييرات تولد منها الثوران والهياج فقامت الامة بالسلاح وحصروا ايصاغورس والاسبرطيين فى القلعة فقبل ايصاغورس أن يسلم نفسه اليهم على شرط ان يترك البلاد فخرج منها مع الاسبرطيين خائفا يترقب وطلبوا كليسينس مرة ثانية وأعادوا قوانينه واجراآته فى أثينة

وفى غضون ذلك جمع كليومنس ملك اسبرطة جيشا كثيفا فى بلوبونيزه وعقد محالفة مع طيبة وأهل كالسيدونية سكان عوبيا عازما على اخضاع أثينة وارغامها الى الانقياد لطاعة ايصاغورس والاعتراف بأنه طاغيتها فارتاع الاثينيون من كثرة قوى أعدائهم وطلبوا المساعدة من فارس فاتفق الفرس على

مساعدتهم بشرط أن يكونوا خراجيين لهم فلم تقبل أثينة هذا الشرط مع شدة الغضب والحنق واستعدت لملاقاة الخطب الذى سيقع عليها بمفردها وفى أثناء ذلك دخل الجيش المتحد أطيقة وفى هذا الوقت كان كليومنس يخفى من محالفيه البلوبونيزيين المقصد الاصلى لهذه الحملة ولما استيقظوا منه رفضوا اشتراكهم وتداخلهم فى هزيمة الاثنيين وهشم حريتهم فانجبر بهذا ملك اسبرطة على أن يترك ما كان فى عزمه ونيته وعاد الى بلاده

ولما خلص الاثينيون من هذا الكرب العظيم زحفوا على أهل طيبة وبلادها وهزموهم وعبروا الى عوبيا وأوقعوا بالكالثيدونيين وأذاقوهم أشد العقاب واستحوذوا على جميع أملاك الجزيرة ووزعوا الاملاك العظيمة التى كانت للكالثيدونيين على ٤٠٠٠ نفس من تبعتهم سكنوا عوبيا تحت اسم أصحاب البخت أو النصيب

ثم ان اسبرطة اجتهدت وكدت فى ايقاد نار حرب آخر ضد أثينة وكانت هذه الحملة فى هذه الدفعة من أجل الزام أثينة فى قبولها هيباس طاغية لها وعوده الى تخته كما كان فلم تقبل ممالك بلوبونيزه الاشتراك والسعى فى الدخول فى هذا المقصد فالتزمت اسبرطة على اطفاء نار حربها وصار هيباس مقطوع اليأس من مشروع الاسبرطيين وطاعنا فى السن ولما خابت اماله فى اسبرطة وآمال اسبرطة فى أثينة سار هيباس الى الديوان الفارسى وأشغل نفسه بتحريض دارا وحثه على اعادته الى تخته مرة أخرى

ثم ان أثينة دخلت فى مشروع أعمال كبيرة وتعالت بظفراتها وعظم شوكتها فى بلادها وخاطرت بنفسها فى مساعدة يونان الجريق على العصيان على مملكة فارس ومع هذا فما كانت مساعدتها لهم قلبية بل انسحبت من هذا التحالف بمجرد ما رأت أول مصيبة حصلت لهم وأما فى بلادها فكانت ادارتها وحكومتها على غاية من النجاح والفلاح ونشرت قوانين كليسنس على التبعة وأولاد البلد وجعلت لهم المنافع الشخصية والاعمال العمومية الوطنية حتى صاروا ثابتى النظام فى الحروب الشديدة التى أنشبتها عليهم فارس وكابدوا محنها ومشاقها فى القرن التالى

الباب الرابع

﴿ الحروب الفارسية ﴾

جعل الجريس عرضة لغضب فارس ــ حصول السعى والكد فى اتحاد الممالك الجريقية بشأن مدافعتهم العمومية ــ حملة مردونيوس ــ هزيمته وخيبة حملته ــ طلب دارا خضوع الممالك الجريقية ــ غارة داطيس على الجريس ــ تغلب الفرس على ارطرنيا ــ نزول الفرس فى مرثون ــ صيرورة ملتيادس قائد الجريق ــ واقعة مرثون ــ جلالة النصرة وسموها ــ اجتهاد داطيس فى الهجوم بغتة على أثينة ــ خيبة اماله ــ اقلاعه الى اسيا ــ نتائج أعمال ملتيادس ــ نفى اريسطيديس ــ شوكة تمستقل فى أثينة ــ الحرب مع ايجينه ــ تبصر تمستقل فى العواقب ــ تحريضه الاثينيين على استعداد اسطول ــ وصف تمستقل ــ غارة أردشير على الجريق ــ واقعة ترموبيلى ــ دمار أثينة بواسطة أهاليها ــ احتلال الفرس فيها ــ حرقهم المدينة ــ واقعة سلميس ــ ظفر الجريق ونصرتهم ــ ترك أردشير السعى فى الغلبة على الجريس ــ عوده الى آسيا ــ تجديد مردونيوس

السعي في الغلبة على الجريس ـ واقعة بلاطية ـ ابادة الجيش الفارسي ـ النصرة البحرية في نواحي ميخالي ـ مظفرات أخرى للجريق

ثم تولد من مداخلة جريق أوروبا في العصيان اليوناني في آسيا غضب دارا ملك فارس عليهم وجعل هذه حجة قطعية على فؤاد الجريق بأن أرضهم هي المشروع الثاني من مشروعات الملك الاعظم والبطش بهم والانتقام منهم وقد علم الجريق صراحة بأن الفرس لا يكتفون بالغلبة على مملكتي أثينة وارطريا المبغوضتين عندهم بل وربما يبحثون على الطرق اللازمة في جلب الجريس جميعها تحت سلطنتهم فمن ثم كان الخطب والكرب عاما على جميع الهلاس ومن هنا حصل السعي والكد في جلب كافة الممالك الجريقية في جامعة واحدة لاجل اجراء المدافعة العمومية عن بلادهم وأموالهم وأولادهم وكانت اسبرطة أقوى مملكة وأشد شوكة في القوى العسكرية فجعلت لها القيادة العمومية ومع هذا فان هذا الاتحاد لم يتم أمره الى أن اشتعلت نيران الحرب وسنرى من سياق هذه الحكاية أن الميل الى الجامعة العمومية تحت قيادة مملكة واحدة استمر وجوده مدة طويلة بين الجريق حتى من بعد زوال الخطر الذي كان سيأتي حصوله ومن ابتداء هذا الوقت تظهر لنا درجة رابطة حقيقية في الاعمال الجريسية لم تستحوذ عليها هذه المملكة من قبل في التاريخ القديم لها

ولم ينس دارا وعده في الانتقام والبطش بالجريق فانه في سنة ٤٩٢ قبل الميلاد وجه زوج ابنته أي صهره مردونيوس قائدا اسطول قوي وجيش الى الجريس وأمره بأن يجلب الى فارس الاثينيين والارطريانيين الذين تجاسروا على انتهاك حرمات الملك الاعظم فعبر مردونيوس بوغاز الهلسيون (الدردانيل) مع جيشه وسار من وسط تراسة فلاقى في سيره مقاومات صعبة وحروبا شديدة من البريغيانيين وهم قبيلة من اقليم تراسة فهو وان كان قهرهم وقادهم الى الطاعة والانقياد الا أن قوة جيشه ضعفت وصار لا طاقة له على استمرار سيره نحو الجريس وأقام الزعازع والرياح على أسطوله في البحر في هذا الوقت وانصدمت سفائنه على صخور رأس جبل أتوس وانكسر منها عدد كثير وهلك نحو ٢٠٠٠٠ نفس من هذه العواصف وضعفت حالة مردونيوس بالكلية فعاد متقهقرا الى اسيا وتمت على حملته الخيبة وعدم النجاح

ومع ما حصل من هذه الخيبة فان دارا لم تحبط أعماله بل قويت عزائمه زيادة عن الاول فأرسل رسلا الى عموم الممالك الجريسية يطلب منهم التراب والماء اشارة الى خضوعهم له فارتاع معظم الممالك الجريسية من سطوة هذا الملك الكبير وأجابوا طلبه الا أن الرسل الذين صار ارسالهم الى أثينة رماهم الاثينيون في جب عميق نظرا لما حصل عند أهل المدينة من الغضب والحنق وأما الاسبرطيون فانهم طرحوا الرسل الذين أرسلوا اليهم في بئر وأمروهم أن يأخذوا منها التراب والماء

وفي سنة ٤٩٠ قبل الميلاد وجه دارا جيشا قويا واسطولا مؤلفا من ٦٠٠ سفينة حربية وكثيرا من سفائن النقل تحت قيادة داطيس من أهل ميديا لاجل التغلب على الجريس وخصوصا خراب أثينة وارطريا من جزيرة عوبيا ويسترق أهلها فاقلع داطيس باسطوله مباشرة وعبر بحر الارخبيل وأخضع في طريقه جزائر السكلاده ووصل عوبيا وتغلب على ارطريا بعد أن حاصرها ستة أيام بواسطة خيانة حصلت من اثنين من حزب الاشراف ونهب المدينة وحرقها وساق أهلها في السلاسل والاغلال الى

المراكب الفارسية ثم عبر داطيس عوريبوس ونزل فى مرثون من أطيقة قاصدا البطش بأثينة وأهلها فبذل الاثينيون جهدهم وجمعوا قوة تحت قيادة ملتياد وتمستقل وارسطيد وقوادا أخر وكان ملتياد من بين هؤلاء أشجعهم وأفرسهم وكان فى مبادى أمره خدم دارا حالما كان دارا برنسا فى خرسونس وأرسلوا ساعيا سريع الجرى الى اسبرطة يعلم أهلها بنزول الفرس فى مرثون فوعد الاسبرطيون مساعدتهم الا أن طبيعة حبهم النفس الذاتية أبطأت ورود المساعدة وأجلت الوعد الذى وعدوه وجمع الاثينيون قواهم وعساكرهم فوق العلالى والمرتفعات المطلة على سهل مرثون المعسكر فيه الجيش الفارسى العريض فانقسم قوادهم فى الرأى وقال بعضهم ان الاوفق حصول الحرب فى هذا الوقت ورجح آخرون الانتظار لحين ورود الامداد من اسبرطه حسبما وعدت به وأخيرا غلب عليهم رأى ملتياد فى الهجوم على العدو فى الحال ولاجل انتظام حركاتهم الحربية وأن لا يكون للجيش الا قائد واحد تنازل كل من القواد عن اليوم الذى يحكم الجيش فيه الى ملتياد وجعلوا قيادة الجيش وتدبير حركات الهجوم والحرب تحت امرة ملتياد واستقرت الرابطة بينهم ووافق فى هذا الوقت ورود ١٠٠٠ من العساكر الثقيلة وهم كافة فوارس سكان مدينة بلاطية الصغيرة من أعمال بيوطيا مشتركين فى عاقبة ماتؤل اليه حالة أصدقائهم الاثينيين شكرا لهم على مافعلوه من معروفهم السابق عليهم فعشم الاثينيون بالنصر والظفر ومع هذا فكانت المخاوف حائقة بهم وكان تعداد الجريق ١٠٠٠٠ نفس من العساكر الثقيلة وقليل من العساكر الخفيفة والرقيق وأما تعداد عساكر الفرس فكان ١١٠٠٠٠ نفس فى النهاية الصغرى فاما ملتياد فانه لم يبال بكثرة هذا الفرق الكبير وهجم مع الشدة والبسالة على الفرس وبددهم وطردهم الى مراكبهم بخسارة قدرها ٦٤٠٠ قتيل ولم يقتل من الجريق فى هذه الواقعة الا ١٩٢ نفس وقيل ان الطاغية هيباس قتل فى هذه المعركة ودخل داطيس بمراكبه فى البحر وأقلع عازما على الهجوم على أثينة فجأة بكونه يلف من ثنية رأس سونيوم حال غياب مدافعيها عنها ولما عرف ملتياد من هيئة حركته وعزمه على الانقلاع الى أثينة جد فى السير بجيشه ليلا حتى وصل الى أثينة وقطع آمال داطيس مما كان ساعيا فيه فاقلع داطيس بالاسطول الفارسى الى آسيا ومعه أسرى ارطريا

وكانت واقعة مرثون من أعظم الوقائع التى لم يظفر الجيش الجريسى بنصرة مثلها فى السابق وكانت أول حاجز منيع وصد شديد لكل مايحصل من أى جهة من ناحية الفرس وعرف الجريق كيفية أحوالهم النظامية والوقائع الحربية وكيف يقاومون الجيوش الكثيفة من آسيا وجعلت هذه النصرة لهم وقتا كافيا يستعدون فيه من أجل اشعالهم آخر حرب يخلصون به حرية بلادهم وشجعتهم على اجراء الجد والكد حال وقوع الخطر الاكبر عليهم

وبواسطة هذه النصرة صار التأهل بملتياد فى المدينة مع الاحتفال الزائد واستمر مدة ما جليل القدر سامى الدرجة محبوبا عند العموم وكان الفرس جلب معهم كتلة من الرخام الابيض يقيمونها علامة نصرهم فى ميدان مرثون حسبما طرأ فى عقلهم من الاول من أن الغلبة والنصر لهم فنقشها فيدياس على صورة نمسيس الجبار وأما الجعب والتروس البرنز وطقومة الزرخ التى استحوذ عليها الاثينيون من الفرس فانهم سبكوها جميعها تمثالا واحدا ضخما على صورة أثينى بروماخوس وأقاموا هذا التمثال فى

اكروبولى أمكن مشاهدته من البحر على مسافة بعيدة خلف رأس سونيوم وأما ١٩٢ فارس الذين قتلوا فى ميدان الحرب من الجريق فانهم دفنوهم فى وسط الميدان وشيدوا عليهم قبة جسيمة

وأما ملشياد فكانت له السعادة الكبرى لو كان مات فى ميدان عزه ومجده لان الفعل الجميل الذى فعله لبلاده وأهل مملكته عاد عليه بالذم القبيح من أهل المدينة وآلت حالته الى أسوء الاحوال وأقبح الاعمال بما صدر منه من الاجراآت التى قذرت أعماله وعمت بالتكدير على حياته وذلك أنه طلب اسطولا مركبا من سبعين سفينة ومبلغا وافرا من النقود ووعد الاثينيين بان يضيف أملاكا عظيمة الى أملاكهم لكنه لم يصرح لهم بالمطلوب من الغزوة التى سيغزوها ولما كان الجميع واثقين باقواله معتمدين على أفعاله قبلوا طلباته من غير تردد فيها ولا اهمال فاستعمل غزوته هذه فى الانتقام والبطش بجزيرة باروس وكان على كراهة شديدة من أهلها العداوة قديمة بينهم فقاومت باروس أنواع هجومه عليها وأصيب بجرح بليغ وقت معاناته وكده فى التغلب على المدينة ولما ضعفت قوته رفع الحصار عن مدينة باروس ورجع عائدا الى أثينة غير محمود العاقبة فوبخه اجزنطيبوس قائد الاشراف ولعنه على قبيح أفعاله من كونه غش الامة ووضعه تحت المحاكمة ولما كان لا طاقة له على المشى أحضر أمام قضاته فى عربته وما كان له قدرة على أن يدافع عن نفسه الا حكاية حكاها عما فعله فى خدمته الامة الاثينية وهو وان كان يستحق الموت حسب القوانين الا أن الامة ما قبلت موت فاتح مرثون فحكموا عليه بغرامة مبلغ خمسين وزنة ومن المحتمل أن هذا المبلغ قيمة تكاليف الحملة على وجه التقريب ولما لم يكن له طاقة على دفع هذه الغرامة فى الحال دفعها عنه ابنه سيمون على وجه التقسيط ومات ملشياد بعد ذلك بقليل من شدة آلام جرحه

ومن بعد موت ملشياد صار اريسطيدس القائد المدنى فى أثينة وهو وان كان غير شريف المولد الا أنه كان عاكفا نفسه على أشغال منفعة الامة مع حزم الرأى وذكاء العقل وأكسبه كمال عفته وحسن معاملته اسم الرجل العادل وكان خصمه الاكبر تمستقل أحد مشاهير شجعان الجريق ونجح تمستقل أخيرا فى كونه أوقع النفى والطرد على أريسطيدس وهو مجرد حكم تعصبى فقط لان الاثينيين ما كان فى امكانهم توقيع أى عمل على اريسطيدس يتسبب منه توقيع مثل هذا العقاب عليه

ومن بعد نفى اريسطيدس صار تمستقل صاحب السيادة والشوكة فى أثينة من دون أن يكون له منازع ولا معارض وكان رجلا على غاية من المكنة والبسالة وذكاء العقل وكان يخفى فى نفسه رأيه فى أن يجعل أثينة على استعداد لمقابلة الخطب الاكبر المؤكد عنده وقوعه من أن مملكة فارس لابد لها من حركة كبيرة على الجريس ومن منذ النصرة التى حصلت فى مرثون كان الحرب بين أثينة وايجينة وقفت حركته بالنسبة لما حصل من زيادة المشاحنات والحروب بين فارس وأثينة الا أن العداوة والبغضاء لم تزل موجودة بين هاتين المملكتين وتولد من هذا الحرب فى آخر الامر البناء الزائد الذى به لا يمكن سقوط الجمهورية وكانت مملكة ايجينة فى هذا الوقت أقوى دولة بحرية فى الجريس وأما أثينة فكانت بعكسها لا اسطول عندها ولا قوة بحرية لها ولما عرف تمستقل أهمية وجود اسطول قوى وقت اقتراب الملاحمة مع فارس صمم على أن يجعل الحرب الايجيانى وسيلة الى استعداد أسطول لاثينة لانه لو عرض لهم مقصوده الحقيقى ربما يسخرون منه ويضحكون عليه لانه لا يوجد الا قليل من أهل بلاده يعرف ما آرب فارس فمن ثم طلب من الاثينيين انشاء اسطول يفوق على أسطول ايجينة وان

يخصص لتكاليفه المدخولات الجاري جمعها من معادن الفضة فى لوريوم فأجيبت مشورته وصدرت الاوامر اللازمة فى انشاء اسطول مركب من ٢٠٠ سفينة حربية وكذلك أصدر المجلس أمرا بتشغيل عشرين سفينة جديدة كل سنة ومن ثمرة تعقل هذا الرجل السياسى فى العواقب حصل الظفر والنصر فى الواقعة الكبيرة التى حصلت فى نواحى سلميس واكتسبها الجريق ولما كانت استقامة تمستقل معادلة لنباهته ومكنته صيرت اسمه أشهر الاسماء سموا بين الاسماء العالية الشرف من الهلاس وذلك أن ذكاءه فى تدبيراته الآراء التى أعدها الاعداء بلاده ومراوغته بحذاقة وفطنة حتى استحوذ على جريان الاشغال فى محورها اللازم له فى أصعب الاحوال وسرعة أشغاله بشهامة لا تكل ولا تتعب بحيث انه وضع بها تدبيراته وآراءه فى ميدان العمل جعلته أعظم رجال السياسة فى عصره وكانت تبصرات تمستقل وذكاؤه مثبوتا بواسطة الاجراآت الكبيرة والاستعدادات المهولة الحاصلة من اردشير بشأن الغارة على الجريس ولما عرفت أسباب هذه التحضيرات فى الجريس شرعت أثينة واسبرطة واجتهدتا فى جمع جميع الممالك الجريقية فى جامعة واحدة من أجل المدافعة العمومية عن ممالكهم وكان أشهر هذه الاجتهادات والمساعى التى حصلت هو عقد مجلس من عموم الممالك الجريسية فى برزخ قورنثة دعاهم فيه أثينة واسبرطة وكان مقدار من هذه الممالك لم يقبل الدخول فى الجامعة العمومية خوفا من فارس ورجحوا اضياع حريتهم على سفك دمائهم فى الحروب المقبلة عليهم الا أن المجلس نجح فى مقصده الذى عقد من أجله وشرعوا فى أخذ الاحتياطات اللازمة بخصوص حمايات شديدة وعهدت القيادة العسكرية الى اسبرطة وقد ذكرنا استعدادات أردشير بن دارا وخليفته من أجل الغارة على الجريس فى كلامنا على تاريخ مملكة فارس فى الجزء الاول وفى فصل ربيع سنة ٤٨٠ قبل الميلاد دخل أردشير الجريس فى رأس جيش عريض تابعاله اسطوله المفتخر بالقرب منه فى البحر فى طول الساحل وسار من وسط تراسة ومقدونيا ودخل فى تساليا ولم يحصل من الجريق أدنى اهتمام فى ضبط تساليا والمحافظة عليها بل رتبوا قوة قليلة تحت قيادة ليونيداس ملك اسبرطة فى بوغاز ترموبيلى مفتاح الجريس الوسطى لاجل ضبطه لحين تيسر الحصول على جمع الجيش الاصلى ورتبوا فرقة قوية من أسطول الاتحاد فى بوغاز أرطميسيوم لاجل محافظة هذا البوغاز الضيق ومنع العدو من أن ينزل عساكره فى النهاية الجنوبية من البوغاز وكانت قوة ليونيداس محصورة فى ٧٠٠٠ نفس منها ٣٠٠ من الاسبرطيين و ٣٠٠٠ من عساكر ثقيلة من الممالك الاخرى من جهات بلوبونيز و ٧٠٠ طسبيانيين و ٤٠٠ من طيبة كان ليونيداس أرغم أهل طيبة باستعدادهم وارسالهم و ١٠٠٠ من فوسية وشرذمة كبيرة من لوقريس عوبنطى وبمجرد وصول ليونيداس فى ترموبيلى عرف من أول وهلة أنه يوجد طريق يوصل الى رأس الجبل ومنه يمكن اللف والدوران حول الدرب أو البوغاز فرتب ليونيداس القوسيانيين على رأس الجبل حسب رغبتهم لاجل المحافظة على هذا الطريق

وانتظر اردشير أربعة أيام تقهقر القوى الجريسية من البوغاز وما كان يظن جراءتهم على مقاومته فى هذا الدرب وفى اليوم الخامس أرسل فرقة من العساكر المدينية الثابتة من أجل الهجوم بغتة على الدرب فصدهم الجريق وطردوهم على أعقابهم فأرسل مرة ثانية القوى الثابتة لاجل الهجوم أيضا فكانت على غير طائل مثل الاولى وحصل له تلفيات مهولة من الجريق وبينما هو متفكر فى قطع آماله

من

من تغلبه على هـذا البوغاز اذ حضر اليه واحد ما اليانى اسمه افيالطيس وأخبر ملك فارس بسكة سرية توصل الى أعلى الجبل فانتظر أردشير حتى دخل الليل وأرسل القوى الثابتة لاجل عبور الجبل من هذه الطريق بدلالة خائن بلاده و يلفون موقع الجريق و يهجمون عليهم من خلفهم حالما يجرى الهجوم من أمامهم فـاز الواسائر بن طول الليل حتى لاح فجر اليوم الثانى و وصلوا موقع الفوسيانيين و بدلا من أن الفوسيانيين يهجمون عليهم و يصدونهم و يحفظون الطريق تقهقروا الى رأس الجبل ولم يحصل من الفرس التفات اليهم بل ساروا ونزلوا فى الجهة الجنوبية من الجبل خلف الجريق

ولما تحقق ليونيداس من وقوع الخطر الذى حل به عقد مجلسا حربيا تقرر فيه من حيث ان البوغاز صار دورانه فيتقهقر الجيش أمام عسكر الفرس لئلا يقطعون خط رجعتهم و وجود حياة الجيش ضرورى لاجل المدافعة عن الجريس فى الاحوال القابلة فأمر ليونيداس بأن كل من رغب القهقرة فليرجع وأما هو فانه قال انه رجل اسبرطى وان قوانين بلاده تلزمه اما النصر واما الموت فى ميدان الواقعة وانه من ضروريات الاحوال بقاؤه فى هذا الموقع فكان هو فى الحقيقة الرجل الذى باع حياته كما أنبأ بذلك كاهن دلفى بأنه يلزم اما سقوط اسبرطة أو موت ملكها ولم تقبل الثلاثمائة نفس اسبرطى مفارقة ملكهم الفارس وكذا السبعمائة نفس طسبيانى صمموا على أن يقاسموا اخوانهم فيما تؤول اليه حالتهم وأرغم ليونيداس الاربعمائة نفس من طيبة على البقا معه

ولما استشعر أردشير فى وقت الظهر بوصول القوى الثابتة خلف الدرب أمر بالهجوم عنوة على الدرب وكان ليونيداس حصن طريقه فى مبادى أمره بمتاريس قاطعة له الا أن الجريق خرجوا من خلف المتاريس وهجموا هجوما عنيفا على الفرس وأوقعوا فيهم خسارات جسيمة وكذا حصل فيهم مقتلة شديدة وكان سبب وجود هذا الكرب الاكبر على هذه الشرذمة القليلة الباسلة هو الخيانة الحاصلة من أهل البلاد وصار الفرس لا طاقة لهم على ملاحمتهم الا بالشدة فيهم والزامهم الحرب بالقوة جبرا عنهم ومادام الجريق حافظين محلاتهم فى داخل مواقعهم كان الفرس لا يغلبونهم وأخيرا تكسرت رماحهم وطوارقهم وصاروا لا يملكون فى أيديهم الا السيوف فقط فابتدأ الفرس فى التغلب على الموقع وقتل ليونيداس وزحف الفرس أربع مرات زحفا شديدا لاجل أخذ جثة ليونيداس فما قدروا لان الجريس كانوا يصدونهم كل مرة صدا عنيفا مع تلفيات وخسارات جسيمة ثم ظهرت القوى الثابتة الفارسية من النهاية الاخرى للعبر فاستغاث بهم عساكر طيبة وقالوا لهم نحن مغصوبون على أنفسنا فى الحرب فأعتقوهم ونجوا بحياتهم وأما الذين فضلوا على قيد الحياة من الاسبرطيين ومن الطسبيانيين فان الفرس تغلبوا عليهم وقتلوهم ولم ينج منهم أحد الا واحد هرب الى اسبرطة وأخبر بالواقعة فقابلوه بالاهانة لانه لم يشارك اخوانه فى عاقبة أمرهم ولما أخذ الجريسيون راحتهم وحريتهم أقاموا تمثال أسد من الرخام فوق أعلى الدرب اجلالا لشأن ليونيداس وشيدوا أثرين عظيمين تذكارا لشجاعة أتباعه ونقشوا على الاثر الاول ان أربعة آلاف بلوبونيزى حاربوا فى هـذا المحل ثلاثين ألفا من أعدائهم وكان الثانى تذكارا بشأن الثلاثمائة اسبرطى ونقشوا عليه أيها المار من هنا اذهب الى اسبرطة وقل لاهلها اننا أطعنا قوانينها ورقدنا هنا

وفى غضون ذلك أجرى الاسطول الجريسى ما يجب عليه من الاشغال وحارب عدة وقائع كانت جميعها ناجحة لجهة الجريس وأظهر من الجسارة والبسالة ما أدهش به عقول الفرس وأما الاسطول الفارسى

فضعفت حالته نوعا وخسر الفرس أربعمائة سفينة من سفائنهم الحربية وانصدع عدد وافر من سفائن الحمولة المشحونة بالذخائر والاموال على الشاطئ فوق الصخور من عواصف شديدة وتلافيح هائلة هبت عليها ثلاثة أيام وثلاث ليال حسوما وكذا هبت عواصف ثانية أتلفت من القوة الاصلية للاسطول الفارسي فرقة من السفن مقدارها مائتا سفينة كانت أرسلت من أجل الاحاطة بعيوبية وقطع خط رجعة الاسطول الحربي من نواحي ارطميسيوم وحصل للاسطول الحربي بعض تلفيات في نواحي بوغاز ترمو بيلي فانجبر على القهقرة الى الجهة الجنوبية وتوجه في الحال ورمى مخاطيفه في ثنية رأس سنيوم في خليج سلميس وأما الجيش الفارسي فانه تقدم في الحال في داخل الجريس الوسطى تابعا له اسطوله الا أنه مهما كان من شجاعة تمستقل ونباهته ظن أهل اسبرطة ضياع الجريس ورفضوا أن يرسلوا قوة برية لمساعدة أثينة وطلبوا جيشهم لمباشرة أشغال تحصين برزخ قورنثة بخصوص حماية بلادهم وشق كثيرا على تمستقل الزام الاميرال الاسبرطي في البقا في سلميس حتى يأخذ الاحتياطات اللازم اجراؤها من أجل سلامة الاثينيين ولما رأى تمستقل أن أثينة لا يمكن المحافظة عليها من هجوم أردشير عليها بذل جهده في نقل الاهالي قاصدا بذلك خلاصهم من الاسر وبما أنه كان لا رغبة للاثينيين في ترك مدينتهم المحبوبة عندهم التزم تمستقل في عمل حيلة من أجل انتقالهم وذلك انه أرسل الشيوخ والكهول من الرجال وكذا النساء والولدان الى نواحي سلميس وايجينة وطربوزين وأما الذين فيهم قدرة وقوة فأرسلهم على ظهر سفن الاسطول ولما وصل الفرس أثينة وجدوها خاوية على عروشها وما وجدوا فيها الا بعض متعصبين في الدين وانقين في حمايتهم بأثيني والتجؤا في قلعة المدينة فتغلب الفرس عليهم ووضعوا السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم وحرقوا أثينة وجعلوها كاما وأطلالا وخرائب وفي هذا الوقت كان الاسطول الفارسي راميا مخاطيفه في جون فاليروم

ثم وقع على الجريس مصاب جديد هو أن قواد الاسطول صمموا من غير مخابرة تمستقل على السير من سلميس وأن يأخذوا موقعهم بالقرب من البرزخ لاجل اشتراكهم مع القوى البرية في المدافعة عن الجهات البيلوبونيزية فيتولد من هذه الحركة أن نساء وعائلات أثينة يكونون في هذا المشروع عرضة لغارات العدو وتحت رحمة المحاربين ولما بلغ ذلك تمستقل عارض هذا المشروع وبذل جهده في منع القواد البحرية من التوجه من سلميس من وجهين الاول تعرض العائلات الاثينية والثاني انه كان مضمرا في نفسه انه من الواجب على الجريس أن تجري واقعة فاصلة في هذا البوغاز الضيق بحيث تكون منافع هذه الواقعة عائدة عليها ولما وجد أن القواد مازالوا مصممين على ماهم عليه عمل تدبيرا آخر فأرسل رسولا الى أردشير يقول له ان المجلس الحربي انقسم الى حزبين ويحثه على الهجوم على أسطولهم في الحال وهدد المخالفين بأقواله على البقاء في سلميس الى أن يشرع ملك فارس في اجراء ماعرضه عليه ومن هذا صدر رأي المخالفين الذي كان يتولد منه قتل الانفس وضياع الاموال والارواح لو فعلوا ما كانوا عازمين عليه ثم ان أردشير استحسن اشارة تمستقل وحصر اسطول الحربي في سلميس وجعل اسطوله في البوغاز من جهة أطيقة وصار لا طاقة للاسطول الحربي في حركة الانتقال وكان عدد سفن الفرس وافرا جدا وكانت نسبتها الى سفن الجريس كنسبة ٣ : ١ الا انه بمجرد وصول أخبار حركة هذه السفن الى القواد الحربية استعدوا للحرب وكانت هذه الاخبار أرسلت لهم بواسطة ارسطيدس وكان رجع من محل نفيه ليشترك مع أهل بلاده في عاقبة أمرهم وفي صباح اليوم الثاني

استعد الاسطولان لمواجهة بعضهما للحرب وكانت نتيجة هذا الحرب نصرة الاسطول الجريسي على الاسطول الفارسي وذلك انه قام ريح في صباح اليوم تولد منه انتفاخ ثقيل في البوغاز ونجح تمستقل في تأخيره الحرب حتى وصل هذا الانتفاخ الى أن جعل المراكب الكبيرة الفارسية على خطر وتهلكة فأمر بالهجوم فاسرعت المراكب الجريقية الخفيفة بما انه لم يحصل لها أذى من هذا الانتفاخ مهما كانت درجته واقتحمت على أعدائها بسهولة ومكنت بروتها النحاس من أجنابها حتى خرقتها وغرقتها واصطدم الاثينيون بالفنيقيين والبلوبونيزيون باليونانيين محالفي الفرس واستمر الحرب طول النهار وعند قريب المساء انهزم الاسطول الفارسي وضعفت قوته فترك مضايق سلميس وأقلع في البحر بعد أن فقد منه مائتا سفينة وتغلب الجريق على مقدار وافر من السفن مع بحريتها وكان أردشير رتب فرقة من العساكر في جزيرة بسيطاليا الصغيرة لمساعدة سفائن الفرس وتدمير السفن الجريقية وطردها على قدر امكانهم من ناحية الجزيرة ولما تمت الهزيمة على الاسطول الفارسي عبر اريسطيدس مع جماعة من الاثينيين الى الجزيرة ووضعوا السيف في الفرس وخسر الجريق أربعين سفينة حربية في هذه الواقعة البحرية

ثم تولد من هزيمة الاسطول الفارسي ضعف قوة أردشير بالكلية وانتقل كما ذكرنا في تاريخ فارس من شملخة عتوه الذي كان وانقلابه الى قطع الامل بالكلية فترك مباشرة حرب الجريس وتقهقر الى الهلسبون وأرسل الاسطول في هذا الوقت الى اسيا وترك مردونيوس بقصد التغلب على الجريس في السنة القابلة

وفي فصل ربيع سنة ٤٧٩ قبل الميلاد بذل مردونيوس جهده في فصل الاثينيين من الجامعة الجريسية ولما خاب في سعيه أغار على أطيقة فالتجأ الاثينيون ثانيا الى سلميس وتركوا مدينتهم فاحتل الفرس المدينة وطلب الاثينيون مساعدة اسبرطة فتأخر الجواب عنهم عشرة أيام فأخذهم الغضب والحنق وأرسلوا رسلا الى اسبرطة المعجبة بنفسها يقولون لاهلها ان لم يرسلوا المساعدة حالا الاهل بلادهم والا يكونوا ملزمين بعقد معاهدة مع العدو ويتركوا اسبرطة لما يؤل اليه أمرها فاهتم حكام اسبرطة وحصل فيهم الغيرة والحماس وأرسلوا قوة مقدارها ٤٥٠٠٠ مقاتل منها ٥٠٠٠ نفس من أهل اسبرطة خاصة وعموم هذه القوة تحت قيادة بوسانياس ولما رأى مردونيوس ذلك ترك أثينة في الحال وتقهقر الى نواحي بيوطية واتخذ له موقعا فيها بالقرب من مدينة بيوطية ولما تقوى بوسانياس بالعساكر الاثينية وبقوى أخرى وردت اليه من الممالك الجريقية الاخرى أجرى مع مردونيوس واقعة فاصلة تحت أسوار مدينة بلاطية انهزم فيها الفرس ومحالفوها من الجريس الشمالية وخسر الفرس خسارات مهولة وقتل مردونيوس ولم ينج من جيشه الكثير المهول الا نحو من ٤٠٠٠٠ نفس وتغلب الجريق على معسكره واستحوذوا على ما فيه من الذخائر والكنوز والمؤنات وجعل الجريق ميدان هذه الواقعة مقدسا وعهدوا بمحافظته الى البلاطيين بحيث يغزو كل من كان يعلن بانتهاك حرمة هذا الميدان المقدس

وفي نفس هذا اليوم تتوجت الجيوش الجريقية بنصرة أخرى وذلك أن الاسطول الفارسي وقوة برية كبيرة كسرها الاسطول الجريقي في جهة ميخالي في يونانية من آسيا الصغرى

وبهذه الوقائع والمظفرات خلصت الجريس من الاخطار التي كانت واقعة عليها من الفرس وتولد من

نصرة سلبس ودمار جيش مردونيوس ضعف قوى أردشير وافتكر فى نفسه انه لا فائدة ولا فخر فى الاعمال الحربية الا الخسارة وضعف القوة فعكف نفسه على اللذات والراحة وكان يمكنه ردّ ما أصيب فيه وما حصل له من الخسائر لو بذل جهده فى الكد والسعى فى اجرا آته العسكرية الا انه تركها من أول وهلة ومن أول مصيبة حصلت له وتغيرت أحواله بالكلية من هاتين الحادثتين ومن هذا الوقت عزم على عدم معاداة الجريس وانمحقت شوكة هذا الملك الاعظم من البحر الابيض المتوسط قاطبة حتى صار فى مدة اثنتى عشرة سنة لا يمكن لاى سفينة من السفن الفارسية أن تخاطر بنفسها وتظهر على مياه هذا البحر وأخذ الجريق ثارهم من عدوهم فى نظير المضار التى كانت حلت بهم منه وأعدوا أسطولا مؤلفا من خمسين سفينة وأمروه بالتوجه والسفر لمساعدة كل مدينة جريقية فى أوروبا وفى آسيا وخلاصها من أيدى الفرس وكانت أثينة أعدت معظم هذه السفن الا أن قيادة هذا الاسطول كانت معهودة الى بوسانياس الاسبرطى فطرد بوسانياس الفرس من جزيرة قبرص وعبر الهلسبون وتغلب على بيزانطيوم وهى القسطنطينية الآن وجعلها مقر اقامته مدة عشر سنوات واستحوذ الاثينيون على صيصطوس من بعد حصار طويل وهى مستعمرة كانت أسست فى خرسونس من تراسة والذى أسسها ملثيادس عم الفارس مرثون

﴿ الباب الخامس ﴾

﴿ سلطنة أثينة وسيادتها ﴾

الفائدة الحقيقية لاثينة من الحرب الفارسى ــ تشييد المدينة ثانية على منوال عظيم وسياق عريض ــ تحصينها وتقويتها ــ غيرة اسبرطة وحسدها ــ هزيمة تمتقل الاسبرطيين ــ أهمية أثينة وشهرتها فى الاعمال الجريقية ــ عزل بوسانياس من قيادة الاسطول الجريقى ــ توظيف قائد أثينى ــ تشكيل اتحاد الديلوسى وتقرير رياسة أثينة ــ صيرورة صكيروس خراجية لاثينة ــ صيرورة أثينة المملكة الرئيسة فى الجريس ــ خيانة بوسانياس ــ موته ــ سقوط تمتقل وموته ــ موت أرسطيدس ــ سيمون ــ تغيير فى الاتحاد الديلوسى ــ نجاح سيمون وفوزه ــ عصيان الرقيق ــ طلب اسبرطة مساعدة أثينة ــ قبح أعمال الجيش الاثينى ــ سقوط سيمون ــ قيام حزب الاشراف فى أثينة ــ شوكة بيركلس ــ أشغاله ضد اسبرطة ــ استمرار الحرب مع فارس ــ مظفرات أثينة على قورنثة وابيدروس وايجينة ــ انشاء الاسوار الطويلة فى أثينة ــ مساعى اسبرطة ضد أثينة ــ محبة سيمون الوطنية ــ طلبه العود الى وطنه ــ واقعة عينوفيطه ــ اذلال اسبرطة ــ مشاحنة بخصوص كاهن دلفى ــ تجديد الحرب مع اسبرطة ــ ضياع بيوطية من أثينة ــ وجود معظم الاثينيين مع بيركليس ــ تحليته المدينة وزخرفتها ــ بناء الميدان ــ نهوض السلطة العقلية لاثينة ــ نفور أعضاء الاتحاد الديلوسى ــ عصيان ساموس ــ حطم العصيان

الحرب الفارسى وان كان مصيبة عظمى فى الظاهر على أثينة الا انه جعلها فى آخر أمر ممنبع العظيم سعادتها وتولد من قتل الانفس التى طلبت منهم قيام حب الوطن فى أثينة وأسبل على الاثينيين شعائر الاستحواذ على شوكة ما كانت تخطر لهم على بال من قبل وكان خلاص الامة الاثينية بواسطة تمتقل

بكونه أمرهم أن يتركوا مدينتهم وما تؤول اليه عاقبة أمرها ووثق فى خلاصهم بواسطة مراكبهم وبالنصرة العظيمة التى حصلت فى سلميس ونتائج الظفر على مملكة فارس ثبت لهذا الرجل الجليل السياسى أنه هو الرجل الحقيقى الذى يمكن التعويل عليه فى المستقبل وجلب الامة الاثينية الى حالة بها صارت أثينة ذات قوة قوية بحرية بعد أن كانت لا تملك لنفسها سفينة واحدة وخضعت لاعماله جميع طوائف الامة الاثينية

ولما عاد الاثينيون الى وطنهم من جهات منفاهم التى ألزموا بالتوجه اليها فى نواحى سلميس وايجينة وطروزين وجدوا مدينتهم كوما من الاطلال والخرائب والآثار فأعدوا ملاجئ وقتية لعائلاتهم وشرعوا فى بناء مدينتهم مرة ثانية على منوال عريض وهيئة أظرف من الهيئة الاولى وأقروا رأيهم على تحصينها بسور فتولد من بناء هذا السور قلق كبير وكراهة عظيمة عند المتحالفين معها خشية من أن يحصل لها أدنى زيادة فى قوتها وعظمة فى شوكتها وتمارس الايجينيون مع الاسبرطيين فى توقيف هذا الشغل الا أن اسبرطة ما كان لها طاقة على الزام الاثينيين وجبرهم بالقوة والاقتدار على مثل هذه الاعمال لكنها بما أنها كانت على غيرة وحسد منها اجتهدت فى كونها تتمم مكرها وخديعتها ما لا يمكنها أن تجريه بطريقة قهرية مفتوحة ورأت مناسبة أفعالها مع تمستقل فى كثرة حذاقته ومهارته فى المخابرات معها بشأن بناء الاسوار وجد زمن للاثينيين أمكنهم فيه تشغيل واتمام أسوارهم الطويلة حتى صار لا يمكن لاسبرطة بأى حالة كانت توقيف هذا الشغل من دون اعلان حرب جهرى وحفظ تمستقل مع البسالة والنباهة مشروع أهل بلده والتزمت اسبرطة بالتصديق على تمام بناء الاسوار من بعد أن عرفت أن لا حيلة لها فى نفسها ولما صارت أثينة فى حالة جيدة من المحافظة بأسوارها أحاط تمستقل بيروس وموينخيا بأسوار قوية التحصين وأصلح المينة وعرضها حتى صارت محلا أمينا وملجأ رحبا للاسطول السامى المقدار الذى كان شرع فى انشائه من أجل حفظ أهل بلاده وتم اعادة بناء المدينة فى أوقات قليلة وأدخل أيضا تمستقل بعض تغييرات مهمة فى النظامات والقوانين بواسطتها ارتقى ضعفاء المدينة الى درجة الشرف فى المملكة وتقدمت أثينة تقدما زائدا عن الحالة الرديئة التى وجدها عليها الحرب الفارسى ودخلت فى الاعمال السياسية حتى صارت هى المملكة الرئيسة فى الجريس وجهزت ثلاثين سفينة للاسطول الذى أرسل لمساعدة المدائن الجريقية من أجل خلاص اخوانهم الموجودين فى آسيا من أيدى الفرس من بعد واقعة بلاطيه وميخالى وعهدت قيادة هذه الحملة الى بوسانياس كما تقدم ذكر هذا فتعالى بوسانياس وتفاخر بنفسه بما حصل له من الظفر فى بلاطيه ورأى فى منامه أنه صار رجلا جليل القدر سامى المنصب فرغب أن يجعل أهل بلاده قربانا لمطامعه وطموحه ودخل فى مخابرة سرية مع فارس وصار سيره وأعماله نحو أهل بلاده من أقبح الاشياء وتولد منه أن قواد الجريق ارتاعوا من أعماله وارتابوا فى أفعاله وأغراضه الحقيقية وطلبوا رجوعه وعوده الى بلاده ومن قبل حضور القائد الاسبرطى الجديد ارتاب يونان الجريق من اسبرطة وخطر ببالهم أنه اذا كانت السيادة البحرية فى يد الاثينيين فانهم يكونون فى أول درجة فى المحاربات البحرية وطلبوا اريسطيدس وسيمون من أجل تقليد رياسة القيادة البحرية فى اسطول المتحالفين فنجح طلبهم على الفور ولما وصل دورسيس القائد الجديد الاسبرطى لم يتجاسر على المداخلة فى هذه التدبيرات

وما حصل من الاسطول هذا الفعل فقط بل حصل أيضا تعصب فى كامل النظامات الجريقية وقرروا

لاثينة الشوكة والسيادة فى الجريس وبواسطة ارشاد الحاذق اريسطيدس وكان مثل البرق فى احكام هذه المنفعة التى تقررت لاثينة صار تشكيل محالف أو جامعة دخل فيها الاثينيون واليونانيون وجزائر رودس وكوس ولسبوس وطندوس وملطوس وكافة المدائن الجريقية الموجودة فى بحيث جزيرة كالثيدونيه وبيزانطيوم (القسطنطينية) وربطوا أنفسهم فى عقدة واحدة على الاشتراك فى مساعدة بعضهم بعضا بما يلزم من المقاومة ضد ما يحصل من التعدى من مملكة فارس عليهم وكان التحالف مشتملا على أن كامل ما يكون عند أثينة من القوة البحرية هو من أجل المحافظة من فارس وصار نظم وترتيب مواد مفصلات التحالف بواسطة اريسطيدس فأثبت القيادة لاثينة ورضى بذلك كافة أعضاء الاتحاد رضاء قلبيا وشكروا أريسطيدس على استقامته وخلوص نيته وحسن طويته وضربوا ضرائب على كل واحد من أعضاء الاتحاد سموها بالضرائب الفورية وعينوا احكاما لتقرير هذه الضرائب وتقسيطها وجبايتها وتقرر محل ماليتها ومحل التئام مجلس الاتحاد فى جزيرة ديلوس المقدسة ومن ثم عرف هذا الاتحاد باسم الاتحاد الديلوسى

ومن بعد تشكيل هذا التحالف بقليل رجع اريسطيدس الى أثينة وخلفه فى قيادة الاسطول سيمون وفى نحو سنة ٤٧٥ قبل الميلاد تغلب سيمون على مدينة عيون الموجودة على نهر صطريمون وفى نحو سنة ٤٧٠ قبل الميلاد طرد سكان جزيرة صكيروس من جزيرتهم لما أعلنوا بجريمة قطعهم طرق البحر وأسكن هذه الجزيرة بالاثينيين ومن ثم نالت أثينة موقعا بحريا جليلا وحازت الدرجة الاولى القاطعة فى الاعمال ودخل الاثينيون فى ميدان شاسع من الاشغال ثم ان اسبرطة استقبحت جدا تشكيل هذا الاتحاد الديلوسى مع تجرع الغصص من قلبها واعتبرته انه تعدى على حقوق سلطتها وسيادتها الا أن خوفها من فارس فى كونها بما تجتهد فى الغلبة على الجريس حثها وحرضها بأن تسمح للاثينيين فى سيرهم فيما شرعوا فيه موقتا ثم من بعد مدة قليلة ضاع أثر سيادة اسبرطة وشوكتها بواسطة قبيح سلوك قوادها وامسكها المهرة الجسورين من الاثينيين وأقامت الاعمال العظيمة التى شيدها تمستقل فى أثينة حتى جعلتها فى أرقى موقع فى الجريس وكذا تولد من نباهة اريسطيدس وعفته أن صار لاثينة طاقة على اكتساب هذا الموقع الجليل من دون أن يحصل نفور من محالفيها فى أى وقت من الاوقات حالما تكون صداقتهم وودادهم لها ضروريا عندها وفى هذا الوقت صار نفوذ اريسطيدس وشوكته زيادة عن شوكة خصمه تمستقل فى أثينة وسبب ذلك ان تمستقل أشيع عليه بعدم وثاقة الاثينيين به لانه تناثر فى حقه أقوال أوجبت غضب الاثينيين عليه من كونه كان يقبل الرشوة والبرطيل فى فصله القضايا والدعاوى المتعلقة بالجزائر اليونانية وتصدى له حزب الاشراف تحت قيادة سيمون بسبب ما كان يصدر عنه من الاوامر التى بها زادت سلطة العوام على مصاريفهم فمن هنا ضعفت شوكته وزادت اهانته ولما صار طلب بوسانياس من بيزانطيوم اتهم تمستقل فى ذنب الخيانة التى حصلت من بوسانياس الا أنه وجد بريئا فى التحقيقات التى حصلت ومع هذا اشتد عليه غضب حزب الاشراف حتى صار نفيه نفيا مكرما من أثينة فذهب الى أرغوس ساخطا من مثل هذه المعاملة ثم أعيد الى أشغاله ووظائفه العالية مع الاسف على ما حصل له ومن بعد مضى خمس سنوات لما ظهرت على بوسانياس الخيانة فى مخابرته مع ملك الفرس هرب بوسانياس المذكور الى معبد أثينى ودخل فى المحل المصنوع من النحاس والتجأ فيه ولما صار لا طاقة لاحد على اخراجه من هذا المعبد خوفا من الوقوع فى جريمة انتهاك الحرمة المقدسة سد

الحكام

الحكام مداخل المعبد وكشفوا اسقفه وتركوه فيه يموت جوعا معرضا للحوادث الجوية ثم نقلوه من المعبد لما وجدوه صار على شرف الموت خيفة من أن رمته تنجس طهارة المعبد ومات فاتح بلاطية بهذه الحالة الشنيعة

ومن بعد موت بوسانياس وجد فى ضمن أوراقه أوراق استدل منها على ان تمستقل الذى كانت ظهرت براءته عند تهمته الاولى فى الخيانة له يد ورجل فى الدسيسة مع فارس فالتأم لذلك مجلس المحالفين فى اسبرطة وأمر بالقبض عليه فهرب ناجيا بنفسه حتى وصل الى الديوان الفارسى من بعد أن قاسى الاهوال وتحمل مكابد الاسفار فقوبل فى الديوان بأجل ترحاب وعين لاقامته محل فى مدينة مغنيسيا وقطنها حتى مات فى سنة ٤٤٩ قبل الميلاد

وتولد من موت ارسطيدس فى سنة ٤٦٨ قبل الميلاد أن صار النفوذ الاكبر فى أثينة الى سيمون وقائد حزب الاشراف وكان سيمون كثير الثروة والاموال وكان يصرف نقوده مع الحرية التامة فى ظرافة وتحلية مدينته ويوزعها على مصروفات المملكة ثم ان جزيرة ناكسوس أكبر جزيرة فى جزائر السكلادة خافت من الاعمال الجارية بواسطة أثينة فى كونها مستعملة نقود الاتحاد الدبلوسى وسطوة نفوذه فى توسيع أعمالها واشغالها فسحبت نفسها من الاتحاد فتوجه اليها سيمون فى رأس الاسطول الاتحادى وأخضعها وجعلها خراجية لاثينة وفى نحو عين هذا الوقت طلب جميع الممالك الصغيرة الداخلة فى الاتحاد الدبلوسى أن يدفعوا خراجا سنويا مقررا من النقود الى مالية الاتحاد بدل تجهيزهم ما يخصهم من المراكب اللازمة للاسطول فأجيبوا فى طلبهم هذا ومن ثم جردوا أنفسهم من مقاومتهم أثينة وهذه أوصلت درجة أسطولها الى أعظم نهاية فى المنعة والرصانة وفى نفس هذه السنة سار سيمون فى أسطول مؤلف من ٣٠٠ سفينة منها ٢٠٠ سفينة من السفن الاثينية وطرد جميع الفرس من عدة مدن فى كاريا وليسيا من جهات آسيا الصغرى وهزمهم فى البحر والبر عند فم نهر أوريمدون فى بمفيليا وفى حال رجوعه الى بلاده قابل ثمانين مركبا كانت آتية لتقوية الاسطول الفارسى وكان لا معلومية لتلك المراكب بهزيمة الاسطول الفارسى فأبادها سيمون جميعها وتولد من هذه كسر شوكة المملكة الفارسية بالكلية وطرد الفرس من البحر الابيض المتوسط ومن سواحل آسيا الصغرى وعد واذلك من أعظم المكاسب التى تحصل عليها الجريق ولو أن سيمون كان الخصم السياسى الى تمستقل لكنه سار فى سياسته الداخلية والخارجية على منهاج هذا الرجل السياسى مع شدة العزم ثم ان الاثينيين شرعوا فى غرس خط من المستعمرات فى نواحى تراسة فعارضهم فى ذلك أهل جزيرة طاسوس وكان لهم أملاك كثيرة جليلة القدر فى نواحى تراسة فمن ثم انتشب حرب بين أثينة وأهل جزيرة طاسوس وفى نحو سنة ٤٦٣ قبل الميلاد خضعت طاسوس وصارت خراجية لاثينة ومنها استحوذت أثينة أيضا على الاسطول الطاسوسى وعلى كل ما كانت تملكه هذه المملكة من الاملاك فى تراسة

ولما اشتد الكرب على الطاسوسيين وصاروا على آخر درجة من جهد أعمالهم طلبوا من اسبرطة مساعدتها لهم فمع أن اسبرطة كانت فى مخالفة مع أثينة الا أنها لم تتردد فى الاستعداد للهجوم والغارة على أثينة فأتاها الصد الذى منعها من توجيه أغراضها وذلك انه حصل زلزلة مهولة هدمت مدينة اسبرطة وهلك من سكانها نحو من ٢٠٠٠٠ نفس فى سنة ٤٦٤ قبل الميلاد فانتهز العبيد أو الرقيق الفرصة فى أثناء المصائب التى حلت بأسيادهم وقاموا فى ثورة وانضم اليهم المسينيون

وحصنوا أنفسهم فى جبل إثومى فى مسينة وكبسوا على الاسبرطيين بشدة وقوة حتى ألزموهم طلب المساعدة من محالفيهم وكان من ضمن المحالفين لاسبرطة أثينة التى كان الاسبرطيون مضمرين على خرابها وقت نزول المصائب عليهم وما كانت هذه الزلزلة الاحادثة من جملة حوادث عديدة ومصائب شديدة حلت باسبرطة حتى أضعفت قوتها ونزعت منها شوكتها

فأجاب سيمون وحزب الاشراف طلب مساعدة الاسبرطيين وبذلوا جهدهم فى ذلك وكان نفوذ هذا القائد سيمون على وشك الزوال لان غزوته على الطاسوسيين تسبب منها عدم اعتماد أهل بلاده عليه اذ أنه لم يحصل لهم شئ لا فتح ولا تغلب على تراسة أو مقدونيا ومن المحقق أن بيركليس اتهمه فى كونه أخذ رشوة من ملك مقدونيا وتركه فى حالة سلم مطمئنا فى مملكته ومع هذا فان سيمون نجح فى مساعدته اسبرطة وساق لمساعدتها قوة قدرها ٤٠٠٠ نفس من العساكر الثقيلة ولما عرف الاسبرطيون الغش من جهة محالفيهم ارتابوا فى وثوقهم واعتمادهم بالاثينيين فانتهزوا أول فرصة وطردوهم من عندهم وقالوا انه لا لزوم لهم عندنا فى الخدمة وكانت حجتهم فى ذلك أن الاثينيين الذين أظهروا امهارتهم فى أنواع الحصارات لم يحصل منهم أدنى نجاح فى التغلب على إثومى القاطن فيه رقيق العصاة وفى نفس هذا الوقت أبقى الاسبرطيون العساكر الذين جهزها لهم محالفوهم الآخر وعاد سيمون الى بلده متوجا بتاج الخيبة وعدم النجاح تحت سحب الاهانة واللعن الذى انحط على أهل بلاده من الحالة التى استحوذ عليها فى خدمته اسبرطة فمن ثم صار انحطاط نفوذه وصار على شرف الزوال ومن هذا الوقت نهض حزب الاشراف الى شوكة عالية تحت قيادة بيركليس وكان بيركليس شريف المولد وعمود نسب أمه من برنسان صكيون وعائلة القيمونيدى وأما أبوه اجزنطيوس فكان متصلا مع بيزيسطراطوس وكان يشابهه على ماقيل فى الذات والصفات وكان بيركليس رزين العقل كثير الصمت جيد الطبع شريف الاخلاق حسن الطلعة منعزلا ومعتكفا على أفعاله وأعماله بعيدا عن الجمعيات والمجالس وماظهر الا فى العموم فقط بسبب ماشوهد فيه من الذكاء والنباهة ورأى الناس فيه ذكاء فى العقل وفصاحة فى المنطق الا أنه كان فى القيادة العسكرية أقل من تمستقل وسيمون وكانت ادراكاته العقلية حادة جدا وتهذب مع الدقة والاعتناء ولازم مجالس الفلسفة وواظب على ممارستها مع أنكساغوراس وبروتاغوراس وظينو والفلاسفة الاخر وكان أستاذ الفصاحة والبلاغة وتبحر فيها وقالوا انه كان أول واحد من الاثينيين استحسنت مخاطباته واكتسب الانشاء فى الكتابة والتحريرات فانتهز بيركليس الفرصة بسرعة من نجاح سيمون فى نواحى إثومى وضرب حزب الاشراف ضربة حط بها قدره وأزال عنه مجده وسعده وكانت هذه ضربة قاطعة له وغير بعض تغييرات مهمة فى قانون النظامات العمومية أضعف بها نفوس الاشراف ونفوذهم وزاد فى سلطة العوام وكانت نتيجة المداولات والمناقشات أن حكم على سيمون بالنفى والطرد من أثينة لمدة عشر سنوات نفيا مكرما بصوت الامة

ومن ثم انفرد بيركليس فى أثينة من دون منازع ولا معارض وكانت سياسته مقصورة على محافظة السيادة فى البر والبحر لاثينة وبهذا صار متقدما فى السياسة عن سياسة تمستقل وأحكم موقع أثينة السياسى وجعل هو قائد الحروب ضد مملكة فارس الا أنه جعل هذا مادة ثانوية ووجه التفاتات أثينة ومساعيها الاصلية الى اكتساب سلطة ونفوذ فى الجريس الوسطى والجريس الشمالية وأن يكون لها السيادة البرية على اسبرطة ولاجل اتمامه هذا المشروع العائد منه المنفعة على أثينة غرس

ارتباطات ودية ومحالفات حبية مع بعض الممالك البلوپونيزية وكانوا فى نفور ومخالفة مع اسبرطة واحتج فى مشروعه هذا أيضا بالمعاملة القبيحة والاهانة الفظيعة التى حصلت لأثينة من الاسبرطيين فى طردهم عساكرها وحث أهل بلده على فسخ محالفة اسبرطة وأما أرغوس فانها لما تمكنت من وقوع الارتباك فى اسبرطة تغلبت على مصينة وطيرنس وبعض من المدائن المجاورة لها وعقدت أثينة معاهدة مع هذه المملكة التى تقوت بهذه الحالة ومن بعد مضى قليل عقدت محالفة أيضا مع مغارة وبواسطة معاهدة مغارة استحوذت أثينة على حكم المعابر والدروب التى يتيسر منها للجيش البلوپونيزى الدخول فى الجريس الوسطى وكذا صار لها الحكم على خليج قريصين فتولد من هذه الاحوال عند اسبرطة البغض الشديد والعداوة الكبرى لأثينة ولاجل تقوية مغارة وصلها الاثينيون مع مينتها بخطى استحكامات متوازيين ورتبوا فيهما عساكر محافظين من عساكرهم

وفى غضون ذلك كانت المحاربات والمجادلات مستمرة مع فارس وكان اسطول الاتحاد الديلوسى محافظا فى سواحل آسيا وفى نحو سنة ٤٦٠ قبل الميلاد تولد من عصيان اناروس فى مصر انتهاز الفرصة للجريق فى ضعف شوكة فارس فى تلك الجهة بمساعدة عصيان احد أقاليمها المهمة جدا عندها وأرسل الجريق المساعدة لمصر وكانت نتيجة ذلك ما ذكرناه سابقا فى تاريخ مصر فى الجزء الاول

ثم خاف كل من قورنثه واپيدروس وايجينه من ازدياد شوكة الاثينيين وعلى الخصوص من انقياد الاتحاد الى مقاصد أثينة فعزموا على توقيف ما هو مرعى عندهم أنه من المضار والاخطار فى الطمع فيهم فانهزم هؤلاء المتعاهدون فى واقعة بحرية حصلت بالقرب من ايجينه وخسر الايجينيون جزأ عظيما من اسطولهم وانهزم القورنثيون فى البر شر هزيمة وكانت هذه الهزيمة فاصلة فى الحرب وتقوت أثينة بهذه النصرات التى حصلت لها وأما اسبرطة فانها لم تزل مشغولة فى حصار إثومى ومحاربتها مع الرقيق وان كان شوقها وبغية نوالها أن تشاهد بعينها تكسيح خصيمتها الا أنها انجبرت على البقاء فى مركزها تنتظر ما هو حاصل من المنازعات والمضاربات

ولما رأى پيركليس القلاقل والارتباكات المنهملة على بلده أمر بانشاء الاسوار الطويلة فوصل بها أثينة الى مينتيها پيروس وفاليروم وكان طول السور من أثينة الى فاليروم أربعة أميال ومن فاليروم الى پيروس أربعة أميال ونصف وكانت هذه الاشغال المهولة تعد من عجائب الوقت وبها حصل عند الاثينيين الشماخة العالية

ثم ان اسبرطة صممت على أن تضرب أثينة ضربة قوية وتوقفها عند حدها مهما كان حاصل عندها من أشغال حرب الرقيق فاحتجت فى ذلك بمساعدة الدوريانيين وكان الفوسيانيون أغاروا على أراضيهم وبلادهم وأرسلت قوة مقدارها ١٥٠٠ نفس اسبرطى من عساكرها الثقيلة و ١٠٠٠٠ من عساكر محالفيها الى جهة دوريسه فتقهقر الفوسيانيون وابتدأ الجيش الاسبرطى فى اجراء الحركات الحقيقية من أصل هذه الحملة وهى تدمير شوكة الاثينيين فى بيوطيه وأما نفس اسبرطة فانها أجمعت على عقاب طيبة فى نظير محالفتها مع فارس فى واقعة پلاطية ثم ان الجيش الاسبرطى شرع فى فساد ما عزمت عليه اسبرطة بكونه أعاد بناء أسوار طيبة ثانيا وأخضع لقيادتها مدائن بيوطيه ودعا حزب الاشراف فى أثينة الاسبرطيين للحملة على أطيقة وتوقيف شغل بناء الاسوار الطويلة بما أنهم أجهدوا أنفسهم فى ابطاله ولم يمكنهم تدمير الحكم الديمقراطى فقبل الاسبرطيون هذه الدعوة وأخذوا لهم موقعا

في طنغره على حدود أطيقة فارتابت الحكومة الاثينية من هذا المقصد وأسرعت في جمع قوة من العساكر على قدر امكانها وما أمكن توفيره من حصار ايجينه وكان لم يزل هذا الحصار آخذا في التقدم وسارت هذه القوة على الاسبرطيين في سنة ٤٥٧ قبل الميلاد وانتشب بين العسكرين واقعة دموية وترك التساليانيون في حرارة حرب اللاسيديميين فتولد لاسبرطة من هذا الترك حصول النصر ومع هذا فان ماحصل عندهم من الخسائر والتلفيات منعهم من الغارة على أطيقة وتقهقروا الى نواحي بلوبونيزه

وقبل الوقعة كان سيمون حصل عنه الارتياب الشديد من تداخل حزبه في دسيسة خيانية لاثينة فاسرع الى معسكر الاثينيين من دار منفاه وخضع لهم بكل حمية وغيرة في أن يسمحوا له في المحاربة مع أعداء بلاده فلم يقبلوا منه هذا الطلب فخرج من المعسكر الا أنه كفل شرذمة كبيرة من أعز أحبابه وأصدقائه الخاضعين لاوامره وكانوا موجودين في المعسكر يبذلون مافي طاقتهم في خلاص أنفسهم من عار تهمة الخيانة التي نسبت اليهم فحملوا بانفسهم مع البسالة والشجاعة في الواقعة حتى أزالوا جميع الشبهات التي كانت راكبة فوق ظهورهم وظهر قائدهم وبمجرد عود الجيش الى أثينة أصدر بيركليس أمرا نافيا لامر نفي سيمون

وفي السنة التالية أي في سنة ٤٥٦ قبل الميلاد سار الاثينيون الى داخل بيوطيه وهزموا البيوطيين في نواحي عينوفيطه وخربوا جميع مافعله الاسبرطيون وردوا شوكتهم كما كانت ورتبوا حكومة ديمقراطية ومن بعد مضي قليل صار اضافة فوسيس ولوكريس الى ماتغلب عليه الاثينيون وفي سنة ٤٥٥ قبل الميلاد خضعت ايجينة وصارت حليفة خراجية وتم بناء الاسوار الطويلة ثم أقلع اسطول أثيني وسار حول بلوبونيزه وحرق مين اللاسيديمونيين في بطوني وعطيوم وفي هذه السنة خلت إتومي من الرقيق والمسينيين فصار توطن هؤلاء بمعرفة الاميرال الاثيني في نوباقطيوس وهي مدينة في لوكريان أوظالي بالقرب من فم خليج قورنتة وبواسطة هذه الحملة التزمت أيضا جزيرتا زاسينطوس وسيفالونيا بوصل محالفتهم مع الاثينيين فمن ثم صارت أثينة صاحبة السلطة السامية في الجريس الوسطى والجريس الشمالية وفي البحر الابيض المتوسط

ثم انه لم يحصل من جهة اسبرطة أدنى كد ولا سعي في مقاومة تقدم أثينة الا انه في سنة ٤٥٢ قبل الميلاد عقدت هدنة مع أثينة لمدة خمس سنوات وفي نفس هذه السنة أقلع سيمون بالاسطول الى جزيرة قبرص لاجل التغلب على هذه الجزيرة من أيدي الفرس فحاصر سطيوم ثم ارسل قسما من أسطوله الى مصر لاجل مساعدة عصيان الملك أميرطوس وكان لم يزل محجورا عليه في نواحي مستنقعات الدلتا ومات سيمون من بعد البدء في الحصار بقليل وعهدت قيادة الاسطول الى انا كسيقراطس وهذا المار أي قلة المؤنة والذخائر عنده رفع الحصار عن سطيوم وأقلع بالاسطول الى سلميس وفي نواحي هذه الجزيرة هزم اسطول الفنيقيين والسلسيانيين وأباده وكان هذا الاسطول موجودا تحت خدمة مملكة فارس ثم أعقب هذه النصرة عقد الصلح مع فارس كما ذكرنا في تاريخ هذه المملكة

ثم قامت القلاقل والارتباكات مرة أخرى بين أثينة واسبرطة وذلك أن سكان دلفي الذين أصلهم من الدوريانيين أثبتوا حقهم في تدبير أعمال مدينتهم المقدسة من دون تداخل الفوسيانيين الموجودين على أرضهم بناء مدينتهم فتداخلت اسبرطه في أمرهم وطردت الفوسيانيين من المدينة وأعادت للدلفيين امتيازاتهم الاولية وأعلنت دلفي نفسها انها في حالة الاستقلال وكافأت الاسبرطيين من أجل

مساعدتهم

مساعدتهم لها بحجهم الحق السابق فى استشارة الوحى الدلفى وأقاموا فى وسط المدينة ذئبا من النحاس ونقشوا عليه هذا الامر وهو أن الامتياز فى تيسر الحصول على أول تلبية من الوحى هو من أكبر القيمات حيث ان سلطته على أهل الديانة من الجريق أقوى سلطة وأعظم شوكة وكانت أثينة متمتعة بهذا الامتياز من قبل فارغبت التنازل عنه ثم ترك الاسبرطيون دلفى رغم أنفهم حالما سار بيركليس اليها وأعاد الهيكل الى الفوسيانيين ونقش على الذئب النحاس أمرا يثبت لاثينة حق امتيازها القديم ولما تحقق كثير من منفى بيوطيه أن اسبرطة استقبحت هذا الفعل ودخلت فى أمرهم وكانوا طردوا منها من أجل نزعهم السيادة الاثينية مرة ثانية من بلادهم وضبطوا أورخومينوس وخيرونيه وعدة مدائن غير مهمة فى بيوطيه فقامت حرارة الحرب فى رؤس الاثينيين الا أن بيركليس نصح أهل بلاده فى أن يكونوا فى حالة هدو وسكون فى هذا الوقت لان الفصل غير موافق للاعمال العسكرية لكن استعد ألف نفس من شبان الاثينيين تحت قيادة طولميديس وساروا الى بيوطيا محتقرين شوكة أعدائهم وماراعوا ما قاله بيركليس فتغلبوا على خيرونيه وحفظوها بالاثينيين وبمجرد ماترك هذا الجيش القليل المحل هجم عليه البيوطيون وقطعوه اربا وقتل طولميديس نفسه وأسر البيوطيون مابقى من الاثينيين فالتزمت أثينة من أجل المحافظة على الاسرى وعودهم اليها برجوع المنفيين واخلاء بيوطية ورضيت باعادة حكومة الاعيان ثانيا من بعد أن كانت ألغتها وتسبب من خفة عقل الاثينيين وطيشهم ضياع سيادتهم فى بيوطيه وصارت بيوطيه تعد أثينة من ضمن ألد الاعداء اليها ماعدا بلاطيه وأمافوسيه ولوكريس فانهما ضاعا من أثينة أيضا وكذا عصى عليها عيوبيا ومغارا وفى هذا الوقت كان تمام نهاية هدنة الخمس سنوات بين أثينة واسبرطة فاستعد الاسبرطيون لاجل الاخذ بثار الاهانة التى حصلت لهم فى دلفى وكان بيركليس سار فى حملة لاجل اخضاع عيوبيا ثم عاد على الاثر حال تقدم الاسبرطيين وكانوا ساروا الى ضواحى علوسيس وهددوا أثينة فقيل ان بيركليس أنقذ العاصمة من الاسبرطيين بكونه رشى بليسطونيا كس ملك اسبرطة وكليندريديس وصيه ونائبه وكذا بخصوص انجلائهم عن المملكة وعاد بيركليس الى غزوته فى عيوبيا وأرغم الجزيرة الى الطاعة والانقياد ومع هذا فان الاثينيين لم يكتسبوا أدنى فائدة من النجاح ولما خافوا من الاخطار المهددة لهم عقدوا فى سنة ٤٤٥ قبل الميلاد هدنة لمدة ثلاثين سنة مع اسبرطة وبواسطة هذه الهدنة تنازلوا عن جميع مااستحوذوا عليه فى بلوبونيزه ورضوا بأن مغارا تكون حليفة لاسبرطة وصار بيركليس الذى كان غير معتمد عند أهل بلاده بخصوص ما حصل من اجرا اته فى نتائج الحرب على غاية من الوثوق والاعتماد زيادة عن الاول عند أهل بلاده

ووصلت أثينة فى مدة بيركليس الى أعلى درجات مجدها وشوكتها وأعظم مدة كانت فى تاريخها هى المدة التى مضت بين نصرة عينوفيطه فى سنة ٤٥٦ قبل الميلاد وبين الهزيمة التى حصلت فى خيرونيا سنة ٤٤٧ قبل الميلاد ومن بعد مضى هدنة الثلاثين سنة شرع بيركليس فى اجراء سياسة جعل بها أثينة أشهر مدينة وأعظمها فى الممالك الجريسية وحصلت مشاغبات وارتباكات فازالها وأخذها وعده حزب الاشراف بأنه أحد الرجال المشهورين الذين لاتخدش أوامرهم واكتسب الثقة العظيمة مع طوائف أرباب التجارة فكان يدافع عنهم ويقويهم على الاعمال التجارية وبواسطة سيره العادل مع جميع الطوائف فيما يختص بالفوائد العائدة منها النفع عليهم صار لهم الثقة العظيمة به وقواهم على حالة معيشتهم بنشره بينهم الاشغال والحرف والصنائع ثم شرع فى أن يجعل أثينة أشهر مدينة وأجلها فى

الدنيا وأن تكون مركزا الفنون والصنائع ومنبعا عذبا تسيل منه جميع النظامات العالية الشرف على جميع الامم الاخر فتساعد على ذلك بالاشغال الغريبة والفيض العميم من تبعتهم ورعايا مملكته وبكثرة المدخولات حسبما يطلب وفي ظرف المدة القليلة التي مضت بين هدنة الثلاثين سنة ومبادى الحرب البلوبونيزى صارت أثينة أعجوبة الدنيا القديمة وعجيبة العصور المتوسطة فكانت المدينة مزينة ومحلاة بانواع الابنية العمومية الظريفة وبنى البارثينون المفتخر أو هيكل أثينى على أكروبوليس على مقتضى تصميمات ورسم اقطينوس وقاليقراطيس وكان فيدياس ناظرا على بنائه وتشييده وحلاها باعظم النقوش الجميلة مع تمثال أثينى المصنوع من العاج وعلوه سبعة وأربعون قدما وكذا صار بناء الاوديوم وهو تياتر وأو محل الملاعب الموسيقية في الجهة الجنوبية الشرقية من ذيل اكروبولى وشرع في اعادة بناء ارخطيوم أو المعبد القديم لاثينى بولياس الا انه تولد من حصول الحرب البلوبونيزى توقيف الشغل في هذا المعبد وتحلت أكروبوليس بمدخل بهيج في الجهة الغربية سموه بروبيليا وكانت المدينة ظريفة منبعا للصنائع والحرف وبنى سور ثالث موازن للاسوار الطويلة بين أثينة وبيروس ومن ثم صارت المواصلة مع المينة على غاية من المحافظة وكانت بيروس نفسها جميلة منتظمة فانشأ فيها رصيفا وترسانة للتعمير

ولاجل مدو توسيع نفوذ أثينة وسيادتها وعلو شوكتها شرعت في انشاء مستعمرات في خرصونس من أعمال تراسة وفي ناكسوس واندروس حتى على سواحل البحر الاسود وفي لمنوس وامبروس وصكيروس وفي الجهة الشمالية من عبويا غرست فيها أيضا مستعمرات

وأقامت أثينة في مدة بيركليس مملكتها الحقيقية بحيث ان الاختلافات والمصائب التي وقعت عليها لم تحرم أثينة من مملكتها أبدا ومازالت هذه المملكة تقاسي المصاعب والمتاعب حتى استراحت في الايام الحاضرة من بعد أن خرجت من الاستعباد التركي وملكت حرية نفسها وكذا انتشرت فيها الآداب الخالية من العوارض القديمة على منوال عظيم وكانت هذه المدة مزينة باسم اصقيلوس الاب الحقيقي للروايات الهلينقية والاحاديث الجريقية وصوفوكليس وأوريبيديس أكبر خلفائه وأريسطوفانيس مخترع الروايات التشخيصية في أثينة وألف صديديس وكسنفون تاريخا في حقيقة مجدها ورمى سيقراطيس أساس الفلسفة الجريسية الدقيقة الغامضة التأليف وكذا الاشغال المفتخرة التي اخترعها فيدياس والنقوش الجميلة التي لم تزل لحد الآن أنموذجا في الصنائع والاشغال منسوبة لهذه المدة واخترع ظوكسيس وبراسيوس فن النقش بالبوية وأوصلاها الى أعلى درجات الظرافة وكانت الاشغال الاختراعية في هذه المدة من أغرب مايكون من البساطة ومن مدة طويلة كانت أعضاء الاتحاد الديلوسي ينظرون الى الاحوال الجارية عند أثينة بعين النفور وعدم القبول والخوف واستمرت هذه المملكة في استعمالها شوكة الاتحاد ونفوذه في تقدم منافعها الخاصة بها وجعلت جميع أعضاء الاتحاد خراجية لها ماعدا جزيرة خيوس وساموس ولسبوس وكان مدخول الاتحاد ٦٠٠ وزنة سنويا وهذا يزيد عن نصف المدخول الكلي لاثينة وكان الاثينيون يثبتون في استعمالهم هذه المبالغ على أنه متى كانت أثينة قوية الشوكة كما هو مطلوب الاتحاد فيكون لها استعداد حاضر كاف في الخروج الى ميدان الحروب للمدافعة عن الاتحاد في أي وقت وكانت مالية الاتحاد الديلوسي صار نقلها من ديلوس الى أثينة واعتقد أعضاء الاتحاد بانهم يدفعون خراجا فقط

لاسيادهم وان بيركليس يوفرسنويا من هذا الخراج مقدارا احتياطيا لاجل لزوم استعماله فيما يتعلق باحتياجات الاتحاد فوصل هذا المبلغ الى ٦٠٠٠ وزنة أو ٠٠٠٠٠٠ ٧ دولر الى حد اشتعال الحرب البلوبونيزى

ولما اشتبكت ساموس فى منازعة مع المليسيانيين حول المليسيانيون فصل مادتهم بواسطة عقد مجلس عرفى فى أثينة وكانت ساموس أكبر وأعظم أعضاء الاتحاد لحد هذا الوقت فلم تقبل ساموس الفصل بواسطة المجلس العرفى فعزمت أثينة على ارغامها وقبولها ذلك بالقوة الجبرية وأرسلت حملة مؤلفة من أربعين سفينة تحت قيادة بيركليس على هذه الجزيرة فأرغمها على الانقياد والطاعة ورتب فى الجزيرة حكومة ديمقراطية بدل هيئة حكومة الاعيان التى كانت موجودة فيها من قديم الزمان ولما سار بيركليس من الجزيرة طرد أهل ساموس هيئة الحكومة التى رتبها بيركليس وأعادوا هيئة حكومتهم الاصلية ولما انضموا الى بيزانطيوم عصوا ومجاهرة على أثينة فى سنة ٤٤٠ قبل الميلاد فأخمد هذا العصيان من بعد حرب استمرت تسعة أشهر وبطش بيركليس بساموس وبيزانطيوم وأوقع عليهم العقاب الشديد وتولد من نصرة أثينة زيادة درجة العداوة التى كان ينظر بها اليها كثير من الممالك الجريقية وكان من الواضح انه على أى حالة ولو صغيرة جدا ربما يقوم عليها حزب أو جمع أقوى شوكة تكون اسبرطة هى القائدله

(الباب السادس)

الحرب البلوبونيزى أو المورى

عصيان قورصيره على قورنثه ـ مساعدة أثينة قورصيره ـ طلبات اسبرطة ـ استعداد أثينة للحرب ـ مبادى الحرب البلوبونيزى ـ حرب العشر سنوات ـ اغارة الاسبرطيين على أطيقه ـ الازدحام فى أثينة ـ حزم بيركليس وفطانته ـ الهجوم عليه ـ كليون الدباغ ـ الطاعون فى أثينة ـ سقوط بيركليس ـ موته ـ حداد الاثينيين عليه ـ خراب بلاطيه ـ ثورة مطلينه ـ أوامر كليون بالحكم على موت الاهالى ـ ابطال الامر ـ تقدم الحرب ـ نصرة الاسطول الاثينى فى بيلوس ـ ميل اسبرطة للصلح ـ منع كليون الفصل فى الحكم ـ البخت الطيب للدباغ ـ هزيمة الاسبرطيين فى سفاكطريا ـ مصائب أثينة ـ مخابرات فى الصلح ـ موت كليون وبراسيداس ـ صلح نسياس ـ الثيبادس ـ خضوع أرغوس لاسبرطة ـ الحملة السيسليانيه ـ حصار سراقوسه ـ خسارات الجيش الاثينى والاسطول ـ وقوع الرعب فى أثينة ـ الحرب الدسلياني ـ خيانة الثيبادس ـ فوز الاثينيين على أخصامهم ـ وثوق ساموس ـ نجاح أثينة فى الشرق بحث الثيبادس فى عوده الى أثينة ـ مساعدته أهل بلده ـ اجتهادات أثينة القوية ـ سياسة الفرس نحو الجريق ـ واقعة صينوصمه ـ عود الثيبادس الى أثينة ـ اعطاء فارس مساعدة قوية لاسبرطة ـ ليصندر ـ سقوط الثيبادس ـ واقعة أرغينوسى ـ واقعة اغوسبوطماى ـ انحطاط سيادة أثينة ودمارها ـ تسليم أثينة للاسبرطيين ـ الثلاثون طاغية ـ تسلطن الفزع ـ قتل الثيبادس ـ رجوع الاعمال ضد الثلاثين ـ رجوع المنفيين تحت طراسيبولوس ـ سقوط الثلاثين ـ عود القانون والنظام فى أثينة

ولما انكشفت حقيقة الاحوال للقواد الاثينية أو الرؤساء انفجرت منازعة بين قورنثه ومستعمراتها قورصيرة فى سنة ٤٣٥ قبل الميلاد فدخلت فيها أثينة معضدة للقورصيريين ومن ثم حصل عقد المشاكل على الفور فانعقد مجلس فى اسبرطة مؤلف من عموم نواب الممالك البولوپونيزيه واستقر رأى هذا المجلس على اشعال حرب على أثينة تحت قيادة اسبرطة فى سنة ٤٣١ قبل الميلاد فطلبت اسبرطة بصفة كونها مدافعة عن الاتحاد الدوريانى من أثينة بعض طلبات أو منح من ضمنها نفى بيركليس من أثينة ثم تنازل أثينة عن قيادتها الاتحاد الديلوسى فلم تسمح أثينة بتنفيذ هذه الطلبات ورفضتها بالكلية فمع أن أثينة ما كانت عازمة على اجراء حرب الا أنها استعدت للملاقاة

وأسرعت المبارزات وانتشبت الحروب بواسطة عمل هجوم خيانى حصل من الطيبيين على مدينة بلاطية الصغيرة وكانت على صداقتها مع أثينة فانهزم هذا الهجوم وأسر أهل بلاطية الطيبيين وبخيانة مثل هذه الخيانة التى حصلت فى الهجوم ذبح البلاطيون أسراهم وجلبوا على أنفسهم انتقام وبطش أعداء أثينة

ثم ان جميع الجهات شرعوا فى الاستعدادات الحربية مع الشدة والعزم ودخل مع اسبرطة فى هذه المادة جميع الممالك البلوپونيزية مع مغارة وبيوطية وفوسيس وأو بنطيان لوكريس وامبراثيا ولوكاديا وأنقطوريا ماعدا أخايا وأرغوس وكانت جيوشهم قوية على غاية من الاستعداد الا أن أسطولهم كان أقل من أسطول أثينة ومع هذا فكان للمحالفين أمل فى أن يكون لهم طاقة على تطقيم أسطول مؤلف من ٥٠٠ سفينة حربية ويتقوون بمساعدة الاسطول الفنيقى بواسطة محالفة تعقد مع فارس وكان محالفو أثينة الموجودون على البر الاصيل تساليا وأكرنانيا ومدائن نوپاقطوس وبلاطية ويضاف الى هذه ممالكها الخراجية على ساحل تراسة وساحل آسيا الصغرى وجزائر السكلادة وكذا الجزائر الصغيرة المحالفة لها مثل خيوس ولسبوس وقورصيرة وظاكنطوس وفى المدة الاخيرة دخلت معها اسفالونيا وجمع الاسبرطيون وماوالاهم من المحالفين جيشا يختلف مقداره فى العدد من ٦٠٫٠٠٠ الى ١٠٠٫٠٠٠ نفس فى برزخ قورنثه وعهدت قيادة هذا الجيش الى ارشيدامنوس ملك اسبرطة فزحف على أطيقة فى نحو منتصف يونيه من سنة ٤٣١ قبل الميلاد

وامتد الحرب البلوپونيزى الذى ابتدأ بهذه الحالة سبعا وعشرين سنة وانقسم الى ثلاث مدد ممتازة فالاولى حرب العشر سنوات والثانية حملة سيسيليا والثالثة الحرب الدسليانى وتولد من هذا الحروب أيام منحوسة وأوقات متعوسة على الممالك الجريبية ماطرأت فى البحث جزيرة أبدا قبل ذلك

فأما المدة الاولى وهى مدة حرب العشر سنوات فان الحرب انتشب فيها من سنة ٤٣١ الى سنة ٤٢١ قبل الميلاد وذلك أنه بمجرد اغارة البلوپونيزيين على أطيقة هرب سكان المدائن المفتوحة والقرى المكشوفة الغير محمية والتجؤا فى داخل أسوار أثينة وازدحمت المدينة وغصت بسكانها وامتلأت محلات الاسواق والميادين العمومية والخلال الكائنة بين الاسوار الطويلة بالاخصاص والخيام وصار لا يوجد موضع من الارض يضع الانسان فيه قدمه من ازدحام أهل السواد والارياف فى سكناهم الوقتية حتى ان الناس سكنوا فى محلات بجوار الاسوار الطويلة

وفى غضون ذلك زحف الجيش البلوپونيزى على أخرنية بعد أن خرب سهل تراسية وعسكر فوق أرض عالية على مرأى من أثينة وعلى مسافة سبعة أميال منها وحصل منه الدمار والخراب فى كل جهة

من

من جهات المملكة وكانت أفعالهم هذه على مشاهد من أعين الجيش الاثيني وكان في داخل أسوار المدينة فصارت عساكره تزعق بصوت عال ادعونا نخرج اليهم وأما بيركليس فما كان في رغبته أن يخاطر على الخروج في الميدان الى الحرب مع قوة قليلة مثل قوته بل كان مقصده ورغبته خروج العدو من أطيقة بواسطة اجرائه هجوما على بلوبونيزه فسار في هذا التدبير مع الثبات وحزم الرأي وأجرى هجومات متواصلة أثبتت له شجاعته وحب وطنه واشتهر بين قواد تلك الهجومات على السياسي الاكبر كليون وكان كليون هذا زنيما من أرباب الغارات وكان دباغا ومن المفسدين في الارض فأراد أن يعمل عملا جليلا يشتهر به في عصره فدخل في الحروب وأطلق عليه اسم أبو الغارات وأسرع بيركليس في جمع أسطول مؤلف من ١٠٠ سفينة من السفن الاثينية وخمسين سفينة من سفن قورصيرة وأرسل هذا الاسطول لاجل تخريب سواحل بلوبونيزه وأرسل أسطولا صغيرا مؤلفا من ٣٠ سفينة لاجل الهجوم على فوسيس ولوكريس فكانت هذه الغزوات على غاية من الظفر حتى التزم البلوبونيزيون على ترك أطيقة من بعد حروب غير قاطعة امتدت ثلاثة أسابيع لانهم انجبروا على حفظ بلادهم وحمايتها

وفي فصل ربيع سنة ٤٣٠ قبل الميلاد أغار البلوبونيزيون على أطيقة مرة أخرى تحت قيادة أرشيدامنوس وفي هذا الوقت انفجر الطاعون في أثينة وتسبب منه موت مفزع في الاهالي المزدحمة على بعضها فقام جميع الطوائف مخالفين على بيركليس ورفضوا أعماله واجراآته لانه كان أصلا لحصول الغم والاكدار التي حلت بهم مع أن عزمه في الحقيقة وحزمه على حفظهم ونجاة أنفسهم ومع هذا فان بيركليس سار في مشروعه مع الثبات من دون صد ولا منع ولا تزعزع لانه كان متحققا أن أثينة لا طاقة لها على أعدائها في البروان المخاطرة من غير تدبير في انتشاب واقعة ربما يحصل منها عاقبة خطرة على بلاده فلاجل خلاص أطيقة جهز غزوة بحرية أخرى وقادها بنفسه لاجل خراب سواحل بلوبونيزه ولما رجع الى أثينة وجد المخالفين له ازدادوا قوة وتجاسروا في مدة غيابه حتى أرسلوا ارسالا الى اسبرطة في طلب الصلح فطرد الاسبرطيون الرسل مع الاهانة والذل من دون أن يسمعوا منهم شيأ وهذه الحالة كانت على بيركليس من أشد الاحوال فطلب السياسي الاكبر في الحال التئام مجلس عام ونجح في تحريض وحث أهل بلده على الحرب الا أنه لم يتيسر له الحصول على أن يزيل ما زرع في قلوبهم من عدم الثقة به حتى اتهمه كليون أبو الغارات مجاهرة أمام المجلس باختلاس أموال المالية وسرقتها فأمل أعداء بيركليس بأن اثبات هذه التهمة عليه موجب لخلعه وعزله من الوظيفة العمومية ومن ثم صار محاكمته أمام الجمهور بشأن هذه التهمة وحكم عليه بدفع غرامة كبيرة ثم ظهر من الدلائل لعموم الناس أنهم كانوا قادوا أنفسهم الى ظلم وجور بغير عدل وانصاف على عظيم قوادهم فأقاموا أعماله كما كانت وانتخب في الانتخاب العام والظاهر أنه نال مرة ثانية ثقة أهل بلاده ومحبتهم له ومع هذا فان مثل هذا العدل جاء في وقت متأخر وهو آخر حياته

ومات في الطاعون كثير من أصدقائه وأحبائه الذين كان يثق بهم ويثقون به من أرباب السياسة وأهل المعارف وماتت أخته وولدان له شرعيان وفي أثناء احتفالات جنازة ولده الاصغر ذهب عزم بيركليس وثباته وسكب عبراته على خدوده أمام الامة وصار بيته القديم خاليا من وارث يرثه وان ابنه الباقي على قيد الحياة وهو ابن اسباسيا ابن غير شرعي ثم ان الاثينيين جعلوا هذا الابن شرعيا تكفيرا لما حصل منهم

من الظلم والجور الذى عاملوا به أباه وسموه بيركليس ومن بعد مضى سنة اضطجع القائد الاكبر على فراش موته ولما تذكر أصدقاؤه حسن مساعيه ومشروعاته وقت نعيهم عليه حسرة على فراقه أدار وجهه اليهم وقال لهم كل ما تثنون به على جزء من السعادة العظيمة وكنت أنا مشتركا فى جميع الوقائع العمومية مع قواد أخر فبأى شئ أنا أفتخر بنفسى فى شئ لم تتذكره أهل أثينة فى حقى حتى ولا الحزن على أو قال بيركليس ان كثيرا من القواد حصل لهم النجاح وان المدح الذى أطلبه هو أنى لا امر أحدا من الاثينيين بلبس الحداد على ومات فى سنة ٤٢٩ قبل الميلاد هذا الرجل العظيم الجريسى السياسى المدبر ولبس عليه الحداد كامل الامة ونعوه وقت موته وكان يوم موته حزنا عاما فى أثينة عند جميع طوائف أهلها

وفى أثناء ذلك كان الحرب جاريا مجراه وفى الحرب الثانى سنة ٤٣٠ قبل الميلاد حزب البلوبونيزيون جميع جهات أطيقة حتى نهبوا معادن الفضة الموجودة فى لوريوم وخرب أسطولهم مغاصات اللؤلؤ ومحلات صيد الاسماك وخرب بجزيرة ظاكينطوس وأما النجاح الوحيد الذى حصل للاثينيين فهو تغلبهم على بوطيديه وهذه سلمت من بعد حصار استمر سنتين وكانت محتلة بمستعمرة أثينية مؤلفة من ألف شخص

وفى سنة ٤٢٩ قبل الميلاد سار الاسبرطيون الى بلاطية ووضعوا حصارهم عليها فاجتهد البلاطيون فى رجوعهم عنها واذكروهم بالقسم الجليل الذى حلفه النائب الاسبرطى بوسانياس من بعد النصرة الكبيرة التى كانت حصلت فى بلاطية بان هذه المدينة الصغيرة يلزم أن تكون مقدسة الى الابد ولا يحصل فيها محاربات فأجاب الاسبرطيون بانهم يحترمون هذا القسم لو تركت بلاطية محالفة أثينة فافتكر أهل المدينة أنهم الآن صاروا عرضة للانتقام والبطش بهم من هؤلاء المعاهدين فى نظير ذبحهم الاسرى من الطيبيين فلم يقبل البلاطيون ترك محالفتهم أثينة فتغلبوا على مدينتهم بعد أن دافع البلاطيون عنها مدافعة قوية وبذلوا جهدهم فيها مدة امتدت نحو سنتين وقتل الاسبرطيون كل من كان فيها من السكان ودمروا المدينة بالكلية وأعطوا أراضيها لاهل طيبة وفى سنة ٤٢٧ قبل الميلاد هزم أسطول أثينى مؤلف من عشرين سفينة أسطولا اسبرطيا مؤلفا من سبع وأربعين سفينة ونال هذا الاسطول نصرة ثانية على أسطول اسبرطى تألف جديدا وكان مركبا من سبع وسبعين سفينة وهاتان الواقعتان حصلتا فى خليج قورنثه

وفى السنة الرابعة من الحرب عصت مطلينه عاصمة جزيرة لسبوس على أثينة وطلبت من اسبرطة حمايتها لها فصار قبولها فى الاتحاد البلوبونيزى وأرسل أسطول اسبرطى لمساعدة عصيان هذه المدينة فى فصل ربيع سنة ٤٢٧ قبل الميلاد الا أن الاثينيين استردوا المدينة قبل وصول الاسطول الاسبرطى اليها وكان الاثينيون حاصروا مدينة مطلينه بمجرد عصيانها من دون اهمال وان معظم الاهالى الذين رجحوا حكم الاثينيين على حكم هيئة الاعيان عندهم قاموا فى ثورة وأرغموا حاكم المدينة على التسليم والانقياد للاسطول الاثينى واحتل الاثينيون المدينة وآلت عاقبة أمرها الى ما تختاره أثينة فى أمرها وأهلها وبواسطة ما كان لكليون من النفوذ والسلطة فى المجلس أصدر المجلس أمرا بقتل رجال مطلينه واسترقاق النساء والاولاد وخيفة من رد هذا الحكم البربرى الفظيع أمر كليون بتسفير سفينة حربية فى الحال الى لسبوس بأوامر المجلس ثم تفكر الاثينيون ليلا وفى صباح اليوم الثانى

طلبوا

طلبوا انعقاد المجلس ثانيا فأجيب لهم بانعقاده من طرف القائد العمومى ولما كان انعقاده بهذه الحالة مخالفا لمواد القانون المدنى ألغى فى المجلس الامر الذى صدر منه فى اليوم السابق بشأن أهل مطلينة وصدر أمر خلافه بابطاله وتعين الملك مركب حربى سريع الجرى على ظهر الماء وصار تجهيزه بحرية من أقوى وأجود البحرية وأمروا قائده فى الحال بالسفر والاسعاف بتوصيل الامر الى حاكم لسبوس قبل أن يقضى تنفيذ الامر الذى أرسل اليه أمس وأن تبذل البحرية جهدهم ووعدوهم بالمكافأة وحسن الالتفات اليهم لووصلوا فى الوقت الى لسبوس بالامر القاضى بالغاء أمر قتل رجال أهل مطلينة فانجذبت قوى البحرية الى المجاديف فكانوا ينامون عليها ويأكلون ويشربون وهم يشتغلون على مجاديفهم ومن السعادة أنه كان الطقس صحوا جدا فوصلوا لسبوس فى الوقت الذى كان فيه القائد الاثينى مستعدا لتنفيذ حكم ما فى الامر الاول وعوقبت المدينة بهدم أسوارها وتسليم أسطولها الى الاثينيين وقتل رؤساء هيئة حكومة الاعيان التى كانت بها

ثم ان قورنثه عزمت على الاستحواذ على جزيرة قورصيره وخروجها من معاهدة أثينة على شرط أن تسلم لقورصيريين أسراهم الذين كانت قورنثه أسرتهم فى سنة ٤٣٢ قبل الميلاد ولما وصلت هذه الاخبار الى قورصيرة تولد منها حرب داخلى كانت نتيجته هلاك ودمار هيئة حكومة أعيان قورصيرة

وكانت سنة ٤٢٦ قبل الميلاد خالية من الوقائع والحوادث الحربية الا أن كثرة الحرائق المتسببة من حصول النيران وكذا الغرق الذى حصل من طوفان المياه فى جميع جهات الممالك الجريسية زعزع هذه المملكة من جميع نواحيها الشاسعة وزار الطاعون مرة ثانية أثينة وفى السنة التالية حصلت واقعة فى أطيقة من الاسبرطيين تحت قيادة ملكهم أغيس الا أن الاسبرطيين انسحبوا من أطيقة على وجه السرعة خائفين من نجاح الاثينيين فى انشائهم موقعا بحريا فى جهة بيلوس على ساحل مسينة ومنه يجتهدون ويسعون فى تهييج ثورة الرقيق من الاهالى وسار الجيش الاسبرطى فى الحال على بيلوس وكان صار التغلب عليها بفرقة صغيرة من الاثينيين تحت قيادة ديموسطنس وهجم الجيش الاسبرطى مرتين على بيلوس وجرى صده من القوة الصغيرة ثم امتنع الجيش من اجراء هجوم ثالث لما رأى سرعة وصول الاسطول الاثينى وفى اليوم الثالث هجم الاميرالى الاثينى على الاسبرطيين فى مينة بيلوس وأوقع عليهم هزيمة شديدة فخسر البلوبونيزيون كثيرا من مراكبهم ولم ينج منها الا ما كان قريبا من البر ثم ان الاسطول الاثينى حاصر جزيرة سفاكطريا وكان زهرة الجيش الاسبرطى معسكرا فيها فحصل الخطب الجسيم والفزع الكبير المهدد لهؤلاء العساكر وكان أكثرهم من أهل مدينة اسبرطة من أولاد الامراء والوجوه حتى وصل اليهم حكام اسبرطة وجاؤا الى بيلوس واختبروا الموقع بأنفسهم ورأوا أنه لا يوجد أسلم عاقبة فى خلاص هؤلاء العساكر من عقد صلح فحرروا فى بيلوس هدنة وسفروا بها سفيرا الى أثينة من أجل طلب الصلح

فتعالى الاثينيون عند ما رأوا اسبرطة مع كبريائها مائلة الى الصلح وتعشم العقلاء من أهل مدينة أثينة فى فصل هذه المادة من الحرب بطريقة سليمة الا أن النتيجة كانت بغير ما أملوا وذلك أن كليون أبا الغارات والشقاق حث أهل بلده وحرضهم على اجراء الصلح على حسب الشروط التى ما كانت قبلتها اسبرطة فى الابتداء وهى فى حالة عظمتها وشماختها فى ثم تجددت المشاحنات والمبارزات ثانية ولما خاف ديموسطنس من فصل الشتاء الذى قرب حلوله ربما يلزمه رفع الحصار عن جزيرة سفاكطريا

ويتولد من ذلك نجاة الاسبرطيين وخلاصهم الى البر الاصيل عزم على اجراء هجوم فى الحال لكنه لاحظ أن قوته ضعيفة جدا عن اجراء هجوم مثل هذا فأرسل الى أثينة بتوضيح رأيه وطلب منها مددا يساعده على الهجوم فضعف ثبات وعزم المجلس من هذا التقرير ولعنوا كليون لانه كان سببا فى ضياع الفرصة من عقد صلح شريف فأجاب أبو الغارات كليون بان رسل ديموسطنس لم ينقلوا حوادث الواقعة بالصدق وصرف النظر عن حجة الامداد وشرع بذم القواد ويقدح فى حقهم ويقول انهم ليسوا كفؤا لمثل هذه الاشغال ولو كان هو القائد الاكبر لامكنه أخذ الجزيرة والتغلب عليها فى الوقت فسأله خصمه السياسى نسياس مع الاستهزاء والازدراء وقال له لماذا لم تتوجه حينئذ فضحك المجلس مع القهقهة من تفاخر كليون وتجبره فتأثر الدباغ من كلام نسياس وأقواله وقرر المجلس أن كليون يلزم أن يأخذ قيادة بيلوس ويظهر فخر كبريائه ومن بعد أن حاول كليون بغير طائل فى خلاص نفسه من توجهه الى هذا الشرف المضر بحالته اتفق على أن يشرع فى هذا الشغل فسار ولم يأخذ معه من التقويات الاثينية أحدا بل أخذ معه قوة قليلة من الخطر به ووعد أهل أثينة فى وقت سفره بأنه يأخذ الجزيرة فى ظرف عشرين يوما وأنه فى ظرف هذه المدة اما ان يبيد القوة الاسبرطية أو يجلبها مغلولة فى السلاسل والاغلال الى أثينة ولما وصل بيلوس كان ديموسطنس أعد فيها جميع استعدادات الهجوم وكان منتظرا ورود الامداد من طرف أثينة فاستلم كليون قيادة الاسطول وعلى حسب ماله من السعادة الازلية نجح فى هجومه الذى أجراه وتغلب على جزيرة سفاكطريا وأسر جميع محافظيها الذين بقوا على قيد الحياة وصار تحصين مينة بيلوس تحصينا قويا وحفظت بعساكر من المسينيين وجعلت أساس الحركات الحربية القابلة ضد اسبرطه وسافر كليون وديموسطنس الى أثينة مع الاسرى وكان ذهابه وايابه عشرين يوما ولما نال كليون احدى المظفرات الجليلة فى الحروب صار له نفوذ زائد فى المملكة وكان ذلك من سعادته الكبرى ومن حزم رأى ديموسطنس وتولد من التغلب على أسرى الاسبرطيين أن صار للاثينيين طاقة على صد حركات أعدائهم مع الثبات ومنعهم من الغارة على أراضيهم وهددوهم بقتل الاسرى ان فعلوا أدنى حركة مغايرة لاثينة ولما رأى الاسبرطيون عدم فائدة فيما كانوا ساعين فيه كرروا التجديد بعقد الصلح فأعرض الاثينيون عن كل طلبات اسبرطه وأعاروهم أذنا صماء

وفى السنة الثامنة من الحرب أى فى سنة ٤٢٤ قبل الميلاد فتح للاثينيين باب القوة والنشاط ومن ثم اتجهت نحوهم نتائج المظفرات وذلك أنه فى مبادى القسم الاول من السنة تحسن نجاح أحوالهم بواسطة التغلب على جزيرة صيطيرة بواسطة نسياس ورتب محافظين من الاثينيين فى عاصمتيها الاصليتين ومن بعد هذا خرب ساحل لاقونيا وتغلب على مدينة طيريا وكان متوطنافيها الايجيناطيون بمعرفة الاسبرطيين من بعد ضياع جزيرتهم وقتل الاثينيون جميع من كان موجودا على قيد الحياة من أهل ايجينه بطرائق بربرية وحشية

ثم ان الاثينيين تعالوا وتعاظموا بما حصل لهم من هذه المظفرات وشرعوا فى استرداد عموم الاراضى التى كانت تحت أيديهم قبل هدنة الثلاثين سنة فنالوا بعض نصرات فى نواحى مغارة لكنهم هزموا هزيمة شديدة فى بيوطية وفى نحو هذا الوقت صار التغلب على بعض التبعة التراسيانية والبعض دخل فى الاتحاد البلوبونيزى بواسطة القائد براسيداس الاسبرطى وأخضع هذا القائد أيضا غالب الجهة

الشرقية من بحيث جزيرة كالثيدونه ثم حصل الضعف الموجع لاثينة واشتاق الاسبرطيون لخلاص أهلهم الذين كانوا أسروا فى سفاكطريا بمعرفة الاثينيين ورغب كل من الفريقين فى الصلح فعقدوا هدنة لمدة سنة فى سنة ٤٢٣ قبل الميلاد وشرعوا فى مخابرات من أجل عقد صلح دائمى فتأخر هذا المشروع بضع أيام بسبب ما حصل من عصيان مدينة صكيونى وكان أهلها مالوا الى جهة براسيداس وبما أن مواد الهدنة تمنع حصول التغيير فى أى شئ من اجراآت الاعمال طلب الاثينيون استردادا المدينة فلم يقبل براسيداس هذا الطلب وبواسطة تحريض كليون صار تسفير حملة تحت قيادته لاسترداد مدينة صكيونى وقتل أهلها فتغلب كليون على مدينتى طورونى وغالبصوص وزحف على امفيبوليس فوجد براسيداس سادّا عليه طرائق مسالكه وتقدماته فانتشبت بينهما واقعة شديدة انهزم فيها الاثينيون وقتل كليون وأراح الله منه بلده من أعماله الفاسدة وجرح براسيداس جرحا بليغا هلك منه

ويولد من بعد موت كليون وبراسيداس زوال جميع المصاعب والعوائق الاصلية من أجل حصول الصلح فعقد صلح عام فى فصل ربيع سنة ٤٢١ قبل الميلاد بين اسبرطة وأثينة يتضمن هذا العقد سلما مدة خمسين سنة وعرف هذا الصلح بمعاهدة نسياس ثم ان البعض من محالفى اسبرطة تضرروا وأذاعوا بان اسبرطة مجربة صرف مكاسبها فيما يعود منه النفع على خاصة نفسها وسحبوا أنفسهم من الاتحاد البلاوبونيزى وشكلوا اتحادا جديدا تحت قيادة ارغوس فعقدت أثينة فى الحال معاهدة مع أرغوس وعليس ومنطينة لمدة مائة سنة وكان هذا فى سنة ٤٢٠ قبل الميلاد وكان توصيل الاثينيين الى هذه الدرجة بمساعى الثيبادس وكان فى الابتداء صديق اسبرطة الا أنه تغير حاله حتى صار العدو الالد لهذه المملكة نظير ما حصل له منها من الخسة والازدراء فى عدم تقدم سنيره وكان كامل الاوصاف فى القيادة العسكرية والشجاعة والاقدام من بين القواد الحربية الا أنه كان زنيما فاسد الطبع فظا غليظا وبمجرد موت كليون صار هو قائد رئيس الحزب الوطنى ليس محبة فى الامة بل واسطة لمطامعه البعيدة ثم نشأ من المنازعات التى حصلت بين اسبرطة وأرغوس أن كانت نتائجها اشتعال حرب نال فيه أغيس ملك اسبرطة نصرة جليلة فى منطينة سنة ٤١٨ قبل الميلاد فقوّت هذه النصرة حزب الاعيان وهم هيئة الحكومة فى أرغوس فأبطل هذا الحزب الحكومة ونكث معاهدة أثينة وعقد معاهدة مع اسبرطة ثم فاز الاهالى أخيرا بطرد هذا الحزب واخراجه من أرغوس وطلبوا مساعدتهم من أثينة فسافر من أثينة أسطول وجيش لمساعدتهم تحت قيادة الثيبادس ولم يحصل من هذه الحملة نتيجة قاطعة واستمر الصلح بين أثينة واسبرطة مرعيا فى الاسم لا فى الجسم وكل هذا جار فى مدة تخريب محافظى بيلوس لاقونيا وارسال الاسبرطيين بمثل ذلك سفنا مخصوصة تغير فى البحر على التجارة الاثينية وتسلبها

وأما المدة الثانية وهى الحملة السيسيليانية فكانت من سنة ٤١٥ الى سنة ٤١٣ قبل الميلاد وذلك أنه فى نحو سنة ٤١٦ قبل الميلاد نشأ من منازعات المستعمرات الجريقية فى سيسيليا احياء الحرب الاكبر بين الجنس اليونيانى والجنس الدوريانى واشتبكت مدينتا أغسطه وسلنوس فى محاربة بينهما فاستغاثت مدينة أغسطه بأثينة فى مساعدتها على سلنوس فنجحها طلبها ولما غش الاغسطانيون الاثينيين فى عدم اعطائهم حقهم من المصاريف الحربية بما أنهم قادرون على دفعها وفصلوا الامر فى عدم الدفع سافر اسطول أثينى الى أغسطه تحت قيادة نسياس والثيبادس ولماخوس فى

سنة ٤١٥ قبل الميلاد وكان الشيبادس لعن مجاهرة من أجل انتهاكه الحرمات فسافر متوجعا من هذا اللعن والذم الذى تعلق برقبته وبمجرد الوصول الى ساحل سيسيليا عرف القواد الاثينيون الخديعة التى غش بها الاغسطانيون أهل بلادهم وتحيروا فيما يجب اجراؤه فقال كل واحد منهم رأيا ومع هذا فانهم استحسنوا ما قاله الشيبادس من الرأى وهو أنهم يعقدون محالفات جديدة بين المدائن الحريقية الموجودة فى سيسيليا وبمساعدة هذه المدائن يصير الهجوم على كل من مدينتى سيلنوس وسراقوسة وكان هذا آخر رأى صار الاتفاق عليه بين الثلاثة القواد ثم سارت الى ساحل سيسيليا وتغلبوا على كتنه وجعلوها أس العمليات الحربية اللازم اجراؤها على سراقوسة ثم سار طالب الشيبادس الى أثينة لاجل المجاوبة عما فعله من انتهاك الحرمات فبدل أن يتوجه الى أثينة هرب ناجيا بنفسه الى ايطاليا ومنها الى اسبرطة وأفشى سر تصميمات أهل بلاده ولما كانت أعمال نسياس الحربية لاثمرة فيها وعلى غير نجاح توجه لقضاء فصل الشتاء فى ناكسوس وأما أهل سراقوسة فانهم صرفوا فصل الشتاء فى تقوية استحكامات مدينتهم

وفى فصل ربيع سنة ٤١٤ قبل الميلاد شرع الاثينيون فى حصار سراقوسة الا أنه لاح لهم بعض احتياطات يلزمهم أخذها وذلك أنه يلزم لاجل التغلب على المدينة اجراء أعمال خطرت على بال نسياس فشرع فى اجراء الاشغال التى خطرت على باله بشدة وحزم رأى ومن تردداته فى فعل هذا وعدم فعل هذا وجد أهل سراقوسة زمنا فى وصول المساعدة لهم من الاتحاد البلوبونيزى ووصل غيليبوس الاميرال الاسبرطى وكان قائدا ذا شجاعة وحمية فى أعماله فلما وصل سيسيليا جمع جيشا من المدائن الدوريانية الموجودة فى الجزيرة وزحف بنفسه على سراقوسة مع هذه القوة وبواسطة حركاته القوية جدد القوة والثبات عند السراقوسيين ورجعت اليهم سعادة الحرب فانكسرت احاطة الاثينيين وفى نحو هذا الوقت وصل الى غيليبوس امداد وهو عمارة بحرية مؤلفة من ثلاثين سفينة من سفن البلوبونيزيين ودخلت المدائن السيسيليانية وكانت لحد الآن باقية على الحيادة مع سراقوسة فانجبر نسياس على ترك السعى فى احاطة سراقوسة واحتل بعد ذلك بحيث جزيرة بليميريوم وأنشأ فيها محطة بحرية ولما صارت أعماله على غاية من عدم الفوز والنجاح كتب الى أثينة فى ارسال امداد وتقوية وطلب عوده وكانت جميع الاحوال مرتبكة فى أثينة وكان الاسبرطيون أغاروا على أطيقة فى فصل ربيع السنة المذكورة أى سنة ٤١٣ قبل الميلاد وشيدوا ومعسكرا قويا فى ديسيليه على ظهر جبل بارنس وعلى نحو أربعة عشر ميلا من العاصمة مطل على السهل الاثينى وعجزت المؤنات وضعفت حالة المدخول جدا ومع هذا فان الاثينيين لم يقبلوا عود نسياس وأرسلوا له امدادا مؤلفا من خمس وسبعين سفينة تحت قيادة ديموسطنس وعوريمدون فوصل هذا الاسطول فى وقت فيه يصير خلاص نسياس من الموقع الصعب الموجود فى المينة الكبرى الذى طرده اليه غيليبوس ولما وجد ديموسطنس انه لا يمكنه تيسر الحصول على عود الاحوال تحت قاعدة مناسبة للاجراآت الحربية أشار على نسياس بكونه يترك السعى فى التغلب على سراقوسة ويعود معه الى المملكة لاجل طرد الاسبرطيين من أطيقة فلم يرغب نسياس العود الى الجريس بحالة خزى حصل له من الخيبة وعدم النجاح ورضى بالقهقرة الى كتنه وهو موقع أقل خطرا من الاول الا أنه أبطأ فى حركته هذه حتى بلغ السراقوسيين خبرها فهجموا عليه فى الحال فانهزم الاسطول الاثينى وأما الجيش فانه صد الهجوم الذى وقع عليه فاجتهد

السراقوسيون فى قطع خط رجعة الاثينيين بان غلقوا عليهم فم المينة الكبرى بمراكب صفوها على حذاء واحد مرتبطة فى بعضهم بعرض الفم فاجتهد الاثينيون فى كسر هذا السد والخروج منه فانهزموا شرهزيمة وحصل لهم تلفيات جسيمة مقدارها نصف أسطولهم وضعفت قوة البحرية وعزائمها ولم يقبلوا لتجديد الهجوم مرة ثانية وكان جيش الاثينيين لم يزل قويا ومقداره ٤٠٠٠٠ نفس مقاتل فعزم هذا الجيش على ترك الاسطول والقهقرة من طريق البر الى احدى المدائن المحبة لاثينة ومنها يمكنهم أخذ مراكب للعود الى أثينة فابطأ نسياس عن هذا العزم الى أن مضى الوقت الموافق لهذه الحركة وفى أثناء سعيه فى خلاص الجيش انكسر وتشتت حاله وانجبر على التسليم وأسر الاثنان نسياس وديموسطنس وحكم عليهما بالموت الا أن غيلبوس والقائد هرموقراطيس السراقوسى اجتهدا فى خلاصهما من القتل مجاهرة وأن يكون موتهما بالسر باهانتهما فى مدة حياتهما وأما الاسرى الاخر فانهم من بعد أن ذاقوا أشد العذاب والعقاب صار بيعهم مثل الرقيق على السراقوسيين

وأما المدة الثالثة فهى الحرب الدسلياني واضمحلال أثينة من سنة ٤١٣ الى سنة ٤٠٤ قبل الميلاد وذلك أنه لما وصلت الاخبار المكدرة بشأن ما حصل فى عاقبة الحملة السيسليانية انتشر فيها الحزن الشديد والرعب الزائد وعلى ما قيل ان الذى نشر هذه الاخبار رجل من الاغراب فى حانوت رجل حلاق فى بيروس فارتعج الناس من هذه الحكاية وصاروا بين مصدق ومكذب حتى وضعوا الرجل الناقل لها تحت العذاب بكونه كذابا وناشرا أخبار الكذب ثم ثبتت أخيرا بواسطة وصول الفارين والهاربين من ميدان الواقعة أو ميدان المصيبة ورأت أثينة نفسها أنها فى بلية ومصيبة ما ألمت بها أبدا ولبس أهل المدينة الحداد والحزن على ما حل بهم من هلاك أولادهم وأقاربهم وأصدقائهم واختلطت هذه المصائب والاحزان بالرعب العمومى من أجل خلاص المملكة وسلامتها وكان تعسكر الاسبرطيين فى ديسيليا منبع المخاوف المستمرة فى أثينة ومأوى حصين لعساكرهم يغيرون منه ويجرون ما يجب عليهم من واجبات وظائفهم من الاعمال العسكرية ويضاف الى شدة الموقع وحصانته ابتداء محالفو أثينة فى تركها والتحول عنها وكان الثيبادس مشتغلا بتهييج الثورات فى خيوس ولسبوس وعوبية لمساعدة اسبرطة وقت طلبها ودخلت اسبرطة فى معاهدة تحالفية مع الذل والاهانة مع مملكة فارس التى هى العدوة الالدّ الحربية الجريسية لاجل حطم أثينة وعود السلطة الفارسية على جميع الممالك التى كانت سلطتها جارية عليها فى سابق الامر بما فى ذلك جزائر بحر الارخبيل وتساليا وبيوطية وتولد من صرف الذهب الفارسى الجارى صرفه من غير مبالاة من طرف فارس فى خصوص فوائدها أن صار لاسبرطة طاقة كافية على انشاء أسطول أعظم من أسطول أثينة وتقوى الاسطول البلوبونيزى تقوية عظيمة بواسطة ما أضيف اليه من المراكب الحربية القوية من نواحى سيسيليا

ثم ان الاثينيين بذلوا جهدهم ووجهوا أفكارهم أولا لترميم خسائرهم وكشف ما حل بهم من الخوف والرعب فأدخلوا الاقتصاد الكبير فى الخدمات العمومية وعزموا على انشاء أسطول جديد وأن يكون انشاؤه بسرعة من دون توان وطلبوا المحافظين الذين كانوا وضعوهم أخيرا على ساحل لاقونيا وحصنوا رأس سينيوم لاجل المحافظة على طريق المواصلة مع عوبيا وهى الجزيرة التى يجلب منها الاثينيون القسم الاعظم من مؤناتهم ولم يبق من عموم تبعة أثينة على صداقتها وودادها الا جزيرة

ساموس فقط ولما علم الساميون بحصول العصيان فى خيوس قاموا على هيئة حكومة أعيانهم وقتلوا جماعة كثيرة من هذا الحزب ونفوا الباقى وأقاموا حكومة ديمقراطية فأعلنت أثينة بأن ساموس حليفة لها مستقلة فى نفسها والمبلغ الاحتياطى وكان مقداره ألف وزنة الذى كان بيركليس وضعه على حدة لضرورة ما يلزم فى الحروب القابلة كان لهذا الآن باقيا من دون أن أحدا يلمسه وكان هذا المبلغ موضوعا تحت قانون حكم الموت على كل من يتسبب فى أن يصرف منه شيأ أو يتجاسر على أخذ شئ منه الا فى حالة ما اذا حصلت نائبة عظمى أو طامة كبرى حلت على عموم المملكة ففى هذه الحالة يجب التصرف فيه أو الصرف منه فمن ثم ألغيت أحكام المحافظة عليه وأخذ هذا المبلغ وصرف فى انشاء الاسطول وتطقيمه ولما تم انشاؤه أقلع على الفور الى خيوس محاربا لها

وانتقل الحرب فى هذه الحالة الى النهاية الشرقية من البحر الابيض المتوسط والى آسيا الصغرى وان الشغل الذى ركب على عاتق أثينة ما كان لانهزام الجمع الذى تجمع عليها فقط بل لاخضاع أقاليمها التى ثارت عليها الى طاعتها ففى الحرب الاول الذى أشعلته أثينة يظهر أنها شفت علتها مما كان حصل لها من الخسائر والتلفيات فى سيسليا وأعادت لسبوس وكلا ظومنيه وهزمت الخيونيانيين وخربت بلادهم وأرضهم وصارت ساموس قاعدة الاسطول الاثينى وأس الحركات العسكرية فى أثناء المدة التى كانت باقية من الحرب ثم حصلت واقعة بالقرب من ملطية فى آسيا الصغرى انهزم فيها نفس الاسبرطيين وتشتت شمل عسكرهم وحصل من أثينة اللين الغريب المدهش الذى فاقت به مما حصل لها من المصائب بشجاعتها وصبرها ومحبة أهلها للوطن حتى انهم لم يتركوها فى وقت شدتها لاعدائها كل هذا جعلها على قدم ثابت حتى صار لها طاقة على اشعال حرب لا ريب فيه مرة أخرى تستحق عليه الذكر وجميل الاحترام فى العصور المتوالية

وكان الكثير من هذه المظفرات منسوبا الى مهارة الثيبادس وكان تقوى فى مرغوبه حتى استحوذ مرة ثانية على محله الذى كان ضاع منه فى أثينة فعرض نفسه لشغل فصل فارس من محالفة اسبرطة وأبطله بمهارته وفاز فى اغراء واغواء المرزبان طيسافرنيس بقوله انه لا فائدة لفارس من كونها ترخص فى الغلبة على أثينة أو على اسبرطة فى مثل هذا الحرب بل تكون سياسة فارس الحقة هى كونها تترك الاثنين لبعضهما الى ان يضعف بعضهما بعضا ثم ضبط ممالك الاثنين وقت حصول الضعف عندهما فى مقاومة فارس عند حربها معهما فلما تحقق المرزبان من هذه المشورة التى أشار بها الثيبادس عليه نكث فى الحال محالفته مع اسبرطة وكانت اسبرطة محتاجة لمساعدته فى هذا الوقت حتى يكون لها طاقة على غلاق الحرب وكذا نجح بواسطة عدم صبر القواد الاسبرطية وقلقهم برشوات عظيمة قدمها اليهم سرا وابتدأت اسبرطة فى أن ينصب عليها أنواع الخزى والكسوف فى دخولها فى محالفة مع العدو القديم لمالك الجريسية ثم اجتهد الثيبادس فى توسيع الخرق الذى انفتح بين فارس واسبرطة ونجح فى خداع القواد الاثينيين الموجودين فى ساموس باعتقاد أن تدبيره وسياسته مع طيسافرنيس فيه الكفاية الوافية فى جلبه الى معاهدة مع أثينة وانه يمكنه اتمام هذا الشغل على شرط أن يسمح له بالعود الى أثينة والى مسنده الاول وشرط أن يصير الغاء الجمهورية ويقام محلها حكومة أعيان بما أن الاثنين يبغضانها وانها مثيرة للاهالى ولما اعتقد القواد والرؤساء أن نجاحهم فى الحرب متوقف على مساعدة فارس قبل الاثينيون مع الكراهة والاشمئزاز هذه الشروط الصعبة وألغوا الحكومة

الديمقراطية

الديمقراطية وشكلوا مجلسا مركبا من ٤٠٠ نفس خصوصا من الذين يعول عليهم فى ضبط ادارات الاعمال فى المملكة ثم بعد قليل ظهر أن الشيادس خدع أهل بلاده فابطلوا مجلس الاربعمائة نفس وأعادوا الجمهورية على ما كانت عليه وأعقب هذا الانقلاب سرعة انحراف جزيرة عوبيه نحو الاسبرطيين سنة ٤١١ قبل الميلاد فاجبر الاثينيون على بذل ما فى طاقتهم من القوة وحزم الرأى فى بقاء وجود حياة جنسهم ولقد كسرتهم وأضعفتهم خسائرهم فى مدة الحرب حتى أرغموا على اجراء المدافعة عن أنفسهم فى وقت الحرب لكن السياسة الفارسية فى شأن مساعدتهم المحتاجين اليها حرمتهم من اجتناء أى فائدة تعود على منافعهم ونجاحهم

ولما وجد منداروس القائد الاسبرطى فى اسيا الصغرى أن لا خير فى السياسة الفارسية عند الاسبرطيين والاثينيين ترك ملطية مغاضبا الهامع الكراهة والزعل وأقلع الى الهلسبون مؤملا انه يجد فى المرزبان الآخر زيادة همة ونشاط فى معاضدته فتبعه أسطول أثينى مؤلف من قوة قليلة تحت قيادة تراسبولوس فهزمه فى المضيق الكائن بين سسطوس وابيدوس فعزم الاميرال الاسبرطى على اللحوق باسطول الاتحاد فى عوبيه فضاعت مراكبه من عواصف شديدة نزلت عليها فى نواحى جبل أتوس فنجا منداروس بنفسه وحصل للاسطول الاثينى فائدة تغلبه على كيظيكوس وكانت عصت على أثينة فى السابق ومن بعد مضى شهر أو شهرين حصلت وقعة عظيمة بين الاسطولين الاثينى والبلوبونيزى فى نواحى كينوصيما على مسافة من أبيدوس كانت نتيجة الحرب فيها انتصار الاسطول الاثينى وفى وقت حصول الشيادس اليه فى شدة حرارة الحرب باسطول مؤلف من ثمانى عشرة سفينة من ساموس فى سنة ٤١٠ قبل الميلاد وكان سبب وصول الشيادس أن هذا الاثينى المحتال لما ضيع اعتماد صداقة الفرس فيه لم يكتف ملك الفرس بالتدبيرات التى عرضها طيسافرنيس فقط بل أمره أن يبذل جهده فى مساعدة اسبرطة بالقوة الفعالة فكان أول الاعمال التى أجراها المرزبان هو كونه قبض على الشيادس وسجنه فى سرديس فهرب من بعد مضى شهر ناجيا بنفسه وما زال حتى وصل كلاظومينية وصمم على المخاطرة فى كل شئ وبذل الجهد فى عوده الى أثينة فجمع قوة من السفن قدرها ثمانية عشر مركبا فى ساموس والتحق بالاسطول الاثينى فى الوقت الذى انتصر فيه الاسطول المذكور ثم ان منداروس مع الاسطول الاسبرطى معضدا بالجيش الفارسى تحت قيادة فرنابظوس شرع فى حصار كيظيكوس فعزم الاثينيون على خلاصها فاشتعلت نار حرب مزعجة طردفيها الاسطول البلوبونيزى نحو الشاطئ فاجتهد الفرس فى حماية السفن فسقط عليهم الشيادس فى رأس رجاله وبدد شمل الفرس وقت ما كان الاثينيون غائرين على الاسطول المطرود جهة الشاطئ وقتلوا منداروس وتغلبوا على جميع الاسطول البلوبونيزى ما عدا السفن السراقوسية فانه صار حرقها مع بحريتها وقوادها وفى هذه النصرة الكبيرة ما وجد أحد جاد بنفسه من أجل أهل بلاده زيادة عن الشيادس وبما حصل للاثينيين من هذا الظفر صاروا أسيادا البر ونبطس وتجارة البحر الاسود مرة أخرى وجمعوا كثيرا من الغلال والحبوب من جهات البحر الاسود وأرسلوها الى أثينة فعمت الناس حتى الاسبرطيين المقطوع الأمل منهم فى ديسيليا وكانوا يؤملون وقوع القحط فى المدينة وتسليم نفسها لهم

وفى سنة ٤٠٩ قبل الميلاد نال الاثينيون نصرة عظيمة أيضا وذلك أنهم تغلبوا على كالشيدون رغما عما حصل من اجتهاد فرنابظوس فى خلاصه اياها وكذا أخذ الشيادس صلمبريا وفى سنة ٤٠٨ قبل الميلاد سلمت بيزانطيوم نفسها للشيادس

ويولد من الخدمات الجليلة التى أجراها التبيادس لاثينة تكفير عن سيأته فيما مضى من قبيح سلوكه
وأفعاله وفى سنة ٤٠٧ قبل الميلاد دعى الى العود الى أثينة فاحتفل به كامل الامة احتفالا عظيما
وأبطل مجلس السنا والاحكام التى كان سبق صدورها فى حقه وأسقط ما كان عليه من اللعن والطرد
ولما رؤى انه هو القائد الفريد الذى وجدت فيه الكفاءة على أن يعيد الى أثينة شوكتها ومجدها جعل
قائدا عاما بنفوذ ليس تحت حد ولا حصر وصار قائدا على قوة قدرها ١٠٠ سفينة حربية و ١٥٠٠
من العساكر الثقيلة و ٥٠٠ من الفرسان ثم ان التبيادس من خفة عقله اعتقد فى نفسه انه نال محبة
أهل بلده ثانيا ووثوقهم به ونظر نظر الاعمى الى الشغل الذى سيجرى الاثينيون محاكمته عليه محاكمة
جديدة وان له كثيرين من الاعداء ذوى شوكة فى أثينة فى ريب كبير منه
وفى غضون ذلك تحولت ادارة أعمال الاشغال الفارسية الى أياد قوية الشوكة وهو أن كيرش
الاصغر ابن دارا الثانى الملك المتسلطن فى فارس تعين مرزبانا على الاقاليم الفارسية فى اسيا الصغرى
وكان على فطنة وذكاء وطمع لانهاية له فأول مشروع جعله واسطة لمشروعاته البعيدة أن عزم على
مساعدة اسبرطة مساعدة ودية فى حطم أثينة وحشمها وفى هذا الوقت عهدت قيادة الاسطول
الاسبرطى الى ليصندر أحد مهرة الرجال المشهورين فى اسبرطة وعقد هذان الذاتان علامات الصدق
والوداد والاحترام بين بعضهما واتفقا على المعاضدة بالقوة وحزم الرأى بالاشتراك وصفاء القلب واللسان
وكان وصول كيرش فى سرديس فى فصل ربيع سنة ٤٠٧ قبل الميلاد وفى سبتمبر من نفس هذه السنة
أقلع التبيادس بالاسطول من أثينة الى اندروس وكانت محفوظة بقوة لاسيديمونية ولما رأى التبيادس
شدة المقاومة زيادة عما كان يعهده ويؤمله ترك كانون مع عشرين سفينة مستمرا فى حصارها هذا وأقلع
مع باقى الاسطول الى ساموس وفيها علم من أول وهلة أن فارس صارت العدو المبين لاثينة ولما قل
ما عنده من النقود اجتهد فى أن يجمع نقودا يوزعها على أهل كيمى وهى تبعة صادقة لاثينة ولما رفض
أهلها هذا الطلب أوقع بهم وخرب مدينتهم فاشتكى سكانها وتضرروا من أفعاله الى أثينة وبينما
كان التبيادس مكدا فى هذا العمل انهزم أسطوله الذى كان تركه تحت الرئيس انطيوقوس وكانت
هزيمته من طرف البلوبونيزيين على مسافة من نوطيوم وضاع منه خمس عشرة سفينة وقتل انطيوقوس
وكانت حالة التبيادس فى سيره فى أعماله على الساحل فى غاية الفجور والانهماك على الموبقات وابتدأت
عساكره فى أن يظهروا علامات النفور الاكبر من جهته ومع كونه قائد القوة جسيمة فانه قضى مدة
ثلاث شهور فى البطالة والرخاوة والانهماك على اللذات وظهر للاثينيين من أحوال التبيادس انه لم يغير
طبعه ولا فائدة ولا ضرر فى مخاصمته ومن بعد مضى بضع سنين أحيا خصاله وصفاته القديمة فأجمع
الاثينيون على عزله من قيادته واستبداله بعشرة قواد تحت رياسة كانون وفى نحو هذا الوقت انتقلت
قيادة الاسطول الاسبرطى الى عهدة قاليقراطيداس وهذا مما نخشى من عواقب اجتهادات ليصندر
فى انه ربما يعود لقيادة الاسطول ثانيا أظهر شهامة نفسه وحب ارتباطه بمحالفة الفرس حتى ان
كيرش من بعد ما كان ندم على معاضدته ليصندر تحول بكليته لمساعدته بمبالغ جمة من النقود ومن قبل
حصول هذا الشغل من كيرش أظهر قاليقراطيدس مهارته وأثبتها بهجومه على الاسطول الاثينى فى
مينة مطلينه وكسره وضيع منه ثلاثين سفينة وسلمت الاربعون الاخرى بكونها تحولت الى الساحل
تحت حماية أسوار المدينة ومن ثم أحاط الاميرال الاسبرطى مينة مطلينة بحرا وبرا ولما صار موقع

كانون معلوما فى أثينة أخذت الاحتياطات العظيمة والاستعدادات الجسيمة فى مساعدته ورتب الاثينيون اسطولا موافقا للعمل والحركة وسفروه الى ساموس فانضم فيها مع أسطول المحالفين وزادت قوته الى أن بلغ ١٥٠ سفينة شراعية ثم شرعوا فى خلاص مطلينه وبمجرد اقتراب الاسطول الاثينى وفصل قاليقراطيداس خمسين سفينة ورتبها فى استمرار الحصار والاحاطة بالمدينة وزحف بما بقى من قوته لمقابلة اسطول العدو وتقابل الاسطولان المحاربان مع بعضهما على مسافة من جزيرة ارغنوسيا بالقرب من الرأس الشمالى الشرقى لجزيرة لسبوس وحصل بينهما واقعة شديدة كان مشكوكا فى نتيجة أمرها فى الابتداء الى أن سقط قاليقراطيداس فى البحر وغرق ولما صار الاسبرطيون لا قائد لهم بسوسهم انكسروا كسرة قبيحة وضيعوا سبعا وسبعين سفينة وهربت عمارتهم الموجودة فى مطلينه فى الحال وصار لكانون طاقة على ترك المدينة واللحوق بأصحابه وأقلع الاسطول الاتحادى الاثينى الى ساموس

وفى مبادى سنة ٤٠٥ قبل الميلاد صار تعيين ليصندر مرة ثانية لقيادة الاسطول الاسبرطى ولما رأى ليصندر ضعف قوته هذا الاسطول عن الاسطول الاثينى تجنب الدخول فى أى مشروع من مشروعات الحرب وراوغ أسطول العدو وعبر بحر الارخبيل الى ساحل أطيقة وتقابل مع أغيس وكانت نتيجة مقابلتهما تفسير الاسطول الاسبرطى الى الهلسبون بما أن أخصامهم تركوه من غير محافظة فأقلع ليصندر باسطوله الى الدردانيل واتخذله موقعا حصينا فى أبيدوس

وفى هذا الوقت خرب الاثينيون جزيرة خيوس ثم انسحبوا منها عند وصول أخبار ليصندر بتوجهه الى الهلسبون وحصاره لمصاقوس فارسلوا أسطولهم على الفور الى الهلسبون الا أن وصوله اليه من أجل خلاص لمصاقوس كان متأخرا جدا فأخذوا لهم موقعا فى أغوسبوطامى أونهر غوط من الجهة الشمالية من الهلسبون عازمين على جلب الاسطول الاسبرطى الى ميدان الحرب وكان الاسبرطيون مذخرين المؤن والذخائر وفى موقع قوى وكان تأخرهم عن الحرب بحالهم وأمامن جهة الاثينيين وكانوا فى موقع ردىء عبارة عن شاطئ رملى بعيد من سطوس وكانوا يجلبون منها مؤناتهم وليس عندهم من يجلبها اليهم فكان البحرية مجبورين على الخروج من السفن الى الشاطئ لاجل الحصول على مأكولاتهم ووصل النظام فى الاسطول الى الفشل ووقوع الرعب ولما رأى الثيادس ما الاثينيون عليه من الخطر الذى سيحل بهم وكان من منذ طرده من الخدمة مقيما فى قلعته فى الضاحية ورأى ان أهل بلاده لو بقوا فى هذا الموقع الخطر لضر بحالتهم توجه اليهم ونصح قوادهم على الحركة والانتقال الى نواحى سطوس لانها أشد حفظا على أنفسهم من هذا الموقع الخطر فقابلوا نصيحته بالسب واللعن ويحتمل أن هذه الحالة كانت مبنية على الارتكاب والاختلاس وان بعض قواد الاثينيين كان قدم اليهم كيرش الرشوات العظيمة على أن يجعلوا أعمالهم على الحالة التى وجدوا عليها فاستيقظ ليصندر لحصول عدم النظام فى الاسطول وخلوه من عساكره وتوجههم لاحتياجات مأكولاتهم وجد فى الحصول على الفائدة العائدة بالنفع اليه من وقوعهم فيما هم فيه من الخطا وفى اليوم الخامس من بعد وصول الاسطول الاثينى انتهز ليصندر الفرصة وقت ماسنحت له حال غياب البحرية الاثينيين من أسطولهم وكانوا توجهوا الى الساحل وانتشروا فى الجهات فعبر البوغاز بكامل قوته وهجم على سفن الاثينيين فوجد كامل الاسطول الاثينى ماعدا ثمانى أو عشر

سفائن حربية خاليا من الرجال وليس فيه من يحافظ عليه فقبض عليه قبضا باليد من غير طعن ولاصد وساق كامل المراكب ماعدا الثمانية أو العشرة ومن ضمنهم سفينة الاميرال كانون فانها نجت بنفسها ولما خاف كانون من عوده الى أثينة فر الى جزيرة قبرص وأما الاسبرطيون فانهم ضبطوا الاسطول الاثينى وأربعة آلاف أو خمسة آلاف أسير من الاثينيين وقتلوا الاسرى شر قتلة جزاء على فعل الاثينيين من قتل أسرى الاسبرطيين وكان نصر الاسبرطيين فى اغوسبوطامى طامة الموت الكبرى على المملكة الاثينية ووقعت جميع الممالك الاثينية فى أيدى المنصورين فألغوا الحكومات الديمقراطيه وحل محلها حكومات الاعيان وكانت هيئة كل حكومة مركبة من عشرة أنفس من أهل المدينة الواحدة تحت رياسة حاكم اسبرطى

وقد وصلت أخبار هذه المصيبة الحاطمة الى أثينة ليلا فقام أهل المدينة مرعوبين فزعين من نومهم من هذه الاخبار المفزعة ولم يحصل لاحد منهم نوم فى تلك الليلة وصار موقع المدينة على غاية من اليأس ووقعت كافة الجهات التى كان الاثينيون يجلبون منها مؤناتهم فى أيدى الاسبرطيين وصارت المدينة سهلة التسليم بحصول القحط فيها وان لم يهجم عدوها عليها فانعقد المجلس العام فى صباح اليوم الثانى واتفقوا على العفو عن جميع أرباب الجرائم الاما كانت جريمته شديدة ويفرجوا عن جميع المسجونين فى الحبوس حتى يكون لهم طاقة على الاشتراك فى المدافعة العمومية وخلص المديونون والمذنبون بهذه الحالة واجتمعت الامة داخل المدينة وحلفوا ايمانا مؤكدة بين بعضهم فى العفو والسماح عن بعضهم ومع أن النتيجة كانت عامة بالطبع على الجميع فما أذعن أحد لما تقرر بينهم

وكان حصول واقعة أغوسبوطامى فى سبتمبر سنة ٤٠٥ قبل الميلاد الا أن ليساندر وكان صرف الزمن المتخلل فى هذه المدة فى اخضاع الملحقات الاثينية ورتب لها هيئة حكومات أعيان منهم ماظهر على المياه الاثينية لحد شهر نوفمبر عندما وصل ايجينه باسطول مقداره ١٥٠ سفينة شراعية وشرع فى خراب سلميس والاحاطة بييروس وفى هذا الوقت زحف الجيش البلوبونيزى فى داخل أطيقة وعسكر فى الاورمانات الاكدمية عند أبواب أثينة وصار سقوط المدينة مسئلة وقتية فقط لان الجوع والقحط ظهر عليها من داخل أسوارها الا أن أنفة الاثينيين وكبرياءهم ألزمهم عدم التسليم ثم بعد هذا عرضوا أنفسهم للتسليم على شرط بقاء الاسوار الطويلة ومينة بيروس فرفض حكام الاسبرطيين هذه الشروط وأصروا على هدم هذه الاسوار ولو بطول مسافة عشرة استاديات لا أقل ثم ان ربئيس حزب الاعيان عارض فى قبول الشروط الاسبرطية فقام الغضب والحنق فى وجوه أهل المدينة وحبسوه وأوقعوا بحزبه وصلبوا كثيرا من أهل هذا الحزب وأخيرا عرض طيرامنيس وكان فى السابق واحدا من الاربعمائة نفس وكان يدعى أن له قبولا واحتراما ونفوذا عند ليساندر اثبات سعيه الحقيقى لنحو أثينة فأخذ من ليساندر مهلة ثلاثة شهور وكانت هذه الثلاثة شهور من أشد الحالات والمكابد والآلام المهولة على أهل بلده وأخيرا عاد الى أثينة بالجواب يقول لاهلها ان الحكام الاسبرطيين لهم السلطة والقدرة على عقد الصلح ولما عاد طيرامنيس الى المدينة ازدادت مصائب القحط زيادة عظيمة فأرسلوه ثانية فى عقد صلح على أحسن شروط يمكنه الاستحصال عليها بشأن خلاص بلده فانعقد لذلك مجلس المحالفين فى اسبرطة من أجل فصل الحكم فى عاقبة أثينة ومايؤول اليه أمرها فكان من رأى الطيبيين والقورنثيين

ضرورة

ضرورة هدم المدينة والغاء اسمها وبيع أهلها فظهر من الاسبرطيين فى هذا الوقت من الجود والكرم ما بيضوا به صحف تواريخهم وقالوا مع ما كانوا عليه من عزة النفس التى كانوا مغرورين بها انهم لا يمكنهم الرضا مطلقا بدمار مدينة ورق أهلها وقد أدوا خدمات سامية للجريس وكان قولهم ذلك اخر رأى صدر منهم ومن المحتمل فى حقيقة هذا الرأى أنهم كانوا يرغبون توطيد ملحقة نافعة لهم فى أثينة وأخيرا دونوا الشروط التى حصل الاتفاق عليها وهى أن يصير هدم الاسوار الطويلة وكذا أسوار بيروس وتنزل الاثينيون عن جميع أملاكهم البرانية ويقيموا فى حدود أراضيهم الاصلية ويسلموا كامل مابقى من أسطولهم ويردوا جميع منفييهم ويكونوا حلفاء اسبرطة وبالنسبة لما كان حاصلا عند الاثينيين من الجوع والقحط قبلوا هذه الشروط مع الشوق والرغبة وفى نحو منتصف شهر مارث سنة ٤٠٤ قبل الميلاد احتل ليصندر بيروس ودخل الجيش الاسبرطى أثينة وشرع ليصندر فى تنفيذ شروط المعاهدة واستلم كافة المراكب أو السفن الاثينية ماعدا اثنتى عشرة منها ودمر استحكامات بيروس والارصفة والترسانات والسفن التى كان جاريا الشغل فيها والاسوار الطويلة وكانت هذه الاشغال والاعمال جارية مع الافراح والسرور عند البلوبونيزيين وجعلوا لها أياما مواسم عندهم ولا حاجة فى توضيح ما كان من سبهم ولعنهم للتغلبين عليهم

وبهذه الحالة كان سقوط المملكة الاثينية من بعد مضى سبع وعشرين سنة من مبدا الحرب البلوبونيزى ومن بعد مضى ثلاث وسبعين سنة من تشكيل الاتحاد الديلوسى وصار الاسبرطيون باتحادهم مع فارس فى درجة من السمو والشوكة فى الجريس وألغيت الحكومات الحرة من كامل الجهات وحل محلها حكومات الاعيان وجعلت أثينة تحت قانون اسبرطى عظيم مقو لحكومة مؤقتة مركبة من خمسة قواد اسبرطيين تحت رياسة ليصندر ثم عهد ليصندر هذه الحكومات الى هيئة حكومة مركبة من ثلاثين يعرفون فى التاريخ باسم الثلاثين طاغية تحت رياسة قريطياس وكان صار نفيه من أثينة بصوت الامة وترخص له العود من نص شروط معاهدة التسليم فبذل شوكته فى الانتقام من أعدائه وأمر بقتل عظماء أشراف أهل المدينة وشرع فى سلطة مرعبة مهيجة للثورات فى أثينة ثم ان حزبا من متوسطى الناس تحت قيادة طيرامينس عزم على توقيف هذه الاشغال الشنيعة والاجراآت الفظيعة وقرر انتخاب ٣٠٠٠ من أهل المدينة يكونون كفؤا لما يطلب منهم من الاعمال فصار انتخابهم من أصدقاء وحلفاء الثلاثين طاغية وكان المقصود من هذه الطريقة هو استثناء هؤلاء الثلاثة الاف من الافعال الغير الشرعية الجارية بمعرفة الثلاثين طاغية وأما ما بقى من عموم الاثينيين فانهم صاروا خارجين عن حدود القانون فيمكن موتهم أو نفيهم حسب مرغوب الثلاثين طاغية وعملوا قائمة يكتب فيها المشبوهون من أهل المدينة والذين يعزمون على ثوران الفتن المتولد منها القتل فصار لكل واحد من المنسوبين للحزب الحاكم طاقة على أن يضع اسم عدوه فى هذه القائمة وأخذت حالة القتل حدها حتى ان أول ضربة من ضربات القتل كانت فى الاغنياء وأهل الثروة ومن ثم ضيع الظلم والجور رصفة الادارة والسياسة وحصل السعى فى توطيد السلب والنهب ولما صار تحريض وحث طيرامينس على نهب رجل من الاجانب سامى القدر قاطن فى المدينة صاحب أموال وثروة ولم يقبل ذلك على نفسه مع الغضب والحدة أذاع قريطياس فى حقه بأنه العدو الالد للعموم وأمر بجره من فوق الدكة فى بيت مجلس السنا توفطهر نفسه وشرب كأس حمامه ومن ثم خلص قريطياس منه ومن جميع الموانع التى كانت أمامه وغرق حزبه فى بحر جورهم القاسى

وكان الثيبادس من ضمن ذبائح اسبرطة وفيما سبق كان ترخص له من طرف فارس بالانعزال فى فريجيا من بعد حصول واقعة اغوسسبوطامى فأرسلت أوامر من اسبرطة بقتله فأحاط الفرس بيته وحرقوه وقتل بحراب الهاجمين ونشابهم لما شمأز من مقابلة وجوههم

ثم تولد فى غضون ذلك من شدة الجور الحاصل من الثلاثين طاغية تجديد حوادث قوية فى الجريس ضدهم وضد ليصندر الذين هم آلته وذلك أن القورنثيين رأوا أن الثلاثين طاغية هم آلات لارتقاء مطامع الاسبرطيين الذين زرعوا أنفسهم بان يكونوا ملوكا فى الجريس لا أحرارا فقط وكذا عاد الجم الغفير من منفيى الاثينيين وكانوا هربوا الى بيوطية فكان عودهم تحت قيادة طيراسبولوس مصحوبين بناس من تبعة الطيبيين فضبط هؤلاء قلعة فيلى من الحدود وسار اليهم الثلاثون فى رأس محافظى الاسبرطيين والثلاثة آلاف فهزموهم وعرف الثلاثون أن سقوطهم صار قريبا فى اليد فأمسكوا سلميس وعلقوسيس ملجأ لهم وطردوا منهما سكانهما ورتبوا فيهما محافظين من أتباعهم ثم ان قريطياس جمع مجلسا من الثلاثة آلاف ومحافظى الاسبرطيين وألزمهم بصدور أمر بقتل الموجودين فى الحبوس فقتلوهم فى الحال وسار طيراسبولوس الى بيروس وهزم الثلاثين وأتباعهم وضبط الجبل الذى كان منشأ عليه قلعة المينة فى ابتداء الامر وقتل قريطياس فى الملحمة وألغى الحزب المتوسط الذى كان رئيسه طيرامنيس فى الابتداء وكذا ألغيت حكومة الثلاثين من بعد أن تسلطنوا ثمانية شهور واستبدلت بحكومة أعيان جديدة تعرف بحكومة العشرة ثم طلب كل من الاثنين وهما الثلاثون والعشرة مساعدة اسبرطة فدخل جيش جديد اسبرطى تحت قيادة ليصندر فى أثينة وقت ما حصر أسطولهم فى بيروس أسطولا تحت قيادة أخى ليصندر ومع ذلك فانه فى هذه الحالة لما علم الاسبرطيون أحوال ليصندر وسيره من جهة أثينة عزلوه من القيادة وقلدوها بوسانياس الملك الجديد فى اسبرطة ومن بعد بعض ملاحم انهزم فيها الاسبرطيون فى الابتداء بواسطة طيراسبولوس حصل لهم الظفر وعاد الصلح على شرط أن المنفيين فى بيروس يعودون الى أثينة وحصل عفو عام عن جميع الاثينيين ما عدا الثلاثين والعشرة والاحد عشر وكان آخرهم الجلادين المتقلدين الاوامر الفظيعة من طرف الثلاثين وعاد حكم الارخونيين والقضاة ومجلس الشيوخ المؤلف من خمسمائة نفس وأعيدت قوانين وشرائع دراقوا وسولون من مراجعتها واستعدادها وتصحيحها ومراجعتها تحت مجلس من الامة ثم بعد ذلك سار طيراسبولوس وحزبه الى المدينة فقابلهم أهلها وتوجوهم بورق الزيتون المقدس لكونهم كانوا سببا فى خلاص أثينة مما كانت فيه من الكرب العظيم والعذاب الاليم

﴿ الباب السابع ﴾

﴿ سيادة الاسبرطيين والطيبيين وسلطتهم ﴾

حفظ رد الشغل والنفوذ فى أثينة ـ صدور الحكم على سقراطيس بالموت ـ صفته ـ الحرب بين اسبرطة وفارس ـ اغسيلوس ـ اسبرطة وطيبة عند الحرب ـ الاتحاد على اسبرطة ـ توطيد كانون مساعدة فارس لأثينة ـ عود بناء الاسوار الطويلة ـ صلح انطالسيداس ـ صيرورة الحكم المطلق لفارس فى الاعمال الجريسية ـ سيادة اسبرطة فى الجريس ـ ضبط اسبرطة كادمية ـ

استردادالطيبيين كادمية ـ ابامنونداس ـ واقعة لوكتره ـ خطراسبرطة ـ نهوض طيبة الى الشوكة ـ اضمحلال سيادة اسبرطة ـ جاسون ـ موته ـ الاتحاد الاركادى ـ عودبناء منطينه ـ استردادا بامنونداس مملكة المسينيين ثانيا ـ ظفره فى بلوپونيزه ـ واقعة صغيرة ـ معاضدة فارس للسلطة الطيبية ـ فسخ قداسة الالعاب الاولمپيقية بواسطة الاركاديين ـ نتائج هذه الحادثة ـ واقعة منطينة ـ موت ابامنونداس ـ توجه اغسيلاوس الى مصر ـ مقابلته فيها ـ انتقامه وموته ـ حروب أثينة وفيريا ـ الحرب الاشتراكى أو حرب الاحزاب ـ الحرب المقدس ـ نهاية السيادة الطيبية

تولد من نصرة طيراسبولوس وحزبه عود قوانين أثينة وعوائدها القديمة اليها وصارت الافراح والابتهاجات التى تولدت من ذلك عظيمة جدا حتى عادرد الفعل فى المدينة ثانيا الا أن الذى كدر على الامة وأشغل بالهم وغير خاطرهم ما حصل من توقيع الحكم بالموت على الفيلسوف سقراطيس أحد الرجال الحكماء الطاهرين فى بلاد الجريس وقبل ذلك بعشرين سنة كان اريسطوفنس فى أثناء تشخيصه روايات السحب اتهم بان يكون عدوا للديانة ومفسد الشبان الجريسية الا أن هذا السب والقذف ما حصل فى وقتها ثم ظهر عليه اللعن والسب ووقع عليه السخط بانه غير معتقد فى الآلهة المعبودة فى المملكة وانه يعلم ديانة جديدة أفسد بها شبان أثينة فصدر عليه حكم الموت باتفاق ستة أنفس الا أن نفخة كلامه وكبرياءه فى المجاوبة للاعنين له والقائمين عليه أوصل حكم الموت عليه باتفاق ثمانين نفسا وكان السر الحقيقى فى تولد هذه العداوة التى صارت معاملته بها أنه كان مبغوضا مكروها عند كثيرين من الاثينيين لانه نشر أقوالا فى أكاذيبهم ومن طرق المجادلات التى كان يبديها لهم ألزمهم على كونهم توعدوه فى أشغالهم ولما كان المركب المقدس مقلعا الى ديلوس فى وقت توقيع الحكم عليه نزل فيها وسار الى ديلوس ومن ثم صار من عدم الامكان تنفيذ حكم الموت عليه فى حال غيابه وانتظروا حضوره وصرف سقراطيس الثلاثين يوما مدة غيابه فى حبس وفى كرم محادثات عقلية وحكم زكية مع أحبابه وشرح ما مضى من حياته من غير أسف ووضح الصحيح فى أزلية الروح حتى أتاه القدر المقدور وشرب كأس حنظل الموت وكان شربه له مع معزة عظيمة وخرجت روحه مع الراحة والسكون وكان آخر كلامه أنه ذكر لصديقه قريطون رغبته فى أنه يقدم له ديكا الى اسكولاپيوس خاصا به لان ذلك عادة عند الذين يشفون من آلام الامراض الخطرة وكان من كلامه على الموت ان الموت لم يكن الا الدخول فى حياة حسنة جديدة ثم ان عقبه ألفوا ما كان عليه من العدل تذكارا له وذكر صديقه وتلميذه اكسنوفون ما كان عليه سقراطيس من الصفات الحسنة والاخلاق الطيبة المرضية فقال فيه أما من جهتى له فانى على غاية من الحزن والكآبة لانه كان على ما أصفه بهذه الصفات وذلك انه كان رجلا ورعا تقيا لانه ما كان يشرع فى شئ من دون مشورة الآلهة وعدلا حقا لانه ما حصل منه أدنى ضرر ولا أذى لانسان مهما كانت درجته بل كان الخادم الاكبر للذين يشتركون معه عفيف النفس جدا حتى انه ما كان يفضل الملاهى واللذات على الفضيلة والشرف وكان شديد الاحساس حتى انه ما كان يخطئ فى تمييز الطيب من الردئ من دون أن يتساعد برأى آخر بل كان يفصل بينهما بالعدل والكمال وكان فيه قابلية كبيرة للتبحر فى المواد والاعمال واستخراج بواطنها وكان حاذقا

ماهرا فى فرزه صفات الآخرين وكان مقنعا للذين هم فى ضلالهم سائرون ويدلهم على طرائق الفضائل وعلى كل ما يكون فيه الشرف والخير وكان وحيد عصره وسعيد دهره ما كان فى عصره من يناظره ولا يماثله مثيل

وفى سنة ٣٩٨ قبل الميلاد مات أغيس ملك اسبرطة وخلفه من بعده أخوه اغيسلاوس أشجع واحد فى القواد اللاسيديمونية وأفرسهم ووجد ميدانا موافقا لاجراء حركات شوكته واظهار سطوته وقوته وتولد من مساعدة الاسبرطيين لكيرش الغيظ الشديد الموجع لفارس فلما عاد طيسافرنيس خليفة كيرش من فارس الى الساحل جلب معه أوامر بالتضييق على المدائن الجريقية الموجودة فى آسيا الصغرى والموجودة فى ذلك الوقت تحت حماية اسبرطة فعزم الاسبرطيون على أن يلطموا أول لطمة مع فارس مهما كانت نتيجة فائدتها فاستمروا فى محاربة امتدت ست سنوات من سنة ٣٩٩ الى سنة ٣٩٤ قبل الميلاد فى آسيا الصغرى وكان قوادهم على الدوام فى اختلاف عام بينهم الا أنه لما صار ارسال اغيسلاوس الى آسيا الصغرى لاجل مباشرة الحرب وتدبيره من بعد أن تولى السلطنة مباشرة ظهر فى الوقت تغيير بين ومن ابتداء هذا الوقت تعددت نصرات الاسبرطيين وظهر من حقائق الاعمال ودقائق الاشغال أن فارس على شرف ضياع أقاليمها الموجودة فى آسيا الصغرى وكان الجيش الاسبرطى مركبا من عشرة آلاف فارس الذين ذكرنا نتائج أعمالهم فى كلامنا على تاريخ فارس وكانوا عادوا من غزوتهم التى كانوا فيها تحت قيادة كيرش الاصغر

وكانت فارس تدبرت أمورها وساست أعمالها مع حزم الرأى والتبصر فى العواقب من عهد أيام أردشير فدخلت فى تحالف ضد اسبرطة مع الممالك الجريقية الثانوية وهى أثينة وطيبة وقورنثة فى سنة ٣٩٥ قبل الميلاد وكانت طيبة مشغولة فى حرب مع اسبرطة وهزمت الجيش اللاسيديمونى تحت قيادة ليصندر فى نواحى هاليارطوس وفى هذه الواقعة قتل ليصندر وأما بوسانياس وكان قد جاء لخلاصه متأخرا فانه هرب والتجأ فى هيكل أثينى فى طجيا خائفا من العود الى اسبرطة من بعد خيبته هذه فاستخلف ابنه على التخت بدلا منه وهو اغسيبوليس وفى هذه الحالة رأى اغيسلاوس توقيف تغلباته فى آسيا الصغرى فعاد الى اسبرطة وفى نحو هذا الوقت تقوى الاتحاد ضد اسبرطة بواسطة انضمام عوبية وأكارنانيه ولوكريس الغربية وامبراقية ولوكاديا وكالسيديس فى تراسة على التوالى

وفى فصل ربيع سنة ٣٩٤ قبل الميلاد صار عقد مجلس من المتحالفين فى قورنثة تقرر فيه السير على اسبرطة حالا الا أنه صار توقيف هذه الحركة بواسطة سرعة زحف الاسبرطيين وهزم المتحالفين بالقرب من قورنثة ومن بعد قليل وقعت وقعة ثانية تحت قيادة اغيسلاوس وكانت عهدت اليه قيادة الاسبرطيين فانهزم المتحالفون فيها أيضا وحصلت هذه النصرات فى نفس هذه السنة بواسطة مظفرات كانون وذلك أنه جاء من دار نفيه من جزيرة قبرص وجهزت له فارس أسطولا فهزم الاميرال بساندر الاسبرطى على مسافة من بحيث جزيرة كنيدوس من أعمال كاريه فى سنة ٣٩٤ قبل الميلاد وخلص كامل جريق آسيا من تبعيتها الاسبرطة وبهذا ضاعت المملكة الساحلية الاسبرطية بسرعة أزيد من السرعة التى كانت تغلبت فيها عليها ثم ان فارس أشركت أميرالا من قوادها مع كانون فى قيادة الاسطول وكان هذا القائد فرنابازوس تقابل مع قواد المحالفين فى قورنثة وحقق لهم معاضدته القلبية فعلى حسب طلب كانون استعمل بحرية الاسطول فى تحصين بيروس وأعاد بناء الاسوار الطويلة فى أثينة

ومنع

ومنح مبلغا وافرا من النقود من أجل هذه الاشغال النافعة وأثنى الاثينيون على كانون وعفوا عنه مما حصل منه من مصيبة اغوسپوطامى وقابلوه مع التبجيل والاحترام اشارة الى عوده الى وطنه

وفى هذه الحالة أجرى الحرب فى داخل أراضى قورنثة بما أنها كانت أصل الكدر والغم فكانت اسبرطة على غاية من الظفر والنصر فى هذه الحروب حتى ان طيبة قطعت الامل من كسرها وهزيمتها وسعت فى أن تعقد معها صلحا على حدتها وأرسلت رسلها فعامل اغسيلاوس رسل الطيبيين بالذل والاهانة الا أن آمالهم عادت اليهم لما سمعوا بخبر أن شرذمة من الاثينيين تحت قيادة عفقراطيس انتصروا على فرقة اسبرطية وتوقف فى الحال السعى والكد فى عمل الصلح ثم حصل للاثينيين نصرات أخرى حتى تسببت اسبرطة فى تجديد المساعى التى كانت أجرتها فيما سبق بخصوص تحريض أوحض مملكة فارس على عقد صلح عمومى بين الممالك الجريقية ونجحت مساعيها فى هذا الوقت نجاحا تاما عند ملك فارس فعقد هذا الملك الاكبر شروط المعاهدة المعروفة بصلح انطالسيداس ومن ابتداء هذه المعاهدة تمكن أردشير بن زرادشت من أعماله فى الممالك الجريقية حتى انه أوقف طلب الغلال والحبوب اللازمة للاثينيين من نواحى البحر الاسود وأرغم الاسطول الفارسى مدينة أثينة على عقد الصلح وصادق الممالك الاخر عليه فى الحال فى سنة ٣٨٧ قبل الميلاد وبواسطة شروط هذه المعاهدة المهينة صار تسليم جميع المدائن الجريقية الموجودة فى آسيا المملكة فارس وصارت هى الحاكم المتصرف الفيصل فى الاعمال الجريسية الاوروباوية

وتولد من نتائج هذه المعاهدة انفصال قورنثة من أرغوس وضياع طيبة قيادتها الاتحاد البيوطيانى وبما أن الاسبرطيين كانوا اهم السبب فى ضعف طيبة أعادوا انشاء المدينة الصغيرة بلاطية وأعادوا اليها على قدر امكانهم سكانها القديمة ثانيا وساعدت أثينة بالطبع محبوبتها القديمة ورجوع البلاطيين الذين كانت صداقتهم لأثينة سببا فى مصيبتهم وخراب مدينتهم وصارت بعيدة عنها ثم ان اسبرطة بحجة انها ناظرة الى تقوية شروط المعاهدة مدت سلطتها ونفوذها على كامل الجهات وصار من البديهى للجريق أن مرغوبها وجل مقصدها جعل كامل البحث جزيرة خاضعة لها وفى سنة ٣٨٢ قبل الميلاد وقت استتباب الصلح ضبطت قوة اسبرطة كادمية وهى قلعة طيبة ورفضت الحكومة الاسبرطية تسليمها كل ما حصل من طيبة من اقامة الحجج عليها فتولد من هذا الفعل كون المملكتين صارتا على شروط محبة اسمية فقط وبهذا نجحت اسبرطة بقباحتها ووقاحتها فى كونها جعلت طيبة العدو الالد لها

ولما لم تجد المملكة اللاسيديمونية ذات الطمع المهيج للممالك ميدانا صالحا لها فى البحث جزيرة تمد سلطتها فيه وسيادتها عليه وجهت نفسها ضد الاتحاد القوى الموجود على الحد الشمالى للجريس وهذا الاتحاد مركب بعضه من المدائن الجريقية وبعضه من المدائن المقدونية تحت حكم أولنطوس فاستمر الحرب الاولينطيانى أربع سنوات من سنة ٣٨٢ الى سنة ٣٧٩ قبل الميلاد وكانت نتائجه الظفر لاسبرطة ومن ثم فازت فى زوال عدوها الالد مقدونيا وصارت هى المملكة الوحيدة التى أمكنها أن تشكل سدا حاجزا بين الجريس وفاتحى المقدونيين وفى هذه الحالة صارت شوكة اسبرطة فى أعلى درجات المجد والطنطنة وصار لها سيادة فى البحر والبر قوية مثل ما كانت عليه أثينة ونالت سموها بمساعيها ضد الحريات الجريسية ورغبت فى المحافظة على هذه السيادة بالحالة الجارية أعمالها عليها

الا أن عدم قبولها عند عموم الجريس المتولد من سوء ادارتها و بطش حكومتها ورذالة حكامها زاد في خلوص مودة اتحادها مع ألد الاعداء الحربية الجريسية وهم الفرس والمقدونيون والسراقوسيون ومن العجب وسعد السعود أنها لم تضبط شوكتها مدة طويلة وصار يوم عقابها على شرف الوقوع واستمرت طيبة مدة ثلاث سنوات تحت أيدي الحزب الاسبرطي وقلعتها مشحونة بمحافظي اللاسيديمونيين فشكلت طيبة ثورة عملت بواسطتها الطريقة اللازمة في خلاصها من يد اسبرطة وكانت هذه الثورة بواسطة بلوبيداس وآخرين من منفيي الطيبيين الموجودين في أثينة ونجحت بهذه الحالة في أعمالها وتغلب منفيو الطيبيين على الحزب الاسبرطي في طيبة وقتلوا رؤساءه وأعادوا الحزب الوطني المدينة كما كانت على قديم أصلها وفي نفس هذا الوقت وصل ابامنونداس وكان أكبر أشراف طيبة في طيبة واشترك مع أهل بلده في الحرب وحصروا محافظي الاسبرطيين في القلعة حتى سلموا على شرط أن سمحوا لهم بالخروج الى بلادهم بشرف الحرب فاستعد الاسبرطيون في الوقت لعقاب طيبة وتولد من أعمال رذيلة كانت أجرتها اسبرطة في انتهاك حرمة أثينة كون الاثينيين دخلوا في معاهدة مع طيبة وأخذت أثينة محلها في رياسة الاتحاد ضد اسبرطة في سنة ٣٧٨ قبل الميلاد وفي الحرب الذي حصل عدمت اسبرطة نجاحها وشوكتها بالكلية وصار لا طاقة لها على مقاومة الاسطول الاثيني وكان هزم أسطولها عدة هزيمات شديدة وأما الطيبيون فانهم تحت قيادة رئيسهم الاكبر ابامنونداس من بعد أن تحملوا عدة أهوال ومصائب في مبادي أمرهم نجحوا في تحرير بلادهم وعتقها من الاسبرطيين ثم حصل لاثينة الغيرة والحسد من نجاح طيبة فسعت سعيا كان على غير طائل في عقد صلح على حدتها مع اسبرطة وفي سنة ٣٧١ قبل الميلاد انعقد مجلس عام من الممالك الجريقية في اسبرطة واستقرت الحالة فيه على عقد صلح عمومي وأخرجت اسبرطة من هذا الصلح طيبة لان الكراهة الشديدة التي وقعت بين هاتين المملكتين لا تجوز الاصلاح بينهما وعرفت هذه المعاهدة بصلح كالياس وصار الحرب مشتركا بين اسبرطة وطيبة فقط وصارت طيبة مرعية عند الباقي من الجريس بأنها على شرف الدمار والخراب الذي لا بد منه لها ومما رأت طيبة من نتائج الحرب صارت لا تصدق في ان ابامنونداس فيه قابلية لما يلزمها من احتياجاتها فكان لها أعظم قائد وأجل واحد في حسن الطباع والخصال ولم تلد الجريس مثله وعضده في أعماله وأشغاله محبته لوطنه وبلاده زيادة عما كان يتصوره هو في نفسه وأسرع الاسبرطيون في الغارة على بيوطيه تحت قيادة قليومبروطوس وكان هجومهم من ناحية فوسي فتغلبوا على مدينة قروصيس الموجودة على خليج قريصو وعلى ثماني عشرة مركبا من السفن الحربية الطيبية واستمروا في زحفهم على داخل بيوطيه فانهزموا شر هزيمة فاصلة بواسطة الجيش الطيبي تحت رياسة ابامنونداس في واقعة كبيرة مهولة حصلت في لوكتره وخسر الاسبرطيون خسارات جسيمة وانحصروا في معسكرهم وكانوا حصنوه وما حصل قبل مثل هذه المصيبة الكبرى لاسبرطة فانها كانت عليها من أصعب الامور وأشدها من عهد واقعة ترموبيلي

ثم وصلت أخبار واقعة لوكتره في اسبرطة بوجوه احتمالات مختلفة فأمرت الحكومة بمنع العويل ولبس الحداد والنوح وبذل الاسبرطيون كل ما في طاقتهم ووسعهم في خلاص الجيش المهزوم من موقعه الخطر الموجود فيه وسافر كامل الباقي من القوة العسكرية الموجودة في المملكة من طريق البحر من قورنثه الى قورصيس ومن قبل امكان وصول هذه القوة الى بيوطية طلب الطيبيون مساعدة

بجاسون طاغيــة فيريا فى تسالبا فحمهم طلبهـم بمساعدته اياهـم وبواسـطة ما أشار به جاسون رخصوا للاسبرطيين المحصورين فى لوكتره بان يخلوا البلاد فسافرت هذه القوة الى فروصيس ومنها الى ميغاريد وقابلوا الجيش المسافر لخلاصهم وقت سيرهم وعادت كامل القوة الاسبرطية فى الحال الى بلادهم وكانت عاقبــة لوكتره مشؤمة منحوسة على السـيادة الاسبرطية حتى سقطت فى الحال وكانت هزيمة لجيش الطامة الكبرى والمصيبة العظمى على الاسبرطيين وهذه ما حصلت لاسبرطة قبل فانها دمرت سيادتها حتى على المـدائن البلوبونيزية وضاع منها ملحقاتها الموجودة فى شمال الخليج القورنثى وصار تقسـيم هذه الملحقـات بين الطيبيين وجاسون ومن مـدة أربع وثلاثين سـنة من عهـد نصرتها فى اغوسبوطامى كانت هى السـائدة فى الجريس والفيصلة فى الاعمال الجريسية فالتزمت بقبولها خسارة شوكتها وأخذت لها موقعا ثانويا من ضمن الممالك الثانوية الجريسية وفى السنة التالية أى سنة ٣٧٠ قبل الميلاد حصل للجريس مصيبة أخرى وهى المذابح التى أجراها الطماع جاسون فأسرع فى أن يظهر عزمه كى يجعل نفسـه سيدا لبحيث جزيرة فكان موته خلاصا لكامل الممالك الجريقية من هذا الكرب العظيم

وتولد من حسد أثينة لطيبه أن دعت اليها جميع الممالك لعقد تحالف جديد على نص شروط الصلح الذى كان حصـل فى انطالسيداس فالتحق بالاتحاد معظم الممالك البلوبونيزية أى ممالك مورة وكان يعرف هـذا الاتحاد باسم الاتحاد الاركادى وتقـرر فى هذا الاتحاد استقلال كل عضو من الاعضاء الداخلة فيـه فلم تقبل عليس هـذا القرار وتعللت بانها ربما تفقد سيادتها على المـدائن الطرفيليانية ومن ثم صارت الممالك البلوبونيزية مستقلة من اسبرطة حتى الممالك التى لم يحصل منها أدنى مشاحنة فى سلطتها من عدة قرون مضت

ثم ان المنطينيين انتهزوا الفرصة فى هذا الوقت للاخذ بثارهم مما حصل لهم من ضرر الحروب والخسارات التى كانت اسبرطة سببا فيها فأعادوا بناء مدينتهم ودعوا ابامنونداس لمساعدتهم وفى نحو غلاق سنة ٣٧٠ قبل الميـلاد دخـل ابامنونداس اركاديا فى جيش من متطوعى ارجيفة وعيليا ينوف عن ٧٠٠٠٠ مقاتل وزحف على نفس اسبرطة فقابله اغسيلوس وصدّه فى زحفه موتقدمه فاكتفى ابامنونداس بخراب وادى عوروطاس وعاد الى اركاديا وعكف على شغل تشييد الاتحاد الاركادى على قواعد ثابتة الاساس ولاجل تجنب الغيرة والحسد أشار على أعضاء الاتحاد الاركادى ببناء مدينة جديدة سماها ميغالوبوليس وجعلها عاصمة الاتحاد وأسكنها من أربعين مدينة من مدن الاتحاد

وكمل ابامنونداس ذل اسـبرطة واهانتها بكونه أعاد المملكة المسينية فأعيد بناء مدينة مسينة ووضعت قلعتها على رأس جبـل اثومى وكان مطمح الحروب الاصلية الاولى والثانية من الحروب المسينية ثم ان المسينيين الذين هـم ذرية المسينيين الذين صار نفيهم من منذ ثلاثة قرون مضت بواسطة اسبرطة عادوا ثانيا بدعوة من ابامنونداس وعادت الاراضى المسينية على نحو ما كانت موجودة عليه فى الزمن الاول فتولد من الاهانة الكبرى التى حصلت لاسـبرطة كونها دخلت فى معاهدة مع أثينة ولما كانت أثينة خائفــة من تقدم شوكة طيبة وسيادتها دخلت أيضا فى مساعـدة عدوتها القديمة وعسكروا جيوشهم بالاتحاد فى معابر ودروب جبـل برزخ قورنثه لاجل صد الطيبيين عن وصولهم الى الجريس الجنوبية الا أن أبامنونداس هزم فرقة اسـبرطية واغتصب منها حذاءها وشكل مواصلة مع مواصليه ومحالفيه

فى بلو بونيزه وفى هذا الوقت تركت صكنون مخالفة اسبرطة والتحقت بالاتحاد الطيبى واجتهدت طيبة فى التغلب على قورنثه الا أنها صدت عن هجومها وفى نحو هذا الوقت وصل اسطول حامل نحو من ٢٠٠٠ نفس من مستأجرى الغلية واسبانيا وكان الذى أرسله دبونيسيوس صاحب سراقوسة لاجل مساعدة أثينة واسبرطة فى سنة ٣٦٩ قبل الميلاد وفى سنة ٣٦٨ قبل الميلاد شرع الاركاديون فى التغلب على الاراضى المسينية التى كانت باقية تحت أيدى اسبرطة فانهزموا فى واقعة تعرف بالواقعة الصغيرة أى غير السافكة للدماء وسموها بهذا الاسم لان الاسبرطيين نالوا النصر فيها من دون أن يفقد منهم شخص واحد ونظرت طيبة لهزيمة مخالفيها بعين الفرح والسرور لانهم عرفوا أن تبعتهم لها هى من أجل حمايتهم فحصروا مساعيهم فى هذه السنة فى ترتيب اتحاد مؤلف من مدائن تساليا ودخلوا فى معاهدة مع مقدونيا وكان من ضمن الرهائن التى أرسلها ملك مقدونيا أمنطاس الثانى الى طيبة ابنه فيليب وهو شاب عمره خمس عشرة سنة كان يظهر عليه علامات أن يكون سيد الجريس فاستمر متوطنا فى طيبة بضع سنين

ثم ان طيبة دخلت فى سنة ٣٦٧ وسنة ٣٦٦ قبل الميلاد فى مخابرة مع ملك فارس وكان المعروف من عهد صلح أنطالسيداس أن الحاكم المطلق فى عواقب ما تؤل اليه الجريس هو ملك فارس فنجحت فى الحصول على مصادقة أردشير بن زرادشت على سيادتها وسلطتها وقرر أيضا ملك فارس استقلالية مسينة وامفيپوليس وأمر الاثينيين باعداد أسطولهم كما كان ودخلت عليس فى سلطنة المدائن الطرفليانية وشق كثيرا على أهل طيبة قبول ملك الفرس معروضات هذه الممالك فلما وصل بلو بيداس فى تساليا لاجل توطيد تقويتها وضعه اسكندر صاحب فيريا فى السجن وهزم القوة الطيبية التى أرسلوها لخلاص بلو بيداس فسار أپامنونداس وخلص بلو بيداس الا انه لم يحصل منه أدنى أذى خشية من عدم خلاص صديقه من يد اسكندر وفى سنة ٣٦٣ قبل الميلاد غزا الطيبيون تساليا مرة أخرى تحت قيادة بلو بيداس فهزم اسكندر شر هزيمة الا انه قتل فى وقت النصر فرأى أهل بلاده بأن فقده لاشئ من بعده كسبهم الظفر وتغلبوا على جميع ممالك اسكندر ما عدا مدينة فيريا ودخل كامل الجريس الشمالية تحت أحكام طيبة

ومن سوء ما حصل من هذه الاجرآت والاشغال تقسيم بلو بونيزه وارسال الاركاديين ومخالفيهم جيشا الى عليس فى زمن اشهار الالعاب الاولمبيقية فضبطوا الايكة المقدسة وطردوا العليانيين من عملهم موسم الالعاب وسلموها البيساطانيين فهجم العليانيون والاخائيون على المحاربين فى منتصف الالعاب الاولمبيقية ووقعت واقعتهم فى البقعة المقدسة فصد الاركاديون الهجوم ونهبوا معبد أولمبيه وسلبوا خزائنه وما كان فيه من الكنوز والذخائر فغضب المجلس المنطنيانى من سوء هذا الفعل وأعلن بانتهاك حرمة الارض المقدسة ولم يقبل الاشتراك ولا المداخلة فى الغنائم والمسلوبات المقدسة فنشر المخالفون الآخر اعلانا بأن المنطنيانيين خانوا الاتحاد الاركادى وكانت نتيجة هذا الشغل الغاء الاتحاد وابطال مفعوله وعقد صلح مع عليس وصارت منطينة حليفة لاسبرطة وأما طيجيا وباقى الاتحاد فانهم استمروا على صداقة طيبة وانتشب الحرب بين الحزبين وطلب أصدقاء طيبة دخولهم فى مساعدتهم وطلب المنطنيانيون مساعدة اسبرطة اياهم

وفى فصل صيف سنة ٣٦٢ قبل الميلاد غزا أپامنونداس بلو بونيزه وانضم اليه فى طيجيا مخالفوه وقت

ماسار أغسيلاوس بالجيش الاسبرطي لمساعدة منطينه وما أمكن اغسيلاوس فى حركته هذه أن يرد عاصمة منطينة وجعل أبامينونداس قريبا منها زيادة عن قرب نفسه منها فانتهز القائد الطيبي فرصة وقوع خصمه فى الخطا وسار مسرعا الى اسبرطة ولما بلغ اغسيلاوس خبر هذه الحركة بذل جهده فى السير حتى وصل اسبرطة فى وقت هجوم أبامينونداس عليها مع الجيش الطيبي فكانت الواقعة فى شوارع العاصمة وأرغم أغسيلاوس أبامينونداس وعسكره على الانجلاء من المدينة والانسحاب عنها وسار الطيبيون مسرعين فى سيرهم على الغارة على منطينة وكان أهلها فى حالة استتباب مشتغلين فى حصاد مزروعاتهم فكان ولا بد من سقوط منطينة فى أيدى أبامينونداس والجيش الطيبي الا انه تصادف وصول فرقة من خيالة أثينة وهذه الفرقة وان كانت على غاية من تعب السفر وشدة الجوع الا أنها قابلت هجوم الطيبيين وصدوهم عن المدينة حتى وصل الجيش الاسبرطي بعد قليل فانجبر أبامينونداس على العود الى طيبا وفى هذا اليوم التحم الجيشان على سهل من الارض مرتفع عن سطح البحر بقدر ٢٠٠٠ قدم بين طيبا ومنطينة وفى هذه الواقعة الدموية التى حصلت انهزم المنطينيون والاسبرطيون وسارت بنصرة الطيبيين الركبان الا أن أبامينونداس انجرح جرحا قاتلا فى مدة النصر ولما خلص أهل بلاده من خسائرهم تكبدوا الام موته وصرف أبامينونداس آخر أقواله وتنهداته فى المشورة على أهل بلاده فى عقد صلح ومرت السيادة الطيبية بموت فارسها الاعظم كأن لم تغن بالامس ولما لم تجد طيبة أحدا يقوم مقامه عادت فى الحال حالتها الى القهقرة حتى وصلت موقعها العادى وعلى حسب مشورة ابامينونداس عقدت طيبة صلحا بشرط ترك الاشياء على ما كانت موجودة عليه فى وقت الحرب فرفضت اسبرطة التوقيع على هذه المعاهدة لانها كانت غير معضدة من طرف مخالفيها فما حصل من عدم توقيعها ضرر ولا أذى

ثم ان أغسيلاوس ملك اسبرطة وقد بلغ من العمر ثمانين سنة الا أنه سافر الى مصر فى رأس ١٠٠٠ من العساكر الثقيلة لاجل مساعدة طاقوس فرعون مصر وقت عصيانه على مملكة فارس فاستغرب المصريون عند ما رأوا رجلا قصيرا أعرج طاعنا جدا فى السن وشاهدوا فى ذاته أنه أقبح ملك فأهانوه واستهزؤا به ولم يقبلوا أن يكون قائد جيشهم فبطش بهم وانتقم لنفسه منهم بواسطة مساعدة عصيان نقطانب وتغلب على التخت المصرى لنفسه ثم رد هذا الملك المنصور هذه الخدمة بمقدار ٢٥٠ وزنة من الذهب وعاد اغسيلاوس الى اسبرطة ومات فى طريق عوده الى وطنه فصبر واجثته بالشمع وحملوها الى اسبرطة ودفن مع الاحتفال الزائد وعلى ما قيل انه كان أكمل رجل مدنى اسبرطى وعلى كل حال فكان رجل اسبرطة وشجاعها

واستمر صلح سنة ٣٦٢ قبل الميلاد بغير نقض ولا ابرام فى القارة الجريسية مدة ست سنوات وفى هذه المدة حصل بين أثينة واسكندر صاحب فيريا حروب فى البحر ووقائع خلف الحدود الاصلية للجريس وكذا بين أثينة وامفيبوليس من جهة و بين مقدونيا وملوك تراسة من جهة أخرى وفى سنة ٣٥٨ قبل الميلاد خضعت عوبية وأمفيبوليس وخرصونة ثانيا الى أثينة وصارت أثينة مرة أخرى مملكة ذات شوكة عظيمة فى الجريس وتوشحت هذه السنة بعلو نقطة مجدها فى المرة الثانية وكذا بمبادى اضمحلالها وفى هذه السنة ابتدأ ما يعرف بالحرب الاشتراكى وذلك أن رودس وخوس وخيوس وبيزانطيوم عصوا على أثينة وانضم اليهم سسطوس والمدائن الاخرى الهلسبونية التى كانت موجودة

تحت طاعة أثينة وأرسلت كاريا امداد الثائرين وعجز الحرب الخزينة الاثينية مع ما حصل منه من عدم الفائدة وخلت النقود اللازم دفعها أو صرفها من أجل مرتبات البحرية الموجودين فى الاسطول الاثينى فخفظ القواد الاثينية البحرية والاسطول تحت مساعدة فرناباظوس حال عصيانه على مملكة فارس فاستعد الملك الاكبر للدخول فى الحرب على أثينة فالتزمت جمهورية أثينة على اطفاء شره وغضبه ورضيت باستقلال الاربع ممالك العاصية عليها وعقدوا من أجل ذلك صلحا وبينما كانت أثينة مشغولة بما يعود منه النفع عليها أسرع فيليب صاحب مقدونيا وضبط ملحقاتها الموجودة على خليج تراسة وجعل نفسه سيدا على كامل الكورة الموجودة بين نهر نسطوس و بتوس ووطد له رجلا فى الجريس

وفى سنة ٣٥٧ قبل الميلاد ثار فى أثناء غلبة الحرب الاشتراكى حرب آخر فى الجريس اسمه الحرب المقدس وذلك أنه تولد من كراهة طيبة للفوسيين حملهم على المحاربة لاجل حفظ وجود حياتهم فالتزم الفوسيون على ضبط خزائن هيكل دلفى وحزموا رأيهم فى الصرف منه لجندوا جيشا كثيفا من العساكر الاجرية حتى اشتروا معاهدة أثينة أو حيادتها وا خابوا اسبرطة فى مثل هذه الاوقات المشكلة فمع أن الفوسيين انهزموا فى مبادى أعمالهم الا أنه صار لهم طاقة فيما بعد تحت قيادة أونومارخوس على التغلب على سوكريس ودوريس وعلى محاربة بيوطية والتغلب على أورخنوس فى سنة ٣٥٣ قبل الميلاد

الباب الثامن

(السيادة المقدونية)

وصف مقدونيا ـ أصل الامة المقدونية ـ تأسيس السلطنة المقدونية ـ صيرورتها خراجية لفارس ـ عود استقلاليتها ـ تاريخ مقدونيا القديم ـ فيليب الثانى ـ تغلبه على الالبريانيين ـ تدبيراته فى اخضاع الجريس ـ ابرآته الشديدة فى مملكته ـ تعديه على الاملاك الاثينية ـ تداخله فى الاعمال الجريسية ـ طلب طيبة مساعدة فيليب ـ جعل نفسه سيد الجريس ـ ديموسطنس ـ تكذيبه ـ تدمير فيليب الاتحاد الاولنطيانى ـ الحرب الثانى المقدس ـ واقعة خيرونية ـ سيادة فيليب فى الجريس ـ حض الممالك الجريقية على اعلان الحرب ضد فارس ـ ذل اسبرطة وهوانها ـ موت فيليب ـ صيرورة اسكندر الاكبر ملك مقدونيا ـ مبادى تربيته وتهذيبه ـ أعمال اسكندر الشديدة ـ تعينه قائد الغزوة الفارسية ـ حروبه مع القبائل المتبربرة ـ عصيان طيبه ـ تغلب الاسكندر على المدينة ودمارها ـ عبور اسكندر الهلسبون أو الدردانيل ومبادى الحرب الفارسى ـ واقعة غرانيقوس ـ فتح آسيا الصغرى ـ قطع الاسكندر العقدة الغوردیانیة ـ واقعة عصوص ـ فتح سوريا وفنيقيه ومصر وتأسيس الاسكندرية ـ واقعة اربل ـ سقوط المملكة الفارسية ـ موت دارا ـ تغلب الاسكندر على بابل والسوس ـ فتوحات الاسكندر فى الشرق ـ زيادة الافراط الذى حصل من الفاتح ـ قتل قواده ـ دفع الاسكندر فتوحاته الى الهند ـ انتصاره على بوروس ملك الهند ـ وصوله الى الحيفاسيس أو الغور ـ عدم قبول عساكره التقدم الى قدام ـ

عوده

عوده الى السوس ـ سيره الصعب ـ اشتراك الاسكندر فى المشاق مع رجاله ـ دوان الاسكندر فى الشرق ـ زوجاته ـ تصميماته ـ صحة ادعائه السودد والعظمة ـ استعداده لفتح بلاد العرب ـ العلة الاخيرة لاسكندر وموته

أخذ الحرب مبدانا واسعا وجلب على الجريس عواقب مستجدة محسوسة تولدت من المنازعات التى حصلت فيها وما كانت هذه الحروب أعظم من الحرب الآخر المقدونى الذى حصل فى الجريس من مملكة مقدونيا وكانت هذه المملكة من عدة قرون مضت باذلة همتها ومكدة فى سعيها فى تقوية نفسها وحفظ دولتها وشوكتها على الحدود الجريسية ولها الرغبة التامة من قديم الزمان فى مد سلطتها وسلطنتها على المملكة الجريسية

ومقدونيا هذه واقعة خلف الحدود الاصلية للجريس وفى شمال تساليا مباشرة وتختلف حدودها باختلاف الازمان الا أن ما سنذكره هنا يمكن أن يؤخذ منه الوصف الحقيقى لحدودها وذلك أنها مفصولة من الجهة الشمالية من مويسيا بواسطة الجبال المسماة أوربلوس وأصكوميوس ومن جهة الشرق من تراسة بنهر استريمون ومن جهة الجنوب من تساليا بسلسلة جبال كامبونى ومن جهة الغرب من السيريا باستمرار السلسلة الكبيرة لجبال بندوس المعروفة هنا باسم اسكردوس وبرنوس وتشتمل مقدونيا الاصلية على مساحة قدرها ٦٠٠٠ ميل مسطح وهى خصبة الارض على العموم ومختلفة الوصف بالكلية فان سلاسل الجبال الشامخة المغطاة بالثلج فى مدة القسم الاكبر من السنة تقطع المملكة فى جميع جهاتها وتحصر بينها كثيرا من حياض ممتازة عن بعضها بحيث تجعل لهذه المملكة وصفا خاصا بها وبعض من هذه الحياض فى وسطه بركة معدة لتلقى مياه السيول وأخرى من السيول تجرى على صورة أنهار لافرق بين بعضها فى الامتياز نحو الجهة الشرقية وتصب فى بحر الارخبيل وفى كلتا الحالتين فالحياض ذات الامتداد الواسع يظهر منها للرائى أنها سهول متوالية خلف بعضها والجهات الاكثر علوا من غيرها مشحونة فى معظم نواحيها باورمانات كثيرة الاخشاب الموافقة للصناعة وبكثير من الجداول والغدران والخيران والحلوق والشلالات ويتغير هذا الوصف فى بعض جهات بلراض ذات صفة واحدة يسير المسافر فيها أميالا على أراض مكشوفة متعاقبة وأراض صلبة حجرية خالية عن النبات لاهيئة لها ولاهندام

ومن المحتمل ان أصل المقدونيين من الجنس الاليريانى القديم وأنهم مميزون عن الخلق أو الامم بكونهم من الامم المتبربرة أوأمة من النسل الهلانيقى وأما نفس ملوك المقدونيين فانهم يدعون أن أصلهم من الدم النقى الهلالى وينسبون سلالتهم الى طمنوس صاحب أرغوس

والتاريخ القديم لمقدونيا مجهول جدا ومظلم بالكلية الا أن الصحيح المعول عليه أن أصل مؤسس الحكومة المقدونية هو برديكاس الاول فى نحو سنة ٧٠٠ قبل الميلاد الا أنه لاحقيقة لشئ من تاريخها لحد سلطنة امنطاس الاول وكان معاصرا لبيظسطراطيديا فى أثينة ولدارا الاول صاحب فارس وانه فى سنة ٥٠٧ قبل الميلاد خضع الى دارا الاول وان مردونيوس فى غارته الاولى على الجريس فى سنة ٤٩٢ قبل الميلاد أخضع مقدونيا وجعلها اقليما من المملكة الفارسية وكان ملوكها الوطنيون يحكمونها بصفة ملوك خراجية لملك فارس ومن بعد هزيمة أزدشير فى الجريس صارت

مستقلة فى نفسها مرة أخرى وابتدأت فى مد أراضيها على التدريج فى طول الساحل الشمالى لبحر
الارخبيل زاحفة مع الثبات والشدة نحو الجهة الشرقية ثم توقف زحفها وسيرها بسبب حصل من
خصمين قويين عنها فى تلك الجهة وهما المملكة التراسية وصاحبها سيطالسيس والاثينيون وكانوا
عمروا بجيث جزيرة كالشيدونيه بالمدائن الجريقية وان أرخيلاوس الاول وكانت سلطنته من سنة
٤١٣ الى سنة ٣٩٩ قبل الميلاد وضع الاصلاحات فى مملكته وأنشأ طرقا وقلاعا ومعاقل فى طول
الحدود والثغور لاجل حفظ المملكة من غارات الامم المتبربرة وجعل مدينة بلا عاصمته واجتهد فى نشر
الآداب والصنائع بين قومه ورعيته وكان محبا لهاومات مقتولا فى سنة ٣٩٩ قبل الميلاد وكان
الملك الاكبر الذى جلس من بعده برديكاس الثالث فجلس على التخت فى سنة ٣٦٤ قبل الميلاد ومن
بعد مضى خمس سنوات قتل فى واقعة حربية وترك ولدا طفلا اسمه امنطاس فناب أخوه فيليب عن
ابن أخيه ولبس التاج فى سنة ٣٥٩ قبل الميلاد

وكان فيليب الثانى ابن امنطاس الثانى وأخو برديكاس عمره ثلاث وعشرون سنة وعندما وصلت اليه
النيابة كانت مدة صعبة الاشكال كثيرة الارتباك فى تاريخ بلاده وذلك أنه حصل منازعته فى التخت
من أربعة مدعين وتغلب الاليريانيون على الاقاليم الغربية من مملكته وكانت الاقاليم الشرقية
على خطر من تغلب تراسة وبيونيا عليها وقرر فيليب فى الابتداء خلافة ابن أخيه واسترد تراسة وأثينة
وسار نحو الاليريانيين واختار فى أعماله العسكرية وسوقه الجيوش قوانين أبامينونداس وكان فى أثناء
اقامته فى طيبة فبارزهم وهزمهم فى عدة وقعات شديدة وكسر كامل قوتهم ودمر شوكتهم ثم عزل ابن
أخيه عن السلطنة وكسر مساعى الذين كانوا يدعون التاج لانفسهم والى حد هذا الوقت كان مقرا
بالمودة القلبية للاثينيين ولما خلص من الكرب الذى كانوا واقعا عليه من نواحى الاليريانيين شرع فى
التعدى على الاملاك الاثينية الموجودة فى الشرق حسبما ذكرنا وذلك أنه لما انتهز الفرصة فى أثناء
الحرب الاشتراكى وكان الاثينيون مشغولين فيه هجم على حين غفلة منهم وتغلب على أمفى بوليس ثم
تغلب على كامل الاقليم الساحلى الموجود بين نهر ستريمون ونهر نسطوس واستحوذ على معادن الذهب
الجليلة الموجودة فى تراسة فكان يكتسب منها مدخولا سنويا قيمته ١٠٠٠ وزنة فنظم جيشه على
القواعد والاصول التى كان مارسها فى طيبة وأدخل فى جيشه النظام الشديد حتى جعله لا يقهر ومن ثم
صار له طاقة على تنفيذ أغراضه بعلو شوكته على أى قوة فى الجريس وآسيا ولما صار سيدا على الاملاك
الاثينية الموجودة على بحر الارخبيل وضع تصميماته القلبية موضع العمل بالفعل وكان مصمما عليها
من قبل وذلك أنه يجعل نفسه السيد الاعظم للجريس وجعل علة أغراضه فى هذا العمل المشاجنات
الجارية بين طاغيتى تساليا وألوادى صاحب لاريسا فطلب طاغيتا تساليا وهما خليفتا اسكندر
صاحب فيريا مساعدة فيليب فأسرع وسمع لهم بما طلبوه ودخل تساليا فى رأس جيشه وسار على فيريا
وكانت محصورة لنحو فيرون طاغية تلك المدينة وطلب فيرون المساعدة من أونومارخوس فأرسل له
جيشا لمساعدته فهزم فيليب هذا الجيش ثم ان أونومارخوس ساق جيشا آخر تحت قيادة نفسه على
تساليا فهزمه فيليب فى واقعتين دمويتين وأرغمه على الانسحاب من تساليا ثم عاد فيليب على بيوطيه
وتغلب على خيرونيه وأغار مرة ثانية على تساليا فسار أونومارخوس لمقابلته فهزمه فيليب وقتله
وأصبح فيليب ملك تساليا فى سنة ٣٥٢ قبل الميلاد وسار نحو الجهة الجنوبية حتى وصل بوغاز

ترموبيلى

ترموبيلى ولما وجده فى حالة جيدة من الحصانة والرصانة بواسطة فوة من العساكر الاثينية ارتد على أعقابه ومن ثم جعل نفسه ملك تراسة وخرصون وفى أثناء ذلك كان الحرب المقدس جاريا على ما كان عليه حتى فنيت كنوز معبد دلفى وظهر على الفوسياسين علامات الضعف وفى السنة الثانية عشرة من الحرب أى سنة ٣٤٦ قبل الميلاد دعت طيبة من دون أن تتبصر فى عواقب الامور فيليب لاجل حطم وهشم الفوسيانيين فمن عهد هذه الدعوة مكث مدة طويلة متقلدا اجابة الاله الدلفى وأسرع الملك المقدونى فى اجابة الدعوة التى يتيسر له منها الحصول على فوائد أغراضه الشارع فيها ولما وطد حيادة أثينة سار من بوغاز ترموبيلى من دون أن يحصل له أدنى مقاومة وفى ظرف حرب قصيرة أخضع فوسيا وقهرها وسلمها الى المجلس الانفيقطيونيقى بدل ما كانوا عليه من السلطنة وصار فيليب سيد الجريس فى الحقيقة وكانت أثينة وحدها قادرة على مقاومته الا أنه لم يوجد فى الاثينيين قائد له طاقة على مقارنته وزيادة على هذا ظهر حزب مقدونى فى مدينة أثينة نفسها وكان الخطيب الاكبر ديموسطنس يتوقع من مدة طويلة الخطر الذى سيحصل من الحروب الجريسية فلما شرع فيليب فى اجراء مقاصده المرسومة بالطمع فى قلبه ظهرت جليا نتائج ما كان يتوقعه الخطيب ويذكر فى خطبه وقوعها ومن ثم اجتهد ديموسطنس وحض أهل بلاده وأجهد نفسه فى قيامهم لملاقاة هذا الخطر وجعلهم فى درجة قوية لمقاومة أهل مقدونيا وكانت خطاباته وطعنه فى فيليب مرعية بانها من أعظم البلاغات فى الحض والحث وأعظم شوكة فى الاعلان على الجور والظلم فيما لا يملكه الانسان ولما هجم فيليب على الاتحاد الاولنطيانى وكان آخر حاجز مانع بينه وبين الجريس أجهد ديموسطنس نفسه مع غاية الشرف على حث أثينة بشأن اغاثة أولنطوس فعزموا على استعداد غزوة لخلاصها الا أن وقتها كان انقضى بحجبه وتغلب فيليب على أولنطوس باختلاس اثنين من رؤساء المدينة فى سنة ٣٤٧ قبل الميلاد وهدمها فيليب الى الارض وباع أهلها فى سوق الرقيق ومن حيث انه تغلب على جميع المدائن الاخر الكالسيدونية قبل محاصرته أولنطوس فمن ثم صار سيدا على كامل الاتحاد ومن حذاقة فيليب ومهارته فى حصول ثورة فى أثينة بذل جهده فى تقوية الحزب المقدونى الموجود فيها وفى جميع جهات الجريس الصالحة له وفاز فى عقد صلح مع أثينة بما انه كان لازما لتدبيراته فى الوقت الحالى وقبل دعوة الطيبيين لحطم الفوسيين كما ذكرنا ولما تم الحرب المقدس صارت أثينة وحدها فيها الكفاية لمقاومة زحف المقدونيين الا أن مقدونيا أصبحت المملكة القائدة فى الجريس وصار الاثينيون فى حالة خطرة مع حالتهم الموجودين عليها ومن ثم ثبتت حكم ونصائح ديموسطنس بواسطة نتائج الحرب فازداد نفوذه جدا بين أهل بلاده

وتولد من تعديات فيليب وجوره فى نواحى بوغاز البوسفور اشتعال الحرب بين أثينة ومقدونيا فى سنة ٣٤٠ قبل الميلاد وفى السنة التالية ابتدأ الحرب المعروف بالحرب الثانى المقدس وسنحت الفرصة لفيليب فى أن يضع مقاصده التى كان مصمما عليها من زمن طويل فى جعل نفسه سيد الجريس ولما صار اللعن لوكريان امفيسية بسبب انها كانت هتكهم حرمات الاشياء المقدسة عاقبهم المجلس الانفيقطيونيقى بكونه قرر عليهم غرامة يدفعونها فلم يقبلوا هذا الحكم ورفضوه ومن ثم تلقب فيليب صاحب مقدونيا بقائد قواهم بأمر الانفيقطيونيين وأصدروا له الاوامر بالسير ضد أمفيسية ولما دخل فى قلب الجريس فبدل أن يسير على أمفيسية ضبط علاطية وهى أكبر مدينة فى القسم الشرقى وظهر جليا

أن مقصده الحقيقي كان ضد بيوطية وأطيقة فتشكل هاتان المملكتان اتحاداً لمقاومته وشق كثيراً على الاثينيين حض طيبة على عمل الاجراآت الاحتياطية اللازمة لحالة فاصلة بينها وبين مقدونيا وفي ٧ أغسطس قبل الميلاد هزم فيليب جيوش هذا الاتحاد الطيبية والاثينية في نواحي خيرونية مهما كان من اجتهادهم في مقاومته وصار هو صاحب الشوكة في الجريس واعترف جميع الممالك الجريسية بسلطنته وأقرت عليها

وكانت سياسة فيليب وتدبيره هو اشتغال الجريقيين بمشروعات جليلة بالنسبة لما هو حاصل في احساساتهم كي بواسطة هذه المشروعات يمتنعوا من الفكر في ضياع حريتهم فكان يتفكر طويلا ويتبصر تبصراً جليلا في تأديب مملكة فارس من أجل ما حصل منها من المصائب والآفات التي أوقعتها على أهل مقدونيا وعلى الجريس وعزم أن يضع مشروعه هذا موضع العمل بالفعل فطلب التئام مجلس من كافة الممالك الجريقية في قورنثه ورفضت اسبرطة وحدها أن يكون لها حظ أو اشتراك في هذا المجلس وكانت نتيجة هذا المجلس هو اعلان الحرب على فارس وعهد المجلس الى فيليب القيادة الكبرى للحرب وطلب من كل مملكة أن تجهز بعض فرق من العساكر والمراكب اللازمة لذلك

ومن قبل سفر فيليب في هذا الحرب عزم على عقاب اسبرطة من أجل مبارزتها له بالعداوة فدخل بلاد بونيزه في رأس جيش كثيف وسار منحدراً الى الساحل الشرقي وعاد من الجهة الغربية فما قابل فيها أدنى مقاومة بالكلية لان سيره في الحقيقة كان سير ملوك في تقدماته واجرآته فخضع له الممالك الغربية الجريسية الموجودة في شمال البرزخ ورتب محافظة مقدونيا في امبراسيا ولما صارت سلطنة فيليب في الجريس لامنازع فيها عاد الى مقدونيا يستعد للغزوة الفارسية وفي سنة ٣٣٦ قبل الميلاد قتل مذبوحاً والذي قتله شاب اسمه بوسانياس ادعى أنه حصل له ضرر جسيم وعذاب أليم من تحت يده

ومن بعد موت فيليب خلفه ابنه اسكندر الثالث الملقب بالاكبر وكان مولده في سنة ٣٥٦ قبل الميلاد وكان عمره عشرين سنة وقت ما جلس على تخت المملكة وكانت تربيته وتهذيبه على غاية من الاعتناء بواسطة أجود الاساتذة وأحسن المعلمين فعلمه ليونيداس أحد أقارب أمه وهذبه على العوائد الاسبرطية في تحمل الآلام والمشاق والاقدام والتجلد وكذا شيد ليصيماخوس شهرة مطامع هذا البرنس بواسطة تعليمه محبة الشجاعة والبراعة العميرية والمفاخر بها وغرس في عقله اعتقاد الحكايات والروايات في دم الفارس الاكبر اخيليس حتى صار ذلك جاريا في عروقه وشرايينه ولما بلغ عمره ثلاث عشرة سنة عهدت قيادة تعليمه الى الفيلسوف ارسطاطاليس فالتزم تهذيبه وتربيته عدة من السنين وبهذا تلقى الفاتح الاكبر الذي فتح الدنيا تعليماته التي أجراها على المملكة الشاسعة وكان اسكندر محباً على الدوام للفيلسوف الاكبر ارسطاطاليس ومنه اكتسب التدابير الواسعة والسياسات الشاسعة حتى ارتقى بها فوق كل فارس وفاتح وفاق كل مدبر وغارس وجازخصاله فجعلت له طاقة على التبسم والضحك في الشدائد والمحن وورث من أبيه غزارة الطمع ومن أمه شراسة الخلق والميل الى الجبروت والشدة ولما بلغ عمره ست عشرة سنة جعل نائب مقدونيا في مدة غياب أبيه ولما بلغ ثماني عشرة قاد أحد أجنحة الجيش المقدوني في واقعة خيرونية وكان على يديه حصول السعد والنصر في ذلك اليوم

وجلس

وجلس على تخت مملكة أبيه في وسط المصاعب والاخطار واستعد معظم الممالك الجريقية القوية الشوكة في ردع وهز أناف المقدونيين مراعين أن الملك الشاب في غاية من الضعف عن استمرار سيادة شديدة وتدابير غير مفيدة عاجز عن سير الاعمال التي كانت جارية بمعرفة أبيه وحقيقة فان طيبة قامت بشهامة قوية وقوة حربية وهددت مقدونية بمجاهرة العصيان وكان اسكندر معادلا لها في عصيانها فهشم عصيانها وشهامتها وأمن نفسه أولا من جيرانه التساليين بعضهم بالميل والانعطاف وبعضهم بقوة السلاح وطلب التئام المجلس الانفيقطيونيق في ترموبيلي وأرغمه بان يعهد اليه القيادة التي كان عهدها الابيه من قبل ثم سار متوجها الى طيبة ومنعها من الثورة والعصيان وأما الممالك الاخر الجريقية فانهم أقنعوا نفوسهم في مجلس عقدوه في قورنثه وعرفوا بعين اليقين عين السخط من رجل رأوا أنهم أساؤا في عدم توظيفه قيادة أبيه بخصوص الحرب الفارسي واستمرت اسبرطة بمفردها على الحيادة وكانت لم تزل متعلقة بحبال السلطة والشوكة التي كانت نالتها مرة الأن اسكندر لم ينظر اليها بعين العداوة الموجبة لعقابها من أجل انقيادها وطاعتها له وصرف ما بقي في اخضاع التراسيين والطرباليين وغيطيه والقبائل الدانوبية الموجودة في الجهة الشرقية وكذا الالبريانيين والطولانطيين الموجودين في الجهة الغربية واستحوذ اسكندر في هذه الغزوات على غنائم كثيرة وأرغم هؤلاء الامم الذين كانوا على عزم الغارة على مقدونيا وأخذ ما كانوا عليه من الارتباكات التي كان حاصلا منها القلقلة للبلاد والعباد

وبينما كان مشغولا في هذه الحروب اذ حصلت اشاعة بموته وعم نشرها في الجهات الجريسية فقامت طيبة في الحال في عصيانها وثوراتها واستعدت أثينة لمساعدتها ومن قبل تحققهم من موت اسكندر ظهر لهم على حين غفلة في بيوطية وزحف على طيبة وأرسل لرؤساء الثائرين في التسليم فأجابوه باللعن والشتم فمن ثم هجم على طيبة وتغلب عليها وخربها بالكلية ماعدا بيتا واحدا من بيوتها وهو بيت بندار الشاعر وأبقى كدميه على ما كانت عليه وحفظها بعساكر مقدونية وذبح الجم الغفير من أهل المدينة عند فتحها وباع من بقي على قيد الحياة في أسواق الرقيق

ومن هذا الوقت صار لا يوجد أمام اسكندر شيء يخشاه من جهة الممالك الجريسية وضغط على الممالك الهلانيقية بيد ثابتة وقوة قوية حتى صار لا يتخيل لهم الاجتهاد ولا السعي في حصول ثورات ولا وقوع ارتباكات ومن بعد أن وطد الممالك الجريقية صار له طاقة في نفسه على أن يستعد لفتح الممالك الفارسية فعين انطيباطير نائبا عنه في مقدونيا والجريس وعبر بوغاز الهلسبونت أى الدردانيل في فصل ربيع سنة ٣٣٤ قبل الميلاد بجيش مقداره ٣٠٠٠٠ مقاتل من المشاة و ٥٠٠٠ فارس خيال كان فيه من العساكر المقدونية ١٢٠٠٠ مقاتل من المشاة ولما عبر بجيشه البوغاز فمن قبل تقدمه وزحفه أسرع بنفسه في التوجه الى سهل ترواده وشاهد المباني والآثار التي كانت اتخذت تذكارا لحبيبه الفارس عيلوس فارس واقعة ترواده ثم التحق بجيشه وكان بالقرب من أبيدوس وأما الفرس فانهم أعدوا جيشا تحت قيادة ممنون الرودسي وهو قائد قوي الجنان مقدام في الحروب فاتخذ لنفسه ولجيشه موقعا بالقرب من زيلا لاجل منازعة اسكندر وصده عن تقدمه في الممالك الفارسية وكان موقع الفرس على نهر غرانيقوس فعبر اسكندر النهر بالقوة والاقتدار كما سبق في مفصلات هذه الواقعة في تاريخ فارس وأوقع بالجيش الفارسي وشتت شمله وأسر

٢٠٠٠ نفس من مستأجرى الجريق ومن بعد تمام الواقعة زار المجروحين وأصدر أمراً بان يصير اعفاء عائلات العساكر الذين قتلوا فى الوقعة من دفع العوائد والضرائب المضروبة عليهم وسلمت له سرديس وافسوس ومغنيسيا وطرابلس عند قرب المنصورين منها وكذا سلمت له ملطية من بعد حصار قليل قاومته فيه ثم وقفت حركات اسكندر مدة من الزمن بواسطة مهارة ممنون وبسالته الا أنه مع ما أجراه هذا القائد الفارسى فقد نجح اسكندر وفاز فى أن جعل نفسه سيداً على قسم عظيم من اسيا الصغرى فى المدة الباقية من السنة ثم تراأى له عدم الرغبة فى تحرك جيشه بعيداً عن بحر الارخبيل مادام ممنون موجوداً على قيد الحياة ولما مات هذا القائد فى فصل ربيع سنة ٣٣٣ قبل الميلاد زال العائق القوى والصد المتين عن مظفرات اسكندر وجعل المملكة الفارسية تحت رحمته وعفوه

وقضى اسكندر فصل الشتاء فى مدينة غورديوم وهى العاصمة القديمة لمملكة فريجيا وكان محفوظاً فى قلعة هذه المدينة من الازمان القديمة عربة كان دخل فيها ميناس بن غورديوم أحد قدماء الملوك الفريجية هذه المدينة مع والديه وصار ملكاً فيها بارشاد من الوحى أو الكاهن وكان قد أنبأ من القديم نبأ أن الذى يحل أو يفك عقدة العواء الرابطة ناف العربة بالقطب هو الذى يلزم أن يكون سيداً اسيا فتوجه اسكندر الى داخل القلعة ليجتهد فى فك هذه العقدة فسحب سيفه وقطع العقدة الغوردبانية فاشتد على المدينة فى تلك الليلة زوابع وعواصف شديدة ورعد وبرق ففسر أهل الخرافات هذه بانها آية نزلت من السماء أثبتت بان الفاتح توفر فيه النبأ وفى ربيع سنة ٣٣٣ قبل الميلاد سار اسكندر زاحفاً نحو الجهة الشرقية فخضعت له بفلاغونيا ولم يلق كيداً من قبادوسيه ثم عبر سلسلة جبال طوروس ودخل فى سهل سيليسيا وفى هذا الوقت وقف سير حركته من حمى خطرة أصابته تسببت من استحمامه بالماء البارد فلبث فى طرسوس حتى شفى وفصل بدمينيو أكبر قواده بقسم من الجيش لاجل ضبط دروب سوريا والمحافظة عليها حتى يمر منها جيشه وأما هو فانه من بعد أن سار من طرسوس وصل فى اليوم الثانى الى انكياله وهى مدينة مدفون فيها سردنابال أحد ملوك الاشوريين وعلى ما قيل ان سردنابال هو الذى بنى طرسوس وانكياله وفى قول آخر ان الذى بنى طرسوس هو سنجاريب كما ذكر فى تاريخ المملكة الاشورية فى الجزء الاول وموجود فى انكياله قبر سردنابال وعليه مكتوب هذه الكتابة أيها المار من هنا كل واشرب وتمتع وما بعد التمتع والراحة شئ وسار من انكياله حتى وصل مدينة صولى وفيها قرب اسكندر القربان الى عسكولابيوس شكراً على ما حصل له من الشفاء وما زال مجداً فى سيره حتى وصل الى جهة اسمها كستباله فوردت اليه الاخبار فى هذه الجهة بان دارا ملك فارس زحف لمقابلته فى رأس ٦٠٠٠٠٠ نفس مقاتل وكان اسكندر ما زال فى سيره مستنداً على ساحل البحر وقيل ان هذه الاخبار وردت اليه وهو فى مالوس وان دارا معسكر بجيشه هذا فى سوخوس من أراضى أشوريا على مسافة يومين من سيليسيا فعلى حسب هذه الاخبار عقد اسكندر مجلساً حربياً قرر فيه جميع قواده وضباطه بان يسوقهم بمعرفته على عدوهم فسار فى اليوم الثانى لمقابلة الفرس وكان برمينيو تغلب على مدينة عصوص الصغيرة ومن بعد أن استحوذ على دروب سوريا ترك فيها ما يكفيها من العساكر اللازمة لمحافظتها وترك الملك المرضى فى مدينة عصوص وسار بجميع جيشه من الدروب وعسكر بالقرب من مدينة ميريندروس بسبب رداءة الطقس وفى أثناء ذلك كان دارا فى سهول أشوريا ذات الاراضى السهلة الشاسعة فأشار عليه قواد الجريس الموجودين فى خدمته وهم القوة القوية من جيشه

ونصحوه

ونصوه بانتظاره مجيء العدو وهذا ولا ينتقل من هذه الميادين المكشوفة من جميع جهاتها الانها مفيدة وصالحة لحركات الخيالة وفيها اتساع كاف لاشتمال هذا الجيش العرمرم والحلة والادوات التابعة له لحضه حواشيه وأرباب دولته على عدم قبوله ما أشار به الجريقيون لانهم على كل حال أعداء لهم وأقنعوا الملك بان اسكندر متى شاهده ورأى كثرة عساكره هرب أمامه وفشل جيشه وأخذ قبضا باليد وما زالوا به حتى انه أرسل جميع كنوزه وخزائنه وجواهره وما كان عنده من الذخائر الى دمشق فى خفارة ٣٠٠٠٠ نفس محملة على ٧٠٠٠ حيوان وسار هو بكامل جيشه نحو سيليسيا وكانت الملكة زوجته وأمه وابنتاه وابنه الطفل الصغير تابعين حركة الجيش على حسب عادة الفرس الا أنهن كن بالمعسكر فى وقت الوقائع ولما تقدم قليلا فى سيليسيا من المشرق الى المغرب انعطف فى سيره نحو مدينة عصوص غير عالم بان اسكندر من خلفها لانه كان على يقين من نفسه هو وخواص دولته ان اسكندر هرب أمامه وتقهقر مع الفشل الى سوريا ولما دخل دارا مدينة عصوص أمر بقتل ما كان فيها من المرضى الذين كان اسكندر تركهم فيها وكان قتلهم بحالة شنيعة وأبقى قليلا من العساكر طردهم من عصوص بعد أن أراهم هيئة معسكره وعساكره حتى اذا وصلوا الى اسكندر يعلمونه بحالة دارا وما هو فيه من كثرة الجنود والعساكر الذين لا طاقة له على مقابلتهم فسار هؤلاء العساكر وأخبروا اسكندر بما رأوا وعاينوا وبقرب دارا منه وما صدق حتى شاهد هو بنفسه وأعد نفسه للحرب ولما خشى الاسكندر من أن الفرس ربما يهجمون معسكره بالنسبة لما هم عليه من كثرة العدد حصنه بالخنادق والشرمبولات أى خوازيق من الخشب مرصوصة فى جانب بعضها ومغروسة غرسا متينا فى الارض ولما أخذت عساكره راحة السفر والشغل أمرهم بالاستعداد فى الغفرة الثالثة من الليل لحركة السفر نحو العدو وتوجه هو الى رأس جبل وقرب القربان للآلهة على حسب عوائد بلاده فى مشاعل من النور وبمجرد اعطاء الاشارة منه كان جيشه مستعدا للسير والحرب فجد فى سيره الى محطة كان عينها لوقوف الجيش فوصلها فى الفجر ثم جاءت اليه الجواسيس بان دارا على أقل من أربعة أميال منه فعبى جيشه فى هيئة الحرب ووقع الخوف الشديد فى قلوب أهل السواد فأسرعوا وأخبروا دارا بوصول العدو وكان لا يصدق ولا يتصور بان اسكندر يتجاسر على أن يظهر أمامه فتولد من هذه الاخبار وقوع الارتباك الكلى والذهول الشديد فى عسكره حتى انهم أسرعوا مع الفشل وعدم النظام فى لبس أسلحتهم وكان الميدان الذى حصلت فيه الواقعة بالقرب من عصوص محفوفا بالجبال من جهة وبالبحر من أخرى وكان يلزم أن يكون السهل الواقع بين ذلك كبيرا واسعا حتى يتمكن العسكران من التعسكر فيه وقد ذكرنا أن جيش دارا كثير العدد وكان يشق هذا الميدان نهر بنروس من الجبل الى البحر ويقسمه الى قسمين متساويين تقريبا وأما الجبل فانه مشكل دخلة مثل الخليج ونهايته خط منحن يحدد قسما من السهل

فأما الاسكندر فانه عبى جيشه على هذا الوجه وهو أنه رتب فى نهاية الجناح الايمن وكان بالقرب من الجبل عساكر الارجيراسبدين وهم نوع من عساكر المشاة لهم جعب من الفضة ذوو جراءة وشجاعة تحت قيادة القائد نكامور ثم فرقة تحت قيادة كونبوس ويليها فرقة برديكاس وهى نهاية قلب الجيش ورتب فى الجناح الايسر فرقة امنطاس ويليها فرقة بطلميوس وآخر هذا الجناح فرقة ملغر وبهذا كان تشكيل الفرق المقدونية وكانوا على ست فرق ممتازة كل فرقة تحت قيادة قائد ماهر

مطلب واقعة عصوص

وكان اسكندر هو القائد الاكبر ومدبر حركة الحرب ورتب الخيالة فى الجناحين فالمقدونيون والتساليون فى الجناح الايمن والبلوبونيزيون ومحالفوهم فى الجناح الايسر وكان القائد كراطوس قائد مشاة الجناح الايسر وبرمينيو قائد الكل مشاة وفرسانا وأحال الاسكندر على نفسه قيادة الجناح الايمن وأمر برمينيو بان يكون منحازا الى جهة البحر على قدر امكانه كيلا تتمكن الفرس من الدوران خلفه وأمر نيكامور بعكس ذلك وهو أن يكون على مسافة كافية من الجبل حتى يحفظ نفسه من السهام المرمية عليه من نواحى أعلى الجبل الصادرة من عند العدو ومد الارجيانيين بامداد جديد وصل اليه من الجريس ليمنعوا عساكر دارا الموجودين فوق الجبال من القرب فى أثناء الحرب وأما دارا فانه عبى جيشه على هذا الوجه وذلك أنه لما بلغه أن الاسكندر زاحف عليه على تعبية من جيشه أمر ٣٠٠٠٠ فارس من الخيالة و ٢٠٠٠٠ من النبالة بعبور نهر بنروس حتى لا يتمكن الاسكندر من عبور النهر الى جهته الاخرى بسهولة ورتب فى القلب ٣٠٠٠٠ من الجريق الموجودين فى خدمته وكانوا هم زهرة جيشه وقوته وما كانوا أقل شجاعة من القوى المقدونية و ٣٠٠٠٠ كاردانيانى فى الجناح الايمن ومثلهم فى الجناح الايسر وما كان الميدان قابلا للزيادة بعد هذا وكامل هؤلاء العساكر كانوا من العساكر الثقيلة وما بقى من عساكر المشاة رتبهم خلف هؤلاء على حسب أممهم المختلفة ورتب دارا على الجبال من جهة الجناح الايسر لاسكندر ٢٠٠٠٠ نفس ومثلهم خلف جيش اسكندر ومن بعد أن عبى دارا جيشه أمر خيالته بعبور النهر أيضا وسير القسم الاعظم منهم نحو البحر ضد برمينيو لان حربهم فى هذا الميدان ليس فيه فائدة تعود عليهم وأرسل الباقى من خيالته نحو الجهة اليسرى من الجبل وقوى القلب والاجنحة وحشد عساكره وجنوده حتى ضاق بهم الفضاء جدا وأما دارا فانه جعل نفسه فى القلب كما هى عادة ملوك الفرس

ولما عبى كل منهما جيشه زحف اسكندر بجيشه مع غاية المهل لتتمكن عساكره من أخذ راحتها وشم نفسها من دون أن يحصل لاحد منهم تعب وأما دارا فانه مازال مستمرا مع جيشه فى الناحية الاخرى من النهر بقصد أن لا تضيع منه المواقع النافعة التى رتبها ولما صار الجيشان على مرأى من بعضهما مشى اسكندر راكبا على حصانه فى طول طوابير عساكره ونادى باسماء ضباط معروفة من المقدونيين وغيرهم وحرض العساكر على اظهار شجاعتهم ومهارتهم وذكر كل أمة باعمالها الجليلة ومزاياها الجميلة فقال للمقدونيين ان الظفر والنصر الذى نلتموه فى أوروبا لا ينكر فضله وكذا النصر الذى حصل لكم أخيرا فى واقعة غرانيقوس والمدائن الكثيرة والاقاليم الواسعة وما فيها من الجبال والانهر والسهل والصعب التى أخضعتموها فانها مقيدة لكم فى صحائف التواريخ وان نصرة واحدة تنتصرون فيها بتوالدهم الا أن تكونوا أسياد المملكة الفارسية بل أسياد الدنيا قاطبة وتكون لكم غنائم الشرق كلها مكافأة لكم على شجاعتكم وبذل قوتكم واظهار جراءتكم وذكر الجريق بما حصل لهم من المصائب والآلام والاكدار وخراب الديار التى كانت حلت عليهم من الفرس وذكرهم بالوقائع المشهورة التى نالوا فيها الشهرة والنصر فى مرثون وترموبيلى وسلميس وبلاطيه ومالهم من المجد والفخر على أعدائهم وذكر لكل أمة ما يليق لها من مجدها ومازال سائرا بخطوة المهل لراحة العساكر ووقف عدة مرات حال سيره ولما وصل الى مواقع مرمى النشاب أمر جناحه الايمن

باقتحام

باقتحام النهر وعبوره من قبل حصول أدنى حركة من العدو فعبروا النهر والتحم القتال بين الجيش حتى
أشرف الفرس على الهزيمة فلما رأى دارا مبادى هزيمة الخيالة فرهاربا من ميدان الواقعة وكان راكبا فى
عربته لابسا الكسوة الملوكية ولما رأى العربة لا تسعفه فى الهرب نزل منها وركب جوادا وساق
راحمافى هربه وكان الفرس على محاربة شديدة قوية مع المقدونيين الا أنهم لما شاهدوا هرب ملكهم
تشتت شملهم وتبدد أمرهم وكانت هزيمة الخيالة تماما لهزيمة الجيش الكثيف وكابدت خيل الفرس
فى وقت رجعتها مصائب الاهوال بما عليها من ثقل ركابها من الزرد والاسلحة وحل بعساكر هذا
الجيش الهول الاكبر فى الدروب والبوغازات من هزيمتهم وأهلك بعضهم بعضا فى الزحام وخسر الفرس
خسائر جمة وهلك الجريق الذين كانوا فى خدمة الفرس ولم يبق منهم الا ٨٠٠٠ نفس تقهقروا مع
ضباطهم الى الجبال نحو طرابلس من سوريا ونزلوا فى مراكب وساروا الى بلادهم وأما الفرس فمنهم من
هرب الى الجبال ومن هرب الى الاورمانات ومن سلك الطريق السلطانى وسار الى فارس وسار الاسكندر
معقبا دارا وعساكره معقبين للفرس حتى دخل الليل ولما رأى الاسكندر أن لا فائدة فى تعقب هذا
الملك الفار رجع بعساكره الى معسكره واستحوذ على كامل معسكر الفرس وما كان فيه من الذخائر
والكنوز والمهمات والادوات

وأما سيسيغامبى أم دارا والملكة زوجته وأخته وابنتاه وولده الطفل فكن باقيات فى المعسكر مع بعض
من ستات الفرس لان الباقى من النساء كن حلن الى دمشق مع كنوز الملك وأمتعته وكانت على الاقل
٣٠٠٠ وزنة من الذهب عبارة عن ٤٤٠٠٠٠٠ استرلينه وجدت فى معسكر دارا وأما جميع الامتعة
والخزن التى كانت سارت الى دمشق فانها وقعت أخيرا فى يد برمينيو عندما تغلب على دمشق فعلى
ماقيل ان الفرس خسرت فى هذه الواقعة ١٠٠٠٠٠ من المشاة و ١٠٠٠٠ من الخيالة وأما خسارات
اسكندر فكانت خفيفة قالوا انها كانت ١٥٠ فارسا و ٣٠٠ من المشاة وهذا غير معقول وهذه حالة
الواقعة المشهورة التى حصلت فى عصوص فى السنة الرابعة من سلطنة اسكندر وكنا وعدنا فى الجزء
الاول بذكر مفصلاتها هنا

ومن بعد تمام الواقعة أولم الاسكندر لقواده ورؤساء دولته وضباطه وليمة حافلة حضر فيها بنفسه ولما
أخذ مجلسه من المائدة سمع فى الخيام المجاورة له ضجة وغوغاء كبيرة مع أنين وبكاء وزفير فارتعبت
الجمعية حتى العساكر الذين كانوا خلف خيمة الملك مرتبين فى الخفر أسرعوا فى حمل سلاحهم ظنوا أنها
ثورة قامت عليهم ثم ظهر أن هذه الضجة من أم دارا وزوجته والستات الاخر المأسورين وكن يظنن
ان الملك دارا مات فكن يندبنه حسب عادة الفرس وقالوا ان الاسكندر لما أخبر بحقيقة هذه الضجة
سكب دموعه على خدوده أسفا على ما كان من دارا فى حق هؤلاء المأسورات فأنساه ذلك كل ما كابده
من الاتعاب والمصاعب وأرسل ليوناطوس أحد كبراء دولته لاجل تثبيت قلوبهن واطمئنانهن على
حياة دارا ولا يندبنه فأخذ ليوناطوس بعض العساكر معه وتوجه الى الخيمة الموجود فيها الستات
وأرسل لهن رسالة بانه جاء باسم الملك لزيارتهن فلما رأى الطواشى الموجود على باب الخيمة شرذمة متسلحة
اتين الى الخيمة تصور أن ستاته انتهى أجلهن وأسرع اليهن صائحا اقربت ساعة الموت وجاء العسكر
لقتلكن فانكمد النساء فى نفوسهن وصار لا طاقة لاحد منهن على التلفظ باى كلمة فانتظر ليوناطوس
مدة طويلة فلم يظهر له أحد بجواب من الخيمة فترك عسكره على باب الخيمة ودخل فيها فازدادرعبهن

لما رأين انى انا دخلت عليهن من دون واسطة ولا خبر فأسرعن فى الانكباب على أقدامه وصرن يمرغن وجوههن عليها ويقبلن قبل أن تقضى علينا وتقتلنا رخص بدفن دارا حسب عادة بلادنا ومن بعد اجراء هذا الواجب فى حق الملك اقتلونا كما تشاؤا فقال لهن ليوناطوس ان دارا على قيد الحياة وانه لا ضرر عليكن ولا أذى وستكون معاملتكن معاملة الملوك مادمتن على قيد الحياة فلما سمعت سيسيغامبى ذلك ردت اليها روحها وقالت له أعطى بذلك وقومنى من الارض ثم تركهن ليوناطوس وتوجه الى الاسكندر وأخبره بذلك

وفى اليوم الثانى من بعد أن عاد الاسكندر الجروحين وزارهم أمر بجمع المقتولين فى ميدان المعركة ودفنهم من بعد أن عبى عساكره فى هيئة الحرب احتفالا بدفنهم وتشريفا لقدرهم وعامل قتلى الفرس كما عامل قتلى عساكره ورخص لام دارا فى أنها تجرى أعمال الدفن وطرق الاحتفال بالموتى حسب عادة بلادها وتشكر الاسكندر لعموم الجيش وقواده وضباطه وأثنى على مساعيهم وشجاعتهم وأظهر لعمومهم ميله وانعطافه ومحبته القلبية لهم حتى مزج دمه بدمهم ومن بعد أن أدى جميع واجباته أرسل رسولا الى الملكة يعلمها بقدومه لزيارتها ثم صرف جميع ما كان معه من حواشيه ودخل الخيمة ومعه صفسطيون نديمه وكان على اطلاع زائد من أسرار اسكندر وكانا فى سن واحد تقريبا الا أن صفسطيون كان طويل القامة عن اسكندر فحسبته الملكة فى الابتداء أنه هو الملك فقدمت اليه احتراماتها وكان الطواشية على معلومية من اسكندر فأخبروا سيسيغامبى أم دارا فسجدت أمامه واسترحمته بالعفو والسماح وقالت له انها ما رأته قط قبل هذا فرفعها الملك عن الارض وقال لها يا والدتى العزيزة أنت لست على خطا فانه هو أيضا اسكندر وهل يا والدتى يفتكر اسكندر فى نفسه أن يجرى هذه الاعمال بحالة دوامية كلا ها أنا اليوم مستحق قليلا من العظم والسمو الا أن الايام لها تقلبات وللسعادة أحوال عند ضياع العقل وخسران النفس فانتشطت سيسيغامبى من التفات اسكندر ومروأته وأثنت عليه الثناء الجميل وقالت له أيها الملك الاعظم والسيد الافخم يكل لسانى وتعجز أقوالى عن شكرى وثنائى عليك ولا يمكننى أن أجاوب حلمك وجود امتنانك وعظيم همتك ورقة قلبك وانعطافك كيف تقول يا أمى وكيف تشرفنى بلقب الملك مع انى أعترف بنفسى أنى أسيرتك ورقيقتك أما أنا فانى أعرف ما كنت عليه من قبل وأعرف الآن ما أنا فيه أنا أعرف ما كنت فيه من السعادة والعظمة والسيادة والآن أزن كل ذلك بما أنا فيه من التعاسة فيكون لك الفخر الاكبر والمجد الازهر بما أنك مطلق التصرف فينا ان تعاملنا باحسانك وما جبلت عليه من علو الهمة وسمو المروأة فوطد الملك راحتهن وأوصى عليهن بمعاملتهن معاملة الملوك وأخذ ابن دارا على يديه وتعلق الولد به وحن اليه فالتفت الى صفسطيون وقال له فى هذا الولد شبه لدارا وتركهن وسار الى حال سبيله

وكانت واقعة عصوص فى نوفمبر سنة ٣٣٣ قبل الميلاد وأخذت نجابة اسكندر بالعقول بما أجراه من أعماله وتدبيراته ومباشرته الحرب فى هذه الواقعة المشهورة ولما تحقق أنه يلزم مدة طويلة من الزمن لمملكة فارس حتى تشفى مما حل بها من هذه الضربة التى أصابتها وأنزلت عليها المصائب الكبرى ويكون لها طاقة على العود الى ميدان الحرب مرة أخرى ترك دارا هاربا بنفسه وسار الى الجهة الجنوبية لاجل التغلب على ساحل البحر الابيض المتوسط وعلى مصر وقصده بذلك توطيد الامن

والمحافظة على مقدونيا والجريس فاخضع جميع المدن الفنيقية ماعدا صور فانها قاومته سبعة أشهر وكانت معضدة فى نجاحها بواسطة موقعها الداخل فى البحر فجمع اسكندر جميع أنقاض مدينة صور القديمة وردم بها طريقا عريضا واصلا من البر الاصلى الى أسوار المدينة وهجم عليها عنوة وهدمها فى يوليه سنة ٣٣٢ قبل الميلاد وقتل من الصوريين ٨٠٠٠ نفس بالسيف وباع من أهلها ٣٠٠٠٠ نفس فى أسواق الرقيق وكذا قاومته مدينة غزة وسلمت اليه من بعد حصار استمر عليها شهرين وكذا سلمت أورشليم كما ذكرنا ذلك سابقا فى الجزء الاول واستمر مجدا فى سيره الى الجهة القبلية حتى دخل مصر وقابله فيها أهلها بالرحب والابتهال والوقار وكان المصريون على كراهة شديدة من الفرس من عهد أيام قمبيز أوكى لهراسب فأهلوا بالجريقيين كأنهم خلصوهم من عبودية الفرس ونال اسكندر صداقتهم له وجذب محبتهم اليه بواسطة الاحترامات التى أجراها فى شأن ديانتهم وكانت الاحكام والادارات متباينة فيها بالكلية بواسطة قيام الثورات وأنواع الارتباكات والدمار والخراب الذى كومه عليهم الفرس وأسس مدينة الاسكندرية فى محلها الموجودة هى عليه الآن وانتخب موقعها مع الذكاء والفطنة انتخاب أعظم رجل سياسى فكان هذا الموقع صالحا للتجارة فى مصر ولا ريب أن صارت هذه المدينة الجديدة مقرا صالحا للبطليموسية فى الازمان التى جاءت بعد الا أنه من العجب أن هذه المدينة التى ابتناها وبذل جهده فى تشييدها وعمارها ما خاب نظره فى كونها صارت عاصمة كبيرة وجعلها اسكندر عاصمة الديار المصرية وبهذا أوصل هذه المملكة القديمة الى ارتباطات وعلاقات مع عالم الدنيا الاوروباوية

ومن ثم دخل كامل الاقاليم الساحلية الفارسية فى قبضة اسكندر وتم له بذلك رياسة البحر الابيض المتوسط ثم عاد الى عزمه الاول وتقدم الى الجهة الشرقية مرة أخرى لاجل اتمام فتح المملكة الفارسية فسار من وسط أرض سمارية وسوريا وعبر نهر الفرات من نواحى طابصاكوس فى أواخر أغسطس سنة ٣٣١ قبل الميلاد ثم من بعد أن تغلب على الممالك السورية ودخل برمينيو دمشق وأخذ منها كامل ما فيها من خزائن دارا التى كان أرسلها اليها ووجد فيها ٣٢٩ جارية من جوارلهن دراية تامة بضرب الآلات الموسيقية والمغانى وكتب برمينيو بذلك الى الاسكندر فأمره بالمحافظة عليهن ولما وصل الاسكندر الى محل اسمه مرطوس ورد اليه كتاب من دارا يقول فيه من الملك دارا الى الاسكندر ويأمره فيه بان يطلب أى مبلغ من النقود على قدر ما يفتكره فى نفسه فداء عن أمه وزوجته وأولاده وأما المنازعة فى المملكة فانه يفتكر أن هذا حكم ينفصل فى واقعة واحدة الا أنه ينصحه أن الاصوب والاحسن له أن يقنع بملك أجداده ولا يغير على الممالك الاخر وأن يصير الاثنان من الانفصاعدا على صداقة تامة وارتباط أكيد ومحالفة ثابتة وانه مستعد لليمين والقسم على ذلك ومنتظر عين الاسكندر فتولد من هذا الجواب المكتوب بالعظمة والكبرياء وعلو الانفة زيادة غضب الاسكندر فكتب له الاسكندر من اسكندر الملك الى دارا ان دارا القديم الذى أنت تقلدت اسمه خرب فى الازمان القديمة الجريق الذين كانوا قاطنين على سواحل الهلسبون وكذا اليونانيون مستعمراتنا القديمة وعبر البحر فى رأس جيش كثيف وأشعل الحرب فى قلب مقدونيا والجريس ومن بعده جاء أردشير بجنود لا حصر لها من الفرس والمتبربرين ودخل فى بلادنا قاصدا بذلك اخضاعنا واذلالنا وخرب فى سيره البلاد ودمر العباد ولما انهزم فى واقعة بحرية ترك فى الجريس

وهو متقهقر منهام دونيوس فنهب مدائننا وأقفر سهولنا وأراضينا ومن ذا الذى لم يسمع بأن فيليب أبى كان أصل ذبحه بدسيسة منك لاحزابك حتى تكافئهم على ذلك وهذه شيمة الفرس وعوائدملوكها فانهم عند مايشرعون فى حروب جورية ويجمعون لها جيوشهم فى الميادين يقررون جوائز ومكافئات لمن يأتيهم برؤس أعدائهم حتى انك أنت تفكرت أنك فى رأس جيشك العريض الواسع ووعدت بألف وزنة من الذهب (٢٠٠٠٠٠ استرلينه) لمن يقتلنى فأنا الآن أدافع عن نفسى فقط ولست بمعتدٍ عليك فأنت الذى اعتديت على نفسك وانى محفوظ بالآلهة ومساعد باسلحتهم كما انى أخضعت قسما عظيما من آسيا وهزمتك ياداراً فى أكبر واقعة سافكة حصلت بيننا ومع هذا لم تسمح نفسى بأى طلب مما طلبت لانك غير صادق فى أقوالك وأفعالك فان كان لك رغبة فى الحضور أمامى بصفونية وخلاص طوية فانى أعطيك قولا بانى أعيد عليك أمك وزوجتك وأولادك من غير فداء واعلم انى أعرف كيف أغلب وأقهر وأرغم المغلوب فان كنت تخشى تسليم نفسك لى فانى أحقق لك بشرفى وذمتى انه لا يصلك منى أدنى ضرر ولا أذى واعلم من الآن فصاعدا أنك ان كتبت لى مرة أخرى فلا تكتب باسم الملك فقط بل اكتب لى ملكك وسيدك ثم أرسل اسكندر هذا الجواب وسار الى فينقية وكان هذا الجواب قبل التغلب على مدينة صور ولما كان اسكندر مشغولا بحصار صور ورد عليه مكتوب ثان من دارا القبه فيه بلقب ملك وقدم له ١٠٠٠٠ وزنة من الذهب (٢٠٠٠٠٠٠ استرلينه) فداء الستات الماسورات ووعده بزواج ابنته سطاطيره وبجميع الممالك التى افتتحها الى نهر الفرات وأخذ دارا عن اسكندر أفول سعده وزوال ملكه ومجده وذكر له ماهو عليه من العظمة والابهة وكثرة الجنود والعساكر الموجودة تحت يده وان اسكندر لا يظن فى نفسه أنه يكون على الدوام محشودا بين صخور الجبال ودروبها بل لابد من جمعهم فى سهل مكشوف ويحصل له الخزى والعار عندما يظهر أمامه فى قلة رجاله وهدده بالكلام وكثرة الاقوال فلما قرأ اسكندر هذا المكتوب عقد مجلسا حربيا فكان أول من أعطى رأيه فى هذا المجلس برمنيو فقال من رأيى قبول هذه التقدمة وانى موافق عليها ولو صادق عليها اسكندر فقال اسكندر وأيكن هذا لى ومازال سائرا فى جوابه يقول انى لا حاجة لى بالفلوس المقدمة من دارا وانه لا يجوز لدارا أن يحسن علينا بشئ استحوذنا عليه من مدة أو يكون له نصيب فى شئ ضاع منه بالكلية وان هذا الشخص الذى لا يعرف أيناً أعلى من الآخر سوف يعرف ذلك فى واقعة أخرى وكيف يهددنى لاعبر البحار بالانهار فأى محل يكون صالحا لان يقابلنى فيه فانه يجدنى أمامه ولما ورد هذا الجواب على دارا وقرأه قطع الامل واليأس من مسالمة تحصل واستعد للحرب مرة ثانية ومن بعد أن عبر دارا الفرات سار من وسط اقليم ميزوبوتاميه الخصب على يمينه نهر الدجلة وعلى شماله جبال كورديستان وأرسل أمامه الجواسيس يكشفون أخبار العدو فوردت اليه الاخبار بأن دارا سائر نحوه فى قوته فعبى عساكره فى الحال وجعل نفسه فى رأسهم ثم ظهر أنهم فرقة مقدارها ١٠٠٠ خيال كانت أرسلت للكشف وعادت مسرعة الى الجيش الفارسى ومن بعد هذا وردت الاخبار لاسكندر بان دارا على مسافة ١٥٠ استاديه من موقعه الموجود فيه وكان اسكندر ضبط من قبل مكاتيب واردة من دارا لبعض الجريق يحضهم على قتل اسكندر ويمنيهم ويعدهم الوعد الجميل فاراد اسكندر أن يقرأها على الجريق والمقدونيين فمنعه من ذلك برمينيو وقال

له أخف هذه المكاتيب ولا تظهرها حتى لا توقع فى قلوب العساكر الرعب والارتباك ولا تشغل خواطرهم بمثل هذا الآن فامتثل اسكندر ما قاله القائد برمينيو وأمر الجيش بالسير الى قدام ثم ان دارا وان كان أرسل مكتوبين من قبل واجتهد بلا طائل فى عقد صلح بينه وبين للاسكندر وبذل مجهوده فى خلاص عائلته لكنه أرسل مرة ثالثة عشرة من كبار أقاربه يقدمون لاسكندر شروط صلح جديد ذى فائدة عن الاول ويقدمون له جزيل الشكر على ما أولاه من الرفق والرحمة بعائلته وأولاده وكان دارا تنازل للاسكندر فى الاول عن كافة الاقاليم لحد نهر الحاليس فأضاف اليها فى هذا الوقت كافة الاراضى الواقعة بين الهلسبون (الدردانيل) ونهر الفرات يعنى كامل الاراضى التى تغلب عليها الاسكندر فى الحالة الراهنة فأجاب الاسكندر قولوا لملككم ان الشكر والثناء بين شخصين بينهما حرب يعدّ من زيادة الافراط وأما من خصوص الحالة التى أنا ناظر فيها بعين الشفقة والرحمة نحو عائلته فذلك من أجل خاطرى لا من أجل خاطره وهى محض ذلى وليست محبة فيه وانى لا أفعل القبيح مع الذى ساء بخته ولا أوجه غضبى الاعلى من يبارزنى وانى لا أضر بالاسرى وعلى الخصوص النساء والاطفال فان كان دارا صادقا فى طلب الصلح فأنا أخفض نفسى الى ما يجب علىّ فعله لكن من حيث انه لم يزل مستمرا فى تحرير جواباته ومستعينا بصرف نقوده على قيام عساكرى فى خديعتى والوقوع بى وبأصحابى فقد عزمت على أن أسوق عسكرى وراءه بكل قوة وشدة ليس بصفة عدو فقط بل بصفة رجل سماوى قاتل فهل يليق به أن يسلم لى ما امتلكته واستحوذت عليه فان كان لا يرضى أن يكون أقل منى درجة ويدعى أن يساوينى أو يعادلنى فانه يستحيل ان أسمع له قولا قولوا له فكما أن الدنيا لا يكون فيها شمسان كذلك لا يلزم أن يكون فيها ملكان قولوا له يختار له حالة من اثنتين اما أن يسلم لى نفسه اليوم أو يحاربنى ويبارزنى غدا ولا يفتخر بنفسه بما سطره فى الجوابات المرسلة من طرفه فرجع الرسل من عند الاسكندر وأخبر وا دارا بالاستعداد للحرب وكان دارا معسكرا بالقرب من قرية اسمها كوى جلا أى قرية الجمل على نهر بملوس فى سهل على مسافة كبيرة من مدينة اربلا فأمر بنظافة هذا السهل وأعده ميدانا للحرب كى تجد عربات الحرب والخيالة محلا للجمال فى أثناء الواقعة وأشغل جميع دروب سيليسيا بأشغال محافظتها ونشر الاهرامات الفارغة المعدة لجرح خيول عدوه فى وقت اشتعال الحرب فى ميدان الواقعة

وأما الاسكندر فانه مكث أربعة أيام فى المحل الذى كان موجودا فيه لاجل راحة جيشه وأحاط معسكره بخنادق وشرمبولات لانه عزم على ترك الجملة والعساكر الذين لا طاقة لهم بالحرب فى هذا المعسكر ويسير بمن بقى من الجيش لملاقاة عدوه حتى لا يكون معه زيادة عما يحمله كل عسكرى لنفسه من مهماته ولما تم له ذلك سار بجيشه فى الساعة التاسعة من المساء حتى يبارز دارا فى الفجر ولما بلغ دارا هذه الاخبار عبى عساكره فى هيئة الحرب وكذا كان سير الاسكندر على تعبية من جيشه لان العسكرين كانا من بعضهما على مسافة فرسخين أو ثلاثة ولما وصل الاسكندر الى الجبل الذى يمكنه أن يكشف منه جيش العدو أوقف جيشه وجمع قواده من المقدونيين والاغراب واستشارهم فى مبارزة العدو حالا أو يركز المعسكر فى هيئة التعبية فى هذا المحل فاستقر رأيهم على اقامة المعسكر فى هذا المحل حتى يتحققوا جيدا من هيئة ميدان الحرب والحالة الداخل فيها العدو فعسكر الجيش على

الحالة التي كان سائرا بها في هيئة التعبية وفي أثناء هذه المدة سار اسكندر في رأس مشاته الخفيفة وعساكره الملوكية وطاف بالميدان اللازم وقوع المحاربة فيه ولما عاد جمع قواده مرة ثانية وقال لهم انه لا يوجد سبب لكلامي بما أن شجاعتهم ونشاطهم وبسالتهم كافية في زيادة علو مجدهم وانما قصده أن يقولوا للعساكر ان حربهم ليس من أجل فنيقيه أو مصر بل من أجل كامل آسيا اللازم الاستحواذ عليها والتغلب على أرضها وبلادها وانهم من بعد أن قطعوا أقاليم وتركوا خلفهم كثيرا من الانهر والجبال الصعبة لا يمكنهم أن يوطدوا ويحفظوا خط عودهم ثانيا الا باكتساب النصر الكامل ومن بعد ما قال لهم ذلك وذكرهم بما فات من مجدهم وعلو قدرهم أمرهم باخذ الراحة وقيل ان برمينيو أشار عليه بالهجوم على العدو ليلا وقصده بذلك سهولة انهزام العدو اذا حصل الهجوم عليه بغتة في ظلام الليل فاجابه اسكندر باعلى صوته انه لا يجوز ولا يليق لاسكندر أن يسرق نصرة من النصرات في ظلام الليل وانما حربه وغلبته يكون في ضوء النهار لا ظلام الليل ولما انتهت أشغال الاسكندر وترتيباته مع قواده في النصف الاول من الليل ذهب لفراشه من أجل راحة بدنه المدة الباقية ولما رقد على فراشه تحوّل عليه فكر الواقعة والترتيبات وأحوال الحرب حتى انه تأخر في نومه من اشتغال فكره ثم ثقل عليه النوم فنام نوما ثقيلا بخلاف عادته ولما اجتمع قواده في الفجر على باب خيمته ليأخذوا الاوامر منه حصل لهم الاستغراب من كونهم وجدوه لم يستيقظ من النوم فصاروا يسألون العساكر عن أسباب عدم ايقاظه من النوم لحد هذا الوقت وأخيرا أيقظه برمينيو وتعجب لما رآه في نوم عميق وذلك خلاف عادته ولما أيقظه قال له كيف هذا النوم العميق أمام عدو وستلقاه اليوم فقال له اسكندر كيف لا ننام ونستريح وقد جاء لنا العدو مسلما نفسه اليناثم قام على الفور ولبس سلاحه وركب جواده وساق في طول الصفوف وثبت جنان العساكر وقوى حركاتهم وكان يوجد فرق كبير بين العسكرين من جهة كثرة العدد الا أن النصر متوقف على الشجاعة والثبات والتدبير في الحروب فكان جيش دارا مركبا بالاقل من ٦٠٠,٠٠٠ مقاتل من المشاة و ٤٠,٠٠٠ فارس خيال ورتب كل من دارا واسكندر جيوشهما على حذاء ين واحترز كل من الآخر وصدرت أوامر الاثنين بحركة الهجوم والتحم القتال وكانت نتيجة هذه الواقعة الدموية هزيمة الجيوش الفارسية مع ان اسكندر ما كان عنده من العساكر سوى ٤٠٠٠ من المشاة و ٨٠٠٠ من الخيالة وهرب دارا وترك معسكره غنيمة لعدوه ونجا بنفسه مع قليل من عساكره وكانت أمه وأولاده تابعين لجيش اسكندر في حركته وكان حصول هذه الواقعة بعد واقعة عصوص بسنتين في قرية كوى جلا من سهل أشوريا ولكن بما انها قرية صغيرة لا شهرة لها سميت هذه الواقعة المشهورة بواقعة اربلا أقرب مدينة الى ميدان الحرب

وكان أول اعتناء أجراه الاسكندر من بعد اكتسابه هذه النصرة تقريب قربانات لها قيمة الى الآلهة شكرا وثناء لهم ثم بعد هذا كافأ الذين ظهرت شجاعتهم وميزوا أنفسهم في الحرب بالانعام عليهم بانعامات وافرة جليلة وأعطى كلا منهم مساكن ومنازل ووظائف وحكومات وأثنى كثيرا على الجريق ومنحهم جزيل العطاء لانهم شيدوا رياسته وأقاموا دولته على الفرس ورفع عنهم المظالم العديدة والقوانين الشديدة التي كانت على أعناقهم في الجريس وأعاد مدائنهم ومنحها الحرية والامتيازات وكتب من أجل أهل بلاطية بعود بناء مدينتهم وكافأهم على ما أظهروه من

غيرتهم وشرح قلوب قوادهم وعساكرهم بما كافأهم به من جزيل شكره عليهم وانعامات وافرة وصلت لديهم

وأما دارا فانه من بعد هزيمته أخذ فى طريقه مع قليل من حواشيه حتى وصل فى نصف الليل الى مدينة اربل وسار منها هاربا الى ميديا ومن بعد بضع أيام سلمت اربل نفسها الى الاسكندر فوجد فيها شيأ كثيرا يختص بدارا وعساكر من ملابس ثمينة ومواد نفيسة و ٤٠٠٠ وزنة من الذهب (٨٠٠٠٠٠ استرلينه) وكافة مهمات الجيش وكان دارا ترك كل ذلك فيها وتوجه بجيشه لميدان المحاربة الذى انتخبه لنفسه

وقيل ان هجوم اسكندر على الجيش الفارسى فى هذه الواقعة كان فى مبادى شهر سبتمبر من سنة ٣٣١ قبل الميلاد فى موقعه الذى انتخبه وأوقع على الفرس هزيمة حاطمة هاشمة حتى صار لا طاقة لهم على مقاومة الحرب وهرب دارا من ميدان الواقعة قبل انفصالها فاسرع جيشه فى الهرب على منواله وتعقب اسكندر الفارين مع الشدة حتى غرق منهم الجم الغفير وقت عبورهم نهر ليكوص وكان فاض على ميدان الواقعة ومن بعد أن استراح اسكندر مع جيشه بضع ساعات اندفع الجيش نحو مدينة اربل وكان دارا هرب منها فأخذ اسكندر كامل المهمات والذخائر والنقود الملوكية التى كانت موجودة فيها ولما رأى اسكندر أنه لا فائدة فى تعقب الملك الفار فى أى جهة توجه اليها سار مع جيشه الى بابل فخرجت الامة الكلدانية لمقابلته وفى مقدمتهم قسسهم ونوابهم وحاكم القلعة ودخل المدينة فى موكب حافل ومر جيشه من شوارع المدينة وكانت معطرة بروائح الازهار والابخرة فى أوان من الفضة وكان القسس يترغون بغانيهم وكانت خزائن ملوك فارس محفوظة فى هذه المدينة فأمر اسكندر باعادة الهيا كل الكلدانية التى كان خربها أردشير فيما سبق وقربوا قربانهم الى بلوز وعهدت ادارة المدينة الى ماظوس وهو حاكم من الفرس والمحافظة وجمع الخراج الى حكام من الجريق والمقدونيين وفى تلك المدينة التى هى مرسح الرفاهية والخلاعة الشرقية غرق أشداء فاتحى الشمال مدة قليلة فى الراحة والانهماك فى اللذات ولما رتب اسكندر حكومة بابل ووضع فيها محافظين من جيشه تركها فى شهر نوفمبر من السنة المذكورة وسار متوجها بجيشه الى السوس فوصلها فى عشرين يوما وكانت السوس سلمت نفسها الفرقة من الجيش الفاتح كان اسكندر أرسلها لفتحها مباشرة من بعد واقعة اربل وكان من ضمن الآثار النفيسة الموجودة فى خزائن السوس تماثيل النحاس المخصوصة بكل من هرموديوس وارسطوغيطون وكان أردشير أخذ هذين التمثالين دلالة على نصرته فى أثينية قبل ذلك بمائة وخمسين سنة فاهداهما اسكندر الى الاثينيين وكان ذهب السوس وفضتها أكثر وفرا مما كان موجودا فى بابل واستلم اسكندر الخزينة الفارسية وكان يوجد بها نحو من ٥٠٠٠٠ وزنة عبارة عن ١٠٠٠٠٠٠٠ استرلينه و ٩٠٠٠ من سبائك الذهب أى ١٨٠٠٠٠٠ استرلينه والوزنة الواحدة هنا ٢٠٠ استرلينه

وحضر الى الاسكندر فى السوس امداد مقداره ١٥٠٠٠ نفس مجموع من مقدونيا وثراسة وبلوبونيزه وبلغه أخبار ثورة اسبرطة على أنطيباطير نائبه فى الجريس فأرسل اليه مبالغ وافرة ليتساعد بها على اطفاء الارتباكات واخماد الفتن وكان يوم دخول اسكندر فى مدينة السوس يوما عظيما خصوصا من أجل عود أم دارا وأولادها ودخولها فى سراى أجدادهم وكانت أقدم مقر للعائلة الملوكية الفارسية وكانت

المدينة العتيقة للمملكة الفارسية عاصمة برسبوليس يقال انها اصطخر فسار اسكندر من السوس قاصدا هذه المدينة وعبر الجبال الاوكسيانية وكانت دروب هذه الجبال محفورة بعساكر ذوى قوة وشجاعة لهم رواتب سنوية على المملكة الفارسية ثم عبر المرتفعات العالية المتراكمة عليها الثلوج مستمرة الى أن وصل الدرب الصعب المسمى أبواب فارس حتى دخل بجيشه مدينة برسبوليس وكانت كثيرة الاموال والذخائر زيادة عن بابل والسوس وبلغ ما كان موجودا فى خزينتها ١٢٠٠٠٠ وزنة أى ٢٤٠٠٠٠٠٠ استرلينه ومن بعد أن أخذ اسكندر من أموالها وأمتعتها ما يكفيه أمر عساكره بنهبها فاوقعوا بالسكان الذين كانوا باقين فيها وأخذوا منها ما استجوعه بخلهم وطمعهم ثم أعاد اسكندر النظام فيها من بعد أن قتل عساكره الجم الغفير من أهلها وكان يوجد فى الجهة الجنوبية من برسبوليس مدينة قديمة يقال ان البانى لها كان كيرش أو كيخسرو الاكبر مؤسس السلطنة الفارسية وان قبره موجود فيها فزار اسكندر قبر كيرش مع الوقار والاحترام وأمر ان حصل به خلل أو أذى بصير تعميره من الآن فصاعدا

وأما دارا فانه من بعد هربه من اربل توجه الى همذان وهى العاصمة القديمة لمملكة ميديا عازما على القهقرة أمام اسكندر الى أبعد جهة فى نواحى نهر جيحون ومن بعد أن أقام اسكندر بضع شهور فى برسبوليس لاجل راحة عساكره سار الى همذان ومن بعد أن وزع بعضا من عساكره الى بلادهم سافر منها خلف دارا الى أن وصل باب الابواب فى نواحى الخزر فى سلسلة جبال البورز وهى جبال غيلان وعبر من درب باب الابواب الى الصحراء فوجد دارا وضعه مرازبته فى الاغلال وقاموا عليه وكان اسكندر على غاية من السرعة خلفه وأثخنوه بالجراح حتى أغرقوه فى دمه وتركوه مرميا فى عربته فوجده قتيلا فيها فلما رآه على هذه الحالة انزعج وقلع برنسه وغطى جثة عدوه به وأرسله ليدفن مع أجداده فى برسبوليس مع الاحتفال الزائد الملوكى وكان دارا آخر عمود الثلاثة عشر ملكا الذين كان أولهم كيرش الاكبر أو كيخسرو وحكموا فارس زيادة عن مائتى سنة ثم ان اسكندر لبث فى حيكاطومفيلوس من فارطية القديمة وسيب القسم الاعظم من قواد الجريقية وقال للمقدونيين ان الذين يختارون ترك ملكهم فى وسط مظفراته فلهم الحرية والعود الى بلادهم فعزم جميعهم على متابعته فى أى جهة يسوقهم اليها وبقوته هذه الخاضعة له تغلب على صرقانية وهى جهات مازوندران الآن على سواحل بحر الخزر وسار متجولا فى الاقليم الجبلى الموجود بين سهول خراسان والخزر الجنوبى وأخضع قطاع الطريق واللصوص الموجودين فى الغابات والاورمانات الماردبانية واحتفل بمظفراته وعمل لهموكبا جليلا فى مدينة زادربارته عاصمة فارطية

ثم ان موت دارا أوعز الى اسكندر أن يعلن بانه خليفة ذلك الملك وبهذه الفكرة التى تولدت فى مخه شرع فيما كان فيه ملوك فارس من الطبائع والعوائد والاحكام واختار لنفسه عوائد الامم الشرقية من الاستبداد فى الاحكام وغيرها فهيج الوساوس والغيرة فى قلوب الجريقيين والمقدونيين وكان القائد الذى قتل دارا هو بصوص مرزبان بقطريانه وهى بلخ الآن وكان قريبا من العائلة الملوكية ومن بعد أن قتل أستاذه لقب نفسه باسم أردشير بن زرادشت ملك آسيا وجند جندا من البلخيين وكان منتظرا مساعدة القبائل الضيطيانية الموجودين فى حدود المملكة الحاكم عليها لاجل طرد هذا العدو المهول فجد اسكندر فى السير الى تلك الناحية ولما عبر جبال الثلج الهندية المسماة كوه الهند

ودخل

ودخل فى وادى جيحون تضجر من شدة صعوبة الصقيع وشدة برد الاقليم واحتياج المؤنات اللازمة لعساكره فأخذ راحته وشتى فصل الشتاء فى مدينة زارياسبه سنة ٣٢٩ قبل الميلاد فى الاراضى العالية من بلخ ولما عرف بصوص بان اسكندر زاحف فى حركاته عليه عبر من نهر جيحون وحرق المراكب التى عدت بعسكره فنقل اسكندر عساكره فوق رواسس عملت على النهر من جلود خيامهم وحشيت بالقش والحشيش الناشف وأرسل اسكندر بطليموس قدامه فقبض على بصوص وجاء به الى اسكندر فأمر بتوقيفه عريان على قارعة الطريق معلقا فى رقبته حجر ومر الجيش على هذا الاسير وهو واقف بالحالة التى أمر بها اسكندر ولما وصل الاسكندر اليه أوقف عربته وعنف بصوص ووبخه من أجل ما حصل منه من الخيانة وخسة الاصل التى عملها فى دارا وأمر أن يجلد بالسياط ويوضع تحت العذاب والعقاب ومن بعد خضوع بلخ والصغد أمر بقطع أذن بصوص وأنفه ثم صار تمزيقه عضوا عضوا فى نواحى همذان أمام الميديين والفرس

وفى مدة هذا الحرب أظهر اسكندر بعض نتائج من التغييرات التى اتخذها فى سيره نحو رعاياه المقدونيين من بعد جلوسه على تخت آسيا ومن قبل تركه مصر كان ارتاب من صداقة فيلوطاس بن برمينيو وهو الباقى له على قيد الحياة من ثلاثة أولاد كانوا له وكان فيلوطاس قائد الحرس الملوكى فجهر فيلوطاس مع الكبرياء والعظمة ووضع مع عدم الاحتراز مالابيه وله من المآثر الجميلة وانه لم يكن هو ولا أبوه على رأى التغييرات التى أظهرها اسكندر فى سير أحواله واجراآت أعماله فى الشرق واتفق أنه فى هذه الاثناء كلف نخاموس وهو شاب قبيح السلوك ديمنوس من ضباط المقدونيين بتشكيل دسيسة على حياة الملك فقال أخو نخاموس لفيلوطاس ما يحصل من الخطر والاذى على حياة الملك فتأخر عن عرضه هذه الحكاية على الملك حتى مضى بعض أيام ثم وصل الخبر الى الاسكندر من واسطة أخرى غير فيلوطاس ولما سأل اسكندر فيلوطاس عن سبب السكوت على هذه الحالة حتى بلغ الملك خبرها من غيره مع أنه عارف بحقيقتها من قبل دافع عن نفسه بتقصيره وعجزه ومع ان اسكندر كان مستعدا للعفو عنه لو عرض عليه الحال الا أنه من سكاته وعدم غرضه أمر اسكندر بالقبض عليه ومحاكمته على خيانته أمام ضباط المقدونيين وحضر الملك الى المجلس وكان هو خصمه وشرح كل ريبة وخيانة مكنونة فى قلب فيلوطاس وحركاته وأثبت للمجلس أن حياته منه فى خطر ولما أعطى اسكندر للمجلس براهين خيانة فيلوطاس تركه يدافع عن نفسه فأثبت على نفسه فى المجلس الخيانة بسكونه الذى أقر به قبل وأظهر انه ما كان داخلا مع ديمنوس فى هذه الخيانة وفى هذا اليوم وضع تحت العذاب فأقر واعترف بانه هو وأباه برمينيو داخلان فى جريمة الخيانة وفى اليوم الثالث قرئ هذا الاعتراف فى المحكمة الجنائية العسكرية فصدر حكم المحكمة بقتل فيلوطاس فى الميدان وأرسلوا رسولا معتمدا بقطع صحراء همذان ومعه أمر بقتل برمينيو وبينما كان القائد الطاعن فى السن برمينيو يقرأ مكتوبا من ابنه اذ قطع رأسه الرسول وأخذها وسار الى أستاذه ورتب اسكندر فى الوظيفة التى خلت بموت فيلوطاس حفسطيون الصادق العزيز لاسكندر وكليطوس بن دروبيداس وكان نجى حياة اسكندر فى واقعة غرانيقوس وتولد من عقاب فيلوطاس عقاب آخرين من حاشية اسكندر واتسعت فتوحات اسكندر وامتدت حتى وصلت نهر سيحون فعبر هذا النهر وأسس مدينة جديدة سماها باسمه فى الحد الشمالى لمملكته من اسيا ولما شرب المياه الغير الموافقة للصحة الموجودة فى الصحارى الشمالية من نهر سيحون أصيب بمرض شديد والتزم عبور

النهر ثانيا ورجع الى الجهة الغربية من نهر جيحون وقضى فصل الشتا فى زار ياسبه وأجرى حركاته العسكرية على الصيطيانيين فحصل له خسارات جمة والتزم بان يقفل عليهم الدروب بالسور أو السد المشهور المذكور فى القرآن الشريف فى أقصى الجهات الشمالية الشرقية من نواحى جوشتبه من الجهة الشرقية لبحر الخزر ويبتدئ من شاطئ بحر الخزر فى شمال نهر غوركان ويمتد الى جهة الشرق قاطعا السهول والاراضى العالية بين ٥٤ و٥٧ من الطول الشمالى و بين ٣٧ و٣٨ من العرض الشرقى وبناه بالطوب والمونة وحصنه بالابراج ولم تزل آثاره موجودة لحد الآن فى نواحى جوشتبه مرتفعة عن الارض بمقدار يختلف من قدم الى ثلاثة أقدام فى الاراضى الواطية وأما فى الاراضى العالية فهو طريق مرور للمسافرين ومشهور هذا السور عند مسلمى أهل تلك البلاد بسد اسكندر ويأخذون منه الطوب اللازم لبناء مساكنهم وهو الآن فى وسط أراضى بلاد المسلمين من بلاد تركستان الموجودة فى شرق بحر الخزر وفى غرب نهر جيحون ودمر اسكندر أقاليم الصغد الخصبة انتقاما من أهلها بما حصل منهم وعاملهم بأسوء الاعمال ولما تغلب على قلعة فى أراضى الصغد يقال لها صغدا لجبر تزوج روكشنه الجميلة بنت أوكسيارطيس ملك بلخ

وفى بلدة مركندة استعفى ارطاباطوس وكان طاعنا فى السن ومن أصحاب دارا وكان اسكندر قلده مرزبانية بلخ فعين بدله فى هذه الوظيفة كليطوس وكان مشاركا لحفسطيون فى وظيفة الحرس وكان أخا لانيسى مرضعة اسكندر ورفيقيه من زمن الشبوبية وفى مساء اليوم قبل اليوم الذى سيتوجه فيه لمأموريته الجديدة عملت مأدبة حافلة حضرها شعراء الحريس وسفاسطتهم وهؤلاء بسبب كثرة تملقاتهم ومدحهم للاسكندر صار لهم المقام العالى والرحب الواسع فى ديوان اسكندر الشرقى واتفق أن المدح والثناء الذى كومه هؤلاء على اسكندر آكاما عالية وقبابا جسيمة كوم الغيظ والحنق الشديد فى قلب كليطوس حتى انه فى أثناء المأدبة لما امتلأ مخه من الشراب والسكر هاجت نفسه وصار يذم فى هذا المدح مع شدة العنف ومما هو حاصل له من شدة الحدة أسرع فى سب الملك ولعنه ونخم فى مشروعات فيليب وذكر اسكندر بواقعة غرانيقوس ورفع يده وقال هذه اليد يا اسكندر هى التى كانت سببا فى نجاة حياتك ذلك اليوم فثبت الملك أصد قاؤه مما حصل له من الغضب خشية بطشه بكليطوس وأسرع كليطوس فى الخروج من قاعة المأدبة فقام الاسكندر فى الحال وقبض على حربة فى يد واحد من الخفر وقابل كليطوس عائدا الى السراى فخرق بها جسمه وقتله الا أنه من بعد قتله ذهبت السكرة وجاءت الفكرة وتندم على ما فعل وتراكمت عليه الغموم والاكدار واشتدت عليه زوابع الاحزان وصار يلوم نفسه ومن ابتداء هذا الوقت صار لا يمكن صرف هذه الاحزان عنه لا بواسطة كذب المنجمين ولا أقوال المتملقين من عساكره وقواده ولا بالسفسطائيين من الفلاسفة الذين كانوا يعلمونه ويذكرونه بالنظر فى أشغاله مع العدل وأخيرا تدارك خلاص نفسه من هذه الاحزان بكونه شرع فى سرعته المعتادة الى نحو الثغور الغربية لممالكه ومن بعد حروب شديدة أخضع الذين كانوا ثاروا عليه من البلخيين جميعا لطاعته سنة ٣٢٨ قبل الميلاد وتولد من اخضاعه برابرة آسيا الشمالية توطيد استحواذه على المملكة الفارسية وصار تحت قيادته كثير من الجيوش من أشداء المحاربين وبها يمكنه تنفيذ أغراضه فى مشروعات فتحه البلاد الهندية فترك امنطاس مع قوة قوية مرزبانا تابعا عنه فى بلخ وعبر سلسلة جبال الكوة الهندية التى هى سور الهند الشمالية بجيش مؤلف من ١٢٠٠٠٠ مقاتل

من

مطلب
محاربات اسكندر فى الممالك الهندية

من المشاة و ١٥٠٠٠ فارس واتبع فى سيره مسالك القوافل الكائنة بين فارس والهند فوصل الكفن فى سنة ٣٢٧ قبل الميلاد وهو نهر مشكل من مياه قابول مع مياه بنج شيرأو بنحشير وهذا النهر جار من الشمال الغربى وفى هذا المحل أرسل قسما من جيشه الى نواحى نهر السند لاجل نصب جسر عليه لمرور الجيش وسار هو بالباقى نحو الجهة الشرقية فاخضع القبائل الحربية التى كانت موجودة فى الجبال وكذا المدائن التى يتولد منها توقيف حركة سيره نحو الهند ومازال مجدا فى سيره فاتحا بحر وبه المدائن والسهول والاوعار حتى وصل نهر السند ونزل فيه فى مراكب جلبها له أهل البلاد والتحق بالقسم الذى كان أرسله من جيشه الى نواحى السند وقرب قربانات جليلة وعزم على الاقامة بضع شهور فى طاكسيله وهى مدينة من أعظم مدن بنجاب أى مدينة مملكة الخمسة أنهار التى مياهها تصب فى نهر السند وفى مبادى دخول اسكندر فى هذه المملكة عقد معه ملك طاكسيله محالفة على ملك آخر هندى عدوه اسمه بوروس ولما علم اسكندر بأحوال المملكة وخضع له عدة رؤساء فى بنجاب من ضمنهم واحد من أقرباء بوروس اسمه أيضا بوروس سار اسكندر نحو الهيداسب الواقع فى أقصى الجهة الغربية من الخمسة الانهار وهو ما بين طاكسيله ومملكة عدو حليفه وكان بوروس أخذ جميع المراكب من نهر السند وأدخلها فى بلاده وأما اسكندر فكان معه باعلك طاكسيله ومعه ١٠٠٠٠ من عساكر الهنود

ولما انتفخ النهر من أمطار الصيف صار عرضه نحو ميل وكان على شاطئه الآخر بوروس جامع جيشه ومعه ٣٠٠ أو ٤٠٠ من الفيلة لاجل منازعة اسكندر وصده من تعديته النهر ونزوله فى البر الشرقى فمن بعد أن بذل اسكندر مجهوده فى عمل الحيل التى كانت على غير طائل فى تعديته النهر غش عدوه أخيرا فى حركاته وذلك أنه فى أثناء شدة سقوط الامطار وكثرة الرعد والبرق وشدة الرياح عبر اسكندر النهر فى مركب مع بطليموس وبرديكاس وليسيماخوس وسلقوس ومعهم الخيالة وفرقة من الجيش فبذل الهنود أنفسهم فى الحرب وثبتوا مع قطع اليأس حتى ان الفيلة من كثرة ما أصابها من رمى النشاب والحراب ازدحمت على بعضها فى مسافة ضيقة ورمت ركابها وارتدت على أعقابها فداست العساكر المشاة تحت أقدامها وتوحش أمرها وهرب الهنود من شاطئ النهر ولما خلا الشاطئ من العدو عدت الفرق الاخرى وانضموا الى بعضهم واقتفوا أثر الفارين وتولد من ذلك هزيمة جيش بوروس فاسروا من جيش بوروس ٩٠٠٠ أسير و ٨٠ فيلا وقتل ١٢٠٠٠ نفس وكان من ضمن المقتولين كثير من أكبر قواد ورؤساء بوروس وأولاده وأما الملك بوروس فانه لما رأى هزيمة جيشه دور فيله وأراد الهرب فأخذ أسيرا فى ميدان الواقعة وجلب أمام اسكندر فسأله اسكندر فى أى شئ ترغب أن نعاملك به فأجابه بوروس بصفة ملك فسأله اسكندر ثانيا ألم يكن لك طلب آخر فأجابه حاشا كل طلب داخل فى لفظة ملك فاستغرب اسكندر من علو هذا الجواب المقنع وأعاد بوروس الى تخته وتبدلت العداوة بمحبة صادقة وصديق تابع له وزاد له فى أراضيه وبما الكهان أضاف له الاودية الخصبة المجاورة له من الجهة الشمالية ولاجل اشهار هذه النصرة أسس اسكندر بالقرب من ميدان الواقعة مدينة سماها نيخيا وأخرى جهة النهر فى المحل الذى عبر منه سماها بوسفاله على اسم حصانه وكان مات فى هذه الواقعة

وكان نهر شناآب النهر الثانى فى العرض بعد نهر الهيداسب فى مملكة بنجاب ومن ورائه قفر من الاراضى فعبره اسكندر وأرسل حفسطيون خلف بوروس قريب ملك طاكسيله وكان هرب خلف هذا النهر

وأما هوفانه تقدم الى أعلى هذا النهر مع خيالته على الكاطيانيين وكانوا تجمعوا فى نواحى سنغالة بالقرب من لاهور الآن لاجل توقيف حركة سيره وتقدمه ومن بعد أن هجم على المدينة عنوة قتل ١٧٠٠٠ نفس وأسر ٧٠٠٠ نفس وانتقم من المدينة فى جراحات عدة من ضباطه و ١٢٠٠ من رجاله بكونه هدم المدينة ودمرها ووزع أراضيها على القبائل والعشائر المجاورة لها جزاء ومكافأة على قبولهم محافظين من عساكره فى مدائنهم وكان حد أواخر هذه الحملة الهندية هو الشاطئ الغربى لنهر الحيفاسيس أونهر الغور الآن وفيه يصب نهرا السوطليج والبيه وهو أقصى الجهة الشرقية للخمسة أنهار التى يتشكل من مياهها نهر السند

ولما كلت عساكره وتعبت مما نالها من المشاق والمصاعب التى لاقتها فى أسفارها وحروبها رفضوا التقدم خطوة واحدة الى قدام وراء هذا النهر ولما رأى اسكندر أنه لايمكنه قهر عساكره على استمرارهم فى السير سلم لهم فى ذلك وشيد اثنى عشر مذبحا فخمة بالصورة المقدونية علامة على النصر والظفر ونذر هذه المذابح للآلهة واحتفل عندها بعوا كب الالعاب وتقريب القربان وأضاف كامل ما فتحه الى ممالك بوروس فصار بوروس ملك سبعة أمم وألفى مدينة ولما عاد اسكندر الى الجهة الغربية وجد أسطولا كان أمر باستعداده فى بنخيا وبوسفاله مستعدا له وهذا الاسطول جمع بعضه أهل البلاد وبعضه صار انشاؤه بواسطة أصحاب اسكندر من الارخبيلين من أخشاب الصناعة الموجودة فى الاورمانات القريبة من رأس النهر وهو مؤلف من ٢٠٠٠ سفينة وأمر اسكندر بسير ثلاث فرق من جيشه يمشون فى طول شواطئ النهر حتى يقابلهم فى نقطة أعدها لهم ونزل مع الباقى من قواه فى مراكب الاسطول فانحدر به فى النهر ولبث سبعة أشهر فى سيره فى هذا النهر ونزل فى أثنائها فى عدة مواقع مع جيشه لاجل الغارة على القبائل ولاجل ترميم وتصليح مراكبه وانشاء مراكب جديدة وأحيانا لاجل مقابلة مبعوثين وسفراء من طرف ملوك الهند يقدمون طاعتهم وعقد محالفتهم

وأعظم واقعة شديدة حصلت له كانت من الميلليانيين فطردهم من الاراضى المكشوفة وأخذ مدائنهم ثم تقهقروا الى معاقلهم الحصينة الموجودة فى الجبال فزحف اسكندر عليهم وحاصر مدينة من مدائنهم الحصينة وكان اسكندر نفسه أول من تسلق على سور تلك المدينة ولبث فوقه بضع دقائق بمفرده غرضة لسهام الاعداء من قبل أن يتمكن أحد من أتباعه من تسلق السور والحضور لمساعدته ومن كثرة ازدحام عساكره على السلالم كسروها فقفز اسكندر على حين غفلة فى وسط المهجومين وانعطف على ثلاثة فقتل رئيسهم وواحدا منهم وحمى نفسه بنفسه حتى خلصه ثلاثة من شجعان ضباطه وقتل واحد منهم وأما اسكندر فانه لما سقط فى وسط المهجومين أصابه سهم فى جهة بزه الايمن ودخل سنان الرمح فى زرخه وخرق جسمه وسال الدم فقام الضابطان الموجودان على قيد الحياة عليه حتى جاء المقدونيون بعد تسلقهم الاسوار واغتصابهم الابواب وهجموا عنوة وخلصوا ملكهم وقتلوا جميع النساء والرجال والاطفال الذين كانوا بالمدينة ونهبوا ما فيها ولما وصل الاسكندر خيمته أمر برديكاس أن يشق الجرح بسيفه ويخرج منه سنان الرمح فنزل منه دم كثير حتى ظنوا موته وما كان عند المقدونيين أدنى فكر من حياته حتى شفى من جرحه وخرج اليهم

وأنشأ اسطولا فى المدينة الكبيرة من الصغد وأسس فيها ترسانة ومن هذه المدينة سار نحو الجهة الجنوبية حتى وصل أراضى موسيكانوس العظيمة فبنى فيها قلاعا وحصونا ورتب فيها محافظين وفى

غربي هذه الاراضي استحوذ الاسكندر على خزائن وفيلة من سمبوس وهو من أكبر الرؤساء وكان هرب من مدينة ممالكه بمجرد وصول الفاتح اليها وبينما كان اسكندر مشغولا بانواع الهجوم عنوة على مدائن أوكسيكانوس وضبط مدائن أخر قامت عليه مملكة موسيكانوس فى ثورة تولدت من البراهمانيين وكانت حصلت لهم شدة الغيرة والحمية واشتعلت فى قلوبهم نيران الغضب من كون اسكندر وضع قدمه النجس ونجس أراضيهم المقدسة عندهم من الابد فشنق اسكندر كلا من الملك والبراهمانيين وتغلب على كافة الاراضى التى يسقيها نهر السند حتى سلم له أخيرا رئيس باتاله طوعا وكانت سلطنته ممتدة على الاراضى الجارى فيها عدة فروع من نهر السند تصب فى البحر فانشأ فى مدينة باتاله قلعة قوية وأمر حفسطيون بانشاء مينة بحرية ولما أخذت هذه الاشغال فى التقدم نزل الاسكندر فى الفرع الغربى من نهر السند ومن بعد أهوال وأخطار وصل الى البحر ومن بعد أن قرب قربانا للاله البحر الاوقيانوس رجع من النهر عينه الى باتاله ثم نزل فى الفرع الشرقى من نهر السند وعاد الى باتاله أيضا وأرسل نيرخوس مع الاسطول الى الخليج الفارسى وسار هو بجيشه من طريق البر الى برسبوليس والسوس وكانت طريق سيره من وسط بلوجستان أوغيدروسيا وكرمانيا وكان سيره شديدا عنيفا لم يقع له نظيره قبل وفى أثناء عبوره من صحراء غيدروسيا هلك من عسكره زيادة عمن هلك منهم فى كامل غزوته وشارك الاسكندر عساكره ورجاله فى التعب والصعوبة والخسران الذى حصل لهم وسار معهم على أقدامه وكابد كل ما تحملوه من المصاعب والاخطار ومع ما حصل له من الاتعاب والخسائر قد وصل مدينة برسبوليس بالجم الغفير من جيشه وقوة كافية ليكون له طاقة على حفظ فتوحاته ويمكنه بها فتح فتوحات جديدة وكان وصوله الى برسبوليس فى مبادى فصل الشتاء من سنة ٣٢٦ قبل الميلاد وفى السنة التالية عاد اسكندر الى السوس ورخص فيها لجيشه بالراحة عدة شهور وعكف نفسه على ترتيب مملكته وتنظيمها

وقد ذكرنا قبل أنه تزوج روكشنه بنت ملك بلخ ثم تزوج عليها اسطاطيره البنت الكبرى لدارا الثالث أولا بن دارا مؤملا انه بهذا الزواج يربط علاقات رعاياه الشرقية معه وزوج أخت دريطيس لحفسطيون ووعد بزواج نحو المائة نفس من ضباطه بنساء من الشرقيين من أصحاب البيوتات وفى هذا الوقت تزوج نحو العشرة آلاف من عساكره بنساء من اسيا وأنعم الملك عليهم بالهدايا النفيسة وصرح بدخول ٣٠٠٠٠ نفس من الفرس فى الجيش وتدريبهم على حسب النظامات العسكرية المقدونية ووظف كثيرا من مرازبة الفرس حكاما فى الاقاليم وصار ديوان اسكندر مشكلا من رجال من الاوروباويين ومن الآسيويين على تعادل واحد ومالت طبائع وعادات الملك شيأ فشيأ لعادات ملوك الشرق فى الاحكام المطلقة الاستبدادية ومن ثم تولدت من هذه التغييرات العداوة فى قلوب المقدونيين المتدربين على الحروب حتى ال بهم الامر أخيرا الى الثورات جهارا حالما صدرت من الملك أوامر بطرد بعض المقدونيين المجروحين والذين لا طاقة لهم على الاشغال فأسرع اسكندر وقبض على ثلاثة عشر من رؤساء الثورة وقتلهم ولما رأى ذلك الآخرون تضرعوا اليه بتوسلات كبيرة وأذعنوا بتبعيتهم له وانقيادهم اليه فسامحهم وعفا عنهم وأرسل عشرة آلاف من المتدربين فى الحروب الى بلادهم من طريق البحر

وما كان الاسكندر فاتحا مثل الفاتحين وما كان لقبه بالاكبر من شأن فتوحاته فقط بل كان من نواياه

تأسيس مملكة شاسعة مشتملة على معالم الدنيا المعروفة فى وقتها وما كانت رغبته ادخال هذه الممالك تحت سلطنته وحكومته فقط بل كان مقصده اصلاحها ونشر العدل فيها والانصاف فأمر أن تكون أنهار الممالك والاقاليم التى فتحها خالية من الاخطار والعوارض وقوى المشروعات التجارية وشجع قوة اجتهاد الشرقيين فى أشغالهم وترك فى كل جهة توجه اليها ومر من وسطها اللسان الجريقى وبعضا من العلوم والآداب الجريقية والمحصولات الارضية من دون أثمان وبواسطة النشر العمومى للغة الجريقية انضمت أمم الدنيا القديمة الى بعضها واتحدت اتحادا وديا قلبيا ببعضها وصار اللسان الجريقى لسان التجارة كما أنه لسان الديوان الشرقى ومن بعد قليل صار ترجمة الكتب المقدسة العبرانية الى اللسان الجريقى وأمكن الحصول عليها فى كامل الدنيا القديمة ثم بعد ذلك عزم اسكندر على مدفتوحاته فى داخل بلاد العرب ومن بعد خضوع تلك المملكة يشرع فى فتح قرطاجنه ثم ايطاليا ثم أوروبا وان تكون بابل عاصمته وكرسى سلطنته فأمر بان تنشأ فيها مينة بحيث تنتقل هيئة هذه المدينة الداخلة فى الاراضى الى هيئة مينة أصلية للشرق

وفى فصل ربيع سنة ٣٢٤ قبل الميلاد توجه من همذان الى بابل وكانت الاستعدادات اللازمة لغزو بلاد العرب جارية مع تقدم الحركة فيها وفى ظرف استعدادها أشغل اسكندر نفسه بتصليح مجرى الفرات ووزع تصميماته وآراءه على اصلاحاته وحالما كان مشغولا بداخل الاراضى المسبخة العفنة الغير الموافقة للصحة فى نواحى المستنقعات الكلدانية أصيب بحمى ظهرت عليه من بعد عوده الى بابل وفى وسط استعداداته الاخيرة لبلاد العرب وفى أثناء المأدبة التى عملت وقت سفره لتلك الجهة وفى أثناء حالة الشرب شرب الملك كثيرا من الشراب ولما فرغ من شرب آخر كاس أصابته الحمى فتجلد لها بعض أيام وأخيرا التزم فراشه وزاد عليه المرض وظهر للكل اقتراب أجله وصار فى حال نومه على فراش موته لا طاقة له على التلفظ باى كلمة فاستأذن ضباطه وقواده المحبون له فى الدخول عليه فما قدر أن يمد يده لهم بل كان ناظرا اليهم مع الصمت وهم سكارى من شدة الانين والنحيب وانصبت عليهم الاحزان ومات فى ٢٨ يونيه سنة ٣٢٣ قبل الميلاد بعد أن بلغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة فى السنة الثالثة عشرة من سلطنته

﴿ الباب التاسع ﴾

﴿ من موت الاسكندر الاكبر الى الفتح الرومانى ﴾

النتائج التى حصلت من موت الاسكندر ـ تدبير قواده ـ صيرورة فيليب ارهيدوس ملكا ـ تقسيم ممالك الاسكندر ـ ولادة ابن الاسكندر ـ منازعات خلفاء الاسكندر ـ حروبهم ـ واقعة ابسوس ـ التقسيم الاخير فى ممالك الاسكندر ـ هيئة الاحوال فى الجريس ـ اخر تغلب المقدونيين على أثينة ـ فيليب الرابع ملك مقدونيا ـ صيرورة ديمتريوس ملك مقدونيا والجريس ـ توجهه الى الحرب مع سوريا ـ ضياعه مقدونيا ـ صيرورة مقدونيا خاضعة لتراسة ـ صيرورة سلقوس ملك مملكة الاسكندر ـ بطليموس سيرونوس ملك مقدونيا ـ سلطنته الشديدة ـ كثرة ورود أهل الغلبة فى الجريس ـ صيرورة انطجنوس غوناطوس ملك مقدونيا ـ الحروب مع برهوس موت برهوس ـ صيرورة انطجنوس ملك الجريس ـ الاتحاد الاخائى ـ عتق البلوبونيزيين من

مقدونيا

مقدونيا حسب نص الاتحاد ـ استخلاف ديمتريوس الثانى بواسطة فيليب الخامس ـ خيبة مساعيه فى احياء شوكة اسبرطة ـ اجراء فيليب الحرب على العطوليانيين ـ محالفته مع قرطاجنه ـ هجومه على الممالك الرومانية ـ هزيمته وارغامه على عقد الصلح ـ تجديده الحرب ثانيا ـ هزيمته وارغامه على القهقرة الى مقدونيا ـ الاتحاد الاخايانى والعطوليانى ـ صيرورة العطوليانيين رعية لرومة ـ هوان فيليب ـ موته ـ صيرورة برصيوص ملك مقدونيا ـ اعلان رومة بالحرب على مقدونيا ـ هزيمة برصيوص وأخذه أسيرا ـ فتح الرومانيين الجريس

هدد موت الاسكندر على حين غفلة مملكته الشاسعة بالتمزيق اذ أنه لم يعين خليفته بنفسه من بعده وفى يوم موته انعقد مجلس من قواده لاجل فصل الحكم والاقرار على الطريق الموافق للسير فيه على محور الاستقامة وكان الاسكندر أعطى خاتمه الى برديكاس وهو على فراش موته فكان لهذا القائد رياسة المجلس فى المحاورات والمجادلات التى حصلت فيه وكانت روكشنه زوجة اسكندر حاملا منه وقت موته فاتفق كامل المجلس على أنها ان ولدت ولدا فهو الوارث لتخت أبيه وتاجه ومن بعد أن حصلت محاورات شديدة فى المجلس حصل الاتفاق على اصلاح وترتيب حسبما هو آت وذلك أنه يجب أن يكون فيليب ارهيدوس أخو اسكندر الاكبر لابيه ملكا حافظا الطفل روكشنه حقوق السلطنة فان كان المولود ذكرا ضمت اليه السلطنة وكان فيليب هذا شابا ضعيف العقل والادراك وأن تقسم حكومة مقدونيا والجريس بين انطباطير وكراطيروس وان بطليموس المشهور بكونه متصلا بالعائلة الملوكية يتولى حكم مصر وماجاورها من الممالك ويتولى انطجنوس فريجيا الاصلية وليشيا وپفيليا ويتولى ليوناطوس هلسپونطين فريجيا وأن يكون أومينوس مرزبانا فى بغلاغونيا وقبدوسيا وان كان هذان الاقليمان لم يزالا تحت الخضوع وتعهد تراسة الى ليصيماخوس وتعهد الى برديكاس قيادة الحرس السوارى وهذه الوظيفة كانت معهودة من قبل الى حفسطيون قبل موته وقد مات قبل الاسكندر فى بابل ومن ثم صار برديكاس وصى فيليب وصاحب حرسه وكان فيليب ملكا بالاسم فقط ولما تم تنظيم هذه المواد والاتفاق عليها أجريت شعائر الاحتفال بجثة الاسكندر وأرسلت الى سوريا ومنها نقلت الى الاسكندرية فى مصر وفيها وضع فى قبر مفتخر شيده له بطليموس الاول وقبره هو المعروف الآن فى الاسكندرية باسم النبى دانيال ولما كملت شهور حمل روكشنه وضعت ولدا ذكرا سموه الاسكندر على اسم أبيه وأعلنوا بملوكيته فى المملكة وكان برديكاس هو الحاكم الحقيقى فى المملكة لحفظها مع غاية الاتحاد والصداقة التامة لعائلة الاسكندر مدة سنتين وتعين أربعة نواب أوصياء فى المملكة اثنان فى آسيا واثنان فى أوروبا ثم ان برديكاس قتل شريكه الموجود معه فى آسيا وصار هو الحاكم المفرد فيها وأما انطباطير وكراطيروس فكانا فى حكومة واحدة فى غرب الهلسبون ومع هذا فكان من الواضح والبين أن هؤلاء الرؤساء المختلفون الذين صار تعيينهم فى الاقاليم لاجل البحث على الطرق التى يؤل منها ضبط الممالك التى تعينوا فيها لانفسهم ولم يمض على ذلك مدة طويلة حتى فازوا بما كان فى نواياهم من الاغراض والمشروع ولما رأى برديكاس أنه يستحيل عليه حفظ المملكة وتاجها لولد الاسكندر عزم على ضبط التاج لنفسه فصده عن ذلك انطجنوس وبطليموس وكانا أكبر حكام الاقاليم وأجلهم وكان قصد أنطجنوس من صده برديكاس التغلب على شئ يأخذه لنفسه وأما بطليموس فكان

قصده جعل مملكته مستقلة وقتل برديكاس مذبوحا بثورة قامت عليه فى عساكره مدة حربه مع بطليموس وهلك كراطيروس فى واقعة مع أومنيس حصلت بينهما فى نواحى قبدوسيا ومن ثم صار انطباطير منفردا فى النيابة وأسكت الشابة عيوروديس زوجة الملك الهزؤ فيليب ارهيدبوس فطلب فيليب أن يكون له نصيب فى الحكومة وتسبب فى اعمال قسمة جديدة فى الممالك سنة ٣٢٠ قبل الميلاد وصار انطجنوس غير معتمد أو غير صادق فى الحرب على أومنيس وأقام نفسه أستاذا على القسم الاعظم من آسيا الصغرى تحت علة تعضيده ومساعدته الحكومة

وفى سنة ٣١٩ قبل الميلاد مات انطباطير فى مقدونيا وبدل أن يترك النيابة لابنه كاسندر جعل صديقه بولسبرخون خليفة من بعده فانضم كاسندر فى الحال الى انطجنوس وكان مشتغلا بالحرب على أومنيس فصار أومنيس وبولسبرخون هما الشخصان المنفردان فى الطرق اللازمة لحفظ كامل المملكة وكانت هذه رغبتهما وأما كاسندر وانطجنوس وبطليموس فكانت عين رغبتهم دمارها وخرابها وقلبها لاجل توسيع ما تحت أيديهم من الممالك والاقاليم وهزم انطجنوس أسطولا ماوكيا بالقرب من بيزانطيوم وطرد أومنيس خلف نهر الدجلة فالتحق به كثير من مرازبة الشرق ومع ما كان فيه أومنيس من كثرة القوة قد انهزم وقبض عساكره عليه وسلموه الى انطجنوس فقتله فى سنة ٣١٦ قبل الميلاد وفى نفس هذه السنة أمرت أولمبياس أم الاسكندر الاكبر بقتل فيليب ارهيدبوس وزوجته ولم تمض مدة حتى وقعت هى نفسها فى خرابيش كاسندر من بعد أن صار ملك مقدونيا والجريس وقتلت ووطد كاسندر نفسه وقواها بتزوجه تسالونيقه أخت اسكندر من أبيه وبنى على اسمها تشريفا لها مدينة تسالونيقه أو مدينة سلانيك الآن

وصار من الجلى الواضح أن انطجنوس لم يكن فى شئ من البحث سوى سلطنته على الشرق بأجمعه وبسيره فى هذا المعرض طرد سلقوس من بابل فهرب سلقوس الى مصر ملتجئا الى بطليموس فتشكل جمع جديد على انطجنوس مركب من بطليموس وسلقوس وكاسندر وليسماخوس واشتعل الحرب بينهم مدة أربع سنوات حتى عجز جميع الاحزاب وعقدوا اصلاحا فى سنة ٣١١ قبل الميلاد تقرر فيه حرية المدائن الجريقية وأحكام كاسندر فى أوروبا حتى يبلغ الاسكندر بن الاسكندر الاكبر العمر الموافق وكان عمره حين ذاك ست عشرة سنة وتسقر بطليموس فى مصر وليسماخوس فى تراسة ولم تمض مدة من بعد تمام هذه المحالفة حتى أمر كاسندر بقتل روكشنه وابنها اسكندر فى السر والخفية

وكان سلقوس أعاد لنفسه بابل فجعل نفسه أيضا أستاذ ميديا والسوس وفارس الا انه ما كان داخلا فى شروط الصلح واتحد سلقوس مع محالفيه ورعيته حتى صار عنده قوة كافية لضبط فتوحاته ثم ان بطليموس فسخ شروط الصلح فى سنة ٣١٠ قبل الميلاد من أجل تضرره من انطجنوس حيث لم يعط المدائن الجريقية حريتها حسب نص شروط الصلح وكذا تضرر انطجنوس من كاسندر حيث لم يزل مبقيا محافظيه فى المدائن الاوروباوية الجريسية ومن ثم تولد الحرب بينهم فحاز بطليموس أجل نصرة وأعظم شهرة فى الابتداء فى نواحى سيليسيا الا أن ديمتريوس بن انطجنوس صده صدا كبيرا فحول أعماله العسكرية الى الجهة المقابلة من بحر الارخبيل واستحوذ على صكيون وقورنثه ورغب فى توطيد نفسه بزواجه كليوبطره أخت اسكندر وهى آخر الموجودين على قيد الحياة من البيت الملوكى المقدونى الا أن كاسندر حرمه من هذا الزواج بكونه أمر بقتل كليوبطره فى سنة ٣٠٨ قبل الميلاد ثم وصل

ديمتريوس باسطول كبير لمساعدة أثينة وما مكث فيها زمنا طويلا حتى دعى فى سنة ٣٠٦ قبل الميلاد لحصار قبرص وكان بطليموس تغلب عليها فأسرع بطليموس لخلاص الجزيرة ومعه ١٤٠ سفينة حربية و ١٠٠٠٠ عسكرى وجرت واقعة بحرية بينهما مهولة على مسافة من سلميس وكانت هذه الواقعة احدى الوقائع المشهورة فى تاريخ العالم انهزم فيها بطليموس شر هزيمة وخسر كامل أسطوله الا ثمانية من السفن و ١٧٠٠٠ عسكرى برية وبحرية فرأى انطجنوس أن هذه النصرة من أجل المظفرات حتى انه لقب نفسه بلقب ملك وتبعه على شاكلته بطليموس وكاسندر وليصيماخوس وسلقوس

ثم ان ديمتريوس شرع فى حصار جزيرة رودس وباشر هذا الحصار مع النباهة والشدة الا أنه من بعد أن مرت عليه سنة من اجتهاده على غير طائل فى التغلب على المدينة التزم على رفع الحصار والقهقرى ولم تتداخل رودس بعدها فيما بقى من الحرب وفى غضون هذه السنة ظفر كاسندر فى مساعيه بجلب الجريس تحت سلطنته فأخذ قورنته وفى أثناء محاصرته أثينة وصل ديمتريوس الى عوريبوس لمساعدة أثينة فأسرع كاسندر ورفع الحصار عنها وسار قاصدا ديمتريوس فهزمه ديمتريوس فى واقعة بالقرب من ترموبيلى ودخل ديمتريوس أثينة فقابلوه فيها مع الفرح والاجلال ولبث ديمتريوس فى الجريس سنتين أو ثلاثة وفى أثناء هذه المدة صار لا طاقة لكاسندر على اجراء حركة من حركاته ثم دعى ديمتريوس فى فصل ربيع سنة ٣٠١ قبل الميلاد لمساعدة أبيه وكانت هددته القوى المتحدة من جهة ليصيماخوس وسلقوس فحصلت واقعة شديدة فاصلة لهذه الحروب فى نواحى ابصوص من أعمال فريجيا وتشتت فيها عساكر انطجنوس وقتل هو فى ميدان المعركة وما بقى من آثار جيشه وصل تحت قيادة ابنه ديمتريوس الى أفسوس وأقلع من مينتها الى قبرص ثم طلب من بعد هذه التوجه الى أثينة فرفض الاثينيون قبوله عندهم وقسم المتغلبون فى ابصوص آسيا بينهم فخص بطليموس فلسطين وفينيقيا وقسم من سوريا الجنوبية ورخص له بان يضع محافظيه فى هذه الاقاليم ويمسكها وأما ليصيماخوس فانه خصه القسم الاعظم من اسيا الصغرى مضافا الى مملكة تراسة وأخذ سلقوس جميع آسيا الغربية من ساحل سوريا الى الفرات وكانت غير داخلة فى قسم ليصيماخوس ولا فى قسم بطليموس وأما كاسندر فانه لم يحصل له تكدير فى مقدونيا بل استمر حاكما على هذه المملكة حتى وافاه الموت

وكانت الجريس لم تزل فى هذه المدة باقية فى حوزة الحكومة المقدونية وبمجرد موت الاسكندر عصى معظم الممالك على مقدونيا تحت رياسة أثينة فاجتهد انطباطير النائب فى اخماد هذه الثورة الا أنه انهزم وانحصر فى مدينة لاميا من أعمال تساليا فوجه أفكاره الى سياسة أخرى وهى كسر هذا الاتحاد بطريق بحيث يعامل كل عضو من أعضائه على حدته ويمنح كل منهم بشروط لينة موافقة ماعدا الرؤساء وعاقب أثينة أشد العقاب ونفى من أهلها اثنى عشر ألفا الى جهات تراسة والبريا وايطاليا وافريقة وما بقى من أهلها انقادمع الرغبة الى الحكومة المقدونية وقطعت رأس ديموسطنيس مع قواد آخر من حزبه ولم يترك لاثينة أثر من الاستقلال وكان ذلك فى سنة ٣٢١ قبل الميلاد

ومات كاسندر فى سنة ٢٩٨ قبل الميلاد من بعد واقعة ابصوص بثلاث سنوات فخلفه ابنه الاكبر فيليب الرابع ومات هذا فى السنة المذكورة فقسمت تسالونيقه زوجة كاسندر مملكة مقدونيا بين الباقيين على قيد الحياة من أولادها وهما انطباطير واسكندر فاشتاق انطباطير وتلهف على كونه

بحكم المملكة بتمامها فقتل أمه ودعا حماه ليسيماخوس ملك تراسة الى مقدونيا للمساعدة له فى تغلبه
على كامل المملكة وأما أخوه اسكندر فانه طلب مساعدة ديمتريوس وكان ملك أثينة والقسم الاعظم من
الجريس وكذا مساعدة برهوس ملك ابروس فقتل المخالفون الاخوين وصار ديمتريوس ملك مقدونيا
والجريس فى سنة ٢٩٤ قبل الميلاد وكان اسكندر تنازل عن عدة من الاقاليم الغربية الى برهوس
فشرع ديمتريوس فى ارجاعها فهزمه برهوس ثم ان ديمتريوس غزا آسيا فى رأس جيش كثيف فى نحو
سنة ٢٨٨ قبل الميلاد قاصدا بذلك استرداد ممالك أبيه انطيغنوس وبمجرد وصول خبر هذه الغزوة
الى مسامع سلقوس وليسيماخوس حرضا برهوس على الهجوم على مقدونيا من الجهة الغربية
وليسيماخوس يهجم عليها من جهة تراسة فتولد من اتحاد هذا الهجوم الزام ديمتريوس على التنازل
عن الحكومة المقدونية فى سنة ٢٨٧ قبل الميلاد ومن بعد مضى مدة أسر فى غزوة فى آسيا كان
أجراها ضد سلقوس فاستمر فى الاسر حتى وافاه الموت من بعد مضى ثلاث سنوات فتنازع كل من
برهوس وليسيماخوس فى قسمة مقدونيا بينهما فطرده ليسيماخوس منها الى بلاده وصارت مقدونيا
قسما من المملكة التراسية ومن بعد مضى خمس سنوات قام الاشراف فى ثورة على ليسيماخوس
وقدموا تاج المملكة الى سلقوس فهزم سلقوس ليسيماخوس وقتله فى واقعة حصلت بينهما فى نواحى
كوروبيديوم واستحوذ على كامل مملكته ومن ثم صار سلقوس حاكما على جميع مملكة اسكندر الواسعة
ماعدا مصر ومن بعد مضى بضع أسابيع ذبحه بطليموس ثيرونوس الابن المحروم من وراثة بطليموس
الاول وكان التجأ فى ديوانه وضبط بطليموس ثيرونوس التاج المقدونى فكانت سلطنته القصيرة من
أخبث الخبائث وأكبر الجرائم وذلك أنه تزوج باخته وكانت غير شقيقته المسماة أرصينوى أرملة
ليسيماخوس وقتل أولادها أمام عينيها ثم نفاها الى صاموطراس فهربت منها الى مصر وتزوجت
بأخيها بطليموس الثانى ثم انخمدت سلطنة بطليموس ثيرونوس على حين غفلة بغارة سقطت عليها فجأة
من الغلية وكان ظهورهم فى داخل مقدونيا فى سنة ٢٨٠ قبل الميلاد وقتل ثيرونوس وقت اجتهاده
فى مقاومتهم وخربوا مملكته فى طولها والعرض ودخل الغليون فى السنة التالية فى تساليا بالقوة عنوة
وعبروا فى داخل الجريس الوسطى فقاومهم الجريقيون مع الثبات والشدة وصدوا اغاراتهم ومنعوهم
التغلب على دلفى وهم ساعون فى أخذها فانقسموا الى مناسر سلابة نهابة وتولد مما حصل لهم من
المصائب والخسارات فيما أجروه من الغارات دمار القسم الاعظم منهم والذين بقوا على قيد الحياة سكن
بعضهم فى اقليم الدانوب وأسس بعضهم مملكة فى تراسة وانتقل آخرون الى آسيا ولقبوا الارض التى
سكنوها باسم غلطه ثم آل أمر مقدونيا الى حالة فوضوية فى الاحكام من بعد موت بطليموس ثيرونوس
وتنازع فى التاج عدة مطالبين ومدعين فيه وفى سنة ٢٧٨ قبل الميلاد دخل انطيغنوس غوناطوس
ابن ديمتريوس وكان مستحوذا على مملكة الجريس الجنوبية والوسطى فى مقدونيا فى رأس جيش من
مستأجرى الغلية وجعل نفسه ملكا عليها ثم ان انطيخوس سوطير ملك سوريا بذل جهده فى طرده منها
ولما لم يمكنه اعترف له بملك مقدونيا وزوجه بأخته وما كان خضوع المقدونيين والجريقيين عن
رغبة منهم الى انطيغنوس فانه بمجرد اغارة برهوس على مقدونيا فى سنة ٢٧٣ قبل الميلاد سمع
الجيش المقدونى فى نفسه بالهزيمة مرتين لملك بروت فهرب انطيغنوس وصار برهوس أقوى فاتح
وأعظم حاكم فى عصره واجتهد فى ربط وثبات فتوحاته من دون أن يسعى فى فتوحات غيرها ووطد

مملكته

مملكته الواسعة الذى صار أستاذا عليها فى الحالة الراهنة ومن بعد هذا بقليل داخله الطمع المزعزع للراحة حتى ساقه الى العزم على فتح الجريس الجنوبية فصدى فى هجومه على اسبرطة وقتل فى ليلة هجوم كان أجراه على ارغوس وكان قتله من حجر سقط على رأسه رمته عليه امرأة ار جيفية من فوق سطح بيتها سنة ٢٧١ قبل الميلاد

فرجع انطجنوس واستلم تخته فى مقدونيا وحكم اثنين وثلاثين سنة وزيادة وجعل نفسه ملكا على كامل بلوبونيزه تقريبا ورتب فى أحكامها طغاة نائبين عنه فى مدائنها المختلفة وحاصر أثينة بمساعدته باسطول مصرى وجيش اسبرطى فقاومته ست سنوات ثم اضمحلت حالة الاثينيين جدا حتى أخذت مدينتهم فى نحو سنة ٢٦٣ قبل الميلاد وفى أثناء حصار أثينة التزم انطجنوس على العود الى مقدونيا لمقابلة غارة اسكندر بن برهوس وكان نال عدة مظفرات حتى اعترف له بكونه ملك مقدونيا ثم ان ديمتريوس بن انطجنوس طرد اسكندر على أعقابه الى ابيروس الا انه ما صار فيه طاقة على أخذ مملكة ابيروس منه والتزم على ارجاعها الا أن اسكندر قوى نفسه وحفظ مملكته فى المستقبل وفى سنة ٢٤٢ قبل الميلاد تغلب انطجنوس على قورنثه وصار ملكا على عموم الجريس ماعدا اسبرطة

وفى هذه الحالة قامت شوكة جديدة فى الجريس وهى الاتحاد الاخايانى أو اتحاد مدائن اخايا وكان انعدم هذا الاتحاد مع تلك المدائن بسبب ما وقع عليهما من الكبس الذى حصل لهما من خلفاء اسكندر الاكبر فاستحيا هذا الاتحاد فى سنة ٢٥١ قبل الميلاد بواسطة أرطوس صاحب صكيون وذلك انه ضبط مدينته الاصلية وأضافها الى الاتحاد وفى سنة ٢٥٤ قبل الميلاد صار انتخاب أرطوس المذكور قائد الاتحاد وفى سنة ٢٤٣ قبل الميلاد تغلب على قورنثه وأخذها من المقدونيين وأضافها الى الاتحاد وكان المقصد من هذا الاتحاد عتق الجريس من الحكم المقدونى وعودة استقلالية ممالكها وبواسطة مساعيه واجتهاده تيسر الحصول على هذا الاتحاد بسرعة فضم جميع ممالك بلوبونيزه ماعدا اسبرطة وعليس وبعضا من المدائن الاركادية ولما طعن انطجنوس فى السن وصار لا طاقة له على الغارة بالهجوم على الاتحاد الاخايانى حض العيطوليانيين فى مقابلة هذا الفعل على الغارة والهجوم على الاتحاد ومات فى سنة ٢٣٩ قبل الميلاد وخلفه ابنه ديمتريوس الثانى

وعقد ديمتريوس محالفة مع ابيروس فتولد منها ابتعاد العيطوليانيين عنه بسبب عداوتهم لهذه المملكة وضموا اقواهم الى قوى الاتحاد الاخايانى على مقدونيا ومع ان ديمتريوس نجح فى طرد الحريق المتحالفين من تساليا ومن بيوطية الا أنه ضيع بلوبونيزه ولما شرع العيطوليانيون فى تعديات عديدة على أكرنانية دخلت رومة فى الاعمال الجريسية وكان ذلك مبادى دخولها فارغمت العيطوليانيين على خلوص نيتهم لاكرنانية واحترام أحوالها وفى سنة ٢٢٨ قبل الميلاد تيسر الحصول للرومانيين على وضع رجلهم فى الجريس بكونهم تغلبوا على جزيرة قورصيره وابلونيا وابيدامنوس ومات ديمتريوس الثانى فى سنة ٢٢٧ قبل الميلاد تاركا تاجه لابنه فيليب الخامس وكان طفلا عمره ثمان سنوات فتولى النيابة عن المملكة عنه انطجنوس دوسون شخص من أقارب هذا الملك الصغير

وفى ذلك كانت اسبرطة مستمرة على استقلالها الا أنها فقدت شوكتها وعظمتها الاولى فاجتهد اغيس الرابع وكان جلس على التخت فى سنة ٢٤٤ قبل الميلاد فى أن يعيد لبلاده ومملكته شوكتها ومجدها القديم بواسطة احياء وتجديد شرائع ليكورغس الا أنه فقد حياته فى هذا المشروع فشرع كليومنس

خليفته فى نشر قوانين وشرائع ليكورغه من بعد مضى بضع سنين ومن ثم شدت اسبرطة حبلها وصار لها طاقة على ايقاع هزيمة أخرى على قوى الاتحاد الاخايانى وتفصل منه المدائن الكبيرة الاخايانية من جهات بلوبونيزه وتجعلها حليفة لها فسعى أرطوس قائد الاتحاد سعيا كبيرا حتى دعا لمساعدته انطجنوس دوسون نائب مقدونيا ومن ثم استعمل شوكة الاتحاد الذى كان شكله فى استرداد حرية الجريس لاجل كمال استرقاقها وصارت اسبرطة لا طاقة لها على الرياسة ضد هذا الجمع وفى سنة ٢٢١ قبل الميلاد انهزم كليومنس فى واقعة حصلت فى صلاسيا وانجبر على الهرب الى مصر عند بطليموس الرابع وصار من الجلى الواضح الآن حصول الخيبة فى السعى فى احياء شوكة اسبرطة وأن تكون الجريس هدية عظيمة اما لمقدونيا واما لرومه

وفى سنة ٢٢٠ قبل الميلاد مات النائب انطجنوس وبلغ عمر الشاب فيليب الخامس الى سبع عشرة سنة فتقلد زمام حكومته وسلطنته ومع ما أجراه النائب انطجنوس من عظيم التدبير والاحتراس السياسى وجعله لمقدونيا مزايا جليلة حاد فيليب عن الطريق التى كان سائرا فيها نائبه وابتدأ فى سلطنته بحرب على العيطوليانيين وكانوا يظنون أن جلوس مثل هذا الشاب على التخت يجعل لهم طاقة وقدرة من أجل تقدم منافعهم على مصاريف أعدائهم وأغاروا على مسينه فتوجه أرطوس لمساعدة مسينه مع الجيش الاخايانى فانهزم وتبدد شمله وتوسل الاخائيون بمساعدة فيليب فاسرع فى مجاوبتهم وهزم العيطوليانيين فى عدة وقائع انتشبت بينهم وحصل له مظفرات كثيرة فى الجريس حتى تيسر له الحصول على اخضاع تلك المملكة لطاعته الا أنه من بعد مضى عدة من السنين مكللة بنصره ونجاحه عقد بغتة صلحا مع العيطوليانيين فى سنة ٢١٧ قبل الميلاد ووجه عزمه الى جهة أخرى فوصل فى تدبيره وفكره الى أكبر تصميم صمم عليه وهو طرد الرومانيين من الساحل الشرقى من البحر الادرياطيقى والتغلب على ايطاليا وظهر له أيضا من النصرة التى حصلت لحنبال قائد قرطاجنه على الرومانيين فى نواحى بحيرة طراسيمنى نزول شوكة الجمهورية الى أسفل نقطة من الحضيض وانه لو اشترك مع القرطاجنيين لأمكنه توطيد ما عزم عليه من التصميمات والآراء وعلى هذا ابتدأ فى سنة ٢١٦ قبل الميلاد فى المخابرة مع حنبال فى شأن ما هو عازم عليه فقبض الرومانيون على رسله فى الطريق لكنه فى السنة التالية تمت المخابرة بينهما على خير وعقدت محالفة بين قرطاجنه ومقدونيا وفى سنة ٢١٤ قبل الميلاد ابتدأ فيليب فى مشروعه الطويل وهو اشتباكه فى الحرب مع رومة بكونه وضع الحصار على ابلونيا أعظم مينة بحرية رومانية فى البرقوم وتغلب على أوريكوم ومع هذا ظهر له ان ما خطر بباله من ضعف قوة رومة كان على غير حساب وصار خلاص ابلونيا من حصارها بواسطة فاليروس ليونوس فهجم على المعسكر المقدونى والزم فيليب بحرق السفن التى كانت موجودة عنده وضرب فيليب ضربة قوية أسرع منها فى القهقرة وحالما كان فيليب متعلقا بمشروعه ضد رومة قام عليه الجريق ونابذوه بالعداوة بما حصل لهم من استبداد أحكامه وقباحة معاملته لهم فتجاسر ارطوس على نصحه له فأمر فيليب بسمه ومات فى سنة ٢١٣ قبل الميلاد

وفى سنة ٢١١ قبل الميلاد لما زالت النوازل والمصائب عن الرومانيين فى نواحى ايطاليا عقدوا معاهدة مع العيطوليانيين والعلينيين والاسبرطيين والالبريانيين وكذا مع عطالوس ملك برجاموس وأشعلوا نار الحرب فى ممالك فيليب وضيقوا عليه حتى صار لا طاقة له أن يرسل الى حنبال من أجل

مساعدته

مساعدته فالتزم أن يطلب مساعدة من نفس قرطاجنة وتغلب الرومانيون على ظاكيوطوس ونصوص وعناديه وانطيصرا فى لوكريس وجزيرة ايجينه وأعادوا كل ذلك الى العيطوليانيين ومرت السنتان الاوليان من الحرب فى مظفرات مختلفة وفى سنة ٢٠٩ قبل الميلاد وضع فيلوبمين القائد الاخايانى عدة تنظيمات قوية بين الاخايانيين ووعدهم باحياء المجد القديم الذى كان عليه الجريس من قبل فجعل لهم طاقة وقدرة على اكتسابهم النصرة الجليلة التى حصلت فى أمنطينه فى سنة ٢٠٧ قبل الميلاد على اللاسيديمونيين محالفى رومة وتولد من هذه النصرة أن صار فيليب فى موقع ألزمه على كتابة شروط معاهدة مع العيطوليانيين وعقد صلح معهم على حدته فعزم الرومانيون أن يبذلوا جهدهم ونفوذهم وقوتهم فى دمار قرطاجنه ورضوا بعقد معاهدة سلمية مع مقدونيا متلائمة الشروط بين الطرفين فى سنة ٢٠٥ قبل الميلاد واستقبل الجريق فيلوبمين مع الترحاب والاجلال كأنه هو المخلص لبلادهم مما كان حاصلا فيها من الآفات والبليات

ثم ان طمع فيليب وطيش عقله لم يسمح له فى انتهاز الفرصة فى وقت المهلة التى حصلت عنده فى أثناء هذه المعاهدة وذلك أنه بدل أن يوطد ويقرر قواعد شوكته فى مقدونيا والجريس ويستعد لآخر حرب مع رومة ابتدأ فى اجراء مشروعات عظيمة أوقعته فى الخراب والدمار وذلك أنه عقد محالفة فى سنة ٢٠٥ قبل الميلاد مع انطيخوس ملك سوريا بشأن تقسيم الممالك المصرية مؤملا فى ذلك استحصاله على رئاسة وقسم من اسيا الصغرى فأوقعه هذا المشروع فى حرب مع رودس وبرجاموس سنة ٢٠٣ قبل الميلاد ودخلا فى أمر مصر لاجل المحافظة على أنفسهم واتخذا ذلك الدخول وسيلة لهما وفى سنة ٢٠١ قبل الميلاد انهزم الاسطول المقدونى اشاعة بواسطة أسطول المحالفين على مسافة من خيوس ثم جاءه عقب ذلك أن فيليب اكتسب النصرة على لادى وجعل نفسه ملكا على طاسوس وساموس وخيوس فى كارية وعدة جهات فى يونان آسيا ومن ثم حصل له النجاح الكلى فى الحرب وكان نجاحه هذا أكبر من معاداته كسبه العداوة الشديدة لدولتين بحريتين وكراهة العيطوليانيين له وعدم خلوص طويتهم من جهته وتولد من أعماله الشديدة هذه تجديد الحرب عليه مع رومة وكانت برجاموس محالفة لرومة ودخلت فى المعاهدة المدنية للصلح وفى سنة ٢٠٠ قبل الميلاد أنذرت رومة فيليب بنكثه محالفتها الا أن فيليب لم يكترث بهذا الانذار ولا بالى به وفى نفس هذه السنة لما خلصت رومة من الحرب القرطاجنى الثانى وصارت خالصة لمقدونيا صار اعلانها بالحرب

وفى مدة اعلان الحرب من رومة على مقدونيا كان فيليب مشتغلا بحصار أثينة وعند وصول أسطول رومانى من أجل خلاص أثينة التزم فيليب على الانسحاب الا انه قبل انسحابه شرع بنفسه فى تخريب البساتين والمبانى التى كانت موجودة فى ضواحى المدينة بما فيها الليصيوم وقبور شجعان أطيقة وعاد على الفور مقويا فى نفسه بما أجراه من الفظائع والقبائح فتجزأت الجريس فمن بعض الممالك من ساعد رومة وعاضدها ومنهم من عاضد مقدونيا ومنهم من بقى على الحيادة وتولد مما حصل من ذلك عدم اكتساب فائدة فاصلة بين المتحاربين لكن فى سنة ١٩٨ قبل الميلاد نجح القنصل كنقطيوس فلامننوس فى تحريض الاتحاد الاخايانى على اللحاق بمعاهدة رومة والانضمام اليها وكان العيطوليانيين دخلوا فيها من قبل وفى نفس هذا الوقت أذاع فلامننوس اندحى الممالك الجريقية المستقلة المفصولة عن بعضها فانضم اليه تقريبا كل مملكة جريسية وفى سنة ١٩٧ قبل الميلاد

لنهزم الجيش المقدونى هزيمة فاصلة فى صنوصفالى بالقرب من صكوطاسا من تساليا وانحطت شوكة فيليب انحطاطا كليا وصارت مملكته مهددة من جهة البر بواسطة الجيش المتحد من الرومانيين والبريانيين والدردانيانيين ومن جهة البحر باساطيل رومة وبرجاموس ورودس فالتزم على الدخول فى الصلح وفى سنة ١٩٦ قبل الميلاد عقد معاهدة تنازل فيها عن جميع أملاكه فى الجريس وسحب محافظيه من المدائن الجريقية وسلم أسطوله الى الرومانيين ودفع غرامة حربية الى رومة قدرها ألف وزنة أى ٣٠٠٠٠٠ استرلينه ثم ان فلامننوس وعدوعدا جميلا بعود الحرية الجريسية فما جاءت سنة ١٩٤ قبل الميلاد حتى ان كامل الجيوش الرومانية انسحبت من الجيث جزيرة وفرض الرومانيون فى الاحكام النهائية للاعمال الجريسية للممالك الصغيرة حدودا أزيد مما كانت مستحوذة عليها فى الاصل وتركت الاتحاد الاخايانى والاتحاد العيطوليانى لصد بعضهما بعضا ورضى معظم الممالك بالاصلاحات الجديدة الضامنة للاستقلال والحرية كل منها على حدته ومع ذلك لم يكتف العيطوليانيون بذلك بل اجتهدوا فى عطف مقدونيا واسبرطة وسوريا الاجل مساعدتهم على فصل الحالة الاخيرة فخاطر انطيخوس ملك سوريا بمفرده مجيبا لطلبهم ودخل الجريس فى رأس جيش قليل من أجل الشغل الذى شرع فى انجازه فهزمه الرومانيون فى ترموبيلى فى سنة ١٩١ قبل الميلاد فترك العيطوليانيون فى الحرب لا مساعد ولا معاضد لهم وفى السنة التالية هزموا شر هزيمة فى واقعة حصلت فى مغنسيا وأرغموا على الانقياد لرومة من غير شروط فحرمتهم رومة من أراضيهم وجعلتهم رعية حليفة لها

ثم تولد من ذل واهانة العيطوليانيين جسامة الاتحاد الاخايانى وكان معضدا فى الشوكة والاجلال من طرف رومة وظهر عليه التقدم بارشاد الشهم البطل فيلوبين صاحب السير المستقيم وفى سنة ١٩٢ قبل الميلاد التحقت اسبرطة بالاتحاد وفى السنة التالية التحق به عليط ومسينة اللتان كانتا على انفراد منه وهما آخر الممالك البلوبونيزية ودخل فى أثناء هذا كامل بلوبونيزه ومغارة ونواح أخر من وراء الحدود الجنوبية الجريسية

وأما فيليب فانه استمر فى الصلح من عهد هزيمته فى صنوصفالى ماعدا مساعدة رومة على أنطيخوس ملك سوريا وعطوليا ولما نظرت رومة له فى هذه المسئلة سمحت له أن يمد مملكته على قسم من تراسة وقسم من تساليا ومع هذا فان الرومانيين لما وجدوا أنه لا حاجة لمساعدته أمروه بتسليم كافة أملاكه ماعدا مقدونيا الاصلية وفى المخابرات التى جاءت عقب ذلك وكانت جارية بواسطة ديمتريوس الابن الثانى لفيليب بما أنه كان مقيما نزيلا فى رومة من مدة طويلة حصل الرضا من مجلس السناتو على الطلبات التى كان أبوه طلبها منفعة لذاته وراعى المجلس فى ذلك صداقة نزيلهم البرنس الشاب فتولد من ذلك كراهة برصوص الابن الاكبر لفيليب لاخيه وأكمن له الخيانة والغدر فزور عليه مكاتيب اتهمه فيها بسوء مداخلاته فى رومة ضد أبيه حتى ان فيليب أمر فى الحال بقتل ديمتريوس ولما انكشفت له الحقائق من كراهة أخيه له أراد اعادة أمره الا أنه قضى الامر فيه فحاق بفيليب الاسف ونزلت عليه آفات الاكدار والمصائب فى سرعة أمره بقتل ابنه ومازال فى أكداره وأحزانه حتى وافاه حمامه ومات من بعد مضى سنتين أى فى سنة ١٧٩ قبل الميلاد وكذلك مات فيلوبين رئيس الاتحاد الاخايانى وكان حصل القبض عليه سنة ١٨٣ قبل الميلاد عند سعيه فى اخماد ثورة المسينيين على حكومة

الاتحاد وقتله الذين أسروه

وكان من عزم فيليب أن يوصي بالتاج لواحد من أقاربه البعيدين عنه في القرابة اسمه انطجنوس عقابا لبرصوص بما تسبب فيه من قتل أخيه الا أن انطجنوس كان غائبا من الديوان وقت موت فيليب فجلس برصوص على التخت من دون معارضة ولا مقابلة من عدو وما انقضت السنون الاخيرة لفيليب في الاستعدادات اللازمة لتجديد الحرب مع رومة وكان فيليب رأى أن الحرب لابد منه فاستمر برصوص في هذه التجهيزات مع النباهة والشدة واشتغلت محلات استخراج المعادن مع الربح والفائدة وامتلأت الخزينة بالنقود وصلحت خسارات الاهالي بواسطة مجاوبات المستعمرات من تراسة وازداد الجيش وتقررت فيه قواعد الانتظام وعملت معاهدات مع الاليريانيين والغليين والجرمانيين وكان الامل من مساعدتهم تمتع ملك مقدونيا بالغلبة على رومة واستمرت اجرا آت هذه الاعمال والتحضيرات مدة ثمان سنوات وصار في امكان برصوص أن يجلب كافة الجريق تحت بيرقه لان غالب الامة في الهلاس يرجحون سيادة مقدونيا على سيادة رومة الا أنه تردد في ذلك واتبع طريق حب الذات وسار في مجاري طرق الشح حتى انه فقد الفرصة التي كانت قريبة من يده وفي سنة ١٧٢ قبل الميلاد كان أومينس ملك برجاموس قدح في حق برصوص وعابه أمام مجلس السناتو الروماني لعداوة كانت بينهما وعند عوده الى بلاده قتل بالقرب من دلفي فتأكد عند الرومانيين أن برصوص هو المدان بقتله فاعلنوا الحرب عليه

وفي سنة ١٧١ قبل الميلاد نزل الرومانيون في ابروس ومن بعد مضي بضع شهور من نزولهم نجحوا في ادخال الممالك الجريقية وانضمامهم نحوهم وأبطلوا الاتحاد البيوطي وكان على صداقة لمقدونيا وتغلبوا على تساليا واخايا وهشموا كل جهة مائلة لبرصوص وأما نفس برصوص فانه ألزم بقبول هدنة في مدة هذه الشهور ولما استعد الرومانيون فيها تقدموا في داخل تساليا فقابلهم برصوص وهزمهم الا أنه لم يجتهد في تعقبهم لاتمام نصرته وفي سنة ١٦٨ قبل الميلاد تولى اميليوس بولوس قيادة الجيش فهزم برصوص هزيمة فاصلة بالقرب من بيدنه فهرب الى جزيرة ساموتراس المقدسة وأخيرا التزم على تسليم نفسه الى عمارة رومانية فأخذوه الى رومة ماشيا على أقدامه في موكب احتفال بولوس ثم رموه في سجن فشفع فيه بولوس من كرمه فمنحوه أن يصرف الباقي من حياته في أسر خفيف في نواحي البا وكانت نصرة بيدنه ختاما لحياة مقدونيا وانقسمت المملكة الى أربعة ايالات خاضعة لرومة ومنعت هذه الايالات من أن يكون بين بعضها علاقات ومعاملات وكافأ الرومانيون المقدونيين في تطير ضياعهم حريتهم بأن يدفعوا لرومة خراجا نصف الخراج الذي كانوا يدفعونه لملوكهم في السابق

وكانت النتيجة الاخرى من الحرب هي تقرير سلطة الرومانيين على أربعة أخماس الجريس وأبطلت جميع الاتحادات ماعدا الاتحاد الاخايائي ومع هذا فان رومة فهمت حقيقة لزومه فلا جل أن لايكون لها عدو في الجريس قررت أن اخايا يلزم أن تدخل في طاعتها من غير شروط تطلبها طوعا أو كرها وفي سنة ١٦٧ قبل الميلاد طلبت الجمهورية من الاتحاد محاكمة ألف نفس من أكابر مداينه أوقعت عليهم التهمة في مساعدتهم برصوص خفية فما كان للمجلس الاخايائي طاقة على رفض هذا الطلب فأرسل جميع المسجونين الى ايطاليا وحبسهم في مدائن اتروسكا نه ومن ثم صار الحزب الروماني هو الحاكم في اخايا واستمر المأسورون في الحبوس سبع عشرة سنة من دون أن يسمعوا اخبارا عن تحريض

أصدقائهم فى خلاصهم ولما وصل عددهم الى ثلاثمائة من كثرة مانزل بهم من البلاء والموت تخلص الموجودون على قيد الحياة على حين غفلة وعادوا الى بلادهم فغضبت رومة غضبا مهولا لما علمت بعودهم على نية الانتقام منها الا انها لم تهتم بشأن ذلك وكان يوجد من ضمن الاحياء ثلاثة فى غاية الحقد والبغض لرومة وبواسطة هؤلاء الثلاثة وصل المجلس الاخايانى الى درجة من الشوكة والنفوذ فتسبب من كراهة هؤلاء كراهة الجمهورية أيضا وتولد من ذلك اشتعال الحرب فاعلن الجمهورية الحرب فى سنة ١٤٦ قبل الميلاد وفى بضع سنين تغلبت رومة على الجريس الجنوبية وأضافتها الى ممالكها والله أعلم

﴿ الباب العاشر ﴾

﴿ من الفتح الرومانى الى الوقت الحالى ﴾

المملكة الجريسية الاخيرة ـ الجريس تحت الحكم الرومانى ـ المصائب والآفات مدة الحروب الداخلية ـ المساعى فى عود حرية الجريس ـ حسن معاملتها بالامبراطورات ـ غارات الغوطيين ـ نهب أثينة ـ انتشار الديانة المسيحية فى الجريس ـ تقرير النصرانية بواسطة قسطنطين ـ تشييد القسطنطينية ـ الجريس تحت حكم المملكة الشرقية ـ الايالات اللاتينية الجريسية ـ المملكة الفنيزيانية ـ تغلب الترك العثمانية على القسطنطينية ـ الحروب بين الترك العثمانية والفنيزيانيين بخصوص الاملاك الجريسية ـ مصائب الجريق ونكباتهم ـ دمار البارثنون ـ الجريس تحت الحكم العثمانى ـ أجود طريقة فى الحكم ـ كيفية المحافظة على الامة الجريقية ـ عدم التغلب على سكان الجبال ـ ثورات الجريق ـ ثورة سنة ١٨٢١ بعد الميلاد ـ قيام الجريق ـ نجاحهم ومظفراتهم الابتدائية ـ ترتيب حكومة ثوريه ـ اعلان استقلال الجريس ـ مذبحة صكيو ـ طرد الاسطول التركى بواسطة ميوليص ـ حصار مصولنغى ـ ماركو بوظاريس ـ موت اللورد بيرون ـ تغلب ابراهيم باشا على كريد ـ اغارة ابراهيم باشا على بلوبونيزة أى موره ـ سقوط مصولنغى ـ تخريب ابراهيم باشا موره ـ تداخل الدول الاوروباوية ـ واقعة نقرينو ـ انجلاء ابراهيم باشا عن موره ـ معاهدة أدرنه ـ صيرورة الجريس حرة مرة أخرى ـ انتخاب أوطو ملكا ـ منح نظامات وقوانين ـ ثورة سنة ١٨٦٢ ـ طرد أوطو ـ صيرورة جورج الدانيمارقى ملكا ـ ملحقات تاريخية

استمرت الجريس فى حوزة الاملاك الرومانية مدة تنيف عن أربع قرون أى من سنة ١٤٦ قبل الميلاد الى سنة ٣٢٤ بعد الميلاد المسيحى ولبثت فى الابتداء متمتعة بنوع حرية مدنية لان كل مدينة جاءلة كان يحكمها واحد من أهلها وكان الرومانيون يؤدون ما يجب عليهم من الاحترامات عن طيب نفس الى رعاياهم المتغلبين عليهم اكراما لنباهتهم وعلو مقدارهم فى الحضارة والتمدن وما هم عليه من الآداب والمعارف وكان أجل واحد من الرومانيين من يفتخر بمعرفة اللسان الجريقى والآداب الجريقية ونظروا للجريس بعين الوقار والحب وجعلوها أم معارفهم وآدابهم وتمدناتهم حتى ان الامبراطورات فى الازمان الاخيرة كانوا يفتخرون بكونهم من أولاد أثينة فتولد من هذا فى آخر الامر الغيرة والحسد فى قلوب

الامة

الامة الرومانية حتى ان اصطلاح لفظة غروفولوس التى كانت مرعية فى الابتداء بانها علامة امتياز وشرف صارت علامة نقص واهانة

ومن قرب الجريس الى ايطاليا جعلها ميدانا لكثير من الحروب بين اختلاف الفاتحين من الاحزاب المختلفة وبين الرومانيين وأمم أخرى فنشأ من ذلك كثرة نزول المصائب وتوالى مواسم الاهوال والآفات على المملكة الجريسية فى كثير من هذه الحروب وانضم الجريق الى الاغراب أعداء رومة تحت أمل لاطائل تحته وهو عتقهم من النافر الرومانى كى يعودوا الى استقلاليتهم وفى مبادى القسم الاول من القرن الاول قبل الميلاد اشتبك متريداطس ملك بونطوس فى حرب مع الرومانيين وطردهم من آسيا الصغرى وأغار على ايالاتهم الاوروباوية وعقد محالفة مع الجريق وأرسل عدة جيوش الى داخل الجريس فانضم اليها الاثينيون والاسبرطيون والطيبيون والاخايانيون واستمر المتحالفون هؤلاء فى نجاح وظفر مدة ما وفى ظرف مدة قليلة صارت الجريس حرة فى نفسها مرة أخرى وفى سنة ٨٧ بعد الميلاد رجع عليها المد ورد الرومانيون جميع المدائن الجريقية وشدوا الحصار على أثينة وفى السنة التالية ألزمها الجوع والقحط على التسليم الى الرومانيين فوطد الرومانيون نصراتهم بعذابح أجروها لافرق فيها بين كبير وصغير وغنى وحقير فى أثينة وطيبة ومدائن أخرى وباعوا كثيرا من الجريق المغلوبين فى أسواق الرقيق ونهبوا هيا كل دلفى وأولمبيا وابيدوروس وسلبوها من خزائنها وكنوزها وجردوا المملكة من كافة أشغالها العظيمة الغنية الاختراعية وأرسلوها الى رومة

وكذا تولد من حروب القيصر مع بومبى اشتبالك الجريس ووقوعها فى ارتباكات وقلاقل جديدة فكان الاثينيون والبيوطيون والبلوبونيزيون فى جهة بومبى وكان الاخارنانيون والعيطوليانيون وقسم من أهل ابروس فى جهة القيصر وكذا تولد من الواقعة الكبيرة الدموية التى حصلت فى نواحى فرساليا من أعمال تساليا فى سنة ٤٨ بعد الميلاد أن صار القيصر سيدا على كامل الجريس فأوقع بأسه وجوره على المغاربانيين وحدهم وعامل باقى الجريس بالرفق واللين وأما أثينة فانه راعاها بالنظر لمجدها القديم وشرفها العظيم فنالت منه جزيل الاحترام وأمر ببناء مدينة قورنثه ثانيا وكانت دمرت فى الفتح الرومانى الاولى وكان ذلك فى سنة ٤٦ بعد الميلاد

وبمجرد ما قتل القيصر اشتعل حرب جديد داخلى فى الجريس وكان هذا الحرب فى هذا الوقت بين انطونى وأوكطافيان من جهة وبروطوس وكاسيوس من أخرى وانضم الاثينيون الى حزب بروطوس وكاسيوس واللاسيديمونيون اشتركوا مع حزب انطونى وأوكطافيان ونشأ من الوقائع التى حصلت فى فلبى فى سنة ٤٢ بعد الميلاد أن صار أنطونى وأوكطافيان سيد الدنيا الرومانية وتقاسماها بينهما فوقعت الجريس من نصيب أنطونى فجعل أثينة دار حكومته وسلطنته وكان تربى وتهذب فيها من قبل وعامل الجريق بأحسن المعاملات وأجلها حتى ظهر على بلادهم أنها أصبحت على شرف المجد القديم ولما اشتعل الحرب الداخلى بين أنطونى وأوكطافيان عضد كامل الجريس أنطونى وسندوه وأخيرا انهزم أنطونى وتدمر حاله فى واقعة حصلت فى اكطيوم سنة ٣١ بعد الميلاد الا أن أوكطافيان عامل الجريس وأهلها بأعظم شفقة وأجل مرحمة وأمر بعود بناء مدينة بطره وتشييد مدينة نقوبوليس فى الميدان الذى نال فيه نصرته الكبيرة

وعلى العموم فان الجريس تمتعت بالراحة التامة والتوفيق والنجاح الكامل تحت أحكام الامبراطورات

الرومانية وترخص لكثير من مدائنها وعلى الخصوص مدينة أثينة بيقاء حكامها من أهلها ومع ان قاليجوله ونيرو أخذا كثيرا من أجل صنائعها وذخائرها وجلاها الى رومة الا أن آخرين مثل طراجان وهادريان لم يحصل منهم أدنى خدش فى علامات محبتهم لاثينة وحلى هادريان هذه المدينة وزخرفها بأظرف الاشغال وكان كثيرا ما يزورها حتى لقب نفسه بلقب ارخن ابو نيموس اثينة ومع هذا فان صفات الجريق وطبائعهم كانت آخذة فى الانحطاط على الدوام تحت الحكم الرومانى وتولد من العوائد الخشنة وألعاب المصارعات التى كان الفاتحون يجرونها فساد آداب الامة الجريقية وأخرجتهم مما كانوا فيه من الفنون والآداب ولما اغرقت المملكة فى عميق بحار الفساد حل بالجريس كثير من المصائب والآفات واشتد الجزع وقل الامن وتسلطن الهول وكذا تولد من زيادة احتياجات الرومانيين وعوزاتهم سلب ونهب المدائن المتمولة عند سنوح الفرصة لهم فى هذه الاحوال ومن كثرة ايقاد الحروب الدموية قل تعداد الاهالى والسكان وصار كثير من أقاليم المملكة خاليا من السكان والعمران

وازدادت الاحوال وحلا على وحلها بكون الغوطيين الذين ابتدؤا فى غاراتهم على الممالك الرومانية هددوا الجريس بالاغارة عليها فى سنة ٢٥٣ بعد الميلاد فاحتل الجريق بوغاز ترموبيلى وأصلحوا استحكامات أثينة وأسوارها وجعلوا برزخ قورنثه على غاية من الحصانة والرصانة وتولد من نصرات الرومانيين على الغوطيين فى رياسة خلاص الجريس من غارات هؤلاء المتبربرين فى هذه المرة الا أنه فى سنة ٢٦٢ بعد الميلاد نزل الغوطيون فى المملكة من طريق البحر وتغلبوا على قورنثه وارغوس وكثير من المدائن الموجودة على البر الاصيل وعلى الجزائر وخربوها وأما أثينة فانها سقطت من بعد مقاومات شديدة وغرقت مساكنها وأرضها من دماء أهلها وسكانها ودمروا المبانى والهياكل والآثار واشتركت الكتب الموجودة فى دارها وخزائنها فى هذه المصائب والبلايا العظمى وكان اعتقاد الغوطيين أن عدم ممارسة الآداب والعلوم يضعف قوة الجريق ويورث بينهم الانوثة وبذلك يسهل عليهم التغلب على الجريس وفى هذه الحالة المهولة جمع ديكسيبوس المؤرخ وكان أحد قواد الاثينيين ما بقى من قوى عسكره وهجم على الغوطيين وهزمهم فتقهقروا الى البريقوم فبدد الامبراطور جاليينوس شملهم وفرقهم وهزمهم شر هزيمة وفى مدة سلطنة الامبراطور كلوديوس أغار الغوطيون مرة أخرى غارة فظيعة على تراسة ومقدونيا وتساليا وأقاليم أخرى جريقية الا أن كلوديوس هزمهم أيضا فى هذه الوقائع وانتهت هذه الحالة من بعد أن لبثت قرنين والغوطيون عازمون على التغلب على الجريس ومن بعد هذه الحوادث أصيبت المملكة بالضنك والعناء الشديد فتسبب من ذلك زيادة الضعف وعم الاضمحلال

وبينما كانت الجريس مشغولة فى أثناء هذه الحوادث والمشاكل بتغيير فى أصل حكومتها اذا انتشرت الديانة المسيحية بين أهلها وعمت سيادتها وشوكتها جميع جهات المملكة وأطرافها وذلك أنه فى نحو منتصف القرن الاول من ميلاد المسيح عبر الرسول بولص البحر فى نواحى آسيا الصغرى الى مقدونيا وشرع فى خطابة انجيل المسيح عليه السلام فيما بين الجريق وأدخل الكثير منهم فى ديانة الانجيل خصوصا فى نواحى تسالونيقه وشيد فيها كنيسة ثم لما لاقى من الجور والظلم الذى وقع عليه توجه منها الى أثينة وجدد فيها مساعيه وخطب بالانجيل فى حضور مجمع من أهل المدينة على جبل مارس ولما وجد مساعيه على غير نجاح تام فى أثينة قام منها الى قورنثه وشيد فيها كنيسة ومن ابتداء هذا

الوقت

الوقت انتشرت الديانة المسيحية بوجه العجلة فى الجهات الاخرى من الجريس ومع ماحصل من الجور والتعدى الذى وقع من الحكومة الرومانيـة فى صد أعمال الرسول بولص وتقدمانه رغما عما أجرته الديانة الوثنيـة من الرقى والتعاويذ التى كانت محيطة بالديانة القديمة فان الديانة المسيحيـة انتشرت مع الثبات على وجه التدريج حتى أثرت على عقول وطبائع عموم الامة الجريقية وعاداتها

ولما صار قسطنطين امبراطور رومة جعل الديانة المسيحية ديانة المملكة وكان عمله التالى لذلك هو جعل عاصمة فى المدينة الجديدة التى أمر بابتنائها على جدران بيزنطيوم القديمة وسماها القسطنطينية أى مدينة قسطنطين وذلك أنه رأى أن حزب القسم الغربى من المملكة الرومانية لابد منه فشرع فى تشييد مملكة قوية يحتمل دوامها فى ممالك الجريقية وجعل عاصمتها المدينة الجديدة التى سماها باسمه وكان تشييد العاصمة الجديدة فى الاراضى الجريقية القديمة سببا حقيقيا لاستحياء استقلالية الجريس وكانت الجريس معضدة قلبا ولسانا للامبراطورات فى القسطنطينية وسنشرح تاريخ هذه المملكة الجريقية فى محل آخر غير هذا الا أنه يلزمنا الآن أن نذكر هنا ما يلزم ما نذكره من الوقائع والحوادث الخاصة بنفس الجريس فنقول

ان الجريس استمرت لحد القرن الحادى عشر قسما لانزاع فيه من المملكة البزانطيه وفى سنة ١٠٨٠ بعد الميلاد أغار روبرت غيسكارد وهو برنس نورمانى من ايطاليا السفلى وهجم على ابروس وتساليا واجتهد فى التغلب عليهما فطرده علكسيس قومننوس على أعقابه وفى سنة ١١٤٦ بعد الميلاد ضبط روبرت الثانى صاحب سيسيليا جزيرة قورصيره ونهب قورنثه وبعض مدائن أخرى جريقية ومن بعد قليل أعيدت قورصيره بواسطة العساكر الامبراطورية وفى سنة ١٢٠٤ بعد الميلاد هجم الفينيزيانيون باتحادهم مع أهل الصليب من الفرنساوية وتغلبوا على القسطنطينية وقسموا الجريس بين بعضهم وصار المار كيز مونفراط ملك سلانيك (تسالونيقة) واخاى وموره (بلوبونيزه) وصارت بلوبونيزه امارة تحت حكومة غيلومى دوشمبلت وغيوفروا فيلاهردوين وانتظمت جزائر بحر الارخبيل فى صورة دوقيات أى امارات صغيرة وجعلت ناكصوص عاصمتها وصارت أثينة دوقة أى امارة أيضا واستمرت على هذه الحالة من سنة ١٢٠٥ الى سنة ١٤٥٦ بعد الميلاد ثم ان الجريق استردوا القسطنطينية من الفنيزيانيين سنة ١٢٦١ بعد الميلاد الا أن الايالات الاخرى البرانية لبثت عدة قرون وتغلب الفنيزيانيون على قسم عظيم من موره وبعض أقسام وجهات أخرى من الجريس وكذا على جزيرة كريد وجزائر أخرى حتى صار تغلب الترك على المملكة الشرقية الجريقية

وفى سنة ١٤٥٣ تغلب الترك العثمانية فى زمن سلطنة السلطان أبى الفتح محمد خان على القسطنطينية وكانوا اسلبوا من الامبراطورات الجريقية كامل مملكتهم وخلصوا على انقراض المملكة الشرقيـة وانقضت الثلاثة قرون التى جاءت بعد فى حروب بين الترك العثمانية والفنيزيانيين من شأن الغلبة على الجريس ولما وقعت الجريس الشمالية فى أيدى الترك العثمانية ظفروا بعد ذلك بالغلبة على جزيرة عوبية وأطيقة ووقعت أثينة فى أيدى المسلمين فحولوا البارثنون الى مسجد جامع ثم وجه السلطان مساعيه وعزمه نحو بلوبونيزه (موره) وهى القسم الاكبر الذى كان تحت يد الفنيزيانيين ووقعت الجريس فى شر أعمالها وحل باهلها المصائب والآفات وتكدرت عليهم عيشتهم بين الدولتين المتحاربتين لانهم لو التجهوا مع الفنيزيانيين أوقع بهم العثمانيون وأذاقوهم أشد العذاب ولو ساعدوا الترك نكلهم

الفنيزيانيون باشد النكال على قدر امكانهم الا أن ميل الجريق الى الفنيزيانيين كان أقرب لانهم على ديانة واحدة وهي الديانة المسيحية فضلا عن أنهم مؤملون منهم اعطاءهم حريتهم واستقلاليتهم وكانت احدى نتائج هذه الحروب نقل معامل تشغيل الحرير الى فنيزه وجنوه وكانت أزهرت فى أثينة وقورنثه من عهد جوسطانيان وفى سنة ١٥٢٢ بعد الميلاد أى فى مدة سلطنة سليم خان الاول تغلب الترك على جزيرة رودس من بعد حرب مقطوع اليأس ومن بعد ذلك بقليل أخضعوا ما بقى من الايالات الفنيزيانية الموجودة فى بلوبونيزه وفى سنة ١٥٧١ بعد الميلاد فى مدة سلطنة سليم خان الثانى وقعت جزيرة قبرص فى يد السلطان ولم تمض مدة من بعد ذلك حتى انهزم كامل الاسطول التركى وكان مؤلفا من ٢٠٠ سفينة وتبدد حاله على مسافة من نوباقطوس بواسطة الاساطيل المتحدة من طرف الفنيزيانيين وبابا روما والامبراطور وكانت هذه الاساطيل تحت قيادة الدون يوحنا صاحب أوستريا وكان كامل خدمة الاسطول الفنيزيانى من الجريق وفى سنة ١٦٧٠ بعد الميلاد فى زمن سلطنة محمد خان الرابع طرد العثمانيون الفنيزيانيين من جزيرة كريد من بعد حروب استمرت ثلاثين سنة وفى سنة ١٦٨٥ أى فى مدة سلطنة محمد خان الرابع استرد الفنيزيانيون كامل موره وكانوا تحت قيادة الشهير موروسينى متساعدين بالجريق وفى السنة التالية تغلبوا على أثينة وفى أثناء حصارها استعمل الترك محل البارثنون مخزنا للبارود فسقط فيه قنبلة من جهة الفنيزيانيين فالتهب المخزن وفرقعت أبنيته وتفتت بناؤه الظريف وفى سنة ١٦٩٩ بعد الميلاد انجبر الفنيزيانيون على ترك كامل ما تغلبوا عليه ما عدا بلوبونيزه وفى ١٧١٥ بعد الميلاد اغتصب السلطان أحمد الثالث هذه البحث جزيرة منهم أيضا وصارت الترك العثمانية فى هذه الحالة أسياد جميع الممالك الجريقية ما عدا الجزائر اليونانية

ثم ان الترك رتبوا الاراضى الجريقية وقسموها الى ايالات واستحسنوا طريقة عظيمة تختص بحكومة هذه الايالات وأهلها من الجريق وقرر السلطان بان بطريقية القسطنطينية التى هى رأس الديانة الجريقية تكون رأس الامة الجريقية وأن يكون لها سلطة الحكم المدنى الداخلى والحكم الرومانى الكنائسى فى الجريق ورتب فى كل ايالة أوقسم أسقفا له الحكم المدنى والكنائسى على الجريق وتقرر له القضاء والفصل فى جميع الدعاوى والقضايا الخصوصية وأحيلت على عهدته مباشرة المكاتب والمدارس المعدة لتوطيد ووقاية اللسان الجريقى والحكم على الكنائس المخصوصة بالمحافظة على ديانة الامة وعوائدها وأن تكون البطريقية مسؤلة فى أعمالها لدى السلطان ومن تحت يدها من الاساقفة الموجودين فى الايالات مسؤلون لديها فى أعمالهم وأحكامهم وتقرر للقسس الواطية الدرجة وظائف مدنية حسب نص هذه الاصلاحات وهم تابعون لاسقف الايالة الواحدة فى أعمالهم يأخذون منه الاوامر اللازمة لهم فيما يختص باحوال الادارة والحكومة ومن المعلوم أن هذه الطريقة كانت ممنوحة للجريق فقط ورتب فى كل ايالة نائبا عن السلطان وحكاما آخر ملكية الا أن الجريق ما كان منهم أحد داخلا فى هذه الوظائف الا القليل ومن ثم صار على حسب هذه الطريقة التى ترتب اجراؤها على الجريق كان اذا حصل بينهم مشاكل أو مشاحنات فما كانوا يتوجهون الى دواوين المحاكم القضائية العدلية التركية بل كانوا يرفعون ما هم واقعون فيه من المشاكل والمخاصمات أمام المحاكم الكنائسية ويقبلون فصل الحكم فيها بمعرفتها وكان الاساقفة يجمعون الخراج والعوائد المضروبة على الامة الجريقية الجريسية ويدفعونها للادارة التركية ويدافعون أو يحافظون على عدم دخول

احد

أحد من الامة فى الوظائف العسكرية باعطاء الباشوات حكام الايالات الرشاوى والبراطيل وكانوا يسوّون مدخول كل طائفة من الطوائف الجريقية ويباشرون ما يلزم منها من المصاريف الضرورية فكانت هذه الطريقة هى التى لابد منها فى حفظ حياة الامة الجريقية من الظلم الواقع من الترك وحفظ الجريق أنفسهم وعرفوا أنه لامداخلة لهم فى الاشتراك مع المتغلبين عليهم وحفظت الكنيسة الخاضعين لها والمرتبطين بأوامرها حقوق حياة شهامة وطنهم وحفظت لهم المكاتب والمدارس لسانهم وآدابهم القديمة وكانت العقدة العظيمة فى ذلك هى اتحاد الامة الهلانيقية مع بعضهم فكانوا يصلون يوميا فى كنائسهم وبيتهم ويبتهلون بالتضرع والدعاء الى الله أن يبعد عنهم الترك وينقذهم من تحت أحكامهم ويعيد لهم حرية الجريس بلادهم وما قبل أحد منهم الدخول فى الدين الاسلامى وما حصل تناكح أو زواج أبدا بين الجنسين وكانت كراهتهما لبعضهما غزيرة ومتعادلة بين الجنسين

ثم بعد ذلك ظهر سبب آخر لاحياء شهامة الامة الجريقية وهو انتشاب الحرب على الترك من سكان الجبال الموجودة فى نواحى ابروس وتساليا واكرنانيا وعيطوليا واركاديه ومينة أولاقونيه وكان هؤلاء الجبليون الاشداء ما خضعوا أبدا للحكومة التركية وانضم اليهم من عهد فتوح الترك بلادهم كثير ممن لم يقبل الطاعة والخضوع للمسلمين فأسرع هؤلاء من جبالهم وحملوا على الترك بحروبات شديدة تسبب لهم منها خسارات جسيمة فسار الجريق على منوالهم الا أنهم حافظوا على أنفسهم حتى يأتيهم اليوم الموعود لخلاصهم من أيدى الترك أعدائهم

ثم تحرك الجريق فى النصف الاخير من القرن الثامن عشر مع العزم الثابت مؤملين سرعة عود استقلالهم وكان السلاطين العثمانية أصدروا أوامر من بعد فتح الجريس بمدة باستخدام الجريق فى بعض المصالح فكانوا دخلوا بكثرة فى المصالح الخارجية وديوان الخارجية وفى دواوين مالية أقاليم المملكة وكثرت بيوت التجارة وصار لها السلطة على مباشرة تجارة الشرق ولها فروع فى المدائن المختلفة من نواحى أوروبا وكان للجريق فى الخدامات التركية فرص كبيرة فى مساعدة أهل بلادهم وعمل الطرق اللازمة فيما يعود منها النفع عليهم وكذا استحيت آمال الجريق بزيادة انحطاط وضعف المملكة التركية وكان كامل الامة على تيقظ فى كل ناحية من سنوح أول فرصة تحصل لهم فى القيام على أعدائهم

وفى سنة ١٧٦٩ بعد الميلاد فى مدة سلطنة السلطان مصطفى خان الثالث عندما اشتبكت الترك فى حرب مع الروسيا قام الجريق فى ثورة العصيان فى نواحى موره ولاقونيه ووصل اليهم وعد من الروسيا بحضهم وحثهم ومساعدتهم الا أنه ظهر لهم بعد ذلك خداع مواعيد روسيا وغشها وأخمدت الدولة التركية الثورة مع العنف والشدة

وفى سنة ١٧٨٧ بعد الميلاد فى مدة سلطنة سليم خان الثالث انفجرت ثورة جديدة فى جهات من الجريس وعلى الخصوص فى النواحى الجبلية وكان الجريق من ابتداء أمرهم ومن مدة قرون مضت أنشؤا أسطولا صغيرا تحت قيادة لمبروس كاتسونيس فأوقع هذا الاسطول الصغير تلفيات جسيمة فى المراكب التركية ثم خمدت هذه الثورة ثم ان صاليوطس ابروس باشروا الحرب الى حد سنة ١٨٠٣ بعد الميلاد الا أنهم طردوا من جبلهم الذى كانوا موطدين فيه أنفسهم فهربوا والتجؤا الى الجزائر

اليونانية وفى أثناء هذه المدة قريبا جدا من القرن الحالى وهو القرن التاسع عشر استمرت أمراء رجال الجريس مكدين على استعداد الامة لعزم عود حريتهم وتشجعت المدارس فى تهذيب أولادها ومارسوا تواريخ أجدادهم وقرؤها وتجمعت مجالس سرية كانت غاية رغبتهم عتق البلاد والعباد من رق الترك وكان تشكيل هذه المجالس والجمعيات فى جهات مختلفة من الجريس فكان ريغاس فيريوس ومن بعده كوراى من كبار المؤرخين يدسان للجريق مايذكرهم بشهرة أجدادهم ويتفاخرون عليهم بهم وفى سنة ١٧٩٧ بعد الميلاد توجه ريغاس الى ايطاليا مجتهدا فى حث نابليون بونابارتو على التداخل فى الاعمال الجريقية فضبطه الاوستريانيون فى تريسته وسلموه للترك فقطعوا رأسه فى بلغراد وكان آخر أقواله ستأخذ الجريس بثارى قتلتى هذه عاجلا

وأخيرا جاء الوقت الذى كانت تنتظره الجريس من مدة طويلة وذلك انه فى سنة ١٨٢١ بعد الميلاد فى مدة سلطنة السلطان محمود خان الثانى لما صح عند المجالس السرية والرؤساء الجريقية مجىء الوقت وصار لا حاجة لتوطيد الحكم التركى أعطوا اشارة الثورة وعلاماتها فانتشرت فى جميع أنحاء الجريس حتى وصلت هذه الحركة الى اقليمى البغدان والافلاق (أى ملدافيه ولاخيه) فأسرع الترك بحركات شديدة فى حطم هذه الثورات وأصبحت المدائن الجريقية ميدانا للمذابح فظيعة ووقع الكشف على دسيسة من الجريق الذين كانوا قاطنين فى القسطنطينية على شرف ضبط المدينة وقتل السلطان وكانت هذه الدسيسة معضدة للثورة فقبض على البطريرك فى يوم أحد الفصح من سنة ١٨٢١ وصلب على باب سرايته ثم رميت رمته فى البحر وذبح كثير من الاساقفة والقسس ومائة من رؤساء جريق القسطنطينية وضبطت أملاكهم لجهة الحكومة التركية

وأما الثورة فى نفس الجريق الاصلية فكانت على غاية من النجاح وفى ٦ ابريل سنة ١٨٢١ اجتمع كبار رجال موره فى دير القديس لوره فى اركاديه وعاهدوا أنفسهم وحلفوا بالايمان بين بعضهم على تحرير بلادهم من أحكام الترك أو الموت فى هذا الكد والسعى وقام جميع أهل موره بالسلاح وظفروا فى هزيمة قوة تركية كانت مؤلفة من ٦٠٠٠ نفس من العساكر التركية كانت أرسلت لاخماد الثورة وتغلب الوطنيون على عدة أماكن من الجهات الكبيرة الا أن القوى التركية أوقعت المصائب الكبرى والبلايا العظمى على البلاد والعباد وخربتها بالنار والسيف وفى ٥ و ٦ سبتمبر التحق كامل قارة الجريس بالثورة وفى يوم ٦ من الشهر أقلع أسطول قوى من القسطنطينية لاجل اخضاع الجزائر الجريقية فجمع الوطنيون لمقابلة هذه القوة أسطولا صغيرا خصوصا من حيدرة وسبطيا وبصاره وقرب سكان هذه الجزائر القربانات وتداركوا هذه المراكب وطقموها ومع هذا كانت أقل عددا بكثير من المراكب التركية وتقابل السفن الجريقية مع السفن التركية على مسافة من جزيرة لسبوس فى يوم ٨ يونيه فرمت المراكب الجريقية نارا مع غاية الجسارة على السفن التركية فاحرقت فرقاطة تركية بها ٦٠٠ نفر بحرى فقطع الاسطول التركى نيرانه فى الحال وأقلع الى الهلسبون أو الدردانيل فتولد من هذا قيام امال الجريق بواسطة ما حصل لهم من الظفر والنجاح فى البر والبحر وعزموا جميعا على اجراء الفصل الاخير بين الترك وبين بلادهم وفى مبادى سنة ١٨٢٢ بعد الميلاد عقد الجريق مجلسا أهليا فى ابيدوروس فنشر هذا المجلس اعلانا فيه من بعد ذكر المصائب والاهوال التى حصلت لهم من الترك الاغاثة بانصاف وانعطاف وعدل وميل الممالك المسيحية نحوهم

ثم أعلن باستقلال الامة الجريقية من الدولة التركية وكان المشروع الثانى لهذا المجلس تنظيم وترتيب حكومة مؤقتة ومن هذا الوقت أخذت أعمال المملكة واجراآتها فى النجاح وباشرت الامة أحوال نفسها مع الشهامة والسير فى الاعمال التى يعود منها النفع والظفر على البلاد وبذلت تركية جل مجهودها وما فى طاقتها فى حطم هذه الثورة وأرسلت ٤٠٠٠٠ من عساكرها تحت قيادة درامه على الى بلوبونيزه أى موره لاجل خلاص قلعة نوبليا وكانت محصورة بالجريق فانهزموا بقوة من الجريق مقدارها ١٠٠٠٠ نفس وطردوا من موره وكانت هذه احدى المظفرات الكبرى التى ماحصلت أبدا للجيش الهلانيقى

وفى شهر ابريل سنة ١٨٢٢ أنزل الاسطول التركى عساكره على جزيرة خيو أى صكيو فخربوا الجزيرة الظريفة وقتلوا ألوفا من أهلها من غير رحمة وأرسلوا كثيرا منهم الى أسواق الرقيق فى نواحى اسيا ومصر وعاملوا الرجال والنساء والاولاد والطاعنين فى السن والعجائز معاملة لافرق فيها واستمرت الجزيرة عدة أيام مرتع الجرائم والآثام من ذبح وحرق وسلب ونهب ولم يحصل لهؤلاء السكان الذين لامساعد لهم ولامعين مصائب وبلايا مهولة انصبت عليهم قبل ذلك مثل هذه المرة ولما انتشرت أخبار مذابح جزيرة صكيو أقلع الاسطول الجريقى مع الجراءة لمقابلة الترك وكان هذا الاسطول تحت قيادة اندرياس ميوليس أكبر شجعان البحرية فى الجريس الاخيرة وكان رجلا مثل الحديد لايتبسم ولايبكى وكان معروف القدر عند الخاص والعام فصد ميوليس هذا الاسطول التركى ومنعه من السير الى الجزائر الاخرى الجريقية وبهذا خلص الجزائر مما اتاه صكيو وفى ليلة ٦ يونيه سنة ١٨٢٢ بعد الميلاد نجح ضابط شاب جريقى اسمه قسطنطين كناريس مع مركب صغيرة طقمها ثلاثة وثلاثون بحريا فى كونه وضع نارا فى فرقاطة تركية ففرقعت الفرقاطة بجميع بحريتها على مسافة من جزيرة صكيو وكانت هذه سفينة الاميرال فهلك الاميرال ومعه ٢٠٠٠ نفر بحرى من الترك فوقع الرعب لباقى المراكب الأخر التركية وتركوا ما كانوا ساعين فيه من خلاص نوبليا وأقلعوا مع العجلة الى جهة الدردانيل وفى مدة سير الاسطول نزل عليه عاصف شديد على مسافة من طندوس وفى مدة هذا العاصف فاز الجريق بابادة فرقاطة تركية فيها ١٦٠٠ نفس وتولد من هذا عود الترك الى القسطنطينية ولما ترك الترك نوبليا سلمت الى الجريق فى ١٢ ديسمبر من السنة المذكورة

وبينما كانت هذه الوقائع جارية فى جهات أخرى من الجريس احتل اسكندرمافروكورداطوس مصولنغى الموجودة على رأس خليج باطراس وذلك أنه لما عرف أهمية هذا الموقع صمم على ضبطه والاقامة به مضادا للاجراآت التركية ومباشر المحافظة ومقاومة كرثانية وعيطوليا وساعيا فى مساعدة الصوليوطيين وكانوا عادوا الى جبالهم فى ابروس من دار نفيهم من الجزائر اليونانية ومع هذا كان على غير نجاح من أمره والتزم على الانسحاب الى داخل استحكامات مصولنغى وانطرد الصوليوطيون من ابروس والتجؤا الى جزيرة سفالونيا ثم بعد قليل أقلعوا منها الى مصولنغى وانضموا الى الشرذمة القليلة الموجودة فيها تحت قيادة مافروكورداطوس فوجه الترك كل اجتهادهم على هذا المحل وكان ضعيف التحصين وبه من المحافظين قوة قليلة وفى ٦ يناير سنة ١٨٢٣ اجتهد الترك فى التغلب على المدينة عنوة فصدوا مع تلفيات جسيمة وطردوا من موقعهم الذى كانوا فيه

وفي مبادى سنة ١٨٢٣ أرسل جيش تركى قوى على مصولنغى فشدد الحصار على هذه المدينة وضايقها حتى أشرفت على السقوط والتسليم لولا أن تداركها الشجاع ماركو بوظاريس رئيس الصوليوطيين وكان معه قوة قليلة من أهل بلاده فهجم ليلا على الموقع التركى ونال نصرة عظيمة على أعدائه اشتراها بحياته وفي آخر السنة اجتهد الترك على غير طائل فى الغلبة على مصولنغى فتولد مما حصل من شجاعة الجريق ميل كافة أهل أوروبا اليهم وأسرع كثير من أهل الرغبة والخير الى الجريس لاجل مساعدة الوطنيين فكان من ضمن الذين توجهوا اليها الشاعر الانكليزى لورد بيرون ورتب جيشا من الصوليوطيين على مصاريف نفسه وسار نحو مصولنغى فمنعه موته الذى حصل على الفور من بعد وصوله مصولنغى من الاشتراك فى أى واقعة فى الحرب

ولما خاب سعى السلطان محمود الثانى من أعماله فى خضوع الجريق وحطم ثورتهم طلب مساعدة من محمد على باشا صاحب مصر وكان فى هذه المدة على الاريكة المصرية وكان كما ذكرنا فى تاريخ مصر حاكما بارعا بحرا برا معضدا بابنه هبة الله ابراهيم فأحسن السلطان الى محمد على بجزيرة كريد الداخلة فى تعضيد أمر الجريق وأمره باحتلالها وهشم ما فيها من العصاة فحصل ذلك فى أواخر سنة ١٨٢٣ بعد الميلاد بواسطة القوة المصرية تحت قيادة الشهم ابراهيم باشا ثم ان السلطان عين ابراهيم باشا والى موره أى بلوبونيزه مع أوامر أرسلت اليه بفتح تلك البحيث جزيرة

فابتدأ ابراهيم باشا باجراء أعماله على حسب نص الاوامر السلطانية التى صدرت اليه فى فصل صيف سنة ١٨٢٤ ووجه سعيه الاولى على عدة جزائر جريقيه كانت على غاية من الشوق الاكبر فى أمر وطنى الجريق ورغما عما حصل من المقاومات الشديدة من الجريق نالت القوى المصرية نصرات عديدة وتغلبوا على كاسوس و بساره وفتحوا جزائر أخرى وذبحوا سكانها وباعوا كثيرا منهم فى أسواق الرقيق ولما اشتدت بالجريق المصائب والاهوال أبرزوا أسطولهم فنالوا عدة مظفرات على الاسطول التركى وأخيرا طردوه نحو الدردانيل

وفي سنة ١٨٢٥ دخل ابراهيم باشا موره فى رأس جيش كبير من المصريين على غاية من جودة النظام وفيه كثير من الضباط الاوروباوية فحاصر بيلوس وفى ٨ من شهر مايه تغلب على جزيرة سفاكطريا وقتل كافة محافظيها بالسيف الا أنه ما أمكنه أن يمنع الاسطول الجريقى من الهرب وكان مؤلفا من ثمان مراكب فقطع هذا الاسطول مواصلة ابراهيم باشا من الاسطول المصرى وكان مؤلفا من اثنتين وخمسين سفينة حربية و بعد ذا بقليل وقعت بيلوس فى يد ابراهيم باشا فأخرب هذا الفاتح مسينة بالنار والسيف وأخضع ابراهيم باشا القسم الاعظم من موره وصار يتغلب على كل جهة توجه اليها ويذيق أهلها الوبال والنكال فنشأ من ذلك امتلاء قلوب كافة أهل أوروبا بالغضب والحنق من الافعال الوحشية الجارية فى بلوبونيزه بمعرفة ابراهيم باشا وفى مبادى سنة ١٨٢٦ انضم الى القوى التركية تجاه مصولنغى وبذل الترك جميع جهدهم فى التغلب على هذا المحل وامتد الحصار نحوا من ستة أشهر وكان المحافظون الموجودون فيه مع قلة عددهم ضابطين محلهم مع الشجاعة والمهارة الا أنه لما حضر ابراهيم باشا ابتدأ فيهم العناء الشديد مما حل بهم من الامراض والجوع وعجزت الحكومة الوطنية الموجودة فى نوبليا عن اسعافهم بأى طريقة تخلصهم بها وخابت مساعى العمارة البحرية الجريقية التى هى تحت قيادة ميوليس فى توصيل الذخائر والمؤنات لهم من أجل وجود الاسطولين التركى والمصرى ولما قطع محافظو

مصولنغى

مصولنغى اليأس من أنفسهم عزموا على الخروج منها وأن يخرقوا لانفسهم طريقا من وسط الجيش التركى وصمموا على اجراء هذه الحركة فى ليلة ٢٢ ابريل سنة ١٨٢٦ فرد الترك والمصريون الجريق على أعقابهم ودخلوا معهم المدينة ولما رأى الجريق ما حل بهم من الخسائر وضعوا النار فى مخازن بارودهم وفى المخازن الموجودة فى استحكاماتهم وطوابيهم فأهلكوا كثيرا من الترك والمصريين مما حصل من فرقعة هذه المخازن وصار ابراهيم باشا فى صباح يوم ٢٣ ابريل سيد مصولنغى وتغلب على أكوام من الخراب والرماد الاسود اشتراه من أهله بأثمان غالية القيمة وأعقب هذه النصرة فى مبادى سنة ١٨٢٧ استيلاء الجيوش التركية على أثينة وكانت تحت قيادة رشيد باشا وأوقع الترك والمصريون بالجريق وأنزلوا بهم أشد الاهوال والمصائب وخربوا البلاد وأهلكوا العباد ورغب ابراهيم باشا فى تدمير واهلاك وطنى موره عن آخرهم وعزم على اسكان واستعمار هذه الاراضى بالمصريين والعرب

ونتج فى هذا الوقت مما أجرته الجيوش التركية والمصرية من هذه الاعمال الفظيعة الشديدة القساوة قيام الغيظ وشدة الحنق عند عموم أهل أوروبا وسكانها واكتسب الجريق بشجاعتهم ميل كافة الدنيا اليهم وكان الدول الاوروباوية فى الابتداء تظروا أن الجريق كانوا عاصين على ملكهم الشرعى حتى ان الدولة الاوستريانية كانت متوجهة بكل رغبتها مع الترك وكذا لم تقبل روسيا أى طلب من الجريق فى شأن مساعدتهم وأمرتهم بالاوامر الباردة فى شأن عود طاعتهم الى سلطانهم الا أنه من سعد الجريس أن مات اسكندر الاول قيصر الروسيا فى أول ديسمبر من سنة ١٨٢٥ وخلفه القيصر نيقولا فسار فى سياسة مخالفة لسياسة أبيه وعزم على مساعدة الجريق بالقوة الفعالة وفى نفس هذا الوقت مالت الامة الانكليزية والفرنساوية نحو الجريق وألزموا حكوماتهم على السير فيما سارت فيه روسيا فقررت بريطانيا الكبرى بأن الجريق أمة محاربة وعقدوا اتفاقا وقعوا عليه فى لوندرة فى ٦ يوليه من سنة ١٨٢٧ من نواب انكلترا وفرانسا وروسيا واتفقوا فى هذا القرار على طلب منح من تركية باعطاء هدنة للجريق وان لم يقبل السلطان يقرروا استقلالية الجريس ويلزموا السلطان بتوقيف الحرب وأعطوا السلطان مهلة فى ذلك مدة شهر لاعطاء الجواب وأرسلوا أسطولا متحدا مؤلفا من سفن انكليزية وفرنساوية وروسية الى البحر الابيض المتوسط بأوامر تختص بابطال الفظائع والاعمال الوحشية الجارية من ابراهيم باشا فى نواحى موره والجريس ولما عرض القرار على السلطان رفضه ولم يقبل اعطاء هدنة للجريق واستمر الحرب على ما كان جاريا وفى ٢٠ اقطوبر سنة ١٨٢٧ دخل أسطول المتعاهدين تحت قيادة الاميرال الانكليزى كودرنجتون فى مينة نفرينو (بيلوس القديمة) وكانت مشغولة بالاسطولين التركى والمصرى وكان أسطول المتعاهدين مركبا من ١٠ سفائن حربية من الدرجة الاولى و ١٠ فرقاطات وكثير من الاباريق وأما الاسطول التركى والمصرى فكان مؤلفا من خمس مراكب حربية من الدرجة الاولى و ١٩ فرقاطة وعدد كبير من الاباريق وكانت رغبة المتعاهدين الزام ابراهيم باشا بالكف عن الكراهة العدوانية الحاصلة عنده للجريق وبمجرد دخول أسطول المتعاهدين فى مينة نفرينو أطلق عليه الاسطول التركى والمصرى النيران فى الحال فالتحم معهم القتال وانتشب بينهم واقعة دموية مهولة لبثت مدة طويلة من النهار كانت نتيجتها اخراب الاسطول السلطانى ودماره وكانت هذه النصرة الكبيرة هى الفاصلة فى الحقيقة لمسئلة الحرب ولما تجرد ابراهيم باشا من أسطوله

رضى بالانجلاء عن موره وانسحابه الى مصر مع القسم الاعظم من جيشه وتكلفت مصر فى هذا الحرب ٢٠٠٠٠٠٠٠ فرنك و ٣٠٠٠٠ نفس

ثم نزلت فرقة من العساكر الفرنساوية مقدارها ١٤٠٠٠ نفس فى الجريس تحت قيادة المارشال ميسون وأسرعت فى زوال الترك من الجريس واكتسب الجريق فى هذا الوقت عدة نصرات على الترك فى البر والبحر وفى غضون ذلك شرعت روسيا فى حرب هامع تركية وضيقت عليها ضيقا شديدا حتى ان السلطان محمود الثانى التزم بتقرير شروط المعاهدة والتصديق عليها وفى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٢٩ صار التوقيع على معاهدة أدرنه وكانت هذه المعاهدة متضمنة فضلا عما فيها من عدة منح للروسيا الاقرار باستقلال الجريس فدخل فى هذه المملكة الجديدة كامل قارة الجريس الموجودة فى جنوب خط مرسوم من خليج أرطه الى خليج فولو وصارت البانيا وتساليا من ضمن المملكة التركية وأما جزائر عوبية وجزائر أسبورادس الشمالية وجزائر السكلاده فانها دخلت فى الحدود الجديدة للجريس وبقيت الجزائر اليونانية تحت يد حكومة بريطانيا الكبرى وأما جزيرة كريد والجزائر البعيدة على ساحل تراسة وآسيا الصغرى فانها استمرت باقية فى حوزة الدولة التركية

وفى مبادى سنة ١٨٢٨ صار نقل مركز الحكومة الاهلية الجريقية الى جزيرة ايجينة وصار انتخاب الكونت كابوديستريا وهو رجل سياسى جريقى مشهور بعقله وكماله وكان فى الخدمة الروسية رئيسا للحكومة الوقتية الجريقية فكانت أعماله غير مرضية عند الامة ودخل بين الجريق النزاع والشقاق وانقسموا أحزابا حتى صارت حالة استقلالية البلاد صعبة جدا الى أن رأوا أن الاصلاح الذى يستمر بقاؤه فى المملكة هو الذى تتفق عليه الدول الذين هم سبب فى حصول الحرية الجريقية ومن ثم حصل الكد والسعى فى تمام هذا المشروع وصاروا يغيرون ويبدلون حتى ظفروا أخيرا بترتيب موافق للجريس على صورة مملكة وفى فصل ربيع سنة ١٨٣٢ بعد الميلاد صار انتخاب البرنس أوطو ابن ملك باقارية وكان أول صادق غيور على استقلال الجريس ملكا عليهم وحصل التصديق على هذا الانتخاب من المجلس الاهلى الجريقى فى ٨ أغسطس سنة ١٨٣٢ من بعد الميلاد

وكان عمر الملك أوطو ثمان عشرة سنة ووصل نوبليا فى ٦ فبراير سنة ١٨٣٣ وفى سنة ١٨٣٥ انتقل مركز الحكومة الى أثينة ومن بعد أن بلغ الملك السن الزائد صارت الحكومة فى هذا الوقت تحت يده بواسطة وزراء مسؤلين لديه معضدين بمجلس أهلى وكانت المعاهدة التى قامت بواسطتها المملكة الجريقية وصارت دولة من الدول غير متضمنة ترتيب قانون أو نظام لاجل سير أحوال المملكة وكان الجريق منتظرين مع شوقهم عمل قانون يجرون ادارتهم وأحكامهم وأشغالهم على نص بنوده وكانت حكومة أوطو مستبدة فى حد ذاتها على العموم فنفرت الامة من أحكامه وصارت أوامره غير مرعية عندهم وأخذ النفور فى الزيادة الى أن انفجرت فى ليلة ١٤ سبتمبر سنة ١٨٤٣ ثورة وأحاط الجند والامة بالسراى الملوكية فى أثينة وطلبوا قانونا شاملا لنظام المملكة فتردد الملك برهة من الزمن وأخيرا سلم لهم فى ذلك وأمر بعقد مجلس من الامة أحال عليه تدوين قانون المملكة ولما تم نظام هذا القانون صدق الملك عليه فى ٦ مارث سنة ١٨٤٤

وكان تاريخ العشر سنوات التى جاءت عقب استصواب القانون الجريقى مشحونا بالقلاقل والارتباكات المستمرة وحصل للوطنيين النافرين المخالفين لاحكام الملك حدة غيظ شديدة وأخذهم

الغيظ فى الزيادة بالدسائس البرانية وكثر التغيير والانقلاب فى الوزارة وزاد الثوران والهياج من أسباب كبيرة وقعت فى المملكة وانجبر الحزب الوطنى على أن يكون فى منازعات مع الاعضاء الاجنبية لما انهم تغلبوا على الاعمال التى صارت فيها الجريس وصار لهم طاقة على نفوذ أحكامهم القوية على المملكة الجريسية وفى أثناء حصول هذه المشاحنات وقع أهل البلاد فى أشد العناء والضرر وحاقت بهم البلايا والآفات

وفى سنة ١٨٤٧ تباعدت الجريس عن وقوع حرب آخر مع تركية كانت تركية هددتها به نظير ما حصل منها من قلة الادب والوقاحة فى حق سفيرها فى أثينة وفى سنة ١٨٤٨ حصل عند الجريق الغضب وشدة الحنق مع انكلتره وكانت طلبت من الجريس قيمة التلفيات التى خسرتها تبعتها البريطانيون واستمرت هذه المسئلة من دون قطع حكم فيها عدة سنوات ثم صارت صعبة الحل وفى سنة ١٨٥٠ رسا أسطول بريطانى على مسافة من بيروس وحاصر أثينة وضبط عدة مراكب جريقية ولما صارت الجريس أمام بريطانيا فى الحرب وجها لوجه أذعنت بأداء مطاليبها وانفصلت المسئلة بهذا الوجه وفى سنة ١٨٥٢ خاب موسم العنب فى الجريس فتكبد الاهالى عناء وشدة وفى سنة ١٨٥٣ وقعت زلزلة شديدة هدمت كثيرا من الاملاك ذات قيم كبيرة فى جهات مختلفة من المملكة وأضيفت هذه الى المصائب العامة ووقعت المملكة فى ارتباكات وقلاقل شديدة وانتشرت اللصوص وقطاع الطريق فى موره والجريس الوسطى وصار لا أمان على الاملاك والارواح وضعفت الحكومة ضعفا كليا عن تداركها لازالة هذا الضرر

ولما اشتعل حرب القرم بين روسيا وتركية فى عهد السلطان عبد المجيد خان كانت الرغبة الكبرى للجريس مسعاها واجتهادها فى الانضمام الى الروسيا لاجل مساعدتها الا أن فرانسا وانكلتره هدداها وأرغماها أن تلزم نفسها وتعرف حدها وتحافظ جيدا على الحيادة وأرسلت عمارة انكليزية وفرنساوية فى بيروس لملاحظة هذا الامر وما تحركت هذه العمارة الا سنة ١٨٥٧ بعد غلاق الحرب بسنتين وبعد أن أقامت الحكومة الجريقية حجتها عدة مرار

وفى غضون ذلك أخذت المعارضات الحاصلة للملك أوطو والعائلة الملوكية فى الزيادة من سنة الى سنة وفى ديسمبر سنة ١٨٦١ اجتهد دوسيوس رجل من طلبة العلم فى قتل الملكة ومع ما حصل من سوء تدبيره فى أن يكون قتيله امرأة قد دافعت الاهالى عنه مجاهرة وفى ٢٢ اقطوبر سنة ١٨٦٢ التهبت فى أثينة ثورة وبواسطة نفور الجيش وميله للامة نجحت هذه الثورة

وفى اليوم الثانى تشكلت حكومة وقتية بمعرفة زعماء الثورة وأعلن هذا المجلس بخلع الملك أوطو وانعقد المجلس الاهلى وكان الملك فى هذا الوقت غائبا فى الفرجة على مينات نواحى موره فأخذ أخبار خلعه عند عوده الى بيروس فلم يحصل منه أدنى سعى فى النزول على البر وعقد مجلسا مع الوزراء الاجنبيين الموجودين فى أثينة وهو على ظهر السفينة وعلى حسب ما قدمه له الوزراء من النصائح أعلن بهذا القرار فى يوم ٢٤ من الشهر المذكور وترك الجريس وتوجه لحال سبيله ومع هذا فانه ما تنازل نزولا رسميا وسافر فى الحال الى جرمانيا على فرقاطة انكليزية وفى أول ديسمبر صدر قرار من الحكومة الوقتية بانتخاب ملك جديد فسعت انكلتره فى أثناء الانتخاب بانتخاب ملك يكون موفيا لاغراضها ويحول الى الجريس سلطنتها على الجزائر اليونانية فالتأم المجلس الاهلى فى أثينة فى يوم ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٦٢

وفي ١٦ فبراير من سنة ١٨٦٣ تقرر خلع العائلة البافاريانية وفي ٣٠ مارث انتخب البرنس جورج ابن ملك دانيمارقه ملكا على الجريس وصدق على هذا الانتخاب الدول المعظمة في يوم ١٦ يوليه ووصل الملك جورج أثينة في شهر اقطوبر سنة ١٨٦٣ وفي ١٣ من الشهر المذكور أخذ عليه اليمين والعهد بمعاضدة قانون النظام وفي ١٤ نوفمبر سنة ١٨٦٣ حصل التوقيع على محالفة بين انكلتره والجريس بواسطتها صارت الجزائر اليونانية قسما من المملكة الجريقية ومن ثم استوفى الأمل الذي كان أهل هذه الجزائر ينتظرونه من مدة طويلة جدا

وفي سنة ١٨٦٦ عصت جزيرة كريد على الدولة التركية وتداخل الجريق مجاهرة في الميل مع الثائرين ومع ما أجرته الحكومة من الاحتياطات فانهم أعدوا لهم مساعدات عظيمة وأخذ الترك هذه الثورة وخرج الكثير من جزيرة كريد نحو من ٣٠٫٠٠٠ نفس معظمهم نساء وأولاد فقطنوا في الجريس فتولد من المساعدات التي أجرتها الجريق مع ثائري كريد وكذا مما أعانوا به المنسحبين من كريد وقوع المملكة في حرب مع الترك ومع ذلك حصل البعد عن هذا الخطر المضر بالبلاد والعباد ولم تزل كريد لحد الآن في ارتباك وثورات وقلاقل وعصيان على الدولة العلية ومع ما منحتها الترك من راحة أهلها وبلادها فان دسائس الجريق مؤثرة على عقولهم ولم يسكنوا ويهدؤا حتى ينقرضوا أو يستقلوا

وفي سنة ١٨٧٠ ساح أربعة أشخاص من الانكليز في المملكة الجريسية وتوجهوا المشاهدة ميدان واقعة مرثون فضبطهم فرقة من الجريق وقتلوهم من بعد أن يئسوا من المخابرة معهم في فداء أنفسهم فأقامت انكلترا الحجة على الجريس بسبب أن القتل حصل داخل أرضها وشددت بريطانيا الكبرى في هذه المسئلة وهددت الجريس باعلان الحرب ثم انفصلت هذه المسئلة بأن دفعت الحكومة الجريقية مبلغ ١٠٫٠٠٠ استرلينه لعائلة كل واحد من المقتولين بطريق المخابرات

ولما انتشب الحرب بين روسيا وتركيا في سنة ١٨٧٧ في عهد السلطان عبد الحميد خان السلطان الحالي نهضت الجريق للانضمام الى روسيا في أمل تحرير جميع الممالك الجريقية من الحكم الاسلامي الأن حكومتها أذعنت لانذار بريطانيا اليها وبقيت مستمرة على الحيادة وفي سنة ١٨٨١ طلب الجريس من الدولة التركية قطعة أرض من البانيا مقدارها ٥١٧٠ ميلا مسطحا فاستولت عليها وصارت مساحة المملكة الجريسية ٢٥٠٠٠ ميل مسطح وتعداد سكانها نحو من ٢٠٠٠٠٠٠ نفس وبعد ذلك اجتهدت الجريس في أخذ مقدونيا وتساليا وما جاورهما من الاراضي والبلاد الجريقية القديمة الا انه لم يحصل من الدولة التركية اقرار على ذلك فاستعدت الجريس للحرب ضد الترك وجندت جنودها على حدودها من جهة تركية فقابلتها الجيوش التركية وهزموهم في أول ملحمة وشتتوا شملهم ولزمت الجريس حدها وعرفت قيمة نفسها وقعدت في أدبها لحد يومنا هذا وهو أول نوفمبر سنة ١٨٩١ بعد الميلاد

﴿ الكتاب الرابع عشر ﴾

﴿ تاريخ المملكة الجريقية في سوريا ﴾

﴿ الباب الاول ﴾

﴿ من ابتداء قيام المملكة الى الفتح الروماني ﴾

تقسيم مملكة اسكندر – وقوع سوريا في حصة سلقوس – تشييد أو قيام المملكة – نجاحها

الاولى

الاولى ـ تأسيس انطاكيه ـ سلطنة انطيخوس الاول ـ حروبه ـ انطيخوس الثانى ـ خلفاؤه ـ سلطنة انطيخوس الاكبر ـ الحرب مع مصر ـ مصائب انطيخوس ـ غارته على فارطية ـ حروبه مع رومة ـ هزيمته ـ انطيخوس الرابع ـ جبر اليهود على الثورة والعصيان ـ ضعف سلطنة انطيخوس الخامس ـ ديمتريوس الاول ـ صيرورته فى حروب مع رومة ـ اسكندر بلاس ديمتريوس الثانى ـ أسره بواسطة الفارطيين ـ عبوديته ـ سلطنة انطيخوس السابع ـ ضعف المملكة السوريانية ـ حروب داخلية ـ صيرورة سوريا رعية لارمينية ـ تغلب پومپى عليها ـ صيرورتها ايالة رومانية

قدذكرنا فيما سبق تقسيم مملكة اسكندر الاكبر من بعد موته بين قواده وذكرنا تشييد المملكة المصرية تحت سلطنة بطليموس لاغوس وسعادة كل من مقدونيا والجريس تحت أحكام خلفاء اسكندر ونذكر الآن قيام المملكة الجريقية السوريانية بواسطة سلقوس

وهذه المملكة مؤرخة من ابتداء ٣١٢ قبل الميلاد وقدذكرنا ان سلقوس انتهز فرصة الصد الذى حصل لانطيجنوس من انتصار بطليموس لاغوس على ديمتريوس بالقرب من غزة وأعاد سلقوس استحواذه على بابل ومد سلطنته على كامل أقاليم مملكة اسكندر الكائنة بين الفرات ونهر السند من جهة وبين نهر سيحون والبحر المحيط الهندى من جهة أخرى وأنشب حربا على أحد الملوك الهندية وكانت مملكة هذا الملك واقعة على رأس ميا نهر الكنج وأرغمه على عقد معاهدة نال فيها سلقوس فوائد تجارية جليلة و٥٠٠ فيل أضافها الى جيشه ومن بعد نصرة انطجنوس فى سلميس تلقب سلقوس باللقب الملوكى ومن بعد واقعة ابسوس فى سنة ٣٠١ قبل الميلاد أخذ سلقوس قيدوسيا وقسما من فريجيا وسوريا العليا والشط الايمن من وسط نهر الفرات من نصيبه فى تقسيم الاراضى بين الفاتحين

وصرف سلقوس السنين الباقية من القرن فى ترتيب وتنظيم كافة ممالكه حتى صارت مملكته أجل الممالك التى تشكلت من رفع ممالك اسكندر وأظهر فى هذا الشغل جودة قريحته وذكاء عقله وأخطأ فى كونه لم يداوم على بقاء بابل عاصمة مملكته لانه بها كان يمكن اسوريا ضبط الشرق وحرمان المملكة الفارطية من القيام بالعصيان وقسم سلقوس مملكته الى اثنتين وسبعين ايالة جميعها كانت تحت القانون الجريقى وحكام من مقدونيا وجند جيشا ثابتا من العساكر الوطنية وجعل قواده وضباطه من المقدونيين والجريقيين وابتنى مدائن جديدة فى كل ايالة وهى ستة عشر من هذه المدائن باسم انطاكيا على اسم أبيه وخمسة باسم لادسيا على اسم أمه وسبعة باسم سلوسيا باسم نفسه وعدة مدائن باسم زوجتيه أپاميا واسراطونيس فأما انطاكيا الموجودة على نهر أورونطيس وكانت احدى هذه المدائن فانها صارت عاصمة المملكة وصرف سلقوس الباقى من عمره فى بنائها وزخرفتها وابتنى سلوسيا وجعلها مينة لها وصارت أنطاكيا أكبر وأشهر مدن الشرق واستمرت على موقعها ودامت على مركزها نحو ألف سنة

وفى سنة ٢٩٣ قبل الميلاد قسم سلقوس مملكته مع ابنه انطيخوس فأعطاه كامل الاقاليم الواقعة فى شرق نهر الفرات وفى سنة ٢٨٧ قبل الميلاد أغار ديمتريوس وكان تغلب على مقدونيا ثم ضيعها على

الاقاليم الآسياوية التابعة الى ليصيماخوس مؤملا تشييد مملكة جديدة لنفسه بواسطة سيئة ولم
يكتسب أدنى فائدة من هذه الجهة عبر الى سيليسيا وأغار على الاملاك السورية فهزمه سلقوس وأسره
عند المدة الباقية من حياته وفى سنة ٢٨١ قبل الميلاد قتل ليصيماخوس ابنه باغراء من زوجته
أرصينوى المصرية وأخيها بطليموس ثيروفوس فهربت أرملة هذا البرنس المقتول الى ديوان سلقوس
فأخذ بنصرها وأغار على ممالك ليصيماخوس فانهزم ليصيماخوس وقتل فى واقعة كروپيديون وصار
سلقوس سيدا على كامل مملكة اسكندر الاكبر وأسرع فى الغلبة على عاصمة ليصيماخوس فقتل فى
يوم جلى أى ان بطليموس ثيروفوس قتله جهرة وكان ملك مقدونيا وقت ذلك

وجلس انطيخوس الاول الملقب سوطير على كرسى مملكة سوريا بمجرد موت أبيه سلقوس وكانت
مملكته مقصورة فى آسيا ومن بعد جلوسه بقليل اشتبك فى حرب مع الملوك الوطنية فى بثينيا وفى أثناء
هذا الحرب خسر الاقليمين اللذين عرفا فيما بعد باقليمى غلاطيا وبرجاموس ثم شرع بعد فى حروب مع
مصر فكان هذا الحرب لا طائل تحته وكان معضدا فيه بصهره ماغاص زوج ابنته وكان ملك صرنى
وهى الآن طرابلس الغرب وعاصيا على مصر مما انه كان تحت سلطنتها وانهزم انطيخوس فى واقعة مع
الغلبين بالقرب من أفسوس وقتل فى سنة ٢٦١ قبل الميلاد

ثم استخلف من بعده انطيخوس الثانى وتلقب باللقب الكفرى أى انه لقب نفسه بلقب طيوس ومعناه
الله من بعد موت أبيه وكان ملكا ضعيفا فاجرا قبيح السلوك فانه ترك أشغال حكومة مملكته لازواجه
وندمائه فأسرعت سوريا فى الضعف والاضمحلال تحت حكمه وكان كل من مملكتى بقطريا (بلخ)
وفارطية تشيدا فى نحو سنة ٢٥٥ قبل الميلاد فتغلبا على معظم أراضى مملكة سوريا وكسرا شوكتها
ولما اشتبك فى حرب مع مصر قفل هذا الحرب بطلاق زوجته وتزوج برنيس بنت ملك مصر ولما مات
ملك مصر بعد انطيخوس وحصلت الغيرة لزوجته الاولى ليودسيا قتلته مع برنيس وابنهما الطفل
الصغير فى سنة ٢٤٦ قبل الميلاد

وخلف سلقوس الثانى ابن ليودسيا أباه على كرسى المملكة وفى السنة الثالثة خسر نحو كامل ممالكه
من غارة أغارها عليه بطليموس الثالث وكان سبب غارته هذه هو الانتقام لاخته برنيس والاخذ بثارها
نظير ما حصل من قتلها وساق بطليموس جيوشه المظفرة حتى وصل نهر السند الا أنه رجع مسرعا
على أعقابه الى بلاده من ثورة حصلت فيها فخسر جميع ما كان استحوذ عليه وفاز سلقوس بتشييد
سلطنته ثانيا من ابتداء نهر السند الى بحر الارخبيل ومن بعد مضى قليل ابتدأ انطيخوس هيراكس
وهو الاخ الاصغر لسلقوس فى ثورة مهولة وفى نفس هذا الوقت اكتسب الفارطيون مظفرات جليلة
فى نواحى الحد الشرقى من المملكة وهزموا سلقوس فى واقعة كبيرة فى سنة ٢٣٧ قبل الميلاد ثم استمر
الحرب الداخلى الى سنة ٢٢٩ قبل الميلاد حتى انهزم أنطيخوس وهرب هائما على وجهه مدة حياته
وقتل سلقوس فى سنة ٢٢٦ قبل الميلاد من وقعة وقعها من فوق حصانه

ثم جلس سلقوس الثالث على التخت وشرع فى السنة الثالثة من سلطنته فى حملة على برجاموس فقتل
فيها بواسطة ثورة قامت عليه من عسكره فى سنة ٢٢٣ قبل الميلاد فجلس من بعده على تخت المملكة
انطيخوس الثالث الملقب بالاكبر ابن ابن سلقوس مؤسس هذه العائلة وكانت سلطنته حاوية جميع
المدة المشحونة بوقائع وحوادث تاريخ سوريا وابتدأ فيها باخماد ثورة مولوأمهر القواد السورية وكان

جعل

جعل نفسه سيد الناحية الشرقية من نهر الفرات وهزم كل جيش صار ارساله لصده واخماده وفى مدة غياب انطيخوس فى اخماد هذه الثورة تقلد أحد أقاربه أخيوس لقب الملك وصورته وكان انطيخوس أعلن الحرب على مصر واشتاق لتوجيه حربه عليها فاكتفى بتعنيف هذا العاصى وسار الى فلسطين وفينيقيه وتغلب عليهما وكانت فلسطين انفصلت من مصر بسبب ما حصل من بطليموس الرابع من انتهاك حرمة معبد اليهود فخضعت لملك سوريا على رغبة منها ثم سار انطيخوس نحو الجهة الجنوبية والتقى مع الجيش المصرى فى نواحى رافية (العريش الآن) على الحد الشرقى من الصحراء فانهزم فى سنة ٢١٧ قبل الميلاد وخسر كامل ما تغلب عليه ماعدا سيلوسيا مينة انطاكية ثم عقد صلحا مع مصر وعاد الى اخيوس وبمساعدة عطالوس ملك برجاموس هزمه وحصره فى سرديس وفى سنة ٢١٤ قبل الميلاد تيسر له الحصول على القبض على نفس اخيوس بالخديعة وانتهى أمر العصيان ثم توجه انطيخوس الى القسم الشرقى من مملكته لملاقاة ارصاسيس الثالث ملك فارطيه (أحد ملوك الطوائف) وكان هددميديا وأرعب جاشها فسار على وجه السرعة نحو همذان عابرا من صحراء هيكاطومپيلوس ودخل همذان وضبطها فى سنة ٢١٣ قبل الميلاد ومنها عبر الجبال ودخل فى أرض حركانيا (مازوندران الان) وفيها أشعل واقعة مع الفارطيين حصل الشك فى نتيجتها هل كان انطيخوس رضى بعقد صلح وأقر على استقلالية فارطيه وحركانية مملكة تحت سلطنة ارصاسيس أولا ثم بعدها دخل فى حرب مع بقطريا (بلخ) الا أنه من بعد أن نال بعض مظفرات عقد صلحا مع ملك باقطريا عوثيديموس وتركه مستحوذا على بقطريا والصغد وعقد عقد الزواج بين ابنة ملك بقطريا وديمتريوس ابن انطيخوس ثم ان انطيخوس عبر سلسلة كوه الهند ودخل فى الأراضى الافغانية وجدد المعاهدة القديمة بين سوريا والمملكة الهندية من تلك الجهات وعاد الى بلاده من وسط أرغوسيا (بلوجستان) ودرنغيانه وكرمانيا وقضى فصل الشتاء فى اقليم كرمانيا وفى السنة التالية شرع فى غزوة بحرية فى الخليج الفارسى على عرب الشاطئ الغربى من الخليج المذكور وهم لصوص مياه الخليج وأنزل بهم وأذاقهم أشد العذاب ثم عاد الى بلاده فى سنة ٢٠٥ قبل الميلاد

ثم ان انطيخوس عاد لما كان عليه من الغارة على مصر وتقوى على شغله بأن هذه المملكة صارت فى هذا الوقت تحت أحكام الولد الصغير بطليموس الخامس وتحت نيابة عاجزة عن ادارة أحكامها فظفر بكونه أعاد لنفسه سوريا السفلى وفينيقيه وفلسطين بنصرة انتصرها فى نواحى بانياس سنة ١٩٨ قبل الميلاد ووعد انطيخوس باقليم سوريا السفلى وفلسطين مهرا لابنته كايوبطره وكان زوجها الى بطليموس الخامس الا أنه لم يوف بهذا الوعد لاهو ولا من جاء بعده من خلفائه ثم أخضع آسيا الصغرى وتغلب على خرسونه من أعمال تراسة وفى سنة ١٩٦ قبل الميلاد طلب الرومانيون من سوريا تسليم جميع الاراضى التى أخذتها من مصر ومقدونيا وكان الرومانيون هزموا فيليب صاحب مقدونيا واستولوا على حمايه مصر فلم يقبل انطيخوس اجابة هذا الطلب وتساعد بحنبال القائد الاكبر القرطاجنى وكان هرب والتجأ الى ديوانه واستعد للحرب وفى سنة ١٩٢ قبل الميلاد أغار على الجريس الا أنه من بعد أن نال بعض المظفرات هزمه الرومانيون هزيمة فاصلة فى ترموبيلى فانجبر على الانسحاب الى بلاده وأعقب الرومانيون نصرتهم بحملتين بحريتين اغتصبوا بهما كامل الساحل الغربى لآسيا الصغرى من سوريا وعبر الجيش الرومانى بوغاز الدردانيل تحت قيادة كل من الاثنين صكيپوس وعجز أنطيخوس

بالكلية فى الواقعة الكبرى التى حصلت فى مغنيسيا من أعمال ليديا حتى انه التزم على عقد صلح أرغم فيه على التنازل عن كامل آسيا الصغرى ماعدا اسيليسيا واتفق على دفع غرامة حربية مقدارها ١٢٠٠٠ وزنه أى ١٤٤٠٠٠٠ دولر أى ٢٤٠٠٠٠ استرلينه والاراضى التى سلمها انطيخوس أعطاها الرومانيون الى برجاموس ومن ثم صار لها قوة كافية لصد أعمال سوريا وأعقب هذه الخسائر وقوع ثورة فى أرمينيـة وكانت هذه المملكة تجحت فى تشييد استقلاليتها وسلب أنطيخوس هيا كل اسياومعابدها من جميع كنوزها وخزائنها فى أثناء قمع هذه الثورة وجمع النقود اللازم دفعها فى الغرامة التى ضربها عليه الرومانيون فتولد من ذلك ثورة فى علماى قتل فيها فى سنة ١٨٧ قبل الميلاد وخلف سلقوس الرابع الملقب فيلوباطير أباه على تخت المملكة فتسلطن احدى عشرة سنة كانت مدتها خالية الوقائع والحوادث وقتله خزندارة هليودوروس وقبض على التخت من بعد قتله فى سنة ١٧٦ قبل الميلاد الأان انطيخوس الرابع ابيفانيس خلعه على الفور بمساعدة برجاموس له وكان انطيخوس هذا هو الابن الثانى لانطيخوس الاكبر وورث قسما عظيما من مهارة أبيه وشجاعته وبما أنه كان قام أربع عشرة سنة فى رومه نزيلا فيها فادخل كثيرا من العوائد الرومانية فى مملكته وأنشب حربا على أرمينية وحصل له الغضب الشديد لما طلبت مصر استلام سوريا السفلى وفلسطين التى كان أبوه وعدبهما مهرا لزوجة بطليموس الخامس وأغار على مصر ولما صار على شرف التغلب عليها أرغمه الرومانيون على الانسحاب منها فاغار على اليهود وأخذ مدينتهم المقدسة بالهجوم عليها عنوة ونهب المعبد وأفسد حاله ونجسه ومن بعد مضى قليل عزم على أن يقيم عبادة ياهواه (الله) فتولد من هذا وقوع الحريس فى الحرب المفيبانى الاستقلالى وانهزم جيشه عدة مرات بواسطة يهودا مقابيوس فسار انطيخوس لمعاقبة يهودا نفسها وفى مدة سيره وقف فى الطريق لاجل سلب معبد علماى فاصيب بجنون حاد كان سببا فى موته سنة ١٦٤ قبل الميلاد

وخلف انطيخوس الخامس عوباطير ابن ابيفانيس أباه وكان عمره اثنتى عشرة سنة فانتقلت المملكة الى أيدى لصياص الوصى عليه والنائب فى المملكة عنه فتوجه النائب والملك الشاب الى يهودا لمباشرة الحرب فارغما يهودا مقابيوس على حصر نفسه فى مدينة أورشليم ثم ظهر فيليب فى انطاكيا بالمرسوم الملوكى وكان اقامة أبيفانيس وصيا على ولده من بعد موته وقبض على الحكومة فأمر لصياص الملك فى الحال بعقد الصلح والعود الى انطاكيا وهزم لصياص فيليب وقبض عليه وقتله ثم ان لصياص رأى فى نفسه انه لم يفعل شيأ يعود منه النفع على المملكة لانه لم يشرع فى طريقة من الطرق اللازمة لمقاومة الفارطيين وكانوا فى هذا الوقت تغلبوا على الاقاليم الشرقية ولا أجرى الاحتياطات اللازمة فى صد الرومانيين وكانوا قوواشروط معاهدتهم مع انطيخوس الاكبر باعمال شديدة خارقة للعادة فمن ثم صار الخطر المهدد للمملكة شديدا جدا فانتهى هذا الخطر الشديد بوصول ديمتريوس وكان هرب من رومة من بعد أن لبث فيها عدة سنين نزيلا بها وضبط التخت وقتل انطيخوس ولصياص معا

وابتدأت سلطنة ديمتريوس الاول فى سنة ١٦٢ قبل الميلاد فابتدأ فى سلطنته بالعزم والكد على فتح يهوذا فقابله يهودا مقابيوس بصد شديد ومن بعد موت هذا القائد الشجاع وصل ديمتريوس الى ماوصل اليه من النصر والظفر فحرمه الرومانيون منه وعقدوا محالفة مع يهوذا ومنعوه من أن يحصل منه أدنى ارتباك أو شغب فى هذا الاقليم وأعلنوا باستقلالية مملكة على حدتها ثم ان ديمتريوس بعد هذا شرع فى

عزل

عزل اريارطيس ملك قبدوسيا وأنعم بالتاج على عورو فرنيس ابن أبيه خص الملوك المجاورون له اسكندر بلاس بن ابيفانيس من الزنى على طلب التاج لنفسه واتحدوا سوية وانضم الرومانيون الى هذا الاتحاد في مساعدته فغرقت في عميق بحار أهوالها ومصائبها حتى ان كل واحد من مدعى التاج سار في طريق الجور والتعدي على اليهود وفي سنة ١٥١ قبل الميلاد قتل ديمتريوس واستحوذ خصيمه على التاج وتسلطن اسكندر بلاس خمس سنوات كانت فيها مظفراته موجهة على الخصوص نحو مصر وتزوج كليوبطره بنت ملك مصر الا أنه تحقق من أعماله بانه ما كان يوافق لان يكون ملكا بالكلية لانه ترك سلطنته الى رجل نديمه دنيء الاصل أقبح واحد في عصره اسمه أمونيوس واعتكف هو على الخلاعة والفسق والفجور والملاهي وعامل صهره أي حماه بافعال الخيانة والرذالة حتى ان بطليموس فيلوباطير نكث معاضدته له وأخذ منه ابنته كليوبطره وزوجها ديمتريوس نكاطور بن ديمتريوس الاول فتقوى هذا بكراهة السوريين لاسكندر وادعى لنفسه التاج وبمساعدة بطليموس هزم المدعي خصمه فقتله قواده من بعد مضي مدة قليلة وصار ديمتريوس الثاني ملكا في سنة ١٤٦ قبل الميلاد فكان في حكمه ظالما غشوما حتى نفرت منه رعيته وبعدوا عنه ولما نهض أهل أنطاكيا في العصيان عليه أمر الحرس المرتب عليه من اليهود بنهب المدينة جهارا ثم ظهر مدع آخر بواسطة ديودوطوس صاحب اباميا وكان هذا المدعي اسمه انطيخوس السادس ابن اسكندر بلاس وكان طفلا عمره سنتان ومن بعد مضي ثلاث سنوات أو أربعة اقب ديودوطوس هذا الطفل باسم طريفون وأعلن له بالملك في سنة ١٤٣ قبل الميلاد وفي أثناء ذلك كبس الفارطيون على المملكة كبسا شديدا فعهد ديمتريوس أشغال المملكة وحكومتها الى زوجته كليوبطره وسار هو الى الفارطيين فنال في مبادي حربه مظفرات الا انه في سنة ١٤٠ قبل الميلاد هزمه ارصاسيس السادس ملك فارطية وأخذه أسيرا واستمر عنده في الاسر مكرما نحو عشر سنوات وزوجه بزوجة من برنسيسات فارطية فكانت هي الزوجة الثانية له ولما رأت كليوبطره أن لا طاقة لها على حفظ موقعها من دون مساعدة أحد دعت لمساعدتها أخا زوجها انطيخوس صيديطيس فضم جيشه الى جيشها ومن بعد محاربة استمرت سنتين مع طريفون هزمه وقتله في سنة ١٣٧ قبل الميلاد ثم ان هذا الشجاع صيديطيس جعل نفسه الملك الوحيد في سوريا وتلقب باسم انطيخوس السابع وتزوج كليوبطره امرأة أخيه وهذه رأت في نفسها أنها صارت خالصة من زوجها بواسطة أسره عند الفارطيين وكذا بواسطة زواجه برنسيسة منهم وأغار انطيخوس على يهوذا وجعلها تحت الحكم السوري مرة أخرى من سنة ١٣٥ الى سنة ١٣٣ قبل الميلاد ثم شرع في حملة على فارطية بعزم خلاص أخيه منهم فنال في مبادي حربه نصرات جليلة على الفارطيين لكنه انهزم مع خسارة جيشه وقتله

ومن قبل موت أنطيخوس السابع بقليل كان ملك فارطية أفرج عن ديمتريوس وأرسله الى انطاكيا لاجل طلب تاجه مؤملا أن يرغم انطيخوس ويعزله ويحافظ على مملكته فاستلم ديمتريوس حكومته وتسبب من موت أخيه أن صار لا منازع له ومع هذا فانه من بعد مدة قليلة ظهر له خصم آخر وذلك أن بطليموس فسكون صاحب مصر أقام شخصا اسمه اسكندر ظابنياس طالبا التاج السوري وادعى انه ابن اسكندر بلاس انتقاما لنفسه من ديمتريوس بما حصل منه من معاضدة كليوبطره فحصل بين الخصمين واقعة مهولة بالقرب من دمشق فانهزم ديمتريوس وهرب الى زوجته الاولى كليوبطره في مدينة

بطليموسية (عكا) فلم تقبله عندها فاجتهد فى أن يلقى نفسه من أعلى سور فضبط وقتل فى سنة ١٢٦ قبل الميلاد وكانت كليوبطره قتلت ابنها الاكبر سلقوس لانه كان تقلد لبس التاج من دون رضا منها فأجلست ابنها الثانى انطيخوس غريبوس على التخت مع نفسها يحكمان سوية وفى هذا الوقت تسلطن ظابيناس فى جهات من سوريا واستمر فى السلطنة مدة سبع سنوات وأخيرا حصل منه منازعة مع مربيه الملك المصرى فتركه بطليموس فسكون لانطيخوس سنة ١٢٤ قبل الميلاد وفى سنة ١٢٢ قبل الميلاد قبض عليه انطيخوس وألزمه بشرب السم القاتل وفى السنة التالية وجد انطيخوس أمه مشغولة بدسيسة عليه فقتلها وأراح نفسه منها وانفرد بالملك على حدته فاعقب هذه مدة سلمية استمرت ثمانى سنوات وكانت سوريا فى حالة محزنة مكدرة من عدم راحتها وضعفت حالتها من دوام النزاع والشقاق فيها وخسرت يهوذا والاقاليم الشرقية وصارت فى حد نفسها مملكة صغيرة لاشوكة لها فى فساد مستمر وصارت أموال المملكة فى أيدى بعض سفهاء الاشراف وتراكم الفقر على الامة حتى صارت على شفا جرف من الانقراض

وفى سنة ١١٤ قبل الميلاد انفجرت ثورة تحت رياسة انطيخوس تظنوس بن كليوبطره من زوجها الثالث صيديطيس فتولد من ذلك حرب دموى استمر ثلاث سنوات اتجبر فيه الملك على قسمة أراضيه مع أخيه من أمه ثم اشتبك الحرب ثانيا فى سنة ١٠٥ قبل الميلاد واستمر طول القرن الى حد سنة ٩٦ قبل الميلاد فتولد منه أشد العناء والضرر والخسائر المهولة للمملكة وفى أثناء هذه المدة لاقت سوريا أعظم المصائب من سلب ونهب الاعراب الموجودين فى الجهة الشرقية منها والخراب والدمار من المصريين الموجودين فى حدودها الجنوبية واستقلت سيليسيا وصور وصيدا وسيلوسيا وفى سنة ٩٦ قبل الميلاد قتل هيراقليون انطيخوس وكان هيراقليون هذا أحد حكام ديوان انطيخوس واجتهد فى حفظ التخت لنفسه الا انه خاب أمله وانقطع سعيه

وخلف سلقوس أباه واستمر الحرب مع تظنوس فانهزم فى واقعة كبيرة وقتل المدعى نفسه بنفسه كى ينجو من شر الاسر الا أن ابنه انطيخوس عوزيبس حل محله فى حربه وتقلد اللقب الملوكى وطرد سلقوس الى نواحى سيليسيا فاجتهد سلقوس فى جمع نقود من أهل موبسيوسيطه بالرغم عنهم فقاموا عليه وأحرقوه بالحياة ثم جلس فيليب الابن الثانى لانطيخوس الثامن على التخت واستمر بضع سنين منشب الحرب مع عوزيبس مساعدا باخويه ديمتريوس وأنطيخوس ديونيسوس فانهزم عوزيبس وهرب الى فارطية ومن بعد هذا صار فيليب واخوته لاطاقة لهم على توزيع المملكة وتقسيمها بينهم فاشعلوا حروبا على بعضهم فخنق أهل سوريا من هذه المشاحنات والحروب التى تولد منها قتل النفوس ودمار الاقاليم ودعوا طغرانيس ملك أرمينية ليكون لهم ملكا فقبل دعواهم ومن سنة ٨٣ الى سنة ٦٩ قبل الميلاد صارت سورية فى أمن واطمئنان وفى نحو غلاق هذه المدة صار طغرانيس عرضة لانتقام الرومانيين من أجل مساعدته صهره متريداطيس ملك بونطوس فأرغموه على التنازل عن سوريا وانتقل التاج الى انطيخوس الثالث عشر آسياطيخوس فتسلطن ثلاث سنوات وفى سنة ٦٥ قبل الميلاد عزل بومبى الاكبر آسياطيخوس وأخضع سوريا وترتبها ايالة رومانية والله أعلم بغيبه وأحكم

(جدول)

﴿ جدول ملوك العائلة السلوسيانية فى سوريه وتواريخ سلطنتهم ﴾

سنة قبل الميلاد		سنة قبل الميلاد	
٣١٢	سلقوس الاول نكاطور	١٦٥	انطيخوس الخامس اباطير
٢٨١	انطيخوس سوطير	١٦٢	ديمتريوس الاول
٢٦٢	انطيخوس الثانى طيوس	١٤٠	انطيخوس صيد يطيس
٢٤٧	سلقوس كاللسنيوس	١٣١	ديمتريوس الثانى
٢٢٧	سلقوس الثانى ثيروفوس	١٢٢	انطيخوس غريفوس
٢٢٤	انطيخوس الثالث الاكبر	٩٧	انطيخوس سيزيشنوس
١٨٧	سلقوس الرابع فيلوباطير (محب أبيه)	٩٠	انطيخوس سوسبيس
١٧٦	انطيخوس ايبفانيس (رفيع المقام)	٥٧	سلقوس سبروساكطيس

﴿ الكتاب الخامس عشر ﴾

﴿ تاريخ الممالك الصغيرة الجريقية فى آسيا ﴾

﴿ الباب الاول ﴾

﴿ تاريخ برجاموس وبسنيا وبفلاجونيا وبونطوس وقبدوثيا وارمينيه وبقطريا ﴾

قيام مملكة برجاموس ـ عومنيس الاول ـ سلطنة عطالوس الاول ـ تقلده لقب ملك ـ معاهدته مع رومه ـ عومنيس الثانى ـ مكافأة الرومانيين له ـ فخر المعقولات فى برجاموس ومجدها ـ سلطنة عطالوس الثالث ـ وصايته بمملكته للامة الرومانية ـ صيرورة برجاموس اقليما رومانيا ـ تقدم مملكة بسنيا ـ بروسياس الاول ـ حروبه ـ موت حنبال ـ سلطنة نقوميديس الثانى ـ نقوميديس الثالث ووصايته بالمملكة لرومة من بعد موته ـ قيام مملكة بفلاجونيا وسقوطها ـ تقدم مملكة بونطوس ـ متريداطيس الثالث ـ فتوحاته ـ تغلبه على سينوب ـ متريداطيس الرابع ـ مساعدته رومة فى حروبها ـ متريداطيس الملك الاكبر ـ فتوحاته ـ حروبه مع رومة ـ هزيمته وموته ـ صيرورة بونطوس ايالة رومانية ـ تاريخ مملكة قبدوثيا ـ قيام الممالك الارمينية وسقوطها ـ تاسيس مملكة بقطريا الجريقية ـ تاريخها ـ انقراضها تحت أرجل فارطيه

كان يوجد خلاف الممالك التى ذكرناها فيما سبق عدة ممالك صغيرة أقيمت على رفع من مملكة اسكندر الاكبر من الضرورى ذكر الاهم منها على وجه الاختصار فلنذكرها هنا على سبيل العلم بها فنقول أولا ـ مملكة برجاموس ـ كانت مدينة برجاموس الكائنة على نهر كيكوس من أعمال ميسيا مرعية من قديم الزمان بانها احدى الحصون أو المعاقل الكبيرة فى اسيا الصغرى وكان ليسيماخوس ملك ثراسة جعلها مستودع خزائن مملكته وعهدها تحت محافظة الطواشى فيلطيروس ولما مات ليسيماخوس فى واقعة كوروبيديون ضبط فيلطيروس هذه المدينة تحت اسم سلطنة ليسيماخوس ثم

بمساعدة ما كان فيهامن خزائن وكنوز ليصيماخوس نجح فى تشييدا ستقلالية المدينة لنفسه وتسلطن فيها عشرين سنة أى من سنة ٢٨٣ الى سنة ٢٦٣ قبل الميلاد ومن بعد موته خلفه عومنيس الاول ابن أخيه على تخت المدينة ومن بعد جلوسه بقليل أغار عليه انطيخوس الاول ملك سوريا فهزمه عومنيس فى واقعة شديدة دموية بالقرب من مدينة سرديس وبهذه النصرة زاد فى أراضى مملكته زيادة كبيرة ثم مات فى سنة ٢٤١ قبل الميلاد من كثرة اعتكافه على الشرب بعد أن تسلطن اثنتين وعشرين سنة واستخلف من بعد عومنيس هذا عطالوس الاول ومن قبل ذلك بنحو ثلاثين سنة كان الغليون وهم قوم قطنوا فى شمال نواحى فريجيا أو غلاطيا كما ذكرنا سابقا يشنون غارات السلب والنهب على البلاد المجاورة الى برجاموس ففى نحو سنة ٢٣٩ قبل الميلاد شنوا غارة على برجاموس فالتقى معهم عطالوس وأوقع فيهم وهزمهم شر هزيمة و بواسطة نصرته على الغيليين لقب عطالوس نفسه بلقب ملك ومن قبله لم يتجاسر أحد من أسلافه على تلقيب نفسه بهذا اللقب ثم من بعد مضى عشر سنوات انجبر على المدافعة عن مملكته من اغارة السوريين وكانوا تحت قيادة انطيخوس هيرا كس أخى سلقوس الثانى وهذا البرنس الطماع أداه طمعه الى أن يجعل نفسه ملك آسيا الصغرى فهزمه عطالوس وطرده منها ونجح عطالوس أيضا فى مد وتوسعة أراضيه حتى أدخل لحد سنة ٢٢٦ قبل الميلاد جميع الممالك الموجودة فى غرب نهر الحاليس وفى شمال جبل طوروس فى مملكته الا أن سلقوس ثيرونوس وانطيخوس الاكبر أخذا منه هذه الفتوحات وفى سنة ٢٢١ قبل الميلاد صار ملكا على بلاده فقط التى كانت موجودة من قبل فى برجاموس فاستخدم فى ديوانه قوما من الغيليين وتولد مما أجروه من حزم الرأى والتدبير عود عيوليس فى سنة ٢١٨ قبل الميلاد وفى سنة ٢١٦ قبل الميلاد عقد محالفة مع أنطيخوس الاكبر فرد عليه ملك سوريا نظير هذه المحالفة أجود جهات الاراضى التى كان أخذها منه وفى سنة ٢١١ قبل الميلاد صار عطالوس حليف الرومانيين والعيطوليانيين فى الحرب التى كانت قائمة من طرفهم على فيليب الخامس صاحب مقدونيا وأدى عطالوس خدمات جليلة لمحالفيه أكسبته صداقة عظيمة ومحبة جليلة عند رومة ومن بعد صلح سنة ٢٠٤ قبل الميلاد هجم فيليب على عطالوس وخرب ممالكه واجتهد فى طرد أسطوله من بحر الارخبيل فعقد ملك البرجامونيين معاهدة مع رودس وفى سنة ٢٠١ قبل الميلاد أوقع المحالفون هزيمة مهولة على أسطول فيليب على مسافة من جزيرة خيوس وفى سنة ١٩٩ قبل الميلاد ابتدأ الحرب الثانى بين رومة وفيليب صاحب مقدونيا ثم ان عطالوس وان كان بلغ من العمر سبعين سنة الا انه دخل مع الشوق والتلهف مع الرومانيين وأدى لهم مساعدات جليلة باسطوله وتولد من كده وسعيه نحو منافعهم موته فى سنة ١٩٧ قبل الميلاد

وجلس عومنيس الثانى أكبر أولاد عطالوس الاربعة على تخت أبيه وورث منه أيضا الشهامة والادارة والسياسة وأدى عومنيس هذا للرومانيين مساعدات جليلة فى حروبهم مع فيليب صاحب مقدونيا وانطيخوس الاكبر صاحب سوريا وبرصوص خليفة فيليب حتى انه من واقعة مغنيسيا سنة ١٩٠ قبل الميلاد صار مكافأة له بزيادة أراضى مملكته زيادة عريضة على شاطئ الدردانيل أى الهلسبون جعلت هذه الاضافات برجاموس احدى الممالك الكبيرة فى الشرق وصارت المملكة البرجامونية مشتملة فى هذه الحالة على ميسيا وليديا وفريجيا وليقونيا وبمفيليا وجهات من كاريه وليسيا فى آسيا وخرسونة فى تراسة مع عاصمتها ليصيماخوسيا والاقسام المجاورة لها من تراسة وفى سنة ١٨٣ قبل الميلاد اشتعل

حرب بين برجاموس وبسنيا نالت فيه برجاموس فريجيا الهلسبونطيه وفى سنة ١٨٣ قبل الميلاد ابتدأ حرب مع بونطوس استمر لمدة سنة ١٧٩ قبل الميلاد وفى سنة ١٦٨ قبل الميلاد دخلت برجاموس فى حرب مع الغيليين وما كان مقصد عومنيس من هذه الحروب التغلب على شئ بل المحافظة والابقاء على الاراضى الموجودة تحت يده

وصارت مدينة برجاموس فى مدة سلطنة عومنيس الثانى احدى المدائن الزاهرة فى الدنيا القديمة وكان أبوه من المخلصين الصادقين فى نشر الآداب والمعارف والحرف والصنائع الا أن عومنيس فاق أباه فى المساعدات التى ساعدها بها وحلى المدينة بمبان مفتخرة غريبة تشهد آثارها التى لم تزل موجودة الى الآن لها بعلو المجد والرونق وشجع على صنعة النقش والحفر وشيد عومنيس دار الكتب البرجامونية الكبيرة فى مدينة برجاموس وما كان يفوق عنها فى المجد والسودد الا دار الكتب التى فى مدينة الاسكندرية بمصر وهرع الى ديوانه كثير من علماء الرجال وفتح مدارس اللغة والتفسير فى المدينة لكنها كانت أقل درجة من مدارس الاسكندرية ودخل رق الكتابة وهو مادة تستعمل للكتابة مشغولة من الحلفاء والبردى المصرى وكان دخوله فى برجاموس فى مدة سلطنة عومنيس

ومات عومنيس فى سنة ١٥٩ قبل الميلاد وترك ولدا له اسمه عطالوس فى سن الطفولية صغيرا جدا على السلطنة فتقلد عطالوس الثانى زمام السلطنة وكان أخا عومنيس ولبس التاج ولقب نفسه فيلادلفوس وتسلطن احدى وعشرين سنة وصرف زيادة عن نصف هذه المدة فى حماية مملكته وحفظها من غارة بروسياس الثانى صاحب بسنيا واشتغل بخلاص نفسه من هذا الجار الشديد السوء بمعاضدته ثورة نقوميديس بن بروسياس على أبيه وساعده فى جلوسه على تخته فتولد من ذلك وقوع الصلح بين برجاموس وبسنيا وكان فيلادلفوس شديد الرغبة فى العمارات محبا لها فاشتغل فى سنى استتباب راحة مملكته ببناء مدائن وأضاف الى كتبخانته أبنية فاخرة وكان من ضمن ما بناه من المدائن مدينة عيومنية فى فريجيا وفيلادلفيا فى ليديا وعطاليا فى بمفيليا ومات فى سنة ١٣٨ قبل الميلاد

وخلف عطالوس الثالث ابن عومنيس الثانى عمه فيلادلفوس وتلقب بلقب فيلوماطير أى محب أمه فكانت مدة سلطنته خمس سنوات حاوية للزعازع والخوف والثورات وأمر بقتل كل من كان على صداقة أبيه وعمه مع عائلاتهم وقتل كل حاكم أو رئيس مصلحة فى المملكة ثم قتل أمه وكثيرا من أقاربه فانقبض قلبه مما أجراه من جرائمه فترك حكومة مملكته وعكف على صنعة النقش والحفر وشغل الجنائن والبساتين ومات فى سنة ١٣٣ قبل الميلاد وترك برغبته مملكته موصيا بها للامة الرومانية فقبلت رومة هذه الوصية من دون ريب فقام اريسطونيقوس ابن زنى من عومنيس الثانى وطلب المملكة لنفسه بما أنه هو الوارث الاصلى لها فنال فى مبادى أمره مظفرات جليلة على الرومانيين وفى سنة ١٣١ قبل الميلاد هزم ليصينيوس قراصوص القائد الرومانى وأسره وكانت رومة أرسلته لاجل احتلال المملكة عنوة وفى السنة التالية هزمه بربينه وأخذه أسيرا وصارت مملكة برجاموس اقليما رومانيا والله يؤتى ملكه من يشاء وهو القوى العزيز

ثانيا ــ مملكة بسنيا ــ كانت بسنيا فى مدة حياة المملكة الفارسية احدى ممالكها الخراجية وكانت محكومة بملوك من أهلها فعادت لها استقلاليتها مع الشدة والثبات من بعد واقعة اربل وقاومت مع الفوز مساعى قواد الاسكندر الاكبر فى الغلبة عليها ولما مات الملك الذى كانت هذه المقاومات جارية

بمعرفته فى سنة ٣٢٦ قبل الميلاد ترك لابنه ظبوطيس مملكة يانعة مزهرة مستقلة بنفسها فتسلطن ظبوطيس ثمانيا وأربعين سنة من سنة ٣٢٦ الى سنة ٢٧٨ قبل الميلاد وحفظ مملكته جيدا من غارات ليصيماخوس وانطيخوس سوطير ومن بعد موته اشتعل حرب داخلى بين ولديه نقوميديس وظبوطيس و بمساعدة الغيليين هزم الاكبر أخاه الاصغر وجلس على التخت ولقب نفسه نقوميديس الاول وأسس مدينة نيقوميديا على خليج اسطاقوس وكان له زوجتان خلف من الاولى ولدا واحدا اسمه ظيلاس ومن الثانية ثلاثة أولاد وأراد أن يترك ممالكه لهم فدعا ظيلاس الغيليين لمساعدته وهزم اخوته من بعد موت أبيه وجلس على تخت المملكة وتسلطن عشرين سنة

ثم ان بروسياس الاول و يلقب بروسياس الاعرج خلف أباه ظيلاس فى نحو سنة ٢٢٨ قبل الميلاد واستمرت سلطنته الى نحو سنة ١٨٠ قبل الميلاد يعنى مدة خمس وأربعين سنة فكان الثمان سنوات الاول منها خالية الحوادث والوقائع ومابقى من سنى سلطنته تقضى فى حروب مستمرة مهمة جدا وفى سنة ٢٢٠ قبل الميلاد ساعد رودس فى حربهامع بيزانطيوم وفى سنة ٢١٦ قبل الميلاد انتصر على الغيليين ثم عقد محالفة مع فيليب الخامس صاحب مقدونيا فى حربه مع رومة وفى سنة ٢٠٨ قبل الميلاد أغار على أراضى برجاموس وأرغم عطالوس الاول الى العود لحفظ مملكته فتولد من الافعال التى فعلها بروسياس عداوته لرومة وازداد غضبها عليه فى سنة ١٨٧ قبل الميلاد عندما التجأ اليه القائد المشهور القرطاجنى حنبال وقبله فى ديوانه و بمساعدة حنبال هجم بروسياس على عومنيس صاحب برجاموس فهزمه الا أنه لم يكتسب شيأ من نصرته هذه لان رومة تداخلت فى أعماله وألزمته على أن يعوض لعومنيس خسائره وأن يتنازل له عن كامل فريجيا الهلسبونطيه وطلب الرومانيون أيضا من ملك بسنيا أن يسلم لهم حنبال وهددوه بالحرب ان امتنع من تسليمه فوهن بروسياس جدا من هذا الطلب وصار لاطاقة له على صدو رقول منه بالقبض على نزيله ولما رأى حنبال عدم امكان نجاة نفسه سم نفسه وخيب طلب أعدائه وعند موته شرح كراهته و بغضه لرومة وضعف بروسياس وعجزه ثم ان ملك بسنيا وجه جيشه على هيراقليه بونطيقة فمع كونه نال بعض مظفرات فى حروبه الا أنه جرح جرحا أقعد فخذه حتى لقب بالاعرج ومات بعد هذا بقليل فى نحو سنة ١٨٠ قبل الميلاد

وخلف بروسياس الثانى أباه وتسلطن الى حد سنة ١٤٩ قبل الميلاد وكان أقبح وأحقر الملوك البسنيانية ونزلت عليه المصائب والشدائد من كل جهة وتزوج أخت برصوص صاحب مقدونيا فعجز عن مساعدته له فى حربه الاخير مع الرومانيين ولما سقط برصوص خضع خضوعا مهينا للرومانيين فرخصواله فى بقائه فى مملكته وفى سنة ١٥٦ قبل الميلاد توجه لحرب مع عطالوس الثانى صاحب برجاموس و بمجرد ماصار على شرف التغلب على ممالك عطالوس تداخل الرومانيون بينهما وألزموه بعقد صلح واسترجاع ماتغلب عليه وأن يدفع الى عطالوس غرامة حربية قدرها ٥٠٠ وزنة أى ١٠٠٠٠٠ ليره استرلينيه ولما وجد ابنه نيقوميديس محبوبا عند الامة ومعتبرا عند أهلها زيادة عن نفسه أرسله الى رومة مع أوامر سرية لحواشيه وخدمه بقتله فلما كشف البرنس ما كان يخفيه من قتله ترك رومة برضا من مجلس السناتو وعاد الى بلاده وقام ببرق عصيانه و بمساعدة عطالوس الثانى صاحب برجاموس هزم أباه نيقوميديس وأسره وقتله

وجلس نيقوميديس الثانى الملقب أبيفانيس أو الشهير على التخت فى سنة ١٤٩ قبل الميلاد واجتهد

ان

أن يكون على حالة عظيمة مرضية مع رومة فادى لها مساعدات جليلة فى حربها مع اديسطونيقوس صاحب برجاموس ومع هذا فما كان على صداقة دائمية مع رومة وفى سنة ١٠٢ قبل الميلاد عقد محالفة مع متريداطيس الاكبر صاحب بونطوس فتغلبا على بفلاجونيا واستحوذا على قسم منها ولما طلب الرومانيون منه عود القسم الى وارثه الشرعى ادعى الطاعة الا أنه بحيله وخدائعه وطده لاحد أولاده وفى سنة ٩٦ قبل الميلاد اجتهد متريداطيس فى الحاق قبدونيا بممالكه فهربت لودسيا أرملة الملك السابق الى ديوان نيقوميديس فتزوجها وادخل فى أمر أشغالها وأمرها بالاقامة فى قبدوسيا ملكة عليها ثم بعد مدة قليلة طردها منها متريداطيس ثم بعد قليل اجتهد نيقوميديس فى عود قبدونيا بحيله وخدائعه الا أن الرومانيين ما دخلت عليهم هذه الخدائع وأخذوا منه كلا من قبدونيا و بفلاجونيا وفى سنة ٩١ قبل الميلاد مات نيقوميديس بعد أن بلغ من العمر ثمانين سنة وخلف نيقوميديس الثالث أباه الا أنه صار اخراجه مباشرة من المملكة بواسطة ثورة قامت عليه تحت رياسة أخيه سوقراطيس وبمساعدة متريداطيس صاحب بونطوس وفى سنة ٩٠ قبل الميلاد أرغمت رومة سوقراطيس على نزوله عن التخت وجلوس نيقوميديس على التخت مرة أخرى فشرع فى عقاب بونطوس بالغارة على أراضيها فخرج متريداطيس الى ميدان الحرب بجيش عرمرم وهزم نيقوميديس على نهر الامنيوس فى سنة ٨٨ قبل الميلاد وطرده هو والرومانيين حماته من آسيا فتولد من ذلك الحرب المتريداطيقى الاول فكانت نتيجته هزيمة بونطوس وعود نيقوميديس الى تخته فى سنة ٨٤ قبل الميلاد فاستمر متمتعا مدة عشر سنوات فى سلطنة مستتبة الراحة ومات فى سنة ٧٤ قبل الميلاد وحيث لم يكن له عقب يرثه أوصى بمملكته للرومانيين فكانت هذه الوصية سببا فى اشتباك الجمهورية الرومانية فى حرب مع متريداطيس وهو الحرب الثالث المتريداطيقى

(الثالثة مملكة بفلاجونيا) مدة تاريخ قيام المملكة البفلاجونية غير معلوم الا أنه من بعد تشييد المملكة الفارسية كانت بفلاجونيا تابعة اسما المملكة فارس لكنها لم تخضع لها أبدا ولقد وجدنا فى سنة ٤٠٠ قبل الميلاد أن هذه المملكة ما كان عندها أدنى اهتمام ولا التفات الى أوامر الملك الاعظم ملك فارس وفى نحو هذه السنة رخص ملك بفلاجونيا الى العشرة الآف نفس بمرورهم من وسط أراضيه من دون أن يحصل لهم من أحد أدنى معارضة فى منع سيرهم وفى سنة ٣٩٤ قبل الميلاد دخل عوطيس أو كوطيس ملك المملكة فى معاهدة مع اغيسيلوس ملك اسبرطة ضد مملكة فارس وفى نحو سنة ٣٦٥ قبل الميلاد ملك آخر اسمه طيس أوطيوس قهره المرزبان الفارسى داطاميس وأدخله فى طاعته ولما سقطت المملكة الفارسية ما صارت المملكة البفلاجونية قسما من ممالك اسكندر الاكبر الا فى الاسم فقط ومن بعد قليل تغلب عليها متريداطيس صاحب بونطوس وأضافها الى مملكته فاستمرت قسما منها عدة من السنين أما الوقت الذى عادت فيه الى استقلالية نفسها فانه غير محقق الا انه يحتمل انه فى سنة ٢٠٠ قبل الميلاد كانت محكومة بملوك من أهلها واشتغلت بالحروب من أجل مداومتها على حريتها من مساعى مملكة بونطوس من جهة ومن مساعى بثنيا من جهة أخرى وفى سنة ١٠٢ قبل الميلاد مات بلنس آخر ملوك أهلها من دون عقب يرثه فضبط المملكة كل من متريداطيس صاحب بونطوس ونيقوميديس الثانى صاحب بثنيا بالمشاركة مع بعضهما سوية ثم ان متريداطيس أخرج البثنيانيين منها وأضاف بفلاجونيا الى ممالكه والله أعلم وبغيبه أحكم

﴿الرابعة مملكة بونطوس﴾ تشكلت مملكة بونطوس من مرزبانة قبدوثيا وكان دارا الاول ملك فارس أقطعها على عوناطيس أحد القواد الذين ساعدوه على التغلب على سمرديس الكذاب وكان عوناطيس من ذرية الملوك القديمة الاربابية فى قبدوثيا وجعل دارا هذه المرزبانة وراثية فى عقبه وفى سنة ٣٦٣ قبل الميلاد قام عريوبارظانيس بن متريداطيس فى ثورة ناجحة نال فيها الظفر على فارس وجعل نفسه أميرا القطعة الواقعة من قبدوثيا على ساحل البحر الاسود وشكل أراضيه على هيئة مملكة أطلق عليها الجريق اسم بونطوس وصارت معروفة بهذا الاسم وأما قبدوثيا الداخلة فانها بقيت قسما من فارس ثم مات عريوبارظانيس فى سنة ٣٣٧ قبل الميلاد وخلفه ابنه متريداطيس الاول ولما تغلب اسكندر الاكبر على مملكة فارس صارت بونطوس ايالة مقدونية سنة ٣٢٢ قبل الميلاد وفى سنة ٣١٨ خلع متريداطيس طاعة المقدونيين وشيد استقلالية مملكته ومات فى سنة ٣٠٢ قبل الميلاد مذبوحا بأمر من انطجنوس ووقعت بونطوس كما ذكرنا سابقا فى حصة انطجنوس مع فريجيا وليسيا وبعفيليا وقت تقسيم ممالك اسكندر

ولما مات متريداطيس خلفه ابنه متريداطيس الثانى وجلس على تخت بونطوس وتسلطن ستا وثلاثين سنة وأضاف الى مملكته أراضى كثيرة على نفقة قبدوثيا وبفلاجونيا ثم خلفه ابنه عريوبارظانيس الثانى فى سنة ٢٦٦ قبل الميلاد وكانت مدة سلطنته خالية من الوقائع والحوادث ومات فى سنة ٢٤٥ قبل الميلاد فانتقل التاج لابنه متريداطيس الثالث وكان أكثر شوكة وشهامة من كامل متقدمى ملوك بونطوس وكان صغير السن حالما وصل الى التخت وبمجرد ما بلغ سن الرجال تزوج أخت سلنقوس الثانى ملك سوريا وأخذ معها ايالة فريجيا مهرا لها وفى سنة ٢٢٢ قبل الميلاد زوج بنته لودسيا بانطيخوس الاكبر ملك سوريا وزوج بنتا أخرى اسمها لودسيا أيضا الى أخيوس عم ملك سوريا الا أنه لم يحصل من هذا الزواج أدنى تأثير فى نفوذ اجرآته السياسية وأشعل حربا على سوريا كأنه لم يكن مرتبطا معها بمثل تلك العقد والمعتقد أنه مات فى سنة ١٩٠ قبل الميلاد وخلف فرناسيس أباه على تخت بونطوس وفى نحو سنة ١٨٣ قبل الميلاد تغلب على مدينة سينوب على شاطئ البحر الاسود وجعلها عاصمة مملكته وفى سنة ١٨١ دخل فى حرب مع عومنيس الثانى ملك برجاموس رغما عما اجتهد فيه الرومانيون من اجتناب الحرب فنال بعض مظفرات فى مبادى حربه لكنه انجبر أخيرا على عقد صلح وتنازل عن كل ما تغلب عليه ما عدا مدينة سينوب ومات فى سنة ١٦٠ قبل الميلاد وخلفه ابنه متريداطيس الرابع الملقب عورغيطيس فامتدت سلطنته نحوا من أربعين سنة أى من سنة ١٦٠ قبل الميلاد الى سنة ١٢٠ وحارب مع عوطالوس الثانى ملك برجاموس وكان حليفا له على بروسياس الثانى صاحب بسنيا سنة ١٥٤ قبل الميلاد ودخل فى الحرب الثانى القرطاجنى من سنة ١٥٠ الى سنة ١٤٦ قبل الميلاد حليفا للرومانيين على قرطاجنة وساعد الرومانيين أيضا على طرد اريسطونيقوس من برجاموس ولما انتهى الحرب كافأته رومة بأن منحته فريجيا الكبرى وقتله حواشيه وخدمه فى سنة ١٢٠ قبل الميلاد وكانوا على نفور منه

وخلف متريداطيس الخامس الملقب بالاكبر أباه على التخت وكان أمهر الملوك البونطية وأحد عظماء ملوك آسيا وكان صغير السن وقت استخلافه فصارت مباشرة أعمال المملكة مدة ثمانى سنوات بمعرفة الاوصياء عليه فقضى هذه المدة فى تلقى العلوم مع النباهة والذكاء وعلى ما قيل انه كان يتكلم

بخمسة وعشرين لسانا وصار مستمرا على السفر المتعب فى طلب الصيد لاجل تدربه على المصاعب والمتاعب وكانت جهات صيده فى الاراضى الصعبة من نواحى مملكته وكابد أتعاب الجوع والعطش والكدر ولما رأى له عدم الثقة من نوابه وأوصيائه ابتدأ من مبادى أيامه فى تعوّد نفسه على تعاطى نوع الترياق المضاد للاشياء السمية حتى يدفع عن نفسه السميات المزيلة لحياته ولما بلغ عمره عشرين سنة تقلد زمام حكومته من بعد أن حاز سجية فى الشوكة والشهامة وصار عقله مخزنا لكثير من المعارف وتولد من اكتسابه معرفة اللغات أن صار له طاقة على أداء الاشغال مع كل ايالة من ممالكه بلغتها ولهجتها الخاصة بها

وبمجرد جلوس متريداطيس على التخت رأى من البين أن موقع مملكته يكون بعد قليل علامة لمساعى الرومانيين ومشروعاتهم فلاجل مقاومتهم ومقابلتهم بمظفرات ناجحة ومشروعات فائقة يلزمه توسيع ممالكه وزيادة قوتها ورصانتها فى وجه الرومانيين وبهذا الفكر والتبصر ابتدأ فى سنة ١١٢ بشروع حزم رأيه فيه واجتهد فى عمل فتوحات فى نواحى الشرق من ممالكه وهى جهة خالصة من تداخل رومة فيها وفى مدة السبع سنوات التى أعقبت سنة جلوسه أضاف الى مملكته أرمينية الصغرى وقسم الكولشى وكامل الساحل الشرقى من البحر الاسود وبحيث جزيرة السمرين المعروفة اليوم باسم بحيث جزيرة القرم والاقليم الموجود فى الجهة الغربية من تلك البحيث جزيرة الى أن وصل الى نهر الدانستر وقوى نفسه بعقد معاهدات ومحالفات مع القبائل الهمج القاطنة على نهر الدانوب ومع ملك أرمينية وقبدوثيا وبثينيا واجتهد فى أن يضع ابنه على تخت قبدوثيا فى سنة ٩٣ قبل الميلاد ونقوماطيس على تخت بثنيا فى سنة ٩٠ قبل الميلاد لكنه لم ينجح فى كل من هذين السعيين فان الرومانيين حكموا عليهما بابطالهما ورأى متريداطيس أن الاسلم له الطاعة وحسن الانقياد لانه ما كان على استعداد للحرب مع رومة

وفى سنة ٨٩ قبل الميلاد تقوى نيقوميديس بالرومانيين وأنشب حربا على بونطوس فبرز متريداطيس فى الحال الى ميدان الحرب بجيش كثيف وفى السنة التالية تغلب على قبدوثيا وأضافها الى مملكته وفى السنة التالية غزا بثنيا وهزم نيقوميديس على نهر امنيوس وطرده هو ومحالفيه الرومانيين من بثنيا وأسرع متريداطيس فى التغلب على غلاطيا وفريجيا والاقليم الرومانى فى آسيا وجعل نفسه أميرا على كامل آسيا الصغرى ما عدا قليلا من مدائن ليسيا ويونيا وقضى فصل الشتاء فى برجاموس وفيها تيسر له الحصول على الحالة القاضية عليه بهلاك نفسه وذلك أنه تفاخر وتعاظم بمظفراته ونصراته وأمر بذبح جميع الرومانيين والايطاليانيين الموجودين فى آسيا فقتل منهم نحو من ثمانية آلاف نفس فمن ابتداء هذا الوقت أخذ طالع سعد متريداطيس فى النحس والانحطاط وفى سنة ٨٧ قبل الميلاد أرسل جيشين تحت قيادة قواد ماهرين من عنده لطرد الرومانيين من الجريس فهزم سولا هذه القوى فى واقعة كبيرة حصلت فى خيرونيا فأرسل جيشا ثالثا الى الجريس فانهزم أيضا شر هزيمة وفى أثناء ذلك أشهر الرومانيون حربا فى آسيا ومن بعد أن حصل لهم عدة مظفرات هزموا الجيش الاصلى فى البونطيق فى نواحى بثنيا سنة ٨٥ قبل الميلاد فانجبر متريداطيس على أن يفتش على محل أمين يأوى اليه ولما رأى أن ما نزل عليه من البلايا والمصائب ثقيل جدا بحيث لا يمكنه أن يشفى منه بسرعة عقد مع رومة صلحا بشروط مهينة تنازل فيه عن كافة ما فتحه وسلم للرومانيين أسطوله وكان مقداره سبعين

سفينة حربية ودفع غرامة قيمتها ٢٠٠٠٠٠٠ وزنة أى ٤٠٠٠٠٠ استرلينه وعاد كل من ملكى قبدونيا وبسنيا الى تختيهما وعادت السلطة الرومانية ثانيا على اقليم آسيا

وتولد مما حل بمتريداطيس من هذه المصائب عود اجتهاد الممالك الشرقية التى تغلب عليها الى الاستقلال فجهز الملك جيشا كثيفا وأسطولا لاجل قمعها مرة أخرى فانجبر على أن يستعمل ما جهزه من القوى فى ملاقاة كرب آخر وذلك أن مورينه القائد الرومانى فى آسيا قام على حين غفلة من دون حصول أدنى غضب أو زعل وأغار على بونطوس فى سنة ٨٣ قبل الميلاد فشكا متريداطيس فى الابتدا لمجلس سناتور رومه فأمر المجلس القائد بالحيادة عن بونطوس والبعد عنها فلم يقبل مورينة طاعة أمر المجلس فسار متريداطيس عليه وهزم مورينة شرهزيمة على شواطئ نهر الهاليس فهرب مورينة وأرسل المجلس ثانيا عنه للمخابرة فى شأن الصلح مع ملك بونطوس سنة ٨٢ قبل الميلاد فأعقب هذا سبع سنوات صلح مع رومة صار فيها المتريداطيس طاقة على اخضاع كامل مملكته التى كانت خرجت عن طاعته ووطد مملكته مرة ثانية على قواعد ثابتة محكمة ولما تم له ذلك بذل مجهوده وما فى طاقته فى مباشرة عمل الاستعدادات اللازمة لآخر حرب مع رومة وكان معظم رجال جيشه من رجال الامم البربرية القاطنة على نهر الدانوب والبحر الاسود وكان كثير العدد وكان تحت قواعد نظامية وتطقيم جيد مثل الطريقة الجارية عند رومة وزاد فى قوة الاسطول حتى وصل عدده الى ٤٠٠ سفينة شراعية وكان كل من رومة وبونطوس ينتظر ان حصول حرب نهائى فى آسيا الصغرى بخصوص السيادة والسلطنة فى هذه الناحية وان هذا الحرب لابد منه وكل من الاثنين فى فرح زائد من حصول هذا اليوم المقطرن حتى انفجر هذا اليوم المشؤم مع السرعة من دون قصد وذلك انه فى سنة ٧٤ قبل الميلاد لما مات نيقوميديس من غير عقب برثه تنازل عن مملكته بسنيا الى الرومانيين فقبلوا مع الشوق هذه الوصية الان متريداطيس تبصر فى عواقب الامور ورأى انه لو سمح للرومانيين بالحلول فى مملكة بسنيا ربما يقع جميع حدوده الغربية تحت رحمتهم فأسرع فى ارسال قواه فى بسنيا واحتل تلك المملكة فهذا الفعل وان كان من أجل الحماية النفسية والمحافظة الذاتية الا انه عد أنه اعلان حرب على رومة فأسرعت الجمهورية فى قبول هذا الاعلان ومن ثم حصل الشروع فى الحرب فى سنة ٧٤ قبل الميلاد واستمر جاريا تسع سنوات فهزم متريداطيس فى السنة الاولى من الحرب قطه القائد الرومانى فى البر والبحر ثم حاصر كالسيدون وسيطيقوس ثم انجبر على ترك هذا المشروع وفى سنة ٧٣ قبل الميلاد انهزم جيش متريداطيس هزيمة قبيحة بواسطة لوقولوس وكذا انهزم اسطوله على مسافة من طندوس ودمرته عواصف الرياح وفى هذه السنة تغلب متريداطيس على هيراقلية بونطيقه وعاد الى عاصمته فجند فيها جيشا جديدا واتخذ له موقعا فى كابيره فهجم الرومانيون عليه فيه وشتتوا شمله وعساكره فهرب متريداطيس ناجيا بنفسه بكل مشقة وصعوبة الى صهره زوج بنته طغرانيس ملك أرمينية سنة ٧٢ قبل الميلاد فطلب الرومانيون من طغرانيس أن يسلم لهم متريداطيس ولما لم يقبل هذا الطلب أعلنت رومة بعداوته له وتحول الحرب على مملكته سنة ٧٠ قبل الميلاد واستمر الحرب فى أرمينية ثلاث سنوات وباتحاد طغرانيس مع متريداطيس هزما لوقولوس مرتين فى سنتى ٦٩ و ٦٨ قبل الميلاد وعاد متريداطيس الى مملكته مع جيش جديد وفى ظرف بضع شهور أوقع هزيمتين على الرومانيين ثم حصلت ثورة فى جيش لوقولوس أضعفت عزمه وأوهنت قواه فأعاد متريداطيس وطغرانيس بونطوس

وقبدونيا

وقبدوثيا وفى سنة ٦٦ قبل الميلاد صار استبدال لوقولوس بالقائد بومبى الاكبر فرأى هذا القائد الجديد ان الحرب بهذه المثابة فى اتحاد قوة هذين الملكين يمتد الى مالانهاية فصمم على أن يشغل طغرانيس بمملكته حتى يدمر أمر متريداطيس فعقد معاهدة ودية نحو الفامع فرعاطيس ملك فارطيه أحد ملوك الطوائف بفارس وحصل الاتفاق بينهما على أن فرعاطيس يهجم على أرمينية فحصل ذلك فى نفس هذه السنة فالتزم طغرانيس على المحافظة على مملكته وأسرع بومبى فى التقدم نحو متريداطيس وهزمه مع خسارة جيشه وألزمه الهرب من بونطوس عابرا البحر الاسود الى بحيث جزيرة القرم والى هذه الجهة ماأمكن للرومانيين السعى والاجتهاد وراءه وصارت بونطوس فى سنة ٦٥ قبل الميلاد جميعها فى أيدى الرومانيين ثم ان متريداطيس استعد لتجديد الحرب معرومة من الساحل الاوروباوى من البحر الاسود مؤملا أنه يجمع فى طريقه تحت بيرقه كافة القبائل البربرية الدانوبية ويسير على ايطاليا من تلك الجهة ومع ما كان عليه من كبر السن فانه دخل مع الهمة والشجاعة فى هذا المشروع الذى لاح له الا أن ضباطه نظروا اليه بعين الهوان وتشكلت منهم دسيسة تحت رياسة ابنه فلما رأى الملك الكهل أن كل من كان معتمدا عليهم فى أشغاله تركوه وبعدوا عنه قطع اليأس والأمل مما كان ناويه وكامنه فى ضميره وأمر واحدا من حرسه بقتله فى سنة ٦٣ قبل الميلاد وصارت بونطوس اقليما رومانيا واستمرت محكومة ببرنسات من سلسلة ملوكها القديمة الى حد زمن نيرو وكان جلوس هؤلاء الامراء على تختها تابعة فى الحكم والادارة لرومة

(الخامسة مملكة قبدوثيا) قد ذكرنا فيما سبق أن القسم الشمالى من قبدوثيا صار مملكة بونطوس المستقلة واستمر القسم الجنوبى منها على صداقة مع مملكة فارس الى سقوط هذه المملكة الفارسية وفى سنة ٣٣١ قبل الميلاد من بعد واقعة اربل تقلد اريارطيس المرزبان زمام حكومة الايالة وجعلها ملوكية مستقلة فتغلب عليه برديكاس فى سنة ٣٢١ قبل الميلاد من بعد موت اسكندر الاكبر وأسره وصلبه ثم أضاف برديكاس ما فتحه الى عومنيس صاحب برجاموس ولما مات هذا الملك قامت قبدوثيا تحت قيادة اريارطيس الثانى بن أخى اريارطيس الاول وعادت استقلاليتها ومات فى نحو سنة ٢٨٠ قبل الميلاد وترك تاجه لابنه عريامنيس وخلف هذا من بعد موته ابنه اريارطيس الثالث وكانت مدة سلطنتهما مظلمة لاحقيقة لحوادثها ووقائعها ثم مات هذا الملك الاخير فى سنة ٢٢٠ قبل الميلاد فانتقل تاجه الى ابنه اريارطيس الرابع وكان طفلا صغيرا ولما بلغ هذا الملك مبلغ الرشد تزوج انطيخيس ابنة عمه انطيخوس الاكبر سنة ١٩٢ قبل الميلاد فساعده انطيخوس فى حربه مع رومة وحارب حليفا له فى الواقعة الكبرى التى حصلت فى نواحى مغنسيا وفيها سقطت شوكة المملكة السورية سنة ١٩٠ قبل الميلاد فتولد من هذا أن صار ملك قبدوثيا عرضة لغضب الرومانيين فاطفأ غضب الجمهورية الرومانية باشغال أجراها نافعة لرومة ونال من جهتها عين الاكرام واستمر فى علاقات ودية معها المدة التى كانت باقية من سلطنته ومات فى سنة ١٦٢ قبل الميلاد فخلف اريارطيس الخامس أباه وتسلطن احدى وثلاثين سنة وكان مشهورا بالملك الصالح العاقل أى الذى لاعيب فيه وكان من طلاب علم الفلسفة وجعل قبدوثيا محط رحال علماء الرجال ولم تكتسب عنه مظالم ولا خيانة وكان جاذبا اليه محبة رعيته وقومه واحترمه الاقارب والاجانب ويظهر من تواريخ الثلاثة القرون التى مضت من اسكندر الاكبر أن هذا الملك لا يماثله ملك من الملوك وسار سيرة خالية

من الذم والقدح والعيوب واستمر صديقا محالفا لرومة مما أصابه منهامن السعي والكد في حقه ولما شرع الرومانيون في طرد اريسطونيقوس من برجاموس برز لماعدتهم وقتل في خدمتهم سنة ١٣١ قبل الميلاد

وترك اريارطيس الخامس عند موته ستة أولاد جميعهم كانوا قاصري السن فصارت أرملته لودسيا وصية على أولادها ونائبة عنهم في المملكة ولاجل حفظ شوكة المملكة في يديها سمت خمسة من أولادها بعد أن بلغ كل منهم رشده فحل بالامة جميعها الغضب مما حصل من الملكة أم الاولاد وقاموا عليها وذبحوها وأجلسوا ابنها الاصغر على التخت باسم اريارطيس السادس فكانت سلطنة هذا الملك بغير معنى ولاذوق وتزوج باخت متريداطيس الاكبر صاحب بونطوس ثم ان متريداطيس أغرى عليه جواسيس من طرفه فقتلوه سنة ٩٦ قبل الميلاد وضبط في الحال قبدوقيا فهربت لودسيا أرملة هذا الملك المقتول الى ديوان نيقوميديس الثاني ملك بسنيا فتزوجها وأقامها ملكة قبدوقيا فطردها متريداطيس من المملكة ثانيا فتولد من ذلك انتشاب حرب مكث عدة سنوات وفي مدته أجلس الملك البونطيقي ملكين وأجلس القبدوقيون واحدا من عندهم وانقرضت في مدة هذا الحرب السلسلة الملوكية القبدوقية وصار كل من بونطوس وبسنيا يدعي التاج لنفسه فرخص الرومانيون للقبدوقيين فصل مادتهم بانتخابهم ملكا من أنفسهم فانتخبوا لهم ملكا وجلس أريوبارزانيس على التخت في سنة ٩٣ قبل الميلاد فطرده مباشرة طغرانيس صاحب أرمينية من مملكته ثم تقلد زمام السلطنة ثانيا بمعرفة الرومانيين سنة ٩٢ فتسلطن بغير نزاع ولا كدر الى سنة ٨٨ قبل الميلاد حتى عزله متريداطيس وضبط قبدوقيا في مدة حربه الاول ثم أعيد الى تخته بواسطة معاهدة عقدت بين بونطوس ورومة فطرده أيضا متريداطيس وطغرانيس سنة ٨٧ قبل الميلاد فاعاده بومبي في سنة ٦٦ وفي نحو سنة ٦٤ قبل الميلاد تنازل عن تخته لابنه فجلس ابنه على التخت ولقب نفسه اريوبارزانيس الثاني وانحاز في جهة بومبي على حرب القيصر فسامحه القيصر من بعد واقعة فارساليا وسمح له في زيادة أراضيه ثم انحاز في الحرب الداخلي التالي مع أنطوني وأوقطافيان فأمر كاسيوس بقتله في سنة ٤٢ قبل الميلاد وتولد من واقعة فليبي أن أعطى انطوني تاج قبدوقيا الى اريارطيس التاسع والصحيح أنه كان ابن الملك السابق فرجع في الحال الى معاداة انطوني فقتله في سنة ٣٦ قبل الميلاد وأعطى تخته الى ارشيلاوس أحد عبيده فحكم هذا الملك المملكة الى حد سنة ١٥ قبل الميلاد ولما غضب الامبراطور طيرياس منه طلبه في رومة فمات فيها سنة ١٧ بعد الميلاد ومن ثم تحولت قبدوقيا الى ايالة رومانية والله يؤتي ملكه من يشاء

﴿السادسة مملكة أرمينية الكبرى﴾ كانت أرمينية من ابتداء واقعة ابسوس سنة ٣٠١ قبل الميلاد الى واقعة مغنيسيا سنة ١٩٠ قبل الميلاد ايالة من المملكة السورية ومن بعد هزيمة انطيخوس الاكبر انفصلت من سوريا وانقسمت الى مملكتين ارمينية الكبرى وأرمينية الصغرى فأما أرمينية الصغرى فكانت واقعة في غرب الفرات وكان أول ملوك أرمينية الكبرى أرطاكزياس وكان أحد قواد انطيخوس وقاد عصاة مملكته وأسس مدينة ارطاكزاطه عاصمة لمملكته وتسلطن فيها الى نحو سنة ١٦٥ قبل الميلاد حتى هزمه انطيخوس ابيفانيس وأعاد أرمينية الى المملكة السورية فامتد هذا الالحاق الى مدة مجهولة وفي سنة ١٠٠ قبل الميلاد ظهرت أرمينية مرة أخرى في سلطنة مستقلة تحت حكم عورطوديسطيس وهذا خلفه طغرانيس الاول في سنة ٩٦ قبل الميلاد فكان

أجل ملوك الارمن وأعظمهم
وتنازل طغرانيس فى مبادى سلطنته عن قسم من مملكته الى فارطيه لكنه من نحو سنة ٩٠ الى سنة ٨٧ قبل الميلاد اكتسب نصرة جليلة على الفارطيين وأعاد أراضيه التى كان تنازل عنها وأضاف الى مملكته اقليمى عطر و باطينى وغوردياة وهما ميزوبوتاميه العليا ثم بعد ذلك تغلب على الايالات السورية وفتح كامل المملكة بما فيها ايالة سيليسيا وفى ظرف الاربعة والعشرين سنة التى جاءت بعد أى من سنة ٨٣ الى سنة ٦٩ قبل الميلاد امتدت ممالكه من حدود فنيقيا الى سواحل بحر الخزر وفى أثناء هذه المدة مدينة طغرانوصرطه وجعلها عاصمة مملكته وخرب قبدوقيا ونقل منها نحوا من ٣٠٠٠٠٠ بيت من أهلها فى سنة ٧٥ قبل الميلاد فتولد من هذا الفعل أن جلب على نفسه غضب رومة ومن بعد مضى قليل عضد متريداطيس حماه وآواه عنده وكان صار طرده من مملكته كما ذكرنا فطلب الرومانيون من طغرانيس أن يسلم لهم ملك بونطوس ولما لم يقبل الطلب أغاروا على أرمينية وفى سنة ٦٩ قبل الميلاد انهزم طغرانيس وخسر عاصمته وفى السنة التالية اصطحب طغرانيس مع متريداطيس ونقهقرا الى مرتفعات أراضى أرمينية فاتبعهما الرومانيون وأوقعوا بهما هزيمة مهولة فى نواحى ارطاكزاطه وتسبب من النفور والثورة التى حصلت فى الجيوش الرومانية توقيف مظفراتهم كما سبق ذكره عنه حتى صار لطغرانيس ومتريداطيس طاقة فى العود الى ممالكهما فى سنة ٦٧ قبل الميلاد ثم تقلد بومبى زمام قيادة الجيوش الرومانية وحض فارطية على الهجوم والغارة على أرمينية فتولد من غارة الفارطيين الزام طغرانيس بأن يترك حماه الى ما تؤول اليه عاقبة أمره لاجل خلاص مملكته ولما تغلب بومبى على مملكة بونطوس ساق جيشه على أرمينية فصار طغرانيس لا طاقة له على الرومانيين والفارطيين فخضع وسلم كل ما تغلب عليه واستمر فى مملكة أرمينية الاصلية حتى وافاه أجله ومات فى سنة ٥٥ قبل الميلاد وخلف ارطافسديس الاول أباه وساعد قراصوس فى غارته على الفارطيين فى سنة ٥٤ قبل الميلاد ومن ثم نال التفات رومة اليه ثم أغضب أنطونى منه مدة سنين فأسره فى سنة ٣٤ قبل الميلاد وفى سنة ٣٠ أمرت كليوبطره بقتله وبمجرد القبض على هذا الملك بواسطة أنطونى قدم الارمن التاج لابنه أرطاكزياس الثانى فتولد من ذلك غضب الرومانيين عليهم واستمرت حالة المملكة فى ارتباك وقلاقل الى حد سلطنة الامبراطور طراجان وصارت الملوك الارمينية ألعوبة فى أيدى رومة وفى سنة ١١٤ بعد الميلاد حول الامبراطور طراجان مملكة أرمينية الى ايالة رومية والله أعلم

السابعة — مملكة أرمينية الصغرى — انفصلت أرمينية الصغرى من مملكة سوريا فى نفس الوقت الذى نكثت فيه أرمينية الكبرى طاعتها للمملكة سورية وصار ظاريادراس القائد الذى نجح فى ثورته ملكا على ايالته واستمرت أرمينية الصغرى محكومة بذريته لمملكة مستقلة الى حد سلطنة متريداطيس الاكبر صاحب بونطوس فتغلب عليها وألحقها بمملكته وبمجرد سقوط مملكة بونطوس صارت ايالة رومانية وصار تاريخها خاليا من الحوادث والوقائع وأما الذين خلفوا ظاريادراس فأسماؤهم غير معلومة

الثامنة — مملكة بقطريا — ومن بعد موت اسكندر الاكبر صارت بقطريا (بلخ الآن) قسما من المملكة السورية وفى سنة ٢٥٥ قبل الميلاد نكث ديوطوس المرزبان طاعته لسورية وأسس مملكة بقطريا وكان أهل هذه المملكة جميعا من الاصل الجريقى فلهذا كانت فى خلاف كبير مع مملكة فارطية ولا يعلم

من تاريخ سلطنة ديوطوس الاقليل والصحيح انه ساعد سلقوس كالينكوس فى اغارته الاولى على فارطية ونال عند عوده من هذه الخدمة الاقرار باستقلالية بقطريا ومات فى سنة ٢٣٧ قبل الميلاد وخلفه ابنه ديوطوس الثانى فخالف سياسة أبيه وتعاهد مع فارطية على سوريا وساعد فارطية فى عود استقلاليتها والظاهر انه خلع بواسطة ثورة قامت عليه تحت قيادة عوطيدنوس من أهل مغنسيا وضبط التخت وصار الملك الثالث لبقطريا ثم التزم حماية مملكته من غارات أنطيخوس الاكبر صاحب سوريا ثم انهزم فى واقعة حصلت على نهر عريوس وانجرح انطيخوس فى هذه الواقعة فعقد صلحا مع عوطيدنوس وتركه آمنا فى مملكته سنة ٢٠٦ قبل الميلاد ثم ان ديمتريوس بن عوطيدنيوس مد فتوحاته على الافغانستان والهند فى مدة حياة أبيه وخلف أباه على التخت فى نحو سنة ٢٠٠ قبل الميلاد واستمر فى حروبه فى جهة الشرق ولما كان مشتغلا بهذه الحروب دهمت المملكة بثورة عاص اسمه عوقراديطيس ومن بعد حروب استمرت معه بضع سنين قسمت المملكة بينهما سويه فتسلطن ديمتريوس فى الناحية الجنوبية منها وعوقراديطيس فى الناحية الشمالية الجبلية والظاهر أن ديمتريوس مات فى نحو سنة ١٨٠ قبل الميلاد فتسلطن عوقراديطيس على كافة المملكة وساق فى فتوحاته حتى دخل فى بنجاب الا أنه خسر من الجهة الاخرى بعضا من أراضيه من اغارات فارطية عليها ثم قتله ابنه بعد عوده من الحرب الهندى سنة ١٦٠ قبل الميلاد وجلس هليوقليس قاتل أبيه على التخت ولم يعلم من أحوال سلطنته الاقليل ثم أخذت مملكة بقطريا فى الضعف فى مدة سلطنته وكبس عليها قبائل الصيطيانيين الموجودين فى الجهة الشمالية منها كبسا شديدا والفارطيون من الجهة الغربية الجنوبية وتغلبوا عليها قسما بعد قسم ثم ان الجريق البقطريانيين استغاثوا بمساعدة اخوانهم فى سوريا فسار ديمتريوس نقاطور لمساعدتهم فهزمه الفارطيون وأسروه وانتهت سلطنة هليوقليس فى نحو سنة ١٥٠ قبل الميلاد قبل هذه الغزوة بثمان سنوات ومن هذا الوقت لا توجد تسجيلات لتاريخ مملكة بقطريا واستولت عليها فارطية وقبائل الصيطيانيين والله أعلم

﴿ الكتاب السادس عشر ﴾

﴿ تاريخ رومة ﴾

﴿ الباب الاول ﴾

﴿ التاريخ القديم والمدة الملوكية ﴾

موقع ايطاليا ـ أوصاف المملكة ـ الالب ـ الابنين ـ ايطاليا الشمالية والجنوبية ـ الانهر ـ الخصوبة والاقبال القديم للمملكة ـ التقسيمات القديمة السياسية لايطاليا ـ أصل السكان عمار الايطاليانيين ـ العطروسكانيون ـ الرومانيون ـ تاريخ رومة الخرافى ـ حكاية روملوس ورموس ـ تأسيس رومة ـ اغتصاب النساء الصابنيات ـ الحرب مع اللاطنيين ـ الصابنيون ـ عود الصلح بواسطة النساء ـ ترجمة روملوس ـ نومة بومبيليوس ـ شرائعه ـ نهاية المدة الخرافية ـ الحكاية الصحيحة لتأسيس رومة ـ صيرورة طولبوس هوسطيليوس ملكا ـ قوانينه ـ فتوح البه الطويلة ـ انكوس مرطيوس ـ حروب مع اللاطنيين ـ أصل العوام أو البلبيين ـ سرعة

تقدم رومة ـ زيادة طاركينيوس بريسكوس الاراضى الرومانية واصلاح المدينة ـ تغييراته التى أجراها فى النظام ـ ديانة الرومانيين ـ آلهتهم ـ المواسم الديانية ـ الكتب السحرية ـ المدارس المقدسة ـ القسس ـ صيرورة سرفيوس طوليوس ملكا ـ شرائعه وقوانينه ـ النظامات العسكرية ـ تأسيس قبائل جديدة ـ أسوار رومة ـ صيرورة طاركينيوس سوبربوس ملكا ـ صرفه النظر عن القانون السرفيانى ـ ظلمه وجبروته ـ نهب وفظائع لوكريطيه سكسطوس طاركين ـ ثورة الرومانيين وعصيانهم ـ طرد الطاركينيين ـ ابطال الملوكية واقامة الجمهورية

بحيث جزيرة ايطاليا هى أصغر الثلاث بحيث جزائر الجنوبية الموجودة فى أوروبا وكائنة فى الوسط منهم ونهاية طولها الاعظم من جبال الالب فى جهتها الشمالية الى رأس سبارتيفنتو فى جهتها الجنوبية ٧٢٠ ميل وعرضها الاعظم من جبل سنت برناردا الصغير الى المرتفعات والجبال الشمالية من تريسته ٣٣٠ ميل فتكون مساحتها الكلية نحو من ٩٠٠٠٠ ميل مسطح على فرض أن العرض المتوسط للبحيث جزيرة هو ١٠٠ ميل فقط ومحدودة من الجهة الشمالية بجبال الالب ومن الجهة الشرقية بالبحر الادرياطيق ومن الجهة الجنوبية بالبحر الابيض المتوسط ومن الجهة الغربية بالبحر الابيض المتوسط وجبال الالب وصورة البحيث جزيرة غير منتظمة ومتجهة فى العموم نحو الجهة الجنوبية الشرقية وهى فى الغالب على شكل جزمة فالقطعة الأصلية منها تشكل الساق والقسم الجنوبى يشكل القدم ومع هذه الصورة المخصوصة بها يمتد خطها الساحلى امتدادا كبيرا ثم ان ايطاليا أقل عددا من الجريس فى خلجانها وميناتها وجزائرها الساحلية والقدماء من سكان ايطاليا وان كانوا على وفرة كبيرة من الاهل والعمران وكانوا أمة أرباب خبرة فى البحر الا أنهم ما بلغوا الدرجة التى بلغتها سكان الجريس فى البحر

وتنحصر جبال ايطاليا فى سلسلتين أصليتين عظيمتين وهما سلسلة جبال الالب وسلسلة جبال الابنين فأما سلسلة جبال الالب فانها تصنع حاجزا مرتفعا فى طول كامل الجهة الشمالية وقسم من الجهة الغربية من حدود ايطاليا وتفصلها من الباقى من أوروبا وأخفض نقطة من هذه السلسلة مرتفعة عن سطح البحر الملح بقدر ٤٠٠٠ قدم ومن فوق هذه النقطة يصل ارتفاع السلسلة فى بعض جهاتها الى نحو ١٥٠٠٠ قدم ويمكن عبورها من عشرة أو اثنى عشر درب اصعبة المسالك جدا وكانت فى الزمن القديم غير ممكنة العبور ومن ثم صنع أهل جبال الالب سدا أو حاجزا لا يمكن عبوره أو الارتقاء اليه معدا لحفظ ايطاليا من الامم الهمج الموجودين فى الجهة الشمالية منها وفى الجهة الغربية لها وجاء لايطاليا حريتها فيما يلزم لها من أعمالها وأشغالها العائد منها النفع عليها وأما سلسلة جبال الابنين فانها تنفصل من الالب بالقرب من الجبل الابيض وتسير نحو الجهة الجنوبية الشرقية ثم تنعطف الى الجهة الجنوبية حتى تصل الى آخر نهاية البحيث جزيرة وهذه السلسلة مقصورة على سلسلة واحدة فى ايطاليا الشمالية ثم يخرج منها فرعان أو ظهران يتجهان الى اليمين والى الشمال منها وأما فى ايطاليا الوسطى فانها كثيرة الفروع ويخرج منها عدة فروع كبيرة وصغيرة تختلف فى العلو والاتجاه وتشكل سطحا مختلف المنظر والهيئة البهجة لمنظر ايطاليا

الخاص بها

وتنقسم البحيث جزيرة بالطبع الى ايطاليا الشمالية وايطاليا الجنوبية فأما ايطاليا الشمالية فانها مقصورة فى السهل الاعظم لنهر البو والجبال القافلة له وأما ايطاليا الجنوبية فهى مقصورة فى البحيث جزيرة الاصلية وخلاف هذا فان ايطاليا الجنوبية مفصولة بخط صناعى مرسوم من فم نهر طفرنوس الى فم نهر صلاروس والكورة المحصورة بين هذا الخط وايطاليا الشمالية تسمى باسم ايطاليا الوسطى وايطاليا الجنوبية مقصورا اسمها فى القسم الاسفل النهائى من البحيث جزيرة وايطاليا الشمالية أو اقليم نهر البو فانه جميعه سهل وما كان معلوما انه قسم من ايطاليا الا مدة وجود المملكة وتشتمل ايطاليا على عدة أنهار أشهرها نهر البو وكان يسمى قديما بنهر البادوس ونهر أريجة وكان اسمه نهر اطيسيس أو اطغيس فى الازمان القديمة ونهر البو أكثر عرضا من نهر أريجة

وأرض ايطاليا جيدة الخصوبة والاقبال وكانت فى قديم الزمان تغل محصولات وافرة على من كان له اعتناء بفلاحتها واصلاحها ومناخها مختلف الطقس معتدل الهواء وطقس وادى نهر البو معتدل الهواء يشابه طقس وسط فرانسا وتتكون الثلوج فى مدة فصل الشتاء فى بحيرات ومناقع فنيزيا وأما الطقس فى ايطاليا الجنوبية فهو شديد الحرارة ويسقط الثلج والقار فوق سفوح الجبال وينضج الزيتون والبرتقان والليمون فى الهواء المكشوف الصحو وتنبت نباتات المنطقة الحارة فى الطرف الجنوبى من ايطاليا مع غاية الجودة وعلى العموم فان مملكة ايطاليا معتدلة فى الهواء الصحى ماعدا نواحى الاقاليم المسبخة ذات الرشح والمياه الراكدة وجهها صاف رائق يمتاز فيه لون كل شئ ولمعانه وهيئة صفائه وجلائه وتلك حالة مجهولة فى الممالك الشمالية من أوروبا ومنحة ظريفة يختص بها أهل ايطاليا والمملكة غنية فى المعادن ويقل بها بعض أصنافها ماعدا الحديد والرصاص ورخامها من أجود الرخام وأحسنه وهو مشهور فى بقاع الارض وأجوده خاصية رخام كرارة الجميل الشكل الظريف اللون وهو جار استخراجه من جبال ابنين

وأخذت ايطاليا الشمالية لها حصة من التاريخ الرومانى لحد تشكيل المملكة وكانت تشتمل قديما على ثلاث ممالك ليغوريا وفنيزيا وغلية الجنوبية أى الكائنة فى جنوب سلسلة جبال الالب وأما ايطاليا الوسطى فكانت تشتمل على ست ممالك أصلية عطروريا ولاطيوم وكبانيا وهذه واقعة فى الجهة الغربية من جبل ابنين وأومبريا وبصنوم ومملكة الصابنيون وهى واقعة فى طول الساحل الادرياطيق من البحيث جزيرة وتشتمل أيضا ايطاليا الجنوبية على أربعة ممالك وهى لوكانية وبروطيوم فى الجهة الغربية واپوليه وكالبريا فى الجهة الشرقية وثلاث جزائر كبيرة على مسافة من الساحل الايطاليانى فى البحر الابيض المتوسط وهى سيسيليا أو صقلية وسردينة وقورسيقه وهى جليلة فى محصولات أراضيها وقواها الحربية

وكانت ايطاليا فى الازمان القديمة محتلة بخمسة أجناس أصلية وهى الليغوريانيون والفنيزيانيون والعطروسكانيون والايطاليانيون الاصليون والابغيانيون وكان الليغوريانيون والفنيزيانيون أضعف وأرذل الاجناس القاطنة فى الاراضى الموجودة فى شمال جبال الابنين وما كان لهم شوكة فى تاريخ ايطاليا العام ولاسمعة وأما الابغيانيون فكانوا أقدم الثلاثة أجناس الاخر القاطنة فى ايطاليا والظاهر أن أصلهم من الجريق كما دلنا على ذلك لغتهم وعبادتهم للآلهة الجريقية والحالة التى كان عليها

الهلانيون

الهلانيون فى الايام الاخيرة وكان هذا الجنس انتشر على الطرف الجنوبى من ايطاليا وأما الايطاليانيون الاصليون فالظاهر أنهم هم الذين قطنوا البحيث جزيرة من بعدهم ويعتقدون أنهم جاؤا اليها من الجهة الشمالية وأنهم ضايقوا مع الشدة السكان النصف جريق الذين كانوا فى ايطاليا الجنوبية وهذا الجنس محصور فى أربعة أجناس أصلية هى الاومبريانيون والصابنيون والعوسكانيون واللاتنيون فأما الثلاثة الاجناس الاول فكانوا متقاربين لبعضهم وأما اللاتنيون فكانوا جنسا ممتازا عنهم وشكل اللاتنيون اتحادا مركبا من ثلاثين مدينة وعرفت مملكتهم باسم اللاتيوم

وكان العطروسكانيون أو الطوسكانيون أقوى أمة فى الجهة الشمالية فكانوا مختلفى الجنس بالكلية عن جميع السكان الاخر من البحيث جزيرة ومع هذا فان متأخرى المؤرخين بحثوا عن أصلهم فما تيسر لهم الحصول على معرفته واعتبر المؤلفون المعول على أقوالهم فى التاريخ أنهم من الجنس البلاسجى وهو جنس انتشر على الجريس وايطاليا فى الازمان الخالية والعصور البالية وأطلق هؤلاء الامم على أنفسهم اسم رأس أو راسينه وآخرون أطلق عليهم اسم عطروسكانيين فمن ثم كانت بلادهم يطلق عليها اسم عطروريا وكانوا مختلفى الصورة الطبيعية جدا عن ظرافة وحسن صورة الايطاليانيين فكانوا سمر الالوان ضخام الاجسام قصيرى القامة طوال الايدى عريضى الاكتاف وكانوا مشهورين بظلام ديانتهم وما كانت عليه من الغرائب وكان لهم اعتقاد فى الفال وتدبير عقد الاعداد السرية ولهم شعائر وعوائد دقيقة وكانوا جنسا ذا مال وثروة ورفاهية وحصل لهم تقدم عظيم فى الحرف والصنائع مثل صب البرنز وتشغيله وشغل المواد الخزفية والاوانى وسلاسل الذهب وغير ذلك من أنواع الزينة والحلى ومع أن هذه مسئلة لم يزل كان البحث جاريا فيها فالظاهر أن هذه الاشغال كان اختراعها من حسن جودة وذكاء عقل هؤلاء الوطنيين أو أنهم أخذوا هذه الصنائع من الجريس ويظهر من أسوار مدائنهم الضخمة أنهم كانوا على درجة عالية من فن العمارات وكانوا هم أقدم سكان ايطاليا الذين اشتغلوا بمشروعات البحر وكانوا هم الجنس الاخير الايطاليانى الذين شوهد عليهم دلالات وعلامات محبة هذه المشروعات الخطيرة وينسب الرومانيون أنفسهم الى الفرع اللاتينى من الجنس الايطاليانى واعتمدوا اعتمادا كبيرا فى الازمان المتأخرة على رواية أنهم متناسلون من عشيرة كانت هربت من ترواده تحت رياسة انياس حال سقوط هذه المدينة وخرابها وأياما كان من حصول هجرة وقعت لهم فان هذا لا حاجة به هنا لانه من المحقق أن ذلك ما أخل بتأثير اعتكاف الامة الرومانية على العوائد الوثنية وان لسانهم ورواياتهم القديمة تثبت من دون ريب أن الرومانيين هم من الجنس النقى اللاتينى

وأما التاريخ الخرافى الذى ذكر فى حق تأسيس رومة فذلك انه كان يوجد من ذرية عسكانيوس بن انياس وخليفته من بعده شخص اسمه بروكاس وكان هذا ملك البه الطويلة ومن بعد موته ترك ممالكه الى ولديه نوميطور وعموليوس فضبط عموليوس المملكة وأمر بذبح ابن نوميطور من بعد موت أبيه وكان لابو جدله ولد خلافه الا بنت فأرغمها عمها بالطهارة وزوجها مارث فخلفت منه توأمين رومولوس وريموس ولما وضعت ولديها أمر عمها برميها وولديها فى نهر الطيبر وبينما كان الولدان مرميين فى مياه البحر تحت ذيل جبل بلاطين وجدتهما ذئبة فأخذتهما الى مغارتها وصارت ترضعهما حتى اشتدا ورآهما رجل حطاب فكان يأتى اليهما بالغذاء الى أن كشف أمرهما رجل من رعاة الملك اسمه فوسطولوس فأخذهما ورباهما مع أولاده فوق جبل بلاطين فأسس عليه الولد الاكبر وهو رومولوس

مدينة وقت ما بلغ رشده وسماها باسمه ولما وجد رومولوس ضعف قومه وعجزهم جعل مدينته مأوى الحشرات من أرباب الجرائم والفارين من الطوائف بأسباب سياسية وأتوا اليه أفواجا فأحوجتهم هذه الحالة الى الزواج واقتناء الزوجات حتى يكونوا على مكنة من التوطن فى المدينة وعدم تركها ويكونوا أولادها ومن تبعتها الا أن الامم المجاورين لهم ما كانوا على رغبة من زواج بناتهم لهم فاشتغل رومولوس بحيلة أجراها فى الزواج وذلك أنه أقام عيدا كبيرا ووليمة حافلة دعا اليها اللاتنيين والصابنيين للفرجة والضيافة وفى أثناء هذا العيد انقض الرومانيون فى وسط هذا الزحام وقبض كل رجل منهم على صبية فحملها وهرب بها فأعقب هذه الحالة حرب انهزم فيه اللاتنيون ثلاث مرار فدخل طيطوس طاطيوس ملك الصابنيين بنفسه فى الحرب وبواسطة خديعة طاربية بنت الرئيس الاكبر لقلعة كابيطولين استحوذ الصابنيون على هذه القلعة ثم ان الرومانيين استمالوا طاربية بواسطة أساور من ذهب واتفقت معهم أن تفتح لهم أبواب القلعة لو أعطوها هذه الاشياء اللامعة الموجودة فى أذرعهم ولما توجهوا الى القلعة ورموا عليها درقاتهم اللامعة التى كانوا لابسيها على أذرعهم واقتحموها وقتلوها فاجتهد الصابنيون فى الغلبة على المدينة الا انهم بينما كانوا على شرف التغلب عليها وكانوا مزدحمين على باب من أبوابها اذا انفجر نهر من الماء شديد التيار من هيكل جانوس فأغرقهم جميعا وبهذا خلصت المدينة من شرهم فتذكارا لهذه الواقعة استمر الرومانيون على فتح باب هيكل جانوس مدة الحرب حتى ان الاله يكون له طاقة على الخروج الى الخلاء من أجل مساعدة أمة رومولوس مثل ما حصل فى اليوم السابق ومن بعد مضى مدة هاجت واقعة أخرى الا انه توقف اجراؤها بواسطة النساء الصابنيات اللاتى كان الرومانيون أخذوهن سابقا فربطن العلائق بينهم بكونهن رمين أنفسهن بين آبائهن واخوانهن وأزواجهن وتوسلن اليهم فى قطع ما بينهم من العداوة والحروب فكانت نتيجة هذه الواقعة عقد سلم واستتباب راحة بينهم واتحاد الامتان مع بعضهما وتسلطن رومولوس على الرومانيين الموجودين على جبل بلاطين وطيطوس طاطيوس على الصابنيين الموجودين على جبل كابيطولين وجبل كرنبال ومن بعد موت طاطيوس تسلطن رومولوس على كامل الامة المنضمة مع بعضها ومن بعد سلطنة امتدت ثلاثين سنة عرض ذات يوم جيوشه على نفسه فى ميدان مارث فأظلم الجو على حين غفلة وهاجت الزوابع والعواصف فكنست الارض ولما هدأت هذه الرياح لم يجدوا لرومولوس أثرا ولا جلية خبر فنعاه قومه نعى الميت وحزنوا عليه الا انه ظهر فى هيئة جليلة لواحد منهم وأخبره بأنه رفع ليقيم مع مارث أبيه فى السماء وأن الرومانيين سيصيرون يوما من الايام أسياد الدنيا وملوكها وانه هو نفسه الحارس الحافظ لهم باسم كيرينوس

وذكر أن بروكاس ملك البه ترك ولدين عند موته ووصى بمملكته الى نوميطور ابنه الاكبر وبكنوزه بما فيها من الاموال القديمة التى سلمت من نهب مدينة تروادة الى أموليوس فصار للاصغر طاقة بواسطة ما عنده من الاموال على أن يرشى شرذمة من المعاضدين فى خلع أخيه فخلعه وقتل الابن الاصغر أخاه نوميطور وأما ابنته وكان اسمها ايليا أورهيا سلفيا فانه جعلها عذراء للالهة أى متطهرة فبينما كانت ذاهبة للغسل من ينبوع ماء لاجل خدمة المعبد افتضها الاله مارث فحملت منه ووضعت توأمين فأمر أموليوس بقتلها ورمى الطفلين فى نهر أنيو فحمل ماء النهر الولدين الى مياه نهر الطيبر وما زالا حتى رسيا تحت ذيل جبل بلاطين تحت شجرة تين فأرضعتهما ذئبة وغذاهما رجل حطاب حتى

أخذتهما عكا لونطيا زوجة فوسطولوس أحد رعاة الملك وربتهما حتى صار التوأمان بين أولادها الاثنى عشر مشهورين بالشجاعة وانحياز ثبين أحزاب عدوانية فكان اسم حزب أتباع رومولوس كنكطيلي وأتباع ريموس فابى ولما شبا وكبرا اشتبك ريموس فى مشاحنة مع راعى نوميطور المخلوع فأخذه وجاء اليه بصفة قاطع طريق ولما جلب البرنس الشاب أمام جده انشرح من سرعة جودة أجوبته له حتى تردد فى مونه ولما سمع رومولوس من الرعيان الاختيارية أصل سر ولادته جمع أقرانه وتوجه لخلاص ريموس وانضم اليه بعض من قدماء المتقربين لجده وخلعوا أموليوس وأعادوا نوميطور الى التخت فمن محبتهما البقعة التى حفظت حياتهما بالقدرة الالهية حض الشابان جدهما على الترخيص لهما ببناء مدينة على شواطئ نهر الطيبر فسمح لهما بكل كراهة وحصل بين الاخوين غضب بسبب أن رومولوس صمم على رأيه فى تسمية المدينة باسم رومة وأن يكون بناؤها على جبل بلاطين وطلب ريموس تسميتها ريموريا وأن تبنى على جبل افنطين وأخيرا صمم على حل هذه المسئلة بواسطة الفال وكانوا على اعتقاد كبير منه وكان الفال الاول عند ريموس ستة من النسورة وأما رومولوس فكان عنده اثناعشر فهاجت مشاحنة أخرى الا أن حزب رومولوس غلب وصار رمى أساس المدينة على جبل بلاطين باحتفالات عظيمة من جميع التوسكانيين ولما ظهرت الاسوار على الارض قليلا طلع ريموس فوقها وصار يلعن ويسب فقتله امارومولوس أو واحد من أتباعه وعلى حسب ماذكر فاروان صار تأسيس رومة فى ٢١ ابريل فى اليوم المقدس لبعله الهة الرعيان وفى السنة الثالثة من الاولمبياد السادس أى من بعد خراب تروادة بنحو ٤٣١ سنة أعنى فى سنة ٧٥٣ قبل الميلاد وبنيت على هيئة شكل مربع وكانت مشتملة فى الاصل على نحو ١٠٠٠ عشة حقيرة فكانت هذه الحالة مبدأ مدينة صارت فيما بعد عاصمة الدنيا عموما

ثم من بعد مضى سنة من ترجمة رمولوس انتخبت الامة نومه بومبيلوس وهو رجل صابينى مشهور عندهم بالنباهة والفضل وجعلوه ملكا عليهم وكان تاريخ جلوسه على كرسى السلطنة حسبما وردت به الاساطير التاريخية فى سنة ٧١٥ قبل الميلاد فأقام ديانة الرومانيين على أقوى أساس وجعل لها عوائد مشهورة صارت بواسطتها معروفة وكان محبوبا عند العذراء أغيريا فكان يأخذ منها ما كانت توحيه اليه فى مدة اجتماعه معها فى أيكتها المقدسة بواسطة ينبوع ماء يخرج من صخرة فى الايكة وذكر هذه النصائح والالهامات فى شرائعه وقوانينه وعود قومه على عوائد الكد فى الشغل وعوائد السلم واستتباب الراحة واجتهد فى أن غرس فى قلوبهم الحق والعدل والانصاف وكانت مدة سلطنته ذات أمن وفوز ونجاح وما فتح فى مدتها باب هيكل جانوس لان الرومانيين ما كان لهم عدو يحاربونه ومات بعد أن بلغ من العمر ثمانين سنة ودفن تحت جبل جانيكولوم فى الجهة المقابلة من نهر الطيبر ودفنت كتب شرائعه المقدسة ووصاياه فى قبر آخر على حدته بالقرب منه

وخلفه طولوس هوسطيليوس وبجلوس هذا على الكرسى انتهت المدة الحقيقية للحوادث التاريخية الخرافية حسبما قيل وما وردت به التسجيلات التاريخية

ولنشرح الآن ما حصل من الاعمال وما وقع من الحوادث فى تاريخ رومة المرعى حقيقته وصحته عند متأخرى المؤرخين فنقول وعلى الله حسن العاقبة والقبول

انه على حسب ما وردت به الحوادث التاريخية صار تأسيس رومة فى سنة ٧٥٣ قبل ميلاد المسيح

عليه السلام وان متأخرى المؤرخين مع كبيرهم الحكيم مومصن يقولون ان الصحيح المعوّل عليه ان الرومانيين واللوسيريين والطيطيين أجناس وشعوب قطنوا سوية فى هذا الاقليم وكان لهم معقل مشترك على الجبال الرومانية فكانوا يفلحون أراضيهم ويزرعونها بواسطة القرى المحيطة بهم ثم تحوّل هذا المعقل الى أن صار مدينة أخذت فى النمو والتقدم شيأ فشيأ على التدريج ثم قال مومصن ان تأسيس مدينة بالحالة التى ذكرت فى الرواية السابقة هو من غير شك خارج عن الحد والموضوع وان رومة ما صار بناؤها فى يوم واحد وأيا ما كان من صحة قضية تأسيس رومة أو عدمه فالمحقق المعوّل عليه ان حكاية رومولوس والذين خلفوه مباشرة منسوب جميعه الى الحشويين أرباب الخرافات والخزعبلات وانما أهل التاريخ ما وصلنا الى المدة الحقيقية الا من ابتداء سلطنة طولوس هوسطيلوس وقد يوجد سبب قوى يستدل منه على انه كان انسانا فى الحقيقة وان الوقائع الكبيرة والحوادث الشهيرة التى حصلت فى مدة سلطنته هى أعمال حقيقية لا خرافية وكان جلوسه على التخت فى سنة ٦٧٢ قبل الميلاد حسبما وردت به الحوادث التاريخية وتغلب هذا على البه الطويلة وخرب مدينتها ونقل سكانها الى رومة وأسكنهم جبل كولى وتولد من هذا الفتح زيادة الاراضى الرومانية ضعف ما كانت عليه أو ثلاثة أمثالها وصارت رومة المدينة الاصلية للاتيوم والحافظة للاتحاد اللاتينى وكان لها السلطة الممتازة على هذا التحالف والاتحاد فكان الجيش الاتحادى محكوما على التعاقب بقائد رومانى تارة وبقائد لاتينى أخرى وكل ما كان يفتحه الجيش يقسم بوجه المساواة بين رومة والاتحاد اللاتينى فكان يعطى لرومة نصيب مساو للنصيب الذى يعطى للاتحاد عموما

وفى مدة سلطنة طولوس حصل بعض تغييرات فى النظام الرومانى ولاجل معرفة هذه التغييرات يلزمنا أن نفحص أولا عن النظام الابتدائى الذى كانت رومة سائرة تحته فى المدة القديمة التى قضتها الحد هذه السلطنة وهو أن الحكومة كانت ملوكية وكان رأس المملكة ملكا مطلقا عليه اسم راكس أى حاكم أو مدبر كان يباشر كثيرا من الاعمال وان لم يكن له شوكة مطلقة على أهل المدينة وكانت الملوكية انتخابية فمن ثم كان يعقب موت الملك الواحد فترة من الزمن تباشر أعمال الحكومة فيها بواسطة مجلس أعيان أو سناتو كانت أعضاؤه مؤلفة من عشرة من أعيان المملكة وكان يطلق عليه أيضا اسم المجلس العالى أو الاول وهو منوط باجراء الاحكام الملوكية فكان كل واحد منهم يترأس لمدة خمسة أيام وكان مجلس السناتو ينتخب الملك ثم تصدق الامة على هذا الانتخاب وكان من بعد الملك فى الدرجة الباطريسى أى وارثى الشرف والسيادة وهم الذين حازوا درجة سيادتهم وشرفهم من سلسلة شرف أجدادهم وهؤلاء العائلات الشريفة وبيوت السيادة كانوا فى الاصل مائة بيت فحصلت فيهم الزيادة حتى وصلوا الى مائتى بيت بسبب انضمام الصابنيين اليهم وكان كل بيت أو شعب ينوب عنه رئيسه أى كبير البيت ويكون هذا النائب على حسب فضل موقعه اما عضوا فى مجلس السناتو واما جليس الملك وكان أفراد البيت الواحد يلقبون بلقب اسم العشيرة وجميعهم مشتركون فى روابط مقدسة واحدة معلومة ولكل منهم حقوق فى المملكة معلومة فى العموم وكان كافة الذكور أرباب السن الكامل من طائفة الاشراف لهم الحق فى الحضور فى مجلس العموم فكانوا مقسومين فى هذا المجلس الى عشرة كوريات وكل كورية مؤلفة من أعضاء من عشرة بيوت ولكل كورية رئيس اسمه كوريو ورئيس العشرة هو الحاكم الرئيس على المجلس ويطلق عليه اسم الكوريو الاكبر فما كان يمكن حصول أدنى تغيير فى قانون

النظام

النظام من دون رضا كل من مجلس السناتو والمجلس الاهلى أو مجلس السادة وكان لمجلس السناتو الحق فى كل من رفض أو تنفيذ الاوامر العمومية وعلى مجلس السادة التصديق على اجرائها وكان من شأن مجلس السادة تقرير الصلح أو قواعد الحرب وكان يوجد غير ذلك ديوان استئناف لبت واثبات ما يتقرر من الملك أو من قاض وكان يوجد من بعد الاشراف مجموع الامة وهذا المجموع كان مقسوما الى طائفتين وهما التبعة والارقاء فأما التبعة فهم التابعون لبيوت الاشراف ويلقبون باسم عشيرة عميدهم وهم وان كانوا أحرارا فى أنفسهم الا أنه ما كان لهم دخل فى الادارة السياسية بل كانوا يزرعون فى العادة أراضى أسيادهم التابعين لهم أو يتعاملون فى تجارات تحت نظر وحماية كبرائهم ويتبعون كبيرهم فى الحروب وكانت تتوزع عليهم فدينته أو فدية أولاده وقت أسرهم فى الحروب ويساعدونه فى صرف المصاريف اللازمة لاقامة أى شكوى يمكن أن يقع فيها أو فى مصاريف خدمة فى أى مصلحة من المصالح التى يعود منها النفع على المملكة كما أنه كان يجب على كبير القوم المدافعة والمحافظة على منافع تبعته فى المحاكم المحلية اذا لزم ذلك وكان ارتباط كبير القوم مع تبعته متسلسلا من الاب الى الابن وكانوا يرون أن من أعظم الفخر والاعتبار أن يكون للبيت الواحد من بيوت السادة كثير من التبعة وأما الارقاء فكان لهم موقع مثل موقع أهل البلاد الا أنهم ما كانوا كثيرى العدد فى العصور القديمة

وتولد من ضم طولوس الالبانيين الى رعيته زيادة طائفة الاشراف بانضمام أشراف الالبانيين اليهم فصار عدد العشائر ثلاثة وبيوت السادة ثلاثمائة وعدد الكوريات ثلاثين واستمر مجلس السناتو على عدده الاولى لانه لم يترخص لاشراف الالبانيين أن يكون لهم الامتياز فى أن يحلوا فيه وزادت مدرسة العذارى الطاهرين الى ستة من بعد أن كانت أربعة لان رومة صارت فى هذه الحالة بلد الالبانيين الا أنه ما حصل تغيير فى النظامات الدينية والعقائد المذهبية

وجلس من بعد طولوس هوسطيلوس انكوس مرطيوس جلس على التخت فى سنة ٦٤٠ قبل الميلاد حسبما وردت به حوادث التاريخ وعلى ما قيل انه كان واحدا من الصابنيين أو الطيطيين وهيج حربا على المدائن اللاتينية وتغلب على عدة منها ونقل سكانها الى رومة فمن ثم زادت شوكتها وجلالتها زيادة كبيرة وصار معظم الذين استوطنوا جديدا تبعة لبيوت السادة الا أن طوائف الاغنياء منهم والذين لا تبعة لهم لاحد ما قبلوا الدخول فى هذا الموضوع وكثر عدد هؤلاء حتى لزم الحال لان يخصص لهم مواقع ومنازل معروفة فى المملكة فصار ترتيبهم بمعرفة انكوس مرطيوس على حسب قول متأخرى الرومانيين الى طائفة حرة ممتازة تابعة لحماية الملك ومحافظته وأطلق عليهم اسم البلبيون أو العوام فكانوا محصورين فى عدة طوائف الاولى حربيون فى المسكن سواء كانوا ملتجئين سياسة أو عساكر أجرية أو تجار والثانية المجبورون على السكن وهم الذين غلبوا على أمرهم من الامم وصار نقلهم الى رومة ماعدا الذين صار قبولهم فى طائفة السادة أو الذين صاروا تبعة لمنازل السادة الثالثة التبعة الذين عدموا أسيادهم من تجريد شرفهم وكانوا فى الاصل تبعة لهم الرابعة كفأة الزواج وهم أولاد السادة الذين تزوجوا بنساء لسن كفوأ لهم وكان زواجهم بهن غير معدود شرعيا وكذا الذين ما أمكنهم البقاء على درجة ابائهم وما كانوا عليه من حالتهم ومن ثم أخذت رومة فى درجة التقدم بسرعة حتى صار لها من الضرورى أن تعترف اعترافا رسميا لهذه الطائفة بحرية النفس فى هذه المدة القديمة وأسكنهم أنكوس فوق جبل افنطين ومنحهم جهة مخصوصة من المدينة وقرر لهم قوانين ثابتة حيث كان

لا يمكن تركهم من دون حكومة ونظام
وأخذت رومة فى مدة سلطنة أنكوس فى التمدن والحضارة وزيادة الشوكة بسرعة كبيرة وامتدت الاراضى الرومانية الى حد البحر وابتنوا مينة أوسطيه وشيدوا أشغال الملح فى ضواحيها وأنشؤا جسرا من الخوازيق أو قنطرة ثابتة على الطيبر وصار تحصين جبل جانيكولوم بالاستحكامات القوية والاسوار المنيعة وحفروا فى الاراضى حول السبعة جبال ترعة وسموها خندق كبير يطيوم وابتنوا أول سجن ولما مات انكوس خلفه طاركنيوس بريسكوس فكان جلوسه على التخت حسبما وردت به أخبار الحوادث التاريخية فى سنة ٦١٦ قبل الميلاد وامتدت سلطنته الى سنة ٥٧٨ قبل الميلاد وكان طاركينيوس عطروسكانى الاصل الا أنه كان قاطنا فى رومة من مدة طويلة فطرد الصابنين وكانوا عبروا من نهر انيو وأزعجوا رومة نفسها ثم هجم على المدائن اللاتينية وتغلب عليها أجمع ماعدا مدينة فومنطون وفى آخر أيام سلطنته أغار على أراضى عطروسكانة ونال منهم فوائد جليلة وبواسطة هذه الفتوحات أضاف الجم الغفير من الناس الى رومة وأراضى شاسعة الى أراضيها وأصلح أيضا اصلاحات عظيمة فى المدينة وبنى المجرة الكبيرة المسماة كاوكه مكسيمة وحجز فيضان نهر الطيبر من سيلانه على أرض المدينة بواسطة رصيف ضخم بناه فى طول الشاطئ الايسر من النهر ووصل المجرة والرصيف بالوادى المستنقع الموجود بين جبلى بلاطين وكابيطولين وأقام طاركين فى هذا المحل الفورم وهو الساحة العمومية فى رومة ودوردائره بالبواكى والعمد والدكاكين وعمر بين جبلى بلاطية وافنطين ميدان ملعب الخيول المعروف بالسيرك الاكبر لاجل انشراح الامة وترويحها وشرع فى تشييد هيكل للمشترى (جو بتير) على جبل كابيطولين الا أن شغله لم يتم فى مدة سلطنته بل تممه ابنه من بعده
وأما التغييرات النظامية المهمة المنسوبة الى طاركين فهى أولا زيادة أعضاء مجلس السناتو من ٢٠٠ نفس الى ٣٠٠ نفس بان أضاف اليه نواب بيوت السادة الذين كانوا معتبرين فى طائفة الاشراف الالبانيين وقت انتقالهم الى رومة ثانيا ضاعف عدد بيوت الاشراف وكان عدد هذه البيوت انحط حتى وصل الى ١٥٠ بيت وشكل طاركين من وجوه أشراف الامم التى تغلب عليها ثلاثة أصناف شعوب مركبة من خمسين بيتا ألحق كلا منهم باسماء قدماء الرامنيين والطيطيين واللوسيريين الا أنهم فى درجة منحطة عن درجة سادة المدينة
ثم انه من قبل الانتقال الى شرح حوادث ووقائع القرن التالى وجدنا أن الاصوب الوقوف هنا لحظة حتى نشرح العقائد الرومانية لان العلم بها ضرورى لمطالعى التواريخ الرومانية وذلك أن الرومانيين استمروا من ١٧٠ سنة من ابتداء تأسيس المدينة وما كان عندهم صور تماثيل مخصوصة بآلهتهم وأفسدت الديانة الوثنية ما كانوا عليه بعد ما كانوا محافظين على عقائد مرعية عندهم بالنسبة لمصالح سكناهم ولهم عقائد ومذاهب نقية فى أنفسهم وكان أكبر الآلهة عند الرومانيين المشترى (جو بتير) والمريخ وهو مارث فكان جو بتير هو الاله الاعظم ومارث الاله المخصوص بهذه الامة فى وقت حربها يعنى أنه اله الحرب وعبدوا كيرينوس تحت اسم رومولوس وكان مضاعف مارث فكان مارث الذى هو أول شهر من شهور السنة الرومانية مقدسا عندهم وسموه بهذا الاسم اجلالا لاسم الاله مارث وكان موسم الحرب الاكبر فى قسم عظيم من هذا الشهر ويدخل هذا الموسم بيوم سباق الخيل فى ٢٧ من شهر فبراير وكانت أيامه المشهورة تعرف باسم تطريق الدرقات أو التروس فى ١٤ مارث وفى يوم الرقص

والنط بالسلاح فى الجمعيات والمجالس فى يوم ١٩ مارث وتطهير الابواق والطبول وتقديسها فى يوم ٢٥ مارث وفى مدة الايام الاول من الموسم يمشى اثنا عشر قسيسا مخصوصين بالاله مارث ومنتخبين من العائلات الشريفة يطلق عليهم اسم صاليون أو النطاطين من وسط الشوارع ويترنمون بالمغانى ويرقصون وينطون ويضربون على تروس فى أيديهم مصنوعة من البرنز فكانت الحروب تبتدئ بهذا الموسم ويعقب غلاق الحرب فى فصل الخريف موسم ثان تعظيما لمارث اسمه موسم تقديس الجيوش فى يوم ١٩ أقطوبر وكان لكيرنيوس أيضا موسم مخصوص به يجرى اشهاره فى ١٧ فبراير باحتفالات وشعائر عين المتقدمة

وكانت أيام تمام الهلال مقدسة لجوبتير وخلاف هذه المواسم كانت مواسم العنب وأيام أخرى مختلفة وكانت المواسم التالية للمواسم المتقدمة فى الاهمية هى المواسم المخصوصة بالغلال والعنب وبيان المدد المختلفة من السنة الزراعية وكان أول هذه المواسم يعقد فى ١٥ ابريل عندما يصير تقريب القربان الى طيلوس وهى الارض الناتج منها الغذاء ويعقد الثانى فى ١٩ منه وكان يقرب فيه القربان الى صيريص الهة النبت والنمو وفى ٢١ يقرب القربان الى باليس حافظة المواشى والاغنام وفى ٢٣ منه الى جوبتير حافظ النبيذ والخوابى أو الدنان الموجود فيها النبيذ من السنة الماضية وتفتح الخوابى أول مرة فى هذا اليوم وفى ٢٥ منه يتوسلون ويستغيثون الى ربة العدو المبين لمواسم الحصاد وفى شهر مايه تشهر الاثنا عشر قسيسا الملقبون بلقب أرفال اخوان ثلاثة أيام عيدا الى ديا ديا يقدمون فيها الشكر والثناء على بقاء دوام خصوبة الارض والنظر بعين الصلاح والفلاح الى عموم الارض الرومانية وفى شهر اغسطس يعمل موسم الحصاد وفى شهر أقطوبر عيد العنب تشريفا الى جوبتير وكان يوجد فى شهر ديسمبر موسمان للشكر أول شكر منهما من أجل امتلاء أشوان الغلال ومخازن الحبوب والثانى موسم التقاوى والبزر فى ١٧ منه ويعمل عيد ثالث فى هذا الشهر احتراما لصغر زمن اليوم فى السنة وفيه تنزل الشمس فى ٢١ ديسمبر وكان انتهاء هذه الاحتفالات والاعياد السنوية يعمل عيد صغير اسمه لوبرقاليه أو عيد الذئب تجرى فى مدته بعض من طوائف القسس نحو المدينة متمنطقين بجلود التيوس ويضربون المتفرجين باسواط معقودة وبواسطة طرمنا اليا فريضة عندهم تعظيمه لطرمنوس اله الحدود أو الاشارات الارضية

وكان أكبر الهة الرومانيين عموما وأجلها خصوصا جانوس ذات الوجهين أى ديان اله الشمس هذا معظم عندهم من الابتداء فكان كل صباح تقدس له البوابات والابواب وكافة المواسم والاعياد وشهر يناير الذى هو فى الاصل الشهر الحادى عشر من السنة الرومانية وكان معبودا قبل كل اله ومع ان شهر يناير كان يتلو الشهر الاخير الا أنه كان مخصوصا لجانوس بسبب أن أشغال المزارعين فى ايطاليا الجنوبية كانت تبتدئ فى هذا الشهر وكانت تقرب له القربان فى اثنى عشر مذبحا وتقام شعار الاستغاثات والصلوات عند افتتاح كل يوم وكان أول يوم من شهر مارث أى أول يوم من السنة الجديدة الرومانية مقدسا لجانوس بالخصوص ويعتقدون أنه فى هذا اليوم تحصل بركة جديدة وخيرات عظيمة تبقى طول السنة وتحافظ فيه الامة على أفكارهم وأقوالهم وأعمالهم وينظفون قلوبهم لاصدقائهم ويطهرونها عن هدايا وأعمال خيرية ويبتدئون فى العادة بالاشغال والاعمال الخيرية ويسيرون على موجبها مدة السنة وكان هيكل جانوس مبنيا فى ذيل جبل قابيطولين بين المدائن القديمة الرومانية والمدائن الصابينية

وكانت الجيوش تسير من المدينة وتمشى فى الخلاء حتى تمر من أبواب الهيكل ثم تعود منها راجعة الى المدينة وتستمر هذه الابواب مفتوحة مادام الحرب موجودا كما ذكرنا سابقا

وأما بركان أو فولكان وهو اله النار وأفران تطريق الحديد فكان هذا الها آخر من ضمن الآلهة الكبيرة الرومانية وكان له عيدان أحدهما عيد تقديس الابواق وشد الطبول وآخر في شهر اغسطس يسمى ولكانيا وأما فسطا الهة الكوانين ومايختص بمستوقدات البيوت فكانت أقل درجة ممن ذكر الا أنها كانت عزيزة عند الامة الرومانية لانهم كانوا يرون أنها منبع سعادتهم وفلاحهم الداخلى أى المنزلى فكان كل كانون أو وجاق مصنوع من الحجر فى أى بيت من بيوت الامة الرومانية يعد من ازالها وكل أكلة تعد قربانا لها وفى كل دهليز أو مدخل بيت كان يوجد معبد أو صومعة تختص باللاريس يقدم فيها أبو العائلة أو رئيس العائلة خشوعه وخضوعه عند عوده من شغله الى البيت قبل أن يشتغل بأى شغل من الاشغال الواجبة عليه وكانوا يرون أن هؤلاء اللاريس هم أرواح أهل الخير والاحسان وعلى الخصوص أنهم أرواح أجدادهم أى أجداد العائلة وكان يوجد فى كل مدينة حفظتها من الآلهة أو لاريس عمومية تعبد فى هيكل واحد أو فى صوامع متعددة منشأة على وجه العموم فى تقاطع الشوارع مع بعضها ولا يظهرون اسماءها بل هى مخفية فى قلوبهم لان الرومانيين كانوا يعتقدون أنه لا يجب التفوه ولا الاباحة باسماء الآلهة الحافظة للمدينة خشية من عدو يعرفها فينادى الاله باسمه ويغويه على قبول مالا يكون موافقا من خصائصه وأما المسافرون وعابرو السبيل فكان لهم آلهة يعبدونها غير هذه ومن بعد أن تداخل الرومانيون مع الجريس وعاشروا الجريق ابتدؤا فى مخابرة كاهن دلفى مع الاستمرار وكانوا يعتبرون أنباءه وأقواله وما كان ينطق به مع الاجلال والاحترام وما كان عند الرومانيين الا كاهن واحد اسمه فاونوس كان جليلا عندهم وكان هيكله على جبل افنطين وكان يوجد أيضا كثير من الكهنة فى مملكة لاطيوم الا أنهم ما كانوا يعطون جوابا مقنعا شافيا وكانوا يؤكدون مقاصد الآلهة بواسطة الفال

وأما الكتب المقدسة الصيبلينية فكانت أجل المستحوذات النفيسة الثمينة عند الامة الرومانية فكانوا يعتقدون أنه صار مشتراها بمعرفة واحد من الطاركينين من امرأة صاحبة سر خفى جاءت بها الى رومة وطلبت فيها ثمنا فائق الحد وكانت تسع كتب فى الابتداء فلم يقبل الملك مشتراها بهذه الاثمان الباهظة فاخذتها الصيبلة وتوجهت لحال سبيلها فاخفت منها ثلاث مجلدات وعادت بالستة الباقية الى الملك وطلبت فى ثمنها ما كانت طلبته فى التسعة فلم يقبل أيضا طاركين مشتراها منها فتوجهت وأخفت ثلاثة ورجعت بالثلاثة الباقية وطلبت الثمن الذى كانت طلبته فى التسعة كتب فقامت حمية الغضب فى رأس الملك واشتراها بما طلبت المرأة الصيبلينية فوجدها مشتملة على انباآت غيبية جليلة تختص برومة فى الازمان المستقبلة فوضعها تحت كفالة احدى المدارس المقدسة فى صندوق من الحجر تحت هيكل جوبتير قابيطولينوس فكانت تراجع بأمر من مجلس السنا توفقط فى الاوقات التى يحصل فيها الهياج والفتن الكبيرة وكانت المدارس المقدسة تشمل قسما جليلا من المذهب الرومانى وكان عددها ثلاثة وهى مدرسة الفال وكان أهلها منوطين باثبات مطالب الآلهة بواسطة طائرات الطيور والنظر فى أمعاء ومصارين الذبائح ثم مدرسة القناطر وكان أربابها هم المهندسين الرومانيين ومنوطين بعمل حساب نتيجة الشهور السنوية وبمباشرة كل موسم واحتفال وعيد دينى ومباشرة

الاعمال

الاعمال الواجب اجراؤها فى الايام المخصصة لها ويشعرون الامة بابتداء طلوع الهلال وتمامه وتخابر معهم جميع الطوائف بشأن الاعمال اللازمة لها فى الايام الواجب اجراؤها فيها ويحافظون على كتب الحوادث والوقائع والتسجيلات السنوية وما يحصل فى المملكة من الوقائع والحوادث والاشغال فمن ثم كانوا هم مؤرخى المملكة ثم مدرسة السفراء أو المبعوثين وهم المنوطون بحفظ المعاهدات والاتحادات التى تعقد مع الامم المجاورة ولهم المكالمة على حسب رأى المملكة فى ربط معاهدات شرعية حقة وفى الاحوال التى يطلب فيها الرضا أو الحرب وكانوا هم المهندسين فى موقع واحد فى الاحوال الداخلية الديانية والقوانين الشرعية وكانوا منوطين أيضا بسن القوانين والشرائع ولو لم يباشروا اجراءها وتنفيذ أعمالها

وكانوا يطلقون على قسس كل آلهة مخصوصة اسم جمرة أو شرارة لانهم يتحملون عناء نار تقريب القربان وكان أجل هؤلاء القسس وأكبرهم احتراما شرارة ديااليس أو قسس جو بتير ومن بعدهم فى الدرجة قسس مارث وكيرينوس وكان القسس بواسطة الزهد والقناعة يتوصلون الى العيشة الطيبة المرضية التى تحفظ له شرفه ومجده فكانت هذه هى الهيئات الاصلية للديانة الرومانية وفى حالتها عند الملة وفى مبادى المداخلة مع الجريقيين زحفت التصورات الجريقية والخرافات اليونانية حتى غشت على عقول الرومانيين وغطت على أفكارهم وما كانوا عليه من اعتقاداتهم حتى صار كثير من آلهة الهلاس آلهة أصلية فى رومة

وانتهت سلطنة طاركين الاول فى سنة ٥٧٨ قبل الميلاد بقتله بواسطة مستأجرين من طرف أولاد أنكوس مرطيوس مؤملين حفظ التاج وتوطيده لانفسهم فكانت مساعيهم وقتل الرجل على غير طائل لهم واستخلف من بعد طاركين زوج ابنته أو صهره صرفيوس طوليوس وكان قائدا عطروسكانيا فضبط التخت مع الجسارة والشجاعة ولما نال صرفيوس بعض مظفرات جليلة على العطروسكانيين عزم على تغيير كثير من مواد القانون الراديكالى وكان كامل شوكة المملكة والسلطنة قد حد هذا فى أيدى الاشراف وما كان للملك فيهما من شىء وعزم صرفيوس على أن ينشر الحرية على كافة الاحرار من التبعة ولما تم ترتيب نظام الجيوش جعله قاعدة أساسية لتنظيماته وشكل مجلسا جديدا وسماه المجلس الثانوى وقسم عموم الامة الرومانية الى طوائف على حسب درجتهم فى الثروة والغنية وقسم هذه الطوائف الى طوائف ثانوية حسب قيمة ما عند كل انسان من الاملاك وكل طائفة ثانوية مهما كان عدد نفوسها فما كان لها الا صوت واحد فى مجلس الامة فتولد من هذا زيادة نفوذ وشوكة لاهل الغنية والثروة الا انه لو حصل اختلاف فيما بينهم وقعت طوائف الفقراء فى موقع الذل والمشاحنات وكل انسان من الرعية ملزم بأداء الخدمة فى الجيش على حسب ما عنده من الاملاك والعقار ومركزه فى الخدمة العسكرية على حسب درجته فى المعيشة التبعية أى بالنسبة لثروته ورتب صرفيوس الطوائف العالية فى الخدامة العسكرية فى صفوف الخيالة وقسمهم الى ثمان عشرة أورطة فالستة الاولى منها من كل من العشائر الثلاثة الاصلية أى أورطتان من كل عشيرة فكانوا هم السادة أو الاشراف والاثنتا عشرة أورطة الباقية من الاغنياء وعوام الناس أهل الشجاعة والنجابة وكانت جميع العساكر الرومانية يحاربون مشاة ما عدا الخيالة وقسم مجموع الامة الى خمس فرق فكانت الفرقة الاولى مركبة من ثمانين وجعلهم من الذين لهم القدرة على تطقيم أنفسهم بطقومة حربية تامة من النحاس وجعلهم الحذاء

الاول وقت المحاربة وتعبية العساكر ورتب أربعين بلكا من بلوكات هذه الفرقة من شبان الرجال من عمر سبع عشرة سنة الى خمس وأربعين سنة وكانوا زهرة المشاة الرومانية وأما الاربعون بلوكا الباقية فكانوا من رجال عمر الواحد منهم ينوف عن ست وأربعين سنة وكان هؤلاء معدين للمحافظة فى المدائن والمعاقل وكانت الفرقة الثانية مقصورة على عشرين بلوكا وبمثل هذه الصورة رتب الفرق الباقية بلوكات مثل الفرقة الثانية ماعدا الفرقة الخامسة فكان عدد البلوكات فيها ثلاثين وكانت الفرقة الثانية تحارب مباشرة خلف الفرقة الاولى وكانوا لا يلبسون دروعا و يحملون تروسا من الخشب بدل النحاس وما كان للفرقة الثالثة خود من نحاس ولا تروس للفرقة الرابعة وكانت الفرقة الخامسة عساكر مشاة خفيفة وما كانت مشكلة قسما من الجيش وكان سلاح هذه الفرقة المقاليع والحراب وكان يطلب من عموم هذه الفرق تطقيم أنفسهم فى وقت الحرب ومن بعد هذه الفرق الخمس أفقر رجال الامة وكانوا يدعون فى الاحوال الكبيرة اللازم وجودهم فيها فكانوا يتسلحون على مصاريف الحكومة الرومانية وكان محل اجتماع هذه الفرق والبلوكات وقت الطلب خارج أسوار المدينة فى ميدان مارث

وكانت الشعوب الرومانية لحد سلطنة صرفيوس هم شعوب طائفة السادة وهم الرامنيون والطيطيون واللوسيريون وقسم صرفيوس المدينة الى أربعة شعوب والمملكة الى ستة وعشرين كورة أو اقليما وجعل لكل شعب أملاكا خاصة به من دون مراعاة لدرجة الشرف والسيادة وكان محل اجتماع الشعوب فى الفورم أى عند سراى الميدان على أن العشائر الريفية وأهل السواد ما كانوا على انشراح خاطر من هذه الامتيازات لحد الازمان الاخيرة ورخص لكل شعب بان يكون لاهله حق الاجتماع وحكومة نفسه بنفسه فكان كل شعب يعين من عنده حكاما ومفتشين وقضاة وما اكتفى صرفيوس بهذه الترتيبات التى أعطى فيها العوام حق حكومة أنفسهم بل أناطهم بتعديل قيمة الضرائب والعوائد المضروبة على الاراضى والعقارات وتجمع بواسطة مفتشين وتدفع بمعرفتهم الى خزينة المملكة وأعطى محتاجى العوام قطعة من الارض العمومية المشاعة الموجودة فى ناحية عطروسكانه من نهر الطيبر وكان استحوذ عليها فى حروبه الاولية وأعطاها لهم بطريق التملك من دون معارضة فتولد من هذا الفعل الغضب الاكبر والحنق الشديد الزائد عند طائفة الاشراف وكانوا مغتصبين هذه الاراضى فى السابق من المملكة كلا ومرعى لمواشيهم وأغنامهم فكانوا على غير رضا من تسليمها

ووسع صرفيوس أيضا حدود مدينة رومة وكانت رومة الاصلية موضوعة على جبل بلاطين فاستترت جبال اسكلين وكوليان وافنطين بالمساكن والمبانى وكانت فى رستاق المدينة وضواحيها وكان الصابنيون محتلين جبال قابيطولين وكرينال وفمينال فضرب صرفيوس هذه المبانى والعمارات مع ميدان واسع خلفها بسور من استحكامات جديدة واستمر سورا للمدينة من دون أن يحصل فيه تغيير مدة تنيف عن ثمانية قرون الى مدة سلطنة أورليان

ولما تم صرفيوس جميع اصلاحاته ونظاماته عزم على توطيد استمرارها دائما أبدا بكونه يتنازل عن شوكة الملوكية فأمر باجتماع الطوائف حتى ينتخبوا بحرية أصواتهم نائبين كبيرين يدبران الحكومة ويسوسانها وأن يكون انتخاب هذين الرئيسين لمدة سنة واحدة وعند انقضاء مدتهما ينتخبون آخرين خلافهما بالطريقة بعينها الا أن انتقال الحالة من الحكومة الملوكية الى الحكومة الشورية الاهلية ما كان سهلا بل حصل فيه سفك دماء وفقد أنفس فمن قبل أن يضع الملك رأيه فى موضع عمله اشتد

الغضب

الغضب فى وجه طائفة الاشراف على صرفيوس بسبب تغيير عوائدهم القديمة وثاروا وهاجوا تحت قيادة طاركين ابن الملك السابق وقتلوا صرفيوس فى ديوان مجلس السناتو وأجلسوا طاركين على تخت المملكة وكان تاريخ وقوع هذه الحادثة فى سنة ٥٤٣ قبل الميلاد

وكان لوسيوس طاركينوس صوبربوس اخر ملوك رومة فابتدأ فى سلطنته بابطال عموم النظام الصرفيانى وأعاد القوانين التى كانت جارية فى مدة الملوك القديمة ومع انه ألقى مقاليد تاجه الى طائفة الاشراف الا انه ضيق عليهم فى الجملة بواسطة الطوائف الاخر من الامة وأرغم فقراء الطوائف بالشغل فى الأشغال العمومية التى كان أبوه شرع فيها بنفسه وجرد بعض التبعة من أملاكهم من دون أن يتخابر مع مجلس السناتو وفرقها على كافة الطوائف ملكية وعسكرية فكانت هذه حالة خارجة عن حد القانون وعمر عدة مجار وبلاليع فى المدينة وتمم بناء هيكل جوبيتر على جبل قابيطولين وبنى مقاعد من الحجر فى الملعب الاكبر للخيول وعقد معاهدة ودية وتجارية مع قرطاجنه وأضاف موادعظيمة الى النظام والقانون الا ان ظلمه وجوره كان يأخذ فى الزيادة سنة بعد سنة ولما ارتاب من الاشراف اتهم كثيرا منهم فى شبهات وحاكمهم عليها بنفسه وحكم على بعضهم بالموت وبعضهم بالنفى من دون مراعاة حقوق مجلس الاستئناف وأخيرا آلت أحواله وأموره الى الاشكال والارتباك بفضيحة حصلت من ابنه صكطوس مع امرأة من الاشراف اسمها لوقريطيه فاستغاث أهل لوقريطيه بالامة فى أخذ ثارها فهاجت ثورة عامة تسبب منها ابطال الملوكية والغاؤها بالكلية وهرب طاركين من المدينة ونفى هو وجميع أقاربه من الممالك الرومانية فى سنة ٥٠٨ قبل الميلاد وشك بعض متأخرى المؤرخين فى انتساب الظلم والجور الى طاركين الذى ذكره مؤرخو الرومانيين فى حقه الا أن ممن قال وهو الصحيح ان الرومانيين بعد هذا تعاهدوا وتحالفوا لانفسهم ولذراريهم بانهم لا يقبلون من الآن فصاعدا اسم ملك وصار هذا الاسم مبغوضا ملعونا فى رومة أبد الدهر حتى ان يوليوس قيصر فى القرون الاخيرة لم يتجاسر أن يلقب نفسه بلقب ملك مع انه عرض عليه هذا الاسم ثلاث مرار وكذا أوغسطس لما تشكل المملكة اجبر على الحيادة عن هذا اللقب الذى كانت تسمى به الملوك خشية من استحياء اسم الملك ثانيا ومع هذا فكان الملك من الاصل منوطا بوظيفة تقريب القربان فاستمر هذا الاسم فى هذه الوظيفة لا غير ومن بعد أن كان اسم ملك فى الدولة الرومانية أول درجاتها ومناصبها صار أوطأ وأدنى درجة من درجة أى نائب من نواب المملكة

وهذا جدول الملوك الذين تسلطنوا فى رومة ومدة سلطنة كل واحد منهم

سنة	ملوك رومه	
٣٧	رومولوس	ثلاثمائة وأربع وأربعون سنة
١	فترة من بعد رومولوس	
٤٣	نومه بومبيليوس	
٣٢	طوليوس هوسطيلوس	
٢٤	انكوس مرسيوس	
٣٨	طاركينوس البكرى	
٤٤	صرفيوس طوليوس	
٢٥	طاركينوس صوبربوس	
٣٤٤		

﴿ الباب الثاني ﴾

﴿ من تشييد الجمهورية الى الحرب مع الفي أو القنطيانيين ﴾

القناصل الاولية ـ مبادى دخول النظامات الشورية ـ ضياع رومة نفوذها بواسطة تشييد الجمهورية ـ الحروب مع اللاتنيين والغطروسكانيين ـ غدر الاشراف ـ تعديهم على عوام الامة ـ سجن المديونين ـ انفصال العوام ـ توطنهم في جبل صاسيراى الجبل المقدس ـ الاذعان لهم ـ عودهم الى رومة ـ صيرورة صو بوريوس كاسيوس قنصلا ـ القانون الاول لتقسيم الاراضى ـ ابطاله بواسطة الاشراف ـ اخراج العوام من القنصلية ـ أخذ العوام ثارهم ـ الحزب الفابى ـ قتل غنونيوس ـ انتخاب فوليرو و بوبليليوس قنصلا ـ القانون البوبليليانى ـ الحروب مع العوسكانيين والعطروسكانيين ـ حرب العوام من أجل حقوقهم ـ سنسناطوس ـ صيرورته مطلق التصرف وهزيمته العيقليانيين ـ النواب الاول ـ قوانين الاثنى عشر طرابيزه ـ ابيوس كلوديوس ـ قبضه على فيرجينيا فتية رومانية ـ ذبحها بواسطة أبيها ـ ثورة الرومانيين ـ سقوط ابيوس كليوديوس ـ انفصال العوام ثانية ـ ابطال النواب ـ عود العوام الى رومة ـ اجراآت اصلاحية ـ هزيمة الصابنيين ـ عمل الامة موكب القناصل رغما عن عناد مجلس السناتو ـ عود سياسة الاشراف من بعد مدة قصيرة ـ انفصال ثالث للعوام ـ الانقياد لهم ـ عودهم ـ توظيف حكام ومفتشين عسكرية ـ تسجيل النفوس

ومن بعد أن صار طرد الطاركينيين من رومة شرع قواد الثورة وزعماؤها فى رمى أساس الجمهورية الرومانية وانهم ما أعادوا قوانين صرفيوس فقط بل أضافوا اليها اضافات عظيمة وانتخبوا قنصلين لوسيوس بروطوس وكان رأس الثورة وطارقينيوس قولاطينوس زوج لوقريطية بحرية أصوات الطوائف على نص قوانين صرفيوس فكان قولاطينوس نائب طائفة الاشراف وبروطوس نائب طائفة العوام وصار اعادة مجلس السناتو وكان صار ابطاله بواسطة طاركين مع عدد يبلغ ٣٠٠ نفس من بعد أن أضافوا اليه نحوا من ١٦٤ عضو المدة حياتهم صار انتخابهم من أغنياء فرقة الخيالة وكان الكثير منهم من العوام وكان طاركين ألغى ما لمجلس الاستئناف من الحقوق فصار احياؤها وعمت جميع الاحرار من الامة فتوقع من هذه التنظيمات نقص فى شوكة المساواة والمعادلة بين الطوائف المختلفة فى المملكة وكان الاشراف على غير رضاء عنها وكانت كراهتهم لطاركين وخوفهم منه ألزمهم وأحوجهم الى الملاءمة مع العوام والميل معهم لاجل توطيد مساعدة شوكتهم وقت الثورة عليه ومن ثم حصل منهم الانقياد الكلى للعوام بحيث يمكنهم أن يدعوهم عند ما تسنح لهم الفرصة فى القيام على طاركين وتسبب من النتيجة التى حصلت لرومة من انتقال الحالة من الملوكية الى الجمهورية أو الشورية ضياع شهرتها وسطوتها فى اللاطيوم وشغلت الاعمال الداخلية فى رومة أفكار كافة أهلها مدة طويلة ولم تجعل لهم وقتا يتداركون فيه توطيد سيادتهم وتقوية شوكتهم ومن ثم سقطت رومة من أعلى الاوج الى أسفل الحضيض بين مواقع أمم ايطاليا الوسطى ونكث اللاتنيون تبعتهم لرومة وهاج العطروسكانيون حربا عليها ومن المحتمل أن لارس بورصينه ملك عطروسكانيه أخضع رومة فى وقتها الى سلطته وطاعته عدة من السنين ومع أن الرومانيين رموا نافد العطروسكانيين وراء ظهورهم

الا

الا أن الاراضى الرومانية التى كانت واقعة فى غرب نهر الطيبر ضاعت منهم وخرب القبائل والعشائر اللاتينية والصابنية والعوسكانية الاراضى الاخرى الرومانية من دون أن يجدوا أمامهم من يصدهم وكنسوا المحصورات والمحصولات وهدموا بيوت الزراعة وساقوا المواشى والانعام فتولد من هذه الخسارات الفقر الاكبر والموت الاحمر بين الرومانيين واشتد الضيق والعناء بالطبع على الفقراء خصوصا وكانت قطعتهم الارضية الصغيرة مقصورة فيما كانوا يملكونه مساعدة لهم فى المعنى على معايشهم واقامة أحوالهم الدنيوية

وقد ذكرنا أن اذعان طائفة الاشراف الى طوائف العوام فى وقت تشييد الجمهورية كان من أجل عودهم الى محلهم فى رومة عند أول فرصة تسنح لهم وسنظهر استعطاف الاشراف وميلهم الى العوام فى الحوادث الواجب ذكرها من الآن فصاعدا وذلك أنه تولد من ضياع الاراضى الموجودة فى الجهة الغربية من نهر الطيبر والخراب الذى عم من الامم المجاورة فى الاراضى الرومانية من بعد اقامة وتشييد الجمهورية فقر عام وضنك كبير وكذا فى هذا الوقت صار زيادة الضرائب المضروبة على الارض على انه لم يجر جبايتها على حسب التعديل الذى صار اجراؤه فى الابتداء وعلى حسب قلة الموجود والضنك المتسلطن فى هذا الوقت بل طلبت الحكومة خلاف هذا أن تجرى جباية الاموال لمدة خمس سنوات من دون حصول أدنى تأخير فالتزم طوائف الفقراء لاجل مداركة احتياجاتهم حسب الضرورة أن يقترضوا النقود بسعر ربح باهظ من الاغنياء وبعد هذا الاقتراض صارت الطائفة المديونة لا طاقة لها على سداد ما عليها من الديون فانتهز الاشراف لانفسهم الفرصة فى أن يقيموا عليهم أحكام القوانين الشديدة المخصوصة بالديون لاجل زيادة شوكتهم عليهم وانحطاط شوكة العوام وكان القانون الرومانى يرخص للدائن بالتصرف المطلق فى مديونه فكان يمكن لاى دائن أن يستخدم مديونه فى أشغال نفسه أو يبيعه مثل الرقيق حتى كان يمكنه أيضا قتله وباع كثير من الناس أنفسهم مثل الرقيق من أجل سداد ما عليهم من الديون وصارت ذراريهم من بعدهم بهذه الحالة أرقاء وأما الذين لم يقبلوا بيع أنفسهم وليس لهم طاقة على سداد ما عليهم من الديون فان دائنيهم ضبطوهم وسجنوهم وعذبوهم حتى يخرجوا من حريتهم الى رقهم وكان لكل واحد من الاشراف قصر وله فيه سجن محبوس فيه أرقاؤه واتفق فى هذه المدة طلب جمع العساكر فلم يقبل العوام درج أسمائهم للدخول فى العسكرية حتى يصير الافراج عن المسجونين فى حبوس الاشراف من أجل الديون فهنالك خضع الاشراف وسلموا فى ذلك الا أنه لم يمض كثير على هذا الضرر الاو الاجرا آت الوحشية ظهرت ثانيا فى الميدان على الطوائف المديونة فقطع العوام اليأس من معاشرة الاشراف فى سنة ٤٩٤ قبل الميلاد وتركوا رومة فى جموعهم واحتلوا جبلا فى الجهة المقابلة لنهر الطيبر يعرف فى الازمان الاخيرة باسم جبل صاسير أى الجبل المقدس ووجهوا عزمهم على بناء مدينة مخصوصة بهم يمكنهم أن يعيشوا فيها تحت قوانين وقواعد عادلة فظهر للاشراف بعد ذلك ما حصل منهم من الخطا البين ولما لم تسمح أنفسهم فى ضعف حالة رومة بواسطة انسحاب هذه الطائفة النافعة الكثيرة العدد والعدد منها دخلوا فى مخابرات مع أهلها ورخصوا لهم أن يكتبوا صورة الشروط التى بها يمكنهم عودهم الى المدينة والاقامة بها كما كانوا فكانت شروط العوام أولا ابطال الديون ومحوها عن كافة الاشخاص الذين لا طاقة لهم على سدادها من موجودات عقاراتهم ثانيا الافراج عن كافة المسجونين فى الحبوس من أجل الديون ثالثا توظيف حكام

ومفتشين من العوام ينتخبون فى كل سنة بواسطة مجمع حافل يكونون طاهرين من كل شائبة ويصير اعتمادهم فى الحكومة والاحكام بانهم نواب الامة وأن تكون أشغالهم الواجبة عليهم من أجل المحافظة على حقوق العوام وما عند وصول مظالمهم لايديهم فتعين فى مبادى الامر اثنان لمثل هذه الحالة ثم وصل العدد الى خمسة وأخيرا وصل الى عشرة وكذا تعين من عدول العوام اثنان لمناظرة الشوارع والمبانى والاسواق واستتباب الامن والراحة والنظام فى المدينة وكانا ناظران أيضا الالعاب العمومية والمواسم والاعياد السنوية ويقضيان فى القضايا الصغيرة ومن بعد مضى مدة صار هذان محافظين ومراقبين على تنفيذ الاوامر الصادرة من السناتو وكان قبل ذلك اجراء هذه الاوامر غير مأمون وغير معمول به تحت يد الاشراف ولما استحوذ العوام على هذه الحقوق العظيمة للامة من هذه الحادثة عادوا الى محلاتهم القديمة فى رومة وفى سنة ٤٨٥ قبل الميلاد قدم القنصل صبوريوس كاسيوس لائحة تتضمن تقسيم بعض الاراضى الشائعة بين العوام وسيلة لمنع العناء والضيق عنهم فى المستقبل وذكر أيضا فى هذه اللائحة انه عند ما يصير استخدام عوام الامة فى العسكرية يدفع لهم مرتبات من أجل خدمتهم تؤخذ من عشور المحصول الجارى جبايته بواسطة الحكومة من حساب الاراضى المستأجرة من طرف الحكومة للاشراف فعارضه فى ذلك القنصل الآخر واتهم كاسيوس بانه جار فى البحث عن اكتساب محبة العوام له كى يكون ملكا على المملكة على أن اجراآت القانون الاول وهو قانون تقسيم الاراضى كان صار التصديق على العمل بمقتضاه فلما عزل كاسيوس من الوظيفة بعد انتهاء سنته قويت شوكة الاشراف جدا حتى أصدروا حكما بقتله بصفة أنه رجل خائن بلاده وكانت جريمة كاسيوس الحقيقية هى كرم التفاته للفقراء والمحافظة على حقوقهم من خرابيش الاشراف وأنيابها

وفى هذه الحالة كشف الاشراف برقع الجسارة عن سياستهم وأخرجوا العوام من خدامة القنصلية وأبقوا الانفسهم حقا فى انتخاب هؤلاء الحكام من أنفسهم وطلبوا من العوام فقط التصديق عليه ورفض القناصل الذين صار انتخابهم بهذه الحالة قبول العمل على حسب قانون تقسيم الاراضى فما كان من الامة الا أنهم رفضوا أيضا الدخول فى العسكرية وخدمتها ودافعتهم حكامهم فعقد القناصل مجالسهم خارج المدينة وما كان فيه لحكام العوام وجود وقرروا أوامرهم بضبط أراضى وعقارات الذين رفضوا الدخول فى العسكرية فالتزم العوام بهذه الحالة على الدخول فى الجيش لاجل خلاص أملاكهم التى وقعت عن غير رغبة حكامهم ومع أنهم مازالوا فى عدم اجبار من دخولهم فى الجيش الا أنهم أخذوا بثارهم وعدوا الاشراف من أشد أعدائهم وضايقوا عليهم حتى هزمهم الفنطانيون

ثم استمر فابى نقيب حزب الاشراف قابضا على زمام القنصلية مدة ست سنوات وفى سنة ٤٧٩ قبل الميلاد لما صار كاسوفابيوس قنصلا طلب اجراء العمل على حسب قانون تقسيم الاراضى الذى كان قرره كاسيوس وكان مضمرا فى ذلك أنه ان حصل عدم العدل مع عوام الامة ربما يتولد من ذلك اضطرابات وقلاقل تعود آفاتها على المملكة فما قبل الاشراف طلبه مع الانفة والكبرياء فترك فابى رومة مع جماعة بسبب ما حصل عندهم من الغضب وشيدوا لهم مستعمرة صغيرة فى عطروريه ومن بعد مضى سنتين سار الفنطيانيون على مستعمرتهم وقتلوا من بها من الرجال ونهبوها ومازال القناصل

مصريين وممنوعين من اجراء الاعمال على حسب قانون تقسيم الاراضى حتى تعرض لهم فى ذلك الحاكم غنوسيوس فى سنة ٤٧٣ قبل الميلاد فارتعد الاشراف مما حل بهم من البلاء الذى هددهم به غنوسيوس فأمروا بقتله فى الليلة التى قبل الليلة التى سيجرى الشروع فى صبحها فى فحص هذه المسئلة المتعلقة بالتقسيم فتسبب من ذلك اشتداد غضب العوام ولما صدر أمر القناصل بجمع عساكر جديدة رفض فولسيرو بليليوس وكان رئيس فرقة الدخول فى ضمن العسكرية واستغاث بحكام العوام فى المدافعة عن حقوقه فخاف الحكام من عاقبة ما حصل لغنوسيوس وترددوا فى أمرهم فدعا فولير والامة لمساعدته وأثبت حقوقه لديهم فهاجت ثورة كانت سببا فى طرد القناصل ونوابعهم من الفورم وفى السنة التالية أى فى سنة ٤٧١ قبل الميلاد صار انتخاب فولير وقنصلا ولحد هذا الوقت كان جاريا انتخاب القناصل بواسطة عموم الامة فى جمعيات حافلة وكان للاشراف قدرة على انتخاب من يختارونه لانفسهم بكثرة أصوات أتباعهم أو عود من يحبون عوده الى الحكومة القنصلية فعرض فولير ولائحة قانون ترخص للامة انتخاب نوابهم وطلب فى هذه اللائحة أن يكون انتخاب الحكام بواسطة العوام لاغير وقت اجتماع الشعوب فى ميدان الفورم فعرفت هذه اللائحة بلائحة قانون بليليوس فكان ذلك فائدة عظيمة فيما يختص بأمور الامة الا أنه صار رفضها من طرف طائفة الاشراف تحت رياسة أبيوس كلوديوس مع غاية الشدة والغضب والكبرياء وكان كلوديوس أحد القناصل وهاجت الفتن والارتباكات حتى أشرفت رومة على الوقوع فى حرب داخلى

وبينما كان الطائفتان فى شقاق ونزاع بينهم من أجل الشوكة والنفوذ فى داخل المدينة اذ هاج الحرب على رومة من طرف الفولصيين والعيكيين وهما أمتان عسكانيتان استحوذا على قسم عظيم من اللاتيوم واقتحموا فى زحفهم حتى صاروا على مسافة قليلة من رومة نفسها وفى عين هذا الوقت كان القبى أو القنطانيين وهم أمة عطروسكانية زحفوا الى الجهة المقابلة من الطيبر وأزعجوا جبل جانيكولوم فانجبر أهل السواد على الهرب أمام هذه الغارات والتجؤا فى داخل أسوار رومة فنشأ من كثرة هذا الزحام طاعون أو وباء أضيف عناؤه ومضايقاته الى المضايقات الحاصلة من الحرب فقام الغضب والزعل فى رؤس وجوه بعض أهل المدينة وكانوا أقوى وأشد من حزب الاشراف فأخرجوهم من رومة فافتكر الاشراف فى أنفسهم انهم يكونون فى اتحاد ثابت مع أعداء بلادهم حتى يهزموا العوام وينشروا شوكة طائفتهم ثم انفجر الطاعون مرة ثانية فى رومة وكنس من أهل المدينة الجم الغفير وفى هذا الوقت مد العيكيون والفولصيون تدميراتهم وخرابهم الى حد أسوار المدينة وحصل القحط والغلاء الشديد فى داخل المدينة وكل هذه الاحوال كانت واقعة عندما كان الاشراف مجدين ومكدين فى عدم نقص ما هم فيه من الكبرياء والشوكة والنفور وكان العوام مراقبين انتهاز الفرصة بشدة فى اثبات حقوقهم ووضعهم تحت قواعد ثابتة فتولد من هذه الارتباكات الداخلية أن ضعفت رومة ضعفا زائدا حتى صار لاطاقة لها على أن تقف لحظة واحدة مقاومة لغارة تحصل عليها من أى عدو من أعدائها فكانت هذه الحالة مستوجبة طبعا الاصلاح جديدا ووجود نظامات قوية فعرض الحاكم طرنطيليوس هارصه فى سنة ٤٦٢ قبل الميلاد فى طلب عقد مجلس مركب من خمسة من الاشراف وخمسة من العوام نوابا عن طوائفهم يناطون بتلقيح القوانين الموجودة ويحددون فيها للقناصل حكومة وسلطة تحت حد ويسنون نظاما شافيا جامعا للعدل والانصاف بين كل من طائفتى الاشراف والعوام فقابل الاشراف

هذا الطلب بعدم القبول مع الشدة والغضب وامتدت هذه الحالة فى اشكال لمدة عشر سنوات أشرفت فيها رومة على الدمار والخراب الكلى وكذا أشرفت عدة مرات على أن تقع فى أيدى الفولصيين فاجتمع ذات يوم فرقة من الرقيق تحت يد رجل صابينى اسمه ابيوش هردونيوس وضبطوا العاصمة وطلبوا اعود المنفيين من أهل المدينة فطرد هؤلاء من سراى العاصمة أهل المدينة وأعادوها كما كانت لاصلها

وكان من ضمن أعظم الوجوه المطرودين من رومة كاسو كنسكطيوس بن لوسيوس كنسكطيوس وكان أبوه يلقب سنسناطوس (أبو جدائل) لانه كان يضفر شعره جدائل وذوائب طويلة وكان صار طرد كاسو بسبب ما كان عليه من شدة تمرده على الحكومة والصحيح أنه قتل فى الحرب عند العاصمة وكان قتل فى هذا الحرب أيضا القنصل الذى دبر حرب الهاجين فصار انتخاب سنسناطوس خليفة من بعد هذا القنصل فلاجل أخذه بثار ابنه أعلن أنه لا يجب العمل مطلقا بموجب قانون طرنطيلوس مادام موجودا فى نفس هذه الوظيفة وانه يرغب أن يبذل مجهوده فى منع التئام المجلس المخصوص لعمل هذا القانون ولما رأى مجلس السناتو وأهل القوة من الاشراف أن اجرا آت سلطة القنصل بهذه الحالة ربما يتولد منها زيادة نفور العوام نفروا منه وتباعدوا عنه ولما انتهت سنة سنسناطوس أو أبو جدائل عاد الى زراعة أطيانه وكان يزرعها بنفسه وان كان من الاشراف ثم من بعد مضى سنتين لما ضايق العيكيون رومة أشد المضايقة فى سنة ٤٥٨ قبل الميلاد أرسل السناتو فى طلب أبو جدائل لاجل الشروع فى هزيمة العدو وبواسطة ما يلزم له من الاستعدادات فوجده الرسل راكبا على محراثه فوصلوا اليه رسميا نتيجة لائحة مجلس السناتو بتوظيفه وتعيينه مدافعا عن رومة فقبل ما اعتمده المجلس فيه وأسرع الى رومة وحشد جيشا فى يوم واحد وسار فى المساء التالى الى نحو العيكيين فأوقع بهم شر هزيمة وعاد فى اليوم الثانى الى رومة متوجا بالنصر والظفر ونفذ أغراضه فى نفى من كان سببا فى نفى ابنه ثم سلم وظيفة الحماية وعاد الى زراعة أرضه

وتوقف الامر من أجل اجراء العمل على حسب قانون طرنطيلوس ست سنوات وفى سنة ٤٥٢ قبل الميلاد سلم الاشراف وأذعنوا لاجراء الاعمال على حسب هذا القانون وانتخبوا عشرة نواب جميعهم من الاشراف الا أنهم كانوا معروفين بعفة النفس ومعتمدين عند طوائف الامة وعهد اليهم كامل سلطة المملكة ونفوذ شوكتها وقتذاك وعرفوا هؤلاء باسم النواب الاول وفى أثناء المجادلة فى خصوص سن القوانين أرسل مبعوثين الى الجريس لممارسة القوانين والشرائع التى أجرت هذه المملكة العمل على موجبها فى أشغالها واجرا آتها فعاد هؤلاء ومعهم واحد من علماء الجريس اسمه هرمودروس من أهل مدينة أفسوس فساعد هذا العالم الجريقى النواب مساعدة جليلة فى أشغالهم وأعمالهم حتى جعلوا تعظيما له وتذكرة لاسمه مدى الدهر تمثالا فى الجمعية الرومانية وعرف القانون الذى سنه النواب باسم قانون الاثنى عشر طرابيزه وصار أنموذجا لكل قانون رومانى وأجريت الاعمال على موجبه عدة قرون متوالية وصار الغاء جميع المصالح الموجودة فى المملكة وشيدت حكومة جديدة مركبة من أربعة عشر من النواب نصفهم من الاشراف ونصفهم من العوام انحصرت فيهم شوكة المملكة وتنفيذ قوانينها وكانوا ينتخبون بمعرفة الطوائف وتصديق طائفة الاشراف ويتقلدون الوظيفة لميعاد سنة واحدة وكانت مواد القانون منشورة وعامة على كل ذى روح فى المملكة ومرضية عند عموم الطوائف

مطلب قانون الاثنى عشر طرابيزه

والاحزاب

والاحزاب واستمر الرومانيون عدة من القرون راضين بالعيشة متمتعين بالراحة تحت ظل أحكام هذه القوانين

ولما رأى الامة أن التغيير فى هيئة الحكومة جار بحالة غير مرضية ووجدوا أنهم رتبوا عشرة من القناصل بدل اثنين وألغوا الحماية التى كانوا متمتعين بها فى مبادى أمرهم بواسطة حكام منهم كما سبق ذكره أقام أبيوس كلوديوس أحد النواب المستخدمين سلطته على أقرانه بالقوة والشهامة حتى آلت الحالة به أن صار سيد رومة بجبار فى حكمه وتعدى على الامة وألجأهم الى القيام عليه فى ثورة

مطلب
ابيوس كلوديوس

وكان سبب هذا القيام أنه كان من ضمن التلامذة الذين كانوا يتوجهون الى المكتب يوميا فى مدرسة الفورم قينة جميلة اسمها فيرجينيا كانت ذاهبة مع دايتها الى مدرسة الفورم فرآها ابيوس كلوديوس وهى ماشية فى الطريق فشغف بحبها وصمم على الاستحواذ عليها فقبض عليها فى الفورم وزعم انها جارية لاحد أتباعه وانها مولدة من امرأة كانت جارية فى بيته صار بيعها الى زوجة فيرجينيوس وما كان له ولد منها فرفض رفقاء فيرجينيا هذا الكذب الملفق واتحدوا مع بعضهم لاجل خلاصها مع جم غفير من الناس فاجبر خواشى القنصل على اخلاء سبيلها وجلب رفقاؤها شهودا على براءة ساحتها من الرق امام المحكمة القنصلية فى اليوم الثانى وأثبتوا أنها ابنة فيرجينيوس وكان أبوها مشهورا ورئيسا فى فرق العسكرية وكان غائبا مع الجيش أمام طوسقولوم فأخبروه بهذه الحكاية وما وقع لابنته وطلبوه للحضور فى الحال فركب حصانه طول الليل حتى وصل رومة فى وقت الصباح وتوجه الفورم مع ابنته ورفقائها فمن شدة ما كان عند أبيوس من الغضب والعشق قال يلزم مراعاة القينة رقيقة حتى تثبت حريتها على أن القانون الموجود الذى حرره بنفسه وجرى العمل به يقضى على انه لا يجب الحكم على أحد بالرق حتى يفحص عن رقه ويثبت فلما رأى فيرجينيوس أن القانون يحكم عليه باقامة الدلائل والبراهين وعرف بعين اليقين أنه رعا أن هذا الظالم يأخذ ابنته منه رغم أنفه بصفة رقيق أخذها فى ناحية من الناس بصورة الكلام معها وخطف سكينة جزار من أحد الواقفين فى الفورم وغمدها فى قلبها فوقعت قتيلة ثم قال يا بنتى بهذا لى طاقة على حفظ حريتك فقط ثم دور وجهه نحو أبيوس وقال له هذا الدم البرىء ملعون على رأسك فأمر القنصل بالقبض عليه فى الحال فلم يلتفت أحد لقوله ولم يتقدم لمسكه انسان وأسرع فيرجينيوس من الفورم الى الجيش فى طوسقولوم فقام الجيش لاغاثته ومساعدته وسار نحو رومة وقام أيضا اسيليوس وكانت فيرجينيا مخطوبة له بالجيش الآخر من نواحى فدنية فأما الجيش الموجود تحت قيادة فيرجينيوس فانه دخل رومة وسار من وسط شوارعها حتى وصل جبل أفنطين وطلب من الامة أن ينتخبوا لانفسهم عشرة حكام من أجل المدافعة عن حقوقهم وأما الجيش الذى تحت قيادة أسيليوس فانه أبطل النواب وكانوا معه وانتخب أيضا عشرة حكام وسار نحو رومة وانضم الجيشان الى بعضهما وانتخب العشرون حاكما اثنين من أنفسهم لشغل الباقين ورتبوا محافظة قوية فى افنطين ثم ان جميع العوام اصطحبوا بالجيش وتركوا المدينة واحتلوا الجبل المقدس وشرعوا فى بناء مدينة لهم جديدة

ولحد هذا الوقت ما كان للسناتو طاقة على رفض أى أمر أو أى عمل يصدر من طرف النواب فتولد من انفصال العوام عنهم الالتزام بالمعارضة ورفض ما لا يوافق اجراؤه فمن ثم انقسمت رومة الى قسمين وبهذه القسمة صار لا أمل للاغراب فى مقاومة أعدائها الذين يحبون الهجوم عليها فاذعن السناتو للعوام

ورضى العوام بالعود الى رومة على شرط ابطال النواب وكان ذلك فى سنة ٤٤٩ قبل الميلاد وصار عزل ابيوس كلوديوس ورفقائه ووضع مع واحد من رفقائه فى السجن حتى مات فيه وهرب الباقون من رومة وضبطت الحكومة أملاكهم وجاء من بعد النواب حكومة مؤلفة من قنصلين صار انتخابهما بواسطة طوائف الامة بحرية الاصوات وعادت حكام العوام كما كانت قبل تشكيل النواب وزاد عددهم الى عشرة وأعطى للامة حقوق الاستئناف فى مجلس العدالة وقت توقيع أى الاحكام من القناصل وصار العدول محافظين على الاوامر التى تصدر من السناتو واطلاع المجلس على حقائق ودقائق الاعمال خشية الوقوع فى أكاذيب النواب وصار من المسنونات المعدودة أن يكون للحكام الحق فى سن القوانين الابتدائية بالمداولة مع العشائر والشعوب فى الاحوال العامة المهمة

وكان أول قنصلين صار انتخابهما لهذا العمل الخطير هما فاليريوس وهوراطيوس وكانا من الاشراف حائزين وثوق العوام واعتمادهم فى أعمالهم فكان أول عمل واجب عليهما هو قيادة الجيوش وسوقها على الصابنيين وكانوا قووا أنفسهم بما هو حاصل من الاختلالات والارتباكات فى داخل رومة وأغاروا على الاراضى الرومانية فأوقع بهم القنصلان هزيمة حاطمة حتى ان الصابنيين صار لا طاقة لهم بعدها على تجديد أى سعى ضد رومة مدة قرن ونصف ولما عاد القنصلان الى رومة استنكف مجلس السناتو أن يعمل لهما الموكب المرتب لدخولهما حال عودهما من الحرب مظفرين لانه من شدته وقوته وميله لحزب الاشراف رفض قبول كل منحة من الشرف والاكرام تعطى لمحبى الامة فمن أجل هذا اجتمع الامة فى ناديهم وأقاموا موكبا للقنصلين رغما عما أجراه مجلس السناتو من عدم القبول وما كان عليه من العناد فاجبر مجلس السناتو على أن يذعن ويسلم فى اجراء المهمات المقبولة عند الامة فى المقاصد الخيرية

ثم عادت شوكة الاشراف ثانيا وعارضوا اجراء القوانين الجديدة مع الحدة والشدة حتى ان العوام انسحبوا من المدينة واستوطنوا فى هذه الدفعة جبل جانيكولوم من بعد أن عبروا الطيبر فى سنة ٤٤٤ قبل الميلاد فحصل التوافق والرضا ثانيا وعادوا الى المدينة وصدرت لائحة ترخص بالزواج الشرعى بين الاشراف والعوام وقرروا فيها أن الاطفال المولودين من هذا الزواج يتبعون درجة آبائهم فى الشرف ويكون لهم الحق فى وراثتها ومع هذا فكانت أشغال القناصل مسدودة فى وجوه العوام وانقسمت شوكتهم وشرفهم فى خمسة أشخاص غير متعادلين فى الدرجة اثنان منهم مفتشان والثلاثة الاخر حكام عسكرية وقال بعض ان عدد هؤلاء الحكام كانوا ثمانية اثنان مفتشان والستة حكام عسكرية وصار انتخاب هؤلاء الحكام بصوت حر من الشعوب الا أن المفتشين صار انتخابهما من طائفة الاشراف والحكام العسكرية من الطائفة الاخرى وربح الاشراف انتخاب الحكام لمدة ست سنوات وفى أثناء هذا يكون انتخاب المفتشين بطريقة نظامية وأول انتخاب حصل الشروع فيه كان انتخاب الحكام فى سنة ٤٣٨ قبل الميلاد وشق على كثير من الامة توطيد انتخابها فى مدة الثلاث سنوات المتوالية وكانت علة الاشراف أن أوقات الانتخاب غير موافقة وفى سنة ٤٣٣ قبل الميلاد لما صار أميليوس محافظا أمر بصدور لائحة قانون يحدد فيها مدة المفتشين ثمانية عشر شهرا وكانوا يوظفون مرة واحدة فى كل خمس سنوات فمن ثم صارت هذه الوظيفة خالية مدة القسم الاعظم من هذه المدة وكان للمفتشين سلطة كبيرة جدا فأمروا أن يكون تعداد نفوس التبعة مرة فى كل خمس سنوات من بعد توظيف الحكام مباشرة فى

المصلحة

المصلحة وكان يعقب حصول التسجيل أو تعداد الانفس عيد كبير يسمى عيد الطهارة ومن ثم كان يطلق على مدة الخمس سنوات المحصورة بين كل تعدادين اسم مدة الطهارة وكان للمفتشين حكم وقدرة على أن يمحوا من الدفاتر من يختارونه من التبعة وكانت شوكتهم منتظمة حسبما هم فيه من تأدية الواجبات المفروضة عليهم فكانوا يشطبون من الدفاتر أسماء قبحاء السلوك وكان لهم الحق فى أن يضيفوا من كان مستحقا للشرف والذكر الجميل وكانوا هم قضاة وشهودا فى القضايا التى كانت تعرض عليهم وكانوا يعاقبون التابع الذى يقع منه الظلم والجور فى حق عائلته و يجردونه من سعادته وكذا الذين يعاملون رقيقهم باسوء المعاملات فكانوا يجردونه من درجة شرفه وكانت هذه معادلة للتجريد من السعادة فى حالة ما اذا كان الجانى مدنيا ومن هنا يظهر أن أحكامهم كانت مع العدل والمقاصد الخيرية وتولد من غيرتهم وكراهة الناس فيهم ارتباك عظيم فيما بعد والله أعلم

﴿ الباب الثالث ﴾

﴿ من ابتداء الحرب مع الفى الى طرد البيرهوس من ايطاليا ﴾

مبادى الحرب مع مدينة الفى أوفى — فتح كاميلوس مدينة فى — نفور الرومانيين وتضجرهم — اغارات الغليين فى داخل ايطاليا — فتح رومة وخرابها — حصار الكابيتول — خلاص رومة بواسطة اوزة — فداء المدينة — انجلاء الغليين — ظفر كاميلوس — اعادة عمارة رومة — غلط الرومانيين — الشروط الصعبة التى صدرت من الحكومة — عناء الامة ومضايقاتها — القوانين الليصينيانيه — اغارة الغليين ثانيا وهزيمتهم بواسطة كاميلوس — الحرب الاول السامنيتى — سير الجيش نحو رومة وعرضه طلبات تختص بالعوام — اذعان الحكومة — التغلب على اللاتينيين — الحرب الثانى السامنيتى — هزيمة الرومانيين عند درب كودين — مصائب رومة — كشف هذه المصائب — التغلب على السامنيتيين — سيادة رومة فى ايطاليا وشوكتها — اتحاد اللاتينيين — خضوع العيك — الحرب الثالث السامنيتى — ذبح القنصل دصيوص فداء عن بلاده — التغلب الاخير على السامنيتيين والصابنيين — بلايا عوام الامة فى رومة — عرض كوريوس دنطاطوس قانونا ثانيا لتقسيم الاراضى — الانفصال الرابع للعوام — اذعان طائفة الاشراف — القوانين الهورطانسيانيه — الحرب مع الطرنطونيين — ظهور بيرهوس فى ايطاليا — الحرب الاول بين الرومانيين والجريق — ايجاد الطرنطونيين لياقة السيادة فى بيرهوس — مظفراته الاولية — خيبته فى خضوع الرومانيين واللاتينيين فى الانضمام معه — عدم قبول رومة عقد معاهدة معه — وقائع حربية — ضعف بيرهوس ووهنه — توجهه الى صقلية — نجاحه فيها — عوده الى ايطاليا — مصائبه — تركه ايطاليا وعوده الى الجريس — تغلب الرومانيين على ايطاليا الجنوبية — عمارها بمستعمرات رومانية — الطرق والسكك الرومانية — السكة الابيانية — طريقة العمار الرومانى — قبول العوام تعادل الاحكام فى رومة

وفى سنة ٤٠٥ قبل الميلاد هاجت رومة حربا على الفنطيانيين وكانوا أضروا بها ضررا مؤلما فى أثناء

مدة اختلالاتها الداخلية واستمرت هذه الحروب مدة عشر سنوات حتى انغلقت فى سنة ٣٩٢ قبل الميلاد بواسطة تغلب كاميلوس الحاكم من بعد مجاهدات شديدة على مدينة فى وكانت هذه المدينة على مسافة عشرة أميال مستقيمة من رومة وما كانت أقل منها فى البناء والهيئة وكانت مستحوذة على أراض واسعة خصبة جيدة المحصول بعضها جبلية وبعضها سهلة وهواؤها نقى صاف على جودة من الاعتدال فى الصحة وأراضيها خالية من المستنقعات والمناقع التى يحدث منها ثقل هواء الطقس وما كان يجاورها نهر يجعل هواء صباحها فاسدا وهى مع هذا غزيرة المياه النابعة من عيون طبيعية جيدة للشرب وكانت محفوظة باسوار قوية ينيف دائرها عن خمسة أميال فكان التغلب على هذه المدينة من أصعب المشروعات التى أجرتها رومة التى لم يسبق لها مثلها ومن بعد التغلب عليها استمرت العداوة بين الرومانيين والفنطيانيين جارية حتى تولد منها استمرار الجيش فى ميدان المحاربة المدة الباقية من سنة التغلب ثم تولد من استمرار العساكر فى الخدمة العسكرية تجند جيش ثابت صارت له أهمية جليلة فى المملكة الرومانية ولاجل راحة الامة مما هى فيه من النفور والضجر أذعن لها مجلس السناتو اذعانا قويا وكان من ضمن هذا الاذعان زيادة عدد الحكام العسكرية بقدر الضعف ثم زالت هذه المشاحنات بغتة بعصبية جديدة هاجت على رومة وذلك أن شعوب الغليين وكانوا ابتدؤا فى الهجوم على جبال الالب فى نحو سنة ٤٠٠ قبل الميلاد وتغلبوا على ايطاليا الشمالية وعلى القسم الاعظم من عطرورية ثم زحفوا فى داخل وادى نهر الطيبر فى عدد عظيم لا يغلب وهزموا كامل القوة المجندة من طرف رومة على شواطئ نهر اليا ثم زحفوا على المدينة فالتجأ الجم الغفير من الاهالى والسكان والهاربين من الجيش المهزوم فى مدينة فى وأما القسس والعذارى القديسات فانهم هربوا الى مدينة كورية فى عطرورية وهرب وجوه الاشراف وكبراؤهم فى العاصمة عازمين على الاحتماء بها والمدافعة عنها الى اخر حياتهم ودخل الغليون المدينة فوجدوها خالية من أهلها وسكانها ما عدا أعضاء مجلس السناتو فانهم بقوا بالكبتول واقربا للآلهة جهتهم من أجل سلامة بلادهم فذبحهم المتبربرون عن آخرهم وحرقوا المدينة وحاصروا العاصمة فاستمر هذا الحصار مدة ثمانية أشهر وفى نحو غلاق هذا الحصار اجتهد الغليون وعزموا على الهجوم على المحافظين ليلا ولما وصل أول رجل من طليعة الهجوم الى حرف الجبل المبنية عليه العاصمة ولم يره أحد لان الحرس كان على سنة من النوم من شدة التعب وألم الجوع لكنهم خلصوا من هذا الهجوم وسلموا منه وفاقوا لانفسهم وكان سببه أن سرب الاوز المقدس المخصوص الى جوفو جفل من مشى هذا الرجل وزعق زعيقا مهولا فاستيقظ من صراخ الاوز مركوس موليوس فاقتحم بنفسه الى الامام ودفع الرجل الاول الهاجم من فوق حرف الجرف وحفظ الحرف حتى وصل اليه رفقاؤه لمساعدته وصدوا الهجوم عن العاصمة ولما كان المحافظون على وشك الموت من الجوع وكذا كان الغليون مشتاقين الى السفر الى بلادهم لانهم خسروا كثيرا من رجالهم من افراطهم فى شرب المسكرات وتعرضهم للاهوية المضرة بالصحة وتزلزلت أقدامهم من ورود الاخبار التى جاءت اليهم بغارة الفنطيانيين على أملاكهم وبلادهم فى ايطاليا الشمالية عقد الغليون صلحا وفدى الرومانيون مدينتهم بان دفعوا للغليين قيمة ألف جنيه من الذهب وتقهقروا عنهم عائدين الى بلادهم فتعقبهم كاميلوس وكان أعيد للحكم ثانيا فقطع كثيرا منهم والظاهر أنه استرد قسما عظيما من الغنائم والاسلاب التى اغتنموها وحكى كثير من الحكوية أنه أبادهم جميعا وانتصر عليهم نصرة جليلة ومع هذا فحكاية هذا

الجيش

الجيش الغليق حكاية ملفقة لانه لوفرض أن مثل هذه المصيبة وقعت عليهم الابادة شوكتهم بالكلية ومحت أثرهم من ايطاليا فالذى لاريب فيه أن رومة ماذاقت وحدها شدة هذا العناء والمصائب بل وقع كثير من المدائن مثلها فى أشد من هذا العناء بالنسبة لاحوالها لان الغليين لم يضروها على حدتها بل أضروا أولا العطر وسكانيين ومن ثم خلصت رومة من كل ضرر كان يحل بها من جهة عطرورية ثم نشر الغليون بعد هذا تخريباتهم وضررهم على بلاد الاومبريانيين والصابنيين واللاتينيين والعيكيين والفلصيانيين وأذاقوها شدة العناء والمضايقة مثل الذى ذاقته رومة ومن ثم ما كان أعداء الجمهورية على عزم ضعف وخراب رومة وحدها

ثم تسبب من النتيجة التى حصلت مباشرة لرومة من اغارة الغليين عليها انتشار نكبة ومحنة عامة وقعت فيها وصارت المدينة أطلالا وآكاما وكذا الاقاليم الريفية صارت فى حالة كئيبة يرثى لها فكان أول شئ وجب على الرومانيين اجراؤه عودبناء منازل المدينة وأماكنها ومساكن الفلاحة والزراعة ورخصت الحكومة من طرفها للاهالى فى أخذ الاخشاب اللازمة للعمارات وسقوف المبانى من أورمانها وغاباتها وكذا أحجار البناء من محاجر قطع الاحجار التابعة للحكومة بغير ثمن أوعوائد وأصدرت أوامرها بأن كل انسان يلزم أن يتم عمارته ومحل سكنه فى ظرف سنة وأخذت من الاهالى رهونات وكفالات على ذلك العمل وما كان لكثير من الاهالى طاقة على اتمام بناء مسكنه فى المدة التى قررتها الحكومة فغرموا ماوضعوه من الرهن للحكومة والتزم الفقراء على قرض نقود بارباح مضرة بهم اقترضوها من الاغنياء ليدفعوا تكاليف ومصاريف البناء ويدفعوا العوائد الوافرة التى ضربتها عليهم الحكومة وأمرت بجبايتها قيمة مصاريف اعادة الاسوار والاستحكامات والهياكل والمعابد التى خربت وتدمرت فعاد الاغنياء ثانيا أرباب الحل والعقد والسيادة المطلقة على الفقراء والمساكين وصار عود القانون الشديد المختص بالدائنين والمديونين للعمل به مرة أخرى وتولد من حصول السرعة التى شرعت الحكومة فى اجرائها من أجل مداركة توطيد وقيام المبانى وعود المدينة كما كانت حصول الارتباك العام الذى لايمكن معه مدخطوط الشوارع الاصلية بما أنها مشحونة بكيمان الانقاض والرتش وما أخذت الحكومة الاحتياطات اللازمة ولا الاسعافات الواجبة فى نقلها الى جهات أخرى وبناء الاهالى مساكنهم ومنازلهم فى الجهات التى يمكنهم فيها البناء على أرضها وكانت خالية نوعا من الانقاض وكيمان الرتش أوالتى سهل أخذ الانقاض منها وتنظيفها نوعا فمن ثم لما التصقت المساكن بعضها فى البناء لتشكيل الشوارع والحارات صارت الشوارع ضيقة ومعوجة مكسرة وفى أقبح منظر وركبت الابنية على خطوط المجارى والتروتوارات والارصفة الاصلية القديمة وخلت المدينة من مجارى تصفية المياه واستمر فى المدينة عدم التنظيم حتى صار بناء رومة مرة أخرى من بعد الحريقة الكبرى التى حصلت فيها فى مدة سلطنة الامبراطور نيرو ثم حصلت بلية أخرى هددت المدينة وأرعبتها وهو الرغبة العمومية التى حصلت من الامة من أجل بقائهم فى مدينة فى بما ان لهم الطاقة على المعيشة فيها خالصين من الظلم والجور الواقع عليهم من طائفة الاشراف فبواسطة ما كان لكامليوس من السلطة والنفوذ منع هذا الانفصال الا أنه لم يزل كثير من الناس غير قابل للعود الى رومة حتى ان كثيرا من العطر وسكانيين سكنوا رومة بدلا منهم ومنحوا من الاراضى الرومانية وصار لهم حقوق المدنية

ولما أخذت مصائب الامة وآفاتها مأخذا كبيرا بذل مركوس منليوس مجهوده فى خلاص الامة من هذه المصائب ومن سوء حظه طمع فى فعل ما يكون فيه المنفعة التى بها يحصل له التقدم فصار القبض عليه وصدر الحكم بقتله فرفضت الامة حكم القتل عن رجل كان سببا فى خلاص العاصمة من أيدى الاعداء الا أنه فيما بعد حكم عليه بسبب ما ارتكبه من خيانات فعلها فرمى من فوق صخرة طاربى فهلك ثم ازدادت الآفات واشتد الكرب على العوام حتى ترااى أنه من البديهى لا بد من حصول الخراب والدمار لرومة ان لم يتدارك هذا الكرب الشديد فعرض كل من ليصنيوس سطولو من أغنياء العوام وبتصل بالنسب مع حزب الاشراف وسكسطيون من العوام أيضا وكان توظف حاكما فى سنة ٣٧٦ قبل الميلاد لائحة تتضمن خلاص الامة من هذا العناء العام ورغبا قبل كل شئ فى مداواة الفقر العام ثم اصلاح الادارة والاحكام الغير المتعادلة الكابسة بصعوبة شديدة على طائفتهما وكانت صورة لائحتهما أولا ـ ان مبالغ الارباح الجسيمة التى صار دفعها من طرف المدونين يجب مراعاة دفعها من أصل مبلغ القرض ويلزم اسقاطها من المبالغ المطلوبة من المدبون ثانيا ـ ان الباقى المطلوب من المدبون لدائنه يجب دفعه على موجب تقاسيط تقسط عليه لميعاد مدة ثلاث سنوات ثالثا ـ لاجل الاحتراز من الوقوع فى الفاقة ومضايقات الفقراء فى الاحوال القابلة يلزم أن تعطى الاراضى الشائعة للعوام وأن تكون داخلة فى ملكهم مطلقا وأن كل مالك أرض لا يملك زيادة عن ٥٠٠ يوجيره أى ٣٠٠ فدان ويلزم كل مالك أرض أن يستخدم فى فلاحته شغالة من الاحرار فنسبة ما عنده من الاطيان وأما انتظام الادارة وحصول المساواة بين أفراد الامة فيجب فيها عود القنصلية على شرط أن يكون أحد القناصل كل سنة من طائفة العوام ولاجل توطيد الأمن للامة يجب زيادة عدد محافظى الكتب الصبلينية الى عشرة أشخاص خمسة منهم من العوام فرفض طائفة الاشراف قبول هذه اللائحة مع الشدة والغضب واستمرت الحالة على ما كانت عليه الى سنة ٣٦٧ قبل الميلاد حتى انه صار التصديق على هذه اللائحة رسميا من السنا وجرى العمل بموجبها وكذا مجلس الكور باطه فكان أول قنصل من طائفة العوام على مقتضى نص هذه اللائحة سكسطيوس وتوظف فى هذا الوقت حاكمان جديدان وهما بريطور من حزب الاشراف وكورول عديلى وتعشم أصدقاء الامة فى أن حقوقهم صارت مأمونة العاقبة من دون ريب الا أن طائفة الاشراف صرفوا النظر عن هذه القوانين الليصينيانية بطريقة غير شرعية واستمروا عشرين سنة ينتخبون الاشراف خاصة لاشغال القنصلية حتى انه فى ظرف أربع عشرة سنة من العشرين سنة كان من الاشراف أحد وعشرون قنصلا ومن طائفة العوام سبعة قناصل فقط ولما حصل عدم المساواة بين الطائفتين على حسب الاتفاق ورأى العوام ما حصل لهم من الغش الفاضح واستيقظ الاشراف على انه ربما تتولد من سبب خفيف انفجار زوبعة فى المستقبل كانوا أعدوها واستعدوا لها بسبب ما هو حاصل منهم من عدم العدل والانصاف وجرى الاحوال على غير مساواة فاجتهدوا فى التباعد عن هذه البلايا بعقد صلح مع كافة جيرانهم ودعتهم الضرورة لطلب الجيش فى رومة الا أن مطامعهم كانت مستحكمة على عقولهم وحاكمة عليهم حتى أوقعتهم أخيرا فى حرب مع السمنيتيين فانتهز العوام الفرصة التى كانوا يرقبونها من مدة طويلة

وفى غضون هذه المدة عزم الغليون على الاغارة مرة ثانية على ايطاليا الوسطى فى سنة ٣٦٧ قبل الميلاد

فهزمهم

فهزمهم كاميلوس ومن بعد مضى بضع سنين عادوا ثانيا وعسكروا على مسافة خمسة أميال من المدينة لكنهم هدموا معسكرهم بسرعة على حين غفلة وساروا الى داخل كامبانية من دون أن يمسوا رومة بسوء ولما عادوا من وسط اللاتينية هجم عليهم الرومانيون وشتتوهم وفى سنة ٣٥٠ قبل الميلاد انضموا الى الجريق قطاع سبل البحر على الساحل لاجل نهب البلاد وسلبها فهزمهم فوريوس كاميلوس ابن الحاكم وشتتهم الى الجهات الشمالية وفى سنة ٣٤٦ قبل الميلاد عقدت معاهدة بين الرومانيين والغلبين ومن بعد هذه المعاهدة ماحصل منهم اغارة على ايطاليا الوسطى مرة أخرى

وكان السامينيون من عهد زمن قبل طرد الطاركنيين من رومة قطنوا مثل متغلبين فى الاراضى الجبلية الواقعة بين السهول الابوليانية والكامبيانية وهذه السهول محكومة بتلك الجبال وكان الكامبانيون فى درجة سامية من التمدن ورفاهية العيش ودخلوا فى العوائد والآداب الهلانيقية وذاقوا الشدائد والمصائب الكبيرة من أهل بلادهم الخشنين وهم السامينيون سكان الجبال فكانوا ينزلون دواما عليهم من مرتفعات وهضاب جبالهم ويخربون السهول الطريفة الخصبة من كامبانية فأرسل أهل كامبانية لرومة يطلبون منها المساعدة على السامينيين وقدموا لها أن يكونوا رعية وحلفاء لها ولمحتهم مطاوبهم وكانت رومة فى هذا الوقت على صلح من السامينيين الاأن ماعرضه الكامبانيون على الرومانيين غرهم على التردد فى نكث هذا الصلح وكذا كان السامينيون فى هذا الوقت فى شوكة كبيرة فى ايطاليا الجنوبية وما كان لهم عدو ألد الا الرومانيون فى هذه الجهة فرأى الرومانيون أنهم لورفضوا المحالفة المقدمة لهم من الكامبانيين ربما يتولد منها تقوية تهم على الرومانيين وأن قبولها ربما يكون فيه وسعة لزيادة الاراضى الرومانية فعقدت رومة معاهدة مع كامبانية وأرسلت جيشين رومانيين الى تلك الجهة فى سنة ٣٤٣ قبل الميلاد وفى هذا الوقت أغار اللاتنيون محالفو رومة على مملكة بلغنيا وهددوا السامينيين وأزعجوهم من الجهة الشمالية لهم فمن هذا أولها البدء فى الحرب المسمى بالحرب الاول الساميني وحاز الرومانيون الظفر فى أعمالهم العسكرية وقضوا فصل الشتاء فى كامبانية فتولد من غيبة العساكر عن المملكة مضايقات شديدة لعائلاتهم وأهليهم وكانوا مازالوا تحت أحمال وأثقال ديون الفقر فتسلطن النفور والغضب فى الجيش وقامت الحمية فى رؤوس العساكر ثم زاد هذا النفور فى السنة التالية حتى صار عصيان عساكر العوام وعزموا على فصل مسئلة المنازعة الطويلة الجارية بينهم وبين طائفة الاشراف فاجتهد القناصل فى توزيع الجيش بالتدريج قبل حصول هذه الثورة وانفجار المصائب فرفض الجيش التوزيع وقام فى الثورة مرة واحدة وسار من معسكره قاصدا رومة وطلب رسميا مطاليب الامة تطرا لما هو حاصل عندها من الكرب والعناء الشديد فاسرعت الحكومة فى جمع من يقاوم هؤلاء العساكر العاصية ويصدها عن حركتها فلم يقبل من جمعه ضرب اخوانهم والتزم طائفة الاشراف بالانقياد لطلبات الامة ومن بعد مخابرة طويلة عرض واحد من حكام العوام اسمه جنوصيوس عدة قوانين قبلها كل من الطائفتين وجعلت أساسا لاستتباب الراحة بينهما وأعيد النظام والقانون الليصينيانى فعلا وعملا وعبثت طائفة الاشراف بما كانت عليه من العتو والشوكة والجبروت بان صار انتخاب القنصلين على موجب نص مادة فى القانون من العوام دائما وأن لا يصير انتخابهم أبدا من الاشراف وسن فى هذا القانون أيضا أنه لا يرخص لاحد من العوام الدخول فى مصلحة واحدة مرتين فى ظرف عشر سنوات ولا ينتخب فى مصلحتين فى ظرف سنة واحدة ولاجل

الخلاص من البليـة العظمى العمومية صار الغاء جميع الديون التى ما كانت رفعت وأنه لا يجوز قانونا قرض نقود بربا وأرباح من الآن فصاعدا

وفى أثناء هذه القلاقل ترك اللاتنيون الحرب مع السامنيين ونجحوا فى أشغالهم نجاحا زائدا حتى أعلنوا بالاستقلال من رومة فانعقدت رومة صلحا مع السامنيين فى سنة ٣٤١ قبل الميلاد وقوت نفسها بدخولها فى الاتحاد المارسيانى وهو اتحاد المدائن الصابنية ووطد اللاتنيون محالفتهم مع الكامبانيين والسيديتنيانيين والفلصيانيين وأما السامنيون فانهم حادوا عن الحرب وأجمعوا مساعيهم فى مد حدود أراضيهم الى الامام فى داخل الاراضى الفلصيانية فاستمر الحرب بينهم ثلاث سنين وانتهى بوقائع الحرب الاول السامينى ووقعت الواقعة الفاصلة لهذا الحرب تحت ذيل جبل فيزوفيس فذبح الرومانيون على نصرتهم قنصلهم العامى وهو بوبليوس ودسيوس قربانا للآلهة وكان سمح فى نفسه بالذبح كما أخبر بذلك كهنة الفال حيث قالوا ان عواقب هذا الحرب تحتاج الى تقريب قربان اما القائد واما الجيش أجمع ثم ان اللاتنيين وحلفاءهم تعصبوا مرة أخرى فهزموا بسهولة وما كان لهم من بعد هذه الهزيمة قلب ولا قوة على السعى مرة أخرى على رومة وانفسخ الاتحاد اللاتينى واستبدلت تطاماته الداخلية بالقوانين والعوائد الرومانية فى كل جهة من الجهات اللاتينية وكان اللاتنيون من جنس واحد ولسان واحد مع الرومانيين فازالوا العداوة والبغضا من بينهم وكانت هذه وقتية ومحنة ذاتية وخضعوا لسلطة رومة من بعد مضى مدة استمرت بينهم فى الغضب والزعل واشتباك الحرب

ونولد مما كان حاصلا من نفور اللاتنيين والعداوة بينهم لرومة حرمان الرومانيين من الشروع فى أى حرب مهم مدة الاثنى عشرة سنة التى جاءت بعد وكذا بواسطة ما حصل من الغارة من اسكندر صاحب ابيروس على ايطاليا سنة ٣٣٢ قبل الميلاد وكان اسكندر هذا هو ابن أخى اسكندر الاكبر وكان جاء للغارة على السامنيين فعقد الرومانيون معه معاهدة وكانوا فى هذا الوقت على استعداد للحرب معه لو تجاسر بنفسه وخاطر بالغارة على أراضيهم لانهم كانوا متحققين من اغارته عليها لو حصل له نجاح وظفر بالسامنيين فانهزم وقتل فى سنة ٣٢٦ قبل الميلاد وفى هذا الوقت صارت رومة سيدة اللاتنيوم وكامبانيه وحفظت حدودها من جهة عطروسكانيه من أى هجوم يقع عليها بواسطة معاهدة عقدتها واستشعرت فى نفسها بأنه صار لها قوة كافية على التغلب على السامنيين وكانوا هم وحدهم ينازعونها فى الجهات الجنوبية من ايطاليا فابتدأ الحرب الثانى السامينى فى سنة ٣٢٦ قبل الميلاد واستمر الى سنة ٣٠٤ وكانت مباديه جور رومة وتعديها على أراضى السامنيين وكانت بغيتها الظاهرية بلوغها سلطتها على الجيث جزيرة فاصطف أمامها تقريبا جميع أمم ايطاليا فى حذاء واحد وتحالفوا بعضهم على عدم وصولها الى مآربها الشارعة فيها واستمر هياج الحرب مدة خمس سنوات مع الضعف والوهن وكل من الطرفين محافظ على قوته من التلف والخسارة فكان الرومانيون لهم فى مبادى الحرب الظفر والنصر وفى سنة ٣٢١ قبل الميلاد أوقع السامنيون على أخصامهم شر هزيمة لم تحصل لهم قبلها وتحمل الجيش الرومانى عناآت شديدة ومصائب وأهوالا فريدة وذلك أن الرومانيين تحت قيادة القنصلين صار الهجوم عليهم عند معبر أو درب كودين وهو بوغاز جبل بين نابولى وبنفنطوم فانهزموا بعد أن تلف نصف العسكر وسلم الباقى ثم عتق بونطيوس ملك السامنيين بعلو همته وسعة

كرمه

كرمه هؤلاء المأسورين على شرط عقد صلح معتبر يلزم التوقيع عليه من القنصلين والاثنين حاكما الامة الحاضرين مع الجيش فاجريت هذه الشروط وتجرد الرومانيون من سلاحهم ومروا من تحت سيف الملك قائلين خضعنا وأطعنا ثم خلصهم بونطيوس من الاسر وأرسلهم الى رومة فصرف السناتو النظر عن فضل هذا الملك وعلو همته وطرحه الرومانيون وراء ظهورهم لان السناتو حالما استحوذ على عودعساكره رفض ربط نفسه تحت شروط معاهدة عملت على حدود غير قانونية فأما الذين وقعوا على هذه المعاهدة فانهم هربوا من رومة وذهبوا عرايا الى بونطيوس فلم يقبلهم بونطيوس وما اعتبر بانهم مسؤلون عن ذمة هذه الامة الرومانية وهاج الحرب على ما كان عليه وفى سنة ٣١٥ قبل الميلاد انتصر السامنيون نصرة عظيمة ثانية فى نواحى لوطوليا وظهر من وقائع الحرب أن حالة رومة صارت مقطوعة اليأس حتى ان محالفيها تركوها الا قليلا منهم اوعصت عليها كامبانية وتحالف العوصونيانيون والقلصانيون مع السامنيين وفى سنة ٣١٤ قبل الميلاد عاد المدد الى رومة وذلك أن الرومانيين بذلوا نفوسهم وما فى طاقتهم وجندوا جيشا قويا فى الميدان فهزم هذا الجيش السامنيين هزيمة تقشعر منها الابدان فى واقعة حصلت بينهم فى نواحى سنا حتى ان الجيش السامينى انحطم حطمة انقطع عوده منها ولما صار الحرب على وشك الغلاق حصل من العطروسكانيين والعسكانيين والاومبريانيين بذل الجهد فى صدرومة وعجزها من أن تكون سيدة ايطاليا وصار كل منهم يجرى حركاته على حدته ومع ان هذه الاعمال امتد بها الحرب الى مدة تنيف عن عشر سنوات زيادة على المدة المتقدمة الا أنهم انهزموا على وجه التفصيل أمة بعد أمة وفى سنة ٣٠٤ قبل الميلاد خضع السامنيون لطاعة رومة وأما الامم الاخرى فانها عقدت صلحا معها وصارت رومة فى هذا الوقت أول أمة فى ايطاليا وكانت الامة السامنية أساتذة الرومانيين فى الآداب والمعقولات لكونهم مكثوا مدة طويلة مذللين أنفسهم لتلقى التهذيبات الجريقية والعلوم الفلسفية وأنواع الآداب الجريسية الحضرية وأما الرومانيون فانهم كانوا تنازلوا عن حقوقهم فيها للسلطة على البحيث جزيرة وفى السنة الثانية من الحرب تولد من نفور اللاتينيين الذى كان حاصلا من قبل عداوة جهرية ومبارزة ظاهرة فاستصوب الرومانيون اجراء سياسية الارتباطات الودية وكان حصل من الحزب النافر من اللاتينيين فى رومة تحزب شديد فاثبتت رومة أن علاقاتها لم تكن اسما فقط بل فعلا وعملا وتوظف فلقيوس قائد الحزب المتحزب قنصلا فى هذه السنة وبهذه الاعمال الجليلة صار اللاتينيون فى اتحاد واحد مع رومة وانتهت قلقلة المنازعة بين اللاتينيين ورومة

وفى نحو غلاق الحرب الثانى السامينى هيج العيك حربا على رومة وفى سنة ٣٠٤ قبل الميلاد لما لم يوجد عند الرومانيين عمل بواسطة ما حصل من اجراء الصلح فى هذه السنة أغاروا على الاراضى العيكية فى ٤٠٠٠٠ مقاتل وفى ظرف خمسين يوما تغلبوا على احدى وأربعين مدينة وخربوها وأخذوا كثيرا من الاسرى باعوها فى أسواق الرقيق وما بقى من أهل العيك صار رعية للحكومة الرومانية ومن بعد مضى بضع سنين صاروا تبعة رومانية ودخلوا فى الحروب مع الرومانيين على السامنيين ولما انغلاق الحرب الثانى السامينى فى سنة ٣٠٤ قبل الميلاد صرف السامنيون الخمس سنوات التى جاءت من بعد الحرب فى ترتيب اتحاد ايطاليانى يعرف باتحاد المدائن الايطاليانية وهى عطروسكانية وأومبريانية والغليون من الجهات الشمالية والسامنيون واللوقانيون ومعظم المدائن الجريقية من الجهة الجنوبية وتحالفوا جميعهم وتعاقدوا على كراهة عمومية وبغضاء فى قلوبهم سوية لرومة

وفى سنة ٢٩٨ قبل الميلاد كان مبدأ الحرب الثالث السامينى وذلك ان الرومانيين أغاروا على كل من عطرورية وسامنيوم مرة واحدة فهزموا العطروسكانيين فى نواحى فولاطيرا وفى مثل هذا الوقت تغلبوا على بوقانيوم وفيدينه فى الجهة الشمالية من سامنيوم وفى السنة التالية انتصر القنصل فابيوس نصرة جليلة على السامنيين وأما رصيوص القنصل الآخر فانه هزم الاوليانيين واللوقانيين وأرغمهم على الانقياد الى رومة وكانت أعمال السنة التالية غير مهمة الا انه فى سنة ٢٩٥ قبل الميلاد زحفت القوى المتحدة من الغليين والعطروسكانيين والاومبريانيين والسامنيين نحو رومة وما حصل من جسارة الرومانيين وثباتهم نجاهم من هذه الواقعة وهو أنهم أبقوا جيشا تحت الاحتياط فى مملكتهم لملاقاة هجوم أو غارة تحصل عليهم من جهة ما من الجهات وأرسلوا جيشا آخر الى عطرورية فارتعدت فرائص العطروسكانيين والاومبريانيين واشتد بهم الخوف على سلامة بلادهم فطلبوا عساكرهم فتقهقرت هذه القوى المتحدة عابرة جبال الابنين فتبعها الجيش الرومانى الآخر وهجم عليها فى نواحى سنطينوم وحصل بين الجيشين واقعة دموية قرّب فيها القنصل دصيوص نفسه قربانا فداء عن أهل بلاده من بعد نصرة الرومانيين كما فعل أبوه فى واقعة جبل فيزوفيس وانتصر الرومانيون وأوقعوا بالمتحالفين شر هزيمة وخسائر جسيمة نحو ٢٥٠٠٠ نفس وكانت هذه الواقعة هى الواقعة الفاصلة فى الحقيقة وكسرت شوكة الاتحاد وتفرق من بعضه وانسحب الغليون الى بلادهم ولم يشتركوا فى الحرب من بعدها أبدا واشتعل الرومانيون الحروب فى عطرورية وسامنيوم كل على حدتها فقاوم السامنيون مع الشجاعة والمهارة وفى سنة ٢٩٢ قبل الميلاد هزم بونطيوس ملك السامنيين الجيش الرومانى تحت قيادة فابيوس جورجيس ولاجل اطفاء غضب الرومانيين الذين سعوا فى حرمان فابيوس الذى كان قنصلا من قيادته عرض أبوه فابيوس مكسيموس نفسه للخدمة بالنيابة عن ابنه فكانت النتيجة من بعد تعيينه أن حصل الظفر والنصر المبين فى السنة التى جاءت بعدو انكسرت فيها شوكة السامنيين عن آخرهم وأسر بونطيوس ملكهم ثم وقف الحرب قليلا واجبر السامنيون على التسليم بغير شروط وأضيفت قطعة من أراضيهم الى أراضى رومة وتولد من ضعف السامنيين أن صاروا رعية حليفة للجمهورية وأشهر الرومانيون نصرتهم بارغام بونطيوس الذى أعتق بعلو همته وكرمه كامل جيشهم قبل ذلك بتسع وعشرين سنة على كونه يمشى مثقلا بالحديد على رجليه فى موكب النصر الذى عقد للقنصل ثم بعد ذلك قتلوه وفى سنة ٢٠٩ قبل الميلاد وفى نفس هذه السنة تغلب القنصل كوريوس دنطاطوس على أراضى الصابنيين وكانوا عاضدوا السامنيين على الرومانيين وأراضيهم هذه مشحونة بغابات شجر السنديان أو البلوط وكثيرة الزيتون والعنب فانتقلت جميعها الى حوزة الجمهورية

ومع أن هذه الحروب كانت على غاية من الظفر والنجاح الا أنه تولد منها عناء شديد ومضايقات أكيدة على عوام الامة من كثرة المصاريف التى صرفوها فى فداء المأسورين وأضرت بهم وكذا تولد من طول غياب الناس عن أعمال الزراعة ووقوع المزارعين فى الخراب والدمار فلاجل كشف هذه البلية العمومية قدم كوريوس دنطاطوس لائحة جديدة فى تقسيم الاراضى الشائعة فيما بين فقراء الرومانيين فعارض طائفة الاشراف هذه اللائحة بحدة وشدة حتى صار كوريوس على خطر كبير من حياته مع أن هذه من أكبر الخدم الواجبة عليه فى حق الرعية فكان كلما ازدادت معارضات الاشراف ازدادت بمثلها طلبات الامة مع الكبرياء وعلو الهمة حتى انفصل العوام أخيرا من رومة ووطنوا أنفسهم على جبل

جانيكولوم ومازال طائفة الاشراف مصرين على عدم قبول هذه اللائحة حتى هددتهم الحروب الاجنبية وكان ظهورها ثم انها قريبة الوقوع فاذعن مجلس السناتو الى منحه طلبات الامة وتوظف هرطنسيوس وكان من عائلة قديمة من العوام حاكما فعرض القوانين المشهورة المسماة بالقوانين الهرطنسيوسية فحصل التصديق عليها من الامة بصوت واحد فالغى أونقص مقادير وافرة من الديون التى لم يصر رفعها وأعطى سبع بوجيرات من الارض لكل واحد من التبعة ومنع مجلس السناتو من أن يكون له صوت فى العموم وأعلن بان يكون اجتماع الامة فى نواديها فان اجتماعهم هذا هو الشوكة السامية والقوانين الكافية وكان ذلك فى سنة ٢٨٦ قبل الميلاد

ثم انفجرت بعد ذلك بلية جديدة على الجمهورية وهى مكافأة اللوقانيين على ما أدوه من خدماتهم وأعمالهم التى أجروها فى الحرب السامينى فنحهم الرومانيون المدائن الجريقية الداخلة فى أرضهم لكن عندما دخل اللوقانيون فى معاهدة مع البروطيانيين ابتدؤا يسعون فى اخضاع هذه المدائن فاستغاثت مدينة طورى برومة فى المدافعة عنها فأجابت رومة طلب سكانها وضاع من اللوقانيين والبروطيانيين الغنيمة التى كانوا وعدوا بها وبذل سكان طرنطيوم جهدهم فى ترتيب اتحاد على رومة وكانوا على غيرة شديدة من سلطة رومة فانتهزوا فرصة غضب الممالك الذين حرموا من صيدهم وجلبوهم معهم فى هذا الاتحاد وفى سنة ٢٨٣ قبل الميلاد رأت رومة نفسها بان أراضيها مهددة من العطروسكانيين والاومبريانيين والغليين من الجهة الشمالية وبالسامنيين والبروطيانيين واللوقانيين من الجهة الجنوبية وبقيت عرطيوم وحدها صديقة لرومة فصار محاصرتها بجيش اتحادى من عطروسكانية وغلية فأرسل القيصر ميطلوس من أجل خلاصها فانهزم وخسر كامل جيشه فأرسل الرومانيون رسلا من طرفهم لاجل معاتبة رؤساء الغليين فى نقضهم شروط المعاهدة فقتل الهمجيون هؤلاء الرسل شر قتلة فأخذ الرومانيون بثأرهم مع شدة البطش وذلك أنه أغار جيش رومانى تحت قيادة القنصل دولابلا على أراضى الغلية وخربها وحرق جميع القرى وقتل الرجال وساق النساء والاطفال الى أسواق الرقيق ومحيت هذه العشائر من دفاتر دواثر الامم الايطاليانية فارتعب بويان الغلية وقامت حميتهم فى رؤسهم بسبب ما حصل لاخوانهم من الدمار وحملوا السلاح للاخذ بثارهم وضموا قواهم الى القوى العطروسكانية وسارت هذه الجيوش المتحدة على رومة فهزمهم الرومانيون وخسروا خسارات جسيمة وقت عبورهم من نهر الطيبر بالقرب من بحيرة فاديمو الصغيرة

وأما فى الجهة الجنوبية فانه صار بقاء جيش صغير رومانى فى مدينة طورى على غاية من الخطر والصعوبة وفى سنة ٢٨٢ قبل الميلاد رفع القنصل جايوس فابريصيوص لوسينوس الحصار وهزم اللوقانيين فى واقعة خطيرة وأعقبها بهزيمة السامنيين والبروطيانيين فتولد من هذه المظفرات كسر ظهر الاتحاد فى الجهة الجنوبية واستحوذ الرومانيون على مبالغ وافرة من الغنائم والاسلاب كافلة بكامل المصاريف التى صرفوها فى الحرب وزيادة وأخذ كل عسكرى نصيبا عظيما منها وبقى مبلغ وافر فى الخزينة الرومانية يعادل نصف مليون دولر من النقود الامريكانية كل دولر يساوى روبيتين هندية وربع

وأما طرنطيوم التى كانت سببا فى هذه الحرب فانها ما دخلت فيه بل اجتهدت فى رمى المصاعب والاعمال على الذين تحالفوا معها الا أن رومة لم تنخدع من وجود طرنطيوم فى هذه الحيادة وأرسلت أسطولا يطوف حول الطرف الجنوبى من البحيث جزيرة ويراقب حركة الطرنطيين وأشغالهم وللمداخل

الاسطول فى البحر الادرياطيقى رسا فى مينة طرنطيوم وكانت لاتزال فى صلح مع رومة فاشتعلت نيران العداوة فى قلوب الطرنطيين وقاموا بعوامهم وأوباشهم وساروا نحو المينة وهجموا على الرومانيين وأوقعوا بهم وغرقوا مراكبهم ثم ساروا نحو طورى وطردوا منها محافظى الرومانيين وعنفوا سكانها وعاقبوهم أشد العقاب بسبب خضوعهم للجمهورية فتبصر الرومانيون فى العواقب وتداركوا أمرهم بالكف عن الحرب مع طرنطيوم على شرط خلاص المأسورين الذين أسروهم وعود مدينة طورى على ما كانت عليه وتسليم الذين كانوا سببا فى أصل الهجوم على الاسطول من غير داعية فلم تقبل طرنطيوم هذه الطلبات وأخذت على نفسها نيابة جميع المدائن الجريقية الموجودة فى ايطاليا ودعت بيرهوس ملك أبيروس لمساعدتها فأجاب بيرهوس فى الحال دعوتها وكان طبعه المتعب لايسمح له فى البقاء والسكون على هدو وسرور وراحة وعبر فى سنة ٢٨٠ قبل الميلاد البحر الادرياطيقى وأغار على ايطاليا فى رأس جيش مؤلف من ٢٢٥٠٠ من المشاة و ٣٠٠٠ من الخيالة و ٢٠ فيلا وكانت هذه أول مرة شوهدت فيها الفيلة فى ايطاليا وكان بيرهوس نال فى السابق التاج المقدونى ثم ضيعه فى مبادى أمره وكانت نظامات جيشه على حسب القواعد المقدونية وكان محرزا كامل القيادة فى عصره وكانت سجاياه الشخصية تفوق سجايا كل ملك فى عصره وكان هو أول جريقى اتفق مع الرومانيين فى الحرب وبه شرع الذين باشروا الارتباطات بين رومة والهلاس وتأسس عليها جميع نتائج الاعمال القديمة والقسم الاعظم من الاعمال الاخيرة فى التمدن والحضارة الاخيرة وكان أول حرب صار اجراؤه بين جيش كبير وفرقة صغيرة وبين عساكر بالمرتبات الشهرية أى أجرية وجيش مملكة وبين ملك حربى وحكومة شورويه وبين أرباب شجاعة وقريحة وأمة شديدة البطش وهاجت وقائع هذا الحرب بين بيرهوس والقواد الرومانية ومع أن الطائفة المهزومة كانت تمد بأمداد كل يوم فكان يظن كل يوم يعقب آخر أن فيه انفصال الحرب وظن الطرنطيون أن ملك أبيروس يحارب حروبا من أجلهم ومن بعد خلاصها يتركهم متمتعين براحة أنفسهم ورفاهية عيشتهم وعلو درجتهم لكن بيرهوس أراهم وبين لهم أنهم وجدوا سيدا لا خادما أو عبدا لهم وأبطل كافة ما كانوا عليه من ملاعب الخيول والتوجه لمحلات التياترات وأرغم سكان المدينة على أداء واجبات المحافظة ليلا ونهارا فحصل عندهم الغضب والحنق الشديد واجتهدوا فى عقد شروط مصالحة مع رومة غير أن بيرهوس كان أحكم القبض عليهم وعامل طرنطيوم وأهلها معاملة مدينة فتحها وأرسل جملة من رؤسائها الى أبيروس مثل رهائن فيها

ولما أحكم بيرهوس مدينة طرنطيوم ووطدها واختارها أساسا لمهمات حركاته الحربية أشعل الحرب على الرومانيين وهزمهم فى نواحى هراقلية بجيش قليل معه وما خدش ضابطا من ضباط الجيش المتقهقر فيل من الفيلة وعقب بيرهوس العساكر الفارين فما أبقى منهم باقية وخسر الرومانيون فى هذه الواقعة ١٥٠٠٠ نفس منهم ٧٠٠٠ مقتول ومع هذا فان بيرهوس اشترى نصرته من الرومانيين بخسارة ٤٠٠٠ نفس من عساكره الباسلة وجملة من شجعان قواده وما تمكن الرومانيون من الحصول على قتل بيرهوس وما كانوا يرغبون فعله

وظهر لبيرهوس فى هذه الحالة انه أمهر قائد وأشجع فارس ويلزمه أن يجنى ثمرات مكافأة نصرته والتحق به كثير من المدائن الايطاليانية والمدائن الجريقية ماعدا القليل منهم فانهم تباعدوا عنه واجتهد

بيرهوس فى جمع جيش له من المأسورين عنده الذين أسرهم فى الحرب وظهرت له شجاعتهم ودرايتهم بالحروب بواسطة ما أغدق عليهم من كرم معاملته لهم وبين لهم أن ذلك من الاعمال الواجبة الجارية دواما عند الجريق غير أنه اندهش وتعجب من كونه لم يلتحق به أحد من اللاتينيين أو الرومانيين وعرف فى نفسه أن محاربته هذه ليست مع عساكر أجرية بل مع أمة قوية واتضح له أنه غرق فى مهاوى خطئه وفى مصاعب الاعمال التى شرع فى اجرائها وفى طريقة جمعه العساكر المحاربين فاجتهد فى نفسه على أن يحرز نهاية أعماله بحالة كونه ملكا بطلا وسيدا شجاعا وظن أن المصائب التى حلت بالرومانيين من أول حرب وقع بينه وبينهم مزقت قواهم وأضعفت أحوالهم وأنهم ربما يميلون لقبول صلح مع الشرف بدل الحرب وينال هو بذلك توطيد حرية المدائن الجريقية فى ايطاليا ويحفظها ويقيم بينها وبين الاراضى الرومانية عدة ممالك ثانوية وثالثية تبعة حليفة للدولة الجريقية الجديدة فطلب فى شروط واضحة كتبها من طرفه مثل شروط صلح خلاص كامل المدائن الجريقية ثم المدائن الكامبانية واللوقانيانية على الخصوص من انقيادها لرومة واسترداد الاراضى التى أخذت من السامنيين والدانيانيين واللوقانيانيين والبروطيانيين وأرسل طلباته هذه الى رومة مع وزير معتمد من طرفه اسمه صنياس من أهل تساليا وكان هذا الوزير أستاذ البلاغة والفصاحة وكلفه الملك بكونه لا يضيع أدنى فرصة فى الضغط على الرومانيين بغاية جهده بالسياسة المعهودة فيه بالنظر لما حصل لهم من مباشرتهم الحروب فأدى صينياس الى الرومانيين ما جاءهم به وبذل مجهوده فى نصحهم وحاز من كثير من الرومانيين الرضا والقبول بما عرضه عليهم حتى ان مجلس السناتو أذعن بأداء طلباته وما جاء به من عند أستاذه ولما بلغ ابيوس كلوديوس وكان قنصلا قبل ذلك بمدة ثلاثين سنة وصار كهلا عاجز البصر رسالة صنياس وما جاء به ونجاحه فى مأموريته مع مجلس السناتو امتلأ بالغضب الشديد عند سماعه فكرة عقد صلح مع فاتح أجنبى فوق الاراضى الايطاليانية فأمر هذا الرجل العجوز خدمه وحواشيه بحمله فى محفل الى بيت مجلس السناتو فانفجرت منه فيه تيارات البلاغة والغضب الذى لا يرجى منه قبول مطالب بيرهوس حتى ان مجلس السناتو قامت فيه الاحساسات الواجبة عليه من الاعمال الحقة الواجب عليه اجراؤها بخصوص الامة الرومانية وأجاب رسول ملك أبيروس بأن رومة لا تدخل فى مخابرة طويلة مادامت عساكر أجنبية موجودة فوق الاراضى الايطاليانية فقام صنياس فى الحال من المدينة وعاد الى بيرهوس مع شدة الكراهة والغضب التى رآها عند الرومانيين من حبهم الوطن وشدة محافظتهم عليه حتى انه عرض لاستاذه أنه ظهر له أن كل واحد من أهل رومة ملك نفسه فمن ثم اشتعل الحرب وهاج الكرب كما كان عليه فأما بيرهوس فانه كان يبحث عن المجد والفخر فقط وأما الرومانيون فكانوا يبحثون على حفظ أراضيهم وأهليهم

وكان بيرهيرس فى أثناء هذه المكالمة تحرك فى داخل كامبانيه وبمجرد ما أخذ جواب السناتو زحف بعساكره على رومة عازما على عمل اتفاق مع العطروسكانيين فوجد فى أثناء تقدمه وزحفه استعداد الرومانيين له بجيش جديد تحت قيادة القنصل بوبليوس ليفنيوس الذى كان هزمه فى هراقلية وحفظ هذا القائد الرومانى مدينة قابوه من زحف الملك عليها وأوقف حركة سعيه فى الوصول الى نيابوليس وكذا كانت رومة فى حالة ثبات جيد حتى انه ما تجاسر أحد من حلفائها على تركها والتخلى عنها ما عدا المدائن الجريقية الموجودة فى ايطاليا الجنوبية وما لاقى بيرهوس فى أثناء سيره من وسط

المملكة نحو رومة جيشا ما وغلقت كامل المدائن اللاتينية أبوابها فى وجهه وأدهشه حالة زهرة البلاد وأثبتت فى عقله أحسن تدبير حاصل من رومة ما كان يتصوره قبل ذلك وتبعه القنصل ليفينوس على القرب منه مستعدا الى الهجوم عليه فى الوقت الموافق له وتجهز رومانى ثان وسار تحت قيادة القنصل طبريوس كورنوكانيوس وأسرع فى عقد صلح مع العطروسكانيين وكان فى حرب معهم وسار مجدا من الجهة الشمالية لاجل لقاء العدو وفى هذه الاثناء جندت رومة جيشا ثالثا وزحف بيرهوس حتى صار على مسافة قليلة من رومة ثم انسحب الى طرنطيوم فقضى فيها فصل الشتاء وتوجه الرومانيون أيضا الى جهات مشتاهم واجتهدوا مدة فصل الشتاء فى فداء المأسورين فرفض بيرهوس قبول هذا الطلب ورخص لجميع أسراهم بالتوجه الى بلادهم ليحضروا موسم عيد لهم وأعطوه قول الشرف بالعود اليه ثانيا من بعد أيام العيد ان لم يعقد صلح قبل هذه المدة ومن بعد مضى المدة التى تحددت لهم لما لم يحصل فيها عقد معاهدة عادوا اليه وفاء بما وعدوه من القول الشرف

وفى سنة ٢٧٩ قبل الميلاد حاز بيرهوس نصرة ثانية وكانت هذه المرة فى نواحى عوسقلوم من أعمال ابوليا وجلب الى ميدان الحرب خلاف عساكره المقدونية زيادة عن ٥٠٠٠٠ من الايطاليانيين مددا له من محالفيه وطرد الرومانيين من ميدان الحرب الا أن الجيش الرومانى لم يحصل فيه أدنى اختلال وترآى لبيرهوس أن فى امكانه اتمام هذه المظفرات الا أن النقص الذى حل بعساكره المقدونية المعول عليهم فى الحروب عنده ما قدر أن يجلب بدله ويستحوذ على غيرهم من أمثالهم وأما الرومانيون فانهم كملوا صفوف عساكرهم بعساكر جديدة وسد الرومانيون عليه بشجاعتهم وصبرهم أبواب المسالك حتى انه أهلك جيشه فى غير طائل وصار لا فائدة فى محالفيه له واستحقر حالتهم ما عدا السامنيين وما كان مترائيا له من النصرات والمظفرات آل به الى الضعف والوهن فى آخر أمره الا أنه ما زال شرف العسكرية لا يرخص له فى ترك موقف الحرب وفى السنة التالية سنحت له الفرصة فى نفسه بالانسحاب من البحث جزيرة وكان حصل له الكدر وحل به الزعل والضيق من نتائج الحرب حتى انه انسحب من ايطاليا وكان السبب فى تركها أن زوجته كانت ابنة اجاثوقليس طاغية سراقوسة وابنه حفيدا اجاثوقليس وهما الوارثان الشرعيان لمملكة سراقوسة ولما قتل اجاثوقليس وحصلت المضايقة الى سراقوسة من جهة القرطاجنيين دعا أهل مدينة سراقوسة بيرهوس لمساعدتهم وقرر وا فى أنفسهم مع حذاقة العقل انه لو ضيع أهل سراقوسة درجة حريتهم فربما تكون المدينة تحت رياسة ملك ابيروس عاصمة مملكة هلانيقية كبيرة فى الغرب فلبى بيرهوس الدعوة وترك ايطاليا متوجها الى سيسيليا فى سنة ٢٧٨ قبل الميلاد من بعد أن ترك محافظين فى مدينة لوقريا وطرنطيوم وقبل وصوله دخل القرطاجنيون فى محالفة ومعاهدة تعرضية وتحفظية مع رومة وقبل سفر بيرهوس من ايطاليا بقليل سعى سعيا لا ثمرة فيه من أجل توطيد الصلح مع الرومانيين وبمجرد وصوله فى سيسيليا طرد القرطاجنيين وضيق عليهم حتى عرضوا عليه الصلح ومع ان القرطاجنيين كانوا حلفاء رومة الا أنهم قدموا لبيرهوس مراكب ونقودا كان لها على غاية من شدة الاحتياج لكنه رفض بشماخته وكبريائه هذه التقدمة وانقلبت سعادته العظيمة بهزيمة مهولة وقعت عليه فى ليليبوم فاستمر سنتين طويلتين فى سيسيليا ثم تخيل له فى يوم من الايام أن حالته صارت على قدم النجاح فى مشروعاته وتغلب عليه عدم راحته القديمة وحصل له مضايقة مما حل بمحالفيه فى ايطاليا من الاضرارات التى

كان سببا فيها ولعنوه من أجل تركه اياهم فمن ثم اندفع عائدا الى ايطاليا فى أواخر سنة ٢٧٦ قبل الميلاد وفى حال سفره الى ايطاليا هجم القرطاجنيون على أسطوله وأخذوا مقدارا من مراكبه وعصى عليه مباشرة كل ما كان فتحه فى سيسيليا ولما نزل بيرهوس فى برايطاليا عزم على الغارة على رهغيوم لكنه انهزم فى هجومه ثم نجح فى تغلبه على لوقريه وكان أهلها ذبحوا ما تركه عندهم من المحافظين فى مدة غيابه عنها فأوقع على أهلها العذاب الشديد ونهب الخزائن الملآنة بالاموال الموجودة فى هيكل برصفونة وملأ بها صناديق خزائنه الحربية وكانت فارغة من النقود ثم سار الى طرنطيوم فوصل اليها فى رأس جيش مقداره ٢٠٠٠٠ نفس من المشاة و ٣٠٠٠ من الفرسان الخيالة وكان معظمهم من مستأجرى الايطاليانيين لان كافة من كان عنده فى الحرب الذين كان جلبهم من ابيروس وكانوا على دراية تامة من الاجرآت والقواعد الحربية هلكوا تقريبا فى الحروب التى أجراها فى ايطاليا وسيسيليا وأما النقود والخزائن التى سلبها من هيكل لوقريه فانه كان أرسلها فى مركب الى طرنطيوم فنزل عليها عاصف ألجأها الى الرجوع على ساحل لوقريه ولما اعتقد بيرهوس انه فعل أفعالا قبيحة مع معبودة لوقريه من انتهاك حرمة أشيائها المقدسة ردالاموال ثانيا الى المعبد وقتل من كان سلطه على أخذها ومن بعد مضى قليل هزمه القنصل كوريوس دنطاطوس فى بنفيطوم وفى نحو آخر السنة ترك الحرب وعاد راجعا الى ابيروس من بعد أن ترك فى طرنطيوم محافظين من طرفه فى سنة ٢٧٥ قبل الميلاد فعزم الرومانيون فى هذا الوقت على فتح ايطاليا الجنوبية مرة أخرى وفى سنة ٢٧٢ قبل الميلاد تغلبت رومة على طرنطيوم ولوقانيا وبروطيوم وأرغموا على الانقياد والطاعة لرومة وأخذت رهغيوم فى سنة ٢٧٠ قبل الميلاد عنوة بالقوة والاقتدار وفى آخر سنة ٢٦٥ قبل الميلاد كانت رومة متغلبة على كافة ايطاليا الجنوبية وصارت صاحبة السيادة السامية فى البحيث جزيرة من ابتداء ما كره الى طرنطيوم ورهغيوم

وتولد من تمام نجاح هذه الحروب زيادة الثروة الكبرى للرومانيين وحصول تبديلات فى أحوال معايشهم وانتقلت أملاك الامم التى صاروا التغلب على بلادها الى حوزة المملكة الرومانية وكانت مشتملة على أراض شاسعة شائعة وأورمانات وغابات مثمنة ومحلات استخراج معادن ومحاجر قطع أحجار ومحلات صيد لؤلؤ وأسماك فأعطى مجلس السناتو كل واحد من الرومانيين من الاحرار مبلغا من النقود أو سبع يوجيرات من الاطيان حسبما اختاره

وعمرت رومة مستعمراتها الجديدة بناس من عندها لاجل المحافظة على أراضيها الجديدة وعلى ما قيل انه كان حصل الشروع فى هذه الطريقة فى الايام القديمة فى عهد ملوك الطاركينيين الا أنه صار اجراؤها الآن بشوكة قوية لما حصل عند الرومانيين تقدم فى الشوكة وعلو مقدار فى الدولة ومن بعد مضى عدة قرون امتدت هذه المستعمرات من الساحل الغربى لاوروبا الى حد نهر الفرات وكانت جميعها محصورة فى جنسين رومانيين ولاتنيين فأما المستعمرات التى كان سكانها رومانيين فكان أهلها متمسكين بكافة حقوقهم المدنية لرومة فكان لهم الصوت فى المجلس ولهم حق الانتخاب فى أى مصلحة عمومية يمكن انتخابهم فيها اذا قطنوا رومة وأما سكان المستعمرات التى أهلها من اللاتنيين فانهم ضيعوا حقوق تبعتهم لرومة لحق الصوت فى المجلس والانتخاب للوظائف وخلاف هذا لهم الحق فى تبعتهم لرومة وكثر عدد هذه المستعمرات وزاد أهلها فى داخل البحيث جزيرة وصارت منافعهم مرتبطة

بروميــة زيادة عن ارتباطهم بالممالك القاطنين فيها فشكلوا مثــل أسوار حصينة للدولة الرومانيــة فى ايطاليا

وتواصلت هــذه المستعمرات مع العاصمة بنوع طرق وسكك كان أولها وأشهرها طريق آبيــه كانت طريقا صلبة مستحجرة سلطانية جيدة الانشاء حتى ان بعضها باق الى الآن وكان صار تعميرها فى زمن ابيوس كلوديوس الملقب بالأعمى فيما بين سنة ٣١٠ وسنة ٣٠٦ قبل الميلاد وهذه الطريق تخرج من رومة من الباب المسمى باب قابوه وتمر بارديه ياوفيليطريا وسيطيا وطراسينه ومينطورنيه وسينوسه وكاسيلينوم حتى تصل الى مدينة قابوه ثم استمر السلوك منها فى نحو سنة ٢٩١ قبل الميلاد الى فينوزيا ومنها الى برنديزيوم ومن بعد ذلك بمدة صار انشاء طرق أخرى فى أقسام أخرى من البحيث جزيرة وكلما كانت رومة تمد شوكتها ودولتها على جهــة كانت تنشئ سككا عظيمة واصلة من محلات مشهورة فى المملكة الى مركز أصلى لها وكل هــذه المراكز كانت جميعها متواصلة مع رومة بسكك سلطانية حتى قالوا فى المثل المشهور كل طريق يوصل الى رومة

ثم ان الطريقة التى اتخذها الرومانيون فى دوام حكومتهم وبقاء سلطتهم على الممالك الايطاليانية التى تغلبوا عليها كانت فى غاية من التعقيد والاشكال لان رومة فى أشغال مستعمراتها منحت لها حكومة نفسها بنفسها فكانوا ينتخبون حكامهــم ومباشرى أعمالهم الداخلية من أنفسهم وكانت كل مدينة أجنبية تحت القانون الرومانى مرعية فى نفسها كأنها مملكة قائمة بذاتها وكانت تحت قانون محدود يرجع الى المركز الاصــلى لكل المدائن الرومانية فكان أجــل هــذه المدائن شهرة وأكثرها اعتبارا ما يعرف بالاتحاد المدائنى وهى المدائن المنقادة الى رومة على حسب شروط وقواعد تتغير طبعا مع تغير الاحوال الأنها مقصورة فى أشغال أعمالها وتعيين حكامها وادارة قوانينها ومثل هذه فى حسن الموقع الايالات الاجنبية التى لها بعض أو كل حقوق التبعة الرومانيــة ثم الوطنيون سكان النواحى والجهات الذين سلموا أنفسهم لرومــة على مطلق التصرف ومحصور فيهم كل شئ مما يتعلق باعمال رومة ما عدا حقوق تبعتهم لمدينة رومة وكان القانون الرومانى مباشر العمل والاجراء فى هذه الجهات بواسطة حكام معينة مباشرة من طرف رومة ولرومة حقوق معــلومة محدودة حافظة سلطتها وشوكتها بقدر الكفاية فى تلك الجهات فكان لها النفوذ الوحيــد لا لغيرها فى اعلان حرب أو اشهار سلم ولها مقابلة المبعوثين والسفراء المندوبين من طرف الدول الاجنبية وعقد المعاهدات وضرب النقود وأصناف المعاملة ولها الحق فى أن تطلب من رعاياها المخالفين لها العساكر والنقود اللازمة لاستعداد هذه العساكر ومساعدتها اذا احتاج لها الامر فى وقت الحرب وانتقال أملاك الايالات المتغلبة عليها اليها كما سبق القول فى ذلك وفى سنة ٣٦٧ قبل الميلاد ازدادت الاراضى العمومية أو أراضى الدومين زيادة واسعة حتى احتاج الامر لتوظيف أربع حكام ايطاليانية لاجل جمع المحصول منها فكانوا أول الموظفين من الرومانيين الذين تعينوا على موجب القانون وسكنوا فى مساكن رخص لهم بها فى الاقاليم خارج المدينة ورأت فى هذه المدة أيضا اضمحلال وسقوط ما كان عليه حزب الاشراف من الدولة والسلطة والنفوذ ودخول العوام فى سلطة كاملة تعادل ما ضاع من سلطة طائفة الاشراف وفى سنة ٣٣٩ قبل الميلاد عرض بوبليليوس قانونا فتح فيه محــلا لوظيفة مفتش مطبوعات ومحلا لحاكم مدنى من العوام وكذا لائحــة قانون حررها أوفينوس تاريخها مجهول رخص فيها لكافة القناصــل السابقة والحكام والمفتشــين

وأرباب الوظائف الكبيرة العسكرية أن يكون لهم الحق فى ملازمة مجلس السناتو وفى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد زاد بواسطة القانون الاغولينانى عدد أرباب المهندسين وكهنة الفال وأن يكون النصف من العوام فبكل هذه التغييرات كانت جارية بتمامها من دون حصول مناقضة أو رفض قبول فى هذه المدة وحصل منها التأثير فى زيادة فلاح الرومانيين ونجاحهم فى أعمالهم المدنية فتولد من اجتماع المدائن واتحادها بعضها وارتباط علاقاتها برومة أن صار لها طاقة على ملتقى بيرهوس بقوة شديدة حتى ظفروا بهومدّوا دولتهم وشوكتهم على كامل ايطاليا وأخذت مساعى واجتهاد الحكام حقيقة فى السلطة ونفوذ الكلمة حتى صدت كل طائفة كانت تحزب رجالها على الدخول فى الاشغال اللازم اجراؤها الموافقة لاصلاح العباد والبلاد ونشر ابيوس كلوديوس الملقب بالاعمى فى نحو سنة ٣١٢ قبل الميلاد لائحة حق الانتخاب وحصره فى مادتين وهما مادة المولد الحر والمالك لقطعة أرض حرة وحصر الحرية لطائفتين وهم الذين ولدوا فى حالة الرق والذين لا يملكون شيأ من الاراضى وبدل أن يحولهم على الشعوب والعشائر المدنية المنسوبين لها وزعهم على كافة المستعمرات حتى يكونوا داخلين فى حق الانتخاب ونجح خلفاؤه فى القنصلية فى توطيد رومة وأحكامها وتأمينها من ضرر طوائف العوام والاحزاب بكونهم جعلوا حق الانتخاب فى أربعة قبائل أو شعوب من الاحد والثلاثين شعبا يسكنون المدينة وفى السنى الاولى من القرن الثالث قبل المسيح انتظمت أمور المملكة الرومانية واستقامت أحوالها وفى هذا القرن أيضا شرع الرومانيون فى ضرب معاملات من النقود الفضية وكانت نقودهم قبل مضروبة من النحاس

﴿ الباب الرابع ﴾

﴿ الحرب مع قرطاجنه ﴾

زيادة ثروة الرومانيين من الحرب ـ اختيار الجمهورية الحرب كطريقة لاكتساب الثروة والاستحواذ على أراض ـ عقد العزم على التغلب على قرطاجنه ـ ايجاد علة الحرب ـ مبادى الحرب الاول القرطاجنى ـ هزيمة القرطاجنيين فى سيسيليا ـ اغارة الرومانيين على افريقه ـ تدمير وخراب أراضى مملكة قرطاجنه فى افريقة ـ هزيمة رغولوس والقبض عليه ـ ضياع الاسطول الرومانى ـ مصائب الرومانيين فى سيسيليا ـ مضايقة الاسطول القرطاجنى للساحل الايطاليانى ـ انشاء اسطول آخر بواسطة أهل رومة ـ واقعة عيغوسه ـ تغلب الرومانيين على سيسيليا وما جاورها من الجزائر ـ وهن قرطاجنه ـ غلاق الحرب ـ صيرورة رومة ذات شوكة بحرية كبيرة ـ تغلب الرومانيين على سردينية ـ تبديد اللصوص البحرية الالبريانيه ـ تغلب الرومانيين على الغلية الجنوبية من الالب واضافة أراضيها اليها ـ امتداد الاراضى الرومانية لحد جبال الالب ـ وجود القرطاجنيين فى اسبانيا ـ سياستهم وتدبيراتهم الجليلة ـ حنبال ـ مهارته فى القيادة فى اسبانيا ـ الحرب الثانى القرطاجنى ـ اجتهاد حنبال فى الغارة على ايطاليا ـ عبوره من جبال الالب ـ هزيمة الرومانيين على نهر طربيا وعند بحيرة طراسيمنى ـ فابيوس فى قيادة الجيش الرومانى ـ مهارة ادارته وتدبيراته ـ واقعة كانيه ـ صيرورة حنبال سيدا ايطاليا الجنوبية ـ ثبات رومة ـ وجود حنبال فى قابوه ـ مظفرات سكيبوس فى اسبانيا ـ تغلب مارسيلوس على سراقوسة ـ هزيمة سكيبوس فى

اسبانياومونه ـ سكيبوس الاصغر خليفته ـ هزيمته حازدروبال ـ صدور أمر الى حازدروبال بالتوجه الى ايطاليا ـ عبوره جبال الالب والدخول فى ايطاليا الشمالية ـ وقوعه فى الخطا ـ تحرك حنبال الى كانوسيوم وانتظاره أخاه فيها ـ هزيمة الرومانيين ـ حازدروبال وقتله ـ رمى رأسه فى معسكر حنبال ـ تقهقر حنبال ـ تغلب صكيبوس على اسبانيا ـ الاقلاع الى افريقه والهجوم على قرطاجنه ـ واقعة زامه ـ التغلب على قرطاجنه وصيرورتها خراجية لرومة ـ حروب رومة فى الجريس وفى اسيا الصغرى ـ فتح جزيرة سردينية ـ تغلب رومة على الجريس ـ الحرب الثالث القرطاجنى ـ الفتح الاخير وخراب قرطاجنه

تولد من الحروب الاولية التى أجرتها رومة مصائب أحمال ثقيلة على تبعتها الا أن الحرب مع بيرهوس والحروب التى جاءت من بعده حصل فيها منافع ومكاسب عظيمة زادت منها ثروة الامة وغنيتها فمن ثم شرع الرومانيون فى أخذ الحروب وسائل لفوائد تعود عليهم بالنفع والميسرة وواسطة لجلب مكاسب الامة الرومانية وذلك أنه من بعد خضوع ايطاليا الجنوبية شرعوا فى هياج محاربات جديدة اعتمادا على مقصدهم الاصلى بخصوص زيادة ثروتهم وظهر لهم أن ثروة جمهورية قرطاجنه هى الغنيمة الكبرى لهم والنهب الاعظم وبما أن رومة كانت التزمت على حسب احتياجات حربها الاخير على أن تصير فى حالة تزيد بها قوتها البحرية فصلت الامر وجزمت بالاغارة على قرطاجنه ووجدت لنفسها فى الحال سببا فى هياج الحرب عليه وذلك أن قرطاجنه تحت زعم مساعدتها الماميرطنيون على هيرو صاحب سراقوسة استحوذ القرطاجنيون على قلعة مسينة فاستغاث الماميرطنيون برومة وطلبوا منها مساعدتها فعقدت معهم معاهدة ولو كانت مهانة فى حقهم ومذلة فى مستقبلهم وسافر من رومة حملة لمساعدتهم وفاز كلوديوس قائد مقدمة الحملة فى عبوره بعساكره من البر الاصيل الى سيسيليا ثم من بعد قليل قبض على الاميرال حنو فى مجلس حافل وجده فيه فى مسينة فخلص حنو نفسه منه بنقله محافظى القرطاجنيين من القلعة وتسليمها الى الرومانيين وسار باسطوله وعاد الى قرطاجنه فصدر أمر الحكومة القرطاجنيه بصلبه ووظفوا قائدا آخر للاسطول اسمه حنو أيضا وفى نفس هذا الوقت أعلنت قرطاجنه حربا على رومة فى سنة ٢٦٤ قبل الميلاد فمن ثم كان ذلك الاعلان ابتداء الحرب المعروف بالحرب الاول القرطاجنى ونال الرومانيون نجاحهم فى كونهم أرسلوا قوة قدرها ٣٠٠٠٠ مقاتل الى سيسيليا وهى الجزيرة التى انحصر فيها الحرب أولا وفى سنة ٢٦٢ قبل الميلاد هزموا القرطاجنيين شر هزيمة وتغلبوا على اغريغنطوم وفى نفس هذا الوقت انقذفت مركب حربية من مراكب القرطاجنيين على ساحل ايطاليا فأخذها الرومانيون واستحسنوا صورتها وهيئة وضعها وجعلوها أنموذجا وشغلوا على هيئتها أسطولا فى البحر ونال بهذا الاسطول مظفرات جليلة فى السنتين اللتين جاءتا من بعد وفى سنة ٢٥٦ قبل الميلاد سافر أسطول مركب من ٣٣٠ سفينة وجيش مؤلف من ٤٠٠٠٠ نفس تحت قيادة القنصلين منليوس ورغولوس من ايطاليا الى افريقة فهزموا فى طريقهم أسطولا قرطاجنيا أكثر من أسطولهم عددا ونزلوا على البر قريبا من قرطاجنه من دون حصول معارضة أو ممانعة فخربوا الاراضى القرطاجنية وأرسلوا من القرطاجنيين ٢٠٠٠٠ أسيرا معظمهم من الوجوه والاعيان الى أسواق الرقيق فى رومة وأخذوا غنائم وأسلابا لا تعد ولا تحصى وفى

السنة

السنة التالية لما بقى رغولوس فى افريقة وحده مع قوة قليلة من الجيش الرومانى وبلغ القرطاجنيون هذا الخبر أغاروا عليه وهزموه وأتلفوا غالب جيشه وكان من ضمن الاسرى القليلى العدد الذين أخذوهم من الغارة رغولوس نفسه فسافر أسطول رومانى من بعد حصول الواقعة مباشرة لرد الباقين على قيد الحياة من الرومانيين فتم هذا العمل من بعد هزيمة الاسطول القرطاجنى على مسافة من رأس هرميانة وضاع منه ١١٤ سفينة وعند عود الاسطول الرومانى الى ايطاليا نزلت عليه عواصف شديدة وتلافيح مهولة ضيعت منه ٢٧٠ سفينة بحمائلها وما عليها وما نجا من الاسطول الا ثمانون سفينة فقط ثم ان القرطاجنيين تباهوا بانفسهم وقت حصول هذه المصيبة للرومانيين وتجاسروا على تجديد الحرب فى نواحى سيسيليا ظانين أنهم يتغلبون على هذه الجزيرة باسهل طريقة فالتقاهم الرومانيون بجيش قوى وفى فصل ربيع سنة ٢٥٤ قبل الميلاد أرسلوا أسطولا جديدا مؤلفا من ٣٠٠ سفينة من سفائن الدرجة الاولى الى المياه السيسيليانية وفى السنة التالية كانت احدى المصائب الكبرى فى البحر وهى ضياع ١٥٠ سفينة من العواصف والزوابع فمن ثم امتد الحرب الى سنة ٢٥٠ قبل الميلاد حتى اكتسب فيها القنصل كصليوس مطلوس نصرة عظيمة على القرطاجنيين تحت أسوار مدينة پانورموس وأخذ كامل القوة القرطاجنية من الفيلة الحربية وقدرها ١٢٠ فيلا فتولد من هذه الخسائر الزام القرطاجنيين على عدم عمل حرب تعرضى وتقهقروا الى داخل معاقلهم وحصونهم فحاصرهم الرومانيون فيها وفى مدة السبع سنوات التى جاءت بعد استمر الحرب على ما كان عليه وكان النصر فيه عموما للقرطاجنيين وتسبب من مشروعات حملكاربرقة القائد القرطاجنى وأعماله التى أجراها ضعف الرومانيين وجلب عليهم المضايقات والعناء الشديد وأوقع الخراب فى الساحل الايطاليانى كما يشتهى من دون أن يلقى كيدا أو أدنى مقاومة وما قدر الرومانيون أن يرسلوا عليه قائدا يضارعه ويهزمه واجتهد مجلس السناتو اجتهادات ضعيفة فى مقاومة العدو وتوقيف حركاته ولما اشتد الكرب وعظم الخطب فى سنة ٢٤٢ قبل الميلاد تقلد أهل رومة أزمة الامور فى أيديهم وباشروا الاعمال وبذلوا مجهودهم وأظهروا غيرة ومحبة وطنية ما ظهرت على وجوههم أبدا قبل هذا وتمموا امسئلة هذا الحرب وفى السنة الثالثة والعشرين من هذا الحرب الذى أفنى الاموال والانفس أنشؤا أسطولا مؤلفا من ٢٠٠ سفينة من الدرجة الاولى وطقموه بعساكر مقدارها ٦٠٠٠٠ نفس من البحرية وقدموه للحكومة فعهدت الحكومة رياسة هذا الاسطول الى القنصل جايوس لوطاطيوس كاتولوس فطرد أمامه القوة القليلة القرطاجنية ووصل سيسيليا وضبط مينتى ليلبيوم ودريپانه وحاصرها تين المدينتين أشد الحصار برا وبحرا فأسرعت قرطاجنه فى ارسال اسطول الى سيسيليا فوصل الى مسافة من دريپانه فى فصل ربيع سنة ٢٤١ قبل الميلاد فخرج الرومانيون بمراكبهم فى الحال للاغارة عليه وكانت بينهم الواقعة على مسافة من جزيرة عيغوسه الصغيرة المسماة الآن فاوجنانو فهزموا القرطاجنيين وضيعوا من سفائنهم خمسين سفينة وأخذوا سبعين فمن ثم ضعف حال القرطاجنيين جدا مما حل بهم من هذه المصائب والخسارات ورضوا بعقد صلح أخلوا فيه سيسيليا وما جاورها من الجزائر ودفع غرامة حربية مقدارها ٢٠٠٠ وزنة عبارة عن ٢٤٠٠٠٠٠ دولر أمريكانى أو ٤٠٠٠٠٠ ليرة استرلينية وأخلوا سبيل كافة الاسرى الرومانية من دون فداء ومن ثم انغلق الحرب الاول القرطاجنى من بعد أن لبث أربعا وعشرين سنة تقريبا فكان مكسبا عظيما لرومة وطردت قرطاجنة من المياه الايطاليانية

وتقدمت رومة حتى صارت أول درجة فى الدولة البحرية

وفى سنة ٢٣٨ قبل الميلاد لما تضايقت قرطاجنة مما حل بها من ثوران وهياج عساكرها الاجرية ضبطت منها رومة جزيرة سردينية وما قبلت رومة استلامها على حسب طلب قرطاجنه فقط بل هددتها بالحرب وتجديده عليها ثانيا وفى سنة ٢٢٧ قبل الميلاد تقوت رومة بنجاحها فى سردينية وأضافت اليها جزيرة قورسقه ووضعت رومة حكومة هاتين الجزيرتين مع جزيرة سيسيليا تحت أحكام نواب قناصل وظيفة كل منهم حاكم ورئيس قيادة وقاضى قضاة وتعين واحد نائب قنصل لجزيرة سردينية وقورسقه وكان هذا أول الفروع الرومانية فى الاحكام

وكان قبل ذلك بسنة أو سنتين طلب المدائن الجريسية الموجودة على ساحل البحر الادرياطيقى مساعدة من رومة من أجل قطع دابر اللصوص الاليريانية الحاصل من نهبهم لها كل الاذى والضرر فأرسلت رومة فى سنة ٢٣٠ قبل الميلاد رسلا الى الاليريانيين يطلبون منهم الكف عن الاذى والنهب الحاصل منهم فقتلوا الرسل فأنشبت رومة الحرب عليهم فى الحال وأرسلت فى السنة التالية أسطولا مؤلفا من ٢٠٠ سفينة الى البحر الادرياطيقى فأباد جميع اللصوص وقطاع سبل البحر وكان من أجل نتائج هذا المشروع أن أقامت رومة شوكتها وسيادتها على قسم من اليريا ودلماطيا ووضعت حمايتها على جزيرتى أبولونيه وابيدامنوس وقورصيره وفى نظير هذه الخدمة الجليلة قبل الجريس اشتراك الرومانيين معهم فى الالعاب البرزخية وفى الاسرار العلوصنيانية وكان من أعظم الامور لرومة أن نالت مطلوبها فى وضع قدمها فى الجهة المقابلة من البحر الادرياطيقى وصار لها الحق فى تداخلها فى الاعمال الجريسية

وفى ظرف هذه السنين حصلت ارتباكات وقلاقل مع الغليين فى ايطاليا الشمالية وأشعل الغليون حربا على رومة فى سنة ٢٣٨ قبل الميلاد الا انهم اجبروا على عقد صلح على حساب مصاريف بعض أراضيهم من بعد حرب لبث سنتين وفى سنة ٢٣٢ قبل الميلاد عزمت رومة على حطم شوكة الغليين واخمادها لاجل خلاصها وعتقها من الضرر المستمر الحاصل لها من تلك الجهة فوسعت فى هذا الوقت أراضيها وزحفت بمستعمراتها الى داخل أراضى مدينة صينيون من أعمال الغلية واندفعت هذه المستعمرات الى جهة الامام بعنف وكثر عددها فى ظرف السبع سنوات التى جاءت بعد وانضح غرض رومة المخفى وضوحا ظاهرا حتى التزم الغليون على حمل السلاح فى وجهها وابتدأ الحرب فى سنة ٢٢٥ قبل الميلاد وتساعد أهل مدينة صينيون الغلية بأقاربهم الموجودين خلف جبال الالب من الجهة الشمالية وامتد الحرب ثلاث سنوات حتى انه فى وقت من الاوقات زحف الجيش الغليقى حتى صار قريبا من كلوسيوم وارتاعت رومة وخافت على نفسها من الحالة التى أنزلها عليها برنوس الا ان الغليين تشتت شملهم وتمزق جيشهم فى واقعة كبيرة وقعت بالقرب من طلامون فى عطروريا وكانت نتيجة الحرب تغلب رومة على كامل الغلية الجنوبية وأضافتها الى المملكة الرومانية ولاجل ضبطها والمحافظة عليها غرست بها مستعمرات جمة من أهلها وتواصلت هذه المستعمرات مع رومة بطريق عسكرى كبير تفرع منه عدة فروع وكانت تعرف هذه الطريق باسم الطريق الفلامنيانى وصارت رومة فى هذا الوقت سيدة جميع ايطاليا من ابتداء السور الاكبر لجبال الالب الى الساحل الجنوبى فى جزيرة سيسيليا ومن البحر الى البحر

وفى أثناء هذه الاعمال كانت قرطاجنة التى كانت خضعت لرومة بالنظر لضرورة أحوالها

واعمالها

وأعمالها ورضيت بظلم وتعديات عدوتها عليها وعلى أملاكها بسبب عدم طاقتها على صدها شارعة فى البحث بكل جهدها وطاقتها على استرجاع ماضاع منها وعلى استعداد من تجديد الحرب على شرط أن تشرع فيه بمجرد استعدادها له ولما زادت وسائل ثروتها وقويت شوكتها ابتدأ حملكار فى سنة ٢٣٩ قبل الميلاد بالتغلب على بحيث جزيرة اسبانيا ولما مات فى سنة ٢٣٨ قبل الميلاد أحيل هذا الشغل على صهره أى زوج ابنته حازدروبال فسار فيه مع البسالة والنباهة وما اكتفى هذان القائدان بدخول اسبانيا تحت الحكم القرطاجنى فقط بل بذلا مجهودهما فى تشييدها الى حالة جعلت لها طاقة على ان تكون حليفة نافعة للقرطاجنيين وبنوا المدائن وأقاموا علاقات المتاجر والمبيوعات وتعليم الوطنيين الفنون الحضرية والصنائع البلدية خصوصا فن الزراعة وتهذبوا فى التعليمات العسكرية واستكشفوا محلات جديدة لاستخراج معادن الفضة منها فحصل منها النفع العظيم والاستغلال الجسيم ومن ثم ازدادت محصولات اسبانيا وصارت على غاية من الوفرة والكثرة وحصل فى المملكة النجاح والفلاح والفوز والصلاح الذى ما كان لها معلومية به من قبل وما كانت محصولاتها وايراداتها على قدر المصاريف اللازمة لاقاليمها وأشغالها فقط بل كان يزيد منها مبالغ وافرة كانت ترسل الى الخزينة القرطاجنية فمن هنا حصل تغييرمهم فى طريقة الاعمال القرطاجنية بمجرد غلاق الحرب الاول القرطاجنى وهو تعيين حملكار لرياسة قيادة الجيش لمدة غير محدودة وتنازلات الحكومة للجيش عن حق انتخابه لنفسه خليفة بدله من بعد موته فقتل فى واقعة مع الوطنيين فى سنة ٢٢٧ قبل الميلاد وخلفه صهره أى زوج ابنته حازدروبال فذبح فى سنة ٢٢٠ قبل الميلاد وانتخب الجيش القرطاجنى لنفسه فى الحال حنبال وهو الابن الاكبر لحملكار خليفة عليهم من بعد حازدروبال والتزمت الحكومة المحلية على تأييد هذا الانتخاب وكان هذا القائد الجديد شابا لم يتم عمره تسعا وعشرين سنة فمع انه كان شابا الا انه كان مقتدرا على الاعمال العسكرية وعلى دراية تامة منها فكانت تعليماته الابتدائية فى الحرب وصحب أباه الى سيسيليا حالما كان صغيرا وشاهد ما حل بهذا البطل الشجاع القائد من الاوجاع والآلام عندما أرغم على قبول صلح بشروط ذليلة مهينة حصل منها غلاق الحرب الاول القرطاجنى ولما بلغ عمره تسع سنوات توجه الى اسبانيا مع أبيه وكان أخذه قبل ذلك أمام محراب آلهة بلاده وحلفه قسما أن يكون كريها لرومة ومبغضا لها مادام على قيد حياته فمن ثم رأى حنبال فى نفسه من تهذيبه وتربيته انه هو الآخذ بثأر بلاده والمنتقم لها من عدوها وكان مستعدا على الدوام لاجراء الاعمال الواجبة عليه فى خدمة وطنه ومع انه قضى القسم الاعظم من حياته بين العساكر الا انه ما حصل السهو والنسيان فى تهذيبه فى العلوم والمعارف فضلا عما كان عليه من الآداب والمعارف المنسوبة للامة الفنيقية فى عصره وكان له دراية تامة باللسان الجريقى وكان خفيف الجسم صلب الاعضاء حسن الهيئة سيافا راكبا للخيل حائزا جميع القوى المشهورة فى التعود على المصاعب والجوع وقلة النوم وميز نفسه فى الجيش وأظهر بسالته وشجاعته فكان يحارب مع أبيه عندما قتل أبوه وقلده صهره وهو زوج أخته قيادة الخيالة فاكتسب بسرعة ثقة الجيش واعتمادهم عليه بما حصل من مهارته وأعماله كانه قائد من القواد وظهرت شجاعته الشخصية وتدبيراته الحربية ولما قتل حازدروبال وجه العساكر وجوههم الى حنبال مع التمييز الغريزى كأنه قائدهم الاصلى وكان أحد النبلاء الكرام كما كان أحد الهبات الممنوحة فى عصره وثبتت له الشوكة التى ساس بها الناس ودبر بها الجيوش حتى كان لايباريه فى

عصره ولا يوازنه فى تدبير اجرآته أحد من مصره و يستدل من تدبيره جيشا مركبا من أمم مختلفة الالسنة واللغات ما حصل فيه أدنى هياج أو ثوران ضده فى وقت من الاوقات الرديئة على كمال جلالة قدره وعلو همته وشأنه وكان عالى الهمة جليل القدر يشرح صدور الامم أينما توجه وأينما حل وكان أول مشروع شرع فيه حنبال هو تشييد السيادة القرطاجنية فى اسبانيا ومرّن جيشه وعلمه الاعمال والمشروعات الكبيرة اللازمة للحرب فى مدة حرب استمر سنتين مع القبائل والعشائر الاسبانية الوطنية وكان له دراية تامة ومعرفة جيدة حقيقية من ضعف قرطاجنة فى الحروب الدفاعية عنها فعزم من أول أمره على الاغارة على رومة فى ممالكها وصدها وحرمانها من الهجوم والغارة على بلاده التى هى أعداؤها ولما جاءت الساعة الموافقة لاعماله ومشروعاته وتيقن من صلاح حالته فيها أهاج حربا اختلقه على رومة وذلك أن مدينة ساغونطوم الجريقية كانت وضعت نفسها تحت حماية رومة فهجم عليها حنبال وتغلب عليها من بعد أن حاصرها ثمانية شهور وأرسل الغنائم التى أخذها منها الى قرطاجنه ووزعت فيها على القرطاجنيين فطلب الرومانيون فى نظير ذلك تسليم حنبال واسترداد ساغونطوم وما ضاع منها فكان جواب قرطاجنه اعلان الحرب على رومة ومن ثم ابتدأ الحرب الثانى القرطاجنى فى سنة ٢١٩ قبل الميلاد

مطلب الحرب الثانى القرطاجنى

وعهدت قرطاجنة زمام رياسة قيادة الجيش فى كل من ناحيتى اسبانيا وافريقه على حنبال كما كانت لابيه وصهره وأحيلت على عهدته المدافعة العمومية عن كل من المملكتين فعزم أولا على توطن الامن فيهما بالاغارة على ايطاليا وكان جيشه خاضعا له منقادا لاوامره ولما كان لا يوجد عنده عمارة بحرية كافية لمقاومة الرومانيين عزم على الغارة على ايطاليا من طريق البر وأخبره أهل الغلية بامكان عبوره من جبال الالب لانهم كرروا العبور منه بانفسهم ولهم دراية تامة بدروبه ومخارجه ومنافذه فصمم حنبال على دخول أراضى العدو من تلك الجهة وترك أخاه حازدروبال فى قيادة عساكر اسبانيا وقرب القربان الى هيرقول الصورى فى مزار جاديس ثم سار من قرطاجنه فى فصل ربيع سنة ٢١٨ قبل الميلاد فى رأس جيش مؤلف من ٩٠٠٠٠ نفس من المشاة و ١٢٠٠٠ من الخيالة وسبعة وثلاثين فيلا وكان ثلثا العساكر من افريقة والباقى من اسبانيا وكلهم من رعايا دولة قرطاجنة وما كان حنبال معولا على حركات فيلته بل ساقها معه لاشياء كانت منظورة له فى المستقبل يجريها على الغليين وعارضه فى أثناء سيره القبائل الاسبانية التى كانت موجودة بين نهر ابره وجبال البرنات وقاوموا حركته فهزمهم وتغلب على أراضيهم ووضع فيها فرقة من العساكر مؤلفة من ١١٠٠٠ نفس لاجل ضبط أهلها ومحافظة البلاد ولما وصل حنبال جبال البرينيس أرجع قطعة من جيشه الى بلاده وهو شغل كان عزم على اجرائه من الاول ليبين للباقى ما هو عليه من ثقة النجاح والفوز وأبقى معه قوة مؤلفة من ٥٠٠٠٠ من المشاة و ٩٠٠٠ من الفرسان واستمر فى سيره بهذه العساكر والفيلة من وسط أراضى الغلية أصحابه حتى وصل الى نهر الرون

وأما الرومانيون فانهم كانوا فى هذا الوقت مشغولين بالاستعدادات اللازمة لمحاربة قرطاجنه ولما صارت العساكر الرومانية على أهبة من السفر الى ما استعدوا له طلبوا التسكين ثورة فى سهل نهر البو فلما عادوا اقتضى الحال ارسالهم الى اسبانيا تحت قيادة القنصل بو بليوس كورنليوس صكيبو لمساعدة محالفى رومة فمر فى أثناء سفره على مسيليا (مرسيليا) وكانت فى محالفة مع رومة فعرف صكيبو منها ان

حنبال موجود على شواطئ نهر الرون فترك السفر الى اسبانيا وتساعد بقبائل الصلطيق القاطنين في الجهة السفلى من نهر الرون وكانوا هم أيضا على صداقة لرومة وشرع في منازعة عدوه وصده من عبوره الى الشاطئ الايمن من هذا النهر الا أن حنبال كان نجح في عبور جيشه من فوق النهر بواسطة رواسس وقوارب جمعها على قدر امكانه من الموجود من قبل وصول صكيبيو اليه وكان عبوره من فوق النهر بالقرب من المدينة الجديدة المسماة أورنجه وعلى مسافة عشرين ميلا من أعلى أفجنون ولما عبر حنبال النهر صار من المستحيل صد الجيش القرطاجني عن الوصول الى جبال الالب وما احتاج جنبال الى الانتظار لوجود للامن الوطنيين يدلونه على الدروب والمعابر اللازم عبور الجبال منها فضلا عن أنه ما كان معتمدا على مثل هذا الشغل فانتخب لنفسه الدرب المعروف بدرب سنت بارنارد ومع انه كان هذا الدرب كثير العلو والطول الا أنه كان أسهل الدروب والبوغازات القديمة القاطعة جبال الالب ويسهل عليه منه نقل مهمات الجيش وذخائره فامتد عبوره وقطعه هذا الدرب خمسة عشر يوما كابد فيها مصاعب وأهوال السير لانه فضلا عن تحمله مشاق الارض وأهوالها الطبيعية حارب هذا القائد القرطاجني في أثناء مروره من الدرب أراضي القبائل والعشائر الموجودة على كراهة وعداوة له ومع مافيه فانه غلب على كل مالاقاه من المصاعب ونزل في سهل نهر البو بنصف القوة التي كانت سارت معه من جبال البرينيس وهي ٢٥٩٠٠ نفس ومع ما كان عليه من الخطا في مشروعه هذا فان عبوره من جبال الالب أثبت له اسم قائد أعظم وضيغم أروغ وتأهل أهل الغلية لانصره بحنبال ورحبوا به وأحلوا مقامه أشبه بكونه مخلصا لهم من ربقة رومة وسنحت لهم فرصة عتقهم من الرومانيين أسيادهم فصرف حنبال مدة قليلة في بلادهم من أجل راحة عساكره ثم سار عازما في سفره الى نهر طشنوس لملتقى الجيش الروماني وكان تجمع لصد زحفه تحت قيادة القنصل صكيبيو فهزم حنبال هذا القنصل على شواطئ ذلك النهر وفي شهر ديسمبر من هذه السنة شتت شمل جيشي القنصلين صكيبيو وطبر يوس صمبر ونيوس وكانت أحيلت على عهدته قيادة جيش صكيبيو لانه كان جرح في الواقعة التي حصلت سابقا وكان هذا التشتت والهزيمة على شواطئ نهر طربية فجعلت هذه النصرة للقائد القرطاجني السيادة على ايطاليا الشمالية وانضم اليه في الحال أهل الغلية الجنوبية وكانوا لحد هذا الوقت في حيادة عنه مراقبين ما يحصل من نتائج الحرب ومع ما حصل له من هذه المظفرات قد ارتبك في أموره وتحير في أشغاله بواسطة ما حصل لعساكره الافريقية والاسبانية من العناء والكرب الذي حل بهم من عدم طاقتهم على شدة برد وصقيع فصل شتاء هذه البلاد

وفي فصل ربيع السنة التالية أي سنة ٢١٧ قبل الميلاد عبر جبال الابنين وسار من المستنقعات الصعبة لنهر الارنو مع السلامة والعافية وزحف بجيشه داخل ايطاليا وسمع بخبر حركة القنصل جايوس فلامينيوس وكان عزم على منازعة عبوره من جبال الابنين فلما خاب القنصل فيما كان يؤمله من صده حنبال انتظره في نواحي مدينة ارطيوم وكان القنصل فلامينيوس خبيثا متفاخرا في نفسه يرى نفسه أنه أعظم من حنبال بكثير فاسرع حنبال في الاجراآت المقتضية لغشه والمراوغة منه وبدل أن يهجم على فلامينيوس سار من خلفه وأخذ في خراب البلاد الموجودة على طريقه وفي هذا الوقت انقرص القنصل بما وقع فيه من العيوب والفضائح التي حصلت له وترك موقعه الحصين وتبع حنبال في سيره ولما تيقن حنبال من أخبار حركة عدوه انتخب لنفسه ميدان محاربة

فى درب ضيق من الجهات بين أسوار جبلين واقفين مقفول من جهة مخرجه بجبل شامخ ومن جهة مدخله ببحيرة طراسيمى فلما أراد فلامينيوس أن يطرده من هذا الموقع كر عليه حنبال وأباد جيشه وما وقع بين الاثنين قتال بل حصل تشتت فقط ثم تتبعه حنبال فمع ما كانت عليه الفرق الرومانية من الشجاعة فان القرطاجنيين أهلكوا الجيش الرومانى وتلف عن آخره وقتل فلامينيوس ضمن القتلى وأسر من الجيش الرومانى نحو من ١٥٠٠٠ نفس وضاعت عطروريه وفتح الطريق الموصل الى رومة فكسر الرومانيون جميع القناطر والكبارى الموجودة على نهر الطيبر وعينوا كنطوس فابيوس مكسيموس مدافعا وحاميا لهم مع قوة كافية لملاقاة ما حل بهم من هذه المصائب التى حاقت بالبلاد ودمرت العباد ومع هذا فان حنبال لم يزحف فى سيره نحو رومة بل حاد عنها وسار نحو أبولية لاجل جمع جيشه وراحة عساكره ورغب فى فصل الامة الايطاليانية من الامة الرومانية بكونه أطلق جميع الاسرى من الامة الايطاليانية الذين أخذهم فى ميدان الحرب وأرسلهم الى بلادهم من غير فداء فكانت مساعيه على غير طائل لان المدائن الايطاليانية غلقت أبوابها فى وجهه وما التحق به واحد منهم فشرع هو كذلك فى مشروعات جليلة فى مدة الشهر الذى مضى بين نصرته الكبيرة وعوده الى أعماله الحربية بكونه أدخل فى جيشه كافة النظامات والترتيبات الجارية حسب المنوال الرومانى وطقم بالاسلحة التى أخذها فى الوقائع عساكره وتم هذا المشروع الصعب مع النجاح الكامل أمام العدو

ولما تقلد فابيوس زمام قيادة الجيش الرومانى أجرى طريقة أعمال حربية مغايرة بالكلية للطريقة التى كان أسلافه جارين على موجبها وصمم على عدم محاربة فى الميدان مع هؤلاء الفاتحين وأمل فى نفسه أن فيه الكفاية التامة فى هلاكهم بطريق القحط والجوع وكان متيقنا فى نفسه أنهم على شرف من فراغ مؤناتهم وما يلزم لهم من العلوفة وتخيل فى فكره ان حنبالا لا يتجاسر على الزحف أو التقدم أو الانتقال من محله الى جهة ما مادام الجيش الرومانى واقفا فى مواجهته ثم استيقظ بعد من غفلته ومما كان تخيل له من الخطا البين فى هذا المشروع بكون القرطاجنيين راوغوه وتركوه ونزلوا فى السهول الخصبة من بلاد كامبانيا ورتب حنبال مواصلات مع مدينة قابوه وكانت أجل مدينة عظيمة من بعد رومة مؤملا أن الكامبانيين ربما ينسلخون من معاهدة رومة ويثورون عليها وينضمون اليه الا أنه لم ينل من ذلك شيأ يعود منه النفع عليه فرضى فى نفسه بتخريب البلاد وجمع الذخائر والمؤنات اللازمة لاحتياج جيشه فى أثناء فصل الشتاء المقبل وفى مدة ما كان حنبال مجريا هذه الاعمال كان الجيش الرومانى تحت قيادة الحاذر على نفسه مجبورا على مشاهدة خراب البلاد من فوق الجبال وما هو حاصل من الفظائع الواقعة من خيالة النوميديانيين فى تدميرهم البلاد بالسيف والنار بسرعة زائدة كل هذا كان جاريا على مرأى من أعين قواد وضباط وعساكر الجيش الرومانى فهاج الجيش هياجا زائدا على فابيوس وطلبوا منه سوقهم فى الحال الى الحرب ولما وطد فابيوس فرصة اشتياق العساكر الى الحرب ورغبتهم فيه سار فى الطريق الموصل الى كاسلنوم وهى مدينة قابوه الجديدة ورتب الخفر اللازم على المرتفعات الحاكمة على هذا الطريق وسكن روع نفسه بكونه قطع خط رجعة عدوه ومن بعد أن عرف حنبال مكر وخدائع فابيوس وما هو عليه من العزم حفظ سلامته منه بتدبيرات أجراها وخدائع سواها فانتظر الى الليل

وارسل

وأرسل عساكره الخفيفة للتسلق فوق المرتفعات وساقوا أمامهم كثيرا من الاثوار والابقار مربوطا فى قرنى كل منها شعلة من نار وطردوا هذه المواشى أمامهم مع السرعة فظن الرومانيون أن عدوهم سائر نحو المرتفعات بمشاعل من نار فأنزل فى الحال فابيوس عساكره التى كان رتبها لحراسة الطريق وضبطها وسار خلف ما كان يظن أنه جيش حنبال وأما حنبال فانه بمجرد ما رأى خلو الطريق من خفرها وحراسها أسرع فى المسير بجيشه من تلك النقطة الخطرة وفى صباح اليوم الثانى جمع عساكره الخفيفة من فوق العلالى وأوقع بالجيش الرومانى خسارة شديدة ثم انسحب الى ابوليا بالذخائر والعلوفات الكافية لجيشه فى مدة فصل الشتاء

ومع ان ادارة فابيوس كانت مشؤمة على الرومانيين وما حصل منها أدنى فائدة بل اتلافات جمة الا أن ذلك ارتفع عن الرومانيين بما حصل من نتائج الاعمال فى فصل الربيع الثانى من سنة ٢١٦ قبل الميلاد وذلك أن الرومانيين جندوا جيشا مؤلفا من ٩٠٫٠٠٠ نفس تحت قيادة القنصلين اميليوس بولوس وطرنطيوس فارو وأرسل هذا الجيش الى ابوليا فهزم حنبال هذا الجيش العريض بالقرب من المدينة الصغيرة المسماة كانيه مع خسارة قدرها من ٤٠٫٠٠٠ الى ٥٠٫٠٠٠ قتيل وكان من ضمن القتلى القنصل أميليوس وثمانون من أرباب مجلس السناتو أى من الاعيان وما بقى من العساكر هرب أو قتل ما عدا شرذمة قليلة كانت تحت قيادة فارو فانهم حفظوا خط رجعتهم وتقهقروا مع الانتظام فكانت هذه الهزيمة أعظم مصيبة على رومة ما كابدت الامامثلها وقعت عليها من قوة قليلة وبها وقع كامل ايطاليا الجنوبية فى قبضة حنبال وسلمت كافة المدائن نفسها ما عدا المستعمرات الرومانية والمدائن الجريقية الموجود فيها محافظو الرومانيين وأما مدينة قابوه فانها فتحت أبوابها وقت اقتراب حنبال منها وصارت محطة عسكرية له قضى فيها فصل الشتاء بجيشه ثم ان فيليب الخامس صاحب مقدونيا وهيرونيموس صاحب سراقوسه من سيسيليا صارا حليفا قرطاجنة وأرغما الرومانيين بتفريق قواهم على مقابلة كل منهما فاغتر حنبال فى هذا الوقت من توطيد نجاحه ومن المحتمل أنه كان يحصل هذا النجاح لو كانت قرطاجنة سارت على حسب شهوات نفسها وعاملت هذا الرجل الذى كان فيه صلاحية وقابلية لهزيمة رومة وكسر شوكتها بمعاملات دنيئة قبيحة

وكان تدبير رومة فى مدة هذه المشاكل الشديدة والاخطار والمصائب التى حاقت بها من العجب العجيب وذلك أنها بذلت مجهودها وما فى طاقة أهلها وجندت جيشا آخر وأرسلته الى ميدان الحرب فى مواجهة حنبال واشتغل كل من مقدونيه وسراقوسه بالاستعدادات اللازمة فى بلادها حتى يكون لكل منهما طاقة على ارسال مساعدات الى حنبال وأما المدائن الجريقية والمستعمرات الرومانية فانه لم يقع فيها روع ولا هلع مثل ما حصل لمدينة كانيه وغلقوا أبوابهم فى وجوه القرطاجنيين وصار من الواضح الجلى أن حنبال صار فى حالة لا يمكنه أن يكتسب منها أدنى فائدة من دون أن يجمع قوى جديدة وكذا تعين قواد جديدة فى قيادة الجيوش الرومانية وتوظف فيها أمهر القواد مثل طبريوس صمبرونيوس غرافشوس ومركوس فاليريوس وكان على الجميع مركوس كلوديوس مرتلوس وكان عالى الهمة صاحب شجاعة وتدبير فى الحروب وفى سنة ٢١٥ قبل الميلاد صار للرومانيين طاقة على هزيمة حنبال تحت أسوار مدينة نولا والزامه على المدافعة عن نفسه وكانت ضعفت شجاعة عساكره من رفاهيتهم فى عيش قابوه وتلذذهم بما كانوا فيه من النعم فى مدة فصل الشتاء السابق فصار لا طاقة لهم على ضرب

الرومانيين والتزم حنبال على كونه يتأمل ويتبصر فى العواقب حتى رأى فى نفسه أنه لايمكنه تيسر الحصول على نجاح فتح ايطاليا الا اذا وردله تقويات كبيرة وأمداد من نواحى افريقه واسبانيا وكان حازدروبال فى اسبانيا كسره صكيبيو على شواطئ نهر ابرة وضايقه مضايقة شديدة حتى ان قرطاجنة أرسلت العساكر والذخائر التى كانت أعدتها المساعدة حنبال الى جهة حازدروبال لان ضبط اسبانيا والمحافظة عليها من أهم الامور عند قرطاجنة

وفى سنة ٢٤٥ قبل الميلاد قتل هيرونيموس صاحب سراقوسة وفى سنة ٢١٢ قبل الميلاد تغلب مرسليوس على سراقوسة من بعد أن حاصرها سنتين وأما حازدروبال فى اسبانيا فانه أشعل حربا شديدا على الاصكيبونيين وهما كنطوس وبوبليوس وكانا مجدين فى اغتصاب بحيث جزيرة اسبانيا من قرطاجنة الا أنهما صارا يأخذان من حازدروبال البلاد شيأ فشيأ وصار على شرف الالزام بالخروج من اسبانيا فانتصر عليهما فى سنة ٢١٢ قبل الميلاد نصرة جليلة وأوقع بهما هزيمة مهولة قتل الاثنان فيها فصار ارسال جايوس كلوديوس نيرو وهو ضابط ماهر الا أنه فاسد الطبع خليفة بدلهما مع قوة امدادية قدرها ١٢٠٠٠ نفس فنجح نيرو فى جمع ما بقى من الجيش الا أنه لم يتيسر له الظفر بخلاص المحالفين لرومة فضلا عن كونه صار على شرف القبض عليه بحازدروبال فى سنة ٢١٠ قبل الميلاد وفى السنة التالية أرسل السناتو بوبليوس صكيبيو ابن القنصل صكيبيو الذى كان قتل فى اسبانيا متقلدا زمام قيادة الجيش فكان هذا الشاب صكيبيو من الطبقة الاولى فى زمرة القواد العظام فأظهر شجاعته وبسالته بوقوع مضايقات شديدة على حازدروبال وأخذ منه عاصمته قرطاجنة وفى سنة ٢٠٨ قبل الميلاد هزم حازدروبال فى ادالوسيه (الاندلس) ثم صدرت الاوامر من قرطاجنة الى حازدروبال فى اسبانيا بالتوجه من الغلية الى ايطاليا لمساعدة حنبال فمن بعد هذه الواقعة الاخيرة ترك حازدروبال اسبانيا تحت قيادة اثنين من قواده وجد فى سيره وحارب فى طريقه الى الساحل الشمالى من اسبانيا بعض العشائر الى أن عبر جبال البرينيس من طرفها الغربى ودخل بلاد الغلية وسار نحو جبال الالب من دون أن يلقى أدنى مقاومة والتحق به الكثير من أهل الغلية فمن ثم كان جيشه آخذا فى الزيادة كلما تجول فى البلاد وعبر جبال الالب من الدرب الذى عبر منه أخوه وفى فصل ربيع سنة ٢٠٧ قبل الميلاد نزل فى سهل نهر البو وما كان أحد منتظرا سرعة وصوله الى ايطاليا بهذه الحالة وكذا ما كان الرومانيون على أهبة استعداد للتلقاه فلو أنه جد فى سيره نحو رومة لتغلب على المدينة وانقضى نحب الحرب الا أنه وجه جيشه لمحاصرة مدينة بلاسنطيه ووقعت اجرا آته وأعماله الاخيرة فى يد القنصل نيرو

وفى غضون هذه المدة ابتدأ حنبال فى الحركة نحو الجهة الشمالية حالما سمع أن أخاه مر من جبال الالب وذلك من بعد أن صرف المدة من ابتداء واقعة كانيه فى اتمام فتوح ايطاليا الجنوبية فتبعه القنصل نيرو على قرب منه بجيش مقداره ٤٠٠٠٠ نفس لكن يظهر أن القائد القرطاجنى ما كان عنده أدنى تزعزع فى حركته من هذه القوة لانه كان يراوغها بأحد أجنحة جيشه عندما يرى الموافقة فى ذلك ولما وصل حنبال الى مدينة قانوصيوم وقف بجيشه ينتظر افادة من أخيه يعلمه فيها بطريق اتصال قوتيهما فانضبط هذا المكتوب بنقط الحرس الخارجة الرومانية وسلموه للقنصل نيرو فكان فى هذا المكتوب أن حازدروبال عازما على الحركة الى الجهة الجنوبية من طريق فلامينيوس وان مدينة

نارنيه هى النقطة التى يتعشم فيها الحاقه بحنبال فأرسل القنصل نيرو فى الحال قوة قدرها ٨٠٠٠ نفس من العساكر الرومانية الى نارنيه لاجل المحافظة عليها وأخذ قوة قدرها ٧٠٠٠ نفس من عساكره المتدربة وترك معسكره وأسرع الى سنه غاليقه وكان فيها القنصل الآخر مركوس ليوفيوس منتظرا زحف حازدروبال وصار القنصلان سويه نحو حازدروبال فوجداه عبر من نهر المطوروس فالزماه المحاربة ومن بعد أن وقع بينهم واقعة شديدة هزماه وتبدد الجيش القرطاجنى ورغب حازدروبال فى استرداد ماضاع منه فى الهزيمة ففرق فى صفوف الرومانيين ومات موتة شجعان العسكرية ثم بعد هذا جد نيرو فى سيره عائدا الى قانوصيوم فوجد فيها حنبال لم يزل ينتظر اورود الافادة من أخيه وكان على غاية من التلهف والشوق لها اومضى على ذلك أسبوعان من ابتداء تعسكر العسكر فى هذه الجهة ولم ترد أخبار من جهة حازدروبال فأتى القنصل نيرو بالافادة معه وهى رأس حازدروبال مضمخة بالدماء وأمر برميها فى معسكر حنبال مكافأة من طبيعته البربرية القبيحة اسخاوة وكرم الشجاع القرطاجنى جزاءله على فعله الجليل الذى أجراه من الاحتفال العظيم بجنازة كل من بولوس غراقشوس ومرثلوس حال دفنهم فما ظهر لحنبال من حقيقة هذه الرسالة فقدان كل شئ فى الجيش فترك معسكره وتقهقر الى أراضى البروطيانيين وفى جبالها القاصية أمكنه البقاء على موقعه فى البحث جزيرة ومن مينها يمكنه الانسحاب من تلك البلاد ومكث ثلاث سنوات ضابطا هذا الموقع الا أن الوقائع الحربية كانت بغير ثمرة بالكلية

وفى هذا الوقت أصلح صكيبو ما كان حصل منه من الخطا فى كونه مكن حازدروبال من تركه اسبانيا بواسطة تغلبه على مملكة اسبانيا وفى سنة ٢٠٤ قبل الميلاد عزم صكيبو على الغارة على أراضى مملكة قرطاجنه فأقلع من ايطاليا الى افريقة فى رأس ٣٠،٠٠٠ نفس و ٤٠ سفينة حربية و ٤٠٠ سفينة نقالى وما قابل أحدا فى أثناء سفره هذا ونزل على البر بالقرب من أوطيقه فوجد القرطاجنيين متساعدين بقوة قدرها ٥،٠٠٠ من المشاة الليبيانيين و ١٠،٠٠٠ من الخيالة تحت قيادة صفاقس ملك وطنى من ملوك أفريقه فانجبر صكيبو على أن يكون منحازا على الدوام لجهة الساحل وفى السنة التالية أى سنة ٢٠٣ قبل الميلاد أغار على معسكر القرطاجنيين وهزم جيشهم ومن بعد مضى بضع أسابيع وردلقرطاجنة قوة من مقدونيا وعساكر من اسبانيا فهزمهم صكيبو أيضا ثم من بعد ما كان للقرطاجنيين طاقة يبرزون بها الى ميدان الحرب بعد هاتين الكسرتين فطلبوا حنبال من ايطاليا من أجل خلاص قرطاجنة فما حصل منه أدنى تذمر أوذم لحكومته بل عاد حنبال الى قرطاجنة واجتهد فى أداء الاشغال التى تحولت على عهدته فجمع جيشا والتقى مع صكيبو فى نواحى مدينة الزامه فى فصل ربيع سنة ٢٠٢ قبل الميلاد فوجد صكيبو خصما شجاعا زيادة عن جميع من وجدهم من القواد ومع ما كان عليه حنبال من جودة التدبير فى الحروب والوقائع وشجاعة عساكره المتدربة فانه انهزم شر هزيمة وتبدد جيشه وهرب هو مع شرذمة من رجاله الى حضرميطوم أو حضرموت الغرب وصارت قرطاجنة تحت رحمة رومة وعقدت معها صلحا فى سنة ٢٠١ قبل الميلاد وسلمت قرطاجنة الى رومة جميع أراضيها الخارجة عن حدود أفريقه وردت كافة الاراضى التى كانت أخذتها من نوميديا وصار ملكها مسنيسيا حليفا جليل القدر مع صكيبو فى الحرب الاخير وسلمت أيضا أسطولها وفيلتها الى الرومانيين واتفقت أن تدفع خراجا سنويا قيمته

٢٠٠ وزنة وعهدت على نفسها بأنها لاتداخل فى أى حرب من دون رضا رومة وبالجملة فان قرطاجنة ضيعت حريتها واستقلالها وصارت ايالة خراجية لرومة ولما عاد صكيبيو الى رومة قابله أهلها بالحماس والحمية وأكرموه وعاملوه موكبا جليلا ما رأت المدينة مثله قبل ولقبوه بلقب افريقانوس تذكار الفتحه افريقه

ومن نتائج ما حصل من المظفرات لرومة فى الحرب القرطاجنى الثانى لم تخلص رومة فقط من طريق وسكة عدوتها المهولة قرطاجنة بل نالت تمام السيادة وحازت كمال السعادة فى الجهات الغربية من البحر الابيض المتوسط وقامت الحماية الرومانية على القبائل الوطنية الافريقية وأضافت استقلالية مملكة سراقوسة الى الايالات الرومانية فى سيسليا وأضافت القسم الاصلى من اسبانيا أيضا الى المملكة الرومانية وأخذت ثروة الجمهورية فى الزيادة الوافرة وعاقبت الممالك العاصية من جنوب ايطاليا بأشد العقاب وكانت كافة الاجناس من وطنى ايطاليا على غاية من الكدر والضيق ما عدا الجنس اللاتينى وتشيدت الحكومة اللاتينية على كامل البحيث جزيرة واستمر الحرب مع أهل الغلية الموجودين فى جنوب جبال الالب من بعد هزيمة قرطاجنة فى سنة ١٩١ قبل الميلاد حتى خضع كافة أهل ايطاليا وصاروا جميعا لاتينيين مع السهولة حتى هذا الجنس الغليق

وحالما كانت رومة مشتغلة بحربها مع أهل غلية جنوب الالب كانت مشتبكة أيضا فى حربها الثانى مع فيليب الخامس صاحب مقدونيا وقد ذكرنا سرد وقائع هذا الحرب ونتائجه فى تاريخ الجريس فى هذه المدة وكان انتهاء الحرب فى سنة ١٩٧ قبل الميلاد وجاء عقب هذا سعى وعزم أنطيخوس الاكبر صاحب سوريا فى ضم مقدونيا واسيا الصغرى الى ممالكه وقد ذكرنا هذا الحرب والمظفرات التى بها طرد الرومانيون أنطيخوس من مقدونيا واسيا الصغرى وجلبوا كلا من المدينتين تحت أقدامهم نظير ما حصل لهما من مرحمتهم من طرد أنطيخوس عنهم فقد ذكرناه جميعه فى تواريخ الجريق والسوريانيين فى هذه المدة وما نالت رومة بهذه المظفرات شبرا واحدا من تلك الاراضى لنفسها بل أعطت كل ما تغلبت عليه وكل ما استلمته من الاراضى الى كل من محالفيها برجاموس ورودس ودبرت لنفسها سياسة عظيمة أظهرتها العموم الامم الشرقية حصل منها النفع لحلفائها ومحبيها وصار لهم دولة وصولة وانتشرت شوكتها وعظمت سيادتها واشتهر اسمها فى كافة الجهات طولا وعرضا وكان ما حصل لها من هذه النتائج أحسن لها بكثير من استحواذها على الاراضى وفى أثناء هذه المدة أنشبت رومة أربعة حروب أخرى فى نواحى أوروبا الغربية وما كان تم خضوع بحيث جزيرة اسبانيا لانه نشأ من مقاومة أهل لوسيطانيا (البرتغال) وشجاعتهم استمرار الجيش الرومانى فى الاشتغال بالاعمال الحربية وكانت الحروب أيضا مستمرة مع القبائل الجبلية فى ليغوريا ومع سردينية وقورسيقه فأما سردينيه فان صمبرونيوس غراقشوس تغلب عليها فى نحو سنة ١٧٦ قبل الميلاد وأرسل كثيرا من أسراها الى رومة لبيعهم فى سوق الرقيق وترادفت حالة السردانيين فى المبيع حتى وصلوا الى أبخس الاثمان وكانت نتائج الحروب الاخيرة فى الجريس فتح مقدونيا وابطال الاتحاد الاخائى وقد ذكرنا كلامنا على ذلك فيما سبق وليس هنا فى الاعادة افادة وبواسطة ما حصل من الهزيمة الاخيرة للجيش المقدونى فى نواحى مدينة بيدنه اتضح جليا للعالم الدنيا أن الجيش الرومانى لا يقاومه جيش ولا يضارعه أحد وأن المحاربة معه لا فائدة فيها ومن ثم صارت رومة سيدة الدنيا ومدت صولتها وسيادتها على مصر واسيا

بتقلدها

بتقلدها زمام حماية المملكة المصرية وصار لاجسارة لواحدة من الامم المتمدنة على مضارعتها او مقاومة أحكامها وأعمالها وكانت رومة على يقظة تامة من شوكتها ونفوذها الا أنها ما كانت على وفاء من ذلك ومضى عليها ثمانية عشر سنة من دون حصول حروب بل بعض حروب صغيرة غير مهمة مع عشائر الالبيين والاسبانيين وشرع مجلس السناتو فى اجراء ما تقرر عنده من المطلب الاكبر وهو ترتيب المملكة الرومانية والدنيا المتمدنة تحت درجة واحدة وميثاق واحد فكان أول مشروع فى هذا العمل هو الاتفاق فى مجلس السناتو على خراب مدينة قرطاجنة ومحو أهلها من الدنيا ومع انها خضعت وضعفت قوتها وانعدمت شوكتها الا أنها لم تزل العدو الالد لرومة وأما قرطاجنة فانها ما كانت على وفاء تام من الصلح الذى كانت أجرته مع رومة فانها كانت على حصول أدنى سبب زهيد مستعدة لتجديد الحرب على قرطاجنة وصممت على اختلاق علة توجب بها هياج الحرب عليها الا أن قرطاجنة كانت صرفت كل شئ يعود منه النفع عليها فى عقد الصلح فصار يصعب عليها البروز الى ميدان الحرب على أن بروزها للميدان من دون سبب مرضى غير مقبول وكانت الكراهة والعداوة والبغضاء الحاصلة عند رومة من جهة قرطاجنة مشحونة جميعها فى صدر كاطو الفظ الغليظ الحاكم الرومانى فكان كلما طلب منه صوت فى المجلس مختص بحالة قرطاجنة يعطى جوابا وصوتا لا يتغير أبدا ويقول انا أقول انه لا يجب أن تكون قرطاجنة فى عالم الدنيا فأخذت رومة جوابه وصوته هذا علة للحرب وأصدر مجلس السناتو أمر الاهل قرطاجنة بهدم مدينتهم ونقلها الى جهة بعيدة من البحر بقدر عشرة أميال فلما قرأ القرطاجنيون منشور الرومانيين ما قبلوا طبعا هذا الطلب المشتمل على هلاك هذه الملة فى رضا خاطرهم فأعلنت رومة فى الحال بالحرب على قرطاجنة فى سنة ١٤٩ قبل الميلاد ومن ثم كان ابتداء الحرب الثالث القرطاجنى

ثم استمر القرطاجنيون فى هذا الحرب المعدوم العدل والانصاف مدة أربع سنوات يحاربون فيها مع اليأس وقطع الامل وما كان عندهم فكر يؤملون به أسباب النجاح وما كان عندهم سفن ولا أسلحة لان مجلس السناتو دهمهم بأمره هذا من بعد أن استلم القواد الرومانيون فى افريقية الاسلحة والطقوم الحربية التى كانت كافية الى ٢٠٠٠٠٠ مقاتل وأخذوها على اعتقاد الصلح والسلم وما كان لهم من مخالفين ومع هذا كله فانهم صاروا على غيرة وحمية وشرعت هذه الامة الباسلة فى اجراء الاستعدادات اللازمة لزوال ما هى عليه من الضعف والخسة فعملوا المنجنيقات اللازمة لحفظ الاسوار والاسلحة والدروع اللازمة لتطقيم العساكر وهدموا مبانيهم العمومية وأخذوا منها أصناف الاخشاب والمعادن اللازمة للاعمال واشتغل كافة أرباب الطوائف والحرف والصناعات رجالا ونساء وشبانا ليلا ونهارا فى تكميل آلات الحرب وما يلزم لاستعداد العساكر ومحافظة المدينة وقطع النساء شعورهن الطريفة الطويلة وأعطينها للحبالين لاجل فتلها حبالا للمنجنيقات وفى ظرف مدة قليلة تسلحت الاسوار ومدافعها مرة أخرى وكانت كافة هذه الاشغال جارية وقت ما كان الجيش الرومانى معسكرا فى أوطيقة نحن هنا نعلم أن هذه الاشغال كانت جارية على علم من العدو وعلى مرأى منه أى تحت نظره وأخيرا زحف الرومانيون معتمدين على أن المدينة لا مدافعة فيها فاندهلوا وأخذهم الاستغراب لما رأوا الاسوار متسلحة مرصوصا عليها صفوف المدافعين مستعدين للمدافعة الى الموت ولما وجد الرومانيون أن لا طاقة لهم بالهجوم على المدينة عنوة حاصروها برا وبحرا وفى السنة الثالثة

مثل هذا الخائن الذى لا عهد عنده ولا ميثاق له فكان من ضمن الذين نجوا بأنفسهم من خديعة جلبار رجل اسمه فيرياطوس أصله من فقراء الناس الا انه كان على غاية من الجسارة والبسالة فاختاره أهل بلاده قائدا لهم وأخذت شجاعته وجراءته بقلوبهم وكذا بساطته واقتصاد حاله وتواضع سيره وكثرة سخائه وكرمه لاهل بلاده فهيج حميتهم وقوم غيرتهم واعترفوا له عموما بأن يكون عليهم ملكا وشهدوا له فى ذلك الوقت انه أحد الفرسان العميرية فهزم الجيش الرومانى فى سبع وقائع كبيرة وأرغم فى الواقعة الاخيرة من هذه الوقائع القائد الرومانى صرفليانوس بالتسليم مع كامل جيشه وفى نصرته هذه ظهر منه الكرم العظيم والسماح الكريم وعقد صلحا مع القائد الرومانى تقرر فيه ان كافة الملة أو الامة اللوسيطانية (البرتغالية) تكون سلطنة مستقلة بنفسها وان فيرياطوس هو الملك على هذه الامة وعهد الرومانيون على أنفسهم احترام مملكة فيرياطوس ورضى فيرياطوس أن يكون على صداقة تامة ومحالفة قوية لرومة وصدق مجلس السناتو على شروط هذه المعاهدة مع العزم فى المستقبل على نكثها ونقضها ولما وجد الرومانيون أول علة فى نقضها شرعوا فى تجديد الحرب على الملك فيرياطوس فأرسل رسلا يثق بهم من طرفه الى رومة من أجل المكالمة فى نقض المعاهدة بينهم وتقديم شروط صلح جديد فرشى القنصل المبعوثين لقتل رئيسهم وقتل الشجاع اللوسيطانى وهو نائم فى فراشه بواسطة من كان معتمدا عليهم من أعز أصدقائه واحتفل الجيش اللوسيطانى احتفالا جليلا بجنازة ملكه ثم توجه الجيش الى الحرب الا أنه فى ظرف سنة انهزم هزيمة فاصلة وانجبر على التسليم وصارت لوسيطانية ايالة رومانية الاان الحرب مازال جاريا فى مدينة نومنطية من شمال اسبانيا فكان الرومانيون يتممون اجتهادات ومظفرات جيوشهم بالعادة القبيحة الحاصلة من غدر وخيانة قوادهم واستمر الحرب ست سنوات مشتعلا فى مدينة نومنطية وأخيرا أنهاه صكيبو عمليانوس بشدة المضايقة والحصار على المدينة حتى فشا الجوع والقحط فى أهلها وصارت المدينة على شرف التسليم والخضوع ولما آلت حالة النومنطيين الى اليأس وقطع الامل طلبوا المتاركة من الرومانيين لمضى بضع أيام على قصد أن الذين يرجحون الموت على التسليم يمكنهم أن يتطروا لهم شيأ فى انقراض حياتهم فقتل الكثير من أهل المدينة أنفسهم وخضع الباقى وسلموا مدينتهم فانتخب صكيبو منهم خمسين نفسا من أجل كبرائهم الذين بقوا على قيد الحياة زين بهم موكبه وباع الباقى فى أسواق الرقيق ثم هدمت المدينة وساوت الارض ووزعت أراضيها على الشعوب والقبائل المجاورة لها وصارت كامل بحيث جزيرة اسبانيا فى يد الرومانيين ماعدا الساحل الشمالى فقسموها الى ثلاث ايالات العالية والسافلة والوسطانية ومع ان الجبال اللوسيطانية استمرت سنين طويلة مكدرة أحوالها بعناصر اللصوص وقطاع الطرق ولزمت ضرورة الاحوال ببناء منازل الفلاحة فى هذه الجهات كمعاقل وطوابى للمدافعة والحماية على قدر الحاجة الا أن اسبانيا أصبحت رعية يانعة مزهرة عظيمة الانتظام تحت أحكام رومة وقوانينها وكثر أهلها وسكانها وأصبحت البلاد أهل أموال وثروة من المواشى والانعام والحبوب

وفى هذا الوقت استحوذ الرومانيون على مملكة برجاموس بوصية عطالوس الثالث آخر ملوكها مع أنه حصل فى هذه الوصية منازعة من أريسطونيقوس الا أنه صار اخماد هذه المنازعة كما ذكرنا فى تاريخ مملكة برجاموس وانتظمت أحوال برجاموس وصارت ايالة رومانية فى آسيا وفصلت رومة منها

فريجيا الكبرى ومنحت لمتريداطيس الرابع صاحب بونطوس مكافأة له على ما أداه من خدماته الجليلة لرومة فى مساعدته فى الحرب على اريسطونيقوس ومن ثم نالت رومة القسم الاعظم من آسيا الصغرى وفى نحو منتصف هذا القرن وصلت رومة الى حالة قلت فيها حروبها البرانية جدا حتى صارت غير مهمة واحتاجت أحوالها الداخلية الى كامل التفاتها اليها وذلك أنه تسلطن فى رومة ارتباك حالة الفقر القديم وعمت الفاقة على معظم الامة مرة أخرى وصارت المملكة على خطر شديد بزيادة عما حصل قبل وفى مدد الحروب الطويلة التى انقضت بين غلاق الحرب السامينى الثانى وبين الاستعمار الاخير فى ايطاليا الشمالية أى من سنة ٣٠٣ الى سنة ١٧٧ قبل الميلاد تولد من تكرار الوقائع والحروب أن صار عشر الاهالى هم المتيسر لهم الحصول على معايشهم وماسهم سوء الفقر والفاقة العمومية وفى تاريخ هذه السنة الاخيرة أى سنة ١٧٧ قبل الميلاد وقفت هذه الحروب التى تسبب منها خراب البلاد وفقر العباد وأخذت أهل رومة فى سرعة الزيادة حتى وصل تعداد الذكور الراشدين فى سنة ١٧٣ قبل الميلاد فى نفس مدينة رومة الى ٢٦٩٠١٥ نفس وفى سنة ١٣٦ قبل الميلاد زاد هذا العدد حتى وصل الى ٣٢٠٠٠٠ نفس وفى سنة ١٢٥ وصل الى مقدار ٣٩٠٧٣٦ نفس وفى سنة ١١٤ قبل الميلاد وصل الى ٣٩٤٣٣٦ نفس وكانت النتيجة حصول ازدحام بسوق الشغالين فى رومة ازدحاما كبيرا وما صار ارسال مستعمرات جديدة من المدينة الى الجهات البرانية من سنة ١٧٧ قبل الميلاد وكذا ما وردت أسلاب وغنائم من الجهات الحاصل التغلب عليها حتى لم يبق شئ يمكن توزيعه على فقراء المدينة وأراملها وكذا كان كامل أراضى ايطاليا وزعت على أناس أعطيت لهم وفتحت رومة جميع الامم المجاورة لها فاذا لا يوجد الآن أدنى اسعاف ينتظر وصوله من جهة من الجهات وتولد من زيادة الاهالى غزارة الفقر والفاقة وصار لا مراعاة ولا اعتبار بالقوانين الليسينيانية القاضية باستخدام الناس من الشغالين الاحرار عند أرباب الاراضى والفلاحات أو عند المحبوس عليهم مقادير من الاراضى الواسعة حتى كان يصير استخدام الكثير من الناس عندهم لينقذوهم من مادة الفقر وأخذ الاغنياء والمتمولون كافة أراضى الدومين العمومية وصارت كافة هذه الاراضى محبوسة تحت أيدى طائفة قليلة من الناس جارية فلاحتها وزراعتها لهم بواسطة شغالين من الرقيق بأرخص أجرة وأقل كلفة عليهم فما تقدم جميعه أخذ تيسر الحصول على المعيشة فى رومة فى الضيق يوما فيوما وكانت طرق نوال الثروة فيها محصورة فى الاقامة على الزراعة فى الاراضى العمومية على منوال كبير ومكسب جسيم من جمع محصول أو حكم اقليم وكانت هذه المنابع والعيون الجالبة للثروة محصور حكمها المطلق فى طائفة القناصل والحكام وكان هؤلاء الحكام من طائفة الاغنياء المستولين على هذه الاراضى فمن هذا كان كلما أخذ الغنى فى الغنية والثروة أخذ بعشله الفقير فى النفر والفاقة ومن ترخيص القانون بالعتق واطلاق الحرية انتهى الامتياز بين الطائفتين الكبيرتين فى المملكة وصار الكثير من بيوت العوام أشرافا بواسطة رفعة أعضائها فى أعلى الوظائف من الخدمات العمومية للمملكة الآن عدد هؤلاء كان قليلا جدا كما انهم رأوا منافعهم الجديدة مقرونة بمنافع طائفة الاشراف فوعاز يادة عن مقارنتها بمنافع الطائفة التى تولدون منها وجمعتهم ببعضهم الارتباطات المشتركة بينهم من أجل الثروة وكسب الغنية والشوكة فى المستقبل فى جامعة واحدة هذا ومن جهة أخرى قد صارت الاسواق غاصة بالرقيق المجلوب من الجهات الجارى التغلب عليها من طرف الرومانيين فكانت تشترى

الانفس بأرخص الاثمان فمن ثم انجبر الاحرار من الشغالين على السؤال والشحاذة وزادت الحالة وحلا على وحلها بسبب ان أصحاب الاصوات اعتادوا على أخذ الرشوة بصفة هدايا من النقود أو بواسطة توزيع غلال وحبوب أو ملاه عظيمة وأفراح جليلة يجتمعون فيها بمصاريف من طرف الذين جرى انتخابهم للمجالس أو في وظائف من وظائف أشغال المملكة فتولد من هذه الطريقة الفاسدة للاحكام والادارات أن صارت الاهالي على استعداد لاى أمر يحصل من قائد ثورة يعدهم بخلاصهم من هذه المضار والاشرار والاعمال القبيحة التي حلت بهم جميعا وكذا كان من الواضح الجلي أن ميل العساكر متجه مع أهل المدينة المصابين بهذه الآفات والبليات من الفقر والفاقة التي عم ضررها بهم زيادة عن ميلهم نحو الحكومة حتى لو قامت الامة في ثورة واحدة أو متقطعة لا تصطف العساكر أمامهم ولا تتداخل فيهم وتسبب من شدة ما هو حائق بالاهالي من الجوع والفقر توجه آمالهم ومقاصدهم للعصيان والثورة وكان لهم بعض مخالفين مستعدين للقيام معهم والانضمام اليهم وهم جماهير الرقيق الجاري معاملتهم بالمعاملات الوحشية حتى صاروا في حالة مستعدة لقيام ثورة يكونون في أولها أو أمامها وعرف بعض القواد العقلاء من الرومانيين مبادي هذه الاخطار وغض الكثير من طائفة الاشراف الطرف عنها والتفتوا لما يعود منه النفع على أنفسهم وصرفوا النظر عن مشترى الادوية اللازمة لشفاء هذه البلايا والمصائب وكشفها عن الذين حلت بهم وابتدئ في مثل هذا المشروع بانذارات وانباآت بالخطر المهدد لرومة وكانت هذه الانذارات مبادي الحرب المعروف بالحرب الرقى الاول وكان حصول هياجه في نواحي جزيرة سيسيليا في سنة ١٣٤ قبل الميلاد فاستمر هذا الحرب جاريا مدة سنتين وذلك ان ٢٠٠٠٠٠ من الرقيق يئسوا مما حل بهم من سوء المعاملة الواقعة عليهم من أسيادهم وقاموا في ثورة واحدة ودهموا جزيرة سيسيليا الجميلة بما أجروه فيها من السلب والنهب والخراب والبطش بأسيادهم وكانت ثورتهم صعبة الاخماد حتى انه ترا آى أن لا بد من انتشارها في يوم ما حتى تصل الى الارض الاصلية من ايطاليا وهاجت ثورة الرقيق في عدة جهات وعلى الخصوص في منطورني وسنويسه الا أن هذه صار اخمادها في الحال

وكان من الذين لهم دراية تامة بوجود المضار والمصائب الحائقة بالامة وتدارك الدواء اللازم لكشفها مع الشدة والعزم عضو من أحد البيوت العالية من بيوت العوام اسمه طبريوس صمبرونيوس غراقشوس حفيد صكيبيو افريقانوس وحاكم من حكام الامة فعرض في سنة ١٣٣ قبل الميلاد عدة لوائح وقوانين لمداركة كشف هذه المصائب من بين أهالي التبعة الرومانية واصلاح الحالة العمومية في ايطاليا باستبدال الرقيق في زراعة الاراضي بالاحرار وبهذا تتيسر أسباب المعيشة لكثير من طوائف الفقراء من أحرار الناس فكان الذى عرضه هو أولا — احياء القوانين الليصينيانية المتروكة من مدة طويلة وتحديد مقدار الاراضي المحبوسة تحت يد أى شخص بطريق القانون الى ٥٠٠ يوجيره مع مادة ترخص له أن يضيف ٢٥٠ يوجيره لكل ولد بالغ أو مراهق غير معتوق ثانيا — ترتيب مجلس دائمي مؤلف من ثلاثة أعضاء لاجل تنفيذ أحكام هذا القانون ثالثا — توزيع أراضي المملكة بين فقراء التبعة وقت ما يصير خلاصها من المستحوذين عليها الغاصبين لها ولا يكون عندهم الا المقرر في البند الاول من القانون رابعا — يجرى مكافأة أرباب الاراضي الواسعة نظير ما يؤخذ منهم من الزائد عن الخمسمائة يوجيره ونظير الاصلاحات التي أجروها في الارض بأن يكونوا مطلقي التصرف في الخمسمائة

بوجبها التي رسمت لهم خامسا - متى حصل العمل على موجب بنود هذه اللائحة فانها الاتباع ولا
ترهن ومن الواضح الذي لاريب فيه ان غراقشوس كان مسلطا من طرف بعض الاشراف أهل الشفقة
والرأفة على الفقراء في كونه يعرض هذه الاعمال ومع هذا صار رفضها بشدة وعنف وهددوا مخترعها
وتوعدوه مع الحنق الزائد لانه بالنسبة لعدم مراعاة القوانين الليصينيانية وترك السير على موجبها استحوذ
الجم الغفير من الاشراف والاغنياء المتمولين من الايطاليانيين على مقادير وافرة من الاراضي الواسعة
خارجة عن الحدود المقررة في البند المعروض وكانت هذه الاراضي في حوزة عائلات من
الاغنياء والمتمولين من مدة سنين مضت وصرفوا عليها مصاريف جمة في ابتناء أبنية فوقها فأخذ هذه
الاملاك ونقلها لآخرين ليجعلهم مطلقي التصرف فيها ويحرم منها أربابها السابقين خصلت المعارضة في
هذه اللوائح والقوانين بواسطة أوقطافيوس وكان حاكما مثل غراقشوس أى قرينه في الحكم ولما
صار عرضها على جمعية العشائر والشعوب صار منع أوقطافيوس من الكلام وعدم الدخول في مثل
هذه المواد ومن شدة ما حصل من المناقضات وعدم القبول فقد غراقشوس حواسه وتوسل بالامة في
خلع أوقطافيوس الذي هو سبب في عدم تمشية هذه اللوائح فصدق الامة على هذه القوانين ولزوم
الاجراء على موجبها ورتب مجلس مؤلف من ثلاثة أعضاء وهم غراقشوس وأخوه جايوس وحموه أبيوس
كلوديوس بشأن تنفيذ هذه القوانين وحصل الشروع في حصر الاراضي العمومية واستردادها من
المستحوذين عليها وتوزيعها على حسب نص بنود القانون وكانت هذه الحالة من أصعب الاعمال التي
اخترعها غراقشوس وتولد له من هذه المادة البغضاء والعداوة التي تمكنت في قلوب طائفة الاشراف بل
أعلنوا صراحة بأنهم ما دام لا طاقة لهم على عدم تمشية هذا القانون فان مخترعه لا يسلم ولا ينجو من
بطشهم وانتقامهم منه وألح الامة على غراقشوس وطلبوا منه أعمالا يتولد من اجرائها العصيان وذلك
أن الرومانيين في الحالة الراهنة صاروا أسياد مملكة برجاموس ووصلت هذه المملكة الى أيديهم بكنوزها
وأموالها الواسعة فعرض غراقشوس لمجلس الامة أنه يجب توزيع الاموال البرجامونية على الذين
استلموا أراضي من أجل معيشتهم حتى يكون عندهم رؤس أموال يدخرونها لما يلزم لاراضيهم من عدد
وآلات زراعة ومواش وبنى طلبه هذا على أن أهل مدينة رومة لها الحق في فصل وبت حكم تفريق
وتوزيع النقود التي تأتي لرومة بأى حالة من الاحوال وقيل انه عرض أيضا بخصوص تقليل مدة
الخدمات العسكرية وأن ينزع من أعضاء مجلس السناتو حق اختصاصهم بالمجلس بل يكونون أعضاء
كذلك في المحكمة المدنية وقبول الرعايا الايطاليانية ضمن تبعة مدينة رومة والمدائن الاخر الرومانية فنشأ
من هذه الطلبات ارتباكات ومشاكل زائدة شديدة ولما حصل انتخاب الحكام في السنة التي جاءت بعد
اشتد الغضب عند طائفة الاشراف وبذلوا كل ما في وسعهم في عدم انتخاب غراقشوس ولما رأوا أن ذلك
لا يمكنهم الحصول عليه نهض أرباب مجلس السناتو تحت امرة بوبليوس صكيبوناسيا وهجموا على
غراقشوس ورفقائه في ديوان مجلس السناتو وذبحوا غراقشوس على درج سلم الكابيتول حالما كان
مجتهدا في الهرب للنجاة بنفسه وقتلوا أيضا معه ثلثمائة من رفقائه الذين كانوا معضدين له ولم ترخص
أعداؤه المتوحشون في أخذ أجسامهم ودفنها بل رموها في نهر الطيبر

وفرحت هذه المذبحة عن الاشراف وأطفأت ما كان في قلوبهم من لهب نار الغضب وزالت عنهم
الكروب والخطوب فارتاع العوام وتأثروا جدا من حالة هذا الموت الذي حصل جهرة لاحد حكامهم من

أجل المدافعة عن حقوقهم ولما حصل من الاشراف الجسارة فى مثل هذه الحالة القطيعة التى لم يقع نظيرها قبل عزم الامة على أنه لابد من تمشية الاصلاح على موجب قانون غراقشوس ولما رأى الحزب الموجود فى مجلس السناتو وكان له رغبة فى تمشية هذه الاصلاحات ما هو حاصل من النفور والارتباك حض المجلس على تمشية هذا القانون فاصدر المجلس أخيرا أمره باجراء توزيع الاراضى على نص ما جاء به غراقشوس المقتول بشأن العدل والانصاف وفى سنة ١٢٩ قبل الميلاد رأى صكيبوا مليانوس وكان أول رجل له دراية وخبرة بالاصلاحات وكان أخا صلاقا للامة أن اجراآت جمعية توزيع الاراضى خارجة عن حقيقة المقصد من القانون وأنه يتولد منها فتن جديدة فعرض لائحة تتضمن نزع توزيع الاراضى من أيدى هذه الجمعية وتعهد اجراآت التوزيع الى القناصل فضيع حياته فى اجتهاده وسعيه فى حفظ طرق الاصلاحات ووجد قتيلا على فراشه فى صباح اليوم الذى صار تخصيصه لخطبة يخطبها أمام مجلس السناتو يوضح فيها حقوق اللاتينين فى مسئلة توزيع الاراضى وكان قتله من دون ريب من طرف حزب غراقشوس وعلى قدر ما كان هذا الحزب على غش وخداع من جهة صكيبوا ملياناوس كان هو بعكسه صديقا له زيادة عن عداوة هذا الحزب له وحصلت المعارضة لحزب الامة فى الفحص عن مادة الجريمة ولما رأى الاشراف أنهم فقدوا عدوا لا صديقا صار لا رغبة لهم فى اخذ هذه المادة فتولد منها خسارات جسيمة لرومة وكان صكيبوا ملياناوس أول رجل سياسى وأول قائد عسكرى فى عصره وأول واحد من الطاهرين أهل العفة خالى الاغراض والشبهات ما حازت الجمهورية شخصا مثله قبل ثم قرر مجلس السناتو بالنسبة لما هو حاصل عند أهل المدينة من الحزن العام من أجل قتل صكيبو توقيف أعمال القانون الحاصل من أجله هذه المنازعات والمذابح ومع هذا فانه ما حصل من توقيف أعماله فائدة بما أن كافة الاراضى كان صار توزيعها تقريبا

ثم انفجر اضطراب جديد وهو أن اللاتينين والايطاليانيين أعلنوا طلب العتق والحرية وتوسط فى هذا الطلب بعض من رؤساء الامة مؤملين أن ذلك لو حصل للشعوب والطوائف ربما يجعل لهم الطاقة الكافية فى زيادة التأثير والحكم على مجلس السناتو وعرض هذا الطلب فى صفة لائحة على مجلس السناتو وطلبوا من القنصل فابيوس فلاكوس التصديق عليه فى سنة ١٢٥ قبل الميلاد ولما أرسل فى رسالة خارجة عن رومة انعكس رأى السناتو وما قبل المجلس ضرورة هذا الطلب فتولد من رفضه قيام مدينة فريجيا فى ثورة جهارا فاخذت ثورتهم وهدمت أسوار مدينتهم وتجردت المدينة من امتيازاتها المدنية ودخلت فى امتياز درجات القرى والكفور فكان هذا العقاب الشديد عبرة للمدائن الاخرى الايطاليانية واللاتينية فى الانقياد الى الخضوع

وظهر فى هذه الاثناء فى مدينة رومة كايوس غراقشوس وكان هو الاخ الاصغر لطبريوس المقتول وكان محجورا عليه فى سردينيه بأمر من الحكومة لانه كان من أهل الشغب والثورات وكان صار طلبه من سردينيه من أجل تهمة اتهم فيها بانه كان أحد المهيجين فى ثورة فريجيا فخرج من هذه التهمة برئ الساحة نظيف الاثواب منصورا على الذين اتهموه فيها فقابله حزب الامة مع الفرح والانشراح وجعلوه رئيسا عليهم بأصوات كثيرة خارقة للعادة وكان للعوام فى الزمن السابق رجل جليل القدر قائد لهم استمر معهم عدة سنين وهو أخوه طبريوس الآن كايوس فاق أخاه فى جميع الاحوال فكانت أعماله على ما فيها من كثرة الهياج ومخالفة اجراآت طبريوس سياسية فى مثل هذا الوقت وعلى

حساب

حساب مداواة المضار المتسلطنة عند الامة فكانت مقاصد كايوس الاصلية خلاص طوائف الفقراء من فقرهم واذلال السناتو فى منافع أصدقائه والاخذ بثاره من أعدائه فمن ثم عرض أعمالا مشتملة على هذه البنود أولا تجديد قانون تقسيم الاراضى وتوزيعها الذى كان حرره طبريوس غراقشوس مع بعض تنقيحات فى نقص الاراضى وقلل كايوس مقدار الحصة الواحدة وقرر أن أرباب الاراضى يجب مراعاتهم بأنهم يكونون مالكيها على شرط أن يدفعوا ضرائب تقرر عليها سنويا للمملكة وطلب أنه لابد من تمشية هذه الحالة النافعة على أرباب الاراضى وملاكها ثانيا طلب من المملكة أن تتكفل ببيع غلال لكل من سكن المدينة على قدر احتياجه منها بحساب نصف الثمن الحاضر فكان هذا العمل من الاعمال الخطرة على المملكة الا انه ربما يتحقق منه وجود حالة الخلاص من الفقر والعناء المتسلطن فى المدينة ثالثا أن تكون النهاية الصغرى لعمر الشبان الذين يصير درجهم فى سلك العسكرية محددا الى سبع عشرة سنة وأن تكون المملكة مكلفة بتطقيم العساكر من طرفها ولا تجعله على العساكر كما كان جاريا فى السابق رابعا يحال على الخيالة أو الفرسان امتياز النظر فى الدعاوى ووكالة التهاوى فى القضايا وبهذا وصلت طائفة الفرسان الى أقصى درجة فى الامتياز خامسا يجب على مجلس السناتو أن يرتب مجالس للايالات والاقاليم ويكلف كل مجلس بفصل أشغال جهته سواء كان بطريق الاتفاق أو بالقرعة على حسب ما يترا آى له فى ذلك من حسن الادارة واصلاح الاحوال سادسا يعهد تعديل الضرائب والعوائد فى الايالات المستجدة فى آسيا على مفتشين وحكام من الرومانيين سابعا يجب احالة مباشرة أشغال الطرق والسكك العمومية فى بحيث جزيرة ايطاليا على حكام من الامة ثامنا يجب غرس وترتيب مستعمرات فى نواحى قابوه وطرنطوم وفى محلات أخرى فى ايطاليا وقرطاجنة وفى الغلية وبواسطة هذه المادة الاخيرة رخص كايوس للجم الغفير من أهل رومة بالخروج منها فأرسل مستعمرة مؤلفة من نحو ٦٠٠٠ نفس الى قرطاجنة لاجل بناء مدينة على آثار وأطلال مدينة قرطاجنه التى خربت وصارت مستعمرة أخرى الى اكاسكسطيا وهى مدينة عكس الجديدة من جنوب بلاد الغلية (فرانسا) ومن ثم يمكننا أن نقول ان كايوس جدد حياة مدينة رومة كما انه كان المرتب والمنظم فى الحقيقة لسعتها فى داخل الايالات التابعة لها ومع أن المادة الثانية التى ذكرها كانت ضرورية جدا بالنسبة للعناء والمضايقات الشديدة الحاصلة من مسئلة الفقر الا أن نتائجها ما وصلت الى حالة عظيمة مرغوبة لان قانونه حصر توزيع الغلال والحبوب على القاطنين فى المدينة فقط ومن أجل هذا صار تشييد أشوان واسعة لخزن الحبوب والغلال عرفت بالاشوان الصمبرونيانية ليشترى منها ما يطلب من الغلال فتولد من هذه المادة أيضا الرخص للجم الغفير من الناس الفقراء الذين ليس لهم طاقة على الاشغال من البلاد والجهات المجاورة لرومة بالذهاب اليها والاقامة فيها وكان المقصد الخفى فى ضمير كايوس من مراعاة هذه الحالة زيادة عدد أصدقائه ومحبيه وأن يكون له طاقة فى الحكم على أرباب الانتخاب فكان على غاية من النجاح فى هذا المقصد الخفى الا أن أعماله ما وصلت الى درجة الكمال لانه تولد من شحن مدينة رومة بالكسالى والجياع والجعيدية وأهل المشاكل والاوباش من عوام الناس وأراذلهم مضايقات شديدة وأخطار هائلة على المدينة استمرت قرونا

وأما احالته عهدة تعديل وجمع الضرائب فى الاقاليم الاسياوية على حكام وموظفين من الرومانيين فانه أراد بذلك حصر محصولات هذه الايالات فى طوائف جديدة ترتب على حسب مقتضيات الاعمال

و بيعت امتيازات جبايات الضرائب لاكبر الملتزمين وأغنى المتمولين وحصل للطائفة التى تكفلت بهذا التحصيل الجور والتعدى القبيح فى تاريخ مستقبل رومة تحت أرباب الجمهورية ورغب كايوس فى نشر حقوق المدينة الرومانية على كل حر من الايطاليانيين وبذل ما أمكنه من الشهامة والبسالة فى ذلك فكانت هذه الرغبة دمارا على سقوط نفوذه وسلطنته لان كلا من الطرفين وهما الاشراف والعوام ما كان لهم رغبة فى منع انتشار هذه الحرية وسلبت عقول العوام مما أذاعه الاشراف من الاقوال والحكايات التى تحول عقولهم من جهة كايوس كى يكونوا ضده الا أنهم كانوا على الدوام غير مكترثين بها ثم صار تقويه ليفيوس دروسوس رفيق كايوس فى الحكم من طرف مجلس السناتو فى كونه ينعطف هو أيضا الى ناحية الاهالى وطائفة العوام ويجرى أعمالا زائدة القبول عندهم فهما فعل من أعماله ما صار النظر اليها فضلا عن قبولها وكان ماعرضه هو أن أرباب الاراضى يجب عتقهم من الضرائب والعوائد التى قررها عليهم كايوس وتشييد اثنتى عشرة مستعمرة ايطاليانية كل منها مركبة من ٣٠٠٠ نفس من السكان لانه بهذا ربما تتحول الحالة الراهنة المشحونة بالفقر الى حالة موافقة للمعيشة فصادقت الامة على هذه المواد كما صادقت على قانون كايوس ولما قدم نفسه محاميا ومحافظا على دكة القضاء فى سنة ١٢١ قبل الميلاد رفض بنفسه هذا القانون وأمر بعدم السير على مقتضاه

وفى شهر ديسمبر سنة ١٢١ قبل الميلاد حصل الاتفاق والجزم من الامة بأن كايوس يعود الى الحكومة من بعد قضاء مدته فى المصلحة فعارض فى ذلك القناصل المستجدون أشد معارضة وعول الاشراف على خلاصهم منه مع العجلة الزائدة وسرعة الفعل كما فعلوا بأخيه من قبل وشرعوا فى القدح فى فعله بكونه أمر بتشييد مستعمرة يانونية فى محل قرطاجنة الاشد كراهة لهم وكان هذا أحسن الاعمال وأجودها وصرحوا وجزموا بان الضباع الافريقية نبشت الاحجار التى كانت غرست حدود المستعمرة وحفرتها فعرض السناتو هذه الحالة على الكهنة والعراف فقالوا ان مثل هذا الانذار وهذه الدلائل يجب حصرها فى وحى جليل وانذار جميل يخالف البحث فى بناء مدينة فوق مركز مدينة ملعونة من طرف الآلهة فقبل مجلس السناتو هذا الرأى وأصدر أمره بعدم انشاء هذه المستعمرة اليانونية وفى المجلس الذى تقرر فيه صدور هذا الامر اجتهد كايوس غراقشوس فى رفض هذا القول وعدم قبوله وتولد منه هياج وثوران ذبحت فيه القسس الذين كانوا حاضرين بالمجلس وقرروا انذار الالهة بعدم بناء المستعمرة وصار القبض على بعض من الكهنة والعراف وصارت الحالة فى اشكال وارتباك وفى اليوم الثانى اجتمع طائفة الاشراف فى الفورم ووضعوا قوة مسلحة فى ديوان السناتو وامتلأ الكابيتول من العساكر الكريدية المستأجرين فى الجيش ولما رأى كايوس وأتباعه انه لابد من الحرب وان كان بذل مجهوده فى عدم وقوع أدنى سبب تتولد منه هذه المبارزة لكنه اعتزل الى الافنطين وهو الحصن القديم للعوام فحض القنصل العوام بتهديداته ومواعيده فى تركهم قائدهم ووعد بالمكافأة والجائزة لكل من يأتيه برأسه ولما قلت أصناف الطوائف من فوق جبل افنطين على قدر الامكان هجم الاشراف والعساكر الكريدية مع مساعدة الرقيق على الجبل عنوة وقتلوا كل من كان موجودا فيه وكانوا ٢٥٠ من الطوائف الدنيئة وتبعوا كايوس وقبضوا عليه وذبحوه وذبحوا رفيقه الاول مركوس فلاكوس وصب الاشراف نقمتهم وبطشوا بكل من كان منتميا الى كايوس وخنقوا منهم ٣٠٠٠ نفس فى السجون بأمر مجلس السناتو الذى أصدر أمرا رسميا بمحو عموم الغراقشوسيين

ومنعوا

ومنعوا أمهم كورنيلية من لبس الحداد والنعي على كايوس ومع هذا لم يلتفت العوام الى أوامر الحكومة الا قليلا منهم وصاروا يذكرون الاخوين بالذكر الجميل ويثنون عليهما الثناء الجزيل خصوصا ذكر كايوس ومع ما كان عليه عساكر الحرس من أخذ الاحتياطات اللازمة فان الاهالى كانوا يؤدون الاحترامات الدينية فى البقع التى تقدست أرضها بدماء أرواح هذين الاخوين وأتباعهما

ثم آلت الحالة أن صار لاذكر للغراقشوسيين الامن بعد الانتقام من قاتليهم فتولد لهذا الانتقام سبب ابتدأ فيه الاشراف بالفساد وضرر العباد وأخذ هذا الفساد فى الزيادة يوما فيوما واتضح جليا أنهم ابتدؤا فى ضياع الشوكة التى اكتسبوها من الظلم والجور ووقوع الاحوال العدوانية فلما رأى العوام ما هو حاصل من الاشراف من السعى فى الشدة والجور ووجود الغوغاء بالسلاح تحت أيديهم ابتدؤا فى توجيه هذه الاسلحة عليهم وفى مدة قليلة وجدوا لهم قوادا ورؤساء منهم فيهم الكفاءة التامة الزائدة عما هو حاصل من الاشراف ومع هذا فانه لما حصل الفساد وعم الضرر من الطائفتين رأوا أنهم جميعا على خطايين من أنفسهم لان الامراء البرانية ولو أنهم اشتروا بجاههم من الاشراف فان الاشراف اشتروا أوطائفهم من العوام وتولد من صعوبة هذه الاعمال وشدائدها العناء والضرر الذى حل بالناس خصوصا من اشتعال الحرب اليوغورتى وكان ابتداؤه فى سنة ١١١ قبل الميلاد وذلك ان مسينيسه ملك النوميديانيين من سواحل افريقية وكان حليفا للرومانيين فى الحرب القرطاجنى الثانى كان حصل مكافأته على ما أتاه من الخدمات للرومانيين بالانعام عليه بالقسم الاعظم من أراضى قرطاجنة ثم خلفه من بعد موته ابنه ميسبثه وما كان له التفات الى حكومته الا قليلا وقلد زمام سلطة حكومة مملكته لابن أخيه وكان اسمه يوغورته وكان الملك رباه وهذبه بدرجة واحدة مع ولديه ادحربال وجمسال وعند قرب انقضاء أجله وزع المصالح الملكية والعسكرية بين هؤلاء الثلاث فحصل الرضا والاكتفاء بالقسمة فيما بينهم ونازع ولدا الملك العجوز فى حق يوغورته بأنه لم يكن له أدنى نصيب من الحكومة فادعى يوغورته بها كاملة لنفسه وفى مدة هذه المخاصمة أمر ادحربال بذبح أخيه جمسال وانتشب حرب داخلى بين يوغورته وادحربال فضرب يوغورته ادحربال ضربة قوية وهزمه شر هزيمة وكان يوغورته قائدا مقداما وشجاعا باسلا وأستاذا كبيرا فى المكر والحيل وكان تعلم الخداع فى مدة ما كان عسكريا فى الخدمات الرومانية فهرب ادحربال الى رومة وتوسل الى مجلس السناتو واستغاث به فى عود زمام حكومته اليه ولما تيقن يوغورته بان فى يده جائزة لكل واحد من أعضاء السناتو أرسل رسله الى رومة من بعد أن جهزهم بالاموال الكافية من أجل أن يبرطلوا بها أرباب المجلس ليرفض طلب ادحربال أن يحصل بدل يوغورته وأن يذمه فى كونه أمر بذبح أخيه فكانت نتيجة هذه المادة فى آخر الامر أن قسمت المملكة النوميديانية بمعرفة مندوبين من طرف الرومانيين فخصصوا ليوغورته القسم الاعظم المشتمل على الاقليم المعروف باقليم موريطانيه (مراكش) وأخذ ادحربال مدينة سرطا العاصمة وجهة رملية داخلة فى الصحراء الشرقية فلم يرض يوغورته بهذه القسمة وهيج حربا على ابن عمه وأخذ منه أراضيه وقتله وذبح سكان سرطا وكان معظمهم من الايطاليانيين فأعلنت رومة بالحرب فى الحال على يوغورته وأرسلت جيشا الى نوميديا فحصل لهذا الجيش جملة نصرات حتى ان يوغورته وجد المصلحة فى عقد صلح فكان ذهبه ترجمان صلاح أحواله واستملها فى خلاص نفسه الا أنه التزم على التسليم تحت حالة لا شرط فيها وأعيدت له مملكته على دفع غرامة حربية خفيفة فمن

شدة ما حصل للحكومة الرومانية من الغضب التزمت على الفحص عن الطريقة التى بها تيسر ليوغورثه الحصول على عقد هذا الصلح فطلب يوغورثه الى رومة ليجيب عن هذه المادة فأطاع يوغورثه أمر الحكومة وتوجه الى رومة فقام ابن عمه مسيفا وانتهز الفرصة وقت حضوره وقدم طلبه بخصوص تاج أبيه فأمر يوغورثه سرا بقتله فى رومة وحصل مساعدة القاتل حتى نجا بنفسه فاشتد بالسناتو الغضب من هذا الفعل القبيح والعمل الفظيع ونكث عقد معاهدة الصلح وخلع يوغورثه فترك رومة مستهزئا وقال وقوله الحق لو كان معى ذهب لاشتريت نفس المدينة

ثم استمر الحرب على ما كان عليه واجتهد يوغورثه فى صرف ذهبه حتى حصل الانحطاط فى الجيش الرومانى وضاعت منه شهامته كما وقع هذا الانحطاط أيضا فى نفس الحكومة بواسطة ما أجراه من المصاريف وتضرر القواد فى أنفسهم حيث ظهرت هزيمتهم فعقدوا صلحا وشرطوا فيه الانجلاء من مملكة نوميديا وأرسلوا هذه المعاهدة الى رومة لاجل التصديق عليها من السناتو فلم يقبلها السناتو وأمرت الحكومة بنفى القواد الذين عقدوا هذه المعاهدة مع يوغورثه وثبت عند القبائل الوطنية الافريقية أن سلامتهم وخلاصهم منحصر فى نفس يوغورثه فاصطفوا تحت بيرقه فى قوى كبيرة مؤملين خلاصهم من قبضة رومة فحصل لرومة فى هذا الوقت شدة الحمية والحماس وعهدت قيادة الجيش فى افريقه الى قائد شجاع مكين وهو القائد كسيلوس مطلوس وكان من ضمن القايمقامات الذين تعينوا مع كايوس ماريوس ابن واحد من الفلاحين وكان ارتقى الى أعلى الرتب الرفيعة بسبب ما حازه من الشجاعة والنباهة فى فن العسكرية وكان ماريوس هذا معززا عند العسكرية محبوبا لديهم بمشاركته لهم فى الاتعاب والاخطار ومشاق الحروب والاختلاط معهم والتودد اليهم فوجد مطلوس فى خصمه يوغورثه شجاعة وبسالة ما عهدها فى غيره من القواد الافريقية فى عصره فدبر الحرب بحالة بطيئة حتى ابتدأت الامة الرومانية فى أن أخذها الريب والوهم وقالوا مع عدم الانصاف ان مطلوس اشتراه ملك النوميديين وكان فى هذا الوقت ماريوس ظهرت شجاعته واشتهر اسمه وعاد الى رومة فى سنة ١٠٧ قبل الميلاد فأزال ما فى قلوب الامة الرومانية من الشك والوهم الذى كانت قلوبهم مشحونة به من جهة مطلوس فوطد انتخاب نفسه الى القنصلية وقررت الامة أيضا قيادته للجيش الافريقى ومع هذا فان ماريوس ما أجرى اجراآت كبيرة مع يوغورثه زيادة عما كانت جارية من مطلوس وسار الحرب على ما كان عليه وما تم غلاقه الا بواسطة ما أجراه سولا من فنون الخداع والحيل وذلك انه فى سنة ١٠٥ قبل الميلاد استمال بوخشوس ملك الموريطانيين صهر يوغورثه فى كونه يسلم له ملك النوميديانيين فقبل بوخشوس هذه التقدمة وخدع زوج ابنته فى داخل مرصد صار القبض عليه فيه بواسطة سولا وسلمه سولا الى ماريوس فأخذ هذا الملك المأسور الى رومة مع ولديه الاثنين وزين الرومانيون بهم موكب النصر الذى صار عقده لماريوس ثم طرحوه فى سجن قبيح مات فيه من بعد مضى بضع أيام من شدة البرد والجوع وهكذا أحوال الدنيا ومصائبها ثم صار ماريوس مرعيا عند الامة الرومانية بأنه هو الذى تغلب على يوغورثه فمع ما كان عليه من موانع القانون صار انتخابه قنصلا فى سنة ١٠٤ قبل الميلاد ومكث فى هذه الوظيفة خمس سنوات متوالية ومن قبل غلاق الحرب اليوغورثانى كان حصل لرومة تهديد كبير كدر عليها عيشتها وقلل نومها وراحتها وذلك أن الشعوب المتوحشة الموجودة فى شمال أوروبا وهما قبيلتا الهمبرى والطوطنيين المركبين من عشائر بعضها صلطيق وبعضها جرمانيون تحركوا من

ناحية

ناحية الاقليم الموجود خلف نهر الرين وخلف نهر الدانوب أو الطونه وتغلبوا على الاقليم الكائن بين هذين النهرين وجبال الالب وفى مبادى سنة ١١٣ قبل الميلاد عبر الصمبرى جبال الالب ودخل فى اسطريا وهزم القنصل پابريوس كاربو وفى سنة ١٠٩ قبل الميلاد ظهر الصمبريون على حدود غلية الجنوبية وطلبوا اعطاءهم الاراضى فأجابهم القنصل صلانوس بالاغارة والهجوم عليهم الا أنه تكبد أهوال ومشاق هزيمته وضياع جيشه وخسارة معسكره وما تتبع الصمبريون طريق نصرتهم بل اكتفوا بالاشتغال باخضاعهم القبائل المجاورة لهم فأرسلت رومة ثلاثة جيوش رومانية للاغارة عليهم وطردهم أحدها فى سنة ١٠٧ والآخران فى سنة ١٠٥ قبل الميلاد فهزم الصمبريون الثلاثة جيوش جميعها وحصل فيهم اتلافات وخسارات جسيمة وكان الجيش الرومانى فى الواقعة الاخيرة من هذه الوقائع مؤلفا من ٨٠٠٠٠ نفس وكانت هزيمة هذا الجيش على نهر الرين بالقرب من مدينة أورنجة الجديدة وصارت ايطاليا أيضا على شرف الوقوع تحت زحمة هؤلاء المتبربرين وما كان بينهم وبين جبال الالب والاراضى الرومانية الاقليل ثم انحازوا عنها وتوجهوا الى نواحى اسبانيا فطردتهم قبائل الصلطبريانيين فى سنة ١٠٤ قبل الميلاد على أعقابهم خاسرين عابرين جبال البرنيس ولما عادوا الى بلاد الغلية (فرانسا) انتشروا بسرعة على القسم الغربى من هذا الاقليم نحو نهر السين وفى سنة ١٠٣ قبل الميلاد انضم اليهم قبائل الطوطينيين وهم شعوب من جنسهم من القبائل الموجودة على بحر بلطق والهلقيطى من جبال الالب السويسية ونظم هؤلاء القبائل المتجمعة أنفسهم فى هيئة الاغارة على ايطاليا وجهاتها فأما الطوطينيون فانهم شرعوا فى الاغارة على ايطاليا من طريق پروفنسه ومن الدروب الكائنة فى الجهة الغربية من جبال الالب وأما الصمبرى فانهم دخلوا أرض السويس ووصلوا الى الدروب الشرقية وكانوا على معرفة تامة منها

وفى أثناء حركتهم هذه سار ماريوس الى الغلية الجنوبية بجيش كثيف وكان معه سولا نائبا له وقصد ماريوس ضرب كل من هذين الهاجين على حدته ومنعهما من الانضمام لبعضهما فمن ثم وجه ماريوس جيشه فى الابتداء على قبائل الطوطينيين وكانت زاحفة بالقرب من مدينة عكس الجديدة ونال مظفرات جليلة على هؤلاء المتبربرين فى فصل صيف سنة ١٠٢ قبل الميلاد وشتت شمل الطوطينيين بالكلية وأبادهم وكانوا أمة كبيرة العدد يبلغ عددهم ١٥٠٠٠٠ نفس فقتل كثيرا من النساء والاطفال وأسر نحوا من ٩٠٠٠٠ نفس صار بيعهم فى أسواق الرقيق وخلصت الغلية عموما من هذا العدو وأما الصمبريون فانهم مروا من جبال الالب من درب برنير وزحفوا على وادى نهر البادوس أو نهر البو فاجتهد القنصل كاطولوس فى طردهم وعودهم فتبدد حاله وانهزم شر هزيمة فانشرحت صدور قبائل الصمبرى من الارض الخصبة التى وجدوها حولهم حتى انهم بدل أن يقتفوا طريق فوائدهم ومنافعهم توجهوا الى محلات لقضاء فصل الشتاء فيها فتولد من تأخيرهم هذا وجود زمن لسير ماريوس من الغلية لمساعدة رفيقه فالتحق به فى فصل ربيع سنة ١٠١ قبل الميلاد ولما عادت قبائل الصمبرى الى زحفهم الاول فى فصل صيف هذه السنة التقاهم كل من جيشى ماريوس وكاطوس سوية فهزموهم هزيمة فاصلة كالهزيمة التى حصلت لاخوانهم فى نواحى الغلية وأحصيت قتلاهم وكانوا ١٤٠٠٠٠ نفس وما بقى من هذه الامة الا نحو من ٦٠٠٠٠ نفس أسروا وبيعوا فى أسواق الرقيق وخلصت ايطاليا من شرهم وانخمد العالم البشرى الذى استمر ثلاث عشرة سنة

ينهار و ينهال على الامم ويزعجها و يقلل راحتها و يكدر عليها معيشتها و يخرب البلاد و يقتل العباد من نواحى نهر الدانوب الى نواحى نهر ابر و فى اسبانيا ومن نهر السين الى نهر البو فى ايطاليا و استراح جميعه بعضه تحت الارض و بعضه فى فلاحتها و زراعتها تحت ناف رق العبودية وعلى هذا صار احترام ماريوس واجلاله باحتفال فاخر وموكب باهر وقابلته الامة الرومانية بالترحاب وسعة الصدر بما أنه هو المخلص لهم ولرومة من الخطر والاسر وزادوا فى اجلاله مع كثرة التملق وانتخب قنصلا فى المرة السادسة التالية ولو كان فيه مخالفة لبنود القانون فلو كان رجلا سياسيا كما كان قائدا عظيما وشجاعا كبيرا لامكنه أن يتمم ما أجراه القيصر يوليوس فى القرن التالى وجعل نفسه ملك الرومانيين لكن كانت شهرته وطمعه قاصرا على هذا الحد فقط وما كان عنده ثبات ولا معرفة بأى مركز أو موقع يمكنه البقاء والثبات فيه وانتخب لنفسه من أعز أحبابه المخلصين له فى الصداقة اثنين من أقبح رعاع الناس ومن أهل الفساد والشقاق وهما غلوسيه وسطورنيوس وقواهما بميله وانعطافه لهما وسعى فى نشر قوانين ولوائح كانت غير مرضية عند الامة بالكلية وعند عموم وجوه الطوائف الرومانية فعارض مطلوس هذه الاعمال فصار نفيه من البلاد واستعمار ماريوس لنفسه جور وظلم قائده القديم ومن ثم جلب على نفسه عداوة السناتو والمتمين لهذا المجلس وكذا تولد من أعمال الحاكم سطورنيوس حصول زوابع شديدة من الثورات والشغب والشقاق فى المدينة وجاء وقت زمن انتخاب القناصل فى أثناء هذه الارتباكات وضرب موميوس محافظ الحكومة من طرف القنصلية ضربا شديدا حتى أشرف على الموت وكان الذين ضربوه حزب غلوسيه وسطورنيوس فنشر السناتو أمرا بأن هؤلاء أعداء الجمهورية فضبطهما الكابيتول الا أن ماريوس خاف من فقد وضياع محبته وقبوله لو تعرض من أجلهما بأدنى مدافعة وانحاز الى مجلس السناتو عليهما واعتمادا على وثوقهما بماريوس فى حمايته اياهما سلما أنفسهما فصدر أمر المجلس بحبسهما فى سجن كورية هوسطيليا وكان ماريوس مجتهدا فى خلاصهما بطريق محاكمة ما فهجم الناس عليهما من أحزاب السناتو وقتلوهما فى سنة ١٠٠ قبل الميلاد وفى سنة ١٠٢ قبل الميلاد هاج حرب ثان رقى فى جزيرة سيسيليا وذلك أن الرقيق تجمعوا وهم فى حالة القنوط من شدة ما هو حاصل لهم من عنف المعاملة الحاصلة لهم من جهة أسيادهم وقاموا عليهم بالسلاح وكانوا أسيادهم بالطبع أقل منهم عددا فبمساعدة الجمهورية صار حطم الرقيق واطفاء ثورتهم من بعد حرب استمر ثلاث سنوات فى سنة ٩٩ قبل الميلاد

وكان موت سطورنيوس فى الحقيقة خيبة حيث لم يتمكن ماريوس من القبض على زمام الحكومة فكان ماريوس قائدا كبيرا الا أنه ضعيف السياسة وفقيرها لانه استعمل آلات الخطا وعدم الصواب فى تمام ما تؤول اليه حالته ولم يزل الا أن جعل نفسه ممقوتا مبغوضا عند الامة حتى طلبوا كينطوس مطلوس من محل نفيه فما رغب ماريوس أن ينظر موكب خصمه واحتفال الامة به وقت حضوره فذهب فى سفرة الى الجهات الشرقية موريا فيها ايفاء نذر عليه فى تلك الجهة ولما عاد من سفرته رأى اخوانه تركوه من بعد أن كانوا يتملقون له فى مدة فوزه وعلو قدره ومع هذا فانه لما ذاق من قبل طعم حلاوة الشوكة والنفوذ عول فى نفسه ثانيا أن يكون سيد رومة فوعده كاهن الوحى بقنصلية سابعة فاجتهد فى اكتسابه الشوكة وكان كثير الاعتقاد فى الخرافات وأقوال الخزعبلات وصمم على توطيد واجراء ما يؤكد له ما وعد به من طرف وحى الكاهن وفى أثناء هذا قام ليفيوس دروسوس بن

دروسوس فى دعوى الاصلاح وأثار القلاقل والارتباكات فى رومة وكان دروسوس هذا هو الذى عارض كايوس غراقشوس فى أعماله الاصلاحية وكان رجلا ذكى العقل قليل الاقدام فشرع فى مداواة العلل والامراض المؤلمة للمملكة بواسطة ربط علاقات مجلس السنا ومع طائفة العقسطريانيين فى رومة ونشر العدل على اللاتينيين وبعد ذلك أمر بتجريد الفرسان من الحقوق التى كانت منحت لهم من أجل الدعاوى والمحاكم لانهم كانوا انتهكوا حرمتها وأعاد هذه الحقوق الى مجلس السنا وكذا قبول نشر الحرية والعتق على كافة الايطاليانيين ونجح فى توطيد قانون يشتمل على قسمة الحقوق العدلية بين الفرسان والسنا والا أن مذكرته فى قبول نشر الحرية على الايطاليانيين صار رفضها مع العنف وصار قتل هذا المصلح على باب داره وعاد الاشراف الى حالتهم المعتادة من الحرب فضربوا فى هذا الوقت ضربة شديدة وقعت عليهم من نفس طائفتهم فى سنة ٩١ قبل الميلاد

وكان قتل دروسوس اشارة واضحة وعلامة جلية على هياج حرب داخلى وحصل الاجتهاد الزائد فى البعد عنه وبموته أيضا انقطع الامل الاخير الذى كان الايطاليانيون مؤملينه من أن رومة تسمح لهم بعتقهم ولما لم تقبل رومة طلبهم هذا الحق بوجه العدل والانصاف والمحبة لم يبق عند الايطاليانيين شئ سوى الانقياد لرومة والسكوت على عدم حريتهم أو العصيان والقيام عليها فاختاروا فى مجلسهم وناديهم العصيان والثوران على رومة ودخل منهم ثمان أمم تحت السلاح وهم المرسى والمروسينى والبلجنيون والفسطنيون والبسنطيون والسامنيون والابوليون واللوقانيون ودخل هذه الامم فى محالفة بينهم وشكلوا جمهورية اتحادية أطلقوا عليها اسم ايطاليا وانتخبوا مدينة كورفنيوم فى نواحى جبل الابنين من أعمال بلجنيانه وجعلوها عاصمة لهم وكانت هذه مبادى الحرب الاشتراكى أو الاتحادى وانتخبوا لهم أيضا ومبيدوس وبابيوس قنصلين لهم فمن بعد قليل اتضح للرومانيين أنه لو حصل ظفر ونجاح لهؤلاء المشتركين فان رومة تتجزأ الى ممالك صغيرة وتؤل حالتها الى العدم وهزم المتحالفون أحد القناصل وهو القيصر لوسيوس وكذا نائبه الحاكم بابرنه والحاكم بوسطومياس وتغلبوا على كامبانيه وهزموا القنصل كيبيو وبددوا جيشه فى اقليم كامبانيه فى ظرف بضع شهور ثم فتحوا مخابرة مع أهل ايطاليا الشمالية وصارت كامل الجزيرة على شرف العصيان فقابلت رومة هذا الخطر بقلب ثابت لما رأت جيوشها ليس لها طاقة على اخماد ثورة العصيان وأصدرت لائحة تعرف بالقانون اليوليانى تشمل منح حقوق المدينة الرومانية لجميع الايطاليانيين الذين لم يشتركوا فى هذا الحرب والذين يتخلون بانفسهم وينسحبون منه فكانت هذه اللائحة سببا فى فوز رومة ونجاحها على الثائرين عليها وصدت الناس وعامن الوصول الى هذا الاتحاد والدخول فيه وكان حزبا سلما شديد القوى حتى صاح الناس والغوغاء بقبول العلاقات والارتباطات التى جاء بها القانون اليوليانى وانسلخ المتحدون من بعضهم واحدا بعد الاخر من معاهدتهم الاتحادية وبينما كان الرومانيون آخذين فى حالة العجز والضعف ابتدأ عندهم ظهور الظفر والفلاح وتوجه سولا وبومبى الاكبر بالجيوش الى كامبانية وردوها ثانيا وتغلبا على عاصمة التحالف ومابقى فى الاخر الا السامنيوم ولوقانيا تحت السلاح فاجتهدت رومة مرة ثانية فى صدور المنحة بكونها رخصت بكل ماطلبه المتحالفون لانفسهم وانتهى أمر هذين الامتين الى الانقياد وانغلق الحرب الاشتراكى فى سنة ٨٨ قبل الميلاد وفى أثناء هذا الحرب صار استخدام ماريوس نائبا للقنصل روطليوس فى السنة الاولى وكانت مشحونة

بالاهوال والمصائب على رومة فما نتج من اجرآته البطيئة واحتراسانه شئ يعود منه النفع عليه لان الاحترام والاجلال انتقل جميعه الى سولا كما انه أثبت لنفسه فى حروب سنة ٨٩ وسنة ٨٨ قبل الميلاد كمال قيادته وشجاعته ولما أغار متريداطيس صاحب بونطوس على آسيا الصغرى ولزم الحال لارسال قائد شهم جسور يضارعه فى حركاته الحربية تعين سولا لهذا الامر وكان فى القنصلية الحالية معينا لقيادة الجيوش فى تلك الجهة فتولد من الصداقة القديمة التى كانت بين ماريوس وسولا منذ زمن طويل غيرة وحسد وعداوة بين الاثنين واغتاظ ماريوس جدا من تعيين سولا فى قيادته الجديدة واشتغل بالشغل اللازم لابطال ما أجراه مجلس السناتو ثم ان الحكومة من سوء نيتها ورداءة ذمتها كما هى عادتها سعت واجتهدت فى ابطال منحة المدينة التى كانت منحتها للايطاليانيين بكونها حصرتهم جميعا فى ثمان شعوب على ما كانوا عليه من كثرة العدد وحض ماريوس بوبليوس سولبقيوس روفوس أى الاحمر وكان لفظ الاحمر لقبا على بوبليوس فى أن يعرض لائحة يطلب فيها توزيع التبعة المستجدين بين الشعوب فتولد من هذا الترتيب أن صار لهما المكنة على زيادة عدد التبعة القديمة لاهل المدينة الذين صاروا معضتدين بماريوس بالطبع مثل مدافع لهم ومحافظ على حقوقهم فاجتهد القناصل فى ابطال هذا الفعل فضبط ماريوس والاحمر الفورم بقوة متسلحة وألزموا القناصل بالتصديق على القانون وصدور أوامر باتباعه واختلف الصوت الذى كان عهد زمام قيادة الجيش وتدبيره على سولا وانتخب ماريوس بدلا عنه فى سنة ٨٨ قبل الميلاد دوالت الحالة الى شدة العداوة والحدة بين الخصمين وما كان سولا رجلا جبانا يخضع لهذه الوقاحة التى حصلت فى حقه بل فيه طاقة كافية لان يظهر نفسه مدافعا عن القانون الجارى فاستغاث بعساكره وتوسل بهم فى اعانته على بقائه على ما كان عليه وسار فى رأسهم نحو رومة فأما ماريوس فانه ما كان يتوقع حركة جورية مثل هذه تحصل من عدوه وما كان على استعداد أيضا لملتقاه فبهذا صار سولا سيد رومة مع الهدو والسكون وعدم المعارضة فانه هدد رومة بحرق المدينة على رؤس سكانها لوحصل منهم أدنى حركة فى معارضتهم له فمن ثم انهزم ماريوس وانجبر على الفرار مدة حياته حتى يأتيه الفرج واتجه عقله الى خيالات وهمية وخرافات عديدة تخيلية حتى وصل به الحال أن وصل افريقه وصارت له ملجأ بعيدا عن أعدائه وأمر سولا من بعد أن صار سيد رومة بقتل الاحمر وابطال قوانينه ورسم هو قوانين متباينة بالقوة والاقتدار تختص بتقوية الاشراف وطواغيتهم ثم انجبر على أن يترك رومة سريعا من أجل استلام زمام قيادة الجيش فى الشرق فاعقب سفره هذا حرب داخلى فى الحال وانتخب الاهالى سينا قنصلا فاجتهد سينا فى عود قوانين الاحمر ورجوع ماريوس ثانيا فطار الاشراف الى السلاح وطردوا سينا من المدينة فاستغاث سينا بالجيش ونال مساعدة العساكر ومعاضدتهم له ولما نال معاضدة العساكر والجم الغفير من الايطاليانيين طلب ماريوس من افريقه وسار على رومة وتغلب على المدينة قهرا وشرع فى اجراء الانتقام والبطش بالاشراف فى سنة ٨٧ قبل الميلاد ولما عاد ماريوس الى المدينة اشترك مع سينا فى القنصلية وذبحا كافة من كان على صداقة سولا وكان ماريوس يمشى على أقدامه من وسط شوارع المدينة ملازماله خفره فكانوا يقتلون كل من لم يقم اجلالا واحتراما لماريوس ويكتبون الذين يرغبون طردهم ونفيهم من المدينة يوميا ويذبحون كل من خالف أمر السفر من المكتوبين فى قوائمهم ونهبوا مساكن المقتولين وفضحوا أهلهم وعائلاتهم وما عهد فى رومة من قبل تسلطن هذا الرعب والفزع

ونال

ونال ماريوس من انتقامه من الاشراف وبطشه بهم ماشفى غليله واكتفى الى بقة رأسه وطرح القانون وراء ظهريا وجعل نفسه هو وسينا قنصلين لسنة ٨٦ قبل الميلاد من دون مراعاة هيئة الانتخاب الجارية سنويا وكان قلب ماريوس مشحونا بالاوهام والخرافات واستوفى ما أنبأه به الكاهن ودخل فى القنصلية السابعة ومع هذا فانه لم يتمتع بها زمنا طويلا بل مات بعد مضى سبعة عشر يوما بعد أن بلغ من العمر احدى وسبعين سنة وتوجه الى عاقبة أمره مع ما أجراه من الفظائع والانتقام فى بلده وترك من بعد موته شرذمة من الجلادين الذباحين اجتهدوا فى أشغالهم الدموية فطلبهم سيرطوريوس جميعا بصفة أن يصرف لهم رواتبهم ولما حضروا أحاطهم بعساكره وقطعهم عن آخرهم قطيعة رجل واحد وعلى ماقيل انه ذبح فى هذا اليوم ما ينيف عن أربعة آلاف نفس والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب

(الباب السادس)

﴿من موت ماريوس الى تشييد المملكة﴾

شوكة سينا فى رومة ـ تخويف سولا ـ الحرب الاول الميتريداطيقى ـ عود سولا ـ الحرب الثانى الداخلى ـ نصرة سولا ـ تغلبه على رومة ـ صيرورة سولا الحاكم الآمر الناهى ـ أحكام القتل والنفى ـ أعمال سولا ـ اعتزاله وموته ـ ثورة سيرطوريوس فى اسبانيا ـ قتله ـ اخماد بومبى الثورة ـ الحرب البرازى ـ سبرطاقوس ـ صيرورة قراصوس و بومبى قنصلين ـ تغيير صفتهما وسياستهما ـ اجرا آتهما الاصلاحية ـ سيسرو ـ اخضاع بومبى اللصوص السيليسيانية ـ ارسال بومبى الى آسيا ـ تغلبه على متريداطيس وطجرانيس واضافة سوريا و بونطوس الى الممالك الرومانية ـ عود بومبى الى رومة ـ ثورة الكاطالنيين وخروجهم عن الطاعة ـ يوليوس قيصر ـ أعماله وخدماته ـ صفة هذا القيصر ـ الحكومة الثلاثية الاولية ـ نفى سيسرو ـ ارسال كاتو الى قبرص ـ تغلب القيصر على بلاد الغلية ـ اغارته على جرمانيا ـ الحرب مع مملكة فارطية ـ هزيمة قراصوس وموته ـ حرب القيصر و بومبى ـ انحراف السناتو مع بومبى ـ وقوع القيصر فى الاعمال العدوانية بواسطة السناتو ـ حالة موقعه ـ استغاثته بعساكره لمعاضدته ـ عبوره نهر روبيكون ـ ترك عساكر بومبى نفس بومبى وتوجههم للقيصر ـ تقهقر بومبى الى الجريس ـ صيرورة القيصر سيد ايطاليا ـ لينه وحلمه ـ تشييده حكومته فى ايطاليا ـ اخضاعه اسبانيا ـ تتبعه بومبى فى الجريس ـ واقعة فارساليا ـ هرب بومبى ـ وصوله الى مصر ـ قتله فيها ـ وجود القيصر فى مصر ـ تشييده حكومته فى مصر وآسيا الصغرى وافريقه ـ عوده الى رومة ـ صيرورته مطلق التصرف مدة حياته ـ ما كان من المقاصد الكبرى للقيصر ـ ماهى الاعمال التى تممها بعد هذا ـ قيام الثورة عليه ـ قتله ـ نتائج تأثير قتله على رومة ـ توطيد مارك انطونى فى شوكة الحكومة ـ وصول القيصر أوقطافيوس ـ طلبه وراثته ـ توجه انطونى الى الغلية ـ سرعة قيام أوقطافيوس الى الشوكة ـ أحوال الاعمال مع أنطونى وليديوس فى الحكومة الثلاثية الثانية ـ واقعة فيلبى ـ تقسيم الممالك الرومانية بين ثلاثة حكام ـ ظفر أوقطافيان على ليديوس و توطيد قانون رومة

الجوهر الفرد ـ خيبة انطونى فى الشرق ـ انهماكه على الفجور والمحرمات ـ هياج أوقطافيان الحرب عليه ـ واقعة اكطيوم ـ هرب انطونى مع كليوبطره ـ تغلب أوقطافيان على مصر ـ موت انطونى وكليوبطره ـ صيرورة مصر اقليما رومانيا ـ عود أوقطافيان الى رومة ـ تأسيسه المملكة الرومانية على آثار وأطلال الجمهورية

تولد من موت ماريوس ان صار سينا قنصلا وخلاله الجو ولبث فى المدينة قنصلا وحيدا الى سنة ٨٤ قبل الميلاد مشتركا مع من يراه موافقا له فى أعماله ومع ذلك فان سينا ما فعل شيأ من الاشياء التى يعول عليها فى أشغاله وما تم فى مدة حكومته شيأ تنتفع به البلاد والعباد وكان سولا مطرودا وتعين واحد بدلا عنه ثم ورد أخيرا مكتوب من سولا يذكر فيه نجاح الحرب على متريداطيس وتمام حالته وانه عازم على العود مع السرعة الى ايطاليا وذكر فى مكتوبه هذا انه مادام محافظا على حقوق تبعة المدينة المستجدين فانه عازم على توقيع العقاب الشديد على مخترعى العصيان والمهيجين للثورات فخاف سينا وارتعب ان حصل منه أدنى تكاسل فى أمر هذا المكتوب وشرع فى السير ضد سولا

وفى ظرف هذه السنين كان سولا مجريا الحرب على متريداطيس بغاية الظفر والنجاح وهزم سولا مساعى وأعمال ملك البونطيقيين بتوقيفه سير الفتوحات الرومانية فى الجهات الشرقية وقد ذكرنا وقائع هذا الحرب وحوادثه فى تاريخ مملكة بونطوس ويمكننا الآن صرف النظر عنه هنا فمن أراد مطالعته فليراجعه فى تاريخ بونطوس وأعاد سولا الجريس ومقدونيا وآسيا الصغرى وأرغم متريداطيس على عقد صلح بشروط فائقة الحد فى الذل والاهانة وصرف كافة مصاريف الحرب من ايراداته المخصوصة به وأخر فصل قضية مشاحنة نفسه الى أن يهزم هذا العدو الغريب ثم عاد لطلب مسئلة ما حصل له من الاهانة والمصيبة بواسطة نفوذ مظفراته ونصراته ومعه مبالغ وافر من النقود التى أخذها من العدو ومعه جيش خاضع له ذو جيشة وحماس فى الوقائع التى يجريها وكان سولا من دون ريب أول قائد من القواد الموجودين على قيد الحياة فى عصره وكذا كانت عساكره متعودة على النصر ومع ما كان عليه من الوثوق من نفسه بالنصر فانه ما كان مزدريا ولا مستخفا بعدوه وكان على معلومية تامة من أن الحزب المارياني على غاية من الثبات والقوة ولما كان على ازدراء من غوغاء الرومانيين وعوامهم وجد من بين هؤلاء العوام شوكة الايطاليانيين ومكنتهم وكانوا مشكلين لحزب القوى المضاد له وبواسطة اعلانه رغبته فى احترام حقوق مدينة الامم المستجدة من الايطاليانيين دفع عن نفسه هذه الامم وجعلها على حيادة منه وقت افتتاح الحرب

ونزل سولا فى نواحى برندوسيوم مع ٤٠٫٠٠٠ نفس من عساكره فى سنة ٨٣ قبل الميلاد والتحق به على الفور مطلوس بيوس وبومبى فهزم جيش القنصل نوربانوس بالقرب من مدينة قابوه من أعمال كامبانيا وجلب عساكر صكيبو تحت بيرقه وتوجه بعساكره الى مراكز الشتاء فى ايطاليا الوسطى واشتغل فى مدة فصل الشتاء بادارة تقوية حاله وتدبير أعماله وفى فصل ربيع سنة ٨٢ قبل الميلاد جند الحزب المارياني جيشا مؤلفا من ٢٠٠٫٠٠٠ نفس فى ميدان الحرب تحت قيادة القنصلين الجديدين كاربو وماريوس الاصغر فاما كاربو فانه اتخذ لنفسه موقعا فى ناحية كلوسيوم من بلاد عطروريا بما أن هذه الجهة كانت على صداقة لحزبه وأما سولا فانه دوّر جيشه على خصمه ماريوس

الاصغر

الاصغر وهزمه فى واقعة دموية وقعت بينهما فى نواحى انغبورطوس وألزمه بالقهقرة الى برنسيطى فترك فيها سولا وقمن أجل محاصرة ماريوس وسارهو من طريق رومة وكانت على حالة بغير مدافعة وهجم على كاربو وهو فى موقع متترس فيه فخاب من الغلبة عليه وفى هذا الوقت نجح الشاب ماريوس فى حض اللوقانيين والسامنيين على حضانة أمره فارسلوا قوة لمساعدة الماريانيين فما كان لهذه القوة طاقة على الوصول الى برنسيطى وانضمت الى جيش كاربو ومن سوء تدبير كاربو فى الاعمال هجم عليه سولا ثانيا فانهزم الجيش الموجود تحت قيادته وأما الواقعة الفاصلة فانها وقعت عند باب التل من أبواب رومة فمن كان باقيا من جيش كاربو تقوى بالايطاليانيين تحت قيادة طلسنوس وهجموا على رومة مع عزم شديد على خرابها ومن بعد حرب مهول مقطوع اليأس تشتتوا وأبادتهم عساكر سولا وضبط قراصوص منهم أربعة آلاف أسير فأخذوا بأمر سولا الى معسكر مارطيوس وقتلوا جميعا وصار سولا فى هذا الوقت سيد رومة وبواسطته انتصر حزب الاشراف وانتقموا من أعدائهم انتقاما دمويا وقتلوا قواده هذا الحرب الاخير وكل من كان قريبا الماريوس أو صديقا له وأمكن القبض عليهم وعملوا قوائم ودفاتر للنفى والقتل فكان كل واحد من أصدقاء سولا وأتباعه يضيف فى هذه القوائم ما يشاء وبما أن أموال المقتولين صارت فى حوزة أعدائهم تولد من الشح أيضا التهمة وقيل انه هلك فى هذه الدفعة فى رومة ٣٠٠٠ نفس وفى برنسيطى ١٢٠٠٠ نفس وقتل فى المدائن الاخرى الايطاليانية مثل ذلك أو أكثر من أجل مسئلة الماريانيين وكانت قساوة الماريانيين زيادة عن ذلك أيضا دقة بدقة ولبث سولا مدة ثلاث سنوات سيد المملكة الرومانية وأميرها وكان لا لقب له فى الابتداء ثم وضع عليه لقب الآمر الناهى أو الحاكم المطلق بشوكة غير محدودة فغير عدة تغييرات فى القواعد الاساسية للنظام الرومانى أى انه وضع نظاما وقانونا بالقوة الجبرية حسبما تراآى له من أفكاره وجعله تقوية لامره ولطائفته من الاشراف فمع أن سلوك سولا كان مذموما رديئا الا أنه سار فى مجرى الحق وأبطل اربما كانت الاحوال والفساد الحاصل من الامة وشرع فى الاشغال التى لا يؤمل معها صلاحية أهل بلاده بنشره قوانين شديدة تختص بالجرائم والعاكفين على الموبقات والملاهى التى ما كانت مرعية من قديم الزمن وأما من جهة الحكومة فانه ابتدأ بتجريد وظيفة حاكم العوام من نفوذها وسلطتها ما عدا حمايتها أشخاص من تبعة المدينة من نواب آخرين وعدم أهلية حكام العوام لوظيفة القنصلية وجعل لمجلس السناتو حقا فى سن مبادى القوانين ونشرها بعدما جعلها تحت نظارة الشوكة العمومية للمحكمة العدلية وألغى طريقة انتخاب القسس والكهان وأمر أن كافة حكام المصالح ورؤساءهم يلزم أن يترقوا فى الوظائف من الدرجات الواطية الى الدرجات العالية على التدريج وحدد المدة التى تكون بين الدرجتين على طريقة منتظمة ورتب مجلس السناتو مرة أخرى وأضاف اليه ٣٠٠ نفس من معتمدى حزبه ونظف الشعوب والقبائل والطوائف مما كان فيها من حشرات الناس وطرد كافة الايطاليانيين الذين ساعدوا الماريانيين وأمر بعتق نحو ١٠٠٠٠ نفس من الرقيق وفرق الاراضى والعقارات التى أمر بضبطها من الماريانيين على قواده وأمرائه وفى كثير من الاحوال كان أصلا لخراب البلاد ومحنتها

ومن بعد أن قاد سولا الحكومة آمرا ناهيا فيها من غير معارضة ولا مناقضة مدة ثلاث سنوات تنازل عنها لمعغاية الاستغراب عند كل انسان واعتزل فى بلده فى جهة بطيولى فى سنة ٧٩ قبل الميلاد

وعكف فيما بقى من حياته على تأليف مذكراته ومات فى السنة التالية وعملت له جنازة حافلة مع غاية الوقار والاجلال ماشوهد نظيرها فى ايطاليا ونعاه مجلس السنانو وكان دمر حكومة الامة وأعاد حكومة الاشراف ووجد حزب الاشراف أن كافة ماأجراه سولا لاجلهم كان عظيما جدا وأما ابطال انتخاب الاحبار والكهان وقانون الترقى فى وظائف المملكة فانه صار صده بقوة فعالة مؤثرة من طمع الاشراف فى تيسرهم على الحصول على هذه المحلات الجليلة وعارضوا فى الاعمال والاجراآت بطرق بطيئة بواسطتها آلوا الى ماهم عليه من الحالة الراهنة واجتهد لبدوس فى السنة التى مات فيها سولا فى الغاء قوانينه وابطالها وكان لبدوس قنصلا انتخاب فى مسعاه لان وقتا حيا جميع الاشغال والاعمال لم يأت الآن

وكان صار حطم الاحزاب المارياينة فى نواحى سيسيليا وافريقه بواسطة كنيوس بومبى فى مدة حياة سولا وفى سنة ٧٧ قبل الميلاد أرسل بومبى الى اسبانيا نائب قنصل لاخماد عصيان سيرطوريوس وكان سيرطوريوس هذا أشجع قواد الحزب المارياني وكان سناقلده زمام القيادة فى اسبانيا لتخاوله منه الطريق وفى مدة المظالم السولانية الحاصلة بالقتل والنفى ذهب كثير من هربانى المارياينين الى سيرطوريوس فاستخدمهم عنده فى وظائف تحت يده ثم طرده نائب قنصلية سولا وهوانيوس من اسبانيا فهرب منها والتجأ الى افريقه فطلبه الموسيطانيون فعاد فى سنة ٨١ قبل الميلاد الى اسبانيا فى رأس جيش من أهل ليبيا وأهل الغرب الاقصى وهزم قوى سولا على شواطئ نهر الوادى الكبير وجعل نفسه سيدا سبانيا وكان عند وصول بومبى الى اسبانيا تغلب على كامل البجيث جزيرة من الرومانيين حتى ان بومبى وجد فى نفسه أنه يستحيل عليه هزيمته فاستمر الحرب خمس سنوات زيادة عما تقدم من السنين وفى سنة ٧٢ قبل الميلاد قتل سيرطوريوس بواسطة بربرنه أحد ضباطه وقلد نفسه زمام قيادة جيش سيرطوريوس فهزم بومبى هذا القاتل فى أول وقعة من بعد أن قتل هذا القاتل رئيسه وقبض بومبى عليه وكان المقصد الاصلى من أعمال سيرطوريوس واجرا آته وحروبه رجوع شوكة المارياينين فى رومة فاجتهد بربرنه فى نجاة حياة نفسه بكشف أسرار مخبآت هذا الحزب فى رومة فقتله بومبى شرقتلة ومن بعد قتله انتهى الحرب مع البجلة ودخلت اسبانيا مرة أخرى تحت القانون الرومانى

ومن قبل غلاق الحرب فى اسبانيا انفجرت ثورة مهولة شديدة من الغلاديا طوريين فى مدينة قابوه فى سنة ٧٣ قبل الميلاد تحت قيادة سبرطاقوس وهو رئيس تراسيانى فانضم اليه الجم الغفير من الرقيق والمنفيين والمطرودين وزادت قوته حتى بلغت فى العدد ١٠٠٠٠٠ نفس وهزم أربع جيوش أرسلت اليه وفى مدة سنتين خرب ايطاليا حتى هدد رومة نفسها وفى سنة ٧١ قبل الميلاد تقلد الحاكم قراصوص قيادة الجيش الجارى فى الحركات الحربية على هذا القائم بالثورة فأتم قراصوص فى ظرف ستة شهور هذا الحرب مع الظفر والنصر التام ومابقى من آثار هؤلاء الثائرين هشمهم بومبى وأبادهم جميعا عند عوده من اسبانيا وكان قراصوص أسر منهم نحو من ٦٠٠٠ نفس فشنقوا جميعا فى طول الطريق الايبانى

ولما عاد قراصوص وبومبى الى رومة طالبا وظيفة القنصلية مكافأة لهما على ماأدياه من جليل خدمتهما الا أن القانون السولانى لايقضى بانتخابهما بما انهما لم ينتقلا فى درجات الوظائف المقررة فى هذا القانون

غير

غير أن فخامة ما أجرياه من الخدمات وزيادة ما لهما من النفوذ والشوكة يقضيان بعدم رفض طلبهما هذا فمن أجل هذا صرف النظر عن قانون سولا وفى أول ينايرسنة ٧٠ قبل الميلاد صار قراصوص وبومبى قنصلى السنة والى هذا الوقت كانا هما الصديقين الرفيقين لرفقاء سولا وحزبه الاشراف فبمجرد دخولهما فى الوظيفة تغيرت سياستهما فيحتمل أنهما أضمرا على عدم بقاء القانون المختص بحكومة الاشراف كما هو المنظور لهما واتضح من قرائن الاحوال جليا انهما أضمرا على ان المنافع العائدة عليهما تحتاج الى فسخ هذا القانون وابطاله بالكلية فمن أجل هذا عزما قبل كل شئ على أن يوطدا جهتهما مساعدة الطائفة الوسطى من طوائف المدينة وهذه الطائفة تكون سببا فى جلب الطوائف الواطية نحوهما وبالكلية ثم سان شوكة الاشراف ويحطمانها وكان قراصوص رجلا محترما فى قومه كثير الثروة فسار بسهولة فى مشروع رفيقه الجسور منحة الله وهبته فى طريق تيسرهما على الحصول على ماهما عليه من الغرض والمقصد وشرع القنصلان فى تدوين اصلاحات ونظامات فى رومة فأعادا شوكة حكام العوام القديمة التى كان سولا جردهم منها ووزعا الشوكة العدلية بنسبة واحدة بين السناتو والفرسان وحكام المالية وهم طائفة من الصيارف يجمعون الاموال والمدخولات ويصرفون رواتب العساكر ونظفا الحكومة مما كان متراكما عليها من أكوام الزبالة والفساد والعفونة والقاذورات بعضها بالاجتهاد وبعضها بطريق احياء وظيفة التفتيش وكان سولا ألغاها وتقايأ مجلس السناتو من بطنه بواسطة شربة من مسهل أربعة وستين عضوا من أعضائه فقام مجلس السناتو والاشراف مع حدة الغضب وقوة الرأس ورفضوا قبول هذه النظامات فألزموا فى آخر الامر بقبولها والاذعان لها وعاضد حركة اصلاح الحكومة وساعد القناصل فيها مرقص طوليوس سيسرو وكان أول مشرع وخطيب فى رومة ذا فصاحة وبلاغة فى الكلام وكان سيسرو وصل الى درجة هذا الارتقاء بواسطة ما حصل من اجتهاد فيريس فى سوء ادارته فى حكومة سيسيليا وأثبت سيسرو بهمته التى لا تكل ولا تمل وعلو بلاغته وفصاحته ما حصل من الجرائم والمصائب التى وقعت من فيريس وصار نفى هذا المجرم من الحكومة وزيادة على هذا فان سيسرو عرض نفسه لزوال عفونة الاقاليم وما فيها من الروائح الكريهة أمام مجلس النواب والامة حتى ان حزب السناتو رأى أنه لا مدافع له أمام سيسرو فانجبر على الاذعان فى تمشية هذه القوانين

ثم ان بومبى بعد انتهاء مدة وظيفته فى القنصلية رفض قبول التوجه لحكومة أى ايالة حسب الجارى وقت خروج القناصل من وظائف القنصلية من بعد غلاق مدتهم ونوى الاقامة فى رومة مع الهدو والراحة لا يتداخل فى الاعمال العمومية بل ينتظر ما يؤل اليه سير الحوادث والوقائع فمن بعد مضى قليل طلب من أجل أداء خدمة أخرى تخص الحكومة وذلك أنه من ابتداء دمار وخراب وزوال الشوكة البحرية لقرطاجنة ومصر وسوريا صار للصوص البحرية من جهات سيليسيا السيادة العظمى فى البحر الابيض المتوسط فكان لهم معاقل ومراكز منشأة على الساحل السيليسيانى تخرج منها مراكبهم وقواربهم ينهبون سواحل ايطاليا ويكنسون سطح مياه البحر الابيض المتوسط من سفن التجارة ويسلبون المينات الايطاليانية حتى وصل خرابهم ونهبهم الى داخل البر ووصل الى الطريق الابيانى من ايطاليا فأرسل بومبى لهم فى سنة ٦٧ قبل الميلاد بشوكة ونفوذ مطلق فيما يتعلق بهم متقلدا زمام أمر الحكومة السامية على كافة سواحل البحر الابيض وفى داخل الارض بمسافة خمسين ميلا

من الساحل فكنس فى ظرف ثلاثة شهور سطح مياه البحر من اللصوص وقطاع السبل وهدم معاقلهم ومراكزهم وما كانوا يأوون اليه وبرحمته ومعاملاته السياسية العظيمة هدى كثيرا من المنفيين والمطرودين من بلادهم الى حالة سلم وأمن فى اقامتهم وتوطنهم فى المدائن الايطاليانية ولما عاد بومبى الى رومة من حرب اللصوص عهد اليه على حسب اشارة منليوس وسيسرو زمام قيادة الجيش فى آسيا الجارى فى أعمال الحروب على متريداطيس وتقلد زمام الحكم المطلق فى الشرق حتى ينهى الحرب المتريداطيقى فسافر بومبى الى قيادته الجديدة وحكومته السعيدة فى سنة ٦٦ قبل الميلاد وفى ظرف سنتين أنهى هذا الحرب مع الظفر الجليل وطرد متريداطيس من ممالكه الى الاقاليم الموجودة خلف جبل قوقاز وأرغم ملك أرمينية طجرانيس على تسليم سوريا وجعل نفسه سيدا عليها من غير مضاربة ولا مصادمة بدخولها الى ايالة رومانية ثم سار الى الجهة الجنوبية من نواحى سوريا العليا وتغلب على مدينة أورشليم ومن فضله ووفائه لم يقرب من المعبد ولا ما فيه من الكنوز والذخائر لكنه نال عداوة اليهود وغضبهم عليه بدخوله رغم أنفهم فى أقدس القداسات ثم هيج حربا على العيد ومين الأ انه مدة هذا الحرب لم تطل لان الحرب انتهى بموت متريداطيس وصرف بومبى ما بقى من السنة فى ترتيب بسينيا وبونطوس وأدخلهما ضمن الاقاليم الرومانية وفصل أعمال ومشكلات الامم المجاورة لهما ورخص لفارناسيس بن متريداطيس فى الاقامة فى بحيث جزيرة القرم وأنعم بقيدوثيا على اريوبارزانيس وزاد فى أراضى غلاطيا وجعل ميركانوس ملك يهوذا وأقيمت السيادة الرومانية على كافة تلك الممالك وفى سنة ٦١ قبل الميلاد عاد بومبى الى رومة فأتحفه الرومانيون بالاحتفالات الفخيمة التى لم يسبق فى المدينة مثلها

ومن قبل وصول بومبى الى رومة كانت تخلصت مع شدة المضايقة من حرب داخلى حصل فيها وذلك أن لوثيوس سرغيوس كاتيلينه وان كان رجلا شريف المولد الا انه كان فاسد الطباع فاجرا شهوانى النفس دخل فى صحبة الناس الفاسدى الاخلاق المذمومين بالقبائح وفساد العوائد ورتب ثورة يقلب بها الحكومة منتظرا مساعدته ومعاضدته بالنافرين من الايطاليانيين والمجرمين والارقاء وأرباب الشغب والمصارعين والاوباش واعتمد فى ثورته هذه على ما بقى من الحزب الماريانى الذى خمد صوته وانقطع نفسه فاكتشف سيسرو وكان فى هذا الوقت قنصلا على ترتيب هذه الثورة وكان على يقظة لا تغمض له عين ولا يميل له بدن خشية من وقوع الفساد فى المدينة فأمر بجلب كاتيلين أمام مجلس النواب وهدده وأرعبه وتوعده أمام المجلس حتى ان هذا المهيج الثائر هرب من المدينة ووصل عطرورية وجمع فيها أتباعه وأعوانه وأنشب الحرب فانهزم كاتيلين وذبح فى واقعة بواسطة انطونيوس نائب قنصل فى سنة ٦٢ قبل الميلاد وتولد من عود بومبى مع شهرة مظفراته الجليلة مباشرة بعد اخماد ثورة كاتيلين وقوع الرعب فى مجلس السناتو وحزب الاشراف وخافوا من انه ربما يسير على ما سار عليه سولا من قبل الا أن بومبى أمن خوفهم وقوى قلوبهم بتفريقه جيشه حال نزوله فى ايطاليا وسار الى رومة مصحوبا ببعض أصدقائه ومكث موكبه الاحتفالى ثلاثة أيام يطوف داخل المدينة وما أمكن بومبى أن يمنع الامن عمل هذا الاحتفال وان كان الجيش لم يشترك فيه ولما طلب القنصلية لنفسه مرة ثانية وتخصيص بعض أراض للذين مارسوا الحرب معه وظهرت شجاعتهم واستحقوا من المملكة مكافأتهم وكذا طلب الاقرار على الاجراءات التى أجراها حالما كان قائدا فى الشرق قوبل بالرفض الجامد من مجلس

السناتو

السناتو وعوّل حزب الاشراف على عقابه من أجل توظيفه قيادة الشرق على غير مرغوبهم فجلبوا الدمار على أنفسهم كما هى عادتهم الجارية من دون أن يتبصروا فى عواقب الامور

وكانت ظهرت شوكة جديدة فى رومة وقامت على قدمها مدة غياب بومبى فى آسيا وذلك أن سلطة الاعمال انحصرت فى أيدى ثلاثة من الرجال سيسرو وكاتو وكايوس بوليوس قيصر وكان قراصوص لامعنى له فى ذاته ولا فى صفاته فانه كان بطىء الحركة لا يسأل عن شئ وكانت سلطته كامنة فى ثروته وأمواله وأما سيسرو فكان مقداما جسورا شهما أول خطيب فى الدنيا على الاطلاق وأما كاتو فكان من ذرية المفتش القديم الذى كان وضع شوكتى مهموزة فى قلب رومة وهيجها على خراب قرطاجنة وكان قائدا لحزب السناتو وأما قيصر فكان هو الرئيس المعروف المعدود عند الحزب الماريانى ومرعيا عند الامة بانه المدافع عن حقوقهم والمحامى عنهم وكان ابن أخى ماريوس وزوج ابنة سينا وكان سولا يعهد فيه من الابتداء البسالة والشجاعة فاجتهد مع كل صعوبة فى المحافظة عليه من القتل أو النفى ونال من سولا العفو والسماح بنبا وانذار صريح وقال سولا ان هذا الولد له يوم من الايام يدمر فيه حزب الاشراف لانى أرى فى وجهه أمارات كبيرة وكان قيصر عمره فى هذا الوقت لم يبلغ سبع عشرة سنة ومن منذ ما بلغ هذا السن اتحد مع الحزب الاهلى وزيادة عما كان عليه من شرف المولد وعلو المقدار من كونه ابن أخى ماريوس وزواج عمته يوليه من ذلك القائد أظهر خدماته الجليلة الاولية فى الجيش فى حصار مدينة مطلين ونال تاجا من ورق الزيتون من أهل البلد بكونه خلص مدينة من مدائن التبعة ولما عاد الى رومة أشهر نفسه بخطابته وذمه وقدحه فى دولابلا ووضح ما أجراه من الاعمال الخبيثة التى أجراها فى نهبه مقدونيا ثم ان قيصر كان توجه الى رودس لتلقى علم البيان والفصاحة عند الاستاذ مولو معلم سيسرو وفى أثناء سفره قبض عليه اللصوص السيليسيانيون فلما خلص منهم بفداء جسيم جمع بعض المراكب والسفن وأغار عليهم فأسرهم وشنقهم وفى سنة ٧٤ قبل الميلاد بلغه أنه صار انتخابه لوظيفة القسوسية فتوجه الى رومة وقضى فيها سبع سنوات من دون أن يتداخل فى أى مادة من المواد السياسية لكنه استحوذ على كثير من الاصدقاء والمحبين له بما فيه من جاذبية الطبع وفى سنة ٦٧ قبل الميلاد وقت ما سافر بومبى الى اللصوص صار توظيف قيصر مأمور ماليه وفى نفس هذه السنة ماتت عمته أرملة ماريوس فخطب قيصر خطبة جليلة على جثتها وحمل فى احتفال جنازتها صورة ماريوس مصنوعة من الشمع رغما عما كان عليه قانون المدينة من تحريمه مثل هذه الافعال وفى سنة ٦٥ قبل الميلاد صار توظيفه فى مصلحة الطرق فزاد الناس فى محبته بما أظهر من الافتخارات التى أجراها فى الالعاب العمومية ولما صار توظيفه ناظرا على الطريق الابيانى أدى فيها خدمات جليلة وأصلحها اصلاحا جيدا على مصاريف من طرفه وكان سولا أمر بازالة علامات النصر الذى حصل على الصمبريانيين وتماثيل ماريوس وأن لا يتوقع من الامة أدنى ذكر جليل يختص بما أجراه عساكرها وأكبر قوادها من الاعمال الكبيرة فتجاسر قيصر وأعادها جميعها فى ليلة واحدة وفى صباح اليوم الثانى هرع أهل المدينة أفواجا ينظرونها ويتفرجون عليها فسكب عساكر ماريوس القديمة عبراتهم على خدودهم فرحين بروءيتها وبما أن قيصر لم يفسخ مفعول القانون فما كان لمجلس السناتو من طاقة على التداعى عليه بخصوص فعله هذا ومن ابتداء هذا الوقت نظر الناس الى قيصر بعين رياسته عليهم ووجهوا اليه مراسم الاحترام وفى سنة ٦٣ قبل الميلاد صار حبرا من أحبار الدرجة الاولى العالية وفى سنة ٦٢

قبل الميلاد صار حاكما وفى سنة ٦١ استحصل على درجة حاكم اسبانيا القاصية وأظهر فيها أعماله الجليلة العسكرية بتغلبه على لوسيطانيه ونال خضوع عساكره له وانعطافهم اليه ومع أن قيصر كان غائبا عن رومة لكنه ماحصل أدنى نقص ولا فتور فى نفوذه وما زال مستمرا فى تدبير حركات حزبه وأنعشته الحكومة الاسبانية أيضا بواسطة دفعه قسما عظيما مما كان عليه من الديون وفى هذا الوقت بلغ عمره تسعا وثلاثين سنة وبزغ فجر أعماله الجليلة فكان أنموذجا للمروءة خبيرا بما تميل اليه نفسه وكان أعداؤه يذمونه بالخلاعة والرقاعة وحفظ فى مدة شبابه الاولى عنفوان وشدة جسمه وصلابته حتى استخدمه بعد أن صار كهلا عجوزا وتعوّد على عفة النفس وكان أستاذا فى فن الضرب بالسيف وركوب الخيل وفن السباحة والعوم وكان مشهورا بالصبر على الاسفار فكانت تأتى اليه على حين غفلة أسفار مهلكة حتى كان يسافر ليلا ليكتسب الزمن اللازم له وكان عنفوان عقله وجودة ادراكه عدوّا لعنفوان جسمه وصلابة أعضائه وكان له قوّة ادراك غريبة وحواس عجيبة وما كان عنده أدنى سهو ولا ينسى شيأ قط والذى أعزه فوق كل ذلك عند أحبابه وأصدقائه حميته وسخاؤه وسعة صدره وتطافة قلبه وخلوص نيته وحسن طويته فانه ماغض الطرف عن صديق له قط بل كان صديقا الصديقه فى الرخاء والشدة وما كان ذلك فى حساب وكان قيصر يحب أصدقاءه وهو محبوب عندهم وما تضرر أو نفر أحد من الذين كانوا فى حزبه من برود أو عدم محمدة حصلت منه وظهر ما كانوا عليه من الميل له والرضا عنه بوجدهم وأسفهم وحزنهم وتألمهم عليه وقت موته وكان متمسكا بأجل الاحترامات التى كان يؤديها لوالدته فى حال حياتها وكان قلبه وجسمه مشحونا بمحبة زوجته وابنته يوليه وما تركهن من دون مكافآت أسدلها عليهن

وكان قيصر مثل غيره من العقلاء قابلا لتسلطن الغضب عليه الا انه كان حاكما على أخلاقه ونفسه وكان رجلا عمليا لا علميا على غاية من الدقة وقلما خاب فى الحصول على أحسن أعماله من تدبيره ومباشرة حركاته وما كان عجولا فى انتشاب الوقائع بل كان ينتظر الوقت الموافق لاجرائها حسب أغراضه مع الهدوّ والتبصر فى العواقب وبالجملة فكانت مشروعاته وأعماله جليلة خالية من العيوب والشوائب والتملق جارية على عمل كامل وشغل لا يشاركه فيه غير نفسه أى لا يحكمه فيه خليل ولا نديم ولا زوجة ولا محبوبة وأما من جهة كونه كان قائدا فانه كان نسر يع الفهم والادراك سريعا فى حركة الاعمال من دون أن يخطئ فيها فهمه العظيم وما كان يدّعى ضعف عدوه بل كان يجعله على الدوام أنه أقوى منه ويصدمه الصدمة فى محلها وكان يقاسم عساكره فى المصاعب وشدتها والراحة وحصولها وكان لهم أجل صديق وأقوم عماد وأحسن طريق وأكبر رفيق وكان قائدهم الذى لا ينثنى عنانه ولا ينكب حصانه فمن ثم لا عجب من أن النصر والظفر كانا تابعاله وبين يديه اذا توجه لاى محل بعساكره وكان هذا الرجل بالطبع من الرجال السياسيين من مبدا شبابه له احساس غزير غريزى فى تدبير الاعمال حسب وقائع الاحوال وكان له قصد من أعلى المقاصد التى يرغبها كل انسان لنفسه وهى السياسة والادارة والعسكرية وتجديد الآداب والتهذيب لامته الغريقة فى بحر الاضمحلال والشيخوخة وصار مثلها كمثل الامة الهلينقية وان كان المنظور فى أعماله أنها مؤثرة على الوقت الحالى وقتذاك لكنها أثرت أيضا على الاحوال التى جاءت بعد زيادة عن مبتدا اجرائها وان كان قطع المدخل حال دخوله فى مأموريته الجليلة وصرف النظر عن الدنيا وما يقع فيها من تغير الاحوال وتقلب الازمان وجعلها

اعظم

أعظم دار لنفسه وأكبر مقر لحياته فيها وما سأل عن دورها وانقلابها في وسط السحب المتكاثفة والظلمات المترادفة التي كانت مغشية على هذه المدة وصار لهذا البطل العظيم والشهم الضيغم الكبير هيئة ذات جسارة واقدام وشهرة في الحروب وشجاعة في الكروب وذكاء في السياسة وكان أعظم رجل وأكمل انسان في الدنيا القديمة

واتفق لهذا الرجل العجيب أن بومبي وجه التفاته لمساعدته لما جحد السناتو مكافأة بومبي على خدماته التي أجراها وكان قيصر يجتهد من مدة طويلة في البحث على انفصال بومبي من حزب الاشراف فتضرر بومبي من عدم العدل والانصاف الذي عامله به مجلس السناتو وقبل ما عرضه قيصر عليه من بعده عن هؤلاء الاشرار وانعقد نظام وترتيب مخصوص بين قيصر وبومبي وقراصوص عرف بالاتحاد الثلاثي وبواسطة هذا الاتحاد صار لهم الطاقة الكافية على اجراء الاعمال في رومة حسب المقبول عند الامة فكان أول نتيجة حدثت من هذا الاتفاق هي انتخاب قيصر لوظيفة القنصلية في سنة ٥٩ قبل الميلاد فأسرع في الحال وأصدر لائحة أو قانونا يختص بتقسيم الاراضي العظيمة من ناحية قسم كامبانية على فقراء الرومانيين وعلى حائزي البسالة الذين كانوا في الحروب مع بومبي فعارض مجلس السناتو مع الحدة والشدة في عدم تمشية هذه اللائحة فأرغم على الانقياد والتسليم ووزعت الاراضي وصدق على أعمال بومبي وترتيباته في آسيا وحاز الفرسان من الاتحاد الثلاثي منحهم امتيازات عظيمة في الفلاحة والزراعة في جهة آسيا وارتبط هذا التحالف رباطا قويا بين الثلاث فواد بزواج بومبي بوليه ابنة قيصر وأما قيصر وكانت زوجته كورنيلية ماتت من مدة بضع سنين فانه تزوج أيضا كلبورنه ابنة بيسو وبمجرد انقضاء مدة قيصر في وظيفة القنصلية وكان مطلق التصرف زيادة عما كان فيه من القنصلية استحوذ لنفسه حكومة الغليين والريقوم لمدة خمس سنوات من مجلس السناتو على شرط أن يكون محافظا ومدافعا عن أصدقاء الامة الرومانية ومحالفيها في تلك الجهات وانتخب لنفسه هذا الموقع ليكون له طاقة على تجنيد جنود كثيرة جديدة وأن يكون الجيش منسوبا اليه لا لغيره وأن يكون في هذا المحل على قرب كاف من رومة حتى يمكنه الاستحواذ على ما يعود اليه من المنافع والمزايا الممكن حصولها في رومة وفي هذا الوقت كان بلغ من العمر أربعين سنة وكان من قبل سفره الى هذه الجهة نفي سيسرو وأرسل كاتو لاجل اغتصاب جزيرة قبرص من مصر وترتيبها وتحويلها الى اقليم روماني وهي في المعنى طريقة طرد أو نفي بما أنه ظهر أن كاتو لا يوافق على مثل هذا الشغل ومن ثم صار تجريد مجلس السناتو من رؤسائه ومن بعد مضي بضع أيام من سفر سيسرو من رومة ورد من الغلية أخبار الى قيصر ألزمته بالسفر والتوجه حالا الى الاقاليم التي أخذت عليه عهدة حكومتها وذلك أن جنيوا أو جنيفه وهي آخر حركة الغلية الشمالية أي الموجودة خلف جبال الالب صارتهديدها بجيش كبير قوي من الهلفيطانيين وزحف هذا الجيش عليها قاصدا عبور نهر الرون من هذا الموقع لاجل البحث عن مواطن جديدة في الغلية الغربية يسكن فيها قومهم بما أن أرض بلادهم غير موافقة لتوطنهم وكانت أمة هذا الجيش هدمت مساكنها وسارت مع عساكرها للبحث عن أراض يسكنونها فوصل قيصر الى جنيفة في ثمانية أيام وحصن معبر النهر بالاستحكامات وألزم الامة الهلفيطانية بعبورهم الى داخل الغلية من أطول طريق وأصعبه من فوق جبل يوره ومساق تابعا لهم وعبر نهر عرار أو ساونه وأوقع بهم وهزمهم هزيمة مهولة في نواحي براقطي أي أنطون في نواحي بورغندى وأرغم من بقي منهم على قيد الحياة على العود الى بلادهم

وكانت هذه الامة لما ابتدأت فى حركتها فى السير من أرضها وبلادها كانوا نحوا من ٣٦٨٠٠٠ نفس رجالا ونساء وأطفالا فلم يرجع منهم الى بلادهم سوى أقل من الثلث

ومن بعد هذه النصرة مباشرة توسل اليه كل من العيدنيين والغليين فى أن يساعدهم على الصكانيين وهى قبيلة صلطيكية قاطنة فى شمال الامة الهلفيطية كانوا عبروا نهر الرين وهددوا جميع الغلية بالتغلب عليها وكانوا تحت قيادة ملك منهم اسمه أريوفسطوس وهو طاغية جرمانى كان يرى فى نفسه أن لا أحد يغلبه فى الحروب وكانت رجال هذه العشيرة فى صور ضخمة مهولة كثيرى العدد حتى ان الجيش الرومانى لما رآهم انحلت عزائمه ووقع فيه الرعب والخوف واندهل من رؤيته هذه الامة فوعدهم قيصر بالنصر ووعظهم ووبخهم وعابهم على عدم ثباتهم وقال لهم أى لعساكره لو تركتمونى لوجدتمونى فى طاقة كافية على محاربة هؤلاء القوم مع الفرقة العاشرة ونحن فينا الكفاية فانتشبت واقعة شديدة بالقرب من مدينة بالى انهزم فيها الجرمانيون شر هزيمة وطردوا على أعقابهم عابرين نهر الرين ثانيا وهرب اريوفسطوس ناجيا بنفسه فى قارب على نهر الرين

وفى سنة ٥٧ قبل الميلاد غزا قيصر أراضى بلجيا الموجودة فى شمال نهر السين وتغلب عليها من بعد حروب عنيدة وفى السنة التالية أنشأ أسطولا وأخضع نواحى بريتانى وحصل له فيها الكرب الجسيم وفى نفس هذه السنة أدب أهل السواحل وعاقبهم أشد العقاب وفى مدة ثلاث حروب تغلب على جميع الغلية (فرانسا) من نهر الرين وجبل يوره الى البحر المحيط الاطلنطيقى

وقضى قيصر فصل الشتاء فى مركزه العسكرى فى الغلية الجنوبية من ايطاليا حتى يمكنه فيه مباشرة أعمال حربية فى رومة وفى فصل شتاء سنة ٥٦ قبل الميلاد ساوى المسالمة ولايم الامور بين بومبى وقراصوص بعد أن ازداد الشر بينهما حتى وصلا الى حمل السلاح على بعضهما ونجح فى فصل هذه المسئلة وأمضى حكمه فيها فى مجلس تقابل فيه معهما فى لوقا وراقنه وربتوا فيه تصميما من أجل أعمالهم القابلة المختصة بهم الثلاثة ونصحهما وأكد عليهما فى عمل الاحتياطات اللازمة لاستلام زمام القنصلية فى السنة القابلة ولما انتهت مدة وظيفة القنصلية تعين بومبى لحكومة اسبانيا وقراصوص لحكومة آسيا وامتدت نيابة قنصلية قيصر على الغلية لمدة خمس سنوات أخرى فمن هذا ترا آى لقيصر انه انتخب لنفسه أدنى المواقع وأقلها قيمة الا انه كان فى الحقيقة ونفس الامر هو الموقع الذى جعل له طاقة على اجراء الاشغال التى كان عاكفا نفسه عليها ومن الضرورى له اجراؤها وهى تمدن وحضارة اوروبا واصلاح أمورها وأحوالها وفوق هذا كانت رغبته القرب من رومة لا البعد عنها حتى انه عند ظهور حوادث أو وقائع فى رومة يقدر على الدخول فيها مباشرة حال وقوعها ويلزمه مباشرتها لاجل الفصل فيها

وفى سنة ٥٥ قبل الميلاد عبر الجرمانيون مرة ثانية نهر الرين فى قوة عظيمة فهزمهم قيصر على الشط الايسر من ذلك النهر ونصب جسرا من المراكب على النهر بالقرب من مدينة كوبلنزه وعبر عليه الى جرمانيا وعاقب قبائل تلك الجهات بأشد عقاب وعذبهم بأشد العذاب وفى آخر فصل خريف هذه السنة شرع فى غزوة استكشافية داخل بريطانيا واستحصل على رهائن من شعوب أهل بريطانيا فأصدر مجلس السناتو أمرا بعمل احتفالات مدة عشرين يوما شكرا له على ما حصل منه من النصر والظفر رغما عما حصل من معارضات كاتو فى رفضه عمل هذه الاحتفالات مع أعدائهم هنا

العسكري الجليل القدر وفي سنة ٥٤ قبل الميلاد غزا قيصر بريطانيا مرة ثانية وتغلب على القسم الجنوبي من انكلترة وأخذ رهائن الشعوب الوطنية وضرب عليهم خراجا معلوما سنويا الا انه ما وضع محافظين من أجل ضبط الجزيرة وفي فصل شتاء هذه السنة انفجرت ثورة في الغلية انهزم فيها فرقة قوية من الرومانيين وثارت أخرى وكانت تحت قيادة كنطوس سيسرو أخو سيسرو والخطيب على خطر من الهزيمة فسار قيصر في الحال لمساعدة سيسرو وهزم قوة الغليين وكانت مؤلفة من ٦٠٠٠٠ نفس وأعاد النظام في البلاد واستتبت راحة العباد ولما كان الجرمانيون مساعدين للغليين على عصيانهم أغار قيصر على بلادهم مرة أخرى في فصل صيف سنة ٥٣ قبل الميلاد وتولد من وجود جيشه الرعب والخوف في كافة الجهات الجرمانية حتى هرب الجرمانيون الى الجبال والغابات من دون أن تحصل منهم أدنى مقاومة وفي سنة ٥٢ قبل الميلاد قام أهل بلاد الغلية الوسطانية أجمع على ساق واحد على قيصر تحت قيادة رئيسهم الشجاع الجسور فيرسنغطوريكس ملك افرني فحطم قيصر الثورة وأسر قائدها من بعد عدة حركات جسورية ومحاربات شديدة وقعية ومظفرات عظيمة فخرية وفي ظرف سنة ٥٠ قبل الميلاد نجح بحزمه وثبات قلبه وما عنده من التدابير الحربية بالاجراآت العسكرية في أن جعل كافة بلاد الغلية تحت ادارة المملكة الرومانية ورتب منها نوعا حكومة عدلية وادارات سياسية وأعمال تمدنيه وأشغال وفنون حضرية

وفي غضون ذلك أخذت الاحوال والاعمال في رومة في سرعة الارتباك والاشكال وتعقدت فيها الامور وقام فيها الجسور فأما قراصوص المشهور بالفخر العسكري فانه سافر الى حكومته في الشرق من بعد انقضاء مدة قنصليته ومن بعد أن سلب معبد اليهود ومعابد أخرى كانت مشحونة بالاموال والكنوز وضمها بالاموال اللازمة لتدبير أحواله وقضاء أعماله فغرق بطيش عقله وعدم تبصره وخيبة أمله في حرب مع مملكة فارطية فانهزم في الحال وقتلت منه الرجال وقتل هو بخيانة بمعرفة الفارطيين فتولد من موت قراصوص أن صار بومبي النائب الوحيد عن الاتحاد الثلاثي من رومة وداخله الحسد والغيرة وتمكن الحقد في قلبه من جهة قيصر حتى كانه ما كان بينهما صداقة ولا مودة ولا نسب ولا محبة وما كان بومبي توجه لمقر حكومته في اسبانيا بل بقي في رومة مشتغلا باشغال يعود منه النفع على ذاته وزيادة ثروته واحتياجاته وكانت حكومته جارية في اسبانيا بمعرفة نواب مندوبين من طرفه ومعينين فيها بمعرفته ومال بومبي وانعطف مع حزب الاشراف وخصص نفسه بالشغل اللازم لحطم قيصر وهشمه وانحطاط قدره وهتك حرمته وكانت زوجته يوليه بنت قيصر ماتت قبل هذا وصار لا يوجد بين الخصمين أدنى رابطة ولا علاقة وتسبب في كون السناتو أصدر لائحة تقضي على قيصر بتسليمه نيابة قنصليته الى من يعينه مجلس النواب ويعود الى رومة ويقيم فيها كآحاد أهلها قبل أن يتقلد زمام القنصلية فافتكر قيصر في نفسه انه لو فعل هذا الوقع في قبضة أعدائه وتباهى كاوتي أقواله وافتخر بان له طاقة في التداعي على قيصر من بعد خلعه من قيادته وتجريده من حكومته وما اكتفى أعداء قيصر بهذا فقط بل ساروا في طريق ألزموه فيها باجراء حالة فاصلة بينه وبينهم وذلك انه تحت علة تجند عساكر للحرب مع مملكة فارطية طلب مجلس السناتو من بومبي وقيصر أن يجهز كل منهما فرقة عسكرية ترسل الى اسيا وكان بومبي أعار فيما سبق فرقة لقيصر فطلب بومبي رجوعها لاداء هذه الخدمة وبواسطة هذه الحيلة المكرية حرم بومبي خصمه من فرقتي عسكرية وأما قيصر فانه أسرع

فى الحال بارسال الفرقتين من بعد أن أعطى لكل شخص من العساكر مكافأة على ما أداه معه فى الحروب وجائزة أخرى تبقى له فى ذمته حال دخول جيشه منصورا فى رومة وعسكر هؤلاء العساكر فى نواحى مدينة قابوه وتوجه بومبى اليها مباشرة فعرض كوريو لمجلس النواب وكان على صداقة لقيصر وقال انه يلزم أن كلا من قيصر وبومبى يفرقان جيوشهما فلم يقبل مجلس السناتو هذا القول وكتب قيصر الى مجلس السناتو كتابا يوضح فيه رغبته فى تفريق قواه وعساكره لو سار بومبى على منواله فكانت نتيجة ما عرضه فى مجلس السناتو أن صدرت لائحة منه قاضية على قيصر بتفريق جيشه من دون شرط معلوم ويوم معين وان حصل منه أدنى مخالفة عوقب بأشد العقاب وأعلن بعداوته للعموم فخالف مارك أنطونى وكاسيوس وكانا حاكمين ما كان عليه مجلس السناتو من الرأى فلم يلتفت المجلس الى أقوالهما وطردهما من الديوان وهددهما بالموت فهربا فى اليوم الثانى مستخفيين حتى وصلا الى معسكر قيصر فى راثنه

وما كان قيصر يختار لنفسه شيأ بل ما أجراه أعداؤه من اجتهادهم فى دماره فصل الامر بان ما يجريه قيصر هو الخيرة له لانه كان يعلم جيدا انه لو أذعن وسلم لهم ما طلبوه منه فكأنه سلم نفسه وبلاده موأهلها القوم ليسوا كفؤا للادارتها خصوصا وان رومة كانت حكومة حرة بالاسم فقط وكان قلبها عفنا اذا رائحة كريهة وان الذين نسبوا قيصر للعيوب ووسموه بالخروج عن حد القانون كانوا من الكاذبين وكانوا فيما فعلوه من أعمالهم سائرين فيها على طريق لجلب المنافع لانفسهم فقط وما كانوا يسألون عن ضرر وأذى يحصل لغيرهم من العباد والبلاد وكان قيصر فى الحقيقة محبا للحرية وأبوها وعلى حسب ما أجراه من فصل مسائل الاحوال الراهنة وتتذلك أثبت وجود المملكة الرومانية من بعد أن كانت أشرفت على الدمار وكان أنذر من قبل ببضع أيام بهياج الاحوال ومخاوف الاعمال فى رومة فأسرع فى الحال بارسال الفرقة الثالثة عشرة الى راثنه وبمجرد ما أخذ الاخبار من الحاكمين اللذين هربا عنده فى معسكره وهما مارك أنطونى وكاسيوس عول على السير الى رومة فى الحال وفصل الحرب والمشاحنات وما كان عنده أدنى حركة تؤخره عن ذلك فلاجل خلاص رومة ونجاتها صار لهم من الضرورى قلب الحكومة القبيحة الحالية الموجود فى أيديها زمام سلطة المملكة وشوكتها فمن ثم صف الفرقة الثالثة عشرة وبسط لعساكرها حالة الاعمال والحكام واضطها حقيقة الاحوال فكان قوله وكلامه لهم جميعا ان الرجل السياسى الثابت العزم والحازم الرأى هو الذى له الآن تسع وعشرون سنة يحامى عن الحرية ويدافع عن أمرها فى الاوقات الطيبة والردية وشجع من أجل رفضها وعدم قبولها حراب القاتلين وخناجر الجلادين وسكاكين الجزارين من حزب الاشراف ومن سيوف الجرمانيين وأمواج البحر المحيط الغير معلوم من دون أن يهتز أو يرتج من هؤلاء القوم والذى مزق قانون سولا ورماه تحت أقدامه وقلب أحكام مجلس السناتو وأبطلها وعكف نفسه على المدافعة والمحافظة على حرية البلاد وعتق العباد بالسلاح والحروب وراء جبال الالب جديرا بان يكون أهلا للاحتقار من حزب الاشراف ثم استمر فى أقواله لا تنسب الحرية المدنية لعموم الكلوديانيين الذين حرق حماس جمهور بهم رجالهم من مدة طويلة وصار رمادا وزبدا فى الارض بل تنسب هذه الحرية المدنية والحضارات البلدية لشبان رجال من مدائن وقرى شمال ايطاليا الذين ظهرت عليهم حواس جديدة وآراء سديدة وأفكار جيدة يسعون فى عتق اخوانهم وصلاح بلادهم وثروة أهلهم وراحة أولادهم وما زال فى خطابته وأقواله حتى أدخل

فكر هذه الحرية فى العساكر واشتد تأثيرها على عقولهم وقال لهم مستمرا فى أقواله وهؤلاء الشبان لايزالون قابلين للحروب ويموتون تحت هذا الفكر ويأخذون لانفسهم وبلادهم من قيصر حقوق المدنية ودمار العبودية التى رفضتها الحكومة الشورية اعطاءها والذين هم عند سقوط قيصر تؤل حالتهم مرة أخرى الى أن يكونوا تحت رحمة البلط والفؤس مع أن هؤلاء الآن مشاهدون دلائل العمل القطعى الحاصل من الاعمال العنيفة القاسية الشارعة فيها حكومة الاشراف لتجعل هذه الاعمال ضد أهل الغلية الشمالية من ايطاليا فدخل فى عقول العساكر والضباط حقيقة ماقاله لهم قيصر وعدله وصمموا بعزم ثابت وعهد واثق أن يكونوا معه على آخر نفس وما كان مع قيصر فى هذا الوقت الافرقة واحدة فقط وأرسل الاوامر الى باقى فرق العساكر من أطراف وأكناف بلاد الغالية للالتحاق به مع سرعة السير وعدم التأخير وأما هو فانه أسرع فى سيره وعبر فى رأس الفرقة الثالثة عشرة الروبيكون وهو نهر صغير فاصل اقليمه من ايطاليا وتقدم بسرعة الى رومة فهرب مجلس السناتو فزعا ورعبا منه وترك مبالغ أموال المالية خلفه وأما عساكر بومبى فانها تركت قائدها بومبى بالالوف وهرعوا متوجهين الى قيصر وترك بومبى ماينوف عن نصف عشر الفرق الموجودة تحت قيادته ولما رأى بومبى ذلك انسحب الى نواحى برنديسيوم فساق قيصر عساكره خلفه ولما رأى بومبى أنه يستحيل عليه مقاومة خصمه فى ايطاليا عبر هذا الرجل العالى القدر بومبى الى نحو الجريس مع ٢٥٠٠٠ بقوا على صداقته وعزم على اجراء هذه الطريقة مؤملا أن فيه طاقة كافية بأن يأتى بكامل القوة الشرقية ضد قيصر فى ايطاليا ويهشمه ويفنى عمره وبواسطة تقهقره هذا اسلم لخصمه أجل الفوائد وأعظمها وهى احتلاله كرسى الحكومة وتقلده زمام الاحكام فى رومة

وفى هذا الوقت صار قيصر سيدا ايطاليا والغلية وأما سردينيه وسيسيليا فانه صمم فى نفسه من الابتداء على أن يكون أول اجتهاد يحصل منه هو تشييد سلطنته وحكومته أولا على الحبث جزيرة ويجب أعداؤه ومن رقته وعدله وحلمه فى سيره فى أعماله من احترام أملاك وعقارات الغائبين وعدم قربه منها وكانوا ألد أعدائه وحكم عساكره وأمرهم بأن يسيروا كسير أهل المدائن والقرى الايطالية الرومانية ولا يفتكروا فى أنفسهم أنهم تغلبوا على هذه الجهات فيعاملون أهلها معاملة الفاتحين لها وان يحترزوا من أنواع الخطف والسلب ويجتنبوا أعمال الفساد مع البلاد والعباد فنال بذلك من عموم الامة وعلى الخصوص من طائفة صيارف المالية الرضا والقبول بما أجراه من الحزم والتدبير فى الطريقة التى سار عليها ووجه وجوه عساكره وأياديهم اليها ولما سكنت حالة ايطاليا واستتبت فيها الراحة والامن وخضعت حكومته وسارت فى المجرى الذى وجهها فيه انتقل قيصر الى اسبانيا وكانت على صداقة بومبى وله فيها سبع فرق عسكرية فتغلب عليها بحرب شديد استمر أربعين يوما على قدم واحد ومن بعد نصره وظفره رجع من طريق الغلية (فرانسا) وأخضع فى طريقه مدينة مسيليا (مارسيليه) فى سنة ٤٩ قبل الميلاد وكانت على صلابة كاملة على نوابه وفى مدة غيابه لقب بلقب حاكم مطلق فقبل هذا المنصب الا أنه مامكث فيه الا احد عشر يوما وفى ظرف هذه المدة صار انتخابه قنصلا فاصدر منشورات ولوائح بعود كافة الذين صار نفيهم فى مدة سولا الاميلو وعمل الاصلاحات اللازمة لخلاص المديونين من ديونهم وأجرى أول مادة من مشروعه الجليل بتوطيد علاقات الايالات وارتباطها ببعضها ونشر حقوق كافة المدينة الرومانية على أهل الغلية ولما رأى أن بومبى لاطاقة له على الاغارة على

ايطاليا عبر الى الجريس فى رأس جيشه من نواحى برنديسيوم ورخص القواد البحرية التابعون لبومبى لقيصر أن ينزل فى ايبروس من دون أن تحصل منهم أدنى مقاومة له فنجح قيصر فى طرد خصمه الى داخل اقليم تساليا وما حصل لبومبى أدنى فائدة من اسطوله وألزمه قيصر بانتشاب الحرب فحصلت بينهما واقعة فاصلة فى فارساليا فى ٩ أغسطس وكانت فى سنة ٤٨ قبل الميلاد على حسب ما ذكره مؤرخو الرومانيين فانهزم بومبى فى هذه الواقعة وقتل من عسكره ١٥٠٠٠ نفس وهرب هو من ميدان الحرب وفى اليوم التالى سلم الباقى من عسكره وكانوا ٢٠٠٠٠ نفس الى قيصر وخضع له فى الحال الجريس وعقد الجم الغفير من حزب الاشراف صلحا معه وكانوا هربوا من رومة والتجؤا فى ايطاليا وأما بومبى فانه توجه ناجيا بنفسه الى مصر وكانت محكومة فى ذلك الوقت بالشاب بطليموس الثالث عشر وكان طرد أخته وهى زوجته أيضا كليوبطره الى جهة سوريا وكان هذا الملك المصرى محكوما بثلاثة من طائشى العقول من الجريق فخافوا من أن بومبى ربما يبحث على الطريقة التى يتيسر له بها الحصول على كونه يتغلب على مصر ويصير سيد المملكة فعولوا على قتله ولما صار القائد المهزوم على مسافة من ساحل بلزيوم (الاسكندرية) مع بضع مراكب وقوة قليلة من العساكر وأراد النزول أرسل له المصريون زورقا صغيرا على زعم أن المياه ليست كافية لحمل المراكب الكبيرة حتى تمكن من الوصول الى الساحل ونزل بومبى فى الزورق وحده متقويا بمعرفة رجل من ضباط البحرية كان أصله مستخدما عنده وتحت قيادته وبمجرد ما صار بومبى على شرف التخطية من الزورق الى البر ووضع قدمه على حرف القارب ضربه بالخنجر فغطى وجهه بردائه وسقط ميتا من دون حرب ومن بعد مضى بضع أيام وصل قيصر الى مصر معقبا فى حركته بومبى وكان معه قوة قدرها ٤٠٠٠ نفس من العساكر فاخرج المصريون له رأس بومبى من بعد أن آلت الى التغير وبهت وجهه فلما رآها قيصر دور وجهه الى جهة أخرى وناح وبكى وأن واشتكى وولول كالثكلى وأمر بقطع رقبة قاتل بومبى فى الحال وصرف مدة خمسة أشهر فى الاسكندرية تظم فيها أعمال مصر وأحوالها وأجلس كليوبطره على تختها من بعد أن سحرته بكمالها وجمالها وأحرقت لبه وكبده بقدها ودلالها وكانت هذه حالة غير مقبولة لانه أوقع نفسه فى حرب مع أهل الاسكندرية وفى واقعة من الوقائع التى حصلت على النيل غرقت مركبه وانجبر على العوم ناجيا بنفسه ماسكا فى يده أوراق شرح الحروب التى حصلت فى الغالية وكانت التى فيها الاوراق والرسائل فى أسنانه ومع ذلك فانه نجح أخيرا فى أعماله وأما بطليموس فانه غرق فى النيل وشيد القيصر حكم كليوبطره فى مصر وقد ذكرت هذا مطولا فى تاريخ مصر فى هذه المدة والله أعلم بالصواب

ثم ان قيصر ترك مصر وأسرع الى آسيا الصغرى واستمر فيها فى حرب لبث خمسة أيام فهزم فرناسيس ابن متريداطيس صاحب بونطوس وكان يفتش له على طريقة لاسترداد ممالك أبيه ثم سار من آسيا الى أفريقه متتبعا ما بقى من حزب بومبى وكانوا أقاموا لهم فى افريقه مجلس سناتو وحكومة فى مدينة أوطيقه فمع أن البومبيين هزموا قيصر فى واقعة حصلت فى روزبينه سنة ٤٧ قبل الميلاد الا أنه شتت شملهم فى واقعة كبيرة حصلت فى نواحى طابسوس فى السنة التالية وقتل كاتو وصكيبيو وملك نوميديا أنفسهم بأنفسهم وخضعت افريقه الى قيصر وفى سنة ٤٥ قبل الميلاد التزم على التوجه الى اسبانيا لاطفاء ثورة جديدة تولدت من البومبيين ونجح فى اخمادها الا أن الاقامة فى اسبانيا من بعد النصرة الاخيرة كانت أشغالها صعبة جدا حتى مكث فيها نحوا من ستة شهور

وعاد

وعاد قيصر الى رومة وهى المرة الرابعة من ابتداء وقوع الحرب الداخلى وفى نحو غلاق شهر مايه من سنة ٤٦ قبل الميلاد شرع فى عمل موكب واحتفال وما كان حصل قبل ذلك احتفالات لشئ من المظفرات التى حازها فلبث هذا الاحتفال أربعة أيام يوم للغلية ويوم لمصر ويوم ابونطوس ويوم لنوميديا وأما النصرات التى حصلت له فى الزيده من أعمال اسبانيا وفى فارساليا من أعمال تساليا فانها ماذكرت بسبب أنها كانت حصلت فى حرب داخلى ومن بعد تمام هذه الاحتفالات الجليلة منح العساكر وكل واحد من فقراء الرومانيين عطايا وهبات من النقود والغلال وانتهى الشغل الذى كان ابتدأ فيه هذا الرجل الفاتح السياسى فصار حاكما مطلق التصرف مدة عشر سنوات وقائدا مدة ثلاث سنوات وبعبارة أخرى سيد رومة المطلق الحكومة والتصرف ومع أن هيئات الجمهورية كانت باقية الا أن رومة صارت سلطنة عسكرية قوانينها واجراآتها بأغراض وأوامر حاكمها الاكبر لانه من بعد الحرب الاخير الذى حصل فى اسبانيا وظف قيصر حاكما مطلقا وقائدا مدة حياته له أن يجرى حربا أو يعقد صلحا من دون استشارة مع مجلس السناتو وله الحق فى تسمية ولى عهده من بعده وأعلن السناتو بتقديس جسمه وكل دسيسة أو ثورة تحصل فى حقه فهى خيانة وطنية وجريمة دموية

وفى المدة القصيرة التى تقلد فيها وظيفة السلطنة شرع فى عدة أعمال كانت على غاية من القبول عند الجمهور عادلة خفيفة وزاد فى مجلس السناتو الى أن بلغ عدد أعضائه ٩٠٠ عضو واختار أن يكون أعضاء مجلس السناتو من رومة ومن الايالات على حد سواء وقرر الشوكة العدلية القضائية لمجلس السناتو والفرسان مرة أخرى وأنعم بالمدينة الرومانية الكاملة على كافة سكان الغلية الشمالية من ايطاليا وعلى كثير من الامم من أهل الغلية الموجودة خلف جبال الالب وفى اسبانيا وعلى أمم فى جهات أخرى وبذل مجهوده فى نقض الامتيازات التى كانت موجودة بين رومة وبين الايالات وجعل عموم المملكة الرومانية شرقا وغربا على منوال واحد متعادل فى عموم أنحائها وأكنافها وكافأ الذين مارسوا معه الحروب بالاغداق عليهم بأراض خلف البحر من ايطاليا وأعاد بناء قرطاجنة وقورنثه وبهذا أحيا محلات تجارة كانت الجمهورية أمرت بخرابها سياسة فى حب أربابها وخفف طوائف الفقراء الموجودين فى رومة بكونه وزع منهم ٨٠٠٠٠ نفس فى مستعمرات شيدها فى أوروبا وافريقه وآسيا ونشر الحرية الكاملة على كامل طالبى العلوم والمعارف واجتهد فى زيادة علو مقدار التهذيب والتعليم فى عموم جهات الممالك الرومانية ومدن العالم الدنيوى بالعلم والتعليم لا بالقوة والجبروت وقرر نظاما فاصلا بين الدائنين والمدينين من طوائف الامم وجعله على قواعد وأساسات سهلة عادلة حتى صارت المالية الرومانية لا يمسها أحد بسوء وأحيا القانون الليصنيانى القديم القاضى باستخدام جملة من الاحرار الشغالين فى زراعة الاراضى وفلاحتها وزاد فى حرية الامة ورخص لكل من كان له ثلاثة أولاد فأفوق هم أن يكون حرا بالطبع وأصلح نتيجة السنة الرومانية من بعد أن كان فيها الخطأ أو الاختلاط وعدم الوقوف على الصواب بكونه أضاف تسعين يوما على السنة القديمة الرومانية واختار طريقة الحركة الشمسية وجعل السنة الرومانية ٣٦٥ يوما وأضاف لكل رابع سنة يوما واحدا فكانت هذه خدمة جليلة لبلاده وللدنيا عموما وأصدر مجلس السناتو أمرا مع الممنونية بتسمية الشهر الذى ولد فيه باسم يوليه من اسم عشيرته وجمع القوانين الرومانية ودونها فى قانون واحد وهذا شغل كبير العمل وشرع فى تغيير مجرى نهر الطيبر وجعله يصب فى مستنقعات وبرك بونطين ومن ثم استعوذ للمدينة على ناحية

من الارض عريضة الاتساع للعمارات والمبانى وشرع فى توصيل رومة مع طراسينه وهى مينة أجود وأعدل من مينة عسطيه وانتهى ازدحام كافة هذه الاشغال فى خمس سنوات وهى معظم المدة التى كان عكف نفسه فيها على حروب مهمة فى الجهات الخارجة

وبينما كان قيصر على قدم الشروع فى اجراء حرب برانى اخروهو اغارته على فارطيبة لينتقم منها بثار قراصوص اذ أخذت أعماله فى الانقضاء بغتة وذلك أن أعداءه اتهموه بكونه عازما على أن يجعل نفسه ملكا من قبل سفره الى الحرب ورتبوا فى شأن ذلك ثورة عليه فكانت مؤلفة من أعدائه ونجحوا فى أن عطفوا الى صفهم جملة من أمناء أرباب الجمهورية أدخلوا فى عقولهم وأقسموا الهم بأنه لابد من عود الحرية الى المملكة من بعد فقد حياة قيصر وكان قيصر فى الحقيقة ملكا الا أنه ما كان يظهر على نفسه أنه ملك وما كان أعداؤه مثله فانهم خافوا من أن يروا هيئة الجمهورية والحرية مرة أخرى كما أنه هو نفسه خاب من تقليده زمام الملك جهرة وكان قيصر ملكا الا أنه ما تمسك بحبال الظلم والجور وفى يوم عيد لوبر كاليه فى ١٥ فبراير سنة ٤٤ قبل الميلاد قدم مارك أنطونى التاج لقيصر فرفض قبوله ووردت اليه انذارات عديدة تتهدده بحصول الخطر النازل عليه الا أن جلالة ذاته وعظم نفسه جعله لايشك ولايرتاب فى أن أحدا من الامة الرومانية يحصل منه شئ مضر بحياته وما كان من الرجال الذين يرى عليهم سمة الجبن والخوف وفى ١٥ مارث توجه الى ديوان مجلس السناتو وبمجرد ما أخذ مجلسه فى المجلس سقط عليه الثائرون وضربوه بالخناجر والسكاكين وكانت أول ضربة من شخص اسمه كاسكا فدافع عن نفسه بدرعه وجرح واحدا من القاتلين وأسرع الى آخر ودفعه الى خلفه وجرده من سلاحه وفى هذا الوقت ضربه بروطوس وكان بروطوس المذكور محبوبا عند قيصر وأمينه ووهبه قيصر من السعادة والفخر مازاد به عن أمثاله فلما رأى هذا الخائن مخبلا فى سلاحه ترك المدافعة عن نفسه وقال بصفة الذم بروطوس بروطوس وأنت أيضا يا بروطوس وغطى وجهه بقلنسوته وسقط ميتا تحت أقدام تمثال بومبى ومات أعظم الرومانيين وأكبرهم قدرا بهذه الحالة الشنيعة ثم ان بروطوس مدبر الثورة رفع خنجره الدموى فى الهواء وزعق بصوته على سيسرو وقال له تمتع الآن يا أبا الامة وافرح لان رومة خلصت الآن وعتقت من عبوديتها أواه وا أسفاه على هذا الامين الصادق وكان هذا الملعون ذبح بلاده بقتله قيصر لانه قتل الرجل الفريد الذى كان فيه قابلية لرفع رومة من مصاعب الاخطار التى حاق بها فسادها وكانت الامة الرومانية غرقى فيه الى رأسها ومع أن موت رجل من الامة لا يحصل منه تغيير فى هيئتها غير أنها تحتاج الى يد قوية تحميها وتحفظها من غوائل ما يقع فيها من الضرر والفساد الحاصل فيها من نفسها فكسر الثائرون هذه اليد وقذفوها فى الارض وكان أمل الثائرين ورجاؤهم أن الامة تهرع فى الحال لمعاضدتهم وتأتى بأكملها لمساعدتهم فاندهش الرومانيون دهشة كبيرة وخافوا خوفا زائدا مما حصل للمقتول وخشيت عموم الطوائف من أنه ربما يتولد من موت قيصر وقانون القتل والانتقام والنفى فنشأ من هذا التردد وجود زمن كاف لمارك أنطونى استحوذ فيه لنفسه على أوراق قيصر ونقوده وصار قنصلا وحيدا وبذل مجهوده فى حرمان القاتلين من أن ينتفعوا بشئ مما جنته أيديهم من الجريمة التى فعلوها وساعده أيضا توانى الثائرين فانهم خابوا فى اتمام أعمالهم التى كانت جل مرغوبهم ومقصودهم وخطب انطونى خطبة بليغة على جثة قيصر وشرح فى خطابته ما كان لهذا الرجل الجليل من أجود المقاصد وأعظم المشروعات حتى صير الامة الرومانية لاتذكره الا بالذكر الجميل والفكر الجليل ونجح فى

خطابته

خطابته بكونه وجه أفكار من كان موجودا من الناس المزدحمين ضد القاتلين وجعل أنطونى نفسه سيد رومة الحالى بتوطيد اشتراكه وتعاهده مع لبدوس رئيس خيالة قيصر وتداخل فى مخابرة مع القاتلين وقرر حكومة مجلس السناتو ولما خاف بروطوس وكاسيوس والذين شاركوهما فى الثورة من أن أنطونى ربما تحول أفكاره وأعماله الى اهلاكهم تركوا رومة وتوجهوا الى الاقاليم مستغيثين بمعاضدتها وبينما كان أنطونى على شرف نواله الوعمد من مطامع آماله اذ ظهر له خصم فى الميدان صدّه عما فى ضميره ودمر آماله وذلك أن قيصر كان آخر مقاصده هو اعترافه بان حفيد أخته هو وليه وكان يسمى أوقطافيانوس هو الوارث له وابنه المتبنى وكان هذا الشاب تهذب وتربى مع غاية الاعتناء والالتفات اليه تحت نظر قيصر نفسه وكان قيصر مشغوفا به على الدوام فما كان يفارقه حتى ترعرع وشب فى شبابه وكان غائبا عن رومة فى الوقت الذى قتل فيه خاله وبمجرد ما أخذ أخبار قتله أسرع الى المدينة فى طلب وراثة خاله ولما استحوذ على مخلفات قيصر ومتروكاته فرقهما مع بذل كرمه وسخائه على العساكر وفقراء الامة فمن ثم ازداد قبولا عندهم ومحبة لديهم وحصن سيسرو أمره وأطفأ فى عدة خطب خطبها تعرف بالخطب الفيليبية قبول أنطونى ومحبته وأرغمه على ترك رومة وخلص مجلس السناتو من خرابيشه وتوجه انطونى الى اقليمه فى الغلية الجنوبية وابتدأ الحرب الثالث الداخلى بحصار مدينة موطينه وكان ضبطها دسيموس بروطوس فأرسل السناتو عليه جيشا جديدا تحت قيادة القناصل المستجدة ومن الحاح سيسرو وطلبه صار ترتيب أوقطافيوس حاكما عسكريا واشترك مع القناصل فى قيادة العساكر فانهزم انطونى فى واقعتين وطردوه عابرا جبال الالب من بعد أن ترك فرقتين من عساكره انضمتا الى أوقطافيوس فى سنة ٤٤ وسنة ٤٣ قبل الميلاد وصار مشترى هذه النصرات باثمان حياة القناصل وبقى أوقطافيوس هو القائد بمفرده للجيش وانتقلت المحبة التى كانت فى قلوب عساكر الجيش لخاله قيصر اليه فرخص لانطونى أن ينجو بنفسه وما قبل أن يسير معقباله وطلب لنفسه من السناتو عموم واجبات القيادة العسكرية وأرسل فرقة من عساكره يطلب لنفسه القنصلية فرفض مجلس السناتو طلبه فأسرع فى سيره الى رومة ناهبا سالبا فى طريقه البلاد موقعا الفزع فى العباد أينما توجه ولما تقرر أمره بواسطة عساكره أرغم مجلس السناتو أن يمنحه سلطة السيادة العالية مع أن عمره كان تسع عشرة سنة وجعل نفسه قنصلا وأشرك معه عمه كنطوس بديوس رفيقا له فى القنصلية وأمر مجلس السناتو بالتصديق فى اختيار عمه وانتخابه للقنصلية وأن يطلب المجلس قاتلى قيصر للمحاكمة وبما أن هؤلاء هربوا جميعهم من رومة عند قربه منها أصدر عليهم أحكام الغياب بالعقاب وأصدر مثل هذا الحكم أيضا على سكسطوس بومبيوس وجعل أوقطافيوس القائد الوحيد على قوى الجمهورية بسلطة كونية قد صلحا أو يقيم حربا مع أنطونى ولبدوس وكانا صماقوا هم اليه منهما وماجال بفكر أوقطافيوس وعقله فى الحالة الحاضرة أن ما حصل منه من السياسة والادارة الاخيرة كان أصوب له لانه فى حاجة شديدة الى مساعدة خصمائه له فى هزيمة حزب بروطوس وكاسيوس وذلك أنه انعقد مجلس بين الثلاثة القواد على جزيرة صغيرة فى نهر رينو وكانت نتيجة هذه الجلسة ترتيب الحكم لثلاثى الثانى فى سنة ٤٣ قبل الميلاد واتفق قيصر أوقطافيوس فى هذا الترتيب وأنطونى ولبدوس على قسمة حكومة الممالك الرومانية بينهم لمدة خمس سنوات وأحيوا قانون القتل والنفى على منوال أضل من الاول ليجرى ما فيه من الاعمال ويبرز من حيز الخفاء الى حالة الوجود لا لاجل تخويف أعدائهم وامالة يكون لهؤلاء الثلاثة طاقة على اجراء

الحرب فكان هذا القانون أحد الحروب الدموية الشديدة التى ماوقع مثلها فى ايطاليا وكان ممن بين الذين قتلوا الخطيب سيسرو ومع انه كان صديق أوقطافيوس كما كان يلقب به فى ذلك الوقت الا ان قتله كان بخصوص كراهته وبغضه أنطونى وضبطت عقارات وأملاك المقتول بحالة شنيعة واستلمتها الحكومة ثم عبر أوقطافيوس وأنطونى البحر الادرياطيقى الى الجريس فى رأس جيش مؤلف من ١٢٠٠٠٠ نفس لان بروطوس كان توجه من ايطاليا الى مقدونيا وهى الايالة التى كان عهدها قيصر اليه قبل موته فقابله فيها الفرق العسكرية مقابلة فائدلها وانضم اليه العساكر الذين كانوا فى نواحى الريقوم ونجح أيضا كاسيوس فى اقليم سوريا وحاز الرئيسان الدنيا الشرقية الرومانية واتفقا على الاتحاد سوية والاستقلال فعلا واستعدا للحرب مع الحكومة الثلاثية وحصلت المقابلة بين الاثنين فى مدينة سرديس عاصمة ليديا لاجل ترتيب أشغالهما فحصل عندهما البطء والتراخى فى الحركة اللازمة لهما لانه قبل تركهما آسيا كان أنطونى وأوقطافيوس دخلا الجريس واتفق فى حال توجه بروطوس من آسيا الى مقدونيا أنه كان على شرف العبور من بوغاز الهلسبون وكانوا قافذات ليلة فى خيمة منصوبة له على شاطئ البحر فى نور فتيلة ضعيف فافتكر انه أحس برجل داخل عليه فى الخيمة فنظر حوله وتخيل انه رأى خيال صورة شخص فانزعج وقال له من أنت وما تريد فأجابه الخيال أنا فطنتك الرديئة ستر انى مرة ثانية فى فيلبى فوصل الى عساكره فى الجريس وهزم أنطونى وأوقطافيوس كلا من بروطوس وكاسيوس فى واقعتين مهولتين حصلتا فى فيلبى فى شهر نوفمبر سنة ٤٢ قبل الميلاد وقتل بروطوس وكاسيوس أنفسهما وكان موت الاثنين سببا فى دمار الجمهورية وخرابها وما رغبت الحكومة الثلاثية فى عودها وكل من الحكام الثلاثة أجرى محارباته وأعماله على حدته ليتيسر لكل منهم الحصول على السيادة على خصمه وكانت نتيجة ما حصل من واقعة فيلبى انقسام المملكة بين الثلاثة الحكام قسمة جديدة فأخذ أنطونى كافة الايالات الشرقية وأخذ أوقطافيوس ايطاليا واسبانيا وأخذ ليبدوس افريقة ومع هذا فانه حصل الرضا بهذه القسمة مع كل صعوبة حتى صار هؤلاء الاحزاب على شرف الوقوع فى الحرب وكان موقع أوقطافيوس خطرا جدا بسبب ما كان عليه سكسطوس بومبى من الشوكة لانه جعل نفسه سيد سيسيليا وأمر بتوقيف لوازم رومة ومطاليبها من أصناف الحبوب وقطع أمل الايطاليانيين فانه طرد كثيرا منهم عن أملاكهم وأراضيهم ليخلى محلا للذين مع أوقطافيوس فى الحروب وكذا كثير من العساكر قطع اليأس من عدم أخذهما كان ينتظر من المكافآت فكل هؤلاء وجهوا وجوههم ضد أوقطافيوس فمن ثم انتهز أنطونى الفرصة فى أثناء هذه القلاقل وأخذ يدس الدسائس فى حق خصمه أوقطافيوس ولما وصل أنطونى آسيا تقلد فيها زمام السلطنة العالية والسيادة الكاملة وافتتن بالخلاعة والفجور وطلب كليوبطره ملكة مصر وهو فى مدينة طرسوس للحضور بنفسها أمامه لاجل محاكمتها بسبب ما كانت عليه من مساعدتها بروطوس وكاسيوس فلم تمتنع الملكة من طاعة حاكم معتمدة على صيده ووضعه فى قفص محبتها وجاذبيتها الشخصية وجمالها وقدها وعزمت على صرف ما كان عليه هذا الحاكم من الحنق والغضب حتى تسلب عقله بجمالها وتنقله من حالة ملوكية الى حالة عبد رقيق لها وآلة فى يدها تفعل بها كيف تشاء وكان عمرها فى هذا الوقت خمسا وعشرين سنة فحملت معها هدايا ثمينة وخزائن أموال على قدر مقامها ودفعتها ونزلت فى أسطولها المصرى وأقلعت فى البحر وفى نهر سيدنوس حتى وصلت مدينة طرسوس وبمجرد وصولها

ونزولها على البر نصبت خيامها ودعت مع قواده لضيافة حافلة جهزتها له وكانت كليو بطره ماهرة فى فن الخط والانبساط وكانت كاملة الاوصاف فى الجمال صوتها يأخذ بالالباب كأنه نغمات آلات طرب حاذقة ماهرة فى فن المغانى وكانت تتكلم بسبع لغات وهى لغات رعاياها المختلفه الاصناف من الجريقيين والمصريين والايتيوبيين والطروغلوديطيين والعبريين والعرب والسوريين وكل أمة من هؤلاء الامم لها لهجة ولغة قائمة بها فى ثم ما كان أحد من أسلافها على معرفة من حكومة المصريين مثلها بل كان البعض منهم نسى لهجة قومه من الجريق فلما نظر اليها أنطونى أدهشته بجمالها وسلبت عقله بعذب كلامها ووقع أنطونى من دلالها وكمالها فى فخ الصيد وصار لا طاقة له على أن يمنع أو يخفى منها شيأ فأول شئ جاذبه عليها كونه أمر بقتل أختها أرصينوى فى افسوس وأظهرت غيرتها الشديدة وكراهتها الاختها ثم ان هذا الرجل الحربى القديم وصار الآن العبد الذليل صحب الملكة الى الاسكندرية ولازمها وبقى معها فى أرضها وبلادها من دون أن يحصل له اشتغال أو يكدره بلبال فكانت كليو بطره تغنى وتسكر وتلعب وتصطاد وتعرض عساكرها على نفسها مع مسلوب العقل الرومانى وكانت ملازمة له فى دورانه فى نصف الليل من وسط شوارع المدينة فما تمر ساعة الا وكانا فيها منهمكين فى مغلطات النقائص والفجور والاسراف فى الامور وأخيرا حل بانطونى وقائع الحروب حتى ألزمته مدة قليلة من الزمن على أن يترك ماهو عليه من انهماكه فى اللذات وذلك أن الفارطيين أغاروا على سوريا وانفجر الحرب فى ايطاليا وكان سبب هياجه امرأة أنطونى وأخاه ضد اوقطافيوس

وذلك أن فولفيه امرأة أنطونى عزمت على فصل زوجها من كليو بطره بطريقة تجلبه بها عندها فى رومة فحرضت أخاه لوسيوس على أن يكون رأس عدد كثير من الايطاليانيين النافرين من جهة أوقطافيوس لان أوقطافيوس لاجل أن يكافئ فرقة الخطافة النهابة استحوذ على أراضى الفلاحين وأنعم بها على العساكر فاشتعلت نار الثوران والارتباك فى الجهات والبلاد فاطفأ العساكر هذا كله بما انهم كانوا هم المنتفعين وأخمد أوقطافيوس هذا الهياج وحاصر الذين ثاروا فى مدينة بروسيا الحصينة وأوقع عليهم القحط والجوع حتى أذعنوا بالتسليم وقتل منهم من ٣٠٠ الى ٤٠٠ نفس وصدر الامر الى فولفيه بخروجها من ايطاليا فهربت الى الجريس وقابلت فيها زوجها وكان وصل الى الجريس موافاة لطلبها له لاجل مساعدتها ومساعدة أخيه لوسيوس ومع أن أنطونى كان عاب على مشروعها وأفعالها لكنه توجه نحو ايطاليا وعقد معاهدة مع سكسطوس بومبى فى شأن المحاربة مع رفيقه أوقطافيوس الا انه صار ضد هذه الافعال المدمرة للبلاد والعباد بتداخل الاحباء والاصدقاء وعقدوا مجلسا فى برنديسيوم تقرر فيه تقسيم المملكة الرومانية من جديد وحصل الاتفاق على أن أنطونى يختص بالاقاليم الشرقية وأوقطافيوس بالاقاليم الغربية ولبدوس بافريقه وتكون ايطاليا عمومية بين الثلاثة ومراعاة سكسطوس بومبى العدو المشترك للعموم واتفق فى هذه المدة أن ملوك المقابليين دخلوا فى سلطنة مملكة يهوذا بواسطة تداخل هيرودوط العوميدى الذى صار فيما بعد قبيح الشهرة ردىء الصيت بواسطة ماحصل منه من الافعال الذميمة والجرائم الجسيمة من ذبحه الابرياء من مدينة بيت لحم وكان هيرودوط وصل الى رومة وتقدم أمام الحكومة الثلاثية ونال التفاتها اليه وقت ماكان الفارطيون مغيرين على المملكة فوطدوا له مرغوبه وقووه على مقصوده خصوصا من جهة أنطونى بدفعه مبلغا جسيما من النقود وتقلده زمام سلطنة يهوذا ولما ماتت فولفيه تزوج

أنطونى أوقطافيه الاخت الارملة لرفيقه أوقطافيوس وفى سنة ٣٩ قبل الميلاد صار اصلاح هذا الترتيب بقبول أن يعطى الى سكسطوس بومبى سيسيليا وسردينه وقورسيقه على شرط أن يعطى رومة مطاليبها من الحبوب والغلال فلما خاب أوقطافيوس فيما صار الاتفاق عليه هيج فى سنة ٣٨ قبل الميلاد حربا على سكسطوس بومبى ومن بعد محاربة استمرت سنتين هزمه وأرغمه على الهرب الى آسيا وقتل فى السنة التالية فى نواحى ملطيه وأضاف أوقطافيوس الجزائر الغربية الى ممالكه الا أن لبدوس اجتهد فى الاستحواذ على سيسيليا وأن تكون له الدرجة العليا فى الحكومة الثلاثية وأطاعه قوى سكسطوس بومبى البرية وكانت كثيرة العدد ولقب نفسه بامبراطور فدخل أوقطافيوس مع الجسارة والجراءة فى معسكر خصمه واستغاث بالعساكر فى الانضمام اليه فنجح فى ذلك بفصاحة لسانه وعذوبة كلامه وتوجه له عموم الجيش والتحق به وجرد لبدوس من الحكومة الثلاثية وعفا عنه وسمح له بالاقامة فى وظيفة الحبر الاعظم فرضى لبدوس بذلك واستقام أمره

ثم بقى أنطونى هو الخصم الفريد لا غير لاقطافيوس وكان أنطونى حط قدره وقذر نفسه ومقامه الرومانى بما أجراه من مواصلته مع كليوبطره وكان انطونى لما سافر الى حربه مع الفارطيين فى سنة ٣٧ قبل الميلاد ترك زوجته فى ايطاليا ومن بعد قليل وصل آسيا بعد أن دخل فى أراضى الفارطيين وانجبر على القهقرة وقطع الفارطيون على عساكره طريق رجعتهم وأبادوا جيشه بالجوع والسيف فلما وصل مهزوما الى آسيا قابلته كليوبطره فى سوريا وعاد معها الى الاسكندرية وأخفى ما كان فيه من الخيبة وعدم النجاح ورجع الى جنونه وانهماكه فى اللذات مع كليوبطره ومازال تحت رقها الى ان انقضى نحبه وفى مدة سنى ٣٦ و ٣٥ و ٣٤ قبل الميلاد باشر أنطونى الحرب على الفارطيين بأضعف حالة وأسرع طريقة وما اكتسب فيها الا بعض مظفرات عديمة الشرف وعاد مسرعا اليتملى بوجه كليوبطره وفى سنة ٣٤ قبل الميلاد هجم أنطونى على ملك أرمينية من أجل أنه ارتاب فى خيانته وأسره وأنعم بمملكته على كليوبطره وعقد له موكب فى الاسكندرية احتفالا بنصرته ثم أعطاها فينيقيه وسوريا الجنوبية وقبرص وبعض جهات سيلسيا ويهوذا وجهات فى بلاد العرب وطلبت منه قتل هيردوط وكان أشار على أنطونى ونصحه بحل الاربطة المذمومة التى ربطها مع كليوبطره وقيل انه كان سعى فى قتلها ليخلص من جبيرتها القبيحة ويخلص وليه من سوء عاقبتها ثم طلبت كليوبطره من عبدها أنطونى قتل هيردوط وما سمحت بالعفو عنه الا من بعد أن ألزمته الضرورة بكونه يتنازل لها عن أرض البلسم الغنية الموجودة حول مدينة أريحاء وكان محصولها سنويا ٢٠٠ وزنة أى ٤٠٠٠٠ استرلينه ومن هذا الوقت صارت ترسم على النقود الجارية فى المعاملة رأس انطونى مع رأس كليوبطره ملك وملكة وألفاظ امبراطور والمعبودة الشابة وتلقبت بلقب ازيس وتحلت بحلى المعبودات وكانت تعمل لها الاحتفالات الرسمية بصفة كونها معبودة وأدى لها أنطونى كل ما ترغبه وأنعم على أولاده منها بالتيجان الملوكية وأرسل أنطونى زوجته الى أخيها أوقطافيوس ثم طلقها وأمسك فى يده قضيبا من الذهب ولبث الثوب الارجوانى وعمل له اكليلا بكونه زوج الملكة ووعدها المغرم المفتون بأن يجعلها الملكة المطلقة التصرف على الممالك الرومانية ويكون مقرها فى نفس رومة جزاء لها على محبتها له وقربها منه

وأما أوقطافيوس فانه صرف هذه السنين فى توطيد علاقات دولته وارتباطه برعية شوكته ومد

ممالكه فى الجهات الغربية من جبال الالب وصار معززا عند الرومانيين ومقبولا بينهم على قدر ما كانوا يخشون سطوته ويخافون عقابه قبل ذلك وزادت محبته عندهم بكونه زخرف مدينة رومة وأصلحها واستمر فى سيره حتى انتهز فرصة الاغارة على أنطونى بما فعله من خيانته الكبيرة التى بها انفصل الاملاك الرومانية وحل أمرها ومنحها هدية لكليو بطره فأعلن أوقطافيوس بالحرب على أنطونى وكليو بطره فى سنة ٣٢ قبل الميلاد ونزل أوقطافيوس فى الجريس فى رأس ٨٠٠٠٠ من المشاة و ١٢٠٠٠ من الخيالة وأسطول وكانت السنة الاولى خالية من الوقائع والحوادث فجمع فيها أنطونى جيشا كثيفا وأسطولا من الشرق قويا وصار فى قوة زائدة عن خصمه ووصل أنطونى وكليو بطره الى الجريس فى رأس هذه القوى والاساطيل ومن بعد أن مكث الجيشان معسكرين تجاه بعضهما فى مواقع على ساحل خليج امبراثيا أحدهما فوق رأس اكطيوم والآخر على النقطة المقابلة له والاساطيل راسية فى البحر بين الجيشين فأشار قواد أنطونى عليه باجراء الحرب فى البر ويفصل هذا المشكل بواقعة اماله واماعليه وأشارت عليه كليو بطره أن تكون الواقعة فى البحر بقوة الاساطيل فأذعن لقولها ووقعت الواقعة فى البحر بين الاسطولين على مسافة من رأس اكطيوم فى ٢ ديسمبر سنة ٣١ قبل الميلاد وكان النصر فى الابتدا مع أنطونى لان سفنه كانت كبيرة الجم كثيرة العدد وفى وسط اشتعال نار الحرب خافت الملكة من نتيجة عاقبة الواقعة ورغبت فى خلاص نفسها فهربت بمركبها وتبعها استون سفينة من السفن المصرية فاندهش أنطونى من هذه الحركة ويئس لان قوة عظيمة من قوته تركته فنط من مركبه فى زورق سريع الحركة وهرب بوراءها مسرعا فى سيره ولما ترك القائد أسطوله وهرب هزمته السفن القليلة الاوقطافيانية وأنزلوا به العطب وأما الجيش البرى التابع لانطونى فانه ما كان يعتقد هرب قائده واستمر منتظرا حضوره لمدة سبعة أيام ولما لم تأته أخبار بخصوص أنطونى ووجد أن التسليم لابد منه سلم الجيش نفسه الى أوقطافيوس وتولد من واقعة اكطيوم أن صارت الجهة الرومانية الموجودة فى آسيا تحت قدمى الرجل المنصور وكان أول من ذهب للملاقاة ملك اليهود اهيرودوط وكان من حزب أنطونى فنجح فى كونه نال مقابلة أوقطافيوس مقابلة رسمية فى رودس وعقد صلحه معه وعاد الى بلاده

واستمر أنطونى وكليو بطره فى هربهما حتى دخلا مصر وأظهرت كليو بطره فى بلدها الشجاعة وعلو الهمة زيادة عن معشوقها وأمرت بحمل مراكبها الحربية الى البحر الاحمر من طريق برزخ السويس وعزمت على خلاص نفسها مع خزائنها فى دنيا غير معروفة فأحرق العرب مراكبها والتزمت على ترك مقصدها وما كانت عازمة عليه فوقعت فى أشد المضايقات والمصاعب وأمرت باستحكام منافذ ومخارج مملكتها وأخذت فى الاستعداد للحرب وربطت علاقات تعاضدية مع كافة الملوك الداخلين مع انطونى فى محالفة واحدة واعتزل أنطونى فى معزل على حدته ودخل فى خلوة لاصديق معه ولا خادم واستمر قاعدا فيها ولما وجد نفسه أن لا طاقة له على مثل هذه العزلة خرج منها وأكب نفسه على الحظ وانهمك فى أنواع الموبقات

وفى غضون ذلك زحفت قوى أوقطافيوس من كل جهة على الديار المصرية وتغلب كورنيليوس غالوس على باريطونيوم وكانت مفتاح مصر من الجهة الغربية فأسرع أنطونى باسطوله وجيشه لاجل خلاصها منه فهزمه كورنيليوس وتقهقر أنطونى مع تلفيات جسيمة خصوصا فى مراكبه

وسلمت بلوز يوم نفسها الى أوقطافيوس وهى المعقل الشرقى ومفتاح الديار المصرية من هذه الجهة الشرقية وقيل ان سلقوس حاكمها غدر وسلمها الى أوقطافيوس بأمر من كليو بطره الأان كليو بطره لاجل براءة نفسها من هذه التهمة سلمت امرأته وأولاده ليد أنطونى ثم تقدم أوقطافيوس لحصار الاسكندرية فاجتهد أنطونى فى توقيف سيره فتركه عساكره وهربوا منه ولما رأى نفسه انه لا يموت بفخر فى ميدان الحرب عاد الى الاسكندرية مشحونا بالغضب يجرى فيها ويصرخ وأرادت كليو بطره الغدر به من أجل انه خرب سعاداته ودمر أحواله فى مرضاتها ولما رأت الملكة ما هو فيه من شدة الغرام هربت مع الخوف والوجل الى محل لها كانت شيدته لنفسها محكم الابواب وأشاعت فى الاسكندرية قولا كاذبا بأنها ماتت ولما وصل خبر موتها الى أنطونى رمى نفسه على سيفه وجرح نفسه جرحا مهلكا وفى حال الغرغرة بلغه أن كليو بطره على قيد الحياة فأمر بنقل نفسه الى محلها وخرجت روحه بحضورها

ثم تخيل الى كليو بطره اكتسابها سلطة ونفوذا على أوقطافيوس بما فتنت به قيصر وانطونى غير أنها وجدت ان هذا الفاتح لا ينبهر من جمالها ولا يسأل عن ملاحتها ودلالها وبلغها فى السر انه مبق على حياتها ليجعلها زينة فى موكبه الذى يعقد لنصره فى رومة فأعطت مبلغا من النقود لرجل من أهل البلد ليرسل لها حية أو ثعبانا فى سلال تين وقدمت ذراعها الى الحية فلدغتها فماتت من لدغتها وخضعت من بعدها مصر وصارت اقليما رومانيا

ومن قبل دخول أوقطافيوس مدينة الاسكندرية وعد أن يعطى لكل عسكرى من عساكره مائتين وخمسين درهما من النقود الرومانية فى نظير أنهم لا يقربون شيأ من متاع المدينة ولا من أهلها ودخل المدينة ماشيا على أقدامه مستندا على ذراع الفيلسوف اريوس وترك هذه المدينة من النهب والسلب التماسا من أصدقاء الاسكندريين وكان محبا للتعليم والعلوم فتركها لاربابها شفقة عليهم من دون أن يقرب أحد من عساكره شيأ وأمر بكسر جميع تماثيل انطونى قطعا ورميها فى شوارع المدينة وكان لها خمسون سنة قائمة فى داخل المدينة ووقع منه حالة مهينة لنفسه وهى قبوله رشوة مقدارها ألف وزنة أى ٢٠٠٠٠٠ ليرة من ارشيبوس صديق كليو بطره ليرخص فى بقاء تماثيل كليو بطره قائمة فى المدينة كما كانت فى الاصل وعامل أولاد كليو بطره الثلاثة من انطونى بالشفقة والرحمة وما آخذهم بما جناه والداهم مما حصل فى حقه منهما وأما قيصرحون بن كليو بطره من يوليوس قيصر فانه أمر بقتله لانه جعله أول خصم له وعهد زمام الحكومة المصرية جميعها الى كورنليوس غالوس وكان ممنوحا من طرف الرومانيين فى كل مدينة أو اقليم فتحوه وتغلبوا عليه أن يعطوا له حق الامتياز المدنى الرومانى فى ترتيب مجالس أهلية أى هيئة حكومة بلدية وهنا فى مصر ما رخص أوقطافيوس الذى لقب من الآن أوغسطس لاى مدينة من المدن المصرية بهذا الامتياز وهو وان قلد زمام الحكومة المصرية لنائب من أرباب مجلس السناتو أو الاعيان لكنه أصدر أمره بأن لا يرخص من الآن فصاعدا لاى واحد من أرباب السناتو أو الحكام أن يضع قدمه فى مصر من دون اذن أو رخصة منه وأمر بأن تكون الاشغال والحسابات والتواريخ فى الادارات الداخلية المصرية على حساب سنة معلومة لان المصريين من مدة وجودهم جعلوا يوم ظهور أشعة الشعرى اليمانية الذى يقع فى ١٨ يوليه أول يوم سنتهم الجديدة وتحتفل المزارعون والفلاحون فى مثل هذا اليوم احتفالات دينية وهو يوم ابتداء زيادة النيل وكانت عموم

الحسابات

الحسابات وتواريخ الملوك ومدة سلطنتهم جارية على حساب سنة مقدار أيامها ٣٦٥ يوما فقط فكان يتغير أول يوم فيها على الدوام وصدرت أوامر أوغسطس أن جميع الاعمال العمومية تؤرخ على حساب سنة جديدة مقدارها ثلاثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم وهى السنة اليوليانية فصار البدء فى تواريخ الاعمال من هذه السنة من ابتداء ٢٩ أغسطس وسقط اليوم الذى كان على الدوام فى تغيير وهو أول يوم من السنة الجديدة وابتدؤا الحساب من السنة الاخيرة لسلطنة كليوبطره وهى السنة الاولى من سلطنة أوغسطس ومازال استعمال السنة اليوليانية جاريا فى أوربا الى ستة عشر قرنا حتى أظهر جريجورى الثالث عشر خطأها وكان فلكيو المصريين ورياضيوها لا يعتمدون هذه السنة من الاصل بل كانوا جارين فى حساباتهم على نص حسابات سنتهم القديمة لانهم ما كانوا يجدون فيها أدنى خطا يتأبون منه حتى يصرفوا النظر عنها من بعد غلاقها ثم كان يوجد فى مصر ثلاث من السنين وثلاثة أيام جديدة لثلاث سنوات متباينة واحدة أولها ١٨ يوليه مستعملة عند عوام الامة وأخرى أولها ٢٩ أغسطس جارية بأمر الامبراطور وثالثة أول يومها فى تغيير جارية عند فلكيى المصريين

وسار أوغسطس أوقطافيوس على مسار حاله فى أخذ مساحات أراضى الممالك الرومانية وقياس أطول سككها ومجارى مياه أنهرها ولمداخات المملكة المصرية فى حيازته عين بوليكليوطوس لاخذ مساحة الاراضى المصرية ومن بعد مضى اثنتين وثلاثين سنة من ابتداء هذه المساحة بمعرفة يوليوس قيصر صار قياس كامل الدنيا المعروفة وعرضت المساحات مع التقارير التى تقررت فى شأنها الى مجلس السناتو ومنح أوغسطس ليهود الاسكندرية بحقوق المدنية وكان الجريق الاسكندرانيون حرموهم منها فأعطاهم امتيازاتهم القديمة التى كان البطليموسية منحوهم بها ورخص لهم بأن يكون لهم نواب ومحكمة عدلية مع الحرية فى اقامة شعائر دياناتهم ولهم الحق فى أن ينتخبوا من طرفهم بمعرفتهم حاخامهم الاكبر عند موت الحاخام المتولى وأن يكونوا مطلقى التصرف فى أحكامهم حسب شرائعهم تحت مراعاة والى الاسكندرية المعين من طرف القيصر

ولما رجع أوقطافيوس الى رومة حمل معه جميع أموال وجواهر الخزائن الملوكية البطليموسية ومع انه كان من المحتمل انه كان يوجد فى السراى البطليموسية نقود أقل من المعتاد الا أنه مازال موجودا بها نقود كثيرة حتى انه عند استتباب الامن والراحة فى الدنيا الرومانية نزلت أرباح الديون فى رومة وكان سببها النقود التى جلبها أوقطافيوس من الاسكندرية وأخذ معه أيضا كافة الامتعة الثمينة وأنواع الحلى والزينة المتوارثة من الدالى ولده مع تاج مصر العليا والسفلى ودخلت هذه الامتعة محمولة من شوارع رومة مع موكب النصر والاحتفال الذى عقد لاوغسطس أوقطافيوس وحصل فى الشوارع ازدحام كبير من الفرجة على الاسكندر هليوس وكليوبطره سلنى ولدى كليوبطره وانطونى وأبهج الرومانيون أنظارهم برؤية التماسيح الكبيرة وكانت هذه أول مرة رأوها فيها وجعلوا لها فى محلات الملاعب حياضا من المياه تجرى التماسيح فيها وعليها رجال من مدينة دندره محافظين عليها وكان أهل دندره مشهورين بصيد هذه الحيوانات المفترسة ونقل أوغسطوس أشياء كثيرة من صنائع المصريين مثل تمثال جانوس وكان هذا التمثال مغشى بالذهب ووضع فى معبد هذا الاله فى رومة ونقل أشياء أخرى كثيرة كبيرة الحجم وصغيرته ونقل المسلتين الكبيرتين الموجودتين لحد الآن فى رومة

ثم أقام كورنليوس غالوس الوالى الاول على مصر تماثيل كثيرة لنفسه فى مدائن مصر وأزال أسماء ملوك المملكة من الهياكل وحفر اسمه وأعماله على مبانى الاهرامات وذلك لعدم فهم منه أو انه نسى شروط وحدود ولايته فمن ثم طلبه أوغسطس فى رومة فقتل نفسه بنفسه خشية من عذاب أوغسطس له ورتب أوغسطس فرقتين من العساكر الرومانية لحفظ هذه المملكة الكبيرة وحصلت ثورة فى مدينة هيروبوليس ومن بعدها انفجرت ثورة فى الصعيد على جباة الاموال والخراج من الرومانيين فأخمدت هذه الثورات بسهولة وانكسر نفوذ الامة المصرية وشوكتها حتى ان بطرونيوس الوالى الثانى الذى جاء من بعد كورنليوس لم يجد صعوبة فى اخماد ثورة كانت حصلت من أهل الاسكندرية وكان أهمل تطهير الترع والخلجان والمساقى من مدة طويلة حتى طمت وعمت مجارى المياه وحبطت أعمال الرى وقل محصول الاراضى وصارت مياه النيل لا تعلو الاراضى فى زيادتها فاستعمل بطرونيوس العساكر فى المدة التى لا شغل لهم فيها يختص بالمحافظة على المملكة فى شغل تطهير الترع والخلجان والمساقى حتى اذا وصلت مياه النيل فى زيادتها اثنى عشر ذراعا عم الفيضان وحصل الرى لعموم الاراضى

وكان عود أوقطافيوس من مصر الى رومة فى سنة ٢٩ قبل الميلاد واحتفل فيها باحتفال ثلاثى وصار حاكم الدنيا وسيدها لا ينازعه فيها انسان ولا يشاركه فيها سلطان ولما استتب الامن العام وتسلطن وجوده فى الممالك الرومانية انغلقت الابواب النحاس لمعبد جانوس وكانت هذه هى المرة الثالثة من ابتداء تأسيس مدينة رومة

وأقام أغسطس أوقطافيوس على أطلال الجمهورية القديمة الرومانية سلطنة وملوكية امبراطورية تحت هيئة جمهورية وأرخ تاريخ تملكه من ابتداء اليوم الذى حصلت فيه نصرة اكطيوم على أنطونى وهو يوم ٢ سبتمبر سنة ٣١ بعد الميلاد وهى النصرة التى صيرته سيد الدنيا وكان عمره فى هذه المدة اثنتين وثلاثين سنة وتسلطن خمسا وأربعين سنة وفى مدة هذه السلطنة الطويلة كان له طاقة على حفظ وحماية المملكة التى أسسها وشيدها مع العزم والثبات حتى بقيت على قيد الحياة عدة قرون متوالية مع ما كانت فيه من المصاعب والمشاكل التى كانت عرضة لها ومن حزمه وجودة عقله تجنب ما كان عند خاله يوليوس من الخطا وعدم الصواب وجعل الشوكة العمومية فى يديه وتقلد زمام الاعمال بنفسه مع اعترافه بحدود القانون والعمل على مقتضاه ومن ثم ربط علاقات حزب الجمهورية حتى ان أرباب الجمهورية اعتقدوا فى أنفسهم أنهم شاهدوا صورة الجمهورية تحت حكمه وسلطنته وفرح الحزب الملوكى بكونه شاهد مقصده العزيز عنده مقصورا فى أوقطافيوس وتجنب أن يلقب نفسه بلقب حاكم مطلق متصرف فى أحكامه وتجنب علامة وهيئة الملوكية وعاش كواحد غنى من متمولى المدينة ومن أرباب مجلس السناتو فى سرايته التى كانت موجودة على جبل بلاطين وكان يتوجه الى الخارج من دون فخفخة وطنطنة وشعائر ملوكية ومع ما كان عليه من مراعاته هيئة الجمهورية فانه كان سيدا مطلق التصرف فى المملكة وبلغ الى هذه الغاية بكونه قبض فى يده زمام الوظائف والمصالح المهمة فى المملكة وكانت سابقا تحت ادارة حكام مختلفة وكان لقبه العالى المستعمل هو لفظة امبراطور وهذه اللفظة مشتقة فى الاصل من درجة قواد القنصلية مدة وجودهم فى الوظائف لان امبراطور معناه قائد عموم أو رئيس عموم الاقاليم كشل برنس السناتو أى الحائز حقوق عرض القوانين على مجلس

السناتو

السناتو وسرعة التصديق عليها ومثل الحبر الاعظم الحائز شوكة الاعمال الديانية المقدسة وهكذا وكذا منحه مجلس السناتو لقب أوغسطس أى جليل القدر وجعل هذا اللقب وراثة فى أهله الا أنه ما كان له عمل فى الجلوس على كرسى السلطنة

واستمر مجلس السناتو فى صده أوغسطس وتوقيع الحجر على أعماله اسما فقط وكان فى الحقيقة عبد الله وأهلك كافة الرؤساء والقواد أرباب الجسارة والشوكة فى الحروب الداخلية واهتم الموجودون على قيد الحياة بمراعاة اغداق والتفات الامبراطور اليهم زيادة عما لهم من الحقوق القديمة وكان عدد أعضاء مجلس السناتو مقصورا على ٦٠٠ عضو مؤلف من الاشخاص الذين كان أوغسطس يتمنى فقدهم حالما كان فيه من ضمنهم ومن أشخاص عينهم هو بنفسه ليحوزوا رتبة شرف المجلس وما كان هذا المجلس مؤلفا من رومانيين وايطاليانيين فقط بل من أشخاص من الاقاليم القاصية أيضا والتزم هؤلاء الاشخاص الذين هم من الاقاليم البعيدة بالاقامة فى ايطاليا وصاروا فيما بعد من أرباب العقارات والاملاك فى ايطاليا وما كان يمكن أى انسان الدخول فى مجلس السناتو ولا أن يكون عضوا منه الا اذا كان مالكا لعقارات وأملاك تعادل قيمتها حسبما قدرها أوغسطس فى الابتداء نحوا من ٤٠٠٠٠ سيستر (١) ثم أخذت هذه القيمة فى الزيادة على التدريج حتى وصلت الى ١٢٠٠٠٠٠ سيستر وكانت شوكة مجلس السناتو وامتيازاته باقية عليه اسما فعلى حسب عادة الزمن وتوالى الايام أبطل الامبراطور وجود نفسه فيه وحكمه منه وتقرر للامبراطور الشوكة المدنية والحكومة الداخلية لكن أوغسطس من ميله وانعطافه كان يستعين فى أشغاله وأعماله برضا المجلس وتصديقه وهذا من أسهل شئ فى الواقع لان أرباب المجلس عموما تحت رضا الامبراطور ونحن ثم صار مجلس السناتو فى المدة الاخيرة وأحكامه لا معنى لها فى ذاتها ولا فى صفاتها وصار الامبراطور مطلق التصرف والحكم فى المملكة ومن مهارة أوغسطس ونباهته وتبصره فى الامور وتدبره فى العواقب ترك للامة الرومانية بعض آثار من امتيازاتها القديمة وصار تعيين القناصل ومقدار النصف من النواب بمعرفة الامبراطور وأما الباقى من النواب فكان يحصل انتخابه من المترشحين للانتخاب مع تصديق الامبراطور واقراره على هذا الانتخاب وسار القانون على حسب سيره القديم وصارت جميع ترتيبات وأحكام قيصر بوليس تحت مباشرة وادارة أوغسطس واستلم زمام عهدة التصديق الذى كان لمجلس السناتو والوجوه الرؤساء من الامة الرومانية وأما الحقوق القضائية للامة فكانت فى هذا الوقت ملغية صامتة خامدة فاستلم الامبراطور زمام حق العفو والسماح وأخذ انعطاف وميل المملكة فى نكث حقوق الامة والتغلب عليها شيأ فشيأ حتى صار لا شئ لهم فيما يجرونه ومع أنه كان يحصل أحيانا بعض تورّيات فى الانتخابات وبعض اجراآت قليلة فى الاشتراك مع القانون الا أن هذه الاشياء استمرت باقية فى المجامع الكبيرة الى الوقت الذى سقطت فيه المملكة ومن ابتداء سلطنة طبريوس انقرض تداخل الامة فعلا فى أى أمر من أمور المملكة واستمروا اذ أى واحد منهم على سلطة أو امتياز أو درجة يعلو بها على غيره من أفراد الامة

ثم انه على حسب اتساع المملكة وامتدادها وكثرة تراكم أعمالها وقضاياها صار من الضرورى للامبراطور مساعدته بآخرين فى حكومتها فتشكل من أجل مساعدته على مقتضى النظام القانونى مجلس مملكة تحت رياسته تنظر فيه جميع الاعمال والقضايا المهمة الآتية من المملكة ويقرر عليها هذا

(١) السيستر نقود رومانية قيمة كل واحد منها ربع دينار اهـ

المجلس قراره مصدقاً عليه من الامبراطور للعمل بها فكان هذا المجلس مؤلفاً من كبار وجوه النواب لمدة سنة واحدة وخمسة عشر عضواً من أرباب مجلس السناتو ينتخبون بواسطة مجلس السناتو لمدة ستة أشهر واستمرت الوظائف القديمة على ما كانت عليه وترتبت مصالح أخرى جديدة فكان أجل هذه الوظائف وأهمها وظيفة والى المدينة وقائد الخفر الامبراطوري وكان الخفر الامبراطوري مؤلفاً من ١٠٠٠٠ نفس معسكرين في داخل المدينة لاجل المحافظة على الامبراطور وفي السنين الاخيرة من المملكة كان لهذه الوظائف أهمية كبيرة وباب مفتوح في التاريخ الروماني نذكره فيما بعد

وفي هذا المحل يمكننا أن نذكر حدود المملكة الرومانية التي أسسها وأقامها أوغسطس أوقطافيوس وبيان اياليتها فنقول انه كان حدها الشمالي الخليج البريطاني والمحيط الجرماني ونهر الرين ونهر الدانوب والبحر الاسود وحدها الشرقي نهر الفرات وصحارى سوريا وحدها الجنوبي الصحراء الكبرى أو بادية افريقة وحدها الغربي البحر المحيط الاطلنطيقي ومساحتها نحو من ١٥٠٠٠٠٠ ميل مسطح داخل فيها الممالك المسماة الآن بالبرتغال واسبانيا وفرانسا وبلجيقا وهولندة الغربية وبروسيا الرينية وقطع من بادين وورطمبرغ وكافة باڤاريه تقريبا والسويس وايطاليا وطيرول وأوستريا الاصلية وهنكاريا الغربية وخرواطيه والسلاف وصربيه وتركية أوروبا والجريس وآسيا الصغرى وسوريا وفلسطين والعيدوميين ومصر وصرنيقيه وطرابلس وتونس والجزائر وجميع مراكش تقريبا وكانت المملكة بما فيها ايطاليا مقسومة الى سبعة وعشرين اقليماً أو ايالة وهي على نوعين وهما الايالات الموجودة في حالة سلمية فكانت هذه لاتحتاج لشيء من الحركات العسكرية وكانت تسمى أعيان الايالات محكومة بنواب قناصل تعين بمعرفة مجلس السناتو مصدقاً عليها من طرف الامبراطور وأما الايالات التي كان يحتاج فيها لوجود الجيوش فكان يطلق عليها اسم الاقاليم الامبراطورية فكانت محكومة اما بالامبراطور نفسه أو بواسطة نواب من طرفه وكانت الثغور البحرية محتاجة لوجود جيوش ثابتة فيها على الدوام سواء كان لاجل المحافظة عليها من المغيرين عليها من الامم المتبربرة أو ضبطها وربطها في حالة خضوعها وانقيادها

وأما الجيش الذي كان الامبراطور معولاً عليه في طلباته العائد منها النفع على مملكته ورعيته ومساعدته وتعضيده فكان مؤلفاً من ١٧٥٠٠٠ نفس من العساكر الايطاليانية ومقسوم الى خمس وعشرين فرقة تتألف كل فرقة من ٧٠٠٠ نفس مشاة وخيالة وطوبجية ومثل هذه القوة كانت موجودة في الايالات لضرورة لزومها فيها ثم كان تعداد عساكر الجيش الثابت ٣٥٠٠٠٠ أو ٣٦٠٠٠٠ نفس جميعهم على دراية تامة وخبرة كاملة بالحروب مطعمين ومتسلحين على حسب نظام القواعد المعروفة في ذلك الوقت والله أعلم

﴿ الباب السابع ﴾

﴿ الكلام على المملكة من أوغسطوس الى علغبلوس ﴾

صيرورة رومة سيدة الدنيا ـ سلطنة أوغسطوس ـ الحرب مع الجرمانيين ـ مظفرات دروسوس وطيبريوس ـ هزيمة فاروس ـ أسف أوغسطوس وحزنه ـ هزيمة غالوس ـ اصلاح رومة ـ عظم سلطنة أوغسطوس ومجدها ـ صيرورة طيبريوس أمبراطور ـ السني الاولى من سلطنته ـ حسد

جرمانيكوس ـ عنف طبريوس وقساوته ـ سيانوس ـ جرائمه وذنوبه ـ اعتزال طبريوس فى جزيرة كابرنه ـ سقوط سيانوس وموته ـ اعتداآت الامبراطور ـ غرس الديانة المسيحية وتقدمها ـ صيرورة كاليجولا أمبراطور ـ عنفه وسلطنته الرذلة ـ سلطنة كلوديوس ـ تغلب الرومانيين على بريطانيا ـ صيرورة نيرو امبراطور ـ جوره وشر أعماله ـ حرق رومة ـ التعدى على المسيحيين ـ ثورة الاقاليم ـ موت نيرو ـ عود عمارة رومة ـ سلطنة جالبه وأوطو وفيطليوس ـ حرب اليهود ـ صيرورة فسباسيان أمبراطور ـ ثورة الجرمانيين ـ أخذ أورشليم ـ صيرورة طيطوس أمبراطور ـ سلطنته ـ خراب مدينة هرقولانوم وپومبية ـ سلطنة دوميطيان الشديدة ـ سلطنة نرفه الظريفة ـ صيرورة طراجان أمبراطور ـ انتشار الديانة المسيحية ـ الاجراآت الشديدة التى نشرها طراجان ـ اصلاحاته ـ اخضاعه داثيه ـ الحرب مع فارطية ـ موته ـ صيرورة هادريان أمبراطور ـ سلطنته السلمية ـ سياحته ـ عنفه ـ رغبته فى الموت ـ سلطنة أنطونينوس پيوس ـ ماركوس عورپلوس ـ حروبه ـ التعدى على المسيحيين ـ صيرورة كومودوس امبراطور ـ سلطنته الرذلة ـ ضعف المملكة ـ صيرورة برطناكس أمبراطور ـ تقليد سل الاحكام وأما الابهة الامبراطورية فكانت لديديوس بن يوليانوس ـ جعل سفروس أمبراطور ـ تدميره شوكة الحكام ـ حروبه مع فارطية وبريطانيا ـ صيرورة كركلا أمبراطور ـ عنفه ـ قتله ـ خلافة مكرينوس على التخت ـ هزيمة الفارطيين له ـ قتله ـ صيرورة علغبالوس امبراطور ـ كسوف وخزى سلطنته المخزية ـ موته

تاريخ عموم الدنيا فى هذا الوقت محصور فى تاريخ المملكة الرومانية واذا وجه المطالع بصره وتأمل حوله لجهة من الجهات لا يرى أمامه سوى رومة وعموم الدنيا المعروفة فى ذلك الوقت ماعدا المملكة الفارطية كانت داخلة فى الممالك الرومانية

وامتدت سلطنة أوغسطوس أربع عشرة سنة من القرن الاول من بعد ميلاد المسيح عليه السلام وكانت مدة الخمس والاربعين سنة التى مضت فى ابتداء واقعة اكطيوم الى موت الامبراطور رمدة سلم واستتباب راحة لكن حصل بعض حروب فى مدة هذه السلطنة جديرة بالذكر وذلك أن اسبانيا الشمالية والشمالية الغربية خضعت بتمامها بين سنتى ٢٧ و ١٩ قبل الميلاد بعضها بواسطة أوغسطوس نفسه وبعضها بواسطة أغريپه وكاريسيوس وفى سنة ٢٤ قبل الميلاد هيج أوغسطوس حربا على بلاد العرب كانت من أكبر المصائب على رومة وكان أصل التصدر فى هذا الحرب على غير أصل وذلك انه بلغه كثرة ثروة المملكة وشهرة غنا البلاد ومايصدر منها من أنواع وأصناف روايح العطريات والبهارات والمواد الثمينة الواردة من الشرق الى المخازن التجارية فى مدينة بطريا ومنها تتوزع الى النواحى والجهات الغربية بواسطة قوافل العرب فقامت شدة الطمع فى رأس أوغسطوس وأمر عليوس غالوس والى مصر بكشف هذه الاراضى والبلاد ليعقد معها معاهدات وان حصل منها عدم القبول يلزمها بالانقياد والطاعة فأخذ هذا الوالى العساكر التى كانت موجودة فى مصر ومابقى فيها الا القليل وتوجه قاصدا بلاد العرب ومدينة بطريا فغش الدليل الوالى ومشاه فى صحارى ورمال وتلال لامسالك فيها ولامياه ولانبات ولا أشجار فتولد من حرارة الشمس ورداءة المياه القليلة

الموجودة فيها واحتياجه للمؤنة اللازمة للعساكر ووقوع الطاعون في الجيش وضاع المقصود ووصل الى الوالي وهو في ضلاله في الصحاري أخبار اغارة الاتيوبيين على مصر فأخذ في القهقرة وما كان يمشيه في شهرين ساره في سنة حتى وصل الى مصر من غش الدليل وخاب المشروع وبطل ما كان عليه الامبراطور من الموضوع

وكانت ايتوبيا وهي بلاد النوبة الآن من شلال أسوان فصاعدا من النيل الاعلى مسكونة من قديم الزمان بجنس من العالم يتكلمون بلسان قبط مصر ويعبدون آلهة مثل آلهتهم الأن العرب المسمين باسم الطروغلوديطيين وقبائل أخرى كانوا قطنوا من مدة قديمة في جهة افريقه على ساحل البحر الاحمر نموا وكثر عددهم في مصر حتى صاروا نصف عدد مدينة قفط من أعمال الصعيد الاعلى من العرب وفي مدة هذه السلطنة كانت العرب من قبلها قطنوا ايتوبيا فرتب الرومانيون فرقة من العساكر في مدينة أسوان اخر حدود مملكتهم لتوقيف سير العرب الى الجهة الشمالية فلما توجه غالب الفرق الرومانية مع الوالي الى بلاد العرب سار جمع كبير مقداره ثلاثون ألف نفس من سكان ايتوبيا ويقال لهم عرب من دمهم ولسانهم أو ايتوبيون من اقامتهم في اراضي ايتوبيا وأغاروا على مصر وتغلبوا على ثلاث بلوكات من العساكر الرومانية كانوا موجودين محافظين في جزيرة الفنطين واسوان والفيلة وكان هؤلاء القوم في حالة رديئة من أحوال العسكرية في تطقيمهم وتعليمهم وترتيبهم فكان البعض منهم معه طارقيات من الجلد وآخرون معهم نبابيت وآخرون معهم قوس وقليل منهم معهم سيوف وكانوا تحت قيادة قواد من طرف كانداس ملكة مروي وهي امرأة ذات نباهة وادراك مسترجلة في نفسها وكانت عوراء العين فهزم غالوس هؤلاء من بعد عوده من بلاد العرب مع السهولة بجيش مؤلف من ١٠٠٠٠ نفس من الرومانيين والجريق فانسحبوا الى جهة الكلابشة من وادي الكنوز على مسافة ٦٥ ميلا من الحدود فسار خلفهم غالوس وطردهم الى مسافة ٧٠ ميلا حتى وصل الى برميس فوق دنقله العجوز التي كان وقف فيها عسكر الفرس تحت قيادة لهراسب أو قمبيز وعبر الشلالات الوقانية وأخذ مدينة نبطه ومن بعدها ما أمكنه المخاطرة بنفسه خشية عدم وجود مؤن العساكر ورأى أنه كلما قرب من العدو تأخر وتقهقر زيادة فعاد الى مصر وأرسل ما استحوذ عليه من الاسرى الى رومة

وفي سنة ١٦ و ١٥ قبل الميلاد أخضع دروسوس وطيبريوس ربيبا الامبراطور الاقليم الموجود بين سهل لومبارديا وفنطيا وأعلى الدانوب وتغلبا أيضا على القبائل الموجودة في وسط الدانوب وفي الجهة السفلى من أسفله الا أنه مع الصعوبة والمشقة الزائدة ومن بعد أن حصل في هذه الجهات ثوران شديد وكان ذلك من سنة ١٢ الى سنة ٩ قبل الميلاد

وكان أهم هذه الحروب وأكبرها الحرب الذي هيجه أوغسطوس بنفسه على الجرمانيين وذلك أن الاعمال السهلة التي تغلب بواسطتها على جهات الغلية القاطنة في جنوب نهر الدانوب قوته وشجعته حتى رأى في نفسه أن الاقليم الاكبر الموجود في وسط أوروبا الكائن بين نهر الدانوب وبحر بلطيق يمكن خضوعه بسهولة ومتى حصل التغلب على هذا الاقليم أمكنه تقديم الحد الروماني الى نهر الويستول ونهر الدانستر ويكون ذلك من أهم الفوائد في أعماله الحربية ففي سنة ١٢ قبل الميلاد شرع اوغسطوس في عمل مناوشات واغارات على القبائل الجرمانية الموجودة في شرق الرين وفي شمال

الدانوب

الدانوب فكان قصده اخضاع كامل هذه الاجناس عموما وفي سنة ٩ قبل الميلاد كانت الجيوش الرومانية تحت قيادة القائد دروسوس الا انه بمجرد موت هذا البرنس انتقلت قيادة الجيوش الى عهدة طبريوس وتغلبت الجيوش الرومانية الكثيفة على جرمانيا وكانت متساعدة بأساطيلها فاخضعت هذه الاساطيل سواحل وشواطئ الانهر القابلة للملاحة فيها وشيدوا القلاع والحصون والمعاقل لاجل ضبط البلاد وحفظها تحت طاعة أحكامهم وقوانينهم وأدخلوا فيها اللسان الرومانى والقوانين والشرائع الرومانية وهنأ أوغسطوس نفسه على تمام اخضاعه الاقليم الموجود بين النهرين والالبى ومع هذا فان خضوع الجرمانيين كان صورة فقط وكان عزمهم ونيتهم محصورة فى عدم الطاعة صابرين مترقبين الفرصة الموافقة فى عود استقلالهم ومن سنة ٤ الى سنة ٨ بعد الميلاد التزم الجرمانيون حد الصمت والسكون متظاهرين بخضوعهم وطاعتهم وفى نحو انقضاء هذه المدة تقلد من بعد طبريوس زمام قيادة الجيوش فى جرمانيا كنطليوس فاروس وكان قبل هذه القيادة حاكم سوريا فقطع استمرار سير الحركات الحربية وشرع فى ترتيب وتنظيم اقليمه ناسيا الفرق بين شدة الحرية الجرمانية والعبودية السورية التى كان حاكما على أهلها بمقامع من حديد وأجرى أعماله على غاية من الجور والعسف حتى ألزم الجرمانيين على الانتقال من حالة السكون الى حالة العصيان والثوران فقام الجرمانيون فى ثورة واحدة تحت قيادة ارمنيوس أو حرمان وهو أمير من جهة خروسى تربى وتهذب فى رومة وكان على دراية تامة ومعرفة كاملة بتعبية الجيوش وحركاتها وسوقها على منوال القواعد الرومانية ومع أنه كان مستحوذا على حقوق التبعة الرومانية ومعه رتبة الفارس الا أن ذلك لم ينقص منه محبته الوطنية الجرمانية فكان مسعاه على الدوام فى عود استقلالية بلاده وا قامتها مملكة مستقلة فلما استعد فى جميع أعماله وتصميماته أمر باعلان فاروس بان قبيلة فى الجهات الشمالية على شرف من العصيان وكان فاروس فى بلاد الخروسى قريبا من نهر الوزر فسافر فى الحال فى رأس جيش كثيف لاجل تشكيل العصاة والايقاع بهم فرخص له ارمنيوس فى التجول مع فرقه العسكرية حتى دخل فى داخل غابات طوطبورغ وكانت مكتنفة بالاشجار المتكاثفة على بعضها صعبة السير من طبيعتها وزادت مصاعبها بوجود البرك والمستنقعات فيها ورطوبة الارض وازدادت وحلا على وحلها بكثرة سقوط الامطار الغزيرة وتوالتها على فاروس وعساكره وبينما كان فى هذه الاهوال والمصاعب اذ هجم عليه ارمنيوس بجماعة بجموعه الكثيفة من المحاربين الجرمانيين فسلم قواه وعساكره من حزم رأيه وكانت الحالة قاضية بذلك لانه كان لابد من قهقرة الرومانيين فتخطفهم سكان من تقعات الاورمانات من الجرمانيين وكانت طرق المرور وسككه مستحيلة عليهم فآلت الواقعة الى مذبحة شنيعة وعدمت الثلاث فرق باجمعها الا القليل منها فما بقى منها على قيد الحياة قربه الجرمانيون قربانا لا لهتهم على محاريب تماثيلهم (أقول) وهذه الواقعة عين واقعة هيكس والجيش المصرى مع الدراويش التى حصلت فى نواحى العبيد من أعمال كردفان من السودان الاقصى التى ذكرناها فى تاريخ مصر فى الجزء الاول من هذا التاريخ وأما فاروس فانه انجرح جرحا بليغا ثم قتل نفسه بنفسه خشية القبض عليه وكانت واقعة مهولة مزعجة ما رأت الجيوش الرومانية مثلها أبدا وانقرضت شوكة رومة فى جرمانيا بالكلية وقبض الجرمانيون مع العجلة على محافظى الرومانيين وقتلوهم بالسيف وفى ظرف بضع أسابيع ما بقى باق من الرومانيين على قيد الحياة فى جرمانيا وتأبدت استقلالية تلك البلاد

تحت قواعد أساسية ثابتة مافقدتها بعد أبدا ومع ان الرومانيين فى السنة التالية جددوا الحرب تحت
قيادة طبريوس الا أنهم لم يخاطروا بأنفسهم فى شئ ما سوى غارات انتقامية من بعد عبورهم نهر الرين
وفيما بين سنة ١٢ و ١٤ بعد الميلاد سار جرمانيكوس على منوال هذه الغارات وما عزم على تغلب
أو احتلال مستمر ولما طرقت أخبار هذه المصيبة الكبرى التى حلت بفاروس وجيشه أبواب رومة
حصل فيها الفزع والخوف وكان أوغسطوس فى هذا الوقت طعن فى السن وشاخ فأسف أسفا شديدا
وحزن وتنغص عليه عيشه واستمر مدة شهور مثل المجنون يبكى وينوح نواح الثكلى ويعتذو يضج
ويقول فى صياحه هات لى يا كنطاوس فاروس عساكرى وفرقى فاختار على حسب مرغوبه لخلفائه
أن جعل نهر الرين الحد الرومانى فى تلك الناحية واستمر هذا الحد حتى ان الجرمانيين تغلبوا عليه
ورموا على أطلال وآثار مملكة أوغسطوس أساسات الممالك الاوروباوية القرون المتوسطة ومن بعد
هذه الحروب صارت سلطنة أوغسطوس سلطنة أمن وفلاح وما حصل فى الراحة العمومية الداخلية
فى رومة تعكير ولا تكدير وأهلك أرباب الثورات والزعازع أنفسهم فى الحروب الداخلية وتولد مما أجراه
الامبراطور من حزم الرأى فى أخذه الاحتياطات اللازمة لراحة البلاد وفلاح العباد منع وصد أى قلقلة
أو حصول ثورة جديدة وجبر قلب الرومانيين على ما فقدوه من حريتهم بسرعة زيادة العز والفلاح فيما
بينهم بادارته وحزمه وتدبيره فكان يوزع عليهم ما يحتاجونه فى الشدة والضيق وقت الحاجة وأخذت
مدينة رومة فى زيادة الصلاح بان أقيمت فيها عمارات جديدة وهياكل ومبان عمومية مفيدة
حتى أمكن أوغسطوس أن يتباهى ويفتخر بوجه الحق والانصاف فى كلامه وقوله انه وجد رومة
طوبة وتركها مرمرا واتسع نطاق التجارة مع النشاط والشغل العجيب فى مدة سلطنته وأزهرت أحوال
الامن واستتباب الراحة وزاد التقدم فى أعمال الزراعة ومن ثم ازدادت ثمرات المحصولات فى ايطاليا
وفى الاقاليم ووصلت رومة الى أقصى درجات فلاحها العرضى والجوهرى فى مدة هذه السلطنة وكان
أوغسطوس أيضا حكيما عاقلا مدبرا سخيا كريما محبا للآداب والصنائع والعلوم والمعارف فكان
فى عصر سلطنته فيرجيل وهوراس وعوفيدوطيبولوس وبروبرطيوس وفاريوس وليفى أرباب
الآداب والمعقولات فى عصر هذه المدة الزاهرة وبلغ هؤلاء العلماء أقصى درجات الفخر والمجد فى نشر
الآداب والمعارف على أمة كان عصرها هو العصر الاوغسطوسانى وكانت نقود مصر فى مدة سلطنة
أوغسطوس ومن خلفه جميعها نقودا اجريقية وما حصل فيها تغيير من الرومانيين ولما فقدت مصر حريتها
عدمت منها نقود الذهب وما كان يوجد فيها من النقود الذهبية كان المصريون يدفعونها فى الخراج
والعوائد المقررة عليهم لرومة ماعدا العوائد التى كانت مقررة على الغلال والحبوب فكانت تؤخذ من
عينها وتجمع فى أشوان مخصوصة وتشحن فى مراكب وترسل الى رومة ويوزع على أهل الكسل
والفقراء الموجودين فى هذه المدينة الواسعة العامرة وبلغ مقدار ضرائب الغلال التى كانت مضروبة
على مصر سنويا الى اثنين مليون كيله وكذا لم يحصل من الرومانيين تغيير فى ديانة المصريين وما زال
القسس مجدين ومجتهدين فى بناء الهياكل والمعابد وذلك أن الهيكل الصغير الموجود فى جهة تندره
باسم أزيس خلف المعبد الأكبر لانور امام صار بناؤه أو تمام بنائه فى مدة هذه السلطنة وكذا حصل
الشروع فى بناء المعبد الاكبر فى مدينة طالميس من أعمال النوبة وما تم بناؤه وموجود اسم أوغسطوس
فى معبد جزيرة الفيلة فوق أسوان على بعض اضافات من الابنية كانت أضيفت الى هذا المعبد فى مدة

سلطنته

سلطنته وكان هذا المعبد على اسم ازيس وبنى فى زمن سلطنة بطليموس فيلادلفوس وفى ضمن الكتابات الموجودة فى هذا الهيكل ملقب أوغسطوس بلقب ابن الشمس ملك مصر العليا والسفلى مع ألقاب أخرى كان المصريون يلقبون بها ملوك البطالسة وقدماء ملوكهم

وكانت سعادة أوغسطوس مقصورة جميعها على عيشة نفسه وما مد هذه السعادة على أحد من أقارب عائلته وكان متكدر الحال منغص العيشة فى نفسه مما أصابه من المرض والعناء والآلام التى حلت به فى معظم حياته وكان على غاية من الرغبة فى ولد ذكر من دمه يرثه فمع أنه تزوج ثلاث مرار الا أنه لم يرزق ولدا ذكرا يرثه فى تخته وممالكه سوى بنت اسمها يوليه حصل له منها أشد الضرر والاذى مما وقع منها من الفجور والافراط فيما أخل بأمر أبيها وبيتها وقطع الموت سكة مواصلته لمن كان يرغب أن يكون خليفته من بعده فانجبر عند اقتراب أجله أن ينتخب الوارث له من بعد موته ربيبه طبريوس وكان شديد الكراهة له وطلب من طبريوس أن يختار أن يكون الوارث له من بعده الشاب جرمانيكوس بن دروسوس أخو طبريوس وأنعم أوغسطوس على جرمانيكوس بزواج حفيدته أغريبنه فولد لجرمانيكوس منها ولد ذكر فى حياة أوغسطوس صعد على التخت باسم كاليجولا أى الجزمه أو الصرمه ثم مات أوغسطوس فى سنة ١٤ بعد الميلاد وخلفه ربيبه طبريوس برضا من عموم مجلس السناتو والامة الرومانية أجمع وما حصل أدنى معارضة فى جلوس الامبراطور الجديد من أحد الا من الجيش فقط لان رغبة الجيش كانت مقصورة على صعود وجلوس حبيبهم وقائدهم العزيز جرمانيكوس على التخت ولبس القميص الارجوانى فرفض هذا الشهم قبول مارغب فيه الجيش وعدها بالنسبة له خيانة فى حق عمه وأطفأ ما كان حاصلا من أمر الجيش وما كان سيقع بينه وبين عمه من النزاع والمخاصمات ومع مافعل جرمانيكوس من عالى المروأة قابله به عمه طبريوس بالعداوة وجعله ألد أعدائه وكافأ أصدقائه له بعداوة جهرية حتى ظهر لارباب الدولة والخدم والحواشى أن كل من أراد أن يوجه التفات الامبراطور اليه ويحصل لنفسه السعادة وعلو الدرجة فليؤذ جرمانيكوس اما قولا أو فعلا

وتسلطن طبريوس فى رومة مدة الاثنتى عشرة سنة الاولية من سلطنته أى من سنة ١٤ الى سنة ٢٦ بعد الميلاد وسار فى أعماله بسياسة متوسطة معادلة لما هو جار فى أشغال مملكته وفى مدة السنين الاولى من هذه المدة اشتغل جرمانيكوس بادارة الحرب على أرمنيوس فى جرمانيا ومن بعد عدة هزيمات وكسرات حصلت له حاز بعض مظفرات على القائد الجرمانى وفى سنة ١٧ بعد الميلاد طلب فى رومة بصفة مقابلته بما يلزم له من الاكرام ومكافأته باحتفال الشرف نظير ما حصل منه من أداء خدمته الا أن حقيقة الامر هو توقيف ما كان عليه من النجاح والنصر فى جرمانيا ولما توجه قابله أهل رومة على مسافة عشرين ميلا من المدينة فى ازدحام كبير وكانوا خرجوا فى ازدحام زائد وكبكبة كبيرة لمقابلته فكانت هذه من دلائل محبتهم لهذا الشاب الامير فارتاع طبريوس من وقوع هذه المادة وداخله الخوف وعزله من قيادته هذه وأرسله لمباشرة الحرب فى آسيا وأرسل معه الى ميدان أعماله الجديدة بيسو كان من أعز المقبولين عند الامبراطور وكلفه الامبراطور فى السر بأن يعكف نفسه على الاشغال والاعمال التى يحط بها قدر جرمانيكوس ويوهن أمره حتى يجعله فى أبخس الاحوال ومع ما كان فيه بيسو من الاشغال المتكفل بها من طرف الملك فقد نجح جرمانيكوس فى فصل أعمال أرمينية وزتب قبدوسيا وكوماجينى وجعلهما اقليمين رومانيين ولما حصل من جرمانيكوس استتباب

الامن والراحة في جهة الشرق ووجد لنفسه فرصة وزمنا يشاهد فيه مع السرعة والعجلة الابنية المفتخرة المصرية والهياكل والمعابد الضخمة الموجودة فيها توجه مسرعا اليها ومازال جائلا يتفرج في سياحته في مصر حتى وصل الى طيوه من الصعيد الاعلى وشاهد أبنيتها العظيمة وهياكلها ومعابدها وحوله القسس والروحانيون من أهل الديانة المصرية فتأمل في كتابة على أحد المعابد الكبيرة وطلب من القسس أن يقرؤها له وكانت بالقلم القديم الهيروغليفي أي القلم المقدس منقوشة على حوائط الهيكل فقالوا له ان هذه الكتابة مذكور فيها اعظم المملكة وسعادتها في زمن الملك رمسيس (سيزوستريس) في مدة كان يوجد فيها ٧٠٠٠٠٠ مصري في عمر واحد تحت السلاح وبواسطة هذه العساكر تغلب رمسيس على الليبيانيين والاتيوبيين والميديين والفارسيين والبقطريانيين والصيطيين والسوريين والقبدوثيين والبثنيانيين والليسينيانيين وقالوا له على مقدار ما كانت تدفعه هذه الامم من الخراج ومقدار وزن الذهب والفضة وعدد العربات والخيول وهدايا العاج وروائح العطريات اللازمة للهياكل والمعابد ومقادير كيات الغلال التي كانت ترسلها الاقاليم لمأكول أهل مدينة طيوه ومن بعد أن سمع جرمانيكوس آلات الطرب في هيكل منفطه توجه الى ادفو واسوان وجزيرة الفيلة وكانت آخر حدود المملكة الرومانية وعند عوده عطف على الاهرام وشاهدها وكذا شاهد بحيرة موريس في الفيوم وما كانت معدة له من تعميم الري على أراضي مصر فكانت هذه الزيارة عند طيبريوس من أكبر المصائب عليه وحصل له غاية الغضب والكدر في العيشة وقال ان جرمانيكوس يقصد بدخوله مصر أن يكون محبوبا عنده وعد هذه من أكبر الجرائم لانه فضلا عن نواله محبة الامة المصرية له سار في وسط بلادهم من دون خفر معه لابسا لباس رجل بسيط من الجريقيين وخفض أثمان الغلال وفتح الاشوان العمومية وخرق قانون أوغسطوس المعروف عنده القاضي بأن لا أحد من الحكام أو القناصل أو أرباب مجلس السناتو يضع قدمه في الاسكندرية من دون رخصة منه ولما عاد جرمانيكوس من مصر الى آسيا مات مسموما في سنة ١٩ بعد الميلاد في أنطاكية من أعمال سورية والصحيح أن الذي سمه بيسو وكان هو المتسبب في قتله من طرف الامبراطور واستشعر طيبريوس من نفسه بانه لا يوافق المركز المحتل فيه ولا طاقة له على أشغاله المهمة الكبيرة الا أن حسده وغيرته من رجال بيت يوليان ومن أقارب نفسه كان زائدا جدا حتى انه كان يخشى من مساعدة نفسه بأي واحد منهم في أشغاله الصعبة اللازمة لادارة وأحكام مملكته وكان أيضا على غير ثقة بكل واحد من وجوه الاشراف والامراء وراى أن كل واحد منهم خصمه الالد فمن ثم أبطل مجلس المملكة الذي كان رتبه أوغسطوس وشرع بنفسه في الاشغال والاعمال اللازمة لمملكته من دون واسطة أحد يساعده فيها وكلما كل من صعوبتها وزادت عليه مشقتها انتخب بنفسه واحد المساعدته كان يعتقد فيه الحزم والتدبير والصدق والامانة وينفعه في الشدائد والمضايقات عند ما رأى ان الحالة الموجود هو عليها ربما يتولد منها له ضرر أو أذى لان حالته كانت على شرف الانحطاط فوقع بصر انتخابه على عليوس سيانوس وهو نيت أو فارس فولسنياني وجعله والي المدينة وعهد اليه جميع الاشغال وقلده زمام الاحكام حتى استحوذ سيانوس في مدة قصيرة على نفوذ كبير وشوكة لانهاية على نفس الامبراطور وظهر على هذا الرجل الذي اعتقد فيه طيبريوس انه رجل غشيم لا يحصل منه ضرر ولا أذى الطمع الاشهى من وقت ما بلغ نواله في حكم المملكة وأضمر في نفسه أنه يكون سيد المملكة فكان أول عمل أجراه وشغل محتم عليه أداه لغواءه ليفيلا امرأة دروسوس بن

طبريوس وانه بمساعدتها يزيل طبريوس من طريقه و يعمل طريقة في قتله بالسم وكانت هذه الحادثة في سنة ٢٣ بعد الميلاد ولما لم تنكشف جريمته هذه وخاب فيها الطلب بوقاحة وجهه وجسارة فعله من الامبراطور الرخصة في زواجه ليفيلا فتولد من هذا الطلب الجسوري أن جعل طبريوس يفتح عينيه لما فيه نديمه من الطمع فمع انه لم يسمح له بهذا الطلب الا أنه مازال خاضعا نفسه له وضغط سيانوس عليه بنفوذه وسلطنته وتتبعه حتى جعله يعتزل بعيدا عن رومة في جزيرة كابرنه في خليج نابولي وكانت أنزه جهة في البحر الابيض المتوسط وترك أحكام المملكة وأشغالها في أيدي سيانوس نديمه ولما صار سيانوس سيد رومة بذل جهده وسعى سعيه في ازالة جميع الموانع الموجودة في طريق بلوغه نواله وتيسر على الحصول على مقصوده ومرامه فكان أول كل شئ ضروري عنده ومن الواجب عليه فعله هو هلاك ودمار كل من كان على قيد الحياة من العائلة الاوغسطوسية وبواسطة ما أجراه من الدسائس والاقاويل الكاذبة استحصل على رضا الامبراطور في القبض على اغريبينه أرملة جرمانيكوس وسجنها هي وولديها نيرو ودروسوس وبملازمته للامبراطور والحاحه في القول عليه من أجل قضاء مرامه رخص طبريوس له في زواجه ليفيلا وخطبت له رسميا بأمر الامبراطور وكان كل ذلك لاجل هلاك الامبراطور بمساعدة ليفيلا وفي هذا الوقت صار بوظيفه قنصلا متحدا في الاشغال مع الامبراطور وتغيرت بغتة أحوال سير طبريوس وأزعجته مطامع نديمه فصرف وجهه والتفاته عنه فأحس سيانوس في الحال بما حصل عند الامبراطور وبكشف دلائل تغيير حواس الامبراطور من جهته فلاجل محافظته على سلامة نفسه رتب ثورة مخصوصة لقتل الامبراطور فانكشف أمر هذه الثورة وأمر الامبراطور بالقبض على النديم وجرده من الحكومة وقتل في سنة ٣١ بعد الميلاد

ثم تولد من غش وخداع هذا الرجل الفريد الذي كان الامبراطور واثقا به ومعتمدا عليه في أشغال مملكته أن صار طبريوس لا يثق ولا يعتمد على أي واحد من الجنس البشري وشك وارتاب في أمره زيادة عما كان عليه من قبل ولم يرجع الى رومة بل بقي في محل عزلته الجليل وعمر عمارة جليلة في البحر الابيض المتوسط فوق هذه الجزيرة وجعلها باسم أحد الآلهة وأحس في هذا الوقت بانتهاء مملكته ووقوعها في حالة مشؤمة كان هو السبب فيها والمنشئ لمباديها ولما أتته الاخبار بقتل ابنه دروسوس ارتعب وخاف على سلامة نفسه وشرع في أداء أعمال سلطنة مزعجة ما رأت رومة مثلها قبل فأمر بقتل ليفيلا مخطوبة المقتول سيانوس واغريبينه ونيرو ودروسوس وجميع أقارب جرمانيكوس وأمر بقتل مئات من الوجوه والامراء من ذكور واناث حتى قتل بعض الاطفال ضمن الذين أمر بقتلهم هذا الطاغية العسيف الجبار كل هذا رغبة في كونه يأخذ بثأر ابنه ويزيل من أمامه كل ما يرى انه يحصل له منه ضرر وأذى وانهمك طبريوس في الجزيرة مقر عزلته على الفجور والسفاهة وقلة الادب الخارجة عن حد الطبائع البشرية ومات في هذه الجزيرة في سنة ٣٧ بعد الميلاد من بعد أن بلغ من العمر ثمانيا وسبعين سنة ونال من السفاهة وارتكاب الآثام ما لم ينله أحد قبله من الرومانيين وأراح الله من حكمه وظلمه البلاد والعباد

وفي هذه السنة انقرضت آثار آخر الحرية الرومانية لان الامبراطور كان نزع من العشائر حق انتخاب النواب وجعل كل من يتوظف أو يتعين لمصلحة من المصالح يكون توظيفه بمعرفة الحكومة ونشر القوانين الجنائية الجبائية في القول حتى الفكر وكان أوغسطوس نشر هذه القوانين وجعلها تحت

الحاجة لردع الذين يتسببون فى وقوع خيانات أو حصول ثورات وتثبت خيانتهم عما كانت على يد قضاة مندوبين لمثل هذه التحقيقات لكن طبريوس أبطل حقوق المحاكة وأصدر أوامر الذبح والخنق فى السجون على مقتضى أمره لاغير وعسكر الخفر الامبراطورى فى معسكر خارج أسوار مدينة رومة لارهاب أهل المدينة وانقيادهم لطاعة ماهو عليه من العتو والجور الغليظ

وفى المدة التى كانت فيها الدنيا الرومانية غريقة فى بحر العواصف والزعازع المتولدة من جور طبريوس وقبح أعماله شب فى ناحية بعيدة من أطراف المملكة نار تأثير حصل منه تغيير فى حالة الدنيا عموما وذلك ان عيسى المسيح عليه السلام شب وترعرع وبلغ مبلغ الرجال فى المدة الاخيرة من سلطنة أوغسطوس وفى السنى الاولى من سلطنة طبريوس وفى سنة ٢٧ بعد ميلاده لما بلغ عمره ثلاثين سنة شرع فى تأدية رسالته العامة حتى رفع الى السماء من بعد أن ترك رسله يتممون أعماله حتى انتشرت فى الارض فى ظرف ثلاث وثلاثين سنة وانتهت فى الوقت الذى بلغت فيه شوكة سيانوس الدرجة القصوى وفى السنى الاخيرة من سلطنة طبريوس ابتدأ المبعوثون الاول فيما أمروا به وخرجوا من أورشليم الى الاراضى والممالك المحيطة بها فى طلب نشر الديانة المسيحية ورموا أساسات هذه الثورة الكبرى التى تولد منها التغلب على رومة نفسها وحصل فى السنة التى مات فيها طبريوس دخول طالوت صاحب طرسوس فى الديانة المسيحية وهى حادثة جليلة عند المسيحيين

ومات طبريوس على غير وصية بخليفة من بعده فاختار مجلس السناتو والجيش والامة كايوس قيصر ابن جرمانيكوس واغريبينه الباقى على قيد الحياة وكان معروفا باسم كاليجولا وهو مجرد لقب أعطى له فى مدة طفوليته كان العساكر لقبوه به فى جرمانيا لانه كان يلبس جزمة صغيرة على هيئة جزم العساكر وعندهم اسم الجزمة كاليجى فلقبه العساكر كاليجولا أى الجزمة أو الصرمة فرحا به وكان عمره ستا وعشرين سنة لما جاء الى التخت وظهر للعموم أنه شاب سمح الذات خفيف الصفات كريم السجايا طيب الاخلاق فغش قومه وأهان نفسه وحط قدره وخسر ما أمله قومه فيه بما أجرامن الجور والفظاظة وكان يوجد فى الخزينة الامبراطورية فى وقت جلوسه على التخت ما ينيف عن مائة مليون ريال فصرف هذا المبلغ أجمع فى بضع شهور وعاد الظلم فى العوائد والفردة لاجل كفاية طلباته واستعمل قوانين الاستبداد المخصوصة بالخيانة والدسائس ولما انتقلت أملاك الذين حلت بهم مصائب التهم الى الحكومة وسلبت أموالهم اتضح بداهة من عينى الامبراطور أن أعماله هذه أعمال خيانة وجراءة القصد منها الحصول على جمع أموال فقط وكثر قتل الناس بعضهم لبعض خيفة من فظاعة أحكام الامبراطور وزاد جوره وجوره بوقوع مذابح جديدة تحصل كل يوم وليلة وكان عنده اشارة مخصوصة للقتل وهى اما الايماء برأسه أو يركز بأصبعه من أجل الذين يرغب قتلهم وكان جلادوه أو جزاروه يقبضون على الضحايا ويجزرونها فى الحال وأما هو فكان معه علبة عطوس أو نشوق ملآنة بمسحوق مركب من المواد القاتلة أو السموم فكان يقدمها لارباب الرتب العالية وكبار الامراء والوجوه ويراقب حركتهم عند استعمالهم هذا النشوق القاتل فكان كل من شد فى أنفه شدة منه خرجت روحه من جسمه على الفور والذين كانوا لايقبلون الاخذ من هذه التنشيعة فكانوا يذبحون معدودين من ضمن الخائنين وصار كاليجولا أستاذا وسيدا للفجور والسفاهة والافعال القبيحة حتى عاش فى زناه جهرا باخته دروسيلا الى ان ماتت فى سنة ٣٨ بعد الميلاد وفى نحو هذا الوقت أصابه فالج وولج فى جسمه مرض

سلب

سلب منه العقل حتى أصبحت الدنيا الرومانية تحت سيادة رجل مجنون مختبل العقل مغبون ثم ادّعى الالوهية وابتنى شرفا لمقامه معبدا باسم جو بتيرلاطيارس وانحط كبرياء أمراء رومة وما كانوا فيه من العجب والشماخة وغرقوا في بحر الذل والاهانة حتى ان البعض منهم استحصل على اجازات من أجل خدمة هذا المزار وأما في الالعاب العمومية فانه عند مالم تكن اجراآت الخطايا والآثام كافية عند هؤلاء اللئام فكان الامبراطور يأمر بالقبض على بعض الناس من زحام الملعب ويرمون للحيوانات المفترسة أو تقطع ألسنة الذين لا ينزعجون من هذه الاهوال وال الامر أخيرا في انتهاء هذه المدة القصيرة المشحونة بالاهوال وجرائم الامور بقتل كاليجولا بواسطة رجلين من خفره كان حصل لهما منه السب واللعن وتوعدهما بفقد حياتهما فقتلاه في سنة ٤١ بعد الميلاد وأزالا من أنفسهما ما كانا فيه من الوعد والوعيد

وتولد من موت كاليجولا الذى وقع على حين غفلة انه ما صارت المملكة بغير حاكم فقط بل وبغير معرفة بالوسائط اللازم اجراؤها لانتخاب أمبراطور بدله وطلب مجلس السناتو ماله من الحق فى تعيين وانتخاب الامبراطور للتخت من بعد المقتول لكنه بدل أن يسرع فى انتخابه حصل عنده البطء الطويل لان هذا العمل كان من الضرورى فيه الشروع على الفور فاستيقظ حكام العسكرية عند تردد مجلس السناتو فى فصل هذه القضية وفصلوا المسئلة بأنفسهم ونادوا على كاوديوس عم كاليجولا بالامبراطورية فما حصل من أرباب السناتو أدنى جراءة فى المعارضة وفى عدم التصديق على هذا الانتخاب الذى حصل من طرف العسكرية وتولد من الجسارة التى حصلت فى مثل هذا الشغل أن صار فصل طريقة الاجراء فى الانتخاب بان تكون بمعرفة العسكرية واستمرت هذه الحالة جارية زيادة عن نصف قرن يجرى فيها انتخاب الامبراطور بمعرفة أرباب هذه الطائفة ويلتزم مجلس السناتو بالتصديق على انتخاب الامبراطورات

ووجد العساكر كلوديوس مختفيا داخل السراى خائفا مرعوبا مما حصل من قتل ابن أخيه فأخذوه وألزموه الصعود على التخت ولبس الثوب الارجوانى وكان مرعيا من ابتداء زمن طفوليته بانه عديم الدراية بالحزم والتدبير وكانوا يعدونه من ضمن العوام والذين لا خلاق لهم وكان جبانا خوافا ضعيف الرأى عديم المهارة والادارة جلفا فظا غليظا فكان بأى حالة من الاحوال رجلا غير موافق لحكم مثل هذه المملكة سيما فى مدة مشحونة بأكبر أحوال الفساد والفجور ومع ما كان عليه من الصفات المتقدمة فانه كان أمينا سليم الجادة حتى انه فى مدة سلطنته وثق رعيته فيما بعد بحكمه فى المملكة بمفرده من دون شريك يشركه فى الاشغال لكنه كان فى مبادى أمره تحت سلطة أزواجه وندمائه فانتهزوا فرصة ضعف عقله ورأيه وعجزه وأجروا ما كانوا عليه من أغراضهم القبيحة وكانت مساليته العاهرة القبيحة الغرض زوجة كلوديوس رئيسة الخبث والخبائث والفجور وصارت على شهرة تامة بانها أعهر امرأة فاجرة فأفشت ما فى قلبها من الغل والحسد والكراهة للاشراف بمصاريف من بعض الوجوه القاطنين فى رومة وصار لها وقاحة وصلابة وجه فى كونها كانت تذهب الى هيآت ومحافل الزواج العام ومعها واحد من عشاقها مع أن الامبراطور على قيد الحياة وأخيرا أمر كلوديوس بقتلها فى تطير فعلها هذه الفعال وأراح الله من خبثها العباد وأصدر مجلس السناتو منشورا للامبراطور يقضى بزواجه بابنة أخيه أغربينه وكان من أعظم السعادات أن صارت هذه البرنسيسة خليفة

مسالينه وامتازت شهرتها وصيتها في الفرق بينها وبين سالفتها فانها ما كانت على حالة رديئة بالكلية لانها أظهرت طلبها في عود سنيكه من دار منفاه وربتـه مربيا لابنها نيرو وكان سنيكه من أكبر الفلاسـفة تربى وتهذب في مدينة الاسكندرية بمصر ودرس فيها علم الفلسفة والآداب وتقدمت برهوس في السلطة والنفوذ ودافعت عن كثير من الاشراف المغضوب عليهم ولما خافت في آخر أمرها من عقابها على ماهو حاصل منها من الجرائم ساعدها طبيب الامبراطور وخلصا على حياة كلوديوس وقتلاه بالمواد السمية سنة ٥٤ بعد الميلاد

وكان كلوديوس عالما نوعا ومصـنفا ودرس علم التاريخ على ليفي الفيلسوف وكتب فيه عدة مجلدات باللغتين الجريقيـة واللاتينية فكانت اللغـة الجريقية أكثر استعمالا في مدينة الاسكندرية وأسس كلوديوس مدرسـة في هذه المدينة سماها باسم المدرسة الكلودية وقرر أياما معلومة في كل سنة يقرأ فيها تاريخ قرطاجنة علنا في جهة وتاريخ ايطاليا في جهة أخرى

وما كانت سلطنة كلوديوس مشهورة بما حصل فيها من الجرائم والآثام فقط بل صار في سنة ٤٤ بعد الميـلاد التغلب على جزيرة بريطانيا بعضها بواسـطة عولوس بلوطيوس وبعضها بواسطة كلوديوس نفسـه وخضـعت كافة بلاد هذه الجزيرة لحد خط الدى والواش وجلبها الرومانيون تحت نفوذ التمدن والحضارة وأصلح الرومانيون البلاد التى تغلبوا عليها وعمروا فيها الطرق وبنوا القناطر وقطعوا الاورمانات والغابات الكثيفة الملتفة وشيدوا مواقع ومراكز عسكرية صارت من بعـد قليل مراكز للتهذيب والتعليم وتشريع الشرائع وطهروا نهر الطمس وعمقوا قاعـة وشرعوا في بناء الارصـفة الضخمة في شاطئ النهر وينسب اليهم في الحقيقـة وجود مدينـة لوندره وظهورها من حـيز الخفاء الى حيز الوجود ومهد الرومانيون طرق الاشغال والكسب والمعيشة للبريطانيين

وفى مدة سلطنة كلوديوس عرف الجريق والرومانيون حق المعرفة الطريق الموصل من مصر الى الهند وكانت هذه أول مرة فمن ثم كثرت التجارة وزادت أعمـالها وأشـغالها حتى انه صار حساب قيمة الذهب والفضة الذى كان جاريا ارسالهما سـنويا الى الشرق فوجـد نحوا من ٤٠٠٠٠٠ ليرة اسـترلينه كانت مصر تستبدل بها بضائع هندية تباع في رومة بمائة مثل هذا المبلغ أى ٤٠٠٠٠٠٠٠ ليره اسـترلينه وكانت تحمل التجارة في النيل من مدينـة الاسكندرية الى مدينة قفط من الصعيد الاعلى وتسافر منها من طريق صحراء عيذاب مسافة ٢٦٠ ميلا حتى تصـل الى برنيس المينة الموجودة على ساحل البحر الاحمر وبمـا أن هذا السـفر كان لايمكن اجراؤه الا في الليـل خوفا من شدة حرارة الهاجرة في الصحراء فكان لايصير قطع هذه الطريق في أقل من اثنى عشر يوما ثم تشحن التجارة في مراكب من برنيس تسافر في نحو منتصف شهر يوليه وقت ظهور شعاع الشعرى اليمانية مع الشمس وفي ظرف ثلاثين يوما تصل اما الى كانيس من أعمـال بلاد فرلكين أو الى عوكاليس مدينة على ساحل بلاد العرب يحتمل انها مدينة مخا ثم تترك المراكب هذه الجهات وتسافر مع ريح الطباب فتعبر بحر العرب وتصل الى السـاحل الهندى قريبا من مصب نهر السند في ظرف أربعين يوما وفي أواسط شهر سبتمبر ثم تسافر من السـاحـل الهندى وقت عودها في آخر سبتمبر فكانت مسافة الطريق من الاسـكندرية ذهابا وايابا أقل من سـنة وكانت الصادرات الهندية هي الحرير والالمـاس والاحجار الاخر الكريمة والزنجبيل وأصـناف البهارات والعطارات وبعض من الروائح العطرية ومـن ثم كانت مملكة أتيوبيـه لاتنزل

تجارتها فی النیل الی أسوان بل كان جميع صادرات جنوب أفريقه تشحن فی مراكب سواحلية وتأتی الی برنيس وكانت هذه الصادرات العاج وسن العذس أو جاموس النيل وجلوده والباغة والقرود والسنانيس وتجارة الرقيق

وكان من ضمن الصادرات المصرية الورق المصنوع من غاب البردی المسمی برق الغزال فكان ينبت هذا الغاب فی برك المياه الراكدة ويترك الی زيادة النيل ثم يقطع فی مدة تحريق المياه فكانت جذوره الثخينة تستعمل مثل الخشب اما للنار أو لصنائع نافعة وأما سوق رؤسه الطريفة فكانت تفتل أو تجدل و يطوق بها رؤس تماثيل الآلهة مثل التيجان والاكاليل ومن نفس الغاب كانت تصنع القوارب وتطلی بالقار كما هو جار الآن فی البلاد الصينية واليابونية وتعمل من قشوره القلاع والالبنة وحبال المراكب وجنس من الاقمشة وبعض مثل الغذاء أخضر ومطبوخا ويبلع عصيره فقط مثل قصب السكر وكان يعمل منه الورق أيضا فكان يشق عروضا رقيقة جدا علی قدر الامكان وكان يطلق علی أجوده اسم ورق الكهنة لانهم كانوا يستعملونه فی تدوين الكتب المقدسة وعمل منه فی عهد أوغسطوس أوقطافيوس جنسان عظيمان واحد منهما اسمه أوغسطانی والآخر اسمه ليفانی علی اسمه واسم امرأته وعمل جنس رابع وخامس أحدهما فنيانی اسم صانع ماهر رومانی وانفتياتری اسم شارع فی رومة كان يباع فيه هذا الجنس ونوع سادس اسمه صايتی باسم مدينة صای أوتنيس وكان ينبت بالقرب منها بكميات وافرة الآن جنسه كان ردیء الشغل وجنس سابع كان يسمی لينوصی كان يباع بالوزن وثامن وهو الاخير كان عمبروطی أو عمريطی ما كان يستعمل فی الكتابة بل كان يستعمل فی الدكاكين مثل ورق الكرونة للف البضائع وأصناف العطارة وكان عرض الفرخ الواحد من الصنفين الاولين ثلاث عشرة اصبعا وورق الكهنة احدی عشر اصبعا والفنيانی عشرة أصابع والانفتياتری تسع أصابع وأما العمريطی فكان عرضه ست أصابع ثم من بعد مدة ظهر أن الاجناس العريضة رقيقة جدا علی الكتابة ويرشح حبر الكتابة ومدادها من صفحة الی أخری فمن ثم عمل فی مدة سلطنة كلوديوس قيصر جنس جديد أطلق عليه اسم الورق الكلوديانی ثخانة كل فرخ بقيمة فرخين من الرقيق ألياف هما قاطع بعضها بعضا ووجد اسم كلوديوس منقوشا علی عدة هياكل فی مصر العليا وبالخصوص علی هيكل مدينة الشمس وعلی ايوانات الهياكل الكبری فی مدينة لاطوبوليس وكانت بنيت فی هذه السلطنة

وبهذه المناسبة لذكر مصر هنا نذكر نبذة صغيرة تختص بالعائلة الملوكية البطليموسية وذلك أن اغسطوس أوقطافيوس كان زوج سلنی بنت كليوبطره وانطونی بالشاب يوبه مؤرخ افريقه وأحسن عليه فی هذا الوقت بسلطنة مملكة موريطانية (مراكش) وراثة آبائه فخلفه ابنه بطليموس علی تخت (مراكش) فقتله كاليجولا من دون أدنی سبب يوجب قتله وكذا تزوجت دروسيلا حفيدة كليوبطره وانطونی شخصا اسمه انطونيوس فليكس نائب مملكة يهوذا من بعد موت زوجته وهذا آخر ما وجد من التسجيلات التاريخية فيما يتعلق بالعائلة الملوكية البطليموسية المصرية

ثم من بعد موت كلوديوس استخلف مكانه ربيبه نيرو وكان تزوج بابنته أوقطافيه وكان نيرو هذا ابن أغربينه فجنحت الی الامبراطور ورغبته فی أن يجعله الوارث لتخته بدل ابنه بريطانيقوس وبمجرد موت كلوديوس قدمت أغربينه نيرو فی الحال الی قواد طائفة العسكرية فرحبوا به ترحاب الامبراطور وصدق علی انتخابهم له مجلس السناتو وكان باب فتح سلطنة نيرو ملآن بالمواعيد والمواثيق وفی ظرف خمس

سنوات هنأ الرومانيون أنفسهم على تغيير حكامهم وخفت مظالم ضرائب السلطة القديمة وسوعد الفقراء والمستحقون فى منحهم أراضى يزرعونها وانقرض النماميون والمازون وهم أقبح طائفة كانت فى الامة يكتسبون معاشهم من القدح والذم فى آخرين ويرمونهم بالجرائم والذنوب وصار التغلب على أرمينية وصار صلاح البلاد والاقاليم الموجودة فى طول الرين الاسفل وعملت أرصفة وحواجز منعت فيضان النهر وعلو مياهه على البلاد وأراضى الزراعة وكانت كافة هذه الاعمال العظيمة جارية بمعرفة بزوهوس وسنيكة فكانا أهل التدبير والصلاح ووزيرى الامبراطور وأما نيرون نفسه فكان ظالما وغشوما عسيفا فاجرا فى صفة حيوان شهوانى دنئ النفس فانه سم أخاه من الرضاعة بريطانيقوس فى السنة الثانية من سلطنته أى فى سنة ٥٥ بعد الميلاد ومن بعد قليل طرد أمه ونفاها والتفت الى حظ نفسه وفى سنة ٥٨ بعد الميلاد جلبته امرأة عاهرة اسمها بوبيه سابينه تحت كينها ونفوذها المهلك وكانت امرأة أوطو وصارت سيدة الامبراطور وتولد من دسائسها وخداعها وفجورها أن قتل نيرو أمه فى سنة ٥٩ بعد الميلاد ثم بعدها امرأته أوقطافيه فى سنة ٦٢ بعد الميلاد وكان طلقها قبل هذا وقتل خليله الصادق بروهوس وطرد سنيكة من ديوانه وسلم زمام قيادة المملكة وحريتها للاسافل من الناس الذين كان يميل اليهم ويركن عليهم وشجع على الغيبة والنميمة وملأ خزائن أمواله من أموال ضحاياه وقتلاه وألزم أرباب دولته على ضرب ضرائب وجعلها من الامة وقوى جهرة على فعل المكروه والرجس والخبث وألزم رعاياه على الاشتغال بالملاعب والتياترات العمومية واشترك فى المغانى والترنمات الصوتيه فى الالعاب البرزخيه وأمر بقتل واحد من المغنين كان صوته غطى أو حجب صوته وفى سنة ٦٤ بعد الميلاد حصلت حريقة مهولة فى رومة أخذت عشرة أخطاط منها من الاربعة عشر خطا التى كانت المدينة مقصورة عليها فكان نيرو يتفرج على سرعة سريان لهيب النيران فى الاماكن والجهات من برج على جبل اسكلين ويغنى مغانى ونشيد خراب تروادة فى هيئة واحد من مشخصى الملاعب والروايات فى التياترات وكان يظهر أشد العناء والتألم من أجل هذا الذى حصل لرعاياه من الاذى فمع أن المعول عليه أنه هو الذى أمر بحرق المدينة كراهية من ضيق حاراتها وشوارعها وخلوها من الاهويه ودوران النسيم فيها الا أنه اتهم بهذه الجريمة المسيحيين وكان المسيحيون كثيرى العدد وأطماأنوا مع الراحة فى رومة فشرع فى التعدى العنيف على أتباع عيسى المسيح حتى صاروا من بعد ذلك فى ذل الذل الواقع عليهم من المملكة الى حد سلطنة قسطنطين وجار أيضا على اليهود بمثل ما جار على المسيحيين

وفى السنة التالية حصل الكشف على ثورة كانت شرعت فى أخذ روح الامبراطور فعوقب أربابها وزعماؤها بأشد العقاب وتولد من خوف نيرو وارتعابه زيادته فى الاعمال الوحشية وعما أجرام من الذبح والقتل مع توالى أيامه بسرعة زال من طريقه أعتى وأقوى الرومانيين وأفضلهم وكذا كاملى ذريه أوغسطوس ثم امتد بطشه الى قواد جيوشه الموجودين فى أقاصى الجهات من الاقاليم وقبض على كاربولا فاتح أرمينيه وقطعت رقبته وكذا على روفوز أوالاخوين صكربيونيوس قائدى الجيش فى جرمانيا ولم يشهر قطع رقبتهما بل قتلهما من دون اشهار واتضح جليا للقواد الاخر أنه لا يمكنهم خلاص أنفسهم من مثل هذا القضاء المشئوم الا بالعصيان فمن ثم قاموا فى ثورة فى وقت واحد فى جرمانيا والغلية وافريقه واسبانيا وانتخبوا جالبه حاكم اسبانيا الجنوبية امبراطورا فابتعد عن الامبراطور قواد العساكر

وأرباب الدولة والخدم والحواشي وصار نيرو بمفرده فانجبر على الهرب الى عشة واحد أصله من الرقيق كانت في ضواحي المدينة ومن بعد أن قضى فيها ليلة على وجل ورعب أمر الرقيق أن يقتله خشية التمكن من القبض عليه بواسطة عساكر الخيالة المرسلين في طلبه ومات في سنة ٦٨ بعد الميلاد في يوم ٩ يونيه من هذه السنة وكان عمره ثلاثين سنة وكانت مدة سلطنته أربع عشرة سنة

وفي مدة هذه السلطنة عصى البريطانيون تحت قيادة ملكتهم الماهرة بودسيه في سنة ٦١ بعد الميلاد فأخضعهم لسوطينوس ثانية وكذا ثار اقليم يهوذا في عصيان بسبب ما حصل لاهله من جور حكومة غسيوس فلوروس وكان ابتداء حرب اليهود في سنة ٦٦ بعد الميلاد فأرسل نيرو وسباسيان قائده الشهير لمباشرة اجراء الحرب فقاد وسباسيان هذا الحرب ودبر أمره مع الشدة والثبات ولمامات نيرو جعل نفسه سيدا على كامل جهات فلسطين تقريبا

وفي مدة هذه السلطنة أيضا دخلت الديانة المسيحية في مصر بواسطة مرق الانجيلي تلميذ الرسول بطرس وتولد من وعظه وخطابته دخول الجم الغفير من أهل الاسكندرية في الديانة المسيحية الا انه من بعد ما لبث مرق قليلا في الاسكندرية عاد الى رومة في نحو السنة الحادية عشرة من هذه السلطنة وجعل انيانوس محافظا بدله على تقدم أشغال الكنيسة فكان انيانوس المذكور أولا أسقفا مسيحيا تولى الاسقفية في مدينة الاسكندرية

وفي مدة سلطنة كاليجولا وكلوديوس ونيرو توالت اغارات عرب اتيوبيه على الحدود الجنوبية لمصر وانتشرت قبيلة بلميى أهل الشجاعة والرعب تحت هذا الاسم انتشارا زائدا في كل قرن حتى جاسوا مصر وعثوا في أراضيها وخربوا المدائن الموجودة على شاطئ النيل من أسفل أتيوبيه وبسبب ما وقع من المصائب بين الملتين في الاراضي الواقعة على شاطئ النيل من فوق شلال أسوان عد قدماء السياحين من الجريق عشرين مدينة موجودة على كل من جهتي النيل بين أسوان ومروى ولما وجدت الحكومة الرومانية وقتاعند ما بالنسبة لخلوها من الاشغال المهمة عزمت على عقاب هؤلاء الجيران وصدهم من غاراتهم فأرسلت واحدا من ضباط العساكر ومعه الخفر اللازم من العساكر الرومانية فمن بعد أن تجول في داخل النوبة من فوق أسوان عاد وقال بعدم وجود ما يذكر كافة الجهات والاراضي عبارة عن صحار ولا يوجد فيها مدينة فيما وراء نوبياو يوجد هيكل بني في مدة سلطنة نيرو في الواحات الداخلة أو الغربية فيظهر على هذه القطعة أنها كانت في زمن الرومانيين أحسن مما كانت عليه في زمن الحكومة المصرية وهذا الهيكل بعيد جدا من مدائن وادي النيل فيحتمل أن هناك محلات مخفية داخلة في الصحاري مثل هذه الجهة كان هرب اليها كثير من المصريين مما حل بهم من مصائب جباة الخراج الرومانيين

وكان العمل المشهور الوحيد في المدة الاخيرة من سلطنة نيرو عود بناء مدينة رومة على منوال منظوم ورأى مقبول وصار توسيع بعض شوارعها وجعلها على خطوط مستقيمة وبنيت الاماكن والمساكن بالاحجار المنحوتة وعملت الاحتياطات اللازمة في منع سريان نيران الحرائق بأن فصلت الاماكن من بعضها بممرات وعطف عريضة وأدخلت المياه النقية العذبة في كل بيت ولما خرب السراية الامبراطورية ودمرتها الاشتعالات النارية ابتنى نيرو سراية المسماة بسراية الذهب على منوال فاخر ومنظر باهر ما شوهد مثلها قبل في مدينة رومة

وكان عمر صولبسيوس جالبـه الذى خلف نيرو ينيف عن سبعين سنة فى الوقت الذى ارتقى فيه الى لبس الثوب الارجوانى وكان رجـلا على غاية من الكمال ومن الطائفـة القديمة الرومانية فتولد من بساطة طبعه وشـدة اقتصاداته التى أدخلها فى الاعمال العموميـة لاموال المالية فى راحة ورفاهيـة الطائفة العسكرية والامة الرومانية الكراهة العدوانية ولما وصى بأن يكون بيسولينيانوس خليفته من بعده وترك أوطو نديم نيرو وكان فى أمل أن يكون هذا السمو مقصورا فيه أثار أوطو فى ثورة وذبح جالبه وبيسو وقرر فى الوقت مجلس السناتو الموجود تحت رق التصديق فقط أوطو امبراطورا فى ١٥ يناير سنة ٦٩ بعد الميلاد

وكان صالقيوس أوطو فاسد الطبع فاجرا منهمكا على كافة أصـناف الموبقات وكان لا يخشى فى النقائص والعيوب لومة لائم وكان زوج بوبيه العاهرة رفيقة نيرو فمن ثم كان على جانب كبير من الفسق وكان بأى حالة لا يصلح للموقع الذى تقلد زمامه فحصلت المشاحنة بجلوسه من الفـرق العسـكرية الموجودة فى جرمانيا ونادوا على قائدهم بالامبراطورية وكان القائد لهم فيطليوس فانتشبت واقعة بين الخصمين فى نواحى بدرياقوم بالقرب من مجمع نهر أدة بنهر البو انهزم فيها أوطو وقتل نفسه بنفسه من بعد أن تسلطن ثلاثة شهور وكان هذا فى ١٦ ابريل سنة ٦٩ بعد الميلاد

وكان فيطلوس فاسـد الطبـع فاجرا أضـل من أطو وكان فى الشجاعة أقـل من خصمه ونسب كامل نجاحه وظفره لمساعى قواده واجتهادهم وبمجرد وصوله الى التخت ظهرت عليـه دلائل عجزه وتولد من نقصـه وخسـته تجريده من حكومته وتاجه ومن بعد مضى بضع شهور زمن جـلوسه على التخت قام وسـباسيان ببيرق العصيان وكان تغلب على نحو جميع فلسطين وتمم حرب اليهود وحاصر أورشليم وساعده فى عصيان الفرق العسـكرية الموجودة فى الشرق وأجـل طوائف المملكة عموما ولبس الارجوانى وفى ظرف الاسابيع القليلة التى مضت بين أخبار موت أوطو ولبس وسباسيان الارجوانى فى سوريا تقرر فى مصر امبراطورية فيطليوس بواسطة العساكر الموجودة فيها لكنه بمجرد سماعهم أن الجيش السورى انتخبوا امبراطورا آخر وخلعوا بيعتهم لفيطليوس وعهدوها الى خصمه فى سوريا وكان وسـباسيان فى مدينة قيصرية حالما وصلت اليـه الاخبار بموت أوطو وتقرير فيطليوس على التخت بواسطة الفرق الجرمانية وكذا حصـل القرار عليه فى رومة فمن دون أن يضيع أدنى لحظة فيما رغبته العساكر من تقديمه الى هذا السمو أعلن نفسه فى الحال بأنه خليفة أوطو وما خاطر بنفسـه وأسرع فى السـير الى رومة بل أرسـل الى مدينة الاسكندرية رسولا الى طيبريوس عامل الاسكندرية يعلمه بما صار ويأمره بأخذ البيعة له فى تلك المملكة الشاسعة وأنه واصـل اليه بنفسه وقبل الفرق العسكرية بمصر ما حصل القرار عليه من انتخاب الجيش الشرقى وما قبلوا انتخاب الجيش الغربى لرئيسهم فأخذ عامـل مصر بيعة وسباسيان على أهل الاسكندرية ومصر من بعد أن نكثوا بيعتهم الى فيطليوس فمن ثم صار لا ضرورة الى وسباسيان فى سرعة التوجـه الى مصر وانه ما وصل الى الاسكندرية الا فى الوقت الذى سمع فيـه بقتل فيطليوس من بعد أن تسلطن ثمانية شهور وصار الاقرار فى رومة على امبراطوريتـه وعند الفرق العسكرية الغربية

وقيل ان وسباسيان سار من سوريا الى الاسكندرية وضبط مصر وهى أشوان غلال وحبوب رومة وأرسل من قواده انطونيوس بريموش وموسيانوس لاجل اخضاع ايطاليا فهزم انطونيوس قوى فيطليوس فى

واقعة ثانية حصلت فى نواحى بدرياقوم وكانت هذه النصرة فاصلة فى الحقيقة ونفس الامر للخلاف الواقع بين الخصمين مع أن الحرب امتدعدة شهور بواسطة عساكر فيطليوس وهم لا يسمعون لقائدهم بالتنازل عن التخت ومن بعد قليل هجم جيش وسباسيان عنوة وتغلب على رومة وصار القبض على فيطليوس وقتل فى ٢١ ديسمبر سنة ٦٩ بعد الميلاد

ولما دخل وسباسيان الاسكندرية قابله الفلاسفة والنواب مع الابهة والاحتفال وكانت طائفة الفلاسفة فى هذه المدينة هم الطائفة الجليلة وكان أشهرهم أبولونيوس طيانة قالوا انه سافر وساح فى الجهات الشرقية وصار استاذا فى الحكمة الخرافية لمجوس بابل وسحرتها وفى أسرار الفلسفة الهندية وسبب مجيئه مصر مقابلته اسرار الفلسفة الهندية بفلسفة النساك المصرية والاتيوبية والطيوبين فكان المصريون يعتقدون فيه بأنه سر من الاسرار السماوية نزل عليهم ووصل لديهم وأظهر لهم قوة معجزاته بسحره وكهانته وصار ينبئهم بمستقبل أحوالهم بتنجيمه وكهانته فكان لابولونيوس عند وسباسيان اليد الطولى وكان الامبراطور يجل مقامه ويزيد فى ارتفاعه وكان على الدوام فى مجلسه مدة اقامته بمصر ونظر اليه الامبراطور بصفة انه نبى مرسل له ولاهل مصر وعمل هذا الفيلسوف أعمالا للامبراطور حتى اعتقد المصريون وقالوا ان جلوس وسباسيان على التخت هو بأمر الهى وذلك أنه بينما كان وسباسيان ماشيا فى أحد شوارع المدينة اذ ارتمى على أقدامه رجل فاقد البصر وتضرع الى الامبراطور أن يرد عليه بصره لان الاله سرابيس قال له انه لا يرتد عليه بصره الا اذا تكرم الامبراطور وسباسيان وبصق فى جفنيه أو تفل فى عينيه وكذا أتاه رجل آخر كانت يده مقطوعة وقال له ان الاله سرابيس قال له ان يده لا تعود الى أصلها الا اذا داس عليها الامبراطور وسباسيان بقدميه فضحك الامبراطور منهما وطردهما فما زالا يتضرعان حتى قبل اجابتهما فتملق اليه فى ذلك أصدقاؤه وتغامز حكماء وأطباء أهل الاسكندرية فى هذا الفعل وفيما اذا يكون فيه قوة على مداواة هذين الفقيرين فطلب الامبراطور الشخصين أمامه وداس على يد واحد وتفل فى عينى الآخر أمام الجم الغفير من أهل الاسكندرية فأذاع المتملقون انه أبرأ الاكمه وأعاد اليد المقطوعة للاقطع

وأرخ فلافيوس وسباسيان سلطنته من ابتداء شهر يوليه سنة ٦٩ بعد الميلاد وأثبت لنفسه المهارة والشجاعة وجودة الحكم فى الاحكام والادارة حتى ان رومة ما شاهدت عدلا مثل عدل أحكامه من عهد أوغسطوس أوقطافيوس وكان على دراية تامة من حسن معرفته كيف يقارن الشدة مع اللين والاقتصاد مع الكرم وادارة ساكنة مع عنف عسكرى ويجرى كل شئ من ذلك فى محله ووقت لزومه ونالت المملكة فى مدة سلطنته مرة أخرى درجة عالية من درجات سطوتها وشهرتها التى فقدتها وانفجر فى مبادى سلطنته ثورة مهولة فى نواحى جرمانيا تحت قيادة سفيليس وكان قصده هذا تشييد مملكة مستقلة فيما وراء نهر الرين وانتشرت هذه الحركة الى الغلية الشرقية وحض سفيليس كلا من سابنوس وكلا من سيكوس باعلان استقلالية مملكة الغلية فرفض الغليون قبول الدخول فى العصيان والثورة وتوجه تريالس قائد وسباسيان وسكن الحاصل فى هذا الاقليم بسهولة وأما وسباسيان فانه سار الى جرمانيا بنفسه وطرد سفيليس الى خلف نهر الرين فى سنتى ٦٩ و ٧٠ بعد الميلاد

ولما ترك وسباسيان أرض يهوذا حول على عهدة ابنه الاكبر طيطوس زمام الحرب المعتدية الجورية فسار طيطوس فى سنة ٧٠ بعد الميلاد الى أورشليم وحاصر المدينة وتغلب عليها وخربها من بعد أن

دافع عنها أهلها أشد المدافعة الممكن اجراؤها فى الحصارات الجديرة بالذكر فى التاريخ وذبح أهلها أو باعهم فى أسواق الرقيق وانقضت حياة الامة اليهودية فى أورشليم وتدمرت المدينة بالكلية وأما في بريطانيا فان حدود الممالك الرومانية فيها أخذت فى التقدم الى الامام بمعرفة اغريقولا وكان توظفها كما فيها فى سنة ٧٨ بعد الميلاد من ابتداء نهر الوش والفى الى حد نهر سلوى فريث والطين واستمر هذا الحد باقيا وأقيم عليه خط مستحكم من القلاع قاطع للبرزخ الجامع بين انكلترة واسكوطلنده وفى مدة سلطنته تم فى مصر عمارة المعبد الاكبر فى كنف فى لاطو وليس وكان الشغل جاريا فيه من عدة سلطنات مضت ويحتمل من عدة قرون وكان من أجل العمارات وأفخر البنايات المصرية فى عصره وكان له ايوان كبير محمل على صفوف من عمد ضخمة لها تيجان على هيئة ورق اللوفر منقوش على سقفه منطقة البروج مثل الهيكل الموجود فى دندره وأشياء كثيرة محفور اسمها على حوائط المعبد واسم وسپاسيان منقوش على حوائط مدخل هذا المعبد الكبير

وظهر على أعمال وسپاسيان فى داخل مملكته علامات النجاح ودلائل الفلاح عيانا وانتظمت خزائن المالية وزال ما كان فيها من الاختلالات والبلية وصارت أعمالها تحت قواعد ثابتة وأعيد الضبط والنظام فى الجيش الى ما كان عليه أولا وانتشرت قواعد وأصول التعليم والتهذيب وتقوت أحواله تحت رعاية المملكة وتولد عما أجراه الامبراطور من تتميم الاشغال العمومية استخدام الكثير من طائفة الشغالين وأرباب الصنائع ونظم الجهة التى كان أحاطها نيرون بسور وجعلها خاصة لميادين عمومية وأقام فى ناحية منها الملعب أو الانفساتر القلافيانى ومات فى سنة ٧٩ بعد الميلاد

وكان وسپاسيان قبل موته أشرك معه ابنه طيطوس فى حكم المملكة فلما هلك أبوه خلفه طيطوس فى السلطنة بمفرده من دون معارض ولا منازع فشغل طيطوس نفسه مع الصدق والصداقة بالاشغال التى يعود منها النفع والسعادة على قومه مع انه كان مسرفا واكتسب نفسه جرائم خاصة بشخص نفسه يؤسف عليها الا انه من الواجب درجه ضمن عظماء الامبراطورات الطيبين وقالوا انه قال فى غروب يوم من الايام لم يتناول فيه أشغالا نافعة انه ضيع يوما من أيام سلطنته وفى مدة سلطنته حصلت حادثة انفجار جبل ويزوف وقذفت منه مواد من الجمر والدخان على كل من المدينتين النظر يفتين ذواتى الافنان والثروة وهما مدينة بومبى وهركولانوم وكذا اشتعلت حريقة مهولة فى رومة لبثت ثلاثة أيام وثلاث ليال ثم أعقب هذا هواء أصفر أو طاعون مفنى فأمر طيطوس من كرمه وسخائه بأن كل ما فقد من الخسارات يكون على حساب مصاريف نفسه وباع متاعه حتى زخارف سراياته وزينتها وصرفها فى تكاليف عود البناء فى الجهات التى دمرتها النيران وعهد الى أخيه الاصغر دوميطيان بولاية عهده من بعده قبل موته بقليل

وما حصل عند جلوس دوميطيان على التخت معارضة ولا نشب اختلاف ولا ارتباك وكانت جميع طوائف الامة مائلة اليه ومحبين له بسبب ما رأوا من احسان وكرم أبيه وأخيه من قبل فأثبت لنفسه من بعد جلوسه مخالفته بالكلية فى صفاته وأعماله لكل منهما فكان رجلا عبوسا حسودا بالطبع انهمك فى نقائص الحسد ومال الى العنف والجبروت وانفجر فى السنة الاولى من سلطنته حرب مع الداثيين وكانوا أغاروا على موزيا وهزموا فرقة من العساكر الرومانية وخربوا الاقليم فأرسل دوميطيان فى سنة ٨٦ قبل الميلاد جيشا الى داثيه لاجل البطش بهم والانتقام منهم جزاء ما وقع منهم من السفاهة

والوقاحة فانهزم هذا الجيش وكان النصر فى السنة التالية للرومانيين على الداثيين فعقدت معاهدة سلمية فى سنة ٩٠ بعد الميلاد مع الداثيين اتفقت فيها رومة على دفع خراج معلوم سنويا فى تطير عدم اغارة الداثيين على موزيا وما كان دوميطيان كثير الظفر والنجاح فى جرمانيا فانه فى سنة ٨٤ قبل الميلاد عبر نهر الرين وحاز ظفرات قليلة على شاطئ النهر وفى سنة ٨٧ بعد الميلاد خاب فى هجومه عنوة على مدينتى ماركومانى وكارى وكذا على سرماطى وتولد مما حصل له من الخيبة وعدم التوفيق فى هذه الغزوات زيادة فى توحشه فصار شديد العنف والقساوة وأحيا طريقة الشبه والتهم الملفقة فى سلب أملاك الرعية وفقد الانفس وخراب المنازل العامرة وأخيرا لما يئست منه الانفس وصار لا خير فى ذاته وصفاته واشمأزت طبيعة الامة منه صار قتله فى السنة السادسة عشرة من سلطنته وذلك أنه ذبحه معتوقوا السراية الامبراطورية وكان الحامل لهم على هذه الفعلة ما حصل منه من الخطر المؤدى لفقد حياتهم وكان قتله فى ١٨ سبتمبر سنة ٩٦ بعد الميلاد فنشأ مما حصل من الشدة والقساوة التى فعلها دوميطيان اختلال نظم قاعدة الوراثة حتى ان مجلس السناتو قرر ما كان عليه من حق انتخابه الامبراطورات من عهد أوغسطوس أوقطافيوس وانتخب الخليفة من بعد الامبراطور المقتول وما عارض فى انتخابه قواد العسكرية بل طلبوا اقتصاص قاتلى دوميطيان

وكان عمر كوكسيوس نرفه الامبراطور الذى صار انتخابه بمعرفة مجلس السناتو ستا وستين سنة وكان رجلا متوسطا فى طبعه وأخلاقه وتدبيره فى أعماله فأبدل القانون الدموى الذى كان أصدره دوميطيان بحكومة على غاية من عظيم الادارة والسياسة وأبطل ما كان جاريا من الاسراف والتبذير فى السلطنة السابقة فى أموال المالية واقتصد فى كامل فروع الحكومة وألغى وظائف التجسس ووظائف ضبط الاملاك والاموال وبما ان هذا الامبراطور كان مجردا من الولد انتخب بتصديق السناتو خليفته من بعده عوابيوس طراجانوس وتبناه فى محافل رسمية كالعادة فتولد من هذا العمل فضل حالة الادارة القابلة فى تولية الامبراطورات فى المستقبل وصار تقرير قاعدة فى الحكومة بأن الواجب على الامبراطور أن ينتخب من يكون فيه اللياقة والكفاءة من أهل المملكة الرومانية لحكومة المملكة ان لم يكن له ولد ويتبناه ويجعله ولى عهده من بعده ومات نرفه فى سنة ٩٨ بعد الميلاد وجلس ابنه المتبنى من بعده على تخت الامبراطورية

وفى مدة هذا القرن انتشرت عقائد الديانة المسيحية وخرج من أورشليم وهى مركز قاعدة هذه الديانة المسيحية رسل مبعوثون الى الامم الشرقية يخطبون دينهم العجيب ويقيمون كنائس المسيح فكان برناباس وسول مشتغلين بتعليم هذا الدين فى مدينة انطاكيه من أعمال سوريا وأطلق فى انطاكيه نفسها على طلبة الديانة الذين خرجوا من هذه المدينة اسم مسيحيين ثم جاء عقب ذلك سياحات القديس بولص وبها انتشرت الديانة المسيحية فى آسيا الصغرى وفى الجريس وأخيرا فى رومة نفسها وذهب أسيرا شهيد الديانة فى مدة سلطنة نيرو فارعبت سرعة تقدم الدين الجديد الرومانيين وأذهلتهم فسعى نيرو واجتهد فى صد هذه الديانة ومنع تقدمها بوقوع الظلم والتعدى على تبعتها واستمر هذا الجور حاصلا بواسطة خلفائه على المسيحيين الا انه رغما عما كان حاصلا من هذه الاعمال الجورية استمر الدين الجديد آخذا فى الانتشار بسرعة والزيادة فى الجهات من المملكة الرومانية

وما كان طراجان الامبراطور الجديد وطنيا من أهل ايطاليا بل كان من أهل مستعمرة ايطاليانية

فى اسبانيا وتوظف أبوه قنصلا ونائب قنصل وكان طراجان نفسه تربى فى المعسكر واستخدمه أبوه تحت ادارته فى أشغال ظهرت فيها نجابته وتوظف فى سنة ٩١ بعد الميلاد قنصلا فى حكومتدوميطيان ثم توظف حاكم الاقليم الاسفل من جرمانيا فى مدة هذا الامبراطورية وفى مدة ترفه وكان أول امبراطور جلس على تخت الامبراطورية من الاقاليم ومن ابتداء هذا الوقت انتقل قضيب الامبراطورية الى أيدى الرجال الغريبى المولد عن ايطاليا وكان فى جرمانيا حالما وصلت اليه أخبار عهد ترفه له ثم أعقبها درجة سمو الامبراطورية ورأت الامة فى مدة ترفه أنه أمهر رجل فى رومة وقت وصوله الى التخت فمن ثم صار قبوله مع الابتهاج بكل من مجلس السناتو وقواد العسكرية وكان الرومانيون يرون أنه أجل امبراطور وأعظمه خلقا وخلقا الا أن عيبه كان انهماكه على الشرب والخظ والبسط الا أن خصاله الجيدة كانت كثيرة مجيدة فكان شجاعا شغالا عفيف النفس متواضعا فى ذاته وصفاته بسيط الطبع أنيس الفعل بشوش المقابلة يعرف كيف يقارن الشدة باللين والكرم بالاقتصاد وعكف نفسه على الاشغال اللازمة للملكة مع حسن العشرة ومحبة الالفة فلو راعيناه بالنسبة لما كان عليه من الاحساسات الجليلة والمقاصد الجميلة أمكننا أن لا نجعل أى شئ جليل القدر الا وهو فيه فانه كان قائدا كما كان مدبرا وجعل نفسه فى أشغاله فى مواجهة الدرجة الاولى من الحكام الرومانيين وعادل أوغسطوس فى شئ منها ويوليوس قيصر فى الدرجات الباقية وكان لا يكل ولا يمل ولا يسأم من كثرة الاشغال وتدبير الاعمال ومباشرة ادارة الحكومة بنفسه ورتب المخابرات الواسعة مع حكام الايالات والاقاليم وكان يرسل لكل منهم الاجراآت والتعليمات المقتضى اجراؤها فى الاقاليم وأبعد أهل الغيبة والنميمة وضغط عليهم بيد قوية ضغطا شديدا حتى قرض منهم ما كانوا عليه من الخصال القبيحة وراعى حقوق مجلس السناتو وسمح لاعضائه بحرية الكلام والمناقشات فى المجلس وعاملهم معاملة المشتركين معه فى أحكام المملكة وادارة أشغالها ونجح ما أجراه من الادارة والتدبير فى أموال خزائن المالية نجاحا تاما وباشرها مع الحزم واصابة الرأى حتى صار لا حاجة له فى أن يذهب مذهب زيادة الضرائب أو العوائد أو ضبط أملاك الناس وعقاراتها وصارت الخزينة العمومية ممتلئة على الدوام بالنقود حتى ان الامبراطور صار لا يعوزه ولا يفتقر لنقود يصرفها على الغزوات أو فى أشغاله العمومية أو فى أخذه الاحتياطات اللازمة لخلاص رعاياه مما انا نزل بهم من مضايقات أو شدائد وأصلح القانون الذى كان أصدره ترفه ونقحه وزاد عليه بعض مواد ضرورية وخلص أرباب الاملاك مما كانوا فيه من مضايقات الاحمال والديون بكونه أقرضهم نقودا بأرباح قليلة وأمر ببناء أو ترميم ما أتلفته الزلازل والعواصف من دون بطء حركة وشيد المستعمرات وعمر السكك العسكرية فى سائر أنحاء المملكة وأنشأ القناطر على نهر الرين ونهر الدانوب وحلى رومة وزخرفها وكذا مدائن الاقاليم باشغال عمومية نافعة وكان أشهر هذه العمارات وأجلها فى رومة الميدان أو الفورم الاكبر وخزانة الكتب الاولبيانية وكان طراجان يراعى ما يعود بالنفع على رعيته وما صرف شيأ على نفسه وكان يجد لنفسه فى أثناء اشتغاله بهذه الاعمال الكبيرة زمنا لاستئنافه القضايا الواردة الى ديوانه من الدواوين الاخرى الموجودة فى ممالكه

وكانت سلطنة طراجان فى الآداب والمعارف تعادل الدرجة الثانية من سلطنة أوغسطوس أوقطافيوس فكان فى مدة هذه السلطنة طاسيوس المؤرخ الاكبر وبلينى الاصغر وبلوطارش وسوطينوس والغلام الفيلسوف ابكطيطوس وغيرهم من كبار المؤرخين والفلاسفة عائشين تحت

ظل

ظل جوده وكرم سلطانه

وكان طراجان مشغولا فى سلطنته بفكر أن يشهر نفسه فى العصور القابلة بأنه كان رجلا فاتحا شجاعا باسلا وكانت مدة الفتح والتغلب انقضى نحبها وتم أمرها لانه كان يرى على الدوام أن نهر الرين ونهر الدانوب والفرات هى الحدود المحددة للمملكة كما أشار أوغسطوس على خلفائه بذلك ومع هذا فان طراجان رأى انه من الانحطاط وعدم الاعتبار فى المملكة دفع رومة الخراج القبيح الذى كان قرره دوميطيان فى سلطنته سنويا الى مملكة داثيه فأهاج فى سنة ١٠١ بعد الميلاد حربا على داثيه وعبر طراجان فى هذه السنة نهر الدانوب فى رأس جيش مؤلف من ٦٠٠٠٠ نفس ومن بعد محاربة شديدة مع القبائل الحربية الداثية تغلب على مدينتهم سرمزغطوزه أوفارهلى وأرغمهم على قبول صلح خسر وافيه مقدارا وافرا من أرضهم وبلادهم وضربت رومة على داثيه شروطا صعبة جدا تولد منها فى سنة ١٠٤ عصيان الداثيين فعزم طراجان على أن يضيف الاقاليم الموجودة فيما وراء نهر الدانوب اضافة مستمرة الى الممالك الرومانية فلما رأى دسيلوس انه حصل التشتت فى قواه وهجم طراجان على مدائنه وحصونه وأخذ سراياته قتل نفسه بنفسه حتى لا يقع أسيرا فى يد خصمه وصارت داثيه وهى اقليم دائره ١٣٠٠ ميل محدود بنهر الدانيستر ونهر الطيس والدانوب الاسفل والبحر الاسود اقليما رومانيا (واسمها الآن رومانيا أو ملداويا وولاخيا وعاصمتها بكراش) وغير طراجان اسم عاصمتها باسم أوبليا طراجانه على اسم الامبراطور ولقب الامبراطور نفسه بلقب داثيطوس وجلب طراجان اليها مستعمرات رومانية من جهات مختلفة من ممالكه وغرسها فى أرضها لاجل عمار البلاد ونشر صنائع التمدن بين وطنيي هذه المملكة وأسس المدائن والقرى وعمر الطرق والسكك وشيد الاستحكامات وصار اللسان اللاتينى هو لسان البلاد وأنشأ فيها خط قلاع مستحكم فى الجهة المعروفة اليوم باسم الدوبرويجه من أعمال رومانية بين كوستنجه على البحر الاسود وبوغاز قوى على نهر الدانوب ولما عاد الامبراطور الى رومة عقد له موكب النصر مع الالعاب فامتد عيد هذا الموكب ١٢٣ يوما ذبح فيها ١١٠٠٠ من الحيوانات الوحشية و ١٠٠٠٠ من ضاربى السيوف خصوصا من أسرى الداثيين

وفى نحو غلاق هذه السلطنة دعت حالة الاعمال العمومية التى لا يمكن فصلها فى الجهات الشرقية لتوجه طراجان الى الحرب مع فارطية وذلك أن خسرو ملك فارطية وهو الملك الخامس والعشرون من العائلة الكيانيانية استحوذ بالغلبة على أرمينية وكان جاريا تعيين ملوكها بواسطة رومة وأجلس على تختها ابن أخيه فأسرع طراجان فى سنة ١١٥ بعد الميلاد فى ازالة ومنع هذا التعدى ووصل الى انطاكيه وكانت نقطة أس حركاته وتحرك بجيوشه منها الى أرمينية وأغار عليها وأخضعها بسرعة فتقهقر الفارطيون وجعل الامبراطور أرمينية اقليما رومانيا وتغلب على القسم الشمالى من ميزوبوتاميه وأخذ نذب ومدائن أخرى فلقبه عساكره فى هذه النصرات باسم فارطيكوس ولقبه مجلس السناتو بلقب أوبطينوس

وكان الحرب الثالث وهو الاخير على شواطئ نهر الدجلة مع الفارطيين أيضا ثم عاد الامبراطور لقضاء فصل الشتاء فى انطاكيه وكان فيها فى الوقت الذى حصلت بها الزلزلة فى سنة ١١٦ بعد الميلاد وهى آفة مهولة أعقبها بريق البرق والرعود وعواصف رياح شديدة فارتجت منها المساكن والمنازل واهتزت

المبانى كأنها فوق مياه البحر المحيط وتخلت الحوائط عن أساساتها وهدمت فوق سكانها ونجا الامبراطور بنفسه وطرح نفسه من شباك المنزل الذى كان به الى الخلاء ولما هدأت اشتغل مع عساكره ليلا ونهارا بكشف الردم عن المردومين ووجد كثيرا من الاحياء بين الاموات مسقفا عليهم أخشاب سقوف الاماكن ومن العجائب الالهية والحكم الربانية أن صار الكشف فى وقت ازالة الردم عن طفل صغير يرضع من ثدى أمه وهى ميتة فسبحان من جلت قدرته حفظ اللبن فى ثدى الام الميتة لاحياء الطفل الصغير ابنها وهذا من عجائب الحكم الربانية وفى فصل ربيع هذا السنة أى سنة ١١٦ بعد الميلاد ساق طراجان جيشه الى نهر الدجلة وعبر النهر وتغلب على قطزيفون (المدائن) وهى عاصمة فارطية وموجودة على الشاطئ الايسر من هذا النهر وخسرو متقهقر أمامه فأضاف طراجان الى ممالكه أشوريا وبابلونيا وميزوبوتاميا وكان مقصده كسر شوكة الفارطيين ودمار دولتهم الا أن مظفراته وأعماله هذه كانت وقتية لان ثمرات الفتح سلمها خلفاؤه من بعده الى أربابها باختيارهم وسار طراجان تابعا فى سيره الى مجرى نهر الدجلة حتى وصل أخيرا الى الخليج الفارسى ثم الى البحر المحيط الهندى ووقف على ساحل البحر وقال كنت أود أن أتوجه الى الهند لو كنت صبيا ودعت الضرورة لعوده ورجوعه بسبب ثورة حصلت من الامم المغلوبة فى مدينة قطزيفون (المدائن) فوصل طراجان اليها وطمن هذه الثورة وأجلس برطاماسسباطيس من أهل البلاد على كرسى فارطية ملكا تابعا للدولة الرومانية من أجل توطيد سلطة رومة فى هذه البلاد وفى مبادى سنة ١١٧ بعد الميلاد انفتح حرب جديد فى نواحى بلاد العرب فبينما كان طراجان محاصرا مدينة عطره وهى معقل حصين فى الصحراء أصابه مرض مزمن بعد أن عهد قيادة الجيش الى هادريان مع عموم مباشرة أعمال الشرق وجه عزم سيره الى رومة فمات فى صلقوس من أعمال سيلسيا وحمل رماد عظامه الى رومة فى قارورة من ذهب ودفن تحت العمود المسمى باسمه فى رومة

وخلفه على تخت الامبراطورية ابنه المتبنى هادريان وكان بعيد القرابة منه وكان هادريان الرابع عشر من الامبراطورات الرومانية من ذرية عائلة كانت قاطنة فى أرض القيطلان من أقاليم اسبانيا وكان مولده فى رومة سنة ٧٦ بعد الميلاد وخدم تحت قيادة طراجان مع الشرف والسمو وكان عمره اثنتين وأربعين سنة فى ذلك الوقت الذى وصل فيه الى التخت الامبراطورى فى سنة ١١٨ بعد الميلاد وكان خاليا من الاولاد ويشابه طراجان فى كثير من الاحوال فكان لطيف الذات ظريفا الخصال مضى اليد صرف أموال المملكة مع الاسراف والتبذير فى خدمة المملكة وصلاحها وتقدمها ونجاحها الا أنه دبر خزائن المالية مع التبصر والتأمل فى الاحوال الدنيوية حتى انه لم يجعل فى الخزينة أدنى عجز ولا انحطاط ومع أنه كان مباشرا مملكته بيد قوية وهيئة معنوية الا أنه كان متوسط الحالة فى أعماله وجعل هيئات الحكومة فى صورة أحكام حرة وكان يضارع طراجان فى قدرته واعتكافه على الاشغال وما كان يدخل أوقات حظه فى واجبات أمور مصلحته وكان محبا كريما للصنائع وأخاصا دقا للآداب والمعارف وكان مثل أغلب رجال عصره محاولا فى أمره الا أنه لم يضر نفسه أو يهينها فى وقوعه فى زلة من الزلل وكان سريع الغضب زيادة عن طراجان وأكثر غيرة وحمية الا أنه كان يتخلى عن هذه العيوب باستصوابه نجاح السلم عن نجاح الحرب فعكف نفسه مع حزم الرأى على اصلاح أحوال ممالكه وتحسين حالة بلاده وأمته من دون أن يهتم فى اتساعها ونال منال الصدق فى ارتقائه الى درجات الكمال

عند

عند كافة رعاياه

وابتدأ هادريان فى سلطنته بكونه أخلى تبرعا منه أقاليم ارمينيه وميزوبوتاميه وأشوريا التى كان طراجان تغلب عليها عالما حق اليقين أنه لا يمكن بقاؤها من دون أن يصرف عليها أنفسا وأموالا زيادة عن قيمتها وما يأتى منها ولاجل معرفته بنفسه احتياج رعاياه ساح فى الاقاليم المختلفة من ممالكه خمس عشرة سنة أى من سنة ١١٩ الى سنة ١٣٥ بعد الميلاد وكان أكبر سياحى زمانه فكان أينما توجه يترك وراءه مبانيه وعماراته الدالة على حضوره فى الجهة التى وصل اليها وأقام فيها من استحكامات ومجارى مياه وهياكل وسرايات ومدائن غير بعد أن زار الغلية وعمل سدا من خط مستحكم بين نهر الدانوب ونهر الرين طوله ٢٤٠ ميل لاجل حفظ بلاد الغلية من الغارات الجرمانية عبر البحر الى بريطانيا فى سنة ١٢١ بعد الميلاد وشرع فى عمل السد المشهور أو الخط المستحكم المتصل الذى لم تزل آثاره باقية فى طول ينيف عن سبعين ميلا ممتدا من نهر سلوى فرث الى المحيط الجرمانى تحفظا على بريطانيا من الاجناس الشديدة البأس الموجودة فى الجهة الشمالية منها ثم عاد الامبراطور الى الغلية وقضى فى طرغونة من أعمال اسبانيا فصل الشتاء ثم توجه الى افريقه فى فصل ربيع سنة ١٢٢ بعد الميلاد وسار منها الى مصر وكانت زيارته لها فى السنة السادسة من سلطنته وتشرفت مصر بزيارة الامبراطور لها ودخل فيها فى وقت حصول مشاحنات ثقيلة بين مدينتين شهيرتين من مدنها وهما مدينتا منف وهليوبوليس أى المطرية أو عين شمس بسبب عجل وكان هذا العجل هو ابيس معبودهم وكانت مصر مكثت بضع سنين بغير عجل يعبده أهلها فلما وجد القسس عجلا فيه بقع بيض قام أهل المدينتين على بعضهما بالسلاح وتركوا التوفيق والفلاح وتولد من ذلك ارتباك فى الاقليم منشؤه تعصبهم وغيرتهم فى الدين وكان كل من المدينتين يدعى أن العجل عجله وأخيرا انتهت هذه المشاحنة وكان هادريان مصحوبا بخله الظريف وخليله المنيف انطنيوس فرمى نفسه فى النيل وغرق فى مدة سياحتهما نحو طيوه وكان السبب فى ذلك ان الامبراطور تكلم مع منجمى المصريين وكهنتهم فى عاقبة مستقبله ورفاهية مملكته فانبأه كاهن مصريان فقد وضياع أعز ما فى يده الآن هو سعادة مستقبله ورفاهية مملكته وكان أعز ما عنده وما فى يده خليله انطنيوس فسمع أنطنيوس بفقد حياة نفسه فى رضا سيده وقذف بنفسه فى النيل فغرق وأظهر الامبراطور الحزن عليه وابتنى محمدة وشكرا على صنيع فعله تذكارا له مدينة عظيمة بالقرب من محل الواقعة وزينها بالهياكل والتماثيل وسماها انطنيوبوليس تشريفا لاسم خليله وكانت على الشاطئ الشرقى للنيل تجاه مدينة هرموبوليس ثم سافر من مصر الى سوريا وآسيا الصغرى وجال بين الجزائر الجريقية فى سنة ١٢٣ بعد الميلاد وقام فى أثينة سنتين أو ثلاثة ثم عاد الى رومة فى سنة ١٢٦ بعد الميلاد من طريق سيسيليا المشاهدة شروق الشمس من فوق رأس جبل اتنا ثم ابتدأ فى سياحته الكبرى الثانية فى سنة ١٢٩ بعد الميلاد وعاد ثانيا الى أثينة وكانت أجل موقع ومحط ترحال عنده من كافة الجهات وابتنى فيها مبانى عظيمة وانتقل منها الى اسيا الصغرى ثم سوريا وبلاد العرب ودخل مصر وصعد فى النيل وأعاد قبر بومبى وعاد من الطريق الذى جاء منه فى نحو غلاق سنة ١٣١ بعد الميلاد ثم ابتدأ فى سياحته الثالثة فى فصل خريف سنة ١٣٢ بعد الميلاد وتممها فى سنة ١٣٥ بعد الميلاد وفى هذه السياحة جال فى الاقاليم الشرقية وتوجه الى أثينة والاسكندرية وأورشليم وصرف همته فى تقدم وفلاح الاقاليم وما كان عنده تباين ولا فرق بين الامم والاجناس

المختلفة الموجودة تحت حكمه ومن ثم كانت كافة ايالات مملكته فى خير منه ومنفعة وما حصل فى سلطنته ما يغير أحوالها السلمية ولا التوفيق والنجاح الحاصل فيها

وأما الحروب التى وقعت فى مدة هذه السلطنة فهى حرب مع دوكسولانى فى سنة ١١٨ بعد الميلاد وحرب ثورة اليهود تحت قيادة باركوشباس فى سنة ١٣١ بعد الميلاد فاستمر هذا الحرب الى سنة ١٣٥ بعد الميلاد وانتهى بهزيمة اليهود وطردهم بالكلية من فلسطين وهدم مدينة أورشليم وترتب فى موضعها مستعمرة رومانية سميت باسم اليا وأمر هادريان المسيحيين الذين كان طردهم طيطوس بالاقامة فيها

وحيث تكلمنا على محاسن صفات هادريان فمن الضرورى لنا الآن أن نذكر ظلمات السحب التى خيمت عليه وعلى ممالكه وذلك أنه زادت سرعة غضب أخلاقه وحماقته مع تقدم عمره وأحاط به الغيرة والحسد والانهماك فى النقائص وصار لا يراعى أحدا وأخذ يقتل فى الناس على أدنى غضب أو زعل فأمر بقتل رجل معمارى تجاسر فى الكلام أمامه على المناقضة فى رسم صور بعض تماثيل كان هادريان أمر بشغلها ورسمها بنفسه وكان كلما تقدم فى السن تقدم أيضا فى اختلال العقل والجنون وزاد فى أذى الرعية وكان له صهر وهو زوج أخته عمره تسعون سنة وكان لهذا الرجل العجوز حفيد عمره ثمان عشرة سنة فأمر بقتلهما فى تهمة ثورة عليه فاشمأزت النفوس لما رأت جريان دم هذين اللذين ذاقا وبال الموت من دون وجه حق وهما أقرب الناس اليه وأشرفوا على القيام فى منع فقد مثل هؤلاء المظلومين ومع هذا فان الرجل العجوز كان أثبت قبل ساعة موته براءته مما نسب اليه من تهمته وابنه فى هذه الثورة التى اتهما فيها ولما لم يجد بدا من قتله دعا بدعاء الانتقام بان يبلى هادريان بعلة ويوم يتمنى فيه الموت فلا يجده فتقبل دعاء هذا الرجل العجوز المظلوم وأصيب الامبراطور بالعلل والامراض وعذب عذابا أليما وطالت عليه أيام الامراض حتى صار يتمنى الموت لخلاص نفسه وراحته فلا يجده فاستغاث بعبيده وخدمه فى قتل نفسه حتى انه ضرب نفسه بخنجره الا أنه لم يمت وما أتاه الموت المخلص له مما هو فيه الا فى سنة ١٣٨ بعد الميلاد ومع ما كان فيه هادريان فى آخر سلطنته من مثل هذه النقائص فانه يعد فى درجة عظماء الامبراطورات وأحسنهم مع مراعاة العشرين سنة التى سار فيها فى حكمه وما اعترى سلمها ولا عكر جوها شئ مع رضا الجيش وكفايته ونفوذه وصرف المصاريف بها لجمع ملء خزائن المالية بالاموال من دون وقوع جور أو حصول تعد أو وسائط قبيحة يجمع بها الاموال وكذا حرية الكلام فى مجلس السنا ومع الثبات والاقدام عليه فمن ثم لم يوجد ضعف ولا وهن فيما كان عليه هادريان من الفخر الجليل والسمو والرفعة

ووقع تدبير هادريان وحزم رأيه موقع القبول والاستحسان فى انتخابه خليفة من بعده ووقوع بصره على عوريلوس انطونينوس وكان يعرف باسم انطونينوس بيوس فان مدة سلطنته التى استمرت ثلاثا وعشرين سنة كانت خالية من الوقائع والحوادث وكانت أيضا سلمية ناجحة فالحة واستمر على ما كان عليه طراجان وهادريان فى سياسة صادقة وادارة رحبة عظيمة ودبر المملكة وراقب أحوال مملكته ورفاهية رعيته واعتنى بذلك غاية الاعتناء كالتفات الاب لاولاده وكان أول امبراطور دافع عن المسيحيين وحماهم وأعاد الثغر أو الحد الرومانى فى بريطانيا الى نهر الكلية والفورث وصارت المحافظة على هذا الحد بان أمر أن يقام عليه خط مستحكم متصل من قلاع واستحكامات أى سد أو حاجز عرف

بسد أنطونينوس وامتد قاطعا للجهة الكائنة بين مياه هذين النهرين ومات أنطونينوس فى سنة ١٦١ بعد الميلاد وخلفه على تخت الامبراطورية ابنه المتبنى ماركوس عوريلوس

وكان عمر ماركوس عوريلوس أربعين سنة وقت موت أبيه المتبنى له فكان ملازما له مع الصداقة وتسمى باسم انطونينوس فكان فى حد ذاته أجل الامبراطورات ومحبا للديانة والعدل والسلم وكانت أعماله جارية فى البحث عن تقدم رعاياه ورفاهيتهم مع الصداقة والوفاء وكان رجلا سليم الباطن والظاهر بسيط الطبع مقصورا فى صفاته جميع خصال شجعان الرومانيين وكان شفيقا ودودا وكان أجل وأعظم القياصرة فى عقله وتدبيره ومع هذا فكانت سلطنته احدى السلطنات المنحوسة فان امرأته فوسطينه بنت انطونينوس اشتهرت بفجورها وعهارتها ومات ابنه البكرى وابنته فى حال طفوليتهما وأشرك معه لوسيوس فيروس فى حكم المملكة فتولد من سير هذا البرنس القبيح السلوك ألم أكبر وبلاء أغبر لان الامبراطور وان كان يرغب السلم واستتباب الراحة لكنه اشتبك فى حرب استمر مدة سلطنته وذلك أن الفارطيين جددوا الحروب وأوقعوا الكروب لاجل تغلبهم على أرمينية فى سنة ١٦١ بعد الميلاد وهى السنة التى جلس فيها على التخت واستمر هذا الحرب قائما مدة خمس سنوات وكان للفارطيين فى مبادى الامر النصر والظفر لكنهم طردوا أخيرا من أرمينية وزحف القواد الرومانيون وأغاروا على فارطية وعما الكها فعقد الصلح برجا من الفارطيين فى سنة ١٦٦ بعد الميلاد وتنازلت فارطية عن ميزوبوتاميا لرومة ورجعت أرمينية الى حالتها الاصلية كما كانت عليه سابقا من درجة امتيازها

ومن ثم تقدم الحد الرومانى وفى سنة ١٦٧ بعد الميلاد حصل الكبس والضغط على الامم المتبربرة الموجودة فى شمال نهر الدانوب فسار وامتثل أمواج البحر فى طوائفهم مما وقع لهم من قبائل الصيطيين وعبروا نهر الدانوب بالقوة ودخلوا الاراضى الرومانية فتوجه الامبراطوران سوية لملتقى هذه القبائل والعشائر وردها على أعقابها وكانت هذه أول مرة ومات فيروس فى السنة التالية وخلص عوريلوس من قلاقله وارتباكاته وخرابيشه ومن ابتداء هذا الوقت الى حد موت عوريلوس فى سنة ١٨٠ بعد الميلاد اشتغل عوريلوس واجتهد فى طرد الامم المتبربرة وحفظ الثغور من اغاراتهم عليها فكان مظفرا فى أغلب وقائعه الا أنه ما نجح فى ردع وقمع الامم الشمالية الى حالة بها يمكنه فيها الزامهم وقطع دابر ما هم عليه من الاغارة وكان هذا الشغل وراء طاقته وشوكته وما حصل من كبس هؤلاء الامم الشمالية على القبائل الدانوبية كان صعبا جدا حتى صار لا طاقة لهم على الاقامة فى داخل حدود بلادهم وعجزت رومة حقيقة عن اتمام هذا المشروع الذى كان أسهل المشروعات فى أيام شماختها وشوكتها الاولية

ولولا أن عوريلوس كان محبوبا فى بعض من أعماله وادارته الا أنه كان أشد الظالمين المعتدين على المسيحيين لانه كان من عهد شبابه تلميذا تابعا لعقائد مذهب الفلسفة الزينونية وهو مذهب زينون الفيلسوف اليونانى الشهير وما أثرفيه ما ألقى عليه من العقائد المسيحية من معاملته المسيحيين بأردا المعاملات الناشئة من مشورة أرباب الفظاظة والغطرفة من أهل مذهب زينون الملازمين له وفى مدة سلطنته هلك قتيل دينه ياسطين فى رومة وبوليكارب فى ازمير وليونس فى فيانه والجم الغفير من المسيحيين ختم عليهم باهراق دمهم وقتلوا فى دينهم وذاقوا وبال أمرهم ويقال ان الامر الالهى

قضى على هؤلاء القوم بمثل هذا التعدى والجور بما انهم كانوا أرباب مذهب قليلى العدد فى وقت كانت فيه ظلمات الدخان مخيمة على هذا العصر الآن هذا كان نقصا فاحشا فى نشر السعادة الدنيوية الجارى تدبيرها بالعدل منه ومات عوريلوس فى نواحى بانونية فى سنة ١٨٠ بعد الميلاد

وكان كومودوس الابن الثانى لعوريلوس اشترك مع أبيه فى حكم المملكة وعمره خمس عشرة سنة وكان عوريلوس مائلا بكليته اليه فنظر المحبته اياه استصوب ان يفصل أمر نفسه فى انتخابه خليفة من بعده ومن ثم بمجرد موت عوريلوس جلس كومودوس أمبراطورا بمفرده وكان عمره ثمان عشرة سنة فكان قاصرا فى عقله منهمكا فى لذاته ولهوه وقع تحت سلطة ندمائه وأخلائه فكان أول عمل أجراه أن اشترى سلما مهينا من ماركومانى وكادى من بعد عوده الى رومة واستمر فى حكم عظيم وسلطان غير سقيم مدة ثلاث سنوات تابعا فى سير أعماله ما كان جاريا عليه أبوه من قبله فى الاحكام وادارة الاعمال ومباشرة المملكة وفى اخر هذه المدة حصلت منه شراسة غيرت طبيعته وأثارت حماقته وتغلبت على طبعه وكان سببها كشف ثورة كانت استعدت لقتله فى سنة ١٨٣ بعد الميلاد ووقع الكثير من أرباب مجلس السنا فى هذه الثورة فعزم كومودوس خشية من أن تحصل له داهية على غفلة من ثورة أخرى على أن يغمس نفسه فى طيش العنف وشدة القسوة فقتل جميع الانفس الذين رأى على وجوههم أثر البغضاء الكائنة فى قلوبهم وكذا الذين لهم الطاقة والقدرة على أن يعدوا أيديهم له بالاذى والضرر فاحيا مذهب التجسس بصور وهيئات مزعجة مخوفة وذهبت أملاك المقتولين وأموالهم لثروة الخزينة الامبراطورية ووقع البيع والشراء فى العدل والانصاف وصرف الامبراطور نظره عن كل أمر يتعلق بالاشغال العمومية وغطس فى بحور لهوه ولذاته وصار لا فائدة له فى رد حواسه وعقله الى الرزانة والهدو ولقب نفسه بلقب الابطال الرومانية وعرض نفسه لمحال الملاعب فوقع فى مصائب مع أخصام له من ضعاف الناس فأمر بذبحهم من دون رأفة منه ثم من بعد أن تسلطن اثنتى عشرة سنة وتسعة أشهر صار خنقه فى فراش نومه بمعرفة نسائه واثنين من ضباطه كان أصدر أمره عليهما بالقتل وكان قتله فى سنة ١٩٢ بعد الميلاد

ومن هنا أخذ اضمحلال المملكة الرومانية وهبوطها فى سرعة النزول والسقوط الى أكبر المهاوى وأعمقها فى مدة سلطنة كومودوس وكان هذا الاضمحلال ابتدأ من أوائل سلطنة الامبراطور وجالبه لولا أن تداركه الخمسة أمبراطورات الجيد والسير الذين جلسوا على تخت الامبراطورية من بعد جالبه وضاع نظام الجيش بالكلية وترك العساكر مواقع ومعسكرات بيارقها وأعلامها مئات مئات وانضم بعضهم الى الايالات وقطنوها وعاشوا فيها على الزراعة وطرائق الفلاحات واجتمع البعض سوية وساروا فى هيئة مناسر ولصوص يسلبون البلاد وينهبون العباد ولا يجدون فى طريقهم قامعا يقمعهم ولا رادعا يردعهم وفى أثناء هذا ضعف أمر الامة ووهن وقلت المحصولات وزادت المحن وأما الطوائف العالية فكانوا على الدوام فى حسن عيشتهم ورفاهية حالتهم واسرافهم وتبذيرهم وتجبزهم واردات المملكة وايرادها وفوق ذلك ضعف وجود الاداب وأخذت فى الخسة والنقصان وذهب الحياء من الناس فلولا انه كان يوجد القليل من متنورى العقول فى بعض جهات عالية الا انه صار أسلوب التألف والعمران اخذا فى نمو الفساد والخسران فى كل جهة من الجهات وزاد حمله فوق الطاقة وعدمت لذة الحياة والمعيشة الا فيما بين المحتقرين المرذلين من المسيحيين وانقطع وجود المحبة الوطنية وانقرض الصدق والامانة وظهر العجز والاهانة فى كافة أعضاء الجسم السياسى وعمت نتيجة العجز

والخيبة

والخيبة على كافة طوائف الامة وبينما كانت المملكة فى هذه الاحوال الخسيسة تحت حكم كومودوس وظهر على جدرانها الخلل والسقوط اذ شوهدت انها لم تزل واقفة مقاومة بصبرها العظيم لما نزل بها من الشدائد والمصائب التى هجمت عليها وخيمت على جوها من نحو قرنين كاملين وذلك ان قاتلى كومودوس ذهبا الى بيت برطيناكس والى المدينة وأعلموه بما فعلوه من قتلهم الامبراطور وقدموا له التاج الامبراطورى وكان رجلا طاعنا فى السن ممدوح الخصال والافعال وكان أحد الباقين المحبين الى ماركوس عوريلوس ففزع ونفر من قبوله هذا الشرف المؤدى الى الخطر الذى قدمه له هذان القاتلان وأخيرا غلبت عليه الدنيا بزخارفها وأورث له السعادة من تدابيرها فقبل التاج من بعد أن تردد قليلا فى الوظيفة ليكون لتخت الامبراطورية خليفة وخضعت طائفة العسكرية الى قائدهم الذى هو من ضمن قاتلى كومودوس وقبلوه مع غاية الكراهة وكان مجلس السناتو له رغبة فى ارتقاء واحد من طائفته فأهل المجلس مع الابتهال ببرطيناكس وقرر أحكامه وكانت خزينة المملكة خالية من النقود فتولد مما أجراه برطيناكس من الاقتصاد والوفر الذى اجتهد فى ادخاله فى ادارة المملكة وقوع عداوة قواد العسكرية له وكذا قام أهل المدينة فى ضجة وغوغاء مع العسكر وحصلت ثورة جهرية وقتلوا برطيناكس فى يوم ٢٨ مارث من سنة ١٩٣ بعد الميلاد من بعد أن تسلطن أقل من ثلاثة شهور

ثم وضع قواد العسكرية سمو الامبراطورية فى الدلالة والمزاد لمن يشتريه بأكبر الاثمان فى سوق البيع وباعوه الى ديديوس يوليانوس وكان رجلا متمولا من أرباب مجلس السناتو بما ينيف عن خمسة عشر مليونا من الريالات وخاف مجلس السناتو من مقاومته غرض هؤلاء العساكر فقرر أمر يوليانوس فتسلطن شهرين فى رومة الا انه لم يتقرر أمر سلطنته فى الاقاليم والايالات لان الجيوش فى بريطانيا وسوريا وبانونيه حصل فيها الهياج والثوران من الحركة الجارية من قواد العسكرية فى رومة ونادوا على أمبراطورية قوادهم البينوس وسفروس ونيجير وما كان سفروس من بين هؤلاء القواد أكثر حزما وتدبيرا فقط بل كان أقربهم الى رومة فى مسافات الجهات فعبر فى الحال جبال الالب وزحف بعساكره على رومة وتغلبت رسالة السرية على قواد طائفة العسكرية فى رومة حتى من بعد هاما كان لمجلس السناتو من جسارة يجريها فى مقاومته على أعمال سفروس وقبض سفروس على ديديوس يوليانوس وقتله ودخل رومة وجلس على تخت الامبراطورية

وكان أول عمل أجراه سفروس من بعد أن استحوذ على العاصمة هو كسره شوكة قواد العسكرية وأمرهم بتجريدهم من أسلحتهم وأبعدهم عن رومة بمسافة مائة ميل ثم عاد على أخصامه وأسكت البنوس فى بريطانيا ووعده أن يكون الخليفة من بعده وسار الى نيجير فهزمه فى واقعتين فاصلتين فى نواحى صاقز وعصوص من أعمال آسيا ثم قبض عليه وقتله ثم نكث عهده مع البنوس مع العداوة له وكان البنوس أغار على الغلبة فهزمه وقتله بالقرب من ليون وصار سفروس امبراطورا بمفرده وأفهم رعيته جيدا بأنهم يجدون فى نفسه لا نفسهم سيدا وأمبراطورا فكان عبوسا شديد الطبع فرز نصرته وظفره وجلوسه على التخت بقتله احدى وأربعين عضوا من أرباب مجلس السناتو وعددا وافرا من كبار وأغنياء الاقاليم وكان ذنبهم اعانة أخصامه عليه وصارت المملكة تحت حكومة وسلطنة سفروس عسكرية مستبدة فان مجلس السناتو ما تجرد من سلطنته فقط بل صار ممقوتا مغضوبا عليه عيانا واستبدل

سفروس طائفة الخفر العسكرى بقوة مؤلفة من ٤٠٠٠٠ نفس من العساكر المنتخبة ورتبهم فى هيئة محافظين على رومة ويؤدون الاشغال اللازم اجراؤها على محافظة الامبراطور وجعل قائد هذه القوة الحاكم والى المدينة وجعله هو الشخص الثانى فى المملكة من بعد الامبراطور فما كان يباشر ادارة محافظة المدينة فقط بل عهد اليه زمام مباشرة خزائن المالية ونيابة الاحكام تحت شوكة عادلة وقانون محدود فغن ثم ما كان عند هذا القائد أدنى كراهة عدوانية لنفس الامبراطور وكان سفروس قائدا ماهرا فشرع فى اصلاح النظام فى الجيش الا أن نجاحه فى ذلك كان قليلا وفى سنة ١٩٧ بعد الميلاد اشتبك فى حرب مع فارطيه فغاب عن رومة ست سنوات مشغولا فى هذا الحرب وكان الفارطيون انفجروا فى ميزوبوتاميه الا أنهم تقهقروا عند قربه منهم فنزل فى الفرات فى زورق له وسارت عساكره فى طول الشاطئين حتى وصل بابل وتفرج عليها ثم انتقل منها الى الدجلة وحاصر مدينة قطزيفون (المدائن) وتغلب عليها وذبح وباع أهلها فى أسواق الرقيق ونهب المدينة وحصل لعساكره فى هذا السفر مضايقة شديدة من أجل احتياجهم للمؤنة وكثرت فيهم الامراض وعند عبوره من الصحراء الى سوريا قطع العرب على عساكره العلائف والمؤن واستمر عشرة أيام فى ضيق فى الطريق وحاصر مدينة عطرية حصارا كان على غير طائل وهذه المدينة التى كانت قاومت جيش طراجان فى صحراء بلاد العرب ومن بعد أن دار دورة فكه نفسه فيها فى مصر وزار منف وشاهد الاهرام واستكشف النيل عاد الامبراطور راجعا الى رومة وابتدأ فى اشهار زواج ابنه الاكبر

وكانت العائلة الملوكية مقصورة فى المملكة يوليه دومنه وولديها قرقلا وسبطميوس غيطه وصحب قرقلا أباه فى الاعمال الشرقية وأشركه معه فى المملكة وزوجه بلوطيله بنت بلوطيانوس أول وال أو نائب فى القيادة الجديدة للمدينة وفى سنة ٢٠٨ بعد الميلاد ثارت الارتبا كات فى جزيرة بريطانيا على أمرائها حتى دعت الحالة لحضور نفس الامبراطور فطرد الكلادونيانيين (الاصكوطلنديين) وعاقبهم أشد العقاب وكانوا كبسوا الى الجهات الجنوبية وزحفوا على الحد الرومانى من تلك الجهة وكان مصحوبا فى غزوته هذه بابنه قرقلا فظهر على هذا الشقى شراسة أخلاقه وعنفوان شبابه وسعى فى قتل أبيه فى ضاحية النهار جهرة فانسل على هذا الرجل المسن وأراد قتله لولا أن تداركه صياح العساكر فالتفت سفروس بغتة ولما وقع بصره ونظر بوجهه العبوس الى قرقلا الشقى سقط السلاح من يد من أراد أن يقتل والده وعفا عنه فى الوقت فاندهش الواقفون واستغربوا من فعل الامبراطور وعلو همته ولكن قتل كل من كان داخلا مع قرقلا فى هذه المادة شر قتلة وما كانت هزيمة الكلودونيانيين فى ميدان مكشوف ووقائع حربية معتادة بل كانوا متفرقين شرذمات وطوائف قليلة العدد فى داخل الاورمانات وكانوا يسقطون بغتة من كل جهة على جيش عدوهم ثم يعودون يختفون فى الغابات فأمر سفروس بقطع الاورمانات وتنظيفها ومسحها بالكلية لاجل حرمان هؤلاء المحاربين من الملاجئ المختفين فيها فكان ذلك من أشد الاشغال وأشقها فمن ثم أتلف هذا الحرب بمضاربة ومرضا وقتلا نحوا من خمسين ألف نفس على سفروس بعد تمامه وجال فى الجهة الشمالية من بريطانيا وقرر الحد بين الرومانيين والكلودونيانيين أهل اضكوطلندة وترك الخطوط المستحكمة التى كان سلفه أنشؤها حدودا فى هذه الجهة وابتنى سورا استحكامات من الحجر من نهر سلوى الى نهر الطين فى طول ثمانية وستين ميلا ونصف وثخانته ثمانية أقدام وارتفاعه اثنا عشر قدما وحفر أمامه فى الجهة الشمالية خندقا

عرضه

عرضه خمسة وعشرون قدما وعمقه خمسة عشر قدما ورتب فيه أربع فرق وأربعة عشر بلوكا من العساكر وهى قوة مؤلفة من ١٠٠٠٠ نفس موزعة على ثمانية عشر محطة فى طول الخط وسمى هذا بسد سفروس ثم تعكرت السنو الاخيرة من سلطنته وامتلأت بالقلاقل والارتباكات التى تولدت من ولديه قرقلا وغيطه واشتدت بينهما العداوة والبغضاء وكانا على عدو بينهما فى حال حياته فقط فجعل الاثنين خليفتين له حتى لا يكون أحدهما تحت رحمة الآخر وقال لهما على وجه النصيحة كونا كريمين ودودين لطائفة العسكر وتودوا بالقدام كما على ماعدا ذلك ومات فى مدينة يوركه فى سنة ٢١١ بعد الميلاد من بعد أن بلغ من العمر خمسا وستين سنة وتسلطن ثمانى عشر سنة

ثم استخلف من بعد سفروس ولداه قرقلا وغيطه سوية مع بعضهما مدة سنة واحدة مع الكراهة والريب الزائد من بعضهما وفى آخر هذه المدة سعى قرقلا واجتهد فى فصل المشاحنة بينه وبين أخيه بقسمة المملكة ثم قتل أخاه بين يدى أمهما فى سنة ٢١٢ بعد الميلاد وصار هو منفردا بالامبراطورية على حدته وكان فاجرا مهولا لا يمكننا أن نشرح سلوك سيره وأحوال أعماله الا بقولنا انه كان رجلا مجنونا لا عقل له وشرع لاجل أن يتخلى من القدح والذم فى صفاته وقتله لاخيه ويزيل من أفكار الناس قتله لاخيه فى قتل كل من كان ينتمى لصداقة غيطه ومحبته فقتل فى ذلك نحو من ٢٠٠٠٠ نفس من ضمنهم ابنة ماركوس عوريلوس وابن برطينا كس وابن أخى كومودوس وقاضى القضاة بلبنيان ومع كل هذا فانه لم يستقر فى راحته ولا هدأت روعته بما فعل من هذه الفعال فترك رومة وشرع فى سياحات لا قصد تحتها ولا غرض فيها فى جميع الاقاليم الواسعة من ممالكه وفى هذه السياحة تمت راحته وأثبت على نفسه أنه هو العدو الالد للنوع الانسانى فكان أينما توجه يجور ويعتدى على الاهالى بالضرر والاذى ويظهر شماخة نفسه وسمو مجده بعنفه وقساوته ومن بعد أن جال فى تراسة وآسيا الصغرى كانت زيارته مصر من أشأم الزيارات وأقبحها على هذه المملكة من امبراطورها وذلك أن الاسكندرانية أهل الهجو والنقد وان كانوا على الدوام فى جنون وعيوب ونقائص الا أن حذاقتهم وفصاحتهم كانت دائما تلجئهم على الذم والطعن على أحكامهم ووجوه ادمهم وطعنهم على قرقلا وتمسخروا عليه وضحكوا منه لما شاهدوه فى زى ارشيل والاسكندر الاكبر مع انه فى نفسه أقل الموجودين قيمة فى عصره وكانوا يذمونه على قتل أخيه وشروعه فى قتل أمه فطرقت مسامع قرقلا هذه النكت الركيكة المشؤمة سالما كان فى رومة واستمرت فى فكره لكنه لم يظهر أدنى غيظ أو غضب من أجلها ولما توجه الى انطاكيا أشاع رغبته فى التوجه لزيارة المدينة التى أسسها الاسكندر الاكبر ويتكلم مع الكاهن فى معبد سرابيس فلما وصلت هذه الاخبار أهل الاسكندرية فرحوا وانتعشوا بزيارة امبراطورهم لهم وأعدوا مائة ثور تذبح تحت رجليه عند قدومه ولما جاء ها دخل مدينتهم فى صفوف من المشاعل وكانت الآلات والموسيقات تصدح بأطرب الاصوات وكان نسيم البحر معتدلا وريح الطيب ممزوجا بروائح العطريات والطريق مفروش بأنواع الزهورات ومن بعد أن قضى الامبراطور بضع أيام فى الاسكندرية قرب فيها قربانا فى هيكل سرابيس وزار قبر الاسكندر الاكبر وخلع فيه برنسه القرمزى وخواتمه ومنطقته المرصعة بالجواهر والاحجار الثمينة ووضعها فى قبر هذا الشجاع وفرح الاسكندرانيون بضيفهم وزائرهم وازدحموا أفواجا فى المدينة لاجل الفرجة على ليالى التهانى المتوالية نهارا وليلا فى أعياد وأفراح فى حب الامبراطور المشحون قلبه بالحقد الزائد والغضب الشديد الذى لم

يظهره لهم وما شوهد على وجهه شئ تنفر منه أهل الاسكندرية من أحواله المكنونة فى صدره ومن بعد تمام هذه الافراح أصدر منشورا من عنده بان كافة شبان الاسكندرية الذين فى سن الدخول فى العسكرية يلزم أن يقابلوه فى ميدان خارج المدينة وكان عندهم بعض أرط من المقدونيين والاسبرطانيين فمن ثم أظهر الامبراطور انه يرغب أن يشكل أيضا أورطة من الاسكندرانيين مثل هذه الارط فامتلأ الميدان بالوف من شبان المدينة ووقفوا صفوفا وجماعات على حسب درجاتهم وسنهم وموافقتهم لحمل السلاح وكذا جاء معهم الى الميدان أصدقاؤهم ومحبوهم وأهاليهم ليشاهدوا هذا الشرف الذى سيمنحه الامبراطور لاولادهم فسار الامبراطور من وسط صفوفهم وهنأهم بصوت عال بعزتهم ومحبتهم عنده وفى اثناء هذا أحاط الجيش بكامل الميدان وأخذ فى القرب شيأ فشيأ من هذا الزحام حتى ضاقت الحلقة ولما رأى قرقلا قفل الحلقة انسل منها مع خفره وأعطى اشارته للعساكر فشرع العساكر بحرابهم ومزاريقهم ومدوها نحو الزحام وحملوا على أهل الاسكندرية وشبانها الموجودين فى داخل هذه الحلقة بغير سلاح وشق العساكر بطون البعض وقطعوا رقاب البعض وغرق البعض فى مجارى الخلجان والترع وكانت مذبحة مهولة حتى قيل ان المياه النيلية المصبوبة فى البحر تغير لونها الى اللون الاحمر وقت انصبابها فى البحر وعاد الشقى قرقلا مهنئا نفسه على فوزه باخذ ثاره من أهل الاسكندرية من أجل استهزائهم به ومسخرتهم عليه وما كان يوجد بالاقليم واحد هو الذى نجى أهله من كبائره وقبائحه ولما عرف نفسه أنه صار ممقوتا مكروها عند رعيته تدارك أمره فى استداء معروفه وخيره لعساكره فوزع فيهم مكافآت جليلة ولطف بهم فى النظام والضبط وفى نحو غلاق سلطنته شرع فى الغلبة على فارطية ونصب مركزه العسكرى فى عدسا من أعمال ميزوبوتاميا فى سنة ٢١٤ بعد الميلاد وعبر نهر الدجلة وتغلب على اربل وحدسنة ٢١٦ بعد الميلاد طرد الفارطيين فى داخل جبالهم الحصينة وعزم على استمرار الحرب فى السنة التالية ومن قبل افتتاحه قتله مكرينوس نائبه العسكرى والتزم مكرينوس على هذه الفعلة لاجل نجاة نفسه منه فى سنة ٢١٧ بعد الميلاد

ومن بعد أن تردد الجيش قليلا فى أمر مكرينوس أعلن بامبراطوريته وتقرر أمره من مجلس السناتو فابتدأ سلطنته باجتهاده فى ازالته الاعمال القبيحة التى كانت جارية من قرقلا ولما هزمه ملك الفارطيين انسحب من الحرب واشترى الصلح وترتب من تطاماته وتدبيره أشغال المملكة ومباشرة أعمالها عدم قبوله عند الجيش فحصل له اختلال فى عقله كما حصل لقرقلا فتشكلت ثورة ضده أضرمتها ميزيا خالة قراقلا وذلك أن أصل بيت سفروس من جهة النساء من نواحى سوريا فان يوليه هذه وهى يوليه دومنه امرأة سفروس وملكة هذا البيت كانت من أهل مدينة حمص من أعمال سوريا وبمجرد وصول زوجها الى التخت الامبراطورى وارتقت هى الى درجة امبراطورة قاسمتها أختها ميزيا فى درجة هذا السمو وانتقلت ميزيا الى السراية الامبراطورية وتزوجت وخلفت بنتين سومياسه ومينيا كن بقى خالة قرقلا وغيطه وتزوج البنتان وخلفت كل واحدة منهما ولدا ثم اتفق أن ميزيا توجهت الى مدينتها مسقط رأسها مع بنتيها وأولاد بنتيها فى ثروة جسيمة فاضرمت الزعازع والقلاقل فى سرعة سقوط مكرينوس طامعة فى نقل قضيب الامبراطورية الى ولد من أولاد بناتها لانهما من بيت سفروس وأنها خالة قرقلا وكان فى مدينة حمص مزار مشهور اسمه علغبلوس أى اله الشمس من أعمال الفنيقيين وآلهتهم وكان فى هذا الهيكل المطنطن ابن سومياس متقلدا رياسة القسوسية وكان شابا عمره سبع

عشرة

عشرة سنة وكان بالقرب من هذا المعبد فرقة من العساكر الرومانية من الجيش السورى فكان العساكر والضباط يتوجهون الى هذا المعبد ويتفرجون على رقص هذا الشاب الظريف على ضرب النايات والاعواد حول المحراب وهو فى أنخر ملبوسه وكانوا يعرفون ان أمه بنت خالة قرقلا فوجهوا محبتهم اليه ومالوا بكل جهدهم عليه وغطى ذهب ميزيا على عقول النافرين وقام العساكر من أجل خاطر ابن بنتها الكبير افيطوس أو باسيانوس فتولد من هذا حرب انفصل بواسطة جبن مكرينوس وتركه الميدان مع أن الواقعة كانت فى زيب إماله أو عليه فتبعته قوى خصمه وقبضوا عليه وجاؤا به الى أنطاكيه وقتلوه فيها وشاركه فى عاقبة وبال أمره ابنه ديادومينوس وكان عهد اليه بالخلافة من بعده وكانت هذه الحادثة فى سنة ٢١٨ بعد الميلاد

وكان باسيانوس الامبراطور الجديد شابا سوريا وتلقب بلقب علغبالوس باسم الاله الذى كان رئيس القسوسية فى هيكله فى مدينة حمص ونسب نفسه انه من ذرية سفروس وقرقلا ثم لقب نفسه ماركوس عوريليوس انطونينوس الا أنه كان معروفا باسم علغبالوس فرضى الرومانيون وسلموا زعمه هذا وقرر مجلس السناتو بامبراطوريته فكانت سلطنته القصيرة مقصورة على أربع سنوات قبيحة الذكر سوداء الصحف فى التاريخ الرومانى لان ذات الامبراطور كان مجردا من الانسانية بالكلية وكان معتكفا على أردا الاحوال الحاوية لاكبر النقائص والعيوب وما كان عنده حزم أو فطنة يوصف بها وما كان يهتم بشئ سوى الشره والانهماك فى الفجور والفسق ونقش الوجه وتخطيط العيون والحواجب ودهان الوجه بالدودة والتزيى بلبس النساء وأظهر عيوبه ونقائصه جهرة أمام نظر العموم واستبدلت الاحتفالات الرومانية الجليلة بالخلاعات القبيحة السورية وعشق مخدرة عذراء وفصلها من حجابها المقدس وجعلها احدى أزواجه وتولد من تبذير واسراف هذا الامبراطور عجز واردات المملكة وفرش أرضية جهات سراياته بتبر الذهب وكان يلبس ملبوسه ومصاغه وحليه مرة واحدة ثم يخلعها على خدمه وحواشيه والطفيلية المتملقين له ووظف جدته عضوا فى مجلس السناتو فى رتبة بعد درجة القنصل ورتب مجلس سناتو من الستات والبنات خصيما للمجلس السناتو الاصلى تحت رياسة أمه فكانت سلطة هذا المجلس وأوامره ليس فيها صعوبة على المملكة لانها كانت مقصورة على أوامر وقوانين هيئة الملبوس وكيفية رسوم درجات التحيات فى وقت المقابلات والاحتفالات ووجود الناس فى الجمعيات

ثم استمر الرومانيون مذعنين مع الصبر لهذا الانسان المهين مدة أربع سنوات ولما رأت جدته بعين بصيرتها أن عيوبه ونقائصه المتسلطنة فيه يكون منها على خطر وهلاك استمالته فى قبول ابن عمه اسكندر سفروس خليفة من بعده وتولد من فضائل اسكندر هذا وكانت مخالفة بالكلية لعيوب هذا الامبراطور المهين فواله التفات قواد العسكرية اليه ولبس الامبراطور الغيرة والحسد له ولما خاف الامبراطور من ايقاعه باسكندر جهرة سعى فى دماره بالقتل خفية ولما رأى قواد العسكرية انه لا يمكن نجاة حياة اسكندر من يد الامبراطور الابز والدولة الامبراطور نفسه قاموا فى ثورة وقتلوا علغبالوس فى سنة ٢٢٢ بعد الميلاد والله أعلم

﴿ الباب الثامن ﴾

﴿ من سلطنة اسكندر سفروس الى انتهاء سقوط المملكة الغربية الرومانية ﴾

صيرورة اسكندر سفروس امبراطورا ـ سلطنته العظيمة ـ سقوط مملكة فارطية وقيام مملكة فارس المتوسطة ـ حروب بين رومة وفارس ـ وجود الجرمانيين فى الغلبة ـ صيرورة مكسمين امبراطورا ـ عتوه وقسوته ـ صيرورة غورديان امبراطورا ـ سلطنة فيليب ودسيوس ـ غالوس وءمليان ـ صيرورة فلريان امبراطورا ـ حروب مع الامم المتبربرة ـ الحرب الفارسى ـ هزيمة فلريان وأسره ـ غاليانوس ـ مملكة پالميرا (تدمر) ـ كلوديوس ـ صيرورة عورليان امبراطورا ـ سلطنته المهولة ـ تغلبه على پالميرا ـ زنوبيه ـ قتل عورليان ـ صيرورة طاسيطوس امبراطورا ـ سلطنة فلوريان وكاروس ـ صيرورة دوقلطيان امبراطورا ـ اجرآته وأعماله القاسية ـ تدميره شوكة قواد الفرق العسكرية ـ تقسيمه الحكومة الامبراطورية ـ وقوع تغييرات كبيرة ـ كاروسيوس وقنسطنطينوس ـ مكسميان الافريقى ـ اخضاع دوقلطيان الثورة المصرية ـ الحرب مع فارس ـ التعدى على المسيحيين ـ اعتزال دوقلطيان عن التخت ـ قنسطنطين الاكبر ـ تشييد أحكامه على كامل المملكة ـ جعله الديانة المسيحية ديانة المملكة ـ انعقاد مجلس نيقيا ـ تأسيسه القسطنطينية ـ عوده النظامات فى المملكة ـ حروبه مع الامم المتبربرة ـ قنسطنس ـ قنسطنطيوس ـ حربه مع فارس ـ يوليان الرافضى ـ خيبة مسعاه فى ازالته الديانة المسيحية ـ موته ـ صيرورة يوفيان امبراطورا ـ فلنطينان ـ وقائع سلطنته ـ الفلانيين ـ تحرك القبائل المتبربرة ـ غراطيان وفلنطينان الثانى ـ طيودوسيوس الاكبر ـ ضغطه على الديانة الوثنية ـ الامبراطور والقديس عمبروس ـ تقسيم المملكة ـ ثورة الغوطيين ـ وجود الغوطيين فى ايطاليا ـ هزيمتهم بواسطة سطيليخو ـ منع الوقائع الكفاحية ـ اغارة الغندال على ايطاليا ـ توطنهم فى أوروبا الغربية ـ اغارة جديدة من الغوطيين ـ ضبط علريق رومة ـ نهبها وسلبها ـ موت علريق ـ وجود الغوطيين فى اسبانيا ـ سلطنة فلنطينان الثالث ـ وجود الهونزيون فى ايطاليا ـ عطيلا ـ واقعة شالون ـ هزيمة الهونزيون ـ نهب الغندال رومة ـ ديسمبر ـ الامبراطورات الهزؤ ـ سرعة ضعف المملكة الغربية ـ صيرورة أوغسطوس امبراطورا ـ سقوط المملكة الغربية ـ قيام مملكة ايطاليا ـ قيام الامم الطوطونية حال سقوط المملكة

كان التباين والفرق بين اسكندر سفروس وبين ابن خالته علغبالوس كبيرا جدا وكان اسكندر هذا ابن ماميسة البنت الصغيرة لميزا فربته أمه وهذبته مع غاية الاعتناء وكان محمود الصفات نقى الخصال لكنه ما كانت فيه الشهامة الكافية لتوقيف سريان الفساد وصده حتى كنس المملكة وأوصلها الى درجة بوارها وزوالها فتعب وكل واشمأز فى مدة سلطنته من أشغال حكومة مملكته وما هو متراكم عليها من الفساد والعفونة وقاد نفسه الى حركة ادارة أمه فكان الخير والنفع فى مدة هذه السلطنة وافرا جدا وكان منوال سير الامبراطور الشاب حسنا ولو انه فاق نفوذ أمه وسلطتها فى غاية من السمو الا انه ما كان يوجد فى الاثنين قوة كافية لاجراء الاصلاحات الجاذبين فيها ومع كون هذه المدة تسلطن فيها اللهو واللعب المباين للهو ولعب المدة السابقة فقد تقدم فيها أهل الفضل وأرباب الذكاء والعقل من الرجال الى مراكز

الشرف

الشرف والاعتماد وراعى مجلس السناتو مع الوقار والاحترام ما كان من حقوقه القديمة واجتهد اسكندر وسعى سعيا صادقا فى ادارة المملكة تحت قواعد خالية من النقائص والعيوب مع غاية الاقتصاد وفى غضون ذلك حصل تغيير كبير فى الدنيا الشرقية وهو سقوط ودمار المملكة الفارطية وقيام المملكة الوسطى الفارسية تحت سلطنة أردشير بابك وقتل ارطابانوس الرابع الملك الحادى والثلاثين من الكيانيانية أو ملوك الطوائف وهو آخر ملوك فارطية وذلك انه لما حصل الضعف فى هذه المملكة من كثرة ما حل بها من الاختلافات والمصائب التى تكررت عليها من نواحى الرومانيين رفع أهل فارس بيرق العصيان وقاموا فى ثورة على ملكهم تحت قيادة أردشير المذكور وكان ينسب نفسه انه من ذرية ساسان ومتصل الدم مع كيرش أو كيخسرو ونجح هذا القائد فى ثلاث وقائع كبيرة وأسس السلطنة الثانية الفارسية على أطلال المملكة الفارطية وابتدأت سلطنة العائلة الساسانية واستمرت الى زمن النبى محمد صلى الله عليه وسلم وكانت فى مصادمات وملاطمات على الدوام مع الدولة الرومانية وعزم أردشير بابك على استرداد جميع ممالك دارا الاول فطلب من اسكندر الموجود على تخت الامبراطورية الحالية اخلاء كافة الاقاليم الرومانية فى آسيا فأجابه الامبراطور بكونه قاد عساكره وعبر نهر الفرات فى سنة ٢٣١ بعد الميلاد وظفر اسكندر فى هذا الحرب القصير بعدوه الا انه رأى فى نفسه أن لا طاقة له على ضبط الاقاليم الشرقية وكذا كان حصل العجز والضعف عند ملك فارس مما حل به من الخسائر حتى صار لا طاقة له على السعى فى الحرب وطرد الرومانيين من آسيا فوقع عقد الصلح بين الاثنين فى سنة ٢٣٢ بعد الميلاد

ثم انتشب خطر وهول جديد وقام على نهر الرين وذلك أن القبائل الجرمانية عبرت هذا النهر فى سنة ٢٣٤ بعد الميلاد وأغارت على الغلية فأسرع اسكندر لملتقاهم الا انه من قبل اجرائه حركات الحرب معهم صار ذبحه مع أمه بواسطة ثورة حصلت فى عساكره سنة ٢٣٨ بعد الميلاد ونادى العسكر على مكسمين زعيم الثورة بالامبراطورية وكان ترقى من درجة فلاح تراسيانى الى قائد فرقة من فرق العساكر فمع انه حاز الشجاعة والمهارة فى العسكرية الا انه كان جاهلا جلفا سفيها وحشى الطبع فسار فى مبادى الثلاث سنوات من سلطنته بغير سياسة ولا ادارة بل ببغضه للاشراف وطمعه فى أموال الاغنياء فتولد من خطفه وسلبه أموال الرعايا قيام أهل افريقه فى عصيان عليه وفى سنة ٢٣٨ بعد الميلاد قاموا عليه وتوجوا نائب قنصليتهم غورديان وابنه امبراطورين وصدق مجلس السناتو على هذا الانتخاب بخسارة ما كانت تطن فيه وكان مكسمين مشتيا فى هذا الوقت مع عساكره على نهر الطونه فسار مسرعا الى رومة فى أمل أن يحطم أخصامه ويبطش بهم بواسطة سرعة سيره هذا فهزم الغورديانيان وقتلا فى افريقه فى ظرف شهر من ابتداء عصيانهما فوضع مجلس السناتو مع الشهامة الكبيرة اثنين من أهل المجلس وهما بوبينوس وبالبنوس وبما أن الامبراطورين الجديدين لا طاقة لهما على ملتقى مكسمين فى الميدان خربا البلاد المكشوفة وحفظا المدائن المستحكمة مؤملين انه بهذا الرأى يغيظان خصمهما ولما صار صد مقاومة مكسمين بواسطة مقاومة عكليه اشتد غضبه على عساكره فقاموا عليه وقتلوه مع ابنه فى شهر مايو من سنة ٢٣٨ بعد الميلاد

ثم انه ما نتج من قتل مكسمين حالة فاصلة فى المشاحنات الجارية غيرت حالتها وصفاتها وما زالت المشاحنات حاصلة بين السناتو والفرق العسكرية بخصوص حقوق تسمية الامبراطورات ففصل

طائفة العسكرية مسئلة المشاحنة بواسطة قتلهم بوبنوس و بالبنوس فى ظرف ستة أسابيع من موت مكسمين وأجلسوا على التخت الشاب غوردنيان حفيد وابن أخى الملوك الغوردنيانية وكان رأس الثورة الافريقية ولبس القميص الارجوانى

وكان غوردنيان مجرد آلة فى يد وزرائه وكان عمره وقت ذاك اثنتى عشرة سنة ثم وقع أخيرا تحت سلطة النائب العسكرى طمسيطوس فكان ضابطا ماهرا فوجه بابنته وكانت ادارة المملكة ومباشرة أعمالها فى مدة حياة طمسيطوس جارية مع الشدة وحزم الرأى وحفظت الحدود الشرقية مع النجاح والالتفات اليها من هجوم الفرس عليها وأخمدت الثورة التى كانت اشتعلت فى افريقه ولما عاد طمسيطوس من الحرب الفارسى ذبحه فيليب العربى وكان خلفه على قيادة الخفر الملوكى وكذا قتل غورديان على أيدى عسكره وجعل نفسه امبراطورا بدله فى سنة ٢٤٤ بعد الميلاد

وكان فيليب من أهل بوسطره من بلاد العرب فابتدأ فى سلطنته بعقد صلح مع فارس وهزم فى السنة التالية الكاربيين على نهر الدانوب الوسطانى وفى سنة ٢٤٨ بعد الميلاد أشهر الالعاب الصقولاريانية مع الاحتفال والابهة تعظيما للعيد المكمل للالف سنة من تأسيس مدينة رومة ولما غضب السوريون من حكم فيليب أقاموا امبراطورا أضحوكة اسمه يوطابيانوس وكذا أقام الفرق العسكرية فى جهتى مونيا وبانونيه مارينوس امبراطورا فقتل كلا من هذين القائدين بسرعة الا أن الجيش ما زال مستمرا فى ثورته فأرسل فيليب أحد المفتشين من أعضاء مجلس السناتو واسمه دسيوس ليقود العساكر تحت طاعة القانون فاعتقد العساكر بما وعدهم به فيليب من عهوده ومواعيده أنه لا ينسى حالة سيرهم أبدا ما دام على قيد الحياة فأرغموا دسيوس على لبس القميص الارجوانى وتقلد زمام الامبراطورية وهددوه بالقتل ان لم يقبل ثم سار العصاة الى ايطاليا وهزموا فيليب وقتلوه فى نواحى فيرونه فى سنة ٢٤٩ بعد الميلاد وجلس دسيوس على التخت من دون معارض

وتسلطن دسيوس الذى جعل امبراطورا على غير غرض نفسه سنتين فقط فاجتهد فى أثناء هذه المدة القصيرة فى عود تقديس الديانة وطهارتها وعود الآداب بين الرومانيين الا أنهما نجح فى اجتهاده فى تمام مقصوده من عود الآداب وسن مشروع الجور الفاحش على المسيحيين ووقعت مذبحة عامة فى أهل هذه الديانة بمدينة الاسكندرية وهلك فيها أساقفة انطاكيه وأورشليم وهلك الكثير من رومة وفى سنة ٢٥٠ بعد الميلاد حصلت الحادثة الكبرى للسلطنة وذلك أن الغوطيين جذب عقولهم ما كانت عليه المملكة من الثروة وكثرة الاموال فانتشروا على الحدود فى قوى كبيرة وخربوا دانيه وموزيا وأغاروا على ترّاسه فاجتهد دسيوس فى صد زحفهم فهزموه وفى السنة التالية اجتهد دسيوس أيضا فى احياء ما أصابه من الخسارة فانهزم شر هزيمة فى واقعة كبيرة حصلت فى موزيا وقتل مع ابنه وكان أشركه معه فى حكم المملكة

ثم ان الجيش رضى وسمح لمجلس السناتو فى تنظيم عقد خلافة التخت فقلد هذا المجلس غالوس وكان قائدا من قواد دسيوس وكذا هوسطليانوس الشاب ابن دسيوس زمام الامبراطورية وصار اشتراك فولسيانوس ابن دسيوس أيضا فى السمو الامبراطورى وكان غالوس هو الامبراطور فى الحقيقة لان سنه وخبرته بالامور والتجاريب رفعاه فوق رأس رفيقيه فكان أول شغل أجراه هو شراؤه الصلح من الغوطيين على أن يدفع لهم خراجا سنويا معلوما على شرط أن يكفوا غاراتهم عن الممالك الرومانية

فتكفل هذا الشغل بعزته وقبوله فى رومة ومن ثم أخذ الخلاف الذى تولد من ذلك فى الزيادة بما حصل من الفتن والدسائس التى تكاثفت على المملكة وانتشر طاعون مخرب فى رومة وعم الممالك الرومانية فكان هو سطليانوس من ضمن المقتولين وخرب الامم المتبربرة بغاراتهم الجديدة الاقاليم الجنوبية من نهر الدانوب وأنزلوا بها المصائب والآفات فلما طرد عمليانوس حاكم بانونيه وموزيا هؤلاء المغيرين ودافع عن البلاد والعباد نادى عليه عساكره بامبراطوريته وزحف فى الحال على رومة فخرج غالوس وابنه الى ميدان الحرب لملتقاه فقتلهما عساكرهما وقرر مجلس السناتو مباشرة عمليانوس امبراطورا فى سنة ٢٥٣ بعد الميلاد

وكان عمليانوس من أهل موريطانيا (مراكش) فمن بعد جلوسه على التخت بقليل حصل الخلاف والمنازعة من فلريانوس فى صعوده على التخت ولبسه الثوب الارجوانى وكان فلريانوس أحسن رجال عصره هذا أهلية كاملة وكان أرسله غالوس فى جلب الفرق العسكرية الموجودة فى الغلية وجرمانيا لمساعدته فلما تأخر وصوله عن خلاص غالوس وجه فلريانوس سلاحه على عمليانوس وهزمه وقتله فى المعركة من بعد أن تسلطن ثلاثة شهور

وقرر مجلس السناتو والامة فلريانوس للتخت من بعد موت عمليانوس وكان عمر فلريانوس فى ذلك الوقت ستين سنة فكان سنه كبيرا جدا فى مصارعته مع الاخطار التى حاقت بمملكته فاشرك معه ابنه غالينوس فى الحكم فى المملكة وجدد فلريانوس فى السنة الرابعة من سلطنته أعمالا شديدة قاسية على المسيحيين وسود قضيب مملكته بدماء ثبريان أسقف قرطاجنة وكان عالما بليغا ورعا وذلك أن والى حكومة افريقه أرسل واحدا من ضباطه مع جماعة من العساكر الى بساتين ثبريان لاجل جلبه أمامه فلما توجه الضابط الى الاسقف عرف الاسقف فى الوقت اقتراب أجله فسار مع الضابط من غير بطء مع استعداد تام وعقل ثابت ونشاط كبير الى سكستى وهو محل على بعد مسافة ستة أميال من قرطاجنه كان قاطنا فيه والى الحكومة فتأخرت قضية الاسقف ذلك اليوم فأمر بوضعه فى بيت أحد الحكام فقضى الاسقف فيه الليل مع غاية الراحة فى محادثة مع أحبابه وكان الوالى سمح لهم بالدخول عنده والمحادثة معه ولما شاع فى قرطاجنه خبر القبض على الاسقف هرع الناس من كافة الطوائف على اختلاف أجناسها والمسيحيون على العموم الى سكستى ووقف قوم ثبريان على باب دار الحاكم طول الليل سهرانين يراقبون ماذا يكون من أمر أسقفهم وفى اليوم الثانى خرج الوالى الى محل جلوسه وأحضر أمامه ثبريان فقال له أأنت طاسكوس ثبريان فأجابه الاسقف أنا فقال له الوالى ان الامر المقدس الامبراطورى قضى بذبحك واهراق دمك فأجابه ثبريان أنا لا أذبح ولا يهراق دمى فأجابه الوالى اقبل نصيحتى فقال ثبريان افعل كما أمرت فانك لا تحتاج لمشورة فى أمر عدل مثل هذا فلما استشار الوالى مجلسه قال لثبريان مع الغضب أقوالا ارديئة ثم قال له أنت عدو الآلهة ومضل غوى مبين وقرأ عليه حكم المجلس مصدقا عليه الامبراطور بان طاسكوس ثبريان يجب قطع رأسه واهراق دمه بسبب اغوائه الامة واضلالها فقال ثبريان الحمد لله وله المنة والشكر وهو ولى فرزعق الزحام الموجود خلفه من اخوانه اقطع رؤسنا جميعا معه وكان المحل الذى صار انتخابه لقتل ثبريان فيه ميدان على مسافة فرسخ من المدينة محيط به أشجار كبيرة فازدحم الناس فوقها وتحتها لمشاهدة هذا المنظر المحزن فقطعت فيه رأسه والصليب فى يده وعلى صدره وما عارضت الحكومة فى دفن جثته فأخذت فى مشاعل من النور ليلا ودفنت فى قرافة

المسيحيين

وانتهى ظلم فلريانوس وجوره بدخوله فى حرب مع فارس وذلك أن مملكة فارس وسعت أراضيها مع العجلة فى الجهة الشمالية لها على مصاريف المملكة الرومانية تحت قيادة ملوكها الجديدة الساسانية وفتح سابور الملك الثانى من هذه العائلة أرمينية وأغار على ميزوبوتاميا فخرج اليه فلريانوس بجيوشه فهزمه سابور وأخذه أسيرا فى سنة ٢٨٠ بعد الميلاد وما قبل سابور منه ما قدمه اليه وعرضه عليه من فديته وحافظ عليه عنده موثقا فى الحديد والاغلال لابسا قيصه الارجوانى وتاجه وعذبه عذابا شديدا ودام أسر فلريانوس وسجنه فى ديوان سابور بهذه الحالة وهذا شئ ما سبق مشاهدته مطلقا فى تاريخ الدنيا وقد ذكرنا ان فلريانوس كان أشرك معه فى حكم المملكة ابنه غالينوس فى سنة ٢٥٤ قبل الميلاد فلم يحصل منه أدنى سعى ولا اجتهاد فى خلاص أبيه من ربقة الاسر بل بمجرد ما سمع بأسر أبيه صار هو امبراطورا بمفرده وفى مدة سلطنته التى كانت عبارة عن ثمان سنوات انهمك فى لذاته وسلك مسالك قبيح مو بقاته واستمرت الفتن والقلاقل منتشرة فى كل قسم من أقسام مملكته فاستمر الخراب المتولد من الوباء والطاعون فكان يخرج من رومة كل يوم نحو من خمسة آلاف ميت فى وقت ارتفاع ظهوره وأضيف الى حالة الطاعون تسلطن الجوع والقحط وغارات الامم المتبربرة الهمجية على المملكة وان الفرنك أو الفرنج (أحرار الناس) وهو اتحاد تشكل من القبائل الجرمانية الموجودة على الجهة السفلى من نهر الرين انفجروا فى الغلية وعبروا جبال البرنات الى اسبانيا ومن بعد أن أفسدوا فى الجيث جزيرة وجاسوا خلالها عبروا من مضيق جبل طارق الى افريقية وعاثوا فيها وسلبوها ونهبوها وكذا الالمانى وهو اتحاد آخر تشكل على حسب كثرة النفوس واختلاف السلاسل والانساب عاثوا فى الاقاليم الموجودة فى جنوب الدانوب وشكلوا غارات سلب ونهب وساقوا فى سيرهم حتى وصلوا مدينة راقنه من أعمال ايطاليا ولما صار الغوط أسيادا الساحل الشمالى من البحر الاسود أقاموا فى أساطيل كثيرة صنعوها من غابات بر ور البحر الاسود ووصلوا البوسفور فى قوارب ومراكب مسطحة ونزلوا على سواحل الجريس وآسيا الصغرى وتغلبوا على مدن كثيرة منها صاقز وكالسيدون وافسوس ونهبوها وحرقوها وتغلبوا أيضا على قورنته وأثينه ونهبوهما وسلبوا كافة المدائن الغنية من أموالها وزخارفها الموجودة على خط سيرهم وأما فى الشرق فان سابور من بعد أن تغلب على ميزوبوتاميا أغار بجيوشه على سوريا وسكب عساكره من دروب جبال طوروس فى قبدوثيا

وخلاف هذه الغارات البرانية وجدت عدة ثورات داخلية وانفجر الهياج وخربت المملكة وصارت على شرف السقوط وازدرى الحكام القادرون بضعف وعجز الامبراطور غالينوس وجعلوا أنفسهم ملوكا مستقلة فى ممالكهم ونجحوا فى خلاصها من المغيرين عليها ومن ثم جعل أودناطوس نفسه فى رأس المدينة الكبيرة التجارية التى هى رأس مملكة بالميرا أو تدمر القديمة وجمع جيشا من البدو والاعراب وأرغم ملك فارس على أن يسلم له كل ما فتحه حتى هجم عليه فى عاصمته قطزيفون (المدائن) مع الظفر والنجاح على نهر الدجلة وكذا تشكلت مملكة ممتازة دخل فيها الغلية واسبانيا وبريطانيا تحت امرة بوسطموس فصد عنها القبائل السلابة خلف نهر الرين واستمر خلفاؤه من بعده فى سلطنة مستقلة مدة سبع عشرة سنة وذكر التاريخ انه حدث ثلاثون طاغية متسلطنة فى جهات مختلفة فى مدة سلطنة غالينوس وما تداخل الامبراطور فيهم ما داموا فى بعد بعيد من ايطاليا فقال جبون

المؤرخ ان الامبراطور كان أستاذا فى علم تحف ونوادر الا انه ليس على علم نافع فكان خطيبا مستعدا وشاعرا بليغا وبستانيا ماهرا وطباخا ظريفا وملكا لا أهلية فيه فانه ما كان فيه طاقة على فعل شئ زيادة عن كونه اجتهد فى المدافعة عن ايطاليا من المدعين وذلك بانه استيقظ من غفلة كسله عندما أعلنت الفرق العسكرية الموجودة فى الجهات الالريانية قائدها عوريلوس أمبراطورا فسار فى رأسها الى ايطاليا الشمالية فأظهر غاليانوس بدرجة نشاط وشهامة ما كانت تعهد فيه وزحف على خصمه وهزمه فى واقعة سافكة وحصره فى ميلان وفى حالة ما كان مضايقا بالحصار على ميلان استيقظ كبار ضباطه لعدم موافقته ولياقته لمركز مفتاح مروا فى خلعه ثم قتل بيد انسان غير معلوم وقت ركوبه على حصانه ليلا فى سنة ٢٦٨ بعد الميلاد

ومن ابتداء هذا التاريخ انتقلت الامبراطورية الى سلسلة من الحكام أهل شوكة وشهامة وان كانوا جميعا وضيعى المولد من أهالى الاقاليم الموجودة على الدانوب فأحيوا سعادات المملكة مدة من الزمن وأزاحوا عنها أعداءها وأعادوا لها اتحادها الداخلى وذلك أن العساكر منحوا السمو الامبراطورى على كلوديوس أحد قوادهم فمع ثباته وتدبيره ومهارته ضبط الاعمال المؤدية لخراب المملكة مدة من الزمن وظفر بالالمانى وطردهم من ايطاليا فى سنة ٢٦٨ بعد الميلاد وانتصر على الغوطيين فى نواحى موزيا فى السنة التالية ومات فى سنة ٢٧٠ بعد الميلاد فى نواحى صرميوم من بعد سلطنة قليلة محمودة لبثت سنتين فاز فيها بخلاص المملكة مما كان حائقا بها من الاخطار والاهوال وأحياها من العدم مرة أخرى من بعد أن أشرفت على الدمار وأوصى وهو على فراش موته بأن يكون الخليفة من بعده عوريليان أحد قواده لانه كان يرى فيه الكفاءة والاهلية لتمام الاشغال التى ابتدأها بنفسه

وكان عوريليان عسكريا من أهل السعادة مثل سلفه فكان ابن واحد من خدم المزارعين ووصل الى درجة القائد والامبراطور من درجة عسكرى مع أنه كان وضيع الاصل وعلى أى حالة ما كان أهلا للمنصب العالى الذى ارتقى اليه ولبثت سلطنته أربع سنوات وتسعة شهور فكانت من أبهى السلطنات وأجلها فى تاريخ رومة فانه أنهى الحرب الغوطى بتبديده جيوش الغوطيين وقطع دابرهم من بانونية سنة ٢٧٠ بعد الميلاد وطرد الجرمانيين من ايطاليا وأحيا نظام الجيش وقواه ومن ثم صار على غاية من النصر والظفر الذى ناله وكان من سياسته أن جمع القطع المتفرقة من المملكة مع بعضها وأهاج حربا من أجل ذلك على مملكة بالميرا وكان أودناطوس أقام هذه المملكة وشيدها فى سنة ٢٦٤ بعد الميلاد ومد حكمه على سوريا وما جاورها من الممالك ثم قتل فى سنة ٢٦٧ بعد الميلاد وخلفته أرملته زنوبيا نائبة عن أولادها ودبرت المملكة باسمهم وكانت زنوبيا من الابطال المشهورين فى التاريخ فكانت خفيفة الحركة لينة الاعصاب جميلة الصورة شريفة النفس عفيفة محبة للاشغال وأداء الاعمال فى معسكرها ولصيد النمورة والآساد وكانت تتكلم باللسان السورى والجريقى والمصرى ولها دراية تامة بعقاقيرها الشدة مع الرأفة والاقتصاد مع الكرم فى أحكامها وادارتها وكانت لا تظهر الا وعلى رأسها الخودة وكانت تزدرى بمخادع النساء فكانت على الدوام على ظهر حصانها فأسعد عوريليان للاغارة على مملكتها فأعاد منها لسوريا ومصر وآسيا الصغرى والتقى مع جيوشها وهزمها فى ضواحى انطاكيه ثم انتصر جيشها الاصلى فى واقعة حصلت بالقرب مع مدينة حمص وسار الامبراطور خلفها

وحاصر مدينة بالميرا وشدد عليها فى الحصار ثم تسلمها بسبب ماوقع فيها من الجوع والقحط وأرادت زنوبيا النجاة بنفسها خلف الفرات فقبض عليها الامبراطور وحافظ على حياتها لتكون زينة فى موكب نصره وقتل قوابها ووزراءها وقوادها وكان من ضمن المقتولين الفيلسوف ديونسيوس لونغينوس وجرد المدينة من أموالها وخزائنها وارتد راجعا الى ايطاليا فلما وصل بيزانطيوم وردت عليه أخبار الثورة وقيام تدمر وقتل الحاقطين الرومانيين الموجودين بها فقام الغضب فى أم رأسه وأسرع مجدا فى سيره بعساكره حتى دخلها وقتل الاطفال والنساء والطاعنين فى السن والمزارعين وما أبقى شيأ فى المدينة ولا فى الغيطان الا دمره وأما زنوبيا فانها نقلت الى ايطاليا وسارت على أقدامها فى خلخال من الذهب فى موكب نصر الامبراطور عوريليان ثم قضت الباقى من أيام حياتها فى عز وشرف فى محل خاص بها فى ضواحى رومة متمثل أحد أمراء رومة فهذا الذى أجراه عوريليان فى جهة الشرق وأما فى جهة الغرب فان ططريقوس كان زاد فى مملكة بوسطموس باضافته اليها اسبانيا وبريطانيا فعاد عوريليان على هذه المملكة وفى سنة ٢٧٤ بعد الميلاد نجح فى خضوعها وانقيادها لحكمه وكان عوريليان من قبل هذه الحروب حصن العاصمة وحفظها من هجوم المتبربرين عليها ومن وصول غاراتهم اليها على حين غفلة منها وكان تراءى للمتبربرين أن لهم الطاقة على الدخول فى ايطاليا مع الابهة والفخر وشيد عوريليان سورا جديدا فقفل به الضواحى التى استجد فيها البناء وكانت هذه المبانى أقيمت خلف سور سرفيوس طوليوس وتنازل عوريليان للغوطيين والقندال من اقليم داثيه المتجاوز الحد فى البعد عن المملكة وكانت خسائره من طرف المملكة من ابتداء ما أضافه طراجان الى المملكة أكثر بكثير من المنافع الواردة منه وانتقل الرومانيون منه الى جنوب نهر الدانوب ولما دمر عوريليان مملكة ططريقوس استعد فى السير الى نواحى الشرق لتهييج الحرب على فارس فقتله جماعة من ضباطه أطمعهم فى فعل هذه الجريمة الاثيمة كاتب أسراره فى سنة ٢٧٥ بعد الميلاد

وبولد من قتله غضب الجيش ورفض العساكر الترخيص بتعيين أى واحد من ضباطهم فى تقليده لبس الارجوانى وطلبوا من مجلس السناتو تعيين أمبراطور جديد وانتظروا جواب مجلس السناتو ستة شهور مع الصبر وأخيرا عين المجلس كلوديوس طاسيطوس أحد أعضائه وكان ذا ثروة وافرة مهذب الاخلاق عظيم السريرة الا انه كان متقدما جدا فى السن على تقلده هذا السمو فاجتهد طاسيطوس فى عدم قبوله درجة الامبراطورية بالنظر لتقدم سنه فلم يقبل المجلس منه قولا وقلده لبس القميص الارجوانى فتسلطن ستة أشهر وسبعة كانت أعماله فيها احياء الآداب والقوانين التى كانت صدرت فى زمن الجمهورية القديمة ثم دعى الى آسيا الصغرى من أجل اغارة حصلت من قبيلة علنى وهى قبيلة صيطيانية وما كانت له عادة على تحمل مشاق وأتعاب العيشة العسكرية مع أن عمره كان ينيف عن خمس وسبعين سنة وكان لا طاقة له على الاشغال التى وضعت فوق ظهره فغرق جسمه فى بحور مصاعب السفر وحل به التعب والفكر فمات فى طيانه من أعمال قبدوثيا فى سنة ٢٧٦ بعد الميلاد

وبمجرد وصول الاخبار فى رومة بموت الامبراطور تقلد فلوريان أخو طاسيطوس سمو الامبراطورية وألبس الجيش الشرقى قائدهم عوريلوس بروبوس الثوب الارجوانى وصارت الحالة على شرف الوقوع فى حرب داخلى فتجنب عساكر فلوريان هذا الحرب ورفضوا قبول المضار بجمع اخوانهم ثم قتلوه من بعد مضى ثلاثة شهور وصار بروبوس امبراطورا بمفرده وكان بروبوس من أهل صرميوم من

أعمال بانونيه وكان أهلا للبس الارجوانى من مدة مضت فكان قائدا ماهرا وسلطانا صاحب حزم وحمية وشدة عكف نفسه مع الصدق والاستقامة على رفاهية رعيته وافتكر فى نفسه أن له طاقة على المحافظة على تمام هذه الرفاهية بكل من السلم والحرب وفى مدة الفترة التى مضت فى الحرب مع فلوريان سار الفرنج والفندال وقبائل أخرى جرمانية أفواجا ودخلوا الغلية واستحوذوا على سبعين مدينة وتغلبوا على الاقليم فسار بروبوس اليهم وحاربهم وهزم جيوشهم على التوالى وأرغمهم باعادة ما نهبوه من الغنائم والاسلاب وطردهم الى داخل بلادهم وما اكتفى بهذا بل عبر نهر الرين وأجرى حركاته العسكرية على شواطئ نهر نيكار ونهر الالب وأخضع تسعة ملوك من الجرمانيين وأنشأ بروبوس لاجل صد اغارات هذه الامم وحفظ حدود ممالكه سدا بناه بالحجر فى ميدان متسع وطول هذا السد نحو من مائتى ميل يبتدئ من نواحى راطسبون على نهر الدانوب الى ونفين على نهر نيكار وينتهى بنهر الرين وأخضع الصرماطيانيين وأرغم الغوطيين على الانقياد لعقد الصلح وأوقع الرعب فى الجهات الشرقية بقوته وشوكته حتى انقادت له مصر وتدارك الفرس مخالفتهم معه واجتهد فى توطيد ثغور المملكة والمحافظة عليها وأسس مستعمرات من المأسورين فى الحروب ومن مهاجرى القبائل الاغراب ووزع عليهم الاراضى من الجهات الغير المعمورة من ممالكه ووزع عليهم مواشى وآلات زراعة وكل ما يلزم لفلاحة الارض وغراسها ولما استتبت الراحة والامن فى ممالكه التفت الى أمر الزراعة والفلاحة والتجارة وقوى عليها وأسكن الامم المتبربرة الذين كانوا دخلوا فى الحضارة فى مستعمرات فى حدود ممالكه وصاروا هم المحافظين عليها من اخوانهم العديمى الحضارة واستعمل فى أوقات السلم الفرق العسكرية فى أشغال نافعة مثل تصفية المستنقعات والبرك والاراضى النزيه وجعلها صالحة للزراعة وفى حفر الترع والخلجان وبناء القناطر وانشاء السدود وغرس الكروم وعموم أشغال الفلاحة والزراعة وحالما كان مشتغلا بغرس كروم فى جبل علمه وتصفية مياه مستنقعة بالقرب منه فقد العساكر صبرهم فى هذا الشغل من شدة حر الشمس وقاموا فى ثورة وقتلوه فى السنة السادسة من سلطنته ومن بعد قتله فى سنة ٢٨٢ بعد الميلاد ندموا على ما فعلوا واحتفلوا بدفن جثته وبنوا عليه بنيانا تذكارا له ونقشوا على رخامه بروبوس الامبراطور عدل فاتح المتبربرين وقامع الغاصبين ثم جعل العساكر كاروس القائد النائب أمبراطورا فعين ولديه كارينوس ونوميريانوس فى وظيفة القياصرة وأشرك كارينوس معه فى حكم المملكة وترك له حكومة الغرب وسافر كاروس الى الشرق وأخذ معه ابنه الاصغر وانتقل الى الريقوم فهزم الصرماطيانيين ثم أغار على الممالك الفارسية وأخضع ميزوبوتاميا وتغلب على مدينتى صلوصيه وقطزيفون (المدائن) العاصمة القديمة الفارسية وعبر نهر الدجلة ولما أشرفت المملكة الفارسية على الخراب من حروبه مات من علل وأمراض أصابته على قول بعض المؤرخين أو أصابته صاعقة محقت حياته على قول آخرين فى سنة ٢٨٣ بعد الميلاد فتولد من المخاوف الخرافية التى تسلطنت فى قلوب العساكر الرومانية من هذا الموت الذى أصاب الامبراطور بغتة أن قاموا وألزموا نوميريانوس بالقهقرة والعود فى داخل حدود الممالك الرومانية وفى أثناء هذا السير ذبحه حوموما فى ذلك تيسر الحصول على ضبط التخت الا أن الفرق العسكرية بمجرد كشفهم هذه الجريمة القبيحة ألبسوا دوقلطيان قائد عساكر الخفر الامبراطورى الثوب الارجوانى فقتل قاتل نوميريانوس بيده وسار الى الجهة الغربية وفى أثناء هذه المدة انهمك كارينوس فى الفجور والموبقات والفسق

والسفاهة حتى تولد له من ذلك كراهته عند عموم أهل الدنيا الغربية ولما سمع بتقدم دوقلطيان سار فى رأس جيش كثيف لمقابلته وحصلت بينهما واقعة فى نواحى موزيا انهزم فيها جيش دوقلطيان الا أن كارينوس قتل فى أثناء هذا النصر والذى قتله واحد من ضباط عسكره كان حصل له منه الضرر والاذى ورضيت عساكر كارينوس بامبراطورية دوقلطيان فى سنة ٢٨٥ بعد الميلاد

وكان دوقلطيان من سلسلة عائلة دنيئة جدا من دلماطيه وولد فى ضواحى مدينة سالونه وكان عمره أربعين سنة لما وصل الى درجة أمبراطورية المملكة فى ظرف سنة ٢٨٥ بعد الميلاد وتعرف هذه السنة فى الحسابات التاريخية بتاريخ دوقلطيان وتعرف أيضا بتاريخ الشهداء بسبب ما أوقعه دوقلطيان من الظلم والجور والقتل فى كبار أرباب الديانة من المسيحيين وحرق كنائسهم ومعابدهم وكانت مستعملة تاريخا عند كتاب المسيحيين من بعد أن صرفوا النظر عن تاريخ سنة أوقطافيوس أوغسطوس ولحد الآن جار استعمال التواريخ من هذه السنة عند الحبشة والقبط من مصر ويولد من جلوس دوقلطيان على تخت المملكة عصر جديد فى تاريخها وذلك انه لغاية الآن من ابتداء موت كومودوس كانت سلطنة الامبراطورات فى غاية من الاشكال والتعقيد بما هو حاصل من وقاحة الفرق العسكرية من تقليد امبراطور وخلع آخر بزعم أن لهم الحق فى التقليد والخلع وكذا بواسطة النفوذ القانونى الذى خصوا به مجلس السناتو ومن ثم كان الجيش فتح مسئلة لا انقضاء لها ولا حل ومنها تمكن الخراب والدمار فى المملكة الرومانية من قبل أن يأتى اليها الخطر والاذى المهدد لها من الامم المتبربرة الهمجية بمدة طويلة فأدخل دوقلطيان طائفة العسكرية تحت نظام قواعد قوانين ثابتة وفى مدة سلطنته الشديدة حصل التغيير وتقوية ادارة الحكومة ونفوذها وعرف الجيش حقيقة موقعه وانه خادم المملكة الا انه ما حصل اتمام الاصلاحات والنظامات التى ابتدأ فيها دوقلطيان لحد سلطنة قنسطنطين نعم انه حصل منها نتائج تقوية الحكومة الامبراطورية وحصل منها شوكة جديدة للمملكة فى الوقت الا انها دعت الى تقسيم المملكة وصارت القسمة مسئلة الوقت الحاضر وذهب دوقلطيان مذهب التقسيم لقصد المحافظة على المملكة وعلى نفس الامبراطور وتوطيد نظام عقد الخلافة على التخت

ولما وطد دوقلطيان حكومته فى سنة ٢٨٦ بعد الميلاد شرع فى أعماله على حسب ما كان يؤمله من تقليل أو ازالة المضار والآفات الموجودة فنقل تخت حكومته فى عاصمة نيقوميديا الطريفة فاعلة بسنيا وجعلها دار مقره وفى هذه المدينة فى السنة الثالثة من سلطنته انتخب رجلا عسكريا فلاحا غليظا اسمه عوريلوس فلريوس مكسيميانوس وكان أحد قواده وأشركه معه فى حكم المملكة وكان مكسيميان ترقى فى الرتب بالدرجات وقل أن يكون الا قائدا عظيما وألبسه الزى ولقبه أوغسطوس وقسم المملكة من دون تجزئة بينهما فأخذ دوقلطيان الشرق وأخذ مكسيميان الغرب ومن بعد مضى ست سنوات زادت الاخطار والمصاعب فحصل العزم على أن كلا من الامبراطورين ينتخب لنفسه تابعا يكون خليفة له تحت لقب قيصر وأن يكون القيصران من شبان الرجال ذوى النشاط والطاقة على الاشغال يتكفلان بالاحكام والاقاليم المعرضة لغارات المتبربرين وفى سنة ٢٩٢ بعد الميلاد تشكلت هذه الادارة الرباعية وتعين قسطنطيوس كلوروس مساعدا مع مكسيميان وغالريوس مع دوقلطيان وكان دوقلطيان رأس الاتحاد الرباعى ولما قبل الاثنان قسطنطيوس وغالريوس منصة

هذا

هذا الشرف عليهما ظلفاز وجهما وتزوجا على التوالى ابنة وربيبة أوليائهما ثم قسم دوقلطيان المملكة بين هؤلاء الاربعة ملوك فجعل لمكسيميان ولنفسه الاقاليم المعمورة وأفاض على الاثنين قيصرية الاقاليم التى تحتاج للشبان ومن هو أكثر نشاطا فى الاشغال فأعطى قنسطنطيوس أقاليم الغلية واسبانيا وبريطانيا مع شغل محافظة الرين الاسفل من اغارة الجرمانيين وأعطى غاليريوس الاقاليم الدانوبية نوريقوم وبانونيه وموزيا وجعل لمكسيميان ايطاليا وافريقه وأبقى لنفسه تراسه ومقدونيا ومصر والشرق وكان مشروع قاعدة هذا التقسيم حفظ اتحاد المملكة وبقائها فكانت القياصرة تراعى رياسة الاوغسطوسية عليها وكان مكسيميان مقوى فى ذاته بنفوذ لفظة أوغسطوس واستمر هذا الترتيب المعقد جاريا فى مدة حياة دوقلطيان لما ان نفوذه وسلطة شوكته كانت كافية فى بقاء الموازنة والتعادل فى المملكة

ومن بعد تمام هذا الترتيب ظهرت نتائج هذه الطريقة الجديدة وذلك أن الشوكة نزعت من أيدى قواد طائفة العسكرية وآلت الى عائلة ملوكية دولية وحصل من قاعدة الاشتراك التى استصوبت على منوال كبير ثبات الحكومة وتدبير أعمالها تحت قواعد قوية وتدونت نظامات وترتيبات جديدة مختلفة الهيئة جميعها موافق للحكومة الاستبدادية وزال نفوذ مجلس السناتو بالكلية وانقرض المنع والصد الذى كان يجرى به هذا المجلس لحد هذا الوقت ومع أن أعمال هذا المجلس كانت عبثا وعلى حسب أغراض الحكم الاستبدادى الواقع من طرف الامبراطورات الا انه لاريب فى انه كان يفعل اجراآت نافعة قليلا عن الحاجة الشديدة وانتقلت دواوين الاحكام من رومة الى مدائن أخرى فكانت مدينة دوقلطيان نيقوميديا ومدينة مكسيميان ميلان عاصمة مملكته ومقر غاليريوس مدينة صرميوم ومقر قنسطنطيوس مدينة طريڤس ولما ألغيت رومة من أن تكون عاصمة للمملكة الرومانية صار مجلس السناتو عبارة عن مجلس دائرة بلدية يباشر أشغال مدينة واحدة من مدائن أقاليم المملكة ولما لم تعط امتيازاته التى تجردمنها الى مجلس غيره صار الامبراطور وحده منبع القانون والشرف ورأس الحكومة والسلطنة وقلل دوقلطيان عدد قواد طائفة العسكرية احترازا من مداخلتهم ومن عدم حفظهم معسكرهم فى نواحى رومة ولئلا يكون لهم طاقة على سن قوانين أو اجراء مشروعات ضد الامبراطورات وعزم على كسر شوكتهم بالكلية الا أن الذى تمم هذا الشغل قنسطنطين وزيادة على ذلك فان تعدد الامبراطورات وأخذ الاحتياطات التى أجريت فى شأن حفظ التخت وتوطيد سلامته كل هذا صير درجة الامبراطورية ومقامها بعيدا عن الاخطار والمضار التى كانت حاصلة من سطوة العسكرية

وفى سنة ٢٨٦ بعد الميلاد انفجرت ثورة فى بريطانيا وذلك أن كاروسيوس أحد قواد البحرية كانت عهدت اليه قيادة محافظة سواحل بريطانيا والغلية وأسطول كبير فعصى على الامبراطور ولما انتصر على العساكر الموجودة فى بريطانيا ضبط هذه الجزيرة وجعلها مملكة مستقلة وزاد فى عمارته البحرية وأنشأ مراكب وسفنا جديدة وجعل نفسه سيد البحور الغربية فبذل دوقلطيان ومكسيميان جهدهما وفعلا الافعال الشديدة العنيفة فى قمعه وانقياده الا أن ما فعلاه كان على غير طائل وألزمهما أخيرا على قبولهما بان يكون رفيقا لهما مع لقب أوغسطوس فى سنة ٢٨٧ بعد الميلاد ولما تعين قنسطنطيوس قيصرا وأعطيت له الاقاليم الغربية هيج حربا على كاروسيوس فى سنة ٢٩٢ بعد

الميلاد وتغلب على بولونيه من بعد حصار طويل واستعد لغزو بريطانيا والاغارة عليها فوردت عليه الاخبار بذبح كاروسيوس بواسطة رئيس من ضباطها اسمه علقطوس فى سنة ٢٩٣ بعد الميلاد وفى سنة ٢٩٦ بعد الميلاد نزل قنسطنطيوس فى بريطانيا وهزم علقطوس وأعاد الجزيرة السلطنة الرومانية وطرد الجرمانيين فى السنة التالية من الغلية وأسكن أسراه فى مستعمرات على الاراضى التى كانوا خربوها وانفجرت ثورة فى أفريقه فذهب مكسيميان بنفسه الى افريقه وأخمد هذه الثورة وأعاد النظام فيها وكانت سلطنة دوقلطيان احدى المزعجات الشديدة المؤلمة المكدرة على قليلى البخت المصريين فانه فى السنة الرابعة من سلطنته قام أهل الصعيد الاعلى فى حرب عدوانى على الحكومة الرومانية ولقبوا شخصا منهم اسمه اشيلوس وكان زعيم الثورة امبراطورا فساق غاليريوس القائد الرومانى جيشا على العصاة وسار من وسط أراضى طيوة فغ ان المصريين تبدد أمرهم فى كل جهة دافعوا فيها مع الجراءة والجسارة وقت لقائهم الفرق العسكرية فى الوقائع الحربية الا انه ماصار حطم الثورة على حسب اللزوم مع السهولة فانه ما كان منقادا للرومانيين الا من كان بالقرب من معسكرهم وفى السنة الرابعة من الثورة وصل الامبراطور دوقلطيان نفسه الى مصر وحاصر كلا من مدينتى قفط وبوزيريس ودمرهما من بعد حصار منتظم أجراه عليهما ولما وصل دوقلطيان الحدود الجنوبية من مصر حكم بنفسه على ماهو حاصل فى هذه الجهات من المصاعب والاغارات ورأى انه لافائدة فى الحقيقة فى الاجتهاد والسعى فى ضبط أى قطعة من اتيوبيه ووجد أن الخراج الجارى جمعه من هذه الجهة أقل بكثير من تكاليف ونفقة العساكر الموظفة لجمعه وجبايته فعقد محالفة جديدة مع نوبطيا وترك لها كافة أراضيها فى نوبيا وقوى الاستحكامات الموجودة فى جزيرة الفنطين وجعلها نقطة خفر الحدود واتفق على أن يدفع سنويا مقدارا من الذهب لرؤساء قبائل صحارى النوبة حتى كفوا عن الاغارة على مصر من الجهة الجنوبية ورجع قافلا الى عاصمته

ثم تولد بين جريق الاسكندرية فى المصريين ثورة أخرى وقام الاسكندرانيون بمحاججهم ونادوا على اشيلوس بالامبراطورية فعاد دوقلطيان مرة ثانية لاخضاع هذه العاصمة الكبيرة وكان العصاة أحكموا أمرها حتى صار لا يمكن التغلب عليها الا بهجوم منتظم فاحاطها دوقلطيان بسور وخندق وقطع عنها مجارى المياه وما تحتاجه من المؤن ومن بعد حصار طويل استمر ثمان شهور تغلب دوقلطيان عليها بالهجوم عنوة وقبض على أشيلوس وقتله وعزم على عقاب أهل المدينة وعذابهم وانحرق قسم عظيم من المدينة فى وقت الهجوم عليها عنوة وعند دخول الامبراطور فى المدينة راكبا على حصانه عثر الحصان ووقفت العساكر بغتة فعرف دوقلطيان أن ذلك أمر نزل من السماء بعدم معاقبة أهل المدينة فانشرحت صدور أهل المدينة من وقوع هذه الحادثة وأقاموا فى ميدان الواقعة الذى عثر فيه الحصان تمثالا من البرنز على صورة الحصان وفوقه الامبراطور وحلوه بأنواع النقوشات تذكارا لهذه الحالة وقيل ان الاسكندرانيين أقاموا العمود المسمى الآن عمود بومبى أو عمود السوارى ونصبوا فوق رأسه هذا التمثال ونقشوا على قاعدته بجلالة الامبراطور الاعظم معتق أهل الاسكندرية الامبراطور الذى لا يغلب دوقلطيان وفى قول آخر ان الامبراطور لما تغلب على الاسكندرية عنوة وقتل امبراطورها اشيلوس خصمه عاقب سكانها بذبحة عامة قتل فيها ألوفا من الارواح والانفس وأما غاليريوس فانه كان مشغولا من عدة سنين بالمدافعة عن الثغر الدانوبى الذى عهد اليه ثم فى سنة ٢٩٧ بعد الميلاد عبر الى

الشرق وأغار على فارس فانهزم في مبدأ أمره شرهزيمة وخسر خسارات جسيمة ثم جمع جيشا جديدا وهزم نرسي ملك فارس حتى ألزمه على عقد صلح بشروط موافقة لرغبة الرومانيين في سنة ٢٩٨ بعد الميلاد ثم ابتدأت مضار الطريقة التي أجراها دوقلطيان في نحو غلاق سلطنته وذلك أنه تولد من ترتيب أربع دواوين امبراطورية بدل ديوان واحد كثرة تعدد الحكام والضباط والجيوش وازداد بذلك مقدار الضرائب والخراج حتى ثقلت أحمال الضرائب وانهرست الاقاليم تحت أثقال الخراج الذي ربط عليها وصارت جباية الاموال من الاهالي من الصعب فكان الحكام تارة يستعملون الشدة وتارة يستعملون العذاب حتى يمكنهم الحصول على جباية الاموال فمن ثم غرقت الحرف والاشغال تحت عباب هذه الطريقة وحرمت الصنائع من المكاسب وأخذت المحصولات في النقص الفاحش وارتفعت أسعار كل شيء موجود فاجتهد دوقلطيان في سنة ٣٠١ بعد الميلاد في زوال هذا الضرر وأصدر لائحة تتضمن النهاية الكبرى لقيمة وسعر الاشياء الموجودة اللازمة لاحتياجات معيشة وراحة الاهل فدخل هذا المنشور طبعا في أشغال قوانين التجارة ففسدت الحالة المقصودة من هذا القانون وما حصل من هذه اللائحة الا الزيادة في الاذى والضرر الذي أراد دوقلطيان مداواة علله

وتولد من سرعة انتشار الديانة المسيحية في الممالك الرومانية خوف وارتعاب لدوقلطيان وكان هذا في نحو غلاق سلطنته وكان دخل فيها ما ينيف عن النصف من رعيته فصمم على ضربها آخر ضربة معتقدا فيها دمارها وزوالها فاصدر في سنة ٣٠٣ بعد الميلاد أمرا يقضي بتنظيم العبادة الدينية في كافة أنحاء المملكة فكان المسيحيون مشهورين بأنهم أهل نظام وثقة ورعايا على صداقة تامة للامبراطور فتولد من رفضهم الامر الصادر منه القاضي بارتدادهم عن دينهم خروجهم عن حوزة القانون الامبراطوري وعدم الانقياد لطاعته فهيج حربا مفنيا عليهم وقتل منهم ألوفا في كل اقليم من ممالكه وضبط أملاكهم وعقاراتهم وهدمت كنائسهم ومعابدهم وصوامعهم وما أصاب المسيحيين الموجودين في الطرف الغربي تحت حكومة الجنير المتنور قنسطنطيوس أدنى أذى من أعدائهم ومع ما كان المسيحيون فيه من القتل والدمار والجور والتعدي الذي صاروا عرضة له فانهم استمروا بالقوة الفعالة في انتشار دينهم ووظفوا بدل الذين قتلوا منهم آخرين في المصالح الديانية ودخل في الدين كثير من الناس بدل الذين استشهدوا وماتوا على دينهم

وفي سنة ٣٠٥ بعد الميلاد كل دوقلطيان وتعب من المحاذرة والاجتهاد في علو درجته فتنازل عن التخت وألزم مكسميان بالتنازل أيضا مثله ومن ثم صار كل من غاليريوس وقنسطنطيوس اغسطوسين ووظف غاليريوس في الوقت كلا من مكسمين وسفروس قيصرين فتولد من هذا التوظيف غضب شديد في الفرق العسكرية الموجودة في بريطانيا واستقبحوا فعل قنسطنطيوس في عدم انتخابه قائدهم خليفة من بعده وبمجرد موته أعلنوا ابنه قنسطنطين خليفة من بعده فقاسي غاليريوس في مقاومته هذا التعدي الذي حصل على النظام الجديد الجاري العمل على موجبه في الممالك الرومانية وأقر قنسطنطين على القيصرية ورفع سفريوس الى درجة الاغسطوية ومن ثم حفظ نظام عقد الامبراطورية فوطد قنسطنطين ممالك أبيه في الجهة الغربية وكان عند سفريوس ايطاليا وافريقة وعند مكسمين سوريا ومصر وأبقى غاليريوس لنفسه جميع الاقليم الكائن بين الغلية وسوريا ومقداره ثلاثة أرباع المملكة

ونشأ من فقدوا نقراض صيت رومة وشهرة اسمها بسبب تقسيم المملكة وقيام عواصم جديدة كانت مقرا الحكومات تولد الكراهة الشديدة عند الايطاليانيين وقام النفور بين أعينهم فانفجرت منهم ثورة عدوانية فى سنة ٣٠٧ بعد الميلاد فعين السناتو مكسنطيوس بن مكسميان امبراطورا وانضم مكسميان مع ابنه واستلم زمام الاوغسطوية وكان تنازل عنها بأمر دوقلطيان فاسرع سقروس الى رومة واجتهد فى اخماد الثورة فتركه عساكره فقتل نفسه بنفسه واتحد مكسنطيوس ومكسميان مع قنسطنطين وصار لهم الطاقة الكبيرة على هزيمة القوى التى وجهها غاليريوس بخصوص اخضاع ايطاليا وألزموا غاليريوس بالتقهقر والانسحاب الى جهة الشرق وفى سنة ٣٠٩ بعد الميلاد حصل الاتفاق بعمل نظام صارت به المملكة محكومة بست امبراطورات وهم قنسطنطين ومكسميان ومكسنطيوس فى جهة الغرب وغاليريوس ومكسمين وليثنيوس فى جهة الشرق وكان ليثنيوس ارتقى الى درجة القيصرية بمعرفة غاليريوس لمامات سقروس

واستمر هذا الترتيب بضع سنين فقط وكان حصل الارتباك فيه فى الابتداء بمشاحنة وقعت بين مكسنطيوس وأبيه فالتزم مكسميان على الهرب من ابنه الى ديوان قنسطنطين وكان متزوجا فقابله قنسطنطين أعظم مقابلة فى الاول وحياه ورحب به ثم ظهرت عليه خيانة كان يرغب بها خلع زوج ابنته فقتله فى سنة ٣١٠ بعد الميلاد ومات فى السنة التالية غاليريوس فى مدينة نيقوميديا وكان غاليريوس من أشد الظالمين الجائرين على المسيحيين زيادة عن دوقلطيانوس ومن ثم صارت الدنيا الرومانية محصورة فى يد أربع امبراطورات هم قنسطنطين فى الغرب ومكسنطيوس فى ايطاليا وافريقه وليثنيوس فى الريقوم وتراسة ومكسمين فى مصر وآسيا فأما مكسنطيوس فانه أغضب رعاياه ونفروا منه بسبب ما أجراه معهم من الجور والظلم فاستغاثوا بقنسطنطين فى طرده عن التخت وأن يضم ايطاليا وافريقه الى ممالكه وكان قنسطنطين أثبت لنفسه مهارة القيادة والبسالة بما ظهر منه من ظفره ونصرته فى مقاومة الفرنج والالمانى حتى أبعدهم عن الغلبة وبواسطة محافظته على المسيحيين وحقوقهم نال الثناء والمحبة عند اخوانهم فى جهات عموم المملكة وكان يجتهد كثيرا فى الحيادة عن الحرب والبعد عنه لكنه لما وجد مكسنطيوس شارعا فى الاستعداد على الاغارة على الغلبة سبقه قنسطنطين ودخل ايطاليا فى رأس ٤٠٠٠٠ نفس وعبر الالب من درب جبل ثنيس من دون مقاومة ولا مناضلة فانفصل الحرب بقوة قنسطنطين وسرعة حركات العسكرية وهزيمة خصمه فى واقعتين واحدة بالقرب من فيرونه والاخرى عند باب الاعمدة فى رومة وجعل نفسه سيد رومة وايطاليا وغرق مكسنطيوس فى نهر الطيبر فى أثناء الواقعة الاخيرة وأسرع قنسطنطين فى ربط علاقات ممالكه مع بعضها فكان أول عمل أجراه هو تفريق طائفة الخفر العسكرى الموجود فى رومة وكان مكسنطيوس زاد فى قوته حتى بلغ نحو من ٨٠٠٠ نفس ومن تفريقه هذه القوة جرد مجلس السناتو مما كان فيه من آثار السمو والرفعة التى كانت باقية عنده وكذا جرد رومة من القوة التى كان يخشى منها فى تنفيذ أغراضه ومقاومتها له وكان ذلك فى سنة ٣١٢ بعد الميلاد

وفى السنة التالية انتشب حرب فى جهة الشرق بين ليثنيوس ومكسمين فانهزم مكسمين فى واقعة كبيرة حصلت بالقرب من هرقلية ومن بعد مضى قليل قتل مكسمين نفسه بنفسه وترك الى ليثنيوس سيادة الشرق بمفرده فلم يستكف ليثنيوس بهذه النصرة والغلبة بل رغب أيضا فى طرد قنسطنطين من الغرب

وبواسطه

و بواسطة ما أجراه من الدسائس هيج حربا على عدوه فى سنة ٣١٤ بعد الميلاد فانهزم ليثينوس والتزم على أن يتنازل عن بانونيه وايلريقوم وموزيا ومقدونيا والجريس لقنسطنطين فى سنة ٣١٥ بعد الميلاد ثم أعقب ذلك سلم لبث سبع سنوات ونكثه قنسطنطين بطمعه وعزمه على أن يكون سيد الدنيا الرومانية فجرد على ليثينوس وهزمه مرة أخرى ووقع ليثينوس فى يد قنسطنطين فقتله فى سنة ٣٢٢ بعد الميلاد

وصار قنسطنطين فى هذه الحالة السيد الوحيد فى المملكة الرومانية وحاز لنفسه لقب (الاكبر) فجمع أقسام المملكة وأجزاءها مرة ثانية الى بعضها وأشهر نجاحه ومظفراته بالحادثة العظيمة التى حصلت فى سلطنته وهى أن جعل الديانة المسيحية دين المملكة وأصدر فى سنة ٣١٣ بعد الميلاد منشورا عرف بمنشور ميلان متكفلا للمسيحيين بالمساواة مع رعاياه الآخرين والمحافظة على كامل حقوقهم وبناء على هذا المنشور قال عوزبيوس أسقف قيصرية والعهدة عليه فى هذا انه فى أثناء حركة قنسطنطين فى واحدة من حركاته محاربا مكسنطيوس رأى قنسطنطين بعينيه علامة النصر لامعة من الصليب مكتوبة أو منقوشة فوق مدار الخط الجانبى لدوران الشمس وكان نقشها بهذا يتم الفتح أى بقنسطنطين يكون الفتح فاستغرب قنسطنطين واندهش الجيش من رؤية هذه الآية العجيبة وكان قنسطنطين على غير أفكار من التمسك بالديانة المسيحية فتولد من عجبه لهذا الامر دخوله فى هذا الدين من رؤية رآها فى منامه فى الليلة التالية وذلك أنه رأى المسيح واقفا أمامه فى صورة العلامة السماوية التى كان رآها الصليب وأمر قنسطنطين بعمل بيرق مثلها وسير على مكسنطيوس متوجا بتاج النصر على غيره من كافة أعدائه وهذه الحكاية مسندة فى حكمها الى عوزبيوس وزعم المذكور أنه سمعها من نفس فم قنسطنطين وكان أبو قنسطنطين يظهر الميل والمعروف والكرم نحو المسيحيين ويحترم ماهم عليه من الفضائل والعقائد الديانية ومال اليهم بخيره ومعروفه وترعرع ابنه قنسطنطين محافظا على عقائدهم ومن ثم صار لا عجب فى دخوله أخيرا فى هذه الديانة وحضانة أهلها وما حصلت منه نه بمجرد دخوله فى الديانة بل أذاع قبوله واستصوابه العقائد المسيحية والدخول فى الديانة جهرة وفى سنة ٣٢٤ بعد الميلاد فصل مسائل الديانة وأحكامها بان جعلها ديانة المملكة وأشار على كافة رعاياه بالسير على منواله وأن يكونوا أسوة به من دون بطء فى الدخول فى الديانة المسيحية الحقة وفى نفس هذا الوقت سمح للوثنيين من رعاياه باجراء شعائر دياناتهم من دون خوف عليهم غير أنه ظهر للوثنيين أن الاسوة بالامبراطور واكتساب التفاته وخيره هو أجل وأعظم فترك الالوف منهم الديانة الوثنية ودخلوا فى هذا الدين الجديد وأما طوائف التألف والعمران الواطية فمن حيث انها محكومة باحكام التشابه والتقليد صار لا حاجة لدخولهم فى الديانة بالنسبة لشرفهم فى المولد أو رفيع الدرجة أو ثروة الاموال بل دخلوا فيها أفواجا وما كانت شوكة قنسطنطين وأعماله مقصورة فى حدود حياته مثل أسلافه فى ممالكه بل وعلى التربية والتهذيب الذى أفاضه على أولاده وأولاد اخوته وتولد من اغداقه على عائلته بجودة التربية أن حفظ للمملكة سلسلة من الملوك كانوا على ذمة وتقوى فى الدين وعلى صداقة لرعاياهم حسبما جبلوا عليه من التربية فى أيام طفوليتهم والشوكة التى حازوها وعلو الدولة لاسيما العقيدة المسيحية وتولد من الحروب نشر المعارف الانجيلية ومن التجارة ونشر علاقاتها انتشار الديانة المسيحية وراء تخوم الاقاليم الرومانية وعرف الامم المتبربرة الذين كانوا عاكفين على عقائد

الديانة الوثنية الدنيئة مقدار الديانة التى دخل فيها أكبر ممالك وأعظم أمة متمدنة فى عالم الكرة وما بحث قنسطنطين عن معمدة نفسه الى حد قرب حياته الا أنه كان رئيس المجلس الاول العمومى الذى التأم فى نيخيا من أعمال بسنيا بامره فى سنة ٣٢٥ بعد الميلاد من أجل ما حصل فى الديانة المسيحية من الاختلافات والمناقضات بين أحبارها وعلمائها وكانت أصل المشاحنة بين اسكندر قسيس الاسكندرية وقسيس آخر اسمه اريوس فى مسئلة هل الابن من جوهر الاب أو من جوهر مشابه له وكان اسكندر أسقف الاسكندرية قرر أن الابن والاب من جوهر واحد وأما اريوس فكان مخالفا لعقيدة رئيسه وقرر بان الابن ليس من جوهر الاب فحصل بين الاثنين مشاحنة انقسم فيها أهل مصر والاسكندرية المسيحيون الى حزبين متباغضين ووقعت بينهما مشاحنات طويلة حتى عرض عنها اسكندر أسقف الاسكندرية الى الامبراطور قنسطنطين فكان الجواب الذى كتبه قنسطنطين جواب رجل سياسى دقيق النظر فى أشغال ممالكه وكانت هذه المسئلة وأمثالها ما عرضت على أحد من الملوك اسلافه خلافه فقال لهما فى جوابين لكل واحد منهما انهما أبرزا مسائل بين العالم لا فائدة فيها ولا احتياج للحكم والفصل فيها ولو أنها مقوية فى احياء العقائد الضعيفة فكان الواجب اخفاءها فى الصدور وعدم نشرها وتولد الشقاق منها والتحزب عليها وتأسف من هذا التعصب الديانى الذى حل بمصر وجعل أهلها فى ارتباك بينهم وأمر الاسقف اسكندر بعدم سؤال القسيس اريوس مرة أخرى فيما يعتقده من عقائده وأمر أريوس بعدم رد الجواب ان وصل اليه أى سؤال من طرف الاسقف فما وقعت هذه الاوامر موقع القبول عند العقائد الاسكندرانية وأخذت المشاحنات والمنازعات مأخذها حتى ارتبكت منها الحكومة المحلية من ابتداء وصولها الى مسامع الامبراطور فدخل الامبراطور أخيرا فيها وأمر بعقد مجلس من أجل فصل هذه المسئلة الديانية وانتخب مدينة نيخيا من أعمال بسنيا محل الالتئام فاجتمع فى هذا المجلس من الاقاليم الشرقية مائتان وخمسون أسقفا خلاف ما يتبعهم من زحام القسس والرهبان وكان تحت رياسة نفس الامبراطور قنسطنطين فكانت نتيجته القرار بان الاب والابن من جوهر واحد وصدر بذلك أمر الامبراطور الى كافة أقاليم المملكة وأمر آخر بنفى أريوس وأتباعه من الاسكندرية وكان الاساقفة الذين حضروا فى هذا المجلس من الجريس وتراسة وآسيا الصغرى وسوريا وبلاد العرب ومصر وليبيا وواحد أو اثنان من أوروبا الغربية وعرف منشور المجلس بمنشور نيخيا

وما تنازل قنسطنطين عما كان عليه من دعوى الملوك الرومانية فى محافظته على استمرار أن له الحق فى مباشرته المسائل الدينية والدنيوية وعامل أعضاء هذا المجلس بكل ما أمكنه من درجات الوقار والاحترام وقال آخرون انه ما قبل التصريح فى التعدى على أريوس وأتباعه عند ما صدر أمر المجلس فى حقهم بعقاب النفى وأمر بابطال جميع الشعائر التى كانت مخلدة عند أهل الديانة الوثنية وسن قوانين جديدة شديدة بمنع هذه الشعائر حصل منها الضرر الاكبر للديانة الوثنية لما لم يقبل أربابها أوامر الامبراطور وفى مدة قنسطنطين وقعت الضربة الاخيرة على العاصمة القديمة للمملكة وقضى الامر بان لا تكون رومة مركزا وعاصمة للحكومة الرومانية وانتقلت منها السلطنة الى مدينة جديدة بناها الامبراطور على أطلال بيزانطيوم الجريقية وسماها على اسمه تخليد الذكره باسم القنسطنطينية وقسم المملكة الى أربع نيابات وهى الغلية ومعها اسبانيا وبريطانيا ثم ايطاليا ومعها افريقه وريطه وبانونيه

ونيريقوم

ونير يقوم ودلماطيه ثم الريقوم ومعهاداتيه (بلغارية الآن) ومقدونيا ثم نيابة الشرق وتشتمل مصر وتراسة وجميع الممالك الموجودة فى آسيا وقسم كل نيابة الى عدة مديريات وكل مديرية الى عدة أخطاط ومن ثم احتاج تقسيم المملكة لتشكيل ثلاث درجات من الحكام محصورفيها درجة شرف المملكة وكانت هيئات جمهوريات الاحكام القديمة خفيت منذ زمن طويل فساعى قسطنطين فى احيائها مرة أخرى ورتب دواوينه على منوال موافق لمنوال الهيئات الشرقية لا الهيئات الغربية فدخل بين الملك والامة فواصل عديدة من الحكام ورتب الجيش بأن زاد فى عدده عساكره وقلل فى قوته بواسطة نقص عدد الفرق العسكرية فكان عدد نفوس الجيش المخصوص بالمحافظة على ثغور المملكة وحدودها ٦٤٥٠٠٠ نفس فكان معظم هذه القوة من مستأجرى الامم المتبربرة على الخصوص لان التبعة الرومانية فقدوا الذمعظم الحروب

وكان قسطنطين رفع درجة ابنه الاكبر كريسپوس الى القيصرية وعمره سبع عشرة سنة فكان محبوبا عند الامة فتولد عند قسطنطين من هذه المحبة غيرته منه وحسده له فقصد كريسپوس خيانة أبيه وساعده ابن أخيه ليثينوس وشابان آخران فجلبوا جميعا للمحاكمة وقتلوا فى سنة ٣٢٦ بعد الميلاد هذا قول بعض المؤرخين وقال آخرون ان جريمة قتلهم لم تعلم أحصل منهم خيانة فعلا أو كان قتلهم بسبب الحسد والغيرة فقط

وكانت سنو قسطنطين الاخيرة معكرة ومكدرة بما حصل فيها من تعدى الامم المتبربرة الموجودة فى شمال الدانوب وذلك أن الغوطيين أغاروا على السرماطيانيين وانتصروا عليهم فتوسلوا بمساعدة الرومانيين فبرز قسطنطين بنفسه الى الميدان والتقى الغوطيون وهزمهم شرهزيمة ولما قسم غنائمهم خص السرماطيانيين القليل منها فغضب السرماطيانيون من هذه القسمة وأخذوا بثأرهم لانفسهم بكونهم أغاروا على الاراضى الرومانية بصفة سلب ونهب لا بصفة تملك واستحواذ فسمح قسطنطين للغوطيين بالاغارة عليهم وسلب أملاكهم جزاء بما فعلوا ثم أعقب هذه الآفة ثورة أخرى من الرقيق التزم فيها السرماطيانيون على الانجلاء من أراضيهم والالتجاء فى داخل أراضى المملكة الرومانية فعين الامبراطور لبعضهم أراضى فى ايطاليا وفى مقدونيا وتراسة وبانونية وكانوا نحوا من ٣٠٠٠٠٠ نفس فى سنة ٣٣٤ بعد الميلاد ثم ان قسطنطين رفع ابنه الثالث قسطنس وابن أخيه دلماطوس الى وظيفة القيصرية على أمل توطيد الأمن واستتباب الراحة فى المملكة وكذا رفع درجة ابن أخ آخر له اسمه حنبااليانوس الى درجة ريكس أى ملك وقسم حكومة الاقاليم المختلفة للمملكة بين أولاده الثلاث وأولاد اخوته ومات فى مدينة نيقوميديه فى يوم ٢٢ مايه من سنة ٣٣٧ بعد الميلاد من بعد أن تسلطن نحوا من احدى وثلاثين سنة

ومن بعد موت قسطنطين ضبط ابنه الثانى قسطنطيوس العاصمة وقتل الذين فيهم الكفاءة والطاقة على أن يمدوا أيديهم له بسوء كأنهم أعداء له ولم ينج من أعمامه الا غالوس ويوليان وبهذا انقسمت المملكة بين أولاد قسطنطين الثلاثة فخص قسطنطين الثانى وهو الكبير فيهم العاصمة والغلية واسبانيا وبريطانيا وأخذ قسطنطيوس تراسة والشرق وخص قسطان ايطاليا وافريقة والريقوم الغربية فما اكتفى قسطنطين الثانى بنصيبه بل اجتهد وكد فى اغتصاب ممالك أخيه فانهزم وقتل بالقرب من أكيليه وأضاف قسطان ممالك أخيه قسطنطين الى ممالكه واستمر متسلطنا مدة عشر سنوات على ثلثى

ممالك أبيه أى من سنة ٣٤٠ الى سنة ٣٥٠ بعد الميلاد وفى آخر هذه المدة خلعه واحد من قواده اسمه مغننطيوس وقتله وكان قنسطنطيوس فى غضون ذلك مشتغلا بحرب دموى مع الفرس ومن بعد أن مات طريداطيس ملك أرمينية وكان صديقا للرومانيين ونشر الديانة المسيحية فى ممالكه تعصب الارمن واستصوبوا دخول الفرس فى أرضهم وبلادهم بصفة أصدقاء ومخالفين لهم فهزم الفرس الرومانيين فى تسع وقائع شديدة وما كان قصد الفرس الا ارتداد الخمسة أقاليم الموجودة خلف نهر الدجلة التى كان حصل التنازل عنها للرومانيين فى مدة سلطنة غالريوس لا أقل وكانوا قليلى النجاح فيما فعلوه من أعمال الحصار على مدينة نزيب واستمرت هذه المدينة الحصينة التى قاومت ثلاث حصارات مشهورة باقية تحت أيدى الرومانيين وساقت خيالة الفرس فى غاراتها وتخريباتها فى الجهات الغربية حتى وصلت الى البحر الابيض المتوسط وتغلبوا فى واحدة من هذه الغارات على مدينة انطاكيا ونهبوها وأغار فى نحو هذا الوقت المزاغيطيون وهم قبيلة صيطية على الاقاليم الشرقية الفارسية فعقد سابور ملك الفرس هدنة مع امبراطور الرومانيين بقصد التفاته الى هذا الخطر الجديد الذى حل بمملكته فكان هذا الفرج عظيما أيضا عند قنسطنطيوس وكان وجوده فى الجهة الغربية من أهم الامور لانه بالاضافة الى مغننطيوس قام فطرانيو قائد الفرق العسكرية فى الريقوم وقلد نفسه امبراطورا فسار قنسطنطيوس الى اقليم الدانوب وأخذ كل أمر مخالف لحكمه بحركات شديدة فى ظرف الثلاث سنوات التى جاءت بعد وأرغم فطرانيو على التنازل عن التخت الذى كان أقامه لنفسه واعتزل فى حياته عن الاقاليم فى سنة ٣٥٠ بعد الميلاد ثم رجع على مغننطيوس ووجه عليه جيوشه وسلاحه وهزمه مرتين احداهما فى مورسه من أعمال بانونيه فى سنة ٣٥١ بعد الميلاد والاخرى فى جبل صلقوس فى الغلبة فى سنة ٣٥٣ بعد الميلاد ومن هذه الهزيمة الاخيرة قتل مغننطيوس نفسه بنفسه فمن ثم من بعد ست عشرة سنة من موت قنسطنطين الاكبر انضمت ممالكه الى بعضها من بعد أن كانت مشتتة وصارت تحت سلطنة ابنه الملائم لحكمها وادارتها

وانقضت مدة الثمان سنوات التى حكم فيها قنسطنطيوس المملكة بمفرده فى حروب مستمرة وتولد من حرب قنسطنطيوس مع مغننطيوس ضعف القوة العسكرية فى المملكة ووهنها ولما تقوى قنسطنطيوس بطريق التعدى على أراضى أعدائه تركوا محافظة الثغور والحدود فسكب سابور ملك الفرس فى هذا الوقت عساكره فى داخل اقليم ميزوبوتاميا فالتقى الامبراطور وهذه الارتباكات بقلب صلب وبذل جهده وطاقته فى مقابلتها ثم ان الاقاليم وان كابدت ما لاقته من تعدد غارات الاعداء عليها الا أن الاعداء لم يحتل واحد منهم قطعة أرض من الاراضى الرومانية بحالة دوامية وهزم قنسطنطيوس الكاديين وساق خلفهم الى بلادهم فى سنة ٣٥٧ بعد الميلاد وفى سنة ٣٥٩ بعد الميلاد أرغم السرماطيانيين على قبولهم ملكا معتمدا عينه لهم الامبراطور من طرفه وكانوا انقامنه وفى سنة ٣٦٠ بعد الميلاد طرد الفرس من الاراضى والبلاد التى كانوا تغلبوا عليها واحتلوها بجيوشهم ومابقى على قنسطنطيوس الا الارتباكات علاقات عمه غالوس ويوليان فطلب عمه غالوس فى سنة ٣٥٠ بعد الميلاد من الجهة التى كان ألزمه الاقامة فيها وأنعم عليه برتبة القيصر وعهد اليه زمام حكومة الشرق فكان غالوس غير موافق بالكلية لمثل هذا الموقع فانه نقض مع الخزى والعار وثاقة الامبراطور فيه فدعاه اليه فى سنة ٣٥٤ بعد الميلاد وأمر بقتله وفى السنة التالية طلب عمه يوليان أخو غالوس من أثينه من

نواحى

نواحى أثينة وكان مشتغلا فيها بتلقى علم الفلسفة وأحسن اليه برتبة القيصر وعهد اليه حكومة الغلية وحصلت هذه الحادثة فى مدة الامبراطورة عوزبيه وكان الامبراطور فى مبادى أمره غير واثق بعمه يوليان فعامله بالشدة والقسوة فأظهر يوليان للامبراطور كفاءته وطاقته بأى حالة كانت للعهدة التى أحالها عليه فكان حاكما ماهرا بينها خاليا من الاعمال المؤدية للخزى والعار وهزم الالمانى والفرنج فى عدة وقائع فى ظرف ثلاث سنوات من بعد دخوله فى الحكومة وطردهم من الجهات التى كانوا تغلبوا عليها فى الغلية الى الشاطئ الايمن لنهر الرين وأغار ثلاث مرار على أراضيهم وخرب جرمانيا فى طولها والعرض وخلص من الاسر ٢٠٠٠٠ نفس من الرومانيين ثم عاد الى الغلية محملا بالغنائم والاسلاب وأعاد بناء مدائن الغلية وكان المتبربرون دمروها وخربوها وجعل باريس مركز شتويته وحلاها بسراية بناها فيها ومكعب وسرك وحمامات ورفع منار طرق الفلاحة والزراعة وحض على الصنائع والتجارة فما أنتج نجاحه فى ذلك الا الحسد اعند الامبراطور وغيرته منه وطلب العساكر الموجودة معه عشمانى وهن يوليان ودماره لو صار تركه من دون وجود القوة اللازمة لحفظ مركزه فرفض الفرق طاعة الامبراطور ونادوا على يوليان بامبراطوريته عليهم فى سنة ٣٦٠ بعد الميلاد ولما وجد يوليان أنه يستحيل الصلح مع قنسطنطيوس سار بجيوشه الى نحو الشرق لاجل فصل مسئلته بالسلاح فمات قنسطنطيوس بغتة فى سنة ٣٦١ بعد الميلاد وانفصل وقوع حرب داخلى وتقرر الامر الى يوليان مع الابتهاج فى عموم المملكة

وكان أول التفات اعتنى فيه يوليان الامبراطور الجديد هو نقص واقتصاد ما فيه الديوان الامبراطورى من رفاهية العيش والاسراف فى المصاريف فعاقب حكام السلطنة السابقة الذين أجرموا فى ظلم الاهالى وطرد ١٠٠٠٠ جاسوس كانوا مشكلين هيئة من الحكومة من عهد سلطنة قنسطنطين الاكبر وما لبس يوليان الثوب الارجوانى وما تلقاه من دروس علم الفلسفة جعل له التفاتا قليلا بالمحافل الرسمية المخصوصة بمسنده وعكف نفسه على أداء الخدمة الواجب عليه أداؤها للعموم واستمر فى عيشة بسيطة وحالة اقتصادية مزعجة ومع انه كان جيد الصفات الا أنه قذر سلطنته ووسخ حالته وكذب على عقائده الدينية الفلسفية بجور وتعد يؤسف منه وكان لا فائدة فيه ولا ثمرة منه على المسيحيين فكان وثنيا من المجرمين ومن عباد الله الخاسرين ثار على أعمامه المسيحيين وحصل له اختلال فى عقله وقتل كافة عائلته ونشر كراهته على قرابته وديانتهم ورفض الديانة المسيحية وجعل نفسه ومملكته تحت حماية وحفظ ما يقال لهم الآلهة المخلدة وجعل الديانة الوثنية ديانة المملكة مرة أخرى ومع هذا فان الوقت كان انقضى نحبه فى تعويله على رماد الديانة المسيحية لانه صار لها جذرا عميقا فى الارض يستحيل عليه قلعه من أرض المملكة وما قدر الامبراطور أن ينال من هذا الامر شيأ الا بحرب داخلى تولد منه دمار المملكة وخرابها وربما كان ينجح فى أعماله لو وضع على رعيته أعمالا أقل صلاحا مما سعى فى تدبيره وسمح لليهود بالاذن فى العود الى أورشليم وبنى لهم معبدهم مرة أخرى بقصد ابطاله انباآت المسيح ابن مريم وانقراض المسيحيين وعدم التصديق بأقوالهم وعقائدهم فجاء اليهود أفواجا وأسرابا من كافة جهات الدنيا الى مدينتهم المقدسة وشرعوا فى شغل بناء الهيكل مع الحمية والغيرة فخرجت عليهم نارها ئلة على حين غفلة من أطلال المعبد الذى كان دمره طيطوس فالتزموا على ترك الشغل وقطعوا اليأس من اجتهادهم فيه ومع أن الامبراطور اجتهد وسعى فى ضعف حالة المسيحيين وانقراضهم بما أثقله عليهم من مظالم الجور

والتعدى وحلهم أثقالا لا طاقة لهم بها فانه رفض أيضا مذاهب الحكم والعقائد والاعتقادات التى كانت تلقى عليه من الوثنيين المتقربين منه وأعلن باباحة عموم هيآت كافة المذاهب الديانية الموجودة فى مملكته المتمسك بها عموم رعيته وصار الفرس فى جهة الشرق من المرعبين المزعجين المعكرين لاحوال البلاد والعباد زيادة عما كانوا عليه من قبل فأغار بوليان فى فصل ربيع سنة ٣٦٣ بعد الميلاد على فارس فى رأس جيش كثيف وعزم على خراب مملكة فارس الا أنه ما كان القوى التى كانت تحت قيادته من طاقة على الزحف والتقدم فى بلاد العدو وحصل له أهوال ومصائب شديدة أرغمته على القهقرة وتمت حركتها فى تجاه أكبر الاخطار وأصعب المضار فان الجيش حارب عدة حروب فى طريق رجعته الى نزب وجرح بوليان جرحا مهلكا فى احدى المصادمات والمبارزات العديدة التى لاقاها فى مدة سيره ومات من هذا الجرح فى اليوم الثانى فى سنة ٣٦٣ بعد أن تسلطن نحوا من عشرين شهرا

ولما صار الجيش لا قائد له ولا مدبر لحركته رفع يوفيان قائد الخفر الامبراطورى الى التخت وكان مسيحى الدين فباشر حركة القهقرة مع النباهة والعقل واشترى سلامة الجيش بعقده صلحا مع الفرس وتنازل لهم فيه عن الخمسة أقاليم الموجودة فى شرق نهر الدجلة وعند عوده الى عاصمة المملكة أصدر منشورا بعود الديانة المسيحية واقامة شعائرها وجعلها ديانة المملكة وأمر باباحة عموم الديانات ومات فى فبراير من سنة ٣٦٤ بعد الميلاد من بعد أن تسلطن ثمانية أشهر

ثم جاء عقب موت يوفيان فترة فى الامبراطورية استمرت عشرة أيام وفى آخرها التأم مجلس من الحكام الملكية والقواد العسكرية الموجودين فى المملكة فى مدينة نيخيا وقلدوا فلنطنيان زمام الامبراطورية وكان من أهل الديانة المسيحية قائدا شجاعا وماهرا بارعا أظهر نفسه فى الحروب وكافح الخطوب وأزال عن مملكته الكروب بما أجراه على فارس وعلى الامم المتبربرة الغربية وصدق الجيش على هذا الانتخاب الا أنه طلب أن يكون للامبراطور الجديد شريك ورفيق يشركه فى الحكومة من أجل المحافظة على الخلافة من بعد موته فنح فلنطنيان الثوب الارجوانى لاخيه الاصغر فالنس وعهد اليه زمام حكومة الشرق من الدانوب الاسفل الى حدود فارس وجعل ما بقى من المملكة تحت عهدة نفسه ومدينة ميلان عاصمته الا أنه ينقل مقر حكومته على حسب مقتضيات الاحوال فى كل من مدينتى تريفس ورهيمس فكان يحكم ممالكه وهو فى هذه العواصم مع الثبات المرغوب والقصد المطلوب وأوقع هزيمة جارحة على الالمانى على نهر الرين وعلى السكادين على نهر الدانوب وحفظ خطوط هذين النهرين باستحكامات ومعاقل وقلاع جديدة أقامها فى طول كل منهما وعبر البقطيون (أهل صكوطلنده القديمة) سد أنطونينوس ودمروا تدميرات هائلة فى بريطانيا الجنوبية فارسل عليهم غارة تحت قيادة طودوسيوس أبو الامبراطور طيودوسيوس الآتى ذكره فيما سيأتى فأوقع بهم وهزمهم وطردهم الى داخل بلادهم ومن بعد مضى مدة قليلة حاز القائد المذكور نصرة عظيمة بين جزائر كالده على لصوص البحر الصكصونيين وكانوا عاثوا فى السواحل الغربية من أوروبا وخربوها ثم انفجرت ثورة فى افريقه تحت قيادة فيرموس قائد شجاع من رؤساء المغاربة فصار ارسال طيودوسيوس لاخماد هذه الثورة فأنهى هذا الشغل مع الظفر والنجاح وأعاد سلطة الحكومة الرومانية على مملكة نوميديا وموريطانيا وفى مبادى سنة ٣٦٧ بعد الميلاد أشرك فلنطنيان معه ابنه غراطيان فى المملكة

وجعله خليفة من بعده الا أنه لم يجعل له نصيبا فى الحكم ولما مات فى ١٧ نوفبر سنة ٣٧٥ بعد الميلاد ترك له تاجه وتخته

وفى ظرف هذه المدة كان فالنس حاكما فى الشرق فتولد من ضعف عقله وبطء حركته زيادة عن أخيه ان كانت حكومته احدى المصائب والبلاوى فى الشرق لانه من بعد مضى سنة من جلوسه قام بروكوبيوس وهو شخص من أقارب الامبراطور يوليان وضبط القسطنطينية وقلد نفسه فيها امبراطورا فى سنة ٣٦٥ بعد الميلاد عدة شهور وفى عقب ذلك حرب ثم أمره بالقبض على بروكوبيوس وقطعت رقبته فى معسكر فالنس ثم أجرى حرب لا ثمرة فيه على فارس فى سنة ٣٧١ بعد الميلاد ثم انفجر فى هذه السلطنة أكبر حادثة وأشهر واقعة وذلك أن الحونزيين فى أوروبا طردوا الغوطيين من مساكنهم عابرين حدود المملكة الرومانية حتى دخلوها والظاهر أن الحونزيين أمة طورانيانية (تتار) من منحدرات جبال آسيا الشمالية أو الوسطى كان أهلها على غاية من الشراسة والعتو وكانوا هم العدو الالد للرومانيين وما صادف الرومانيون فى حروبهم ووقائعهم أمثالهم من الامم المتبربرة الاخرى وكانوا على وجه التخمين اما مغل أو ترك أو يغور وحصل منهم فى نواحى الصين وجهاتها ارتباكات وقلاقل زائدة حتى انه صار اقامة وعمل السد الاكبر الصينى على الثغور المغولية من طرف الصينيين لمنع غاراتهم وصد تخريباتهم عن المملكة الصينية وفى نحو سنة ٣٧٠ بعد الميلاد تحركوا الى الجهات الغربية ودخلوا أوروبا فى طول الساحل الشمالى من البحر الاسود فكان مبدأ ظهورهم فى الاقليم الموجود بين نهر ولغا ونهر الدون ثم انتقلوا من هذا الاقليم للاغارة على المملكة القوية الغوطية وهى مملكة هرمانريق وكانت هذه المملكة ممتدة من نهر الدانوب والبحر الاسود الى بحر بلطق داخل فيها روسيا الجنوبية الغربية وبولنده وبروسيا الشرقية وممتدة على كثير من قبائل وعشائر مختلفة من جنس واحد أجلها وأشهرها القبيلتان الكبيرتان وهما قبيلة الغوط الشرقية وقبيلة الغوط الغربية فتغلب الحونزيون على الغوطيين وطردوهم من أراضيهم وبلادهم فاستحوذ الغوط الغربية ومن بعدهم بقليل الغوط الشرقية على رخصة فى عبور الدانوب والتوطن فى موزيا (بلغاريا) كرعايا لامبراطور الرومانيين فقيل انه عبر من النهر نحو من مليون نفس من الغوط الغربية وحدها ولا ريب أن مادة نظر الشغل لمثل هذا العدد الكبير والجم الغفير من أصعب الاشغال فتعين مبعوثون من الرومانيين لشغل توطن وراحة هذا العدد الكثير فكان سببا فى عناء أنفسهم مما يجب عليهم أداؤه شرعا ومن سوء ما عامل به الرومانيون الغوطيين اشمأزت نفوس الغوطيين من حاجتهم الى أعدائهم الرومانيين وساروا بالقوة عنوة على مارسيانوبل وهزموا الجيش الرومانى وخربوا اثر اسه بالسيف والنار وجاسوا فيها فخرج اليهم فالنس بجيوشه فانهزم وقتل مع ثلثى جيشه فى واقعة كبيرة حصلت بالقرب من نواحى أدرنه فى سنة ٣٧٨ بعد الميلاد

وفى غضون ذلك استخلف من بعد قلنطنيان الاول ابنه غراطيان فاشرك معه فى الحكومة أخاه الطفل قلنطنيان الثانى وكان عمره خمس سنوات وبمجرد موت فالنس انتخب غراطيان رفيقا له فى المملكة من أمهر قواده اسمه طيودوسيوس وعهد اليه زمام حكومة الشرق وأضاف اليه ايالة الريقوم فى سنة ٣٧٩ بعد الميلاد وأما غراطيان نفسه فان سنيه الاولى التى انقضت تحت التعليم (لان عمره كان سبع عشرة سنة وقت جلوسه على تخت المملكة) وتحت سلطة معلميه كانت كثيرة

المواعيد ولما بلغ أشده غلب عليه ضعف عقله ورخاوته فى أشغاله وعكف نفسه على الصيد وضيع فى اللهو واللعب الساعات والايام التى كان يجب عليه صرفها فى الاشغال التى يعود منها النفع عليه وعلى مملكته فمن ثم انتقلت شوكة الحكومة وسلطتها الى أيدى الاراذل من المتقربين منه فلو فوامع الشدة بما عهدهم به الامبراطور وترك الامبراطور الجيش فاحتقره وازدراه ومامضى على ذلك مدة حتى رفعت الثورة رأسها وشالت ذنبها وألبست الفرق العسكرية فى بريطانيا مكسيموس الثوب الارجوانى فعبر الى الغلية وعزم على المنازعة فى خصوص التاج مع غراطيان فترك عساكر الغلية غراطيان فلما وجد نفسه وحيدا متروكا هرب من باريس الى ليون فصار القبض عليه فيها وقتل فى سنة ٣٨٣ بعد الميلاد

ودخل مكسيموس فى عهد مع طيودوسيوس ورضى امبراطور الشرق بالاقرار بالسمو الامبراطورى الذى اغتصبه الغاصب مكسيموس وكذا أذعن مكسيموس بالاقرار لقلنطنيان الثانى فى سلطنته فى ايالاته بجهة ايطاليا مع السلم والامن وفى سنة ٣٨٧ بعد الميلاد نكث مكسيموس عهده مع قلنطنيان الثانى وأغار على ايطاليا وطرد قلنطنيان منها فهرب ملتجئا عند عمه طيودوسيوس فتردد طيودوسيوس فى أمره قليلا ثم تكفل بأمر ابن أخيه وحضن شغله وزوجه أخته غالا وهزم مكسيموس فى بانونيه وأعاد قلنطنيان الى تخته فى سنة ٣٨٨ بعد الميلاد

وبلغ عمر قلنطنيان الثانى فى ذلك الوقت ثمان عشرة سنة فكان مثل أخيه غراطيان ضعيف العقل بطىء الحركة كسلان سمح لنفسه بأن يكون تحت نفوذ واحد من ضباطه اسمه أرغوباسطى افرنكى الاصل فجعله هذا القائد مجرد لعبة فى يده ولما ضاق قلنطنيان ذرعا من شدة ماحصل له من تعبه فى مركزه عزم على عزل تابعه القوى البأس فكان سعيه على غير طائل ورفض أرغوباسطى الانقياد والطاعة لامر الامبراطور ومن بعد مضى بضع أيام قتل سيده ونصب الهمن الا انه اسمه عوغنيوس امبراطورا فى سنة ٣٩٢ بعد الميلاد فجمع طيودوسيوس جيشا كبيرا وساقه لاخذ ثار ابن أخيه فأغار على الايالات الغربية وهزم عوغنيوس بالقرب من ناحية اكيلية وقبض عليه وقطع رأسه فى سنة ٣٩٤ بعد الميلاد والتزم أرغوباسطى على الهرب بمدة حياته حتى آل أمره أن قتل نفسه بنفسه

وفى مدة سلطنة كل من مكسيموس وقلنطنيان الثانى وعوغنيوس فى الغرب كان الشرق تحت حكومة طيودوسيوس الاول فلقب نفسه بلقب الاكبر وحكم حكومته بالشدة وكان مبدأ سلطنته فى سنة ٣٧٩ بعد الميلاد فعكف نفسه على مباشرة الاشغال اللازمة لمقاومة الغوط الغربية وكانوا جعلوا قسما من المملكة على شرف الخراب والدمار وفى ظرف الخمس سنوات التى جاءت من بعد جلوسه على التخت صيرت له أعماله العسكرية العظيمة وشهرة صيته فى الشجاعة وتدبير الاحكام الطاقة الكبرى على ارغام هذا الجنس المؤذى لمملكته وجعله رعية نافعة له واستعمله مع أسلحته وذخائره على أعداء مملكته وتخته وأسكن مستعمرات كثيرة من الغوط الغربية فى تراسة ومن الغوط الشرقية فى آسيا الصغرى ودخل من مندربى شجعانهم نحو من ٤٠٠٠٠ نفس فى خدمة الجيش الرومانى وقد ذكر بعض أرباب السياسة أن طيودوسيوس أخطأ خطأ كبيرا فى اعطائه الرخصة لمثل هؤلاء القوم فى الاقامة والتوطن بين رعيته لان الغوطيين ما كانوا على كفاية من الحضارة والتمدن حتى يختلطوا

مع الرعايا الآخرين من المملكة وعلى هذا فان الامبراطور لم يختر لنفسه الا الاذى والضرر لانه لو رفض قبول توطن الغوطيين ربما تؤل الحالة عندهم الى درجة اليأس والقنوط فيكون الخوف من هذا أشد وأقبح مما يقع من ارتباكهم وكان طيودوسيوس فى ظرف المدة التى عاشها على درجة كاملة من قمع الامم المتبربرة وما حاز خلفاؤه الامعشار ما حازه طيودوسيوس من تدبيره وذكائه فانه رفع الغوطيين الى درجة السيادة فى المملكة بدل أن يكونوا العدو الالد والقضاء المبرم والضرر الاكبر عليها

ولمدة هذه السلطنة كانت الشعائر والديانة الوثنية مسموحا بها بأمر من الامبراطورات الذين سبقوا حتى أصدر طيودوسيوس أمرا جازما بمنع اجراء أى شىء من الشعائر الوثنية وقتل كل من خالف هذه الاوامر وأمر بقفل معابد الوثنيين وضبط أملاكهم وعقاراتهم التى كانت موقوفة على الهياكل والمعابد وأمر أن يكون يوم الاحد يوما مقدسا حرم فيه الاشغال والاعمال حتى تمشية القوانين والاحكام وأرسل مراقبين الى الاقاليم لرؤية تمشية أوامره وتنفيذ الجرى على موجبها فارسل سنغيوس نائب سراياته الى مصر لمراقبة تنفيذ الاوامر وكانت أجريت أوامر الامبراطور فى مصر بمعرفة طيوفيلوس أسقف الاسكندرية فكان هذا الرجل هو العدو الالد لحالة السلم وأهل الفضل وكان رجلا جسورا قبيح السلوك أياديه مغروسة بالتعاقب فى الذهب والدماء فكنس هذا الاسقف هيكل ميثره فى الاسكندرية وكانت عينه ناظرة على الدوام لزخارف هيكل سرابيس اله المصريين وقد ذكرنا الكلام عليه فى تاريخ مصر فى مدة السلطنة البطليموسية وسبب جلب هذا الصنم فى الاسكندرية فى الجزء الاول من هذا الكتاب فكسر الاسقف بواسطة عساكر النائب المرسل من طرف الامبراطور الصور والتماثيل الموجودة فى معبد سرابيس المشهور وكان هذا المعبد قلعة الديانة الوثنية وكانت مدينة الاسكندرية معدودة بانها مدينة سرابيس الحافظ لها والممجدة به فكان هيكل سرابيس العدو لكبرياء الكابيتول ومجده فى رومة مقام فى ميدان على رأس جبل صناعى مصنوع له بالخصوص مرتفع بقدر مائة ذراع فوق أرض المدينة المجاورة له وقبته القوية محمولة على عقود موزعة على قبوات وقواصر وسرائب ساترة لمحلات أرضية وكانت هذه الابنية محيطة بايوان من الاعمدة فى هيئة شكل رباعى ويظهر من رؤية الفسحات السامية والتماثيل الظريفة عجائب الصناعات ونحوها وكان محفوظا فيه ذخائر كنوز التعليم القديم وكتب الفلسفة والعلوم فتعرض الاسقف لدمار كافة الزخارف والتماثيل التى كان أتباعه فى مدينة الاسكندرية يراعون تقديسها فكان هذا الاسقف منشأ الاضطرابات والقلاقل فى المدينة فاجتمع طلبة مدارس الفلسفة وانضم اليهم أوباش المدينة وعوامها لتوقيف هذا الدمار والانتقام لانفسهم من المغيرين عليهم فتولد من هذا مضاربات ومحاربات ووقائع عديدة فى الحارات والشوارع بين الوثنيين والمسيحيين فقد فيها كثير من الانفس والارواح من الحزبين الا أن المسيحيين لما كانوا معضدين بشوكة نائب الامبراطور بددوا الوثنيين وهرب الكثير من الطوائف العالية من المدينة وما أخمد العساكر هذه الفتنة ومقاومة الوثنيين الا وابتدأ الهدم والخراب مرة أخرى من ثوران غيرة هذا الاسقف فهدمت كافة الهياكل وتكسرت زيناتها وزخارفها وسبح الاسقف تماثيل الآلهة وصبها أشغالا أخرى لكنائس الاسكندرية وكان من ضمن منهوبات معبد سرابيس الكتبخانة الكبرى وكانت مشتملة على ٧٠٠٠٠ مجلد تبدد أمرها وانقضى نحبها

ونشر أيضا طيودوسيوس منشورات ولوائح وقوانين شديدة بخصوص الاريانيين وهم توابع القسيس اريان الذين يقولون بأن الابن ليس من جوهر الاب وآخرين حصل منهم الابتداع والخروج عن العقائد الديانيـة المسيحية فى الاسكندرية وكان صدر منشور من مجلس ينحيا بعقابهم فى سنة ٣٢٥ بعد الميلاد وكذا من القسطنطينية فى سنة ٣٨١ بعـد الميلاد وأرغموا على تسليم كنائسهم والتخلى من قسوسيتهم ومنعوا من الوعظ والخطابة والتزيى بزى القسس وانتقلت كافة أملاكهم الى الصوفيين من المسيحيين وكانت العقابات والجزاآت المشتملة عليها هـذه اللوائح والقوانين هى التغريم والنفى وكان القانون المدنى الذى نشره طيودوسيوس صعب التنفيذ جدا فى الادارة والحكومة حتى اشتهر بأن أعمال الامبراطور أرحم من قوانينه

وفى هذه المدة ارتفعت شوكة الكنيسة بما حصل من المصادمة المشهورة بين الامبراطور طيودوسيوس والاسقف عمبروس بطريق ميلان وكان عمبروس هذا كما قال جبون من ذرية عائلة شريفة من الرومانيين وكان أبوه موظفا فى مصلحة جليلة بصفة نائب فى نواحى الغاليـة فمن بعـد أن قضى ابنه عمبروس مدة تعليمه وتهذيبه توظف حاكما فى ليغوريا وهو اقليم من أعمال ميلان الامبراطورية من بعد أن حاز الشرف فى الخدمات الملكية ولما بلغ عمر عمبروس أربعا وثلاثين سنة انتقل بغتة من وظيفة حاكم الى وظيفة بطريق أكبر من قبل أن يتناول العشاء الربانى والمعمدة البطريقية وحياه الناس بتحية البطريقية العظمى من دون اختلاط منهم أو عمل حيلة أوشى فى ذلك ودخل عمبروس فى وظيفة روحانية ما كان مستعدا لها فى أصل تعليمه ولا اشتغل بها فى مدة حياته الا أن ما كان عليه من قوة نباهته وذكائه صيره أهلا لاداء تدبير وسياسة وظيفته الكنائسية وفى حالة ما كان يحصل لنفسه فى عدم اشتغاله بما لا فائدة فيه من الاشغال ويحاذر من وقوعه فى أحبولة المجد والافتخار الدنيوى انعطف لتدبير وادارة ما فى ضمير الامبراطورات وحكم ادارة المملكة من أجل وجود الخير والفائدة للكنيسة ووقعت محبته فى قلب غراطيان وأكرمها كرام الآباء فعلم عمبروس هذا الشاب مذهب عقائد التثليث ومن بعد موت غراطيان أرسل بطريق ميلان رسلا مرتين الى ديوان تريف حال ما دخل بالامبراطوره يوسطينه الارتباك والخوف وعدم الامن على نفسها وعلى ابنها فلنطنيان وأجرى شوكة شهامته الروحانية وأعماله السياسية مع الثبات والبراعة ولازمه قسيس ميلان وأهلها وكان على تقوى وورع وعفة نفس وبواسطة تدبيره وعذوبة كلامه وفصاحة لسانه صد مطامع مكسيموس ووطد الامن والراحة فى ايطاليا وباع دنياه بآخرته وقاوم الامبراطورات وأقام شعار الديانة المسيحية وجعل للكنيسة الشوكة العظمى

ثم هاجت ثورة فى ملعب الخيل فى تسالونيقه مات فيها قائد غوطى وجملة من الضباط معه فأمر الامبراطور بمذبحة عامة فى أهل تسالونيقه قتل فيها البرئ والمجرم وكان مقر الديوان الامبراطورى فى هذا الوقت فى ميلان وكان وقوع هذه الثورة عارا فاضحا ثم آلت عواقبها الى حالة مهولة مفزعة وذلك أن هذه المدينة الكبيرة كما قال جبون عاصمة كافة الاقاليم الاليريانيه كانت محفوظة من أخطار الحرب الغوطى باستحكامات وفيها جماعة من العساكر محافظون فيها وكان بوتريق قائد هؤلاء العساكر جميل الصورة والهيئة بين عساكره فقوم شهوات أغراض واحد من سائقى عربات ملعب الخيل وكان بوتريق فى الملعب بين عساكره فأمر بوتريق بقذف هذا الشهوانى الحيوانى القبيح فى

السجن

السجن ورفض مع تقطيب وجهه وعبوسته رجاء والحاح الجم الغفير من اخوان هذا العربجى فحزنوا
على صاحبهم حال غيابه عنهم فى السجن واستقبح الاهالى وقوع مثل هذه المسئلة وحصل بينهم
مشاحنات وانتظروا حتى قل عدد المحافظين بتوجههم الى الحرب فى ايطاليا وصار الباقى القليل لا يكفى
لخلاص القائد المنحوس من الغضب الشديد الحاصل عند أهل الملعب فقاموا فى ثورة وقتلوا بوتريق
وعددا من الضباط الكبار معه أفظع قتلة وجروا أجسامهم غرقى فى دمائهم فى شوارع المدينة ووصلت
أخبار هذه الحالة المفزعة الى مسامع الامبراطور طيودوسيوس فاستغرب من هذه الوقاحة الرذلة
وأسف كثيرا على موت القائد ومن معه الضباط فأصدر أمرا بالقصاص الشديد على من كان يبالى
فعل هذه الجريمة وما تدبر طيودوسيوس فى نفسه من شدة ما وقع عنده من الغضب أن يأمر بعقد هيئة
عدلية للفحص عن هذه المادة بل عزم على أن دم نائبه لا يكفر عنه الا دم هؤلاء المجرمين جميعا وهم أهل
تسالونيقه وأرسل من ينفذ مفعول أمره ثم تردد بين مجلسى العفو والانتقام فاستحصل عمبروس فى هذا
الوقت من الامبراطور رات على العفو العام وأطفأ غضبه أيضا تملق وزيره روفينوس له وذلك من بعد أن
أرسل طيودوسيوس رسل الموت فعزم طيودوسيوس من بعد أن فات الوقت على ابطال مفعول أمره
الا أنه قضى الامر بعقاب مدينة رومانية بسيوف المتبربرين واستعدت اللوازم الكافية وترتبت
الرجال الكافية لقصاص أهل هذه المدينة ودعوا الى المدينة أهلها على اسم مالكهم وسلطانهم للفرجة
على الملعب فاجتمع أهل المدينة فى محل اللعب من دون أن يكون عندهم فكر فى خيانة أو خوف أو وهم
ولما تم الجمع وازدحم الناس أعطيت الاشارة للعساكر وكانوا فى مكامن خلف الملعب بوقوع مذبحة
عامة فما أبقوا على شيخ ولا شاب ولا طفل ولا امرأة بل ذبحوهم جميعا واستمرت هذه المذبحة ثلاث
ساعات قتل فيها البرىء والمجرم وكان عدة من قتل نحوا من سبعة آلاف روح الا أن بعض المؤرخين
أثبت ان الذى قتل فى ثأر دم بوتريق وأصحابه كان نحوا من خمسة عشر ألف نفس وصارت حالة المدينة
وشوارعها ومبانيها والمنحوس الباقى من أهلها ووجوههم تنبئ بما كان فى ضمير الامبراطور بما أوقعه من
الخراب والدمار على أهلها واطمأن فى نفسه بأخذ ثأر نائبه من أهل مملكته ومن ملازمة القسس
الصوفية للامبراطور وقع عمبروس عنده موقع القبول ومال اليه بعينه له واستوصب أعماله وصفاته
وأحب ملازمته وجواره وكان عمبروس حاز فضائل القسوسية وارتقى فيها الى أعلى درجات الكمال وتمثل
وزراء طيودوسيوس باسوة مليكهم فى اغداق محبتهم لعمبروس ورأى طيودوسيوس مع العجب
لا الغضب أن كافة أسرار مجالسه جار نقلها مباشرة الى البطريق عمبروس الذى كانت مساعيه جارية
فى فعل الخير لله ومنافع الديانة الحقة فاتفق فى هذا الوقت ان رهبان وسكان المدينة الصغيرة المسماة
كالينقوم الموجودة على حدود فارس أخذتهم غيرة التعصب الديانى وقاموا فى هياج وشغب مع
أسقفهم وحرقوا معبد اللاقلنطنيانيين أى الخارجين عن العقائد المسيحية وكذا حرقوا معبد اليهود
فصدر الحكم على الاسقف الذى كان سببا فى هذه الحادثة من طرف نائب الجهة بكونه اما أن يعيد
المعبدين كما كانا أو يدفع مقدار قيمة الخسارة وكان الامبراطور مصدقا على هذا الحكم الا أن بطريق
ميلان ما رآه ولا صدق عليه فكتب البطريق كتابا مواجهة للامبراطور يعنفه فيه ويوبخه ويذمه وقال
له يحتمل أن الامبراطور راختتن أو رفض عقائد الديانة المسيحية حتى صدق على هذا الحكم واعتبر
عمبروس ان هذا التصديق واباحة اليهودية جور وتعد على الديانة المسيحية فأعلن فى منشور كنائسى

كتبه انه هو وكل مؤمن يعتقد فى المسيح ينازع أسقف كالينقوم فى الفعل والتتوج بتاج الشهادة وتأسف فى مكتوبه من أن هذا الحكم يكون عاقبته مشؤمة على طيودوسيوس وعدم نجاته من حر نار جهنم ولما سمع أيضا عمبروس بمذبحة تسالونيقه تشتت أفكاره وقام الغضب فى رأسه فاعتزل فى خلوته لمكابدة آلام أحزانه وامتنع من الحضور عند الامبراطور طيودوسيوس لكنه لما رأى أن اعتزاله هذا وحين سكوته يتولد منه زيادة فى جريمته كتب كتابا مخصوصا للامبراطور بما هو عليه من الكبائر والآثام وقال له ان هذه الجرائم لا يكفرها الا التوبة وسكب عبرات الاحزان وأصدر من عنده منشورا دينيا بالحجر الكنائسى على الامبراطور وارتداده عن الديانة المسيحية ولا يجوز تقريب قربان على اسمه ولا مشاركته فى أى شىء من شعائر الديانة ولا قربه من منابر المسيح ولا الصلاة ولا العشاء الربانى المقدس مادامت أياديه ملطخة بدماء أمة بريئة مما نسبها اليه فتأثر الامبراطور جدا من الغم فيه ومما حصل من أبيه الروحانى وكان كلما زاد عمبروس غضبا ازداد طيودوسيوس صداقة وخضوعا له ومن بعد أن تأسف وندم على ما حصل من نتائج غضبه توجه مثل العادة لقضاء عبادته فى الكنيسة الكبرى فى ميلان فقابله على بابها القديس عمبروس وما سمح له بالدخول فيها وقال له بلسان وكلام المبعوث من عند الله ان التخشع الخفى لا يكفى فى تكفير جريمة عامة أو يطفئ عدل غضب الاله فقال له طيودوسيوس مع الخشوع والتواضع ان كنت أنا اكتسبت الاثم من القتل فان غيرى اكتسب جريمة القتل والزنا معا فأجابه البطريق حيث انك قلدت غيرك فى جريمته فيلزمك أن تقلده أيضا فى توبته واستمر طيودوسيوس تحت هذا الحجر ثمانية أشهر حتى اعترف بجريمته وخطئه وتاب عن فعل الجرائم والآثام فى حضور جمع من القسس والاعيان وقوبل مرة أخرى وهو لابس ملابس الذل والندم فى داخل الكنيسة وغفرت له ذنوبه وخطاياه فى يوم عيد من سنة ٣٩٠ بعد الميلاد

وما عاش طيودوسيوس من بعد نصراته على عوغنيوس وجمع الشرق والغرب تحت حكمه بمفرده بل مات فى ميلان فى ١٧ ينايرسنة ٣٩٥ بعد الميلاد من بعد أن تسلطن نحوا من ست عشرة سنة وكان قسم ممالكه بين ولديه فاعطى اركاديوس الكبير المشرق وأعطى هونوريوس الصغير المغرب وكان عمر هونوريوس احدى عشرة سنة وجعله تحت وصاية القائد القند الى سطيليخوا فزوجه بابنة أخته

وتولد من تقسيم المملكة بين ولدى طيودوسيوس الانفصال الحقيقى للشرق من الغرب والى هنا كان قسما المملكة مجموعين تحت فكر واحد وتعاضد نوعا ومع أنهما ما كانا مشكلين مملكة واحدة الا أنه لم يخل اجتماعهما من فائدة مشتركة بينهما ومن ابتداء موت الامبراطور طيودوسيوس تغيرت الافكار ووقعت الغيرة والحسد وعدم الثقة والاعتماد وأخذ باب الخرق فى الاتساع بين فرعى المملكة وازداد اتساعه يوما فيوما

وصار الحكام الاصلية الحقيقية روفينوس فى الشرق وكان نائبا اركاديوس وسطيليخو فى الغرب وصى هونوريوس فتولدت العداوة والبغضاء بين هذين النائبين حتى وصلت الى المبارزة والمناضلة جهرة ثم انتهى هذا الشقاق بقتل روفينوس باغواء وتحريض من طرف سطيليخو فى سنة ٣٩٥ بعد الميلاد وصار سطيليخو أكبر شخص فى المملكة ومحلا للحسد وكراهة اركاديوس والمتقربين منه

ومن

ومن بعد موت طيودوسيوس الاكبر بقليل قام الغوطيون ونكثوا طاعتهم للملكة وكانوا تحت قيادة رئيسهم المشهور علريق وفى فصل صيف سنة ٣٩٥ بعد الميلاد أغاروا على مقدونيا وفى ظرف هذه السنة والسنة التى جاءت بعدها خربوا نحوا من عموم الجريس فسار سطيليخو على علريق وألزمه القهقرة فتولد من غيرة وحسد اركاديوس المستمر أن يسرع فى ضعف سطيليخو وحزبه فعقد معاهدة مع علريق وعهد اليه برياسة عموم الريقوم الشرقية وصدر الامر الى سطيليخو بسحب نفسه من ممالك اركاديوس فأطاع الامر وقضى الباقى من القرن فى اخماد ثورة كانت حصلت فى افريقه وفى سنة ٣٩٨ بعد الميلاد زوج بنته مارية من ابن أخته الامبراطور الشاب هونوريوس

ثم رأى سطيليخو من توظيف علريق حاكما عموميا على الريقوم أن الايالات الغربية من المملكة على خطر من طمع هذا الرئيس المرتاب ورأى سطيليخو فى نفسه أن امبراطور الشرق لاجل خلاص ممالكه من اغارة وتخريب الامم المتبربرة قواهم فى السر على الهجوم على الامم الموجودة فى ممالك أخيه وفى نحو مبادى هذا القرن انتخب علريق ملك الغوط الغربية بمعرفة قومه وأهل بلاده فأخذه الغرور من ظرافة ايطاليا وكثرة أموالها فعبر جبال الالب فى سنة ٤٠٢ بعد الميلاد ومازال سائرا حتى وصل تحت أسوار ميلان قبل أن يجمع سطيليخو جيشا كافيا لمقابلته وهرب هونوريوس الى قلعة رافنه الحصينة التى لا يمكن التغلب عليها فأسرع سطيليخو ومر من جبال الالب فى منتصف فصل الشتاء لاجل تجنيد وجمع جيش من الايالات الغربية وبذل مافى طاقته حتى عاد ثانيا الى ايطاليا فى مبادى فصل ربيع سنة ٤٠٣ بعد الميلاد فى رأس جيش كثيف وأوقع بالغوطيين وهزمهم هزيمة حاطمة فى ضواحى بولنطيه على نحو خمسة وعشرين ميلا من مدينة تورين فى يوم ٢٩ مارث وتبدد شمل كافة العساكر المشاة الغوطية فجمع علريق بجسارته وجودة تدبيره جميع عساكر الخيالة من دون أن يحصل فيها أدنى ضرر وسار مجدا على رومة متعشما فى التغلب عليها من أول صدمة يصدمها بها فأسرع سطيليخو معقبا له وحرمه مما كان فى نيته ثم تبصر سطيليخو فى عواقب أموره ودبر مافيه حزم الرأى وعرض على ملك الغوطيين الصلح والقهقرة مع الامن براتب كاف له شهرى على شرط أن يسحب نفسه وعساكره من البلاد وألزم رؤساء الغوطيين علريق بقبول هذه الشروط ولما تم عقد المعاهدة ساق مابقى من عساكره ورجع عائدا الى الريقوم وصار اشهار قهقرة الامم المتبربرة فى رومة باحتفال عظيم فخرج فى وسط الملاعب تلماكوس من العباد المسيحيين فى ميدان المصارعات بالسيوف حاملا الصليب على رأسه وأمر المصارعين أو المكافحين باسم الههم أن يبطلوا ألعابهم هذه التى ليست من نوع الانسانية فغضب الجم الغفير من المتفرجين الحاضرين ورموه بالاحجار حتى مات وبعد قليل ندموا على مافعلوا من الذنب والجريمة وقرروا بان تلماكوس مات شهيدا فانتهز هونوريوس الفرصة من أجل هذه الحادثة وأبطل ألعاب المكافحة بالسيوف ثم نقل الامبراطور مقر الحكومة من ميلان الى قلعة رافنه وكانت فى وسط مستنقع لا يمكن عبوره من طريق واحد يمكن حمايته وقطعه وقت الحاجة والضرورة ومن غيره كانت القلعة غير ممكن الوصول اليها ولا التقرب منها واستمرت راقنه عاصمة مملكة ايطاليا الى أواسط القرن الثامن بعد الميلاد

وفى سنة ٤٠٥ بعد الميلاد ظهرت أمة جديدة من الامم المتبربرة فى ايطاليا وذلك أن القندالين وهم أمة من السلاف من سهول نهر الويستول تحركوا تحت قيادة رئيسهم رادغايسوس أو رادغاسطى نحو الجهة الجنوبية الغربية وانضم اليهم فى مدة حركتهم السويفيون والبورغنديون من القبائل الجرمانية وكذا قبيلة العلانيين من الصيطيين فعبروا جبال الالب ونهر البو وجبال الابنين من دون أن يلقوا كيدا وخربوا الاقليم الكائن بين جبال الالب ونهر ارنو بالسيف والنار حالما كان سطيليخو باذلا جهده فى جمع جيش لملتقاهم وكان رادغاسطى مجرد قائد أمم همجية وحشية وما كان له مطلب سوى الخراب والدمار والسلب والنهب وكان أقسم قسما مؤكدا أن يجعل رومة كوما من التراب ويقرب أرباب مجلس السناتو قربانا لآلهته ولما صدت مدينة فلورنسه حركته بما حصل منها من المقاومة الشديدة التى أوقعتها عليه توقف عن السير والحركة الى الجهة الجنوبية حتى أخضع هذه المدينة فكان تأخيره سببا فى تيسر الحصول لاسطيليخو على وجود زمن جاء فيه بجيشه الذى جمعه ودبر سطيليخو تدابيره العظيمة فى اجراء حركاته العسكرية حتى هزم هذه الامة الشديدة البأس من بين الامم المتبربرة وبدد شملها وقبض على رادغاسطى وذبحه وألزم ما بقى من الجيش وكانوا نحو ١٠٠٠٠٠ مقاتل على الانسحاب والخروج من ايطاليا فسار هؤلاء المتبربرون الى نواحى الغلية فى سنة ٤٠٦ بعد الميلاد واستوطنوا الاقليم الذى سمى فيما بعد باسم بورغندى وطردوا أرباب الاملاك من أملاكهم وأرضهم وخربوا المملكة بالسيف والنار من قبل أن يستديم توطنهم فيها فكانت هذه الحركة الكبيرة سببا فى سقوط السلطنة الرومانية من هذه الجهة وما عادت بعدها أبدا وفى سنة ٤٠٧ بعد الميلاد خسرت المملكة بريطانيا بواسطة ما حصل من الفرق العسكرية الموجودة فى هذه الجزيرة من الثوران فانهم قاموا وقتلوا اثنين من امبراطوراتهم وأجلسوا على التخت واحدا من قوادهم اسمه قسطنطين فتعدا مملكته فى سنة ٤٠٨ وسنة ٤٠٩ بعد الميلاد على قسم الغلية الذى سلم من تغلب الامم المتبربرة عليه وكذا على اسبانيا وفى سنة ٤٠٨ بعد الميلاد أصاب المملكة عناء الخسارات التى لا تعوض وهى موت قائدها الاكبر سطيليخو وكان سبب موته انه سخط من ضعف هونوريوس ورخاوته وازدرى بها وأضمر على عزله والانعام بالتخت على ابنه عوخيريوس فحض أعداء سطيليخو هونوريوس مع السهولة على قتله ومازالوا به حتى رضى وسمع بذلك فضبط وقطعت رأسه وكان موته سببا فى حرمان المملكة من رجل وحيد عصره كان فيه القابلية الكبرى والطاقة التى لا تكل ولا تمل على المنازلة والمحاربة مع الامم المتبربرة والذين لا عقول لهم من الذين جاؤا من بعده وخلفوه فى منصبه واعتمد عليهم الامبراطور فى أمور مملكته تصرفوا الحرب مع السرعة وكانوا يتمنون البعد عنه وكانوا سببا فى استمرار حروب على يقى مدة طويلة وما اكتفوا بهذا فقط بل أبعدوا عن أنفسهم حركة الجيش الوحيد الذى كان فيه الكفاية لمحاربة الغوطيين بان تسببوا فى وقوع مذبحة عمومية فى عائلات الاغراب المساعدين فى الحروب وكانوا بوا فى المدائن الايطاليانية رهائن من أجل خدمة هؤلاء العساكر مع الصداقة والثقة فى خدمات العسكرية فأقسم العساكر الاغراب أن يأخذوا بالثار وينتقموا من قاتلى أزواجهم وأولادهم وأهليهم ودعوا علريق للاغارة على ايطاليا ووعدوه الانضمام معه من دون مهلة والمساعدة له على هذه الاغارة فأسرع ملك الغوطيين فى قبول هذه الدعوة من دون حصول أدنى توان وسار مجدا حتى عبر جبال الالب وزحف بجيوشه على رومة وحاصرها وضيق عليها ولما آل

امرها

أمرها الى العدم وأشرفت على الخراب وتركها الامبراطور واشترى مجلس السناتو سلامة المدينة ودفع الى علريق مبلغا جسيما من النقود فداء المدينة حتى رفع الحصار عنها وتقهقر الى توسقانه وهي عطروريا وعزم على قضاء فصل الشتاء فيها وسعى ملك الغوطيين أيضا في أن يكون مع هونوريوس على أمر فيه صلاح لهما فلعن لعنا مغلظا في أثناء مخابرته في هذا الامر ففصل المسئلة وكسر عودها وسار على رومة وضبط مينة ء وسطيه وكانت الغلال والحبوب اللازمة لاحتياجات العامة مخزونة فيها فحصل من ذلك في رومة القحط الشديد وسلمت نفسها الى علريق من دون شرط فجعل علريق والى المدينة وهو النائب عطالوس امبراطور الغرب بدل هونوريوس وقلد عطالوس علريق رياسة عموم الجيوش الرومانية فمنع هراقليان حاكم افريقه صادرات الحبوب والزيوت الى رومة وخدم هونوريوس خدمة جليلة وكان سببا في وجود القحط والنفور في داخل رومة وأراد عطالوس أن يجعل نفسه مستقلا من علريق فخلعه علريق في سنة ٤١٠ بعد الميلاد ورغب علريق مرة ثانية أن يكون على شروط وعهود مع هونوريوس فما نال سوى اللعن المغلظ أيضا فوجه علريق وجهه وسار على رومة وكانت فتحت أبوابها له ليلا بمعرفة من كان فيها من الرقيق في ١٠ أغسطوس من سنة ٤١٠ بعد الميلاد وأمر علريق بالقتل والسلب في المدينة مدة خمسة أيام متوالية وفي أثناء هذه المدة انتقم الرقيق من أسيادهم وكان عدد الرقيق نحوا من ٤٠٠٠٠ نفس ونالوا فيهم أغراضهم وأخذوا بثأر ما كانوا اكتسبوه منهم من العناء والضر روشفوا صدورهم من مواليهم وكانت رومة مشحونة بالاموال والبضائع والجواهر الثمينة والمواد النادرة الوجود كالذهب والفضة والجواهر وأصناف الحرير وأنواع النقوش الجريسية والغنائم والاسلاب التي انتخبت وجلبت الى رومة من البلاد والاقاليم التي كانت فتحتها فضبط الغوطيون كل هذه الاشياء وحملوها من رومة ودمروا ما لم يقدروا على حمله ولم ينج من أيديهم الا الكنائس والاملاك الموقوفة عليها فقط لان علريق كان مسيحي الدين يقال انه هيج حربا على الرومانيين لا على المرسلين

وسار الغوطيون في طول الطريق الابيائي وتغلبوا على ايطاليا الجنوبية وعجزوا عن التغلب على جزيرة سيسيليا وافريقه فأنشأ علريق أسطولا من أجل عبوره البحر الابيض المتوسط فتبدد أمر هذا الاسطول من العواصف والتلاقيح وختمت هذه الغارات بموت علريق فجأة فحول الغوطيون مياه نهر بوزنطيوس من مجراها الاصلي بشغل الاسرى الرومانيين ومن بعد تجفيف النهر من الماء بنوا فيه قبرا وزخرفوه بالغنائم والاسلاب الرومانية وأرقدوا في هذا القبر جثة علريق وغلقوا القبر وأعادوا المياه كما كانت الى مجراها الاصلي وذبحوا كافة الاسرى الذين اشتغلوا في هذا الشغل حتى لا يفشي أحد منهم محل هذا القبر وكان ذلك في سنة ٤١٠ قبل الميلاد

ومن بعد موت علريق خلفه عودولفوس صهره فاستمر في خراب ايطاليا الجنوبية نحوا من سنتين ثم عقد بعدها صلحا مع هونوريوس وتزوج بلاسيديه أخت الامبراطور وانصرف الى داخل الغلية ثم سار منها الى اسبانيا وكان الفنداليون تغلبوا عليها في سنة ٤٠٩ بعد الميلاد فطرد عودولفوس الفنداليين وأسس سلطنة الغوط الغربية تابعة للمملكة الغربية في سنة ٤١٤ بعد الميلاد فاستمرت هذه التبعية نحو أربع سنوات الى زمن طيودوريق الاول سنة ٤١٨ بعد الميلاد ثم صارت المملكة مستقلة في نفسها وأما الفنداليون الذين طردهم عودولفوس الى الجهة الجنوبية من اسبانيا

واستوطنوها فقد عرفت هذه الكورة باسم فندالسيه أو فندالوزيه وسماها العرب باسم آندلس أو الاندلس

ومن بعد موت عودولفوس زوج هونوريوس أخته بلاسيديه أرملة ملك الغوطيين الى قنسطنطيوس وأشركه معه فى المملكة ومات قنسطنطيوس من بعد أن تسلطن سبعة أشهر ثم اشتبكت بلاسيديه فى منازعة مع هونوريوس ولما خافت على نفسها هربت الى القسطنطينية والتجأت عند ابن أخيها طيودوسيوس الثانى أمبراطور الشرق ثم مات هونوريوس من بعد مضى بضع شهور ومن هربها من بعد أن تسلطن ثمانيا وعشرين سنة لم يعمل فيها شيأ سوى عدم الاهلية والعجز فى سنة ٤٢٣ بعد الميلاد ومن بعد موت هونوريوس اغتصب التخت شخص اسمه يوحنا كان كاتب أسرار هونوريوس فأرسل طيودوسيوس الثانى أسطولا وجيشا لخلع هذا الغاصب وتقوية طلبات عمته وابنها فلنطنيان فتمم هذا المشروع على أتم منوال لان يوحنا ما كان له مساعد من الامة ولا عساكر فى مملكته وأسر يوحنا وقطعت رأسه فى نواحى أكيلية سنة ٤٢٥ بعد الميلاد وكان عمر فلنطنيان الثالث ست سنوات وفى ظرف الخمس والعشرين سنة التى جاءت بعد حكمت المملكة أمه بلاسيديه بالنيابة عنه وعهدت المملكة فى هذه المدة المشكلة لايدى امرأة عاجزة وطفل صغير فوصلت حالتها الى أردا الاحوال كما سنذكره بعد وتجردت من درجات صفات كالاتها وعهدت قيادة العسكرية الى أعطيوس وبونيفاس وكان بونيفاس حاكما فى جهة افريقه فلو جمعا مهارتهما سوية لكانا أتما أشياء كثيرة عاد منها النفع والصلاح فى المملكة لكنهما افترقا من الغيرة والحسد الذى حصل عند أعطيوس لجهة بونيفاس فتولد من قبائح أعطيوس ودسائسه عصيان بونيفاس ودعا عنثريق ملك الفندالين فى عبوره من اسبانيا الى افريقه لمساعدته فقبل عنثريق دعوته مع كل عجلة ودخل افريقه فى رأس ٥٠٠٠٠ مقاتل وانضم معه أهل المغرب من افريقه والدوناطيسطيون وأهلوا به كأنه المعتق لهم ووجه عنسريق جيوشه مباشرة على كل من الرومانيين وبونيفاس وهزمهم وجعل نفسه سيد افريقه وفى سنة ٤٣٩ بعد الميلاد نجح فى كونه شيد مملكة فندالية على الساحل الشمالى من قارة افريقه وجعل قرطاجنة عاصية هذه المملكة

وفى الحقيقة صارت المملكة الغربية فى حالة كئيبة يرثى لها ويؤسف عليها الان افريقه تغلب عليها عنسريق وضاعت منها بريطانيا بالكلية واستمرت الحالة مدة أربعين سنة من دون حكومة الاحكومة القسس والاشراف ونواب المدائن كما انه كان حصل التنازل عن أقاليم بانونيه ونوريقوم ودلماطيه الى المملكة الشرقية فى نظير المساعدة التى أداها طيودوسيوس فى خلع يوحنا الغاصب وانتقلت الغلية الجنوبية الغربية الى أيدى الغوطيين واحتل البورغنديون الغلية الشرقية وصار الفرنج أسياد الغلية الشمالية ومابقى من الغلية الا كورة صغيرة جهة الجنوب تحت حوزة المملكة فكانت المملكة مقصورة على هذه الكورة وايطاليا وفنديلسيه وريطيه

ودافع أعطيوس عن الغلية الرومانية فيما بين سنة ٤٣٥ وسنة ٤٥٠ بعد الميلاد مع الشدة والحيل من غارات الغوط الغربية من جهة ومن غارات الفرنج من أخرى واستحوذ الفرنج فى السنة الاخيرة أى سنة ٤٥٠ بعد الميلاد على مساعدة عطيلا ملك الهونزيين وكان هذا الرئيس القوى البأس ينسب سلسلته الى قدماء الهونزيين الذين كانوا نازلوا أملاك الصين فكانت هيآت سحناتهم

تدل على أصل جنسهم وكانت تقاطيع عطيلا عين تقاطيع المتأخرين من القلموك فكان ضخم الرأس أسمر اللون غائر العينين أفطس الانف له شعرات قليلة فى لحيته عريض الكتفين قصير القامة مربوع الجسم شديد العصب غير متناسب الاعضاء وحالة علو هذا الملك الهونزى وسلوكه يوضحان معرفة سيادته على ما بقى من النوع البشرى وكان له عادة فى شراسة عينيه وحلقتهما لو أراد أن يظهر ما فى قلبه من الرعب والخوف وجمع حول نفسه رعب الدنيا القديمة وهولها شيأ فشيأ حتى وصف بأنه صاعقة من عند الله أو نقمة من عنده ومع هذا فما كان هذا الشجاع الوحشى منزوعا من قلبه الرحمة بل كان أعداؤه يؤملون فيه بلوغ السلم والعفو وكان مرتبا عند رعاياه بأنه رجل حق عدل منصف متساهل فى أموره ومد مملكته على الاقليم الشاسع الواقع بين بحر بلطق والبحر الاسود ونهر الرين ونهر الولغا وكان فيه الحذاقة والقدرة على الخروج والبروز فى ميدان الحروب فى رأس ٧٠٠٠٠٠ مقاتل لا أقل تحت قيادة الملوك المتبربرين الذين صاروا عبيدا له وحاز لنفسه كامل الشوكة البربرية الهمجية الاوروباوية وفى مدة التسع سنوات التى مضت قبل ظهوره فى الجهة الغربية خرب المملكة الشرقية ونشر أهواله وتخريباته فيها حتى وصل قريبا جدا من أسوار القسطنطينية وما انسحب من جهتها حتى وعد بدفع خراج سنوى ودفع له معجلا قيمة ٦٠٠٠ ليرة من الذهب وفى سنة ٤٥١ بعد الميلاد سار من عاصمته هنكاريا للاغارة على المملكة الغربية بعلة مساعدته ملك الفرنج وكان ربط نفسه معه على مساعدته وبمجرد وصوله الى نهر الرين انضم اليه الفرنج ودخل هذا الجيش المتحد فى الغلية وزحف على أورليان وحاصرها

وفى غضون ذلك دخل طيودوريق ملك الغوطيين فى معاهدة مع الرومانيين وكان أقام الاستقلالية فى مملكته وكان مآل شروط هذه المعاهدة صد الهونزيين وما هم عليه من الطمع فى البلاد وكانوا رغبوا فى التغلب على عموم الدنيا مع أن طيودوريق كان رجلا طاعنا فى السن الا أنه خرج الى ميدان الحرب بنفسه واصطف الغوطيون تحت بيرق ملكهم مع الهيبة والحماس وسار على منوالهم عدة قبائل وأمم كانوا يترددون بين الهونزيين والرومانيين وضم هؤلاء الامم قواهم الى الجيش الرومانى تحت قيادة عطيوس وساروا جميعا الى الغلية ليكونوا مع الحالة الاخيرة التى ينفصل فيها الامر أن صارت أوروبا طوطونيانية أى تتارية أو غيرها فوصلوا الى أمام أورليان فى الوقت الذى جعل فيه عطيلا المدينة على آخر نفس وكانت أشرفت على التسليم وفتح شرما فى جهة من أسوارها ولما قرب الجيش المتحد من أورليان رفع عطيلا حصارها وسحب عساكره وعبر نهر السين الى ضواحى شالون لينتفع بسهولها الواسعة فى استعمال حركات خيالته من الصيطيين فساق المتعاهدون خلفه ووقعت بينهم واقعة كبرى فى شالون وكانت هذه الواقعة مشهورة بما حصل فيها من شدة الحرب وكثرة العساكر الذين كانوا موجودين فيها وكان عددهم ينيف عن مليون نفس واختلف فى عدد المقتولين من الطرفين فكانوا على ما قيل من ١٦٣٠٠٠ نفس الى ٣٠٠٠٠٠ وكان الافتتاح فى هذه الواقعة بهجوم حصل من الغوط الغربية واستمر طول النهار وقتل طيودوريق وانفصل الخلاف فى الحرب بمهارة العساكر الغوطية فانهم أجمعوا أمرهم تحت قيادة ابنه طوريسمونه وخلص الهونزيين من الهزيمة الكبرى بدخول الليل فقط والتجأوا فى داخل دائرة عربات الجملة وكانوا محصنين بها معسكرهم وفى اليوم الثانى أصبح الغوطيون فى حماس شديد على الهجوم على معسكر العدو الا أن عطيوس خشى من ان

المملكة ربما تقع فى ارتباك من الغوطيين مثل ماهو واقع من الجونزيين وبذلك تبدد أمرها ومال طورسمونه الذى جعل ملكا بدل أبيه بمعرفة قومه الى أن يأخذ جيشه ويعود الى طولوز لاجل توطيد خلافته على التخت ومن بعد سفر المنصورين وانفصال الجيش المتخالف من بعضه استغرب عطيلا من الهدو والسكون المتسلطن فى سهول شالون الا انه ارتاب فى انه ربما أن تكون خديعة جاريا عملها فانتظر عدة أيام ولما انقضت هذه المدة تقهقر عابرا نهر الرين وكانت هذه النصرة ختام نهاية اسم المملكة الغربية وغلاق بابها

ومع أن واقعة شالون كانت هى الفاصلة لعاقبة أوروبا الا أنها مامنعت عطيلا من العود الى الحركات التعرضية وكان عطيوس ينظر بعين السياسة المبينة لما هو حاصل من الضرر الواقع على المملكة من قائد المتبربرين وفى سنة ٤٥٣ بعد الميلاد أغار على ايطاليا الشمالية الشرقية وتغلب على مدائن اكيليه وعلطينوم وكنكورديه وبادوه وخربها ونهب ميلان وباويه فتولد من هذا الخراب شئ ما كان تحت نظر الجونزيين وما كان على رغبة منهم لان أهل مدينة اكيلية وبادوه وماجاورهما من المدائن هربوا من شراسة وقطاعة المتبربرين ونجوا باحثين على سلامة أنفسهم من شرهم فاتخذوا لهم ملاجئ وضيعة فى جزائر فى رأس البحر الادرياطيقى ورموا فى هذه الجزائر أساسات الجمهورية المشهورة الفنيزيانية ثم تحرك عطيلا الى الجهة الجنوبية عازما على أخذ رومة وخرابها فقابله فى رأسه بعث البابا ليو الاكبر فتولد مما استغاث به البابا الخوف والرعب الخرافى فى قلب القائد البربرى وارتد فى الحال عائدا الى ممالكه ومن بعد مضى مدة قليلة طفح الدم من حلقه ومات فى الحال وخلصت الدنيا من شره وأذاه الذى كان أرعبها به وتقطعت مملكته قطعا بسرعة زائدة عن السرعة التى شيدها بها وخلص فلنطنيان من خوفه من الجونزيين وانثنى على عطيوس بغضبه عليه وقتله بيده شر قتلة فى سنة ٤٥٤ بعد الميلاد وفى السنة التالية ذبح مكسيموس فلنطنيان وكان مكسيموس من أغنياء السناتو وكان حصل له أذى من الامبراطور مع اثنين من خدم عطيوس وكان قتله فى سنة ٤٥٥ بعد الميلاد ولبس مكسيموس الثوب الارجوانى الا انه ماتسلطن الا ثلاث سنوات لانه أرغم عودوكسيه أرملة فلنطنيان على زواج قاتل زوجها فاستغاثت بمساعدة غنسريق ملك الفندالين فى افريقه وكان أسطوله رئيس البحر الابيض المتوسط فلبى ملك الفندالين دعوتها وأجاب سؤلها ورغبتها مؤملا غنيمة نفسه من غنائم ايطاليا وأسلابها فسار فى أسطوله ونزل فى مينة عوسطيه فقام الرومانيون على مكسيموس وقتلوه ومع ذلك فان غنسريق زحف على رومة وماضر فى حركته هذه أحدا من أهل المدينة بما ان قصده كان السلب فقط وضبط المدينة ورخص لعساكره بمدة أربع وعشرين يوما فى نهبها فأخذ الفنداليون كل ما كان تركه علريق وحملوه معهم الى افريقه وما نجا منهم شئ حتى الكنائس التى كان علريق تركها وقت ماسلب المدينة وجرد غنسريق المدينة من جميع أموالها وأمتعتها مهما كانت صفتها ولما ثقلت أحمال المتبربرين من السلب والنهب تقهقروا الى أسطولهم وأقلعوا الى قرطاجنه ومعهم عودوكسيه وبنتاها

وتولد مما حل بالرومانيين من هذه المصائب والاهوال الضعف والوهن الشديد حتى صار لاطاقة لهم باى حالة من الاحوال على تعيين امبراطور جديد وبواسطة شوكة ملك الغوطيين طيودوريق الثانى صار تقليد افيطيوس قائد الفرق العسكرية فى الغاية أمبراطورا فى سنة ٤٥٥ بعد الميلاد ومن بعد أن

تسلطن

تسلطن أقل من سنة خلعه الكونت أى العمدة ريسيمر الغوطى فى سنة ٤٥٦ بعد الميلاد فصار أسقفا فى بلاسنطيه ومات من بعد مضى بضع شهور ثم ان ريسيمر وضع على التخت ماجوريان نائباعنه وعن اسمه لمدة مقدارها ستة أشهر فى سنة ٤٥٧ بعد الميلاد فكان ماجوريان رجلا ماهرا صاحب عزم ونشاط وحزم وتدبير عكف نفسه فى الحال على طرد القندال وكانوا هرسوا الساحل الايطالى ودرسوه وأوقف ماكانوا عليه من السلب والنهب واستعد فى سير تجاهه هذا للاغارة على المملكة الافريقية فتدمر الاسطول الذى جمعه بواسطة جواسيس من طرف عنسريق فى نواحى مدينة قرطاجنه فانجبر ماجوريان على العود الى ايطاليا فألزمه فيها ريسيمر على التنازل عن التخت وكان حصل عند ريسيمر الحسد والغيرة من نائبه بما أظهره من الجسارة والتدمير حتى يكون مقبولا عند ولى أمره وذلك فى سنة ٤٦١ بعد الميلاد

وقلد ريسيمر امبراطورا آخر اسمه ليبوس سفروس وجعله لعبة فى يده والشوكة الحقيقية لنفسه فكانت سلطنة سفروس معروفة فقط فى ايطاليا وأما فى دلماطيه فكان مرسيلينوس وكان فى الغاية عيغيدبوس فمع انهما ماكانا متقلدين زمام الملك الأنهما كانا الحاكمين الحقيقيين فى هاتين الايالتين ومات سفروس فى سنة ٤٦٥ بعد الميلاد واعتقد ريسيمر فى نفسه أن فيه الطاقة الكافية لاداء الاعمال فى ايطاليا فسمح بخلو التخت ومع هذا فكان موقعه من أخطر المواقع وبما أنه كان غريب الدار ما كان عنده أدنى وثوق من الرومانيين وكان عرضة لاغارات عنسريق ملك القندالين فى افريقه ولاغارات مرسيلينوس ومن بعد مضى سنتين التزم طلب المساعدة من أمبراطور الشرق فمنحه ليو أمبراطور الشرق المساعدة على حسب أغراضه وانجبر ريسيمر على أن يقبل انطيموس أمبراطورا فى الغرب الذى عينه من طرفه الامبراطور ليو وكان انطيموس هذا من كبار بيزنطيوم فى سنة ٤٦٧ بعد الميلاد

ثم حصل هجوم شديد على القندالين بالجيوش والقوى المتحدة من الشرق والغرب ومع كل ما حصل فان عنسريق أنكى أعداءه وفاز بكونه دمر أسطول المتحالفين بنيران المراكب وحفظ لنفسه جزيرة سيسيليا لاجل المحافظة على مملكته وعدم ضياعها ولكى يمكنه منها الاغارة على ايطاليا عند انتهازه الفرصة التى تعود عليه بالفائدة وذلك فى سنة ٤٦٨ بعد الميلاد وبمجرد صعود أنطيموس على التخت زوج بنته من ريسيمر وظن فى نفسه أنه نال صداقة هذا الرجل الباسل القوى البأس ومعاضدته ومن بعد مضى قليل وجد أنه انغش فى أمره ولما جعل الامبراطور مقر مملكته وحكومته فى رومة عاد ريسيمر الى ميلان ورتب فيها ثورة بقصد خلع الامبراطور وزحف على رومة فى رأس جيش مؤلف من الغوطيين والبورغنديين وأسرع فى سيره الى هذه المدينة وقتل أنطيموس وعين أمبراطورا جديدا اسمه عوليبريوس فى سنة ٤٧٢ بعد الميلاد ومات ريسيمر من بعد مضى أربعين يوما وترك ابن أخيه غندوبالير وهو بورغندى الاصل وارثاله ثم من بعد مضى ثلاثة شهور ومات عوليبريوس فأنعم غندوبالير بالثوب الارجوانى على غليسريوس وكان هذا رجلا عسكريا جاهلا لا يدرى شيأ فدخل الامبراطور ليو أمبراطور الشرق ثانيا فى هذه المادة وأجلس على التخت يوليوس نيبوس ابن أخى مرسيلينوس صاحب دلماطيه وصار ارضاء خاطر غليسريوس نظير طاعته لهذا النظام بان منحه أسقفية سالون فى سنة ٤٧٤ بعد الميلاد

وعندما جلس يوليوس نيبوس على التخت انفجرت ثورة بين المستأجرين المتبربرين وكانوا هم أسياد

ايطاليا فى الحقيقة وخلعوا يوليوس نبوس وكانوا تحت قيادة الرئيس عورسطيس فى سنة ٤٧٥ بعد الميلاد وأجلسوا على التخت رومولوس أوغسطس ولقبوه أوغسطلوس المسخرة وكان ابن عورسطيس

ومن بعد جلوس أوغسطلوس طلب المؤاجرون ثلث أراضى ايطاليا مكافأة لهم على ما أدوه من الخدمات ولما حصل عدم القبول والرضا بحصهم طلبهم قاموا تحت بيرق العصيان وذبحوا عورسطيس وخلعوا أوغسطلوس وألغوا المملكة فى ضربة واحدة ونادوا على قائدهم الجرمانى عودوسير ملك ايطاليا ومن ثم كان سقوط المملكة الغربية من بعد أن لبثت ٥٠٧ من السنين

﴿تذييل﴾ كان ختام سقوط المملكة الغربية ختام نجم التاريخ القديم وغلاق أبوابه ومن الآن فصاعدا يرى المطالع نفسه أنه واقف مشاهد للاجناس الجديدة والحضارة والتمدن الجديد الذى ظهر فى ميدان العالم ليحل محل الاجناس القديمة والحضارة القديمة ويختفى بوجود معالم الميدان الاكبر الذين كانوا موجودين فى ميدان تاريخ العالم والله يؤتى ملكه من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شئ قدير وكان كلامنا لحد الآن مقصورا على كل من قارة آسيا وافريقه والكرود الاوروباوية الموجودة على ساحل البحر الابيض المتوسط وتولد من خفاء المملكة الغربية اتساع الميدان لنا على قدر امتداد البصر فظهر لنا فيه أمم جديدة وانتقل معظم القصص والحكايات والتسجيلات التاريخية الى قارة أوروبا وانقسمت فى هذا الوقت بين أربع فروع كبيرة من الجنس الاريانى أى الجنس الذى ليس أهله من أصل قارة أوروبا وهم الجريق واللاتنيون والصلطيون والطوطونيون أى التتار والرقيق أو السلافيون ومن هذه الفروع ينسب الفرع الاول للتاريخ القديم وأما الثلاثة فروع الاخر فتنسب لتاريخ القرون المتوسطة

ثم قسم مؤرخو القرون الاخيرة فى العادة مدة التاريخ المتأخر الى قسمين فالاول تاريخ القرون الوسطى وينحصر فى المدة الكائنة بين سقوط المملكة الغربية وغلاق القرن الخامس عشر من التاريخ المسيحى والثانى تاريخ القرون الاخيرة ويمتد من غلاق القرن الخامس عشر الى أيامنا هذه وقد اصطلحوا على المدة الاولى من هاتين المدتين باسم اعصر الجاهلية أو الجهالة لانه من عهد خفاء تمدن رومة تحولت الدنيا الى حالة همجية بربرية فى أوروبا لكن القارئ لا ينبغى له أن يخيب فكره من أن هذه المدة ولو انها كانت فى الظاهر كثيرة الجهل والظلام مخيم عليها لكنها كانت فى الحقيقة عصر تقدم وترعرع جسم الحضارة الاوروباوية وتيسر الحصول فى هذه المدة على اكتساب الدرجة والقوة الفعالة لظهور الاشياء التى وجدت فى الميدان الاكبر لتاريخ القرون المتوسطة وكان عصر الحضارة الاسلامية زاهرا فى هذه المدة فلو نسبنا هذا الظهور لعصر الجهالة فى أوروبا فانما ننسبه على الخصوص لسعة وتقدم نطاق الطوطونيين وهم الجنس الجرمانى لان هذا الجنس من بعد توطنه فى أوروبا الوسطى والشرقية ابتدأ مباشرة فى سقوط المملكة الغربية كى ينتشر بكافة القارة وينشئ لها هيئة وصفة جديدة كما قال بعض المؤرخين من أمريقه ان تاريخ القرون المتوسطة فى أوروبا تاريخ مشترك بين متوحشى الجرمانيين أى الطوطونيين واللاتنيين أو الجنس الصلطيقى فكانت الالفة الاخيرة نتيجة مركبة من الاثنين خرجت عناصرها منهما فأخذت من المتبربرين محبة الحرية الذاتية والشعور بالاستقلالية ومن الرومانيين هيآت اقامة حضارة دوامية ومن المفيد هنا توجيه النظر لمعرفة مواطن أوروبا

ومساكن أمهاتها في الوقت الذي شيد فيه عود وسير تحته على أطلال المملكة الرومانية وآثارها فكان الجنس الجرماني هو المستولي في أوروبا وابتدأت القبائل الجرمانية في الكبس على الامم الصلطيقية الى داخل جهات ضيقة وكان أهل الغلبة من الفرع الصلطيقي وصاروا في نفوذ وشوكة عالية بواسطة اتحادهم واتصالهم بالرومانيين الى أن صاروا جميعا لاتينيين ومسيحيين من قبل دمار المملكة الغربية ويمكننا أن نقول أيضا كذلك في خصوص الجنس الصلطيقي في اسبانيا الاريانى وكذا صلط جزائر بريطانيا فان هؤلاء تيسر لهم الحصول على حقوق التبعة الرومانية وحصلت لهم الثمرة والفائدة الكبرى باتحادهم مع الرومانيين وابتدأ النفوذ الجرماني يؤثر بقوته الفعالة على هؤلاء الامم عند سقوط المملكة الغربية مع الظفر والنجاح كما سنذكره في محال أخرى من هذا الكتاب

فأما القبائل والشعوب الجرمانية الاصلية فكان الغوطيون والفرنج والفندليون والبورغنديون واللومبارديون والصاكصونيون والانكليز والإسكنديناويون

وفي وقت سقوط المملكة الغربية كانت مملكة الغوطيين الغربية للعوريق محصورة في كامل اسبانيا وجميع الغلية الموجودة في جنوب نهر لواره وغربي نهر الرون وكانت عاصمة هذه المملكة مدينة أرل وكانت هذه المدينة مرعية بانها قاعدة الحضارة ومركز التمدن الغربي وكانت منتخب دار العلم والتهذيب في أوروبا وملكها أقوى شوكة وأنور عقلا وأكثر خبرة ودراية من كافة ملوك أوروبا وفي مدة سلطنة عوريق صار طرد الغوط الغربية الى نواحي جنوب جبال البرنات فوطنوا أنفسهم في بحيث جزيرة اسبانيا واستمروا فيها حتى جاء العرب ودمروا عليهم مملكتهم من بعد مضي قرنين من طردهم وأما الغوط الشرقية فكانوا مقيمين في ايطاليا في الاقليم المحصور بين الدانوب والبحر الادرياطيقي وأما الغبيديون وهم أمة أخرى من الغوطيين فكانوا مستوطنين في شمال الدانوب الاسفل وبين الدانوب الاعلى وجبال كربات في الاقليم المعروف الآن بالافلاق والبغدان أو مولداويه وولاخيا وفي الشرق من هنكاريا وكان الغوطيون أول الامم الطوطونية الذين دخلوا تحت سلطنة الديانة المسيحية ونفوذها وقبلوا هيئة الديانة المذكورة في وقت سقوط المملكة الغربية وكانت تعرف عندهم باسم الديانة الاريانية أي التي ليست ديانة آبائهم وأجدادهم الوطنية

وأما الفرنج أو الفرنك (أهل الحرية) الذين صاروا على حسب تمادي الاحوال أسيادا الغالية القديمة وأطلقوا اسمهم على القسم الاعظم منها فـازالوا قاطنين خلف حدودها الى أن ابتدؤا بالكبس على الحدود وسكنوا في مبادي أمرهم في الكورة المعروفة اليوم ببلجيقا واقليم الرين الاسفل ثم تغلبوا في زمن سقوط المملكة الغربية على الغلية وطردوا الغوط الغربية من الجهة الجنوبية الغربية منها واستولوا على البورغنديين وسموا مملكتهم باسم فرانسا المشتق من لفظة فرنكيه أو الفرنك أو أرض الفرنك

وأما الفندليون فانهم انتشروا من ابتداء الطرف الجنوبي من بحيث جزيرة اسبانيا الى الساحل الشمالي من افريقه وأقاموا مملكتهم وشيدوا قرطاجنه عاصمة لها وتغلبوا أيضا على جزيرتي قرسقه وسردينيه و جزيرة باليارق

وسكن البورغنديون وادي الرين وجهات البحيرات السويسية ولبث هذا الاقليم ألف سنة مسمى باسمهم وكان سلطانه ألد الاعداء الى الحكومة الفرنساوية الى أن صار خضوع هذا الاقليم

وأما اللومبارديون أ ي اللونجيارديون فكانوا في هذه المدة متوطنين في شمال غيبديه بين الدانوب وأعالي مياه نهر الويستول وكانت مملكتهم الاصلية أرض الثروط وساروا منها الى نواحي شواطئ نهر الالب ومن بعد قليل انتقلوا الى الجهة الجنوبية الشرقية وقطنوا في الاقليم المسمى الآن لومباردية ومنه نزلوا بعد ذلك على ايطاليا وأما الصاكصونيون (أرباب الخناجر والسكاكين) فانهم جاؤا في الاصل من الاقليم المعروف الآن باسم هولصطين ثم انتشروا في نحو هذه المدة في اقليم نهر الوزر من ابتداء الرين في الجهة الجنوبية الى بحر بلطق وسكن قبيلتان مشهورتان من الصاكصونيين بحيث جزيرة دانيمارقه فكان هاتان القبيلتان هما الثروط والانكليز وما تقابل الصاكصونيون مطلقا مع الرومانيين وما حصل عندهم تأثير السلطة الرومانية بل مازالوا على هيآت الديانة الوثنية متمسكين بمذاهبها وعقائدها وقطن الكثير منهم في طول سواحل الغليةة الشمالية فتولد من قطعهم سبل البر والبحر وقوع الفزع الاكبر والخوف الشديد في طول كافة السواحل الاوروباوية وكان من قبل سقوط المملكة الغربية عبر الانكليز والصاكصونيون والثروطيون البحر الشمال ووطنوا أنفسهم في القسم الجنوبي من بريطانيا وسموها باسم انكلترة أي أرض الانكليز وأما الاسكنديناويون فانهم لم يظهروا في ميدان العالم الى حد القرن التاسع أو العاشر حتى ظهر اسمهم واشتهر ذكرهم تحت اسم نورمان أو رجال الشمال ثم عربت هذه اللفظة باسم النورمانديين

فكانت هذه هي التقسيمات الاصلية للعائلة الطوطونية الكبرى أي العائلة التي وصلت أوروبا من تتار شمال آسيا وأما السلاف أو السلافيون ومعناه في الاصل الرقيق فكانوا قاطنين خلف نهر الالب في السهول الواسعة من شرق أوروبا وهم أحد أقسام الفرع الاكبر الارياني أي الغريب في أوروبا فكانوا قوما رعاة كثيري العدد قليلي الشوكة عن الجنس الطوطوني ومن هذا الجنس معظم الروسيين وأما الاقاليم الباردة المستنقعة الموجودة في الطرف الشمالي من أوروبا فكانت مسكونة بقبائل الفلمنك وينسب المتأخرون من البولنديين والبوهيميين والبلغاريين والاريانيين الى الجنس السلافي وكانت الجهة الجنوبية الشرقية من أوروبا داخلة في ضمن الممالك الشرقية أو المملكة الجريقية

وأما الطرف الشمالي الغربي من أرض الغلية فانه مازال تحت أيدي ملاكه من الصلطيين وقوى هؤلاء أنفسهم بمستعمرات من البريطانيين كان طردهم الصاكصونيون من بريطانيا فمازال هذا الاقليم مسمى باسم بريطاني وكذا كان الجنس الصلطيقي قاطنا في القسم الغربي والقسم الشمالي من بريطانيا المعروف الآن باسم الويلس وأصكوطلنده وارلنده والى هنا تم تاريخ رومة على حسب الحالة الراهنة

(الكتاب السابع عشر)

تاريخ المملكة الرومانية الشرقية

(الباب الاول)

من ابتداء سقوط المملكة الغربية الى فتح الترك القسطنطينية

قيام المملكة الشرقية ـ اتساعها وصفتها ـ سلطنة اركاديوس ـ طيودوسيوس الثاني ـ اغارة

الحوزيين ـ سلطنتا مرسيان وليو التراسياني ـ انسطاسيوس الاول ـ يوسطين ـ سلطنة يوسطنيان ـ الامبراطورة طيودوره ـ الثورة في القنسطنطينية ـ فتح مملكة القندال في افريقه ـ فتح بلزاريوس ايطاليا ـ معاملة الامبراطور له مع عدم العدل والانصاف ـ أشغال يوسطنيان العمومية ـ قوانينه المدنية وشرائعه ـ القلاقل والارتباكات مع القبائل المتبربرة ـ سلطنة يوسطين الثاني وطبريوس وموريس ـ الحرب مع فارس ـ الامبراطور هرقليوس أو هرقل ـ مظفرات الفرس ـ استرداد هرقل أراضيه التي كان خسرها ـ صيرورة القسس مدايني المملكة ـ فتوحات العرب ـ محاصرة القنسطنطينية ـ يوسطنيان الثاني ـ ليو الثالث ـ اعادته سطوة المملكة ـ قضية عبادة الاصنام والتماثيل ـ مبادى حرب تكسير الاصنام ـ قنسطنطين الخامس ـ تحريم عبادة الاصنام ـ مجلس القنسطنطينية ـ ليو الرابع ـ سلطنة الامبراطورة ارين ـ صيرورة نيسفوروس امبراطورا ـ معاهدته مع شرلمانيه ـ ليو الخامس ـ الحروب مع البلغاريين ـ دخولهم في الديانة المسيحية ـ صيرورة ميخائيل الثاني امبراطورا ـ نجاح تجارة القنسطنطينية ـ ختام حرب تكسير الاصنام ـ سلطنة ميخائيل الثالث وبازيل الاول ـ البازيليات ـ تغلب العرب على ايطاليا الجنوبية من الامبراطورات الجريقية ـ ليو السادس ـ قنسطنطين السابع ـ سلطنة رومانوس الثاني وقنسطنطين التاسع ـ يوحنا ظميشيس ـ الحرب مع الروسيين ـ سلطنة بازيل الثاني ـ رومانوس الرابع ـ قيام الدولة التركية ـ صيرورة مانويل الاول امبراطورا ـ سلطنته الشديدة ـ موته ـ تغلب أهل الصليب اللاتينيين على القنسطنطينية ـ الممالك اللاتينية ـ اضمحلال المملكة ـ امبراطورات نخيا ـ الشوكة والدولة الكبرى ـ صيرورة اندرونيقوس امبراطورا ـ سلطنة يوحنا الخامس ـ محاربات القنيزيانيين والجنويزيه والبيزانية ـ وجود الترك في أوروبا ـ تغلبهم على أراضي المملكة ـ فتحهم مدينة أدرنه ـ محاصرة السلطان بايزيد القنسطنطينية ـ طلب المملكة مساعدة أوروبا الغربية ـ صيرورة قنسطنطين الثالث عشر امبراطورا ـ حصار السلطان مراد الثاني القنسطنطينية والتغلب عليها ـ سقوط المملكة الشرقية

في المدة التي كانت المملكة الرومانية آخذة فيها في سرعة الاضمحلال والهبوط والدمار والخراب كانت المملكة الشرقية مع عاصمتها القنسطنطينية آخذة في توطيد قيامها وحركة نظامها بحالة ثابتة متينة وكانت سلطنة مستقلة تحت حكم اركاديوس بن طيودوسيوس الاكبر كما ذكرناه فيما سبق وتحت أحكام الذين خلفوه وجاؤا من بعده ثم نقلد ملوك هذه المملكة غرورا كان على غير فائدة لهم وأخيرا الفقوا لهم ألقاب الامبراطورات الرومانية وتوارثوا مسميات قيصر وأوغسطوس وصارت القنسطنطينية عاصمتهم الدوامية فأخذت في النمو والتقدم وكثرة الاموال وزيادة السمو والمجد من بعد أن استمرت عدة عصور محتقرة مزدراة بما كان حاصلا لها من الامم المتبربرة فكانت ممالك الامبراطورات الشرقية محدودة بالبحر الادرياطيقي ونهر الدجلة وكانت مسافة الخمسة وعشرين يوما سياحة وملاحة الفاصلة لاخرصيطيه (التتار) الباردة من المنطقة الحارة لاثيوبية داخلة جميعها في ضمن حدود المملكة الشرقية وكانت الجهات المعمورة من هذه المملكة مراكز وقواعد للفنون والعلوم ومقر الرفاهية والثروة

فكان السكان المتخذون اللسان والعوائد الجريقية والمتزرون بازار الحق هم أهل الجهات الاكثر تنورا في العقل ودراية وخبرة في الحضارة والتمدن ورفاهية أحوال العيشة الدنيوية والاخروية وكانت هيئة الحكومة سلطنة رائقة ظريفة وكان اسم الجهورية الرومانية الذى حفظ اسم الحرية المهينة مدة طويلة من الزمن مكونا مخفيا في الاقاليم اللاتينية واتخذ ملوك القنسطنطينية درجة فخامتهم وعلوسموهم ومقدارهم بواسطة استرقاق قومهم وعبوديتهم لهم

ثم مات اركاديوس في سنة ٤٠٨ بعد الميلاد من بعد أن اشتهرت سلطنته بمشاحنات ومنازعات بين أراذل المتقربين منه من أجل تيسر كل منهم على الشوكة وزمام السلطة والسيادة وفي مدة سلطنته أزهر وأينع وارتفع الشهير كريسوسطون صاحب القول البليغ والفم الذهب وخطيب الكنيسة الشرقية وفي نحو غلاقهانفي من القنسطنطينية ومات منفيا بسبب ما تجاسر به من القدح والذم في خلاعة وقباحة العاهرة الامبراطورة عودوكسيه وخلف اركاديوس من بعد موته طيودوسيوس الثاني وكان عمره وقت ذاك سبع سنوات فقط فكانت المملكة محكومة في مدة صغره مع المهارة وحسن التدبير بمعرفة أخته پولخيريه ومن بعد أن بلغ طيودوسيوس رشده كان هو الحاكم في الحقيقة لحدوث أخته پولخيريه لان الامبراطور ما كان الاعبارة عن صفر حافظ لخانة معدومة في المملكة وكانت السنوا الاخيرة من سلطنته معكرة محزنة بما حصل من الغارة على ممالكه من الهونزيين تحت قيادة عطيلا وكان ظهور هؤلاء الامم في المملكة الشرقية في سنة ٤٤١ بعد الميلاد ونشروا في ظرف التسع سنوات التي جاءت من بعد اغاراتهم وتخريباتهم في الاقليم الموجود بين البحر الادرياطيقي والبحر الاسود خربوا سبعين مدينة من المملكة وجاسوا خلال البلاد والاراضي المكشوفة وخربوها حتى قال عطيلا قولا تباهى به وتفاخر بمجد نفسه ان الحشيش لا ينبت في الموضع الذى حط قدمه فيه حصانه وال الامر أخيرا الى أن اشترى طيودوسيوس انسحاب هؤلاء المتبربرين بدفعه لهم مقدار ٦٠٠٠ لبره من الذهب وعهد أن يدفع لهم خراجا سنويا بقيمة ٢١٠٠ لبره من الجواهر الثمينة وكان ذلك في سنة ٤٥٠ بعد الميلاد ثم من بعد مضى مدة قليلة غرق طيودوسيوس بالقرب من القنسطنطينية من بعد أن تسلطن نحوا من ثلاث وأربعين سنة ومن بعد موته صارت پولخيريه امبراطورة الشرق فمن حزم رأيها وتدبيرها عقدت زواج نفسها اسميا على مارسيان وكان رجلا من الاعيان عمره ستون سنة فلبس الثوب الارجواني وماتت پولخيريه في سنة ٤٥٣ بعد الميلاد واستمر زوجها على التخت الى أن انقضى أجله ومات في سنة ٤٥٧ بعد الميلاد وخلفه ليو التراسياني وكان من حكام العسكرية وأجلسه على التخت العمدة الكبير أسپار أحد رعايا المملكة وكان كبير الشوكة والنفوذ فتداخل ليو في أعمال المملكة الغربية في سنة ٤٦٧ بعد الميلاد وعين من طرفه انطميوس امبراطورا في الغرب وكذا في سنة ٤٧٤ بعد الميلاد لاجل توطيد تخت المملكة الغربية الى يوليوس نبوس كما أسلفنا ذكره ومات في هذه السنة من بعد أن أظهر عدم الامن والخدعة في نفسه وسلطنته بغدره وخيانته لمن أحسن عليه فانه قتل أسپار وأولاده بدل أن يثني عليه ويميل بكليته اليه ويشكر معروفه

ومن بعد موت ليو انتقلت وراثته وسمو تخته الى ابن بنته عريادني وزوجها الاسوريانى السعيد طراسكاليسوس فغير هذا الاسم البربرى ولقب نفسه بالاسم الجريسي زينو وتقرب بحالة تصنعية من تخت ابنه فانعم عليه بوظيفة صيرته في الدرجة الثانية من المملكة وأشركه ابنه معه في الحكم فعمل

ما يجب عليه من طباعه البربرية وقتل رفيقه الشاب أى ابنه ونشر الفزع فجأة مع أن حياة ابنه كانت غير مانعة لما كان عليه من الطمع والشراسة غير أن سراية القسطنطينية كانت تحت نفوذ امرأة وهى فرينة أرملة ليو فحصل الاضطراب فى السراية وتكدرت أحوالها وقامت فرينة نفسها وطلبت مملكتها لنفسها وأصدرت حكما جازما بخلع العبد الخائن الغدار الذى لا أهلية فيه وأحسنت عليه بقضيب المملكة الشرقية فلما قرعت هذه الاخبار آذان زينو فر هاربا الى جبال أسوريا وأجلست أخاها بزليسقوس المقبوح فى غزوة افريقة على التخت برضا السناتو الموجود تحت الرق والعبودية والتصديق وكانت سلطنة هذا الغاصب قصيرة جدا من تبكة الاحوال فانه ذبح فيها عاشق أخته وأغضب عاشق زوجته القبيح الوقح هرماطيوس فنفر منه الناس وقاموا فى ثورة وطلبوا زينو من دار منفاه فوصل القسطنطينية وتقلد زمام السلطنة وعذب بزليسقوس وأهله العذاب الشديد بالجوع والبرد ومازالت الشماخة العالية قائمة فى رأس فرينة على زوج بنتها من أجل خضوعها له أو هدوها فهيجت عداوتها له وعينت امبراطورا جديدا فى سوريا ومصر وجمعت جيشا مؤلفا من ٧٠٠٠٠ نفس بنيامن رجل ناسك مسيحى وأخوثنى مجوسى وأما بنتها عريادنى فانها أظهرت فضائل النساء بعلها وصداقتها الزوجها وتوجهت معه فى محل منفاه ومن بعد عوده توسلت اليه فى الرحمة والرأفة بامها وتسلطن زينو الى سنة ٤٩١ بعد الميلاد ومن بعد موته تزوجت عريادنى بنت وأم وأرملة امبراطور شخصا اسمه انسطاسيوس وكان رجلا طاعنا فى السن من رجال خدم السراية وجلس على التخت ولقب بلقب انسطاسيوس الاول وأحيا حياته بعد جلسها على التخت مدة دارها سبع وعشرون سنة ومات فى سنة ٥١٨ بعد الميلاد

وفى سنة ٥١٨ بعد الميلاد ارتقى يوسطين الى لبس الارجوانى وكان عمره ثمانيا وستين سنة وقتئذ فتسلطن ما ينيف عن تسع سنوات وما كان يوسطين من سلسلة العائلة الملوكية بل كان من عائلة دنيئة من جنس همجى قاطن فى ضواحى أطلال مدينة سرديقا وهى مدينة صوفيه الآن من أعمال الارض القفرة الهمجية المسماة باسم دردانيه ثم بلغاريه ولما تعب من خدمة استعمال السلاح الواجبة عليه فى حفظ الفلاحة والمواشى ترك هذه الحرفة مع اثنين من أهل بلده وساروا على أقدامهم فى الطريق السلطانى الموصل الى القسطنطينية ومعهم شئ آخر زهيد من مؤنة العيش القديد فى مخاليهم حتى وصلوا مدينة القسطنطينية وقيدوا أنفسهم فى ضمن عساكر الخفر الامبراطورى مدة سلطنة ليو الثراسيانى بالنسبة لما شوهد فيهم من القوة وهيئة الجسم وفى مدة السلطنتين المتتاليتين ارتقى الفلاح السعيد الى الثروة والشرف فكان هربه من بعض الخطر الذى هدد حياته سببا فى أن صار بعد ذلك أحد المحافظين على حياة الملوك واشتهر اسمه فى خدمته الممدوحة الجليلة وظهرت شجاعته فى حروب الاسوريانيين والفرس حتى وصل بواسطة شجاعته ومهارته فى ظرف خمس عشرة سنة الى رتبة حاكم ثم أمير ثم قائد عضو فى مجلس السناتو ثم قائد الخفر الامبراطورى وكان ترقيه الى هذه الدرجات على التدريج فانقاد له الخفر الامبراطورى وجعلوه الرئيس الاكبر لهم فى وقت المشكلة المهمة التى حصلت وقت انتقال الامبراطور انسطاسيوس من الدنيا الى الآخرة وكان انسطاسيوس مكن أقاربه وغمرهم بالاموال فاخرجوا من دار السلطنة وطردوا من التخت وصمم الطواشى امنطيوس الحاكم فى السراية على كونه يضع التاج على رأس أعز الطائعين له من أتباعه وكان مشروع انتخابه مقصورا فى الخفر فعهد

هـذا الانتخاب الى القائد فاحتال يوسطين بخداعه فى تيسره الحصول على التاج الامبراطورى ولما لم يظهر طالب للتاج لبس فلاخ داثيه الثوب الارجوانى برضا العساكر لما علموا فيه من الجسارة والبسالة والمهارة ومن القسس والامة لما اعتقدوا فيه من التصوف وعدم زيغان العقيدة ومن الأقاليم التابعين له مع العمى وعدم التبصر لاغراض العاصمة الا أن خبرة هذا العسكرى كانت غير كافية فى حكم وادارة مملكته ومع أنه كان شجاعا الا أن الضعف كان ملازما له فعهد زمام أحكام المصالح مع الصداقة والذمة الى بروكلوس واختار هذا الامبراطور الطاعن فى السن ابن أخيه المسمى يوسطنيان وكان جلبه صغيرا من اقليم داثيه ورباه وتبناه وهذبه فى القسطنطينيه وجعله وارثا لسعادته الخصوصية ثم للملكة الشرقية وأشركه معه فى الحكومة فى آخر سنى حياته ثم مات يوسطين وترك يوسطنيان امبراطورا بمفرده وكان عمر يوسطنيان خمسا وأربعين سنة فى الوقت الذى وصل فيه الى لبس التاج الرومانى واستمرت سلطنته نحوا من تسع وثلاثين سنة أى من سنة ٥٢٧ الى سنة ٥٦٥ بعد الميلاد وقال جبون ان يوسطنيان حكم المملكة الرومانية من ابتداء ارتقائه على التخت الى أن مات عن ثمان وثلاثين سنة وسبعة أشهر وثلاثة عشر يوما فقضى مدة الخمس سنوات الاول من سلطنته فى صرف مصاريف كانت على غير طائل فى حروب مع فارس وفى آخر هذه المدة عقد معاهدة مع مملكة فارس عرفت بالمعاهدة السلمية الدوامية الا أنها كانت قصيرة الاجل بين الطرفين كما سنذكره فيما بعد وكان يوسطنيان متزوجا قبل جلوسه على التخت بامرأة عاهرة اسمها طيودوره استحوذت على عقله وصار لها عليه نفوذ وسطوة لاحد لهما واستمر هذا النفوذ معها بغير انقطاع حتى هلكت فى السنة الرابعة والعشرين من زواجها وفى السنة الثانية والعشرين من سلطنتها

وبمجرد ختام الحرب الفارسى ارتجت القسطنطينية وتزلزلت أركانها بثورة خطرة تعرف بثورة نيكا انفجرت بين أحزاب ملاعب الخيول وكانت هذه الاحزاب تعرف بالحزب الازرق والحزب الاخضر وانتشر هذا الثوران فى أهل المدينة أجمع وأحرق قسم من المدينة بما فيه كنيسة القديسة صوفيه وصار أكواما من الرماد وقتل فى هذه الثورة ٣٠٠٠٠ نفس ولبثت القسطنطينية خمسة أيام فى أيدى أشرار العوام والاوباش ونادى الامة على هياطيوس ابن أخى نسطاسيوس بالامبراطورية واستعد يوسطنيان فى نفسه لترك عاصمته لولا ثبات حصل من طيودوره فاستمالت الامبراطور على البقاء وحطم هذه الثورة واتخذ بلزاريوس قائد العساكر الامبراطورية الاحتياطات اللازمة وحزم رأيه فى طحن هذه الثورة وأخمدها وخلص التخت بمفرده وغلق الامبراطور أبواب الملاعب وأصدر منشورا بعدم فتحها بالكلية عدة سنين عقابا لاهل المدينة وكان ذلك فى سنة ٥٣٢ بعد الميلاد

ولما وطد يوسطنيان شوكته فى داخل مملكته شرع فى اعادة الاقاليم التى كانت داخلة فى الابتداء فى المملكة الرومانية فوجه أول حملاته وغاراته على مملكة الفنداليين فى افريقه وكانت محكومة فى هذا الوقت بواسطة غلمير وأما القوى الامبراطورية فكانت تحت قيادة بلزاريوس أمهر قواد عصره وكان ارتقاؤه الى هذه الدرجة بقوة ذكائه ونباهته وحزم رأيه من درجة فلاح الى أعلى هذه المناصب وفى هذه المدة كانت القرون والاعوام المتوالية طحنت الفنداليين وأخمدت حيلتهم فى افريقه فتغلب بلزاريوس بسهولة فى مدة قليلة على هذه المملكة فى سنة ٥٣٣ بعد الميلاد ودخل هذا الفاتح فى قرطاجنه مؤيدا بالنصر والظفر من دون مقاومة ولما عاد بلزاريوس الى القسطنطينية سار فى زينة احتفال موكب

نصره

نصره سلسلة طويلة من أسرى افريقه وفى رأس هذه السلسلة غليمر وكذا أعاد جزائر سردينية وقورسيقه وقليلا من الجزائر الصغيرة الموجودة فى البحر الابيض المتوسط وكانت تابعة لعمالة افريقه

وجاء عقب التغلب على افريقه التغلب أيضا على ايطاليا وسنذكر وقائع وحوادث هذا الحرب فى تاريخ ايطاليا وتولد من مظفرات بلزاريوس ارتباك شديد وحسد كبير من غيرة الامبراطور منه فخلعه من قيادته وأرسله لمقاومة الفرس وصدهم وكانوا كبسوا على الحد الشرقى للمملكة بشدة وما حصل من المعاهدة المعروفة بالمعاهدة السلمية الدوامية أدنى فائدة فيما كان يرجوه عاقدوها الان خسرو ملك فارس نكث هذه المعاهدة فى سنة ٥٤٠ بعد الميلاد وأغار بجيوشه على أنطاكيه وحرقها بعد أن سلبها ودمر آسيا الصغرى فأرسل الامبراطور له بلزاريوس فالزمه بلزاريوس بالقهقرة الى بلاده من بعد حصول واقعتين بينهما فى سنة ٥٤١ وسنة ٥٤٢ بعد الميلاد وتقهقر خسرو ولم يقدر أن يرجع بعد الواقعة الاخيرة لمثلها مع بلزاريوس ثم أرسل بلزاريوس مرة أخرى الى ايطاليا فظفر الفرس وانتصروا على جيش رومانى مقداره ٣٠٠٠٠ نفس كان تحت قيادة خمسة عشر من القواد واستمر هذا الحرب تحت قاعدة غير مربوطة الى سنة ٥٦١ بعد الميلاد حتى وصل كل من يوسطنيان وخسرو الى أرذل العمر ومال كل منهما الى الرضا بفصل حالة السلم فاشترى يوسطنيان الصلح بخراج يدفعه سنويا مقداره ٣٠٠٠٠ قطعة من الذهب

وفى غضون ذلك ما نجا بلزاريوس بفخر خدماته التى أجراها من غضب كل من الامبراطور والامبراطوره وحسدهما له واتهم بالخيانة وحكم عليه بالجريمة وسقط بخته وحبس فى سرايته وأخيرا ظهرت براءته فرد الامبراطور اليه شرفه وأمواله وحريته ثم مات بعد مضى ستة أو ثمانية شهور فى سنة ٥٦٥ بعد الميلاد تاركا خلفه أعظم اسم وأجل شهرة لا يمكن دمارها ومع هذا فان الامبراطور الخائن ضبط كافة أملاكه وأمواله ماعدا مبلغا قليلا سمح فى بقائه لارملته

وكان بلزاريوس قبل موته ببضع سنين أدى خدمة جليلة للمملكة وذلك ان البلغاريين كانوا تغلبوا على بحيث جزيرة الجريس وخربوا منها اثنتين وثلاثين مدينة وأسروا منها ١٢٠٠٠٠ نفس وفى سنة ٥٥٩ بعد الميلاد وقع صقيع شديد فى نواحى الدانوب فتساعد هؤلاء المتبربرون بالسلاف وأغاروا على تراسة وكنسوا ما وجدوه أمامهم وعسكروا على مسافة عشرين ميلا من القسطنطينية فاستغاث الامبراطور وطلب بلزاريوس فلبى طلبه وأجاب دعوته وترك محل راحته وجعل نفسه فى رأس ما جمعه بسرعة من العساكر وأرغم الاعداء على الانسحاب الى بلادهم ولما عاد بلزاريوس الى القسطنطينية استقبله يوسطنيان مع البرود وتقطيب الوجه وعدم الثناء

وكان يوسطنيان محبا للعمارات وانشاء الابنية فحلى القسطنطينية بمبان نفيسة أجلها وأعظمها الكنيسة العظمى المسماة سنت صوفيه فانه شيدها وأقامها فى محل الموقع الذى أحرق فى مدة الثورة المسماة نيكا وشيد فى محلات أخر من أقسام المملكة مبانى ظريفة وكنائس كثيرة وشيد من بلغراد الى البحر الاسود أى من ابتداء مصب نهر ساوه فى الدانوب الى مصب الدانوب فى البحر الاسود سلسلة من القلاع الحصينة تنيف عن ثمانين قلعة فى طول شواطئ هذا النهر الكبير وقلب الابراج الصغيرة الى قلاع كبيرة ورتبت هذه القلاع فى شكلها ورسمها على حسب شكل الاراضى القائمة عليها والمحيطة بها وشحنها بالسكان والمحافظين وجدد سد طراجان من بعد أن اندثر وأنشأ عليه أبراجا فى جهات

متروبحيه من أرض البلغار بين البحر الاسود ونهر الدانوب وأنشأ سدوداقوية فى مضايق ودروب ثرموبيلى بين الحريس ومقدونيا فى الاورمانات والمنافذ والمداخل وكذا أنشأ سدوداقوية طويلة قاطعة بجيث جزيرة القرم لاجل حماية أصدقائه الغوطيين وهم قبيلة عدد نفوسها ٣٠٠٠ نفس من رعاة وحوبيين وحفظ الساحل المعوج الشرقى من البحر الاسود من ابتداء بجيث جزيرة القرم الى مدينة طرابزون بقلاع ومعاقل ومحالفات ومعاهدات

وفى مدة سلطنته صارنوع الحرير من المنافع والاستعمالات الضرورية فرأى الامبراطور يوسطنيان ان الفرس شاغلون البر والبحر باحتكارهم هذه الذخيرة الجليلة وان أموال رعاياه جار صرفها على الدوام لامة عدوة وثنية فأحيا التجارة فى مصر من اندراسها وقوى على ملاحة البحر الاحمر كما كانت جارية سابقا وربط يوسطنيان علاقات المساعدة مع الحبشيين وكانوا حازوا من عهد جديد فن الملاحة وثمرة التجارة كل ذلك من أجل طلب صنعة الحرير فكانت المراكب الرومانية تسافر فى طلب الحرير الى مينا سيلان وملقه حتى الصين وجهات خط الاستواء فى البحث عن الذهب والزمرذ وأنواع العطريات الا أن هذه المراكب ما كان لها طاقة على القرب من جهات فارس وأسواق الهند فقطع الامبراطور اليأس من تيسر الحصول على صناعة الحرير فى ممالكه حتى جاءه مقصوده بحالة ما كانت تخطر له على بال من دون حساب وذلك ان الانجيل كان صار خطابته على الهنود وكان يوجد أسقف بحكم مسيحى القديس توما على ساحل الفلفل فى المليبار وكذلك شيدت كنيسة فى سيلان وسار المرسلون تابعين آثار أقدام التجارة الى أن وصلوا الى نهاية اسيا من جهة الشرق وكان يوجد اثنان من رهبان الفرس قطنا مدة طويلة فى الصين ويحتمل أنهما كانا فى مدينتها كين الملوكية مقر السلطان المتعود على سماع الخرافات البرانية ومقابلته سفراء سيلان وفى مدة رهبانية هذين الراهبين فى باكين رأيا بعين الاستغراب ملابس الحرير المعتادة على أهل الصين وصناعة الحرير وألوفا من دود القز جاريا تربيته على الاشجار وفى البيوت مع غاية الاعتناء ورأيا انه يستحيل عليهما نقل هذه الحشرات القصيرة العمر الى أقاليم بعيدة لكن يمكن نقل بيضها الى جهات بعيدة فأخذا منه مقدارا وافرا للانتفاع بتجارته وسافروا سفرا طويلا حتى قدموا القسطنطينية وقدموا ما معهم من هذا البذر الى الامبراطور يوسطنيان ففرح به وأغدق عليهما بالانعامات الجليلة وقواهما على تجارتهما وابتدآ فى تشغيل الحرير وتربية الدود وقيل ان جماعة عبروا من جبال القوقاز وخاطروا بأنفسهم حتى دخلوا الصين وجلبوا من هذه البضاعة كميات وافرة فى داخل غاب مجوف وعادوا ثانيا الى القسطنطينية وفقس هذا البذر فى الفصل الموافق له بحرارة صناعية من السماد ونجحت تربيته غاية النجاح وصارت مشغولات الحرير فى القسطنطينية احدى التجارات الاصلية المعول عليها وعاش الدود فى الاقاليم الغربية وغرسوا الغذائه شجر التوت واستمر الرومانيون فى أشغال الحرير وصناعته حتى صاروا فى درجة لافرق بينها وبين شغل الحرير فى البلاد الصينية

ولما كان ما بين البحر الاسود وبحر الخزر الذى هو أراضى كولكوس وعبريا أوجورجستان والبانيا مقطعة فى كل جهة منها بفروع جبال القوقاز البابين الاصليين أو الدربين المشهورين الموجودين فى هذه الجبال المعروفين فى كل من الجغرافية القديمة والحديثة باسم كاسبيان أو الابواب الالبانيانية أى الدربند وكذا بعض معابر صغيرة يخرج منها خيالة السيطيين يغيرون على المملكة الرومانية

والفارسيه

والفارسية أقيم فى طول هذه المسافة الشاسعة ما بين البحر الاسود وبحر الخزر أى فى طول ثلاثمائة ميل سد من البناء بالحجر فاقل هذه المسافة يعرف بسد يأجوج ومأجوج على مصاريف المملكتين الرومانية والفارسية مبتدئا من ساحل الدربند على البحر الاسود سائرا فوق التلال والجبال عابرا من وادى الضاغستان وجورجستان الى بحر الخزر وكان كل حجر من الاحجار المبنى بها هذا السد أو السور بثخانة سبعة أقدام وطوله وارتفاعه أحد وعشرون قدما موضوعة وضعا متلاصقا بغير حديد أو مؤنة وبهذا السد امتنع الصيطيون أو يأجوج ومأجوج من اغاراتهم على الممالك الرومانية الآسياوية والمملكة الرومانية

وكان اللقب المشهور به يوسطنيان لقب مشرع الا انه ما كان على دراية كبيرة من تشريع قوانين جديدة بل كان معيدا للقوانين القديمة وامتدت أحكام قانونه المدنى على كافة الممالك الرومانية ونفع الادارة والشوكة القانونية وجعلها سارية على حسب توالى العصور والازمان وكانت القوانين الرومانية كثر عددها وتولد منها منازعات ومجادلات لانهاية لاختلالها وكان كل أمر صدر من امبراطور يعد قانونا فمن ثم تولد فى الادارة العدلية الخلل الاكبر وأحاطت بها المشاكل والمصاعب مع كون القضاة خالين من الغرض وكانت المملكة مرتبكة فى أعمالها وادارتها فدعا يوسطنيان لمساعدته العالم المشرع القانونى طربونيان وآخرين معه وشرعوا فى عمل طريق يداوون بها هذه الارتباكات وكانت نتيجة أعمالهم أن نقحوا قانونارومانيا سموه بالقانون المدنى كان قاعدة لجميع القوانين الشرعية فى نحو كامل أوروبا وكان شغلهم هذا محصورا فى ثلاثة كتب ضخمة الاول منها مبادى القوانين وقواعدها وأصولها والثانى المجلة أى قانون الشرائع المدنية والثالث كتاب الفتاوى فكان الكتاب الاول يشتمل على القواعد الاساسية للقانون محاولة مفصول الحكم فيها وأما المجلة أو القانون المدنى فكان يشتمل على ملخص القوانين الشرعية من عهد هادريان الى وقت يوسطنيان وأما كتاب الفتاوى فكان مشتملا على جميع الشرائع والقوانين وأحكامها وأقوال علماء القضاة وأذكيائهم فيما يختص بالواجبات الشرعية وفصل الامر فيهما من عهد عصر قانون الاثنتى عشرة طربيزة أى من قبل عصر يوسطنيان بألف سنة وصدرت أوامر الامبراطور ومنشوراته بسير الادارة والاحكام على موجب هذه الثلاث كتب وانها هى الواسطة الفاصلة الشرعية فى القضايا المدنية الشرعية ومعتمدة العمل فى المحاكم المحلية ولاجل زيادة كمال نشرها وتعميمها فى عموم المملكة أنشئت مدارس شرعية وادارية فى القسطنطينية وروما وبيروت من أعمال سوريا لدرس هذه الشرائع واكتسابها وهى طويلة لايمكن هنا درجها ولانسخها وألغى يوسطنيان مدارس أثينة ومجالس رومة وكان خرج منها كثير من أذكياء الرجال وعقلائهم وأشجع القواد العسكرية وكانت السنوات الاخيرة من سلطنته مشحونة بالقلاقل والارتباكات وذلك أن الترك وهم قبيلة من دقاقين الحديد من سلسلة جبال الطاى تركوا جبالهم ووطنوا أنفسهم فى التتار وأخضعوا الحوزيين أو الافاريين الموجودين على نهر الطيل وهرب الذين بقوا على قيد الحياة من الامة التى تغلبوا عليها الى جبال القوقاز وقدموا أنفسهم لخدمة الامبراطور يوسطنيان فقبلهم فى خدمته خوفا من غضبهم واغاراتهم وعاملهم بالاكرام وأغدق عليهم بالاحسان وقواهم على الاغارة على أراضى البلغاريين والسلافيين فى ظرف العشر سنوات التى جاءت بعد مدة وافتوحاتهم الى نهر الالب وأخضعوا الكثير من القبائل والعشائر وأرغموا الباقى على دفع الخراج لهم ثم ترك يوسطنيان

محالفتهم من أجل معاهدتهم الاتراك ومع هذا صار لهم طاقة فى السلطنة التى جاءت بعد يوسطنيان وتغلبوا على الاقليم المعروف الآن باسم هنكاريا وقسم من تركية أوروبا وشيدوا فيه مملكة شاغاناتهم واستمروا متمتعين بسلطنتهم مدة ٢٣٠ سنة بعد الميلاد

ومات يوسطنيان فى شهر نوامبر من سنة ٥٦٥ بعد الميلاد وخلفه ابن أخيه يوسطين الثانى فكانت سلطنته خالية الوقائع والحوادث ولما صعد ابن أخى يوسطنيان على التخت أعلن تاريخا جديدا للسعادة والمجد فكانت سنو سلطنة يوسطين الثانى على غير رغبته فانها اشتهرت بالقدح فى الخارج وبالمهنة فى الداخل وفى جهة الغرب ففقدت المملكة ايطاليا وخسرتها وخربت افريقه وتغلب الفرس وتسلطن الجور وسوء الادارة فى كل من العاصمة والاقاليم وخاف الاغنياء على أملاكهم والفقراء على سلامتهم وصارت الحكام جهلاء أو مرتشين وصارت أسباب العلاجات والادوية الاستبداد والشدة والفظاعة ونادت الامة بضجرها وتألمها وما تسلطن من الامراض والعلل على الامبراطور جعله كامنا داخل السراية ونزل ضيف العناء والآفات بالامة وحاق بالحكومة النقص والعيوب فعزم الامبراطور بالنسبة لجسامة موقعه وأهمية مركزه على تنازله عن تاجه وحالما كان مشغولا بهذا الفكر قام عليه اخوته وأعمامه وأظهروا حقدهم وحسدهم له وصاروا أعداء لما كان يرغبه لهم فنفاهم وقتلهم وكان ابنه من زوجته الامبراطورة صوفيه مات فى صغره وتولد من الكراهة والعداوة الداخلية أن عزم الامبراطور على البحث عن خليفة له من غير عائلته بل من العموم فطلبت الحليلة صوفيه زوجته صديقها طبريوس رئيس الخفر فكانت فضائله وعلوهمته من أجل مرغوب انتخابات الامبراطور فعقد احتفالا لترقيته الى درجة قيصر أو أوغسطوس فى ايوان السراية بحضور البطريرك والسنا والجم الغفير من وجوه المدينة وأمرائها وجمع يوسطين ما بقى من حواس عقله وقوة جسمه وقال له تأمل الآن أعلام الشوكة السامية فانك على شرف استلامها ليس من يدى بل من يد الله فأكرمها وشرفها فانك تنال منها الكرم والشرف واحترم الامبراطورة كأنها أمك وأنت الآن ابنها بعد أن كنت خادمها ولا تفرح بسفك الدماء بل تجنب الانتقام والبطش واحذر الاعمال التى أنا منها صرت مبغوضا ممقوتا عند الامة وكن على التجربة لا على مراعاة منوال من سلفك وبما أنى انسان وعندى الخطأ فأنا خاطئ حتى فى هذه الحياة الدنيا فلذا عوقبت بأشد العقاب الآن هؤلاء الخدم (وأشار الى الوزراء) الذين أساؤنى فيما عهدتهم به وأشعلوا النار لعذابى سوف أتقابل معهم أمام محكمة المسيح فانى كنت اندهشت من جلالة التاج وفخامته فكن أنت عاقلا ذكيا مدبرا وتذكر ما كنت فيه أولا وما أنت فيه الآن هؤلاء الذين حولنا عبيدك وأولادك فدبر أمرهم واعطف عليهم وكن بهم رحيما كوالد وأحب رعيتك كحبك لنفسك وازرع المحبة وداوم على نظام الجيش وحفظ سعادة الغنى وساعد الفقير وفى غضون ذلك كان المجلس غاصا بالعالم منصتا لاحوال لا هله وجميعهم ساكبون عبراتهم على خدودهم مشتركون مع ملكهم فى التوبة ووعظ البطريرك وزاد فى وعظه ودعا بدعاء الكنيسة وتناول طبريوس التاج وهو جاث على ركبتيه فقال يوسطين وقت تنازله عن التاج للملك الجديد ان كنت ترضى فأنا على قيد الحياة وان كنت تأمر فأنا أموت والله رب السموات والارض يلهمك ما تركته أنا أو نسيته وكان ذلك فى سنة ٥٧٤ بعد الميلاد فدبر طبريوس أشغال المملكة مع الصداقة والذمة حتى مات المحسن له بالخير فى سنة ٥٧٨ بعد الميلاد وصار طبريوس أمبراطورا

ومن

ومن بعد موت يوسطين الثانى انتظرت الامبراطورة صوفيه زواجها طبريوس حتى تستمر على سلطنتها كما كانت غير أن طبريوس بمجرد جلوسه على التخت جعلها سيدته وأمبراطورته فى سره وكانت زوجته الشرعية انسطاسيه واجتهد فى أن يرضى خاطر صوفيه فى نظير عدم زواجه بها بالاغداق عليها بالكرم قولا وفعلا وحينما كانت مغمورة بكرمه واغداقه عليها مع السرور والانشراح تداخل الاعداء عندها سرا وأغضبوها وحرضوها على خلعه فرتبت من أجل ذلك ثورة خفية فلما انكشفت ثورتها التزم الامبراطور بأن يجعلها فى معزل منه فى عيشة خاصة بها ومن بعد أن تسلطن طبريوس أربع سنوات ونال فيها محبة رعاياه بما كان عليه من الفضائل والخيرات مات سنة ٥٨٢ بعد الميلاد وخلفه موريس وكان انتخبه وارثاله بعد موته فكان أهلا لهذا السمو العالى الذى أفيض عليه

وكان أصل الامبراطور موريس من رومة القديمة الا أن أهله فى وقت جلوسه على التخت كانوا قاطنين فى عربيسوس من أعمال قبدوقيا وحفظتهم صداقتهم على قيد الحياة ليروا سعادة ومجد ابنهم ويشتركوا معه فيها وصرف موريس مدة شبابه فى الجيوش العسكرية ورقاه طبريوس الى قيادة فرقة جديدة مفروزة مؤلفة من ١٢٠٠٠ نفس من عساكر مختلفة واشتهر اسمه وعلا قدره فى الحرب الفارسى وعاد الى القنسطنطينية وكافأه طبريوس بوراثة المملكة من بعده وصعد موريس على التخت بالغ الرشد والعمر فى سن ثلاث وأربعين سنة وتسلطن زيادة عن عشرين سنة على الشرق وعلى نفسه وأخرج من ذهنه ما كان عنده من الطبع الوحشى وأقام بدله الرشد والعقل والفضيلة وصرف جميع حواسه فى الحصول على سعادة رعيته ودبر حكومته وباشرها على المنوال الذى كان عليه طبريوس وحاز الامبراطور موريس الفخر باعادته ملك فارس الى تخته وأنشب قواده حربا على افارس الدانوب وأغمض بعين الرحمة عن حماية أقاليمه الايطاليانية من تحملها أثقال جور اللومبارديين وذلهم

وكانت الامبراطورات على الدوام فى عذاب شديد وعناء مديد من جهة ايطاليا من سماعهم الحكايات القبيحة عن الاعمال المهينة الحاصلة فى ايطاليا وطلب أهلها من الامبراطورات المساعدة لخلاصهم عما هم فيه من الاهانة الا ان الامبراطورات ما كان لهم طاقة على مساعدتهم بسبب ما كانوا عليه من الضعف فعرضت رومة بنفسها للامبراطور طبريوس تقول له ان لم يكن فيك قابلية لخلاصنا من سيوف اللومبارديين فبالاقل خلصنا من غوائل القحط فسامحهم طبريوس فى هذا الذم وخلص رومة من القحط ونقل اليها ذخرة من الغلال من مصر ثم استغاث القسس والامة الرومانية فى رومة باسم القديس بطرس وقاموا على المنبر برين وطردوهم من داخل أسوار رومة الا أن هذا الخلاص كان وقتيا فقط ومازال الخطر والضيق مستمرا فجمع القسس والسناتو مما كان باقيا عندهم من أموالهم القديمة مبلغا مقداره ٣٠٠٠ ليره من الذهب وسفروها مع واحد من أشرافهم اسمه بفرونيوس الى القنسطنطينية كى يقدم هديتهم وشكواهم لاعتاب التخت البرانطيانى وكان التفات الديوان فى القنسطنطينية وكامل العساكر الشرقية موجها جميعه الى جهة فارس وحربها فاقتضى عدل طبريوس أن يعيد هذا المبلغ لحماية رومة وقال الى بفرونيوس اما أن يرشى رؤساء اللومبارديين أو يشترى مساعدة ملوك فرانسا وكانت هذه أجود النصائح وأحسن الارشادات عنده ثم ان البابا استغاث بموريس ومساعدته من بعد جلوسه على التخت بقليل لاجل خلاص ايطاليا من اللومبارديين وبما أنه ما كان للامبراطور من طاقة على تلبية طلبه دعا الفرنج بالنيابة عنه فاجتهدوا فى اتمام دعوة الامبراطور وغزوا ايطاليا

المرار العديدة وكان آخر هذه الغزوات تحت قيادة شلدبرت حفيد كلوفيس فكان على غير نجاح في حملتين ثم حصل له النصر في الحملة الثالثة وخاب الجريس من أن يرسلوا الى شلدبرت مساعدة نيابية من طرف الامبراطور وتولد من غزوته هذه عدة غزوات يأتي ذكرها في تاريخ ايطاليا في هذه المدة

وكان التفات الامبراطور موريس مقصورا على جهة الشرق وكان الحرب انفجر مع فارس مرة ثانية في سنة ٥٧٢ بعد الميلاد في السنة السابعة من سلطنة يوسطين الثاني واستمر الحرب في نصرات متبادلة بين المتحاربين مدة السبع سنوات التي جاءت بعد وفي سنة ٥٧٩ بعد الميلاد مات خسرو نوشروان وخلفه ابنه هرمز فتولد من جبروته وظلمه قيام رعيته في ثورة عليه وفي هذا الوقت نال الرومانيون نصرات عديدة عظيمة على حدود ميزوبوتاميا وأشوريا وكذا كان الترك مغيرين على الممالك الفارسية من جهة ثم رسيحون بجيوش يختلف مقدارها من ٣٠٠٠٠٠ نفس الى ٤٠٠٠٠٠ نفس ثم خلصت فارس وسلمت من هذا الكرب الشديد بواسطة شجاعة بهرام فانه هزم الرومانيين والاتراك فأقامه عساكره ملكا على فارس ولما علم أشراف الفرس تقليد بهرام زمام الملوكية خلعوا هرمز وسملوا عينيه وأجلسوا ابنه خسرو الثاني على التخت فرفض بهرام قبول هذا الملك الجديد وضايقه بهرام أشد المضايقة حتى التزم خسرو على الهرب الى المعسكرات الرومانية ورمى بنفسه على كرم الامبراطور موريس فحضن الامبراطور أمره ودخل في أعماله ودخل في فارس جيش روماني فطرد بهرام الغاصب عن التخت وأعاد الجيش الروماني خسرو الى تخته فحفظ هذا الملك الشاكر جميل هذا الصنيع واستمر في أعظم ارتباطات ودية مع المملكة الرومانية حتى هلك موريس

ونال الامبراطور موريس في آخر سلطنته بعض مظفرات على الافارس في نواحي الدانوب واجتهد في اصلاح الجيش وتطامه فتولد من ذلك ثورة كانت نتيجتها جلوس فوكاس على التخت وقتل موريس وأولاده الخمسة في نواحي كالثيدون سنة ٦٠٢ بعد الميلاد في ساحل آسيا وكان مقتله في السنة العشرين من سلطنته وفي السنة الثالثة والستين من عمره ورميت أجسام الاب وأولاده الخمسة في البحر وطيف برؤسهم في القسطنطينية وكان فوكاس سفيها جاهلا خبيث الطبع أميا لا يقرأ ولا يكتب وليس له دراية بالقوانين والشرائع حتى الاعمال العسكرية وغرق في القباحة واللذات والشهوات والمسكرات فكانت شهواته الحيوانية ضررا على رعيته وعلى نفسه وجلب على نفسه المقت والغضب من رعاياه وكانت سلطنته خالية من الحروب في نواحي أوروبا ومرتبكة بها في نواحي آسيا ثم هرب طيودوسيوس بن موريس ناجيا بنفسه الى الديوان الفارسي فأمر فوكاس بالقبض عليه فقبض عليه المرسلون خلفه وقطعت رأسه في مدينة نخيا أونيس فكانت خيالات هذا البرنس الشاب المقتول مقصورة على الدوام أمام فوكاس فقل منها راحته وعظمت مصيبته وحصلت الاشاعة سرا في الشرق بأن ابن موريس موجود على قيد الحياة وانتظر الامة الاخذ بثارهم وأما أرملة موريس وبناته فانه في وقت ذبح العائلة الملوكية عفا عنهن فوكاس امارحمة منه أو سياسة وأمر بوضعهن في سجن محترم مخصوص بهن الا أن حدة وحمية الامبراطورة قنسطنطينية على أبيها وزوجها وأولادها جعلتها محافظة على الاخذ بالثار فهربت في جنح الليل الى كنيسة سنت صوفيه وسكبت فيها دموعها وذهب جرمانوس شريكها في تشكيل ثورة وصارت حياتها في حالة خطرة فوعدها البطريرك السلامة وحلف لها وضمن لها سلامتها من عدوها فقبلت ما أمرها به من بعد أن عين لها ديرا تقيم فيه وما حصل عندها أدنى لين لقاتل

زوجها

زوجها ثم تولد من ثورة ثانية أوربية حصلت منها اشتعال نار الغضب فى وجه فوكاس فأمر بتعذيب بنت وزوجة وأم الامبراطورات العذاب الشديد ومن اشترك معها فى هذه الثورة كاحقر الناس المجرمين حتى تعترف بمقصدها ثم قطع فوكاس رأس قسطنطينية وبناتها الثلاثة فى كالثيدون من براسيا فى نفس الميدان الذى سال فيه دم زوجها وأولادها الخمسة من بعد أن مثل بهن وعذبهن العذاب الذى ما سمع بنظيره من قبل تخرق أعينهن وأخرج ألسنتهن من جذورها وقطع أيديهن وأرجلهن ومن بعدها سار فوكاس على قدم الجنون وأمر بالقتل والنهب فى رعيته فأشعل عساكره النار فى قتل الانفس فنهم من مات تحت الضرب ومنهم من حرق بالنار ومنهم من ضرب بالنبال والحراب وامتلأ الابيدروم وهو المأوى المقدس لحرية الرومانيين وأفراحهم باجسام القتلى وصار المتقربون من فوكاس والبعيدون عنه لا يجدون من يخلصهم من فظائع هذا الطاغية وكانت أعماله وأحواله أضل من أعمال كاليجولا ودوميطيان فى العصر الاول للمملكة

وكان لفوكاس ابنة واحدة كان زوجها واحد من الاشراف اسمه كريسبوس فوضع فى السيرك التمثالين الملوكيين للعروسة والعريس بجانب تمثال الامبراطور فحصل عند الامبراطور الحنق الشديد من هذه المادة وأمر بقتل حكام الحزب الاخضر تطيرا ما حصل منهم من هذا الخطا الفاحش ثم عفا عنهم ووهب دماءهم للامة وحصل عند كريسبوس الشك وأخذه الوهم فى كون هذا الغاصب الحسود ينسى أو يعفو عما حصل على غير رغبته وتولد من هذا نفور كريسبوس من جية وابتعاد الحزب الاخضر من خيانة فوكاس وضياع شرفهم وامتيازهم واستعد كل اقليم فى المملكة للعصيان وكان هرقليوس عامل افريقه مصرا على رأيه من عدم ارسال خراج يطلب منه من مدة سنتين كأنه نقض طاعته لمن كان سببا فى نجاسة وفساد تخت القنسطنطينية وربط هذا العامل المستقل علاقاته بجواسيس مع كريسبوس والسناتو فى خلاص نفسه ومملكته الا أن ما كان فى نيته وضميره خمد بواسطة تقدم سنه فتنازل عن مشروعه الخطر لابنه هرقليوس ونيسطاس بن جريجورى صديقه ونائبه وصارت شوكات افريقه مسلحة بشابين جسورين شجاعين فاتفقا على أن أحدهما يقود الاسطول من قرطاجنه الى القنسطنطينية والآخر يقود الجيش الى مصر والى آسيا حتى يصل القنسطنطينية ومن يحصل على يده النجاح يكون جزاؤه لبس الارجوانى فطرقت مسامع فوكاس أخبار واهية بمشروعهما وكانت أم هرقليوس وزوجته رهائن فى القنسطنطينية وفاء بذمته وضمانا على صداقته فشرع صاحب الحيل كريسبوس فى ابتعاد هذا الخطر القريب من آذان فوكاس وأهملت وسائط المدافعة ونام الطاغية وتكاسل واشتغل بلذاته حتى رمى الاسطول الافريقى مخاطيفه فى بوغاز الهلسبون أو الدردانيل وانضم الى هذا الاسطول جميع الفارين والمنفيين الخائفين من فوكاس ثم سارت مراكب هرقليوس من الدردانيل مزينة صواريها العالية باشارات وعلامات ديانية حتى عبرت بحر مرمرا وكان فوكاس ينظر من شبابيك السراية الى قرب أجله ونزول القضاء عليه فانعم على الحزب الاخضر بالانعامات والاقطاعات فى الاقاليم وأمرهم بمقاومة ضعيفة لا طائل تحتها فى منع الافريقيين من النزول فى البر فدخل الخفر والامة فى رأى كريسبوس من عدم المعارضة وهجم عدو مخصوص على السراية بجسارة وقبض على الطاغية ونزع من رأسه التاج وأقلعه القميص الارجوانى وأوثقه فى السلاسل وألبسه ثوبا أبيض ونقله فى قارب صغير الى مركب هرقليوس فوبخه وعنفه ولعنه على ما حصل من ظلمه وجبروته وجرائمه

التي وقعت منه في مدة سلطنته فأجابه فوكاس هل تريد أنت أن تحكم أحسن فكان ذلك آخر ألفاظه ومن بعد أن أذاقه العذاب صار خلاص رأسه من جسمه ورموا جسمه في النار وبئس القرار وكسروا تماثيله ودعا القسس والسناتو والامة هرقليوس للصعود على التخت الذي طهره من الجرائم والادناس فمن بعد أن تردد قليلا في أمره سلم لهم رغبتهم في صعوده على الكرسي فكان تتويجه معه وبانتويج زوجته عودوكسيه معه واستمرت ذريته ما الى الجيل الرابع متسلطنين في المملكة الشرقية وكانت سفرة هرقليوس سهلة ناجحة وجاءنيسطاس بعد قضاء الامر وانقاد من دون ضجر لسعادة صديقه فكافأه الامبراطور بتمثاله فوق حصان وزوجه بابنته وكافأ كريسبوس على فعله بالانعام عليه بقيادة الجيش القبدوقي الا أنه كان من الصعب الاعتماد على صداقته لانه داخله الغرور والغلطة وأظهر خصاله الذميمة للملك الجديد فحكم السناتو على كريسبوس بالرهبانية في أحد الديورة الا أن هرقليوس حكم عليه بالموت وقال من غش أباه وخدعه لا خير فيه ولا صداقة عنده لمحبيه وكان جلوس الشاب هرقليوس على تخت المملكة في سنة ٦١٠ بعد الميلاد

وفي سنة ٦٠٣ بعد الميلاد كان خسرو ملك فارس أغار على الممالك الرومانية طالبا بأخذ ثار أبيه المحسن له موريس والانتقام من المتسبب في قتله فمن أجل جريمة رجل طماع انصبت مصائب الحروب ودواهيها على الامة التي كان هذا الطماع جائرا عليها وظالما لها ثم من بعد مضي عشرين سنة انصبت هذه الدواهي والمصائب بالمثل على رؤس الفرس وذلك مصداق ما ذكر في القرآن الشريف في قوله تعالى (الم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) وكان القائد الذي أعاد خسرو الى تخته لم يزل قائدا في الشرق حتى عزل من قيادته فاعتزل في مدينة هيرابوليس في سوريا واستقل بنفسه فخدعوه في القسطنطينية بالمواعيد الكاذبة وأذاقوه وبال الحرق في سوقها ولما افتقد العساكر الرومانية قائدهم الذي كانت الاعداء تخشى سطوته انهزمت الطوابير التي كان ساقها الحرب الفرس مرتين بخيالة الفرس وداستهم الفيلة تحت أقدامها وخرقت صدورهم رماح الفرس وقتل الجم الغفير من الاسرى في ميدان الواقعة بأمر خسرو ملك الفرس وقتل العساكر الذين كانوا هاجوا في ثورة قتل موريس كل هذا في مدة سلطنة فوكاس وحاصر خسرو مدائن دارا وعميدة وعديسة على التوالي وأخضعها وهدم استحكاماتها وأسوارها ثم عبر الفرات واحتل مدائن سوريا هيرابوليس وكلسيس وحلب ثم حل مع السرعة على وديان انطاكيا بجيوشه المظفرة وظهر من هذا المد السريع اضمحلال المملكة وعدم لياقة فوكاس وتدبيره ونفور رعاياه واشمئزازها منه

وكان أول الاخبار التي وردت على هرقل من جهة الشرق خبر ضياع أنطاكيه الا أن هذه المدينة العتيقة كانت الزلازل هدمتها ومن نهب كل عدو تغيرت حالتها وصارت مجرى صغيرا للكنوز والدماء وفاز الفرس وحصلت لهم السعادة من نهبهم قيصرية عاصمة قبذوقيا ولما تقدموا وراء أسوار الثغور واستحكاماتها وجدوا مقاومات قليلة ومحصولات وافرة كثيرة وكان وادي دمشق الرحب البهج النضر محلي في كل عصر بمدينة ملوكية فاستراح خسرو مع عساكره في جنان دمشق وبساتينها من قبل أن يصعد جبال لبنان أو يغير على المدائن الفنيقية الساحلية ومن بعد أن أخضع غليلي والاقليم الموجود وراء نهر الاردن هجم عنوة على أورشليم وتغلب عليها وهدم قبر المسيح باغواء المجوس والكنائس المفتخرة التي كانت شيدتها هيلانه وقسطنطين وختم على دمارها بالنار ونهبت نذور وهدايا نحو من

ثلاثمائة سنة فى يوم واحد ونقل البطريرك زكرياو الصليب الحقيقى الى فارس وقتل تحت السيف ٩٠٠٠٠ من المسيحيين فى سنة ٦١٤ بعد الميلاد وأما مصر نفسها التى هى كانت الاقليم المستثنى من عهد دوقلطيان من الحروب الخارجة والداخلة فانها خضعت فى سنة ٦١٦ بعد الميلاد بواسطة خلفاء كيرش وذلك أن خيالة الفرس أغارت على بلوزم مفتاح الديار المصرية وتغلبوا عليها وعبروا الخلجان والترع العديدة من الدلتا وساقوا فى طول وادى النيل من اهرام منف حتى وصلوا حدود أثيوبيه وأما نفس الاسكندرية فانها سلمت بمجرد قوة بحرية كانت موجودة فيها غير أن المطران والعامل توجها فى احدى المراكب مع عائلاتهما الى جزيرة قبرص ودخل خسرو المدينة الثانية للايالة المصرية وكان يوجد بها بقية من الاشغال والصنائع والتجارة ثم سار منها الى أن رفعت بيارق نصره على أسوار قرطاجنه وعلى ضواحى طرابلس ودمر جميع المستعمرات الجريقية فى جهات صيرينى وسار هذا الفاتح على قدم الاسكندر الاكبر وعاد مظفرا من وسط رمال صحارى ليبيا وفى أثناء سير هذه الاعمال مع الظفر والنجاح زحف جيش فارسى من وسط آسيا الصغرى الى نواحى بوسفور ترآسه وتغلب على كالسيدونه من بعد حصار طويل واستمر الجيش الفارسى زيادة عن عشر سنوات معسكرا على مرأى من القسطنطينيه وخضع الساحل البحرى من بونطوس ومدينة انسيره وجزيرة رودس الى ملك فارس ولو كان عند خسرو قوة بحرية لنشر رق العبودية والخراب على الاقاليم الاوروباوية وصارت الجيوش الفارسية لا تغلب كما صار خسرو على شرف احياء مجد وشوكة جديه الكبير بن كيرش الاول أوكيخسرو ودارا الاول

وامتدت سلطنة حفيد نوشروان بغتة من شواطئ نهر الدجلة والفرات التى كانت المنازعة على الدوام حاصلة عليها الى بوغاز الهلسبون والنيل وهى المملكة القديمة الفارسية وشالت الاقاليم والايالات حمل النالف الفارسى من بعد أن كانت متعودة من منذ ستمائة سنة على عادات فضائل الحكومة الرومانية ونقائصها وكان اذا ظهر لملك الفرس أدنى صلابة من أى أمة من ممالكه عجزهم بأخذ أموالهم وأفقرهم وضرب عليهم ضرائب متجاوزة الحد وسلب كل ما فى أيديهم وخرب خسرو وهيأ كل الشرق ومعابدها وسلبها ذخائرها وكنوزها ونقل الى ممالكه الوراثية الذهب والفضة والاحجار الكريمة والصنائع النفيسة والاشغال الظريفة الموجودة فى مدائن آسيا وتمتع بثمار نصراته وانتقل من مصاعب الحروب ومشاقها الى الرفاهية واللذات الشهوانية فى سراياته وتطير من التقرب الى أبواب عاصمته قطزيفون (المدائن) وحصل له منها الوسوسة الخرافية واتخذ مقره فى مدينة دستجرد وراء نهر الدجلة وعلى مسافة ستين ميلا من الجهة الشمالية من العاصمة فكانت أراضى المراعى والكلا مغطاة بالمواشى والانعام والبساتين والجنان مشحونة بطيور الدراج والطواويس والنعام والغزلان والوعل والدباب الوحشية والاسود والنمور وكان عنده تسعمائة وستون فيلا يستعملها فى مجد وأبهة نفسه وكانت خيامه وأمتعته تحمل الى الميدان على ١٢٠٠٠ جمل و ٨٠٠٠ من الحيوانات الاقل جسامة منها وكان فى الاسطبلات الملوكية ٦٠٠٠ من البغال والخيل المسومة و ٦٠٠٠ من الخفر راكبين على ظهور خيولهم أمام باب السراية يتغيرون بمثلهم على التعاقب وكانت خدمة المحال الداخلة من السراية محولة على ١٢٠٠٠ من الرقيق وبها ٣٠٠٠ قينة من أجمل سرارى آسيا وأجملهن وأجلهن شيرين محظية الملك ونديمته وجليسته وكانت الكنوز المختلفة والذخائر من الذهب والفضة والحرير والجواهر وأنواع

الروائح والعطريات مخزونة فى قبوة معقودة تحت الارض وحوائط سرايته مزينة بثلاثة آلاف ستارة من الغالية الثمن وأربعة آلاف عمود من الفضة أو الرخام أو الخشب المصفح بالذهب والفضة حاملة سقف السراية والقبة أو الايوان وألف كرة من الذهب معلقة فى القبة على هيئة صور كواكب وسيارات منطقة البروج وبينما كان ملك فارس فى لذاته وغرائب أعماله وأفراح لذاته اذ وردت عليه رسالة من أحد رجال مكة يدعوه الى الاقرار بوحدانية الله وان محمدا رسوله فرفض الدعوة ومزق الرسالة فقال النبى العربى صلى الله عليه وسلم ان الله سيمزق ملك خسرو ولا يستجيب له وكانت هذه الرسالة فى السنة السابعة من الهجرة التى تبتدئ من ١١ مايو سنة ٦٢٣ بعد الميلاد وقال آخرون انها كانت فى سنة ٦١٥ بعد الميلاد من بعد أن تغلب خسرو على فلسطين ثم تساقطت الاهوال والمصائب على هرقل من ابتداء سنة ٦١٠ الى سنة ٦٢٢ بعد الميلاد وقلت ممالكه وضعفت رعيته لان سوريا ومصر وايالات آسيا جميعها صارت تحت أحكام الفرس واحتلتها جيوشها وأما أوروبا فانها صارت من حدود اسطريا الى السور الطويل من تراسة متضايقة مكبوسة بالافارس وكانوا ما شبعوا من دماء حرب ايطاليا وسلبها وقتلوا ما أخذوه من الاسرى من الرجال فى ميدان بانونيه وباعوا النساء والاطفال وحضنوا القينات والابكار وانحصر هرقل أشد حصار بالاعداء وآلت المملكة الرومانية الى أسوار القسطنطينية مع ما بقى من الجريس وايطاليا وافريقيه وبعض مدائن ساحلية من صور الى طرابزون وساحل البحر الادرياطيقى ومن بعد ضياع مصر انتشر الوباء والقحط فى العاصمة وعزم الامبراطور على الرحيل وكان لا طاقة له على المدافعة ولا حيلة له فى الخلاص الا أن يجعل نفسه ومقر حكومته فى قرطاجنه وكانت هى المقر الأمين عنده وشحن مراكبه بكنوز السراية وذخائرها فأوقف البطرك رحيله وسلح مدافعة بلاده بالديانة وساق هرقل الى منبر كنيسة سنت صوفيه ومحرابها وحلفه يمينا مؤكدا على أنه يعيش ويموت مع الامة التى جعلها الله تحت رعايته وكان فى هذا الوقت شاغان الافارس معسكرا فى سهول تراسة فأخفى مقاصده الخبيثة وتقابل مع الامبراطور مقابلة رسمية بالقرب من مدينة هراقليه وربط علاقات ودية معه وحصل الاحتفال بهذه المقابلة بواسطة ملاعب الخيول وظهر السناتو والامة فى ملابسها الفخيمة وأبهتها الجميلة فنظر اليهم الافارس بعين الحسد والعداوة والغيرة وعظم عليهم وكبر لديهم ما الرومانيون عليه من لذة العيش والرفاهية فأحاطت خيالة الافارس بالاپيدروم على حين غفلة وصرخ عليهم شاغانهم صرخة الهجوم فأخذ هرقل تاجه فى يده وركب حصانه ونجا بنفسه مع خمسة عشر من فرسانه وأسرع الافارس فى الهجوم حتى قربوا من باب الذهب من القسطنطينية ولم يدخلوه ونهبوا ضواحيها وما جاورها وأخذوا مائتين وسبعين ألف أسير وساقوهم الى ماوراء نهر الدانوب فتوجه الامبراطور فى مراكبه الى ساحل كالسيدون وعقد مجلسا أمام عدوه الاكبر فقابله قائد الفرس قبل نزوله من المركب وحياه بالسلام وأهل به وصعب عليه حالة الامبراطور فكان من قائد الفرس أن أرسل رسولا الى مليكه الاعظم ملك فارس وكان هذا الرسول النائب العسكرى ووالى مدينة القسطنطينية وكان من أكبر رجال الكنيسة ومن رجال الطبقة الاولى فى الديانة يسأل ملك فارس الصفح والصلح بما يرغبه فلما توجه السفير الى التخت الفارسى قوبل بأعظم قبول ولما عرض على الملك مطاليب الامبراطور قال طاغية آسيا الفارسى كنت أود أن يكون هرقل هو الذى يلزم أن يطأ مواطئ أعتاب تختى لا سفير من عنده ويطلب مطاليبه فانا لا أسالم

امبراطور رومة حتى يجحد الهه المصلوب ويحصن عبادة الشمس ويكون من المجوس ثم قال انى كنت على رغبة من فتح القسطنطينية ولكنى الآن تنازلت عنه وضرب خراجا سنويا على المملكة الرومانية قدره ألف وزنة من الذهب وألف وزنة من الفضة وألف ثوب من الحرير وألف من الخيل وألف قينة فعاد السفير ورضى هرقل بهذه الشروط الصعبة وجعل الزمن والمدة التى يستحصل فيها على جباية هذه الذخائر من الشرق الفقير فى استعداد هجوم مع الجسارة وقطع اليأس

ومن الصفات المذكورة فى التاريخ ان هرقل كان عبدا للكسل وحب اللذات والشهوات والخرافات لا يعتنى ولا يلتفت للمصائب والاهوال النازلة على المملكة ولما نظر بعينه ضياع كل شئ وخسرانه قذف من على ظهره حالة الضعف والرخاوة وتقلد زمام الشجاعة والشهامة واقترض الاموال المقدسة الموجودة فى الكنائس والمعابد تحت قسم ونذر قوى أنه يعيدها كما اقترضها مع فوائدها وأرباحها مرة ثانية وجند جيشا وأسطولا وأقلع الى سواحل سيليسيا ونزل عليه بعساكره وعسكر فى جهة عصوص فهجم الفرس عليه فى هذه الجهة فانتصر عليهم نصرة واحدة فى الميدان القديم الذى كان الاسكندر الاكبر هزم فيه دارا ملك الفرس قبل ذلك بألف سنة وكانت هذه النصرة فى سنة ٦٢٢ بعد الميلاد وصعد هرقل مع الجراءة والجسارة مرتفعات جبل طوروس وساق عساكره من وسط سهول قبدوقيا وقضى فصل الشتاء فى أمن على شواطئ نهر الحاليس وترك عساكره فى هذا الموقع وتوجه مسرعا الى القسطنطينية

ثم انه من عهد صكيبو الرومانى وحنبال القرطاجنى ما حصلت مشروعات حربية مع الجسارة والشجاعة مثل المشروع الذى أجراه هرقل فى خلاص المملكة الرومانية من يد الفرس وغيرهم من الاعداء وذلك انه من سنة ٦٢٣ الى سنة ٦٢٥ بعد الميلاد درخص للفرس فى مضايقة الاقاليم وقهرها وتهديد العاصمة مع الوقاحة وكشف الامبراطور طريقه الصعب من البحر الاسود وجبال أرمينية ودخل فى قلب المملكة الفارسية وألزم الملك الاكبر ملك فارس على كونه يطلب عساكره للمدافعة عن بلادهم السائلة على الارض دماؤها فانتخب هرقل شرذمة من العساكر مقدارها خمسة آلاف نفس وأقلع بهم فى البحر الاسود من القسطنطينية الى طرابزون وفيها جمع قواه التى كانت مشتية فى أقاليم بونطوس على نهر الحاليس وقوى رعاياه ومحالفيه من ابتداء فم نهر فاسيس الى بحر الخزر على السير مع خلفاء قسطنطين تحت نصرة بيرق الصليب وكان حصل التنازل عن حدود أرمينية الى الامبراطور موريس وامتدت هذه الحدود حتى وصلت نهر اركسيس ونصب هرقل على النهر جسرا عبرت عساكره من فوقه وسار من طريق مارك أنطونى وزحف على مدينة طوريس أو غندزاقه أو تبريز عاصمة أقاليم ميديا قديما وحيد ديناور جمع خسرو فى رأس ٤٠٠٠٠ نفس من عساكره من غزوة كان فيها بعيدة لاجل صد تقدم الجيوش الرومانية فكانت هذه الرجعة عند قرب هرقل سببا فى ضعف الواقعة وهزيمة خسرو ثم وقفت الفتوحات السريعة والحركات العسكرية لهرقل مدة فصل الشتاء فقط وفى غضون ذلك عزم هرقل من حزم رأيه على الرجعة الى داخل أقاليم الباتيا فى طول ساحل بحر الخزر ونصب خيامه فى سهول مغان فى المعسكر الذى كانت تتخذه ملوك الشرق وفى مدة هذه الغارة المظفرة أظهر هرقل غيرة الديانة المسيحية وانتقام وبطش ملوك النصرانية فى أوامره الصادرة منه لعساكره فأخمدت العساكر نيران الجهات الفارسية ودمروا هياكل ومعابد المجوس ورموا تماثيل خسرو

فى لهب النيران ودمر واطبرمه أو أورميه مسقط رأس زرادشت وهدم مقابره الشريف وخلصوا نحو امن ٥٠٠٠٠ أسير وسار بجيوشه المظفرة حتى وصل مدينتى قزوين واصبهان ولما ارتاع خسرو واهتزت مفاصله مما حل بمملكته من المصائب والاخطار أرسل فى طلب جيوشه من وادى النيل ونواحى البوسفور وأحاط بعسكر الامبراطور ثلاثة جيوش مهولة فى أرض بعيدة عدوة له واستعد محالفوه من الكولشيانيين على تركه وظهر الخوف على وجوه رجاله الشجعان المتدربين فى الحروب فقام فيهم هرقل وقال لا تخافوا ولا تحزنوا من كثرة عدوكم فان كل واحد ومانى يغلب بعون الله ألفا من الهمج واننا لو جعلنا حياتنا فداء عن اخواننا وخلاصالهم لنلنا تاج الشهادة والنعيم الدائمى من الله وأجدادنا وساعد هرقل أقواله بشهامة أعماله فرد الثلاثة جيوش الفارسية وفصلهما من بعضهما بسرعة سيره وقهقرته وأجرى حركات هزم بها هذه الجيوش فى الميادين حتى ألزمها الدخول فى المدائن الحصينة فى ميديا وأشوريا وفى فصل الربيع عبر الامبراطور جبال الكورديستان فى سبعة أيام وعبر نهر الدجلة الشديد الجريان من دون مقاومة ولما حصل للجيش الرومانى التعب من كثرة مامعهم من الغنائم والاسرى وقف تحت أسوار مدينة عميده وأشعر هرقل سناتو القنسطنطينية بسلامته ونجاحه مع عساكره وكسر الفرس القناطر التى كانت على نهر الفرات ولما كشف الامبراطور مخاضات هذا النهر تقهقر الفرس مع السرعة لحماية شواطئ نهر ساروس فى سيليسيا وعرض هذا النهر السريع الجريان نحو من ثلثمائة قدم وقنطرته محصنة بأبراج قوية مرصوص على شواطئه نبالة الفرس فبعد محاربة دموية استمرت الى الغروب هزم الرومانيون الفرس وسار هرقل فى طريقه حتى وصل سباسطى من أعمال قبدوثيا وتشرف ساحل البحر الاسود بعود هرقل من غزواته الطويلة متوجا بالظفر من بعد مضى ثلاث سنوات وكانت هذه نصرته الثانية أو غزوته الثانية

وفى سنة ٦٢٦ بعد الميلاد عزم الملكان المتنازعان فى المملكة الشرقية على فصل هذه المسئلة فى داخل الممالك بدل أن تحصل منازعات ومحاربات على الحدود وكانت القوى الفارسية انضنى حالها واضمحل أمرها من حركات المشى والحروب مدة عشرين سنة وكثير من الشجعان المتدربين على الحروب الذين فيهم الطاقة على ضرب السيف والتعود على الاقاليم مازالوا موجودين فى قلاع مصر وسوريا وكذا أضعف طمع خسرو ونقمته المملكة وكسبها لجمع خسرو عساكر جديدة وألف جيوشا من رعاياه من الاغراب والرقيق وقسمها الى ثلاثة جيوش كبيرة فالجيش الاول جعله مؤلفا من ٥٠٠٠٠ نفس ولقبه بجيش المزراق الذهب وأمره بالتوجه لملتقى هرقل نفسه وشكل الجيش الثانى وأمره بأن يكون موقعه بين هرقل وأخيه طيودوروس حتى لا يحصل انضمامهما مع بعضهما وأمر الجيش الثالث بالتوجه لحصار القنسطنطينية ومساعدة غارات الشاغان عليها ودخل ملك فارس فى معاهدة ومحالفة مع الشاغان والافارس على تقسيم ممالك هرقل فيما بينهم وسار سربار وجيشه الثالث من وسط أقاليم آسيا حتى وصل المعسكر المشهور فى كالسيدون (اسكودار الآن) وأبهج نفسه بتخريبه معابدها كل الضواحى الآسياوية وكان ينتظر مع عدم الصبر حضور أصدقائه الصيطيين فى الجهة المقابلة من البوسفور وفى ٢٩ يونيو سنة ٦٢٦ بعد الميلاد خرق ثلاثة آلاف من المتبربرين وهم مقدمة الافارس خط الاستحكامات الطويلة وأوقعوا التشويش والانزعاج فى زحام الفلاحين والتبعة وأهل المدينة وجلب الشاغان ٨٠٠٠٠ نفس من رعاياه الوطنية ومن الرعايا الموجودين تحت حكمه

من

من قبائل الجبيدى والروسيين والبلغاريين والسلافيين وتقدم الشاغان نحو القسطنطينية وقضى شهرا فى سيره ومخابراته وأحاط بالمدينة فى ٣١ يوليه من ابتداء ضواحى بيره وغلطه الى السبعة أبراج وشاهد السكان بعين الرعب والخوف علامات لهب النيران فى نواحى السواحل الآسياوية والاوروباوية فاجتهد فى اثناء هذه نواب القسطنطينية مرارا عديدة فى مشترى معاهدة مع الشاغان فرفضها وشتم مبعوثيهم وتضرر من وقوفهم أمام كرسيه وعرشه حينما كان مبعوثو الفرس جالسين بجانبه متوشحين بالملابس الحرير فقال الشاغان البربرى لمبعوثى نواب القسطنطينية انظروا بعيونكم دلائل اتحادى الكامل مع الملك الاكبر ملك فارس وان نائبه فى ساحل آسيا مستعد لان يرسل الى معسكرى شرذمة من أجود عساكره مؤلفة من ثلاثة آلاف محارب فلا تظنوا انكم تسعون عند سيدكم فى ارسال فداء جزئى أوغير كاف فان أموالكم ومدينتكم صارت الهدية الكافية لنفسى التى يمكننى ان أقبلها وأما أنتم فانى أسمح لكم أن تخرجوا من المدينة على بدن كل واحد منكم ثوب وقيص تحت وصديقى سر بار لا يرفض مروركم من خط حذائه العسكرى وان ملككم الغائب عنكم الذى هو الآن اما أسيرا ونجا بنفسه ترك القسطنطينية وما تؤل اليه عاقبة أمرها وصار الآن لا نجاة لكم من سيوف الافارس والفرس الا أن تطيروا فى الهوا مثل الطيور أو تغطسوا مثل السمك تحت أمواج البحور وفى مدة عشرة أيام متوالية كبس الافارس بالحصار على المدينة وتقدموا من أسوارها من أجل لغم السور أو كسره تحت سحالف متينة وقدموا اثنى عشر برجا من الاخشاب شامخة بجوار الاسوار وصاروا يضربون عليها بالاحجار الضخمة والنشاب والحراب وأما السناتو وأهل المدينة فانهم بذلوا جهدهم فى المدافعة عن مدينتهم وأمرهم هرقل بفرقة من العساكر مؤلفة من ١٢٠٠٠ نفس فصلها من جيشه واستعملوا النيران الحريقية والآلات والاعمال والمنجنيقات الميكانيكية مع النجاح فى المدافعة عن المدينة وحفظت المراكب الحربية ذات الثلاثة صفوف من المقاذيف البوسفور ومنعت كسالى الفرس من العبور الى العاصمة فكانوا ينظرون هزيمة محالفيهم ومن المحافظة والمدافعة التامة التى أجراها أهل القسطنطينية وعساكر المدينة صدوا الافارس من هجومهم وأحرقوا أسطولا من مراكب السلاف فى المينا وعزم رعايا الشاغان على تركه وقلت مؤناته وحرقت آلاته فأعطى اشارته برجعة وقهقرة مهولة ونسب الرومانيون هذه النصرة والخلاص الى مريم العذراء أم المسيح

ومن بعد أن قسم هرقل جيشه تقهقر مع الحزم الى شواطئ نهر فاسيس وفى نواحيه أجرى حربا دفاعيا على جيش الخمسين ألف مرزاق ذهب وانصرف عنه العناء والفكر بخلاص القسطنطينية وثبت عقله وتوطدت آماله بنصرة أخيه طيودوروس ومثلما تحد خسرو مع الافارس اتحد أيضا الامبراطور الرومانى مع الترك وعقد معهم محالفة جليلة ودعاهم لنفسه وكانوا من عشائر وقبائل الخزر فلبوا دعوته ونقلوا خيامهم وأموالهم من نواحى نهر الولغا الى جبال جورجستان وقابل هرقل خاقانهم وأمراءهم فى نواحى تفليس فنزل الخاقان وأشراف قومه عن ظهور خيولهم وسجدوا فى الارض على وجوههم وقالوا لو نقنا من الحريق لعبدنا أرجوانى القيصر فلما رأى هرقل مثل هذا الاحترام قلع تاجه من فوق رأسه ووضعه على رأس خاقان الترك وسلم عليه بالحضن وجعله ابنه واحتفل بهم فى وليمة مفتخرة أعدها لهم وأهدى طبيل الصحاف والزينة والذهب والجواهر والحرير التى كانت

مستعملة فى المائدة الامبراطورية وفرق بيده عليهم جواهر وحلقانا ووعده هرقل خاقان الترك بان يزوجه بابنته واستحوذ فى الحال على ٤٠٠٠٠ فارس خيال من الترك وتخابر فى تحويل الجيوش التركية من جهة نهر سيحون بالاغارة على الممالك الفارسية وأما من جهة الفرس فانهم تقهقروا مع السرعة الى معسكر عديسيه وجمع هرقل جيشا مؤلفا من ٧٠٠٠٠ نفس وأجرى حركاته المظفرة وفى ظرف بضع شهور استرد مدائن سوريا وميزوبوتاميا وأرمينية وكانت هذه المدائن على تحصين غير تام ومدافعة قليلة وما زال سربار مقيما فى الموقع العظيم فى كالشيدون فتولد من غيرة خسرو وطمعه أو من حيلة وخداع هرقل ابتعاد هذا المرزبان الشجاع من خدمة مليكه وبلاده وذلك انه وردت رسالة سواء كانت حقيقية أو مزورة للقائد الثانى يطلب منه فيها أن يرسل الى التخت من دون أدنى تأخير رأس المجرم الشقى القائد سربار فوصلت هذه الرسالة الى يد سربار نفسه فلما قرأ حكم قتله أدخل فيها أسماء أربعمائة نفس من الضباط وعقد مجلسا عسكريا وسأل القائد الثانى أمام المجلس هل هو مستعد لتنفيذ أوامر طاغيتهم وظالمهم فقال الضباط جميعا فى نفس واحد ان خسر وافقد وخسر قضيب مملكته فتولد من هذا الصنيع أن عقد سربار معاهدته على حدته مع حكومة القسطنطينية واتحد معها وصار من توابعها ومعاضديها

وفى سنة ٦٢٧ بعد الميلاد عندما خسر خسرو معاضدته الاكيدة من سربار وارتاب من وثوقه برعاياه عرف من دون ريب أن مملكته صارت على شرف الدمار فجمع جيشا مؤلفا من خمسمائة ألف نفس يكل عن وصفه الكاتب بما كان عليه هذا الجيش من الرجال والسلاح والخيول والفيلة التى غطت مبادى ميديا وأشوريا ضد اغارة هرقل وغزوته فزحف الرومانيون مع الشجاعة من نهر اركسيس الى نهر الدجلة وسار خلفهم الجبان رازاطايس قائد جيش مزراق الذهب بجيشه من وسط بلاد دقفرة حتى تحصل واقعة فاصلة لعاقبة مملكة فارس وكان فى الناحية الغربية من نهر الدجلة وفى نهاية قنطرة الموصل مدينة نينوى القديمة الكبيرة وخفيت هذه المدينة حتى أطلالها وآثارها تحت الارض واستمرت مسافتها الخالية حتى صارت ميدانا رحبا لحركات الجيشين فكانت محلا لملتقاهما وانتشاب الحرب فيها فآلت نتيجة واقعة نينوى الى نصر هرقل وهزم الفرس وفى هذا اليوم المشهور فاقت شجاعة هرقل محاربيه وكان راكبا على حصانه فالوس فانخرقت شفة الحصان برمح وانجرح فخذه لكنه نجا بسيده منصورا من وسط طوابير الفرس وقتل هرقل فى حرارة الواقعة ثلاثة من كبار القواد وشجعانهم بسيفه ورمحه وكان من ضمنهم رازاطايس وأخذ خوذته وكانت من الذهب النقى وجفته وكانت مائة وعشرين صفيحة أو لوحا من الذهب وسيفه ومنطقته وسرجه وزرخه ولولا أن هرقل كان من توابع المسيح وأمه لقدم هذا السلب هدية منه الى جوبتير الكابيتول فى رومة وأخذ فى واقعة نينوى التى ابتدأت من الفجر الى الساعة احدى عشر افرنكى من النهار ثمانية وعشرين بيرقا من الفرس خلاف الذى تكسر وقتل معظم الجيش وأخفى المنصورون تلفياتهم وباتوا ليلتهم فى الميدان على سلاحهم واستمر الباقى من خيالة الفرس ثابتا فى موقعه الى الساعة الثامنة افرنكى بعد الغروب ثم تقهقروا الى معسكرهم المكسور وجمعوا عفشهم وانتشروا فى كل جهة ثم سار هرقل على قدم نصرته ثمانية وأربعين ميلا فى أربع وعشرين ساعة حتى احتلت مقدمته قناطر نهر الذاب الاكبر والاصغر وفتحت المدائن والسرايات الاشوريانية أبوابها للرومانيين أول مرة وما زال فى سيره حتى دخل المقر الملوكى فى دستجرد مع الامن

والجسارة

والجسارة فمع انه صار نقل غالب الكنوز وصرف منها الكثير الا أن الباقى من الاموال والذخائر كان كافيا لما كان الرومانيون يأملونه فسد رمقهم وأشبع جوعتهم والذى لم يقدر وا على حمله أحرقوه ودمروه وخلص هرقل ثلثمائة بيرق رومانى وجما غفيرا من أسرى عديسيه والاسكندرية ثم سار من سراية دستجرد حتى دخل المدائن ومنها الى شهرزور وعبر جبال زغرة قبل نزول الثلج واستقبل أهل تبريز عساكره وخيولهم مع السعة وانشراح الصدر

وكان خسرو أداه طمعه الى المدافعة عن عمالك الو راثية وألزمه حب الفخر أو خوف العار على أنه لا بدله من مقابلة خصمه فى الميدان وفى واقعة نينوى وهى الواقعة الاخيرة الفاصلة كانت أفكار الفرس فى ان خسروا اما أن يغلب أو يقتل مع الشرف برمح امبراطور الرومانيين ففى أثناء الواقعة انتخب خسرو لنفسه محلا أمينا بعيدا عن حركة القتال وانتظر الواقعة حتى انهزمت عساكره وجمع ما بقى من بعد الهزيمة وتقهقر أمام حركة سير هرقل حتى صار على منظر من مقابر دستجرد المحبوبة عنده فافتكر أحبابه وأعداؤه أن مقصود خسرو دفن نفسه تحت أطلال المدينة والسراية ومن ثم حصل عندهم كراهته من عدم ثباته وهربه أمام هرقل ثم دخل ملك آسيا سرايته خفية وأخذ شيرين وثلاث سرار من سراريه وهرب من شرم كان فى السور قبل وصول الرومانيين بتسعة أيام واستعوض زينة احتفاله وسجود الناس له حال ظهوره لابسا تاجه على رأسه بسفر خفى تاجيا بنفسه وبات فى أول ليلة فى خص أحد الفلاحين وانشرح الملك الاعظم من بابه الواطى وامتزج جسمه بالخوف والرعب ومازال فى هربه حتى دخل المدائن وصده نهر الدجلة ولما انكشف هربه من السراية ارتجت السراية والمدينة والعسكر فى دستجرد بالخوف والفزع والهيجان وتردد المرازبة فى أمرهم من خوفهم من ملكهم أو من العدو ووقع الاستغراب عند الحريم وفى داخل السراية من هرب الملك ثم بعد قليل طلب الملك أزواجه فى قلعة بعيدة وأمر جيش دستجرد بالانتقال عنده فى معسكر جديد كانت مواجهته مستورة بنهر ابره وحذاء مؤلف من ٢٠٠ فيل فوصل اليه عساكر الاقاليم البعيدة والمرازبة على التدريج واجتمع رأى القبحاء من خدام الملك والمرازبة على المدافعة عن المملكة الى آخر نفس وكان خسرو مازال فى قوة على الحصول على معاهدة سلمية وجاءه مبعوث هرقل المرة بعد المرة يسألونه الصفح عن رعيته ويمتنع من اجرآته الهمجية الحاصلة من القتل والحرق والسلب فى ولايات آسيا ولما تيقن خسرو من رجعة هرقل بكى وناح على ما حصل فى سراياته من الخراب والدمار وعلى ما كابدته أمته من المضار والآلام من أجله ولما رأى هذا المسكين تقدمه فى السن وذاق أنواع العذاب واعترته الاوجاع أضمر على أن يجعل تاجه فوق رأس ابنه مرزه وكان محبوبا عنده زيادة عن أولاده الاخر فتشكلت ثورة ضدرأيه هذا كان رأسها ابنه شيرويه من شيرين ومال شيرويه بالاحسان على اثنين وعشرين مرزبانا محبين للوطن وزاد فى مرتبات العساكر وسمح للسجينين بالحرية فى اجراء شعائر دياناتهم وأعتق الاسرى وكافأهم وقلل الضرائب والعوائد وصمم الثائرون على أن شيرويه يلزم أن يظهر فى المعسكر بالبيارق الملوكية واذا خاب هذا المشروع تكون نجاته فى هربه الى الديوان الامبراطورى ولما ظهر شيرويه فى المعسكر قابلوه بالتهليل والاحتفال وقبضوا على خسرو قبضا عنيفا وذبحوا أولاده الثمانية عشر أمام عينيه ثم رموه فى سجن مات فيه فى اليوم الخامس من حبسه وانقرض مع موته مجد البيت الساسانى وفخره وما تمتع ابنه الوحشى بثمرات ما جناه من الجرائم الا ثمانية شهور وفى ظرف أربع سنوات تقلد زمام التخت تسعة ملوك

تنازعوا عليه بالسيف من أجل مملكة اضمحل حالها وصار كل اقليم وكل مدينة من المملكة الفارسية مستقلا وتسلطنت الحالة الفوضوية مدة ثمان سنوات حتى انقطع خبر هؤلاء الاحزاب الطالبين تحت ناف خلفاء العرب .

ولما سكنت الاحوال وخلصت الارتباكات فى سنة ٦٢٨ بعد الميلاد وصارت الجبال قابلة للعبور منها وردت الاخبار على الامبراطور هرقل بنجاح الثائرين وقتل خسرو وجلوس ابنه الاكبر على تخت فارس وأرسل شيرويه رسلا من طرفه بمكتوب من عنده الى أخيه هرقل امبراطور الرومانيين يقدم له فيه علائق ودية وارتباطات حبية كان الامتان محرومتين منهما بمنازعات ومحاربات من عهد طويل ومعاهدة صلح وسلم أصلب من الحديد وصدق هرقل مع السهولة على شروط المعاهدة وتنفيذها وسار الامبراطور مسار العدل والانصاف وأعاد البيارق والاسرى التى كانت وقعت فى أيدى الفرس وأعاد الصليب والبطريرك الى المدينة المقدسة وتنازل شيرويه مع عدم الحزن والاسف عن كل ما فتحه أبوه وانجلى الفرس عن سوريا ومصر ولما رجع هرقل من تبريز الى القسطنطينية قابلها السناتو والقسس والامة أعظم مقابلة مع الابتهاج والفرح ومعهم أغصان الزيتون المقدس والقناديل المضيئة ودخل العاصمة فى عربة مجرورة بأربعة من الفيلة وما بقى من سلطنته كان جليلا الا أنه تولد من الاجتهادات والمساعى الكبيرة التى حفظ بها هرقل المملكة الشرقية وحروباته مع فارس وهن المملكة وتعجيزها حتى صار لا طاقة لها على مقاومة مستجدين من الاعداء يقومون عليها فيما بعد ومع هذا صار القسس مداينين المملكة بديون كبيرة فكانوا يأخذون معظم الاموال العمومية بأرباحها وفوائدها فى نظير الدين الذى اقترضه منهم هرقل بخصوص حفظ المملكة ومات هرقل فى سنة ٦٤١ بعد الميلاد من بعد أن تغلب العرب على الاقاليم الشرقية من مملكته مع غاية السرعة والنشاط وصارت لا تعود مرة ثانية وترك هرقل ممالكه لابنه قنسطنطين الثالث وهراقليوناس ابن مارتينه بنت أخى هرقل وكان تزوجها أبوه رغما عن البطريرك والقانون الديانى ومن بعد قليل مات قنسطنطين الثالث مسموما وقيل ان الذى سمه زوجة أبيه فحكم عليها بالنفى مؤبدا مع ابنها هرقليوناس وصار قنسطنطين الثانى الابن الكبير لقنسطنطين الثالث امبراطورا وكان عمره احدى عشرة سنة فى سنة ٦٤١ بعد الميلاد فأمر بقتل أخيه طيودوسيوس لاجل تولى توتعاقب الامبراطورية فى ذريته فنشأ مما حصل من الحزن والاسف على وقوع هذه الجريمة منه أن صار نفيه فى سنة ٦٦٢ بعد الميلاد وما زال منفيا حتى قتل فى جزيرة سيسيليا فى سنة ٦٦٣ بعد الميلاد وخلفه من بعد نفيه ابنه قنسطنطين الرابع فمع أن هذا الامبراطور أشرك معه أخوين له فى سمو الامبراطورية الا أنه جعل الشوكة الحقيقية فى يده فقام عليه أخواه فجردهما من ألقابهما ومناصبهما

وفى مدة هذه السلطنة تغلب العرب على القسم الاعظم من آسيا الغربية وفى سنة ٦٦٨ بعد الميلاد زحف العرب الى نواحى البوسفور وعدوا على القسطنطينية وحاصروها وضايقوها واستمر هذا الحصار مدة سبع سنوات الا أنه كان على غير طائل واستعمل الحريق فيه من أجل المحافظة والمدافعة عن المدينة النيران الحريقية الجارى استعمالها عندهم فى مثل هذه الحصارات ولما وجد العرب أنه يستحيل عليهم القرب من أسوار المدينة تحت هذه النيران الخطرة رفعوا الحصار وانجلوا عنها

وخلف يوسطنيان الثانى أباه قنسطنطين الرابع فى سنة ٦٨٥ بعد الميلاد فأهان قومه بفظاعته وقساوته

فقطعوا

فقطعوا أنفه وشوّهوا وجهه ونفوه فى جهات التتار سنة ٦٩٥ بعد الميلاد واستمرت الحكومة الامبراطورية عشر سنوات تحت مباشرة ليونطيوس فجلس على التخت وكان يوسطنيان يتباهى على حدود صيطيا بعوائده ويأمل عوده الى تخته مرة أخرى ومن بعد مضى ثلاث سنوات من نفيه ورد اليه خبر سار بانه صار الاخذ بثاره بواسطة ثورة ثانية تحت رياسة ابسيماروس وخلعوا ليونطيوس وجدعوا أنفه فتلقب ابسيماروس بلقب طبريوس وجلس على التخت وبذل جهده فى قطع دابر المنفى يوسطنيان واتحد مع تتار صيطيا ووعدهم وعدا جميلا من بعد هلاك يوسطنيان ولما استشعر بذلك يوسطنيان هرب من جهة التتار الى قبيلة الخزر فعامله خان الخزر بالشفقة والاكرام وصعبت عليه حالته وعين لاقامته مدينة فنغوريا وزوجه بأخته فدخلت فى الديانة المسيحية وسمت نفسها طيودره ومن بعد قليل نكث الخان صداقته حينما ورد اليه ذهب القسطنطينية ليقبض على يوسطنيان ويقتله أو يسلمه لاعدائه فاستشعرت طيودره بما فى ضمير أخيها فعملت ما يلزم على قدر طاقتها فى نجاة زوجها فنزل يوسطنيان فى مركب فى البحر الاسود ناجيا بنفسه ليبحث عن صديق ومحالف جديد (خان الخزر هذا كان مقيما فى القرم الآن) فنزلت العواصف على مركبه واشتدت الرياح والتلاقيح فقال له رجل صالح من أصحابه اعقد نيتك على عفو عام اذا أعادك الله الى تختك فقال له يوسطنيان عفو عام (تعجب) اللهم لكنى فى هذه الساعة الله يغرقنى فى هذه الامواج ان كنت أرضى بيقا رأس واحدة من رؤس أعدائى ومازال مقلعا بمركبه حتى وصل الى فم نهر الدانوب ونزل البر ودخل مع الامن فى المدينة الملوكية للبلغاريين واشترى مساعدة طربليس الشجاع ملك البلغاريين بزواجه ابنته ويقاسمه فى أموال مملكته وكانت المملكة البلغارية ممتدة فى ذلك الوقت الى حدود تراسة فحاصر الملك ان القسطنطينية فى رأس ١٥٠٠٠ خيال وكان فى العشر سنوات التى مضت من نفى يوسطنيان وهنت أفكار جرائمه ورق لحاله الكثير من أهل القسطنطينية وأسفوا على حرمانه من الملوكية ونفروا من الشوكة الحاكمة الحالية فبواسطة مساعدة ملك البلغاريين ومساعدة أحبابه من داخل المدينة دخل يوسطنيان المدينة والسراية القسطنطينية وجلس على تخته فى سنة ٧٠٤ بعد الميلاد

وأظهر يوسطنيان علو الهمة والشرف فى مكافأة حلفائه وفى طلب زوجته وتوجه طربليس عائدا الى مملكته من بعد أن كنس كوما من الذهب بسوطه البلغارى ومانسى يوسطنيان اليمين المقدس أى يمين الانتقام الذى أقسمه فى وسط زوابع البحر الاسود وأمواجه فانه قبل أن يقتل كلا من ليونطيوس وأبسيماروس الملقب كل منهما بالطاغية صار جرهما الى الايبدروم واحد من حبسه والآخر من سرايته مغلولين فى السلاسل ورميا تحت أقدام تخت الامبراطور فوضع كل قدم من قدميه على رقبة كل منهما مقدار ساعة فصرخت الامة بهذا الصوت وضعت قدميك على الافاعى والحيات هلا وضعتهما على الاسد والتنين فن هذا الوقت شرع يوسطنيان فى القتل والنفى والسلب كما فعل كاليجولا فى العصر الاول من المملكة الرومانية وما وقر يوسطنيان كبيرا لكبره ولا صغيرا لصغره ولا خليلا ولا عدوا وحافظ فى السبع سنوات التى تسلطن فيها هذه المرة على البطش بأعدائه وجعل آلاته العقابية الضرائب والكلاف والعذاب المبرح وكان غيظه الاكبر موجها نحو الخرسونيين من أهل القرم بما أنهم أهانوا نفيه وخرقوا قوانين النزول عندهم الا أن موقعهم القاصى كان هو الواسطة فى نجاتهم من أهواله فضرب ضريبة جسيمة على القسطنطينية لاستعداد أسطول وجيش وقال يوسطنيان ان مستعمرة الخرسونيين

جميع أهلها مجرمون ولا بد من اهلاكهم أجمعين وعهد تنفيذ هذا الامر الدموى الى نديمه اسطفان وسلمه أمرء الوحشى فسار بالاسطول والجيش الى القرم وتولد من بطء حركة هجومه انسحاب القسم الاعظم من أهل المستعمرة الى داخل المملكة فباع اسطفان الشبان والبنات وشوى سبعة من العمد والوجوه من أهل المستعمرة ورمى عشرين منهم فى البحر وكتف اثنين وأربعين بالحديد وأرسلهم فى الاسطول ليرى الامبراطور فيهم رأيه وعند عود الاسطول بالعساكر من البحر الاسود شحط بهم على صخور الاناضول فغرقوا ولما وصلت الاخبار الى يوسطنيان مدح البحر الاسود وأثنى عليه فى اغراقه كثيرا من رعاياه وأعدائه الا انه مازال مصرا على اغارة ثانية لاجل قطع دابر هذه المستعمرة ففى هذه المدة القليلة عاد الخرسونيون الى مستعمرتهم وعمروا مدينتهم واستعدوا للمدافعة والموت تحت السلاح فاجتمع كافة المنفيين من كل اقليم فى نواحى طوريس وألبسوا باردينس القميص الارجوانى ولقبوه بلقب فيلبيكوس وخلعوا يوسطنيان وقتلوه فى سنة ٧١١ بعد الميلاد وبموته انقرض بيت هرقل بعد أن تسلطن مائة سنة

وجلس فيلبيكوس امبراطورا على التخت فى سنة ٧١١ بعد الميلاد وذكر جبون فى تاريخه المسمى قيام الدولة الرومانية وسقوطها انه يوجد بين انقراض الهرقليين وقيام العائلة الايسورية مدة مقدارها ست سنوات انقسمت بين ثلاث سلطنات وحصل التأهل والترحاب بباردينس أو فيلبيكوس فى القسطنطينية وقابله أهلها بمقابلة الشجاع الذى أنقذهم وأنقذ بلادهم من الطاغية ظالمهم فذاق طعم بعض أوقات السعادة وزخرفة الدنيا والسيادة فى أول جلوسه وكان يوسطنيان ترك خلفه مبالغ جسيمة من النقود التى اكتسبها من ثمرة قطائعه وعنفوان نهبه وسلبه فصرف خليفته هذه فى مدة قليلة وأولم فيلبيكوس فى يوم عيد مولده ودعا الجم الغفير من الناس للالعاب فى الايبدروم وعمل له موكب من محل الايبدروم فى الشوارع كان فيه ألف بيرق وألف نفير واغتسل فى حمامات طوكسيبوس وعاد الى السراية وأولم لاشرافه وليمة مفتخرة أعدها لهم ولما صارت الشمس فى وقت الهاجرة توجه الى محل راحته سكران خمران من التملق وشرب الشراب وما كان له علم بما هو مقدر عليه فى الغيب فكان بعض الثائرين عليه أدخلوا أنفسهم فى زحام العيد وهجموا عليه وهو غفلان فى سكره ونومه وكتفوه وقلعوا عينيه وخلعوه وهو فى شدة نومه ومع هذا حرم هؤلاء الخائنون من مكافأتهم وأصعد السناتو والامة بحرية الصوت شخصا اسمه أرطميوس من درجة كاتب الاسرار الى درجة الامبراطورية فى سنة ٧١٣ بعد الميلاد وهى السنة التى قتل فيها فيلبيكوس وجلس أرطميوس فى ٤ يونيه من هذه السنة وتلقب بلقب انسطاسيوس الثانى فأظهر فى مدة سلطنة قليلة مرتبكة مختلة القواعد ذكاءه ونباهته فى كل من حالتى السلم والحرب لكنه من بعد انقراض السلسلة الملوكية انخرم قانون الطاعة وتولد من وقوع التغيير فى كل شئ نشر أبذار ثورات جديدة ففى ثورة الاسطول وهيجان عساكره ألبسوا ضابطا مجهولا من ضباط الواردات الثوب الارجوانى رغم أنفه ومن بعد مضى بضع أشهر انقضت فى حرب بحرى تنازل انسطاسيوس عن السلطنة فى سنة ٧١٦ بعد الميلاد وجلس من بعده طيودوسيوس الثالث وخلع هذا فى دوره وجلس الاقوى منه شوكة ليو قائد وأمبراطور عساكر الشرق وسمح ليو للاثنين سلفه بالدخول فى الوظائف الكنائسية الا أن عدم وصبر انسطاسيوس وطيشه تولد منه موته فى ثورة كان رتبها على ليو وأما طيودوسيوس فانه استقام فى وظيفته ونال الشرف واطمئنان الحالة فكان دينا خيرا اشتهر اسمه وكراماته عند أهل أفسوس مدة طويلة فيما بينهم

وفى

وفى يوم ٢٥ مارث من سنة ٧١٧ بعد الميلاد جلس ليو الثالث على تخت الامبراطورية وأسس عائلة جديدة عرفت بالعائلة الايسوريانية وكان ليو من أهل ايسوريا واسمه الاصلى كونون وقدح فيه المؤرخون الذين من عاداتهم القدح والذم ووصفوه بانه كان طوافا فى كار التجارة على حمار له يبيع الفراخ فى البلاد الكبيرة وقالوا انه قابل يوما من الايام فى طريقه بعضا من دراويش اليهود وأخبره بأنه سينال رفعة امبراطورية المملكة الشرقية الرومانية على شرط تكسيره الصور والتماثيل وابطال عبادة الاصنام وذكروا حكايات كثيرة ونوادر غريبة تختص بهجرة أبيه من آسيا الصغرى واقامته فى نواحى تراسة واشتغاله فيها ببيع الحشيش واكتسابه مبالغ جمة من النقود حتى انه وقت الحاجة ورد الى المعسكر الامبراطورى خمسمائة رأس من الاغنام وكانت أول خدمات ليو دخوله فى خفر يوسطنيان فاجتهد وترقى على التدريج وجذب الى نفسه غيرة الطاغية عليه واشتهر اسمه وعلا قدره فى الحرب الكولشيانى وعينه انسطاسيوس قائد الفرق الاناضولية وفيها انتخبه العساكر امبراطورا مع تصديق عموم المملكة الرومانية عليه وذكرهم الثناء له وحفظ ليو الثالث نفسه فى هذا المنصب الخطر من حسد أمثاله وعداوة أعدائه من الداخل والخارج وفتح سلطنته بالمدافعة والمحافظة الكبيرة على القسطنطينية من المسلمين وبما أنه من ايسوريا من جهة أرمينية قلد زمام المصالح الكبيرة الموجودة فى المملكة وكذا المحاكم العدلية لوجوه وأمراء الارمن لوثوقه بهم وبما أن اللسان الجريقى كان لسان الديوان والكنيسة والامة كانت أعمال الحكومة جارية بواسطة الاسياويين ولما خلص المملكة وأنقذها من أيادى العرب عكف على الشغل اللازم لاحياء رسومها وتقويتها فتولد من ادخال القوانين المدبرة فيها والنظامات الجليلة عصر جديد فى سعادة المملكة وفلاحها واستتب السلم والأمن عند كافة الامة بالمحاذرة على تمشية القوانين ودخلت التجارة بوفرة وسارت أحسن سير فى الاخذ والعطاء والبيع والشراء

ثم أصدر ليو فى السنة الحادية عشرة من سلطنته منشورا تولد منه الهياج والارتباك عند العالم المسيحى وذلك أن الكنائس كانت أدخلت على التدريج عبادة التماثيل والاصنام واستعملوها فى معابدها المقدسة وكان ليو على كراهة واشمئزاز نفس من هذه العادة التى اتخذت فى الكنائس فمن ثم أصدر منشورا فى سنة ٧٢٦ بعد الميلاد بتحريم عبادة الاصنام والتماثيل فتولد من هذا افتتاح الحرب المهول المزعج المعروف بحروب تكسير الاصنام ومن بعد ذلك بقليل أصدر منشورا ثانيا بكسر جميع الصور والتماثيل وعدم بياض أسوار وحوائط الكنائس فكانت هذه الاوامر سببا فى حصول مقاومات شديدة فى جميع أقسام المملكة ما عدا جهة الغرب فان حكومة الامبراطور ما كانت جارية على حسب أوامره ورفض أهل الكنائس الغربية قبول الاوامر الامبراطورية وأقام البابا نفسه مقام المدافع والمحامى عن التماثيل والاصنام وفى وسط هذه الاختلافات الحاصلة مات ليو فى القسطنطينية فى سنة ٧٤١ من بعد أن تسلطن أربعا وعشرين سنة وانتقل الارجوانى الذى حازه بحقوق الوراثة الى النسل الثالث من ذريته ومن بعد موته خلفه ابنه قسطنطين الخامس الملقب بالنجس وجلس على التخت فى يوم ١٨ يونيه سنة ٧٤١ بعد الميلاد فاستمرت سلطنته أربعا وثلاثين سنة فى حرب تكسير الاصنام مع الشدة والعنف فقام عباد التماثيل عليه ولعنوه وذموه وقالوا ان هذا الملعون هو الدجال وهذا هو التنين بزرة الثعبان الذى فاقت عيوبه ونقائصه علغبالوس ونيرو وكانت سلطنته مجزرة طويلة قتل فيها الشريف والوضيع

والقديس والبرىء والمجرم وكان يتطرالامبراطور بنفسه الى ذبح ضحاياه وقت خروج أرواحهم وشخيرهم غرقان فى دمائهم من دون أن يشبع منها وقالوا انه تقدمت له صحيفة ملآنة من الآذان فاثنى على مقدمها وكان يجدع خدمه وفراشيه بيده واشتق اسمه من تجيسه جرن المعمودية فقاموا عليه وطردوه من تخته فاسترده ثانيا وعاقب العصاة بأشد العقاب وعقد المجلس الثالث فى القسطنطينية فأصدر هذا المجلس قرارا رسميا بان عبادة التماثيل والاصنام شرك فى الدين وأصدر أمرا بتحريم عبادتها واستعمالها ومن بعد هذا القهر سار قسطنطين مسار الحزم والتدبير وصار ملكا قوى الشوكة وحفظ ممالكه الموجودة فى آسيا مع الشدة والثبات من اغارات العرب عليها وخلص ألوفا من الاسر والرق وأسكن ساحل تراسة وكان خربا قفرا بمستعمرات جديدة واستحسنت الكنائس أعماله واجرا آته من بعدما كانت فى أشد الكراهة له ومات فى سنة ٧٧٥ بعد الميلاد

وخلفه من بعد موته ابنه ليو الرابع فكان ملكا ضعيف العقل عاجز الرأى تنازل برضاه واختياره عن شوكته ودولته الى زوجته أرين وكانت من أهل أثينة وتتوج ابنه قسطنطين السادس واشترك فى الحكومة وكان عمره خمس سنوات ومن بعد مضى خمس سنوات مات ليو سنة ٧٨٠ بعد الميلاد وترك زوجته أرين وصيته ونائبة عن ابنه فكانت حزباقوى الحيل لعباد الصور والتماثيل وحضنت أمرهم مع الغيرة والحماس وعقدت مجلسا حافلا فى نيس أى فى مدينة نيخيا فى سنة ٧٨٧ بعد الميلاد تقرر فيه أن وجود التماثيل واحترامها مطابق فى التعليم والاستعمال للكتب المقدسة والبراهين العقلية ومن هنا ألغى الامر الذى كان صدر من مجلس القسطنطينية وأظهرت أرين فى مدة صغر ابنها ما كانت عليه من الحزم والمهارة وجودة الحكم وحافظت على تربية ابنها وتهذيبه ومع هذا فان الامبراطور عند ما أشرف على بلوغ رشده صار لا طاقة له على حكم أمه وسلطتها فتولى عنها وجعل نفسه تحت سلطة ونفوذ المتقربين منه من سنه الطامعين فى مشاركتهم معه فى دولته وملاهيه فآلت هذه الحالة الى وقوع المنازعة بين الام والابن وكانت رغبة كل من الاثنين الاستحواذ على التخت وفى آخر الامر ظفرت أرين بابنها وقلعت عينيه وجلست على تخت المملكة بمساعدة القسس وعباد التماثيل وتسلطنت بمفردها مع العز والجلالة من دون مبالاة بذم أو قدح أو أسف أو تهديد يقع عليها من قومها وكان ذلك من سنة ٧٩٧ الى سنة ٨٠٢ بعد الميلاد وختمت سلطنة الامبراطورة أرين فى سنة ٨٠٢ بعد الميلاد بثورة قامت عليها ونفيت الى جزيرة لسبوس

وجلس المالى الكبير نيسفروس زعيم الثورة على تخت المملكة وتسلطن تسع سنوات وما كان عليه من درايته بالامور والاجرا آت فى أعمال المالية جعل له الطاقة الكبرى فى زيادة واردات المملكة بضرب ضرائب ضربها وفرد رتبها وما أظهر على نفسه انه كسب اثما أو خطيئة زيادة عما كان يفعله ملوك الشرق فى عصره ومن قبل سلطنته بقليل كان حصل الانفصال النهائى بين الشرق والغرب باقامة المملكة الغربية واحيائها تحت سلطنة شرلمانيا وكان نيسفروس قليل البضاعة ضعيف الشوكة عن صد هذا الانفصال أو اعادة سير الوقائع حتى انه دخل فى السنة الثانية من سلطنته فى معاهدة مع شرلمانيه تحددت فيها حدود المملكتين وانهزم نيسفروس شر هزيمة كانت فاصلة مع الخليفة هارون الرشيد فى سنة ٨٠٥ بعد الميلاد وفى سنة ٨١١ بعد الميلاد انهزم وقتل فى حرب وقع بينه وبين البلغاريين وخلفه ابنه سطوراسيوس فتسلطن شهرين وقامت عليه ثورة جديدة أرغمته على التنازل عن التخت الى صهره

ميخائيل

ميخائيل رنغابى وجلس هذا على التخت باسم ميخائيل الاول وكان من رجال السراية ورئيسهم وكان جلوسه على التخت برضا من أهل السراية والمدينة ماعدا أخاه الحسود وهو ربطناسيوس بن نيسفوروس من بدمو وقام عليه فى ثورة ورأى فى خلال تغيير المملكة الرومانية الى حالة تكون بها حرة فلو ولد من هذه الافكار الاجنبية الامة وحماسها وطرد المولد لهذه الثورة ومن قبل موت طناسيوس توسل برحمة ملكه الجديد فلو كان ميخائيل صعد التخت فى عصر السلم لكان تسلطن ومات أبو الامة فانما استظل تحت ظل عيشة خاصة به حتى صار لاطاقة له على مطامع أمثاله ولا على مقاومة الجيوش المظفرة البلغارية وفى سنة ٨١٣ بعد الميلاد عندما احتاج الى وجود الطاقة والظفر والنجاح اللازمة لتجهيز قوة عساكره أشعلت زوجته بركوبيه لهب غيظهم بحدتها وقهرها لهم وأظهرت نفسها فى المعسكر وباشرت نظام العساكر وحركاتها وصار لها حالة وشرف مثل حال سميراميس الكلدانية ومن بعد حروب كانت على غير طائل ترك الامبراطور جيشه فاتر الهمة نافر الطبع تحت قيادة أعدائه فى محل مشتاه فأغوى هؤلاء الاعداء العساكر بحسن ألفاظهم وتخيلاتهم فى كسر شوكة الطواشية بالسراى وجعل حق الانتخاب من خصائص العسكرية مع خلع زوج بركوبيه وساروا جميعا نحو العاصمة ومازال القسس والسناتو وأهل القسطنطينية كانوا مساعدين ميخائيل وفى جهته وكانت العساكر فى جهة آسيا وأموالها كافية لحفظ الضرر الذى يقع من حرب داخلى فصرف هذا الامر من تلقاء نفسه وأقام الدليل على أنه لا يلزم سفك دم أحد من المسيحيين فى المنازعة له وأرسل رسلا الى الغالبين معهم مفاتيح السراى والمدينة ومن ثم تفرق العساكر وخمد أمر الحرب الداخلى وحفظ ميخائيل نفسه وعينيه وتمتع هذا الامبراطور الزاهد باعتزاله فى دير من الديورة زيادة عن اثنتين وثلاثين سنة من بعد أن سلب الارجوانى وفارق زوجته

وفى مدة سلطنة نيسفوروس تخابر العاصى سيئ البخت باردنيس مع أحد كهان آسيا بأنه من بعد سقوط ميخائيل يتولى المملكة ثلاثة من كبار الضباط وهم ليو الارمنى وميخائيل الفرجيانى وطوماس القبدوقى وتنجح سلطنة الاول والثانى ويخيب الثالث فى مشروعه فتحقق هذا النبأ من بعد مضى عشر سنوات وقت ماخلع المعسكر التراسيانى زوج بركوبية وقدم عساكره التاج الى نفس ليو الذى أنبئ به وكان أول قواد العسكرية والمخترع لدسيسة هذه الثورة فلما تردد فى أمره قال له رفيقه ميخائيل أنا أفتح لسلطنتك الامبراطورية بهذا السيف أبواب القسطنطينية أو أدخله فى صدرك حالا ان حصل منك أدنى معارضة للمقاصد الحقة لاخوانك العسكر فأجاب بذلك وكافؤه بالمملكة فتسلطن سبع سنوات ونصفا باسم ليو الخامس فكان أحد الملوك البزانطية العظام وكانت تربيته فى المعسكر فما كان يعرف من القوانين المدنية شيأ ولا القراءة ولا الكتابة والتفت قليلا للمشاحنات الديانية وسار فى سياسة مع عباد التماثيل وفى أخرى مع أعدائهم فاكتسب بذلك من أهل الكنيسة اسم حرباء أى متلون أو مذبذب بين هؤلاء وهؤلاء وفى مدة سلطنته نال البلغاريون من النهب والسلب فى أقاليم المملكة غرضهم فكانوا يصلون أحيانا بغاراتهم وأهوالهم حتى يصلوا الى أبواب القسطنطينية وأخذوا مرة فى غزوة واحدة ٥٠٠٠٠ أسير فكان هؤلاء الاسرى المسيحيون الكثيرى العدد مبعوثين للحق فى الاراضى التى أسروا فيها وحلوا اليها فنجحوا فى كونهم أدخلوا ألوفا مؤلفة من أهل بلغاريا فى الديانة المسيحية وفى نحو غلاق القرن تعمد ملك البلغاريين بوغوريس ومن بعده بقليل دخلت جميع الامة البلغارية فى دين المسيح وأدخل ليو الخامس فى حكومته المدنية شدة وقساوة القانون والنظام العسكرى ومع أن شدته

كانت خطرة فى بعض الاحيان على البرىء الا أنها كانت أشد وأهول على المجرم وكافأ صاحبه ميخائيل على غيرته وشجاعته بالثروة والكرم الوافر وقيادة العسكرية وجعله مساعدا له فى الخدمات العمومية وبقى الصاحب الفر بجيانى الثالث من دون أن يستحصل على قليل ولا كثير من الجائزة الملوكية مثل قرينه فنفر وغضب على غير طائل وتصاعد فى الجو غضبه بخار الكنه أكن العداوة والحسد ضد الامبراطور وجعله ظالما وأنذر هذا الظالم مرارا ثم ان الامبراطور طرد صاحبه القديم ميخائيل فتسلطن الخوف والفزع فى قلبه وشرع فى دسيسة وثورة رتبها ضد الامبراطور فاكتشف الامبراطور عليها فعفا عنها ثم استمر فى دسائسه وخبثه ومن بعد أن صار التحرى على دسائسه وثبتت جريمته صدر الحكم عليه بالحرق حيا فى مستوقد الحمامات وتعين يوم ٢٥ ديسمبر من أجل تنفيذ هذا الحكم فرأت الامبراطوره طيوفانو أن نتيجة عاقبة هذه الحالة مشؤومة على زوجها وعائلتها ورأت أنه لا يوافق وجود مثل هذا المنظر الوحشى فى يوم ولادة المسيح فحضت ليو على ترك هذه المسئلة فى يوم العيد وفى ليلة العيد قلق الامبراطور جدا وصار لا تأخذه سنة من النوم فاشتاق للتوجه الى السجن المحبوس فيه عدوه لينظر حالته فتوجه سرا فى منتصف الليل فرآه مفكوكا من حديده راقدا على سرير السجان غارقا فى نومه فارتعب ليو من هذه الحالة ورجع عائدا ولم يحس به أحد لكن رآه أحد العبيد فى وقت ايابه وذهابه وكان هذا العبد واقفا مختفيا فى أحد أركان السجن فأخبر ميخائيل عنه فأرسل ميخائيل بعلة طلبه واحدا عارفا يعلن الثائرين بأن حياته متعلقة بهم فاستعد الثائرون فى مدة قليلة لحفظ سلامتهم وخلاص صاحبهم ومملكتهم وفى أثناء ذلك انتخب الامبراطور على حسب العادة الجارية شرذمة من القسس والمغنين من أجل هذا العيد الاكبر للحضور فى داخل السراى فدخلوا من باب مخصوص لاجل اقامة شعائر الديانة فى وقت الصبح فى كنيسة السراى فاختلط معهم الثائرون متزيين بزى أهل الكنيسة وسيوفهم تحت ملبوسهم ولما وصلوا الكنيسة وقفوا فى أركانها من الداخل وكان الاتفاق بينهم على الهجوم على الامبراطور عند قراءة أول ترنيمة أوسجعة تخرج من فمه فلما ابتدأ فى ترنيمته أحاط الثائرون جميعا بهذه الضحية السلطانية من كل جهة وكان ليو فى هذا الوقت مجردا من ملبوسه العسكرى ومن الحبيب والمعين فسحب صليبا ثقيلا ووقف فى دخلة يدافع عن نفسه وطلب منهم الرحمة فكان جوابهم له ليست هذه الساعة ساعة رحمة بل هى ساعة بطش وانتقام ومال عليه أول واحد منهم وضربه بسيفه ففصل ذراعه الايمن مع الصليب من جسمه وذبحوه تحت قدم منبر الكنيسة فى سنة ٨٢٠ بعد الميلاد

ثم خطفوا ميخائيل الثانى الملقب بالالكن أو المجلج من نار المستوقد الى سلطنة المملكة ولما كان لا يوجد من ضمن أرباب الثورة حداد بقيت الاغلال فى رجليه عدة ساعات وهو جالس على كرسى القياصرة وتسلطن ميخائيل الثانى تسع سنوات وفى هذه المدة دخلت المملكة فى موضوع جديد كبير من نجاحها فى التجارة وان كانت على شرف سقوطها واضمحلالها وتمتعت باحتكارها تجارة البحر الابيض المتوسط وصار لها منافع وفوائد واسعة من التجارة بين آسيا وأوروبا وصبت هذه المكاسب جميعها فى القسطنطينية وعادت بالثروة على أهلها ومع ما كانت عليه المملكة من كامل أعمالها فان العرب تغلبوا على جزيرة كريد وبعض جزائر أخرى فى البحر الابيض المتوسط وصاروا أسياد هذه الجهات وحصل التنازع فى جلوس ميخائيل على التخت من صاحبه طوماس العسكرى الثالث من

الثلاثة فانه حوّل الى أوروبا ٨٠٠٠٠ نفس من المتبربرين من شواطئ نهر الدجلة وسواحل بحر الخزر وحاصر بهم القسطنطينية فدافعت المدينة أشد دفاع عن نفسها وهجم ملك بلغارى على معسكر طوماس ووقع فى يده طوماس المذكور على قيد الحياة فقطعوا ساقيه من جسمه ووضعوه على حمار وطافوا به بين الناس فى الشوارع ودمه يرش الارض وأمر الامبراطور بعذابه بحضرته ولم يترك من العذاب الامن قول أحد الوزراء الصادقين أو المجرمين له لماذا تأمر أحد الاعداء بفعل ما يشاء من العذاب بأعز أصدقائك وأقدم أحبابك ومن بعد موت زوجة ميخائيل الاولى أخرج على حسب طلب السنار تحوفروسينى ابنة قسطنطين السادس من معبدها وعقد زواجه عليها على شرط أن أولادها يكون لهم نصيب فى المملكة مع أخيهم الاكبر فكانت زوجة ميخائيل وعوفروسينى عقيمة واكتفت بكونها القبت نفسها بلقب أم طيوفيلوس ابنه وخليفته من بعده

وخلف ميخائيل الثانى من بعد موته ابنه طيوفيلوس فى سنة ٨٢٩ بعد الميلاد فمع أنه كان ملكا ماهرا الا أن سلطنته كانت مشحونة بالمصائب وسوء السعادة وشرع فى عود الاقاليم التى كان العرب تغلبوا عليها فانهزم ولم ينجح فى مشروعه وكثرت مدخولات مملكته ومحصولاتها لكنه بدل أن يصرفها فى حفظ حدودها وثغورها صرفها فى زخرفة القسطنطينية وزينتها وكان العدو الالد لعبادة التماثيل ومات فى سنة ٨٤٢ بعد الميلاد وترك زوجته طيودره وصية على ولدهما ميخائيل الثالث ونائبة فى الحكم عنه فأعادت طيودره قضية عبادة التماثيل بتهليل وتفريح من الامة وكان ذلك ختام حرب تكسير الاصنام من بعد أن طال زيادة عن قرن وكذا كان ختام فصل المشرق من المغرب

وكان عمر ميخائيل الثالث خمس سنوات فى الوقت الذى مات فيه أبوه واستمرت الامبراطوره طيودره مدة أربع عشرة سنة قابضة على زمام النيابة فلما رأت ضعف نفوذها وخروج ابنها عن طاعتها تنازلت مع حزم رأيها عن نيابتها وأحكامها لابنها وكان بلغ سنه فى هذا الوقت ثمان عشرة سنة وما كان على شئ مطلقا من أحكام المملكة ولا حكم نفسه وباعتزال طيودره ضاع الوقار والتدبير من الديوان وانشحن بالعيوب والاختلال ولما صار ميخائيل حاكما بمفرده فى المملكة ظهرت عليه الجبانة وعدم موافقته وقابليته للاحكام فكان فظا غليظا عاكفا نفسه على السكر والملاهى وصار لا يراعى حرمة الديانة ولا شرف مركزه وصرف ملايين من الذهب والفضة التى كان جمعها بشأن الاعمال العمومية على المتملقين له المشتركين معه فى ملاهيه وفى مدة سلطنته امتدت ثلاث عشرة سنة تجردت سراية السلطنة وكائسها من أمتعتها البهية ولما رأى الامة أن الامبراطور لا أهلية فيه فضلا عن كونه من الهمجيين غضبوا من أفعاله وحقدوا عليه وكانوا يرجون خلاصهم منه من مدة طويلة فقتلوه فى نومه فى السنة المتممة للثلاثين من عمره وكان الذى تولى قتله أحد ضباطه المسمى بازيل فى سنة ٨٦٧ بعد الميلاد وكان بازيل سلافى الجنس الا أنه زعم أنه من ذرية الاسكندر الاكبر المقدونى فمن ثم عرفت العائلة التى أسسها بالعائلة المقدونية ومع انه نال مظفرات عظيمة على العرب وساق جيوشه المنصورة حتى وصل نهر الفرات وحطم الجمهورية اليولسيانية الا انه ما كان عنده شهامة وحزم الرجل الحربى بل كان مشهورا بكونه مشرعا وتولد من تغيير اللسان والعوائد فى المملكة ضرورة الحالة المراجعة وتنقيح كافة كتب الفقه التى كان شرعها يوسطنيان ومن بعد المراجعة والتنقيح على حسب عوائد المملكة فى الاوقات الحالية جعل المؤلفات والكتب الضخمة المشتملة على شرائعه وفتاويه وقانونه المدنى والقوانين المستجدة أربعين

اسمها باللغة الجريقية وأمر بأن القوانين البازيليقية التي صار تهذيبها وتنقيحها واتمام أشغالها بمعرفة ابنه وحفيده يلزم أن يكون أصلها من الاعمال العظيمة والاشغال الجسيمة لمؤسس عائلتها وهو بازيل الاول

وعقد بازيل معاهدته مع شرلمانيه وأبقى للمملكة الشرقية مدائن ايطاليا الجنوبية وفي سنة ٨٧٨ بعد الميلاد تغلب العرب على سراقوسه من أعمال جزيرة صقلية أو سيسيليا ومدوا شوكتهم ودولتهم على كامل الجزيرة ومن بعد مضى مدة استحوذوا على موطن ثابت في ايطاليا الجنوبية وأضعفوا به شوكة الامبراطور ومات بازيل في سنة ٨٨٦ بعد الميلاد

ذكر جيبون في تاريخه المسمى قيام الدولة الرومانية وسقوطها ان بازيل خلف أربعة أولاد وهم قسطنطين مات قبل أبيه واكتفى اصطفان بدرجة شرف البطريرك ولبس ليو واسكندر الثوب الارجواني سوية الا أن شوكة الحكومة وادارتها كانت في يد ليو وهو الكبير ولقب نفسه بالسادس واشتهر اسمه بالفيلسوف فقال جيبون على سبيل التهكم والاستهزاء ان ابن بازيل كان أجهل من معظم معاصريه في الديانة والسياسة وكان الذي باشر تعليمه وتهذيبه العالم فوطيوس ودون كتبا عديدة في علوم التاريخ والديانة الا أن شهرة فلسفته وديانته سقط أمرها بما حصل منه من النقائص والعيوب في سرايته وتعداد الزواج وكانت سلطنته مشحونة بالمصائب والاهوال وتغلب العرب على تسالونيقه التي هي المدينة الثانية في المملكة وذبحوا الجم الغفير من أهلها وباعوا اثنين وعشرين ألفا من شبانها في أسواق الرقيق وجلب على نفسه عداوة الكنيسة بسبب أنه تزوج ثلاث زوجات ولم يخلف منهن وارثه من بعده المملكة فأدخل ليو في سرايته ظيو الجميلة وتسرى بها ومن بعد أن جاءت ووضعت قسطنطين أعلن هذا العاشق بكونه يجعل الام والولد شرعيين فقام عليه أهل الكنيسة وأخرجوه من الملة وكان عند مسيحيي الشرق الزواج الثالث جوزا في الدين ولا يعرفون في مذهبهم زواج رابعة ومن ثم كانت الكنيسة الجريقية تعد هذا الزواج محرما في شريعتها وامتدت سلطنته حتى دخلت في القرن التالي

ومن بعد موت ليو السادس خلفه ابنه قسطنطين السابع الملقب بالارجواني لانه ولد في ثياب أرجوانية وكان جلوسه على تخت المملكة في ١١ مايو سنة ٩١١ بعد الميلاد وكان عمره خمس سنوات في وقت موت أبيه وفي مدة صغره كانت ادارة الحكومة والسلطنة جارية بمعرفة عمه اسكندر ومن بعد موت عمه تقلدت والدته ظيو وقواب آخرون زمامها وفي سنة ٩١٩ بعد الميلاد تقلد رومانوس كبير القواد في الجيش زمام الحكومة مع لقب قيصر وأوغسطوس وأشرك معه في حكم المملكة أولاده الثلاثة وعزل قسطنطين من امبراطوريته وجعل نفسه امبراطورا فاستمر هذا الامبراطور الغير الشرعي مدة خمس وعشرين سنة مجردا الامبراطورات الاصلية من مناصبها الى مناصب دنيئة ولما مات الاخير من هؤلاء الغاصبين تقلد قسطنطين ثانية زمام ادارة الحكومة والسلطنة بمفرده وتسلطن نحوا من خمس عشرة سنة أي من سنة ٩٤٤ الى سنة ٩٥٩ بعد الميلاد وجذب بلينه ورقة أخلاقه قلوب رعيته لمحبته وكان صاحب تآليف عديدة في العلوم والتواريخ وخدم الآداب خدمة جليلة وأمر بالمحافظة على كثير من تآليفها وكتبها الغالية العظيمة

وخلف رومانوس الثاني ابن قسطنطين أباه في سنة ٩٥٩ بعد الميلاد ومات من بعد مضي أربع

سنوات

سنوات بسم دبرته له زوجته فى سنة ٩٦٣ بعد الميلاد واشتهرت سلطنته بما حصل فيها من أعمال قائده نيسفروس فوكاس فانه رد جزيرة كريد من بعد أن كانت العرب تغلبوا عليها ونال عليهم مظفرات أخرى جليلة ولما رغبت الامبراطورة طيوفانو أرملة رومانوس الثانى فى تأكيد محلها على التخت تزوجت هذا القائد المنصور وهذا من دون أن يحرم الامبراطوران الصغيران بازيل الثانى وقسطنطين التاسع من تختهما فتقلد زمام التخت فى سنة ٩٦٣ ولقب نفسه أوغسطوس فتسلطن ست سنوات مع الشجاعة وعلو الهمة وقاوم مع الشدة والثبات اغارات العرب وحفظ الثغور من اغاراتهم وظهر على سلطنته فى مبادى أمرها شدة وعنف المملكة الشرقية من بعد ضعفها الاخير وهى مدة يمكن أن يقال بوجه الحق انها استمرت لحد سنة ١٠٢٥ بعد الميلاد وقتل فى سنة ٩٦٩ بعد الميلاد بواسطة ابن أخيه يوحنا ظيميس وخلفه على التخت كوصى على الامبراطورين القاصرين

وكان يوحنا المذكور أحد عشاق الامبراطورة طيوفانو فى مدة حياة زوجها فكان من أملها المشاركة فى التخت مع عاشقها فانفض يوحنا الطرف عنها بأمر شديد صدر له من بطريرك الكنيسة القسطنطينية وأبعدها عنه الى محل مخصوص بها وأثبت يوحنا النفسه قابليته فى الحكم والادارة والشجاعة فانه فى جهة الشرق أوقع عدة كسرات على العرب وأعاد منهم أنطاكيه من بعد أن كانوا تغلبوا عليها وبعض مدائن أخرى وجعل نهر الفرات حدا للمملكة مرة أخرى ونال مظفرات جليلة على السكنديناويين حكام روسيا وكانوا أوقعوا الرعب والارتباك فى حدود مملكته وهزم القوى الروسية شرهزيمة فاصلة فى نواحى برشطلاوه أوبرشتنه من أعمال بلغارية فى سنة ٩٧١ بعد الميلاد وأرغمهم على عقد صلح ومعاهدة تنازل الروسيون فيها على حسب شروطها للامبراطور عن مملكة بلغارية وكانوا تغلبوا عليها حديثا ومن ثم صار نهر الدانوب الحد الحريق مرة أخرى ومات يوحنا فى سنة ٩٧٦ بعد الميلاد

وجلس الامبراطوران الشرعيان بازيل الثانى وقسطنطين التاسع من بعده على التخت فأما قسطنطين فكان ضعيف العقل عديم الرأى فاتر الهمة مؤنث الطبع وأما بازيل فكان رجلا حازما فطنا ذا مهارة وجسارة جعل نفسه هو الحاكم الاصلى للمملكة وفى مدة سلطنته ارتقت عساكره الى أعلى درجات الشماخة فى اجرا آتها وأعمالها العسكرية وامتدت سلطنته فى داخل القرن الثانى ومات فى سنة ١٠٢٥ بعد الميلاد من بعد أن استمر نحوا من أربعين سنة فى حروب شديدة مع البلغاريين وقبائل أخرى من السلافيين من بحيث جزيرة هلنى وأخضع كافة البلغاريين الا أن هذا الفارس سود شهرة اسمه وقذر صفته ورسمه بما أجراه من الفظائع وشراسة الاخلاق بكونه قلع عيون ١٥٠٠٠ نفس من أسرائه البلغاريين وأرسلهم الى ملكهم فنشأ مما حصل للملك من الحزن والاسف أن فقد حياته بمجرد نظره اليهم وفى السنة الثامنة والستين من عمره حمله دينه على أن يهيج حربا دينيا على العرب المتغلبين على جزيرة سيسيليا وركب اليهم بنفسه فمنعه من ذلك الموت

ومات بازيل الثانى فى سنة ١٠٢٥ بعد الميلاد بين شكر القسس له وثنائهم عليه ولعن الامة عليه وتوجع مقتهم اليه وجلس أخوه قسطنطين التاسع على التخت ثلاث سنوات من بعده ومات فى سنة ١٠٢٨ بعد الميلاد من بعد أن تمتع بلقب أوغسطوس ستا وستين سنة ما عمل فيها أدنى شئ يستحق الذكر عليه وكان بازيل الثانى عديم الذرية وأما قسطنطين فانه خلف ثلاث بنات فاستمر التخت نحوا من ثلاثين سنة فى أيدى القباح والاراذل أخلاء بنات قسطنطين ظيو وطيودره بسبب عدم وجود

ذكر يرث التخت من بعد موت بازيل وقسطنطين فكانت أكبر الحوادث في ظرف هذه المدة ثورة أهل القسطنطينية بسبب ما حصل عندهم من الحنق والغضب من ضعف وجور هؤلاء الحكام فاسدى الطباع والاخلاق وفي سنة ١٠٥٧ بعد الميلاد ختمت هذه القلاقل والارتباكات بجلوس اسحق كومنوس على التخت بواسطة الجيش وكان قائدا شريف المولد فأخذت صحته في الضعف فتخلى عن التاج في سنة ١٠٥٩ لاخيه يوحنا فقبل يوحنا المذكور لبس الارجواني فانتخب أمبراطور جديد من عائلة أخرى كان هو الامبراطور قسطنطين الحادى عشر فتسلطن ثمان سنوات ومات في سنة ١٠٦٧ وعهد الحكومة لارملته عوديسيه فتزوجت رومانوس ديوغونيس وصار هذا امبراطور التخت اسم رومانوس الرابع وتسلطن أربع سنوات مع العز والسمو والشرف

وفي غضون هذه المدة شرع الترك من بعد أن جعلوا أنفسهم أسياد الممالك العربية في اسيا في الكبس مع الشدة على الاقاليم الباقية من المملكة الجريقية فكان هذا الخطر هو السبب الداعي لحث الامبراطورة عوديسيه على زواجها برومانوس وكان عسكريا على غاية من الدراية والشجاعة فاجتهد بحركات وان كانت بطيئة الا انها كانت بشجاعة لا تقهر وحفظ جميع ممالكه الشرقية وطرد الترك في ثلاث حروب شديدة خلف نهر الفرات وفي حرب رابع حصل في سنة ١٠٧١ بعد الميلاد كان عزم فيه على عود أرمينية منهم هزمه الب ارسلان سلطان الترك شر هزيمة وأسره عنده ثم خلص من أسره بوعد أن يدفع مبلغا جسيما فداء عن نفسه ونحو اجاسونيا ولما عاد الى القسطنطينية وجد قومه خلعوه وقت ما سمعوا بأسره وألزموا الامبراطورة طيودره بالموافقة والرضا فسعى رومانوس في عود تخته واجتهد فانهزم وقتل وجلس ميخائيل السابع على التخت من سنة ١٠٧١ الى سنة ١٠٧٨ بعد الميلاد ونيسفروس الثالث من سنة ١٥٧٨ بعد الميلاد الى سنة ١٠٨١ بعد الميلاد ثم حصلت منازعة في جلوس الامبراطور نيسفروس في نواحي آسيا من قائد اسمه نيسفروس أيضا فدعا الامبراطور الترك لمساعدته وهزم عدوه الا انه اشترى نصرته وظفره بعدوه بضياع ممالكه في آسيا فانها انتقلت الى أيدى الترك ومن بعد مضى بضع سنين صار للامبراطور طاقة على مد حدود مملكته من الشرق الى نيقوميديا أي عبارة عن ستين ميلا من القسطنطينية واستحوذ الاتراك من وراء هذا الحد على الاقاليم الجريقية القديمة ما عدا طرابزون الموجودة في آخر حدود البحر الاسود فانها بقيت في يد الامبراطور بسبب منعتها وحصانة استحكاماتها الطبيعية

وفي سنة ١٠٨١ بعد الميلاد صار علكسيس الاول ابن يوحنا كومنوس امبراطورا من بعد سقوط نيسفروس الثالث وجلس على التخت وكان سبب سقوط نيسفروس الثالث أن يوحنا كومنوس أخا الامبراطور اسحق كان عائشا عيشة هنية في أمن وشرف من أجل عدم قبوله لبس الارجواني وخلف من امرأته عانى التي كان فيها شهامة وادارة الرجال ثمانية أولاد بعد أن مات منها ثلاث بنات تزوجن وأكثرن تعداد الاتحادات الكومنونية مع كبار الامراء والوجوه من الجريق ومات من الخمسة ذكور منويل وأعاد اسحق وعلكسيس شرف الامبراطورية الى بيتهما من دون أن يحصل تعب أو كدر من أخويهما الصغيرين أدريان ونيسفروس وكان علكسيس الاخ الثالث أكثرهم مهارة وشهرة وتربت له ملكة في عقله وقوة في جسمه وكانوا جميعا تربوا في الكرم الواسع ومارسوا أعمال الطاعة وعدمها وسلك الاخوان الآخران وهما علكسيس واسحق مسلك الحزم واتحدا بالامبراطور ميخائيل وحاربا معه العاصين عليه ولازماه

حتى

حتى مات وقال علكسيس لنيسفروس الثالث فى أول مقابلة تقابلها معه مع الحرية والثبات أيها الملك ان واجباتى صيرتنى عدوا لك وبأمر من الله ورضا من الامة صرت خاضعا لك فالتقاه نيسفروس أحسن ملتقى وأمنه ووثق به ووجهه على ثلاثة من العصاة أزعجوا راحة المملكة وراحة الامبراطورات وهم عورسيل وبرنيوس وبازيلاسيوس وكانوا تقووا بكثرة ما كان معهم من القوى واشتهرت أعمالهم العسكرية فهزمهم علكسيس على التعاقب وأوثقهم فى الحديد والاغلال الى مواطئ التخت الامبراطورى ومن بعد أن عوملوا بأقسى المعاملات وأشدها منحوا العفو والرضا عليهم ثم ان خضوع الكومنونيين حصل فيه التعكير على الفور وكثرة الارتياب وذلك أن علكسيس رفض توجهه الى عاص رابع كان زوج أخته فهدم ما عمره من حسن خدماته السابقة عند الامبراطور وأراد البطش بهما فاعتزل الاخوان حماية لهما وحرية لنفسهما وجعا رجالهما وخرجا من المدينة وأقاما بيرق العصيان وخضع العساكر الذين كانوا تجمعوا على التدريج فى المدينة وفى ضواحيها ودخلوا فى أمر قائدهم المنصور وألبس اسحق أخا علكسيس الارجوانى وعادوا الى القسطنطينية مهددين لها لاعداء مرين وتغلب علكسيس على المدينة واختفى نيسفروس فى أحد الديورة ونهب الجيش المشكل من الامم المختلفة العاصمة ثم أعيد النظام ثانيا من طرف الكومنونيين وكان جلوس علكسيس الاول على التخت فى مدة مشحونة بالمصائب والاهوال وتراكمت الآفات والهياج وكل حالة يحصل منها تأثير فى ضعف المملكة حصل فى مدة سلطنته بعدل من الله وحزم أسلافه قال جبون ان الاتراك المنصورين فى الشرق أقاموا سلطنة الاسلام ونصبوا البيارق والرايات القرآنية الاسلامية من فارس الى بوغاز الدردانيل وأغارت الغارات على الاقاليم الغربية من شجعان رجال من أهل الشمال وفى أوقات السلم سكب نهر الدانوب أسرابا جديدة اكتسبوا من معرفتهم بالحرب وأعمالهم ما فقدوه من شراسة طباعهم وتوحشهم ولما كان البحر أقل عداوة من البر وحالما كان الهجوم على الثغور جاريا من طرف عدو عدوانى وقع الخراب والدمار فى السراية من خيانات سرية وثورات غير جهرية فظهر علم الصليب على حين غفلة باللاتنيين وهوى كامل أوروبا على آسيا وغرقت القسطنطينية من هذا الطوفان العجاج فقاد علكسيس فى هذه الزوابع المهولة السفينة الامبراطورية بتدبير وشجاعة فكان فى رأس جيوشه جسورا فى فعله ماهرا فى حيلته صابرا على مشاق مره وحلوه مستعدا لما يعود منه النفع قام من هزيمته بشجاعة لا تقهر وأحيا نظام عسكره وألف رجالا جديدة وعساكر شديدة على منوال قائدهم وقوانينه وكان علكسيس عند دخوله مع اللاتنيين صبورا شجاعا ماهرا حازما بعين بصيرته الطريقة الجديدة لدنيا غير معروفة ووزن بسياسة عقله ومهارة فكره منافع ومضار محامى الصليب الاول وأخضع فى مدة سلطنة طويلة مدتها سبع وثلاثون سنة الحاسدين والمبغضين وعفا عنهم من حسن صفاته وكرمه وأعاد القوانين والنظامات العمومية والخصوصية وغرس أشجار الصنائع والعلوم والثروة ووسع حدود المملكة فى أوروبا وآسيا وانتقل قضيب الكومنونيين الى أولاده وذريته من النسل الثالث والرابع

ومات الامبراطور علكسيس الاول فى سنة ١١١٨ بعد الميلاد وخلفه ابنه الكبير يوحنا الثانى ومن شكله القبيح وفظاظته وسمرة ذاته ورذالة وجهه لقبه رعيته أهل المعرفة الحادة والاستهزاء على سبيل السخرية بلقب الظريف لكنه من بعد مضى مدة وقع هذا اللقب عند رعيته موقع القبول

والاستحسان بما نالهم منه من جميل الشكر والثناء وما حازه من الصفات الزكية فانه كان مدبرا فطنا حازم الرأى جيد القريحة حسن السيرة أعاد مع الشهامة العسكرية والاعمال الحربية بعض الجهات التى كان الاتراك تغلبوا عليها وخلص الاقاليم الساحلية الاسياوية من وجودهم فيها وحرمهم من التقرب اليها ومن خوف يوحنا من وجوه أشراف قومه ما تعرض لاحد منهم بسوء ولا سلك مسالك الاحوال المؤدية لعقاب أو عفو عن أعدائه ومات فى سنة ١١٤٣ بعد الميلاد

وخلف منويل الاول أصغر أولاد يوحنا الموجود على قيد الحياة أباه وتسلطن سبعا وثلاثين سنة كانت جميعها فى حرب مستمر مع الاتراك لانهم كانوا وصلوا جبال طوروس ومع الهنكاريين وزحف القبائل والعساكر الموجودة وراء نهر الدانوب على حدود المملكة وكان فيه نوع من الشجاعة والفروسية زيادة عما كان عنده من الحكم والتدبير وكانت أساطيل ومراكب ملك أهل الشمال المسمين بالنورمانيين فى سيسيليا خربوا سواحل الجرنس المرار العديدة فانجبر منويل على ملتقى اغارات هذه الاساطيل واجتهد فى رجوعها بأغارته على سيسيليا نفسها وجعل للمملكة الشرقية شوكة مزعجة وصولة مهلكة وانهزم فى آخر أمره فى واقعة حصلت بينه وبين الاتراك فى نواحى بسيليا وسلم نجاة حياته لكرم السلطان وعفوه ومن بعد هذه الهزيمة ابتدأت شوكة المملكة فى الضعف والاضمحلال ومات منويل فى سنة ١١٨١ بعد الميلاد تاركا سلطنته لابنه علكسيس أو علكسيوس الثانى وهذا من بعد مضى سنتين خلعه وقتله واحد من أقاربه اسمه اندرونيكوس وهو الابن الاصغر لاسحق وحفيد علكسيس كومنوس فكان اندرونيكوس فارسا شجاعا وان كان حاكما عنيفا جبارا ومن بعد مضى سنتين من جلوسه على التخت قتله الرعية بواسطة ما حصل لهم من فظائعه وقطعوا الامل منه وانقضى ما بقى من القرن فى حروب وزعازع بين طلاب مختلفة للتخت كانت سببا فى ضعف المملكة وجعلها مهيئة لمدتها الكبيرة الاولى من سقوطها

واستمر الضعف آخذا فى المملكة الشرقية وكان ابتداؤه موت الامبراطور منويل ومشاحنة خلفائه من بعده فى مدة القرن الثانى عشر وكان اسحق انغيلوس خلعه أخوه علكسيس فى سنة ١١٩٥ بعد الميلاد وهرب ولد آخر لاسحق اسمه علكسيس أيضا من القسطنطينية وأوى الى أوروبا الغربية واجتهد فى تحريض الدول الكبيرة على مساعدته فى عود سلطنة أبيه له وصرف عدة سنين فى هذا السعى كانت على غير فائدة وعندما عزم على قطع اليأس من الحصول على شئ من مسئلته وقضيته تتوجت أتعابه بغتة من غير انتظار وأمل كان يأمله بتاج النصر وذلك أن برنسات حرب الصليب الرابع كانوا اجتمعوا فى فنيزيا وحصل لهم الوعد من جمهورية فنيزيا باعطائهم المراكب اللازمة لنقلهم الى الارض المقدسة بالاجرة ولما عجزوا عن جمع مبلغ النقود الذى طلبته منهم الجمهورية قيمة سفرهم سمح لهم الفنيزيون بتأجيل دفع هذا المبلغ على شرط أن يفتحوا لهم بعض المدائن الموجودة على ساحل دلماطيه وكانت تلك المدائن عصت من الجمهورية فرضوا بهذا الشرط وتغلبوا على مدينة ظعرة وحصل لهم منها فوائد جمة وعقدوا نيتهم على قضاء فصل الشتاء فيها فتوجه البرنس الشاب علكسيس لمعسكرهم وتوسل بهم فى مساعدته على رجوع تخته فرفض توسله رجال جمهورية فنيزيا وأخيرا عول الصليبيون على مساعدته ووعدهم بمبلغ جسيم يؤديه لهم فى نظير أداء خدمتهم ان حصل لهم الظفر والنجاح فتحركوا وحاصروا القسطنطينية فى فصل صيف سنة ١٢٠٣ بعد الميلاد وهجموا عليها عنوة وتغلبوا عليها من

بعد

بعد محاربات شديدة وأجلسوا الكسيس على التخت لكنه خسر وثوق رعيته به بكونه ترك الدين الجريقي ودخل فى الدين الرومانى فقتلوه فى السنة التالية فى ثورة وهياج قام من أهل القسطنطينية فخنق أهل الصليب من هذا التعصب وهجموا على القسطنطينية عنوة مرة ثانية وأخذوها ومن هنا تم غلاق المملكة الشرقية وانقراضها

ثم أقام الصليبيون على أطلال المملكة الجريقية مملكة لاتينية وتوجوا الكونت بالدوين صاحب فلندره أمبراطورا للقسطنطينية وقسموا المملكة بينهم على قدر ما يمكنهم المحافظة عليه منها لانه يلزمنا أن نتذكر أن الجريق فى أشد الكراهة والعداوة للاتينيين وأن الجريق ما خضعوا للاتينيين الا لشدة قوتهم وكثرة عساكرهم وما كان بالدوين سيدا على جميع الممالك والايالات التى كانت تحت حكم القياصرة الجريقية حتى يقروا له بالملوكية عليهم فمن هنا تجزأت المملكة الشرقية الى عدة امارات صغيرة بعضها جريقية وبعضها لاتينية وأخذ بالدوين نحو ربع المملكة من نصيبه وما بقى من الايالات الاوروباوية صار قسمه بين الفنيزيين واللومبارديين والفرنساويين فأخذ الفنيزيون حصة واسعة غير مناسبة لاقسام القسمة وشيدوا فيها صفا من المعامل والمحطات التجارية فى طول الساحل من القسطنطينية الى فنيزيا وجعل بونيفاس ماركيز مونطيفرات ملكا على تسالونيقه أو مقدونيا وأما أملاك المملكة الموجودة فى اسيا وما كانت دخلت فى حوزة الترك فانها قسمت بين ملكين تسلطن أحدهما فى نيخيا والاخر فى طرابزون وتلقب كل منهما بلقب أمبراطور فكانت امبراطورات نيخيا على جودة من المهارة وحزم الرأى وبمهارتهم وتدبير أحكامهم أخذ ملكهم فى التقدم والنجاح والقوة ومن الجهة الاخرى لما كانت المملكة اللاتينية فى القسطنطينية على غير وثوق من أهلها فاستمرت سبعا وخمسين سنة ولما خاب سعى اللاتينيين فى خضوع الجريقيين بالقوة وقعت هذه المملكة تحت أقدام الجيوش المظفرة للامبراطور ميخائيل باليولوغوس صاحب نيخيا فى سنة ١٢٦١ بعد الميلاد ومن حيث ان المملكة النيخيانية زعمت أنها هى الوارث الشرعى الحقيقى للمملكة الرومانية الشرقية فبواسطة فتحها القسطنطينية والتغلب عليها بواسطة ميخائيل يمكننا أن نعد هذا من درجات احياء المملكة الشرقية ومع هذا فانه ما تيسر لها الحصول على درجة شوكتها الاصلية أبدا لان الاتراك كبسوا بشدة على حدودها الشرقية وصار الامبراطور الجريقى فى طرابزون وبعض من ملوك الجريق والفرنج حكاما مستقلين فى اماراتهم عن أمبراطور القسطنطينية وما كان عود المملكة الشرقية فى القسطنطينية فى الحقيقة الا زيادة تقوية للامارات المختلفة الجريقية وهذه استمر وجودها من دون أن يحصل من واحدة منها أدنى التفات الى مملكة القسطنطينية حتى انقرضت جميعها وتغلب عليها الاتراك العثمانيون فى القرن الخامس عشر ولما ارتاع ميخائيل من تهديد البابا له أن يسوق عليه حربا صليبيا من أوروبا الغربية اجتهد فى الزام رعيته بالانضمام الى الكنيسة اللاتينية فما نجح الا فى كونه ملأ مملكته بالعناء وتحمل الاكدار والاهوال ومع ما حصل لهم من الشدة والعنف فانهم كانوا على درجة غير كافية لرضا رومة وذكر جبون انه دعى لجما كما من رخاوته والريب فى صداقته ثم ان ابنه أندرونيكوس الذى ختمت سلطنته هذا القرن أنهى هذه الفظائع والارتباكات وألغى الانضمام الى رومة وأعاد الدين والعبادة الجريقية كما كانت

واستمرت سلطنة الامبراطور اندرونيكوس الثانى وكان خلف أباه ميخائيل باليولوغوس فى سنة ١٢٨٢ بعد الميلاد ثمانيا وعشرين سنة من القرن الرابع عشر وسنى ختام القرن الثالث عشر ففى السنى الاولى من القرن الرابع عشر تقوت شرذمة من جسورى القطلانيين برجال من كافة عموم الدنيا عرفوا باسم

الجمعية الكبرى وأدوا خدمة جليلة للمملكة وهزموا الاتراك فى واقعتين كبيرتين دمويتين ورأوا أنه صار لهم حق فى المملكة التى كانوا سببا فى خلاصها وشرعوا فى نشر أعمال استبدادية فى الاقاليم حتى ان الامبراطور ضعف جدا عن مقاومتهم ولما خسر وارثيسهم الاول بقتلهم اياه ضبطوا قلعة جليبولى الحصينة الموجودة على بوغاز الهلسبون أو الدردانيل وهزموا قوى المملكة الجريقية فى واقعتين فى البحر والبر وتولد من هذه النصرة أن انضاف اليهم من أمثالهم واستمروا فى فظائعهم حتى أحوجتهم المؤنات والشقاق بين قوادهم الى التشتيت والتفريق وذكر جبون فى تاريخه المسمى قيام الدولة الرومانية وسقوطها أن الامبراطور ميخائيل وهو أول البليولوغونيين خلص مملكته بواسطة ايقاعه الممالك الغربية فى العصيان وسفك الدماء فتولد من هذه المنازعات والمحاربات رجال من الحديد هجموا على مملكة ابنه وأوقعوا بها التلف والخسران وفى هذه الازمان الاخيرة تولد من الديون وكثرة الضرائب السم الخفى القاتل القارض لسلاسل السلم وراحة القلب وأما فى القرون المتوسطة فكان الضعف وعدم انتظام الحكومات ناشئا من الجيوش وتفريق العساكر فكان ذلك هو الضرر الاكبر والاذى الاجر لانه بسبب تقاعدهم وتراخيهم عن الاشغال وكبرهم وعجبهم واعتاد هؤلاء العساكر الاجرية على كونهم يعيشون على السلب والنهب وقطع سبل البر فن بعد عقد صلح بين الحروب التى كانت حاصلة فى جزيرة سيسيليا تجمع عدة ألوف من الجنويز والقطلانيين الفرنساوية ومن الاسبانيين وكانوا يحاربون فى البر والبحر تحت بيرق انغو أو أورغون وصار هؤلاء الالوف تحت رؤساء منهم وجعلوا أنفسهم أمة واحدة وسمعوا ان الاغارة حاصلة من الاتراك فى الاقاليم الجريقية فى آسيا فصمموا على أن يكون لهم نصيب من هذا الموسم فى سلب النقود وأخذ السلوب وساعدهم فريدريق ملك سيسيليا فى سفرهم من أرضه وفى ظرف عشرين سنة اشتغلوا فيها بالحروب والكروب صار كل مركب أو سفينة أو معسكر أرضهم وبلادهم فكان السلاح صنعتهم وعقارهم وكانوا موصوفين بالشجاعة والفروسية والقوة وشرب نساؤهم مشرب أزواجهم قيل ان الشخص القطلانى كان اذا ضرب بسيفه العريض الفارس ضربة واحدة شطره مع حصانه شطرين مهما كان عليه من الدروع وكان أكبر قوادهم المحبوب عندهم روزردوفلور فن شدة ما كان عليه خيمت سحب خصاله وأوصافه على كبر أعدائه الارغونية وكان روزردوفلور فرعا نبت من زواج عمدة من دبوان فريدريق الثانى من جرمانيا بقينة من مدينة برنديزى فكان روزر فى الابتداء من فرسان الكنيسة ثم ارتد وجحد وكفر بدينه ثم صار من قطاع الطريق ثم صار أغنى وأقوى أميرال فى البحر الابيض المتوسط فسافر من مسينه الى القسطنطينية مع ثمان عشرة مركبا من مراكب الحرب وأربع سفن من السفائن الكبيرة وثمانية آلاف من المخاطرين وعمل معاهدة فى الابتداء مع الامبراطور أندرونيكوس على غاية من الصداقة فقبلها الامبراطور على فرح وخوف من هذا الجبار وخصص لاقامته سراية وزوجه بابنة أخيه ورفعه فى الحال الى درجة دوق أو أميرال رومانى ومن بعد أن استراح فى غاية من الحشمة والوقار نقل عساكره الى بحر مرمرا وساقهم مع الجسارة والشجاعة على الترك وقتل فى واقعتين دمويتين نحوا من ثلاثين ألف نفس من المسلمين وحاصر مدينة فيلادلفيا واشتهر اسمه وصيته بانه مخلص آسيا الا انه من بعد هذا النجاح القليل خيم سحاب الرق والخراب على هذا الاقليم المنحوس وهرب سكانه من الدخان الى لهب النيران فكانت عداوة الترك أقل ضررا وأذى من عداوة أخ القطلانيين فانهم رأوا أن الارواح والاموال والامتعة التى خلصوها من الترك صارت ملكا لهم واعتنق القينات اللاتى خلصن من الجنس المقطوع الغلفة

بالعساكر

بالعساكر أصحاب الغلفة من المسيحيين فكانوا يطلبون مطاليبهم بالنهب القبيح و الطلب العنفوانى المستبد ولما قاومت مغنسيا طلبهم حاصرها الدوق الكبير وكانت من مدائن المملكة الرومانية وفعل أتباعه وعساكره الافعال التى أضروا بها العباد وأخربوا بها البلاد وضاق اندرونيكوس ذرعا من أفعال روزرو ما كان فى طاقته مقاومته وما استحصل الامبراطور بواسطة منشوره المذهب الاعلى خمسة آلاف خيال وألف من المشاة وكثرت العساكر عند روزرو كانوا فى خير ونعمة من العلوفات وزيادة المرتبات ووصل المعاش الذى تقرر لهم سنويا نحوا من ١٠٠ رطل من الليرات الذهبية وضربت ضرائب مهولة شديدة على حبوب وغلال المزارعين وأسقط الثلث من راتب المستخدمين فى الاعمال العمومية وتنازلت قيمة المعاملة جدا حتى صار لا يوجد فى كل أربعة وعشرين جزأ الا خمسة أجزاء من الذهب فطلب الامبراطور انجلاء روزرو من الاقليم الذى خرب ومابقى فيه شئ يستحق النهب فرفض انجلاءه وتفريق عساكره وصار فى حالة استقلال وعداوة وأقام بيرق العصيان وقال اذا كان ولا بد من مشى الامبراطور اليه فانه يلزمه أن يتقدم أربعين خطوة و يلثم الارض أمام جلالته و بعد قيامه من هذه السجدة تكون حياته وسيفه فى خدمة أحبابه فانعم عليه الامبراطور برتبة قيصر وحكومة آسيا وارسال النقود والغلال وتقليل عساكره الى ٣٠٠٠ نفس فقط فقبل الدوق رتبة قيصر مع الكراهة ورفض الباقى وتوجه لزيارة المقر الملوكى فى مدينة ادرنه ولما وصل الى محل الاستقبال وصار على منظر من الامبراطورة ضربه أحد الخفر بخنجر فوقع قتيلا وقاموا على أهله وتوابعه فى القسطنطينية وقتلوهم ولما هلك هذا القائد انتشر المخاطرون على ساحل البحر الابيض المتوسط وضبط شرذمة منهم قدرها ١٥٠٠ نفس من القطلانيين أو الفرنساوية قلعة جليبولى الحصينة وثبتوا فيها ونشروا الاعلام الارغونية واستعدوا الاخذ ثار رئيسهم فعزم الامبراطور ميخائيل ابن الامبراطور اندرونيكوس و رفيقه فى المملكة على الكبس عليهم بالعدة والعدد و بذل جهده حتى شكل جيشا مؤلفا من ١٣٠٠٠ خيال و ٣٠٠٠٠ من المشاة وامتلأ بحر مرمرا بمراكب الجنويز والحريق وفى واقعتين حصلتا فى البر والبحر هزم القطلانيون هذه القوى وهرب الامبراطور الشاب الى السراى وترك خفرا قليلا من الخيالة الخفيفة لاجل المحافظة على المملكة فجددت هذه النصرة آمال القطلانيين وانضم اليهم الكثير من المخاطرين وجاءهم رجال من كل أمة وانضم اليهم ٣٠٠٠ من الاتراك تركوا الخدمة الامبراطورية و بواسطة استحواذ القطلانيين على قلعة جليبولى ضبطوا تجارة القسطنطينية والبحر الاسود ومدوا تخريباتهم وتدميراتهم على ساحل الهلسبون فى آسيا وأوروبا فدمر الحريق معظم الاراضى البزانطية وتقهقروا بأولادهم وأنعامهم الى داخل العاصمة وخلت ضواحى جليبولى من السكان وصارت أرضا قفرة فشق على القطلانيين عدم وجود المؤنة وتولد من هذا ومن شقاق زعمائهم الانجلاء عن سواحل الهلسبون وضواحى القسطنطينية ومن بعد أن انفصل الاتراك منهم سار الباقى من الجمعية الكبيرة من وسط مقدونيا وتساليا فى البحث لهم عن محل جديد فى داخل الجريس ومازالوا فى سيرهم حتى قربوا من أثينة ولما علم أمير أثينة بقربهم منه وماهم مصممين عليه جمع قوة مقدارها ٧٠٠٠ فارس و ٦٤٠٠ من الخيالة و ٨٠٠٠ من المشاة وتقابل معهم على نهر صفيسوس فى بيوطيا وكان عددهم منيف عن ٣٥٠٠ خيال و ٤٠٠٠ من المشاة فلما رأى القطلانيون ماعليه أمير أثينة من محاربتهم أحاطوا معسكرهم بفيضان صناعى من الماء فزحف الامير بفرسانه وخيالته من دون خوف ولا حذر

على أرض الميدان الاخضر فوحلت خيوله فى أرض المستنقع فقطعهم خيالة القطلانيين قطعا وتغلبوا على أطيقه و بيوطيه وتزوجوا بأرامل المقتولين وقطنوا فى الجريس

وكان اندرونيكوس أشرك ابنه ميخائيل فى الحكم معه فى المملكة وكان عمره ثمان عشرة سنة وسمى ميخائيل ابنه باسم اندرونيكوس على اسم جده واشترك معه وهو صغير السن فى السمو الامبراطورى وابتدأ ابن ميخائيل على الفور فى الانتظار مع عدم الصبر على وازالة العوائق والموانع الموجودة بينه وبين حيازته التخت بمفرده فمن موت أبيه على حين غفلة زالت واحدة من هذه الموانع الا أنه من سوء بخت اندرونيكوس الاصغر أن جده نقل الى حفيد آخر ما كان يؤمله و يتمناه فهرب الامبراطور الشاب من القسطنطينية فى سنة ١٣٢١ بعد الميلاد وأقام بيرق الحرب الداخلى على جده وكان هو وهمن العاصمة تحت علة الصيد وأقام بيرقه فى مدينة أدرنه وفى ظرف بضع أيام جمع تحته ٥٠٠٠٠ نفس من الخيالة والمشاة واستمرت الحروب الداخلية بين الامبراطور اندرونيكوس الكبير والصغير مدة سبع سنوات وكانت عبارة عن ثلاث وقائع ففى الحرب الاول عقدت معاهدة انقسمت بها بواقى المملكة الجريقية فأخذ أندرونيكوس الكبير القسطنطينية وتسالونيقه والجزائر واستحوذ الاصغر على القسم الاعظم من تراسة من مدينة فيلبى الى الحدود البيزانطية وفى الحرب الثانى عقد معاهدة شرط فيها على مرتبات عساكره وتتويجه ومشاركة جده فى شوكة المملكة ومحصولاتها وانتهى الحرب الثالث الداخلى بالهجوم على القسطنطينية فى سنة ١٣٢٨ بعد الميلاد انتصر فيه الامبراطور الشاب واعتزل اندرونيكوس الثانى الى دير من الديورة مات فيه فى سنة ١٣٣٢ بعد الميلاد

ولما صار اندرونيكوس الثالث امبراطورا بمفرده شرع بعد ذلك بقليل فى صد تقدم الاتراك فانهزم شر هزيمة وجرح فى هذا الحرب وكان أضحية لما حصل منه من الافراط فى مبادى شبابه ومات فى سنة ١٣٤١ بعد الميلاد فى السنة الخامسة والاربعين من عمره وترك ولدا اسمه يوحنا من زوجته الثانية الامبراطورة عانى أخت الكونت صاحب صافوى وكان صبيا عمره تسع سنوات فعين الامبراطور على حسب رغبته صديقه القديم المجرب وأحب الناس اليه يوحنا كنطاكوظينوس وصيا على ابنه ونائبا عنه فى الحكومة فساس فى مدة صغر الامبراطور المملكة ودبر أحوالها مع العقل والتؤدة والثبات ومن تدبيره وحزم رأيه أعاد جزائر لسبوس وامارة عطوليا الى المملكة مرة ثانية فوشى واحد من أعدائه فى حقه عند الامبراطور الشاب وعند أمه وحضهما على عزل كنطاكوظينوس من نيابته وأشيع أن هذا الوزير الماهر عدو للمملكة والكنيسة فمن بعد عزله قام بالسلاح ليعود الى الشوكة والسلطة وانتشب حرب داخلى استمر ست سنوات متوالية وفى سنة ١٣٤٣ بعد الميلاد استغاث كنطاكوظينوس بالاتراك فى آسيا لمساعدته ورخص لهم فى الدخول فى أوروبا ومن ثم تيسر لهم الحصول على وضع قدم مستمر ثابت فى أوروبا وتجزأت من هذا الوقت المملكة الجريقية ولما ساعد الاتراك كنطاكوظينوس التزم الامبراطور الشاب على الانقياد والتسليم وعاد يوحنا كنطاكوظينوس الى القسطنطينية مظفرا منصورا وجلس على التخت باسم يوحنا الخامس وقرر أن ابن اندرونيكوس يكون رفيقاله فى المملكة ولقبه يوحنا السادس وسعى يوحنا السادس مرتين فى خلع رفيقه المهول بالقوة الجبرية فانهزم فى كل مرة سعى فيها ثم هرب أخيرا الى اللاتنيين فى جزيرة طندوس وجعلها مأوى له وأوقف يوحنا الخامس هذه المنازعات بخلعه الامبراطور الشاب وأشرك معه فى الحكومة ابنه متى وجعل خلافة التخت فى عائلته فتولد من ذلك ثورة وتعاضد يوحنا السادس بالعساكر الجنويزية وعاد الى تخت آبائه واعتزل كنطاكوظينوس

الى

الى خطيرة من الخطأ فعاش متعبدا فيها مابقى من حياته فى سنة ١٣٥٥ بعد الميلاد
وكانت سلطنة كنطا كوظينوس مشحونة بالقلاقل والارتباكات كسلطنة سلفه وحدث فى أثنائها حروب مهولة بين الجنويزيين والفنيزيين والبزانيين من أجل احتكار تجارة المشرق وصار الامبراطور لاطاقة له على الزامهم بعقد صلح بينهم وانتشبت عدة محاربات دموية بين القوى الامبراطورية والفنيزيين وبين الجنويز فكان الجنويز هم الفائزين فى هذه الوقائع وأرغموا كنطا كوظينوس على كونه يوقع على معاهدة مهينة ربط فيها نفسه على طرد الفنيزيين من القسطنطينية والرخصة للجنويزيين رعيتهم فى احتكار التجارة فلولم تكن شوكة هذه الجمهورية انكسرت بما حصل فيهما من الارتباكات الداخلية لكانت القسطنطينية صارت تبعة لجنويز وتواستمرت هذه القلاقل مدة من القسم الاول من سلطنة يوحنا السادس الذى عاد جلوسه على التخت الى حد سنة ١٣٩١ بعد الميلاد ثم ابتدأ نزول البلاء وتساقطت الاهوال والمصائب على المملكة وذلك ان الاتراك الذين سمح لهم يوحنا كنطا كوظينوس بالدخول فى أوروبا استحوذوا لانفسهم على مدينة أدرنه فى تراسة وجعلوها عاصمة لهم وعوّلوا مع شدة العزم على مد مملكتهم فى أوروبا الى حد بوغاز الهلسبون أوالدردانيل وصارت الغلبة على القسطنطينية قضية وقتية وعاملوا الامبراطورات الجريقية معاملة عبيد لهم وكان لاطاقة لهؤلاء الامبراطورات على مقاومة مثل هؤلاء الاشداء فالتزموا البقاء كالمتفرجين بدون مساعد لهم على خراب مملكتهم ولما اكتشف بايزيد على ثورة وقعت من ابنه فى حقه سمل عينيه وكان يوحنا ابن الامبراطور الجريقى داخلا فى هذه الثورة فصمم بايزيد على خلع ابنه وطلب من الامبراطور بالحدة والغضب تنفيذ مثل هذا العقاب على ابنه يوحنا أيضا فالتزم الامبراطور على الطاعة والانقياد لما صدر من بايزيد
ومات يوحنا السادس وخلفه ابنه الثانى منويل فى سنة ١٣٩١ بعد الميلاد فدخل بايزيد فى الحال وحضن أمر يوحنا البرنس الاعمى فترك منويل القسطنطينية وسار مسرعا الى فرنسا فى البحث على مساعدته وترك الاعمى جالسا على التخت وكان بايزيد لايخفى مافى ضميره من القصد فادعى ان القسطنطينية مدينته فلم يقبل يوحنا قوله فحاصر بايزيد القسطنطينية وأجهد أهلها بوقوع الحصار والقحط فيهم حتى صارت القسطنطينية على شرف السقوط لولا أن تداركها طلب بايزيد فى نواحى آسيا للمدافعة عن ممالكه من تيمور العدو المغرور وكان أقوى شوكة من بايزيد
وتولد من انسحاب بايزيد ورفع حصاره عن القسطنطينية استمرار المملكة الجريقية لحظة من الزمن فانتهز الامبراطور منويل الفرصة فى زيارته دول أوروبا الغربية من أجل عقد علاقات الاتحاد والارتباط فى أمر المساعدة فما وجد أحدا من ملوك أوروبا دخل فى شرط المساعدة له وجاء عقب موت بايزيد مشاحنات وحروب بين أولاده وتولد منها منع الترك عن الاجتهاد فى اتحاد قواهم على القسطنطينية ثم ان يوحنا باليولوغوس الثانى ابن منويل وخليفته وكان جلس على التخت فى سنة ١٤٢٥ بعد الميلاد صرف النظر بفكره الثاقب عن العداوة والبغضاء المختصة بالديانة وكانت عداوة الديانة سيما فى تقسيم العالم المسيحى مدة طويلة وطلب البابا بزيارته فى ايطاليا الممارسة فى اصلاح المواد المتعلقة بهذه المادة فزار فى سنة ١٤٣٨ بعد الميلاد مدينة فرارو وكان بها مجلس مشكل يختص بالكنيسة اللاتينية وطلب البابا اوغينوس التئام مجلس فى مدينة فلورنسه وفى شهر يوليه من سنة ١٤٣٨ أعلن رسميا بانضمام الكنيسة الجريقية الى الكنيسة اللاتينية وكان هذا الانضمام بسعى وشغل من الامبراطور وما كان

للامة الجريقية دخل ولا اشتراك فيه ولا محبة له فكان هذا الشغل من أجل فوران الحمية وتوطيد مساعدة العالم المسيحي له في مساعيه بخصوص بقاء تخته وحفظه من اغارات الترك وفي الايام الاخيرة من أيام المملكة حين كان الامن والراحة مستتبين عند الجريق كانت امبراطوراتهم مكدة وساعية في عدم وقوع أدنى ارتباك يتسبب منه انفصال الكنائس الشرقية من الكنائس الغربية الا أن مشروعات هذه الاعمال ما كانت على أساسات ثابتة وما تولد منها جذور غزيرة وصمم الجريق على عدم قبولهم سلطة البابا وأما البابا نفسه فما كان عنده تقصير في شمول الرفاهية واستتباب الامن والراحة عند اخوانه من الجريقيين واجتهد في قيام ملوك الغرب لمساعدتهم الا أن عوغينوس وجد أن الشغل الذي كان تم وكمل من مدة أربعة قرون مضت بفصاحة وبلاغة واحد من الزهاد لزم له الآن بذل القوة الباباوية وما تداخلت الانكليز ولا فرانسا ولا جرمانيا في هذه المسئلة بل دخل فيها هنكاريا وبولنده فكان هذان يباشران حركات الاعمال النافعة لهما في عدم وقوع خطر مستمر عليهما من اغارات الترك فأجابا (هنكاريا وبولنده) طلب البابا مع الرضا وتتوج لادسلوس بتاج المملكتين وجمعت اللوم والعساكر من الممالك الاخر بكنوز لا تحصر وغفران وعفو بواسطة نواب أرسلوا اليهما من طرف البابا فاجتمع لذلك جيش مقداره ١٠٠٠٠٠ نفس تحت قيادة يوحنا هونيادس أحد شجعان العسكرية في عصره وعقدت محالفة مع سلطان كرمانيا في آسيا وجمع أسطول من بورغندي وجنويز وفنيزيا فنال أهل الصليب في الابتداء بعض فوائد ومظفرات الا أن جيشهم قل عدده وأخيرا هزمهم السلطان مراد الثاني شر هزيمة وقتل لادسلوس في واقعة وارنه سنة ١٤٤٤ بعد الميلاد

وفي سنة ١٤٥١ بعد الميلاد خلف محمد الثاني أباه مراد الثاني على التخت العثماني فمع أنه وطد للامبراطور الجريقي صداقته له الا أنه شرع في مدة سلطنته بتحصينه بوغاز الهلسبون أي الدردانيل فتولد من ذلك هياج حرب بين المملكتين وفي فصل ربيع سنة ١٤٥٣ بعد الميلاد حاصر جيش تركي مقداره ٢٥٨٠٠٠ نفس مدينة القسطنطينية ومن بعد مضي ثلاثة وخمسين يوما من الحصار فتحت المدينة عنوة وتغلب عليها الترك وكان آخر ملوكها قسطنطين الثالث عشر ومن بعد أن دافع عن عاصمته مع الشجاعة والبسالة مات والسيف في يده مكدا في صد الهجوم الاخير واستعمل الترك في هذا الحصار المدافع وكانت مرعية في هذا الوقت بانها من أهم التطقيمات العسكرية لاي جيش كان الا أنها ما كانت استعملت في أعمال مهمة مثل هذه قبل وجعل محمد الثاني القسطنطينية عاصمته وعاصمة مملكته وحول كنيستها الكبرى سنت صوفيه الى مسجد جامع أطلق عليه لحد الآن اسم جامع ايه صوفيه وسنأتي على شرح ذلك جميعه مفصلا في تاريخ الدولة العثمانية بحول الله وقوته

وبسقوط القسطنطينية انقضى نحب المملكة الشرقية وأما البلاد والاراضي التي كانت باقية للامبراطورات الجريقية فان العساكر المنصورة التركية أخذتها منهم في الحال وعامل محمد الثاني الامة الجريقية بالوقار والاحترام وحفظ لهم حياتهم وحريتهم ورخص لهم باقامة شعائر ديانتهم وترك لهم نصف كنائس القسطنطينية على ذمتهم وتمتعوا ستين سنة في خير واحسان من هذا التغيير

﴿ تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث وأوله تاريخ ايطاليا ﴾

(فهرست الجزء الثانى من البحر الزاخر)

﴿ تمت ﴾

﴿ بيان الخطا الواقع فى هذا الكتاب وصوابه ﴾

صحيفه	سطر	خطـــا	صـــواب
٣٥	٩	استحوذن	استحوذ
٣٥	١٠	قرو	قرون
٥٣	١٢	وانخراب	والخراب
٥٤	٢	أولاده أولاده	وأولادأولاده
٧٣	١٠	الاولمبيا	الاولمبياد
٨١	٢٣	استارية	استادية
٨٢	١٦	الممكة	المملكة
٩٣	١	اكروبولى	اكروبوليس
٢٠٥	٣٠	ثلثمائة	مائتان
٢٠٥	٣٣	٣٤٤	٢٤٤
٢٠٩	٣٢	بتلقيح	بتنقيح
٢١٧	٣٠	وقوعبت	وعوقبت
٢٣٥	١٥	الاما	الامة
٢٦٨	١٢	الاسندرية	الاسكندرية
٢٩٥	٢٩	وكلامن سيكوس	وكلاسيكوس
٣٠٤	٢٣	الحيدو	الجميدو
٣٠٤	٢٩	كذلك	كل ذلك
٣١٠	٢٢	ديسمبر	ريسمر
٣٣١	١٣	العد	العدو
٣٤٦	٢٣	امبراطوارة	امبراطورة
٣٤٦	٢٧	امبراطوارا	امبراطورا
٣٥٧	٣٣	وندميته	ونديمته